فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

محمد بن علي بن محمد الشوكاني

(١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ)

طبعة جديدة مصححة ومنقحة

الجزء الرابع

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

دار الكلم الطيب
دمشق - بيروت

فتح القدير

بسم الله الرحمن الرحیم

فتح القدير: الجامع بين فنى الروايه والدرايه من علم التفسير

كاتب:

محمدبن على بن محمد الشوكانى

نشرت فى الطباعة:

بى جا

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

فتح القدير: الجامع بين فنى الروايه والدرايه من علم التفسير المجلد ۴

اشارهٔ

سرشناسه : شوکانی، محمدبن علی، ق ۱۲۵۰ - ۱۱۷۳

عنوان و نام پدیدآور : فتح القدیر: الجامع بین فنی الروایه والدرایه من علم التفسیر/ تالیف محمدبن علی بن محمد الشوکانی؛ راجعه و علق علیه هشام النجاری خضر عکاری

مشخصات نشر : بیروت : المکتبه المصریه: [بی‌جا]: مکتبه العبیکان ، ۱۴۱۸ق. = ۱۹۹۷م = ۱۳۷۶.

مشخصات ظاهری : ج ۵

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : چاپ قبلی: مصطفی البابی الحلبی، ۱۳۵۱

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر

موضوع : تفاسیر اهل سنت

موضوع : تفاسیر شیعه

شناسه افزوده : نجاری، هشام ، محقق

شناسه افزوده : عکاری، خضر، محقق

رده بندی کنگره : BP۹۱/ش۹ف۲

شماره کتابشناسی ملی : م ۸۰-۳۴۶۰۹

سورهٔ النّور

اشارهٔ

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير قالا: أنزلت سورهٔ النور بالمدينهٔ. و أخرج الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن عائشهٔ مرفوعا: «لا تنزلوهنّ الغرف و لا تعلموهنّ الكتابهٔ»: يعنى النساء، «و علّموهنّ الغزل و سورهٔ النور». و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و البيهقى عن مجاهد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «علّموا رجالكم سورهٔ المائدهٔ، و علّموا نساءكم سورهٔ النور» و هو مرسل. و أخرج أبو عبيد فى فضائله عن حارثهٔ بن مضرب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلّموا سورهٔ النساء، و الأحزاب، و النور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

[سورهٔ النور (۲۴): الآيات ۱ الى ۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

سُورَهٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۱) الزَّانِيَهُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَهَ جَلْدَهٍ وَ لا

تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِی دِینِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ لْیَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ (٢) الزَّانِی لا یَنْكِحُ إِلاَّ زانِیَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِیَةُ لا یَنْكِحُها إِلاَّ زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ (٣)

السورة فی اللغة: اسم للمنزلة الشریفة، و لذلك سمیت السورة من القرآن: سورة، و منه قول زهیر «١»:

ألم تر أنّ اللّه أعطاك سورةترى كلّ ملك دونها یتذبذب

أی: منزلة، قرأ الجمهور سُورَةٌ بالرفع و فیه وجهان: أحدهما: أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف، أی: هذه سورة، و رجحه الزجاج و الفراء و المبرد، قالوا: لأنها نكرة، و لا یبتدأ بالنكرة فی كل موضع.

و الوجه الثانی: أن یكون مبتدأ و جاز الابتداء بالنكرة لكونها موصوفة بقوله: أَنْزَلْناها و الخبر الزَّانِیَةُ وَ الزَّانِی و یكون المعنی: السورة المنزلة المفروضة: كذا و كذا، إذ السورة عبارة عن آیات مسرودة لها مبدأ و مختم، و هذا معنی صحیح، و لا وجه لما قاله الأولون من تعلیل المنع من الابتداء بها كونها نكرة، فهی نكرة مخصصة بالصفة، و هو مجمع علی جواز الابتداء بها. و قیل: هی مبتدأ محذوف الخبر علی تقدیر: فیما أوحینا إلیك سورة، و ردّ بأن مقتضی المقام بیان شأن هذه السورة الكریمة، لا بیان أن فی جملة ما أوحی إلی النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم سورة شأنها: كذا و كذا. و قرأ الحسن بن عبد العزیز، و عیسی الثقفی، و عیس الكوفی، و مجاهد، و أبو حیوة، و طلحة بن مصرف بالنصب، و فیه أوجه: الأوّل: أنها منصوبة بفعل مقدّر غیر مفسر بما بعده، تقدیره: اتل سورة، و الثانی: أنها منصوبة بفعل مضمر یفسره ما بعده علی ما قیل فی باب اشتغال الفعل عن الفاعل بضمیره، أی: أنزلنا سورة أنزلناها، فلا محل لأنزلناها هاهنا لأنها جملة مفسرة، بخلاف الوجه الذی قبله فإنها فی محل نصب علی أنها صفة لسورة. الوجه الثالث: أنها منصوبة علی الإغراء، أی: دونك سورة،

---

(١). البیت للنابغة الذّبیانی، علی خلاف ما جاء فی الأصل.

قاله صاحب الكشاف. ورده أبو حیان بأنه لا یجوز حذف أداة الإغراء. الرابع: أنها منصوبة علی الحال من ضمیر أنزلناها، قال الفراء: هی حال من الهاء و الألف و الحال من المكنی یجوز أن تتقدّم علیه، و علی هذا فالضمیر فی أنزلناها لیس عائدا علی سورة، بل علی الأحكام، كأنه قیل: أنزلنا الأحكام حال كونها سورة من سور القرآن. قرأ ابن كثیر و أبو عمرو وَ فَرَضْناها بالتشدید، و قرأ الباقون بالتخفیف. قال أبو عمرو: فرّضناها بالتشدید، أی: قطعناها فی الإنزال نجما نجما، و الفرض القطع، و یجوز أن یكون التشدید للتكثیر أو للمبالغة، و معنی التخفیف أوجبناها و جعلناها مقطوعا بها، و قیل: ألزمناكم العمل بها، و قیل:

قدّرنا ما فیها من الحدود، و الفرض: التقدیر، و منه إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْكَ الْقُرْآنَ «١» وَ أَنْزَلْنا فِیها آیاتٍ بَیِّناتٍ أی: أنزلنا فی غضونها و تضاعیفها، و معنی كونها بینات: أنها واضحة الدلالة علی مدلولها، و تكریر أنزلنا لكمال العنایة بإنزال هذه السورة، لما اشتملت علیه من الأحكام الزَّانِیَةُ وَ الزَّانِی هذا شروع فی تفصیل ما أجمل من الآیات البینات، و الارتفاع علی الابتداء، و الخبر فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما أو علی الخبریة لسورة كما تقدّم، و الزنا: هو وطء الرجل للمرأة فی فرجها من غیر نكاح و لا شبهة نكاح. و قیل:

هو إیلاج فرج فی فرج مشتهی طبعا محرّم شرعا، و الزانیة: هی المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبئ عنه الصیغة لا المكرهة، و كذلك الزانی، و دخول الفاء فی الخبر لتضمن المبتدأ معنی الشرط علی مذهب الأخفش، و أما علی مذهب سیبویه فالخبر محذوف، و التقدیر: فیما یتلی علیكم حكم الزانیة، ثم بین ذلك بقوله:

فَاجْلِدُوا و الجلد: الضرب، یقال: جلده إذا ضرب جلده، مثل بطنه إذا ضرب بطنه، و رأسه إذا ضرب رأسه، و قوله: مِائَةَ جَلْدَةٍ هو

حدّ الزانى الحر البالغ البكر، و كذلك الزانية، و ثبت بالسنة زيادة على هذا الجلد، و هى تغريب عام، و أما المملوك و المملوكة فجلد كلّ واحد منها خمسون جلدة لقوله سبحانه:
فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ «۲» و هذا نص فى الإماء، و ألحق بهنّ العبيد لعدم الفارق، و أما من كان محصنا من الأحرار فعليه الرجم بالسنة الصحيحة المتواترة، بإجماع أهل العلم و بالقرآن المنسوخ لفظه الباقى حكمه و هو «الشيخ و الشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة» و زاد جماعة من أهل العلم مع الرجم جلد مائة، و قد أوضحنا ما هو الحق فى ذلك فى شرحنا للمنتقى، و قد مضى الكلام فى حدّ الزنا مستوفى، و هذه الآية ناسخة لآية الحبس و آية الأذى اللتين فى سورة النساء. و قرأ عيسى بن عمر الثقفى و يحيى ابن يعمر و أبو جعفر و أبو شيبة «الزّانية و الزّانى» بالنصب، قيل: و هو القياس عند سيبويه لأنه عنده كقولك زيدا اضرب. و أما الفرّاء و المبرّد و الزجاج فالرفع عندهم أوجه، و به قرأ الجمهور. و وجه تقديم الزانية على الزانى هاهنا أن الزنا فى ذلك الزمان كان فى النساء أكثر حتى كان لهنّ رايات تنصب على أبوابهنّ ليعرفهنّ من أراد الفاحشة منهنّ. و قيل: وجه التقديم أن المرأة هى الأصل فى الفعل، و قيل: لأن الشهوة فيها أكثر و عليها أغلب، و قيل: لأن العار فيهنّ أكثر إذ موضوعهنّ الحجبة و الصيانة، فقدّم ذكر الزانية تغليظا و اهتماما.
و الخطاب فى هذه الآية للأئمة و من قام مقامهم، و قيل: للمسلمين أجمعين، لأن إقامة الحدود واجبة عليهم

---

(۱). القصص: ۸۵.

(۲). النساء: ۲۵.

جميعا، و الإمام ينوب عنهم، إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود وَ لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ يقال: رأف يرأف رأفة على وزن فعلة، و رآفة: على وزن فعالة، مثل النشأة و النشاءة، و كلاهما بمعنى:
الرقة و الرحمة، و قيل: هى أرق الرحمة. و قرأ الجمهور «رأفة» بسكون الهمزة، و قرأ ابن كثير بفتحها، و قرأ ابن جريج «رآفة» بالمد كفعالة، و معنى «فى دين اللّه» فى طاعته و حكمه، كما فى قوله: ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ «۱» ثم قال مثبتا للمأمورين و مهيجا لهم: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ* كما تقول للرجل تحضه على أمر: إن كنت رجلا فافعل كذا، أى: إن كنتم تصدّقون بالتوحيد و البعث الذى فيه جزاء الأعمال، فلا تعطلوا الحدود وَ لْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أى: ليحضره زيادة فى التنكيل بهما، و شيوع العار عليهما و إشهار فضيحتهما، و الطائفة: الفرقة التى تكون حافة حول الشى‌ء، من الطوف، و أقلّ الطائفة: ثلاثة، و قيل: اثنان، و قيل: واحد، و قيل: أربعة، و قيل: عشرة.
ثم ذكر سبحانه شيئا يختص بالزانى و الزانية، فقال: الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً.
قد اختلف أهل العلم فى معنى هذه الآية على أقوال: الأوّل: أن المقصود منها تشنيع الزنا و تشنيع أهله و أنه محرّم على المؤمنين، و يكون معنى الزانى لا ينكح: الوطء لا العقد، أى: الزانى لا يزنى إلا بزانية، و الزانية إلا بزان، و زاد ذكر المشركة و المشرك لكون الشرك أعمّ فى المعاصى من الزنا. و ردّ هذا الزجاج و قال: لا يعرف النكاح فى كتاب اللّه إلا بمعنى التزويج، و يردّ هذا الردّ بأن النكاح بمعنى الوطء ثابت فى كتاب اللّه سبحانه، و منه قوله: حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ «۲» فقد بينه النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، بأن المراد به: الوطء، و من جملة القائلين بأن معنى الزانى لا ينكح إلا زانية الزانى لا يزنى إلا بزانية سعيد بن جبير، و ابن عباس و عكرمة، كما حكاه ابن جرير عنهم، و حكاه الخطابى عن ابن عباس. القول الثانى: أن الآية هذه نزلت فى امرأة خاصة كما سيأتى بيانه فتكون خاصة بها كما قاله الخطابى. القول الثالث: أنها نزلت فى رجل من المسلمين، فتكون خاصة به قال

مجاهـد. الرابع: أنهـا نزلت فى أهل الصـفة، فتكون خاصـة بهم قاله أبو صالـح. الخامس: أن المراد بالزانى و الزانيـة المحـدودان، حكـاه الزجـاج و غيره عن الحسن قـال: و هـذا حكم من اللّه، فلا يجوز لزان محـدود أن يـتزوّج إلا محـدودة. و روى نحوه عن إبراهيم النخعى، و به قال بعض أصحاب الشافعى. قال ابن العربى: و هذا معنى لا يصح نظرا كما لم يثبت نقلا. السادس: أن الآية هذه منسوخة بقوله سبحانه وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ «٣» قال النحاس: و هـذا القول عليه أكثر العلماء. القول السابع: أن هذا الحكم مؤسـس على الغـالب، و المعنى: أن غـالب الزناة لا يرغب إلا فى الزواج بزانيـة مثله، و غالب الزوانى لا يرغبن إلا فى الزواج بزان مثلهن، و المقصود زجر المؤمنين عن نكـاح الزوانى بعـد زجرهم عن الزنـا، و هـذا أرجـح الأقوال، و سـبب النزول يشـهد له كما سيأتى.

و قد اختلف فى جواز تزوّج الرجل بامرأة قد زنى هو بها، فقال الشافعى و أبو حنيفة بجواز ذلك. و روى

---

(١). يوسف: ٧٦.

(٢). البقرة: ٢٣٠.

(٣). النور: ٣٢.

عن ابن عبـاس، و روى عن عمر و ابن مسـعود و جـابر أنه لا يجوز. قال ابن مسـعود: إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعـد ذلك فهمـا زانيـان أبـدا، و به قـال مالك، و معنى وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أى: نكاح الزوانى، لما فيه من التشبه بالفسـقة و التعرّض للتهمة و الطعن فى النسب. و قيل: هو مكروه فقط، و عبر بالتحريم عن كراهة التنزيه مبالغة فى الزجر.

و قد أخرج ابن أبى شـيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها قال: بيناها. و أخرج عبد الرزاق و عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم من طريق عبيـد اللّه ابن عبـد اللّه بن عمر: أنّ جارية لابن عمر زنت فضـرب رجليهـا و ظهرهـا، فقلت: وَ لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ قال: يا بنىّ و رأيتنى أخـذتنى بها رأفة؟ إن اللّه لم يأمرنى أن أقتلها و لا أن أجلـد رأسـها، و قد أوجعت حيث ضـربت. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قال: الطّائفة الرّجل فما فوقه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شـيبة و عبد بن حميد و أبو داود فى ناسـخه و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه و الضياء المقدسى فى المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: الزَّانِي لا يَنْكِحُ قال: ليس هـذا بالنكاح، و لكن: الجماع، لا يزنى بها حين يزنى إلا زان أو مشـرك وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يعنى الزنا. و أخرج ابن أبى شـيبة و عبـد بن حميـد عن مجاهد فى قوله: الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً قال: كنّ نساء فى الجاهليـة بغيّات، فكانت منهنّ امرأة جميلـة تـدعى أمّ جميل فكان الرجل من المسلمين يتزوّج إحـداهنّ لتنفق عليه من كسـبها، فنهى اللّه سـبحانه أن يـتزوّجهنّ أحـد من المسـلمين، و هو مرسـل. و أخرج عبـد بن حميـد عن سليمان ابن يسار نحوه مختصرا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس قال: كانت بغايا فى الجاهلية بغايا آل فلان، و بغايا آل فلان، فقال اللّه الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً الآيـة، فأحكم اللّه ذلك فى أمر الجاهليـة، و روى نحو هـذا عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن أبى شـيبة و عبـد بن حميـد عن الضـحاك فى الآيـة قال: إنما عنى بـذلك الزنا و لم يعن به التزويـج. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن سعيد بن جبير نحوه.

و أخرج ابن أبى شـيبة عن عكرمـة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى هذه الآية قال: الزانى من أهل القبلـة لا يزنى إلا بزانيـة مثله من أهل القبلة أو مشـركة من غير أهل القبلة، و الزانية من أهل القبلة لا تزنى إلا

بزان مثلها من أهل القبلة أو مشرك من غير أهل القبلة، و حرّم الزنا على المؤمنين.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد و أبو داود فى ناسخه و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن عبد اللّه بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها أمّ مهزول، و كانت تسافح و تشترط أن تنفق عليه، فأراد رجل من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يتزوّجها، فأنزل اللّه الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ و أخرج عبد بن حميد و أبو داود و الترمذى و حسنه و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: «كان رجل يقال له مرثد، يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة، و كانت امرأة بغيّ بمكة يقال لها عناق،

فتح القدير، ج‏4، ص: 9

و كانت صديقة له، و ذكر قصة و فيها: فأتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقلت: يا رسول اللّه أنكح عناقا؟ فلم يردّ عليّ شيئا، حتى نزلت الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً الآية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: يا مرثد الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فلا تنكحها» و أخرج ابن جرير عن عبد اللّه بن عمرو فى الآية قال: كنّ نساء معلومات، فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوّج المرأة منهنّ لتنفق عليه، فنهاهم اللّه عن ذلك، و أخرج أبو داود فى ناسخه و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى عن ابن عباس: أنها نزلت فى بغايا معلنات كنّ فى الجاهلية و كنّ زوانى مشركات، فحرّم اللّه نكاحهنّ على المؤمنين. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طريق شعبة مولى ابن عباس قال: كنت مع ابن عباس فأتاه رجل فقال: إنى كنت أتبع امرأة فأصبت منها ما حرّم اللّه عليّ، و قد رزقنى اللّه منها توبة فأردت أن أتزوّجها، فقال الناس: الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فقال ابن عباس: ليس هذا موضع هذه الآية، إنما كنّ نساء بغايا متعالنات يجعلن على أبوابهنّ رايات يأتيهنّ الناس يعرفن بذلك، فأنزل اللّه هذه الآية، تزوّجها فما كان فيها من إثم فعليّ. و أخرج أبو داود و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن عدى و ابن مردويه و الحاكم عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا ينكح الزّانى المجلود إلا مثله». و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن عليّ بن أبى طالب أن رجلا تزوّج امرأة، ثم إنه زنى فأقيم عليه الحدّ، فجاؤوا به إلى عليّ ففرّق بينه و بين امرأته، و قال: لا تتزوّج إلا مجلودة مثلك.

[سورة النور (24): الآيات 4 الى 10]

وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً وَ لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً وَ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَ الْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ (7) وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (8)

وَ الْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10)

قوله: وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ استعار الرمى للشتم بفاحشة الزنا لكونه جناية بالقول كما قال النابغة:

و جرح اللسان كجرح اليد و قال آخر:

رمانى بأسر كنت منه و والدى‌بريئا و من أجل الطّوىّ رمانى

و يسمى هذا الشتم بهذه الفاحشة الخاصة: قذفا، و المراد بالمحصنات: النساء، و خصهنّ بالذكر لأن قذفهنّ أشنع و العار فيهنّ

أعظم، و يلحق الرجال بالنساء فى هـذا الحكم بلا خلاف بين علماء هـذه الأمة، و قد جمعنا فى ذلك رسالة رددنا بها على بعض المتأخرين من علماء القرن الحادى عشر لما نازع فى ذلك. و قيل: إن الآية تعمّ الرجال و النساء، و التقدير: و الأنفس المحصنات، و يؤيد هذا قوله تعالى فى آية أخرى

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۰

وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ «۱» فإن البيان بكونهنّ من النساء يشعر بأن لفظ المحصنات يشمل غير النساء و إلا لم يكن للبيان كثير معنى، و قيل: أراد بالمحصنات الفروج كما قال: وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها «۲» فتتناول الآية الرجال و النساء.

و قيل: إن لفظ المحصنات و إن كان للنساء لكنها هاهنا يشمل النساء و الرجال تغليبا، و فيه أن تغليب النساء على الرجال غير معروف فى لغة العرب، و المراد بالمحصنات هنا: العفائف، و قد مضى فى سورة النساء ذكر الإحصان و ما يحتمله من المعانى. و للعلماء فى الشروط المعتبرة فى المقذوف و القاذف أبحاث مطوّلة مستوفاة فى كتب الفقه، منها ما هو مأخوذ من دليل، و منها ما هو مجرّد رأى بحت. قرأ الجمهور «و المحصنات» بفتح الصاد، و قرأ يحيى بن وثاب بكسرها. و ذهب الجمهور من العلماء أنه لا حدّ على من قذف كافرا أو كافرة.

و قال الزهرى و سعيد بن المسيب و ابن أبى ليلى: إنه يجب عليه الحدّ. و ذهب الجمهور أيضا أن العبد يجلد أربعين جلدة. و قال ابن مسعود و عمر بن عبد العزيز و قبيصة: يجلد ثمانين. قال القرطبى: و أجمع العلماء على أن الحرّ لا يجلد للعبد إذا افترى عليه لتباين مرتبتهما، و قد ثبت فى الصحيح عنه صلّى اللّه عليه و سلم أن من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحدّ يوم القيامة إلا أن يكون كما قال. ثم ذكر سبحانه شرطا لإقامة الحدّ على من قذف المحصنات فقال: ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ أى: يشهدون عليهن بوقوع الزنا منهنّ، و لفظ ثم: يدلّ على أنه يجوز أن تكون شهادة الشهود فى غير مجلس القذف، و به قال الجمهور، و خالف فى ذلك مالك. و ظاهر الآية أنه يجوز أن يكون الشهود مجتمعين و مفترقين، و خالف فى ذلك الحسن و مالك. و إذا لم تكمل الشهود أربعة كانوا قذفة يحدّون حدّ القذف. و قال الحسن و الشعبى: إنه لا حدّ على الشهود و لا على المشهود عليه، و به قال أحمد و أبو حنيفة و محمد بن الحسن. و يردّ ذلك ما وقع فى خلافة عمر رضى اللّه عنه من جلده للثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالزنا، و لم يخالف فى ذلك أحد من الصحابة رضى اللّه عنهم. قرأ الجمهور «بأربعة شهداء» بإضافة أربعة إلى شهداء، و قرأ عبد اللّه بن مسلم بن يسار و أبو زرعة بن عمرو بتنوين أربعة.

و قد اختلف فى إعراب شهداء على هذه القراءة، فقيل: هو تمييز. و ردّ بأن المميز من ثلاثة إلى عشرة يضاف إليه العدد كما هو مقرّر فى علم النحو. و قيل: إنه فى محل نصب على الحال. و ردّ بأن الحال لا يجىء من النكرة التى لم تخصّص. و قيل: إن شهداء فى محل جرّ نعتا لأربعة، و لما كان فيه ألف التأنيث لم ينصرف.

و قال النحاس: يجوز أن يكون شهداء فى موضع نصب على المفعولية، أى: لم يحضروا أربعة شهداء، و قد قوّى ابن جنى هذه القراءة، و يدفع ذلك قول سيبويه إن تنوين العدد و ترك إضافته إنما يجوز فى الشعر. ثم بين سبحانه ما يجب على القاذف فقال: فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً الجلد: الضرب كما تقدّم، و المجالدة:

المضاربة فى الجلود أو بالجلود، ثم استعير للضرب بالعصى و السيف و غيرهما، و منه قول قيس بن الخطيم:

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأنّ يدى بالسيف مخراق لاعب

و قد تقدم بيان الجلد قريبا، و انتصاب ثمانين كانتصاب المصادر، و جلدة: منتصبة على التميز، و جملة

---

(۱). النساء: ۲۴.

(۲). الأنبياء: ۹۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۱

وَ لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً معطوفة على اجلدوا، أى: فاجمعوا لهم بين الأمرين: الجلد، و ترك قبول الشهادة، لأنهم قد صاروا بالقذف غير عدول بل فسقة كما حكم اللّه به عليهم فى آخر هذه الآية. و اللام فى لهم متعلقة بمحذوف هو حال من شهادة و لو تأخرت عليها لكانت صفة لها، و معنى «أبدا»: ماداموا فى الحياة. ثم بين سبحانه حكمهم بعد صدور القذف منهم، و إصرارهم عليه، و عدم رجوعهم إلى التوبة فقال:

وَ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ و هذه جملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها، و الفسق: هو الخروج عن الطاعة و مجاوزة الحدّ بالمعصية، و جوّز أبو البقاء أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال. ثم بين سبحانه أن هذا التأييد لعدم قبول شهادتهم هو مع عدم التوبة فقال: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا و هذه الجملة فى محل نصب على الاستثناء، لأنه من موجب، و قيل: يجوز أن يكون فى موضع خفض على البدل، و معنى التوبة قد تقدّم تحقيقه، و معنى مِنْ بَعْدِ ذلِكَ من بعد اقترافهم لذنب القذف، و معنى وَ أَصْلَحُوا إصلاح أعمالهم التى من جملتها ذنب القذف و مداركة ذلك بالتوبة و الانقياد للحدّ.

و قد اختلف أهل العلم فى هذا الاستثناء هل يرجع إلى الجملتين قبله؟ و هى جملة عدم قبول الشهادة، و جملة الحكم عليهم بالفسق، أم إلى الجملة الأخيرة؟ و هذا الاختلاف بعد اتفاقهم على أنه لا يعود إلى جملة الجلد، يجلد التائب كالمصرّ، و بعد إجماعهم أيضا على أن هذا الاستثناء يرجع إلى جملة الحكم بالفسق، فمحلّ الخلاف هل يرجع إلى جملة عدم قبول الشهادة أم لا؟ فقال الجمهور: إن هذا الاستثناء يرجع إلى الجملتين، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته و زال عنه الفسق، لأن سبب ردّه هو ما كان متصفا به من الفسق بسبب القذف، فإذا زال بالتوبة بالإجماع كانت الشهادة مقبولة. و قال القاضى شريح و إبراهيم النخعى و الحسن البصرى و سعيد بن جبير و مكحول و عبد الرحمن بن زيد و سفيان الثورى و أبو حنيفة: إن هذا الاستثناء يعود إلى جملة الحكم بالفسق، لا إلى جملة عدم قبول الشهادة، فيرتفع بالتوبة عن القاذف وصف الفسق و لا تقبل شهادته أبدا. و ذهب الشعبى و الضحاك إلى التفصيل فقالا: لا تقبل شهادته و إن تاب إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته. و قول الجمهور هو الحق، لأن تخصيص التقييد بالجملة الأخيرة دون ما قبلها مع كون الكلام واحدا فى واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب، و أولوية الجملة الأخيرة المتصلة بالقيد بكونه قيدا لها لا تنفى كونه قيدا لما قبلها، غاية الأمر أن تقييد الأخيرة بالقيد المتصل بها أظهر من تقييد ما قبلها به، و لهذا كان مجمعا عليه، و كونه أظهر لا ينافى قوله فيما قبلها ظاهرا.

و قد أطال أهل الأصول الكلام فى القيد الواقع بعد جمل بما هو معروف عند من يعرف ذلك الفنّ، و الحق:

هو هذا، و الاحتجاج بما وقع تارة من القيود عائدا إلى جميع الجمل التى قبله، و تارة إلى بعضها لا تقوم به حجة و لا يصلح للاستدلال، فإنه قد يكون ذلك لدليل كما وقع هنا من الإجماع على عدم رجوع هذا الاستثناء إلى جملة الجلد. و مما يؤيد ما قررناه و يقوّيه أن المانع من قبول الشهادة، و هو الفسق المتسبب عن القذف قد زال، فلم يبق ما يوجب الردّ للشهادة.

و اختلف العلماء فى صورة توبة القاذف، فقال عمر بن الخطاب و الشعبى و الضحاك و أهل المدينة: إن

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۲

توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه فى ذلك القذف الذى وقع منه، و أقيم عليه الحدّ بسببه. و قالت فرقة منهم مالك و غيره: إن توبته تكون بأن يحسن حاله، و يصلح عمله، و يندم على ما فرط منه، و يستغفر اللّه من ذلك، و يعزم على ترك العود إلى مثله، و إن لم يكذب نفسه و لا رجع عن قوله. و يؤيد هذه الآيات و الأحاديث الواردة فى التوبة فإنها مطلقة غير مقيدة بمثل هذا القيد.

و قد أجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الذنب، و لو كان كفرا فتمحو ما هو دون الكفر بالأولى، هكذا حكى الإجماع القرطبى.
قال أبو عبيد: الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة، و ليس من رمى غيره بالزنا بأعظم جرما من مرتكب الزنا، و الزانى إذا تاب قبلت شهادته، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، و إذا قبل اللّه التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود فى مواضع من القرآن منها قوله:
إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ إلى قوله: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا «١» و لا شك أن هذا الاستثناء يرجع إلى الجميع. قال الزجاج: و ليس القاذف بأشدّ جرما من الكافر، فحقه إذا تاب و أصلح أن تقبل شهادته، قال:
و قوله: أَبَداً أى: مادام قاذفا، كما يقال: لا تقبل شهادة الكافر أبدا فإن معناه: مادام كافرا، انتهى.
و جملة فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ تعليل لما تضمنه الاستثناء من عدم المؤاخذة للقاذف بعد التوبة و صيرورته مغفورا له، مرحوما من الرحمن الرحيم، غير فاسق و لا مردود الشهادة، و لا مرفوع العدالة. ثم ذكر سبحانه بعد ذكره لحكم القذف على العموم حكم نوع من أنواع القذف، و هو قذف الزوج للمرأة التى تحته بعقد النكاح فقال: وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ أى: لم يكن لهم شهداء يشهدون بما رموهنّ به من الزنا إلا أنفسهم بالرفع على البدل من شهداء. قيل: و يجوز النصب على خبر يكن.
قال الزجاج: أو على الاستثناء على الوجه المرجوح فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ قرأ الكوفيون برفع أربع على أنها خبر لقوله: فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أى: فشهادة أحدهم التى تزيل عنه حدّ القذف أربع شهادات. و قرأ أهل المدينة و أبو عمرو أربع بالنصب على المصدر، و يكون فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ خبر مبتدأ محذوف، أى: فالواجب شهادة أحدهم، أو مبتدأ محذوف الخبر، أى: فشهادة أحدهم واجبة. و قيل:
إن أربع منصوب بتقدير: فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات و قوله: بِاللَّهِ متعلق بشهادة أو بشهادات، و جملة إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ هى المشهود به، و أصله على أنه، فحذف الجار و كسرت إن، و علق العامل عنها وَ الْخامِسَةُ قرأ السبعة و غيرهم الخامسة بالرفع على الابتداء، و خبرها أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ و قرأ أبو عبد الرحمن و طلحة و عاصم فى رواية حفص و «الخامسة» بالنصب على معنى و تشهد الشهادة الخامسة، و معنى إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ أى فيما رماها به من الزنا. قرأ الجمهور بتشديد «أن» من قوله: أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ و قرأ نافع بتخفيفها، فعلى قراءة نافع يكون اسم أن ضمير الشأن، و لعنة اللّه: مبتدأ، و عليه: خبره، و الجملة خبر أن، و على قراءة الجمهور تكون لعنة اللّه اسم أن، قال سيبويه:
لا تخفف أنّ فى الكلام و بعدها الأسماء إلا و أنت تريد الثقيلة. و قال الأخفش: لا أعلم الثقيلة إلا أجود فى

---

(١). المائدة: ٣٣- ٣٤.

العربية وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أى: عن المرأة، و المراد بالعذاب الدنيوى: و هو الحدّ، و فاعل يدرأ قوله:
أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ و المعنى: أنه يدفع عن المرأة الحدّ شهادتها أربع شهادات باللّه: أن الزوج لَمِنَ الْكاذِبِينَ وَ الْخامِسَةَ بالنصب عطفا على أربع، أى: و تشهد الخامسة كذلك قرأ حفص و الحسن و السلمى و طلحة و الأعمش، و قرأ الباقون بالرفع على الابتداء، و خبره أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ الزوج مِنَ الصَّادِقِينَ فيما رماها به من الزنا، و تخصيص الغضب بالمرأة للتغليظ عليها لكونها أصل الفجور و مادّته، و لأن النساء يكثرن اللعن فى العادة، و مع استكثار هنّ منه لا يكون له فى قلوبهنّ كبير موقع بخلاف الغضب وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ جواب لولا محذوف. قال الزجاج: المعنى و لولا فضل اللّه لنال الكاذب منهما

عذاب عظيم. ثم بين سبحانه كثير توبته على من تاب و عظيم حكمته البالغة فقال: وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ أى: يعود على من تاب إليه، و رجع عن معاصيه بالتوبة عليه و المغفرة له: حكيم فيما شرع لعباده من اللعان و فرض عليهم من الحدود.

و قد أخرج أبو داود فى ناسخه و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا قال: تاب اللّه عليهم من الفسوق، و أما الشهادة فلا تجوز، و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبى بكرة: إن تبت قبلت شهادتك. و أخرج ابن مردويه عنه قال: توبتهم إكذابهم أنفسهم، فإن أكذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: من تاب و أصلح فشهادته فى كتاب اللّه تقبل. و فى الباب روايات عن التابعين. و قصة قذف المغيرة فى خلافة عمر مروية من طرق معروفة. و أخرج البخارى و الترمذى و ابن ماجة عن ابن عباس «أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بشريك بن سحماء، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: البيّنة، و إلا حدّ فى ظهرك، فقال: يا رسول اللّه إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البيّنة؟ فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: البيّنة و إلا حدّ فى ظهرك فقال هلال: و الذى بعثك بالحقّ إنى لصادق، و لينزلنّ اللّه ما يبرّئ ظهرى من الحدّ، و نزل جبريل فأنزل عليه وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ و النبى صلّى اللّه عليه و سلم يقول: اللّه يعلم أن أحد كما كاذب فهل منكما تائب؟

ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها و قالوا إنها موجبة، فتلكأت و نكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلّج السّاقين فهو لشريك بن سحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: لولا ما مضى من كتاب اللّه لكان لى و لها شأن» و أخرج هذه القصة أبو داود الطيالسى و عبد الرزاق و أحمد و عبد ابن حميد و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس مطوّلة. و أخرجها البخارى و مسلم و غيرهما، و لم يسمّوا الرجل و لا المرأة. و فى آخر القصة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال له: «اذهب فلا سبيل لك عليها، فقال: يا رسول اللّه! مالى، قال: لا مال لك، إن كنت صدقت عليها فهو بما استحللت من فرجها، و إن كنت كذبت عليها فذاك أبعد لك منها». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن سهل ابن سعد قال: «جاء عويمر إلى عاصم بن عدىّ، فقال: سل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أ رأيت رجلا وجد مع امرأته

رجلا فقتله، أ يقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: فعاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم المسائل، فقال عويمر: و اللّه لآتينّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لأسألنه، فأتاه فوجده قد أنزل عليه، فدعا بهما فلاعن بينهما. قال عويمر: إن انطلقت بها يا رسول اللّه لقد كذبت عليها، ففارقها قبل أن يأمره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فصارت سنة للمتلاعنين، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أبصروها، فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين فلا أراه إلّا قد صدق، و إن جاءت به أحيمر كأنه و حرة فلا أراه إلّا كاذبا، فجاءت به مثل النعت المكروه» و فى الباب أحاديث كثيرة و فيما ذكرناه كفاية. و أخرج عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب و علىّ و ابن مسعود، قالوا: لا يجتمع المتلاعنان أبدا.

[سورة النور (24): الآيات 11 الى 21]

إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَ الَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ (13) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ

لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۴) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (۱۵)

وَ لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ (۱۶) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷) وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۸) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۱۹) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۲۰)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۱)

خبر إن من قوله: إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ هو عُصْبَةٌ و مِنْكُمْ صفة لعصبة، و قيل:

هو لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ و يكون عصبة بدلا من فاعل جاءوا. قال ابن عطية: و هذا أنسق فى المعنى و أكثر فائدة من أن يكون الخبر عصبة، و جملة: لا تحسبوه، و إن كانت طلبية، فجعلها خبرا يصح بتقدير كما فى نظائر ذلك، و الإفك: أسوأ الكذب و أقبحه، و هو مأخوذ من أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه. فالإفك:

هو الحديث المقلوب، و قيل: هو البهتان و أجمع المسلمون على أن المراد بما فى الآية ما وقع من الإفك على عائشة أمّ المؤمنين، و إنما وصفه اللّه بأنه إفك، لأن المعروف من حالها رضى اللّه عنها خلاف ذلك، قال الواحدى:

و معنى القلب فى هذا الحديث الذى جاء به أولئك النفر أن عائشة رضى اللّه عنها كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة و شرف النسب و السبب لا القذف، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عن وجهه، فهو إفك قبيح، و كذب ظاهر، و العصبة: هم الجماعة من العشرة إلى الأربعين، و المراد بهم هنا عبد اللّه بن أبيّ رأس المنافقين، و زيد بن رفاعة و حسان بن ثابت و مسطح بن أثاثة و حمنة بنت جحش و من ساعدهم. و قيل: العصبة

من الثلاثة إلى العشرة، و قيل: من عشرة إلى خمسة عشر، و أصلها فى اللغة: الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض، و جملة لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ إن كانت خبرا لإنّ فظاهر، و إن كان الخبر عصبة كما تقدّم فهى مستأنفة، خوطب بها النبى صلّى اللّه عليه و سلم و عائشة و صفوان بن المعطل الذى قذف مع أمّ المؤمنين و تسلية لهم، و الشرّ:

ما زاد ضرّه على نفعه، و الخير: ما زاد نفعه على ضرّه، و أما الخير الذى لا شرّ فيه فهو الجنة، و الشرّ الذى لا خير فيه فهو النار، و وجه كونه خيرا لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم، مع بيان براءة أمّ المؤمنين، و صيرورة قصتها هذه شرعا عاما لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ أى: بسبب تكلمه بالإفك وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ قرأ الحسن و الزهرى و أبو رجاء و حميد الأعرج و يعقوب و ابن أبى علية و مجاهد و عمرة بنت عبد الرحمن بضمّ الكاف. قال الفرّاء: و هو وجه جيد، لأن العرب تقول: فلان تولى عظيم كذا و كذا: أى أكبره، و قرأ الباقون بكسرها. قيل: هما لغتان، و قيل: هو بالضم معظم الإفك، و بالكسر البداءة به، و قيل: هو بالكسر الإثم. فالمعنى: إن الذى تولى معظم الإفك من العصبة له عذاب عظيم فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما.

و اختلف فى هذا الذى تولى كبره من عصبة الإفك من هو منهم؟ فقيل: هو عبد اللّه بن أبيّ، و قيل:

هو حسان، و الأوّل: هو الصحيح. و قد روى محمد بن إسحاق و غيره أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم جلد فى الإفك رجلين و امرأة، و هم: مسطح بن أثاثة و حسان بن ثابت و حمنة بنت جحش. و قيل: جلد عبد اللّه بن أبيّ و حسان ابن ثابت و حمنة بنت جحش، و لم يجلد مسطحا، لأنه لم يصرح بالقذف، و لكن كان يسمع و يشيع من غير تصريح. و قيل: لم يجلد أحدا منهم. قال

القرطبى: المشهور من الأخبار و المعروف عند العلماء أن الذين حدّوا: حسان و مسطح و حمنة، و لم يسمع بحدّ لعبد اللّه بن أبيّ، و يؤيد هذا ما فى سنن أبى داود عن عائشة، قالت: لما نزل عذرى، قام النبى صلّى اللّه عليه و سلم فذكر ذلك و تلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين و المرأة فضربوا حدّهم، و سماهم: حسان، و مسطح بن أثاثة، و حمنة بنت جحش.
و اختلفوا فى وجه تركه صلّى اللّه عليه و سلم لجلد عبد اللّه بن أبيّ، فقيل: لتوفير العذاب العظيم له فى الآخرة، و حدّ من عداه ليكون ذلك تكفيرا لذنبهم كما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلم فى الحدود أنه قال: «إنّها كفّارة لمن أقيمت عليه» و قيل: ترك حدّه تألفا لقومه و احتراما لابنه، فإنه كان من صالحى المؤمنين و إطفاء لثائرة الفتنة، فقد كانت ظهرت مباديها من سعد بن عبادة و من معه كما فى صحيح مسلم. ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و من معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات فقال: لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً لولا: هذه هى التحضيضية تأكيدا للتوبيخ و التقريع و مبالغة فى معاتبتهم، أى: كان ينبغى للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم، فهو فى أمّ المؤمنين أبعد. قال الحسن: معنى بأنفسهم: بأهل دينهم، لأن المؤمنين كنفس واحدة ألا ترى إلى قوله: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «١» قال الزجاج: و لذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضا إنهم يقتلون

---

(١). النساء: ٢٩.

أنفسهم. قال المبرّد و مثله قوله سبحانه فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «١» قال النحاس: بأنفسهم: بإخوانهم، فأوجب اللّه سبحانه على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا و يذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه و يكذبوه.
قال العلماء: إن فى الآية دليلا على أن درجة الإيمان و العفاف لا يزيلها الخبر المحتمل و إن شاع وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ أى: قال المؤمنون عند سماع الإفك: هذا إفك ظاهر مكشوف، و جملة لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ من تمام ما يقوله المؤمنون، أى: و قالوا هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا: فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ أى: الخائضون فى الإفك عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ أى:
فى حكم اللّه تعالى هم الكاذبون الكاملون فى الكذب وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ هذا خطاب للسامعين، و فيه زجر عظيم وَ لَوْ لا هذه: هى لامتناع الشىء لوجود غيره لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ أى: بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، يقال: أفاض فى الحديث، و اندفع و خاض.
و المعنى: لولا أنى قضيت عليكم بالفضل فى الدنيا بالنعم التى من جملتها الإمهال، و الرحمة فى الآخرة بالعفو، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم به من حديث الإفك. و قيل: المعنى: لولا فضل اللّه عليكم لمسكم العذاب فى الدنيا و الآخرة معا، و لكن برحمته ستر عليكم فى الدنيا و يرحم فى الآخرة من أتاه تائبا. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ الظرف منصوب بمسكم أو بأفضتم، قرأ الجمهور «إذ تلقونه» من التلقى، و الأصل: تتلقونه فحذف إحدى التاءين. قال مقاتل و مجاهد: المعنى يرويه بعضكم عن بعض. قال الكلبى: و ذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول: بلغنى كذا و كذا و يتلقونه تلقيا. قال الزجاج: معناه: يلقيه بعضكم إلى بعض.
و قرأ محمد بن السميقع بضم التاء و سكون اللام و ضم القاف، من الإلقاء، و معنى هذه القراءة واضح. و قرأ أبيّ و ابن مسعود «تتلقونه» من التلقى، و هى كقراءة الجمهور: و قرأ ابن عباس و عائشة و عيسى بن عمر و يحيى بن يعمر و زيد بن علىّ بفتح التاء و كسر اللام و ضم القاف و هذه القراءة مأخوذة من قول العرب ولق يلق و لقا: إذا كذب. قال ابن سيده: جاءوا بالمتعدّى شاهدا

على غير المتعدّى. قال ابن عطية: و عندى أنه أراد يلقون فيه فحذف حرف الجرّ فاتصل الضمير. قال الخليل و أبو عمرو: أصل الولق الإسراع، يقال جاءت الإبل تلق، أى: تسرع، و منه قول الشاعر:

لمّا رأوا جيشا عليهم قد طرقجاءوا بأسراب من الشّأم ولق

إنّ الحصين زلق و زمّلقجاءت به عنس «٢» من الشّأم تلق

قال أبو البقاء: أى يسرعون فيه قال ابن جرير: و هذه اللفظة أى تلقونه على القراءة الأخيرة مأخوذة من الولق، و هو الإسراع بالشيء بعد الشيء كعدد فى إثر عدد، و كلام فى إثر كلام، و قرأ زيد بن أسلم و أبو جعفر «تألقونه» بفتح التاء و همزة ساكنة و لام مكسورة و قاف مضمومة من الألق و هو الكذب، و قرأ يعقوب «تيلقونه» بكسر التاء من فوق بعدها ياء تحتية ساكنة و لام مفتوحة و قاف مضمومة، و هو مضارع

---

(١). البقرة: ٥٤.

(٢). العنس: الناقة القوية.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ١٧

ولق بكسر اللام، و معنى وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ أن قولهم هذا مختصّ بالأفواه، من غير أن يكون واقعا فى الخارج معتقدا فى القلوب، و قيل: إن ذكر الأفواه للتأكيد كما فى قوله: «يطير بجناحيه» «١» و نحوه، و الضمير فى تحسبونه راجع إلى الحديث الذى وقع الخوض فيه، و الإذاعة له وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً أى: شيئا يسيرا لا يلحقكم فيه إثم، و جملة وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ فى محل نصب على الحال، أى:

عظيم ذنبه و عقابه وَ لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا هذا عتاب لجميع المؤمنين، أى:

هلا إذ سمعتم حديث الإفك قلتم تكذيبا للخائضين فيه المفترين له ما ينبغى لنا و لا يمكننا أن نتكلم بهذا الحديث و لا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه، و معنى قوله: سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ التعجب من أولئك الذين جاءوا بالإفك، و أصله التنزيه للّه سبحانه، ثم كثر حتى استعمل فى كلّ متعجب منه، و البهتان: هو أن يقال فى الإنسان ما ليس فيه، أى: هذا كذب عظيم لكونه قيل فى أمّ المؤمنين رضى اللّه عنها، و صدوره مستحيل شرعا من مثلها. ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا فى الإفك فقال: يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً أى:

ينصحكم اللّه، أو يحرّم عليكم، أو ينهاكم كراهة أن تعودوا، أو من أن تعودوا، أو فى أن تعودوا لمثل هذا القذف مدّة حياتكم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى عدم الوقوع فى مثله ما دمتم، و فيه تهييج عظيم و تقريع بالغ وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ فى الأمر و النهى لتعملوا بذلك و تتأدبوا بآداب اللّه و تنزجروا عن الوقوع فى محارمه وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بما تبدونه و تخفونه حَكِيمٌ فى تدبيراته لخلقه. ثم هدّد سبحانه القاذفين و من أراد أن يتسامع الناس بعيوب المؤمنين و ذنوبهم فقال: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا أى: يحبون أن تفشوا الفاحشة و تنتشر، من قولهم شاع الشى‏ء يشيع شيوعا و شيعا و شيعانا: إذا ظهر و انتشر، و المراد بالذين آمنوا: المحصنون العفيفون، أو: كلّ من اتصف بصفة الإيمان، و الفاحشة: هى فاحشة الزنا أو القول السّيّئ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا بإقامة الحدّ عليهم وَ الْآخِرَةِ بعذاب النار وَ اللَّهُ يَعْلَمُ جميع المعلومات وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ إلا ما علمكم به و كشفه لكم و من جملة ما يعلمه اللّه عظم ذنب القذف، و عقوبة فاعله وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ هو تكرير لما تقدّم تذكيرا للمنة منه سبحانه على عباده بترك المعاجلة لهم وَ أَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ و من رأفته بعباده أن لا يعاجلهم بذنوبهم، و من رحمته لهم أن يتقدّم إليهم بمثل هذا الإعذار و الإنذار و جملة: و أن اللّه رؤوف رحيم معطوفة على فضل اللّه، و جواب لولا

محذوف لدلالة ما قبله عليه، أى: لعاجلكم بالعقوبة يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ الخطوات: جمع خطوة، و هى ما بين القدمين، و الخطوة بالفتح: المصدر، أى: لا تتبعوا مسالك الشيطان و مذاهبه و لا تسلكوا طرائقه التى يدعوكم إليها. قرأ الجمهور «خطوات» بضم الخاء و الطاء، و قرأ عاصم و الأعمش بضم الخاء و إسكان الطاء وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ قيل: جزاء الشرط محذوف أقيم مقامه ما هو علة له، كأنه قيل: فقد ارتكب الفحشاء و المنكر لأن دأبه أن يستمرّ آمرا لغيره بهما، و الفحشاء: ما أفرط قبحه، و المنكر: ما ينكره الشرع، و ضمير إنه: للشيطان، و قيل: للشأن، و الأولى

---

(١). الأنعام: ٣٨.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ١٨

أن يكون عائدا إلى من يتبع خطوات الشيطان، لأن من اتبع الشيطان صار مقتديا به فى الأمر بالفحشاء و المنكر وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ قد تقدّم بيانه و جواب لولا هو قوله: ما زَكى‏ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً أى: لولا التفضل و الرحمة من اللّه ما طهر أحد منكم نفسه من دنسها مادام حيا. قرأ الجمهور «زكى» بالتخفيف، و قرأ الأعمش و ابن محيصن و أبو جعفر بالتشديد أى: ما طهّره اللّه. و قال مقاتل، أى: ما صلح.

و الأولى: تفسير زكى بالتطهر و التطهير، و هو الذى ذكره ابن قتيبة. قال الكسائى: إن قوله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ معترض، و قوله: ما زَكى‏ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً جواب لقوله أوّلا و ثانيا: و لولا فضل اللّه. و قراءة التخفيف أرجح لقوله: وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ أى: من عباده بالتفضل عليهم و الرحمة لهم وَ اللَّهُ سَمِيعٌ لما يقولونه عَلِيمٌ بجميع المعلومات و فيه حثّ بالغ على الإخلاص، و تهييج عظيم لعباده التائبين، و وعيد شديد لمن يتبع الشيطان و يحبّ أن تشيع الفاحشة فى عباد اللّه المؤمنين، و لا يزجر نفسه بزواجر اللّه سبحانه.

و قد أخرج البخارى و مسلم و أهل السنن و غيرهم حديث عائشة الطويل فى سبب نزول هذه الآيات بألفاظ متعدّدة و طرق مختلفة. حاصله أن سبب النزول هو ما وقع من أهل الإفك الذين تقدّم ذكرهم فى شأن عائشة رضى اللّه عنها، و ذلك أنها خرجت من هودجها تلتمس عقدا لها انقطع من جزع، فرحلوا و هم يظنون أنها فى هودجها، فرجعت و قد ارتحل الجيش و الهودج معهم، فأقامت فى ذلك المكان و مرّ بها صفوان بن المعطل، و كان متأخرا عن الجيش، فأناخ راحلته و حملها عليها؛ فلما رأى ذلك أهل الإفك قالوا ما قالوا، فبرأها اللّه مما قالوه. هذا حاصل القصة مع طولها و تشعب أطرافها فلا نطول بذكر ذلك. و أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و أهل السنن الأربع و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن عائشة قالت: لما نزل عذرى قام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على المنبر فذكر ذلك و تلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين و امرأة فضربوا حدّهم. قال الترمذى: هذا حديث حسن. و وقع عند أبى داود تسميتهم: حسان بن ثابت، و مسطح بن أثاثة، و حمنة بنت جحش. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: الذين افتروا على عائشة عبد اللّه بن أبيّ بن سلول و مسطح و حسان و حمنة بنت جحش. و أخرج البخارى و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن الزهرى قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال الذى تولى كبره منهم علىّ، فقلت:

لا، حدثنى سعيد بن المسيب و عروة ابن الزبير و علقمة بن وقاص و عبد اللّه بن عتبة بن مسعود كلهم سمع عائشة تقول: الذى تولى كبره منهم عبد اللّه بن أبىّ، قال فقال لى: فما كان جرمه؟ قلت: حدثنى شيخان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف و أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول: كان مسيئا فى أمرى. و قال يعقوب بن شيبة فى مسنده: حدّثنا الحسن بن علىّ الحلوانى. حدّثنا الشافعى، حدّثنا عمى قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال

له: يا سليمان الذى تولى كبره من هو؟ قال: عبد اللّه بن أبيّ. قال: كذبت هو عليّ. قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، فدخل الزهرى فقال: يا ابن شهاب من الذى تولى كبره؟ فقال: ابن أبيّ. قال: كذبت هو عليّ. قال: أنا أكذب؟

فتح القدير، ج‏4، ص: 19

لا أبالك، و اللّه لو نادى مناد من السماء أن اللّه قد أحلّ الكذب ما كذبت، حدّثنى عروة و سعيد و عبد اللّه و علقمة عن عائشة أن الذى تولى كبره عبد اللّه بن أبيّ و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن مسروق قال:

دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبّب «1» و قال:

حصان رزان ما تزنّ بريبةو تصبح غرثى من لحوم الغوافل

قالت: لكنك لست كذلك، قلت: تدعين مثل هذا يدخل عليك، و قد أنزل اللّه وَ الَّذِی تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ فقالت: و أيّ عذاب أشدّ من العمى؟. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن بعض الأنصار أن امرأة أبى أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا: ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال: بلى و ذلك الكذب، أ كنت أنت فاعلة يا أمّ أيوب؟

قالت: لا- و اللّه، قال: فعائشة و اللّه خير منك و أطيب، إنما هذا كذب و إفك باطل؛ فلما نزل القرآن ذكر اللّه من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك. ثم قال: لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ أى: كما قال أبو أيوب و صاحبته. و أخرج الواقدى و الحاكم و ابن عساكر عن أفلح مولى أبى أيوب أن أمّ أيوب، فذكر نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً قال: يحرّج اللّه عليكم. و أخرج البخارى فى الأدب و البيهقى فى شعب الإيمان عن عليّ بن أبى طالب قال: القائل الفاحشة، و الذى شيع بها فى الإثم سواء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ما زَكى‏ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً قال: ما اهتدى أحد من الخلائق لشى‏ء من الخير.

[سورة النور (24): الآيات 22 الى 26]

وَ لا- يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى‏ وَ الْمَساكِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (22) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ وَ الطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (26)

قوله: وَ لا يَأْتَلِ أى: يحلف وزنه يفتعل من الألية، و هى اليمين، و منه قول الشاعر:

تألّى ابن أوس حلفة ليردّنى‏إلى نسوة كأنهنّ مفايد

---

(1). جاء فى سيرة ابن هشام [3/ 306]: قال حسان بن ثابت يعتذر من الذى كان قال فى شأن عائشة رضى اللّه عنها.

فتح القدير، ج‏4، ص: 20

و قول الآخر:

قليل الألايا حافظ ليمينه‏و إن بدرت منه الألية برّت

يقال: ائتلى يأتلى إذا حلف. و منه قوله سبحانه: لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ «۱» و قالت فرقة: هو من ألوت فى كذا إذا قصرت، و منه: لم آل جهدا، أى: لم أقصر، و كذا منه قوله: لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا «۲» و منه قول الشاعر:

و ما المرء مادامت حشاشة نفسهبمدرک أطراف الخطوب و لا آل

و الأوّل: أولى بدليل سبب النزول، و هو ما سيأتى، و المراد بالفضل: الغنى و السعة فى المال أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَ الْمَساكِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أى: على أن لا يؤتوا. قال الزجاج: أن لا يؤتوا فحذف لا، و منه قول الشاعر:

فقلت يمين اللّه أبرح قاعداو لو قطعوا رأسى لديک و أوصالى

و قال أبو عبيدة: لا حاجة إلى إضمار لا و المعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان الجامعين لتلک الأوصاف، و على الوجه الآخر يكون المعنى: لا يقصروا فى أن يحسنوا إليهم و إن كانت بينهم شحناء لذنب اقترفوه، و قرأ أبو حيوة «إن تؤتوا» بتاء الخطاب على الالتفات. ثم علمهم سبحانه أدبا آخر فقال: وَ لْيَعْفُوا عن ذنبهم الذى أذنبوه عليهم و جنايتهم التى اقترفوها، من عفا الربع أى: درس، و المراد: محو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربع وَ لْيَصْفَحُوا بالإغضاء عن الجانى و الإغماض عن جنايته، و قرئ بالفوقية فى الفعلين جميعا. ثم ذكر سبحانه ترغيبا عظيما لمن عفا و صفح فقال: أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ بسبب عفوكم و صفحكم عن الفاعلين للإساءة عليكم وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير المغفرة و الرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم، فكيف لا يقتدى العباد بربهم فى العفو و الصفح عن المسيئين إليهم إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ قد مرّ تفسير المحصنات و ذكرنا الإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء فى حدّ القذف.

و قد اختلف فى هذه الآية هل هى خاصة أو عامة؟ فقال سعيد بن جبير: هى خاصة فيمن رمى عائشة رضى اللّه عنها. و قال مقاتل: هى خاصة بعبد اللّه بن أبيّ رأس المنافقين. و قال الضحاک و الكلبى: هذه الآية هى فى عائشة و سائر أزواج النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم دون سائر المؤمنين و المؤمنات، فمن قذف إحدى أزواج النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم فهو من أهل هذه الآية. قال الضحاک: و من أحكام هذه الآية أنه لا توبة لمن رمى إحدى أزواجه صلّى اللّه عليه و سلم، و من قذف غيرهنّ فقد جعل اللّه له التوبة كما تقدّم فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا «۳» و قيل: إن هذه الآية خاصة بمن أصرّ على القذف و لم يتب، و قيل: إنها تعمّ كلّ قاذف و مقذوف من المحصنات و المحصنين، و اختاره النحاس، و هو الموافق لما قرّره أهل الأصول من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و قيل: إنها

---

(۱). البقرة: ۲۲۶.

(۲). آل عمران: ۱۸.

(۳). النور: ۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۱

خاصة بمشركى مكة، لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة إنما خرجت لتفجر. قال أهل العلم:

إن كان المراد بهذه الآية المؤمنون من القذفة، فالمراد باللعنة الإبعاد، و ضرب الحدّ و هجر سائر المؤمنين لهم، و زوالهم عن رتبة العدالة، و البعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين، و إن كان المراد بها من قذف عائشة خاصة كانت هذه الأمور فى جانب عبد اللّه بن أبيّ رأس المنافقين، و إن كانت فى مشركى مكة فإنهم ملعونون فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ و المراد بالغافلات: اللاتى غفلن عن الفاحشة بحيث لا تخطر ببالهنّ و لا يفطن لها، و فى ذلک من الدلالة على كمال النزاهة و طهارة الجيب ما لم يكن فى المحصنات، و يقل: هنّ السليمات الصدور النقيات القلوب يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ هذه الجملة مقرّرة لما

قبلها مبينـة لـوقت حلول ذلـك العـذاب بهم و تعيين اليوم لزيـادة التهويـل بمـا فيه من العـذاب الـذى لاـ يحيـط به وصف. و قرأ الجمهـور «يوم تشـهد» بالفوقيـة، و اختـار هـذه القراءة: أبو حـاتم، و قرأ الأـعمش و يحيى بن وثـاب و حمزة و الكسـائى و خلف بالتحتية، و اختار هذه القراءة: أبو عبيد لأن الجارّ و المجرور قد حال بين الاسم و الفعل. و المعنى:

تشهد ألسنة بعضهم على بعض فى ذلك اليوم، و قيل: تشهد عليهم ألسنتهم فى ذلك اليوم بما تكلموا به وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بما عملوا بها فى الـدنيا، و إن اللّه سـبحانه ينطقها بالشـهادة عليهم، و المشـهود محـذوف و هو ذنوبهم التى اقترفوها، أى: تشـهد هذه عليهم بـذنوبهم التى اقترفوهـا و معاصـيهم التى عملوها يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَ أى: يوم تشـهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحـة و يعطيهم اللّه جزاءهم عليها موفرا، فالمراد بالدّين هاهنا: الجزاء، و بالحق الثابت الذى لا شك فى ثبوته. قرأ زيد بن علىّ «يـوفيهم» مخففـا من أوفى، و قرأ من عـداه بالتشديـد من وفّى. و قرأ أبو حيوة و مجاهـد «الحق» بـالرفع على أنه نعت للّه، و روى ذلك عن ابن مسعود. و قرأ الباقون بالنصب على أنه نعت لـدينهم. قال أبو عبيدة: و لولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع، ليكون نعتـا للّه عزّ و جـلّ و لتكون موافقـة لقراءة أبىّ، و ذلك أن جرير بن حازم قال: رأيت فى مصـحف أبى «يوفّيهم اللّه الحقّ دينهم». و هـذا الكلام من أبى عبيـدة غير مرضـىّ، لأنه احتـج بما هو مخالف للسواد الأعظم، و لا حجة أيضا فيه، لأنه لو صحّ أنه فى مصـحف أبىّ كـذلك جـاز أن يكـون دينهم بـدلا من الحقّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ أى: و يعلمون عنـد معـاينتهم لـذلك و وقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز أن اللّه هو الحقّ الثابت فى ذاته و صـفاته و أفعاله، المبين المظهر للأشياء كما هى فى أنفسـها، و إنما سمى سبحانه الحقّ لأن عبادته هى الحقّ دون عبادة غيره. و قيل: سمى بالحقّ، أى: الموجود لأن نقيضه الباطل و هو المعدوم.

ثم ختم سـبحانه الآيـات الواردة فى أهـل الإفـك بكلمـة جامعـة فقـال: الْخَبِيثـاتُ لِلْخَبِيثِينَ أى: الخبيثـات من النسـاء للخبيثين من الرجـال، أى: مختصـة بهم لا تتجاوزهم، و كـذا الخبيثون مختصون بالخبيثات لا يتجاوزونهن، و هكـذا قوله: وَ الطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبـاتِ قـال مجاهـد و سـعيد بن جبير و عطـاء و أكـثر المفسـرين: المعنى: الكلمـات الخبيثـات من القول للخبيـثين من الرجـال، و الخبيثون من الرجـال للخبيثـات من الكلمـات، و الكلمـات الطيبـات من القول للطيبين من الناس، و الطيبون من الناس للطيبات من الكلمات.

قال النحاس: و هذا أحسن ما قيل. قال الزجاج: و معناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال و النساء،

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۲

و لا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال و النساء، و هذا ذمّ للذين قذفوا عائشة بالخبث و مدح للذين برّؤوها.

و قيل: إن هـذه الآيـة مبنية على قوله: الزَّانِی لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً فالخبيثات: الزوانى، و الطيبات: العفائف، و كذا الخبيثون و الطيبون، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ إلى الطيبين و الطيبات، أى:

هم مبرّؤون ممـا يقوله الخبيثون و الخبيثات، و قيل: الإشارة إلى أزواج النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلم، و قيل: إلى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم و عائشة و صـفوان بن المعطل، و قيل: عائشة و صفوان فقط. قال الفراء: و جمع كما قال: فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ «۱» و المراد أخوان لَهُمْ مَغْفِرَةٌ أى: هؤلاء المبرّؤون لهم مغفرة عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ و هو رزق الجنة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يَأْتَلِ الآية، يقول:

لا يقسـموا أن لا ينفعوا أحدا. و أخرج ابن المنذر عن عائشة قالت: كان مسطح بن أثاثة ممن تولى كبره من أهل الإفك، و كان قريبا لأبى بكر و كان فى عياله، فحلف أبو بكر أن لا ينيله خيرا أبـدا، فأنزل اللّه وَ لا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ الآية، قالت: فأعاده أبو بكر إلى عياله و قال: لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا تحللتها و أتيت الـذى هو خير. و قـد روى هـذا من

طرق عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: كان ناس من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قد رموا عائشة بالقبيح و أفشوا ذلك و تكلموا فيها، فأقسم ناس من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم منهم أبو بكر أن لا يتصدّقوا على رجل تكلم بشىء من هذا و لا يصلوه، فقال: لا يقسم أولو الفضل منكم و السعة أن يصلوا أرحامهم، و أن يعطوهم من أموالهم كالذى كانوا يفعلون قبل ذلك، فأمر اللّه أن يغفر لهم و أن يعفى عنهم. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عنه فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الآية، قال: نزلت فى عائشة خاصة. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: هذه هى عائشة و أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و لم يجعل لمن فعل ذلك توبة، و جعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم التوبة، ثم قرأ وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ إلى قوله: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا «٢». و أخرج أبو يعلى و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى سعيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إذا كان يوم القيامة عرّف الكافر بعمله فجحد و خاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول: كذبوا، فيقال:

أهلك و عشيرتك، فيقول: كذبوا، فيقال: احلفوا فيحلفون، ثم يصمّتهم اللّه و تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم، ثم يدخلهم النّار». و قد روى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم من طريق جماعة من الصحابة ما يتضمن شهادة الجوارح على العصاة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله سبحانه يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَ قال: حسابهم، و كلّ شىء فى القرآن: الدين: فهو الحساب. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قرأ يومئذ يوفيهم اللّه الحقّ دينهم. و أخرج ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: الْخَبِيثاتُ قال: من الكلام لِلْخَبِيثِينَ قال:

---

(١). النساء: ١١.

(٢). النور: ۴- ۵.

من الرجال و الخبيثون من الرجال لِلْخَبِيثاتِ من الكلام وَ الطَّيِّباتُ من الكلام لِلطَّيِّبِينَ من الناس وَ الطَّيِّبُونَ من الناس لِلطَّيِّباتِ من الكلام، نزلت فى الذين قالوا فى زوجة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم ما قالوا من البهتان. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير و الطبرانى عن قتادة نحوه أيضا، و كذا روى عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن زيد فى الآية قال: نزلت فى عائشة حين رماها المنافقون بالبهتان و الفرية فبرّأها اللّه من ذلك، و كان عبد اللّه بن أبىّ هو الخبيث، فكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة و يكون لها، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم طيبا، فكان أولى أن تكون له الطيبة، و كانت عائشة الطيبة، و كانت أولى بأن يكون لها الطيب، و فى قوله: أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ قال: هاهنا برئت عائشة. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: لقد نزل عذرى من السماء، و لقد خلقت طيبة و عند طيب، و لقد وعدت مغفرة و أجرا عظيما.

[سورة النور (٢۴): الآيات ٢٧ الى ٢٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ

عَلَيْكَمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكَونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكَمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ (۲۹)

لما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا و القذف، شرع فى ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان لما فى ذلك من مخالطة الرجال بالنساء، فربما يؤدّى إلى أحد الأمرين المذكورين، و أيضا إن الإنسان يكون فى بيته و مكان خلوته على حالة لا يحبّ أن يراه عليها غيره، فنهى اللّه سبحانه عن دخول بيوت الغير إلى غاية، هى قوله: حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا و الاستئناس: الاستعلام و الاستخبار، أى: حتى تستعلموا ما فى البيت، و المعنى: حتى تعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم و تعلموا أنه قد أذن بدخولكم، فإذا علمتم ذلك دخلتم، و منه قوله: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً أى: علمتم. قال الخليل: الاستئناس: الاستكشاف، من أنس الشىء: إذا أبصره، كقوله: إِنِّى آنَسْتُ ناراً* أى: أبصرت. و قال ابن جرير: إنه بمعنى و تؤنسوا أنفسكم. قال ابن عطية: و تصريف الفعل يأبى أن يكون من أنس. و معنى كلام ابن جرير هذا أنه من الاستئناس الذى هو خلاف الاستيحاش، لأن الذى يطرق باب غيره لا يدرى أ يؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش حتى يؤذن له، فإذا أذن له استأنس، فنهى سبحانه عن دخول تلك البيوت حتى يؤذن للداخل. و قيل:

هو من الإنس، و هو أن يتعرّف هل ثم إنسان أم لا؟ و قيل: معنى الاستئناس: الاستئذان، أى: لا تدخلوها حتى تستأذنوا. قال الواحدى: قال جماعة المفسرين: حتى تستأذنوا، و يؤيده ما حكاه القرطبى عن ابن عباس و أبىّ و سعيد بن جبير أنهم قرءوا «تستأذنوا» قال مالك فيما حكاه عنه ابن وهب: الاستئناس فيما يرى و اللّه أعلم: الاستئذان، و قوله: وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها قد بينه النبى صلّى اللّه عليه و سلم كما سيأتى بأن يقول:

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴

السلام عليكم، أ أدخل؟ مرّة أو ثلاثا كما سيأتى.

و اختلفوا هل يقدّم الاستئذان على السلام أو العكس، فقيل: يقدم الاستئذان، فيقول: أ أدخل سلام عليكم، لتقديم الاستئناس فى الآية على السلام. و قال الأكثرون: إنه يقدّم السلام على الاستئذان فيقول:

السلام عليكم أ أدخل، و هو الحقّ، لأن البيان منه صلّى اللّه عليه و سلم للآية كان هكذا. و قيل: إن وقع بصره على إنسان قدّم السلام، و إلا قدّم الاستئذان ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ الإشارة إلى الاستئناس و التسليم، أى: دخولكم مع الاستئذان و السلام خير لكم من الدخول بغتة لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أن الاستئذان خير لكم، و هذه الجملة متعلقة بمقدّر، أى: أمرتم بالاستئذان، و المراد بالتذكر: الاتعاظ، و العمل بما أمروا به فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ أى: فإن لم تجدوا فى البيوت التى لغيركم أحدا ممن يستأذن عليه فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم بدخولها من جهة من يملك الإذن. و حكى ابن جرير عن مجاهد أنه قال: معنى الآية فإن لم تجدوا فيها أحدا، أى: لم يكن لكم فيها متاع، و ضعفه و هو حقيق بالضعف، فإن المراد بالأحد المذكور أهل البيوت الذين يأذنون للغير بدخولها، لا متاع الداخلين إليها وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا أى:

قال لكم أهل البيت ارجعوا فارجعوا، و لا تعاودوهم بالاستئذان مرّة أخرى، و لا تنتظروا بعد ذلك أن يأذنوا لكم بعد أمرهم لكم بالرجوع. ثم بين سبحانه أن الرجوع أفضل من الإلحاح، و تكرار الاستئذان، و القعود على الباب فقال: هُوَ أَزْكى لَكُمْ أى: أفضل «و أطهر» من التدنس بالمشاحة على الدخول لما فى ذلك من سلامة الصدر، و البعد من الريبة، و الفرار من الدناءة وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ أى لا جناح عليكم فى الدخول بغير استئذان إلى البيوت التى ليست بمسكونة.

و قد اختلف الناس فى المراد بهذه البيوت، فقال محمد بن الحنفية و قتادة و مجاهد: هى الفنادق التى فى الطرق السابلة الموضوعة لابن السبيل يأوى إليها. و قال ابن زيد و الشعبى: هى حوانيت القيساريات، قال الشعبى:

لأنـهم جاءوا ببيوعهم فجعلوهـا فيهـا، و قالوا للناس: هلمّ. و قال عطاء: المراد بها الخرب التى يـدخلها الناس للبول و الغائط، ففى هـذا أيضا متاع. و قيل: هى بيوت مكة. روى ذلك عن محمد بن الحنفية أيضا، و هو موافق لقول من قال: إن الناس شـركاء فيها، و لكن قد قيد سبحانه هذه البيوت المذكورة هنا بأنها غير مسكونة.

و المتاع: المنفعة عند أهل اللغة، فيكون معنى الآية: فيها منفعة لكم، و منه قوله: «و متّعوهنّ» و قولهم:

أمتع اللّه بك، و قـد فسـر الشـعبى المتاع فى كلامه المتقـدّم بالأعيان التى تباع. قال جابر بن زيد: و ليس المراد بالمتاع الجهاز، و لكن ما سواه من الحاجـة. قال النحاس: و هو حسن موافق للّغـة وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ أى: ما تظهرون و ما تخفون، و فيه وعيد لمن يتأدّب بآداب اللّه فى دخول بيوت الغير.

و قد أخرج الفريابى و ابن جرير من طريق عدّى بن ثابت عن رجل من الأنصار قال: قالت امرأة: يا رسول اللّه إنى أكون فى بيتى على الحالـة التى لا أحبّ أن يرانى عليها أحـد ولـد و لا والد، فيأتينى الأب فيدخل علىّ فكيف أصنع؟ و لفظ ابن جرير: و إنه لا يزال يدخل علىّ رجل من أهلى و أنا على تلك الحالة، فنزلت:

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۵

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاـ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ الآيـة. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى فى المصاحف و ابن منـدة فى غرائب شـعبة و الحاكم و صـححه، و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب و الضياء فى المختارة من طرق عن ابن عباس فى قوله: حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا قال: أخطأ الكاتب حتى تستأذنوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِهـا. و أخرج سعيد بن منصور و عبـد ابن حميـد و ابن جرير و الـبيهقى عن إبراهيم النخعى قـال فى مصـحف عبـد اللّه «حتى تسلموا على أهلها و تستأذنوا». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة مثله. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عبـاس قـال: الاستئنـاس: الاستئـذان. و أخرج ابن أبى شـيبة و الحكيم الترمـذى و الطبرانى و ابن مردويه و ابن أبى حاتم عن أبى أيوب قال: «قلت: يا رسول اللّه! أ رأيت قول اللّه تعالى:

حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها هذا التسليم قد عرفنا فما الاستئناس؟ قال: يتكلم الرجل بتسبيحة و تكبيرة و تحميدة و يتنحنح فيؤذن أهـل الـبيت». قـال ابن كـثير: هـذا حـديث غريب. و أخرج الطـبرانى عن أبى أيوب أن النـبى صـلّى اللّه عليه و سلم قـال: «الاستئناس: أن يدعو الخادم حتّى يستأنس أهل البيت الذين يسلّم عليهم».

و أخرج ابن سـعد و أحمـد و البخـارى فى الأـدب و أبـو داود و الترمـذى و النسـائىّ و الـبيهقى فى الشـعب من طريق كلـدة «أن صفوان بن أمية بعثه فى الفتح بلبأ و ضغابيس «۱»، و النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بأعلى الوادى، قال: فدخلت عليه و لم أسلّم و لم أستأذن، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: ارجع فقل: السّلام عليكم أ أدخل؟» قال الترمذى: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

و أخرج ابن أبى شيبة و أحمـد و البخارى فى الأدب و أبو داود و البيهقى فى السـنن من طريق ربعىّ، قال: «حدثنا رجل من بنى عامر استأذن على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و هو فى بيت، فقال: أ ألج؟

فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لخادمه: اخرج إلى هذا فعلّمه الاستئذان، فقل له: قل السّلام عليكم أ أدخل؟». و أخرج ابن جرير عن عمرو بن سعيد الثقفى نحوه مرفوعا، و لكنه قال: «إنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال لأمة له يقال لها روضة:

قومى إلى هـذا فعلّميه». و أخرج البخـارى و مسـلم و غيرهمـا عن أبى سـعيد الخـدرى قـال: كنت جالسـا فى مجلس من مجالس الأنصار فجاء أبو موسـى فزعا، فقلنا له: ما أفزعك؟ قال: أمرنى عمر أن آتيه فأتيته، فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى، فقال: ما منعك أن تأتينى؟ فقلت: قد جئت فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى، و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع» قال: لتأتينى على هذا بالبينة، فقالوا:

لا- يقوم إلا أصغر القوم، فقام أبو سعيد معه ليشهد له، فقال عمر لأبى موسى: إنى لم أتهمك، و لكن الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم شديد. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث سهل بن سعد قال: اطّلع رجل من جحر فى حجرة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و معه مدرى «٢» يحكّ بها رأسه، قال: لو أعلم أنّك تنظر لطعنت بها فى عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر. و فى لفظ: إنما جعل الإذن من أجل البصر. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير

---

(١). بلبأ و ضغابيس: اللّبأ: أول اللّبن، و الضّغابيس: صغار القثّاء.

(٢). مدرى: المدرى و المدراة: شىء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط و أطول منه يسرّح به الشعر المتلبد.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۲۶

و ابن مردويه عن أنس قال: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمرى كله فى هذه الآية، فما أدركتها، إن أستأذن على بعض إخوانى، فيقول لى ارجع، فأرجع و أنا مغتبط لقوله: وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى‌ لَكُمْ و أخرج البخارى فى الأدب و أبو داود فى الناسخ و المنسوخ و ابن جرير عن ابن عباس قال:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى‌ أَهْلِها فنسخ، و استثنى من ذلك فقال: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ

[سورة النور (٢۴): الآيات ٣٠ الى ٣١]

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى‌ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ (٣٠) وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لا- يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ- ما ظَهَرَ مِنْها وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى‌ جُيُوبِهِنَّ وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى‌ عَوْراتِ النِّساءِ وَ لا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

لما ذكر سبحانه حكم الاستئذان، أتبعه بذكر حكم النظر على العموم، فيندرج تحته غضّ البصر من المستأذن، كما قال صلّى اللّه عليه و سلم: «إنما جعل الإذن من أجل البصر» و خص المؤمنين مع تحريمه على غيرهم، لكون قطع ذرائع الزنا التى منها النظر، هم أحق من غيرهم بها، و أولى بذلك ممن سواهم. و قيل: إن فى الآية دليلا على أن الكفار غير مخاطبين بالشرعيات كما يقوله بعض أهل العلم، و فى الكلام حذف، و التقدير قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ غضوا يَغُضُّوا و معنى غضّ البصر: إطباق الجفن على العين بحيث تمتنع الرؤية، و منه قول جرير:

فغضّ الطّرف إنّك من نميرفلا كعبا بلغت و لا كلابا

و قول عنترة:

و أغضّ طرفى ما بدت لى جارتى‌حتّى يوارى جارتى مأواها

و «من» فى قوله: مِنْ أَبْصارِهِمْ هى: التبعيضية، و إليه ذهب الأكثرون، و بينوه بأن المعنى غضّ البصر عما يحرم و الاقتصار به على ما يحل. و قيل: وجه التبعيض أنه يعفى للناظر أوّل نظرة تقع من غير قصد.

و قال الأخفش: إنها زائدة و أنكر ذلك سيبويه. و قيل: إنها لبيان الجنس قاله أبو البقاء. و اعترض عليه بأنه لم يتقدّم مبهم يكون

مفسرا بمن، و قيل: إنها لابتداء الغاية. قال ابن عطية: و قيل: الغضّ النقصان، يقال:
غضّ فلان من فلان: أى: وضع منه، فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو مغضوض منه و منقوص فتكون «من» صلة للغضّ، و ليست لمعنى من تلك المعانى الأربعة. و فى هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير من يحلّ النظر إليه، و معنى وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ أنه يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم. و قيل: المراد ستر
فتح القدير، ج۴، ص: ۲۷
فروجهم عن أن يراها من لا تحلّ له رؤيتها، و لا مانع من إرادة المعنيين، فالكل يدخل تحت حفظ الفرج.
قيل: و وجه المجيء بمن فى الأبصار دون الفروج أنه موسع فى النظر فإنه لا يحرم منه إلا ما استثنى، بخلاف حفظ الفرج فإنه مضيّق فيه، فإنه لا يحلّ منه إلا ما استثنى. و قيل: الوجه أن غضّ البصر كله كالمتعذر، بخلاف حفظ الفرج فإنه ممكن على الإطلاق، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر من الغضّ و الحفظ، و هو مبتدأ، و خبره أَزْكى لَهُمْ أى: أظهر لهم من دنس الريبة و أطيب من التلبس بهذه الدنيئة إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ لا يخفى عليه شيء من صنعهم، و فى ذلك وعيد لمن لم يغضّ بصره و يحفظ فرجه وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَ خصّ سبحانه الإناث بهذا الخطاب على طريق التأكيد لدخولهنّ تحت خطاب المؤمنين تغليبا كما فى سائر الخطابات القرآنية، و ظهر التضعيف فى يغضضن و لم يظهر فى يغضوا، لأن لام الفعل من الأوّل متحرّكة و من الثانى ساكنة و هما فى موضع جزم جوابا للأمر، و بدأ سبحانه بالغضّ فى الموضعين قبل حفظ الفرج، لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج، و الوسيلة مقدّمة على المتوسل إليه، و معنى: يغضضن من أبصارهنّ كمعنى يغضوا من أبصارهم، فيستدلّ به على تحريم نظر النساء إلى ما يحرم عليهنّ، و كذلك يجب عليهنّ حفظ فروجهنّ على الوجه الذى تقدّم فى حفظ الرجال لفروجهم وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَ أى: ما يتزيّن به من الحلية و غيرها، و فى النهى عن إبداء الزينة، نهى عن إبداء مواضعها من أبدانهنّ بالأولى. ثم استثنى سبحانه من هذا النهى، فقال: إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها.
و اختلف الناس فى ظاهر الزينة ما هو؟ فقال ابن مسعود و سعيد بن جبير: ظاهر الزينة هو الثياب و زاد سعيد بن جبير الوجه. و قال عطاء و الأوزاعى: الوجه و الكفان. و قال ابن عباس و قتادة و المسور بن مخرمة:
ظاهر الزينة هو الكحل و السواك و الخضاب إلى نصف الساق و نحو ذلك، فإنه يجوز للمرأة أن تبديه. و قال ابن عطية: إن المرأة لا تبدى شيئا من الزينة و تخفى كل شيء من زينتها، و وقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة. و لا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآنى النهى عن إبداء الزينة إلا ما ظهر منها كالجلباب و الخمار و نحوهما مما على الكف و القدمين من الحلية و نحوها، و إن كان المراد بالزينة مواضعها كان الاستثناء راجعا إلى ما يشق على المرأة ستره كالكفين و القدمين و نحو ذلك. و هكذا إذا كان النهى عن إظهار الزينة يستلزم النهى عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب، فإنه يحمل الاستثناء على ما ذكرناه فى الموضعين؛ و أما إذا كانت الزينة تشمل مواضع الزينة و ما تتزين به النساء فالأمر واضح، و الاستثناء يكون من الجميع. قال القرطبى فى تفسيره:
الزينة على قسمين: خلقية، و مكتسبة؛ فالخلقية وجهها فإنه أصل الزينة، و الزينة المكتسبة ما تحاوله المرأة فى تحسين خلقها كالثياب و الحلى و الكحل و الخضاب، و منه قوله تعالى: خُذُوا زِينَتَكُمْ «۱» و قول الشاعر:
يأخذن زينتهنّ أحسن ما ترىو إذا عطلن فهنّ خير عواطل
وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَ قرأ الجمهور بإسكان اللام التى للأمر. و قرأ أبو عمرو بكسرها

---

(۱). الأعراف: ۳۱.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۲۸

على الأصل لأن أصل لام الأمر الكسر، و رويت هذه القراءة عن ابن عباس: و الخمر جمع خمار، و منه:

اختمرت المرأة و تخمرت. و الجيوب: جمع جيب، و هو موضع القطع من الدرع و القميص، مأخوذ من الجوب و هو القطع. قال المفسرون: إن نساء الجاهلية كنّ يسدلن خمرهنّ من خلفهنّ، و كانت جيوبهنّ من الأمام واسعة، فكان تنكشف نحورهنّ و قلائدهنّ، فأمرن أن يضربن مقانعهنّ على الجيوب لتستر بذلك ما كان يبدو، و في لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء الذي هو الإلصاق. قرأ الجمهور «بخمرهنّ» بتحريك الميم، و قرأ طلحة بن مصرف بسكونها. و قرأ الجمهور «جيوبهنّ» بضم الجيم، و قرأ ابن كثير و بعض الكوفيين بكسرها، و كثير من متقدمي النحويين لا- يجوّزون هذه القراءة. و قال الزجاج: يجوز أن يبدل من الضمة كسرة، فأما ما روى عن حمزة من الجمع بين الضم و الكسر، فمحال لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء، و قد فسر الجمهور الجيوب بما قدّمنا، و هو المعنى الحقيقي. و قال مقاتل: إن معنى على جيوبهنّ: على صدورهنّ، فيكون في الآية مضاف محذوف، أي: على مواضع جيوبهنّ. ثم كرر سبحانه النهي عن إبداء الزينة لأجل ما سيذكره من الاستثناء فقال: وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَ البعل: هو الزوج و السيد في كلام العرب، و قدّم البعولة لأنهم المقصودون بالزينة، و لأن كل بدن الزوجة و السرية حلال لهم، و مثله قوله سبحانه: وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* «۱» ثم لما استثنى سبحانه الزوج أتبعه باستثناء ذوي المحارم فقال: أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَ إلى قوله: أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَ فجوّز للنساء أن يبدين الزينة لهؤلاء لكثرة المخالطة و عدم خشية الفتنة لما في الطباع من النفرة عن القرائب. و قد روى عن الحسن و الحسين رضي اللّه عنهما أنهما كانا لا ينظران إلى أمهات المؤمنين، ذهابا منهما إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا في الآية التي في أزواج النبي صلّى اللّه عليه و سلم و هي قوله: لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَ و المراد بأبناء بعولتهنّ: ذكور أولاد الأزواج، و يدخل في قوله: أَوْ أَبْنائِهِنَ أولاد الأولاد و إن سفلوا، و أولاد بناتهنّ و إن سفلوا، و كذا آباء البعولة، و آباء الآباء، و آباء الأمهات و إن علوا، و كذلك أبناء البعولة و إن سفلوا، و كذلك أبناء الإخوة و الأخوات. و ذهب الجمهور إلى أن العمّ و الخال كسائر المحارم في جواز النظر إلى ما يجوز لهم، و ليس في الآية ذكر الرضاع، و هو كالنسب. و قال الشعبي و عكرمة: ليس العمّ و الخال من المحارم، و معنى أَوْ نِسائِهِنَ هنّ المختصات بهنّ الملابسات لهنّ بالخدمة أو الصحبة، و يدخل في ذلك الإماء، و يخرج من ذلك نساء الكفار من أهل الذمة و غيرهم، فلا- يحل لهنّ أن يبدين زينتهنّ لهنّ لأنهن لا- يتحرجنّ عن وصفهنّ للرجال. و في هذه المسألة خلاف بين أهل العلم، و إضافة النساء إليهن تدل على اختصاص ذلك بالمؤمنات أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ ظاهر الآية يشمل العبيد و الإماء، من غير فرق بين أن يكونوا مسلمين أو كافرين، و به قال جماعة من أهل العلم، و إليه ذهبت عائشة و أمّ سلمة و ابن عباس و مالك. و قال سعيد ابن المسيب: لا تغرّنكم هذه الآية أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ إنما عنى بها الإماء و لم يعن بها العبيد. و كان الشعبي يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته، و هو قول عطاء و مجاهد و الحسن و ابن سيرين، و روى عن

---

(۱). المؤمنون: ۵ و ۶ و المعارج: ۲۹ و ۳۰.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۲۹

ابن مسعود، و به قال أبو حنيفة و ابن جريج أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ قرأ الجمهور غير:

بالجر. و قرأ أبو بكر و ابن عامر بالنصب على الاستثناء، و قيل: على القطع، و المراد بالتابعين: هم الذين يتبعون القوم فيصيبون من طعامهم لا همة لهم إلا ذلك، و لا حاجة لهم في النساء قال مجاهد و عكرمة و الشعبي، و من الرجال في محل نصب على الحال.

و أصل الإربة و الأرب و المأربة الحاجة و الجمع مآرب، أى: حوائج، و منه قوله سبحانه: وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى «۱» و مه قول طرفة:

إذا المرء قال الجهل و الحوب «۲» و الخناتقدّم يوما ثم ضاعت مآربه

و قيل: المراد بغير أولى الإربة من الرجال الحمقى الذين لا حاجة لهم فى النساء، و قيل: البله، و قيل:

العنّين، و قيل: الخصىّ، و قيل: المخنّث، و قيل: الشيخ الكبير، و لا وجه لهذا التخصيص، بل المراد بالآية ظاهرها و هم من يتبع أهل البيت، و لا حاجة له فى النساء، و لا يحصل منه ذلك فى حال من الأحوال، فيدخل من هؤلاء من هو بهذه الصفة و يخرج من عداه أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ الطفل: يطلق على المفرد و المثنى و المجموع، أو المراد به هنا الجنس الموضوع موضع الجمع بدلالة وصفه بوصف الجمع، و فى مصحف أبىّ «أو الأطفال» على الجمع، يقال للإنسان طفل: ما لم يراهق الحلم، و معنى لم يظهروا: لم يطلعوا، من الظهور بمعنى الاطلاع، قال ابن قتيبة. و قيل معناه: لم يبلغوا حدّ الشهوة، قاله الفراء و الزجاج، يقال ظهرت على كذا: إذا غلبته و قهرته. و المعنى: لم يطلعوا على عورات النساء و يكشفوا عنها للجماع، أو لم يبلغوا حدّ الشهوة للجماع. قراءة الجمهور «عورات» بسكون الواو تخفيفا، و هى لغة جمهور العرب. و قرأ ابن عامر فى رواية بفتحها. و قرأ بذلك ابن أبى إسحاق و الأعمش. و رويت هذه القراءة عن ابن عباس، و هى لغة هذيل بن مدركة، و منه قول الشاعر الذى أنشده الفراء:

أخو بيضات رائح متأوب‌رفيق بمسح المنكبين سبوح

و اختلف العلماء فى وجوب ستر ما عدا الوجه، و الكفين من الأطفال، فقيل: لا يلزم لأنه لا تكليف عليه و هو الصحيح؛ و قيل: يلزم لأنه قد يشتهى المرأة. و هكذا اختلف فى عورة الشيخ الكبير الذى قد سقطت شهوته، و الأولى: بقاء الحرمة كما كانت، فلا يحلّ النظر إلى عورته و لا يحلّ له أن يكشفها.

و قد اختلف العلماء فى حدّ العورة. قال القرطبى: أجمع المسلمون على أن السوأتين عورة من الرجل و المرأة، و أن المرأة كلها عورة إلا وجهها و يديها على خلاف فى ذلك. و قال الأكثر: إن عورة الرجل من سرّته إلى ركبته وَ لا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَ أى: لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت ليسمع صوت خلخالها من يسمعه من الرجال فيعلمون أنها ذات خلخال. قال الزجاج: و سماع هذه الزينة أشدّ تحريكا للشهوة من إبدائها. ثم أرشد عباده إلى التوبة عن المعاصى فقال سبحانه:

---

(۱). طه: ۱۸.

(۲). الحوب: بضم الحاء و فتحها؛ الإثم. و الخنا: الفحش.

وَ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فيه الأمر بالتوبة، و لا خلاف بين المسلمين فى وجوبها و أنها فرض من فرائض الدين. و قد تقدّم الكلام على التوبة فى سورة النساء. ثم ذكر ما يرغبهم فى التوبة، فقال: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى:

تفوزون بسعادة الدنيا و الآخرة، و قيل: إن المراد بالتوبة هنا هى عما كانوا يعملونه فى الجاهلية، و الأوّل أولى لما تقرر فى السنة أن الإسلام يجبّ ما قبله.

و قد أخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال: مرّ رجل على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة و نظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به، فبينما الرجل يمشى إلى جنب حائط و هو ينظر إليها، إذ استقبله الحائط فشقّ أنفه، فقال:

و اللّه لا أغسل الدّم حتى آتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فأعلمه أمرى، فأتاه فقصّ عليه قصّته، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم:
هذا عقوبة ذنبك، و أنزل اللّه قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ قال: يعنى من شهواتهم مما يكره اللّه.
و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و الترمذى و البيهقى فى سننه عن بريدة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا تتبع النّظرة النّظرة؛ فإنّ الأولى لك و ليست لك الأخرى» و فى مسلم و أبى داود و الترمذى و النسائى عن جرير البجلى قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن نظرة الفجأة، فأمرنى أن أصرف بصرى» و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إيّاكم و الجلوس على الطرقات، قالوا: يا رسول اللّه ما لنا بدّ من مجالسنا نتحدّث فيها، فقال: إن أبيتم فأعطوا الطريق حقّه، قالوا: و ما حقّه يا رسول اللّه؟
قال: غضّ البصر، و كفّ الأذى، و ردّ السّلام، و الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر». و أخرج البخارى و أهل السنن و غيرهم عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه قال: «قلت: يا رسول اللّه عوراتنا ما نأتى منها و ما نذر؟ قال: احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك، قلت: يا نبىّ اللّه إذا كان القوم بعضهم فى بعض، قال: إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينّها، قلت: إذا كان أحدنا خاليا، قال: فاللّه أحقّ أن يستحيى منه من الناس» و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كتب اللّه على ابن آدم حظّه من الزّنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، و زنا اللسان النّطق، و زنا الأذنين السّماع، و زنا اليدين البطش، و زنا الرجلين الخطو، و النّفس تتمنى، و الفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه». و أخرج الحاكم و صححه عن حذيفة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف اللّه أثابه اللّه إيمانا يجد حلاوته فى قلبه» و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة.
و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل قال: بلغنا و اللّه أعلم أن جابر بن عبد اللّه الأنصارى حدّث أن أسماء بنت يزيد كانت فى نخل لها لبنى حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما فى أرجلهن، يعنى الخلاخل، و تبدو صدورهنّ و ذوائبهنّ، فقالت أسماء: ما أقبح هذا، فأنزل اللّه ذلك وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَ الآية؛ و فيه مع كونه مرسلا مقاتل. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن ابن

مسعود فى قوله: وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَ قال: الزينة السوار و الدملج «۱» و الخلخال و القرط و القلادة إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها قال: الثياب و الجلباب. و أخرج ابن شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: الزينة زينتان:
زينة ظاهرة و زينة باطنة لا يراها إلا الزوج، فأما الزينة الظاهرة فالثياب، و أما الزينة الباطنة فالكحل و السوار و الخاتم. و لفظ ابن جرير: فالظاهرة منها: الثياب، و ما خفى: الخلخالان، و القرطان، و السواران. و أخرج ابن المنذر عن أنس فى قوله: إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها قال: الكحل و الخاتم. و أخرج سعيد بن منصور و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى سننه عن ابن عباس وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها قال:
الكحل و الخاتم و القرط و القلادة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عنه قال: هو خضاب الكفّ و الخاتم.
و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد عن ابن عمر قال: الزينة الظاهرة الوجه و الكفان. و أخرجا عن ابن عباس قال: إلا ما ظهر منها وجهها و كفاها و الخاتم، و أخرجا أيضا عنه قال: رقعة الوجه، و باطن الكفّ. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن

المنذر و البيهقى فى سننه عن عائشة أنها سئلت عن الزينة الظاهرة قال:

القلب «٢» و الفتخ «٣»، و ضمّت طرف كمها. و أخرج أبو داود و ابن مردويه و البيهقى عن عائشة: أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى صلّى اللّه عليه و سلم و عليها ثياب رقاق، فأعرض عنها و قال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا، و أشار إلى وجهه و كفه. قال أبو داود و أبو حاتم الرازى: هذا مرسل لأنه من طريق خالد بن دريك عن عائشة و لم يسمع منها. و أخرج البخارى و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن عائشة: قالت: «رحم اللّه نساء المهاجرات الأولات لما أنزل اللّه وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَ شققن أكثف مروطهنّ فاختمرن به». و أخرج ابن جرير و الحاكم و صححه و ابن مردويه عنها بلفظ: أخذ النساء أزرهنّ فشققنها من قبل الحواشى فاختمرن بها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها و الزينة الظاهرة الوجه و كحل العينين و خضاب الكفّ و الخاتم، فهذا تظهره فى بيتها لمن دخل عليها.

ثم قال: وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَ الآية، و الزينة التى تبديها لهؤلاء قرطها و قلادتها و سوارها، فأما خلخالها و معضدها و نحرها و شعرها فإنها لا تبديه إلا لزوجها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أَوْ نِسائِهِنَ قال: هنّ المسلمات، لا تبديه ليهودية، و لا لنصرانية، و هو النحر و القرط و الوشاح، و ما يحرم أن يراه إلا محرم. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و البيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى أبى عبيدة: أما بعد، فإنه بلغنى أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فانه من قبلك عن ذلك، فإنه لا يحلّ لامرأة تؤمن باللّه و اليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلى أهل ملتها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن ابن عباس قال: لا بأس أن يرى العبد

---

(١). الدّملج: الحلّى يوضع فى العضد.

(٢). القلب: الأساور.

(٣). قال فى النهاية: الفتخ: خواتيم كبار توضع فى الأيدى و ربما فى الأرجل.

شعر سيدته. و أخرج أبو داود و ابن مردويه و البيهقى عن أنس «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم أتى فاطمة بعبد قد وهب لها و على فاطمة ثوب إذا قنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، و إذا غطّت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم ما تلقى قال: إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك و غلامك» و إسناده فى سنن أبى داود هكذا: حدّثنا محمد ابن عيسى حدّثنا أبو جميع سالم بن دينار عن ثابت عن أنس فذكره. و أخرج عبد الرزاق و أحمد عن أم سلمة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إذا كان لإحداكنّ مكاتب، و كان له ما يؤدى فلتحتجب منه»، و إسناد أحمد هكذا: حدّثنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن نبهان عن أم سلمة فذكره. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ قال: هذا الذى لا تستحى منه النساء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال: هذا الرجل يتبع القوم و هو مغفل فى عقله، لا يكترث للنساء و لا يشتهى النساء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى الآية قال: كان الرجل يتبع الرجل فى الزمان الأوّل لا يغار عليه و لا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده، و هو الأحمق الذى لا حاجة له فى النساء. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: هو المخنّث الذى لا يقوم قضيبه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و مسلم و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و

ابن مردویه و البیهقی عن عائشة قالت: «كان رجل يدخل على أزواج النبی صلّى اللّه عليه و سلم مخنّث، فكانوا يدعونه من غير أولی الإربة، فدخل النبیّ صلّى اللّه عليه و سلم يوما و هو عند بعض نسائه و هو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع، و إذا أدبرت أدبرت بثمان، قال النبیّ صلّى اللّه عليه و سلم: ألا أرى هذا يعرف ما هاهنا لا يدخلنّ عليكم» فحجبوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ لا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَ و هو أن تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال، أو يكون فی رجلها خلاخل فتحركهن عند الرجال، فنهی اللّه عن ذلک، لأنه من عمل الشيطان.

[سورة النور (۲۴): الآيات ۳۲ الى ۳۴]

وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۳۲) وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۳) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۳۴)

لما أمر سبحانه بغضّ الأبصار، و حفظ الفروج، أرشد بعد ذلک إلی ما يحلّ للعباد من النكاح الذی يكون به قضاء الشهوة، و سكون دواعی الزنا، و يسهل بعده غضّ البصر عن المحرّمات، و حفظ الفرج عما لا يحل، فقال: وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ الأيم: التی لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا، و الجمع أيامى، و الأصل أيايم، و الأيم بتشديد الياء، و يشمل الرجل و المرأة. قال أبو عمرو و الكسائی: اتفق أهل اللغة على أن الأيم

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۳

فی الأصل هی المرأة التی لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيبا. قال أبو عبيد: يقال رجل أيم و امرأة أيم، و أكثر ما يكون فی النساء، و هو كالمستعار فی الرجال، و مه قول أميّة بن أبی الصّلت:

للّه درّ بنی علیأيّم منهم و ناكح

و منه أيضا قول الآخر:

لقد إمت حتى لامنی كلّ صاحبرجاء بسلمى أن تئيم كما إمت

و الخطاب فی الآية: للأولياء، و قيل: للأزواج، و الأوّل أرجح، و فيه دليل على أن المرأة لا تنكح نفسها، و قد خالف فی ذلک أبو حنيفة.

و اختلف أهل العلم فی النكاح هل هو مباح، أو مستحب، أو واجب؟ فذهب إلی الأوّل: الشافعی و غيره، و إلى الثانی: مالک و أبو حنيفة، و إلى الثالث: بعض أهل العلم على تفصيل لهم فی ذلک، فقالوا:

إن خشی على نفسه الوقوع فی المعصية وجب عليه، و إلا فلا. و الظاهر أن القائلين بالإباحة و الاستحباب لا يخالفون فی الوجوب مع تلک الخشية، و بالجملة فهو مع عدمها سنة من السنن المؤكدة لقوله صلّى اللّه عليه و سلم فی الحديث الصحيح بعد ترغيبه فی النكاح: «و من رغب عن سنتی فليس منی» و لكن مع القدرة عليه، و على مؤنه كما سيأتی قريبا، و المراد بالأيامى هنا: الأحرار و الحرائر، و أما المماليک فقد بين ذلک بقوله: وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ قرأ الجمهور «عبادكم» و قرأ الحسن «عبيدكم» قال الفراء: و يجوز و إماءكم بالنصب بردّه على الصالحين، و الصلاح: هو الإيمان. و ذكر سبحانه الصلاح فی المماليک دون الأحرار لأن الغالب فی الأحرار الصلاح بخلاف المماليک، و فيه دليل على أن المملوک لا يزوّج نفسه، و إنما

يزوّجه مالكه. و قد ذهب الجمهور إلى أنه يجوز للسيد أن يكره عبده و أمته على النكاح. و قال مالك: لا يجوز. ثم رجع سبحانه إلى الكلام فى الأحرار فقال: إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أى لا تمتنعوا من تزويج الأحرار بسبب فقر الرجل و المرأة أو أحدهما، فإنهم إن يكونوا فقراء يغنهم اللّه سبحانه، و يتفضل عليهم بذلك. قال الزجاج: حثّ اللّه على النكاح و أعلم أنه سبب لنفى الفقر، و لا يلزم أن يكون هذا حاصلا لكل فقير إذا تزوّج، فإن ذلك مقيد بالمشيئة. و قد يوجد فى الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوّجوا. و قيل المعنى:

إنه يغنيه بغنى النفس، و قيل المعنى: إن يكونوا فقراء إلى النكاح يغنهم اللّه من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا.

و الوجه الأوّل أولى، و يدلّ عليه قوله سبحانه: وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ «١» فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك، و جملة وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ مؤكدة لما قبلها و مقرّرة لها، و المراد أن سبحانه ذو سعة لا ينقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده عليم بمصالح خلقه، يغنى من يشاء و يفقر من يشاء. ثم ذكر سبحانه حال العاجزين عن النكاح، بعد بيان جواز مناكحتهم، إرشادا لهم إلى ما هو الأولى فقال: وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً استعفّ طلب أن يكون عفيفا، أى: ليطلب العفة عن الزنا

---

(١). التوبة: ٢٨.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٣٤

و الحرام من لا يجد نكاحا، أى: سبب نكاح، و هو المال. و قيل: النكاح هنا ما تنكح به المرأة من المهر و النفقة، كاللحاف: اسم لما يلتحف به، و اللباس: اسم لما يلبس، و قيد سبحانه هذا النهى بتلك الغاية، و هى حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أى: يرزقهم رزقا يستغنون به و يتمكنون بسببه من النكاح، و فى هذه الآية ما يدل على تقييد، الجملة الأولى: و هى إن يكونوا فقراء يغنهم اللّه بالمشيئة كما ذكرنا، فإنه لو كان وعدا حتما، لا محالة فى حصوله، لكان الغنى و الزواج متلازمين، و حينئذ لا يكون للأمر بالاستعفاف مع الفقر كثير فائدة، فإنه سيغنى عند تزوّجه لا محالة، فيكون فى تزوّجه مع فقره تحصيل للغنى، إلا أن يقال: إن هذا الأمر بالاستعفاف للعاجز عن تحصيل مبادئ النكاح، و لا ينافى ذلك وقوع الغنى له من بعد أن ينكح، فإنه قد صدق عليه أنه لم يجد نكاحا إذا كان غير واجد لأسبابه التى يتحصل بها، و أعظمها: المال. ثم لما رغب سبحانه فى تزويج الصالحين من العبيد و الإماء، أرشد المالكين إلى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار فقال: وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ الموصول فى محل رفع، و يجوز أن يكون فى محل نصب على إضمار فعل يفسره ما بعده، أى: و كاتبوا الذين يبتغون الكتاب: كالمكاتبة، يقال: كاتب يكاتب كتابا و مكاتبة، كما يقال قاتل يقاتل قتالا و مقاتلة. و قيل: الكتاب هاهنا اسم عين للكتاب الذى يكتب فيه الشى‏ء، و ذلك لأنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه، و على أنفسهم بذلك كتابا، فيكون المعنى الذين يطلبون كتاب المكاتبة. و معنى المكاتبة فى الشرع: أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجما، فإذا أدّاه فهو حرّ، و ظاهر قوله: فَكاتِبُوهُمْ أن العبد إذا طلب الكتابة من سيده وجب عليه أن يكاتبه بالشرط المذكور بعده، و هو إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً و الخير هو القدرة على أداء ما كوتب عليه، و إن لم يكن له مال، و قيل: هو المال فقط، كما ذهب إليه مجاهد و الحسن و عطاء و الضحاك و طاوس و مقاتل. و ذهب إلى الأوّل ابن عمر و ابن زيد، و اختاره مالك، و الشافعى و الفراء و الزجاج. قال الفراء: يقول إن رجوتم عندهم وفاء، و تأدية للمال. و قال الزجاج: لما قال: «فيهم» كان الأظهر الاكتساب، و الوفاء و أداء الأمانة. و قال النخعى: إن الخير: الدين و الأمانة. و روى مثل هذا عن الحسن. و قال عبيدة السلمانى: إقامة الصلاة.

قال الطحاوى: و قول من قال إنه المال لا يصح عندنا، لأن العبد مال لمولاه فكيف يكون له مال؟ قال:

و المعنى عنـدنا إن علمتم فيهم الدين و الصدق. قال أبو عمر بن عبد البرّ: من لم يقل إن الخير هنا المال أنكر أن يقال: إن علمتم فيهم مالا، و إنما يقال علمت فيه الخير و الصلاح و الأمانة، و لا يقال علمت فيه المال.

هـذا حاصل ما وقع من الاختلاف بين أهل العلم فى الخبر المـذكور فى هـذه الآية. و إذا تقرّر لك هذا، فاعلم أنه قد ذهب ظاهر ما يقتضيه الأمر المذكور فى الآية من الوجوب، أما عكرمة و عطاء و مسروق و عمرو بن دينار و الضحاک: و أهل الظاهر، فقالوا: يجب على السيد أن يكاتب مملوكه، إذا طلب منه ذلک و علم فيه خيرا.

و قـال الجمهور من أهل العلم: لا يجب ذلک، و تمسـكوا بالإجماع على أنه لو سأل العبـد سيده أن يبيعه من غيره لم يجب عليه ذلک و لم يجبر عليه، فكذا الكتابة لأنها معاوضة.

و لا يخفاک أن هذه حجة واهية و شبهة داحضة، و الحق ما قاله الأوّلون، و به قال عمر بن الخطاب و ابن

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵

عباس و اختـاره ابن جرير. ثم أمر سبحانه الموالى بالإحسـان إلى المكـاتبين، فقال: وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِی آتاكُمْ ففى هـذه الآيـة الأـمر للمـالكين بإعانـة المكاتبين على مال الكتابـة، إما بأن يعطوهم شيئا من المال، أو بأن يحطوا عنهم مما كوتبوا عليه، و ظاهر الآية عدم تقدير ذلک بمقدار، و قيل: الثلث، و قيل: الربع، و قيل:

العشر، و لعـل وجه تخصيص الموالى بهـذا الأـمر هو كون الكلاـم فيهم، و سياق الكلام معهم فإنهم المأمورون بالكتابـة. و قال الحسن و النخعى و بريدة: إن الخطاب بقول: و آتوهم لجميع الناس. و قال زيد بن أسلم:

إن الخطـاب للولاـة بـأن يعطوا المكـاتبين من مـال الصدقـة حظهم كما فى قوله سـبحانه: وَ فِی الرِّقابِ* «۱»، و للمكـاتب أحكام معروفة إذا و فى ببعض مال الكتابة. ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالى إلى نكاح الصالحين من المماليک، نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمائهم على الزنا فقال: وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ و المراد بالفتيات هنا: الإماء، و إن كان الفتى و الفتاة قد يطلقان على الأحرار فى مواضع أخر.

و البغـاء: الزنـا، مصـدر بغت المرأة تبغى بغـاء إذا زنت، و هـذا مختصّ بزنـا النسـاء، فلا يقال للرجل إذا زنا إنه بغىّ، و شـرط اللّه سبحـانه هـذا النهى بقوله: إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لأن الإكراه لا يتصور إلا عنـد إرادتهم للتحصن، فإن من لم ترد التحصن لا يصـح أن يقال لها مكرهة على الزنا، و المراد بالتحصن هنا: التعفف و التزوج. و قيل: إن هذا القيد راجع إلى الأيامى. قال الزجاج و الحسن بن الفضـل: فى الكلام تقـديم و تأخير، أى: و أنكحوا الأيامى، و الصالحين من عبادكم، و إمائكم إن أردن تحصـنا. و قيل: هـذا الشرط ملغى. و قيل:

إن هـذا الشـرط باعتبـار مـا كـانوا عليه، فـإنهم كـانوا يكرهـونهنّ و هنّ يردن التعفـف، و ليس لتخصـص النهى بصـورة إرادتهنّ التعفف. و قيـل: إن هـذا الشـرط خرج مخرج الغـالب، لأن الغالب أن الإكراه لا يكون إلا عنـد إرادة التحصن، فلا يلزم منه جواز الإكراه عنـد عدم إرادة التحصن، و هذا الوجه أقوى هذه الوجوه، فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال و لا للحرام، كما فيمن لا رغبة لها فى النكاح كالصغيرة، فتوصف بأنها مكرهة على الزنا، مع عدم إرادتها للتحصن، فلا يتم ما قيل من أنه لا يتصور الإكراه إلا عنـد إرادة التحصن، إلا أن يقال إن المراد بالتحصن هنا مجرّد التعفف، و أنه لا يصدق على من كانت تريد الزواج أنها مريدة للتحصن و هو بعيـد، فقـد قـال الحبر ابن عبـاس: إن المراد بالتحصن: التعفف و التزوّج، و تابعه على ذلک غيره، ثم علل سـبحانه هـذا النهى بقوله: لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الـدُّنْيا و هو ما تكسـبه الأمة بفرجها، و هذا التعليل أيضا خارج مخرج الغالب، و المعنى: أن هـذا العرض هو الذى كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء فى الغالب، لأن إكراه الرجل لأمته على البغاء لا لفائدة له أصـلا، لاـ يصـدر مثله عن العقلاء، فلا يـدلّ هـذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها، إذا لم يكن مبتغيا بإكراهها عرض الحياة الـدنيا. و

قيل: إن هـذا التعليل للإكراه هو باعتبار أن عادتهم كانت كـذلك، لا أنه مدار للنهى عن الإكراه لهنّ، و هذا يلاقى المعنى الأوّل و لاـ يخـالفه وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْـدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ هـذا مقرّر لمـا قبله و مؤكـد له، و المعنى: أن عقوبـة الإكراه راجعة إلى المكرهين لا إلى المكرهات، كما تدلّ عليه قراءة ابن مسعود و جابر بن عبد اللّه و سعيد بن جبير:

---

(۱). البقرة: ۱۷۷.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۶

فإن اللّه غفور رحيم لهنّ. قيل: و فى هذا التفسير بعد، لأن المكرهة على الزنا غير آثمة. و أجيب بأنها، و إن كانت مكرهة، فربما لا تخلو فى تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة إما بحكم الجبلة البشرية، أو يكون الإكراه قاصرا عن حدّ الإلجاء المزيل للاختيار. و قيل: إن المعنى: فإن اللّه من بعد إكراههنّ غفور رحيم لهم: إما مطلقا، أو بشرط التوبة. و لما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام، شرع فى وصف القرآن بصفات ثلاث:

الأولى: أنه آيات مبينات، أى: واضحات فى أنفسهن أو موضحات، فتدخل الآيات المذكورة فى هذه الصورة دخولا أوّليا. و الصفة الثانية: كونه مثلا من الذين خلوا من قبل هؤلاء، أى: مثلا كائنا من جهة أمثال الذين مضوا من القصص العجيبة، و الأمثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة، فإن العجب من قصة عائشة رضى اللّه عنها، هو كالعجب من قصة يوسف و مريم و ما اتهما به، ثم تبين بطلانه و براءتهما سلام اللّه عليهما. و الصفة الثالثة: كونه مَوْعِظَةً ينتفع بها المتقون خاصة، فيقتدون بما فيه من الأوامر، و ينزجرون عما فيه من النواهى. و أما غير المتقين، فإن اللّه قد ختم على قلوبهم، و جعل على أبصارهم غشاوة عن سماع المواعظ، و الاعتبار بقصص الذين خلوا، و فهم ما تشمل عليه الآيات البينات.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى الآية قال: أمر اللّه سبحانه بالنكاح و رغبهم فيه، و أمرهم أن يزوّجوا أحرارهم و عبيدهم، و وعدهم فى ذلك الغنى فقال: إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر الصّدّيق قال: أطيعوا اللّه فيما أمركم من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال تعالى: إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ و أخرج عبد الرزاق فى المصنف و عبد بن حميد عن قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قال:

ما رأيت كرجل لم يلتمس الغنى فى الباءة، و قد وعد اللّه فيها ما وعد، فقال: إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة عنه نحوه من طريق أخرى. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه. و أخرج البزار و الدارقطنى فى العلل و الحاكم و ابن مردويه و الديلمى من طريق عروة عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «انكحوا النساء، فإنهنّ يأتينكم بالمال». و أخرجه ابن أبى شيبة و أبو داود فى مراسيله عن عروة مرفوعا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم و لم يذكر عائشة و هو مرسل. و أخرج عبد الرزاق و أحمد و الترمذى و صححه و النسائى و ابن ماجة و ابن حبان و الحاكم و صححه و البيهقى فى السنن عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ثلاثة حقّ على اللّه عونهم: النّاكح يريد العفاف، و المكاتب يريد الأداء، و الغازى فى سبيل اللّه» و قد ورد فى الترغيب فى مطلق النكاح أحاديث كثيرة ليس هذا موضع ذكرها. و أخرج الخطيب فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله: وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً قال: ليتزوّج من لا يجد فإن اللّه سيغنيه. و أخرج ابن السكن فى معرفة الصحابة عن عبد اللّه بن صبيح عن أبيه قال: كنت مملوكا لحويطب ابن عبد العزى، فسألته الكتابة فأبى، فنزلت وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ الآية. و أخرج عبد الرزاق و عبد ابن حميد و ابن جرير عن أنس بن مالك قال: سألنى سيرين المكاتبة فأبيت عليه، فأتى عمر بن

الخطاب فأقبل عليّ بالدرّة و قال: كاتبه و تلا فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً فكاتبته. قال ابن كثير: إن إسناده

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۷

صحيح. و أخرج أبو داود فى المراسيل و البيهقى فى سننه عن يحيى بن أبى كثير قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً قال: إن علمتم فيهم حرفة، و لا ترسلوهم كلّا على الناس». و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً قال: المال. و أخرج ابن مردويه عن عليّ مثله. و أخرج البيهقى عن ابن عباس فى الآية قال: أمانة و وفاء.

و أخرج عنه أيضا قال: إن علمت مكاتبك يقضيك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عنه فى الآية قال: إن علمتم لهم حيلة، و لا تلقوا مؤنتهم على المسلمين وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ يعنى: ضعوا عنهم من مكاتبتهم. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى عن نافع قال: كان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حرفة و يقول: يطعمنى من أوساخ الناس. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس فى قوله: وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الآية: أمر المؤمنين أن يعينوا فى الرقاب. و قال عليّ بن أبى طالب: أمر اللّه السيد أن يدع للمكاتب الربع من ثمنه. و هذا تعليم من اللّه ليس بفريضة، و لكن فيه أجر. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الرويانى فى مسنده و الضياء المقدسى فى المختارة عن بريدة فى الآية قال: حثّ الناس عليه أن يعطوه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و مسلم، و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى من طريق أبى سفيان عن جابر بن عبد اللّه قال: كان عبد اللّه بن أبيّ يقول الجارية له: اذهبى فابغينا شيئا، و كانت كارهة، فأنزل اللّه وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَ لهنّ غَفُورٌ رَحِيمٌ هكذا كان يقرؤها، و ذكر مسلم فى صحيحه عن جابر أن جارية لعبد اللّه بن أبيّ: يقال لها مسيكة، و أخرى يقال لها أميمة، فكان يريدهما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فأنزل اللّه وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ الآية. و أخرج البزار و ابن مردويه عن أنس نحو حديث جابر الأول.

و أخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبى طالب فى الآية قال: كان أهل الجاهلية يبغين إماءهم، فنهوا عن ذلك فى الإسلام. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا، يأخذون أجورهنّ فنزلت الآية. و قد ورد النهى منه صلّى اللّه عليه و سلم عن مهر البغيّ و كسب الحجام و حلوان الكاهن.

[سورة النور (۲۴): الآيات ۳۵ الى ۳۸]

اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِي‌ءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‌ءٍ عَلِيمٌ (۳۵) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ (۳۶) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ (۳۷) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (۳۸)

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۸

لما بيّن سبحانه من الأحكام ما بيّن، أردف ذلك بكونه سبحانه فى غاية الكمال فقال اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها، و الاسم الشريف: مبتدأ، و نور السموات و الأرض:

خبره، إما على حذف مضاف، أي: ذو نور السموات و الأرض، أو لكون المراد المبالغة فى وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله

و ظهور عدله و بسط أحكامه، كما يقال فلان نور البلد و قمر الزمن و شمس العصر، و منه قول النابغة:

فإنک شمس و الملوک کواکبإذا ظهرت لم يبق فيهنّ کوکب «۱»

و قول الآخر:

هلّا خصصت من البلاد بمقصدقمر القبائل خالد بن يزيد

و من ذلک قول الشاعر:

إذا سار عبد اللّه من مرو ليلةفقد سار منها نورها و جمالها

و قول الآخر:

نسب كأنّ عليه من شمس الضّحىنورا و من فلق الصّباح عمودا

و معنى النور فى اللغة: الضياء، و هو الذى يبين الأشياء و يرى الأبصار حقيقة ما تراه، فيجوز إطلاق النور على اللّه سبحانه على طريقة المدح، و لكونه أوجد الأشياء المنوّرة و أوجد أنوارها و نوّرها، و يدلّ على هذا المعنى قراءة زيد بن علىّ، و أبى جعفر و عبد العزيز المكى «اللّه نور السموات و الأرض» على صيغة الفعل الماضى، و فاعله ضمير يرجع إلى اللّه، و السموات مفعوله؛ فمعنى اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أنه سبحانه صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلهما و كمال تدبيره عزّ و جلّ لمن فيهما، كما يقال: الملك نوّر البلد، هكذا قال الحسن و مجاهد و الأزهرى و الضحاك و القرظى و ابن عرفة و ابن جرير و غيرهم، و مثله قول الشاعر:

و أنت لنا نور و غيث و عصمةو نبت لمن يرجو نداک و ريق

و قال هشام الجواليقى و طائفة من المجسمة: إنه سبحانه نور لا كالأنوار، و جسم لا كالأجسام، و قوله:

مَثَلُ نُورِهِ مبتدأ. و خبره كَمِشْكاةٍ أى: صفة نوره الفائض عنه، الظاهر على الأشياء كمشكاة، و المشكاة: الكوّة فى الحائط غير النافذة، كذا حكاه الواحدى عن جميع المفسرين، و حكاه القرطبى عن جمهورهم. و وجه تخصيص المشكاة أنها أجمع للضوء الذى يكون فيه، من مصباح أو غيره، و أصل المشكاة الوعاء يجعل فيه الشىء. و قيل: المشكاة عمود القنديل الذى فيه الفتيلة. و قال مجاهد: هى القنديل. و الأوّل أولى، و منه قول الشاعر:

كأنّ عينيه مشكاتان فى حجر

---

(۱). و فى رواية: إذا طلعت لم يبد منهن کوکب.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۳۹

ثم قال: فِيها مِصْباحٌ و هو السراج الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ قال الزجاج: النور فى الزجاج، وضوء النار أبين منه فى كل شىء، و ضوؤه يزيد فى الزجاج، و وجه ذلک: أن الزجاج جسم شفاف يظهر فيه النور أكمل ظهور. ثم وصف الزجاجة فقال: الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ أى: منسوب إلى الدرّ لكون فيه من الصفاء و الحسن ما يشابه الدرّ. و قال الضحاک: الكوكب الدّرى: الزهرة. قرأ أبو عمرو «درّىّ» بكسر الدال. قال أبو عمرو: لم أسمع أعرابيا يقول: إلا كأنه کوکب درّىّ بكسر الدال، أخذوه من درأت النجوم تدرأ إذا اندفعت. و قرأ حمزة بضم الدال مهموزا، و أنكره الفراء و الزجاج و المبرد.

و قال أبو عبيد: إن ضممت الدال وجب أن لا تهمز، لأنه ليس فى كلام العرب. و الدّرارى: هى المشهورة من الكواكب كالمشترى و الزهرة و المريخ و ما يضاهيها من الثوابت. ثم وصف المصباح بقوله: يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ و من هذه: هى الابتدائية، أى: ابتداء إيقاد المصباح منها، و قيل: هو على تقدير مضاف، أى: يوقد من زيت شجرة مباركة، و المباركة: الكثيرة

المنافع. و قيل: المنماة، و الزيتون من أعظم الثمار نماء، و منه قول أبى طالب يرثى مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس:

ليت شعرى مسافر بن أبى عمروو ليت يقولها المحزون

بورك الميت الغريب كما بورك نبع الرّمان و الزيتون

قيل: و من بركتها أن أغصانها تورق من أسفلها إلى أعلاها، و هى إدام و دهان و دباغ و وقود، و ليس فيها شيء إلا و فيه منفعة، ثم وصفها بأنها لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ.

و قد اختلف المفسرون فى معنى هذا الوصف، فقال عكرمة و قتادة و غيرهم: إن الشرقية هى التى تصيبها الشمس إذا شرقت، و لا تصيبها إذا غربت. و الغربية هى التى تصيبها إذا غربت، و لا تصيبها إذا شرقت.

و هذه الزيتونة هى فى صحراء بحيث لا يسترها عن الشمس شيء لا فى حال شروقها و لا فى حال غروبها، و ما كانت من الزيتون هكذا فثمرها أجود. و قيل: إن المعنى: إنها شجرة فى دوحة قد أحاطت بها، فهى غير منكشفة من جهة الشرق، و لا من جهة الغرب، حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس. قال ابن عطية:

و هذا لا يصح عن ابن عباس، لأن الثمرة التى بهذه الصفة يفسد جناها، و ذلك مشاهد فى الوجود. و رجح القول الأوّل: الفراء و الزجاج. و قال الحسن: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، و إنما هو مثل ضربه اللّه لنوره و لو كانت فى الدنيا لكانت إما شرقية و إما غربية. قال الثعلبى: قد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا، لأن قوله: زيتونة بدل من قوله شجرة. قال ابن زيد: إنها من شجر الشام، فإن الشام لا شرقىّ و لا غربىّ، و الشام: هى الأرض المباركة. و قد قرئ «توقد» بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الزجاجة دون المصباح، و بها قرأ الكوفيون. و قرأ شيبة و نافع و أيوب و سلام و ابن عامر و أهل الشام و حفص يُوقَدُ بالتحتية مضمومة و تخفيف القاف و ضم الدال، و قرأ الحسن و السلمى و أبو عمرو بن العلاء و أبو جعفر «توقد» بالفوقية مفتوحة، و فتح الواو و تشديد القاف و فتح الدال على أنه فعل ماض من توقد يتوقد، و الضمير فى هاتين القراءتين راجع إلى المصباح. قال النحاس: و هاتان القراءتان متقاربتان لأنهما جميعا للمصباح، و هو

فتح القدير، ج‏4، ص: 40

أشبه بهذا الوصف لأنه الذى ينير و يضيء، و إنما الزجاجة وعاء له. و قرأ نصر بن عاصم كقراءة أبى عمرو و من معه إلا أنه ضم الدال على أنه فعل مضارع، و أصله تتوقد. ثم وصف الزيتونة بوصف آخر فقال: يَكادُ زَيْتُها يُضِي‏ءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ قرأ الجمهور «تمسسه» بالفوقية، لأن النار مؤنثة. قال أبو عبيد: إنه لا يعرف إلا هذه القراءة. و حكى أبو حاتم أن السدّى روى عن أبى مالك عن ابن عباس أنه قرأ «يمسسه» بالتحتية لكونه تأنيث النار غير حقيقى. و المعنى: أن هذا الزيت فى صفائه و إنارته يكاد يضيء بنفسه من غير أن تمسه النار أصلا، و ارتفاع نُورٌ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو نور، و عَلى‏ نُورٍ متعلق بمحذوف هو صفة لنور مؤكدة له، و المعنى: هو نور كائن على نور. قال مجاهد: و المراد النار على الزيت.

و قال الكلبى: المصباح: نور، و الزجاجة: نور. و قال السدّى: نور الإيمان و نور القرآن يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ من عباده: أى هداية خاصة موصلة إلى المطلوب، و ليس المراد بالهداية هنا مجرّد الدلالة وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ أى يبين الأشياء بأشباهها و نظائرها تقريبا لها إلى الأفهام و تسهيلا لإدراكها، لأن إبراز المعقول فى هيئة المحسوس و تصويره بصورته يزيده وضوحا و بيانا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ لا يغيب عنه شيء من الأشياء معقولا كان أو محسوسا، ظاهرا أو باطنا. و اختلف فى قوله: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ بم هو متعلق؟ فقيل متعلق بما قبله، أى: كمشكاة فى بعض بيوت اللّه و هى المساجد، كأنه قيل: مثل نوره كما ترى فى المسجد نور المشكاة التى من صفتها كيت و كيت، و قيل: متعلق بمصباح. و قال ابن الأنبارى:

سمعت أبا العباس يقول: هو حال للمصباح و الزجاجة و الكوكب، كأنه قيل: و هى فى بيوت، و قيل: متعلق بتوقد، أى: توقد فى

بیوت، و قد قیل: متعلق بما بعده، و هو یسبح، أی: یسبح له رجال فی بیوت، و علی هذا یکون قوله: «فیها» تکریرا کقولک: زید فی الدار جالس فیها. و قیل: إنه منفصل عما قبله، کأنه قال اللّه: فی بیوت أذن اللّه أن ترفع. قال الحکیم الترمذی: و بذلک جاءت الأخبار أنه من جلس فی المسجد فإنما یجالس ربه. و قد قیل: علی تقدیر تعلقه بمشکاة أو بمصباح أو بتوقد ما الوجه فی توحید المصباح و المشکاة و جمع البیوت؟ و لا تکون المشکاة الواحدة و لا المصباح الواحد إلا فی بیت واحد. و أجیب بأن هذا من الخطاب الذی یفتح أوّله بالتوحید، و یختم بالجمع کقوله سبحانه یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ «۱» و نحوه.

و قیل: معنی فی بیوت: فی کلّ واحد من البیوت، فکأنه قال: فی کلّ بیت، أو فی کلّ واحد من البیوت.

و اختلف الناس فی البیوت، علی أقوال الأوّل: أنها المساجد، و هو قول مجاهد و الحسن و غیرهما. الثانی: أن المراد بها بیوت بیت المقدس، روی ذلک عن الحسن. الثالث أنها بیوت النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم، روی عن مجاهد: الرابع:

هی البیوت کلها، قال عکرمة. الخامس: أنها المساجد الأربعة الکعبة، و مسجد قباء، و مسجد المدینة، و مسجد بیت المقدس، قال ابن زید. و القول الأوّل أظهر لقوله: یُسَبِّحُ لَهُ فِیها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ و الباء من بیوت تضم و تکسر کلّ ذلک ثابت فی اللغة، و معنی أذن اللّه أن ترفع: أمر و قضی، و معنی ترفع تبنی، قاله مجاهد و عکرمة و غیرهما، و منه قوله سبحانه وَ إِذْ یَرْفَعُ إِبْراهِیمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَیْتِ «۲» و قال الحسن

---

(۱). الطلاق: ۱.

(۲). البقرة: ۱۲۷.

فتح القدیر، ج‌۴، ص: ۴۱

البصری و غیره: معنی ترفع تعظم، و یرفع شأنها و تطهر من الأنجاس و الأقذار، و رجحه الزجاج و قیل: المراد بالرفع هنا مجموع الأمرین، و معنی یُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ کلّ ذکر للّه عزّ و جلّ، و قیل: هو التوحید، و قیل:

المراد تلاوة القرآن، و الأوّل أولی یُسَبِّحُ لَهُ فِیها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ رِجالٌ قرأ ابن عامر و أبو بکر «یسبح» بفتح الباء الموحدة مبنیا للمفعول، و قرأ الباقون بکسرها مبنیا للفاعل إلا ابن وثاب و أبا حیوة فإنهما قرءا بالتاء الفوقیة و کسر الموحدة، فعلی القراءة الأولی یکون القائم مقام الفاعل أحد المجرورات الثلاثة، و یکون رجال مرفوع علی أحد وجهین: إما بفعل مقدّر، و کأنه جواب سؤال مقدّر، کأنه قیل: من یسبحه؟ فقیل:

یسبحه رجال. الثانی: أن رجال مرتفع علی أنه خبر مبتدأ محذوف. و علی القراءة الثانیة یکون رجال فاعل یسبح، و علی القراءة الثالثة یکون الفاعل أیضا رجال، و إنما أنث الفعل لکون جمع التکسیر یعامل معاملة المؤنث فی بعض الأحوال.

و اختلف فی هذا التسبیح ما هو؟ فالأکثرون حملوه علی الصلاة المفروضة، قالوا: الغدوّ: صلاة الصبح، و الآصال: صلاة الظهر و العصر و العشاءین، لأن اسم الآصال یشملها، و معنی بالغدوّ و الآصال: بالغداة و العشی، و قیل: صلاة الصبح و العصر، و قیل: المراد صلاة الضحی، و قیل: المراد بالتسبیح هنا: معناه الحقیقی، و هو تنزیه اللّه سبحانه عما لا یلیق به فی ذاته و صفاته و أفعاله، و یؤید هذا ذکر الصلاة و الزکاة بعده، و هذا أرجح مما قبله، لکونه المعنی الحقیقی، مع وجود دلیل یدل علی خلاف ما ذهب إلیه الأوّلون، و هو ما ذکرناه لا تُلْهِیهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ هذه الجملة صفة لرجال، أی: لا تشغلهم التجارة و البیع عن الذکر؛ و خصّ التجارة بالذکر لأنها أعظم ما یشتغل به الإنسان عن الذکر. و قال الفراء: التجارة لأهل الجلب، و البیع ما باعه الرجل علی بدنه، و خصّ قوم التجارة هاهنا بالشراء لذکر البیع بعدها. و بمثل قول الفراء، قال الواقدی: فقال التجار: هم الجلاب المسافرون و الباعة المقیمون، و معنی عن ذکر اللّه:

هو ما تقدّم فى قوله: وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ و قيل: المراد الأذان، و قيل: عن ذكره بأسمائه الحسنى. أى:

يوحدونه و يمجدونه. و قيل: المراد: عن الصلاة، و يردّه ذكر الصلاة بعد الذكر هنا. و المراد بإقام الصلاة إقامتها لمواقيتها من غير تأخير و حذفت التاء لأن الإضافة تقوم مقامها فى ثلاث كلمات جمعها الشاعر فى قوله:

ثلاثة تحذف تاءاتهامضافة عند جمع النّحاة

و هى إذا شئت أبو عذرهاو ليت شعرى و إقام الصلاة

و أنشد الفراء فى الاستشهاد للحذف المذكور فى هذه الآية قول الشاعر:

إنّ الخليط أجدّوا البين فانجردواو أخلفوك عد الأمر الذى وعدوا

أى: عدة الأمر، و فى هذا البيت دليل على أن الحذف مع الإضافة لا يختص بتلك الثلاثة المواضع. قال الزجاج: و إنما حذفت الهاء لأنه يقال: أقمت الصلاة إقامة، و كان الأصل إقواما، و لكن قلبت الواو ألفا فاجتمعت ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين، فبقى أقمت الصلاة إقاما، فأدخلت الهاء عوضا من المحذوف و قامت الإضافة هاهنا فى التعويض مقام الهاء المحذوفة، و هذا إجماع من النحويين. انتهى. و قد احتاج

من حمل ذكر اللّه على الصلاة المفروضة أن يحمل إقام الصلاة على تأديتها فى أوقاتها فرارا من التكرار و لا ملجئ إلى ذلك، بل يحمل الذكر على معناه الحقيقى كما قدّمنا. و المراد بالزكاة المذكورة: هى المفروضة، و قيل:

المراد بالزكاة طاعة اللّه و الإخلاص، إذ ليس لكل مؤمن مال يَخافُونَ يَوْماً أى: يوم القيامة، و انتصابه على أنه مفعول للفعل لا ظرف له، ثم وصف هذا اليوم بقوله: تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ أى:

تضطرب و تتحوّل، قيل: المراد بتقلب القلوب: انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر فلا ترجع إلى أماكنها و لا تخرج، و المراد بتقلب الأبصار: هو أن تصير عمياء بعد أن كانت مبصرة. و قيل: المراد بتقلب القلوب أنها تكون متقلبة بين الطمع فى النجاة و الخوف من الهلاك، و أما تقلب الأبصار فهو النظر من أىّ ناحية يؤخذون، و إلى أىّ ناحية يصيرون. و قيل: المراد تحوّل قلوبهم و أبصارهم عما كانت عليه من الشك إلى اليقين، و مثله قوله: فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ «۱» فما كان يراه فى الدنيا غيا يراه فى الآخرة رشدا.

و قيل: المراد التقلب على جمر جهنم، و قيل غير ذلك لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا متعلق بمحذوف، أى: يفعلون ما يفعلون من التسبيح و الذكر و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة ليجزيهم اللّه أحسن ما عملوا، أى:

أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعدهم من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله و إلى سبعمائة ضعف، و قيل: المراد بما فى هذه الآية ما يتفضل سبحانه به عليه زيادة على ما يستحقونه، و الأوّل أولى لقوله: وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ فإن المراد به التفضل عليهم بما فوق الجزاء الموعود به وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ أى:

من غير أن يحاسبه على ما أعطاه، أو أن عطاءه سبحانه لا نهاية له، و الجملة مقرّرة لما سبقها من الوعد بالزيادة.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: يدبر الأمر فيهما، نجومهما، و شمسهما، و قمرهما.

و أخرج الفريابى عنه فى قوله: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مثل نوره الذى أعطاه المؤمن كَمِشْكاةٍ و قال فى تفسير زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ إنها التى فى سفح جبل، لا تصيبها الشمس إذا طلعت، و لا إذا غربت يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ فذلك مثل قلب المؤمن نور على نور. و أخرج عبد بن حميد و ابن الأنبارى فى المصاحف عن الشّعبىّ قال: فى قراءة أبىّ بن كعب مثل نور المؤمن كمشكاة. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن ابن عباس فى الآية قال:

يقول مثل نور من آمن باللّه كمشكاة، و هى: الكوّة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه مَثَلُ نُورِهِ قال: هى خطأ من الكاتب هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة، قال: مثل نور المؤمن كمشكاة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه أيضا اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: هادى أهل السموات و الأرض مَثَلُ نُورِهِ مثل هداه فى قلب المؤمن كَمِشْكاةٍ يقول موضع الفتيلة، كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوئه، كذلك يكون قلب المؤمن، يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى، و نورا على نور، و فى إسناده علىّ بن أبى طلحة، و فيه مقال. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم

---

(١). ق: ٢٢.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۳

و صححه و ابن مردويه عن أبىّ بن كعب اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ قال: هو المؤمن الذى قد جعل الإيمان و القرآن فى صدره فضرب اللّه مثله فقال: نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن، فقال نور من آمن به، فكان أبىّ بن كعب يقرؤها «مثل نور من آمن به» فهو المؤمن، جعل الإيمان و القرآن فى صدره كَمِشْكاةٍ قال: فصدر المؤمن: المشكاة فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ النور، و هو القرآن و الإيمان الذى جعل فى صدره فِي زُجاجَةٍ و الزُّجاجَةُ قلبه كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يقول كوكب مضىء يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ و الشجرة المباركة:

أصل المبارك الإخلاص للّه وحده و عبادته لا شريك له زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ قال: فمثله كمثل شجرة التفت بها الشجر، فهى خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أى حال كانت، لا إذا طلعت، و لا إذا غربت، فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يضله شىء من الفتن. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس أن اليهود قالوا لمحمد: كيف يخلص نور اللّه من دون السماء؟ فضرب اللّه مثل ذلك لنوره فقال: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ المشكاة: كوّة البيت فِيها مِصْباحٌ و هو السراج يكون فى الزجاجة، و هو مثل ضربه اللّه لطاعته، فسمى طاعته نورا، ثم سماها أنواعا شتى لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ قال: و هى وسط الشجر، لا تنالها الشمس إذا طلعت، و لا إذا غربت، و ذلك أجود الزيت يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ بغير نار نُورٌ عَلى نُورٍ يعنى بذلك: إيمان العبد و عمله يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ و هو مثل المؤمن. و أخرج الطبرانى و ابن عدى و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عمر فى قوله: كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ قال: المشكاة: جوف محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و الزجاجة: قلبه، و المصباح: النور الذى فى قلبه يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ الشجرة: إبراهيم زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ لا يهودية و لا نصرانية، ثم قرأ ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن شمر بن عطية قال: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار، فقال: حدّثنى عن قول اللّه اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ قال: مثل نور محمد صلّى اللّه عليه و سلم كمشكاة قال: المشكاة: الكوّة ضربها اللّه مثلا لفمه فيها مصباح، و المصباح قلبه الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ و الزجاجة: صدره كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ شبه صدر محمد صلّى اللّه عليه و سلم بالكوكب الدّرىّ، ثم رجع المصباح إلى قلبه فقال: يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ قال: يكاد محمد صلّى اللّه عليه و سلم يبين للناس، و لو لم يتكلم أنه نبىّ، كما يكاد الزيت أن يضىء و لو لم تمسسه نار.

و أقول: إن تفسير النظم القرآنى بهذا و نحوه مما تقدّم عن أبىّ بن كعب و ابن عباس و ابن عمر رضى اللّه عنهم ليس على ما تقتضيه لغة العرب، و لا ثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ما يجوّز العدول عن المعنى العربى إلى هذه المعانى التى هى شبيهة بالألغاز و التعمية، و لكن هؤلاء الصحابة و من وافقهم ممن جاء بعدهم استبعدوا تمثيل نور اللّه سبحانه بنور المصباح فى

المشكاة، و لهذا قال ابن عباس: هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة

---

(۱). آل عمران: ۶۷.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۴

كما قدّمنا عنه، و لا وجه لهذا الاستبعاد. فإنا قد قدّمنا فى أوّل البحث ما يرفع الإشكال، و يوضح ما هو المراد على أحسن وجه و أبلغ أسلوب، و على ما تقتضيه لغة العرب، و يفيده كلام الفصحاء، فلا وجه للعدول عن الظاهر، لا من كتاب و لا من سنة و لا من لغة. و أما ما حكى عن كعب الأحبار فى هذا كما قدّمنا، فإن كان هو سبب عدول أولئك الصحابة الأجلاء عن الظاهر فى تفسير الآية، فليس مثل كعب- رحمه اللّه- ممن يقتدى به فى مثل هذا. و قد نبهناك فيما سبق أن تفسير الصحابى إذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب كما يقع ذلك كثيرا، فلا تقوم به الحجة و لا يسوغ لأجله العدول عن التفسير العربى، نعم! إن صحت قراءة أبىّ بن كعب، كانت هى المستند لهذه التفاسير المخالفة للظاهر، و تكون كالزيادة المبينة للمراد، و إن لم تصح فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور من السبعة، و غيرهم ممن قبلهم، و ممن بعدهم هو المتعين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ قال: هى المساجد تكرم و ينهى عن اللغو فيها وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يتلى فيها كتابة يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ صلاة الغداة، و صلاة العصر، و هما أوّل ما فرض اللّه من الصلاة فأحبّ أن يذكرهما و يذكر بهما عباده. و قد ورد فى تعظيم المساجد و تنزيهها عن القذر و اللغو و تنظيفها و تطييبها أحاديث ليس هذا موضع ذكرها. و أخرج ابن أبى شيبة و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: إن صلاة الضحى لفى القرآن و ما يغوص عليها إلا غوّاص فى قوله: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ قال:

هم الذين يضربون فى الأرض يبتغون من فضل اللّه. و أخرج ابن مردويه و الديلمى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ قال: هم الذين يبتغون من فضل اللّه.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية، قال: كانوا رجالا يبتغون من فضل اللّه يشترون و يبيعون، فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما فى أيديهم و قاموا إلى المسجد فصلوا. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و البيهقى فى الشعب عنه فى الآية، قال: ضرب اللّه هذا المثل قوله: «كمشكاة» لأولئك القوم الذين لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر اللّه، و كانوا أتجر الناس و أبيعهم، و لكن لم تكن تلهيهم تجارتهم و لا بيعهم عن ذكر اللّه.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا عن ذكر اللّه قال: عن شهود الصلاة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عمر. أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم، ثم دخلوا المسجد، فقال ابن عمر فيهم نزلت: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و الطبرانى و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود أنه رأى ناسا من أهل السوق سمعوا الأذان فتركوا أمتعتهم، فقال: هؤلاء الذين قال اللّه فيهم لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ و أخرج هنّاد بن السّرى فى الزهد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب و محمد بن نصر فى الصلاة عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يجمع اللّه يوم القيامة الناس فى صعيد واحد يسمعهم الدّاعى و ينفذهم البصر، فيقوم مناد فينادى: أين الذين كانوا يحمدون اللّه فى السّرّاء و الضّرّاء؟

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۵

فيقومون و هم قليل فيدخلون الجنّة بغير حساب؛ ثم يعود فينادى: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون و هم قليل، فيـدخلون الجنّـة بغير حساب؛ ثم يعود فينادى: ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر اللّه، فيقومون و هم قليل، فيدخلون الجنّة بغير حساب، ثم يقوم سائر الناس فيحاسبون». و أخرج الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن عقبة بن عامر مرفوعا نحوه.

[سورة النور (٢٤): الآيات ٣٩ الى ٤٦]

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (٤١) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (٤٣)

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (٤٤) وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)

لما ذكر سبحانه حال المؤمنين، و ما يؤول إليه أمرهم، ذكر مثلا للكافرين فقال: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ المراد بالأعمال هنا: هى الأعمال التى من أعمال الخير كالصدقة و الصلة و فكّ العانى و عمارة البيت و سقاية الحاجّ، و السراب: ما يرى فى المفاوز من لمعان الشمس عند اشتداد حرّ النهار على صورة الماء فى ظنّ من يراه، و سمى سرابا لأنه يسرب، أى: يجرى كالماء؛ يقال: سرب الفحل، أى:

مضى و سار فى الأرض، و يسمى: الآل أيضا. و قيل: الآل هو الذى يكون ضحى كالماء، إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين السماء و الأرض، قال امرؤ القيس:

ألم أنض المطىّ بكلّ خرقطويل «١» الطّول لمّاع السّراب

و قال آخر:

فلمّا كففنا الحرب كانت عهودهم كلمع سراب بالفلا متألّق

و القيعة جمع قاع: و هو الموضع المنخفض الذى يستقرّ فيه الماء، مثل جيرة و جار، قاله الهروى. و قال أبو عبيد: قيعة وقاع واحد. قال الجوهرى: القاع المستوى من الأرض، و الجمع: أقوع و أقواع و قيعان، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها، و القيعة: مثل القاع. قال: و بعضهم يقول هو جمع يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً

---

(١). كذا فى الأصل، و فى ديوان امرئ القيس «أمقّ الطّول» و الأمقّ: الطويل.

هذه صفة ثانية لسراب، و الظمآن: العطشان، و تخصيص الحسبان بالظمآن مع كون الرّيان يراه كذلك، لتحقيق التشبيه المبنىّ على الطمع حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً أى: إذا جاء العطشان ذلك الذى حسبه ماء لم يجده شيئا مما قدّره و حسبه و لا من

غيره، و المعنى: أن الكفار يعولون على أعمالهم التي يظنونها من الخير، و يطمعون فى ثوابها، فإذا قدموا على اللّه سبحانه لم يجدوا منها شيئا، لأن الكفر أحبطها و محا أثرها، و المراد بقوله: حَتَّى إِذا جاءَهُ مع أنه ليس بشىء، أنه جاء الموضع الذى كان يحسبه فيه. ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على زيادة حسرة الكفرة، و أنه لم يكن قصارى أمرهم مجرّد الخيبة كصاحب السراب فقال: وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ أى: وجد اللّه بالمرصاد فوفاه حسابه، أى: جزاء عمله، كما قال امرؤ القيس:

فولّى مدبرا يهوى حثيثاو أيقن أنّه لاقى الحسابا

و قيل: وجد وعد اللّه بالجزاء على عمله، و قيل: وجد أمر اللّه عند حشره، و قيل: وجد حكمه و قضاءه عند المجيء، و قيل: عند العمل، و المعنى متقارب. و قرأ مسلمة بن محارب «بقيعاه» بهاء مدورة كما يقال رجل عزهاه. و روى عنه أنه قرأ «بقيعات» بتاء مبسوطة. قيل: يجوز أن تكون الألف متولدة من إشباع العين على الأوّل، و جمع قيعة على الثاني. و روى عن نافع و أبى جعفر و شيبة أنهم قرءوا الظَّمْآنُ بغير همز، و المشهور عنهم الهمز. أَوْ كَظُلُماتٍ معطوف على كسراب، ضرب اللّه مثلا آخر لأعمال الكفار كما أنه تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات، فهى أيضا تشبه الظلمات. قال الزجاج: أعلم اللّه سبحانه أن أعمال الكفار إن مثلت بما يوجد، فمثلها كمثل السراب، و إن مثلت بما يرى، فهى كهذه الظلمات التى وصف. قال أيضا: إن شئت مثل بالسراب، و إن شئت مثل بهذه الظلمات، فأو للإباحة حسبما تقدّم من القول فى أَوْ كَصَيِّبٍ «١» قال الجرجاني: الآية الأولى: فى ذكر أعمال الكفار، و الثانية: فى ذكر كفرهم، و نسق الكفر على أعمالهم لأنه أيضا من أعمالهم. قال القشيرى: فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار، و عند الجرجانى لكفر الكفار فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ اللجة: معظم الماء، و الجمع: لجج، و هو الذى لا يدرك لعمقه. ثم وصف سبحانه هذا البحر بصفة أخرى فقال: يَغْشاهُ مَوْجٌ أى: يعلو هذا البحر موج فيستره و يغطيه بالكلية، ثم وصف هذا الموج بقوله: مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ أى: من فوق هذا الموج ثم وصف الموج الثاني فقال: مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ أى: من فوق ذلك الموج الثانى سحاب، فيجتمع حينئذ عليهم خوف البحر و أمواجه، و السحاب المرتفع فوقه. و قيل إن المعنى: يغشاه موج من بعد موج، فيكون الموج يتبع بعضه بعضا حتى كأنه بعضه فوق بعض، و البحر أخوف ما يكون إذا توالت أمواجه، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه، زاد الخوف شدّة، لأنها تستر النجوم التى يهتدى بها من فى البحر، ثم إذا أمطرت تلك السحب و هبت الريح المعتادة فى الغالب عند نزول المطر، تكاثفت الهموم، و ترادفت الغموم، و بلغ الأمر إلى الغاية التى ليس وراءها غاية، و لهذا قال سبحانه ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ أى: هى ظلمات،

---

(١). البقرة: ١٩.

أو هذه ظلمات متكاثفة مترادفة، ففى هذه الجملة بيان لشدّة الأمر و تعاظمه، و قرأ ابن محيصن و البزى «سحاب ظلمات» بإضافة سحاب إلى ظلمات، و وجه الإضافة أن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات، فأضيف إليها لهذه الملابسة. و قرأ الباقون بالقطع و التنوين.

و من غرائب التفاسير أنه سبحانه أراد بالظلمات: أعمال الكافر، و بالبحر اللجّى: قلبه، و بالموج فوق الموج: ما يغشى قلبه من الجهل و الشكّ و الحيرة. و السحاب: الرين و الختم و الطبع على قلبه، و هذا تفسير هو عن لغة العرب بمكان بعيد. ثم بالغ سبحانه فى هذه الظلمات المذكورة بقوله إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها و فاعل أخرج: ضمير يعود على مقدّر دلّ عليه المقام، أى: إذا أخرج الحاضر فى هذه الظلمات أو من ابتلى بها. قال الزجاج و أبو عبيدة: المعنى، لم يرها و لم يكد. و قال الفرّاء: إن كاد زائدة. و المعنى:

إذا أخرج يده لم يرها، كما تقول: ما كدت أعرفه. و قال المبرد: يعنى لم يرها إلا من بعد الجهد. قال النحاس:

أصح الأقوال فى هذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها، فإذن لم يرها رؤية بعيدة و لا قريبة، و جملة وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ مقرّرة لما قبلها من كون أعمال الكفرة على تلك الصفة، و المعنى: و من لم يجعل اللّه له هداية فما له من هداية. قال الزجاج: ذلك فى الدنيا، و المعنى: من لم يهده اللّه لم يهتد، و قيل: المعنى من لم يجعل له نورا يمشى به يوم القيامة فما له من نور يهتدى به إلى الجنة أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى سورة سبحان «(1)»، و الخطاب لكلّ من له أهلية النظر، أو للرسول صلّى اللّه عليه و سلم، و قد علمه من جهة الاستدلال؛ و معنى أَ لَمْ تَرَ ألم تعلم، و الهمزة للتقرير، أى:

قد علمت علما يقينيا شبيها بالمشاهدة، و التسبيح التنزيه فى ذاته و أفعاله و صفاته عن كل ما لا يليق به، و معنى مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ من هو مستقرّ فيهما من العقلاء و غيرهم، و تسبيح غير العقلاء ما يسمع من أصواتها، و يشاهد من أثر الصنعة البديعة فيها. و قيل: إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء، و التنزيه من غيرهم. و قد قيل: إن هذه الآية تشمل الحيوانات و الجمادات، و أن آثار الصنعة الإلهية فى الجمادات ناطق و مخبر باتصافه سبحانه بصفات الجلال و الكمال و تنزّهه عن صفات النقص، و فى ذلك تقريع للكفار و توبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التى من شأنها التسبيح للّه سبحانه شركاء له يعبدونها كعبادته عزّ و جلّ. و بالجملة فإنه ينبغى حمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات على طريقة عموم المجاز. قرأ الجمهور وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ بالرفع للطير و النصب لصافات على أن الطير معطوفة على من، و صافات منتصب على الحال. و قرأ الأعرج «و الطير» بالنصب على المفعول معه، و صافات حال أيضا. قال الزجاج: و هى أجود من الرفع. و قرأ الحسن و خارجة عن نافع وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ برفعهما على الابتداء و الخبر، و مفعول صافات: محذوف، أى: أجنحتها، و خصّ الطير بالذكر مع دخولها تحت من فى السموات و الأرض لعدم استمرار استقرارها فى الأرض و كثرة لبثها فى الهواء و هو ليس من السماء و لا من الأرض، و لما فيها من الصنعة البديعة التى تقدر بها تارة على الطيران، و تارة على المشى بخلاف غيرها من الحيوانات، و ذكر حالة من حالات

---

(1). أى فى سورة الإسراء الآية: 44.

الطير، و هى كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها، أن هذه الحالة هى أغرب أحوالها، فإن استقرارها فى الهواء مسبحة من دون تحريك لأجنحتها، و لا استقرار على الأرض من أعظم صنع اللّه الذى أتقن كلّ شىء. ثم زاد فى البيان فقال: كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ أى: كلّ واحد مما ذكر، و الضمير فى علم: يرجع إلى كلّ، و المعنى: أن كل واحد من هذه المسبحات للّه قد علم صلاة المصلى، و تسبيح المسبح، و قيل المعنى: أن كلّ مصلّ و مسبح قد علم صلاة نفسه و تسبيح نفسه. قيل: و الصلاة هنا بمعنى التسبيح، و كرّر للتأكيد، و الصلاة قد تسمى تسبيحا. و قيل: المراد بالصلاة هنا الدعاء، أى: كل واحد قد علم دعاءه و تسبيحه. و فائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك أن صدور هذا التسبيح هو عن علم علمها اللّه ذلك و ألهمها إليه، لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية، و فى ذلك زيادة دلالة على بديع صنع اللّه سبحانه و عظيم شأنه، كونه جعلها مسبحة له عالمة بما يصدر منها غير جاهلة له وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها، أى: لا تخفى عليه طاعتهم و لا تسبيحهم، و يجوز أن يكون الضمير فى عَلِمَ للّه سبحانه، أى: كلّ واحد من هذه المسبحة قد علم اللّه صلاته له و تسبيحه إياه، و الأول: أرجح لاتفاق القرّاء على رفع كل، و لو كان الضمير فى علم للّه لكان نصب كل أولى. و ذكر بعض المفسرين أنها قراءة طائفة من القراء علم: على البناء للمفعول. ثم بين سبحانه أن المبدأ منه و المعاد إليه فقال: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

أى: له لا لغيره وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ لا إلى غيره، و المصير: الرجوع بعد الموت. و قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى غير موضع. ثم ذكر سبحانه دليلا آخر من الآثار العلوية، فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً الإزجاء: السوق قليلا قليلا، و منه قول النابغة:

إنى أتيتك من أهلى و من وطنىأزجى حشاشة نفس ما بها رمق

و قوله أيضا:

أسرت عليه من الجوزاء سارية‌تزجى الشّمال عليه جامد البرد

و المعنى: أنه سبحانه يسوق السحاب سوقا رقيقا إلى حيث يشاء ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ أى: بين أجزائه، فيضم بعضه إلى بعض، و يجمعه بعد تفرّقه ليقوى و يتصل و يكثف، و الأصل فى التأليف: الهمز. و قرأ ورش و قالون عن نافع يُؤَلِّفُ بالواو تخفيفا، و السحاب: واحد فى اللفظ، و لكن معناه جمع، و لهذا دخلت بين عليه لأن أجزاءه فى حكم المفردات له. قال الفراء: إن الضمير فى بينه راجع إلى جملة السحاب، كما تقول:

الشجر قد جلست بينه، لأنه جمع و أفرد الضمير باعتبار اللفظ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً أى: متراكما يركب بعضه بعضا. و الركم: جمع الشيء، يقال: ركم الشيء يركمه ركما، أى: جمعه و ألقى بعضه على بعض و ارتكم الشيء و تراكم إذا اجتمع، و الركمة: الطين المجموع، و الركام: الرمل المتراكب فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ الودق: المطر عند جمهور المفسرين، و منه قول الشاعر:

فلا مزنة و دقت و دقهاو لا أرض أبقل إبقالها

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۹

و قال امرؤ القيس:

فدمعهما و دق و سحّ و ديمةو سكب و توكاف و تنهملان

يقال: و دقت السحاب فهى وادقة المطر يدق، أى: قطر يقطر، و قيل: إنّ الودق البرق، و منه قول الشاعر:

أثرن عجاجة و خرجن منهاخروج الودق من خلل السّحاب

و الأوّل: أولى، و معنى مِنْ خِلالِهِ من فتوقه التى هى مخارج القطر، و جملة يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فى محل نصب على الحال، لأن الرؤية هنا هى البصرية. و قرأ ابن عباس و ابن مسعود و الضحاك و أبو العالية «من خلله» على الإفراد. و قد وقع الخلاف فى خلال، هل هو مفرد كحجاب؟ أو جمع كجبال؟ وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ المراد بقوله من سماء: من عال، لأن السماء قد تطلق على جهة العلوّ، و معنى من جبال: من قطع عظام تشبه الجبال، و لفظ فيها فى محل نصب على الحال، و مِنْ فى من برد للتبعيض، و هو مفعول ينزل. و قيل: إن المفعول محذوف، و التقدير: ينزل من جبال فيها من برد بردا. و قيل: إن من فى من برد زائدة، و التقدير: ينزل من السماء من جبال فيها برد. و قيل:

إن فى الكلام مضافا محذوفا، أى: ينزل من السماء قدر جبال، أو مثل جبال من برد إلى الأرض. قال الأخفش: إن من فى من جبال و فى برد زائدة فى الموضعين، و الجبال و البرد فى موضع نصب، أى: ينزل من السماء بردا يكون كالجبال. و الحاصل أن مِنْ فى من السماء لابتداء الغاية بلا خلاف و مِنْ فى من جبال فيها ثلاثة أوجه: الأوّل: لابتداء الغاية فتكون هى و مجرورها بدلا من الأولى بإعادة الخافض بدل اشتمال.

الثانى: أنها للتبعيض فتكون على هذا هى و مجرورها فى محل نصب على أنها مفعول الإنزال، كأنه قال: و ينزل بعض جبال:

الثالث: أنها زائدة، أى: ينزل من السماء جبالا. و أما مِنْ فى من برد ففيها أربعة أوجه:

الثلاثة المتقدّمة. و الرابع: أنها لبيان الجنس، فيكون التقدير على هذا الوجه: و ينزل من السماء بعض جبال التى هى البرد. قال الزجاج: معنى الآية: و ينزل من السماء من جبال برد فيها كما تقول: هذا خاتم فى يدى من حديد، أى: خاتم حديد فى يدى،

لأنك إذا قلت هذا خاتم من حديد و خاتم حديد كان المعنى واحدا انتهى. و على هذا يكون من برد فى موضع جرّ صفة لجبال كما كان من حديد صفة لخاتم و يكون مفعول ينزل من جبال، و يلزم من كون الجبال بردا أن يكون المنزل بردا. و ذكر أبو البقاء أن التقدير: شيئا من جبال، فحذف الموصوف و اكتفى بالصفة فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ أى: يصيب بما ينزل من البرد من يشاء أن يصيبه من عباده وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ منهم، أو يصيب به مال من يشاء و يصرفه عن مال من يشاء، و قد تقدّم الكلام عن مثل هذا فى البقرة يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ السنا: الضوء، أى: يكاد ضوء البرق الذى فى السحاب يذهب بالأبصار من شدّة بريقه، و زيادة لمعانه، و هو كقوله: يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ قال الشماخ:

و ما كادت إذا رفعت سناهاليبصر ضوءها إلّا البصير

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰

و قال امرؤ القيس:

يضىء سناه أو مصابيح راهبأهان السّليط فى الذّبال المفتّل

فالسنا بالقصر: ضوء البرق، و بالمدّ: الرفعة، كذا قال المبرّد و غيره. و قرأ طلحة بن مصرف و يحيى ابن وثاب سَنا بَرَقِهِ بالمدّ على المبالغة فى شدّة الضوء و الصفاء، فأطلق عليه اسم الرفعة و الشرف. و قرأ طلحة و يحيى أيضا بضم الباء من برقه و فتح الراء. قال أحمد بن يحيى ثعلب: و هى على هذه القراءة جمع برق.

و قال النحاس: البرقة المقدار من البرق و البرقة الواحدة. و قرأ الجحدرى و ابن القعقاع «يذهب» بضم الياء و كسر الهاء من الإذهاب. و قرأ الباقون سَنا بالقصر، و بَرْقِهِ بفتح الباء، و سكون الراء، و يَذْهَبُ بفتح الياء و الهاء من الذهاب، و خطأ قراءة الجحدرى و ابن القعقاع الأخفش و أبو حاتم.

و معنى ذهاب البرق بالأبصار: خطفه إياها من شدة الإضاءة و زيادة البريق، و الباء فى الأبصار على قراءة الجمهور: للإلصاق، و على قراءة غيرهم: زائدة يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ أى: يعاقب بينهما، و قيل:

يزيد فى أحدهما و ينقص الآخر، و قيل: يقلبهما باختلاف ما يقدره فيهما من خير و شرّ و نفع و ضرّ، و قيل:

بالحرّ و البرد، و قيل: المراد بذلك تغيير النهار بظلمة السحاب مرّة و بضوء الشمس أخرى، و تغيير الليل بظلمة السحاب تارة، و بضوء القمر أخرى، و الإشارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ إلى ما تقدّم، و معنى العبرة: الدلالة الواضحة التى يكون بها الاعتبار، و المراد بأولى الأبصار: كل من له بصر و يبصر به.

ثم ذكر سبحانه دليلا ثالثا من عجائب خلق الحيوان، و بديع صنعته فقال: وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش و حمزة و الكسائى «و اللّه خالق كلّ دابّة» و قرأ الباقون خَلَقَ و المعنيان صحيحان، و الدابة: كل ما دبّ على الأرض من الحيوان، يقال: دبّ يدبّ فهو دابّ، و الهاء: للمبالغة، و معنى مِنْ ماءٍ من نطفة، و هى: المنىّ، كذا قال الجمهور. و قال جماعة: إن المراد الماء المعروف، لأن آدم خلق من الماء و الطين. و قيل: فى الآية تنزيل الغالب منزلة الكل على القول الأوّل، لأن فى الحيوانات من لا يتولد عن نطفة، و يخرج من هذا العموم الملائكة فإنهم خلقوا من نور، و الجانّ فإنهم خلقوا من نار.

ثم فصل سبحانه أحوال كلّ دابة فقال: فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ و هى: الحيات، و الحوت، و الدود، و نحو ذلك وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ الإنسان و الطير وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ سائر الحيوانات، و لم يتعرّض لما يمشى على أكثر من أربع لقلته، و قيل: لأن المشى على أربع فقط و إن كانت القوائم كثيرة، و قيل: لعدم الاعتداد بما يمشى على أكثر من أربع، و لا وجه لهذا فإن المراد التنبيه على بديع الصنع و كمال القدرة، فكيف يقال بعدم الاعتداد بما يمشى على أكثر من أربع؟ و قيل: ليس فى القرآن ما يدلّ على عدم المشى على أكثر من أربع، لأنه لم ينف ذلك و لا جاء بما يقتضى الحصر، و فى مصحف أبىّ «و منهم

من يمشى على أكثر» فعمّ بهذه الزيادة جميع ما يمشى على أكثر من أربع: كالسرطان و العناكب و كثير من خشاش الأرض يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ مما ذكره هاهنا، و مما لم يذكره، كالجمادات مركبها و بسيطها، ناميها و غير ناميها إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شىء، بل الكلّ من مخلوقاته داخل تحت قدرته

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۱

فتح القدير ج۴ ۹۹

سبحانه لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ أى: القرآن، فإنه قد اشتمل على بيان كلّ شىء، و ما فرّطنا فى الكتاب من شىء، و قد تقدّم بيان مثل هذا فى غير موضع وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ بتوفيقه للنظر الصحيح، و إرشاده إلى التأمل الصادق إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ إلى طريق مستوى لا عوج فيه، فيتوصل بذلك إلى الخير التام و هو نعيم الجنة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ قال: هو مثل ضربه اللّه لرجل عطش، فاشتدّ عطشه، فرأى سرابا فحسبه ماء، فطلبه فظن أنه قدر عليه حتى أتى، فلما أتاه لم يجده شيئا، و قبض عند ذلك، يقول: الكافر كذلك السراب إذا أتاه الموت لم يجد عمله يغنى عنه شيئا، و لا ينفعه إلا كما نفع السراب العطشان يَغْشاهُ مَوْجٌ يعنى بذلك: الغشاوة التى على القلب و السمع و البصر. و أخرج ابن جرير عنه بقيعة: بأرض مستوية. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق السدّى عن أبيه عن أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلم «إنّ الكفّار يبعثون يوم القيامة وردا عطاشا، فيقولون: أين الماء؟ فيتمثّل لهم السّراب، فيحسبونه ماء، فينطلقون إليه فيجدون اللّه عنده فيوفّيهم حسابه، و اللّه سريع الحساب» و فى إسناده السدّى عن أبيه، و فيه مقال معروف. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى العظمة فى قوله: كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ قال: الصلاة للإنسان و التسبيح لما سوى ذلك من خلقه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ قال: بسط أجنحتهن. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يقول: ضوء برقه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن ابن عباس قال: كل شىء يمشى على أربع إلا الإنسان. و أقول: هذه الطيور على اختلاف أنواعها تمشى على رجلين، و هكذا غيرها، كالنعامة فإنها تمشى على رجلين، و ليست من الطير، فهذه الكلية المروية عنه رضى اللّه عنه لا تصحّ.

[سورة النور (۲۴): الآيات ۴۷ الى ۵۷]

وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۴۷) وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (۴۸) وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (۴۹) أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۵۰) إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵۱)

وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (۵۲) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۵۳) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۵۴) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۵۵) وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ (۵۶)

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَأْواهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (۵۷)

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۲

شرع سبحانه فى بيان أحوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم فقال: وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا و هؤلاء هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان، و يبطنون الكفر، و يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، فإنهم كما حكى اللّه عنهم هاهنا ينسبون إلى أنفسهم الإيمان باللّه و بالرسول و الطاعة للّه و لرسوله نسبة بمجرد اللسان، لا عن اعتقاد صحيح، و لهذا قال: ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ أى: من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى: من بعد ما صدر عنهم ما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان و الطاعة، ثم حكم عليهم سبحانه و تعالى بعدم الإيمان فقال: وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ أى: ما أولئك القائلون هذه المقالة بالمؤمنين على الحقيقة، فيشمل الحكم بنفى الإيمان جميع القائلين، و يندرج تحتهم من تولى اندراجا أوّليا. و قيل: إن الإشارة بقوله: أُولئِكَ راجع إلى من تولى، و الأوّل: أولى. و الكلام مشتمل على حكمين: الحكم الأوّل على بعضهم بالتولى، و الحكم الثانى على جميعهم: بعدم الإيمان. و قيل: أراد بمن تولى:

من تولى عن قبول حكمه صلّى اللّه عليه و سلم، و قيل: أراد بذلك رؤساء المنافقين، و قيل: أراد بتولى هذا الفريق رجوعهم إلى الباقين، و لا ينافى ما تحتمله هذه الآية باعتبار لفظها ورودها على سبب خاص كما سيأتى بيانه. ثم وصف هؤلاء المنافقين بأن فريقا منهم يعرضون عن إجابة الدعوة إلى اللّه و إلى رسوله فى خصوماتهم، فقال: وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أى: ليحكم الرسول بينهم، فالضمير راجع إليه لأنه المباشر للحكم و إن كان الحكم فى الحقيقة للّه سبحانه، و مثل ذلك قوله تعالى: وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ و إذا فى قوله: إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ هى الفجائية، أى: فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إلى اللّه و الرسول، ثم ذكر سبحانه أن إعراضهم إنما هو إذا كان الحقّ عليهم، و أما إذا كان لهم، فإنهم يذعنون لعلمهم بأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لا يحكم إلا بالحق، فقال: وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ قال الزجاج: الإذعان: الإسراع مع الطاعة، يقال: أذعن لى بحقى، أى: طاوعنى لما كنت ألتمس منه و صار يسرع إليه، و به قال مجاهد. و قال الأخفش و ابن الأعرابى: مذعنين مقرّين. و قال النقاش: مذعنين:

خاضعين. ثم قسم الأمر فى إعراضهم عن حكومته إذا كان الحقّ عليهم فقال: أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و هذه الهمزة للتوبيخ و التقريع لهم، و المرض: النفاق، أى: أ كان هذا الإعراض منهم بسبب النفاق الكائن فى قلوبهم أَمِ ارْتابُوا و شكوا فى أمر نبوّته صلّى اللّه عليه و سلم و عدله فى الحكم أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ و الحيف: الميل فى الحكم؛ يقال: حاف فى قضيته، أى: جار فيما حكم به، ثم أضرب عن هذه الأمور التى صدّرها بالاستفهام الإنكارى فقال: بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ أى: ليس ذلك لشىء مما ذكر، بل لظلمهم و عنادهم؛ فإنه لو كان الإعراض لشىء مما ذكر لما أتوا إليه مذعنين إذا كان الحق لهم، و فيه هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضى العالم بحكم اللّه، العادل فى حكمه، لأن العلماء ورثة الأنبياء، و الحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم اللّه العارفين بالكتاب و السنة العادلين فى القضاء هو حكم بحكم اللّه،

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳

و حكم رسوله، فالداعى إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى اللّه و إلى رسوله، أى: إلى حكمهما. قال ابن خويز منداد:

واجب على كل من دعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق. قال القرطبى: فى هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعى إلى الحاكم، لأن اللّه سبحانه ذمّ من دعى إلى رسوله ليحكم بينه و بين خصمه فلم يجب بأقبح الذمّ، فقال: أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ الآية. انتهى، فإن كان القاضى مقصرا، لا يعلم بأحكام الكتاب و السنة، و لا يعقل حجج اللّه، و معانى كلامه،

و كلام رسوله، بل كان جاهلا- جهلا- بسيطا، و هو من لا- علم له بشىء من ذلك، أو جهلا مركبا، و هو من لا علم عنده بما ذكرنا، و لكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين، و اطلع على شىء من علم الرأى، فهذا فى الحقيقة جاهل، و إن اعتقد أنه يعلم بشىء من العلم، فاعتقاده باطل؛ فمن كان من القضاة هكذا، فلا تجب الإجابة إليه، لأنه ليس ممن يعلم بحكم اللّه و رسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين إليه، بل هو من قضاة الطاغوت، و حكام الباطل، فإنّ ما عرفه من علم الرأى إنما رخص فى العمل به للمجتهد الذى هو منسوب إليه، عند عدم الدليل من الكتاب و السنة، و لم يرخص فيه لغيره ممن يأتى بعده. و إذا تقرّر لديك هذا و فهمته حق فهمه علمت أن التقليد و الانتساب إلى عالم من العلماء دون غيره و التقيد بجميع ما جاء به من رواية و رأى و إهمال ما عداه من أعظم ما حدث فى هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة، و الفواقر الموحشة، فإنا للّه و إنا إليه راجعون. و قد أوضحنا هذا فى مؤلفنا الذى سميناه [القول المفيد فى حكم التقليد] و فى مؤلفنا الذى سميناه [أدب الطلب و منتهى الأرب فمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التى طبقت الأقطار الإسلامية فليرجع إليهما. ثم لما ذكر ما كان عليه أهل النفاق، أتبع بما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا دعوا إلى حكم اللّه و رسوله، فقال: إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا قرأ الجمهور: بنصب (قول) على أنه خبر كان و اسمها أن يقولوا. و قرأ علىّ و الحسن و ابن أبى إسحاق برفع «قول» على أنه الاسم، و أن المصدرية و ما فى حيزها الخبر، و قد رجحت القراءة الأولى بما تقرّر عند النحاة من أنه إذا اجتمع معرفتان، و كانت إحداهما أعرف، جعلت التى هى أعرف اسما. و أما سيبويه فقد خير بين كلّ معرفتين و لم يفرق هذه التفرقة، و قد قدّمنا الكلام على الدعوة إلى اللّه و رسوله للحكم بين المتخاصمين، و ذكرنا من تجب الإجابة إليه من القضاة، و من لا- تجب أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا أى: أن يقولوا هذا القول لا- قولا آخر، و هذا و إن كان على طريقة الخبر فليس المراد به ذلك، بل المراد به تعليم الأدب الشرعى عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر. و المعنى: أنه ينبغى للمؤمنين أن يكونوا هكذا بحيث إذا سمعوا الدعاء المذكور قابلوه بالطاعة و الإذعان. قال مقاتل و غيره: يقولون سمعنا قول النبى صلّى اللّه عليه و سلم و أطعنا أمره، و إن كان ذلك فيما يكرهونه و يضرّهم، ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله: وَ أُولئِكَ أى: المؤمنون الذين قالوا هذا القول هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى: الفائزون بخير الدنيا و الآخرة، ثم أردف الثناء عليهم بثناء آخر، فقال: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ و هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من حسن حال المؤمنين و ترغيب من عداهم إلى الدخول فى عدادهم و المتابعة لهم فى طاعة اللّه و رسوله و الخشية من اللّه عزّ و جلّ و التقوى

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴

له. قرأ حفص وَ يَتَّقْهِ بإسكان القاف على نية الجزم. و قرأ الباقون بكسرها، لأن جزم هذا الفعل بحذف آخره، و أسكن الهاء أبو عمرو و أبو بكر و اختلس الكسرة يعقوب و قالون عن نافع و المثنى عن أبى عمرو و حفص و أشبع كسرة الهاء الباقون. قال ابن الأنبارى: و قراءة حفص هى على لغة من قال: لم أر زيدا، و لم أشتر طعاما يسقطون الياء للجزم ثم يسكنون الحرف الذى قبلها و منه قول الشاعر:

قالت سليمى اشتر لنا دقيقا و قول الآخر:

عجبت لمولود و ليس له أبو ذى ولد لم يلده أبوان

و أصله يلد بكسر اللام، و سكون الدال للجزم، فلما سكن اللام التقى ساكنان، فلو حرك الأوّل لرجع إلى ما وقع الفرار منه، فحرك ثانيهما و هو الدال. و يمكن أن يقال إنه حرك الأوّل على أصل التقاء الساكنين، و بقى السكون على الدال لبيان ما عليه أهل هذه اللغة و لا يضرّ الرجوع إلى ما وقع الفرار منه، فهذه الحركة غير تلك الحركة و الإشارة بقوله: فأولئك هم الفائزون إلى الموصوفين بما ذكر من الطاعة و الخشية و التقوى، أى: هم الفائزون بالنعيم الدنيوى، و الأخروى، لا- من عداهم. ثم حكى

سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه، أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا فقال: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَ أى: لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن، و جهد أيمانهم منتصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف الناصب له، أى: أقسموا باللّه يجهدون أيمانهم جهدا. و معنى جهد أيمانهم: طاقة ما قدروا أن يحلفوا، مأخوذ من قولهم جهد نفسه: إذا بلغ طاقتها و أقصى وسعها. و قيل: هو منتصب على الحال و التقدير: مجتهدين فى أيمانهم، كقولهم: افعل ذلك جهدك، و طاقتك، و قد خلط الزمخشرى الوجهين فجعلهما واحدا. و جواب القسم قوله: لَيَخْرُجُنَ و لما كانت مقالتهم هذه كاذبة، و أيمانهم فاجرة ردّ اللّه عليهم، فقال: قُلْ لا تُقْسِمُوا أى: ردّ عليهم زاجرا لهم، و قل لهم لا تقسموا، أى: لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة و الخروج إلى الجهاد إن أمرتم به، و هاهنا تمّ الكلام. ثم ابتدأ فقال: طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ و ارتفاع طاعة على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: طاعتهم طاعة معروفة بأنها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد، و يجوز أن تكون طاعة مبتدأ، لأنها قد خصصت بالصفة، و يكون الخبر مقدرا، أى: طاعة معروفة أولى بكم من أيمانكم، و يجوز أن ترتفع بفعل محذوف، أى: لتكن منكم طاعة أو لتوجد، و فى هذا ضعف لأن الفعل لا يحذف إلا إذا تقدّم ما يشعر له. و قرأ زيد بن علىّ، و الترمذى، طاعة بالنصب على المصدر لفعل محذوف، أى: أطيعوا طاعة إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ من الأعمال و ما تضمرونه من المخالفة لما تنطق به ألسنتكم، و هذه الجملة تعليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق. ثم أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم أن يأمرهم بطاعة اللّه و رسوله فقال:

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ طاعة ظاهرة و باطنة، بخلوص اعتقاد، و صحة نية، و هذا التكرير منه تعالى لتأكيد وجوب الطاعة عليهم، فإن قوله: قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ فى حكم الأمر بالطاعة، و قيل:

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۵۵

إنهما مختلفان، فالأوّل: نهى بطريق الردّ و التوبيخ، و الثانى: أمر بطريق التكليف لهم، و الإيجاب عليهم فَإِنْ تَوَلَّوْا خطاب للمأمورين، و أصله فإن تتولوا فحذف إحدى التاءين تخفيفا، و فيه رجوع من الخطاب مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى الخطاب لهم لتأكيد الأمر عليهم، و المبالغة فى العناية بهدايتهم إلى الطاعة و الانقياد، و جواب الشرط قوله: فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ أى: فاعلموا أنما على النبى صلّى اللّه عليه و سلم ما حمل مما أمر به من التبليغ و قد فعل، و عليكم ما حملتم، أى: ما أمرتم به من الطاعة، و هو وعيد لهم، كأنه قال لهم: فإن توليتم فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل وَ إِنْ تُطِيعُوهُ فيما أمركم به و نهاكم عنه تَهْتَدُوا إلى الحق و ترشدوا إلى الخير و تفوزوا بالأجر، و جملة وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ مقرّرة لما قبلها، و اللام: إما للعهد، فيراد بالرسول نبينا صلّى اللّه عليه و سلم، و إما للجنس، فيراد كل رسول، و البلاغ المبين: التبليغ الواضح، أو الموضح قيل: يجوز أن يكون قوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا ماضيا و تكون الواو لضمير الغائبين، و تكون هذه الجملة الشرطية مما أمر به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يقول لهم، و يكون فى الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، و الأوّل أرجح. و يؤيده الخطاب فى قوله: وَ عَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ و فى قوله: وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا و يؤيده أيضا قراءة البزى فَإِنْ تَوَلَّوْا بتشديد التاء، و إن كانت ضعيفة لما فيها من الجمع بين ساكنين وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من أن طاعتهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سبب لهدايتهم، و هذا وعد من اللّه سبحانه لمن آمن باللّه، و عمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من الأمم، و هو وعد يعم جميع الأمة. و قيل: هو خاص بالصحابة، و لا وجه لذلك، فإن الإيمان و عمل الصالحات لا يختص بهم، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، و من عمل بكتاب اللّه و سنة رسوله فقد أطاع اللّه و رسوله، و اللام فى لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ جواب لقسم محذوف، أو جواب للوعد بتنزيله منزلة القسم، لأنه ناجز لا محالة، و معنى ليستخلفنهم فى الأرض: ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك فى مملوكاتهم، و قد

أبعد من قال إنها مختصة بالخلفاء الأربعة، أو بالمهاجرين، أو بأن المراد بالأرض أرض مكة، و قد عرفت أن الإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و ظاهر قوله: كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كل من استخلفه اللّه فى أرضه فلا يخصّ ذلك ببنى إسرائيل و لا أمة من الأمم دون غيرها. قرأ الجمهور كَمَا اسْتَخْلَفَ بفتح الفوقية على البناء للفاعل.

و قرأ عيسى بن عمر و أبو بكر و المفضل عن عاصم بضمها على البناء للمفعول، و محل الكاف النصب على المصدرية، أى: استخلافا كما استخلف، و جملة وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ معطوفة على ليستخلفنهم داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب، و المراد بالتمكين هنا: التثبيت و التقرير، أى: يجعله اللّه ثابتا مقرّرا يوسع لهم فى البلاد، و يظهر دينهم على جميع الأديان، و المراد بالدين هنا: الإسلام، كما فى قوله: وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً «1» ذكر سبحانه و تعالى الاستخلاف لهم أوّلا، و هو جعلهم ملوكا و ذكر التمكين ثانيا، فأفاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض و الطروّ، بل على وجه الاستقرار و الثبات،

____

(1). المائدة: 3.

فتح القدير، ج‏4، ص: 56

بحيث يكون الملك لهم و لعقبهم من بعدهم، و جملة وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً معطوفة على التى قبلها. قرأ ابن كثير و ابن محيصن و يعقوب و أبو بكر لَيُبَدِّلَنَّهُمْ بالتخفيف من أبدل، و هى قراءة الحسن، و اختارها أبو حاتم. و قرأ الباقون بالتشديد من بدّل، و اختارها أبو عبيد، و هما لغتان، و زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى، فقراءة التشديد أرجح من قراءة التخفيف. قال النحاس: و زعم أحمد بن يحيى ثعلب أن بين التخفيف و التثقيل فرقا، و أنه يقال بدّلته، أى: غيرته، و أبدلته: أزلته و جعلت غيره. قال النحاس، و هذا القول صحيح. و المعنى: أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمنا، و يذهب عنهم أسباب الخوف الذى كانوا فيه بحيث لا يخشون إلا اللّه سبحانه و لا يرجون غيره. و قد كان المسلمون قبل الهجرة و بعدها بقليل فى خوف شديد من المشركين، و لا يخرجون إلا فى السلاح، و لا يمسون و يصبحون إلى على ترقب لنزول المضرّة بهم من الكفار، ثم صاروا فى غاية الأمن و الدعة، و أذلّ اللّه لهم شياطين المشركين و فتح عليهم البلاد، و مهّد لهم فى الأرض، و مكّنهم منها، فلله الحمد، و جملة يَعْبُدُونَنِي فى محل نصب على الحال و يجوز أن تكون مستأنفة مسوقة للثناء عليهم، و جملة لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً فى محل نصب على الحال من فاعل يعبدوننى، أى: يعبدوننى، غير مشركين بى فى العبادة شيئا من الأشياء، و قيل معناه: لا يراءون بعبادتى أحدا، و قيل معناه: لا يخافون غيرى، و قيل معناه: لا يحبون غيرى وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ أى: من كفر هذه النعم بعد ذلك الوعد الصحيح، أو من استمرّ على الكفر، أو من كفر بعد إيمان، فأولئك الكافرون همّ الفاسقون؛ أى: الكاملون فى الفسق. و هو الخروج عن الطاعة و الطغيان فى الكفر و جملة وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ معطوفة على مقدّر يدلّ عليه ما تقدّم، كأنه قيل لهم: فآمنوا و اعملوا صالحا و أقيموا الصلاة، و قيل: معطوف على أَطِيعُوا اللَّهَ و قيل التقدير: فلا تكفروا و أقيموا الصلاة. و قد تقدّم الكلام على إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة، و كرّر الأمر بطاعة الرسول للتأكيد و خصه بالطاعة، لأن طاعته طاعة للّه، و لم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم كما يشعر به الحذف على ما تقرّر فى علم المعانى، من أن مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أى: افعلوا ما ذكر من إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و طاعة الرسول، راجين أن يرحمكم اللّه سبحانه لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ قرأ ابن عامر و حمزة و أبو حيوة «لا يحسبنّ» بالتحتية بمعنى: لا يحسبنّ الذين كفروا، و قرأ الباقون بالفوقية، أى:

لا تحسبنّ يا محمد، و الموصول: المفعول الأوّل، و معجزين: الثانى، لأن الحسبان يتعدّى إلى مفعولين، قاله الزجاج و الفرّاء و أبو

على. و أما على القراءة الأولى، فيكون المفعول الأول محذوفا، أي: لا يحسبنّ الذين كفروا أنفسهم. قال النحاس: و ما علمت أحدا بصريا و لا كوفيا إلا و هو يخطئ قراءة حمزة، و معجزين معناه:
فائتين. و قد تقدّم تفسيره و تفسير ما بعده.
و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ الآية قال: أناس من المنافقين أظهروا الإيمان و الطاعة، و هم فى ذلك يصدّون عن سبيل اللّه و طاعته، و جهاد مع رسوله صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرجوا أيضا عن الحسن قال: إن الرجل كان يكون بينه و بين الرجل خصومة، أو منازعة

على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فإذا دعى إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم و هو محقّ أذعن و علم أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم سيقضى له بالحقّ، و إذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم أعرض و قال: أنطلق إلى فلان، فأنزل اللّه سبحانه وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إلى قوله: هُمُ الظَّالِمُونَ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من كان بينه و بين أخيه شىء فدعاه إلى حكم من حكّام المسلمين فلم يجب، فهو ظالم لا حقّ له». قال ابن كثير بعد أن ساق هذا المتن ما لفظه: و هذا حديث غريب و هو مرسل. و قال ابن العربى: هذا حديث باطل، فأما قوله: فهو ظالم، فكلام صحيح. و أما قوله: فلا حق له، فلا يصح. و يحتمل أن يريد أنه على غير الحق انتهى. و أقول: أما كون الحديث مرسلا فظاهر. و أما دعوى كونه باطلا فمحتاجة إلى برهان، فقد أخرجه ثلاثة من أئمة الحديث عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم كما ذكرنا، و يبعد كل البعد أن ينفق عليهم ما هو باطل، و إسناده عند ابن أبى حاتم هكذا: قال ابن أبى حاتم: حدّثنا أبىّ، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدّثنا مبارك، حدّثنا الحسن فذكره. و ليس فى هؤلاء كذاب و لا وضاع. و يشهد له ما أخرجه الطبرانى عن الحسن عن سمرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من دعى إلى سلطان فلم يجب، فهو ظالم لا حقّ له». انتهى. و لا يخفاك أن قضاة العدل و حكام الشرع الذين هم على الصفة التى قدّمنا لك قريبا هم سلاطين الدين المترجمون عن الكتاب و السنة، المبينون للناس ما نزل إليهم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أتى قوم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فقالوا: يا رسول اللّه! لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا، فأنزل اللّه وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى الآية قال: ذلك فى شأن الجهاد، قال يأمرهم أن لا يحلفوا على شىء طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ قال أمرهم أن يكون منهم طاعة معروفة للنبى صلّى اللّه عليه و سلم من غير أن يقسموا. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ يقول: قد عرفت طاعتكم، أى: إنكم تكذبون به. و أخرج مسلم و الترمذى و غيرهما عن علقمة بن وائل الحضرمى عن أبيه قال: «قدم زيد بن أسلم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: أ رأيت إن كان علينا أمراء يأخذون منّا الحقّ و لا يعطونا؟ قال: فإنّما عليهم ما حمّلوا و عليكم ما حمّلتم» و أخرج ابن جرير و ابن قانع و الطبرانى عن علقمة بن وائل الحضرمى عن سلمة بن يزيد الجعفى قال: قلت يا رسول اللّه، فذكر نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن الزبير عن جابر أنه سأل: إن كان علىّ إمام فاجر فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا؟ قال: قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم، و على الإمام ما حمل و عليكم ما حملتم. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن البراء فى قوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ الآية. قال: فينا نزلت و نحن فى خوف شديد، و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و أصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون إلى اللّه وحده و عبادته وحده لا شريك له سرّا، و هم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموا المدينة، فأمرهم اللّه بالقتال، و كانوا بها خائفين يمسون فى السلاح و يصبحون فى السلاح، فغبروا «۱» بذلك ما شاء اللّه، ثم إن رجلا من أصحابه قال: يا رسول اللّه! أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ ما يأتى علينا يوم نأمن فيه و نضع فيه السلاح؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: لن تغبروا إلا

(۱). غبر، يغبر غبورا: بقى. و الغابرين: الماكثين الباقين.

يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيهم حديدة، فأنزل اللّه وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ إلى آخر الآية، فأظهر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم على جزيرة العرب، فأمنوا و وضعوا السلاح. ثم إن اللّه قبض نبيه فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر و عمر و عثمان حتى وقعوا فيما وقعوا و كفروا النعمة، فأدخل اللّه عليهم الخوف الذى كان رفع عنهم، و اتخذوا الحجر و الشرط، و غيروا فغير ما بهم. و أخرج ابن المنذر و الطبرانى فى الأوسط و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل و الضياء فى المختارة عن أبيّ بن كعب، قال: لما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم المدينة، و آوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا لا يبيتون إلا فى السلاح و لا يصبحون إلا فيه، فقالوا: أ ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا اللّه، فنزلت وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ الآية. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً قال: لا يخافون أحدا غيرى. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد مثله، قال: وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ العاصون. و أخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال: كفر بهذه النعمة، ليس الكفر باللّه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ قال: سابقين فى الأرض.

[سورة النور (۲۴): الآيات ۵۸ الى ۶۱]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۸) وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۹) وَ الْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۶۰) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۱)

لما فرغ سبحانه من ذكر ما ذكره من دلائل التوحيد رجع إلى ما كان فيه من الاستئذان فذكره هاهنا على وجه أخصّ فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ و الخطاب للمؤمنين و تدخل المؤمنات فيه تغليبا كما فى غيره من الخطابات. قال العلماء: هذه الآية خاصة ببعض الأوقات. و اختلفوا فى

المراد بقوله: لِيَسْتَأْذِنْكُمُ على أقوال: الأوّل أنها منسوخة، قاله سعيد بن المسيب. و قال سعيد بن جبير: إن الأمر فيها للندب لا للوجوب. و قيل: كان ذلك واجبا حيث كانوا لا أبواب لهم و لو عاد الحال لعاد الوجوب، حكاه المهدوى عن ابن عباس. و قيل: إن الأمر هاهنا للوجوب، و إن الآية محكمة غير منسوخة، و أن حكمها ثابت على الرجال و النساء؛ قال

القرطبى: و هو قول أكثر أهل العلم. و قال أبو عبد الرحمن السلمى: إنها خاصة بالنساء. و قال ابن عمر: هى خاصة بالرجال دون النساء. و المراد بقوله: مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ العبيد و الإماء، و المراد بالذين لم يبلغوا الحلم الصبيان منكم، أى: من الأحرار، و معنى ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثلاثة أوقات فى اليوم و الليلة، و عبر بالمرات عن الأوقات، و انتصاب ثلاث مرات على الظرفية الزمانية، أى: ثلاثة أوقات، ثم فسر تلك الأوقات بقوله: مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ إلخ، أو منصوب على المصدرية، أى: ثلاث استئذانات؛ و رجح هذا أبو حيان فقال: و الظاهر من قوله: ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثلاث استئذانات، لأنك إذا قلت ضربتك ثلاث مرات لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات. و يردّ بأن الظاهر هنا متروك للقرينة المذكورة، و هو التفسير بالثلاثة الأوقات. و قرأ الحسن و أبو عمرو فى رواية الحلم بسكون اللام، و قرأ الباقون بضمها. قال الأخفش: الحلم من حلم الرجل بفتح اللام، و من الحلم حلم بضم اللام يحلم بكسر اللام، ثم فسر سبحانه الثلاث المرات فقال: مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ و ذلك لأنه وقت القيام عن المضاجع، و طرح ثياب النوم، و لبس ثياب اليقظة، و ربما يبيت عريانا، أو على حال لا يحبّ أن يراه غيره فيها، و محله النصب على أنه بدل من ثلاث، و يجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هى من قبل، و قوله: وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ معطوف على محل مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ و مِنْ فى مِنَ الظَّهِيرَةِ للبيان، أو بمعنى فى، أو بمعنى اللام. و المعنى: حين تضعون ثيابكم التى تلبسونها فى النهار من شدة حرّ الظهيرة، و ذلك عند انتصاف النهار، فإنهم قد يتجرّدون من الثياب لأجل القيلولة. ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث فقال: وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ و ذلك لأنه وقت التجرد عن الثياب و الخلوة بالأهل، ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل فقال: ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ قرأ الجمهور ثَلاثُ عَوْراتٍ برفع ثلاث، و قرأ حمزة و أبو بكر عن عاصم بالنصب على البدل من ثلاث مرات. قال ابن عطية: إنما يصح البدل بتقدير أوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه، و يحتمل أنه جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مبالغة؛ و يجوز أن يكون ثلاث عورات بدلا من الأوقات المذكورة، أى: من قبل صلاة الفجر إلخ؛ و يجوز أن تكون منصوبة بإضمار فعل، أى: أعنى و نحوه، و أما الرفع فعلى أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هنّ ثلاث. قال أبو حاتم: النصب ضعيف مردود.

و قال الفراء: الرفع أحبّ إلىّ، قال: و إنما اخترت الرفع لأن المعنى هذه الخصال ثلاث عورات. و قال الكسائى: إن ثلاث عورات مرتفعة بالابتداء و الخبر ما بعدها. قال: و العورات الساعات التى تكون فيها العورة. قال الزجاج: المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف، و أقيم المضاف إليه مقامه، و عورات جمع عورة، و العورة: فى الأصل الخلل، ثم غلب فى الخلل الواقع فيما يهمّ حفظه و يتعين ستره،

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۰

أى: هى ثلاث أوقات يختلّ فيها الستر. و قرأ الأعمش «عورات» بفتح الواو، و هى لغة هذيل و تميم فإنهم يفتحون عين فعلات سواء كان واوا أو ياء، و منه:

أخو بيضات رائح متأوّب رفيق بمسح المنكبين سبوح

و قوله:

أبو بيضات رائح أو مبعد عجلان ذا زاد و غير مزوّد

و «لكم» متعلق بمحذوف هو صفة لثلاث عورات؛ أى: كائنة لكم، و الجملة مستأنفة مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَ أى: ليس على المماليك و لا على الصبيان جناح، أى: إثم فى الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر، و الاطلاع على العورات. و معنى بعدهنّ: بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث، و هى: الأوقات المتخللة بين كلّ اثنين منها، و هذه الجملة مستأنفة مقرّرة للأمر بالاستئذان فى تلك الأحوال خاصة، و يجوز أن تكون فى محل

رفع صفة لثلاث عورات على قراءة الرفع فيها. قال أبو البقاء بَعْدَهُنَ أى: بعد استئذانهم فيهنّ، ثم حذف حرف الجرّ و المجرور فبقى بعد استئذانهم، ثم حذف المصدر و هو الاستئذان، و الضمير المتصل به. و ردّ بأنه لا حاجة إلى هذا التقدير الذى ذكره، بل المعنى: ليس عليكم جناح و لا عليهم، أى: العبيد و الإماء و الصبيان جناح فى عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المذكورة، و ارتفاع طَوَّافُونَ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هم طوّافون عليكم، و الجملة مستأنفة مبينة للعذر المرخص فى ترك الاستئذان. قال الفراء: هذا كقولك فى الكلام هم خدمكم و طوّافون عليكم، و أجاز أيضا نصب طوّافين لأنه نكرة، و المضمر فى عَلَيْكُمْ معرفة و لا يجيز البصريون أن تكون حالا من المضمرين اللذين فى عليكم و فى بعضكم لاختلاف العاملين. و معنى طوّافون عليكم، أى: يطوفون عليكم، و منه الحديث فى الهرّة «إنّما هى من الطّوّافين عليكم أو الطّوّافات» أى: هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم فى غير هذه الأوقات بغير إذن، و معنى بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ بعضكم يطوف أو طائف على بعض، و هذه الجملة بدل مما قبلها أو مؤكدة لها. و المعنى أن كلا منكم يطوف على صاحبه، العبيد على الموالى، و الموالى على العبيد، و منه قول الشاعر:

و لما قرعنا النبع بالنبع بعضهببعض أبت عيدانه أن تكسّرا

و قرأ ابن أبى عبلة «طوّافين» بالنصب على الحال كما تقدم عن الفراء، و إنما أباح سبحانه الدخول فى غير تلك الأوقات الثلاثة بغير استئذان؛ لأنها كانت العادة أنهم لا يكشفون عوراتهم فى غيرها، و الإشارة بقوله:

كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ إلى مصدر الفعل الذى بعده، كما فى سائر المواضع فى الكتاب العزيز، أى: مثل ذلك التبيين يبين اللّه لكم الآيات الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ كثير العلم بالمعلومات، و كثير الحكمة فى أفعاله وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ بين سبحانه هاهنا حكم الأطفال الأحرار إذا بلغوا الحلم بعد ما بين فيما مرّ حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، فى أنه لا جناح عليهم

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۱

فى ترك الاستئذان، فيما عدا الأوقات الثلاثة فقال: فَلْيَسْتَأْذِنُوا يعنى: الذين بلغوا الحلم إذا دخلوا عليكم كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و الكاف: نعت مصدر محذوف، أى: استئذانا كما استأذن الذين من قبلهم، و الموصول عبارة عن الذين قيل لهم لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا الآية.

و المعنى: أن هؤلاء الذين بلغوا الحلم يستأذنون فى جميع الأوقات كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء، ثم كرّر ما تقدم للتأكيد فقال: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ و قرأ الحسن الْحُلُمَ فحذف الضمة لثقلها. قال عطاء: واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا أحرارا كانوا أو عبيدا. و قال الزهرى: يستأذن الرجل على أمه، و فى هذا المعنى نزلت هذه الآية، و المراد بالقواعد من النساء: العجائز اللاتى قعدن عن الحيض، و الولد من الكبر، واحدتها قاعد بلا هاء ليدلّ حذفها على أنه قعود الكبر، كما قالوا: امرأة حامل ليدلّ بحذف الهاء على أنه حمل حبل، و يقال: قاعدة فى بيتها و حاملة على ظهرها. قال الزجاج: هن اللاتى قعدن عن التزويج، و هو معنى قوله: اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً أى: لا يطمعن فيه لكبرهنّ. قال أبو عبيدة: اللاتى قعدن عن الولد، و ليس هذا بمستقيم، لأن المرأة تقعد عن الولد و فيها مستمتع. ثم ذكر سبحانه حكم القواعد فقال: فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَ أى: الثياب التى تكون على ظاهر البدن كالجلباب و نحوه، لا الثياب التى على العورة الخاصة، و إنما جاز لهنّ ذلك لانصراف الأنفس عنهنّ، إذ لا رغبة للرجال فيهنّ، فأباح اللّه سبحانه لهنّ ما لم يبحه لغيرهنّ، ثم استثنى حالة من حالاتهنّ فقال: غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ أى: غير مظهرات للزينة التى أمرن بإخفائها فى قوله: وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَ و المعنى: من غير أن يردن بوضع الجلابيب إظهار زينتهن، و لا متعرّضات بالتزين، لينظر إليهنّ الرجال. و التبرّج

التكشف و الظهور للعيون، و منه: بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ «١» و بروج السماء، و منه قولهم: سفينة بارجة، أى: لا غطاء عليها وَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَ أى: و أن يتركن وضع الثياب فهو خير لهنّ من وضعها. و قرأ عبد اللّه بن مسعود و أبىّ بن كعب و ابن عباس «أن يضعن من ثيابهن» بزيادة من، و قرأ ابن مسعود «و أن يعففن» بغير سين وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ كثير السماع و العلم أو بليغهما لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ اختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة؟ قال بالأوّل: جماعة من العماء، و بالثانى: جماعة. قيل: إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم، و كانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم و يقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا، فكانوا يتحرّجون من ذلك و قالوا: لا ندخلها و هم غيب، فنزلت هذه الآية رخصة لهم؛ فمعنى الآية نفى الحرج عن الزمنى فى أكلهم من بيوت أقاربهم، أو بيوت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو.

قال النحاس: و هذا القول من أجلّ ما روى فى الآية لما فيه من الصحابة و التابعين من التوقيف. و قيل: إن هؤلاء المذكورين كانوا يتحرّجون من مؤاكلة الأصحاء حذرا من استقذارهم إياهم و خوفا من تأذيهم بأفعالهم فنزلت. و قيل: إن اللّه رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر، و عن الأعرج

---

(١). النساء: ٧٨.

فيما يشترط فى التكليف به القدرة الكاملة على المشى، على وجه يتعذر الإتيان به مع العرج، و عن المريض فيما يؤثر المرض فى إسقاطه. و قيل: المراد بهذا الحرج المرفوع عن هؤلاء هو الحرج فى الغزو، أى: لا حرج على هؤلاء فى تأخرهم عن الغزو. و قيل: كان الرجل إذا أدخل أحدا من هؤلاء الزمنى إلى بيته فلم يجد فيه شيئا يطعمهم إياه ذهب بهم إلى بيوت قرابته، فيتحرج الزمنى من ذلك فنزلت. و معنى قوله: وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ عليكم و على من يماثلكم من المؤمنين أَنْ تَأْكُلُوا أنتم و من معكم، و هذا ابتداء كلام، أى:

و لا عليكم أيها الناس. و الحاصل أن رفع الحرج عن الأعمى و الأعرج و المريض إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء، أو دخول بيوتهم فيكون وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ متصلا بما قبله، و إن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكاليف التى يشترط فيها وجود البصر و عدم العرج و عدم المرض، فقوله: وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ ابتداء كلام غير متصل بما قبله. و معنى مِنْ بُيُوتِكُمْ البيوت التى فيها متاعهم و أهلهم فيدخل بيوت الأولاد كذا قال المفسّرون، لأنها داخلة فى بيوتهم لكون بيت ابن الرجل بيته، فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد، و ذكر بيوت الآباء، و بيوت الأمهات، و من بعدهم. قال النحاس: و عارض بعضهم هذا فقال: هذا تحكم على كتاب اللّه سبحانه بل الأولى فى الظاهر أن يكون الابن مخالفا لهؤلاء. و يجاب عن هذه المعارضة بأن رتبة الأولاد بالنسبة إلى الآباء لا تنقص عن رتبة الآباء بالنسبة إلى الأولاد، بل للآباء مزيد خصوصية فى أموال الأولاد لحديث «أنت و مالك لأبيك» و حديث «ولد الرجل من كسبه» ثم قد ذكر اللّه سبحانه هاهنا بيوت الإخوة و الأخوات، بل بيوت الأعمام و العمات، بل بيوت الأخوال و الخالات، فكيف ينفى سبحانه الحرج عن الأكل من بيوت هؤلاء، و لا ينفيه عن بيوت الأولاد؟ و قد قيد بعض العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم. و قال آخرون: لا يشترط الإذن. قيل: و هذا إذا كان الطعام مبذولا، فإن كان محرزا دونهم لم يجز لهم أكله. ثم قال سبحانه: أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أى: البيوت التى تملكون التصرّف فيها بإذن أربابها، و ذلك كالوكلاء و العبيد و الخزّان، فإنهم يملكون التصرّف فى بيوت من أذن لهم بدخول بيته و إعطائهم مفاتحه. و قيل: المراد بها بيوت المماليك. قرأ الجمهور مَلَكْتُمْ بفتح الميم و تخفيف اللام. و قرأ سعيد ابن جبير بضم الميم و كسر اللام مع تشديدها. و

قرأ أيضا «مفاتيحه» بياء بين التاء و الحاء. و قرأ قتادة مَفاتِحَهُ على الإفراد، و المفاتح: جمع مفتح، و المفاتيح: جمع مفتاح أَوْ صَدِيقِكُمْ أى: لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوت صديقكم و إن لم يكن بينكم و بينه قرابة، فإن الصديق فى الغالب يسمح لصديقه بذلك و تطيب به نفسه، و الصديق يطلق على الواحد و الجمع، و منه قول جرير:

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنابأسهم أعداء و هنّ صديق

و مثله العدوّ و الخليط و القطين و العشير، ثم قال سبحانه: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا من بيوتكم جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً انتصاب جميعا و أشتاتا على الحال. و الأشتات: جمع شتّ، و الشتّ المصدر: بمعنى التفرّق، يقال شتّ القوم، أى: تفرقوا، و هذه الجملة كلام مستأنف مشتمل على بيان حكم آخر من جنس ما قبله، أى: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم مجتمعين أو متفرقين، و قد كان بعض العرب يتحرّج

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۶۳

أن يأكل وحده حتى يجد له أكيلا يؤاكله فيأكل معه، و بعض العرب كان لا يأكل إلا مع ضيف، و منه قول حاتم:

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى لهأكيلا فإنّى لست آكله وحدى

فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً هذا شروع فى بيان أدب آخر أدّب به عباده، أى: إذا دخلتم بيوتا غير البيوت التى تقدّم ذكرها فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ أى: على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم. و قيل: المراد البيوت المذكورة سابقا. و على القول الأوّل، فقال الحسن و النخعى: هى المساجد، و المراد سلموا على من فيها من صنفكم، فإن لم يكن فى المساجد أحد، فقيل يقول: السلام على رسول اللّه، و قيل يقول: السلام عليكم مريدا للملائكة، و قيل يقول: السلام علينا و على عباد اللّه الصالحين. و قال بالقول الثانى: أعنى أنها البيوت المذكورة سابقا جماعة من الصحابة و التابعين، و قيل: المراد بالبيوت هنا هى كلّ البيوت المسكونة و غيرها، فيسلم على أهل المسكونة، و أما على غير المسكونة فيسلم على نفسه. قال ابن العربى: القول بالعموم فى البيوت هو الصحيح، و انتصاب تَحِيَّةً على المصدرية، لأن قوله فسلموا معناه فحيوا، أى: تحية ثابتة مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أى: إن اللّه حياكم بها. و قال الفرّاء: أى: إن اللّه أمركم أن تفعلوها طاعة له، ثم وصف هذه التحية فقال: مُبارَكَةً أى: كثيرة البركة و الخير، دائمتهما طَيِّبَةً أى: تطيب بها نفس المستمع، و قيل: حسنة جميلة. و قال الزجاج: أعلم اللّه سبحانه أن السلام مبارك طيب لما فيه من الأجر و الثواب، ثم كرّر سبحانه فقال: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ تأكيدا لما سبق. و قد قدّمنا أن الإشارة بذلك إلى مصدر الفعل لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات اللّه سبحانه و فهم معانيها.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال: بلغنا أن رجلا من الأنصار و امرأته أسماء بنت مرشدة صنعا للنبى صلّى اللّه عليه و سلم طعاما، فقالت أسماء: يا رسول اللّه! ما أقبح هذا إنه ليدخل على المرأة و زوجها، و هما فى ثوب واحد، غلامهما بغير إذن، فأنزل اللّه فى ذلك يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ يعنى: العبيد و الإماء وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ قال: من أحراركم من الرجال و النساء. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى هذه الآية قال: كان أناس من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يعجبهم أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا، ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم اللّه أن يأمروا المملوكين و الغلمان أن لا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن. و أخرج ابن مردويه عن ثعلبة القرظى عن عبد اللّه بن سويد قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن العورات الثلاث، فقال: إذا أنا وضعت ثيابى بعد الظهيرة لم يلج علىّ أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم، و لا أحد لم يبلغ الحلم من الأحرار إلا بإذن، و إذا وضعت ثيابى بعد صلاة العشاء، و من قبل صلاة الصبح». و أخرجه عبد بن حميد و البخارى فى الأدب عن عبد اللّه بن سويد من قوله. و أخرج نحوه أيضا ابن سعد عن سويد بن النعمان. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أبو داود و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال:

إنه لم يؤمن بها أكثر الناس: يعنى آية الإذن، و إنى لآمر جاريتى هذه،- لجارية قصيرة قائمة على رأسه- أن تستأذن علىّ. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس،

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۴

قال: ترک الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهنّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ و الآية التى فى سورة النساء وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ الآية، و الآية التى فى الحجرات إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ «۱». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى السنن عنه أيضا فى الآية قال: إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا يدخل عليه صبىّ و لا خادم إلا بإذنه حتى يصلى الغداة، و إذا خلا بأهله عند الظهر فمثل ذلک. و رخص لهم فى الدخول فيما بين ذلک بغير إذن، و هو قوله: لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ فأما من بلغ الحلم، فإنه لا يدخل على الرجل و أهله إلا بإذن على كل حال، و هو قوله وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و أخرج أبو داود، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى السنن بسند صحيح من طريق عكرمة عنه أيضا: أن رجلا سأله عن الاستئذان فى الثلاث العورات التى أمر اللّه بها فى القرآن، فقال ابن عباس: «إنّ اللّه ستير يحب الستر» و كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم و لا حجاب فى بيوتهم، فربما فجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيم فى حجره و هو على أهله، فأمرهم اللّه أن يستأذنوا فى تلک العورات التى سمى اللّه، ثم جاء اللّه بعد بالستور، فبسط عليهم فى الرزق، فاتخذوا الستور و اتخذوا الحجاب، فرأى الناس أن ذلک قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به. و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى فى الأدب و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عمر فى قوله: لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ قال: هى على الذكور دون الإناث، و لا وجه لهذا التخصيص، فالاطلاع على العورات فى هذه الأوقات كما يكرهه الإنسان من الذكور يكرهه من الإناث. و أخرج ابن مردويه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن بعض أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى الآية قالت: نزلت فى النساء أن يستأذن علينا. و أخرج الحاكم و صححه عن علىّ فى الآية قال: النساء فإن الرجال يستأذنون. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى عبد الرحمن السلمى فى هذه الآية قال: هى فى النساء خاصة، الرجال يستأذنون على كل حال بالليل و النهار. و أخرج الفريابى عن موسى بن أبى عائشة قال: سألت الشعبى عن هذه الآية أ منسوخة هى؟ قال: لا. و أخرج سعيد بن منصور و البخارى فى الأدب و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن عطاء أنه سأل ابن عباس أ أستأذن على أختى؟ قال: نعم، قلت: إنها فى حجرى و إنى أنفق عليها، و إنها معى فى البيت أ أستأذن عليها؟ قال: نعم. إن اللّه يقول: لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ الآية، فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا فى هؤلاء العورات الثلاث، قال: وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فالإذن واجب على كل خلق اللّه أجمعين. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و البيهقى فى سننه عن ابن مسعود قال: عليكم إذن على أمهاتكم. و أخرج سعيد بن منصور و البخارى فى الأدب عنه قال: يستأذن الرجل على أبيه و أمه و أخيه و أخته. و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى فى الأدب عن جابر نحوه. و أخرج ابن جرير و البيهقى فى السنن عن عطاء بن يسار أن رجلا قال: «يا رسول اللّه! أ أستأذن على أمّى؟ قال: نعم، قال: إنى معها فى البيت، قال: أستأذن عليها، قال: إنى خادمها

---

(۱). الحجرات: ۱۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵

أ فأستأذن عليها كلّما دخلت؟ قال: أ تحبّ أن تراها عريانة؟ قال لا، قال: فاستأذن عليها» و هو مرسل.

و أخرج ابن أبى شيبة نحوه عن زيد بن أسلم أن رجلا سأل النبى صلّى اللّه عليه و سلم و هو أيضا مرسل. و أخرج أبو داود و

البيهقى فى السنن عن ابن عباس وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَ الآية، فنسخ و استثنى من ذلك وَ الْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً الآية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى السنن عنه قال: هى المرأة لا جناح عليها أن تجلس فى بيتها بدرع و خمار، و تضع عنها الجلباب ما لم تتبرّج بما يكرهه اللّه، و هو قوله: فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ. و أخرج أبو عبيد فى فضائله و ابن المنذر و ابن الأنبارى فى المصاحف و البيهقى عن ابن عباس أنه كان يقرأ «أن يضعن من ثيابهنّ» و يقول:

هو الجلباب. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن ابن عمر فى الآية قال: تضع الجلباب و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و البيهقى فى السنن عن ابن مسعود أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَ قال: الجلباب و الرداء. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ «۱» قالت الأنصار: ما بالمدينة مال أعزّ من الطعام كانوا يتحرّجون أن يأكلوا مع الأعمى يقولون إنه لا يبصر موضع الطعام، و كانوا يتحرّجون الأكل مع الأعرج يقولون الصحيح يسبقه إلى المكان و لا يستطيع أن يزاحم، و يتحرّجون الأكل مع المريض يقولون لا يستطيع أن يأكل مثل الصحيح، و كانوا يتحرّجون أن يأكلوا فى بيوت أقاربهم، فنزلت: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى يعنى: فى الأكل مع الأعمى. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مقسم نحوه. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن مجاهد قال: كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه أو بيت عمه أو بيت عمته أو بيت خاله أو بيت خالته، فكان الزمنى يتحرّجون من ذلك يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فنزلت هذه الآية رخصة لهم. و أخرج البزار و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن النجار عن عائشة قالت: كان المسلمون يرغبون فى النفير مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فيدفعون مفاتيحهم إلى أمنائهم و يقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه، فكانوا يقولون إنه لا يحلّ لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا من غير طيب نفس، و إنما نحن زمنى، فأنزل اللّه وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا إلى قوله: أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس قال: لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ قال المسلمون:

إن اللّه قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، و الطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكفّ الناس عن ذلك، فأنزل اللّه لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ إلى قوله: أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ و هو الرجل يوكل الرجل بضيعته، و الذى رخص اللّه: أن يأكل من ذلك الطعام و التمر و يشرب اللبن، و كانوا أيضا يتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص اللّه لهم فقال: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الضحاك قال: كان أهل المدينة

---

(۱). النساء: ۲۹.

قبل أن يبعث النبى صلّى اللّه عليه و سلم لا يخالطهم فى طعامهم أعمى و لا مريض و لا أعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام، فنزلت رخصة فى مؤاكلتهم. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و أبو داود فى مراسيله و ابن جرير و البيهقى عن الزهرى أنه سئل عن قوله: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ ما بال الأعمى و الأعرج و المريض ذكروا هنا؟

أخبرنى عبيد اللّه بن عبد اللّه أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم، و كانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، يقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا، و كانوا يتحرّجون من ذلك يقولون لا ندخلها و هم غيب.

فأنزل اللّه هذه الآية رخصة لهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: كان هذا الحىّ من بنى كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده فى الجاهلية، حتى إن كان الرجل يسوق الزود الحفّل و هو جائع حتى يجد من يؤاكله و يشاربه، فأنزل اللّه لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة و أبى صالح قالا: كان الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم، فنزلت رخصة لهم. و أخرج الثعلبى عن ابن عباس فى الآية، قال خرج الحارث غازيا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و خلف على أهله خالد بن يزيد، فحرج أن يأكل من طعامه، و كان مجهودا فنزلت. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: أَوْ صَدِيقِكُمْ قال: إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته، ثم أكلت من طعامه بغير إذنه لم يكن بذلك بأس. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: أَوْ صَدِيقِكُمْ قال: هذا شىء قد انقطع، إنما كان هذا فى أوّله و لم يكن لهم أبواب، و كانت الستور مرخاة، فربما دخل الرجل البيت و ليس فيه أحد، فربما وجد الطعام و هو جائع فسوّغه اللّه أن يأكله. و قال: ذهب ذلك، اليوم البيوت فيها أهلها، فإذا خرجوا أغلقوا، فقد ذهب ذلك. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ يقول: إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أنفسكم تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ و هو السلام، لأنه اسم اللّه، و هو تحية أهل الجنة. و أخرج البخارى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طريق أبى الزبير عن جابر بن عبد اللّه قال: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند اللّه مُبارَكَةً طَيِّبَةً.

و أخرج عبد الرزّاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ قال: هو المسجد إذا دخلته فقل: السلام علينا و على عباد اللّه الصالحين.

و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى فى الأدب عن ابن عمر قال: إذا دخل البيت غير المسكون، أو المسجد فليقل: السلام علينا و على عباد اللّه الصالحين.

[سورة النور (٢٤): الآيات ٦٢ الى ٦٤]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۷

جملة إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ مستأنفة مسوقة لتقدير ما تقدّمها من الأحكام، و «إنما» من صيغ الحصر، و المعنى: لا يتمّ إيمان و لا يكمل حتى يكون بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ و جملة وَ إِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ معطوفة على آمنوا داخلة فى حيز الصلة، أى: إذا كانوا مع رسول اللّه على أمر جامع، أى: على أمر طاعة يجتمعون عليها، نحو الجمعة و النحر و الفطر و الجهاد، و أشباه ذلك، و سمى الأمر جامعا: مبالغة لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ قال المفسرون: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا صعد المنبر يوم الجمعة و أراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم حيث يراه، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن يشاء منهم. قال مجاهد: و إذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده. قال الزجاج: أعلم اللّه أن المؤمنين إذا كانوا مع نبيه فيما يحتاج فيه إلى الجماعة لم يذهبوا حتى يستأذنوه، و كذلك ينبغى أن يكونوا مع الإمام لا يخالفونه و لا

يرجعون عنه فى جمع من جموعهم إلا بإذنه، و للإمام أن يأذن و له أن لا يأذن على ما يرى لقوله تعالى: فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ و قرأ اليمانى: على أمر جميع. و الحاصل أن الأمر الجامع، أو الجميع، هو الذى يعمّ نفعه أو ضرره، و هو الأمر الجليل الذى يحتاج إلى اجتماع أهل الرأى و التجارب. قال العلماء: كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه و لا يرجعون عنه إلا بإذن، ثم قال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فبين سبحانه أن المستأذنين: هم المؤمنون بالله و رسوله، كما حكم أوّلا بأن المؤمنين الكاملى الإيمان: هم الجامعون بين الإيمان بهما و بين الاستئذان فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ أى: إذا استأذن المؤمنون رسول الله صلّى الله عليه و سلم لبعض الأمور التى تهمّهم، فإنه يأذن لمن شاء منهم، و يمنع من شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التى يراها رسول الله صلّى الله عليه و سلم، ثم أرشده الله سبحانه إلى الاستغفار لهم، و فيه إشارة إلى أن الاستئذان إن كان لعذر مسوّغ، فلا يخلو عن شائبة تأثير أمر الدنيا على الآخرة إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير المغفرة و الرحمة بالغ فيهما إلى الغاية التى ليس وراءها غاية لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً و هذه الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها، أى: لا تجعلوا دعوته إياكم كالدعاء من بعضكم لبعض، فى التساهل فى بعض الأحوال عن الإجابة أو الرجوع بغير استئذان، أو رفع الصوت. و قال سعيد بن جبير و مجاهد: المعنى قولوا: يا رسول الله! فى رفق ولين، و لا تقولوا:

يا محمد بتجهّم. و قال قتادة: أمرهم أن يشرّفوه و يفخموه. و قيل المعنى: لا تتعرّضوا لدعاء الرسول عليكم بإسخاطه، فإن دعوته موجبة قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً التسلل: الخروج فى خفية، يقال تسلل فلان من بين أصحابه: إذا خرج من بينهم، و اللواذ من الملاوذة، و هو أن تستتر بشىء، مخافة من يراک، و أصله أن يلوذ هذا بذاک و ذاک بهذا، و اللوذ ما يطيف بالجبل، و قيل: اللواذ الزوغان من شىء إلى شىء فى خفية. و انتصاب لواذا على الحال، أى: متلاوذين، يلوذ بعضهم ببعض، و ينضمّ إليه، و قيل:

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۸

هو منتصب على المصدرية لفعل مضمر هو الحال فى الحقيقة، أى: يلوذون لواذا. و قرأ زيد بن قطيب لِواذاً بفتح اللام. و فى الآية بيان ما كان يقع من المنافقين، فإنهم كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين، ينضم بعضهم إلى بعض استتارا من رسول الله صلّى الله عليه و سلم، و قد كان يوم الجمعة أثقل يوم على المنافقين، لما يرون من الاجتماع للصلاة و الخطبة، فكانوا يفرون عن الحضور و يتسللون فى خفية، و يستتر بعضهم ببعض، و ينضم إليه. و قيل اللواذ: الفرار من الجهاد و به قال الحسن، و منه قول حسان:

و قريش تجول منّا لواذالم تحافظ و خفّ منها الحلوم

فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ الفاء: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى: يخالفون أمر النبى صلّى الله عليه و سلم بترک العمل بمقتضاه، و عدّى فعل المخالفة بعن مع كونه متعدّيا بنفسه، لتضمينه معنى الإعراض أو الصدّ، و قيل: الضمير لله سبحانه لأنه الآمر بالحقيقة، و أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ مفعول يحذر، و فاعله: الموصول.

و المعنى: فليحذر المخالفون عن أمر الله، أو أمر رسوله، أو أمرهما جميعا، إصابة فتنة لهم أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: فى الآخرة، كما أن الفتنة التى حذرهم من إصابتها لهم، هى فى الدنيا، و كلمة أو لمنع الخلوّ.

قال القرطبى: احتجّ الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية. و وجه ذلک أن الله سبحانه قد حذر من مخالفة أمره، و توعد بالعقاب عليها بقوله: أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ الآية، فيجب امتثال أمره و تحرم مخالفته، و الفتنة هنا: غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن، و قيل: هى القتل، و قيل: الزلازل، و قيل: تسلط سلطان جائر عليهم، و قيل: الطبع على قلوبهم. قال أبو عبيدة و الأخفش: عن فى هذا الموضع زائدة. و قال الخليل و سيبويه:

ليست بزائـدة، بل هى بمعنى بعد، كقوله: فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ «١» أى: بعـد أمر ربه، و الأولى: ما ذكرناه من التضـمين أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ من المخلوقات بأسرها، فهى ملكه: قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ أيها العباد من الأحوال التى أنتم عليها، فيجازيكم بحسب ذلـك، و يعلم هاهنا: بمعنى علم وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ معطوف على ما أنتم عليه، أى: يعلم ما أنتم عليه و يعلم يوم ترجعون إليه فيجـازيكم فيه بمـا عملتم، و تعليـق علمه سـبحانه بيوم يرجعون لاـ بنفس رجعهم لزيـادة تحقيق علمه، لأـن العلم بوقت وقوع الشـىء، يسـتلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أى: يخبرهـم بما عملوا من الأعمال التى من جملتها مخالفة الأمر، و الظاهر من السياق أن هذا الوعيد للمنافقين وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه شىء من أعمالهم.

و قـد أخرج ابـن إسـحاق و ابن المنـذر و الـبيهقى فى الـدلائل عن عروة و محمـد بن كعب القرظى قالاـ: لمـا أقبلت قريش عـام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من رومة: بئر بالمدينة، قائدها أبو سفيان، و أقبلت غطفان حتى نزلوا بنقمى إلى جانب أحد، و جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الخبر، فضـرب الخندق على المدينة و عمل فيه المسـلمون، و أبطأ رجال من المنافقين، و جعلوا يورّون بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم

---

(١). الكهف: ٥٠.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۹

و لا إذن، و جعل الرجل من المسـلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لا بد منها يذكر ذلك لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم و يسـتأذنه فى اللحوق لحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع، فأنزل اللّه فى أولئك إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ الآية. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن أبى حـاتم عن سـعيد بن جبير فى الآيـة قـال: هى فى الجهاد و الجمعـة و العيـدين. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابـن أبى حـاتم فى قـوله: عَلى أَمْرٍ جامِعٍ قـال: من طاعـة اللّه عـام. و أخرج ابن أبى حـاتم و ابن مردويه و أبـو نعيم فى الـدلائل عنه فى قوله: لاـ تَجْعَلُوا دُعـاءَ الرَّسُولِ الآيـة قـال: يعنى كـدعاء أحـدكم إذا دعا أخاه باسـمه، و لكن وقروه و قولوا له: يا رسول اللّه! يا نبىّ اللّه!. و أخرج عبـد الغنى بن سـعيد فى تفسـيره و أبو نعيم فى الدلائل عنه أيضا فى الآية قال: لا تصـيحوا به من بعيد يا أبا القاسم، و لكن كما قال اللّه فى الحجرات إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ «١».

و أخرج أبو داود فى مراسيله عن مقاتل، قال: كان لا يخرج أحـد لرعاف أو أحـداث حتى يسـتأذن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلم يشير إليه بإصبعه التى تلى الإبهام، فيأذن له النبى صلّى اللّه عليه و سلم يشير إليه بيده، و كان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة و الجلوس فى المسـجد، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج. فأنزل اللّه الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً الآيـة. و أخرج أبو عبيـد فى فضائله و الطبرانى- قال السـيوطى بسـند حسن- عن عقبـة بن عامر قال: رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هو يقرأ هذه الآية فى خاتمة سورة النور- و هو جاعل إصبعيه تحت عينيه- يقول: بكل شىء بصير.

---

(١). الحجرات: ٣.

فتح القدير، ج۴، ص: ٧٠

سورة الفرقان

اشارة

و هى مكية كلها فى قول الجمهور، و كذا أخرجه ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس. و أخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير. قال القرطبى: و قال ابن عباس و قتادة: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة. و هى: وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ الآيات. و أخرج مالك و الشافعى و البخارى و مسلم و ابن حيان و البيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فكدت أساوره فى الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ؟

قال: أقرأنيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقلت: كذبت فإن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقلت: إنّى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أرسله، أقرئنا هشام» فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كذلك أنزلت»: ثم قال: «أقرئنا عمر»، فقرأت القراءة التى أقرأنى، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كذلك أنزلت. إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسّر منه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (١) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لا حَياةً وَ لا نُشُوراً (٣) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً (٤)

وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٦)

تكلم سبحانه فى هذه السورة على التوحيد لأنه أقدم و أهمّ، ثم فى النبوّة لأنها الواسطة، ثم فى المعاد، لأنه الخاتمة. و أصل تبارك: مأخوذ من البركة، و هى النماء و الزيادة، حسية كانت أو عقلية. قال الزجاج:

تبارك تفاعل، من البركة. قال: و معنى البركة: الكثرة من كل ذى خير، و قال الفراء: إن تبارك و تقدّس فى العربية واحد، و معناهما: العظمة. و قيل المعنى: تبارك عطاؤه، أى: زاد و كثر، و قيل المعنى: دام و ثبت. قال النحاس: و هذا أولاها فى اللغة، و الاشتقاق من برك الشيء: إذا ثبت، و منه: برك الجمل، أى: دام و ثبت. و اعترض ما قاله الفراء بأن التقديس إنما هو من الطهارة، و ليس من ذا فى شيء. قال العلماء:

فتح القدير، ج۴، ص: ۷۱

هذه اللفظة لا تستعمل إلا للّه سبحانه، و لا تستعمل إلا بلفظ الماضى، و الفرقان: القرآن، و سمى فرقانا، لأنه يفرق بنى الحقّ و الباطل بأحكامه، أو بين المحق و المبطل، و المراد بعبده نبينا صلّى اللّه عليه و سلم. ثم علل التنزيل لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً فإن النذارة هى الغرض المقصود من الإنزال، و المراد: محمد صلّى اللّه عليه و سلم أو الفرقان، و المراد بالعالمين هنا: الإنس و الجنّ، لأن النبى صلّى اللّه عليه و سلم مرسل إليهما، و لم يكن غيره من الأنبياء مرسلا إلى الثقلين، و النذير:

المنـذر، أى: ليكون محمد منذرا، أو ليكون إنزال القرآن منذرا، و يجوز أن يكون النذير هنا بمعنى المصدر للمبالغة، أى: ليكون إنزاله إنذارا، و جعل الضـمير للنبىّ صـلّى اللّه عليه و سلم أولى، لأن صدور الإنذار منه حقيقة، و من القرآن مجاز، و الحمل على الحقيقة أولى و لكونه أقرب مذكور. و قيل: إن رجوع الضمير إلى الفرقان أولى لقوله تعالى: إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ «۱» ثم إنه سبحانه وصف نفسه بصفات أربع: الأولى:

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ دون غيره فهو المتصرّف فيهما، و يحتمل أن يكون الموصول الآخر بدلا، أو بيانا للموصول الأوّل، و الوصف أولى، و فيه تنبيه على افتقار الكلّ إليه فى الوجود و توابعه من البقاء و غيره.

و الصـفة الثانيـة: وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً و فيه ردّ على النصارى و اليهود. و الصـفة الثالثة: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ و فيه ردّ على طوائف المشركين من الوثنية، و الثنوية، و أهل الشرك الخفى. و الصفة الرابعة:

وَ خَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ من الموجودات فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً أى: قـدّر كـل شـىء ممـا خلق بحكمته على ما أراد، و هيأه لما يصـلح له. قال الواحـدى: قـال المفسرون: قـدر له تقـديرا من الأجـل و الرزق، فجرت المقـادير على مـا خلـق. و قيـل: أريـد بـالخلق هنـا مجرّد الإحـداث، و الإيجـاد مجـازا من غير ملاحظـة معنى التقـدير و إن لم يخـل عنه فى نفس الأـمر، فيكون المعنى: أوجـد كل شـىء فقـدّره لئلا يلزم التكرار، ثـم صـرّح سـبحانه بتزييف مـذاهب عبـدة الأوثان فقال: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً و الضـمير فى اتخـذوا للمشـركين و إن لم يتقدّم لهم ذكر، لدلالة نفى الشريك عليهم، أى: اتخذ المشركون لأنفسهم- متجاوزين اللّه- آلهة لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً و الجملـة فى محـل نصب: صـفة لآلهـة، أى: لاـ يقـدرون على خلق شـىء من الأشـياء، و غلب العقلاء على غيرهم، لأن فى معبودات الكفار: الملائكة، و عزير، و المسيح وَ هُمْ يُخْلَقُونَ أى: يخلقهم اللّه سبحانه. و قيل:

عبر عن الآلهة بضمير العقلاء جريا على اعتقاد الكفار أنها تضرّ و تنفع. و قيل: معنى وَ هُمْ يُخْلَقُونَ أن عبدتهم يصوّرونهم. ثم لما وصف سبحانه نفسه بالقدرة الباهرة، وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ فقال:

وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً أى: لا يقدرون على أن يجلبوا لأنفسـهم نفعا و لا يدفعوا عنها ضـررا، و قدّم ذكر الضـرّ لأن دفعه أهمّ من جلب النفع و إذا كـانوا بحيث لاـ يقـدرون على الـدفع و النفـع، فيمـا يتعلـق بأنفسـهم، فكيـف يملكون ذلـك لمن يعبدهم. ثم زاد فى بيان عجزهم فنصـص على هذه الأمور فقال: وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لا حَياةً وَ لا نُشُوراً أى: لا يقدرون على إماتة الأحيـاء، و لاـ إحيـاء الموتى، و لاـ بعثهم من القبور، لأـن النشور: الإحياء بعـد الموت، يقال أنشـر اللّه الموتى فنشـروا، و منه قول الأعشى:

حتّى يقول الناس ممّا رأوايا عجبا للميّت الناشر

---

(۱). الإسراء: ۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۷۲

و لما فرغ من بيان التوحيد، و تزييف مذاهب المشركين، شرع فى ذكر شبه منكرى النبوّة. فالشبهة الأولى: ما حكاه عنهم بقوله: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ أى: كذب افْتَراهُ أى:

اختلقه محمـد صـلّى اللّه عليه و سـلم، و الإشـارة بقوله هـذا: إلى القرآن وَ أَعـانَهُ عَلَيْهِ أى: على الاختلاـق قَوْمٌ آخَرُونَ يعنون من اليهود. قيل و هم: أبو فكيهـة يسار مولى الحضـرمى، و عداس مولى حويطب بن عبد العزى، و جبر مولى ابن عامر، و كان هؤلاء الثلاثـة من اليهود، و قـد مرّ الكلام على مثل هـذا فى النحل. ثم ردّ اللّه سـبحانه عليهم فقال: فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً أى: فقد قالوا ظلما هائلا عظيما و كـذبا ظاهرا، و انتصاب ظلما بجاؤوا، فإن جاء: قد يسـتعمل اسـتعمال أتى، و يعدّى تعديته. و قال الزجاج: إنه

منصوب بنزع الخافض، و الأصل، جاءوا بظلم. و قيل: هو منتصب على الحال، و إنما كان ذلك منهم ظلما لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه، و هذا هو الظلم، و أما كون ذلك منهم زورا فظاهر، لأنهم قد كذبوا في هذه المقالة. ثم ذكر الشبهة الثانية فقال: وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أي:

أحاديث الأوّلين، و ما سطروه من الأخبار. قال الزجاج: واحد الأساطير: أسطورة، مثل: أحاديث، و أحدوثة، و قال غيره: أساطير جمع أسطار مثل أقاويل و أقوال اكْتَتَبَها أي: استكتبها أو كتبها لنفسه، و محل اكتتبها: النصب على أنه حال من أساطير، أو محله الرفع على أنه خبر ثان، لأن أساطير مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه أساطير الأوّلين اكتتبها، و يجوز أن يكون أساطير مبتدأ، و اكتتبها خبره، و يجوز أن يكون معنى اكتتبها جمعها من الكتب، و هو الجمع، لا من الكتابة بالقلم. و الأوّل: أولى. و قرأ طلحة اكْتَتَبَها مبنيا للمفعول، و المعنى: اكتتبها له كاتب، لأنه كان أميا لا يكتب، ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى ضمير فصار اكتتبها إياه، ثم بنى الفعل للضمير الذى هو إياه، فانقلب مرفوعا مستترا بعد أن كان منصوبا بارزا، كذا قال فى الكشاف، و اعترضه أبو حيان فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ أي: تلقى عليه تلك الأساطير بعد ما اكتتبها ليحفظها من أفواه من يمليها من ذلك المكتتب لكونه أميا لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه، و يجوز أن يكون المعنى اكتتبها أراد اكتتابها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ لأنه يقال: أمليت عليه فهو يكتب بُكْرَةً وَ أَصِيلًا غدوة و عشيا كأنهم قالوا: إن هؤلاء يعلمون محمدا طرفي النهار، و قيل: معنى بكرة و أصيلا: دائما فى جميع الأوقات، فأجاب سبحانه عن هذه الشبهة بقوله: قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أي: ليس ذلك مما يفترى و يفتعل بإعانة قوم، و كتابة آخرين من الأحاديث الملفقة و أخبار الأوّلين، بل هو أمر سماويّ أنزله الذى يعلم كلّ شيء لا يغيب عنه شيء من الأشياء، فلهذا عجزتم عن معارضته و لم تأتوا بسورة منه، و خصّ السرّ للإشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة لا تبلغ إليها عقول البشر، و السرّ: الغيب، أي: يعلم الغيب الكائن فيهما، و جملة إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً تعليل لتأخير العقوبة، أي: إنكم و إن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسوله و الظلم له، فإنه لا يعجل عليكم بذلك، لأنه كثير المغفرة و الرحمة.

و قد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس تَبارَكَ تفاعل من البركة. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد

فتح القدير، ج۴، ص: ۷۳

و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ قال يهود فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً قال: كذبا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ هو القرآن، فيه حلاله و حرامه، و شرائعه و دينه، و فرق اللّه بين الحق و الباطل لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً قال: بعث اللّه محمدا صلّى اللّه عليه و سلم نذيرا من اللّه لينذر الناس بأس اللّه، و وقائعه بمن خلا قبلكم وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً قال: بين لكل شيء من خلقه صلاحه، و جعل ذلك بقدر معلوم وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قال: هى الأوثان التى تعبد من دون اللّه لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ و هو اللّه الخالق الرزاق، و هذه الأوثان تخلق و لا تخلق شيئا و لا تضرّ و لا تنفع، و لا تملك موتا و لا حياة و لا نشورا: يعنى بعثا وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هذا قول مشركى العرب إِنْ هذا إِلَّا إِفْكٌ هو الكذب افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ أي: على حديثه هذا، و أمره قَوْمٌ آخَرُونَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ كذب الأوّلين و أحاديثهم.

[سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۷ الى ۱۶]

وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (۷) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (۸) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (۹)

تَبارَکَ الَّذِی إِنْ شاءَ جَعَلَ لَکَ خَیْراً مِنْ ذلِکَ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ یَجْعَلْ لَکَ قُصُوراً (۱۰) بَلْ کَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ کَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِیراً (۱۱)

إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَکانٍ بَعِیدٍ سَمِعُوا لَها تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً (۱۲) وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَکاناً ضَیِّقاً مُقَرَّنِینَ دَعَوْا هُنالِکَ ثُبُوراً (۱۳) لا تَدْعُوا الْیَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً کَثِیراً (۱۴) قُلْ أَ ذلِکَ خَیْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ کانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَ مَصِیراً (۱۵) لَهُمْ فِیها ما یَشاؤُنَ خالِدِینَ کانَ عَلی رَبِّکَ وَعْداً مَسْؤُلاً (۱۶)

لما فرغ سبحانه من ذکر ما طعنوا به علی القرآن، ذکر ما طعنوا به علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فقال: وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ و فی الإشارة هنا تصغیر لشأن المشار إلیه و هو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم، و سموه رسولا استهزاء و سخریة یَأْکُلُ الطَّعامَ وَ یَمْشِی فِی الْأَسْواقِ أی: ما باله یأکل الطعام کما نأکل و یتردّد فی الأسواق لطلب المعاش کما نتردّد، و زعموا أنه کان یجب أن یکون ملکا مستغنیا عن الطعام و الکسب، و ما الاستفهامیة فی محل رفع علی الابتداء، و الاستفهام للاستنکار، و خبر المبتدأ لهذا الرسول، و جملة یأکل فی محل نصب علی الحال، و بها تتمّ فائدة الإخبار کقوله: فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْکِرَةِ مُعْرِضِینَ «۱» و الإنکار متوجه إلی السبب مع تحقیق المسبب، و هو الأکل و المشی، و لکنه استبعد تحقق ذلک لانتفاء سببه عندهم تهکما و استهزاء.

و المعنی: أنه إن صحّ ما یدّعیه من النبوّة فما باله لم یخالف حاله حالنا لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَذِیراً

---

(۱). المدثر: ۴۹.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۷۴

طلبوا أن یکون النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم مصحوبا بملک یعضده و یساعده، تنزلوا عن اقتراح أن یکون الرسول صلّی اللّه علیه و سلم ملکا مستغنیا عن الأکل و الکسب، إلی اقتراح أن یکون معه ملک یصدّقه و یشهد له بالرسالة. قرأ الجمهور فَیَکُونَ بالنصب علی کونه جواب التحضیض. و قرئ «فیکون» بالرفع علی أنه معطوف علی أنزل، و جاز عطفه علی الماضی لأنه المراد به المستقبل أَوْ یُلْقی إِلَیْهِ کَنْزٌ معطوف علی أنزل، و لا یجوز عطفه علی فیکون، و المعنی: أو هلا یلقی إلیه کنز، تنزلوا من مرتبة نزول الملک معه إلی اقتراح أن یکون معه کنز یلقی إلیه من السماء لیستغنی به عن طلب الرزق أَوْ تَکُونُ لَهُ جَنَّةٌ یَأْکُلُ مِنْها قرأ الجمهور تَکُونُ بالمثناة الفوقیة، و قرأ الأعمش و قتادة «یکون» بالتحتیة، لأن تأنیث الجنة غیر حقیقی. و قرأ «نأکل» بالنون حمزة و علیّ و خلف، و قرأ الباقون یَأْکُلُ بالمثناة التحتیة، أی: بستان نأکل نحن من ثماره، أو یأکل هو وحده منه لیکون له بذلک مزیة علینا حیث یکون أکله من جنته. قال النحاس:

و القراءتان حسنتان و إن کانت القراءة بالیاء أبین، لأنه قد تقدّم ذکر النبی صلّی اللّه علیه و سلم وحده، فعود الضمیر إلیه بین وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً المراد بالظالمون هنا: هم القائلون بالمقالات الأولی، و إنما وضع الظاهر موضع المضمر مع الوصف بالظلم للتسجیل علیهم به، أی: ما تتبعون إلا رجلا مغلوبا علی عقله بالسحر، و قیل: ذا سحر، و هی الرئة، أی: بشرا له رئة لا ملکا، و قد تقدّم بیان مثل هذا فی سبحان انْظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ الْأَمْثالَ لیتوصلوا بها إلی تکذیبک، و الأمثال: هی الأقوال النادرة و الاقتراحات الغریبة، و هی ما ذکروه هاهنا فَضَلُّوا عن الصواب فلا یجدون طریقا إلیه، و لا وصلوا إلی شیء منه، بل جاءوا بهذه المقالات التی لا تصدر عن أدنی العقلاء و أقلهم تمییزا، و لهذا قال: فَلا یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلًا أی: لا یجدون إلی القدح فی نبوّة هذا النبیّ طریقا من الطرق تَبارَکَ الَّذِی إِنْ شاءَ جَعَلَ لَکَ خَیْراً مِنْ ذلِکَ أی: تکاثر خیر الذی إن شاء جعل لک فی الدنیا معجلا خیرا من ذلک الذی اقترحوه. ثم فسر الخیر فقال: جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فجنات بدل من خیرا وَ یَجْعَلْ لَکَ

قُصُوراً معطوف على موضع جعل، و هو الجزم، و بالجزم قرأ الجمهور. و قرأ ابن كثير و ابن عامر و أبو بكر برفع يَجْعَلْ على أنه مستأنف، و قد تقرّر فى علم الإعراب أن الشرط إذا كان ماضيا جاز فى جوابه الجزم و الرفع فجاز أن يكون جعل هاهنا فى محل جزم و رفع فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم و يرفع. و قرئ بالنصب. و قرئ بإدغام لام لك فى لام يجعل لاجتماع المثلين. و قرئ بترك الإدغام لأن الكلمتين منفصلتان، و القصر: البيت من الحجارة، لأن الساكن به مقصور على أن يوصل إليه، و قيل: هو بيت الطين و بيوت الصوف و الشعر. ثم أضرب سبحانه على توبيخهم بما حكاه عنهم من الكلام الذى لا يصدر عن العقلاء فقال:

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ أى: بل أتوا بأعجب من ذلك كله. و هو تكذيبهم بالساعة، فلهذا لا ينتفعون بالدلائل و لا يتأملون فيها. ثم ذكر سبحانه ما أعدّه لمن كذب بالساعة فقال: وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً أى: نارا مشتعلة متسعرة، و الجملة فى محل نصب على الحال، أى: بل كذبوا بالساعة، و الحال أنا أعتدنا. قال أبو مسلم: أعتدنا، أى: جعلناه عتيدا و معدّا لهم إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً

فتح القدير، ج۴، ص: ۷۵

هذه الجملة الشرطية فى محل نصب صفة لسعيرا لأنه مؤنث بمعنى النار، قيل: معنى إذا رأتهم:

إذا ظهرت لهم فكانت بمرأى الناظر فى البعد، و قيل المعنى: إذا رأتهم خزنتها، و قيل: إن الرؤية منها حقيقية و كذلك التغيظ و الزفير، و لا مانع من أن يجعلها اللّه سبحانه مدركة هذا الإدراك. و معنى مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ أنها رأتهم و هى بعيدة عنهم، قيل: بينها و بينهم مسيرة خمسمائة عام. و معنى التغيظ: أن لها صوتا يدل على التغيظ على الكفار، أو لغليانها صوتا يشبه صوت المغتاظ. و الزفير: هو الصوت الذى يسمع من الجوف.

قال الزجاج: المراد سماع ما يدل على الغيظ و هو الصوت، أى: سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ. و قال قطرب: أراد علموا لها تغيظا و سمعوا لها زفيرا، كما قال الشاعر: متقلدا سيفا و رمحا، أى: و حاملا رمحا، و قيل المعنى: سمعوا فيها تغيظا و زفيرا للمعذبين كما قال: لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ «۱» و فى و اللام متقاربان، تقول: افعل هذا فى اللّه وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً وصف المكان بالضيق للدلالة على زيادة الشدّة و تناهى البلاء عليهم، و انتصاب مُقَرَّنِينَ على الحال، أى: إذا ألقوا منها مكانا ضيقا حال كونهم مقرنين، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع، مصفّدين بالحديد، و قيل: مكتفين، و قيل: قرنوا مع الشياطين، أى: قرن كل واحد منهم إلى شيطانه، و قد تقدّم الكلام على مثل هذا فى سورة إبراهيم دَعَوْا هُنالِكَ أى: فى ذلك المكان الضيق ثُبُوراً أى: هلاكا. قال الزجاج: و انتصابه على المصدرية، أى: ثبرنا ثبورا، و قيل: منتصب على أنه مفعول له، و المعنى: أنهم يتمنون هنالك الهلاك و ينادونه لما حلّ بهم من البلاء، فأجيب عليهم بقوله: لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً أى: فيقال لهم هذه المقالة، و القائل لهم هم الملائكة، أى: اتركوا دعاء ثبور واحد، فإن ما أنتم فيه من الهلاك أكبر من ذلك و أعظم، كذا قال الزجاج: وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً و الثبور: مصدر يقع على القليل و الكثير فلهذا لم يجمع، و مثله: ضربته ضربا كثيرا، و قعد قعودا طويلا، فالكثرة هاهنا هى بحسب كثرة الدعاء المتعلق به، لا بحسب كثرته فى نفسه، فإنه شيء واحد.

و المعنى: لا تدعوا على أنفسكم بالثبور واحدا و ادعوه أدعية كثيرة، فإن ما أنتم فيه من العذاب أشدّ من ذلك لطول مدته و عدم تناهيه، و قيل: هذا تمثيل و تصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك، من غير أن يكون هناك فول، و قيل: إن المعنى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا بل هو ثبور كثير لأن العذاب أنواع، و الأولى:

أن المراد بهذا الجواب عليهم الدلالة على خلود عذابهم و إقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك المنجى لهم مما هم فيه. ثم وبّخهم اللّه سبحانه توبيخا بالغا على لسان رسوله فقال: قُلْ أَ ذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ و الإشارة بقوله ذلك

إلى السعير المتصفة بتلك الصفات العظيمة، أى: أ تلك السعير خير أم جنة الخلد، و فى إضافة الجنة إلى الخلد إشعار بدوام نعيمها و عدم انقطاعه، و معنى الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ التى وعدها المتقون، و المجيء بلفظ خير هنا مع أنه لا خير فى النار أصلا، لأن العرب قد تقول ذلك، و منه ما حكاه سيبويه عنهم أنهم يقولون: السعادة أحبّ إليك أم الشقاوة؟ و قيل: ليس هذا من باب التفضيل، و إنما هو كقولك: عنده خير. قال النحاس: و هذا قول حسن كما قال:

---

(١). هود: ١٠٦.

فتح القدير، ج٤، ص: ٧٦ أ تهجوه و لست له بكفء فشرّكما لخيركما الفداء

ثم قال سبحانه: كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَ مَصِيراً أى: كانت تلك الجنة للمتقين جزاء على أعمالهم و مصيرا يصيرون إليه لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ أى: ما يشاءونه من النعيم، و ضروب الملاذ، كما فى قوله: وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ «١» و انتصاب خالدين على الحال، و قد تقدم تحقيق معنى الخلود كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلًا أى: كان ما يشاءونه، و قيل: كان الخلود، و قيل: كان الوعد المدلول عليه بقوله: وعد المتقون، و معنى الوعد المسؤول: الوعد المحقق بأن يسأل و يطلب كما فى قوله: رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ «٢» و قيل: إن الملائكة تسأل لهم الجنة كقوله: وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ «٣» و قيل: المراد به الوعد الواجب و إن لم يسأل.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس أن عتبة بن ربيعة و أبا سفيان بن حرب و النضر ابن الحارث و أبا البختري و الأسود عبد المطلب و زمعة بن الأسود و الوليد بن المغيرة و أبا جهل بن هشام و عبد اللّه ابن أمية و أمية بن خلف و العاص بن وائل و نبيه بن الحجاج و منبه بن الحجاج اجتمعوا، فقال بعضهم لبعض:

ابعثوا إلى محمد و كلموه و خاصموه حتى تعذروا منه، فبعثوا إليه إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، قال: فجاءهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا لك من أموالنا، و إن كنت تطلب به الشرف فنحن نسوّدك، و إن كنت تريد به ملكا ملكناك؛ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما بى ممّا تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم و لا الشّرف فيكم و لا الملك عليكم، و لكنّ اللّه بعثنى إليكم رسولا، و أنزل علىّ كتابا، و أمرنى أن أكون لكم بشيرا و نذيرا، فبلّغتكم رسالة ربّى و نصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظّكم فى الدنيا و الآخرة، و إن تردّوه علىّ أصبر لأمر اللّه حتّى يحكم اللّه بينى و بينكم؛ قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا عليك، أو قالوا: فإذا لم تفعل هذا فسل لنفسك و سل ربّك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول و يراجعنا عنك، و سله أن يجعل لك جنانا و قصورا من ذهب و فضّة تغنيك عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق و تلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك و منزلتك من ربّك إن كنت رسولا كما تزعم، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذى يسأل ربّه هذا، و ما بعثت إليكم بهذا، و لكنّ اللّه بعثنى بشيرا و نذيرا، فأنزل اللّه فى ذلك وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَ كانَ رَبُّكَ بَصِيراً أى: جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا، و لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون لفعلت. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة فى المصنف و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن خيثمة قال: قيل للنبى صلّى اللّه عليه و سلم: إن شئت أعطيناك من خزائن الأرض و مفاتيحها ما لم يعط نبىّ قبلك، و لا نعطها أحدا بعدك، و لا ينقصك ذلك مما لك عند اللّه شيئا، و إن شئت

---

(١). فصلت: ٣١.

(۲). آل عمران: ۱۹۴.

(۳). غافر: ۸.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۷۷

جمعتها لک فی الآخرة، فقال: اجمعها لی فی الآخرة، فأنزل اللّه سبحانه تَبارَکَ الَّذِی إِنْ شاءَ جَعَلَ لَکَ خَیْراً مِنْ ذلِکَ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ یَجْعَلْ لَکَ قُصُوراً. و أخرج نحوه عن ابن مردويه من طريق أخرى.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق خالد بن دريک عن رجل من الصحابة قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «من يقل علىّ ما لم أقل، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتمى إلى غير مواليه، فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا، قيل: يا رسول اللّه! و هل لها من عينين؟ قال: نعم، أما سمعتم يقول:

إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَکانٍ بَعِیدٍ». و أخرج آدم بن أبى إياس فى تفسيره عن ابن عباس فى قوله: إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَکانٍ بَعِیدٍ قال: من مسيرة مائة عام، و ذلک إذا أتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، يشدّ بكل زمام سبعون ألف ملك، لو تركت لأتت على كل برّ و فاجر سَمِعُوا لَها تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً تزفر زفرة لا تبقى قطرة من دمع إلا بدت، ثم تزفر الثانية فتقطع القلوب من أماكنها و تبلغ القلوب الحناجر. و أخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن أسيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سئل عن قول اللّه وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَکاناً ضَیِّقاً مُقَرَّنِینَ قال: «و الذى نفسى بيده إنّهم ليستكرهون فى النّار كما يستكره الوتد فى الحائط». و أخرج ابن جرير و ابن أبى المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس دَعَوْا هُنالِکَ ثُبُوراً قال: ويلا لا تَدْعُوا الْیَوْمَ ثُبُوراً واحِداً يقول: لا تدعوا اليوم ويلا واحدا. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى البعث.

قال السيوطى بسند صحيح عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«إنّ أوّل من يكسى حلته من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه و يسحبها من خلفه و ذرّيته من بعده، و هو ينادى: يا ثبوراه! و يقولون: يا ثبورهم! حتى يقف على الناس فيقول: يا ثبوراه! و يقولون: يا ثبورهم! فيقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا و ادعوا ثبورا كثيرا». و إسناد أحمد هكذا. حدّثنا عفان عن حميد بن سلمة عن على بن زيد عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فذكره. و فى علىّ بن زيد بن جدعان مقال معروف. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس کانَ عَلی رَبِّکَ وَعْداً مَسْؤُلًا يقول: سلوا الذى وعدتكم تنجزوه.

[سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۱۷ الى ۲۴]

وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ وَ ما یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَیَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِی هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِیلَ (۱۷) قالُوا سُبْحانَکَ ما کانَ یَنْبَغِی لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِکَ مِنْ أَوْلِیاءَ وَ لکِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّی نَسُوا الذِّکْرَ وَ کانُوا قَوْماً بُوراً (۱۸) فَقَدْ کَذَّبُوکُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِیعُونَ صَرْفاً وَ لا نَصْراً وَ مَنْ یَظْلِمْ مِنْکُمْ نُذِقْهُ عَذاباً کَبِیراً (۱۹) وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَکَ مِنَ الْمُرْسَلِینَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَیَأْکُلُونَ الطَّعامَ وَ یَمْشُونَ فِی الْأَسْواقِ وَ جَعَلْنا بَعْضَکُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَ کانَ رَبُّکَ بَصِیراً (۲۰) وَ قالَ الَّذِینَ لا یَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْنَا الْمَلائِکَةُ أَوْ نَری رَبَّنا لَقَدِ اسْتَکْبَرُوا فِی أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا کَبِیراً (۲۱)

یَوْمَ یَرَوْنَ الْمَلائِکَةَ لا بُشْری یَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِینَ وَ یَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (۲۲) وَ قَدِمْنا إِلی ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (۲۳) أَصْحابُ الْجَنَّةِ یَوْمَئِذٍ خَیْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِیلًا (۲۴)

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۷۸

قوله: وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ الظرف منصوب بفعل مضمر، أى: و اذكر، و تعليق التذكير باليوم مع أن المقصود ذكر ما فيه للمبالغة و

التأكيد كما مرّ مرارا. قرأ ابن محيصن و حميد و ابن كثير و حفص و يعقوب و أبو عمرو فى رواية الدورىّ «يحشرهم» بالياء التحتية، و اختارها أبو عبيد و أبو حاتم لقوله فى أوّل الكلام كانَ عَلى رَبِّكَ و الباقون بالنون على التعظيم ما عدا الأعرج فإنه قرأ «نحشرهم» بكسر الشين فى جميع القرآن. قال ابن عطية: هى قليلة فى الاستعمال قوية فى القياس، لأن يفعل بكسر العين فى المتعدى أقيس من يفعل بضمها، و ردّه أبو حيان باستواء المضموم و المكسور إلا أن يشتهر أحدهما؛ اتّبع وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ معطوف على مفعول نحشر، و غلب غير العقلاء من الأصنام و الأوثان و نحوها على العقلاء من الملائكة و الجن و المسيح تنبيها على أنها جميعا مشتركة فى كونها غير صالحة لكونها آلهة، أو لأن من يعبد من لا يعقل أكثر ممن يعبد من يعقل منها، فغلبت اعتبارا بكثرة من يعبدها، و قال مجاهد و ابن جريج: المراد الملائكة و الإنس و الجن و المسيح و عزير، بدليل خطابهم، و جوابهم فيما بعد. و قال الضحاك و عكرمة و الكلبى: المراد الأصنام خاصة، و إنها و إن كانت لا تسمع و لا تتكلم فإن اللّه سبحانه يجعلها يوم القيامة سامعة ناطقة، فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قرأ ابن عامر و أبو حيوة و ابن كثير و حفص «فنقول» بالنون، و قرأ الباقون بالياء التحتية، و اختارها أبو عبيد كما اختار القراءة بها فى نحشرهم، و كذا أبو حاتم. و الاستفهام فى قوله: أ أنتم أضللتم للتوبيخ و التقريع. و المعنى: أ كان ضلالهم بسببكم، و بدعوتكم لهم إلى عبادتكم، أم هم ضلوا عن سبيل الحق بأنفسهم لعدم التفكر فيما يستدل به على الحق و التدبر فيما يتوصل به إلى الصواب و جملة قالُوا سُبْحانَكَ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و معنى سبحانك: التعجب مما قيل لهم لكونهم ملائكة أو أنبياء معصومين، أو جمادات لا تعقل، أى: تنزيها لك ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ أى: ما صح و لا استقام لنا أن نتخذ من دونك أولياء فنعبدهم، فكيف ندعو عبادك إلى عبادتنا نحن مع كوننا لا نعبد غيرك، و الولىّ يطلق على التابع كما يطلق على المتبوع، هذا معنى الآية على قراءة الجمهور نتخذ مبنيا للفاعل. و قرأ الحسن و أبو جعفر «نتخذ» مبنيا للمفعول، أى: ما كان ينبغى لنا أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك. قال أبو عمرو بن العلاء و عيسى بن عمر: لا تجوز هذه القراءة و لو كانت صحيحة لحذفت من الثانية. قال أبو عبيدة: لا تجوز هذه القراءة لأن اللّه سبحانه ذكر «من» مرتين، و لو كان كما قرأ لقال: أن نتخذ من دونك أولياء. و قيل: إن «من» الثانية زائدة.

ثم حكى عنهم سبحانه بأنهم بعد هذا الجواب ذكروا سبب ترك المشركين للإيمان فقال: وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ و فى هذا ما يدل على أنهم هم الذين ضلوا السبيل، و لم يضلهم غيرهم، و المعنى:

ما أضللناهم، و لكنك يا رب متعتهم و متعت آباءهم بالنعم، و وسعت عليهم الرزق، و أطلت لهم العمر حتى غفلوا عن ذكرك، و نسوا موعظتك، و التدبر لكتابك و النظر فى عجائب صنعك، و غرائب مخلوقاتك. و قرأ أبو عيسى الأسود القارئ «ينبغى» مبنيا للمفعول. قال ابن خالويه: زعم سيبويه أنها لغة. و قيل: المراد بنسيان الذكر هنا هو ترك الشكر وَ كانُوا قَوْماً بُوراً أى: و كان هؤلاء الذين أشركوا بك و عبدوا غيرك

فى قضائك الأزلىّ قوما بورا، أى: هلكى، مأخوذ من البوار و هو الهلاك؛ يقال: رجل بائر و قوم بور، يستوى فيه الواحد و الجماعة لأنه مصدر يطلق على القليل و الكثير و يجوز أن يكون جمع بائر. و قيل: البوار:

الفساد. يقال: بارت بضاعته، أى: فسدت، و أمر بائر، أى: فاسد و هى لغة الأزد. و قيل: المعنى:

لا خير فيهم، مأخوذ من بور الأرض و هو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير، و قيل: إن البوار الكساد، و منه بارت السلعة إذا كسدت فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فى الكلام حذف، و التقدير: فقال اللّه عند تبرى المعبودين مخاطبا للمشركين العابدين لغير اللّه فقد كذبوكم، أى: فقد كذبكم المعبودون بما تقولون، أى: فى قولكم إنهم آلهة فَما تَسْتَطِيعُونَ أى: الآلهة صَرْفاً أى: دفعا

للعذاب عنكم بوجه من الوجوه، و قيل: حيلة وَ لا نَصْراً أى: و لا يستطيعون نصركم، و قيل: المعنى فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون صرفا للعذاب الذى عذبهم اللّه به و لا نصرا من اللّه، و هذا الوجه مستقيم على قراءة من قرأ «تستطيعون» بالفوقية و هى قراءة حفص، و قرأ الباقون بالتحتية. و قال ابن زيد: المعنى: فقد كذبوكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و على هذا فمعنى بما تقولون: ما تقولونه من الحق. و قال أبو عبيد: المعنى فما يستطيعون لكم صرفا عن الحق الذى هداكم إليه، و لا نصرا لأنفسهم بما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم. و قرأ الجمهور «بما تقولون» بالتاء الفوقية على الخطاب. و حكى الفراء أنه يجوز أن يقرأ «فقد كذبوكم» مخففا بما يقولون، أى: كذبوكم فى قولهم و كذا قرأ بالياء التحتية مجاهد و البزى وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً هذا وعيد لكل ظالم و يدخل تحته الذى فيهم السياق دخولا أوليا، و العذاب الكبير عذاب النار، و قرئ «يذقه» بالتحتية، و هذه الآية و أمثالها مقيدة بعدم التوبة. ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله موضحا لبطلان ما تقدّم من قوله: يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق فقال: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ قال الزجاج: الجملة الواقعة بعد إلا صفة لموصوف محذوف، و المعنى: و ما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين إلا آكلين و ماشين، و إنما حذف الموصوف لأن فى قوله من المرسلين دليلا عليه، نظيره- و ما منا إلا له مقام معلوم- أى: و ما منا أحد.

و قال الفراء: لا محل لها من الإعراب، و إنما هى صلة لموصول محذوف هو المفعول، و التقدير: إلا من أنهم فالضمير فى أنهم و ما بعده راجع إلى من المقدّرة، و مثله قوله تعالى: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها «١» أى: إلا من يردها، و به قرأ الكسائى. قال الزجاج: هذا خطأ لأنّ من الموصولة لا يجوز حذفها. و قال ابن الأنبارى:

إنها فى محل نصب على الحال، و التقدير: إلا و أنهم، فالمحذوف عنده الواو. قرأ الجمهور «إلا إنهم» بكسر إنّ لوجود اللام فى خبرها كما تقرّر فى علم النحو، و هو مجمع عليه عندهم. قال النحاس: إلا أن علىّ بن سليمان الأخفش حكى لنا عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: يجوز فى إنّ هذه الفتح و إن كن بعدها اللام و أحسبه و هما. و قرأ الجمهور. «يمشون» بفتح الياء و سكون الميم، و تخفيف الشين. و قرأ علىّ و ابن عوف و ابن مسعود بضم الياء و فتح الميم و ضم الشين المشدّدة، و هى بمعنى القراءة الأولى، قال الشاعر:

---

(١). مريم: ٧١.

فتح القدير، ج۴، ص: ٨٠ و مشّى بأعطان المباءة و ابتغىقلائص منها صعبة و ركوب

و قال كعب بن زهير:

منه تظلّ سباع الجوّ ضامزةو لا تمشّى بواديه الأراجيل «١»

وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً هذا الخطاب عامّ للناس، و قد جعل سبحانه بعض عبيدة فتنة لبعض فالصحيح فتنة للمريض و الغنىّ فتنة للفقير و قيل: المراد بالبعض الأوّل: كفار الأمم، و بالبعض الثانى: الرسل، و معنى الفتنة: الابتلاء و المحنة. و الأوّل أولى، فإن البعض من الناس ممتحن بالبعض مبتلى به؛ فالمريض يقول لم لم أجعل كالصحيح؟ و كذا كل صاحب آفة، و الصحيح مبتلى بالمريض فلا يضجر منه و لا يحقره، و الغنىّ مبتلى بالفقير يواسيه، و الفقير مبتلى بالغنىّ يحسده، و نحو هذا مثله. و قيل: المراد بالآية أنه كان إذا أراد الشريف أن يسلم، و رأى الوضيع قد أسلم قبله أنف و قال لا أسلم بعده. فيكون له علىّ السابقة و الفضل، فيقيم على كفره، ذلك افتتان بعضهم لبعض، و اختار هذا الفراء و الزجاج. و لا وجه لقصر الآية على هذا، فإن هؤلاء إن كانوا سبب النزول، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ثم قال سبحانه بعد الإخبار بجعل البعض للبعض فتنة أَ تَصْبِرُونَ هذا

الاستفهام للتقرير، و فى الكلام حذف تقديره أم لا تصبرون، أى: أ تصبرون على ما ترون من هذه الحال الشديدة و الابتلاء العظيم. قيل: موقع هذه الجملة الاستفهامية هاهنا موقع قوله:
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا* فى قوله: لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا «٢» ثم وعد الصابرين بقوله: وَ كانَ رَبُّكَ بَصِيراً أى: بكل من يصير و من لا يصبر، فيجازى كلا منهما بما يستحقه. و قيل معنى أ تصبرون: اصبروا مثل قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ «٣» أى: انتهوا وَ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا هذه المقالة من جملة شبههم التى قدحوا بها فى النبوة، و الجملة معطوفة على وَ قالُوا ما لِهذَا أى: و قال المشركون الذين لا يبالون بلقاء اللّه كما فى قول الشاعر:
لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلماعلى أىّ جنب كان فى اللّه مصرعى
أى لا أبالى، و قيل: المعنى لا يخافون لقاء ربهم كقول الشاعر:
إذا لسعته النحل لم يرج لسعهاو خالفها فى بيت نوب عوامل
أى: لم يخف، و هى لغة تهامة. قال الفراء وضع الرجاء موضع الخوف، و قيل: لا يأملون، و منه قول الشاعر:
أ ترجو أمة قتلت حسيناشفاعة جدّه يوم الحساب
و الحمل على المعنى الحقيقى أولى، فالمعنى: لا يأملون لقاء ما وعدنا على الطاعة من الثواب، و معلوم

---

(١). الجوّ: البر الواسع. و ضامزة: ساكتة، و كل ساكت فهو ضامز. و الأراجيل: جمع أرجال، و أرجال جمع رجل.
يصف الشاعر أسدا؛ بأن الأسود و الرّجال تخافه.

(٢). هود: ٧.

(٣). المائدة: ٩١.

فتح القدير، ج۴، ص: ٨١

أن من لا يرجو الثواب لا يخاف العقاب لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أى: هلا أنزلوا علينا فيخبرونا أن محمدا صادق، أو هلا أنزلوا علينا رسلا يرسلهم اللّه أَوْ نَرى رَبَّنا عيانا فيخبرنا بأن محمدا رسول.
ثم أجاب سبحانه عن شبههم هذه فقال: لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً أى: أضمروا الاستكبار عن الحق و العناد فى قلوبهم كما فى قوله: إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ «١» و العتوّ: مجاوزة الحد فى الطغيان و البلوغ إلى أقصى غاياته، و وصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة فى غاية الكبر و العظم، فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم، بل جاوزوا ذلك إلى التخيير بينه و بين مخاطبة اللّه سبحانه و رؤيته فى الدنيا من دون أن يكون بينهم و بينه ترجمان، و لقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغا هى أحقر و أقل و أرذل من أن تكون من أهله، أو تعدّ من المستعدّين له، و هكذا من جهل قدر نفسه، و لم يقف عند حدّه، و من جهلت نفسه قدره رأى غيره منه لا يرى، و انتصاب يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ بفعل محذوف، أى: و اذكر يوم يرون الملائكة رؤية ليست على الوجه الذى طلبوه و الصورة التى اقترحوها، بل على وجه آخر، و هو يوم ظهورهم لهم عند الموت أو عند الحشر، و يجوز أن يكون انتصاب هذا الظرف بما يدلّ عليه قوله: لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ أى: يمنعون البشرى يوم يرون، أو لا توجد لهم بشرى فيه، فأعلم سبحانه بأن الوقت الذى يرون فيه الملائكة، و هو وقت الموت، أو يوم القيامة قد حرمهم اللّه البشرى. قال الزجاج: المجرمون فى هذا الموضع الذى اجترموا الكفر باللّه وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً أى: و يقول الكفار عند مشاهدتهم للملائكة حجرا محجورا، و هذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدوّ و هجوم نازلة يضعونها موضع الاستعاذة، يقال للرجل: أ تفعل كذا، فيقول: حجرا محجورا، أى: حراما عليك التعرّض لى. و قيل:

إن هذا من قول الملائكة، أى: يقولون للكفار: حراما محرّما أن يدخل أحدكم الجنة، و من ذلك قول الشاعر:

ألا أصبحت أسماء حجرا محرّماو أصبحت من أدنى حموّتها حما «۲»

أى: أصبحت أسماء حراما محرّما، و قال آخر:

حنّت إلى النخلة القصوى فقلت لهاحجر حرام ألّا تلك الدهاريس

و قد ذكر سيبويه فى باب المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها هذه الكلمة، و جعلها من جملتها وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً هذا وعيد آخر، و ذلك أنهم كانوا يعملون أعمالا لها صورة الخير: من صلة الرحم، و إغاثة الملهوف و إطعام الطعام و أمثالها، و لم يمنع من الإثابة عليها إلا الكفر الذى هم عليه، فمثلت حالهم و أعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم و استعصوا عليه فقدم إلى ما معهم من المتاع فأفسده و لم يترك منها شيئا، و إلا فلا قدوم هاهنا. قال الواحدى: معنى قدمنا عمدنا و قصدنا، يقال: قدم فلان إلى أمر كذا إذا قصده أو عمده، و منه قول الشاعر:

---

(۱). فاطر: ۵۶.

(۲). قاله رجل كانت له امرأة فطلقها و تزوجها أخوه، أى: أصبحت أخا زوجها بعد ما كنت زوجها.

فتح القدير، ج۴، ص: ۸۲ و قدم الخوارج الضّلال إلى عباد ربّهم فقالوا إنّ دماءكم لنا حلال

و قيل: هو قدوم الملائكة، أخبر به عن نفسه تعالى، و الهباء واحدة هباءة، و الجمع أهباء. قال النضر ابن شميل: الهباء التراب الذى تطيره الريح كأنه دخان. و قال الزجاج: هو ما يدخل من الكوّة مع ضوء الشمس يشبه الغبار، و كذا قال الأزهرى، و المنثور: المفرق، و المعنى: أن اللّه سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور، لم يكتف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرّق متبدّد؛ و قيل: إن الهباء ما أذرته الرياح من يابس أوراق الشجر، و قيل: هو الماء المهراق، و قيل الرماد. و الأوّل: هو الذى ثبت فى لغة العرب، و نقله العارفون بها. ثم ميز سبحانه حال الأبرار من حال الفجار فقال: أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا أى: أفضل منزلا فى الجنة وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا أى: موضع قائلة، و انتصاب مستقرّا على التمييز. قال الأزهرى: القيلولة عند العرب: الاستراحة نصف النهار، إذا اشتدّ الحرّ، و إن لم يكن مع ذلك نوم. قال النحاس: و الكوفيون يجيزون: العسل أحلى من الخلّ.

و قد أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله:

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ الآية قال: عيسى و عزير و الملائكة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قَوْماً بُوراً قال: هلكى. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن الحسن فى قوله: وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ قال: هو الشرك. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: يشرك. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ يقول:

إن الرسل قبل محمد صلّى اللّه عليه و سلم كانوا بهذه المنزلة يأكلون الطعام و يمشون فى الأسواق وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً قال: بلاء. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الشعب عن الحسن وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً قال: يقول الفقير لو شاء اللّه لجعلنى غنيا مثل فلان، و يقول السقيم لو شاء اللّه لجعلنى صحيحا مثل فلان، و يقول الأعمى لو شاء اللّه لجعلنى بصيرا مثل فلان. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً قال: شدّة الكفر. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ قال: يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطية العوفىّ نحوه. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ يَقُولُونَ حِجْراً

مَحْجُوراً قال: عوذا معاذا، الملائكة تقوله. و فى لفظ قال: حراما محرّما أن تكون البشرى فى اليوم إلا للمؤمنين.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عطيّة العوفىّ عن أبى سعيد الخدرى فى قوله: وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً قال: حراما محرّما أن نبشركم بما نبشر به المتقين. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن و قتادة وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً قالا: هى كلمة كانت العرب تقولها، كان الرجل إذا نزلت به شدّة قال: حجرا محجورا حراما محرّما. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ

فتح القدير، ج۴، ص: ۸۳

قال: عمدنا إلى ما عملوا من خير ممن لا يتقبل منه فى الدنيا. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: هَباءً مَنْثُوراً قال: الهباء شعاع الشمس الذى يدخل من الكوّة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب قال: الهباء و هيج الغبار يسطع، ثم يذهب فلا يبقى منه شىء، فجعل اللّه أعمالهم كذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الهباء الذى يطير من النار إذا اضطرمت يطير منها الشرر. فإذا وقع لم يكن شيئا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: هو ما تسفى الريح و تبثه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: هو الماء المهراق.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا قال: فى الغرف من الجنة و أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: لا ينصرف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء و هؤلاء، ثم قرأ أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا.

[سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۲۵ الى ۳۴]

وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا (۲۵) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَ كانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (۲۶) وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (۲۷) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا (۲۸) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا (۲۹)

وَ قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (۳۰) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَ نَصِيراً (۳۱) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا (۳۲) وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً (۳۳) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (۳۴)

قوله: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وصف سبحانه هاهنا بعض حوادث يوم القيامة، و التشقق:

التفتح، قرأ عاصم و الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و الكسائى و أبو عمرو، تشقق بتخفيف الشين، و أصله تتشقق، و قرأ الباقون، بتشديد الشين على الإدغام. و اختار القراءة الأولى أبو عبيد، و اختار الثانية أبو حاتم، و معنى تشققها بالغمام: أنها تتشقق عن الغمام. قال أبو على الفارسى: تتشقق السماء و عليها غمام كما تقول:

ركب الأمير بسلاحه، أى: و عليه سلاحه و خرج بثيابه، أى: و عليه ثيابه. و وجه ما قال أن الباء و عن يتعاقبان كما تقول: رميت بالقوس. و عن القوس. و روى أن السماء تتشقق عن سحاب رقيق أبيض. و قيل:

إن السماء تتشقق بالغمام الذى بينها و بين الناس. و المعنى أنه يتشقق السحاب بتشقق السماء، و قيل: إنها تتشقق لنزول الملائكة

كما قال سبحانه بعد هذا: وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا و قيل: إن الباء فى بالغمام سببية، أى: بسبب الغمام، يعنى بسبب طلوعه منها كأنه الذى تتشقق به السماء، و قيل: إن الباء متعلقة بمحذوف، أى: ملتبسة بالغمام. قرأ ابن كثير «و ننزل الملائكة» مخففا، من الإنزال بنون بعدها نون ساكنة و زاى مخففة بكسرة مضارع أنزل، و الملائكة منصوبة على المفعولية. و قرأ الباقون من السبعة وَ نُزِّلَ بضم النون

فتح القدير، ج۴، ص: ۸۴

و كسر الزاى المشدّدة ماضيا مبنيا للمفعول، و قرأ ابن مسعود و أبو رجاء «نزل» بالتشديد ماضيا مبنيا للفاعل و فاعله اللّه سبحانه، و قرأ أبى بن كعب «و أنزل الملائكة» و قد قرئ فى الشواذ بغير هذه، و تأكيد هذا الفعل بقوله تنزيلا يدلّ على أن هذا التنزيل على نوع غريب و نمط عجيب. قال أهل العلم: إن هذا تنزيل رضا و رحمة لا تنزيل سخط و عذاب. الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ الملك: مبتدأ، و الحق: صفة له، و للرحمن: الخبر كذا قال الزجاج، أى: الملك الثابت الذى لا يزول للرحمن يومئذ، لأن الملك الذى يزول و ينقطع ليس بملك فى الحقيقة، و فائدة التقييد بالظرف أن ثبوت الملك المذكور له سبحانه خاصة فى هذا اليوم، و أما فيما عداه من أيام الدنيا فلغيره ملك فى الصورة و إن لم يكن حقيقيا. و قيل: إن خبر المبتدأ هو الظرف، و الحق نعت للملك. و المعنى: الملك الثابت للرحمن خاص فى هذا اليوم وَ كانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً أى: و كان هذا اليوم مع كون الملك فيه للّه وحده شديدا على الكفار لما يصابون به فيه، و ينالهم من العقاب بعد تحقيق الحساب، و أما على المؤمنين فهو يسير غير عسير، لما ينالهم فيه من الكرامة و البشرى العظيمة وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ الظرف منصوب بمحذوف، أى: و اذكر كما انتصب بهذا المحذوف الظرف الأول، أعنى يوم تشقق، و يوم يعضّ الظالم على يديه الظاهر أن العضّ هنا حقيقة، و لا مانع من ذلك و لا موجب لتأويله. و قيل: هو كناية عن الغيظ و الحسرة، و المراد بالظالم كلّ ظالم يرد ذلك المكان و ينزل المنزل، و لا ينافيه ورود الآية على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يقول: فى محل نصب على الحال، و مقول القول هو: يا ليتنى إلخ، و المنادى محذوف، أى: يا قوم! ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا: طريقا و هو طريق الحق، و مشيت فيه حتى أخلص من هذه الأمور المضلة، و المراد اتباع النبى صلّى اللّه عليه و سلم فيما جاء به يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا دعاء على نفسه بالويل و الثبور على مخاللة الكافر الذى أضله فى الدنيا و فلان كناية عن الأعلام. قال النيسابورى: زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان فى الفصيح إلا حكاية، لا يقال: جاءنى فلان، و لكن يقال: قال زيد جاءنى فلان، لأنه اسم اللفظ الذى هو علم الاسم، و كذلك جاء فى كلام اللّه. و قيل: فلان كناية عن علم ذكور من يعقل، و فلانة عن علم إناثهم. و قيل: كناية عن نكرة من يعقل من الذكور، و فلانة عمن يعقل من الإناث، و أما الفلان و الفلانة، فكناية عن غير العقلاء، و فل يختص بالنداء إلا فى ضرورة كقول الشاعر:

فى لجّة أمسك فلانا عن فل و قوله:

حدّثانى عن فلان و فل و ليس فل مرخما من فلان خلافا للفراء. و زعم أبو حيان أن ابن عصفور و ابن مالك و هما فى جعل فلان كناية علم من يعقل. و قرأ الحسن «يا ويلتى» بالياء الصريحة، و قرأ الدورىّ بالإمالة. قال أبو على: و ترك الإمالة أحسن، لأن أصل هذه اللفظة: الياء فأبدلت الكسرة فتحة، و الياء فرارا من الياء، فمن أمال رجع

فتح القدير، ج۴، ص: ۸۵

إلى الذى فرّ منه لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي أى: و اللّه لقد أضلنى هذا الذى اتخذته خليلا عن القرآن، و عن الموعظة، أو كلمة الشهادة أو مجموع ذلك، بعد إذ جاءنى، و تمكنت منه، و قدرت عليه وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا الخذل: ترك الإغاثة، و منه خذلان إبليس للمشركين حيث يوالونه، ثم يتركهم عند استغاثتهم به، و هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها، و

يحتمل أن تكون من كلام اللّه تعالى، أو من تمام كلام الظالم، و أنه سمى خليله شيطانا بعد أن جعله مضلا، أو أراد بالشيطان إبليس، لكونه الذى حمله على مخاللة المضلين وَ قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً معطوف على وَ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا و المعنى: إنّ قومى اتخذوا هذا القرآن الذى جئت به إليهم، و أمرتنى بإبلاغه و أرسلتنى به مهجورا، متروكا لم يؤمنوا به، و لا قبلوه بوجه من الوجوه، و قيل: هو من هجر إذا هذى.

و المعنى: أنهم اتخذوه هجرا و هذيانا. و قيل: معنى مهجورا: مهجورا فيه، ثم حذف الجار، و هجرهم فيه قولهم: إنه سحر، و شعر، و أساطير الأوّلين، و هذا القول يقوله الرسول صلّى اللّه عليه و سلم يوم القيامة؛ و قيل: إنه حكاية لقوله صلّى اللّه عليه و سلم فى الدنيا وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ هذا تسلية من اللّه سبحانه لرسوله صلّى اللّه عليه و سلم، و المعنى: أن اللّه سبحانه جعل لكلّ نبىّ من الأنبياء الداعين إلى اللّه عدوّا يعاديه من مجرمى قومه، فلا تجزع يا محمد، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك و اصبر كما صبروا وَ كَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَ نَصِيراً قال المفسرون:

الباء زائدة، أى: كفى ربك، و انتصاب نصيرا و هاديا على الحال، أو التمييز: أى يهدى عباده إلى مصالح الدين و الدنيا و ينصرهم على الأعداء وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً هذا من جملة اقتراحاتهم و تعنتاتهم، أى: هلا نزّل اللّه علينا هذا القرآن دفعة واحدة غير منجم. و اختلف فى قائل هذه المقالة؛ فقيل: كفار قريش، و قيل: اليهود، قالوا: هلا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة و الإنجيل و الزبور؟ و هذا زعم باطل و دعوى داحضة فإن هذه الكتب نزلت مفرّقة كما نزل القرآن و لكنهم معاندون، أو جاهلون لا يدرون بكيفية نزول كتب اللّه سبحانه على أنبيائه، ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم فقال: كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ أى: نزلنا القرآن كذلك مفرّقا، و الكاف: فى محل نصب، على أنها نعت مصدر محذوف، و ذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم، أى: مثل ذلك التنزيل المفرّق الذى قدحوا فيه، و اقترحوا خلافه نزلناه لنقوّى بهذا التنزيل على هذه الصفة فؤادك، فإن إنزاله مفرّقا منجما على حسب الحوادث أقرب إلى حفظك له، و فهمك لمعانيه، و ذلك من أعظم أسباب التثبيت، و اللام متعلقة بالفعل المحذوف الذى قدّرناه. و قال أبو حاتم: إن الأخفش قال: إنها جواب قسم محذوف. قال: و هذا قول مرجوح. و قرأ عبد اللّه لِيُثَبِّتَ بالتحتية، أى: اللّه سبحانه، و قيل: إن هذه الكلمة، أعنى كذلك، هى من تمام كلام المشركين، و المعنى كذلك، أى: كالتوراة و الإنجيل و الزبور، فيوقف على قوله كذلك، ثم يبتدأ بقوله: لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ على معنى أنزلناه عليك متفرّقا لهذا الغرض. قال ابن الأنبارى: و هذا أجود و أحسن. قال النحاس: و كان ذلك، أى: إنزال القرآن منجما من أعلام النبوّة لأنهم لا يسألونه عن شىء إلا أجيبوا عنه، و هذا لا يكون إلا من نبىّ، فكان ذلك تثبيتا لفؤاده و أفئدتهم وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا هذا معطوف على الفعل المقدّر، أى:

فتح القدير، ج‏4، ص: 86

كذلك نزلناه، و رتلناه ترتيلا، و معنى الترتيل: أن يكون آية بعد آية، قاله النخعى و الحسن و قتادة. و قيل:

إن المعنى بيناه تبيينا، حكى هذا عن ابن عباس. و قال مجاهد: بعضه فى إثر بعض. و قال السدىّ: فصلناه تفصيلا. قال ابن الأعرابى: ما أعلم الترتيل إلا التحقيق و التبيين. ثم ذكر سبحانه أنهم محجوجون فى كلّ أوان مدفوع قولهم بكل وجه و على كل حالة فقال: وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً أى: لا يأتيك- يا محمد- المشركون بمثل من أمثالهم التى من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة إلا جئناك فى مقابلة مثلهم بالجواب الحق الثابت الذى يبطل ما جاءوا به من المثل و يدمغه و يدفعه. فالمراد بالمثل هنا: السؤال و الاقتراح، و بالحق جوابه الذى يقطع ذريعته، و يبطل شبهته، و يحسم مادته. و معنى أَحْسَنَ تَفْسِيراً جئناك بأحسن تفسير، فأحسن تفسيرا معطوف على الحق، و الاستثناء بقوله: إِلَّا جِئْناكَ مفرّغ، و الجملة فى محل نصب على الحال، أى: لا يأتونك بمثل إلا فى حال إيتائنا إياك ذلك. ثم أوعد هؤلاء الجهلة و ذمهم فقال: الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ

إِلى جَهَنَّمَ أى: يحشرون كائنين على وجوههم، و الموصول: مبتدأ، و خبره: أولئك، أو هو خبر مبتدأ محذوف، أى: هم الذين، و يجوز نصبه على الذمّ.

و معنى يحشرون على وجوههم: يسحبون عليها إلى جهنم أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً أى: منزلا و مصيرا وَ أَضَلُّ سَبِيلًا و أخطأ طريقا، و ذلك لأنهم قد صاروا فى النار. و قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى سورة سبحان، و قد قيل إن هذا متصل بقوله: أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم عن ابن عباس فى قوله: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا قال: يجمع اللّه الخلق يوم القيامة فى صعيد واحد: الجنّ و الإنس و البهائم و السباع و الطير و جميع الخلق، فتنشقّ السماء الدنيا فينزل أهلها و هم أكثر ممن فى الأرض من الجنّ و الإنس و جميع الخلق، فيحيطون بالجنّ و الإنس و جميع الخلق فيقول أهل الأرض: أ فيكم ربنا؟ فيقولون لا ثم تنشقّ السماء الثانية مثل ذلك، ثم كذلك فى كلّ سماء إلى السماء السابعة، و فى كل سماء أكثر من السماء التى قبلها، ثم ينزل ربنا فى ظلل من الغمام و حوله الكروبيون، و هم أكثر من أهل السموات السبع و الإنس و الجنّ و جميع الخلق، لهم قرون ككعوب القثاء، و هم تحت العرش، لهم زجل بالتسبيح و التهليل و التقديس للّه تعالى، ما بين أخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، و من ركبته إلى فخذه مسيرة خمسمائة عام، و من فخذه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام، و ما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام. و إسناده عند ابن جرير هكذا: قال حدّثنا القاسم، حدّثنا الحسين، حدّثنى الحجاج ابن مبارك بن فضالة عن علىّ بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران أنه سمع ابن عباس فذكره. و أخرجه ابن أبى حاتم بإسناد هكذا: قال حدّثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا مؤمل، حدّثنا حماد بن سلمة عن علىّ بن زيد به. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل بسند، قال السيوطى: صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن أبا معيط كان يجلس مع النبى صلّى اللّه عليه و سلم بمكة لا يؤذيه، و كان رجلا حليما، و كان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، و كان لأبى معيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قريش: صبأ أبو

معيط، و قدم خليله من الشام ليلا فقال لامرأته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشدّ ما كان أمرا، فقال: ما فعل خليلى أبو معيط؟ فقالت: صبأ، فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط فحياه، فلم يردّ عليه التحية، فقال: مالك لا تردّ على تحيتى؟ فقال: كيف أردّ عليك تحيتك و قد صبوت؟ قال: أو قد فعلتها قريش؟ قال: نعم، فما يبرئ صدورهم إن أنا فعلته؟ قال: تأتيه فى مجلسه فتبزق فى وجهه و تشتمه بأخبث ما تعلم من الشتم، ففعل فلم يردّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على أن مسح وجهه من البزاق، ثم التفت إليه فقال:

إن وجدتك خارجا من جبال مكة أضرب عنقك صبرا، فلما كان يوم بدر و خرج أصحابه أبى أن يخرج، فقال له أصحابه: أخرج معنا، قال: وعدنى هذا الرجل إن وجدنى خارجا من جبال مكة أن يضرب عنقى صبرا، فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك، فلو كانت الهزيمة طرت عليه فخرج معهم، فلما هزم اللّه المشركين و حمل به جمله فى جدود من الأرض، فأخذه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أسيرا فى سبعين من قريش، و قدم إليه أبو معيط فقال: أ تقتلنى من بين هؤلاء؟ قال: نعم بما بزقت فى وجهى، فأنزل اللّه فى أبى معيط وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ إلى قوله وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا. و أخرج أبو نعيم هذه القصة من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، و ذكر أن خليل أبى معيط: هو أبىّ بن خلف. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أيضا فى قوله: يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ قال: أبىّ بن خلف و عقبة بن أبى معيط، و هما الخليلان فى جهنم، و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ قال: كان عدوّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم أبو جهل و

عدوّ موسى قارون، و كان قارون ابن عمّ موسى. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و الضياء فى المختارة عن ابن عباس قال: قال المشركون: لو كان محمد كما يزعم نبيا فلم يعذبه ربه؟ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة، ينزل عليه الآية و الآيتين و السورة و السورتين، فأنزل اللّه على نبيه جواب ما قالوا: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً إلى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ قال: لنشدد به فؤادك و نربط على قلبك وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا قال: رسلناه ترسيلا، يقول شيئا بعد شيء وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ يقول: لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة، ثم سألوك لم يكن عنده ما يجيب، و لكنا نمسك عليك، فإذا سألوك أجبت.

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣٥ الى ٤٤]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَ جَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً (٣٧) وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً (٣٨) وَ كُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَ كُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً (٣٩)

وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (٤٠) وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤)

فتح القدير، ج۴، ص: ٨٨

اللام فى قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ جواب قسم محذوف، أى: و اللّه لقد آتينا موسى التوراة، ذكر سبحانه طرفا من قصص الأولين تسلية له صلّى اللّه عليه و سلم بأن تكذيب قوم أنبياء اللّه لهم عادة للمشركين باللّه، و ليس ذلك بخاص بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم و هارُونَ عطف بيان، و يجوز أن ينصب على القطع و وَزِيراً المفعول الثانى، و قيل: حال، و المفعول الثانى: معه، و الأوّل: أولى. قال الزجاج: الوزير فى اللغة الذى يرجع إليه و يعمل برأيه، و الوزر ما يعتصم به، و منه كَلَّا لا وَزَرَ «١». و قد تقدّم تفسير الوزير فى طه، و الوزارة لا تنافى النبوّة، فقد كان يبعث فى الزمن الواحد أنبياء، و يؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا. و قد كان هارون فى أوّل الأمر وزيرا لموسى، و لاشتراكهما فى النبوّة قيل لهما اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا و هم فرعون و قومه، و الآيات هى التسع التى تقدم ذكرها، و إن لم يكونوا قد كذبوا بها عند أمر اللّه لموسى و هارون بالذهاب بل كان التكذيب بعد ذلك، لكن هذا الماضى بمعنى المستقبل على عادة إخبار اللّه، أى: اذهبا إلى القوم الذين يكذبون بآياتنا. و قيل: إنما وصفوا بالتكذيب عند الحكاية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بيانا لعلة استحقاقهم للعذاب. و قيل: يجوز أن يراد إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا. و قيل: إن المراد بوصفهم بالتكذيب عند الإرسال، أنهم كانوا مكذبين للآيات الإلهية، و ليس المراد آيات الرسالة. قال القشيرى: و قوله تعالى فى موضع آخر: اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى «٢» لا ينافى هذا لأنهما إذا كانا مأمورين فكل واحد مأمور. و يمكن أن يقال: إن تخصيص موسى بالخطاب فى بعض المواطن لكونه الأصل فى الرسالة، و الجمع بينهما فى الخطاب لكونهما مرسلين جميعا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً فى الكلام حذف، أى: فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم، أى: أهلكناهم إثر ذلك التكذيب إهلاكا عظيما. و قيل: إن المراد بالتدمير هنا: الحكم به، لأنه لم يحصل عقب بعث موسى و هارون إليهم، بل بعده بمدّة وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ فى نصب قوم أقوال: العطف على الهاء، و الميم فى دمرناهم، أو النصب بفعل محذوف: أى اذكر، أو بفعل مضمر يفسره ما بعده، و هو أغرقناهم، أى: أغرقنا قوم نوح أغرقناهم، و قال الفراء: هو

منصوب بأغرقناهم المذكور بعده من دون تقدير مضمر يفسره ما بعده. و ردّه النحاس بأن أغرقنا لا يتعدّى إلى مفعولين حتى يعمل فى الضمير المتصل به، و فى قوم نوح. و معنى لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أنهم كذبوا نوحا و كذبوا من قبله من رسل اللّه. و قال الزجاج: من كذّب نبيا فقد كذّب جميع الأنبياء، و كان إغراقهم بالطوفان كما تقدّم فى هود وَ جَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً أى: جعلنا إغراقهم، أو قصتهم آية، أى: عبرة لكل الناس على العموم، يتعظ بها كل مشاهد لها، و سامع لخبرها وَ أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ المراد بالظالمين: قوم نوح على الخصوص.

و يجوز أن يكون المراد ككل من سلك مسلكهم فى التكذيب، و العذاب الأليم: هو عذاب الآخرة، و انتصاب

---

(۱). القيامة: ۱۱.

(۲). طه: ۲۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۸۹

عاداً بالعطف على قوم نوح، و قيل: على محل الظالمين، و قيل: على مفعول جعلناهم وَ ثَمُودَ معطوف على عادا، و قصة عاد و ثمود قد ذكرت فيما سبق وَ أَصْحابَ الرَّسِّ فى كلام العرب: البئر التى تكون غير مطوية، و الجمع رساس كذا قال أبو عبيدة، و منه قول الشاعر:

و هم سائرون إلى أرضهمتنابلة يحفرون الرّساسا

قال السدّى: هى بئر بانطاكية، قتلوا فيها حبيبا النجار، فنسبوا إليها؛ و هو صاحب يس الذى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ و كذا قال مقاتل و عكرمة و غيرهما. و قيل: هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياءهم فجفت أشجارهم و زروعهم، فماتوا جوعا و عطشا. و قيل: كانوا يعبدون الشجر، و قيل: كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل اللّه إليهم شعيبا فكذبوه و آذوه. و قيل: هم قوم أرسل اللّه إليهم نبيا فأكلوه، و قيل: هم أصحاب الأخدود. و قيل: إن الرسّ: هى البئر المعطلة التى تقدم ذكرها، و أصحابها أهلها. و قال فى الصحاح: و الرسّ اسم بئر كانت لبقية ثمود، و قيل الرسّ: ماء و نخل لبنى أسد، و قيل: الثلج المتراكم فى الجبال. و الرسّ: اسم واد، و منه قول زهير:

بكرن بكورا و استحرن بسحرةفهنّ لوادى الرّسّ كاليد للفم

و الرسّ أيضا: الإصلاح بين الناس، و الإفساد بينهم، فهو من الأضداد. و قيل: هم أصحاب حنظلة ابن صفوان، و هم الذين ابتلاهم اللّه بالطائر المعروف بالعنقاء وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً معطوف على ما قبله، و القرون جمع قرن، أى: أهل قرون، و القرن: مائة سنة، و قيل: مائة و عشرون، و قيل: القرن أربعون سنة، و الإشارة بقوله: بَيْنَ ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره من الأمم. و قد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها وَ كُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ قال الزجاج: أى و أنذرنا كلّا ضربنا لهم الأمثال و بينا لهم الحجة، و لم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة، فجعله منصوبا بفعل مضمر يفسره ما بعده، لأن حذرنا و ذكرنا و أنذرنا فى معنى ضربنا، و يجوز أن يكون معطوفا على ما قبله، و التنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف، و هو الأمم، أى: كل الأمم ضربنا لهم الأمثال وَ أما كُلًّا الأخرى: فهى منصوبة بالفعل الذى بعدها، و التتبير: الإهلاك بالعذاب. قال الزجاج: كل شىء كسرته و فتتته فقد تبرته. و قال المؤرج و الأخفش: معنى تَبَّرْنا تَتْبِيراً دمّرنا تدميرا أبدلت التاء و الباء من الدال و الميم وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ هذه جملة مستأنفة مبينة لمشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم. و المعنى: و لقد أتوا، أى: مشركو مكة على قرية قوم لوط التى أمطرت مطر السوء، و هو الحجارة، أى: هلكت بالحجارة التى أمطروا بها، و انتصاب مطر على المصدرية، أو على أنه مفعول ثان: إذ المعنى أعطيتها و أوليتها مطر السوء، أو على أنه نعت مصدر محذوف، أى: إمطارا مثل

مطر السوء، و قرأ أبو السموأل السَّوْءِ بضم السين، و قد تقدّم تفسير السوء فى براءة أ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها الاستفهام للتقريع و التوبيخ؛ أى: يرون القرية المذكورة عند سفرهم إلى الشام للتجارة، فإنهم يمرّون بها، و الفاء للعطف على مقدّر، أى: لم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً أضرب سبحانه عما سبق من عدم رؤيتهم لتلك الآثار

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۹۰

إلى عدم رجاء البعث منهم المستلزم لعدم رجاءهم للجزاء، و يجوز أن يكون معنى يرجون يخافون وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أى: ما يتخذونك إلا هزؤا، أى: مهزوءا بك، قصر معاملتهم له على اتخاذهم إياه هزوا، فجواب إذا هو إِنْ يَتَّخِذُونَكَ و قيل: الجواب محذوف، و هو قوله: أَ هذَا الَّذِي و على هذا فتكون جملة إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً معترضة، و الأوّل أولى. و تكون جملة أَ هذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا فى محل نصب على الحال بتقدير القول: أى قائلين أ هذا إلخ، و فى اسم الإشارة دلالة على استحقارهم له و تهكمهم به، و العائد محذوف؛ أى: بعثه اللّه و انتصاب رسولا على الحال، أى: مرسلا، و اسم الإشارة: مبتدأ، و خبره: الموصول و صلته إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا أى قالوا: إن كاد هذا الرسول ليضلنا: ليصرفنا عن آلهتنا فنترك عبادتها، و إن هنا هى المخففة، و ضمير الشأن محذوف، أى: إنه كاد أن يصرفنا عنها لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها أى: حبسنا أنفسنا على عبادتها، ثم إنه سبحانه أجاب عليهم فقال: وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا أى: حين يرون عذاب يوم القيامة الذى يستحقونه و يستوجبونه بسبب كفرهم من هو أضلّ سبيلا، أى: أبعد طريقا عن الحق و الهدى، أ هم أم المؤمنون؟ ثم بين لهم سبحانه أنه لا تمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد و اتباع الهوى، فقال معجبا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ قدّم المفعول الثانى للعناية كما تقول علمت منطلقا زيدا، أى:

أطاع هواه طاعة كطاعة الإله، أى: انظر إليه يا محمد و تعجب منه. قال الحسن: معنى الآية لا يهوى شيئا إلا اتبعه أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا الاستفهام للإنكار و الاستبعاد، أى: أ فأنت تكون عليه حفيظا و كفيلا حتى تردّه إلى الإيمان و تخرجه من الكفر، و لست تقدر على ذلك و لا تطيقه، فليست الهداية و الضلالة موكولتين إلى مشيئتك، و إنما عليك البلاغ. و قد قيل: إن هذه الآية منسوخة بآية القتال. ثم انتقل سبحانه من الإنكار الأول إلى إنكار آخر فقال: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ أى: أ تحسب أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من آيات القرآن و من المواعظ، أو يعقلون معانى ذلك و يفهمونه حتى تعتنى بشأنهم و تطمع فى إيمانهم، ليسوا كذلك، بل هم بمنزلة من لا يسمع و لا يعقل. ثم بين سبحانه حالهم و قطع مادّة الطمع فيهم فقال: إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ أى: ما هم فى الانتفاع بما يسمعونه إلا كالبهائم التى هى مسلوبة الفهم و العقل فلا تطمع فيهم، فإن فائدة السمع و العقل مفقودة، و إن كانوا يسمعون ما يقال لهم و يعقلون ما يتلى عليهم، و لكنهم لما لم ينتفعوا بذلك كانوا كالفاقد له. ثم أضرب سبحانه عن الحكم عليهم بأنهم كالأنعام إلى ما هو فوق ذلك فقال: بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا أى: أضل من الأنعام طريقا. قال مقاتل:

البهائم تعرف ربها و تهتدى إلى مراعيها و تنقاد لأربابها، و هؤلاء لا ينقادون و لا يعرفون ربهم الذى خلقهم و رزقهم. و قيل: إنما كانوا أضلّ من الأنعام، لأنه لا حساب عليها و لا عقاب لها، و قيل: إنما كانوا أضلّ لأن البهائم إذا لم تعقل صحة التوحيد و النبوة لم تعتقد بطلان ذلك، بخلاف هؤلاء فإنهم اعتقدوا البطلان عنادا و مكابرة غمطا للحق.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ جَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۹۱

قال: عونا و عضدا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً قال: أهلكناهم بالعذاب. و أخرج ابن جرير عنه قال: الرسّ قرية من ثمود. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الرسّ بئر بأذربيجان، و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن

ابن عباس أنه سأل كعبا عن أصحاب الرسّ قال: صاحب يس الذى قال: يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ «۱» فرسّه قومه فى بئر بالأحجار.

و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ أوّل النّاس يدخل الجنّة يوم القيامة العبد الأسود، و ذلك أن اللّه بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد إلا ذلك الأسود، ثم إن أهل القرية غدوا على النبيّ فحفروا له بئرا فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخم، فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتى بحطبه فيبيعه فيشترى به طعاما و شرابا، ثم يأتى به إلى تلك البئر، فيرفع تلك الصخرة فيعينه اللّه عليها، فيدلّى طعامه و شرابه ثم يردّها كما كانت، فكان كذلك ما شاء اللّه أن يكون، ثم إنه ذهب يوما يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه و حزم حزمته و فرغ منها، فلمّا أراد أن يحملها وجد سنة، فاضطجع فنام، فضرب اللّه على أذنه سبع سنين نائما، ثم إنه ذهب فتمطّى فتحوّل لشقه الآخر فاضطجع، فضرب اللّه على أذنه سبع سنين أخرى، ثم إنه ذهب فاحتمل حزمته و لا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار، فجاء إلى القرية فباع حزمته، ثم اشترى طعاما و شرابا كما كان يصنع، ثم ذهب إلى الحفرة فى موضعها الذى كانت فيه فالتمسه فلم يجده، و قد كان بدّ لقومه فيه بدّ فاستخرجوه فآمنوا به و صدّقوه، و كان النبيّ يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل؟ فيقولون ما ندرى حتّى قبض ذلك النبيّ، فأهبّ اللّه الأسود من نومته بعد ذلك، إن ذلك الأسود لأوّل من يدخل الجنة» قال ابن كثير فى تفسيره بعد إخراجه: و فيه غرابة و نكارة، و لعلّ فيه إدراجا انتهى. الحديث أيضا مرسل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن زرارة بن أوفى قال: القرن مائة و عشرون عاما. و أخرج هؤلاء عن قتادة قال: القرن: سبعون سنة، و أخرج ابن مردويه عن أبى سلمة قال: القرن مائة سنة. و قد روى مرفوعا إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم أنه قال: القرن مائة سنة، و قال: القرن خمسون سنة، و قال القرن أربعون سنة. و ما أظنّه يصحّ شىء من ذلك و قد سمّى الجماعة من الناس قرنا، كما فى الحديث الصحيح «خير القرون قرنى».

و أخرج الحاكم فى الكنى عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا انتهى إلى معدّ بن عدنان أمسك، ثم يقول: كذب النسابون. قال اللّه: وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ قال: هى سدوم قرية لوط الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ قال: الحجارة. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ قال: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زمانا من الدهر فى الجاهلية، فإذا وجد حجرا أحسن منه رمى به و عبد الآخر، فأنزل اللّه الآية.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى الآية قال: ذلك الكافر لا يهوى شيئا إلا اتبعه.

---

(۱). يس: ۲۰.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۹۲

[سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۴۵ الى ۵۴]

أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (۴۵) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (۴۶) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَ النَّوْمَ سُباتاً وَ جَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (۴۷) وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (۴۸) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَ أَناسِيَّ كَثِيراً (۴۹)

وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (۵۰) وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (۵۱) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (۵۲) وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً

(۵۳) وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً وَ کانَ رَبُّکَ قَدِیراً (۵۴)

لما فرغ سبحانه من ذکر جهالة الجاهلین و ضلالتهم، أتبعه بذکر طرف من دلائل التوحید مع ما فیها من عظم الإنعام، فأوّلها الاستدلال بأحوال الظل فقال: أَ لَمْ تَرَ إِلی رَبِّکَ کَیْفَ مَدَّ الظِّلَ هذه الرؤیة إما بصریة، و المراد بها: ألم تبصر إلی صنع ربک؟ أو ألم تبصر إلی الظل کیف مدّه ربک؟ و إما قلبیة، بمعنی العلم، فإن الظل متغیر، و کل متغیر حادث، و لکل حادث موجد. قال الزجاج: أَ لَمْ تَرَ ألم تعلم؟

و هذا من رؤیة القلب، قال: و هذا الکلام علی القلب، و التقدیر: ألم تر إلی الظلّ کیف مده ربک؟ یعنی:

الظل من وقت الإسفار إلی طلوع الشمس، و هو ظل لا شمس معه، و به قال الحسن و قتادة. و قیل: هو من غیبوبة الشمس إلی طلوعها. قال أبو عبیدة: الظل بالغداة و الفیء بالعشی، لأنه یرجع بعد زوال الشمس، سمی فیئا لأنه فاء من المشرق إلی جانب المغرب. قال حمید بن ثور یصف سرحة و کنی بها عن امرأة:

فلا الظلّ من برد الضحی تستطیعهو لا الفیء من برد العشیّ تذوق

و قال ابن السکیت: الظل: ما نسخته الشمس، و الفیء: ما نسخ الشمس. و حکی أبو عبیدة عن رؤبة قال: کل ما کانت علیه الشمس فزالت عنه فهو فی فیء و ظلّ، و ما لم تکن علیه الشمس، فهو ظلّ، انتهی.

و حقیقة الظلّ أنه أمر متوسط بین الضوء الخالص و الظلمة الخالصة، و هذا التوسط هو أعدل من الطرفین، لأن الظلمة الخالصة یکرهها الطبع و ینفر عنها الحسّ، و الضوء الکامل لقوّته یبهر الحسّ البصری و یؤذی بالتسخین، و لذلک و صفت الجنة به بقوله: وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ «۱» و جملة وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساکِناً معترضة بین المعطوف و المعطوف علیه، أی: لو شاء سبحانه سکونه لجعله ساکنا ثابتا دائما مستقرا لا تنسخه الشمس.

و قیل المعنی: لو شاء لمنع الشمس الطلوع، و الأول أولی. و التعبیر بالسکون عن الإقامة و الاستقرار سائغ، و منه قولهم: سکن فلان بلد کذا: إذا أقام به و استقرّ فیه: و قوله: ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَیْهِ دَلِیلًا معطوف علی قوله: مدّ الظل داخل فی حکمه، أی: جعلناها علامة یستدل بها بأحوالها علی أحواله، و ذلک لأن الظل یتبعها کما یتبع الدلیل فی الطریق من جهة أنه یزید بها و ینقص و یمتد و یتقلص، و قوله: ثُمَّ قَبَضْناهُ معطوف

---

(۱). الواقعة: ۳۰.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۹۳

أیضا علی مدّ داخل فی حکمه. و المعنی: ثم قبضنا ذلک الظلّ الممدود، و محوناه عند إیقاع شعاع الشمس موقعه بالتدریج، حتی انتهی ذلک الإظلال إلی العدم و الاضمحلال. و قیل: المراد فی الآیة قبضه عن قیام الساعة بقبض أسبابه، و هی الأجرام النیرة، و الأوّل أولی. و المعنی: أن الظلّ یبقی فی هذا الجوّ من طلوع الفجر إلی طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا، و خلفه فی هذا الجوّ شعاع الشمس، فأشرقت علی الأرض و علی الأشیاء إلی وقت غروبها، فإذا غربت فلیس هناک ظلّ، إنما فیه بقیة نور النهار، و قال قوم:

قبضه بغروب الشمس، لأنها إذا لم تغرب فالظلّ فیه بقیة، و إنما یتمّ زواله بمجیء اللیل و دخول الظلمة علیه.

و قیل: المعنی: ثم قبضنا ضیاء الشمس بالفیء قَبْضاً یَسِیراً و معنی إلینا: أن مرجعه إلیه سبحانه کما أن حدوثه منه. قبضا یسیرا، أی علی تدریج قلیلا قلیلا بقدر ارتفاع الشمس، و قیل: یسیرا سریعا، و قیل:

المعنی یسیرا علینا، أی: یسیرا قبضه علینا لیس بعسیر وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّیْلَ لِباساً شبه سبحانه ما یستر من ظلام اللیل باللباس

الساتر. قال ابن جرير: وصف الليل باللباس تشبيها من حيث أنه يستر الأشياء و يغشاها، و اللام متعلقة بجعل وَ النَّوْمَ سُباتاً أى: و جعل النوم سباتا، أى: راحة لكم لأنكم تنقطعون عن الاشتغال، و أصل السبات: التمدد، يقال: سبتت المرأة شعرها، أى نقضته و أرسلته. و رجل مسبوت:

أى ممدود الخلقة. و قيل للنوم: ثبات، لأنه بالتمدد يكون، و فى التمدد معنى الراحة. و قيل: السبت: القطع، فالنوم انقطاع عن الاشتغال، و منه سبت اليهود لانقطاعهم عن الاشتغال. قال الزجاج: السبات النوم، و هو أن ينقطع عن الحركة و الروح فى بدنه، أى: جعلنا نومكم راحة لكم. و قال الخليل: السبات نوم ثقيل، أى: جعلنا نومكم ثقيلا ليكمل الإجمام و الراحة وَ جَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً أى: زمان بعث من ذلك السبات، شبه اليقظة بالحياة كما شبه النوم بالسبات الشبيه بالممات. و قال فى الكشاف: إن السبات الموت، و استدل على ذلك بكون النشور فى مقابلته وَ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ قرئ «الرّيح» و قرئ «بشرا» بالباء الموحدة و بالنون، و قد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى فى الأعراف وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً أى: يتطهر به كما يقال وضوء للماء الذى يتوضأ به. قال الأزهرى: الطهور فى اللغة الطاهر المطهر، و الطهور ما يتطهر به. قال ابن الأنبارى: الطهور بفتح الطاء الاسم، و كذلك الوضوء و الوقود، و بالضم المصدر، هذا هو المعروف فى اللغة، و قد ذهب الجمهور إلى أن الطهور هو الطاهر المطهر، و يؤيد ذلك كونه بناء مبالغة. و روى عن أبى حنيفة أنه قال: الطهور هو الطاهر، و استدل لذلك بقوله تعالى: وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً «١» يعنى: طاهرا، و منه قول الشاعر:

خليلىّ هل فى نظرة بعد توبةأداوى بها قلبى علىّ فجور

إلى رجّح الأكفال غيد من الظّباعذاب الثّنايا ريقهنّ طهور

فوصف الريق بأنه طهور و ليس بمطهر، و رجح القول الأوّل ثعلب، و هو راجع لما تقدّم من حكاية الأزهرى لذلك عن أهل اللغة. و أما وصف الشاعر للريق بأنه طهور، فهو على طريق المبالغة، و على كل حال

---

(١). الإنسان: ٢١.

فقد ورد الشرع بأن الماء طاهر فى نفسه مطهر لغيره، قال اللّه تعالى: وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ «١» و قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «خلق الماء طهورا» ثم ذكر سبحانه علة الإنزال فقال: لِنُحْيِيَ بِهِ أى:

بالماء المنزل من السماء بَلْدَةً مَيْتاً وصف البلدة بميتا، و هى صفة للمذكر لأنها بمعنى البلد. و قال الزجاج:

أراد بالبلد المكان، و المراد بالإحياء هنا: إخراج النبات من المكان الذى لا نبات فيه وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَ أَناسِيَّ كَثِيراً أى: نسقى ذلك الماء، قرأ أبو عمرو و عاصم فى رواية عنهما و أبو حيان و ابن أبى عبلة بفتح النون من «نسقيه» و قرأ الباقون بضمها، و «من» فى مما خلقنا للابتداء، و هى متعلقة بنسقيه، و يجوز أن تتعلق بمحذوف على أنه حال، و الأنعام: قد تقدّم الكلام عليها، و الأناسىّ: جمع إنسان على ما ذهب إليه سيبويه. و قال الفراء و المبرد و الزجاج: إنه جمع إنسىّ، و للفراء قول آخر: إنه جمع إنسان، و الأصل أناسين، مثل سرحان و سراحين، و بستان و بساتين، فجعلوا الباء عوضا من النون وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ضمير صرفناه: ذهب الجمهور إلى أنه راجع إلى ما ذكر من الدلائل، أى: كرّرنا أحوال الإظلال، و ذكر إنشاء السحاب و إنزال المطر فى القرآن و فى سائر الكتب السماوية ليتفكروا و يعتبروا فَأَبى أَكْثَرُ هم إلا كفران النعمة و جحدها. و قال آخرون: إنه يرجع إلى أقرب المذكورات، و هو المطر، أى:

صرفنا المطر بينهم فى البلدان المختلفة، فنزيد منه فى بعض البلدان، و ننقص فى بعض آخر منها، و قيل: الضمير راجع إلى

القرآن، و قد جرى ذكره فى أوّل السورة حيث قال: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ و قوله: لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي و قوله: اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً و المعنى:

و لقد كرّرنا هذا القرآن بإنزال آياته بين الناس ليذكروا به و يعتبروا بما فيه، فأبى أكثرهم إِلَّا كُفُوراً به، و قيل: هو راجع إلى الريح، و على رجوع الضمير إلى المطر، فقد اختلف فى معناه، فقيل: ما ذكرناه. و قيل:

صرفناه بينهم وابلا، و طشا، و طلا، و رذاذا، و قيل: تصريفه تنويع الانتفاع به فى الشرب و السقى و الزراعات به و الطهارات. قال عكرمة: إن المراد بقوله: فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً هو قولهم: فى الأنواء مطرنا بنوء كذا. قال النحاس: و لا نعلم بين أهل التفسير اختلافا أن الكفر هنا قولهم: مطرنا بنوء كذا. و قرأ عكرمة «صرفناه» مخففا، و قرأ الباقون بالتثقيل. و قرأ حمزة و الكسائى «ليذكروا» مخففة الذال من الذكر، و قرأ الباقون بالتثقيل من التذكر وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً أى: رسولا ينذرهم كما قسمنا المطر بينهم، و لكنا لم نفعل ذلك بل جعلنا نذيرا واحدا، و هو أنت يا محمد، فقابل ذلك بشكر النعمة فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم، بل اجتهد فى الدعوة و اثبت فيها و الضمير فى قوله:

وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً راجع إلى القرآن، أى: جاهدهم بالقرآن، و اتل عليهم ما فيه من القوارع، و الزواجر و الأوامر، و النواهى. و قيل: الضمير يرجع إلى الإسلام، و قيل: بالسيف، و الأوّل أولى. و هذه السورة مكية، و الأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة. و قيل: الضمير راجع إلى ترك الطاعة المفهوم من قوله:

فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ و قيل: الضمير يرجع إلى ما دل عليه قوله: وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً

---

(١). الأنفال: ١١.

فتح القدير، ج۴، ص: ۹۵

لأنه سبحانه لو بعث فى كل قرية نذيرا لم يكن على كل نذير إلا مجاهدة القرية التى أرسل إليها، و حين اقتصر على نذير واحد لكل القرى و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلم فلا جرم اجتمع عليه كل المجاهدات، فكبر جهاده، و عظم و صار جامعا لكل مجاهدة، و لا يخفى ما فى هذين الوجهين من البعد. ثم ذكر سبحانه دليلا رابعا على التوحيد فقال:

وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ مرج: خلّى و خلط و أرسل، يقال مرجت الدابة و أمرجتها: إذا أرسلتها فى المرعى و خليتها تذهب حيث تشاء قال مجاهد: أرسلهما و أفاض أحدهما إلى الآخر. و قال ابن عرفة: خلطهما فهما يلتقيان، يقال مرجته: إذا خلطته، و مرج الدين و الأمر: اختلط و اضطرب، و منه قوله: فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ «١» و قال الأزهرى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ خلى بينهما، يقال مرجت الدابة: إذا خليتها ترعى. و قال ثعلب: المرج الإجراء، فقوله: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ أى أجراهما. قال الأخفش: و يقول قوم أمرج البحرين مثل مرج، فعل و أفعل بمعنى هذا عَذْبٌ فُراتٌ الفرات البليغ العذوبة، و هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: كيف مرجهما؟ فقيل: هذا عذب، و هذا ملح، و يجوز أن يكون فى محل نصب على الحال. قيل: سمى الماء الحلو فراتا: لأنه يفرت العطش، أى: يقطعه و يكسره وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ أى: بليغ الملوحة هذا معنى الأجاج، و قيل: الأجاج البليغ فى الحرارة، و قيل: البليغ فى المرارة، و قرأ طلحة مِلْحٌ بفتح الميم و كسر اللام وَ جَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً البرزخ: الحاجز، و الحائل الذى جعله اللّه بينهما من قدرته، يفصل بينهما، و بمنعهما التمارج، و معنى حِجْراً مَحْجُوراً سترا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر، فالبرزخ: الحاجز، و الحجز: المانع. و قيل: معنى حِجْراً مَحْجُوراً هو ما تقدّم من أنها كلمة يقولها المتعوّذ كأن كل واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه، و يقول له هذا القول، و قيل: حدّا محدودا. و قيل: المراد من البحر العذب: الأنهار العظام كالنيل و الفرات و جيحون، و من البحر الأجاج: البحار المشهورة، و البرزخ بينهما: الحائل من الأرض. و قيل: معنى حِجْراً مَحْجُوراً حراما

محرما أن يعذب هذا المالح بالعذب، أو يملح هذا العذب بالمالح، و مثل هذه الآية قوله سبحانه فى سورة الرحمن مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ «٢» ثم ذكر سبحانه حالة من أحوال خلق الإنسان و الماء فقال: وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً و المراد بالماء هنا: ماء النطفة، أی: خلق من ماء النطفة إنسانا فجعله نسبا و صهرا، و قیل: المراد بالماء الماء المطلق الذی یراد فی قوله: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَیْءٍ حَیٍ «٣» و المراد بالنسب: هو الذی لا یحلّ نكاحه. قال الفراء و الزجاج: و اشتقاق الصهر من صهرت الشیء: إذا خلطته، و سمیت المناكح صهرا لاختلاط الناس بها. و قیل: الصهر: قرابة النكاح؛ فقرابة الزوجة: هم الأختان، و قرابة الزوج: هم الأحماء، و الأصهار: تعمهما، قاله الأصمعی. قال الواحدی:

قال المفسرون: النسب سبعة أصناف من القرابة یجمعها قوله: حُرِّمَتْ عَلَیْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ إلى قوله:

وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ و من هنا إلى قوله: وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَیْنَ الْأُخْتَیْنِ «٤» تحریم بالصهر، و هو الخلطة التی تشبه القرابة، حرم اللّه سبعة أصناف من النسب و سبعة من جهة الصهر، قد اشتملت الآیة المذكورة على

---

(١). ق: ٥.

(٢). الرحمن: ١٩ و ٢٠.

(٣). الأنبیاء: ٣٠.

(٤). النساء: ٢٣.

ستة منها، و السابعة: قوله: وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ «١» و قد جعل ابن عطیة و الزجاج و غیرهما الرضاع من جملة النسب، و یؤیده قوله صلّى اللّه علیه و سلم: «یحرم من الرضاع ما یحرم من النسب». وَ كانَ رَبُّكَ قَدِیراً أی: بلیغ القدرة عظیمها، و من جملة قدرته الباهرة خلق الإنسان و تقسیمه إلى القسمین المذكورین.

و قد أخرج سعید بن منصور و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَیْفَ مَدَّ الظِّلَ قال: بعد الفجر قبل أن تطلع الشمس. و أخرج ابن أبی حاتم عنه بلفظ: ألم تر أنك إذا صلیت الفجر كان بین مطلع الشمس إلى مغربها ظلا، ثم بعث اللّه علیه الشمس دلیلا فقبض الظلّ. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أیضا فی الآیة قال: مدّ الظلّ ما بین طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً قال: دائما ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَیْهِ دَلِیلًا یقول: طلوع الشمس ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَیْنا قَبْضاً یَسِیراً قال: سریعا. و أخرج أهل السنن و أحمد و غیرهم من حدیث أبی سعید قال: «قیل یا رسول اللّه أ نتوضأ من بئر بضاعة؟ و هی بئر یلقى فیها الحیض و لحوم الكلاب و النّتن، فقال: إن الماء طهور لا ینجّسه شی‌ء». و فی إسناد هذا الحدیث كلام طویل قد استوفیناه فی شرحنا على المنتقى. و أخرج عبد ابن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الحاكم و صححه البیهقی فی سننه عن ابن عباس قال: ما من عام بأقلّ مطرا من عام، و لكن اللّه یصرفه حیث یشاء، ثم قرأ هذه الآیة وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَیْنَهُمْ لِیَذَّكَّرُوا الآیة. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: وَ جاهِدْهُمْ بِهِ قال: بالقرآن. و أخرج ابن جریر عنه هُوَ الَّذِی مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ یعنی: خلط أحدهما على الآخر فلیس یفسد العذب المالح و لیس یفسد المالح العذب. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أیضا فی قوله: وَ حِجْراً مَحْجُوراً یقول: حجر أحدهما على الآخر بأمره و قضائه. و أخرج عبد بن حمید عن عبد اللّه بن المغیرة قال: سئل عمر بن الخطاب عن «نسبا و صهرا» فقال: ما أراكم إلا و قد عرفتم النسب، و أما الصهر: فالأختان و الصحابة.

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٥٥ الى ٦٧]

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَ لا يَضُرُّهُمْ وَ كانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً (٥٥) وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (٥٦) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩)

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمنُ أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَ زادَهُمْ نُفُوراً (٦٠) تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً (٦١) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (٦٢) وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (٦٣) وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِياماً (٦٤)

وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً (٦٥) إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (٦٦) وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (٦٧)

---

(١). النساء: ٢٢.

فتح القدير، ج ۴، ص: ٩٧

لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد، عاد إلى ذكر قبائح الكفار، و فضائح سيرتهم فقال: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ إن عبدوه وَ لا يَضُرُّهُمْ إن تركوه وَ كانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً الظهير:

المظاهر، أي: المعاون على ربه بالشرك و العداوة، و المظاهرة على الربّ هي المظاهرة على رسوله أو على دينه:

قال الزجاج: لأنه يتابع الشيطان و يعاونه على معصية اللّه، لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان. و قال أبو عبيدة: المعنى و كان الكافر على ربه هينا ذليلا، من قول العرب ظهرت به: أي جعلته خلف ظهرك لم تلتفت إليه، و منه قوله: وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا «١» أي: هينا، و منه أيضا قول الفرزدق:

تميم بن قيس لا تكوننّ حاجتى بظهر فلا يعيا علىّ جوابها

و قيل إن المعنى: و كان الكافر على ربه الذى يعبده و هو الصنم قويا غالبا يعمل به ما يشاء، لأن الجماد لا قدرة له على دفع و نفع، و يجوز أن يكون الظهير جمعا كقوله: وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ «٢» و المعنى:

أن بعض الكفرة مظاهر لبعض على رسول اللّه أو على الدين، و المراد بالكافر هنا الجنس، و لا ينافيه كون سبب النزول هو كافر معين كما قيل إنه أبو جهل وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً أي: مبشرا للمؤمنين بالجنة، و منذرا للكافرين بالنار قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ أي: قل لهم يا محمد: ما أسألكم على القرآن من أجر، أو على تبليغ الرسالة المدلول عليه بالإرسال، و الاستثناء في قوله: إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا منقطع، أي: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فليفعل، و قيل: هو متصل. و المعنى: إلا من شاء أن يتقرّب إليه سبحانه بالطاعة و صور ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الحصول. و لما بين سبحانه أن الكفار متظاهرون على رسول اللّه، و أمره أن لا يطلب منهم أجرا البتة، أمره أن يتوكل عليه فى دفع المضار، و جلب المنافع فقال: وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ و خصّ صفة الحياة إشارة إلى أن الحيّ هو الذى يوثق به فى المصالح، و لا حياة على الدوام إلّا للّه سبحانه، دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم، و التوكل اعتماد العبد على اللّه فى كل الأمور وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ أي: نزهه عن صفات النقصان، و قيل: معنى سبح: صلّ، و الصلاة: تسمى تسبيحا وَ كَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً

أى:

حسبک، و هـذه کلمة یراد بها المبالغة کقولک: کفى باللّه ربا، و الخبیر: المطلع على الأمور بحیث لا یخفى علیه منها شـیء، ثم زاد فی المبالغـة، فقـال: الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ قـد تقـدّم تفسـیر هـذا فی الأعراف، و الموصول فی محل جرّ على أنه صفة للحیّ، و قال بینهما و لم یقل بینهنّ لأنه أراد النوعین، کما قال القطامی:

ألم یحزنک أنّ حبال قیس‌و تغلب قد تباینتا انقطاعا

فإن قیل: یلزم أن یکون خلق العرش بعـد خلق السـموات و الأرض کما تفیـده ثم؛ فیقال إن کلمـة ثم لم تدخل على خلق العرش بل على رفعه على السموات و الأرض، و الرحمن مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف،

---

(۱). هود: ۹۲.

(۲). التحریم: ۴.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۹۸

و هو صـفة أخرى للحیّ، و قـد قرأه الجمهور بالرفع، و قیل: یجوز أن یکون بـدلا من الضـمیر فی اسـتوى، أو یکون مبتدأ و خبره الجملة، أی: فاسأل على رأی الأخفش، کما فی قول الشاعر:

و قائلـة خولاـن فانکـح فتاتهم و قرأ زیـد بن على «الرّحمن» بالجرّ على أنه نعت للحیّ أو للموصول فَسْئَلْ بِهِ خَبِیراً الضـمیر فی به یعود إلى ما ذکر من خلق السموات و الأرض و الاستواء على العرش. و المعنى: فاسأل بتفاصیل ما ذکر إجمالا من هذه الأمور. و قال الزجاج و الأخفش: الباء بمعنى عن، أی: فاسأل عنه، کقوله: سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ «۱»، و قول امرئ القیس:

هلّا سألت الخیل یا ابنة مالک‌إن کنت جاهلة بما لم تعلمی

و قال امرؤ القیس:

فإن تسألونی بالنساء فإننی‌خبیر بأدواء النّساء طبیب

و المراد بالخبیر: اللّه سبحانه، لأنه لا یعلم تفاصیل تلک المخلوقات إلا هو، و من هذا قول العرب: لو لقیت فلانا للقیک به الأسد، أی: للقیـک بلقائـک إیاه الأسـد، فخبیرا منتصب على المفعولیـة، أو على الحـال المؤکـدة، و استضـعف الحالیـة أبو البقاء فقال: یضعف أن یکون خبیرا حالا من فاعل اسأل، لأن الخبیر لا یسأل إلا على جهة التوکید کقوله: وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً «۲» قال: و یجوز أن یکون حالاـ من الرحمن إذا رفعته باسـتوى. و قـال ابن جریر: یجوز أن تکون البـاء فی به زائـدة. و المعنى: فاسـأله حـال کونه خبیرا. و قیل:

قـوله به یجری مجرى القسم کقـوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی تَسـاءَلُونَ بِهِ «۳» و الوجه الأوّل: أقرب هـذه الوجوه، ثم أخبر سـبحانه عنهم بأنهم جهلوا معنى الرحمن فقال: وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمنُ قال المفسرون: إنهم قالوا ما نعرف الرحمن إلا رحمن الیمامة، یعنون: مسیلمة. قال الزجاج: الرحمن اسم من أسماء اللّه، فلما سمعوه أنکروا فقالوا و ما الرحمن أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا و الاستفهام للإنکار، أی: لا نسجد للرحمن الذی تأمرنا بالسجود له، و من قرأ بالتحتیة فالمعنى: أ نسجد لما یأمرنا محمد بالسجود له.

و قـد قرأ المـدنیون و البصریون لِما تَأْمُرُنا بالفوقیـة، و اختار هـذه القراءة أبو عبیـد و أبو حـاتم و قرأ الأعمش و حمزة و الکسائی بالتحتیـة. قال أبو عبیـد: یعنون الرحمن. قال النحاس: و لیس یجب أن یتأوّل على الکوفیین فی قراءتهم هذا التأویل البعید، و لکن الأولى أن یکون التأویل لهم: اسجدوا لما یأمرنا النبیّ صـلّى اللّه علیه و سـلم فتصـح القراءة على هـذا، و إن کانت الأولى أبین وَ

زادَهُمْ نُفُوراً أی: زادهم الأمر بالسجود نفورا عن الدين و بعدا عنه، و قيل: زادهم ذكر الرحمن تباعدا من الإيمان، كذا قال مقاتل، و الأوّل أولى. ثم ذكر سبحانه ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن فقال: تَبارَكَ الَّذِی جَعَلَ فِی السَّماءِ بُرُوجاً المراد بالبروج:

بروج النجوم، أی: منازلها الاثنا عشر، و قيل: هی النجوم الكبار، و الأوّل أولى. و سميت بروجا، و هی

---

(۱). المعارج: ۱.

(۲). البقرة: ۹۱.

(۳). النساء: ۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۹۹

القصور العالية، لأنها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها، و اشتقاق البرج: من التبرج، و هو الظهور وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً أی: شمسا، و مثله قوله تعالى: وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً قرأ الجمهور سِراجاً بالإفراد. و قرأ حمزة و الكسائی «سرجا» بالجمع، أی: النجوم العظام الوقادة، و رجح القراءة الأولى أبو عبيد. قال الزجاج: فی تأويل قراءة حمزة و الكسائی أراد الشمس و الكواكب وَ قَمَراً مُنِيراً أی: ينير الأرض إذا طلع، و قرأ الأعمش قَمَراً بضم القاف و إسكان الميم، و هی قراءة ضعيفة شاذة وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً قال أبو عبيدة: الخلفة كلّ شیء بعد شیء، الليل: خلفة للنهار، و النهار: خلفة لليل، لأن أحدهما يخلف الآخر و يأتی بعده؛ و منه خلفة النبات، و هو ورق يخرج بعد الورق الأول فی الصيف، و منه قول زهير بن أبی سلمی:

بها العين و الآرام يمشين خلفةو أطلاؤها ينهضن من كلّ مجثم «۱»

قال الفراء فی تفسير الآية: يقول: يذهب هذا و يجیء هذا، و قال مجاهد: خلفة من الخلاف، هذا أبيض، و هذا أسود. و قيل: يتعاقبان فی الضياء و الظلام، و الزيادة و النقصان. و قيل: هو من باب حذف المضاف، أی: جعل الليل و النهار ذوی خلفة، أی: اختلاف لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ قرأ حمزة مخففا، و قرأ الجمهور بالتشديد، فالقراءة الأولى: من الذكر للّه، و القراءة الثانية: من التذكر له. و قرأ أبیّ بن كعب «يتذكر» و معنى الآية: أن المتذكر المعتبر إذا نظر فی اختلاف الليل و النهار، علم أنه لا بدّ فی انتقالهما من حال إلى حال من ناقل أَوْ أَرادَ شُكُوراً أی: أراد أن يشكر اللّه على ما أودعه فی الليل و النهار من النعم العظيمة، و الألطاف الكثيرة. قال الفراء: و يذكر و يتذكر يأتيان بمعنى واحد. قال اللّه تعالى: وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ* و فی حرف عبد اللّه و يذكروا ما فيه وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً هذا كلام مستأنف مسوق لبيان صالحی عباد اللّه سبحانه، و عباد الرحمن: مبتدأ، و خبره: الموصول مع صلته، و الهون: مصدر، و هو السكينة و الوقار. و قد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن الهون متعلق بيمشون، أی: يمشون على الأرض مشيا هونا. قال ابن عطية: و يشبه أن يتأوّل هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشی هونا مناسبة لمشيه، و إما أن يكون المراد صفة المشی وحده فباطل، لأنه ربّ ماش هونا رويدا و هو ذئب أطلس، و قد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يتكفأ فی مشيه كأنما فی صبب وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً ذكر سبحانه أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل و السفه فلا يجهلون مع من يجهل و لا يسافهون أهل السفه. قال النحاس:

ليس هذا السلام من التسليم إنما هو من التسلم تقول العرب سلاما: أی: تسلما منك، أی: براءة منك، منصوب على أحد أمرين: إما على أنه مصدر لفعل محذوف، أی: قالوا سلمنا سلاما، و هذا على قول سيبويه، أو على أنه مفعول به، أی: قالوا هذا اللفظ، و رجحه ابن عطية. و قال مجاهد: معنى سلاما سدادا، أی:

---

(١). العين: بكسر العين، جمع أعين و عيناء، و هى بقر الوحش، سميت بذلك لسعة أعينها، و الأطلاء: جمع طلا، و هو البقرة و ولد الظّبية الصغير، و المجثم: الموضع الذى يجثم فيه، أى يقام فيه.

فتح القدير، ج۴، ص: ١٠٠

فتح القدير ج۴ ١۴٩

يقول للجاهل كلاما يدفعه به برفق ولين. قال سيبويه: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين، لكنه على قوله تسليما منكم، و لا خير و لا شرّ بيننا و بينكم. قال المبرد: كان ينبغى أن يقال لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم، ثم أمروا بحربهم، و قال محمد بن يزيد: أخطأ سيبويه فى هذا و أساء العبارة. قال النحاس:

و لا نعلم لسيبويه كلاما فى معنى الناسخ و المنسوخ إلا فى هذه الآية، لأنه قال فى آخر كلامه: فنسختها آية السيف. و أقول: هكذا يكون كلام الرجل إذا تكلم فى غير علمه و مشى فى غير طريقته، و لم يؤمر المسلمون بالسلام على المشركين، و لا نهوا عنه، بل أمروا بالصفح و الهجر الجميل، فلا حاجة إلى دعوى النسخ. قال النضر بن شميل: حدّثنى الخليل قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابى، و كان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فسلمنا فردّ علينا السلام و قال لنا: استووا، فبقينا متحيرين، و لم ندر ما قال، فقال لنا أعرابىّ إلى جنبه:

أمركم أن ترتفعوا. قال الخليل: هو من قول اللّه ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ* «١» قال: فصعدنا إليه فقال: هل لكم فى خبز و فطير و لبن هجير؟ فقلنا: الساعة فارقناه، فقال: سلاما، فلم ندر ما قال، فقال الأعرابىّ:

إنه سالمكم متاركة لا خير فيها و لا شرّ. قال الخليل: هو من قول اللّه: وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً. وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِياماً البيتوتة: هى أن يدركك الليل نمت أو لم تنم. قال الزجاج: من أدركه الليل فقد بات، نام أو لم ينم، كما يقال: بات فلان قلقا، و المعنى: يبيتون لربهم سجدا على وجوههم، و قياما على أقدامهم، و منه قول امرئ القيس:

فبتنا قياما عند رأس جوادنايزاولنا عن نفسه و نزاوله

وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً أى: هم مع طاعتهم مشفقون وجلون خائفون من عذابه، و الغرام: اللازم الدائم، و منه سمّى الغريم لملازمته، و يقال: فلان مغرم بكذا، أى: ملازم له مولع به، هذا معناه فى كلام العرب، كما ذكره ابن الأعرابى و ابن عرفة و غيرهما، و منه قول الأعشى:

إن يعاقب يكن غراما و إنيعط جزيلا فإنّه لا يبالى

و قال الزجاج: الغرام: أشدّ العذاب. و قال أبو عبيدة: هو الهلاك. و قال ابن زيد: الشرّ، و جملة إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً تعليل لما قبلها، و المخصوص محذوف، أى: هى، و انتصاب مستقرّا على الحال أو التمييز، و كذا مقاما، قيل: هما مترادفان، و إنما عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظيهما، و قيل: بل هما مختلفان معنى: فالمستقرّ للعصاة فإنهم يخرجون، و المقام للكفار يخلدون، و ساءت: من أفعال الذم كبئست، و يجوز أن يكون هذا من كلام اللّه سبحانه، و يجوز أن يكون حكاية لكلامهم. ثم وصفهم سبحانه بالتوسط فى الإنفاق فقال: وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا قرأ حمزة و الكسائى و الأعمش و عاصم و يحيى بن وثاب «يقتروا» بفتح التحتية و ضم الفوقية، من قتر يقتر كقعد يقعد، و قرأ أبو عمرو

---

(١). البقرة: ٢٩.

فتح القدير، ج۴، ص: ١٠١

و ابن كثير بفتح التحتية و كسر التاء الفوقية، و هى لغة معروفة حسنة، و قرأ أهل المدينة و ابن عامر و أبو بكر عن عاصم بضم

التحتیة و كسر الفوقیة. قال أبو عبیدة: یقال قتر الرجل على عیاله یقتر و یقتر قترا، و أقتر یقتر إقتارا، و معنى الجمیع: التضییق فی الإنفاق. قال النحاس: و من أحسن ما قیل فی معنى الآیة: أن من أنفق فی غیر طاعة اللّه فهو الإسراف، و من أمسک عن طاعة اللّه فهو الإقتار، و من أنفق فی طاعة اللّه فهو القوام.

و قال إبراهیم النخعی: هو الذی لا یجیع و لا یعری، و لا ینفق نفقة یقول الناس: قد أسرف. و قال یزید بن أبی حبیب: أولئک أصحاب محمد، کانوا لا یأکلون طعاما للتنعم و اللذة، و لا یلبسون ثوبا للجمال، و لکن کانوا یریدون من الطعام ما یسدّ عنهم الجوع، و یقوّیهم على عبادة اللّه، و من اللباس ما یستر عوراتهم، و یقیهم الحرّ و البرد. و قال أبو عبیدة: لم یزیدوا على المعروف، و لم یبخلوا کقوله: وَ لا تَجْعَلْ یَدَکَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِکَ وَ لا تَبْسُطْها کُلَّ الْبَسْطِ «١» قرأ حسان بن عبد الرحمن وَ کانَ بَیْنَ ذلِکَ قَواماً بکسر القاف، و قرأ الباقون بفتحها، فقیل: هما بمعنى، و قیل: القوام بالکسر: ما یدوم علیه الشیء و یستقرّ، و بالفتح:

العدل و الاستقامة، قاله ثعلب. و قیل بالفتح: العدل بین الشیئین، و بالکسر: ما یقام به الشیء، لا یفضل عنه و لا ینقص. و قیل بالکسر: السداد و المبلغ، و اسم کان مقدّر فیها، أی: کان إنفاقهم بین ذلک قواما، و خبرها قواما، قاله الفراء. و روی عن الفراء قول آخر، و هو أن اسم کان بین ذلک، و تبنى بین على الفتح لأنها من الظروف المفتوحة. و قال النحاس: ما أدری ما وجه هذا، لأن بین إذا کانت فی موضع رفع رفعت.

و قد أخرج ابن جریر و ابن مردویه عن ابن عباس فی قوله: وَ کانَ الْکافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِیراً یعنی أبا الحکم الذی سماه رسول اللّه صلّى اللّه علیه و سلم أبا جهل بن هشام. و أخرج ابن أبی حاتم عنه فی قوله: قُلْ ما أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ قال: قل لهم یا محمد: لا أسألکم على ما أدعوکم إلیه من أجر، یقول عرض من عرض الدنیا. و أخرج الخطیب فی کتاب النجوم عنه أیضا فی قوله: تَبارَکَ الَّذِی جَعَلَ فِی السَّماءِ بُرُوجاً قال:

هی هذه الاثنا عشر برجا: أولها: الحمل، ثم الثور، ثم الجوزاء، ثم السرطان، ثم الأسد، ثم السنبلة، ثم المیزان، ثم العقرب، ثم القوس، ثم الجدی، ثم الدلو، ثم الحوت. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أیضا وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً قال: أبیض و أسود. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أیضا یقول: من فاته شیء من اللیل أن یعمله أدرکه بالنهار: و من النهار أدرکه باللیل. و أخرج الطیالسی و ابن أبی حاتم عن الحسن أن عمر أطال صلاة الضحى، فقیل له: صنعت الیوم شیئا لم تکن تصنعه، فقال: إنه بقی علیّ من وردی شیء فأحببت أن أتمه، أو قال أقضیه، و تلا هذه الآیة وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً الآیة. و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ عِبادُ الرَّحْمنِ قال: هم المؤمنون الَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً قال: بالطاعة و العفاف و التواضع. و أخرج ابن أبی حاتم عنه قال: هَوْناً علما و حلما. و أخرج عبد بن حمید عن أبی سعید عن رسول اللّه صلّى اللّه علیه و سلم فی قوله: إِنَّ عَذابَها کانَ غَراماً قال: الدائم. و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم

---

(١). الإسراء: ٢٩.

فتح القدیر، ج‌۴، ص: ١٠٢

عن ابن عباس فی قوله: وَ الَّذِینَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَ لَمْ یَقْتُرُوا قال: هم المؤمنون لا یسرفون فینفقوا فی معصیة اللّه، و لا یقترون فیمنعوا حقوق اللّه.

[سورة الفرقان (٢٥): الآیات ۶٨ الى ٧٧]

وَ الَّذِينَ لاـ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَ لاـ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ لاـ يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (۶۸) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً (۶۹) إِلاَّ مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۷۰) وَ مَنْ تابَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً (۷۱) وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (۷۲)

وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً (۷۳) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (۷۴) أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً (۷۵) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (۷۶) قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (۷۷)

قوله: وَ الَّذِينَ لاـ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لما فرغ من ذكر إتيانهم بالطاعات شرع فى بيان اجتنابهم للمعاصى فقال: و الذين لا يدعون مع اللّه سبحانه ربا من الأرباب. و المعنى: لا يشركون به شيئا، بل يوحدونه و يخلصون له العبادة و الدعوة وَ لا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ أى: حرّم قتلها إِلَّا بِالْحَقِ أى: بما يحقّ أن تقتل به النفوس، من كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس وَ لا يَزْنُونَ أى: يستحلون الفروج المحرّمة بغير نكاح، و لا ملك يمين وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ أى: شيئا مما ذكر يَلْقَ فى الآخرة أَثاماً و الأثام فى كلام العرب: العقاب. قال الفراء: آثمه اللّه يؤثمه أثاما و آثاما، أى: جازاه جزاء الإثم. و قال عكرمة و مجاهد: إن أثاما واد فى جهنم جعله اللّه عقابا للكفرة. و قال السدّى: جبل فيها. و قرئ «يلقّ» بضم الياء و تشديد القاف. قال أبو مسلم: و الأثام و الإثم واحد، و المراد هنا جزاء الآثام فأطلق اسم الشيء على جزائه. و قرأ الحسن يلق أياما جمع يوم: يعنى شدائد، و العرب تعبر عن ذلك بالأيام، و ما أظن هذه القراءة تصح عنه يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ قرأ نافع و ابن عامر و حمزة و الكسائى يُضاعَفْ و يَخْلُدْ بالجزم، و قرأ ابن كثير «يضعف» بتشديد العين و طرح الألف و الجزم، و قرأ طلحة ابن سليمان «نضعّف» بضم النون و كسر العين المشدّدة و الجزم، و هى قراءة أبى جعفر و شيبة. و قرأ عاصم فى رواية أبى بكر بالرفع فى الفعلين على الاستئناف. و قرأ طلحة بن سليمان «و تخلد» بالفوقية خطابا للكافر. و روى عن أبى عمرو أنه قرأ وَ يَخْلُدْ بضم الياء التحتية و فتح اللام. قال أبو علىّ الفارسى:

و هى غلط من جهة الرواية، و وجه الجزم فى يضاعف: أنه بدل من يلق لاتحادهما فى المعنى، و مثله قول الشاعر:

إنّ علىّ اللّه أن تبايعاتؤخذ كرها أو تجيء طائعا

و الضمير فى قوله: وَ يَخْلُدْ فِيهِ راجع إلى العذاب المضاعف، أى: يخلد فى العذاب المضاعف

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۰۳

مُهاناً ذليلا حقيرا إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً قيل: هو استثناء متصل، و قيل:

منقطع. قال أبو حيان: لا يظهر الاتصال لأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب، فيصير التقدير: إلا من تاب و آمن و عمل عملا صالحا فلا يضاعف له العذاب، و لا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف. قال: و الأولى عندى أن يكون منقطعا، أى: لكن من تاب. قال القرطبى: لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام فى الكافر و الزانى. و اختلفوا فى القاتل من المسلمين. و قد تقدّم بيانه فى النساء و المائدة، و الإشارة بقوله: فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ إلى المذكورين سابقا، و معنى تبديل السيئات حسنات، أنه يمحو عنهم المعاصى، و يثبت لهم مكانها طاعات. قال النحاس: من أحسن ما قيل فى ذلك: أنه يكتب موضع كافر مؤمن، و موضع عاص مطيع. قال الحسن: قوم يقولون التبديل فى الآخرة، و ليس كذلك إنما التبديل فى الدنيا، يبدل اللّه لهم إيمانا مكان الشرك، و إخلاصا من الشك، و إحصانا من الفجور، قال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، و لكن يجعل مكان السيئة التوبة، و الحسنة مع التوبة.

و قيل: إن السيئات تبدّل بحسنات، و به قال جماعة من الصحابة و من بعدهم. و قيل: التبديل عبارة عن الغفران، أى: يغفر اللّه لهم تلك السيئات، لا أن يبدلها حسنات. و قيل: المراد بالتبديل: أن يوفقه لأضداد ما سلف منه وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً هذه الجملة مقرّرة لما قبله من التبديل وَ مَنْ تابَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً أى: من تاب عما اقترف و عمل عملا صالحا بعد ذلك، فإنه يتوب بذلك إلى اللّه متابا، أى: يرجع إليه رجوعا صحيحا قويا. قال القفال: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، و لهذا قال: إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ ثم عطف عليه من تاب من المسلمين، و أتبع توبته عملا صالحا، فله حكم التائبين أيضا. و قيل: أى من تاب بلسانه و لم يحقق التوبة بفعله، فليست تلك التوبة نافعة، بل من تاب و عمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة، فهو الذى تاب إلى اللّه متابا، أى: تاب حقّ التوبة، و هى النصوح، و لذلك أكد بالمصدر، و معنى الآية: من أراد التوبة و عزم عليها فليتب إلى اللّه، فالخبر فى معنى الأمر، كذا قيل لئلا يتحد الشرط و الجزاء، فإنه لا يقال من تاب فإنه يتوب، ثم وصف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات فقال: وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ أى: لا يشهدون الشهادة الكاذبة، أو لا يحضرون الزور، و الزور: هو الكذب و الباطل، و لا يشاهدونه و إلى الثانى ذهب جمهور المفسرين. قال الزجاج: الزور فى اللغة الكذب و لا كذب فوق الشرك باللّه. قال الواحدى: أكثر المفسرين على أن الزور هاهنا: بمعنى الشرك. و الحاصل أن يشهدون إن كان من الشهادة، ففى الكلام مضاف محذوف، أى: لا يشهدون شهادة الزور و إن كان من الشهود و الحضور، كما ذهب إليه الجمهور فقد اختلفوا فى معناه، فقال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، و قال محمد بن الحنفية: لا يحضرون اللهو و الغناء، و قال ابن جريج: الكذب. و روى عن مجاهد أيضا، و الأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور، بل المراد الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائنا ما كان وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً أى: معرضين عنه غير ملتفتين إليه، و اللغو: كل ساقط من قول أو فعل. قال الحسن: اللغو: المعاصى كلها، و قيل: المراد

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۰۴

مرّوا بذوى اللغو، يقال: فلان يكرم عما يشينه، أى: يتنزّه و يكرم نفسه عن الدخول فى اللغو و الاختلاط بأهله وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ أى: بالقرآن، أو بما فيه موعظة و عبرة لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً أى: لم يقعوا عليها حال كونهم صما و عميانا، و لكنهم أكبوا عليها سامعين مبصرين، و انتفعوا بها. قال ابن قتيبة: المعنى لم يتغافلوا عنها، كأنهم صمّ لم يسمعوها، و عمى لم يبصروها. قال ابن جرير:

ليس ثم خرور، بل كما يقال قعد يبكى، و إن كان غير قاعد. قال ابن عطية: كأن المستمع للذكر قائم، فإذا أعرض عنه كان ذلك خرورا، و هو السقوط على غير نظام. قيل المعنى: إذا تليت عليهم آيات اللّه و جلت قلوبهم، فخروا سجدا و بكيا، و لم يخرّوا عليها صما و عميانا. قال الفراء: أى لم يقعدوا على حالهم الأول، كأن لم يسمعوا. قال فى الكشاف: ليس بنفى للخرور، و إنما هو إثبات له، و نفى للصمم و العمى، و أراد أن النفى متوجه إلى القيد لا إلى المقيد وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ من:

ابتدائية، أو بيانية. قرأ نافع و ابن كثير و ابن عباس و الحسن وَ ذُرِّيَّاتِنا بالجمع و قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائى و طلحة و عيسى «و ذرّيتنا» بالإفراد، و الذرّية: تقع على الجمع، كما فى قوله: ذُرِّيَّةً ضِعافاً «۱» و تقع على الفرد كما فى قوله: ذرّية طيبة، و انتصاب قرّة أعين على المفعولية، يقال: قرّت عينه قرة. قال الزجاج: يقال أقرّ اللّه عينك، أى: صادف فؤادك ما يحبه. و قال المفضل: فى قرّة العين ثلاثة أقوال: أحدها:

برد دمعها، لأنه دليل السرور و الضحك، كما أن حرّه دليل الحزن و الغمّ. و الثانى: نومها، لأنه يكون مع فراغ الخاطر، و ذهاب الحزن. و الثالث: حصول الرضا. وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً أى: قدوة يقتدى بنا فى الخير، و إنما قال: إماما، و لم يقل أئمة، لأنه أريد

به الجنس. كقوله: ثُمَّ نُخْرِجُكَمْ طِفْلًا «۲» قال الفراء: قال إماما، و لم يقل أئمـة؛ كما قال للاثنين إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ «۳» يعنى: أنه من الواحـد الذى أريد به الجمع. و قال الأخفش: الإمام جمع أمّ من أمّ يؤم جمع على فعال، نحو صاحب و صـحاب، و قائم و قيام.

و قيـل: إن إمامـا مصـدر، يقـال: أمّ فلاـن فلانا إماما، مثل الصـيام و القيام. و قيل أرادوا: اجعل كل واحـد منا إماما، و قيل أرادوا: اجعلنا إماما واحدا لاتحاد كلمتنا، و قيل: إنه من الكلام المقلوب، و أن المعنى:

و اجعـل المتقين لنـا إماما، و به قال مجاهـد. و قيل: إن هـذا الـدعاء صادر عنهم بطريق الانفراد، و أن عبارة كل واحـد منهم عند الـدعاء: و اجعلنى للمتقين إماما، و لكنها حكيت عبارات الكل بصـيغة المتكلم مع الغير لقصـد الإيجاز كقوله: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً «۴» و فى هذا إبقاء إماما على حاله، و مثل ما فى الآية قول الشاعر:

يا عاذلاتى لا تزدن ملامتىإنّ العواذل ليس لى بأمين

أى: أمنـاء. قـال القفال: و عنـدى أن الإمام إذا ذهب به مـذهب الاسم وحـد، كأنه قيل: اجعلنا حجـة للمتقين، و مثله البينـة، يقال: هؤلاء بينة فلان. قال النيسابورى: قيل فى الآية دلالة على أن الرياسة الدينية

---

(۱). النساء: ۹.

(۲). الحج: ۵.

(۳). الشعراء: ۱۶.

(۴). المؤمنون: ۵۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۰۵

ممـا يجـب أن تطلب و يرغب فيهـا، و الأـقرب أنهم سـألوا اللّه أن يبلغهم فى الطاعـة المبلـغ الـذى يشـار إليهم، و يقتـدى بهم، و الإشارة بقوله: أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا إلى المتصـفين بتلك الصـفات، و هو مبتدأ و خبره ما بعده، و الجملة مسـتأنفة. و قيـل: إن أُوْلئِكَ و مـا بعـده خبر لقوله: وَ عِبادُ الرَّحْمنِ كـذا قال الزجاج، و الغرفـة: الدرجـة الرفيعـة، و هى أعلى منازل الجنـة و أفضـلها، و هى فى الأصـل لكـلّ بنـاء مرتفع، و الجمع غرف. و قال الضـحاك: الغرفـة الجنـة، و الباء فى «بما صبروا» سـببية، و ما مصدريـة، أى: يجزون الغرفة بسـبب صبرهم على مشاق التكليف وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً قرأ أبو بكر و المفضل و الأعمش و يحيى ابن وثـاب و حمزة و الكسائى و خلف يُلَقَّوْنَ بفتـح الياء و سـكون اللام و تخفيف القاف، و اختار هـذه القراءة الفراء، قال: لأن العرب تقول: فلان يلقى بالسلام و التحية و الخير، و قلّ ما يقولون يلقى. و قرأ الباقون بضم الياء و فتح اللام و تشديد القاف، و اختـار هـذه القراءة أبو عبيـد و أبو حاتم لقوله: وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً و المعنى: أنه يحيّى بعضـهم بعضا و يرسل إليهم الرب سبحانه بالسـلام، قيل: التحية البقاء الدائم و الملك العظيم، و قيل: هى بمعنى السـلام، و قيل: إن الملائكة تحييهم و تسلم عليهم، و الظاهر أن هـذه التحيـة و السـلام هى من اللّه سـبحانه لهم، و من ذلك قوله سـبحانه: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ «۱» و قيل معنى التحية:

الدعاء لهم بطول الحياة، و معنى السلام: الدعاء لهم بالسلامة من الآفات، و انتصاب خالِدِينَ فِيها على الحال، أى: مقيمين فيها من غير موت حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً أى: حسـنت الغرفة مسـتقرّا يستقرّون فيه، و مقاما يقيمون به، و هذا فى مقابل ما تقدّم من قوله: ساءت مستقرّا و مقاما قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لا دُعاؤُكُمْ بيّن سبحانه أنه غنّى عن طاعـة الكلّ، و إنما كلفهم لينتفعوا بالتكليف، يقال: ما عبأت بفلان، أى: ما باليت به، و لا له عنـدى قدر، و أصل يعبأ من العبء، و هو الثقل. قال الخليل: ما أعبأ بفلان: أى: ما

أصنع به كأنه يستقله و يستحقره، و يدّعى أن وجوده و عدمه سواء، و كذا قال أبو عبيدة.
قال الزجاج: ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّی یرید: أیّ وزن یکون لکم عنده. و العبء: الثقل، و ما استفهامیة أو نافیة، و صرح الفراء بأنها استفهامیة. قال ابن الشجری: و حقیقة القول عندی أن موضع ما نصب و التقدیر: أیّ عبء یعبأ بکم، أی: أیّ مبالاة یبالی بکم لَوْ لا دُعاؤُکُمْ أی: لو لا دعاؤکم إیاه لتعبدوه، و علی هذا فالمصدر الذی هو الدعاء مضاف إلی مفعوله، و هو اختیار الفراء، و فاعله محذوف، و جواب لولا محذوف، تقدیره: لولا دعاؤکم لم یعبأ بکم، و یؤید هذا قوله: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ «۲» و الخطاب لجمیع الناس، ثم خصّ الکفار منهم فقال: فَقَدْ کَذَّبْتُمْ و قرأ ابن الزبیر «فقد کذّب الکافرون» و فی هذه القراءة دلیل بین علی أن الخطاب لجمیع الناس. و قیل: إن المصدر مضاف إلی الفاعل، أی: لولا استغاثتکم إلیه فی الشدائد. و قیل المعنی: ما یعبأ بکم، أی: بمغفرة ذنوبکم لولا دعاؤکم الآلهة معه. و حکی ابن جنی أن ابن عباس قرأ کقراءة ابن الزبیر. و حکی الزهراوی و النحاس أن ابن مسعود قرأ کقراءتهما، و ممن قال بأن الدعاء مضاف إلی الفاعل القتبی و الفارسی قالا: و الأصل لولا دعاؤکم آلهة من دونه،

(۱). الأحزاب: ۴۴.

(۲). الذاریات: ۵۶.

و جواب لولا محذوف تقدیره علی هذا الوجه: لولا دعاؤکم لم یعذبکم، و یکون معنی فَقَدْ کَذَّبْتُمْ علی الوجه الأوّل: فقد کذبتم بما دعیتم إلیه، و علی الوجه الثانی: فقد کذبتم بالتوحید. ثم قال سبحانه: فَسَوْفَ یَکُونُ لِزاماً أی: فسوف یکون جزاء التکذیب لازما لکم، و جمهور المفسرین علی أن المراد باللزام هنا:
ما لزم المشرکین یوم بدر، و قالت طائفة: هو عذاب الآخرة. قال أبو عبیدة: لزاما فیصلا، أی: فسوف یکون فیصلا بینکم و بین المؤمنین. قال الزجاج: فسوف یکون تکذیبکم لزاما یلزمکم فلا تعطون التوبة، و جمهور القراء علی کسر اللام من لزاما، و أنشد أبو عبیدة لصخر:
فإمّا ینجو من خسف أرض فقد لقیا حتوفهما لزاما
قال ابن جریر لزاما: عذابا دائما، و هلاکا مفنیا، یلحق بعضکم ببعض، کقول أبی ذؤیب:
ففاجأه بعادیة لزام کما یتفجّر الحوض اللّفیف
یعنی باللزام: یتبع بعضه بعضا، و باللفیف: المتساقط من الحجارة المنهدمة. و حکی أبو حاتم عن أبی زید قال: سمعت أبا السماک یقرأ «لزاما» بفتح اللام. قال أبو جعفر یکون مصدر لزم، و الکسر أولی.
و قد أخرج البخاری و مسلم و غیرهما عن ابن مسعود قال: سئل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم أیّ الذنب أکبر؟ قال:
«أن تجعل للّه ندّا و هو خلقک. قلت: ثم أیّ؟ قال: أن تقتل ولدک خشیة أن یطعم معک، قلت: ثم أیّ؟ قال: أن تزانی حلیلة جارک، فأنزل اللّه تصدیق ذلک وَ الَّذِینَ لا یَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ، وَ لا یَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لا یَزْنُونَ . و أخرجا و غیرهما أیضا عن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرک قد قتلوا فأکثروا، و زنوا فأکثروا، ثم أتوا محمدا صلّی اللّه علیه و سلم فقالوا: إن الذی تقول و تدعو إلیه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا کفارة، فنزلت وَ الَّذِینَ لا یَدْعُونَ الآیة، و نزلت قُلْ یا عِبادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ «۱» الآیة. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن عبد اللّه بن عمرو فی قوله: یَلْقَ أَثاماً قال: واد فی جهنم. و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس قال: لما نزلت وَ الَّذِینَ لا یَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ الآیة. اشتدّ ذلک

على المسلمين، فقالوا: ما منا أحد إلا أشرك و قتل و زنا، فأنزل اللّه:
يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ الآية، يقول لهؤلاء الذين أصابوا هذا فى الشرك، ثم نزلت هذه الآية إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِکَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ فأبدلهم اللّه بالكفر الإسلام، و بالمعصية الطاعة، و بالإنكار المعرفة، و بالجهالة العلم. و أخرج ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قرأناها على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سنين وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَ لا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِکَ يَلْقَ أَثاماً ثم نزلت إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ فما رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فرح بشىء قط فرحه بها، و فرحه ب إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِيناً «۲» و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فَأُوْلئِکَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ قال: هم المؤمنون

(۱). الزمر: ۵۳.

(۲). الفتح: ۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۰۷

كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب اللّه بهم عن ذلك فحوّلهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات. و أخرج أحمد و هناد و الترمذى و ابن جرير و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى ذرّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيعرض عليه صغارها و ينحى عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا، و هو يقرّ، ليس ينكر، و هو مشفق من الكبائر أن تجىء، فيقال: أعطوه بكلّ سيئة عملها حسنة» و الأحاديث فى تكفير السيئات و تبديلها بالحسنات كثيرة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ قال: إن الزور كان صنما بالمدينة يلعبون حوله كل سبعة أيام، و كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا مرّوا به مرّوا كراما لا ينظرون إليه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ قال: يعنون من يعمل بالطاعة فتقرّ به أعيننا فى الدنيا و الآخرة وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً قال: أئمة هدى يهتدى بنا و لا تجعلنا أئمة ضلالة، لأنه قال لأهل السعادة: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا «۱» و لأهل الشقاوة: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ «۲». و أخرج الحكيم الترمذى عن سهل بن سعد عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: أُوْلئِکَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ قال: الغرفة من ياقوتة حمراء، أو زبرجدة خضراء، أو درّة بيضاء.
ليس فيها فصم و لا وصم .. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، عن ابن عباس فى قوله: قُلْ ما يَعْبَؤُا بِکُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُکُمْ يقول: لولا إيمانكم، فأخبر اللّه أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين.
و لو كانت له بهم حاجة لحبّب إليهم الإيمان، كما حبّبه إلى المؤمنين فَسَوْفَ يَکُونُ لِزاماً قال: موتا.
و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن الأنبارى عنه أنه كان يقرأ: فقد كذّب الكافرون فسوف يكون لزاما. و أخرج عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن الزبير أنه قرأها كذلك. و أخرج عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن مردويه فَسَوْفَ يَکُونُ لِزاماً قال: القتل يوم بدر، و فى الصحيحين عنه قال:
خمس قد مضين: الدخان، و القمر، و الروم، و البطشة، و اللّزام.

(۱). الأنبياء: ۷۳.

(۲). القصص: ۴۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۰۸

سورة الشّعراء

اشارة

و هی: مکیة عند الجمهور، و کذا أخرج ابن مردویه عن ابن عباس و ابن الزبیر. و أخرج النحاس عن ابن عباس قال: سورة الشعراء أنزلت بمکة، سوی خمس آیات آخرها نزلت بالمدینة، و هی [الآیة: ۱۹۷ و] «۱» وَ الشُّعَراءُ یَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ إلی آخرها. و أخرج القرطبی فی تفسیره عن البراء أن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم قال: «إنّ اللّه أعطانی السّبع الطّوال مکان التوراة، و أعطانی المئین مکان الإنجیل، و أعطانی الطّواسین مکان الزّبور، و فضّلنی بالحوامیم و المفصّل، ما قرأهنّ نبیّ قبلی». و أخرج أیضا عن ابن عباس قال:

قال النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم: «أعطیت السّورة التی تذکر فیها البقرة من الذکر الأوّل، و أعطیت فواتح القرآن و خواتیم سورة البقرة من تحت العرش، و أعطیت المفصّل نافلة». قال ابن کثیر فی تفسیره: و وقع فی تفسیر مالک المرویّ عنه تسمیتها بسورة الجمعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۱ الی ۲۲]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

طسم (۱) تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْمُبِینِ (۲) لَعَلَّکَ باخِعٌ نَفْسَکَ أَلاَّ یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ (۳) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَیْهِمْ مِنَ السَّماءِ آیَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِینَ (۴)

وَ ما یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ کانُوا عَنْهُ مُعْرِضِینَ (۵) فَقَدْ کَذَّبُوا فَسَیَأْتِیهِمْ أَنْبؤُا ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۶) أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلَی الْأَرْضِ کَمْ أَنْبَتْنا فِیها مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ (۷) إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (۸) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (۹)

وَ إِذْ نادی رَبُّکَ مُوسی أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ (۱۰) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لا یَتَّقُونَ (۱۱) قالَ رَبِّ إِنِّی أَخافُ أَنْ یُکَذِّبُونِ (۱۲) وَ یَضِیقُ صَدْرِی وَ لا یَنْطَلِقُ لِسانِی فَأَرْسِلْ إِلی هارُونَ (۱۳) وَ لَهُمْ عَلَیَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ یَقْتُلُونِ (۱۴)

قالَ کَلاَّ فَاذْهَبا بِآیاتِنا إِنَّا مَعَکُمْ مُسْتَمِعُونَ (۱۵) فَأْتِیا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِینَ (۱۶) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِی إِسْرائِیلَ (۱۷)

قالَ أَ لَمْ نُرَبِّکَ فِینا وَلِیداً وَ لَبِثْتَ فِینا مِنْ عُمُرِکَ سِنِینَ (۱۸) وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَکَ الَّتِی فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْکافِرِینَ (۱۹)

قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّینَ (۲۰) فَفَرَرْتُ مِنْکُمْ لَمَّا خِفْتُکُمْ فَوَهَبَ لِی رَبِّی حُکْماً وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُرْسَلِینَ (۲۱) وَ تِلْکَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَیَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرائِیلَ (۲۲)

قوله: طسم قرأ الأعمش و یحیی بن وثاب و أبو بکر و المفضل و حمزة و الکسائی و خلف بإمالة الطاء، و قرأ نافع و أبو جعفر و شیبة و الزهری بین اللفظین، و اختار هذه القراءة أبو عبید و أبو حاتم، و قرأ الباقون بالفتح مشبعا. و قرأ المدنیون و أبو عمرو و عاصم و الکسائی بإدغام النون من «طسم» فی المیم، و قرأ الأعمش و حمزة بإظهارها. قال الثعلبی: الإدغام اختیار أبی عبید و أبی حاتم. قال النحاس: و حکی الزجاج فی کتابه

(۱). ما بين حاصرتين مستدرك من تفسير الجلالين، و به يصح الكلام.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۰۹

فيما يجرى و ما لا يجرى أنه يجوز أن يقال: «طا سين ميم» بفتح النون و ضم الميم كما يقال: هذا معدى كرب.

و قرأ عيسى و يروى عن نافع بكسر الميم على البناء. و فى مصحف عبد اللّه بن مسعود «ط س م» هكذا حروفا مقطعة فيوقف على كل حرف وقفة يتميز بها عن غيره، و كذلك قرأ أبو جعفر، و محله الرفع على الابتداء إن كان اسما للسورة، كما ذهب إليه الأكثر أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، و يجوز أن يكون فى محل نصب بتقدير:

اذكر أو اقرأ. و أما إذا كان مسرودا على نمط التعديد كما تقدّم فى غير موضع من هذا التفسير فلا محل له من الإعراب. و قد قيل: إنه اسم من أسماء اللّه سبحانه، و قيل: اسم من أسماء القرآن، و الإشارة بقوله: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ إلى السورة، و محلها الرفع على أنها و ما بعدها خبر للمبتدأ إن جعلنا طسم مبتدأ، و إن جعلناه خبرا لمبتدأ محذوف فمحلها الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من طسم، و المراد بالكتاب هنا: القرآن، و المبين: المبيّن المظهر، أو البين الظاهر إن كان من أبان بمعنى بان لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أى: قاتل نفسك و مهلكها أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ أى: لعدم إيمانهم بما جئت به، و البخع فى الأصل: أن يبلغ بالذبح النخاع، بالنون، قاموس، و هو عرق فى القفا، و قد مضى تحقيق هذا فى سورة الكهف، و قرأ قتادة «باخع نفسك» بالإضافة، و قرأ الباقون بالقطع. قال الفراء: أن فى قوله: أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ فى موضع نصب لأنها جزاء، قال النحاس: و إنما يقال: إن مكسورة لأنها جزاء، هكذا المتعارف؛ و القول فى هذا ما قاله الزجاج فى كتابه فى القرآن: إنها فى موضع نصب، مفعول لأجله، و المعنى:

لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان، و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لأنه كان حريصا على إيمان قومه، شديد الأسف لما يراه من إعراضهم: و جملة إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً مستأنفة، مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية، و المعنى: إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية تلجئهم إلى الإيمان، و لكن قد سبق القضاء بأنا لا ننزل ذلك، و معنى فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ أنهم صاروا منقادين لها، أى: فتظل أعناقهم إلخ، قيل: و أصله فظلوا لها خاضعين، فأقحمت الأعناق لزيادة التقرير و التصوير، لأن الأعناق موضع الخضوع، و قيل: إنها لما وضعت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم، و وصفت بما يوصفون به. قال عيسى بن عمر: خاضعين و خاضعة هنا سواء، و اختاره المبرد، و المعنى: إنها إذا ذلت رقابهم ذلوا، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها، و يسوغ فى كلام العرب أن يترك الخبر عن الأوّل، و يخبر عن الثانى، و منه قول الراجز:

طول الليالى أسرعت فى نقضى طوين طولى و طوين عرضى

فأخبر عن الليالى و ترك الطول، و منه قول جرير:

أرى مرّ السنين أخذن منّى كما أخذ السّرار من الهلال

و قال أبو عبيد و الكسائى: إن المعنى خاضعيها هم، و ضعفه النحاس. و قال مجاهد: أعناقهم: كبراؤهم.

قال النحاس: و هذا معروف فى اللغة، يقال جاءنى عنق من الناس: أى رؤساء منهم. و قال أبو زيد و الأخفش:

أعناقهم: جماعاتهم، يقال جاءنى عنق من الناس: أى جماعة وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۱۰

بين سبحانه أنه مع اقتداره على أن يجعلهم ملجئين إلى الإيمان يأتيهم بالقرآن حالا بعد حال، و أن لا يجدد لهم موعظة و تذكيرا إلا جددوا ما هو نقيض المقصود، و هو الإعراض و التكذيب و الاستهزاء، و من فى مِنْ ذِكْرٍ مزيدة لتأكيد العموم، و «من» فى

«من ربهم» لابتداء الغاية، و الاستثناء مفرغ من أعمّ العامّ محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم، و قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى سورة الأنبياء فَقَدْ كَذَّبُوا أى بالذكر الذى يأتيهم تكذيبا صريحا و لم يكتفوا بمجرّد الإعراض. و قيل: إن الإعراض بمعنى التكذيب، لأن من أعرض عن شىء و لم يقبله فقد كذّبه، و على هذا فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم، على وجه التصريح، و الأوّل أولى، فالإعراض عن الشىء عدم الالتفات إليه. ثم انتقلوا عن هذا إلى ما هو أشدّ منه، و هو التصريح بالتكذيب ثم انتقلوا عن التكذيب إلى ما هو أشدّ منه، و هو الاستهزاء كما يدلّ عليه قوله: فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ و الأنباء هى ما يستحقونه من العقوبة آجلا و عاجلا و سميت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن و قال: «ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» و لم يقل ما كانوا عنه معرضين، أو ما كانوا به يكذّبون، لأن الاستهزاء أشدّ منهما و مستلزم لهما، و فى هذا وعيد شديد، و قد مرّ تفسير مثل هذا فى سورة الأنعام. ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على كمال قدرته من الأمور الحسية، التى يحصل بها للمتأمل فيها، و الناظر إليها، و المستدلّ بها أعظم دليل، و أوضح برهان، فقال: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ الهمزة للتوبيخ، و الواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره، فنبه سبحانه على عظمته و قدرته، و أن هؤلاء المكذبين المستهزئين لو نظروا حق النظر لعلموا أنه سبحانه الذى يستحق أن يعبد، و المراد بالزوج هنا الصنف. و قال الفراء: هو اللون. و قال الزجاج: معنى زوج: نوع، و كريم:

محمود، و المعنى: من كل زوج نافع، لا يقدر على إنباته إلا ربّ العالمين، و الكريم فى الأصل: الحسن الشريف، يقال: نخلة كريمة: أى كثيرة الثمرة، و رجل كريم: شريف فاضل، و كتاب كريم: إذا كان مرضيا فى معانيه، و النبات الكريم: هو المرضى فى منافعه. قال الشعبى: الناس مثل نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة، فهو كريم، و من صار منهم إلى النار، فهو لئيم، و الإشارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً إلى المذكور قبلة، أى: إن فيما ذكر من الإنبات فى الأرض لدلالة بينة، و علامة واضحة على كمال قدرة اللّه سبحانه، و بديع صنعته. ثم أخبر سبحانه بأن أكثر هؤلاء مستمرّ على ضلالته مصمم على جحوده و تكذيبه و استهزائه فقال: وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أى: سبق علمى فيهم أنهم سيكونون هكذا. و قال سيبويه:

إن كانَ هنا صلة وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى: الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم، مع كونه كثير الرحمة، و لذلك أمهلهم و لم يعاجلهم بالعقوبة، أو المعنى: أنه منتقم من أعدائه رحيم بأوليائه، و جملة وَ إِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى إلخ مستأنفة، مسوقة لتقرير ما قبلها من الإعراض و التكذيب و الاستهزاء، و العامل فى الظرف محذوف تقديره: و اتل إذ نادى أو اذكر، و النداء: الدعاء، و أَنِ فى قوله: أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يجوز أن تكون مفسرة، و أن تكون مصدرية، و وصفهم بالظلم لأنهم جمعوا بين الكفر الذى ظلموا به أنفسهم، و بين المعاصى التى ظلموا بها غيرهم، كاستبعاد بنى إسرائيل، و ذبح أبنائهم،

فتح القدير، ج ۴، ص: ۱۱۱

و انتصاب قَوْمَ فِرْعَوْنَ على أنه بدل، أو عطف بيان من القوم الظالمين، و معنى أَ لا يَتَّقُونَ ألا يخافون عقاب اللّه سبحانه، فيصرفون عن أنفسهم عقوبة اللّه بطاعته. و قيل المعنى: قل لهم ألا تتقون، و جاء بالياء التحتية لأنهم غيب وقت الخطاب، و قرأ عبيد بن عمير و أبو حازم «ألا تتّقون» بالفوقية، أى: قال لهم ذلك، و مثله قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ «۱» بالتحتية، و الفوقية قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ أى: قال موسى هذه المقالة، و المعنى: أخاف أن يكذبونى فى الرسالة وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي معطوفا على أخاف، أى: يضيق صدرى لتكذيبهم إياى، و لا ينطلق لسانى بتأدية الرسالة، قرأ الجمهور برفع يَضِيقُ وَ لا يَنْطَلِقُ بالعطف على أخاف كما ذكرنا، أو على الاستئناف، و قرأ يعقوب و عيسى بن عمرو و أبو حيوة بنصبهما عطفا على يكذبون. قال الفراء: كلا القراءتين له وجه. قال النحاس: الوجه الرفع، لأن النصب عطف على يكذبون و هذا بعيد فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ أى: أرسل إليه جبريل بالوحى ليكون معى رسولا مؤازرا مظاهرا معاونا، و لم يذكر المؤازرة هنا لأنها معلومة من غير هذا

الموضع، كقوله فى طه:

وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً «۲» و فى القصص فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي «۳»، و هذا من موسى عليه السلام من باب طلب المعاونة له بإرسال أخيه، لا- من باب الاستعفاء من الرسالة، و لا- من التوقف عن المسارعة بالامتثال وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ الذنب: هو قتله للقبطى، و سماه ذنبا بحسب زعمهم: فخاف موسى أن يقتلوه به، و فيه دليل على أن الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلا عن الفضلاء، ثم أجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردع، و طرف من الزجر قالَ كَلَّا فَاذْهَبا بِآياتِنا و فى ضمن هذا الجواب إجابة موسى إلى ما طلبه من ضم أخيه إليه، كما يدلّ عليه توجيه الخطاب إليهما كأنه قال: ارتدع يا موسى عن ذلك و اذهب أنت و من استدعيته و لا- تخف من القبط إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ و فى هذا تعليل للردع عن الخوف، و هو كقوله سبحانه: إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى «۴» و أراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما و أنه متولّ لحفظهما و كلاءتهما و أجراهما مجرى الجمع، فقال: «معكم» لكون الاثنين أقلّ الجمع، على ما ذهب إليه بعض الأئمة، أو لكونه أراد موسى، و هارون، و من أرسلا إليه، و يجوز أن يكون المراد هنا: مع بنى إسرائيل، و معكم، و مستمعون: خبران لأنّ، أو الخبر مستمعون، و معكم متعلق به، و لا يخفى ما فى المعية من المجاز: لأن المصاحبة من صفات الأجسام، فالمراد معية النصرة و المعونة فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و وحد الرسول هنا و لم يثنه كما فى قوله: إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ «۵» لأنه مصدر بمعنى رسالة، و المصدر يوحد، و أما إذا كان بمعنى المرسل، فإنه يثنى مع المثنى، و يجمع مع الجمع. قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة، و التقدير على هذا: إنا ذوا رسالة ربّ العالمين، و منه قول الشاعر:

ألا أبلغ بنى عمرو رسولافإنّى عن فتاحتكم غنى

---

(۱). آل عمران: ۱۲.

(۲). طه: ۲۹.

(۳). القصص: ۳۴.

(۴). طه: ۴۶.

(۵). طه: ۴۷.

أى: رسالة. و قال العباس بن مرداس:

ألا من مبلغ عنّى خفافارسولا بيت أهلك منتهاها

أى: رسالة. قال أبو عبيدة أيضا: و يجوز أن يكون الرسول بمعنى: الاثنين و الجمع، تقول العرب:

هذا رسولى و وكيلى، و هذان رسولى و وكيلى، و هؤلاء رسولى و وكيلى، و منه: قوله تعالى: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي و قيل معناه: إن كل واحد منا رسول ربّ العالمين، و قيل: إنهما لما كان متعاضدين متساندين فى الرسالة، كانا بمنزلة رسول واحد. و أَنْ فى قوله: أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول قالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً أى: قال فرعون لموسى بعد أن أتياه و قالا له ما أمرهما اللّه به، و معنى «فينا» أى: فى حجرنا و منازلنا، أراد بذلك المنّ عليه، و الاحتقار له، أى: ربيناك لدينا صغيرا، و لم نقتلك فيمن قتلنا من الأطفال وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ فمتى كان هذا الذى تدّعيه؟ قيل: لبث فيهم ثمانى عشرة سنة، و قيل: ثلاثين سنة، و قيل: أربعين سنة، ثم قرّره بقتل القبطى فقال: وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ الفعلة بفتح الفاء: المرّة من الفعل، و قرأ الشعبى فَعْلَتَكَ بكسر الفاء، و الفتح: أولى، لأنها للمرّة الواحدة لا للنوع، و المعنى: أنه لما عدّد عليه النعم ذكر له

ذنوبه، و أراد بالفعل قتل القبطى، ثم قال: وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ أى: من الكافرين للنعمة حيث قتلت رجلا من أصحابى، و قيل المعنى: من الكافرين بأن فرعون إله، و قيل: من الكافرين باللّه فى زعمه لأنه كان معهم على دينهم، و الجملة فى محل نصب على الحال قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ أى: قال موسى مجيبا لفرعون: فعلت هذه الفعلة التى ذكرت، و هى قتل القبطى و أنا إذ ذاك من الضالين: أى: الجاهلين، فنفى عليه السلام عن نفسه الكفر، و أخبر أنه فعل ذلك على الجهل؛ قبل أن يأتيه العلم الذى علمه اللّه. و قيل المعنى:

من الجاهلين أن تلك الوكزة تبلغ القتل. و قال أبو عبيدة: من الناسين فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ أى:

خرجت من بينكم إلى مدين كما فى سورة القصص. فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً أى: نبوّة، أو علما و فهما.

و قال الزّجاج: المراد بالحكم تعليمه التوراة التى فيها حكم اللّه وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ قيل: هذا الكلام من موسى على جهة الإقرار بالنعمة، كأنه قال: نعم تلك التربية نعمة تمنّ بها علىّ، و لكن لا يدفع ذلك رسالتى، و بهذا قال الفراء و ابن جرير، و قيل: هو من موسى على جهة الإنكار، أى: أ تمنّ علىّ بأن ربيتنى وليدا، و أنت قد استعبدت بنى إسرائيل و قتلتهم و هم قومى؟.

قال الزجاج: المفسرون أخرجوا هذا على جهة الإنكار بأن يكون ما ذكر فرعون نعمة على موسى، و اللفظ لفظ خبر، و فيه تبكيت للمخاطب على معنى: أنك لو كنت لا تقتل أبناء بنى إسرائيل، لكانت أمى مستغنية عن قذفى فى اليمّ، فكأنك تمنّ علىّ ما كان بلاؤك سببا له، و ذكر نحوه الأزهرى بأبسط منه. و قال المبرد:

يقول التربية كانت بالسبب الذى ذكرت من التعبيد، أى: تربيتك إياى كانت لأجل التملك و القهر لقومى.

و قيل: إن فى الكلام تقدير الاستفهام، أى: أو تلك نعمة؟ قاله الأخفش، و أنكره النحاس. قال الفراء:

و من قال إن الكلام إنكار قال معناه: أو تلك نعمة؟ و معنى أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ أى: اتخذتهم عبيدا،

يقال: عبدته و أعبدته بمعنى. كذا قال الفراء، و محله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف بدل من نعمة، و الجر بإضمار الباء، و النصب بحذفها.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ قال: ذليلين. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ قال: قتل النفس. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ قال: للنعمة، إن فرعون لم يكن ليعلم ما الكفر؟ و فى قوله: فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ قال: من الجاهلين. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ قال: قهرتهم، و استعملتهم.

[سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۲۳ الى ۵۱]

قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ (۲۳) قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۲۴) قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْتَمِعُونَ (۲۵) قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۲۶) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (۲۷)

قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۲۸) قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (۲۹) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْ‏ءٍ مُبِينٍ (۳۰) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۱) فَأَلْقى‏ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (۳۲)

وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (۳۳) قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (۳۴) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا

تَأْمُرُونَ (۳۵) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (۳۶) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (۳۷)
فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۳۸) وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (۳۹) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (۴۰) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (۴۱) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۴۲)
قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۴۳) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (۴۴) فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (۴۵) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (۴۶) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۴۷)
رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ (۴۸) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۴۹) قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (۵۰) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (۵۱)

لما سمع فرعون قول موسى و هارون: إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ قال مستفسرا لهما عن ذلك، عازما على الاعتراض لما قالاه، فقال: وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ أى: أىّ شىء هو؟ جاء فى الاستفهام بما التى يستفهم بها عن المجهول، و يطلب بها تعيين الجنس، فلما قال فرعون ذلك قالَ موسى رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا فعين له ما أراد بالعالمين، و ترك جواب ما سأل عنه فرعون، لأنه سأله عن جنس ربّ العالمين، و لا جنس له، فأجابه موسى بما يدلّ على عظيم القدرة الإلهية التى تتضح لكل سامع أنه سبحانه الربّ و لا ربّ غيره إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ أى: إن كنتم موقنين بشىء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان قالَ فرعون

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۱۴

لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْتَمِعُونَ أى: لمن حوله من الأشراف، ألا تستمعون ما قاله، يعنى: موسى معجبا لهم من ضعف المقالة كأنه قال: أ تسمعون و تعجبون، و هذا من اللعين مغالطة، لما لم يجد جوابا عن الحجة التى أوردها عليه موسى، فلما سمع موسى ما قال فرعون، أو رد عليه حجة أخرى، هى مندرجة تحت الحجة الأولى، و لكنها أقرب إلى فهم السامعين له قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فأوضح لهم أن فرعون مربوب لا- ربّ كما يدّعيه، و المعنى: أن هذا الربّ الذى أدعوكم إليه، هو الذى خلق آباءكم الأوّلين و خلقكم، فكيف تعبدون من هو واحد منكم، مخلوق كخلقكم، و له آباء قد فنوا كآبائكم، فلم يجبه فرعون عند ذلك بشىء يعتدّ به، بل جاء بما يشكك قومه و يخيل إليهم أن هذا الذى قاله موسى مما لا يقوله العقلاء، ف قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قاصدا بذلك المغالطة، و إيقاعهم فى الحيرة، مظهرا أنه مستخفّ بما قاله موسى، مستهزىء به، فأجابه موسى عند ذلك بما هو تكميل لجوابه الأوّل، ف قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما و لم يشتغل موسى بدفع ما نسبه إليه من الجنون، بل بين لفرعون شمول ربوبية اللّه سبحانه للمشرق و المغرب، و ما بينهما، و إن كان ذلك داخلا تحت ربوبيته سبحانه للسموات و الأرض، و ما بينهما، لكن فيه تصريح بإسناد حركات السموات و ما فيها، و تغيير أحوالها و أوضاعها، تارة بالنور، و تارة بالظلمة إلى اللّه سبحانه، و تثنية الضمير فى وَ ما بَيْنَهُما الأوّل لجنسى السموات و الأرض كما فى قول الشاعر:

تنقّلت فى أشرف التّنقّل بين رماحى نهشل و مالك

إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ أى: شيئا من الأشياء، أو إن كنتم من أهل العقل، أى: إن كنت يا فرعون، و من معك من العقلاء عرفت و عرفوا أنه لا- جواب لسؤالك إلا ما ذكرت لك. ثم إن اللعين لما انقطع عن الحجة رجع إلى الاستعلاء و التغلب، ف قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ أى: لأجعلنك من أهل السجن، و كان سجن فرعون أشدّ من القتل لأنه إذا سجن أحدا لم يخرجه حتى يموت، فلما سمع موسى عليه السلام ذلك لاطفه طمعا فى إجابته؛ و إرخاء لعنان المناظرة معه، مريدا لقهره بالحجة المعتبرة فى باب النبوّة، و هى إظهار المعجزة، فعرض له على وجه يلجئه إلى طلب المعجزة ف قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ أى: أ تجعلنى من المسجونين، و لو جئتك بشىء يتبين به صدقى، و يظهر عنده صحة دعواى، و الهمزة: هنا للاستفهام، و الواو:

للعطف على مقدّر كما مرّ مرارا، فلما سمع فرعون ذلك طلب ما عرضه موسى ف قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواك، و هذا الشرط: جوابه محذوف، لأنه قد تقدّم ما يدلّ عليه فعند ذلك أبرز موسى المعجزة فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ و قد تقدّم تفسير هذا و ما بعده فى سورة الأعراف، و اشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فى الأرض فانثعب: أى فجرته فانفجر، و قد عبر سبحانه فى موضع آخر مكان الثعبان: بالحية بقوله فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى «۱» و فى موضع: بالجانّ، فقال: كَأَنَّها جَانٌّ* «۲» و الجانّ: هو المائل إلى الصغر، و الثعبان: هو المائل إلى الكبر، و الحية: جنس يشمل

---

(۱). طه: ۲۰.

(۲). النمل: ۱۰.

الكبير و الصغير، و معنى فَما ذا تَأْمُرُونَ ما رأيكم فيه، و ما مشورتكم فى مثله؟ فأظهر لهم الميل إلى ما يقولونه تألفا لهم، و استجلابا لمودتهم، لأنه قد أشرف ما كان فيه من دعوى الربوبية على الزوال، و قارب ما كان يغرّر به عليهم الاضمحلال، و إلا فهو أكبر تيها، و أعظم كبرا من أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة المشعرة بأنه فرد من أفرادهم، و واحد منهم، مع كونه قبل هذا الوقت يدّعى أنه إلههم، و يذعنون له بذلك و يصدّقونه فى دعواه، و معنى أَرْجِهْ وَ أَخاهُ أخر أمرهما، من أرجأته إذا أخرته، و قيل: المعنى احبسهما وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ و هم الشرط الذين يحشرون الناس، أى: يجمعونهم يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ هذا ما أشاروا به عليه، و المراد بالسحار العليم: الفائق فى معرفة السحر و صنعته فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ هو يوم الزينة كما فى قوله: قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ «۱» وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ حثا لهم على الاجتماع ليشاهدوا ما يكون من موسى و السحرة و لمن تكون الغلبة، و كان ذلك ثقة من فرعون بالظهور و طلبا أن يكون بمجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم، فوقع ذلك من موسى الموقع الذى يريده، لأنه يعلم أن حجة اللّه: هى الغالبة، و حجة الكافرين: هى الداحضة، و فى ظهور حجة اللّه بمجمع من الناس، زيادة فى الاستظهار للمحقين، و الانقهار للمبطلين، و معنى لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ نتبعهم فى دينهم إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ و المراد باتباع السحرة فى دينهم: هو البقاء على ما كانوا عليه، لأنه دين السحرة إذ ذاك، و المقصود المخالفة لما دعاهم إليه موسى، فعند ذلك طلب السحرة من موسى الجزاء على ما سيفعلونه ف قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً أى: لجزاء تجزينا به؛ من مال أو جاه، و قيل: أرادوا إن لنا ثوابا عظيما، ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى، فقالوا: إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ فوافقهم فرعون على ذلك و قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ أى: نعم لكم ذلك عندى مع زيادة عليه، و هى كونكم من المقرّبين لدىّ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ و فى آية أخرى قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ «۲» فيحمل ماهنا على أنه قال لهم: ألقوا بعد أن قالوا هذا القول، و لم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمرا لهم بفعل السحر، بل أراد أن يقهرهم بالحجة و يظهر لهم أن الذى جاء به ليس هو من الجنس الذى أرادوا معارضته به فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا عند الإلقاء بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ يحتمل قولهم بعزّة فرعون وجهين: الأوّل أنه قسم، و جوابه: إنا لنحن الغالبون، و الثانى: متعلق بمحذوف، و الباء: للسببية، أى: نغلب بسبب عزّته، و المراد بالعزّة العظمة فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ قد تقدّم تفسير هذا مستوفى. و المعنى: أنها تلقف ما صدر منهم من الإفك، بإخراج الشىء عن صورته الحقيقة فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ أى: لما شاهدوا ذلك، و علموا أنه صنع صانع حكيم ليس من صنيع البشر، و لا من تمويه السحرة، آمنوا باللّه، و سجدوا له و أجابوا دعوة موسى، و قبلوا نبوّته، و قد تقدّم بيان معنى ألقى، و من فاعله لوقوع التصريح به، و عند سجودهم قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ ربّ موسى عطف بيان لربّ العالمين، و أضافوه سبحانه إليهما لأنهما

(۱). طه: ۵۹.

(۲). الأعراف: ۱۱۵.

القائمان بالدعوة فى تلك الحال. و فيه تبكيت لفرعون بأنه ليس بربّ، و أن الربّ فى الحقيقة هو هذا، فلما سمع فرعون ذلك منهم و رأى سجودهم للّه قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ أى: بغير إذن منى، ثم قال مغالطا للسحرة الذين آمنوا، و موهما للناس أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ و إنما اعترف له بكونه كبيرهم، مع كونه لا يحبّ الاعتراف بشىء يرتفع به شأن موسى، لأنه قد علم كل من حضر، أن ما جاء به موسى أبهر مما جاء به السحرة، فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذى شاهدتم، و إن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة، فهو فعل كبيرهم، و من هو أستاذهم الذى أخذوا عنه هذه الصناعة، فلا تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر، و أنه من فعل الربّ الذى يدعو إليه موسى، ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا باللّه لما قهرتهم حجة اللّه، فقال: فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أجمل التهديد أوّلا للتهويل، ثم فصله فقال: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ فلما سمعوا ذلك من قوله: قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ أى: لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا، فإن ذلك يزول، و ننقلب بعده إلى ربنا، فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يحدّ، و لا يوصف. قال الهروى:

لا ضير و لا ضرر و لا ضرّ بمعنى واحد، و أنشد أبو عبيدة:

فإنّك لا يضورك بعد حولأ ظبى كان أمّك أم حمار «۱»

قال الجوهرى: ضاره يضوره ضيرا و ضورا: أى ضرّه. قال الكسائى: سمعت بعضهم يقول: لا ينفعنى ذلك و لا يضورنى إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا ثم عللوا هذا بقولهم: أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ بنصب أن، أى: لأن كنا أوّل المؤمنين. و أجاز الفراء و الكسائى كسرها على أن يكون مجازاة، و معنى أوّل المؤمنين: أنهم أوّل من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية. و قال الفراء: أول مؤمنى زمانهم، و أنكره الزجاج، و قال: قد روى أنه آمن معهم ستّمائة ألف و سبعون ألفا، و هم الشرذمة القليلون الذين عناهم فرعون بقوله: إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ يقول: مبين:

له خلق حية وَ نَزَعَ يَدَهُ يقول: و أخرج موسى يده من جيبه فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ تلمع لِلنَّاظِرِينَ لمن ينظر إليها و يراها. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ قال:

كانوا بالإسكندرية. قال: و يقال بلغ ذنب الحية من وراء البحيرة يومئذ. قال: و هربوا و أسلموا فرعون، و همت به، فقال: خذها يا موسى، و كان مما بلى الناس به منه أنه كان لا يضع على الأرض شيئا، أى: يوهمهم أنه لا يحدث فأحدث يومئذ تحته. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: لا ضَيْرَ قال: يقولون لا يضيرنا الذى تقول، و إن صنعت بنا و صلبتنا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ يقولون: إنا إلى ربنا راجعون، و هو

(۱). البيت لخداش بن زهير، و معناه: لا تبالى بعد قيامك بنفسك و استغنائك عن أبويك من انتسبت إليه من شريف أو وضيع، و ضرب المثل بالظبى أو الحمار.

مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا، و ثباتنا على توحيده، و البراءة من الكفر، و فى قوله: أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ قالوا كانوا كذلك يومئذ، من آمن بآياته حين رأوها.

[سورة الشعراء (٢۶): الآيات ۵٢ الى ۶٨]

وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۵٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (۵٣) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (۵۴) وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (۵۵) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (۵۶)

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵٧) وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (۵٨) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (۵٩) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (۶٠) فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (۶١)

قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (۶٢) فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (۶٣) وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (۶۴) وَ أَنْجَيْنا مُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (۶۵) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۶۶)

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۶٧) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶٨)

قوله: أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي أمر اللّه سبحانه موسى أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا، و سماهم عباده لأنهم آمنوا بموسى، و بما جاء به، و قد تقدّم تفسير مثل هذا فى سورة الأعراف، و جملة إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ تعليل للأمر المتقدّم، أى: يتبعكم فرعون و قومه ليردّوكم، و فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ و ذلك حين بلغه مسيرهم، و المراد بالحاشرين: الجامعون للجيش من الأمكنة التى فيها أتباع فرعون، ثم قال فرعون لقومه بعد اجتماعهم لديه: إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ يريد بنى إسرائيل، و الشرذمة: الجمع الحقير القليل، و الجمع: شراذم، قال الجوهرى: الشرذمة: الطائفة من الناس، و القطعة من الشى‌ء، و ثوب شراذم: أى قطع، و منه قول الشاعر:

جاء الشّتاء و قميصى أخلاق‌شراذم يضحك منها النّوّاق «١»

قال الفراء: يقال عصبة قليلة و قليلون، و كثيرة و كثيرون. قال المبرّد: الشرذمة: القطعة من الناس غير الكثير، و جمعها: الشراذم. قال المفسرون: و كان الشرذمة الذين قللهم ستّمائة ألف و لا يحصى عدد أصحاب فرعون وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ يقال: غاظنى كذا و أغاظنى، و الغيظ: الغضب، و منه: التغيظ و الاغتياظ، أى:

غاظونا بخروجهم من غير إذن منى وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ قرئ حذرون و حاذرون و حذرون بضم الذال، حكى ذلك الأخفش.

قال الفراء: الحاذر: الذى يحذرك الآن، و الحذر: المخلوق كذلك لا تلقاه إلا حذرا.

و قال الزجاج: الحاذر: المستعد، و الحذر: المتيقظ، و به قال الكسائى، و محمد بن يزيد. قال النحاس:

حذرون قراءة المدنيين، و أبى عمرو، و حاذرون: قراءة أهل الكوفة، قال: أبو عبيدة يذهب إلى معنى:

حذرون و حاذرون واحد، و هو قول سيبويه، و أنشد سيبويه:

حذر أمورا لا تضير و حاذرما ليس ينجيه من الأقدار

---

(١). النّوّاق: من الرجال الذى يروّض الأمور و يصلحها؛ قاله فى الصّحاح. و جاء فى اللسان: «التّواق» و هو: ابنه.

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ يعنى: فرعون، و قومه، أخرجهم اللّه من أرض مصر، و فيها الجنات، و العيون، و الكنوز، و هى: جمع جنة، و عين، و كنز، و المراد بالكنوز:

الخزائن، و قيل: الدفائن، و قيل: الأنهار، و فيه نظر لأن العيون المراد بها عند جمهور المفسرين: عيون الماء، فيدخل تحتها الأنهار.

و اختلف فى المقام الكريم؛ فقيل: المنازل الحسان، و قيل: المنابر، و قيل: مجالس الرؤساء و الأمراء، و قيل: مرابط الخيل، و الأوّل أظهر، و من ذلك قول الشاعر:

و فيهم مقامات حسان وجوههمو أندية ينتابها القول و الفعل

كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ يحتمل أن يكون كذلك فى محل نصب، أى: أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذى وصفنا، و يحتمل أن يكون فى محل جرّ على الوصفية، أى: مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم، و يحتمل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر كذلك، و معنى و أورثناها بنى إسرائيل:

جعلناها ملكا لهم، و هو معطوف على فأخرجناهم فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ قراءة الجمهور: بقطع الهمزة، و قرأ الحسن، و الحارث الدينارى بوصلها، و تشديد التاء، أى: فلحقوهم حال كونهم مشرقين، أى:

داخلين فى وقت الشروق. يقال شرقت الشمس شروقا. إذا طلعت كأصبح و أمسى؛ أى: دخل فى هذين الوقتين، و قيل: داخلين نحو المشرق، كأنجد، و أتهم، و قيل: معنى مشرقين: مضيئين. قال الزجاج:

يقال شرقت الشمس: إذا طلعت، و أشرقت: إذا أضاءت فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قرأ الجمهور تَراءَا بتخفيف الهمزة، و قرأ ابن وثاب و الأعمش من غير همز، و المعنى: تقابلا، بحيث يرى كلّ فريق صاحبه، و هو تفاعل من الرؤية، و قرئ تَراءَتِ الْفِئَتانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ أى: سيدركنا جمع فرعون، و لا طاقة لنا بهم. قرأ الجمهور إِنَّا لَمُدْرَكُونَ اسم مفعول من أدرك، و منه حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ «١» و قرأ الأعرج و عبيد بن عمير بفتح الدال مشددة و كسر الراء. قال الفراء:

هما بمعنى واحد. قال النحاس: ليس كذلك يقول النحويون الحذاق، إنما يقولون مدركون بالتخفيف:

ملحقون و بالتشديد مجتهدون فى لحاقهم. قال: و هذا معنى قول سيبويه. و قال الزمخشري: إن معنى هذه القراءة إنا لمتتابعون فى الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ قال موسى هذه المقالة زجرا لهم و ردعا، و المعنى: أنهم لا يدركونكم، و ذكرهم وعد اللّه بالهداية و الظفر، و المعنى: إن معى ربى بالنصر و الهداية سيهدين، أى: يدلنى على طريق النجاة، فلما عظم البلاء على بنى إسرائيل، و رأوا من الجيوش مالا طاقة لهم به، و أمر اللّه سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه، و ذلك قوله: فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ لما قال موسى: إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ بين اللّه سبحانه له طريق الهداية، فأمره بضرب البحر، و به نجا بنو إسرائيل، و هلك عدوّهم، و الفاء فى فَانْفَلَقَ فصيحة، أى:

---

(١). يونس: ٩٠.

فضرب، فانفلق، فصار اثنى عشر فلقا، بعدد الأسباط، و قام الماء عن يمين الطريق، و عن يساره كالجبل العظيم، و هو معنى قوله: فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ و الفرق: القطعة من البحر، و قرىء فلق بلام بدل الراء، و الطود: الجبل، قال امرؤ القيس:

فبينا المرء فى الأحياء طودرماه النّاس عن كثب فمالا

و قال الأسود بن يعفر:

حلّوا بأنقرة يسيل عليهمماء الفرات يجىء من أطواد

وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ أى: قرّبناهم إلى البحر، يعنى: فرعون و قومه. قال الشاعر:

و كلّ يوم مضى أو ليلة سلفتفيها النفوس إلى الآجال تزدلف

قال أبو عبيدة: أزلفنا: جمعنا، و منه قيل لليلة المزدلفة: ليلة جمع، و ثم: ظرف مكان للبعيد. و قيل إن المعنى: و أزلفنا: قربنا من

النجاة، و المراد بالآخرين: موسى و أصحابه، و الأوّل أولى، و قرأ الحسن و أبو حيوة و زلفنا ثلاثيا، و قرأ أبيّ و ابن عباس و عبد اللّه بن الحارث «و أزلقنا» بالقاف: أى أزللنا و أهلكنا من قولهم: أزلقت الفرس إذا ألقت ولدها وَ أَنْجَيْنا مُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ بمرورهم فى البحر، بعد أن جعله اللّه طرقا يمشون فيها ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ يعنى: فرعون و قومه، أغرقهم اللّه باطباق البحر عليهم، بعد أن دخلوا فيه متبعين موسى و قومه، و الإشارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً إلى ما تقدّم ذكره مما صدر بين موسى و فرعون إلى هذه الغاية، ففى ذلك آية عظيمة، و قدرة باهرة من أدلّ العلامات على قدرة اللّه سبحانه، و عظيم سلطانه وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أى: ما كان أكثر هؤلاء الذين مع فرعون مؤمنين، فإنه لم يؤمن منهم فيما بعد إلا القليل، كحزقيل و ابنته، و آسية امرأة فرعون، و العجوز التى دلت على قبر يوسف، و ليس المراد أكثر من كان مع فرعون عند لحاقه بموسى، فإنهم هلكوا فى البحر جميعا؛ بل المراد من كان معه من الأصل و من كان متابعا له و منتسبا إليه، هذا غاية ما يمكن أن يقال. و قال سيبويه و غيره: إنّ كانَ زائدة، و أن المراد الإخبار عن المشركين بعد ما سمعوا الموعظة وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى: المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه.

و قد أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ قال: ستّمائة ألف و سبعون ألفا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كانوا ستّمائة ألف. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر اثنى عشر سبطا، فكان فى كلّ طريق إثنا عشر ألفا كلّهم ولد يعقوب» و أخرج ابن مردويه عنه أيضا بسند. قال السيوطى: واه، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «كان فرعون عدوّ اللّه، حيث أغرقه اللّه هو و أصحابه فى سبعين قائدا، مع كلّ قائد سبعون ألفا، و كان موسى مع سبعين ألفا، حيث عبروا

فتح القدير، ج ۴، ص: ۱۲۰

البحر». و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: كان طلائع فرعون الذين بعثهم فى أثرهم ستّمائة ألف ليس فيها أحد إلا على بهيم. و أقول: هذه الروايات المضطربة، قد روى عن كثير من السلف ما يماثلها فى الاضطراب و الاختلاف، و لا يصحّ منها شىء عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ مَقامٍ كَرِيمٍ قال: المنابر.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: كَالطَّوْدِ قال: كالجبل. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن ابن مسعود مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ أَزْلَفْنا قال: قربنا. و أخرج الفريابى و عبد ابن حميد و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن أبى موسى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إنّ موسى لما أراد أن يسير ببنى إسرائيل أضلّ الطريق، فقال لبنى إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماء بنى إسرائيل: إنّ يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقا أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا، فقال لهم موسى: أيكم يدرى أين قبره؟ فقالوا: ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبنى إسرائيل، فأرسل إليها موسى فقال: دلّينا على قبر يوسف؟ فقالت: لا و اللّه حتّى تعطينى حكمى، قال: و ما حكمك؟ قالت: أن أكون معك فى الجنة، فكأنّه ثقل عليه ذلك، فقيل له: أعطها حكمها، فأعطاها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء، فقالت لهم: انضبوا عنها الماء. ففعلوا، قالت: احفروا، فحفروا، فاستخرجوا قبر يوسف، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار».

[سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۶۹ الى ۱۰۴]

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (۶۹) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (۷۰) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (۷۱) قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (۷۲) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (۷۳)

قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (۷۴) قالَ أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۷۵) أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (۷۶) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِی إِلاَّ رَبَّ الْعالَمِینَ (۷۷) الَّذِی خَلَقَنِی فَهُوَ یَهْدِینِ (۷۸)

وَ الَّذِی هُوَ یُطْعِمُنِی وَ یَسْقِینِ (۷۹) وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ (۸۰) وَ الَّذِی یُمِیتُنِی ثُمَّ یُحْیِینِ (۸۱) وَ الَّذِی أَطْمَعُ أَنْ یَغْفِرَ لِی خَطِیئَتِی یَوْمَ الدِّینِ (۸۲) رَبِّ هَبْ لِی حُکْماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ (۸۳)

وَ اجْعَلْ لِی لِسانَ صِدْقٍ فِی الْآخِرِینَ (۸۴) وَ اجْعَلْنِی مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِیمِ (۸۵) وَ اغْفِرْ لِأَبِی إِنَّهُ کانَ مِنَ الضَّالِّینَ (۸۶) وَ لا تُخْزِنِی یَوْمَ یُبْعَثُونَ (۸۷) یَوْمَ لا یَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ (۸۸)

إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ (۸۹) وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِینَ (۹۰) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِیمُ لِلْغاوِینَ (۹۱) وَ قِیلَ لَهُمْ أَیْنَ ما کُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۹۲) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ یَنْصُرُونَکُمْ أَوْ یَنْتَصِرُونَ (۹۳)

فَکُبْکِبُوا فِیها هُمْ وَ الْغاوُونَ (۹۴) وَ جُنُودُ إِبْلِیسَ أَجْمَعُونَ (۹۵) قالُوا وَ هُمْ فِیها یَخْتَصِمُونَ (۹۶) تَاللَّهِ إِنْ کُنَّا لَفِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۹۷) إِذْ نُسَوِّیکُمْ بِرَبِّ الْعالَمِینَ (۹۸)

وَ ما أَضَلَّنا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (۹۹) فَما لَنا مِنْ شافِعِینَ (۱۰۰) وَ لا صَدِیقٍ حَمِیمٍ (۱۰۱) فَلَوْ أَنَّ لَنا کَرَّةً فَنَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ (۱۰۲) إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۰۳)

وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (۱۰۴)

قوله: وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ معطوف على العامل فی قوله: وَ إِذْ نادى رَبُّکَ مُوسى و قد تقدّم، و المراد بنبإ إبراهیم: خبره، أی: اقصص علیهم یا محمد خبر إبراهیم و حدیثه، و إِذْ قالَ منصوب بنبإ إبراهیم،

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۲۱

أی: وقت قوله: لِأَبِیهِ وَ قَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ و قیل: إذ بدل من نبأ، بدل اشتمال، فیکون العامل فیه:

اتل، و الأوّل أولى. و معنى ما تعبدون: أیّ شیء تعبدون؟ و هو یعلم أنهم یعبدون الأصنام، و لکنه أراد إلزامهم الحجة قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاکِفِینَ أی: فنقیم على عبادتها مستمرین لا فی وقت معین، یقال ظلّ یفعل کذا: إذا فعله نهارا، و بات یفعل کذا إذا فعله لیلا، فظاهره أنهم یستمرّون على عبادتها نهارا، لا لیلا، و المراد من العکوف لها: الإقامة على عبادتها، و إنما قال لها لإفادة أن ذلک العکوف لأجلها، فلما قالوا هذه المقالة، قال إبراهیم منبها على فساد مذهبهم: هَلْ یَسْمَعُونَکُمْ إِذْ تَدْعُونَ قال الأخفش: فیه حذف، و المعنى: هل یسمعون منکم، أو هل یسمعون دعاءکم. و قرأ قتادة هَلْ یَسْمَعُونَکُمْ بضم الیاء، أی: هل یسمعونکم أصواتهم وقت دعائکم لهم أَوْ یَنْفَعُونَکُمْ بوجه من وجوه النفع أَوْ یَضُرُّونَ أی: یضرّونکم إذا ترکتم عبادتهم، و هذا الاستفهام للتقریر، فإنها إذا کانت لا تسمع، و لا تنفع، و لا تضرّ، فلا وجه لعبادتها، فإذا قالوا: نعم هی کذلک؛ أقرّوا بأن عبادتهم لها من باب اللعب و العبث، و عند ذلک تقوم الحجة علیهم، فلما أورد علیهم الخلیل هذه الحجة الباهرة، لم یجدوا لها جوابا إلا رجوعهم إلى التقلید البحت، و هو أنهم وجدوا آباءهم کذلک یفعلون، أی: یفعلون لهذه العبادة لهذه الأصنام، مع کونها بهذه الصفة التی هی: سلب السمع، و النفع، و الضر عنها، و هذا الجواب هو العصى التی یتوکأ علیها کلّ عاجز، و یمشی بها کلّ أعرج، و یغترّ بها کل مغرور، و ینخدع لها کل مخدوع؛ فإنک لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التی طبقت الأرض بطولها و العرض، و قلت لهم: ما الحجة لهم على تقلید فرد من أفراد العلماء، و الأخذ بکل ما یقوله فی الدین، و یبتدعه من الرأی المخالف للدلیل، لم یجدوا غیر هذا الجواب و لا فاهوا بسواه، و أخذوا یعدّدون علیک من سبقهم إلى تقلید هذا من سلفهم، و اقتداء بأقواله و أفعاله و هم قد ملؤوا صدورهم هیبة، و ضاقت أذهانهم عن تصوّرهم، و ظنوا أنهم خیر أهل الأرض و أعلمهم و أورعهم، فلم یسمعوا لناصح نصحا و لا لداع إلى الحق دعاء، و لو فطنوا لوجدوا أنفسهم فی غرور عظیم، و جهل شنیع، و إنهم

كالبهيمة العمياء، و أولئك الأسلاف كالعمى الذين يقودون البهائم العمى، كما قال الشاعر:

كبهيمة عمياء قاد زمامهاأعمى على عوج الطّريق الجائر

فعليك أيها العامل بالكتاب و السنة، المبرأ من التعصب، و التعسف، أن تورد عليهم حجج اللّه، و تقيم عليهم براهينه، فإنه ربما انقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد فى قلبه، و أما من قد استحكم فى قلبه هذا الداء، فلو أوردت عليه كلّ حجة، و أقمت عليه كلّ برهان، لما أعارك إلا أذنا صماء، و عينا عمياء، و لكنك قد قمت بواجب البيان الذى أوجبه عليك القرآن، و الهداية بيد الخلاق العليم إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ «۱» و لما قال هؤلاء المقلدة هذه المقالة قالَ الخليل أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ أى: فهل أبصرتم و تفكرتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام التى لا تسمع، و لا تنفع، و لا تضرّ، حتى تعلموا أنكم على ضلالة و جهالة، ثم أخبرهم بالبراءة من هذه الأصنام التى يعبدونها.

---

(۱). القصص: ۵۶.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۱۲۲

فقال: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي و معنى كونهم عدوّا له مع كونهم جمادا أنه إن عبدهم كانوا له عدوّا يوم القيامة.

قال الفراء: هذا من المقلوب، أى: فإنى عدوّ لهم لأن من عاديته عاداك، و العدوّ كالصديق، يطلق على الواحد، و المثنى، و الجماعة المذكر و المؤنث، كذا قال الفراء. قال علىّ بن سليمان: من قال عدوة اللّه فأثبت الهاء، قال: هى بمعنى المعادية، و من قال عدوّ للمؤنث و الجمع بمعنى النسب. و قيل المراد بقوله: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي آباؤهم الأقدمون، لأجل عبادتهم الأصنام، و ردّ بأن الكلام مسوق فيما عبدوه لا فى العابدين، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ منقطع، أى: لكن ربّ العالمين ليس كذلك، بل هو وليى فى الدنيا و الآخرة. قال الزجاج: قال النحويون: هو استثناء ليس من الأوّل، و أجاز الزجاج أيضا أن يكون من الأوّل على أنهم كانوا يعبدون اللّه عزّ و جلّ، و يعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا اللّه.

قال الجرجانى: تقديره أ فرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم و آباؤكم الأقدمون، إلا رب العالمين فإنهم عدوّ لى، فجعله من باب التقديم و التأخير، و جعل إلا بمعنى: دون، و سوى كقوله: لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى «۱» أى: دون الموتة الأولى. و قال الحسن بن الفضل: إن المعنى: إلا من عبد ربّ العالمين، ثم وصف ربّ العالمين بقوله: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ أى: فهو يرشدنى إلى مصالح الدين و الدنيا. و قيل: إن الموصول مبتدأ، و ما بعده خبره، و الأوّل أولى. و يجوز أن يكون الموصول بدلا من ربّ، و أن يكون عطف بيان له، و أن يكون منصوبا على المدح بتقدير: أعنى، أو أمدح، و قد وصف الخليل ربّه بما يستحق العبادة لأجله، فإن الخلق، و الهداية، و الرزق يدلّ عليه قوله: وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ و دفع ضرّ المرض، و جلب نفع الشفاء، و الإماتة و الإحياء، و المغفرة للذنب، كلها نعم يجب على المنعم عليه ببعضها، فضلا عن كلها أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التى أعلاها و أولاها العبادة، و دخول هذه الضمائر فى صدور هذه الجمل، للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره، و أسند المرض إلى نفسه دون غيره من هذه الأفعال المذكورة رعاية للأدب مع الربّ، و إلا فالمرض و غيره من اللّه سبحانه، و مراده بقوله: ثُمَّ يُحْيِينِ البعث، و حذف الياء من هذه الأفعال لكونها رؤوس الآى. و قرأ ابن أبى إسحاق هذه الأفعال كلها بإثبات الياء، و إنما قال عليه الصلاة و السلام: وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ هضما لنفسه، و قيل:

إن الطمع هنا بمعنى اليقين فى حقه، و بمعنى الرجاء فى حق سواه. و قرأ الحسن و ابن أبى إسحاق «خطاياى» قالا: ليست خطيئته واحدة. قال النحاس: خطيئة بمعنى خطايا فى كلام العرب. قال مجاهد: يعنى بخطيئة قوله: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا «۲»، و قوله: إِنِّي سَقِيمٌ «۳»، و قوله إن سارة أخته، زاد الحسن: و قوله للكوكب هذا رَبِّي* «۴» و حكى الواحدى عن المفسرين أنهم فسروا الخطايا

بما فسرها به مجاهد. قال الزجاج: الأنبياء بشر، و يجوز أن تقع عليهم الخطيئة، إلا أنهم لا تكون منهم الكبيرة لأنهم معصومون، و المراد بيوم الـدين: يوم الجزاء للعباد بأعمـالهم، و لاـ يخفى أن تفسير الخطايـا بمـا ذكره مجاهـد و من معه ضـعيف، فـإن تلك معاريض، و هى أيضا إنما صدرت عنه بعد هذه المقاولة الجارية بينه و بين قومه. ثم لمّا فرغ الخليل من الثناء

---

(۱). الدخان: ۵۶.

(۲). الأنبياء: ۶۳.

(۳). الصافات: ۸۹.

(۴). الأنعام: ۷۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۲۳

على ربه و الاـعتراف بنعمه عقبه بالـدعاء ليقتـدى به غيره فى ذلك، فقال: رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً و المراد بالحكم: العلم و الفهم، و قيل: النبوّة و الرسالـة، و قيل: المعرفـة بحـدود اللّه و أحكامه إلى آخره وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ يعنى: بالنبيين من قبلى، و قيل: بأهل الجنة وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ أى:

اجعل لى ثناء حسـنا فى الآخرين، الـذين يأتون بعـدى إلى يوم القيامة. قال القتبى: وضع اللسان موضع القول على الاسـتعارة. لأن القول يكون به، و قد تكنى العرب بها عن الكلمة، و منه قول الأعشى:

إنّى أتتنى لسان لا أسرّ بها «۱» و قد أعطى اللّه سبحانه إبراهيم ذلك بقوله: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* «۲» فإن كل أمة تتمسك به و تعظمه. و قال مكى: قيل معنى سؤاله أن يكون من ذريته فى آخر الزمان من يقوم بالحق، فأجيبت دعوته فى محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و لاـ وجه لهـذا التخصيص. و قـال القشيرى: أراد الـدعاء الحسن إلى قيام الساعـة، و لا وجه لهـذا أيضا، فإن لسان الصـدق أعم من ذلك وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَـةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ من ورثـة: يحتمل أن يكون مفعولا ثانيا، و أن يكون صـفة لمحـذوف، هو المفعول الثانى، أى: وارثا من ورثـة جنـة النعيم، لما طلب عليه السـلام بالـدعوة الأولى سـعادة الـدنيا، طلب بهـذه الـدعوة سـعادة الآخرة، و هى جنة النعيم، و جعلها مما يورث، تشبيها لغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا، و قد تقدّم تفسـير معنى الوراثة فى سورة مريم وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ كان أبوه قد وعد أنه يؤمن به، فاسـتغفر له فلما تبين له أنه عدوّ للّه تبرأ منه، و قد تقدّم تفسـير هذا مستوفى فى سورة التوبة، و سورة مريم، و معنى «من الضالين» من المشركين الضالين عن طريق الهداية، و كان زائدة على مذهب سيبويه كما تقدّم فى غير موضع وَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ أى: لا تفضحنى على رؤوس الأشهاد بمعاتبتى، أو لا تعذبنى يوم القيامة، أو لا تخزنى بتعذيب أبى، أو ببعثه فى جملة الضالين.

و الإخزاء يطلق على الخزى: و هو الهوان، و على الخزاية، و هى الحياء، و يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ بدل من يوم يبعثون، أى: يوم لا ينفع فيه المال و البنون أحدا من الناس، و الابن: هو أخصّ القرابة، و أولاهم بالحماية، و الدفع، و النفع، فإذا لم ينفع، فغيره من القرابة و الأعوان بالأولى. و قال ابن عطية: إن هذا و ما بعده من كلام اللّه، و هو ضـعيف، و الاسـتثناء بقوله: إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ قيل: هو منقطع، أى: لكن من أتى اللّه بقلب سليم. قال فى الكشاف: إلا حال من أتى اللّه بقلب سليم، فقدّر مضافا محذوفا. قال أبو حيان: و لا ضـرورة تـدعو إلى ذلك. و قيل: إن هذا الاسـتثناء بدل من المفعول المحذوف، أو مسـتثنى منه، إذ التقدير لا ينفع مـال و لاـ بنون أحـدا من النـاس إلّـا من كانت هـذه صـفته، و يحتمل أن يكون بـدلا من فاعل ينفع، فيكون مرفوعا. قال أبو البقاء: فيكون التقدير: إلّا مال من أو بنو من فإنه ينفع.

و اختلف فى معنى القلب السليم، فقيل: السليم من الشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد، قاله

(١). و عجز البيت: من علو لا عجب منها و لا سخر.

(٢). الصافات: ٧٨.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ١٢۴

أكثر المفسرين. و قال سعيد بن المسيب: القلب السليم: الصحيح، و هو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر و المنافق مريض، و قيل: هو القلب الخالى عن البدعة المطمئن إلى السنة، و قيل: السالم من آفة المال، و البنين. و قال الضحاك: السليم: الخالص. و قال الجنيد: السليم فى اللغة: اللديغ، فمعناه: أنه قلب كاللديغ من خوف اللّه تعالى، و هذا تحريف و تعكيس لمعنى القرآن. قال الرازى: أصح الأقوال أن المراد منه: سلامة النفس عن الجهل، و الأخلاق الرذيلة وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ أى: قربت، و أدنيت لهم ليدخلوها. و قال الزجاج: قرب دخولهم إياها و نظرهم إليها وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ أى: جعلت بارزة لهم، و المراد بالغاوين: الكافرين، و المعنى: أنها أظهرت قبل أن يدخلها المؤمنون ليشتدّ حزن الكافرين و يكثر سرور المؤمنين وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأصنام، و الأنداد هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ فيدفعون عنكم العذاب أَوْ يَنْتَصِرُونَ بدفعه عن أنفسهم. و هذا كله توبيخ و تقريع لهم، و قرأ مالك بن دينار «و برّزت» بفتح الباء و الراء مبنيا للفاعل فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الْغاوُونَ أى: ألقوا فى جهنم هم: يعنى المعبودين و الغاوون. يعنى العابدين لهم. و قيل معنى كبكبوا: قلبوا على رؤوسهم، و قيل: ألقى بعضهم على بعض، و قيل: جمعوا، مأخوذ من الكبكبة و هى الجماعة قاله الهروى. و قال النحاس: هو مشتق من كوكب الشى‌ء:

أى معظمه، و الجماعة من الخيل كوكب و كبكبة، و قيل: دهدهوا، و هذه المعانى متقاربة، و أصله كببوا بباءين، الأولى مشدّدة من حرفين، فأبدل من الباء الوسطى الكاف. و قد رجح الزجاج أن المعنى: طرح بعضهم على بعض. و رجح ابن قتيبة أن المعنى: القوا على رؤوسهم. و قيل: الضمير فى كبكبوا لقريش، و الغاوون: الآلهة، و المراد بجنود إبليس: شياطينه الذين يغوون العباد، و قيل: ذريته و قيل: كل من يدعو إلى عبادة الأصنام، و أَجْمَعُونَ تأكيد للضمير فى كبكبوا و ما عطف عليه، و جملة قالُوا وَ هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل، و مقول القول تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ و جملة: و هم فيها يختصمون فى محل نصب على الحال، أى: قالوا هذه المقالة حال كونهم فى جهنم مختصمين، و «إن» فى إن كنا: هى المخففة من الثقيلة، و اللام فارقة بينها و بين النافية، أى: قالوا تاللّه إن الشأن كوننا فى ضلال واضح ظاهر، و المراد بالضلال هنا: الخسار، و التبار، و الحيرة عن الحق، و العامل فى الظرف، أعنى إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ هو كونهم فى الضلال المبين. و قيل:

العامل هو الضلال، و قيل: ما يدل عليه الكلام، كأنه قيل: ضللنا وقت تسويتنا لكم بربّ العالمين. و قال الكوفيون: إنّ «إن» فى إن كنا: نافية و اللام بمعنى إلا، أى: ما كنا إلا فى ضلال مبين. و الأوّل أولى، و هو مذهب البصريين فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ يشفعون لنا من العذاب كما للمؤمنين وَ لا صَدِيقٍ حَمِيمٍ أى: ذى قرابة، و الحميم: القريب الذى توده و يودّك، و وحد الصديق لما تقدّم غير مرة أنه يطلق على الواحد و الاثنين، و الجماعة، و المذكر، و المؤنث، و الحميم: مأخوذ من حامة الرجل، أى: أقربائه، و يقال: حمّ الشى‌ء و أحمّ: إذا قرب منه، و منه الحمى لأنه يقرّب من الأجل. و قال على بن عيسى: إنما سمى القريب حميما لأنه يحمى لغضب صاحبه، فجعله مأخوذا من الحمية، فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

فتح القدير، ج‌۴، ص: ١٢۵

هذا منهم على طريق التمنى، الدالّ على كمال التحسر كأنهم قالوا: فليت لنا كرّة، أى: رجعة إلى الدنيا، و جواب التمنى: فنكون من المؤمنين، أى: نصير من جملتهم، و الإشارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً إلى ما تقدّم ذكره من نبأ إبراهيم، و الآية: العبرة و

العلامة، و التنوين يدل على التعظيم، و التفخيم وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أى: أكثر هؤلاء الذين يتلو عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم نبأ إبراهيم، و هم: قريش و من دان بدينهم.

و قيل: و ما كان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين، و هو ضعيف لأنهم كلهم غير مؤمنين وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى: هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه، أو الرحيم للأعداء، بتأخير عقوبتهم، و ترك معاجلتهم.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ يعنى: بأهل الجنة.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ قال: اجتماع أهل الملل على إبراهيم. و أخرج عنه أيضا وَ اغْفِرْ لِأَبِي قال: امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك. و أخرج البخارى و غيره من حديث أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، و على وجه آزر قترة و غبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصنى. فيقول أبوه: فاليوم لا أعصينّك، فيقول إبراهيم: ربّ إنّك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون، فأىّ خزى أخزى من أبى الأبعد؟ فيقول اللّه: إنّى حرّمت الجنّة على الكافرين، ثم يقول: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فإذا هو بذيخ متلطّخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النّار» و الذّيخ: هو الذكر من الضباع، فكأنه حوّل آزر إلى صورة ذيخ. و قد أخرجه النسائى بأطول من هذا. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ قال:

شهادة أن لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فَكُبْكِبُوا فِيها قال: جمعوا فيها هُمْ وَ الْغاوُونَ قال: مشركو العرب و الآلهة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً قال: رجعة إلى الدنيا فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حتى تحلّ لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء.

[سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۰۵ الى ۱۳۵]

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (۱۰۵) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۰۶) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۰۷) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۰۸) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۰۹)

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۱۰) قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (۱۱۱) قالَ وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۲) إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (۱۱۳) وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۴)

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۱۱۵) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (۱۱۶) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (۱۱۷) فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۸) فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۱۱۹)

ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (۱۲۰) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۲۱) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۲۲) كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (۱۲۳) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۲۴)

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۲۵) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۲۶) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۲۷) أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (۱۲۸) وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (۱۲۹)

وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (۱۳۰) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۳۱) وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (۱۳۲) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ (۱۳۳) وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۳۴)

إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۳۵)

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۲۶

قوله: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ أنث الفعل لكونه مسندا إلى قوم، و هو فى معنى الجماعة، أو الأمة أو القبيلة، و أوقع التكذيب

على المرسلين، و هم لم يكذبوا إلا الرسول المرسل إليهم، لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل، لأن كلّ رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل. و قيل: كذبوا نوحا فى الرسالة، و كذبوه فيما أخبرهم به من مجىء المرسلين بعده إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أى: أخوهم من أبيهم، لا أخوهم فى الدين. و قيل: هى أخوة المجانسة، و قيل: هو من قول العرب: يا أخا بنى تميم، يريدون واحدا منهم أَ لا تَتَّقُونَ أى: ألا تتقون اللّه بترك عبادة الأصنام، و تجيبون رسوله الذى أرسله إليكم إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ أى: إنى لكم رسول من اللّه أمين فيما أبلغكم عنه، و قيل: أمين فيما بينكم، فإنهم كانوا قد عرفوا أمانته و صدقه فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ أى: اجعلوا طاعة اللّه وقاية لكم من عذابه، و أطيعون فيما آمركم به عن اللّه من الإيمان به، و ترك الشرك، و القيام بفرائض الدين وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ أى: ما أطلب منكم أجرا على تبليغ الرسالة و لا أطمع فى ذلك منكم إِنْ أَجْرِيَ الذى أطلبه و أريده إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ أى: على اللّه، ما أجرى إلا عليه، و كرّر قوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ للتأكيد و التقرير فى النفوس، مع كونه علق كل واحد منهم بسبب، و هو الأمانة فى الأوّل، و قطع الطمع فى الثانى، و نظيره قولك: ألا تتقى اللّه فى عقوقى و قد ربيتك صغيرا، ألا تتقى اللّه فى عقوقى، و قد علمتك كبيرا، و قدّم الأمر بتقوى اللّه على الأمر بطاعته، لأن تقوى اللّه علة لطاعته قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ الاستفهام: للإنكار، أى: كيف نتبعك و نؤمن لك، و الحال أن قد اتبعك الأرذلون، و هم جمع أرذل، و جمع التكسير: أرذال، و الأنثى: رذلى، و هم الأقلون جاها، و مالا، و الرذالة: الخسة و الذلة، استرذلوهم لقلة أموالهم و جاههم، أو لاتّضاع أنسابهم. و قيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة، و قد تقدم تفسير هذه الآيات فى هود. و قرأ ابن مسعود و الضحاك و يعقوب الحضرمى «و أتباعك الأرذلون» قال النحاس:

و هى قراءة حسنة، لأن هذه الواو تتبعها الأسماء كثيرا. و أتباع: جمع تابع، فأجابهم نوح بقوله: وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ كان زائدة، و المعنى: و ما علمى بعملهم، أى: لم أكلف العلم بأعمالهم، إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان و الاعتبار به، لا بالحرف و الصنائع، و الفقر و الغنى، و كأنهم أشاروا بقولهم:

وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ إلى أن إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح فأجابهم بهذا. و قيل المعنى: إنى لم أعلم أن اللّه سيهديهم و يضلكم إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ أى: ما حسابهم، و التفتيش عن ضمائرهم و أعمالهم إلا على اللّه لو كنتم من أهل الشعور و الفهم، قرأ الجمهور تَشْعُرُونَ بالفوقية، و قرأ ابن أبى عبلة و ابن السميقع و الأعرج و أبو زرعة بالتحتية، كأنه ترك الخطاب للكفار و التفت إلى الإخبار عنهم. قال الزجاج: و الصناعات لا تضرّ فى باب الديانات و ما أحسن ما قال: وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ هذا جواب من نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ أى: ما أنا إلا نذير موضح لما أمرنى اللّه سبحانه بإبلاغه إليكم، و هذه الجملة كالعلة لما قبلها قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ أى: إن لم تترك عيب ديننا و سبّ آلهتنا لتكونن من المرجومين بالحجارة، و قيل: من

فتح القدير، ج‏4، ص: 127

المشتومين، و قيل: من المقتولين، فعدلوا بعد تلك المحاورة بينهم و بين نوح إلى التجبر، و التوعد، فلما سمع نوح قولهم هذا: قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ أى: أصرّوا على تكذيبى، و لم يسمعوا قولى و لا أجابوا دعائى فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً الفتح: الحكم، أى: أحكم بينى و بينهم حكما، و قد تقدّم تحقيق معنى الفتح وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فلما دعا ربه بهذا الدعاء استجاب له فقال: فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ أى: السفينة المملوءة، و الشحن: ملء السفينة بالناس، و الدوابّ، و المتاع ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ أى: ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً أى: علامة، و عبرة عظيمة وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ كان زائدة عند سيبويه و غيره على ما تقدّم تحقيقه وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى: القاهر لأعدائه، الرحيم بأوليائه كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ أنث الفعل باعتبار إسناده إلى القبيلة، لأن عادا اسم أبيهم الأعلى. و معنى تكذيبهم المرسلين، مع كونهم لم

يكـذبوا إلا رسولا واحـدا، قد تقدّم وجهه فى قصة نوح قريبا إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ الكلام فيه كالكلام فى قول نوح المتقـدم قريبا، و كـذا قوله: إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ الكلام فيه كالذى قبله سواء. أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ الريع:

المكان المرتفع من الأرض جمع ريعة، يقال كم ريع أرضك؟ أى: كم ارتفاعها. قال أبو عبيدة: الريع: الارتفاع جمع ريعة. و قال قتـادة و الضـحاك و الكلبى: الريع الطريق، و به قال مقاتل و السـدّى. و إطلاق الريع على ما ارتفع من الأرض معروف عنـد أهل اللغة، و منه قول ذى الرمة:

طراق الخوافى مشرق فوق ريعةندى ليله فى ريشه يترقرق

و قيل: الريع الجبل، واحده: ريعة، و الجمع: أرياع. و قال مجاهد: هو الفجّ بين الجبلين، و روى عنه أنه الثنية الصـغيرة، و روى عنه أيضـا أنه المنظرة. و معنى الآيـة: أنكم تبنون بكـل مكـان مرتفع علمـا تعبثون ببنيـانه، و تلعبون بالمارة، و تسـخرون منهم، لأنكم تشرفون من ذلـك البنـاء المرتفع على الطريق فتؤذون المارة، و تسـخرون منهم. و قال الكلبى: إنه عبث العشارين بأموال من يمرّ بهم حكاه الماوردى. قال ابن الأعرابى:

الريع: الصومعة، و الريع: البرج يكون فى الصـحراء، و الريع: التـلّ العالى، و فى الريع لغتان كسـر الراء و فتحها وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ المصانع: هى الأبنية التى يتخذها الناس منازل. قال أبو عبيدة: كل بناء مصنعة منه و به قال الكلبى و غيره، و منه قول الشاعر:

تركنا ديارهم منهم قفاراو هدّمنا المصانع و البروجا

و قيـل: هى الحصون المشـيدة، قاله مجاهـد و غيره، و قال الزجاج: إنها مصانع الماء التى تجعل تحت الأرض واحـدتها مصـنعة و مصنع، و منه قول لبيد:

بلينا و ما تبلى النجوم الطّوالعو تبقى الجبال بعدنا و المصانع

و ليس فى هذا البيت ما يدلّ صريحا على ما قاله الزجاج، و لكنه قال الجوهرى: المصنعة بضمّ النون الحوض

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۲۸

يجمع فيه ماء المطر، و المصانع: الحصون. و قال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن: القصور العالية.

و معنى لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ راجين أن تخلـدوا، و قيل: إن لعل هنا للاسـتفهام التوبيخى، أى: هل تخلـدون، كقولهم لعلك تشـتمنى، أى: هل تشتمنى. و قال الفراء: كيما تخلدوا: لا تتفكرون فى الموت، و قيل المعنى:

كـأنكم بـاقون مخلـدون. قرأ الجمهور تَخْلُدُونَ مخففـا. و قرأ قتـادة بالتشديـد. و حكى النحـاس أن فى بعض القراءات «كـأنّكم مخلدون» و قرأ ابن مسعود «كى تخلدوا» وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ البطش السطوة و الأخذ بالعنف. قال مجاهد و غيره: البطش العسف قتلا بالسيف و ضربا بالسوط. و المعنى:

فعلتم ذلـك ظلمـا، و قيل: هو القتل على الغضب، قال الحسن و الكلبى: قيل و التقـدير: و إذا أردتم البطش، لئلا يتحـد الشـرط و الجزاء، و انتصـاب جبـارين: على الحال. قال الزجاج: إنما أنكر عليهم ذلك لأنه ظلم، و أما فى الحق، فالبطش بالسوط و السـيف جـائز. ثم لمـا وصـفهم بهـذه الأوصـاف القبيحـة الدالـة على الظلم، و العتوّ، و التمرّد، و التجبر، أمرهم بالتقوى فقال: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ أجمل التقوى ثم فصلها بقوله:

وَ اتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ و أعـاد الفعـل للتقرير و التأكيـد وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ أى: بساتين، و أنهار، و أبيار. ثم و عظهم و حـذرهم فقال: إِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إن كفرتم و أصـررتم على ما أنتم فيه و لم تشـكروا هذه النعم، و المراد بالعذاب العظيم الدنيوى و الأخروى.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ أى: أ نصدّقك؟. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قال: الحوّاكون «١». و أخرج أيضا عن قتادة قال: سفلة الناس و أراذلهم.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ قال: الممتلئ. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أنه قال: أ تدرون ما المشحون؟ قلنا: لا، قال: هو الموقر.

و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: هو المثقل. و أخرج ابن جرير عنه أيضا: بِكُلِّ رِيعٍ قال: علما تَعْبَثُونَ قال: تلعبون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا بِكُلِّ رِيعٍ قال:

شرف. و أخرجوا أيضا عنه لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ قال: كأنكم تخلدون. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا جَبَّارِينَ قال: أقوياء.

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٣٦ الى ١٥٩]

قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (١٤٤) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٤٥)

أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (١٤٧) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (١٤٨) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (١٥٠)

وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥)

وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

---

(١). جمع حائك و هو الخياط. و كان أتباع النبى نوح عليه السلام حاكة و حجّامين.

أى: وعظك و عدمه سَواءٌ عندنا لا نبالى بشى‌ء منه، و لا نلتفت إلى ما تقوله. و قد روى العباس عن أبى عمرو، و روى بشر عن الكسائى «أ وعظت» بإدغام الظاء فى التاء و هو بعيد، لأن حرف الظاء حرف إطباق، إنما يدغم فيما قرب منه جدّا. و روى ذلك عن عاصم و الأعمش و ابن محيصن. و قرأ الباقون بإظهار الظاء إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ أى: ما هذا الذى جئتنا به، و دعوتنا إليه من الدين إلا خلق الأوّلين، أى: عادتهم التى كانوا عليها. و قيل المعنى: ما هذا الذى نحن عليه إلا خلق الأوّلين، و عادتهم، و هذا بناء على ما قاله الفراء و غيره: إن معنى خلق الأوّلين. قال النحاس: خلق الأوّلين عند الفراء بمعنى: عادة الأوّلين. و حكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال: خُلُقُ الْأَوَّلِينَ مذهبهم و ما جرى عليه أمرهم. و القولان متقاربان. قال: و حكى لنا محمد بن يزيد أن معنى: خُلُقُ الْأَوَّلِينَ تكذيبهم. قال مقاتل: قالوا ما هذا الذى تدعونا إليه إلا كذب الأوّلين. قال الواحدى: و هو قول ابن مسعود و مجاهد. قال: و الخلق و الاختلاق الكذب، و منه قوله: وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً «١» قرأ ابن كثير و أبو عمرو و الكسائى و يعقوب «خلق الأوّلين» بفتح الخاء و سكون اللام. و قرأ الباقون بضم الخاء و اللام. قال الهروى:

معناه على القراءة الأولى: اختلاقهم و كذبهم، و على القراءة الثانية: عادتهم، و هذا التفصيل لا بدّ منه. قال ابن الأعرابى: الخلق: الدين، و الخلق: الطبع، و الخلق: المروءة. و قرأ أبو قلابة بضم الخاء و سكون اللام و هى تخفيف لقراءة الضم لهما، و الظاهر أن

المراد بالآية: هو قول من قال: ما هذا الذى نحن عليه إلا عادة الأوّلين و فعلهم، و يؤيده قولهم: وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ أى: على ما نفعل من البطش و نحوه مما نحن عليه الآن فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ أى: بالريح كما صرح القرآن فى غير هذا الموضع بذلك إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ تقدّم تفسير هذا قريبا فى هذه السورة. ثم لما فرغ سبحانه من ذكر قصة هود و قومه، ذكر قصة صالح و قومه، و كانوا يسكنون الحجر فقال: كَذَّبَتْ ثَمُودُ إلى قوله: إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ قد تقدّم تفسيره فى قصة هود المذكورة قبل هذه القصة أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ الاستفهام للإنكار، أى: أ تتركون فى هذه النعم التى أعطاكم اللّه، آمنين من الموت و العذاب، باقين فى الدنيا. و لما أبهم النعم فى هذا فسرها بقوله: فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ و الهضيم: النضيج الرخص اللين اللطيف، و الطلع: ما يطلع من الثمر، و ذكر النخل مع دخوله تحت الجنات، لفضله على سائر الأشجار، و كثيرا ما يذكرون الشىء الواحد بلفظ يعمه و غيره، كما يذكرون النعم، و لا يقصدون إلا الإبل، و هكذا يذكرون الجنة، و لا يريدون إلا النخل. قال زهير:

---

(١). العنكبوت: ١٧.

فتح القدير، ج۴، ص: ١٣٠ كأنّ عينىّ فى غربى مقتّلةمن النّواضح تسقى جنّة سحقا

و سحقا: جمع سحوق، و لا يوصف به إلا النخل، و قيل: المراد بالجنات غير النخل من الشجر، و الأوّل: أولى. و حكى الماوردى فى معنى هضيم اثنى عشر قولا: أحسنها و أوفقها للغة ما ذكرناه وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ النحت: النّجر و البرى، نحته ينحته بالكسر براه، و النحاتة: البراية، و كانوا ينحتون بيوتهم من الجبال، لما طالت أعمارهم، و تهدّم بناؤهم من المدر. قرأ ابن كثير و أبو عمرو و ابن ذكوان «فرهين» بغير ألف. و قرأ الباقون «فارهين» بالألف. قال أبو عبيدة و غيره: و هما بمعنى واحد. و الفره:

النشاط، و فرّق بينهما أبو عبيد و غيره فقالوا: «فارهين»: حاذقين بنحتها، و قيل: متجبرين، و «فرهين»: بطرين أشرين، و به قال مجاهد و غيره. و قيل: شرهين. و قال الضحاك: كيسين. و قال قتادة: معجبين ناعمين آمنين، و به قال الحسن. و قيل: فرحين، قاله الأخفش. و قال ابن زيد: أقوياء فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ أى: المشركين، و قيل: الذين عقروا الناقة، ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله: الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ أى: ذلك دأبهم يفعلون الفساد فى الأرض و لا يصدر منهم الصلاح ألبتة قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ أى: الذين أصيبوا بالسحر قاله مجاهد و قتادة. و قيل: المسحر هو المعلل بالطعام و الشراب قاله الكلبى و غيره، فيكون المسحر الذى له سحر، و هو الرئة، فكأنهم قالوا: إنما أنت بشر مثلنا، تأكل، و تشرب. قال الفراء: أى إنك تأكل الطعام و الشراب، و تسحر به، و منه قول امرئ القيس أو لبيد «١»:

فإن تسألينا فيم نحن فإنّناعصافير من هذا الأنام المسحّر

و قال امرؤ القيس أيضا:

أرانا موضعين لحتم غيبو نسحر بالطّعام و بالشّراب

قال المؤرج: المسحر: المخلوق بلغة ربيعة ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى قولك و دعواك قالَ هذِهِ ناقَةٌ اللّه لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ أى: لها نصيب من الماء، و لكم نصيب منه معلوم، ليس لكم أن تشربوا فى اليوم الذى هو نصيبها، و لا هى تشرب فى اليوم الذى هو نصيبكم. قال الفراء: الشرب الحظ من الماء. قال النحاس: فأما المصدر، فيقال فيه شرب شربا، و أكثرها المضموم، و الشرب: بفتح الشين جمع شارب، و المراد هنا الشرب بالكسر، و به قرأ الجمهور فيهما، و قرأ ابن أبى عبلة بالضم فيهما وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ أى: لا تمسوها بعقر، أو ضرب، أو شىء مما يسوؤها، و

جواب النهى: فيأخذكم فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ على عقرها، لما عرفوا أن العذاب نازل بهم، و ذلك أنه أنظرهم ثلاثا، فظهرت عليهم العلامة فى كلّ يوم، و ندموا حيث لا ينفع الندم، لأن ذلك لا يجدى عند معاينة العذاب، و ظهور آثاره فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ الذى وعدهم به. و قد تقدّم تفسير قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ فى

---

(۱). البيت فى ديوان لبيد ص (۵۶)

هذه السورة، و تقدّم أيضا تفسير قصة صالح و قومه فى غير هذه السورة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ قال: معشب.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: أينع و بلغ. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: أرطب و استرخى.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فارِهِينَ قال: حاذقين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: فارِهِينَ أشرين. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: شرهين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الخطيب و ابن عساكر من طرق عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ قال: من المخلوقين، و أنشد قول لبيد بن ربيعة:

فإن تسألينا فيم نحن .. البيت.

و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا فى قوله: لَها شِرْبٌ قال: إذا كان يومها أصدرتهم لبنا ما شاؤوا.

[سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۶۰ الى ۱۹۱]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (۱۶۰) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۶۱) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۶۲) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۶۳) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۶۴)

أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (۱۶۵) وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (۱۶۶) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (۱۶۷) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (۱۶۸) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (۱۶۹)

فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (۱۷۰) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (۱۷۱) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (۱۷۲) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (۱۷۳) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷۴)

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۷۵) كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (۱۷۶) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۷۷) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۷۸) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۷۹)

وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۸۰) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (۱۸۱) وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (۱۸۲) وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۱۸۳) وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (۱۸۴)

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (۱۸۵) وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (۱۸۶) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۱۸۷) قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (۱۸۸) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۸۹) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۹۰) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۹۱)

ذكر سبحانه القصة السادسة من قصص الأنبياء مع قومهم، و هى: قصة لوط. و قد تقدّم تفسير قوله:

إِذْ قالَ لَهُمْ إلى قوله: إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ فى هذه السورة، و تقدّم أيضا تفسير قصة لوط مستوفى فى الأعراف، قوله: أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ الذكران: جمع الذكر، ضدّ الأنثى، و معنى تأتون:

تنكحون الذكران من العالمين، و هم بنو آدم، أو كل حيوان، و قد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدّم

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۳۲

فى الأعراف وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ أى: و تتركون ما خلقه اللّه لأجل استمتاعكم به من النساء، و أراد بالأزواج: جنس الإناث بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ أى: مجاوزون للحدّ فى جميع المعاصى، و من جملتها هذه المعصية التى ترتكبونها من الذكران قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ عن الإنكار علينا، و تقبيح أمرنا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ من بلدنا المنفيين عنها قالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ و هو ما أنتم فيه من إتيان الذكران مِنَ الْقالِينَ المبغضين له، و القلى: البغض، قليته أقليه قلا و قلاء، و منه قول الشاعر:

فلست بمقلىّ الخلال و لا قالى «۱» و قال الآخر:

و مالك عندى إن نأيت قلاء «۲» ثم رغب عليه الصلاة و السلام عن محاورتهم، و طلب من اللّه عزّ و جلّ أن ينجيه فقال: رَبِّ نَجِّنِى وَ أَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ أى من عملهم الخبيث، أو من عقوبته التى ستصيبهم، فأجاب اللّه سبحانه دعاءه، و قال: فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ أى أهل بيته، و من تابعه على دينه، و أجاب دعوته إِلَّا عَجُوزاً فِى الْغابِرِينَ هى امرأة لوط، و معنى من الغابرين: من الباقين فى العذاب. و قال أبو عبيدة: من الباقين فى الهرم، أى: بقيت حتى هرمت. قال النحاس: يقال للذّاهب غابر، و للباقى غابر. قال الشاعر:

لا تكسع الشّول بأغبارهاإنّك لا تدرى من النّاتج

و الأغبار: بقية الألبان، و تقول العرب: ما مضى و ما غبر، أى: ما مضى و ما بقى ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ أى: أهلكناهم بالخسف و الحصب وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً يعنى: الحجارة فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ المخصوص بالذمّ محذوف، و التقدير: مطرهم، و قد تقدّم تفسير إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ فى هذه السورة كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ قرأ نافع و ابن كثير و ابن عامر «ليكة» بلام واحدة و فتح التاء جعلوه اسما غير معرّف بأل مضافا إليه أصحاب، و قرأ الباقون «الأيكة» معرفا، و الأيكة: الشجر الملتف، و هى الغيضة، و ليكة: اسم للقرية، و قيل: هما بمعنى واحد اسم للغيضة. قال القرطبى: فأما ما حكاه أبو عبيد من أن ليكة اسم القرية التى كانوا فيها، و أن الأيكة اسم البلد كله، فشىء لا يثبت، و لا يعرف من قاله، و لو عرف لكان فيه نظر، لأن أهل العلم جميعا على خلافه. قال أبو علىّ الفارسى: الأيكة تعريف أيكة، فإذا حذفت الهمزة تخفيفا ألقيت حركتها على اللام.

قال الخليل: الأيكة غيضة تنبت السدر و الأراک و نحوهما من ناعم الشجر إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ

---

(۱). البيت لامرئ القيس، و صدره:

صرفت الهوى عنهنّ من خشية الرّدى

(۲). البيت للحارث بن حلّزة، و صدره:

عليک السّلام لا مللت قريبة

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۳۳

لم يقل أخوهم كما قال فى الأنبياء قبله، لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة فى النسب، فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيبا، لأنه كان منهم، و قد مضى تحقيق نسبه فى الأعراف، و قد تقدم تفسير قوله: إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ إلى قوله تعالى: إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ

فى هذه السورة. قوله: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ أى أتمّوا الكيل لمن أراده و عامل به، و لا تكونوا من المخسرين: الناقصين للكيل و الوزن، يقال أخسرت الكيل و الوزن: أى نقصته، و منه قوله تعالى: وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ «۱» ثم زاد سبحانه فى البيان فقال: وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ أى: أعطوا الحقّ بالميزان السوىّ، و قد مرّ بيان تفسير هذا فى سورة سبحان، و قد قرئ «بالقسطاس» مضموما و مكسورا وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ البخس: النقص، يقال بخسه حقه: إذا نقصه، أى: لا تنقصوا الناس حقوقهم التى لهم، و هذا تعميم بعد التخصيص، و قد تقدّم تفسيره فى سورة هود، و تقدّم أيضا تفسير وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فيها، و فى غيرها. وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ قرأ الجمهور بكسر الجيم و الباء و تشديد اللام، و قرأ أبو حصين و الأعمش و الحسن و الأعرج و شيبة بضمهما و تشديد اللام، و قرأ السلمى بفتح الجيم مع سكون الباء، و الجبلة: الخليقة، قاله مجاهد و غيره، يعنى: الأمم المتقدّمة، يقال: جبل فلان على كذا، أى: خلق.

قال النحاس: الخلق يقال له جبلة بكسر الحرفين الأوّلين، و بضمهما مع تشديد اللام فيهما، و بضم الجيم و سكون الباء، و ضمه و فتحها، قال الهروى: الجبلة و الجبلة و الجبل و الجبل لغات، و هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس، و منه قوله تعالى: جِبِلًّا كَثِيراً أى: خلقا كثيرا، و من ذلك قول الشاعر:

و الموت أعظم حادثفيما يمرّ على الجبلّة

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا قد تقدّم تفسيره مستوفى فى هذه السورة وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ إن: هى المخففة من الثقيلة، عملت فى ضمير شأن مقدّر، و اللام: هى الفارقة، أى: فيما تدّعيه علينا من الرسالة، و قيل: هى النافية، و اللام: بمعنى إلا، أى: ما نظنك إلا من الكاذبين، و الأوّل: أولى فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ كان شعيب يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا، فقالوا له هذا القول عنتا و استبعادا و تعجيزا. و الكسف: القطعة. قال أبو عبيدة: الكسف: جمع كسفة، مثل سدر و سدرة. قال الجوهرى: الكسفة القطعة من الشىء، يقال: أعطنى كسفة من ثوبك، و الجمع كسف، و قد مضى تحقيق هذا فى سورة سبحان إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواك قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ من الشرك و المعاصى، فهو مجازيكم على ذلك إن شاء، و فى هذا تهديد شديد فَكَذَّبُوهُ فاستمروا على تكذيبه و أصرّوا على ذلك فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ و الظلة: السحاب، أقامها اللّه فوق رؤسهم، فأمطرت عليهم نارا فهلكوا، و قد أصابهم اللّه بما اقترحوا، لأنهم إن أرادوا بالكسف القطعة من السحاب فظاهر، و إن أرادوا بها القطعة من السماء، فقد نزل عليهم العذاب من جهتها، و أضاف العذاب إلى يوم الظلة، لا إلى الظلة تنبيها على أن لهم فى ذلك اليوم عذابا غير عذاب الظلة، كذا قيل. ثم وصف سبحانه

____

(۱). المطففين: ۳.

هذا العذاب الذى أصابهم بقوله: إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ لما فيه من الشدّة عليهم التى لا يقادر قدرها، و قد تقدّم تفسير قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ فى هذه السورة مستوفى فلا نعيده، و فى هذا التكرير لهذه الكلمات فى آخر هذه القصص من التهديد، و الزجر، و التقرير، و التأكيد ما لا يخفى على من يفهم مواقع الكلام، و يعرف أساليبه.

و قد أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ قال: تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال، و أدبار النساء. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة نحوه. و أخرجا أيضا عن قتادة إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ قال: هى امرأة لوط غبرت فى عذاب اللّه. و أخرج عبد بن حميد

عن مجاهد «ليكة» قال: هى الأيكة. و أخرج إسحاق بن بشر و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ قال: كانوا أصحاب غيضة من ساحل البحر إلى مدين إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ و لم يقل أخوهم شعيب.

لأنه لم يكن من جنسهم أَ لا تَتَّقُونَ كيف لا تتقون و قد علمتم أنى رسول أمين، لا تعتبرون من هلاك مدين، و قد أهلكوا فيما يأتون، و كان أصحاب الأيكة مع ما كانوا فيه من الشرك استنوا بسنة أصحاب مدين، فقال لهم شعيب إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ وَ ما أَسْئَلُكُمْ على ما أدعوكم إليه مِنْ أَجْرٍ فى العاجل من أموالكم إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ يعنى القرون الأولين الذى أهلكوا بالمعاصى و لا تهلكوا مثلهم قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ يعنى من المخلوقين وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ يعنى: قطعا من السماء فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ أرسل اللّه إليهم سموما من جهنم، فأطاف بهم سبعة أيام حتى أنضجهم الحر، فحميت بيوتهم، و غلت مياههم فى الآبار، و العيون، فخرجوا من منازلهم و محلتهم هاربين، و السموم معهم، فسلط اللّه عليهم الشمس من فوق رؤوسهم، فغشيتهم حتى تقلقلت فيها جماجمهم، و سلط اللّه عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم، حتى تساقطت لحوم أرجلهم، ثم نشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء، فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها، حتى إذا كانوا جميعا أطبقت عليهم، فهلكوا، و نجى اللّه شعيبا و الذين آمنوا معه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ الخلق الأوّلين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم عنه أيضا أنه سئل عن قوله: فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ قال: بعث اللّه عليهم حرّا شديدا فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم أجوافها، فأخذ بأنفسهم، فخرجوا من البيوت هربا إلى البرية، فبعث اللّه عليهم سحابة، فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها بردا و لذة، فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها، أسقط اللّه عليهم نارا، فذلك عذاب يوم الظلة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الحاكم عنه أيضا قال: من حدّثك من العلماء عذاب يوم الظلة فكذبه. أقول: فما نقول له رضى اللّه عنه فيما حدّثنا به من ذلك مما نقلناه عنه هاهنا؟ و يمكن أن يقال إنه لما كان هو البحر الذى علمه اللّه تأويل كتابه بدعوة نبيه صلّى اللّه عليه و سلم كان مختصا بمعرفة هذا الحديث دون غيره

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۳۵

من أهل العلم، فمن حدث بحديث عذاب الظلة على وجه غير هذا الوجه الذى حدّثنا به فقد وصانا بتكذيبه، لأنه قد علمه و لم يعلمه غيره.

[سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۹۲ الى ۲۲۷]

وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۹۲) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (۱۹۳) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (۱۹۴) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (۱۹۵) وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (۱۹۶)

أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (۱۹۷) وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (۱۹۸) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (۱۹۹) كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (۲۰۰) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۲۰۱)

فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۲۰۲) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (۲۰۳) أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (۲۰۴) أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ (۲۰۵) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ (۲۰۶)

ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ (۲۰۷) وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ (۲۰۸) ذِكْرى وَ ما كُنَّا ظالِمِينَ (۲۰۹) وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (۲۱۰) وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ وَ ما يَسْتَطِيعُونَ (۲۱۱)

إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (۲۱۲) فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (۲۱۳) وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (۲۱۴) وَ

اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١۵) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١۶)
وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (٢٢١)
تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (٢٢٣) وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (٢٢۴) أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (٢٢۵) وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (٢٢۶)
إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

قوله: وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ الضمير يرجع إلى ما نزله عليه من الأخبار، أى: و إن هذه الأخبار، أو و إن القرآن و إن لم يجر له ذكر للعلم به، قيل: و هو على تقدير مضاف محذوف، أى: ذو تنزيل، و أما إذا كان تنزيل: بمعنى منزل، فلا حاجة إلى تقدير مضاف. قرأ نافع و ابن كثير و أبو عمرو و حفص عن عاصم نَزَلَ مخففا، و قرأه الباقون مشدّدا، و الرُّوحُ الْأَمِينُ على القراءة الثانية منصوب على أنه مفعول به، و قد اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد، و الروح الأمين جبريل، كما فى قوله: قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ «١» أنه تلاه على قلبه، و وجه تخصيص القلب، لأنه أوّل مدرك من الحواس الباطنة. قال أبو حيان: إن على قلبك و لتكون متعلقان بنزل، و قيل: يجوز أن يتعلقا بتنزيل، و الأوّل: أولى، قرئ نزّل مشدّدا مبنيا للمفعول و الفاعل هو اللّه تعالى، و يكون الروح على هذه القراءة مرفوعا على النيابة لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ علة للإنزال، أى: أنزله لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات و الإنذار و العقوبات بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ متعلق بالمنذرين، أى: لتكون من المنذرين بهذا اللسان، و جوّز أبو البقاء أن يكون بدلا من «ربه»، و قيل: متعلق بنزل، و إنما أخر للاعتناء بذكر الإنذار، و إنما جعل اللّه سبحانه القرآن عربيا،

---

(١). البقرة: ٩٧.

بلسان الرسول العربى، لئلا يقول مشركو العرب لسنا نفهم ما تقوله بغير لساننا، فقطع بذلك حجتهم و أزاح علتهم و دفع معذرتهم وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ أى: هذا القرآن باعتبار أحكامه التى أجمعت عليها الشرائع فى كتب الأوّلين من الأنبياء، و الزبر: الكتب، الواحد: زبور، و قد تقدم الكلام على تفسير مثل هذا.
و قيل: الضمير لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و قيل: المراد بكون القرآن فى زبر الأوّلين أنه مذكور فيها هو نفسه، لا ما اشتمل عليه من الأحكام، و الأوّل: أولى أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ الهمزة:
للإنكار، و الواو: للعطف على مقدّر، كما تقدّم مرارا، و الآية: العلامة و الدلالة، أى: ألم يكن لهؤلاء علامة دالة على أن القرآن حق، و أنه تنزيل ربّ العالمين. و أنه فى زبر الأوّلين. أن يعلمه علماء بنى إسرائيل على العموم، أو من آمن منهم عبد اللّه بن سلام، و إنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين، لأنهم كانوا يرجعون إليهم و يصدّقونهم. قرأ ابن عامر «تكن» بالفوقية، و آية بالرفع على أنها اسم كان، و خبرها: أن يعلمه إلخ، و يجوز أن تكون تامة، و قرأ الباقون «يكن» بالتحتية، و آية بالنصب على أنها خبر يكن، و اسمها أن يعلمه لهم قال الزجاج: أن يعلمه: اسم يكن، و آية: خبره. أو لم يكن لهم علم علماء بنى إسرائيل، أن محمدا نبىّ حقّ علامة و دلالة على نبوّته، لأن العلماء الذين آمنوا من بنى إسرائيل، كانوا يخبرون بوجود ذكره فى كتبهم، و كذا قال الفراء، و وجهها قراءة الرفع بما ذكرنا. و فى قراءة ابن عامر نظر، لأن جعل النكرة اسما و المعرفة خبرا غير سائغ، و إن ورد شاذا فى مثل قول الشاعر:
فلا يك موقف منك الوداعا و قول الآخر:

و كـان مزاجهـا عسـل و مـاء و لاـ وجه لما قيل: إن النكرة قـد تخصـصت بقولهم: «لهم» لأنه فى محل نصب على الحال، و الحال صفة فى المعنى؛ فأحسن ما يقال فى التوجيه: ما قدّمنا ذكره من أن يكن تامة وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ أى: لو نزلنا القرآن على الصـفة التى هو عليها، على رجل من الأعجمين، الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ قراءة صحيحة ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ مع انضـمام إعجـاز القراءة من الرجـل الأـعجمى للكلاـم العربىّ إلى إعجـاز القرآن. و قيل المعنى: و لو نزّلناه على بعض الأعجمين بلغـة العجم، فقرأه عليهم بلغته لم يؤمنوا به، و قالوا: ما نفقه هـذا و لا نفهمه، و مثل هـذا قوله: وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ «١» يقال: رجل أعجم و أعجمىّ: إذا كان غير فصيح اللسان، و إن كان عربيا، و رجل عجمى:
إذا كـان أصـله من العجم، و إن كان فصـيحا، إلا أن الفراء أجاز أن يقال: رجل عجمىّ: بمعنى أعجمىّ و قرأ الحسن «على بعض الأعجميين» و كذلك قرأ الجحدرى. قال أبو الفتح بن جنى: أصل الأعجمين:
الأعجميين، ثم حذفت ياء النسب، و جعل جمعه بالياء و النون دليلا عليها كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ

---

(١). فصلت: ۴۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۳۷

أى: مثـل ذلـك السـلك سـلكناه، أى: أدخلنـاه فى قلوبهم، يعنى: القرآن حتى فهموا معانيه، و عرفوا فصاحته، و أنه معجز. و قال الحسن و غيره: سـلكنا الشـرك، و التكذيب، فى قلوب المجرمين. و قال عكرمة: سـلكناه القسوة. و الأوّل: أولى، لأن السـياق فى القرآن و جملة لا يُؤْمِنُونَ تحتمل على وجهين:
الأوّل: الاستئناف على جهة البيان، و الإيضاح لما قبلها، و الثانى: أنها فى محل نصب على الحال من الضـمير فى سـلكناه، و يجوز أن يكون حالا من المجرمين. و أجاز الفراء الجزم فى لا يؤمنون، لأنه فيه معنى الشرط و المجازاة، و زعم أن من شأن العرب، إذا وضـعت لاـ موضع كيلا مثل هـذا ربما جزمت ما بعـدها، و ربما رفعت، فتقول ربطت الفرس لا ينفلت بالرفع، و الجزم، لأن معناه: إن لم أربطه ينفلت، و أنشد لبعض بنى عقيل:
و حتّى رأينا أحسن الفعل بيننامساكنة لا يقرف الشّرّ قارف
بالرفع، و من الجزم قول الآخر:
لطالما حلّأتماها لا تردفخلّياها و السّجال تبترد «١»
قال النحاس: و هذا كله فى لا يؤمنون، خطأ عند البصريين، و لا يجوز الجزم بلا جازم حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ أى: لا يؤمنون إلى هـذه الغايـة، و هى مشاهـدتهم للعـذاب الأـليم فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً أى: فجـأة «و» الحـال أنّهم لاـ يَشْعُرُونَ بإتيـانه، و قرأ الحسن فتأتيهم بالفوقيـة، أى: الساعـة، و إن لم يتقدّم لها ذكر، لكنه قد دلّ العذاب عليها فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ أى: مؤخرون و ممهلون. قالوا هذا تحسرا على ما فات من الإيمان، و تمنيا للرجعة إلى الدنيا، لاستدراك ما فرط منهم. و قيل: إن المراد بقولهم:
هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ الاسـتعجال للعذاب على طريقة الاستهزاء لقوله: أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ و لا يخفى ما فى هذا من البعد و المخالفة للمعنى الظـاهر، فـإن معنى هَـلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ طلب النظرة و الإمهـال، و أمـا قـوله: أَ فَبِعَـذابِنا يَسْـتَعْجِلُونَ فـالمراد به الردّ عليهم، و الإنكـار لما وقع منهم من قولهم: فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَـذابٍ أَلِيمٍ «٢» و قولهم: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا* «٣» أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنـاهُمْ سِـنِينَ الاسـتفهام للإنكـار، و الفاء للعطف على مقـدّر يناسب المقام، كما مرّ فى غير موضع، و معنى أ رأيت: أخبرنى، و الخطاب لكل من يصـلح له، أى: أخبرنى إن متعناهم سنين فى الـدنيا متطاولـة، و طوّلنا لهم الأعمار ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَـدُونَ من العذاب و الهلاك ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ ما: هى الاسـتفهامية، و المعنى: أى: شىء أغنى عنهم، كونهم ممتعين ذلك

التمتع الطويل، و «ما» فى ما كانوا يمتعون يجوز أن تكون المصدرية، و يجوز أن تكون الموصولة، و الاستفهام للإنكار التقريرى، و يجوز أن تكون ما الأولى نافية، و المفعول محذوف، أى: لم يغن عنهم تمتيعهم شيئا، و قرئ يمتعون بإسكان الميم، و تخفيف التاء من أمتع اللّه

---

(۱). حلّأها: منعها من ورود الماء. و السّجال: جمع سجل، و هو الدلو الضخمة المملوءة ماء. و تبترد: تشرب الماء لتبرد به كبدها.
(۲). الأنفال: ۳۲.
(۳). الأعراف: ۷۰.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۱۳۸

زيدا بكذا وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ من: مزيدة للتأكيد، أى: و ما أهلكنا قرية من القرى إلا لها منذرون. و جملة إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ يجوز أن تكون صفة لقرية، و يجوز أن تكون حالا منها، و سوّغ ذلك سبق النفى، و المعنى: ما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد الإنذار إليهم، و الإعذار بإرسال الرسل، و إنزال الكتب، و قوله: ذِكْرى بمعنى تذكرة، و هى فى محل نصب على العلة، أو المصدرية. و قال الكسائى:

ذكرى فى موضع نصب على الحال. و قال الفراء و الزجاج: إنها فى موضع نصب على المصدرية، أى: يذكرون ذكرى. قال النحاس: و هذا قول صحيح، لأن معنى إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ إلا لها مذكرون. قال الزجاج:

و يجوز أن يكون ذكرى فى موضع رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: إنذارنا ذكرى، أو ذلك ذكرى.

قال ابن الأنبارى: المعنى هى ذكرى، أو يذكرهم ذكرى، و قد رجح الأخفش أنها خبر مبتدأ محذوف وَ ما كُنَّا ظالِمِينَ فى تعذيبهم، فقد قدّمنا الحجة إليهم و أنذرناهم، و أعذرناهم، و أعذرنا إليهم وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ أى: بالقرآن، و هذا ردّ لما زعمه الكفرة فى القرآن أنه من قبيل ما يلقيه الشياطين على الكهنة وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ ذلك، و لا يصح منهم وَ ما يَسْتَطِيعُونَ ما نسبه الكفار إليهم أصلا إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ للقرآن، أو لكلام الملائكة لَمَعْزُولُونَ محجوبون، مرجومون بالشهب. و قرأ الحسن و ابن السميقع و الأعمش «و ما تنزلت به الشياطين» بالواو و النون إجراء له مجرى جمع السلامة. قال النحاس:

و هذا غلط عند جميع النحويين. قال: و سمعت على بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: هذا من غلط العلماء، و إنما يكون بشبهة لما رأى الحسن فى آخره ياء و نونا، و هو فى موضع رفع اشتبه عليه بالجمع السالم فغلط. قال الفراء: غلط الشيخ: يعنى الحسن، فقيل: ذلك للنضر بن شميل فقال: إن جاز أن يحتجّ بقول رؤبة و العجاج و ذويهما جاز أن يحتج بقول الحسن و صاحبه: يعنى محمد بن السميقع مع أنا نعلم أنهما لم يقرءا بذلك إلا و قد سمعا فيه شيئا. و قال المؤرج: إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه.

قال يونس بن حبيب: سمعت أعرابيا يقول: دخلنا بساتين من ورائها بساتون. ثم لما قرّر سبحانه حقيقة القرآن و أنه منزّل من عنده، أمر نبيه صلّى اللّه عليه و سلم بدعاء اللّه وحده فقال: فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ و خطاب النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم بهذا مع كونه منزّها عنه، معصوما منه، لحث العباد على التوحيد، و نهيهم عن شوائب الشرك، و كأنه قال: أنت أكرم الخلق علىّ، و أعزّهم عندى، و لو اتخذت معى إلها لعذبتك، فكيف بغيرك من العباد وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ خص الأقربين لأن الاهتمام بشأنهم أولى، و هدايتهم إلى الحق أقوم.

قيل: هم قريش، و قيل بنو هاشم. و قد ثبت فى الصحيح أن هذه الآية لما نزلت دعا النبى صلّى اللّه عليه و سلم قريشا، فاجتمعوا فعمّ و خص، فذلك منه صلّى اللّه عليه و سلم بيان للعشيرة الأقربين، و سيأتى بيان ذلك وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ يقال: خفض جناحه إذا ألانه، و فيه استعارة حسنة. و المعنى: ألن جناحک، و تواضع لمن اتبعک من المؤمنين، و أظهر لهم المحبة و الكرامة، و تجاوز عنهم فَإِنْ عَصَوْکَ أى: خالفوا أمرک و لم يتبعوک فَقُلْ إِنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ أى: من عملکم، أو من الذى تعملونه، و هذا يدلّ على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان، المصدّقون باللسان، لأن المؤمنين الخلص لا يعصونه و لا يخالفونه. ثم بين له ما

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۳۹

يعتمد عليه عند عصيانهم له فقال: وَ تَوَکَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ أى: فوّض أمورک إليه، فإنه القادر على قهر الأعداء، و هو الرحيم للأولياء. قرأ نافع و ابن عامر «فتوکل» بالفاء. و قرأ الباقون «و توکل» بالواو، فعلى القراءة الأولى يکون ما بعد الفاء کالجزء مما قبلها مترتبا عليه، و على القراءة الثانية يکون ما بعد الواو معطوفا على ما قبلها، عطف جملة من غير ترتيب الَّذِی يَراکَ حِينَ تَقُومُ أى: حين تقوم إلى الصلاة وحدک فى قول أکثر المفسرين. و قال مجاهد: حين تقوم: حيثما کنت وَ تَقَلُّبَکَ فِی السَّاجِدِينَ أى: و يراک إن صليت فى الجماعة راکعا و ساجدا و قائما، کذا قال أکثر المفسرين. و قيل: يراک فى الموحدين من نبىّ إلى نبىّ حتى أخرجک فى هذه الأمة. و قيل: المراد بقوله: «يراک» حين تقوم قيامه إلى التهجد، و قوله:

وَ تَقَلُّبَکَ فِی السَّاجِدِينَ يريد تردّدک فى تصفح أحوال المجتهدين فى العبادة و تقلب بصرک فيهم، کذا قال مجاهد إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لما تقوله: الْعَلِيمُ به. ثم أکد سبحانه معنى قوله: وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ و بيّنه فقال: هَلْ أُنَبِّئُکُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ أى: على من تتنزّل، فحذف إحدى التاءين، و فيه بيان استحالة تنزّل الشياطين على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاکٍ أَثِيمٍ و الأفاک:

الكثير الإفک، و الأثيم: کثير الإثم، و المراد بهم کل من کان کاهنا، فإن الشياطين کانت تسترق السمع ثم يأتون إليهم فيلقونه إليهم، و هو معنى قوله: يُلْقُونَ السَّمْعَ أى: ما يسمعونه مما يسترقونه، فتکون جملة «يلقون السمع» على هذا راجعة إلى الشياطين فى محل نصب على الحال، أى: حال کون الشياطين ملقين السمع، أى: ما يسمعونه من الملأ الأعلى إلى الکهان. و يجوز أن يکون المعنى: إن الشياطين يلقون السمع:

أى ينصتون إلى الملأ الأعلى ليسترقوا منهم شيئا، و يکون المراد بالسمع على الوجه الأوّل المسموع، و على الوجه الثانى: نفس حاسة السمع. و يجوز أن تکون جملة «يلقون السمع» راجعة إلى کل أفاک أثيم على أنها صفة أو مستأنفة، و معنى الإلقاء أنهم يسمعون ما تلقيه إليهم الشياطين من الکلمات التى تصدق الواحدة منها، و تکذب المائة الکلمة کما ورد فى الحديث، و جملة وَ أَکْثَرُهُمْ کاذِبُونَ راجعة إلى کل أفاک أثيم، أى:

و أکثر هؤلاء الکهنة کاذبون فيما يتلقونه من الشياطين، لأنهم يضمون إلى ما يسمعونه کثيرا من أکاذيبهم المختلفة، أو أکثرهم کاذبون فيما يلقونه من السمع، أى: المسموع من الشياطين إلى الناس، و يجوز أن تکون جملة وَ أَکْثَرُهُمْ کاذِبُونَ راجعة إلى الشياطين، أى: و أکثر الشياطين کاذبون فيما يلقونه إلى الکهنة مما يسمعونه، فإنهم يضمون إلى ذلک من عند أنفسهم کثيرا من الکذب. و قد قيل: کيف يصح على الوجه الأوّل وصف الأفاکين بأن أکثرهم کاذبون بعد ما وصفوا جميعا بالإفک؟ و أجيب بأن المراد بالأفاک الذى يکثر الکذب لا الذى لا ينطق إلا بالکذب، فالمراد بقوله: و أکثرهم کاذبون أنه قلّ من يصدق منهم فيما يحکى عن الشياطين، و الغرض الذى سيق لأجله هذا الکلام، ردّ ما کان يزعمه المشرکون، من کون النبى صلّى اللّه عليه و سلم من جملة من يلقى إليه الشيطان السمع من الکهنة، ببيان أن الأغلب على الکهنة الکذب، و لم يظهر من أحوال محمد صلّى اللّه عليه و سلم إلا الصدق، فکيف يکون کما زعموا، ثم إن هؤلاء الکهنة يعظمون الشياطين. و هذا النبىّ المرسل من عند اللّه برسالته إلى الناس يذمهم و يلعنهم و يأمر بالتعوّذ منهم. ثم لما کان قد قال قائل من

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۴۰

المشركين: إن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم شاعر، بين سبحانه حال الشعراء و منافاة ما هم عليه لما عليه النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقال:

وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ و المعنى: أن الشعراء يتبعهم، أى: يجاريهم و يسلك مسلكهم و يكون من جملتهم الغاوون، أى: الضالون عن الحق، و الشعراء: جمع شاعر، و الغاوون: جمع غاو، و هم ضلال الجن و الإنس. و قيل: الزائلون عن الحق، و قيل: الذى يروون الشعر المشتمل على الهجاء و ما لا يجوز، و قيل:

المراد شعر الكفار خاصة. قرأ الجمهور «و الشعراء» بالرفع على أنه مبتدأ، و خبره ما بعده، و قرأ عيسى بن عمر «الشعراء» بالنصب على الاشتغال، و قرأ نافع و شيبة و الحسن و السلمى يتبعهم بالتخفيف، و قرأ الباقون بالتشديد. ثم بين سبحانه قبائح شعراء الباطل فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ و الجملة مقرّرة لما قبلها، و الخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية، يقال: هام يهيم هيما و هيمانا إذا ذهب على وجهه، أى:

ألم تر أنهم فى كل فنّ من فنون الكذب يخوضون، و فى كل شعب من شعاب الزور يتكلمون، فتارة يمزّقون الأعراض بالهجاء، و تارة يأتون من المجون بكل ما يمجه السمع، و يستقبحه العقل، و تارة يخوضون فى بحر السفاهة، و الوقاحة، و يذمون الحق، و يمدحون الباطل، و يرغبون فى فعل المحرّمات، و يدعون الناس إلى فعل المنكرات، كما تسمعه فى أشعارهم من مدح الخمر، و الزنا، و اللواط، و نحو هذه الرذائل الملعونة، ثم قال سبحانه: وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ أى: يقولون فعلنا و فعلنا، و هم كذبة فى ذلك، فقد يدلون بكلامهم على الكرم، و الخير، و لا يفعلونه، و قد ينسبون إلى أنفسهم من أفعال الشرّ ما لا يقدرون على فعله، كما تجده فى كثير من أشعارهم، من الدعاوى الكاذبة، و الزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات، و أنهم فعلوا بهنّ كذا و كذا، و ذلك كذب محض، و افتراء بحت. ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين، الذين أغلب أحوالهم تحرى الحق، و الصدق فقال: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أى: دخلوا فى حزب المؤمنين، و عملوا بأعمالهم الصالحة، وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً فى أشعارهم وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا كمن يهجو منهم من هجاه، أو ينتصر لعالم، أو فاضل، كما كان يقع من شعراء النبى صلّى اللّه عليه و سلم فإنهم كانوا يهجون من يهجوه، و يحمون عنه، و يذبون عن عرضه، و يكافحون شعراء المشركين، و ينافحونهم، و يدخل فى هذا من انتصر بشعره لأهل السنة، و كافح أهل البدعة، و زيف ما يقوله شعراؤهم، من مدح بدعتهم، و هجو السنة المطهرة، كما يقع ذلك كثيرا من شعراء الرافضة، و نحوهم، فإن الانتصار للحق بالشعر، و تزييف الباطل به، من أعظم المجاهدة، و فاعله من المجاهدين فى سبيل اللّه، المنتصرين لدينه، القائمين بما أمر اللّه بالقيام به.

و اعلم أن الشعر فى نفسه ينقسم إلى أقسام، فقد يبلغ ما لا خير فيه منه إلى قسم الحرام. و قد يبلغ ما فيه خير منه إلى قسم الواجب، و قد وردت أحاديث فى ذمه و ذمّ الاستكثار منه، و وردت أحاديث أخر فى إباحته و تجويزه، و الكلام فى تحقيق ذلك يطول، و سنذكر فى آخر البحث ما ورد فى ذلك من الأحاديث.

ثم ختم سبحانه هذه السورة بآية جامعة للوعيد كله فقال: وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ فإن فى قوله: سَيَعْلَمُ تهويلا عظيما، و تهديدا شديدا، و كذا فى إطلاق الذين ظلموا، و إبهام أىّ منقلب ينقلبون، و خصص هذه الآية بعضهم بالشعراء، و لا وجه لذلك فإن الاعتبار بعموم اللفظ. و قوله: أَيَ

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۴۱

مُنْقَلَبٍ صفة لمصدر محذوف، أى: ينقلبون منقلبا أى منقلب، و قدّم لتضمنه معنى الاستفهام، و لا يعمل فيه سيعلم، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، بل هو معلق عن العمل فيه. و قرأ ابن عباس و الحسن «أى منفلت ينفلتون» بالفاء مكان القاف، و التاء مكان

الباء من الانفلات بالنون و الفاء الفوقية. و قرأ الباقون و الباء، من الانقلاب بالنون، و القاف و الموحدة، و المعنى على قراءة ابن عباس و الحسن: أن الظالمين يطمعون فى الانفلات من عذاب اللّه و الانفكاك منه و لا يقدرون على ذلك.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ قال: هذا القرآن نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ قال: جبريل. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ قال: جبريل. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة و ابن مردويه عنه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله:

الرُّوحُ الْأَمِينُ قال: الروح الأمين: جبريل، رأيت له ستّمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها، فيها مثل ريش الطواويس. و أخرج ابن النجار فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله: بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ قال: بلسان قريش، و لو كان غير عربى ما فهموه. و أخرج الحاكم و صححه و البيهقى فى الشعب عن بريدة فى قوله: بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ قال: بلسان جرهم. و أخرج مثله أيضا عنه ابن المنذر و ابن أبى حاتم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان عبد اللّه بن سلام من علماء بنى إسرائيل، و كان من خيارهم فآمن بكتاب محمد، فقال لهم اللّه أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: «لما نزلت هذه الآية وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قريشا و عمّ و خصّ فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم ضرّا و لا نفعا، يا معشر بنى كعب بن لؤىّ أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرّا و لا نفعا، يا معشر بنى قصىّ أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرّا و لا نفعا، يا معشر بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرّا و لا نفعا، يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرّا و لا نفعا، يا فاطمة بنت محمّد أنقذى نفسك من النّار فإنى لا أملك لك ضرّا و لا نفعا، إلّا أنّ لكم رحما و سأبلّها ببلالها». و فى الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ قال: للصلاة. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ يقول: قيامك و ركوعك و سجودك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ قال: يراك و أنت مع الساجدين تقوم و تقعد معهم. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ قال: كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم إذا قام إلى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه. و منه الحديث فى الصحيحين و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «هل ترون قبلتى هاهنا؟ فو اللّه ما يخفى علىّ خشوعكم و لا ركوعكم، و إنّى لأراكم من وراء ظهرى». و أخرج ابن أبى عمر العدنى فى مسنده و البزار و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ قال: من نبىّ إلى نبىّ حتى أخرجت نبيا. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن

مردويه و أبو نعيم عنه فى الآية نحوه. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن عائشة قالت: «سأل أناس النبى صلّى اللّه عليه و سلم عن الكهان قال: إنهم ليسوا بشى‌ء، قالوا: يا رسول اللّه إنهم يحدّثون أحيانا بالشى‌ء يكون حقا! قال:

تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقذفها فى أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة و فى لفظ للبخارى «فيزيدون معها مائة كذبة». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: تهاجى رجلان على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أحدهما من الأنصار و الآخر من قوم آخرين، و كان مع كلّ واحد مهما غواة من قومه و هم السفهاء، فأنزل اللّه وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ الآيات. و أخرج ابن سعد و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن عروة قال: لما نزلت وَ الشُّعَراءُ إلى قوله: ما لا يَفْعَلُونَ قال عبد اللّه بن رواحة: يا رسول اللّه! قد علم اللّه أنى منهم، فأنزل اللّه إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا إلى قوله: يَنْقَلِبُونَ و روى نحو هذا من طرق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ

قال: هم الكفار يتبعون ضلال الجنّ و الإنس فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ قال: فى كلّ لغو يخوضون وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ أكثر قولهم يكذبون، ثم استثنى منهم فقال: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا قال: ردّوا على الكفار الذين كانوا يهجون المؤمنين. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا وَ الشُّعَراءُ قال: المشركون منهم الذين كانوا يهجون النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ قال: قال غواة الجنّ فى كلّ واد يهيمون فى كلّ فنّ من الكلام يأخذون. ثم استثنى فقال: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا الآية.

يعنى حسان بن ثابت و عبد اللّه بن رواحة و كعب بن مالك كانوا يذبون عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و أصحابه بهجاء المشركين. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه الْغاوُونَ قال: هم الرواة. و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عنه أيضا إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا الآية قال: أبو بكر و عمر و علىّ و عبد اللّه بن رواحة. و أخرج أحمد و البخارى فى تاريخه و أبو يعلى و ابن مردويه عن كعب بن مالك «أنه قال للنبى صلّى اللّه عليه و سلم: إنّ اللّه قد أنزل فى الشّعراء ما أنزل فكيف ترى فيه؟ فقال: إنّ المؤمن يجاهد بسيفه و لسانه، و الذى نفسى بيده لكأنّ ما ترمونهم به نفح النّبل». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد عن أبى سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا».

و أخرج الديلمى عن ابن مسعود مرفوعا الشعراء الذين يموتون فى الإسلام يأمرهم اللّه أن يقولوا شعرا يتغنى به الحور العين لأزواجهنّ فى الجنة، و الذين ماتوا فى الشرك يدعون بالويل، و الثبور فى النار. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ من الشعر لحكمة» قال: و أتاه قريظة بن كعب و عبد اللّه بن رواحة و حسان بن ثابت فقالوا: إنا نقول الشعر و قد نزلت هذه الآية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

اقرءوا فقرؤوا وَ الشُّعَراءُ إلى قوله: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فقال: أنتم هم وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً قال: أنتم هم وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا فقال: أنتم هم. و أخرج ابن سعد و ابن أبى شيبة عن البراء بن عازب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لحسان بن ثابت: اهج المشركين فإنّ جبريل معك.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۴۳

و أخرج ابن سعد عن البراء بن عازب قال: قيل: يا رسول اللّه! إنّ أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك، فقام ابن رواحة فقال: يا رسول اللّه! ائذن لى فيه، فقال: «أنت الذى تقول ثبّت اللّه؟» فقال: نعم يا رسول، قلت:

ثبّت اللّه ما أعطاك من حسنتثبيت موسى و نصرا مثل ما نصرا

قال: «و أنت، ففعل اللّه بك مثل ذلك» ثم وثب كعب فقال: يا رسول اللّه ائذن لى فيه؟ فقال:

«أنت الذى تقول همّت؟» قال: نعم يا رسول اللّه، قلت:

همّت سخينة «۱» أن تغالب ربّهافلتغلبنّ مغالب الغلاب

فقال: «أما إنّ اللّه لم ينس ذلك لك» ثم قام حسان فقال: يا رسول اللّه! ائذن لى فيه، و أخرج لسانا له أسود، فقال: يا رسول اللّه لو شئت لفريت به المراد، ائذن لى فيه، فقال: «اذهب إلى أبى بكر فليحدّثك حديث القوم و أيّامهم و أحسابهم، و اهجهم و جبريل معك». و أخرج أحمد و ابن سعد عن أبى هريرة قال: مرّ عمر بحسان و هو ينشد فى المسجد فلحظ إليه فنظر إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه و فيه من هو خير منك، فسكت ثم التفت حسان إلى أبى هريرة فقال: أنشدك باللّه هل سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «أجب عنى، اللّهمّ أيّده بروح القدس؟» قال: نعم. و أخرج ابن سعد من حديث جابر مرفوعا نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة عن بريدة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ من الشعر حكما و من البيان سحرا». و أخرج مسلم

عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا يريه، خير من أن يمتلئ شعرا». و فى الصحيح من حديث أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا». قال فى الصحاح: ورى القيح جوفه يريه وريا:
إذا أكله. قال القرطبى: روى إسماعيل بن عباس عن عبد اللّه بن عون عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «حسن الشّعر كحسن الكلام و قبيح الشّعر كقبيح الكلام». قال القرطبى:
رواه إسماعيل عن عبد اللّه بن عون الشامى و حديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين و غيره. قال:
و روى عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الشّعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام، و قبيحه كقبيح الكلام». و أخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: هل معك من شعر أميّة بن أبى الصّلت؟ قلت: نعم. قال: هيه فأنشدته بيتا، فقال:
هيه، حتى أنشدته مائة بيت». و أخرج ابن أبى حاتم عن فضالة بن عبيد فى قوله: وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ قال: هؤلاء الذين يخربون البيت.

---

(۱). فى القرطبى: جاءت سخينة: و السخينة: طعام حار يتّخذ من دقيق و سمن- و قيل: من دقيق و تمر- أغلظ من الحساء و أرقّ من العصيدة، و كانت قريش تكثر من أكلها، فعيّرت بها حتى سمّوا سخينة.
فتح القدير، ج۴، ص: ۱۴۴

سورة النّمل

اشارة

هى ثلاث و تسعون آية، و قيل أربع و تسعون قال القرطبى: و هى مكية كلها فى قول الجميع. و أخرج ابن الضّريس و النّحاس و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة النمل بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النمل (۲۷): الآيات ۱ الى ۱۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَ كِتابٍ مُبِينٍ (۱) هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (۲) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۳) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (۴)
أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (۵) وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (۶) إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (۷) فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۸) يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۹)
وَ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (۱۰) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱) وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَ

قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

قوله: طس قد مرّ الكلام مفصلا فى فواتح السور، و هذه الحروف إن كانت اسما للسورة، فمحلها الرفع على الابتداء، و ما بعده خبره، و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أى: هذا اسم هذه السورة، و إن لم تكن هذه الحروف اسما للسورة، بل مسرودة على نمط التعديد، فلا محل لها، و الإشارة بقوله: تِلْكَ إلى نفس السورة، لأنها قد ذكرت إجمالا بذكر اسمها، و اسم الإشارة: مبتدأ، و خبره: آياتُ الْقُرْآنِ و الجملة: خبر المبتدأ الأوّل، على تقدير أنه مرتفع بالابتداء وَ كِتابٍ مُبِينٍ قرأ الجمهور بجر كتاب عطفا على القرآن، أى: تلك آيات القرآن، و آيات كتاب مبين، و يحتمل أن يكون المراد بقوله:

وَ كِتابٍ القرآن نفسه، فيكون من عطف بعض الصفات على بعض، مع اتحاد المدلول، و أن يكون المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، أو نفس السورة، و قرأ ابن أبى عبلة «و كتاب مبين» برفعهما عطفا على آيات. و قيل: هو على هذه القراءة على تقدير مضاف محذوف، و إقامة المضاف إليه مقامه، أى: و آيات كتاب مبين، فقد وصف الآيات بالوصفين: القرآنية الدالة على كونه مقروءا، مع الإشارة إلى كونه قرآنا عربيا معجزا، و الكتابية الدالة على كونه مكتوبا، مع الإشارة إلى كونه متصفا بصفة الكتب المنزلة، فلا يكون على هذا من باب عطف صفة على صفة، مع اتحاد المدلول، ثم ضم إلى الوصفين وصفا ثالثا، و هى: الإبانة

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۱۴۵

لمعانيه لمن يقرؤه، أو هو من أبان بمعنى: بان معناه، و اتضح إعجازه بما اشتمل عليه من البلاغة. و قدّم وصف القرآنية هنا، نظرا إلى تقدّم حال القرآنية على حال الكتابية و أخّره فى سورة فقال: الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ «١» نظرا إلى حالته التى قد صار عليها، فإنه مكتوب، و الكتابة سبب القراءة، و اللّه أعلم. و أما تعريف القرآن هنا، و تنكير الكتاب، و تعريف الكتاب فى سورة الحجر، و تنكير القرآن فلصلاحية كلّ واحد منهما للتعريف و التنكير هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ فى موضع نصب على الحال من الآيات أو من الكتاب، أى: تلك آيات هادية و مبشرة، و يجوز أن يكون فى محل رفع على الابتداء، أى: هو هدى، أو هما خبران آخران لتلك، أو هما مصدران منصوبان بفعل مقدّر، أى: يهدى هدى و يبشر بشرى. ثم وصف المؤمنين الذين لهم الهدى و البشرى فقال: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ و الموصول فى محل جرّ، أو يكون بدلا أو بيانا، أو منصوبا على المدح، أو مرفوعا على تقدير مبتدأ. و المراد بالصلاة: الصلوات الخمس، و المراد بالزكاة: الزكاة المفروضة، و جملة وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ فى محل نصب على الحال، و كرّر الضمير للدلالة على الحصر، أى: لا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان، و العمل الصالح، و جعل الخبر مضارعا للدلالة على التجدد فى كلّ وقت و عدم الانقطاع. ثم لما ذكر سبحانه أهل السعادة ذكر بعدهم أهل الشقاوة فقال: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ و هم الكفار، أى: لا يصدّقون بالبعث زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ قيل: المراد زين اللّه لهم أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة. و قيل: المراد أن اللّه زين لهم الأعمال الحسنة، و ذكر لهم ما فيها من خيرى الدنيا و الآخرة، فلم يقبلوا ذلك. قال الزجاج: معنى الآية أنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه فَهُمْ يَعْمَهُونَ أى: يتردّدون فيها، متحيرين على الاستمرار، لا يهتدون إلى طريقة، و لا يقفون على حقيقة. و قيل: معنى يعمهون: يتمادون. و قال قتادة:

يلعبون، و فى معنى التحير. قال الشاعر:

و مهمه أطرافه فى مهمه أعمى الهدى بالحائرين العمّه

و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المذكورين قبله، و هو مبتدأ خبره لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ قيل: فى الدنيا، كالقتل، و الأسر، و وجه تخصيصه بعذاب الدنيا، قوله بعده: وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ أى: هم أشدّ الناس خسرانا، و أعظمهم خيبة، ثم مهد سبحانه

مقدّمـة نافعة لما سـيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة، فقال: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ أى: يلقى عليك فتلقاه، و تأخـذه من لدن كثير الحكمة، و العلم، قيل: إن لدن هاهنا: بمعنى عند. و فيها لغات كما تقدّم فى سورة الكهف إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ الظرف منصوب بمضـمر و هو ذاكر. قـال الزجـاج: موضع إذ نصب، المعنى: اذكر إذ قـال موسـى، أى: اذكر قصـته إذ قـال لأهله، و المراد بـأهله: امرأته فى مسيره من مـدين إلى مصـر، و لم يكن معه إذ ذاك إلاـ زوجته بنت شـعيب، فكنى عنهـا بلفظ الأهل، الدالّ على الكثرة، و مثله قوله: امْكُثُوا* و معنى

---

(١). الحجر: ١.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۴۶

إِنِّي آنَسْتُ ناراً أبصـرتها سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ السين تدلّ على بعد مسافة النار أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ قرأ عاصم و حمزة و الكسائى بتنوين شـهاب، و قرأ الباقون بإضافته إلى قبس، فعلى القراءة الأولى يكون قبس بدلا من شـهاب، أو صفة له، لأنه بمعنى مقبوس، و على القراءة الثانية: الإضافة للبيان، و المعنى على القراءتين: آتيكم بشـعلة نار مقبوسة، أى: مأخوذة من أصـلها. قال الزجاج: من نوّن جعل قبس من صـفة شهاب، و قال الفراء: هذه الإضافة كالإضافة فى قولهم: مسجد الجامع، و صلاة الأولى، و أضاف الشىء إلى نفسه لاختلاف أسمائه. و قال النحاس: هى إضافة النوع إلى الجنس كما تقول: ثوب خز، و خاتم حديد.

قال: و يجوز فى غير القرآن بشهاب قبسا، على أنه مصدر، أو بيان، أو حال لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ أى:

رجاء أن تسـتدفئوا بها، أو لكى تستدفئوا بها من البرد، يقال: صلى بالنار و اصطلى بها: إذا استدفأ بها. قال الزجاج: كلّ أبيض ذى نور فهو شهاب. و قال أبو عبيدة: الشهاب: النار، و منه قول أبى النجم:

كأنّما كان شهابا واقداأضاء ضوءا ثمّ صار خامدا

و قال ثعلب: أصل الشـهاب عود فى أحد طرفيه جمرة، و الآخر لا نار فيه، و الشهاب: الشعاع المضىء، و قيل: للكوكب شهاب، و مه قول الشاعر:

فى كفّه صعدة «١» مثقّفةفيها سنان كشعلة القبس

فَلَمَّا جاءَها أى: جاء النار موسـى نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها أن هى المفسـرة لما فى النداء من معنى القول، أو هى المصدرية، أى: بأن بورك، و قيل: هى المخففة من الثقيلة. قال الزجاج:

أن فى موضع نصب، أى: بأن قال، و يجوز أن يكون فى موضع رفع اسم ما لم يسم فاعله. و الأولى:

أن النائب ضمير يعود إلى موسى. و قرأ أبىّ و ابن عباس و مجاهد «أن بوركت النّار و من حولها» حكى ذلك أبو حاتم. و حكى الكسائى عن العرب: باركك اللّه، و بارك فيك، و بارك عليك، و بارك لك، و كذلك حكى هذا الفراء. قال ابن جرير: قال بورك من فى النـار، و لم يقـل بورك على النار على لغـة من يقول باركك اللّه، أى: بورك على من فى النار، و هو موسـى، أو على من فى قرب النار، لا أنه كان فى وسـطها. و قال السدّى: كان فى النار ملائكة، و النار هنا هى مجرّد نور، و لكن ظن موسـى أنها نار، فلما وصل إليها وجـدها نورا. و حكى عن الحسن و سـعيد بن جبير أن المراد بمن فى النار هو اللّه سـبحانه، أى: نوره. و قيـل: بورك ما فى النار من أمر اللّه سـبحانه الـذى جعلها على تلك الصـفة. قال الواحـدى: و مـذهب المفسـرين أن المراد بالنار النور، ثم نزّه سـبحانه نفسه فقـال: وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ و فيه تعجيب لموسى من ذلك يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الضـمير للشـأن، أنـا اللّه العزيز الغالب القاهر الحكيم فى أمره و فعله. و قيل: إن موسى قال: يا ربّ! من الـذى نادانى؟ فأجابه اللّه سبحانه بقوله: إنه أنا اللّه، ثم أمره سـبحانه بأن يلقى عصاه، ليعرف ما أجراه اللّه سـبحانه على يـده من المعجزة الخارقة، و جملة وَ

أَلْقِ عَصاکَ معطوفة علی

(۱). الصّعدة: القناة التی تنبت مستقیمة.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۴۷

بورک، و فی الکلام حذف، و التقدیر: فألقاها من یده فصارت حیة فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ کَأَنَّها جَانٌّ قال الزجاج: صارت العصا تتحرک کما یتحرّک الجانّ، و هی الحیة البیضاء، و إنما شبهها بالجانّ فی خفة حرکتها، و شبهها فی موضع آخر بالثعبان لعظمها، و جمع الجانّ: جنان، و هی الحیة الخفیفة الصغیرة الجسم. و قال الکلبی: لا صغیرة، و لا کبیرة وَلَّی مُدْبِراً من الخوف وَ لَمْ یُعَقِّبْ أی: لم یرجع، یقال: عقب فلان إذا رجع، و کل راجع معقب، و قیل: لم یقف و لم یلتفت. و الأوّل: أولی، لأن التعقیب هو الکرّ بعد الفرّ، فلما وقع منه ذلک قال اللّه سبحانه: یا مُوسی لا تَخَفْ أی: من الحیة و ضررها إِنِّی لا یَخافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ أی: لا یخاف عندی من أرسلته برسالتی، فلا تخف أنت. قیل: و نفی الخوف عن المرسلین لیس فی جمیع الأوقات، بل فی وقت الخطاب لهم، لأنهم إذ ذاک مستغرقون. ثم استثنی استثناء منقطعا فقال: إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّی غَفُورٌ رَحِیمٌ أی: لکن من أذنب فی ظلم نفسه بالمعصیة ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً أی: توبة و ندما بَعْدَ سُوءٍ أی: بعد عمل سوء فَإِنِّی غَفُورٌ رَحِیمٌ و قیل: الاستثناء من مقدّر محذوف، أی: لا یخاف لدیّ المرسلون، و إنما یخاف غیرهم ممن ظلم. إلا من ظلم ثم بدل إلخ. کذا قال الفراء. قال النحاس: الاستثناء من محذوف محال، لأنه استثناء من شیء لم یذکر.

و روی عن الفراء أنه قال: إلا بمعنی الواو. و قیل: إن الاستثناء متصل من المذکور، لا من المحذوف. و المعنی:

إلا من ظلم من المرسلین، بإتیان الصغائر التی لا یسلم منها أحد، و اختار هذا النحاس، و قال: علم من عصی منهم، فاستثناه فقال: إلا من ظلم، و إن کنت قد غفرت له کآدم و داود و إخوة یوسف و موسی بقتله القبطیّ.

و لا مانع من الخوف بعد المغفرة، فإن نبینا صلّی اللّه علیه و سلم الذی غفر اللّه له ما تقدّم من ذنبه، و ما تأخر کان یقول:

وددت أنی شجرة تعضد وَ أَدْخِلْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ المراد بالجیب هو المعروف، و فی القصص اسْلُکْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ «۱» و فی أدخل من المبالغة ما لم یکن فی اسلک تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ أی: من غیر برص، أو نحوه من الآفات، فهو احتراس. و قوله: «تخرج» جواب أدخل یدک. و قیل: فی الکلام حذف تقدیره: أدخل یدک تدخل، و أخرجها تخرج، و لا حاجة لهذا الحذف، و لا ملجئ إلیه. قال المفسرون:

کانت علی موسی مدرعة من صوف لا کمّ لها و لا إزار، فأدخل یده فی جیبه و أخرجها فإذا هی تبرق کالبرق، و قوله: فِی تِسْعِ آیاتٍ قال أبو البقاء: هو فی محل نصب علی الحال من فاعل تخرج، و فیه بعد. و قیل:

متعلق بمحذوف، أی: اذهب فی تسع آیات. و قیل: متعلق بقوله: ألق عصاک، و أدخل یدک فی جملة تسع آیات، أو مع تسع آیات. و قیل المعنی: فهما آیتان من تسع، یعنی: العصا و الید، فتکون الآیات إحدی عشرة: هاتان، و الفلق، و الطوفان، و الجراد، و القمل، و الضفادع، و الدم، و الطمسة، و الجدب فی بوادیهم، و النقصان فی مزارعهم. قال النحاس: أحسن ما قیل فیه: أن هذه الآیة، یعنی الید داخلة فی تسع آیات، و کذا قال المهدوی، و القشیری. قال القشیری: تقول خرجت فی عشرة نفر، و أنت أحدهم، أی:

(۱). القصص: ۳۲.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۴۸

خرجت عاشر عشرة، ففى بمعنى من لقربها منها كما تقول خذ لى عشرا من الإبل فيها فحلان، أى: منها.
قال الأصمعى فى قول امرئ القيس:
و هل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال
فى: بمعنى من، و قيل: فى بمعنى مع إِلى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ قال الفراء: فى الكلام إضمار، أى:
إنك مبعوث، أو مرسل إلى فرعون و قومه، و كذا قال الزجاج: إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ الجملة تعليل لما قبلها فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً أى: جاءتهم آياتنا التى على يد موسى حال كونها مبصرة، أى:
واضحة بينة، كأنها لفرط وضوحها تبصر نفسها كقوله: وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً قال الأخفش:
و يجوز أن تكون بمعنى مبصرة، على أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول، و قد تقدّم تحقيق الكلام فى هذا.
و قرأ على بن الحسين و قتادة مبصرة بفتح الميم و الصاد، أى: مكانا يكثر فيه التبصر، كما يقال: الولد مجبنة و مبخلة قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ أى: لما جاءتهم قالوا هذا القول، أى: سحر واضح وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ أى: كذبوا بها حال كون أنفسهم مستيقنة لها، فالواو للحال، و انتصاب ظُلْماً وَ عُلُوًّا على الحال، أى: ظالمين عالين، و يجوز أن ينتصبا على العلة، أى:
الحامل لهم على ذلك الظلم و العلوّ، و يجوز أن يكونا نعت مصدر محذوف، أى: جحدوا بها جحودا، ظلما و علوا. قال أبو عبيدة: و الباء فى «و جحدوا بها» زائدة، أى: و جحدوها. قال الزجاج: التقدير:
و جحدوا بها ظلما و علوّا، أى: شركا و تكبرا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى، و هم يعلمون أنها من عند اللّه فَانْظُرْ يا محمد كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ أى: تفكر فى ذلك فإن فيه معتبرا للمعتبرين، و قد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم فى البحر على تلك الصفة الهائلة.
و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ يعنى تبارك و تعالى نفسه، كان نور ربّ العالمين فى الشجرة وَ مَنْ حَوْلَها يعنى الملائكة.
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: كان اللّه فى النور، نودى من النور وَ مَنْ حَوْلَها قال: الملائكة.
و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا قال: ناداه اللّه و هو فى النور. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ قال: بوركت النار. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: فى مصحف أبى بن كعب «بوركت النار و من حولها» أما النار فيزعمون أنها رب العالمين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَنْ بُورِكَ قال: قدّس. و أخرج عبد بن حميد و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى العظمة و البيهقى فى الأسماء و الصفات من طريق أبى عبيدة عن أبى موسى الأشعرى قال: قام فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: «إنّ اللّه لا ينام و لا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط و يرفعه، يرفع إليه عمل اللّيل قبل النّهار و عمل النّهار قبل الليل، حجابه النّور لو رفع لأحرقت سبحات وجهه كلّ شيء أدركه بصره.
فتح القدير، ج۴، ص: ۱۴۹
ثم قرأ أبو عبيدة أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ . و الحديث أصله مخرّج فى صحيح مسلم من حديث عمرة بن مرّة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه، فقال له: أدخل يدك فى جيبك فأدخلها. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله:
وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا قال: تكبرا و قد استيقنتها أنفسهم، و هذا من التقديم و التأخير.

[سورة النمل (۲۷): الآيات ۱۵ الى ۲۶]

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۵) وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (۱۶) وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۷) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۸) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (۱۹)

وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (۲۰) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۲۱) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (۲۲) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (۲۳) وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (۲۴)

أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (۲۵) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۲۶)

لما فرغ سبحانه من قصة موسى، شرع فى قصة داود، و ابنه سليمان، و هذه القصص و ما قبلها و ما بعدها هى كالبيان و التقرير لقوله: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ و التنوين فى عِلْماً إما للنوع، أى: طائفة من العلم، أو للتعظيم، أى: علما كثيرا، و الواو فى قوله: وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ للعطف على محذوف، لأن هذا المقام مقام الفاء؛ فالتقدير: و لقد آتيناهما علما فعملا به و قالا الحمد للّه، و يؤيده أن الشكر باللسان، إنا يحسن إذا كان مسبوقا بعمل القلب، و هو العزم على فعل الطاعة، و ترك المعصية الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أى: فضلنا بالعلم و النبوّة و تسخير الطير و الجنّ و الإنس و لم يفضلوا أنفسهم على الكل تواضعا منهم. و فى الآية دليل على شرف العلم و ارتفاع محله، و أن نعمة العلم من أجل النعم التى ينعم اللّه بها على عباده، و أن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من العباد، و منح شرفا جليلا وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ أى: ورثه العلم و النبوّة. قال قتادة و الكلبى: كان لداود تسعة عشر ولدا ذكرا فورث سليمان من بينهم نبوّته، و لو كان المراد وراثة المال، لم يخصّ سليمان بالذكر لأن جميع أولاده فى ذلك سواء، و كذا قال جمهور المفسرين، فهذه الوراثة هى وراثة مجازية، كما فى قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «العلماء ورثة الأنبياء» وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ قال سليمان هذه المقالة مخاطبا للناس، تحدثا بما أنعم

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۵۰

فتح القدير ج۴ ۱۹۹

اللّه به عليه، و شكر النعمة التى خصه بها، و قدّم منطق الطير لأنها نعمة خاصة به، لا يشاركه فيها غيره.

قال الفراء: منطق الطير كلام الطير فجعل كمنطق الرجل، و أنشد قول حميد بن ثور:

عجيب لها أن يكون غناؤهافصيحا و لم يغفر بمنطقها فما «۱»

و معنى الآية فهمنا ما يقول الطير. قال جماعة من المفسرين: إنه علم منطق جميع الحيوانات، و إنما ذكر الطير لأنه كان جندا من جنده يسير معه لتظليله من الشمس. و قال قتادة و الشعبى: إنما علم منطق الطير خاصة، و لا يعترض ذلك بالنملة، فإنها من جملة الطير، و كثيرا ما تخرج لها أجنحة فتطير، و كذلك كانت هذه النملة التى سمع كلامها و فهمه، و معنى وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كلّ شىء تدعو إليه الحاجة: كالعلم و النبوّة و الحكمة و المال و تسخير الجن و الإنس و الطير و الرياح و الوحش و الدواب، و

كل ما بين السماء و الأرض.
و جاء سليمان بنون العظمة، و المراد نفسه، بيانا لحاله من كونه مطاعا لا يخالف، لا تكبرا، و تعظيما لنفسه، و الإشارة بقوله: إِنَّ هذا إلى ما تقدّم ذكره من التعليم و الإيتاء لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ أى: الظاهر الواضح الذى لا يخفى على أحد، أو المظهر لفضيلتنا وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ الحشر: الجمع، أى: جمع له جنوده من هذه الأجناس. و قد أطال المفسرون فى ذكر مقدار جنده و بالغ كثير منهم مبالغة تستبعدها العقول و لا تصحّ من جهة النقل، و لو صحت لكان فى القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك و أكثر فَهُمْ يُوزَعُونَ أى: لكلّ طائفة منهم وزعة تردّ أوّلهم على آخرهم، فيقفون على مراتبهم، يقال وزعه يزعه وزعا: كفه، و الوازع فى الحرب: الموكل بالصفوف يزع من تقدّم منهم، أى: يردّه، و منه قول النابغة:

على حين عاتبت المشيب على الصّباو قلت ألمّا أصح و الشّيب وازع

و قول الآخر:

و من لم يزعه لبّه و حياؤهفليس له من شيب فوديه وازع

و قول الآخر:

و لا يزع النفس اللّجوج عن الهوىمن الناس إلا وافر العقل كامله

و قيل: من التوزيع بمعنى التفريق، يقال: القوم أوزاع: أى طوائف حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام، و يكون غاية لما قبلها، و المعنى فهم يوزعون إلى حصول هذه الغاية، و هو إتيانهم على واد النمل، أى: فهم يسيرون ممنوعا بعضهم من مفارقة بعض حتى إذا أتوا إلخ، و على واد النمل متعلق باتوا، و عدّى بعلى لأنهم كانوا محمولين على الريح فهم مستعلون. و المعنى: أنهم قطعوا الوادى و بلغوا

---

(١). جاء فى اللسان مادة فغر: قال حميد يصف حمامة: عجبت لها أنّى يكون غناؤهافصيحا و لم تفغر بمنطقها فما فتح القدير، ج۴، ص: ۱۵۱

آخره، و وقف القراء جميعهم على واد بدون ياء اتباعا للرسم حيث لم تحذف لالتقاء الساكنين كقوله: الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ «١» إلا الكسائى فإنه وقف بالياء، قال: لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل. قال كعب: واد النمل بالطائف. و قال قتادة و مقاتل: هو بالشام قالَتْ نَمْلَةٌ هذا جواب إذا، كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادى، فرت و نبهت سائر النمل منادية لها قائلة: يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ جعل خطاب النمل كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب، و المساكن: هى الأمكنة التى يسكن النمل فيها.

قيل: و هذه النملة التى سمعها سليمان هى أنثى، بدليل تأنيث الفعل المسند إليها. و ردّ هذا أبو حيان فقال:

إلحاق التاء فى قالت، لا يدلّ على أن النملة مؤنثة، بل يصحّ أن يقال فى المذكر قالت، لأن نملة، و إن كانت بالتاء فهى مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث بتذكير الفعل، و لا بتأنيثه، بل يتميز بالإخبار عنه بأنه ذكر أو أنثى، و لا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة «٢»، و لا بالتعرض لاسم النملة، و لما ذكر من القصص الموضوعة، و الأحاديث المكذوبة. و قرأ الحسن و طلحة و معمر بن سليمان «نملة» و النمل بضم الميم و فتح النون، بزنة رجل و سمرة.

و قرأ سليمان التيمى بضمتين فيهما. لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ الحطم: الكسر، يقال حطمته حطما: أى كسرته كسرا، و تحطم تكسر، و هذا النهى هو فى الظاهر للنمل، و فى الحقيقة لسليمان، فهو من باب: لا أرينك هاهنا، و يجوز أن يكون بدلا من الأمر، و يحتمل أن يكون جوابا للأمر. قال أبو حيان:

أما تخريجه على جواب الأمر، فلا يكون إلا على قراءة الأعمش، «لا يحطمكم» بالجزم بدون نون التوكيد، و أما مع وجود نون التوكيد فلا يجوز ذلك إلا في الشعر. قال سيبويه: و هو قليل فى الشعر، شبهوه بالنهى حيث كان مجزوما. و قرأ أبىّ «ادخلوا مساكنكنّ» و قرأ شهر بن حوشب «مسكنكم» و قرأ الحسن و أبو رجاء و قتادة و عيسى الهمدانى «لا يحطّمنّكم» بضمّ الياء و فتح الحاء و تشديد الطاء، و قرأ ابن أبى إسحاق و يعقوب و أبو عمرو فى رواية بسكون نون التوكيد، و جملة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ فى محل نصب على الحال من فاعل يحطمنكم، أى: لا يشعرون بحطمكم و لا يعلمون بمكانكم، و قيل: إن المعنى: و النمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها، و هو بعيد فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها قرأ ابن السميقع «ضحكا» و على قراءة الجمهور يكون ضاحكا: حالا مؤكدة لأنه قد فهم الضحك من التبسم، و قيل: هى حال مقدّرة لأن التبسم أوّل الضحك، و قيل: لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبينا له، و قيل: إن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير، و على قراءة ابن السميقع يكون ضحكا: مصدرا منصوبا بفعل محذوف، أو فى موضع الحال، و كان ضحك سليمان تعجبا من قولها، و فهمها، و اهتدائها إلى تحذير النمل وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ و قد تقدم بيان معنى أوزعنى قريبا فى قوله: «فهم يوزعون» قال فى الكشاف: و حقيقة أوزعنى: اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى و أكفه، و أرتبطه لا ينفلت

---

(١). الفجر: ٩.

(٢). كان يغنى عن ذلك كله الرجوع إلى كتب اللغة و فيها: النملة: واحدة النمل للذكر و الأنثى.

عنى، حتى لا أنفك شاكرا لك، انتهى. قال الواحدى: أوزعنى أى: ألهمنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ، يقال: فلان موزع بكذا، أى: مولع به، انتهى. قال القرطبى: و أصله من وزع، فكأنه قال:

كفنى عما يسخطك انتهى. و المفعول الثانى لأوزعنى هو: أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ. و قال الزجاج:

إن معنى أوزعنى: امنعنى أن أكفر نعمتك، و هو تفسير باللازم، و معنى و على والدىّ: الدعاء منه بأن يوزعه اللّه شكر نعمته على والديه، كما أوزعه شكر نعمته عليه، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه، و ذلك يستوجب الشكر منه للّه سبحانه، ثم طلب أن يضيف اللّه له لواحق نعمه إلى سوابقها، و لا سيما النعم الدينية، فقال:

وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ أى: عملا صالحا ترضاه منى، ثم دعا أن يجعله اللّه سبحانه فى الآخرة داخلا فى زمرة الصالحين، فإن ذلك هو الغاية التى يتعلق الطلب بها، فقال: وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ و المعنى: أدخلنى فى جملتهم، و أثبت اسمى فى أسمائهم، و احشرنى فى زمرتهم إلى دار الصالحين، و هى الجنة، اللهم و إنى أدعوك بما دعاك به هذا النبىّ الكريم فتقبل ذلك منى و تفضل علىّ به، فإنى و إن كنت مقصرا فى العمل ففضلك هو سبب الفوز بالخير، فهذه الآية منادية بأعلى صوت، و أوضح بيان بأن دخول الجنة التى هى دار المؤمنين بالتفضل منك، لا بالعمل منهم كما قال رسولك الصادق المصدوق فيما ثبت عنه فى الصحيح «سدّدوا و قاربوا و اعلموا أنه لن يدخل أحد الجنّة بعمله، قالوا: و لا أنت يا رسول اللّه؟ قال و لا أنا إلا أن يتغمدنى اللّه برحمته» إذا لم يكن إلا تفضلك الواسع فترك طلبه منك عجز، و التفريط فى التوسل إليك بالإيصال إليه تضييع، ثم شرع سبحانه فى ذكر قصة بلقيس، و ما جرى بينها و بين سليمان، و ذلك بدلالة الهدهد فقال: وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ التفقد: تطلب ما غاب عنك و تعرّف أحواله، و الطير: اسم جنس لكل ما يطير، و المعنى: أنه تطلب ما فقد من الطير، و تعرف حال ما غاب منها، و كانت الطير تصحبه فى سفره، و تظله بأجنحتها فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ أى: ما للهدهد لا أراه؟ فهذا الكلام من الكلام المقلوب الذى تستعمله العرب كثيرا، و قيل: لا حاجة إلى ادّعاء القلب، بل هو استفهام

عن المانع له من رؤية الهدهد، كأنه قال: مالى لا أراه هل ذلك لساتر يستره عنى، أو لشىء آخر؟ ثم ظهر له أنه غائب فقال: أم كان من الغائبين، و أم هى المنقطعة التى بمعنى الإضراب، قرأ ابن كثير و ابن محيصن و هشام و أيوب «مالى» بفتح الياء، و كذلك قرءوا فى يس وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي «١» بفتح الياء و قرأ بإسكانها فى الموضعين حمزة و الكسائى و يعقوب، و قرأ الباقون بفتح التى فى يس، و إسكان التى هنا.

قال أبو عمرو: لأن هذه التى هنا استفهام، و التى فى يس نفى، و اختار أبو حاتم و أبو عبيد الإسكان لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ

اختلفوا فى هذا العذاب الشديد ما هو؟ فقال مجاهد و ابن جريج: هو أن ينتف ريشه جميعا. و قال يزيد ابن رومان: هو أن ينتف ريش جناحيه، و قيل: هو أن يحبسه مع أضداده، و قيل: أن يمنعه من خدمته، و فى هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب، لا على قدر الجسد. و قوله عذابا اسم مصدر أو مصدر على

---

(١). يس: ٢٢.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۱۵۳

حذف الزوائد كقوله: أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً «١» أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ قرأ ابن كثير وحده بنون التأكيد المشدّدة بعدها نون الوقاية، و قرأ الباقون بنون مشدّدة فقط، و هى نون التوكيد، و قرأ عيسى ابن عمر بنون مشددة مفتوحة غير موصولة بالياء، و السلطان المبين: هو الحجة البينة فى غيبته «فمكث» ابن عمر بنون مشددة مفتوحة غير موصولة بالياء، و السلطان المبين: هو الحجة البينة فى غيبته فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ أى: الهدهد مكث زمانا غير بعيد. قرأ الجمهور «مكث» بضم الكاف، و قرأ عاصم وحده بفتحها، و معناه فى القراءتين: أقام زمانا غير بعيد. قال سيبويه: مكث يمكث مكوثا كقعد يقعد قعودا.

و قيل: إن الضمير فى مكث لسليمان. و المعنى: بقى سليمان بعد التفقد و التوعد زمانا غير طويل، و الأوّل أولى فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ أى: علمت ما لم تعلمه من الأمر، و الإحاطة: العلم بالشىء من جميع جهاته، و لعلّ فى الكلام حذفا، و التقدير: فمكث الهدهد غير بعيد، فجاء فعوتب على مغيبه، فقال معتذرا عن ذلك أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ قال الفراء: و يجوز إدغام التاء فى الطاء، فيقال: حطّ، و إدغام الطاء فى التاء فيقال: أحتّ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ قرأ الجمهور من سبأ بالصرف على أنه اسم رجل، نسب إليه قوم، و منه قول الشاعر:

الواردون و تيم فى ذرى سبأقد عضّ أعناقهم جلد الجواميس

و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بفتح الهمزة، و ترك الصرف على أنه اسم مدينة، و أنكر الزجاج أن يكون اسم رجل و قال: سبأ اسم مدينة تعرف بمأرب اليمن، بينها و بين صنعاء ثلاثة أيام. و قيل: هو اسم امرأة سميت بها المدينة. قال القرطبى: و الصحيح أنه اسم رجل، كما فى كتاب الترمذى من حديث فروة بن مسيك المرادى.

قال ابن عطية: و خفى هذا على الزجاج فخبط خبط عشواء. و زعم الفراء أن الرؤاسى سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ فقال: ما أدرى ما هو؟ قال النحاس: و أبو عمرو أجلّ من أن يقول هذا، قال: و القول فى سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه فى الأصل اسم رجل، فإن صرفته فلأنه قد صار اسما للحىّ، و إن لم تصرفه جعلته اسما للقبيلة، مثل ثمود، إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف، انتهى.

و أقول: لا شك أن سبأ اسم لمدينة باليمن كانت فيها بلقيس، و هو أيضا اسم رجل من قحطان! و هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود، و لكن المراد هنا أن الهدهد جاء إلى سليمان بخبر ما عاينه فى مدينة سبأ مما وصفه، و سيأتى فى آخر هذا البحث من المأثور ما يوضح هذا و يؤيده، و معنى الآية: أن الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة بخبر يقين، و النبأ: هو الخبر

الخطير الشأن، فلما قال الهدهـد لسليمان ما قال، قال له سليمان: و ما ذاك؟ فقال: إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ و هى: بلقيس بنت شرحبيل، وجدها الهدهد تملك أهل سبأ، و الجملة هذه كالبيان و التفسير للجملة التى قبلها، أى: ذلك النبأ اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فيه مبالغة، و المراد أنها أوتيت من كلّ شىء من الأشياء التى تحتاجها، و قيل المعنى: أوتيت من كلّ شىء فى زمانها شيئا، فحذف شيئا لأن الكلام قد دلّ عليه وَ لَها

---

(۱). نوح: ۱۷.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۵۴

عَرْشٌ عَظِيمٌ أى: سرير عظيم، و وصفه بالعظم لأنه كما قيل كان من ذهب، طوله ثمانون ذراعا، و عرضه أربعون ذراعا، و ارتفاعه فى السماء ثلاثون ذراعا، مكلل بالدر و الياقوت الأحمر، و الزبرجد الأخضر. و قيل:

المراد بالعرش هنا الملك، و الأوّل: أولى لقوله: أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قال ابن عطية: و اللازم من الآية أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم و سرير عظيم، و كانت كافرة من قوم كفار وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: يعبدونها متجاوزين عبادة اللّه سبحانه، قيل: كانوا مجوسا، و قيل:

زنادقة وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ التى يعملونها، و هى عبادة الشمس و سائر أعمال الكفر فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ أى: صدهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح، و هو الإيمان باللّه و توحيده فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ إلى ذلك أَلَّا يَسْجُدُوا قرأ الجمهور بتشديد «ألا». قال ابن الأنبارى:

الوقف على فهم لا يهتدون غير تامّ عند من شدّد ألا، لأنَّ المعنى: و زين لهم الشيطان ألا يسجدوا. قال النحاس: هى أن دخلت عليها لا، و هى فى موضع نصب. قال الأخفش: أى زين لهم أن لا يسجدوا للّه بمعنى لئلا يسجدوا للّه. و قال الكسائى: هى فى موضع نصب يصدّهم، أى: فصدّهم ألا يسجدوا بمعنى لئلا يسجدوا، فهو على الوجهين مفعول له. و قال اليزيدى: إنه بدل من أعمالهم فى موضع نصب. و قال أبو عمرو: فى موضع خفض على البدل من السبيل. و قيل: العامل فيها: لا يهتدون، أى: فهم لا يهتدون أن يسجدوا للّه، و تكون (لا) على هذا زائدة كقوله: ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ و على قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة، لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود: إما بالتزيين أو بالصدّ أو بمنع الاهتداء، و قد رجح كونه علة للصدّ الزجاج، و رجح الفراء كونه علّة لزيّن، قال: زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا، ثم حذفت اللام. و قرأ الزهرى و الكسائى بتخفيف «ألّا». قال الكسائى: ما كنت أسمع الأشياخ يقرءونها إلا بالتخفيف على نية الأمر، فتكون «ألا» على هذه القراءة حرف تنبيه و استفتاح و ما بعدها حرف نداء، و اسجدوا فعل أمر، و كان حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا «ألا يا اسجدوا»، و لكن الصحابة رضى اللّه عنهم أسقطوا الألف من يا و همزة الوصل من اسجدوا و وصلوا الياء بسين اسجدوا، فصارت صورة الخط ألا يسجدوا، و المنادى محذوف، و تقديره: ألا يا هؤلاء اسجدوا، و قد حذفت العرب المنادى كثيرا فى كلامها، و منه قول الشاعر:

ألا يا اسلمى يا دارميّ على البلىو لا زال منهلّا بجرعائك القطر

و قول الآخر:

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثمّت اسلمىثلاث تحيّات و إن لم تكلّم

و قول الآخر أيضا:

أر يا اسلمى يا هند هند بنى بكر و هو كثير فى أشعارهم. قال الزجاج: و قراءة التخفيف تقتضى وجوب السجود دون قراءة التشديد،

و اختـار أبو حـاتم و أبو عبيـد قراءة التشديـد. قال الزجاج: و لقراءة التخفيف وجه حسن إلا أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سـبأ ثم الرجوع بعـد ذلـك إلى ذكرهم، و القراءة بالتشديـد خبر يتبع بعضه بعضـا لا انقطاع فى وسـطه، و كـذا قال النحاس، و على هـذه القراءة تكون جملة ألا يسـجدوا معترضة من كلام الهدهد، أو من كلام سليمان، أو من كلام اللّه سبحانه. و فى قراءة عبد اللّه بن مسعود «هل لا تسجدوا» بالفوقية، و فى قراءة أبيّ «ألّا تسجدوا» بالفوقية أيضا الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْ‌ءَ فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: يظهر مـا هو مخبوء و مخفىّ فيهمـا، يقـال: خبـأت الشـى‌ء أخبؤه خبأ، و الخب‌ء ما خبأته. قال الزجاج: جاء فى التفسـير أن الخب‌ء هاهنا بمعنى القطر من السماء و النبات من الأرض. و قيل: خب‌ء الأرض كنوزها و نباتها.

و قال قتادة: الخب‌ء السرّ. قال النحاس، أى: ما غاب فى السموات و الأرض. و قرأ أبىّ و عيسى بن عمر «الخب» بفتح الباء من غير همز تخفيفـا، و قرأ عبـد اللّه و عكرمـة و مالـك بن دينار «الخبا» بالألف قال أبو حاتم: و هـذا لا يجوز فى العربيـة. و ردّ عليه بأن سيبويه حكى عن العرب أن الأـلف تبـدل من الهمزة إذا كـان قبلهـا سـاكن. و فى قراءة عبـد اللّه «يخرج الخب‌ء من السـموات و الأـرض». قـال الفراء: و من و فى يتعاقبـان، و الموصول يجوز أن يكون فى محـل جرّ نعتـا للّه سـبحانه، أو بـدلا منه، أو بيانا له، و يجوز أن يكون فى محـل نصب على المـدح، و يجوز أن يكون فى محـل رفع على أنه خـبر مبتـدأ محـذوف، و جملـة وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ معطوفة على يخرج، قرأ الجمهور بالتحتية فى الفعلين، و قرأ الجحدرى و عيسـى بن عمر و حفص و الكسائى بالفوقية للخطاب، أما القراءة الأولى فلكون الضمائر المتقدّمة ضمائر غيبة، و أما القراءة الثانية فلكون قراءة الزهرى و الكسائى فيها الأمر بالسجود و الخطاب لهم بذلك، فهذا عندهم من تمام ذلك الخطاب. و المعنى:

أن اللّه سبحانه يخرج ما فى هذا العالم الإنسانى من الخفاء بعلمه له كما يخرج ما خفى فى السموات و الأرض، ثم بعد ما وصف الربّ سبحانه بما تقدّم مما يدلّ على عظيم قدرته و جليل سلطانه و وجوب توحيده و تخصيصه بالعبادة قال: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ قرأ الجمهـور العظيـم بـالجرّ نعتـا للعرش، و قرأ ابن محيصن بـالرفع نعتـا للربّ، و خصّ العرش بالـذكر لأـنه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك فى المرفوع إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم.

و قـد أخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن عبـد العزيز أنه كتب إن اللّه لم ينعم على عبد نعمة فحمد اللّه عليها إلا كان حمده أفضـل من نعمته لو كنت لاـ تعرف ذلك إلا فى كتاب اللّه المنزل. قال اللّه عزّ و جلّ: وَ لَقَـدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُـلَيْمانَ عِلْماً وَ قالَا الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ و أى نعمة أفضل مما أعطى داود و سليمان.

أقول: ليس فى الآية ما يدلّ على ما فهمه رحمه اللّه، و الذى تدلّ عليه أنهما حمدا اللّه سـبحانه على ما فضـلهما به من النعم، فمن أين تدلّ على أن حمده أفضل من نعمته؟ و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ قـال: ورثه نبوّته و ملكه و علمه. و أخرج ابن أبى شـيبة و أحمـد فى الزهـد و ابن أبى حـاتم عن أبى الصـديق النـاجى قـال: «خرج سليمان بن داود يستسقى بالناس، فمرّ على

نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء، و هى تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك، فإمّا أن تسقينا و إما أن تهلكنا، فقال سليمان للناس: ارجعوا فقـد سـقيتم بـدعوة غيركم». و أخرج الحاكم فى المسـتدرك عن جعفر بن محمد قال: أعطى سليمان ملك مشارق الأرض و مغاربها، فملك سليمان سبعمائة سنة و ستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلهم، من الجن و الإنس، و الدواب، و الطير، و السباع، و أعطى كل شـى‌ء، و منطق كل شـى‌ء، و فى زمانه صـنعت الصنائع المعجبة، حتى إذا أراد اللّه أن يقبضه إليه أوحى إليه أن يسـتودع علم اللّه و حكمته أخاه، و ولد داود كانوا أربعمائة و ثمانين رجلا أنبياء بلا رسالة. قال

الذهبی:

و قد رویت قصص فی عظم ملک سلیمان لا تطیب النفس بذکر شیء منها، فالإمساک عن ذکرها أولی. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: فَهُمْ يُوزَعُونَ قال یدفعون. و أخرج ابن جریر عنه فی قوله: فَهُمْ يُوزَعُونَ قال: جعل لکل صنف وزعة، تردّ أولاها علی أخراها، لئلا تتقدّمه فی السیر کما تصنع الملوک. و أخرج عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: أَوْزِعْنِي قال: ألهمنی. و أخرج عبد بن حمید عن الحسن مثله. و أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الحاکم و صححه من طرق عن ابن عباس أنه سئل کیف تفقد سلیمان الهدهد من بین الطیر؟ قال: إن سلیمان نزل منزلا فلم یدر ما بعد الماء، و کان الهدهد یدلّ سلیمان علی الماء، فأراد أن یسأله عنه ففقده، قیل: کیف ذاک و الهدهد ینصب له الفخ، یلقی علیه التراب، و یضع له الصبی الحبالة فیغیبها فیصیده؟ فقال:

إذا جاء القضاء ذهب البصر. و أخرج عبد الرزاق و الفریابی و سعید بن منصور و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الحاکم و صححه عن ابن عباس فی قوله: لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً قال: أنتف ریشه کله، و روی نحو هذا عن جماعة من التابعین، و روی ابن أبی حاتم عن الحسن قال: کان اسم هدهد سلیمان غبر.

و أقول: من أین جاء علم هذا للحسن رحمه اللّه؟ و هکذا ما رواه عنه ابن عساکر أن اسم النملة حرس، و أنها من قبیلة یقال لها بنو الشیصان، و أنها کانت عرجاء، و کانت بقدر الذئب، و هو رحمه اللّه أورع الناس عن نقل الکذب، و نحن نعلم أنه لم یصحّ عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فی ذلک شیء، و نعلم أنه لیس للحسن إسناد متصل بسلیمان، أو بأحد من أصحابه، فهذا العلم مأخوذ من أهل الکتاب، و قد أمرنا أن لا نصدّقهم و لا نکذبهم، فإن ترخص بالروایة عنهم لمثل ما روی «حدّثوا عن بنی إسرائیل و لا حرج» فلیس ذلک فیما یتعلق بتفسیر کتاب اللّه سبحانه بلا شک، بل فیما یذکر عنهم من القصص الواقعة لهم، و قد کرّرنا التنبیه علی مثل هذا عند عروض ذکر التفاسیر الغریبة. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ قال: خبر الحقّ الصدق البین. و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر عن عکرمة قال: قال ابن عباس: کل سلطان فی القرآن حجة و ذکر هذه الآیة، ثم قال: و أیّ سلطان کان للهدهد؟ یعنی أن المراد بالسلطان الحجة لا السلطان الذی هو الملک. و أخرج ابن أبی حاتم عنه فی قوله:

أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ قال: اطلعت علی ما لم تطلع علیه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أیضا

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۵۷

وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ قال: سبأ بأرض الیمن، یقال لها مأرب بینها و بین صنعاء مسیرة ثلاث لیال بِنَبَإٍ يَقِينٍ قال: بخبر حقّ. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن المنذر عنه أیضا: إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ قال:

کان اسمها بلقیس بنت ذی شیرة، و کانت صلباء شعراء. و روی عن الحسن و قتادة و زهیر بن محمد أنها بلقیس بنت شراحیل، و عن ابن جریج بنت ذی شرح. و أخرج ابن جریر و أبو الشیخ فی العظمة و ابن مردویه و ابن عساکر عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم «أحد أبوی بلقیس کان جنیّا» و أخرج ابن جریر و ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ قال: سریر کریم من ذهب و قوائمه من جوهر و لؤلؤ حسن الصنعة غالی الثمن. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: يُخْرِجُ الْخَبْءَ قال: یعلم کل خبیئة فی السماء و الأرض.

[سورة النمل (۲۷): الآیات ۲۷ الی ۴۰]

قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (۲۷) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (۲۸) قالَتْ يا

أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (۲۹) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۳۰) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ (۳۱)

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (۳۲) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (۳۳) قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (۳۴) وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (۳۵) فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (۳۶)

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ (۳۷) قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (۳۸) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (۳۹) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (۴۰)

جملة قالَ سَنَنْظُرُ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أي: قال سليمان للهدهد: سننظر فيما أخبرتنا به من هذه القصة أَ صَدَقْتَ فيما قلت أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ هذه الجملة الاستفهامية في محل نصب على أنها مفعول سننظر، و أم هي المتصلة، و قوله: أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ أبلغ من قوله أم كذبت، لأن المعنى:

من الذين اتصفوا بالكذب و صار خلقا لهم. و النظر هو التأمل و التصفح، و فيه إرشاد إلى البحث عن الأخبار، و الكشف عن الحقائق، و عدم قبول خبر المخبرين تقليدا لهم، و اعتمادا عليهم، إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه. ثم بين سليمان هذا النظر الذي وعد به فقال: اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ أي: إلى أهل سبأ. قال الزجاج: في ألقه خمسة أوجه: إثبات الياء في اللفظ و حذفها، و إثبات الكسرة للدلالة عليها، و بضم الهاء و إثبات الواو، و بحذف الواو و إثبات الضمة للدلالة عليها، و بإسكان الهاء. و قرأ بهذه اللغة الخامسة أبو عمرو و حمزة و أبو بكر. و قرأ قالون بكسر الهاء فقط من غير ياء. و روى عن هشام وجهان: إثبات الياء

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۱۵۸

لفظا و حذفها مع كسر الهاء. و قرأ الباقون بإثبات الياء في اللفظ، و قوله: بِكِتابِي هذا يحتمل أن يكون اسم الإشارة صفة للكتاب، و أن يكون بدلا منه، و أن يكون بيانا له، و خصّ الهدهد بإرساله بالكتاب لأنه المخبر بالقصة، و لكونه رأى منه من مخايل الفهم، و العلم، و ما يقتضي كونه أهلا للرسالة ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ أي تنحّ عنهم، أمره بذلك لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسل الملوك، و المراد: التنحي إلى مكان يسمع فيه حديثهم، حتى يخبر سليمان بما سمع، و قيل: معنى التولي: الرجوع إليه، و الأوّل أولى لقوله: فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ أي: تأمل و تفكر فيما يرجع بعضهم إلى بعض من القول، و ما يتراجعونه بينهم من الكلام قالَتْ أي: بلقيس يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ في الكلام حذف، و التقدير: فذهب الهدهد فألقاه إليهم، فسمعها تقول: يا أيها الملأ إلخ، و وصفت الكتاب بالكريم، لكونه من عند عظيم في نفسها، فعظمته إجلالا لسليمان، و قيل: وصفته بذلك لاشتماله على كلام حسن، و قيل: وصفته بذلك لكونه وصل إليها مختوما بخاتم سليمان، و كرامة الكتاب ختمه كما روى ذلك مرفوعا، ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب فقالت: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أي:

و إن ما اشتمل عليه من الكلام و تضمنه من القول مفتتح بالتسمية و بعد التسمية أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى أي:

لا تتكبروا كما يفعله جبابرة الملوك، و أن هي المفسرة، و قيل: مصدرية، و لا: ناهية، و قيل: نافية، و محل الجملة الرفع على أنها بدل من كتاب، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو أن لا تعلوا. قرأ الجمهور «إنه من سليمان و إنه» بكسرهما على الاستئناف، و قرأ

عكرمة و ابن أبى عبلة بفتحهما على إسقاط حرف الجرّ، و قرأ أبىّ «إن من سليمان و إن بسم اللّه» بحذف الضميرين و إسكان النونين على أنهما مفسرتان، و قرأ عبد اللّه بن مسعود «و إنه من سليمان» بزيادة الواو، و روى ذلك أيضا عن أبىّ. و قرأ أشهب العقيلى و ابن السميقع «أن لا تغلو» بالغين المعجمة من الغلوّ، و هو تجاوز الحدّ فى الكبر وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ أى: منقادين للدين، مؤمنين بما جئت به قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي الملأ: أشراف القوم، و المعنى يا أيها الأشراف أشيروا علىّ و بينوا لى الصواب فى هذا الأمر، و أجيبونى بما يقتضيه الحزم، و عبرت عن المشورة بالفتوى، لكون فى ذلك حلّ لما أشكل من الأمر عليها، و فى الكلام حذف، و التقدير: فلما قرأت بلقيس الكتاب، جمعت أشراف قومها و قالت لهم: يا أيها الملأ إنى ألقى إلىّ، يا أيها الملأ أفتونى، و كرّر قالت لمزيد العناية بما قالته لهم، ثم زادت فى التأدب و استجلاب خواطرهم ليمحضوها النصح، و يشيروا عليها بالصواب فقالت:

ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ أى: ما كنت مبرمة أمرا من الأمور حتى تحضروا عندى، و تشيروا علىّ، ف قالُوا مجيبين لها نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ فى العدد و العدّة وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ عند الحرب و اللقاء، لنا من الشجاعة و النجدة ما نمنع به أنفسنا، و بلدنا، و مملكتنا. ثم فوّضوا الأمر إليها لعلمهم بصحة رأيها، و قوة عقلها فقالوا: وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ أى: موكول إلى رأيك و نظرك فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ أى: تأملى ماذا تأمرينا به فنحن سامعون لأمرك مطيعون له، فلما سمعت تفويضهم الأمر إليها قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها أى: إذا دخلوا قرية من القرى خرّبوا مبانيها، و غيروا مغانيها، و أتلفوا

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۱۵۹

أموالها، و فرّقوا شمل أهلها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً أى: أهانوا أشرافها، و حطوا مراتبهم، فصاروا عند ذلك أذلة و إنما يفعلون ذلك لأجل أن يتمّ لهم الملك، و تستحكم لهم الوطأة و تتقرّر لهم فى قلوبهم المهابة.

قال الزجاج: أى: إذا دخلوها عنوة عن قتال و غلبة، و المقصود من قولها هذا، تحذير قومها من مسير سليمان إليهم و دخوله بلادهم، و قد صدقها اللّه سبحانه فيما قالت فقال سبحانه: وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ أى: مثل ذلك الفعل يفعلون. قال ابن الأنبارى: الوقف على قوله: وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وقف تام، فقال اللّه عزّ و جلّ تحقيقا لقولها: وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ و قيل: هذه الجملة من تمام كلامها، فتكون من جملة مقول قولها، و على القول الأوّل تكون هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ثم لما قدّمت لهم هذه المقدّمة، و بينت لهم ما فى دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة، أوضحت لهم وجه الرأى عندها، و صرحت لهم بصوابه فقالت: وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ أى: إنى أجرّب هذا الرجل بإرسال رسلى إليه بهدية مشتملة على نفائس الأموال، فإن كان ملكا أرضيناه بذلك، و كفينا أمره، و إن كان نبيا لم يرضه ذلك، لأن غاية مطلبه و منتهى أربه هو الدعاء إلى الدين، فلا ينجينا منه إلّا إجابته و متابعته و التدين بدينه و سلوك طريقته، و لهذا قالت:

فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ الفاء للعطف على مرسلة، و بم: متعلق بيرجع، و المعنى: إنى ناظرة فيما يرجع به رسلى المرسلون بالهدية، من قبول أو ردّ فعامله بما يقتضيه ذلك، و قد طوّل المفسّرون فى ذكر هذه الهدية، و سيأتى فى آخر البحث بين ما هو أقرب ما قيل إلى الصواب و الصحة فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ أى:

فلما جاء رسولها المرسل بالهدية سليمان، و المراد بهذا المضمر الجنس، فلا ينافى كونهم جماعة كما يدل عليه قولها: «بم يرجع المرسلون» و قرأ عبد اللّه «فلما جاءوا سليمان» أى: الرسل، و جملة قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ مستأنفة، جواب سؤال مقدّر، و الاستفهام للإنكار، أى: قال منكرا لإمدادهم له بالمال، مع علوّ سلطانه، و كثرة ماله. و قرأ حمزة بإدغام نون الإعراب فى نون الوقاية، و الباقون بنونين من غير إدغام، و أما الياء فإن نافعا و أبا عمرو و حمزة يثبتونها وصلا، و يحذفونها وقفا، و ابن كثير يثبتها فى الحالين، و الباقون يحذفونها فى الحالين. و روى عن نافع أنه يقرأ بنون واحدة فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ أى: ما آتانى من

النبوّة، و الملک العظیم، و الأموال الکثیرة خیر مما آتاکم من المال الـذی هـذه الهدیـة من جملته. قرأ أبو عمرو و نافع و حفص «آتانی اللّه» بیاء مفتوحة، و قرأ یعقوب بإثباتها فی الوقف، و حذفها فی الوصل، و قرأ الباقون بغیر یاء فی الوصل و الوقف. ثم إنه أضـرب عن الإنکـار المتقـدّم فقـال: بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ توبیخا لهم بفرحهم بهـذه الهدیـة فرح فخر و خیلاء، و أما أنا فلا أفرح بها، و لیست الدنیا من حاجتی، لأن اللّه سبحانه قد أعطانی منها، ما لم یعطه أحدا من العالمین، و مع ذلک أکرمنی بالنبوّة. و المراد بهـذا الإضـراب من سـلیمان بیـان السـبب الحامـل لهم علی الهدیـة مع الإـزراء بهم، و الحط علیهم ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها أی:

قـال سـلیمان للرسول: ارجع إلیهم: أی: إلی بلقیس و قومهـا، و خاطب المفرد هاهنا بعـد خطابه للجماعـة فیما قبل، إما لأن الـذی سیرجع هو الرسول فقـط، أو خص أمیر الرسـل بالخطاب هنا، و خاطبهم معه فیما سبق افتنانا فی الکلام. و قرأ عبـد اللّه بن عباس «ارجعوا» و قیل: إن الضمیر یرجع إلی الهدهد، و اللام فی

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۶۰

لنأتیهم جواب قسم محذوف. قال النحاس: و سمعت ابن کیسان یقول: هی لام توکید و لام أمر و لام خفض، و هذا قول الحذاق من النحویین لأـنهم یردون الشـیء إلی أصـله، و هـذا لا یتهیأ إلا لمن درب فی العربیـة، و معنی «لا قبل لهم»: لا طاقـة لهم بها، و الجملة فی محل جرّ صفة لجنود وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ معطوف علی جواب القسم، أی: لنخرجنهم من أرضهم التی هم فیها أَذِلَّةً أی: حال کونهم أذلة بعد ما کانوا أعزّة، و جملة وَ هُمْ صاغِرُونَ فی محل نصب علی الحال، قیل: و هی حال مؤکدة لأن الصـغار هو الذلة، و قیل: إن المراد بالصـغار هنا الأسـر و الاسـتعباد، و قیل: إن الصـغار الإهانة التی تسبب عنها الذلة. و لما رجع الرسول إلی بلقیس تجهزت للمسـیر إلی سـلیمان، و أخبر جبریل سـلیمان بذلک ف قالَ سلیمان: یا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها أی: عرش بلقیس الذی تقدّم وصـفه بالعظم قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ أی: قبل أن تأتینی هی و قومها مسلمین. قیل: إنما أراد سلیمان أخذ عرشها قبل أن یصـلوا إلیه و یسـلموا، لأنها إذا أسـلمت و أسـلم قومها لم یحلّ أخـذ أموالهم بغیر رضاهم. قال ابن عطیة: و ظاهر الروایات أن هذه المقالة من سلیمان هی بعد مجیء هدیتها و ردّه إیاها و بعثه الهدهد بالکتاب، و علی هذا جمهور المتأوّلین، و قیل: استدعاء العرش قبل وصولها لیریها القـدرة التی هی من عنـد اللّه، و یجعله دلیلا علی نبوّته، و قیل: أراد أن یختبر عقلها، و لهـذا قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها إلخ، و قیل: أراد أن یختبر صدق الهدهد فی وصفه للعرش بالعظم، و القول الأوّل هو الذی علیه الأکثر قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ قرأ الجمهور بکسـر العین و سکون الفاء و کسر الراء و سکون المثناة التحتیة و بالتاء، و قرأ أبو رجاء و عیسـی الثقفی و ابن السـمیقع و أبو السـمال «عفریـة» بفتح التحتیة بعدها تاء تأنیث منقلبة هاء رویت هذه القراءة عن أبی بکر الصدیق. و قرأ أبو حیان بفتح العین. و العفریت: المارد الغلیظ الشدید. قال النحاس: یقال للشدید إذا کان معه خبث و دهاء عفر و عفریة و عفریت، و قال قتادة: هو الداهیة، و قیل: هو رئیس الجنّ. قال ابن عطیة:

و قرأت فرقة «عفر» بکسر العین جمعه علی عفار، و مما ورد من أشعار العرب مطابقا لقراءة الجمهور و ما أنشده الکسائی:

فقال شیطان لهم عفریتما لکم مکث و لا تبییت «۱»

و مما ورد علی القراءة الثانیة قول ذی الرمة:

کأنّه کوکب فی إثر عفریةمصوّب فی سواد اللّیل منقضب

و معنی قول العفریت أنه سیأتی بالعرش إلی سلیمان، قبل أن یقوم من مجلسه الـذی یجلس فیه للحکومـة بین الناس وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ إنی لقـوی علی حملـه أمیـن علی مـا فیـه. قیـل: اسم هـذا العفریت کـودن، ذکره النحـاس عن وهب بن منبه، و قـال السهیلی: ذکوان، و قیل: اسمه دعوان، و قیل: صخر. و قوله:

(۱). فی القرطبی ۱۳/ ۲۰۳: إذ قال شیطانهم العفریت‌لیس لکم ملک و لا تثبیت فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۶۱
آتِیکَ فعل مضارع، و أصله أأتیک بهمزتین، فأبدلت الثانیهٔ ألفا، و قیل: هو اسم فاعل قالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتابِ أَنَا آتِیکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ یَرْتَدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ قال أکثر المفسرین: اسم هذا الذی عنده علم من الکتاب آصف بن برخیا، و هو من بنی إسرائیل، و کان وزیرا لسلیمان، و کان یعلم اسم اللّه الأعظم الذی إذا دعی به أجاب، و إذا سئل به أعطی. قال ابن عطیهٔ: و قالت فرقهٔ هو سلیمان نفسه، و یکون الخطاب علی هذا للعفریت: کأن سلیمان استبطأ ما قاله العفریت، فقال له تحقیرا له أَنَا آتِیکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ یَرْتَدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ و قیل: هو جبریل، و قیل: الخضر، و الأوّل أولی. و قد قیل غیر ذلک بما لا أصل له. و المراد بالطرف: تحریک الأجفان و فتحها للنظر و ارتداده انضمامها. و قیل: هو بمعنی المطروف، أی: الشیء الذی ینظره، و قیل: هو نفس الجفن عبر به عن سرعهٔ الأمر کما تقول لصاحبه: أفعل ذلک فی لحظهٔ، قاله مجاهد، و قال سعید بن جبیر: إنه قال لسلیمان: انظر إلی السماء فما طرف حتی جاء به، فوضعه بین یدیه. و المعنی:
حتی یعود إلیک طرفک بعد مدّهٔ إلی السماء، و الأول: أولی هذه الأقوال: ثم الثالث: فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قیل: فی الآیهٔ حذف، و التقدیر: فأذن له سلیمان فدعا اللّه فأتی به، فلما رآه سلیمان مستقرّا عنده، أی: رأی العرش حاضرا لدیه قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّی لِیَبْلُوَنِی أَ أَشْکُرُ أَمْ أَکْفُرُ الإشارهٔ بقوله هذا إلی حضور العرش، لیبلونی: أی لیختبرنی أشکره بذلک و أعترف أنه من فضله من غیر حول منی و لا قوّهٔ، أم أکفر بترک الشکر، و عدم القیام به. قال الأخفش: المعنی لینظر: أ أشکر أم أکفر، و قال غیره: معنی لیبلونی لیتعبدنی، و هو مجاز، و الأصل فی الابتلاء: الاختبار وَ مَنْ شَکَرَ فَإِنَّما یَشْکُرُ لِنَفْسِهِ لأنه استحق بالشکر تمام النعمهٔ و دوامها، و المعنی: أنه لا یرجع نفع ذلک إلا إلی الشاکر وَ مَنْ کَفَرَ بترک الشکر فَإِنَّ رَبِّی غَنِیٌّ عن شکره کَرِیمٌ فی ترک المعاجلهٔ بالعقوبهٔ بنزع نعمه عنه و سلبه ما أعطاه منها، و أم فی «أم أکفر» هی المتصلهٔ.
و قد أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: اذْهَبْ بِکِتابِی هذا فَأَلْقِهْ إِلَیْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ کن قریبا منهم فَانْظُرْ ما ذا یَرْجِعُونَ فانطلق بالکتاب حتی إذا توسط عرشها ألقی الکتاب إلیها فقریء علیها فإذا فیه إِنَّهُ مِنْ سُلَیْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ و أخرج ابن مردویه عنه کِتابٌ کَرِیمٌ قال: مختوم و أخرج ابن أبی حاتم عن میمون بن مهران أن النبی صلّی اللّه علیه و سلم کان یکتب «باسمک اللّهم» حتی نزلت إِنَّهُ مِنْ سُلَیْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ و أخرج أبو داود فی مراسیله عن أبی مالک مرفوعا مثله. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: أَفْتُونِی فِی أَمْرِی قال: جمعت رؤوس مملکتها، فشاورتهم فی رأیها، فأجمع رأیهم و رأیها علی أن یغزوه، فسارت حتی إذا کانت قریبهٔ قالت: أرسل إلیه بهدیهٔ، فإن قبلها فهو ملک أقاتله، و إن ردّها تابعته فهو نبیّ. فلما دنت رسلها من سلیمان علم خبرهم، فأمر الشیاطین فموّهوا ألف قصر من ذهب و فضهٔ، فلما رأت رسلها قصور الذهب قالوا: ما یصنع هذا بهدیتنا، و قصوره ذهب و فضهٔ، فلما دخلوا علیه بهدیتها قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ ثم قال سلیمان أَیُّکُمْ یَأْتِینِی بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ یَأْتُونِی مُسْلِمِینَ فقال کاتب سلیمان: ارفع بصرک فرفع بصره، فلما رجع إلیه طرفه فإذا هو بسریر

قالَ نَکِّرُوا لَها عَرْشَها فنزع منه فصوصه و مرافقه و ما کان علیه من شیء ف قِیلَ لها أَ هکَذا عَرْشُکِ قالَتْ کَأَنَّهُ هُوَ و أمر الشیاطین فجعلوا لها صرحا ممرّدا من قواریر فیها تماثیل السمک، ف قِیلَ لَهَا ادْخُلِی الصَّرْحَ فکشفت عن ساقیها فإذا فیها شعر، فعند ذلک أمر بصنعهٔ النورهٔ فصنعت، فقیل لها:
إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِیرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَیْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ و أخرج ابن أبی شیبهٔ و ابن جریر و

ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها قال: إذا أخـذوها عنوة أخربوها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: يقول الربّ تبارك و تعالى: وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ و أخرج ابن أبى شـيبة فى المصـنف و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ قال: أرسـلت لبنـة من ذهب، فلما قـدموا إذا حيطان المدينة من ذهب فذلك قوله: أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ الآيـة. و قال ثابت البنانى أهدت له صـفائح الذهب فى أوعية الديباج. و قال مجاهد: جوارى لباسـهن لباس الغلمان، و غلمان لباسـهم لباس الجوارى. و قال عكرمـة: أهـدت مائتى فرس على كل فرس غلام و جارية، و على كلّ فرس لون ليس على الآخر. و قـال سـعيد بن جبير: كـانت الهديـة جواهر، و قيـل: غير ذلـك مما لا فائـدة فى التطويل بـذكره. و أخرج ابن المنذر من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قال: طائعين. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: اسم العفريت:

صخر. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عنه أيضـا قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ قال: من مجلسك. و أخرج ابن أبى حـاتم عنه أيضـا قـالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ قال: هو آصف بن برخيا، و كان صـدّيقا يعلم الاسم الأعظم. و أخرج أبو عبيـد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال فى قراءة ابن مسـعود «قال الذى عنده علم من الكتاب أنا أنظر فى كتـاب ربى، ثم آتيـك به قبـل أن يرتـد إليـك طرفـك» قال: فتكلم ذلك العالم بكلام دخل العرش فى نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم. و أخرج عبـد بن حميـد عن ابن عباس فى قوله: قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ قال: قال لسليمان انظر إلى السـماء، قال: فمـا أطرف حتى جـاءه به فوضـعه بين يـديه. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن المنـذر و ابن عساكر عن ابن عباس قال: لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض و السماء، و لكن انشقت به الأرض، فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدى سليمان.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٤١ الى ٤٤]

قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَ هكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٤)

قوله: نَكِّرُوا لَها عَرْشَها التنكير: التغيير، يقول: غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته. قيل:

جعل أعلاه أسفله، و أسفله أعلاه، و قيل: غيّر بزيادة و نقصان. قال الفراء و غيره: إنما أمر بتنكيره لأن

فتح القدير، ج‏٤، ص: ١٦٣

الشـياطين قـالوا له إن فى عقلهـا شـيئا، فـأراد أن يمتحنهـا، و قيـل: خـافت الجنّ أن يتزوج بها سـليمان، فيولـد له منها ولـد فيبقون مسـخرين لآل سليمان أبدا، فقالوا لسليمان إنها ضعيفة العقل و رجلها كرجل الحمار، و قوله: نَنْظُرْ بالجزم على أنه جواب الأمر، و بـالجزم قرأ الجمهـور، و قرأ أبـو حيـان بـالرفع على الاستئنـاف أَ تَهْتَدِي إلى معرفته، أو إلى الإيمـان بـاللّه أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ إلى ذلك فَلَمَّا جاءَتْ أى: بلقيس إلى سـليمان قِيلَ لها، و القائل هو سـليمان، أو غيره بأمره أَ هكَذا عَرْشُكِ لم يقل هذا عرشـك لئلا يكون ذلك تلقينا لها فلا يتمّ الاختبار لعقلها قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ قال مجاهـد: جعلت تعرف و تنكر و تعجب من حضوره عنـد سـليمان، فقالت: كأنه هو. و قال مقاتل: عرفته و لكنها شـبهت عليهم كما شـبهوا عليها، و لو قيل لها: أ هذا عرشك؟ لقالت: نعم. و قال عكرمة: كانت حكيمة، قالت: إن قلت هو خشيت أن أكذب، و إن قلت لا خشيت أن أكذب، فقالت: كأنه هو، و قيل: أراد سـليمان أن يظهر لهـا أن الجنّ مسـخرون له وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ قيل: هو من كلام بلقيس، أى: أوتينا العلم

بصحۀ نبوّۀ سلیمان من قبل هذه الآیۀ فی العرش «و کنا مسلمین» منقادین لأمره. و قیل: هو من قول سلیمان، أی: أتینا العلم بقدرۀ اللّه من قبل بلقیس، و قیل: أوتینا العلم بإسلامها و مجیئها طائعۀ من قبلها، أی: من قبل مجیئها، و قیل: هو من کلام قوم سلیمان. و القول الثانی: أرجح من سائر الأقوال وَ صَدَّها ما کانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ هذا من کلام اللّه سبحانه بیان لما کان یمنعها من إظهار ما ادعته من الإسلام، ففاعل صد هو ما کانت تعبد، أی: منعها من إظهار الإیمان ما کانت تعبده، و هی الشمس. قال النحاس: أی صدّها عبادتها من دون اللّه، و قیل: فاعل صدّ هو اللّه، أی: منعها اللّه ما کانت تعبد من دونه فتکون «ما» فی محل نصب، و قیل: الفاعل سلیمان، أی: و منعها سلیمان ما کانت تعبد، و الأول: أولی، و الجملۀ مستأنفۀ للبیان کما ذکرنا، و جملۀ إِنَّها کانَتْ مِنْ قَوْمٍ کافِرِینَ تعلیل للجملۀ الأولی، أی: سبب تأخرها عن عبادۀ اللّه، و منع ما کانت تعبده عن ذلک أنها کانت من قوم متصفین بالکفر. قرأ الجمهور «إنها» بالکسر.

و قرأ أبو حیان بالفتح. و فی هذه القراءۀ وجهان: أحدهما أن الجملۀ بدل مما کانت تعبد. و الثانی أن التقدیر:

لأنها کانت تعبد، فسقط حرف التعلیل قِیلَ لَهَا ادْخُلِی الصَّرْحَ قال أبو عبیدۀ: الصرح: القصر.

و قال الزجاج: الصرح الصحن. یقال هذه صرحۀ الدار و قاعتها. قال ابن قتیبۀ: الصرح بلاط اتخذ لها من قواریر و جعل تحته ماء و سمک. و حکی أبو عبید فی الغریب أن الصرح کل بناء عال مرتفع، و أن الممرّد الطویل فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ کَشَفَتْ عَنْ ساقَیْها أی: فلما رأت الصرح بین یدیها حسبت أنه لجۀ، و اللجۀ معظم الماء، فلذلک کشفت عن ساقیها لتخوض الماء، فلما فعلت ذلک قالَ سلیمان إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِیرَ الممرّد المحکوک المملس، و منه الأمر، و تمرّد الرجل إذا لم تخرج لحیته، قال الفراء. و منه الشجرۀ المرداء التی لا ورق لها. و الممرّد أیضا المطوّل، و منه قیل للحصن: مارد، و منه قول الشاعر:

غدوت صباحا باکرا فوجدتهمقبیل الضّحی فی السّابریّ الممرّد

أی: الدروع الواسعۀ الطویلۀ، فلما سمعت بلقیس ذلک أذعنت و استسلمت، و قالَتْ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۶۴

أی: بما کنت علیه من عبادۀ غیرک، و قیل: بالظنّ الذی توهمته فی سلیمان، لأنها توهمت أنه أراد تغریقها فی اللجۀ، و الأوّل أولی وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَیْمانَ متابعۀ له داخلۀ فی دینه لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ التفتت من الخطاب إلی الغیبۀ، قیل: لإظهار معرفتها باللّه، و الأولی أنها التفتت لما فی هذا الاسم الشریف من الدلالۀ علی جمیع الأسماء، و لکونه علما للذات.

و قد أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: نَکِّرُوا لَها عَرْشَها قال: زید فیه و نقص ل نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِی قال: لننظر إلی عقلها فوجدت ثابتۀ العقل. و أخرج الفریابی و ابن أبی شیبۀ و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: وَ أُوتِینَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها قال: من قول سلیمان. و أخرج ابن أبی حاتم عن زهیر بن محمد نحوه. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً قال: بحرا. و أخرج ابن أبی شیبۀ و عبد بن حمید و ابن أبی حاتم عنه فی أثر طویل أن سلیمان تزوّجها بعد ذلک. قال أبو بکر ابن أبی شیبۀ: ما أحسنه من حدیث. قال ابن کثیر فی تفسیره بعد حکایته لقول أبی بکر بن أبی شیبۀ: بل هو منکر جدا، و لعله من أوهام عطاء بن السائب علی ابن عباس، و اللّه أعلم.

و الأقرب فی مثل هذه السیاقات أنها متلقاۀ عن أهل الکتاب بما یوجد فی صحفهم، کروایات کعب و وهب سامحهما اللّه، فیما نقلا- إلی هذه الأمۀ من بنی إسرائیل من الأوابد و الغرائب و العجائب، مما کان، و مما لم یکن، و مما حرّف و بدّل و نسخ، انتهی، و کلامه هذا هو شعبۀ مما قد کررناه فی هذا التفسیر و نبهنا علیه فی عدّۀ مواضع، و کنت أظنّ أنه لم ینبه علی ذلک غیری. فالحمد للّه علی الموافقۀ لمثل هذا الحافظ المنصف. و أخرج البخاری فی تاریخه و العقیلی عن أبی موسی الأشعری قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «أوّل من صنعت له الحمّامات سلیمان» و روی عنه مرفوعا من طرق أخری رواها الطبرانی و

ابن عدیّ فی الکامل و البیهقی فی الشعب بلفظ «أوّل من دخل الحمّام سلیمان فلمّا وجد حرّه قال أوّه من عذاب اللّه».

[سورة النمل (٢٧): الآيات ۴۵ الى ۵۳]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (۴۵) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۶) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (۴۷) وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (۴۸) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (۴۹)

وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۵۰) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۱) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۵۲) وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۵۳)

قوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا معطوف على قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ و اللام: هی الموطئة للقسم، و هذه القصة من جملة بيان قوله: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ و صالِحاً عطف بيان،

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۶۵

و أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ تفسير للرسالة، و أن: هی المفسرة، و يجوز أن تكون مصدرية، أی: بأن اعبدوا اللّه، و إذا، فی فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ هی: الفجائية، أی: ففاجؤوا التفرق و الاختصام، و المراد بال فَرِيقانِ المؤمنون منهم و الكافرون، و معنى الاختصام: أن كلّ فريق يخاصم على ما هو فيه، و يزعم أن الحقّ معه، و قيل: إن الخصومة بينهم فی صالح، هل هو مرسل أو لا؟ و قيل: أحد الفريقين: صالح، و الفريق الآخر:

جميع قومه، و هو ضعيف قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ أی: قال صالح للفريق الكافر منهم، منكرا عليهم: لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؟ قال مجاهد: بالعذاب قبل الرحمة. و المعنى: لم تؤخرون الإيمان الذی يجلب إليكم الثواب، و تقدّمون الكفر الذی يجلب إليكم العقوبة؟ و قد كانوا لفرط كفرهم يقولون: ائتنا يا صالح بالعذاب لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ هلا تستغفرون اللّه، و تتوبون إليه من الشرك لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ رجاء أن ترحموا أو كی ترحموا فلا تعذبوا، فإن استعجال الخير، أولى من استعجال الشرّ، و وصف العذاب بأنه سيئة مجازا، إما لأن العقاب من لوازمه، أو لأنه يشبهه فی كونه مكروها، فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح و الكلام اللين أنهم قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ أصله: تطيرنا، و قد قرئ بذلك، و التطير: التشاؤم، أی: تشاءمنا بك، و بمن معك ممن أجابك، و دخل فی دينك، و ذلك لأنه أصابهم قحط، فتشاءموا بصالح، و قد كانت العرب أكثر الناس طيرة، و أشقاهم بها، و كانوا إذا أرادوا سفرا، أو أمرا من الأمور، نفروا طائرا من وكره، فإن طار يمنة ساروا، و فعلوا ما عزموا عليه، و إن طار يسرة تركوا ذلك، فلما قالوا ذلك قالَ لهم صالح طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أی: ليس ذلك بسبب الطير الذی تتشاءمون به، بل سبب ذلك عند اللّه، و هو ما يقدّره عليكم، و المعنى: أن الشؤم الذی أصابكم هو من عند اللّه بسبب كفركم، و هذا كقوله تعالى: يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان، فقال: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ أی: تمتحنون، و تختبرون، و قيل: تعذبون بذنوبكم، و قيل: يفتنكم غيركم، و قيل: يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة، أو بما لأجله تطيرون، فأضرب عن ذكر الطائر إلى ما هو السبب الداعی إليه وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ التی فيها صالح، و هو الحجر تِسْعَةُ رَهْطٍ أی: تسعة رجال من أبناء الأشراف، و الرهط: اسم للجماعة، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم جماعة، و الجمع: أرهط و أراهط، و هؤلاء التسعة هم أصحاب قدار؛ عاقر الناقة، ثم وصف هؤلاء بقوله: يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ أی: شأنهم و عملهم الفساد فی الأرض الذی لا يخالطه صلاح، و قد اختلف فی أسماء هؤلاء التسعة

اختلافا كثيرا، لا حاجة إلى التطويل بذكره قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ أي: قال بعضهم لبعض: احلفوا باللّه، هذا على أن تقاسموا: فعل أمر، و يجوز أن يكون فعلا ماضيا مفسرا لقالوا، كأنه قيل ما قالوا، فقال: تقاسموا. أو يكون حالا على إضمار قد، أي: قالوا ذلک متقاسمين؛ و قرأ ابن مسعود «يفسدون في الأرض و لا يصلحون تقاسموا باللّه» و ليس فيها قالوا، و اللام في لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ جواب القسم، أي: لنأتينه بغتة في وقت البيات، فنقتله و أهله ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ قرأ الجمهور بالنون للمتكلم، في لنبيتنه، و في لنقولن، و اختار هذه القراءة أبو حاتم. و قرأ حمزة

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۶۶

و الكسائي بالفوقية على خطاب بعضهم لبعضهم، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و قرأ مجاهد و حميد بالتحتية فيهما، و المراد بوليّ صالح: رهطه ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ أي: ما حضرنا قتلهم و لا ندري من قتله، و قتل أهله، و نفيهم لشهودهم لمكان الهلاک، يدلّ على نفي شهودهم لنفس القتل بالأولى، و قيل: إن المهلك بمعنى الإهلاک و قرأ حفص و السلمي مهلك بفتح الميم و اللام، و قرأ أبو بكر و المفضل بفتح الميم و كسر اللام وَ إِنَّا لَصادِقُونَ فيما قلناه. قال الزجاج: و كان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحا و أهله، ثم ينكروا عن أوليائه أنهم ما فعلوا ذلک و لا رأوه و كان هذا مكرا منهم، و لهذا قال اللّه سبحانه: وَ مَكَرُوا مَكْراً أي: بهذه المحالفة وَ مَكَرْنا مَكْراً جازيناهم بفعلهم فأهلكناهم وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ بمكر اللّه بهم فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أي: انظر ما انتهى إليه أمرهم الذي بنوه على المكر، و ما أصابهم بسببه أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ قرأ الجمهور بكسر همزة أنا، و قرأ حمزة و الكسائي و الأعمش و الحسن و ابن أبي إسحاق و عاصم بفتحها، فمن كسر جعله استئنافا. قال الفراء و الزجاج: من كسر استأنف، و هو يفسر به ما كان قبله، كأنه جعله تابعا للعاقبة، كأنه قال: العاقبة إنا دمرناهم، و على قراءة الفتح، يكون التقدير بأنا دمرناهم، أو لأنا دمرناهم، و كان تامة، و عاقبة فاعل لها، أو يكون بدلا من عاقبة، أو يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هي أنا دمرناهم و يجوز أن تكون كان ناقصة و كيف خبرها، و يجوز أن يكون خبرها أنا دمرنا.

قال أبو حاتم: و في حرف أبيّ أن دمرناهم. و المعنى في الآية: أن اللّه دمر التسعة الرهط المذكورين، و دمّر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك، و معنى التأكيد بأجمعين، أنه لم يشذ منهم أحد، و لا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم، و جملة فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً مقرّرة لما قبلها. قرأ الجمهور خاوية بالنصب على الحال. قال الزجاج: المعنى فانظر إلى بيوتهم حال كونها خاوية، و كذا قال الفراء و النحاس، أي: خالية عن أهلها خرابا، ليس بها ساكن. و قال الكسائي و أبو عبيدة: نصب خاوية على القطع، و الأصل فتلك بيوتهم الخاوية، فلما قطع منها الألف و اللام نصبت، كقوله: وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً و قرأ عاصم بن عمر و نصر بن عاصم و الجحدري و عيسى بن عمر برفع «خاوية» على أنه خبر اسم الإشارة، و بيوتهم بدل، أو عطف بيان، أو خبر لاسم الإشارة، و خاوية خبر آخر، و الباء في بِما ظَلَمُوا للسببية، أي: بسبب ظلمهم إِنَّ فِي ذلِكَ التدمير و الإهلاک لَآيَةً عظيمة لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أي: يتصفون بالعلم بالأشياء وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا و هم صالح، و من آمن به وَ كانُوا يَتَّقُونَ اللّه و يخافون عذابه.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس طائِرُكُمْ قال: مصائبكم. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عنه في قوله: وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ قال: هم الذين عقروا الناقة، و قالوا حين عقروها: نبيت صالحا و أهله فنقتلهم، ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئا، و ما لنا به علم، فدمرهم اللّه أجمعين.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۶۷

[سورة النمل (۲۷): الآيات ۵۴ الى ۶۶]

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۵۴) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۵۵)

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۵۶) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (۵۷) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (۵۸)

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (۵۹) أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (۶۰) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۶۱) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (۶۲) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۳)

أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۶۴) قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (۶۵) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (۶۶)

انتصاب لوطا: بفعل مضمر معطوف على أرسلنا، أى: و أرسلنا لوطا، و إِذْ قالَ ظرف للفعل المقدر، و يجوز أن يقدر اذكر؛ و المعنى: و أرسلنا لوطا وقت قوله: لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أى: الفعلة المتناهية فى القبح و الشناعة، و هم أهل سدوم، و جملة وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ فى محل نصب على الحال متضمنة لتأكيد الإنكار، أى: و أنتم تعلمون أنها فاحشة. و ذلك أعظم لذنوبكم، على أن تبصرون من بصر القلب، و هو العلم، أو بمعنى النظر، لأنهم كانوا لا يستترون حال فعل الفاحشة عتوّا و تمرّدا، و قد تقدّم تفسير هذه القصة فى الأعراف مستوفى أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً فيه تكرير للتوبيخ مع التصريح، بأن تلك الفاحشة: هى اللواطة، و انتصاب شهوة على العلة، أى: للشهوة، أو على أنه صفة لمصدر محذوف، أى: إتيانا شهوة، أو أنه بمعنى الحال، أى: مشتهين لهم مِنْ دُونِ النِّساءِ أى: متجاوزين النساء اللاتى هنّ محل لذلك بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ التحريم، أو العقوبة على هذه المعصية، و اختار الخليل، و سيبويه تخفيف الهمزة من أ إنكم فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ قرأ الجمهور بنصب جواب على أنه خبر كان، و اسمها إلا أن قالوا، أى: إلا قولهم. و قرأ ابن أبى إسحاق برفع جواب على أنه اسم كان، و خبرها ما بعده، ثم عللوا ما أمروا به بعضهم بعضا من الإخراج بقولهم: إنهم أناس يتطهرون: أى يتنزهون عن أدبار الرجال، قالوا ذلك استهزاء منهم بهم فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ من العذاب إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ أى: قدّرنا أنها من الباقين فى العذاب، و معنى قدرنا قضينا.

قرأ الجمهور قدّرنا بالتشديد، و قرأ عاصم بالتخفيف. و المعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۶۸

وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً هذا التأكيد يدل على شدّة المطر، و أنه غير معهود فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ المخصوص بالذم محذوف، أى: ساء مطر المنذرين مطرهم، و المراد بالمنذرين الذين أنذروا فلم يقبلوا، و قد مضى بيان هذا كله فى الأعراف و الشعراء قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ قال الفراء: قال أهل المعانى:

قيل للوط قل الحمد للّه على هلاكهم، و خالفه جماعة فقالوا: إن هذا خطاب لنبينا صلّى اللّه عليه و سلم، أى: قل الحمد للّه على هلاك كفار الأمم الخالية، و سلام على عباده الَّذِينَ اصْطَفى قال النحاس: و هذا أولى لأن القرآن منزل على النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و كلّ ما فيه فهو مخاطب به، إلا ما لم يصحّ معناه إلا لغيره. قيل: و المراد بعباده الذين اصطفى: أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و الأولى حمله على العموم، فيدخل فى ذلك الأنبياء و أتباعهم آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أى: آللّه الذى ذكرت أفعاله و صفاته الدالة على عظيم قدرته خير، أما يشركون به من الأصنام، و هذه الخيرية ليست بمعناها الأصلى، بل هى كقول الشاعر:

أ تهجوه و لست له بكفء فشرّكما لخيركما الفداء

فيكون ما فى الآية من باب التهكم بهم، إذ لا خير فيهم أصلا. و قد حكى سيبويه أن العرب تقول:

السعادة أحبّ إليك، أم الشقاوة، و لا خير فى الشقاوة أصلا. و قيل المعنى: أثواب اللّه خير، أم عقاب ما تشركون به؟ و قيل: قال لهم ذلك جريا على اعتقادهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن فى عبادة الأصنام خيرا.

و قيل: المراد من هذا الاستفهام الخبر. قرأ الجمهور «تشركون» بالفوقية على الخطاب، و هى اختيار أبى عبيد و أبى حاتم. و قرأ أبو عمرو و عاصم و يعقوب «يشركون» بالتحتية، و «أم» فى «يشركون» هى المتصلة، و أما فى قوله: أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فهى المنقطعة. و قال أبو حاتم: تقديره آلهتكم خير أم من خلق السموات و الأرض و قدر على خلقهنّ؟ و قيل المعنى: أ عبادة ما تعبدون من أوثانكم خير، أم عبادة من خلق السموات و الأرض؟ فتكون أم على هذا متصلة، و فيها معنى التوبيخ، و التهكم، كما فى الجملة الأولى.

و قرأ الأعمش «أمن» بتخفيف الميم وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً أى: نوعا من الماء، و هو المطر فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ جمع حديقة. قال الفراء: الحديقة البستان الذى عليه حائط، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان، و ليس بحديقة. و قال قتادة و عكرمة: الحدائق النخل ذاتَ بَهْجَةٍ أى ذات حسن و رونق.

و البهجة: هى الحسن الذى يبتهج به من رآه و لم يقل ذوات بهجة على الجمع لأن المعنى جماعة حدائق ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أى ما صح لكم أن تفعلوا ذلك، و معنى هذا النفى الحظر و المنع من فعل هذا، أى: ما كان للبشر و لا يتهيأ لهم ذلك و لا يدخل تحت مقدرتهم لعجزهم عن إخراج الشىء من العدم إلى الوجود.

ثم قال سبحانه موبخا لهم و مقرّعا أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ أى: هل معبود مع اللّه الذى تقدّم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به، و يجعل له شريكا له فى العبادة، و قرئ «أ إلها مع اللّه» بالنصب على تقدير: أ تدعون إلها. ثم أضرب عن تقريعهم و توبيخهم بما تقدّم، و انتقل إلى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فقال:

بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أى: يعدلون باللّه غيره، أو يعدلون عن الحق إلى الباطل، ثم شرع فى الاستدلال بأحوال الأرض و ما عليها فقال: أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً القرار: المستقرّ، أى: دحاها و سوّاها بحيث

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۶۹

يمكن الاستقرار عليها. و قيل: هذه الجملة و ما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله: «أمن خلق السموات و الأرض» و لا ملجئ لذلك، بل هى و ما بعدها إضراب، و انتقال من التوبيخ و التقريع بما قبلها، إلى التوبيخ و التقريع بشىء آخر وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً الخلال: الوسط. و قد تقدّم تحقيقه فى قوله: وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً «۱» وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ أى: جبالا ثوابت تمسكها، و تمنعها من الحركة وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً الحاجز: المانع، أى: جعل بين البحرين من قدرته حاجزا، و البحران هما: العذب و المالح، فلا يختلط أحدها بالآخر، فلا هذا يغير ذاك، و لا ذاك يدخل فى هذا، و قد مرّ بيانه فى سورة الفرقان أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ أى: إذا أثبت أنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه فهل إله فى الوجود يصنع صنعه و يخلق خلقه؟

فكيف يشركون به ما لا يضرّ و لا ينفع بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ توحيد ربهم، و سلطان قدرته أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ هذا الاستدلال منه سبحانه، بحاجة الإنسان إليه على العموم، و المضطر: اسم مفعول من الاضطرار: و هو المكروب المجهود الذى لا حول له و لا قوة. و قيل: هو المذنب. و قيل: هو الذى عراه ضرّ من فقر أو مرض، فألجأه إلى التضرّع إلى اللّه. و اللام فى المضطر للجنس لا للاستغراق، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين، لمانع يمنع من ذلك، بسبب يحدثه العبد، يحول بينه و بين إجابة دعائه، و إلا فقد ضمن اللّه سبحانه إجابة دعاء المضطرّ إذا دعاه، و أخبر بذلك عن نفسه، و الوجه فى إجابة المضطرّ أن ذلك

الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص، و قطع النظر عما سوى اللّه، و قد أخبر اللّه سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين، و إن كانوا كافرين فقال: حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ «۲» و قال: فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ «۳» فأجابهم عند ضرورتهم، و إخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم وَ يَكْشِفُ السُّوءَ أي: الذى يسوء العبد من غير تعيين، و قيل: هو الضرّ، و قيل: هو الجور وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أي: يخلف كل قرن منكم القرن الذى قبله بعد انقراضهم، و المعنى: يهلك قرنا، و ينشئ آخرين، و قيل: يجعل أولادكم خلفا منكم، و قيل: يجعل المسلمين خلفا من الكفار، ينزلون أرضهم و ديارهم أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ الذى يوليكم هذه النعم الجسام قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ أي: تذكرا قليلا ما تذكرون. قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب، و قرأ أبو عمرو و هشام و يعقوب بالتحتية على الخبر ردّا على قوله: «بل أكثرهم لا يعلمون» و اختار هذه القراءة أبو حاتم أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ أي: يرشدكم فى الليالى المظلمات إذا سافرتم فى البرّ أو البحر. و قيل المراد: مفاوز البرّ التى لا أعلام لها، و لجج البحار، و شبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ و المراد بالرحمة هنا: المطر، أي: يرسل الرياح بين يدى المطر، و قبل نزوله أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ يفعل ذلک، و يوجده تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أي: تنزه و تقدّس عن وجود ما يجعلونه شريكا له أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ كانوا يقرّون بأن اللّه سبحانه هو الخالق فألزمهم

---

(۱). الكهف: ۳۳.

(۲). يونس: ۲۲.

(۳). العنكبوت: ۶۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۷۰

الإعادة، أي: إذا قدر على الابتداء قدر على الإعادة وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ بالمطر و النبات، أي: هو خير أم ما تجعلونه شريكا له، مما لا يقدر على شيء من ذلک أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ حتى تجعلوه شريكا له قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أي: حجتكم على أن اللّه سبحانه شريكا، أو هاتوا حجتكم أن ثمّ صانعا يصنع كصنعه، و فى هذا تبكيت لهم، و تهكم بهم قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ أي: لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة فى السموات و الأرض الغيب الذى استأثر اللّه بعلمه، و الاستثناء فى قوله: إلا اللّه منقطع، أي: اللّه يعلم ذلک، و رفع ما بعد إلا مع كون الاستثناء منقطعا هو على اللغة التميمية كما فى قولهم:

إلّا اليعافير و إلّا العيس «۱» و قيل: إن فاعل يعلم: هو ما بعد إلا، و من فى السموات: مفعوله، و الغيب بدل من من: أى لا يعلم غيب من فى السموات و الأرض إلا اللّه، و قيل: هو استثناء متصل من من. و قال الزجاج: إلا اللّه بدل من من. قال الفراء: و إنما رفع ما بعد إلا لأن ما بعدها خبر، كقولهم: ما ذهب أحد إلا أبوک، و هو كقول الزجاج. قال الزجاج: و من نصب على الاستثناء وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ أي: لا يشعرون متى ينشرون من القبور، و أيان مركبة من أى و إن. و قد تقدّم تحقيقه، و الضمير للكفرة. و قرأ السلمى: إيان بكسر الهمزة، و هى لغة بنى سليم، و هى منصوبة بيبعثون، و معلقة بيشعرون، فتكون هى، و ما بعدها، فى محل نصب بنزع الخافض، أي: و ما يشعرون بوقت بعثهم، و معنى أيان: معنى متى بَلِ ادَّارَکَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ. قرأ الجمهور «ادّارک» و أصل ادّارک تدارک، أدغمت التاء فى الدال، و جيء بهمزة الوصل ليمكن الابتداء بالساكن. و قرأ أبو جعفر و ابن كثير و أبو عمرو و حميد «بل أدرک» من الإدراک. و قرأ عطاء ابن يسار و سليمان بن يسار و الأعمش «بل ادّرک» بفتح لام بل،

و تشدید الدال. و قرأ ابن محیصن «بل أدرک» علی الاستفهام. و قرأ ابن عباس و أبو رجاء و شیبة و الأعمش و الأعرج «بلی ادّراک» بإثبات الیاء فی بل، و بهمزة قطع، و تشدید الدال. و قرأ أبیّ «بل تدارک» و معنی الآیة: بل تکامل علمهم فی الآخرة لأنهم رأوا کل ما وعدوا به و عاینوه. و قیل معناه: تتابع علمهم فی الآخرة، و القراءة الثانیة معناها کمل علمهم فی الآخرة مع المعاینة، و ذلک حین لا ینفعهم العلم لأنهم کانوا فی الدنیا مکذبین. و قال الزجاج: إنه علی معنی الإنکار، و استدلّ علی ذلک بقوله فیما بعد: بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ أی: لم یدرک علمهم علم الآخرة، و قیل المعنی: بل ضلّ و غاب علمهم فی الآخرة، فلیس لهم فیها علم، و معنی القراءة الثالثة: کمعنی القراءة الأولی، فافتعل، و تفاعل، قد یجیئان لمعنی، و القراءة الرابعة: هی بمعنی الإنکار. قال الفراء: و هو وجه حسن کأنه وجهه إلی المکذبین علی طریق الاستهزاء بهم، و فی الآیة قراءات أخر، لا ینبغی الاشتغال بذکرها و توجیهها بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ مِنْها أی: بل هم الیوم فی الدنیا فی شک من الآخرة، ثم أضرب عن ذلک إلی ما هو أشدّ منه فقال: بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ فلا یدرکون شیئا من دلائلها لاختلال بصائرهم

---

(۱). البیت لعامر بن الحارث و عجزه: و بقر ملمّع کنوس.

فتح القدیر، ج‌۴، ص: ۱۷۱

التی یکون بها الإدراک، و عمون جمع عم: و هو من کان أعمی القلب، و المراد بیان جهلهم بها علی وجه لا یهتدون إلی شیء، مما یوصل إلی العلم بها، فمن قال: إن معنی الآیة الأولی أعنی بَلِ ادَّارَکَ عِلْمُهُمْ فِی الْآخِرَةِ أنه کمل علمهم و تمّ مع المعاینة، فلا بدّ من حمل قوله: بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ إلخ علی ما کانوا علیه فی الدنیا، و من قال: إن معنی الآیة الأولی الاستهزاء بهم، و التبکیت لهم لم یحتج إلی تقیید قوله: بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ إلخ بما کانوا علیه فی الدنیا. و بهذا یتضح معنی هذه الآیات و یظهر ظهورا بینا.

و قد أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و البزار و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ سَلامٌ عَلی عِبادِهِ الَّذِینَ اصْطَفی قال: هم أصحاب محمد صلّی اللّه علیه و سلم اصطفاهم اللّه لنبیه، و روی مثله عن سفیان الثوری. و الأولی: ما قدمناه من التعمیم، فیدخل فی ذلک أصحاب نبینا صلّی اللّه علیه و سلم دخولا أولیا.

و أخرج أحمد و أبو داود و النسائی و الطبرانی عن رجل من بلجهم قال: قلت: یا رسول اللّه إلی ما تدعو؟

قال: «أدعو اللّه وحده الذی إن مسّک ضرّ فدعوته کشفه عنک» هذا طرف من حدیث طویل. و قد رواه أحمد من وجه آخر، فبین اسم الصحابی فقال: حدّثنا عفان، حدّثنا حماد بن سلمة، حدّثنا یونس، حدّثنا عبید بن عبیدة الهجیمی عن أبیه عن أبی تمیمة الهجیمی عن جابر بن سلیم الهجیمی. و لهذا الحدیث طرق عند أبی داود و النسائی. و أخرج البخاری و مسلم و غیرهما من حدیث عائشة قالت: «ثلاث من تکلّم بواحدة منهم، فقد أعظم علی اللّه الفریة» و قالت فی آخره: «و من زعم أنّه یخبر النّاس بما یکون فی غد، فقد أعظم علی اللّه الفریة، و اللّه تعالی یقول: قُلْ لا یَعْلَمُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَیْبَ إِلَّا اللَّهُ» و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس بَلِ ادَّارَکَ عِلْمُهُمْ فِی الْآخِرَةِ قال: حین لا ینفع العلم. و أخرج أبو عبید فی فضائله و سعید بن منصور و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر عنه أنه قرأ «بل أدرک علمهم فی الآخرة» قال: لم یدرک علمهم. قال أبو عبید: یعنی أنه قرأها بالاستفهام. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أیضا «بل أدرک علمهم فی الآخرة» یقول: غاب علمهم.

[سورة النمل (۲۷): الآیات ۶۷ الی ۸۲]

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (۶۷) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۶۸) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (۶۹) وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (۷۰) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۷۱)

قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (۷۲) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (۷۳) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ (۷۴) وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (۷۵) إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۷۶)

وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (۷۸) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (۷۹) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (۸۰) وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۸۱)

وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (۸۲)

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۷۲

لما ذكر سبحانه أن المشركين فى شكّ من البعث، و أنهم عمون عن النظر فى دلائله أراد أن يبين غاية شبههم، و هى مجرّد استبعاد إحياء الأموات بعد صيرورتهم ترابا فقال: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ و العامل فى إذا محذوف، دلّ عليه مخرجون، تقديره: أ نبعث، أو نخرج إذا كنا؟ و إنما لم يعمل فيه مخرجون، لتوسط همزة الاستفهام، و إنّ و لام الابتداء بينهما. قرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الهمزة. و قرأ عاصم و حمزة باستفهامين، إلا أنهما حققا الهمزتين، و قرأ نافع بهمزة، و قرأ ابن عامر و ورش و يعقوب «أ إذا» بهمزتين «و إننا» بنونين على الخبر، و رجح أبو عبيدة قراءة نافع، و ردّ على من جمع بين استفهامين؛ و معنى الآية: أنهم استنكروا و استبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء، بعد أن قد صاروا ترابا، ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث فقالوا: لَقَدْ وُعِدْنا هذا يعنون البعث نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ أى: من قبل وعد محمد لنا، و الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الإنكار، مصدّرة بالقسم لزيادة التقرير إِنْ هذا الوعد بالبعث إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أحاديثهم و أكاذيبهم الملفقة، و قد تقدّم تحقيق معنى الأساطير فى سورة المؤمنون، ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث، فأمرهم بالنظر فى أحوال الأمم السابقة، المكذبة للأنبياء، و ما عوقبوا به، و كيف كانت عاقبتهم فقال:

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ بما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث، و معنى النظر: هو مشاهدة آثارهم بالبصر، فإن فى المشاهدة زيادة اعتبار. و قيل المعنى: فانظروا بقلوبكم و بصائركم كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم «۱»، و الأوّل أولى لأمرهم بالسير فى الأرض وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ لما وقع منهم من الإصرار على الكفر وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ الضيق: الحرج، يقال: ضاق الشيء ضيقا بالفتح، و ضيقا بالكسر قرئ بهما، و هما لغتان. قال ابن السكيت: يقال فى صدر فلان ضيق و ضيق و هو ما تضيق عنه الصدور. و قد تقدّم تفسير هذه الآية فى آخرة سورة النحل وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ أى: بالعذاب الذى تعدنا به إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى ذلك قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ يقال ردفت الرجل و أردفته إذا ركبت خلفه، و ردفه إذا أتبعه و جاء فى أثره، و المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفار عسى أن يكون هذا العذاب الذى به توعدون تبعكم و لحقكم، فتكون اللام زائدة للتأكيد، أو بمعنى: اقترب لكم، و دنا لكم، فتكون غير زائدة. قال ابن شجرة: معنى ردف لكم تبعكم، قال و منه ردف المرأة لأنه تبع لها من خلفها، و منه قول أبى ذؤيب:

عاد السّواد بياضا فى مفارقه‌لا مرحبا ببياض الشّيب إذ ردفا

قال الجوهرى: و أردفه لغة فى ردفه، مثل تبعه و أتبعه بمعنى. قال خزيمة بن مالك بن نهد:

إذا الجوزاء أردفت الثّرياظننت بآل فاطمة الظنونا

---

(١). هـذه العبـارة و مـا قبلها تفسير لقوله تعالى: «المكـذبين» التى وردت فى الأصل بـدلا من قوله تعالى: الْمُجْرِمِينَ و هو خطأ و الصحيح ما أثبت.

فتح القدير، ج۴، ص: ١٧٣

قال الفراء: ردف لكم: دنا لكم و لهذا قيل لكم. و قرأ الأعرج «ردف لكم» بفتح الدال و هى لغة، و الكسر أشهر. و قرأ ابن عباس «أزف لكم» و ارتفاع بَعْضُ الَّذِی تَسْتَعْجِلُونَ أى: على أنه فاعل ردف، و المراد: بعض الـذى تستعجلونه من العذاب، أى: عسى أن يكون قد قرب، و دنا، و أزف بعض ذلك، قيل: هو عذابهم بالقتل يوم بدر، و قيل: هو عذاب القبر. ثم ذكر سبحانه فضله فى تأخير العـذاب فقـال: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ فى تـأخير العقوبـة، و الأولى أن تحمل الآيـة على العموم و يكون تأخير العقوبـة من جملـة أفضاله سبحانه و إنعامه وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ فضـله و إنعامه و لا يعرفون حق إحسانه، ثم بين أنه مطلع على ما فى صدورهم، فقال: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ أى:

ما تخفيه. قرأ الجمهور «تكن» بضم التاء من أكنّ. و قرأ ابن محيصن و ابن السميقع و حميد بفتح التاء و ضم الكاف، يقال كننته: بمعنى سترته، و خفيت أثره وَ ما يُعْلِنُونَ و ما يظهرون من أقوالهم و أفعالهم وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِی السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِی کِتابٍ مُبِینٍ قـال المفسـرون: مـا من شـىء غـائب، و أمر يغيب عن الخلق فى السـماء و الأرض؛ إلا فى كتـاب مبين، إلا هو مبين فى اللوح المحفوظ، و غائبـة: هى من الصـفات الغالبـة، و التاء للمبالغة. قال الحسن: الغائبة هنا: هى القيامة. و قال مقاتل: علم ما يستعجلون من العذاب هو مبين عند اللّه، و إن غاب عن الخلق. و قال ابن شجرة: الغائبة هنا جميع ما أخفى اللّه عن خلقه، و غيبه عنهم مبين فى أمّ الكتاب، فكيف يخفى عليه شىء من ذلك، و من جملة ذلك ما يستعجلونه من العذاب، فإنه موقت بوقت، و مؤجل بأجل علمه عند اللّه، فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له؟ إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِی إِسْرائِیلَ أَکْثَرَ الَّذِی هُمْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ و ذلـك لأن أهـل الكتاب تفرّقوا فرقا، و تحزّبوا أحزابا، يطعن بعضـهم على بعض، و يتبرأ بعضـهم من بعض، فنزل القرآن مبينا لما اختلفوا فيه من الحق، فلو أخـذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم، و يدفع تفرّقهم وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ أى: و إنّ القرآن لهـدى و رحمـة لمن آمن بـاللّه، و تابع رسوله، و خصّ المؤمنين لأنهم المنتفعون به، و من جملتهم من آمن من بنى إسـرائيل إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ أى: يقضـى بين المختلفين من بين إسرائيل بما يحكم به من الحق، فيجازى المحق، و يعاقب المبطل، و قيـل: يقضـى بينهم فى الـدنيا، فيظهر مـا حرّفوه. قرأ الجمهور بحكمه بضم الحاء و سـكون الكاف. و قرأ جناح بكسـرها؛ و فتح الكاف، جمع حكمـة وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ العزيز الـذى لا يغالب، و العليم بما يحكم به، أو الكثير العلم، ثم أمره سـبحانه بالتوكل و قلـة المبالاة، فقـال: فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ و الفـاء لـترتيب الأمر على مـا تقـدّم ذكره، و المعنى: فوّض إليه أمرك، و اعتمـد عليه فـإنه ناصرك. ثم علل ذلك بعلتين: الأولى قوله: إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ أى: الظاهر، و قيل: المظهر. و العلة الثانية قوله: إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى فى انتفاء الجـدوى بالسـماع، أو كحال الصم الـذين لا يسـمعون، و لا يفهمون، و لا يهتدون صار ذلك سببا قويا فى عدم الاعتداد بهم، شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم و لا عقل، و بالصمّ الذين لا يسمعون المواعظ، و لا يجيبون الـدعاء إلى اللّه. ثم ذكر جملـة لتكميل التشبيه، و تأكيـده فقال: إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ أى: إذا أعرضوا عن الحق إعراضا تاما، فإن الأصمّ لا

فتح القدير، ج۴، ص: ١٧۴

يسمع الدعاء إذا كان مقبلا، فكيف إذا كان معرضا عنه موليا مدبرا. و ظاهر نفى إسماع الموتى العموم، فلا يخصّ منه إلا ما ورد

بـدليل، كما ثبت فى الصـحيح أنه صـلّى اللّه عليه و سـلم خاطب القتلى فى قليب بدر، فقيل له: يا رسول اللّه! إنما تكلم أجساد لا أرواح لها، و كذلك ما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا.
و قرأ ابن محيصن و حميد و ابن كثير و ابن أبى إسحاق «لا يسمع» بالتحتية مفتوحة و فتح الميم، و فاعله الصمّ.
و قرأ الباقون «تسمع» بضم الفوقية، و كسر الميم من أسـمع. قال قتادة الأصمّ إذا ولى مدبرا ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع مـا يـدعى إليه من الإيمان. ثم ضـرب العمى مثلا لهم فقال: وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ أى: ما أنت بمرشـد من أعمـاه اللّه عن الحق إرشـادا يوصـله إلى المطلوب منه و هو الإيمـان، و ليس فى وسـعك ذلك، و مثله قوله: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ «١» قرأ الجمهور بإضافة هادى إلى العمى.
و قرأ يحيى بن الحـارث و أبو حيـان «بهـاد العمى» بتنوين هاد. و قرأ حمزة «تهـدى» فعلا مضارعا، و فى حرف عبـد اللّه «و ما أن تهـدى العمى» إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنـا أى: مـا تسـمع إلا من يؤمن لا من يكفر، و المراد بمن يؤمن بالآيـات من يصـدّق القرآن، و جملـة فَهُمْ مُسْلِمُونَ تعليـل للإيمـان، أى: فهم منقـادون مخلصـون. ثم هـدّد العبـاد بـذكر طرف من أشراط السـاعـة و أهوالها: فقال: وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ
و اختلف فى معنى وقوع القول عليهم، فقال قتادة: وجب الغضب عليهم. و قال مجاهـد: حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون، و قيل: حق العـذاب عليهم، و قيل: وجب السـخط، و المعانى متقاربـة. و قيل: المراد بالقول ما نطق به القرآن من مجىء الساعة، و ما فيها من فنون الأهوال التى كـانوا يستعجلونها، و قيل: وقع القول بموت العلماء و ذهاب العلم، و قيل: إذا لم يأمروا بالمعروف و ينهوا عن المنكر. و الحاصل أن المراد بوقع:
وجب، و المراد بـالقول: مضـمونه، أو أطلق المصـدر على المفعـول، أى: القـول، و جواب الشـرط أَخْرَجْنـا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ
و اختلف فى هذه الدابة على أقوال، فقيل: إنها فصيل ناقة صالح يخرج عند اقتراب القيامة و يكون من أشراط الساعة. و قيل: هى دابة ذات شـعر، و قوائم طوال، يقال لها الجساسة. و قيل: هى دابة على خلقة بنى آدم، و هى فى السحاب و قوائمها فى الأرض. و قيل: رأسـها رأس ثور، و عينها عين خنزير، و أذنها أذن فيل، و قرنها قرن إيّل، و عنقها عنق نعامـة، و صـدرها صدر أسد، و لونها لون نمر و خاصـرتها خاصـرة هر، و ذنبهـا ذنب كبش، و قوائمها قوائم بعير، بين كل مفصل و مفصل اثنا عشر ذراعا. و قيل: هى الثعبـان المشرف على جـدار الكعبـة التى اقتلعهـا العقـاب، حين أرادت قريش بناء الكعبـة، و المراد أنها هى التى تخرج فى آخر الزمان، و قيل: هى دابـة ما لها ذنب و لها لحية، و قيل: هى إنسان ناطق متكلم يناظر أهل البدع و يراجع الكفار، و قيل: غير ذلك ممالا فائدة فى التطويل بذكره، و قد رجح القول الأوّل القرطبى فى تفسيره.
و اختلف من أىّ موضع تخرج؟ فقيل: من جبل الصفا بمكة، و قيل: تخرج من جبل أبى قبيس. و قيل:

---

(١). القصص: ۵۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۷۵

لها ثلاث خرجات: خرجـة فى بعض البوادى حتى يتقاتل عليها الناس، و تكثر الدماء ثم تكمن، و تخرج فى القرى، ثم تخرج من أعظم المساجد، و أكرمها و أشـرفها، و قيل: تخرج من بين الركن و المقام، و قيل: تخرج فى تهامة، و قيل: من مسجد الكوفة من حيث فار التنور، و قيل: من أرض الطائف، و قيل: من صخرة من شعب أجياد، و قيل من صدع فى الكعبة.
و اختلف فى معنى قوله: «تكلمهم» فقيل: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام، و قيل:

تکلمهم بما یسوءهم، و قیل: تکلمهم بقوله تعالی: أَنَّ النّاسَ کانُوا بِآیاتِنا لا یُوقِنُونَ أی: بخروجها لأن خروجها من الآیات. قرأ الجمهور «تکلمهم» من التکلیم، و یدلّ علیه قراءة أبیّ «تنبئهم» و قرأ ابن عباس و أبو زرعة و أبو رجاء و الحسن: تکلمهم بفتح الفوقیة و سکون الکاف من الکلم، و هو الجرح. قال عکرمة: أی تسمهم و سما، و قیل: تجرحهم، و قیل: إن قراءة الجمهور مأخوذة من الکلم بفتح الکاف و سکون اللام و هو الجرح، و التشدید للتکثیر، قاله أبو حاتم. قرأ الجمهور: أَنَّ النّاسَ کانُوا بِآیاتِنا لا یُوقِنُونَ بکسر إن علی الاستئناف، و قرأ الکوفیون و ابن أبی إسحاق بفتح «أن» قال الأخفش: المعنی علی قراءة الفتح «بأن الناس» و کذا قرأ ابن مسعود «بأن الناس» بالباء. و قال أبو عبید: موضعها نصب بوقوع الفعل علیها، أی: تخبرهم أن الناس، و علی هذه القراءة فالذی تکلم الناس به هو قوله: أَنَّ النّاسَ کانُوا بِآیاتِنا لا یُوقِنُونَ کما قدّمنا الإشارة إلی ذلک. و أما علی قراءة الکسر فالجملة مستأنفة کما قدّمنا، و لا تکون من کلام الدابة. و قد صرّح بذلک جماعة من المفسرین، و جزم به الکسائی و الفراء. و قال الأخفش: إن کسر «إن» هو علی تقدیر القول أی تقول لهم: «إن الناس» إلخ، فیرجع معنی القراءة الأولی علی هذا إلی معنی القراءة الثانیة، و المراد بالناس فی الآیة: هم الناس علی العموم، فیدخل فی ذلک کل مکلف، و قیل: المراد الکفار خاصّة، و قیل: کفار مکة، و الأوّل أولی.

و قد أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: عَسی أَنْ یَکُونَ رَدِفَ لَکُمْ قال: اقترب لکم. و أخرج ابن أبی حاتم عنه وَ إِنَّ رَبَّکَ لَیَعْلَمُ ما تُکِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما یُعْلِنُونَ قال: یعلم ما عملوا باللیل و النهار. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عنه أیضا وَ ما مِنْ غائِبَةٍ الآیة. یقول: ما من شیء فی السماء و الأرض سرّا و لا علانیة إلا یعلمه. و أخرج ابن المبارک فی الزهد و عبد الرزاق و الفریابی و ابن أبی شیبة و نعیم بن حماد و عبد بن حمید و ابن أبی الدنیا و ابن جریر و ابن أبی حاتم و الحاکم و ابن مردویه عن ابن عمر فی قوله: وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ الآیة قال: إذا لم یأمروا بمعروف و لم ینهوا عن منکر. و أخرجه ابن مردویه عنه مرفوعا. و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر عن أبی العالیة أنه فسر وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ بما أوحی إلی نوح أنه لن یؤمن من قومک إلا من قد آمن. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُکَلِّمُهُمْ قال: تحدّثهم. و أخرج ابن جریر عنه قال کلامها تنبئهم أن الناس کانوا بآیاتنا لا یوقنون. و أخرج عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن أبی داود نفیع الأعمی قال: سألت ابن عباس عن قوله: تُکَلِّمُهُمْ یعنی هل هو من التکلیم باللسان أو من الکلم و هو الجرح، فقال: کل

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۷۶

ذلک و اللّه تفعل تکلم المؤمن و تکلم الکافر، أی: تجرحه. و أخرج عبد بن حمید و ابن مردویه عن ابن عمر فی الآیة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «لیس ذلک حدیث و لا کلام و لکنّها سمة تسم من أمرها اللّه به، فیکون خروجها من الصفا لیلة منی، فیصبحون بین رأسها و ذنبها لا یدحض داحض و لا یجرح جارح، حتی إذا فرغت مما أمرها اللّه به، فهلک من هلک و نجا من نجا، کان أوّل خطوة تضعها بأنطاکیة». و أخرج عبد بن حمید عن ابن عباس قال: الدابة ذات وبر و ریش مؤلفة فیها من کل لون، لها أربع قوائم تخرج بعقب من الحاج. و أخرج أحمد و ابن مردویه عن أبی أمامة عن النبی صلّی اللّه علیه و سلم قال: «تخرج الدّابة فتسم علی خراطیمهم، ثم یعمّرون فیکم حتّی یشتری الرجل الدّابّة، فیقال له ممن اشتریتها؟ فیقول: من الرجل المخطم».

و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس «إنّ للدّابّة ثلاث خرجات»، و ذکر نحو ما قدّمنا. و أخرج ابن مردویه عن حذیفة بن أسید رفعه قال: «تخرج الدّابّة من أعظم المساجد حرمة». و أخرج سعید بن منصور و نعیم ابن حماد و عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: تخرج من بعض أودیة تهامة. و أخرج الطیالسی و أحمد و نعیم بن حماد و الترمذی و حسنه و

ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «تخرج دابّة الأرض و معها عصا موسى و خاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالخاتم، و تخطم أنف الكافر بالعصا، حتّى يجتمع الناس على الخوان، يعرف المؤمن من الكافر». و أخرج الطيالسى و نعيم بن حماد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و البيهقى فى البعث عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال: «ذكر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الدّابّة فقال: لها ثلاث خرجات من الدهر» و ذكر نحو ما قدّمنا فى حديث طويل. و فى صفتها، و مكان خروجها، و ما تصنعه، و متى تخرج أحاديث كثيرة بعضها صحيح، و بعضها حسن، و بعضها ضعيف. و أما كونها تخرج. و كونها من علامات الساعة، فالأحاديث الواردة فى ذلك صحيحة. و منها ما هو ثابت فى الصحيح كحديث حذيفة مرفوعا «لا تقوم السّاعة حتّى تروا عشر آيات» و ذكر منها الدابة فإنه فى صحيح مسلم و فى السنن الأربعة و كحديث «بادروا بالأعمال قبل طلوع الشّمس من مغربها، و الدّجّال، و الدّابّة» فإنه فى صحيح مسلم أيضا من حديث أبى هريرة مرفوعا، و كحديث ابن عمر مرفوعا «إنّ أوّل الآيات خروجا طلوع الشّمس من مغربها، و خروج الدّابّة على النّاس ضحى» فإنه فى صحيح مسلم أيضا.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٨٣ الى ٩٣]

وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (٨٧)

وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢)

وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

فتح القدير، ج۴، ص: ١٧٧

ثم ذكر سبحانه طرفا مجملا من أهوال يوم القيامة، فقال: وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً العامل فى الظرف، فعل محذوف خوطب به النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و الحشر: الجمع. قيل: و المراد بهذا الحشر هو حشر العذاب بعد الحشر الكلى الشامل لجميع الخلق، و من: لابتداء الغاية، و الفوج: الجماعة كالزمرة، و من فى مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا بيانية فَهُمْ يُوزَعُونَ أى: يحبس أوّلهم على آخرهم، و قد تقدّم تحقيقه فى هذه السورة مستوفى، و قيل معناه: يدفعون، و منه قول الشماخ:

و كم وزعنا من خميس جحفل «١» و معنى الآية: و اذكر يا محمد، يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعة؛ مكذّبين بآياتنا، فهم عند ذلك الحشر، يرد أوّلهم على آخرهم، أو يدفعون، أى: اذكر لهم هذا أو بينه تحذيرا لهم و ترهيبا حَتَّى إِذا جاؤُ إلى موقف الحساب قال اللّه لهم توبيخا و تقريعا أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي التى أنزلتها على رسلى، و أمرتهم بإبلاغها إليكم «و» الحال أنكم لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً بل كذبتم بها بادئ بدء، جاهلين لها غير ناظرين فيها، و لا مستدلين على صحتها، أو بطلانها تمرّدا، و عنادا و جرأة على اللّه و على رسله، و فى هذا مزيد تقريع و توبيخ، لأن من كذب بشىء و لم يحط به علما فقد كذب فى تكذيبه، و نادى على نفسه بالجهل، و عدم الإنصاف، و سوء الفهم، و قصور الإدراك، و من هذا القبيل من تصدّى لذمّ علم من العلوم الشرعية، أو

لـذمّ علم هو مقدّمـة من مقـدّماتها، و وسـيلة يتوسل بها إليها، و يفيد زيادة بصـيرة فى معرفتها، و تعقل معانيها كعلوم اللغة العربية بأسـرها، و هى اثنا عشـر علما، و علم أصول الفقه، فإنه يتوصل به إلى اسـتنباط الأحكام الشـرعية عن أدلتها التفصيلية، مع اشتماله على بيان قواعـد اللغـة الكليـة، و هكـذا كل علم من العلوم التى لها مزيد نفع فى فهم كتاب اللّه و سـنة رسوله، فإنه قد نادى على نفسه، بـأرفع صوت، بـأنه جاهـل مجادل بالباطل، طاعن على العلوم الشـرعية، مستحق لأن تنزل به قارعـة من قوارع العقوبـة التى تزجره عن جهله، و ضـلاله، و طعنه على مـا لاـ يعرفه، و لاـ يعلم به، و لاـ يحيط بكنهه حتى يصـير عبرة لغيره، و موعظـة يتعظ بها أمثـاله من ضـعاف العقـول و ركـاک الأديـان، و رعـاع المتلبسـين بـالعلم زورا و كـذبا، و أمـا فى قـوله: أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هى المنقطعـة، و المعنى: أم أىّ شـىء كنتم تعملون حتى شـغلكم ذلـک عن النظر فيهـا، و التفكر فى معانيهـا، و هـذا الاسـتفهام على طريق التبكيت لهم وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ قد تقدّم تفسيره قريبا، و الباء فى بِما ظَلَمُوا للسببية، أى: وجب القول عليهم بسـبب الظلم، الذى أعظم أنواعه الشـرک باللّه فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ عند وقوع القول عليهم، أى: ليس لهم عذر ينطقون به، أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم.

---

(۱). و عجزه: و كم حبونا من رئيس مسحل.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۷۸

و قال أكثر المفسـرين: يختم على أفواههم فلا ينطقون، ثم بعـد أن خوّفهم بأهوال القيامة؛ ذكر سـبحانه ما يصـلح أن يكون دليلا على التوحيد، و على الحشـر، و على النبوّة مبالغة فى الإرشاد و إبلاء للمعذرة، فقال: أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً أى: جعلنا الليل للسكون، و الاستقرار، و النوم، و ذلک بسبب ما فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه للمعاش، و النهار مبصرا ليبصـروا فيها ما يسعون له من المعاش الذى لا بدّ له منهم، و وصف النهار: بالإبصار، و هو وصف للناس، مبالغة فى إضاءته كأنه يبصر ما فيه.

قيل: فى الكلام حذف. و التقدير، و جعلنا الليل مظلما ليسكنوا، و حذف مظلما لدلالة مبصرا عليه، و قد تقدّم تحقيقه فى الإسراء و فى يونس إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور لَآياتٍ أى: علامات و دلالات لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ باللّه سـبحانه. ثم ذكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ هو معطوف على «و يوم نحشـر» منصوب بناصـبه المتقـدّم. قال الفراء: إن المعنى: و ذلكم يوم ينفخ فى الصور، و الأوّل أولى. و الصور: قرن ينفـخ فيه إسـرافيل، و قـد تقـدّم فى الأنعـام استيفـاء الكلاـم عليه. و النفخات فى الصور ثلاث:

نفخـة الفزع، و الثانيـة: نفخـة الصـعق، و الثالثـة: نفخة البعث. و قيل: إنها نفختان، و إن نفخة الفزع، إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصـعق، أو إلى نفخـة البعث، و اختار هـذا القشيرى و القرطبى و غيرهما. و قال الماوردى: هذه النفخة المذكورة هنا يوم النشور من القبور فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ أى: خـافوا و انزعجوا لشـدّة مـا سـمعوا، و قيل: المراد بالفزع هنا: الإسـراع و الإجابة إلى النداء، من قولهم فزعت إليک فى كذا: إذا أسـرعت إلى إجابتک، و الأوّل أولى بمعنى الآية. و إنما عبر بالماضى مع كونه معطوفا على مضارع للدلالة على تحقيق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان. و قال الفراء: هو محمول على المعنى لأن المعنى إذا نفخ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ أى: إلا من شاء اللّه أن لا يفزع عند تلک النفخة.

و اختلف فى تعيين من وقع الاسـتثناء له، فقيل: هم الشـهداء و الأنبياء، و قيل: الملائكـة، و قيل: جبريل، و ميكائيل، و إسـرافيل، و ملک الموت، و قيل: الحور العين، و قيل: هم المؤمنون كافة بدليل قوله فيما بعد:

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ و يمكن أن يكون الاستثناء شاملا لجميع المذكورين فلا مانع من ذلک

وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ قرأ الجمهور «آتوه» على صيغة اسم الفاعل مضافا إلى الضمير الراجع إلى اللّه سبحانه. و قرأ الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و حفص عن عاصم «أتوه» فعلا ماضيا، و كذا قرأ ابن مسعود. و قرأ قتادة «و كل أتاه». قال الزجاج: إن من قرأ على الفعل الماضي فقد وحد على لفظ كل، و من قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه، و هو غلط ظاهر، فإن كلا القراءتين لا توحيد فيهما، بل التوحيد فى قراءة قتادة فقط، و معنى «داخرين» صاغرين ذليلين، و هو منصوب على الحال، قرأ الجمهور «داخرين» و قرأ الأعرج «دخرين» بغير ألف، و قد مضى تفسير هذا فى سورة النحل وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً معطوف على «ينفخ». و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أو لكلّ من يصلح للرؤية، و «تحسبها جامدة» فى محل نصب على الحال من ضمير ترى، أو من مفعوله. لأن الرؤية بصرية، و قيل:

هى بدل من الجملة الأولى، و فيه ضعف، و هذه هى العلامة الثالثة لقيام الساعة، و معنى «تحسبها جامدة»:

فتح القدير، ج‏4، ص: 179

أى قائمة ساكنة، و جملة وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ فى محل نصب على الحال، أى: و هى تسير سيرا حثيثا كسير السحاب التى تسيرها الرياح. قال القتبى: و ذلك أن الجبال تجمع، و تسير و هى فى رؤية العين كالقائمة و هى تسير. قال القشيرى و هذا يوم القيامة، و مثله قوله تعالى: وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً «1» قرأ أهل الكوفة تحسبها بفتح السين، و قرأ الباقون بكسرها صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ انتصاب صنع على المصدرية، عند الخليل و سيبويه، و غيرهما، أى: صنع اللّه ذلك صنعا، و قيل: هو مصدر مؤكد لقوله:

«يوم ينفخ فى الصور» و قيل: منصوب على الإغراء، أى: انظروا صنع اللّه، و معنى «الذى أتقن كل شى‏ء» الذى أحكمه، يقال رجل تقن: أى حاذق بالأشياء، و جملة إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ تعليل لما قبلها من كونه سبحانه صنع ما صنع، و أتقن كل شى‏ء. و الخبير: المطلع على الظواهر و الضمائر. قرأ الجمهور بالتاء الفوقية على الخطاب، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و هشام بالتحتية على الخبر مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها الألف و اللام للجنس، أى: من جاء بجنس الحسنة فله من الجزاء و الثواب عند اللّه خير منها، أى: أفضل منها و أكثر، و قيل: خير حاصل من جهتها، و الأول أولى. و قيل: المراد بالحسنة هنا: لا إله إلا اللّه، و قيل:

هى الإخلاص، و قيل: أداء الفرائض، و التعميم أولى، و لا وجه للتخصيص، و إن قال به بعض السلف.

قيل: و هذه الجملة بيان لقوله: «إنه خبير بما تفعلون» و قيل: بيان لقوله: «و كل أتوه داخرين». قرأ عاصم و حمزة و الكسائى وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ بالتنوين و فتح ميم يَوْمَئِذٍ. و قرأ نافع بفتحها من غير تنوين.

و قرأ الباقون بإضافة فزع إلى يومئذ. قال أبو عبيد: و هذا أعجب إليّ لأنه أعم التأويلين لأن معناه: الأمن من فزع جميع ذلك اليوم، و مع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع. و قيل: إنه مصدر يتناول الكثير، فلا يتم الترجيح بما ذكر، فتكون القراءتان بمعنى واحد. و قيل: المراد بالفزع هاهنا هو الفزع الأكبر المذكور فى قوله: لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ «2»، و وجه قراءة نافع أنه نصب يوم على الظرفية، لكونه الإعراب فيه غير متمكن، و لما كانت إضافة الفزع إلى ظرف غير متمكن بنى، و قد تقدّم فى سورة هود كلام فى هذا مستوفى وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ. قال جماعة من الصحابة و من بعدهم، حتى قيل:

إنه مجمع عليه بين أهل التأويل: إن المراد بالسيئة هنا الشرك، و وجه التخصيص قوله: «فكبت وجوههم فى النّار» فهذا الجزاء لا يكون إلا بمثل سيئة الشرك، و معنى «فكبت وجوههم فى النّار» أنهم كبوا فيها على وجوههم و ألقوا فيها و طرحوا عليها، يقال كببت الرجل: إذا ألقيته لوجهه فانكبّ و أكبّ، و جملة هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بتقدير القول: أى يقال ذلك، و القائل: خزنة جهنم، أى: ما تجزون إلا جزاء عملكم إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ و المعاد أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يقول لهم هذه المقالة، أى: قل يا محمد إنما أمرت أن أخص اللّه بالعبادة

وحده لا شريك له، و المراد بالبلدة: مكة، و إنما خصّها من سائر البلاد لكون فيها بيت اللّه الحرام، و لكونها أحبّ البلاد إلى رسوله، و الموصول: صفة للربّ، و هكذا قرأ الجمهور. قرأ ابن عباس و ابن مسعود التى حرّمها

---

(١). النبأ: ٢٠.

(٢). الأنبياء: ١٠٣.

فتح القدير، ج۴، ص: ١٨٠

على أن الموصول صفة للبلدة، و معنى «حرّمها» جعلها حرما آمنا لا يسفك فيها دم، و لا يظلم فيها أحد، و لا يصطاد صيدها، و لا يختلى خلاها وَ لَهُ كُلُّ شَيْ‌ءٍ من الأشياء خلقا و ملكا و تصرّفا، أى: و للّه كل شى‌ء وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى: المنقادين لأمر اللّه المستسلمين له بالطاعة، و امتثال أمره، و اجتناب نهيه، و المراد بقوله: «أن أكون» أن أثبت على ما أنا عليه وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ أى: أداوم تلاوته و أواظب على ذلك. قيل: و ليس المراد من تلاوة القرآن هنا إلا تلاوة الدعوة إلى الإيمان، و الأول أولى فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ لأن نفع ذلك راجع إليه، أى: فمن اهتدى على العموم، أو فمن اهتدى بما أتلوه عليه، فعمل بما فيه من الإيمان باللّه، و العمل بشرائعه. قرأ الجمهور وَ أَنْ أَتْلُوَا بإثبات الواو بعد اللام على أنه من التلاوة و هى القراءة، أو من التلوّ، و هو الاتباع. و قرأ عبد اللّه «و أن اتل» بحذف الواو أمرا له صلّى اللّه عليه و سلم كذا وجهه الفراء. قال النحاس: و لا نعرف أحدا قرأ هذه القراءة، و هى مخالفة لجميع المصاحف وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ أى: و من ضلّ بالكفر، و أعرض عن الهداية، فقل له: إنما أنا من المنذرين، و قد فعلت بإبلاغ ذلك إليكم، و ليس علىّ غير ذلك. و قيل: الجواب محذوف، أى: فوبال ضلاله عليه، و أقيم إنما أنا من المنذرين مقامه لكونه كالعلة له وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ على نعمه التى أنعم بها علىّ من النبوّة و العلم و غير ذلك، و قوله: سَيُرِيكُمْ آياتِهِ هو من جملة ما أمر به النبى صلّى اللّه عليه و سلم أن يقوله، أى:

سيريكم اللّه آياته فى أنفسكم، و فى غيركم فَتَعْرِفُونَها أى: تعرفون آياته، و دلائل قدرته و وحدانيته، و هذه المعرفة لا تنفع الكفار، لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان، و ذلك عند حضور الموت. ثم ختم السورة بقوله: وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ و هو كلام من جهته سبحانه، غير داخل تحت الكلام الذى أمر النبى صلّى اللّه عليه و سلم أن يقوله، و فيه ترهيب شديد، و تهديد عظيم. قرأ أهل المدينة و الشام و حفص عن عاصم «تعملون» بالفوقية على الخطاب، و قرأ الباقون بالتحتية.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: داخِرِينَ قال: صاغرين.

و أخرج هؤلاء عنه فى قوله: وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً قال: قائمة صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْ‌ءٍ قال: أحكم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْ‌ءٍ قال: أحسن كل شى‌ء خلقه، و أوثقه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها قال: هى لا إله إلا اللّه، وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ قال: هى الشرك، و إذا صحّ هذا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فالمصير إليه فى تفسير كلام اللّه سبحانه متعين، و يحمل على أن المراد قال: لا إله إلا اللّه بحقها، و ما يجب لها، فيدخل تحت ذلك كل طاعة، و يشهد له ما أخرجه الحاكم فى الكنى عن صفوان بن عسال قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إذا كان يوم القيامة:

جاء الإيمان و الشّرك يجثوان بين يدى اللّه سبحانه، فيقول اللّه للإيمان: انطلق أنت و أهلك إلى الجنة، و يقول للشرك: انطلق أنت و أهلك إلى النار، ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها يعنى قول:

لا إله إلا اللّه، وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ يعنى الشرك فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ». و أخرج ابن مردويه

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۸۱
من حديث أبى هريرة و أنس نحوه مرفوعا. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى عن كعب بن عجرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ يعنى شهادة أن لا إله إلا اللّه فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها يعنى بالخير الجنة وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ يعنى الشرك فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ و قال هذه تنجى، و هذه تردى».
و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و الخرائطى فى مكارم الأخلاق: عن ابن مسعود مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ قال: لا إله إلا اللّه، وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ قال:
بالشرك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها قال: له منها خير، يعنى من جهتها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها قال: ثواب. و أخرج عنه أيضا قال: البلدة مكة.
فتح القدير، ج۴، ص: ۱۸۲

سورة القصص

اشارة

و هى مكية كلها فى قول الحسن و عكرمة و عطاء و أخرج ابن الضريس و ابن النجار و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة القصص بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثل ذلك:
قال القرطبى؛ قال ابن عباس و قتادة: إنها نزلت بين مكة و المدينة. و قال ابن سلام: بالجحفة وقت هجرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هى قوله عزّ و جلّ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ و قال مقاتل: فيها من المدنى الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ إلى قوله: لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ و أخرج أحمد و الطبرانى و ابن مردويه: قال السيوطى: سنده جيد عن معد يكرب قال: أتينا عبد اللّه بن مسعود، فسألناه أن يقرأ علينا طسم المئين، فقال: ما هى معى، و لكن عليكم بمن أخذها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم خباب بن الأرت، فأتيت خبابا فقلت: كيف كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ طسم أو طس؟ فقال: كلّ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأه.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القصص (۲۸): الآيات ۱ الى ۱۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
طسم (۱) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۳) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (۴)
وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (۵) وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (۶) وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۷) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (۸) وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۹)
وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰) وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ

بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣)

الكلام فى فاتحة هذه السورة قد مرّ فى فاتحة الشعراء و غيرها، فلا نعيده، و كذلك مرّ الكلام على قوله:

تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ فاسم الإشارة: مبتدأ، خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف، و آيات:

بدل من اسم الإشارة، و يجوز أن يكون تلك فى موضع نصب بنتلو، و المبين المشتمل على بيان الحق من الباطل.

فتح القدير، ج۴، ص: ١٨٣

قال الزجاج: مبين الحق من الباطل، و الحلال من الحرام، و هو من أبان بمعنى أظهر نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى نوحى إليك من خبرهما ملتبسا بالحق، و خص المؤمنين، لأن التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن. و قيل: إن مفعول نتلو محذوف، و التقدير: نتلو عليك شيئا من نبئهما، و يجوز أن تكون من: مزيدة على رأى الأخفش، أى: نتلو عليك نبأ موسى، و فرعون، و الأولى: أن تكون للبيان على تقدير المفعول، كما ذكر، أو للتبعيض، و لا ملجئ للحكم بزيادتها، و الحق: الصدق، و جملة إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ و ما بعدها مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبأ. قال المفسرون: معنى علا تكبر، و تجبر بسلطانه، و المراد بالأرض: أرض مصر. و قيل معنى علا: ادعى الربوبية، و قيل: علا عن عبادة ربه وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً أى: فرقا و أصنافا فى خدمته، يشايعونه على ما يريد، و يطيعونه، و جملة يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقا، و أصنافا، و يجوز أن تكون صفة لطائفة، و الطائفة: هم بنو إسرائيل، و جملة يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ بدل من الجملة الأولى، و يجوز أن تكون مستأنفة للبيان، أو حالا، أو صفة كالتى قبلها على تقدير عدم كونها بدلا منها، و إنما كان فرعون يذبح أبناءهم، و يترك النساء، لأن المنجمين فى ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بنى إسرائيل. قال الزجاج: و العجب من حمق فرعون، فإن الكاهن الذى أخبره بذلك، إن كان صادقا عنده، فما ينفع القتل، و إن كان كاذبا، فلا معنى للقتل إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فى الأرض بالمعاصى، و التجبر، و فيه بيان أن القتل من فعل أهل الإفساد وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ جاء بصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية. و استحضار صورتها، أى: نريد أن نتفضل عليهم بعد استضعافهم، و المراد بهؤلاء بنو إسرائيل، و الواو فى «و نريد» للعطف على جملة «إن فرعون علا» و إن كانت الجملة المعطوف عليها اسمية، لأن بينهما تناسبا من حيث أن كل واحدة منهما للتفسير و البيان. و يجوز أن تكون حالا من فاعل يستضعف، بتقدير مبتدأ، أى: و نحن نريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض، كما فى قول الشاعر:

نجوت و أرهنهم مالكا «١» و الأوّل أولى وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً أى: قادة فى الخير و دعاة إليه، و ولاة على الناس و ملوكا فيهم وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ لملك فرعون، و مساكن القبط، و أملاكهم، فيكون ملك فرعون فيهم، و يسكنون فى مساكنه، و مساكن قومه، و ينتفعون بأملاكه، و أملاكهم وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أى: نجعلهم مقتدرين عليها، و على أهلها، مسلطين على ذلك يتصرّفون به كيف شاؤوا. قرأ الجمهور «نمكن» بدون لام. و قرأ الأعمش «لنمكن» بلام العلة وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما قرأ الجمهور نرى بنون مضمومة و كسر الراء على أن الفاعل هو اللّه سبحانه. و قرأ الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و الكسائى و خلف «و يرى» بفتح الياء

---

(١). البيت لعبد اللّه بن همام السلولى، و صدره: فلما خشيت أظافيرهم. [شرح ابن عقيل: الشاهد رقم ١٩٢].

فتح القدير، ج۴، ص: ١٨۴

التحتية و الراء، و الفاعل فرعون. و القراءة الأولى ألصق بالسياق، لأن قبلها نريد، و نجعل، و نمكن بالنون.

و أجاز الفراء «و يرى فرعون» بضم الياء التحتية و كسر الراء: أى و يرى اللّه فرعون، و معنى مِنْهُمْ من أولئك المستضعفين ما كانُوا يَحْذَرُونَ الموصول: هو المفعول الثانى، على القراءة الأولى، و المفعول الأوّل، على القراءة الثانية، و المعنى: أن اللّه يريهم، أو يرون هم الذين كانوا يحذرون منه و يجتهدون فى دفعه من ذهاب ملكهم و هلاكهم على يد المولود من بنى إسرائيل المستضعفين وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ أى: ألهمناها، و قذفنا فى قلبها، و ليس ذلك هو الوحى الذى يوحى إلى الرسل، و قيل: كان ذلك رؤيا فى منامها، و قيل: كان ذلك بملك أرسله اللّه يعلمها بذلك.

و قد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية، و إنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به على نحو تكليم الملك للأقرع، و الأبرص، و الأعمى، كما فى الحديث الثابت فى الصحيحين و غيرهما، و قد سلمت على عمران بن حصين الملائكة، كما فى الحديث الثابت فى الصحيح فلم يكن بذلك نبيا، و أن فى «أن أرضعيه» هى المفسرة، لأن فى الوحى معنى القول، و يجوز أن تكون مصدرية، أى: بأن أرضعيه، و قرأ عمر بن عبد العزيز بكسر نون أن و وصل همزة أرضعيه فالكسر لالتقاء الساكنين، و حذف همزة الوصل على غير القياس فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ من فرعون بأن يبلغ خبره إليه فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ و هو بحر النيل. و قد تقدّم بيان الكيفية التى ألقته فى اليمّ عليها فى سورة طه وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي أى: لا تخافى عليه الغرق، أو الضيعة، و لا تحزنى لفراقه إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ عن قريب على وجه تكون به نجاته وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الذين نرسلهم إلى العباد، و الفاء فى قوله: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ هى الفصيحة، و الالتقاط: إصابة الشىء من غير طلب، و المراد بآل فرعون: هم الذين أخذوا التابوت الذى فيه موسى من البحر، و فى الكلام حذف، و التقدير فألقته فى اليمّ بعد ما جعلته فى التابوت، فالتقطه من وجده من آل فرعون، و اللام فى لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً لام العاقبة، و وجه ذلك أنهم إنما أخذوه ليكون لهم ولدا، و قرّة عين لا ليكون عدوّا، فكان عاقبة ذلك إنه كان لهم عدوّا و حزنا، و لما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم، و ثمرة له شبهت بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لأجله، و من هذا قول الشاعر:

لدوا للموت و ابنوا للخراب «۱» و قول الآخر:

و للمنايا تربّى كلّ مرضعةو دورنا لخراب الدّهر نبنيها

قرأ الجمهور و حزنا بفتح الحاء و الزاى، و قرأ الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و الكسائى و خلف، و حزنا: بضم الحاء، و سكون الزاى، و اختار القراءة الأولى: أبو عبيدة، و أبو حاتم، و هما لغتان كالعدم و العدم،

---

(۱). هذا صدر البيت، و عجزه: فكلكم يضير إلى يباب.

و الرشد و الرشد، و السقم و السقم، و جملة إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ لتعليل ما قبلها، أو للاعتراض لقصد التأكيد؛ و معنى خاطئين: عاصين آثمين فى كل أفعالهم، و أقوالهم، و هو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب، و قرئ خاطين بياء من دون همزة فيحتمل أن يكون معنى هذه القراءة معنى قراءة الجمهور، و لكنها خففت بحذف الهمزة، و يحتمل أن تكون من خطا يخطو، أى: تجاوز الصواب وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ أى: قالت امرأة فرعون لفرعون، و ارتفاع قرّة: على أنه خبر مبتدأ محذوف، قاله الكسائى و غيره. و قيل: على أنه مبتدأ و خبره لا تَقْتُلُوهُ قاله الزجاج، و الأوّل أولى. و كان قولها لهذا القول عند رؤيتها له لما وصل إليها و أخرجته من التابوت، و خاطبت بقولها «لا تقتلوه» فرعون و من عنده من قومه، أو فرعون وحده على طريقة التعظيم له. و قرأ عبد اللّه بن مسعود «و قالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرّة عين لى و لك» و يجوز نصب قرّة بقوله لا تقتلوه على الاشتغال. و قيل: إنها قالت: لا تقتلوه فإن اللّه أتى به من أرض بعيدة و ليس من بنى إسرائيل. ثم عللت ما قالته

بالترجى منها لحصول النفع منه لهم، أو التبنى له فقالت:

عَسى أَنْ يَنْفَعَنا فنصيب منه خيرا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً و كانت لا تلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها، و جملة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ فى محل نصب على الحال، أى: و هم لا يشعرون أنهم على خطأ فى التقاطه، و لا يشعرون أن هلاكهم على يده، فتكون حالا من آل فرعون، و هى من كلام اللّه سبحانه، و قيل: هى من كلام المرأة، أى: و بنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه، و هم لا يشعرون، قاله الكلبى، و هو بعيد جدا.

و قد حكى الفراء عن السدّى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن قوله: «لا تقتلوه» من كلام فرعون و اعترضه بكلام يرجع إلى اللفظ، و يكفى فى ردّه ضعف إسناده وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً قال المفسرون: معنى ذلك أنه فارغ من كل شىء إلا من أمر موسى، كأنها لم تهتم بشىء سواه. قال أبو عبيدة:

خاليا من ذكر كل شىء فى الدنيا إلا من ذكر موسى. و قال الحسن و ابن إسحاق و ابن زيد: فارغا مما أوحى إليها من قوله: «و لا تخافى و لا تحزنى»، و ذلك لما سوّل الشيطان لها من غرقه و هلاكه. و قال الأخفش:

فارغا من الخوف و الغمّ لعلمها أنه لم يغرق بسبب ما تقدّم من الوحى إليها، و روى مثله عن أبى عبيدة أيضا.

و قال الكسائىّ: ناسيا ذاهلا. و قال العلاء بن زياد: نافرا. و قال سعيد بن جبير: والها، كادت تقول و ابناه من شدّة الجزع. و قال مقاتل: كادت تصيح شفقة عليه من الغرق. و قيل المعنى: أنها لما سمعت بوقوعه فى يد فرعون، طار عقلها من فرط الجزع، و الدهش. قال النحاس: و أصحّ هذه الأقوال: الأوّل، و الذين قالوه أعلم بكتاب اللّه، فإذا كان فارغا من كل شىء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى، و قول من قال فارغا من الغمّ غلط قبيح لأن بعده «إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها» و قرأ فضالة بن عبيد الأنصارى و محمد بن السميقع و أبو العالية و ابن محيصن «فزعا» بالفاء و الزاى و العين المهملة من الفزع، أى خائفا و جلا. و قرأ ابن عباس «قرعا» بالقاف المفتوحة و الراء المهملة المكسورة و العين المهملة من قرع رأسه:

إذا انحسر شعره، و معنى و أصبح: و صار كما قال الشاعر:

مضى الخلفاء فى أمر رشيدو أصبحت المدينة للوليد

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۸۶

إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها إن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف، أى: إنها كادت لتظهر أمر موسى، و أنه ابنها من فرط ما دهمها من الدهش، و الخوف و الحزن، من بدا يبدو:

إذا ظهر، و أبدى يبدى: إذا أظهر، و قيل: الضمير فى به عائد إلى الوحى الذى أوحى إليها، و الأوّل أولى.

و قال الفراء: إن كانت لتبدى باسمه لضيق صدرها، لو لا أن ربطنا على قلبها. قال الزجاج: و معنى الربط على القلب: إلهام الصبر و تقويته، و جواب لو لا محذوف، أى: لو لا أن ربطنا على قلبها لأبدت، و اللام فى لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ متعلق بربطنا، و المعنى: ربطنا على قلبها لتكون من المصدقين بوعد اللّه و هو قوله:

«إنا رادوه إليك». و قيل: و الباء فى: «لتبدى به» زائدة للتأكيد. و المعنى: لتبديه كما تقول أخذت الحبل و بالحبل. و قيل المعنى: لتبدى القول به وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ أى: قالت أمّ موسى لأخت موسى و هى مريم «۱» قصيه، أى: تتبعى أثره و اعرفى خبره، و انظرى أين وقع و إلى من صار؟ يقال قصصت الشىء: إذا اتبعت أثره متعرّفا لحاله فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ أى: أبصرته عن بعد، و أصله عن مكان جنب، و منه الأجنبى. قال الشاعر:

فلا تحرمنّى نائلا عن جنابةفإنّى امرؤ وسط الدّيار غريب «۲»

و قيل: المراد بقوله «عن جنب»: عن جانب، و المعنى أنها أبصرت إليه متجانفة مخاتلة، و يؤيد ذلك قراءة النعمان بن سالم عن

جانب، و محلّ عن جنب: النصب على الحال إما من الفاعل، أى: بصرت به مستخفية كائنة عن جنب، و إما من المجرور، أى: بعيدا منها. قرأ الجمهور «بصرت» به بفتح الباء و ضم الصاد، و قرأ قتادة بفتح الصاد و قرأ عيسى بن عمر بكسرها، قال المبرّد: أبصرته و بصرت به بمعنى، و قرأ الجمهور «عن جنب» بضمتين، و قرأ قتادة و الحسن و الأعرج و زيد بن علىّ بفتح الجيم و سكون النون، و روى عن قتادة أيضا أنه قرأ بفتحهما. و روى عن الحسن أيضا أنه قرأ بضم الجيم، و سكون النون. و قال أبو عمرو ابن العلاء: إن معنى «عن جنب» عن شوق. قال: و هى لغة جذام يقولون: جنبت إليك، أى: اشتقت إليك وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ أنها تقصه، و تتبع خبره، و أنها أخته وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ المراضع جمع مرضع، أى: منعناه أن يرضع من المرضعات. و قيل: المراضع جمع مرضع بفتح الضاد، و هو الرضاع أو موضعه، و هو الثدى، و معنى مِنْ قَبْلُ من قبل أن نردّه إلى أمه، أو من قبل أن تأتيه أمه، أو من قبل قصها لأثره، و قد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعنه، فلم يرضع من واحدة منهنّ فعند ذلك فَقالَتْ أى: أخته لما رأت امتناعه من الرضاع هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ أى: يضمنون لكم القيام به، و إرضاعه وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ أى: مشفقون عليه لا يقصرون فى إرضاعه و تربيته. و فى الكلام حذف، و التقدير: فقالوا لها من هم؟ فقالت أمى، فقيل لها: و هل لأمك لبن؟ قالت نعم لبن أخى هارون: فدلتهم على أمّ موسى فدفعوه إليها، فقبل ثديها، و رضع منه، و ذلك معنى

---

(١). هى مريم بنت عمران وافق اسمها اسم مريم أم عيسى عليه السلام.

(٢). البيت لعلقمة بن عبدة، قاله يخاطب به الحارث بن جبلة يمدحه، و كان أسر أخاه شأسا ...

قوله سبحانه: فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها بولدها وَ لا تَحْزَنَ على فراقه وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ أى: جميع وعده، و من جملة ذلك ما وعدها بقوله: إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ حق لا خلف فيه واقع لا محالة وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أى: أكثر آل فرعون لا يعلمون بذلك، بل كانوا فى غفلة عن القدر و سرّ القضاء، أو أكثر الناس لا يعلمون بذلك أو لا يعلمون أن اللّه وعدها بأن يردّه إليها.

و قد أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً قال: فرّق بينهم. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً قال: يستعبد طائفة منهم و يدع طائفة، و يقتل طائفة، و يستحيى طائفة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً قال: يوسف و ولده. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ قال: هم بنو إسرائيل وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً أى: ولاة الأمر وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ أى: الذين يرثون الأرض بعد فرعون و قومه وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ قال ما كان القوم حذروه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أى: ألهمناها الذى صنعت بموسى. و أخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش قال:

قال ابن عباس فى قوله: فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ قال: أن يسمع جيرانك صوته. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً قال: فرغ من ذكر كل شىء من أمر الدنيا إلا من ذكر موسى. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً قال: خاليا من كل شىء غير ذكر موسى.

و فى قوله: إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ قال: تقول: يا ابناه. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عنه فى قوله: وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ أى: اتبعى أثره فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ قال: عن جانب. و أخرج الطبرانى و ابن عساكر عن أبى أمامة، أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال لخديجة: «أما شعرت أن اللّه زوّجنى مريم بنت عمران، و كلثوم أخت موسى، و امرأة فرعون؟ قالت: هنيئا لك يا رسول اللّه» و أخرج ابن عساكر عن ابن أبى روّاد مرفوعا بأطول من هذا، و فى آخره أنها قالت: بالرفاء و البنين. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ قال: لا يؤتى بمرضع فيقبلها.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١۴ الى ٢۴]

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١۴) وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١۵) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١۶) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨)

فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)

فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢۴)

فتح القدير، ج۴، ص: ١٨٨

قوله: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ قد تقدّم الكلام فى بلوغ الأشدّ فى الأنعام، و قد قال ربيعة و مالك: هو الحلم لقوله تعالى: حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً «١» الآية، و أقصاه أربع و ثلاثون سنة، كما قال مجاهد و سفيان الثورى و غيرهما. و قيل: الأشدّ ما بين الثمانية عشر إلى الثلاثين، و الاستواء من الثلاثين إلى الأربعين، و قيل: الاستواء هو بلوغ الأربعين، و قيل: الاستواء إشارة إلى كمال الخلقة، و قيل: هو بمعنى واحد، و هو ضعيف لأن العطف يشعر بالمغايرة آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً الحكم الحكمة على العموم، و قيل:

النبوة، و قيل: الفقه فى الدين. و العلم: الفهم، قاله السدىّ. و قال مجاهد: الفقه. و قال ابن إسحاق:

العلم بدينه، و دين آبائه، و قيل: كان هذا قبل النبوّة، و قد تقدّم بيان معنى ذلك فى البقرة وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أى: مثل ذلك الجزاء الذى جزينا أمّ موسى لما استسلمت لأمر اللّه و ألقت ولدها فى البحر و صدّقت بوعد اللّه نجزى المحسنين على إحسانهم، و المراد العموم وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ أى: و دخل موسى مدينة مصر الكبرى، و قيل: مدينة غيرها من مدائن مصر، و محل قوله: عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها: النصب على الحال، إما من الفاعل، أى: مستخفيا، و إما من المفعول. قيل: لما عرف موسى ما هو عليه من الحق فى دينه عاب ما عليه فرعون، و فشا ذلك منه، فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل المدينة إلا مستخفيا قيل: كان دخوله بين العشاء، و العتمة، و قيل: وقت القائلة. قال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها، فدخل على حين علم

منهم، فكان منه ما حكى اللّه سبحانه بقوله: فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ أى: ممن شايعه على دينه، و هم بنو إسرائيل وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ أى: من المعادين له على دينه و هم قوم فرعون فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ أى: طلب أن ينصره و يعينه على خصمه عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فأغاثه لأن نصر المظلوم واجب فى جميع الملل. قيل: أراد القبطى أن يسخر الإسرائيلى ليحمل حطبا لمطبخ فرعون، فأبى عليه، و استغاث بموسى فَوَكَزَهُ مُوسى الوكز: الضرب بجمع الكف، و هكذا اللكز، و اللهز. و قيل: اللكز على اللحى، و الوكز: على القلب. و قيل: ضربه بعصاه. و قرأ ابن مسعود «فلكزه» و حكى الثعلبى أن فى مصحف عثمان «فنكزه» بالنون. قال الأصمعى: نكزه بالنون: ضربه و دفعه. قال

---

(۱). النساء: ۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۸۹

الجوهرى: اللكز الضرب على الصدر. و قال أبو زيد: فى جميع الجسد: يعنى أنه يقال له لكز. و اللهز:

الضرب بجميع اليدين فى الصدر، و مثله عن أبى عبيدة. فَقَضى عَلَيْهِ أى: قتله، و كل شىء أتيت عليه و فرغت منه: فقد قضيت عليه، و منه قول الشاعر:

قد عضّه فقضى عليه الأشجع «۱» قيل: لم يقصد موسى قتل القبطى، و إنما قصد دفعه، فأتى ذلك على نفسه، و لهذا قال: هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ و إنما قال بهذا القول؛ مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل، لأنه لم يكن إذ ذاك مأمورا بقتل الكفار. و قيل: إن تلك الحالة حالة كفّ عن القتال لكونه مأمونا عندهم، فلم يكن له أن يغتالهم.

ثم وصف الشيطان بقوله: إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ أى: عدوّ للإنسان يسعى فى إضلاله، ظاهر العداوة و الإضلال. و قيل: إن الإشارة بقوله «هذا» إلى عمل المقتول لكونه كافرا مخالفا لما يريده اللّه. و قيل: إنه الإشارة إلى المقتول نفسه: يعنى أنه من جند الشيطان و حزبه. ثم طلب من اللّه سبحانه أن يغفر له ما وقع منه قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ اللّه لَهُ ذلك إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ و وجه استغفاره أنه لم يكن لنبىّ أن يقتل حتى يؤمر، و قيل: إنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين، أو أراد إنى ظلمت نفسى بقتل هذا الكافر، لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلنى به، و معنى فاغفر لى: فاستر ذلك علىّ، لا تطلع عليه فرعون، و هذا خلاف الظاهر، فإن موسى عليه السلام ما زال نادما على ذلك، خائفا من العقوبة بسببه، حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول: إنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها، كما ثبت ذلك فى حديث الشفاعة الصحيح. و قد قيل: إن هذا كان من قبل النبوّة، و قيل: كان ذلك قبل بلوغه سنّ التكليف و إنه كان إذ ذاك فى اثنتى عشرة سنة، و كل هذه التأويلات البعيدة، محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء، و لا شك أنهم معصومون من الكبائر، و القتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة، لأن الوكزة فى الغالب لا تقتل. ثم لما أجاب اللّه سؤاله و غفر له ما طلب منه مغفرته قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ هذه الباء يجوز أن تكون باء القسم، و الجواب مقدر، أى: أقسم بإنعامك علىّ لأتوبنّ و تكون جملة فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ كالتفسير للجواب، و كأنه أقسم بما أنعم اللّه عليه أن لا يظاهر مجرما.

و يجوز أن تكون هذه الباء هى باء السببية بمحذوف، أى: اعصمنى بسبب ما أنعمت به علىّ، و يكون قوله:

«فلن أكون ظهيرا» مترتبا عليه، و يكون فى ذلك استعطاف للّه تعالى، و توصل إلى إنعامه بإنعامه و «ما» فى قوله: «بما أنعمت» إما موصولة، أو مصدرية، و المراد بما أنعم به عليه: هو ما آتاه من الحكم و العلم أو بالمغفرة، أو الجميع، و أراد بمظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون و الانتظام فى جملته فى ظاهر الأمر أو مظاهرته على ما فيه إثم. قال الكسائى و الفراء: ليس قوله: فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ خبرا بل هو دعاء،

(١). البيت لجرير، و صدره:

أ يفايشون و قد رأوا حفّاثهم و معنى «يفايشون»: يفاخرون. و الحفّاث و الأشجع: من الحيّات.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۹۰

أى: فلا- تجعلنى يا ربّ ظهيرا لهم. قال الكسائى، و فى قراءة عبد اللّه «فلا تجعلنى يا ربّ ظهيرا للمجرمين» و قال الفراء: المعنى اللهمّ! فلن أكون ظهيرا للمجرمين. و قال النحاس: إن جعله من باب الخبر أوفى، و أشبه بنسق الكلام فَأَصْبَحَ فِی الْمَدِینَةِ خائِفاً یَتَرَقَّبُ أى: دخل فى وقت الصباح فى المدينة التى قتل فيها القبطى، و خائفا: خبر أصبح، و يجوز أن يكون حالا، و الخبر: فى المدينة، و يترقب: يجوز أن يكون خبرا ثانيا، و أن يكون حالا ثانية، و أن يكون بدلا من خائفا، و مفعول يترقب: محذوف، و المعنى: يترقب المكروه أو يترقب الفرح فَإِذَا الَّذِی اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ یَسْتَصْرِخُهُ إذا هى الفجائية، و الموصول: مبتدأ و خبره يستصرخه، أى: فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى استغاثه بالأمس يقاتل قبطيا آخر أراد أن يسخره، و يظلمه كما أراد القبطى الذى قد قتله موسى بالأمس، و الاستصراخ الاستغاثة، و هو من الصراخ، و ذلك أن المستغيث يصوّت فى طلب الغوث، و منه قول الشاعر:

كنّا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الجواب له قرع الظّنابيب «۱»

قالَ لَهُ مُوسی إِنَّکَ لَغَوِیٌّ مُبِینٌ أى: بين الغواية، و ذلك أنك تقاتل من لا تقدر على مقاتلته و لا تطيقه، و قيل: إنما قال له هذه المقالة لأنه تسبب بالأمس لقتل رجل يريد اليوم أن يتسبب لقتل آخر فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ یَبْطِشَ بِالَّذِی هُوَ عَدُوٌّ لَهُما أى: يبطش بالقبطى الذى هو عدوّ لموسى، و للإسرائيلى حيث لم يكن على دينهما، و قد تقدّم معنى يبطش و اختلاف القراء فيه قالَ یا مُوسی أَ تُرِیدُ أَنْ تَقْتُلَنِی کَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ القائل: هو الإسرائيلى لما سمع موسى يقول له إِنَّکَ لَغَوِیٌّ مُبِینٌ و رآه يريد أن يبطش بالقبطى ظن أنه يريد أن يبطش به، فقال لموسى أَ تُرِیدُ أَنْ تَقْتُلَنِی کَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ فلما سمع القبطى ذلك أفشاه، و لم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذى قتل القبطى بالأمس حتى أفشى عليه الإسرائيلى، هكذا قال جمهور المفسرين. و قيل: إن القائل أَ تُرِیدُ أَنْ تَقْتُلَنِی کَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ هو القبطى، و كان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلى، و هذا هو الظاهر، و قد سبق ذكر القبطى قبل هذا بلا- فصل لأنه هو المراد بقوله عدوّ لهما، و لا موجب لمخالفة الظاهر، حتى يلزم عنه أنه المؤمن بموسى المستغيث به المرّة الأولى، و المرّة الأخرى هو الذى أفشى عليه، و أيضا إن قوله: إِنْ تُرِیدُ إِلَّا أَنْ تَکُونَ جَبَّاراً فِی الْأَرْضِ لا يليق صدور مثله إلا من كافر، و إن: فى قوله: إِنْ تُرِیدُ هى النافية، أى: ما تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض. قال الزجاج: الجبار فى اللغة: الذى لا يتواضع لأمر اللّه، و القاتل بغير حق:

جبار. و قيل: الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب، و القتل، و لا ينظر فى العواقب، و لا يدفع بالتى هى أحسن وَ ما تُرِیدُ أَنْ تَکُونَ مِنَ الْمُصْلِحِینَ أى: الذين يصلحون بين الناس وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَی الْمَدِینَةِ یَسْعی قيل: المراد بهذا الرجل حزقيل، و هو مؤمن آل فرعون، و كان ابن عم موسى، و قيل: اسمه شمعون، و قيل: طالوت، و قيل: شمعان. و المراد بأقصى المدينة: آخرها و أبعدها، و يسعى يجوز أن يكون

(١). الظّنابيب: جمع ظنبوب، و هو حرف العظم اليابس من الساق، و المراد: سرعة الإجابة.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۹۱

فى محل رفع صفة لرجل، و يجوز أن يكون فى محل نصب على الحال، لأن لفظ رجل و إن كان نكرة فقد تخصص بقوله: من أقصى المدينة قالَ یا مُوسی إِنَّ الْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ أى: يتشاورون فى قتلك و يتآمرون بسببك. قال الزجاج: يأمر

بعضهم بعضا بقتلك. و قال أبو عبيد: يتشاورون فيك ليقتلوك: يعنى أشراف قوم فرعون. قال الأزهرى: ائتمر القوم و تآمروا: أى أمر بعضهم بعضا، نظيره قوله: وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ «۱» قال النمر بن تولب:

أرى الناس قد أحدثوا شيمةو فى كلّ حادثة يؤتمر

فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فى الأمر بالخروج، و اللام للبيان لأن معمول المجرور لا يتقدم عليه فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ فخرج موسى من المدينة حال كونه خائفا من الظالمين مترقبا لحوقهم به، و إدراكهم له، ثم دعا ربه بأن ينجيه مما خافه قائلا: رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أى: خلصنى من القوم الكافرين، و ادفعهم عنى، و حل بين و بينهم وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ أى: نحو مدين قاصدا لها.

قال الزجاج: أى سلك فى الطريق الذى تلقاء مدين فيها، انتهى. يقال: دار تلقاء دار فلان، و أصله من اللقاء، و لم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون، و لهذا خرج إليها قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ أى: يرشدنى نحو الطريق المستوية إلى مدين وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ أى: وصل إليه، و هو الماء الذى يستقون منه وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ أى: وجد على الماء جماعة كثيرة من الناس يسقون مواشيهم، و لفظ الورود قد يطلق على الدخول فى المورد، و قد يطلق على البلوغ إليه، و إن لم يدخل فيه، و هو المراد هنا، و منه قول زهير:

فلمّا وردنا الماء زرقا حمامه «۲» و قد تقدم تحقيق معنى الورود فى قوله: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها «۳» و قيل: مدين اسم للقبيلة لا للقرية، و هى غير منصرفة على كلا التقديرين وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ أى: من دون الناس الذين يسقون ما بينهم و بين الجهة التى جاء منها، و قيل: معناه: فى موضع أسفل منهم امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ أى: تحبسان أغنامهما من الماء حتى يفرغ الناس و يخلو بينهما و بين الماء، و معنى الذود: الدفع و الحبس، و منه قول الشاعر:

أبيت على باب القوافى كأنّماأذود سربا من الوحش نزّعا

أى: أحبس و أمنع، و ورد الذود: بمعنى الطرد، و منه قول الشاعر:

لقد سلبت عصاك بنو تميمفما تدرى بأىّ عصى تذود

---

(۱). الطلاق: ۶.

(۲). هو من المعلقة، و عجزه:

و ضعن عصىّ الحاضر المتخيّم

(۳). مريم: ۷۱.

أى: تطرد قالَ ما خَطْبُكُما أى: قال موسى للمرأتين: ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس؟

و الخطب: الشأن، قيل: و إنما يقال ما خطبك لمصاب، أو مضطهد، أو لمن يأتى بمنكر قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ أى: إن عادتنا التأنى حتى يصدر الناس عن الماء، و ينصرفوا منه حذرا من مخالطتهم، أو عجزا عن السقى معهم. قرأ الجمهور «يصدر» بضم الياء و كسر الدال مضارع أصدر المتعدّى بالهمزة.

و قرأ ابن عامر و أبو عمرو و أبو جعفر بفتح الياء و ضم الدال من صدر يصدر لازما، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف، أى: يرجعون مواشيهم، و الرعاء: جمع راع. قرأ الجمهور «الرعاء» بكسر الراء. و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه بفتحها. قال أبو الفضل: هو مصدر أقيم مقام الصفة، فلذلك استوى فيه الواحد و الجمع.

و قرئ «الرعاء» بالضم اسم جمع. و قرأ طلحة بن مصرف «نسقى» بضم النون من أسقى وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ عالى السن، و هذا من تمام كلامهما، أى: لا يقدر أن يسقى ماشيته من الكبر، فلذلك احتجنا و نحن امرأتان ضعيفتان أن نسقى الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك، فلما سمع موسى كلامهما سقى لهما رحمة لهما، أى: سقى أغنامهما لأجلهما ثم لما فرغ من السقى لهما تولى إلى الظل. أى انصرف إليه، فجلس فيه، قيل: كان هذا الظل ظل سمرة هنالك. ثم قال لما أصابه من الجهد و التعب مناديا لربه: إِنِّی لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ أى خير كان فَقِيرٌ أى: محتاج إلى ذلك، قيل: أراد بذلك الطعام، و اللام فى لما أنزلت معناها إلى: قال الأخفش: يقال هو فقير له، و إليه.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و المحاملى فى أماليه من طريق مجاهد عن ابن عباس فى قوله: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ قال: ثلاثا و ثلاثين سنة وَ اسْتَوى قال: أربعين سنة. و أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب المعمرين من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه قال: الأشد ما بين الثمانى عشرة إلى الثلاثين، و الاستواء ما بين الثلاثين إلى الأربعين، فإذا زاد على الأربعين أخذ فى النقصان. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عنه أيضا فى قوله: وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها قال: نصف النهار. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء الخراسانى، عنه أيضا فى الآية قال: ما بين المغرب و العشاء. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا هذا مِنْ شِيعَتِهِ قال: إسرائيلى وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ قال: قبطى فَاسْتَغاثَهُ الَّذِی مِنْ شِيعَتِهِ الإسرائيلى عَلَى الَّذِی مِنْ عَدُوِّهِ القبطى فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قال: فمات، قال فكبر ذلك على موسى. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فَإِذَا الَّذِی اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قال: هو صاحب موسى الذى استنصره بالأمس. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: الذى استنصره هو الذى استصرخه.
و أخرج ابن المنذر عن الشعبى قال: من قتل رجلين فهو جبار، ثم تلا هذه الآية؟
إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِی الْأَرْضِ و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: لا يكون الرجل جبارا حتى يقتل نفسين. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: خرج موسى خائفا يترقب، جائعا ليس معه زاد حتى انتهى إلى مدين، و عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ و امرأتان جالستان
فتح القدير، ج۴، ص: ۱۹۳
بشياهها فسألهما ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِی حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ قال: فهل قربكما ماء؟ قالتا: لا، إلا بئر عليها صخرة قد غطيت بها لا يطيقها نفر، قال فانطلقا فأريانيها، فانطلقتا معه، فقال بالصخرة بيده فنحاها، ثم استقى لهم سجلا واحدا فسقى الغنم، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّی لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فسمعتا، قال: فرجعتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة مجيئهما، فسألهما فأخبرتاه، فقال لإحداهما: انطلقى فادعيه فأتت، ف قالَتْ إِنَّ أَبِی يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فمشت بين يديه، فقال لها امشى خلفى، فإنى امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لى أن أرى منك ما حرّم اللّه علىّ، و أرشدينى الطريق فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ: لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قال لها أبوها:
ما رأيت من قوّته و أمانته؟ فأخبرته بالأمر الذى كان، قالت: أما قوّته فإنه قلب الحجر وحده، و كان لا يقلبه إلا النفر. و أما أمانته فقال امشى خلفى و أرشدينى الطريق لأنى امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لى منك ما حرّمه اللّه. قيل لابن عباس: أىّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرّهما و أوفاهما. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة فى المصنف و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن عمر بن الخطاب قال: إن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر و لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين، قال: ما خطبكما؟ فحدّثتاه، فأتى الحجر، فرفعه وحده، ثم

استقى، فلم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم، فرجعت المرأتان إلى أبيهما فحدّثتاه، و تولى موسى إلى الظلّ فقال: رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ. فقال: فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ واضعة ثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء خرّاجة ولاجة «١» قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فقام معها موسى، فقال لها: امشي خلفي و انعتي لي الطريق، فإني أكره أن يصيب الريح ثيابك، فتصف لي جسدك، فلما انتهى إلى أبيها قصّ عليه، فقالت إحداهما: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويّ الأمين، قال: يا بنية ما علمك بأمانته و قوّته؟ قالت: أما قوّته فرفعه الحجر و لا يطيقه إلا عشرة رجال، و أما أمانته فقال امشي خلفي و انعتي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك، فزاده ذلك رغبة فيه، ف قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ إلى قوله: سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ أي: في حسن الصحبة و الوفاء بما قلت قالَ موسى ذلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ قال نعم قال وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ فزوّجه و أقام معه يكفيه و يعمل في رعاية غنمه و ما يحتاج إليه و زوجه صفورا و أختها شرفا، و هما اللتان كانتا تذودان. قال ابن كثير بعد إخراجه لطرق من هذا الحديث: إن إسناده صحيح. السلفع من النساء الجريئة السليطة. و أخرج أحمد في الزهد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ قال: ورد الماء حيث ورد و إنه لتتراءى خضرة البقل في بطنه من الهزال. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه قال: خرج موسى من مصر إلى مدين

---

(١). المقصود: أنها ليست جريئة على الرجال، و أنها من اللواتي يقرن في بيوتهن.

و بينه و بينها ثمان ليال، و لم يكن له طعام إلّا ورق الشجر، و خرج حافيا، فلما وصل إليها حتى وقع خفّ قدمه «١». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا قال: تَذُودانِ تحبسان غنمهما حتى ينزع الناس و يخلو لهما البئر. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الضياء في المختارة عنه أيضا قال: لقد قال موسى: ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير و هو أكرم خلقه عليه، و لقد افتقر إلى شقّ تمرة، و لقد لصق بطنه بظهره من شدّة الجوع. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا قال: ما سأل إلا الطعام. و أخرج عبد اللّه بن أحمد في زوائد الزهد و ابن أبي حاتم عنه أيضا قال: سأل فلقا من الخبز يشدّ بها صلبه من الجوع.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٢۵ الى ٣٢]

فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢۵) قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢۶) قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٣٠) وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا

قَوْماً فاسِقِينَ (٣٢)

قوله: فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ فی الکلام حذف یدل علیه السیاق. قال الزجاج:

تقدیره فذهبتا إلی أبیهما سریعتین، و کانت عادتهما الإبطاء فی السقی، فحدّثتاه بما کان من الرجل الذی سقی لهما. فأمر الکبری من بنتیه، و قیل: الصغری أن تدعوه له فجاءته و ذهب أکثر المفسرین إلی أنهما ابنتا شعیب.

و قیل: هما ابنتا أخی شعیب، و أن شعیبا کان قد مات. و الأوّل أرجح. و هو ظاهر القرآن. و محلّ «تمشی» النصب علی الحال من فاعل جاءت، و عَلَی اسْتِحْیاءٍ حال أخری، أی: کائنة علی استحیاء حالتی المشی و المجیء فقط، و جملة قالَتْ إِنَّ أَبِی یَدْعُوکَ مستأنفة جواب سؤال مقدر، کأنه قیل: ماذا قالت له لما جاءته؟ لِیَجْزِیَکَ أَجْرَ ما سَقَیْتَ لَنا أی: جزاء سقیک لنا فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَیْهِ الْقَصَصَ القصص مصدر سمی به المفعول: أی المقصوص یعنی أخبره بجمیع ما اتفق له من عند قتله القبطیّ إلی عند

---

(١). قال فی القاموس: الخف بالضم: ما أصاب الأرض من باطن القدم.

وصوله إلی ماء مدین قالَ شعیب لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ أی: فرعون و أصحابه، لأن فرعون لا سلطان له علی مدین، و للرازی فی هذا الموضع إشکالات باردة جدا لا تستحق أن تذکر فی تفسیر کلام اللّه عزّ و جلّ، و الجواب علیها یظهر للمقصر فضلا عن الکامل، و أشفّ ما جاء به أن موسی کیف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقی. و یجاب عنه بأنه اتبع سنة اللّه فی إجابة دعوة نبیّ من أنبیاء اللّه، و لم تکن تلک الإجابة لأجل أخذ الأجر علی هذا العمل، و لهذا ورد أنه لما قدّم إلیه الطعام قال:

إنا أهل بیت لا نبیع دیننا بملء الأرض ذهبا قالَتْ إِحْداهُما یا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ القائلة هی التی جاءته، أی: استأجره لیرعی لنا الغنم، و فیه دلیل علی أن الإجارة کانت عندهم مشروعة. و قد اتفق علی جوازها و مشروعیتها جمیع علماء الإسلام إلّا الأصم فإنه عن سماع أدلتها أصمّ، و جملة إِنَّ خَیْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِیُّ الْأَمِینُ تعلیل لما وقع منها من الإرشاد لأبیها إلی استئجار موسی، أی: إنه حقیق باستئجارک له لکونه جامعا بین خصلتی: القوّة، و الأمانة. و قد تقدّم فی المرویّ عن ابن عباس و عمر أن أباها سألها عن وصفها له بالقوّة و الأمانة، فأجابته بما تقدّم قریبا قالَ إِنِّی أُرِیدُ أَنْ أُنْکِحَکَ إِحْدَی ابْنَتَیَّ هاتَیْنِ فیه مشروعیة عرض ولیّ المرأة لها علی الرجل، و هذه سنة ثابتة فی الإسلام، کما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة علی أبی بکر و عثمان، و القصة معروفة، و غیر ذلک مما وقع فی أیام الصحابة أیام النبوّة، و کذلک ما وقع من عرض المرأة لنفسها علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم عَلی أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمانِیَ حِجَجٍ أی: علی أن تکون أجیرا لی ثمانی سنین. قال الفراء:

یقول علی أن تجعل ثوابی أن ترعی غنمی ثمانی سنین، و محل عَلی أَنْ تَأْجُرَنِی النصب علی الحال، و هو مضارع أجرته، و مفعوله الثانی: محذوف، أی: نفسک و ثَمانِیَ حِجَجٍ ظرف. قال المبرد: یقال:

أجرت داری و مملوکی غیر ممدود و ممدودا و الأول أکثر فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ أی: إن أتممت ما استأجرتک علیه من الرعی عشر سنین فمن عندک، أی: تفضلا منک لا إلزاما منی لک، جعل ما زاد علی الثمانیة الأعوام إلی تمام عشرة أعوام، موکولا إلی المروءة، و محل فَمِنْ عِنْدِکَ الرفع علی تقدیر مبتدأ، أی: فهی من عندک وَ ما أُرِیدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَیْکَ بإلزامک إتمام العشرة الأعوام، و اشتقاق المشقة من الشق، أی: شق ظنه نصفین، فتارة یقول: أطیق، و تارة یقول: لا أطیق. ثم رغبه فی قبول الإجارة فقال:

سَتَجِدُنِی إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِینَ فی حسن الصحبة و الوفاء، و قیل: أراد الصلاح علی العموم، فیدخل صلاح المعاملة فی تلک

الإجارة تحت الآية دخولا أوليا، و قيد ذلک بالمشيئة تفويضا للأمر إلى توفيق اللّه و معونته.

ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى ف قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ و اسم الإشارة مبتدأ و خبره ما بعده، و الإشارة إلى ما تعاقدا عليه، و جملة أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ شرطية و جوابها فَلا عُدْوانَ عَلَيَ و المراد بالأجلين: الثمانية الأعوام، و العشرة الأعوام، و معنى قضيت: وفيت به، و أتممته، و الأجلين مخفوض بإضافة أيّ إليه، و ما زائدة. و قال ابن كيسان: «ما» فى موضع خفض بإضافة أيّ إليها، و «الأجلين» بدل منها، و قرأ الحسن (أيما) بسكون الياء، و قرأ ابن مسعود (أيّ الأجلين ما قضيت) و معنى فَلا عُدْوانَ عَلَيَ فلا ظلم عليّ بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين، أى: كما لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام لا أطالب

فتح القدير، ج‏4، ص: 196

بالنقصان على العشرة. و قيل المعنى: كما لا أطالب بالزيادة على العشرة الأعوام، لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام، و هذا أظهر. و أصل العدوان: تجاوز الحد فى غير ما يجب. قال المبرد: و قد علم موسى أنه لا عدوان عليه إذا أتمهما، و لكنه جمعهما ليجعل الأوّل كالأتمّ فى الوفاء. قرأ الجمهور (عدوان) بضم العين. و قرأ أبو حيوة بكسرها وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ أى: على ما نقول من هذه الشروط الجارية بيننا شاهد و حفيظ، فلا سبيل لأحدنا إلى الخروج عن شي‏ء من ذلک. قيل: هو من قول موسى، و قيل: من قول شعيب، و الأوّل أولى، لوقوعه فى جملة كلام موسى فَلَمَّا قَضى‏ مُوسَى الْأَجَلَ هو أكملهما و أوفاهما، و هو العشرة الأعوام كما سيأتى آخر البحث، و الفاء فصيحة وَ سارَ بِأَهْلِهِ إلى مصر، و فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً أى: أبصر من الجهة التى تلى الطور نارا، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة طه مستوفى قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ و هذا تقدّم تفسيره أيضا فى سورة طه و فى سورة النمل أَوْ جَذْوَةٍ قرأ الجمهور بكسر الجيم، و قرأ حمزة و يحيى بن وثاب بضمها، و قرأ عاصم و السلمى و زرّ بن حبيش بفتحها. قال الجوهرى: الجذوة و الجذوة و الجذوة: الجمرة، و الجمع جذا و جذا و جذا. قال مجاهد فى الآية: أن الجذوة قطعة من الجمر فى لغة جميع العرب. و قال أبو عبيدة: هى القطعة الغليظة من الخشب كان فى طرفها نار أو لم يكن، و مما يؤيد أن الجذوة: الجمرة قول السلمى:

و بدّلت بعد المسک و البان شقوةدخان الجذا فى رأس أشمط شاحب

لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ أى: تستدفئون بالنار فَلَمَّا أَتاها أى: أتى النار التى أبصرها، و قيل: أتى الشجرة، و الأوّل أولى لعدم تقدّم الذكر للشجرة نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ من لابتداء الغاية، و الأيمن: صفة للشاطئ، و هو من اليمن: و هو البركة، أو من جهة اليمين المقابل لليسار بالنسبة إلى موسى، أى: الذى يلى يمينه دون يساره، و شاطئ الوادى: طرفه، و كذا شطه. قال الراغب: و جمع الشاطئ أشطاء، و قوله: فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ متعلق بنودى، أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ، و مِنَ الشَّجَرَةِ بدل اشتمال من شاطئ الواد، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ. و قال الجوهرى: يقول شاطئ الأودية و لا يجمع. قرأ الجمهور فِي الْبُقْعَةِ بضم الباء، و قرأ أبو سلمة و الأشهب العقيلى بفتحها، و هى لغة حكاها أبو زيد أَنْ يا مُوسى‏ إِنِّي أَنَا اللَّهُ أن: هى المفسرة و يجوز أن تكون هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن، و جملة النداء مفسرة له، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور بكسر همزة «إنى» على إضمار القول أو على تضمين النداء معناه. و قرئ بالفتح و هى قراءة ضعيفة، و قوله: وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ معطوف على أَنْ يا مُوسى‏ و قد تقدّم تفسير هذا و ما بعده فى طه و النمل، و فى الكلام حذف، و التقدير: فألقاها فصارت ثعبانا فاهتزت فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ فى سرعة حركتها مع عظم جسمها وَلَّى مُدْبِراً أى: منهزما، و انتصاب مدبرا على الحال، و قوله: وَ لَمْ يُعَقِّبْ فى محل نصب أيضا على الحال، أى:

لم يرجع يا مُوسى‏ أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ قد تقدّم تفسير جميع ما ذكر هنا مستوفى فلا نعيده،

فتح القدير، ج‏4، ص: 197

و كذلك قوله: اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ جناح الإنسان: عضده، و يقال لليد كلها: جناح، أى: اضمم إليك يديك المبسوطتين لتتقى بهما الحية كالخائف الفزع، و قد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات: الأولى: اسلك يدك فى جيبك، و الثانية: و اضمم إليك جناحك، و الثالثة: و أدخل يدك فى جيبك. و يجوز أن يراد بالضم: التجلد و الثبات عند انقلاب العصا ثعبانا، و معنى مِنَ الرَّهْبِ من أجل الرهب، و هو الخوف. قرأ الجمهور (الرّهب) بفتح الراء و الهاء، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم، و قرأ حفص و السلمى و عيسى بن عمر و ابن أبى إسحاق بفتح الراء و إسكان الهاء و قرأ ابن عامر و الكوفيون إلا حفصا بضم الراء و إسكان الهاء. و قال الفراء: أراد بالجناح: عصاه، و قال بعض أهل المعانى: الرهب: الكمّ بلغة حمير و بنى حنيفة. و قال الأصمعى: سمعت أعرابيا يقول لآخر: أعطنى ما فى رهبك، فسألته عن الرهب، فقال الكمّ. فعلى هذا يكون معناه: اضمم إليك يدك و أخرجها من الكمّ فَذانِكَ إشارة إلى العصا و اليد بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ أى: حجتان نيرتان، و دليلان واضحان، قرأ الجمهور «فذانك» بتخفيف النون، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بتشديدها، قيل: و التشديد لغة قريش. و قرأ ابن مسعود و عيسى بن عمر و شبل و أبو نوفل بياء تحتية بعد نون مكسورة، و الياء بدل من إحدى النونين، و هى لغة هذيل، و قيل: لغة تميم، و قوله: مِنْ رَبِّكَ متعلق بمحذوف، أى: كائنان منه، و كذلك قوله إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ متعلق بمحذوف، أى: مرسلان، أو واصلان إليهم إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ متجاوزين الحد فى الظلم خارجين عن الطاعة أبلغ خروج، و الجملة تعليل لما قبلها.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق عبد اللّه بن أبى الهذيل عن عمر بن الخطاب فى قوله: تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قال: جاءت مستترة بكمّ درعها على وجهها. و أخرجه ابن المنذر عن أبى الهذيل موقوفا عليه. و أخرج ابن عساكر عن أبى حازم قال: لما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء، فقال له شعيب: كل، قال موسى: أعوذ باللّه، قال: و لم؟ أ لست بجائع؟ قال: بلى و لكن أخاف أن يكون هذا عوضا عما سقيت لهما، و أنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من عمل الآخرة بملء الأرض ذهبا، قال: لا و اللّه و لكنها عادتى، و عادة آبائى، نقرى الضيف و نطعم الطعام، فجلس موسى فأكل. و أخرج ابن أبى حاتم عن مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيبا هو الذى قصّ عليه القصص. و أخرج سعيد بن منصور و ابن شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن عبد اللّه بن مسعود قال: كان صاحب موسى يثرون بن أخى شعيب النبى. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الذى استأجر موسى يثرى صاحب مدين. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عنه قال: كان اسم ختن «۱» موسى يثرون. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن قال: يقول أناس إنه شعيب، و ليس بشعيب، و لكنه سيد الماء يومئذ. و أخرج ابن ماجة و البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن عتبة بن المنذر السلمى قال: كنّا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقرأ سورة طسم حتّى إذا بلغ قصّة موسى قال: «إنّ موسى أجّر نفسه ثمانى سنين أو عشرا على عفّة فرجه و طعام بطنه، فلمّا وفّى

---

(۱). الختن: زوج البنت أو الأخت و كل ما يكون من قبل المرأة كالأب و الأخ.

الأجل- قيل: يا رسول اللّه أىّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرّهما و أوفاهما- فلمّا أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه» الحديث بطوله.

و فى إسناده مسلمة بن على الحسنى الدمشقى البلاطى ضعفه الأئمة. و قد روى من وجه آخر و فيه نظر. و إسناده عند ابن أبى حاتم هكذا: حدثنا أبو زرعة، عن يحيى بن عبد اللّه بن بكير، حدّثنى ابن لهيعة، عن الحارث ابن يزيد الحضرمى، عن على بن

رباح اللخمی، قال: سمعت عتبة بن النّدّر السلمی صاحب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فذکره. و ابن لهیعة ضعیف، و ینظر فی بقیة رجال السند. و أخرج ابن جریر عن أنس طرفا منه موقوفا علیه.

و أخرج سعید بن منصور و ابن أبی شیبة فی المصنف و عبد بن حمید و البخاری و ابن المنذر و ابن مردویه من طرق عن ابن عباس أنه سئل: أیّ الأجلین قضی موسی؟ فقال: قضی أکثرهما و أطیبهما، إن رسول اللّه إذا قال فعل. و أخرج البزار و أبو یعلی و ابن جریر و ابن أبی حاتم و الحاکم و صححه و ابن مردویه عنه نحوه، قوله: إن رسول اللّه إذا قال فعل فیه نظر، فإن موسی لم یقل إنه سیقضی أکثر الأجلین بل قال: أیما الأجلین قضیت فلا عدوان علیّ. و قد روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم أن موسی قضی أتمّ الأجلین من طرق. و أخرج الخطیب فی تاریخه عن أبی ذرّ قال لی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «إذا سئلت أیّ الأجلین قضی موسی؟ فقل خیرهما و أبرّهما، و إن سئلت: أیّ المرأتین تزوّج؟ فقل الصغری منهما، و هی التی جاءت فقالت: یا أبت استأجره».

و أخرج ابن مردویه عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم قال لی جبریل: یا محمد إن سألک الیهود أیّ الأجلین قضی موسی؟ فقل: أوفاهما، و إن سألوک أیّهما تزوّج؟ فقل: الصغری منهما». و أخرج البزار و ابن أبی حاتم و الطبرانی فی الأوسط و ابن مردویه. قال السیوطی بسند ضعیف عن أبی ذرّ «أنّ النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم سئل أیّ الأجلین قضی موسی؟ قال: أبرّهما و أوفاهما، قال: و إن سئلت أیّ المرأتین تزوّج؟ فقل:

الصغری منهما» قال البزار: لا نعلم یروی عن أبی ذرّ إلا بهذا الإسناد، و قد رواه ابن أبی حاتم من حدیث عوید بن أبی عمران، و هو ضعیف. و أما روایات أنه قضی أتمّ الأجلین فلها طرق یقوی بعضها بعضا. و أخرج ابن أبی حاتم عن طریق السدیّ قال: قال ابن عباس: لما قضی موسی الأجل سار بأهله، فضلّ الطریق، و کان فی الشتاء فرفعت له نار، فلما رآها ظنّ أنها نار، و کانت من نور اللّه قالَ لِأَهْلِهِ امْکُثُوا إِنِّی آنَسْتُ ناراً لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْها بِخَبَرٍ فإن لم أجد خبرا آتیکم بشهاب قبس لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ من البرد. و أخرج ابن أبی حاتم عنه لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْها بِخَبَرٍ لعلی أجد من یدلنی علی الطریق، و کانوا قد ضلوا الطریق. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أیضا فی قوله: أَوْ جَذْوَةٍ قال: شهاب. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أیضا فی قوله: نُودِیَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ قال: کان النداء من السماء الدنیا، و ظاهر القرآن یخالف ما قاله رضی اللّه عنه. و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و الحاکم و صححه عن عبد اللّه بن مسعود قال: ذکرت لی الشجرة التی أوی إلیها موسی، فسرت إلیها یومی و لیلتی حتی صبحتها، فإذا هی سمرة خضراء ترف، فصلیت علی النبی صلّی اللّه علیه و سلم و سلمت، فأهوی إلیها بعیری و هو جائع، فأخذ منها ملآن فیه فلاکه فلم یستطع أن یسیغه فلفظه، فصلیت علی النبیّ و سلمت، ثم انصرفت. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: وَ اضْمُمْ إِلَیْکَ جَناحَکَ قال: یدک.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۹۹

[سورة القصص (۲۸): الآیات ۳۳ الی ۴۳]

قالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ یَقْتُلُونِ (۳۳) وَ أَخِی هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِی رِدْءاً یُصَدِّقُنِی إِنِّی أَخافُ أَنْ یُکَذِّبُونِ (۳۴) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِیکَ وَ نَجْعَلُ لَکُما سُلْطاناً فَلا یَصِلُونَ إِلَیْکُما بِآیاتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَکُمَا الْغالِبُونَ (۳۵) فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسی بِآیاتِنا بَیِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَریً وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِی آبائِنَا الْأَوَّلِینَ (۳۶) وَ قالَ مُوسی رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدی مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَکُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۳۷)

وَ قالَ فِرْعَوْنُ یا أَیُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرِی فَأَوْقِدْ لِی یا هامانُ عَلَی الطِّینِ فَاجْعَلْ لِی صَرْحاً لَعَلِّی أَطَّلِعُ إِلی إِلهِ مُوسی وَ

إِنِّی لَأَظُنُّهُ مِنَ الْکاذِبِینَ (۳۸) وَ اسْتَکْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَیْنا لا یُرْجَعُونَ (۳۹) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِی الْیَمِّ فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِینَ (۴۰) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً یَدْعُونَ إِلَی النَّارِ وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ لا یُنْصَرُونَ (۴۱) وَ أَتْبَعْناهُمْ فِی هذِهِ الدُّنْیا لَعْنَةً وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِینَ (۴۲)

وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَکْنَا الْقُرُونَ الْأُولی بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدیً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۴۳)

لما سمع موسی قول اللّه سبحانه: فذانک برهانان إلی فرعون طلب منه سبحانه أن یقوی قلبه، ف قالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً یعنی: القبطی الذی وکزه فقضی علیه فَأَخافُ أَنْ یَقْتُلُونِ بها وَ أَخِی هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِساناً لأنه کان فی لسان موسی حبسة کما تقدّم بیانه، و الفصاحة لغة الخلوص، یقال: فصح اللبن و أفصح فهو فصیح، أی: خلص من الرغوة، و منه فصح الرجل: جادت لغته، و أفصح:

تکلم بالعربیة. و قیل: الفصیح الذی ینطق، و الأعجم الذی لا ینطق. و أما فی اصطلاح أهل البیان فالفصاحة:

خلوص الکلمة عن تنافر الحروف و الغرابة و مخالفة القیاس، و فصاحة الکلام: خلوصه من ضعف التألیف و التعقید، و انتصاب رِدْءاً علی الحال، و الردء: المعین، من أردأته: أی أعنته، یقال فلان ردء فلان:

إذا کان ینصره و یشدّ ظهره، و منه قول الشاعر:

ألم تر أنّ أصرم کان ردئی و خیر النّاس فی قلّ و مال

و حذفت الهمزة تخفیفا فی قراءة نافع و أبی جعفر، و یجوز أن یکون ترک الهمز من قولهم أردی علی المائة:

إذا زاد علیها، فکان المعنی أرسله معی زیادة فی تصدیقی، و منه قول الشاعر:

و أسمر خطّیا کأنّ کعوبه نوی القسب قد أردی ذراعا علی العشر

و روی البیت فی الصحاح بلفظ قد أربی، و القسب الصلب، و هو الثمر الیابس الذی یتفتت فی الفم، و هو صلب النواة یُصَدِّقُنِی قرأ عاصم و حمزة یصدقنی بالرفع علی الاستئناف، أو الصفة لردءا، أو لحال من مفعول أرسله، و قرأ الباقون بالجزم علی جواب الأمر، و قرأ أبی و زید بن علیّ یُصَدِّقُونَ أی: فرعون

فتح القدیر، ج۴، ص: ۲۰۰

فتح القدیر ج۴ ۲۴۹

و ملؤه إِنِّی أَخافُ أَنْ یُکَذِّبُونِ إذا لم یکن معی هارون لعدم انطلاق لسانی بالمحاجة قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِیکَ أی: نقویک به، فشدّ العضد کنایة عن التقویة، و یقال فی دعاء الخیر: شدّ اللّه عضدک، و فی ضدّه: فتّ اللّه فی عضدک. قرأ الجمهور عَضُدَکَ بفتح العین. و قرأ الحسین و زید بن علیّ بضمها.

و روی عن الحسن أیضا أنه بضمة و سکون. و قرأ عیسی بن عمر بفتحهما وَ نَجْعَلُ لَکُما سُلْطاناً أی:

حجة و برهانا. أو تسلطا علیه، و علی قومه فَلا یَصِلُونَ إِلَیْکُما بالأذی و لا یقدرون علی غلبتکما بالحجة، و بِآیاتِنا متعلق بمحذوف: أی تمتنعان منهم بآیاتنا، أو اذهبا بآیاتنا. و قیل: الباء للقسم، و جوابه یصلون، و ما أضعف هذا القول. و قال الأخفش و ابن جریر: فی الکلام تقدیم و تأخیر، و التقدیر أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَکُمَا الْغالِبُونَ بآیاتنا، و أوّل هذه الوجوه: أولاها، و فی «أنتما و من اتبعکما الغالبون»:

تبشیر لهما و تقویة لقلوبهما فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسی بِآیاتِنا بَیِّناتٍ البینات: الواضحات الدلالة، و قد تقدّم وجه إطلاق الآیات، و هی جمع علی العصا و الید فی سورة طه قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَریً أی: مختلق مکذوب، اختلقته من قبل نفسک وَ ما سَمِعْنا بِهذا الذی جئت به من دعوی النبوّة، أو ما سمعنا بهذا السحر فِی آبائِنَا الْأَوَّلِینَ أی: کائنا، أو واقعا فی آبائنا الأوّلین وَ قالَ مُوسی رَبِّی

أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ يريـد نفسه، و إنما جاء بهذه العبارة لئلا يصرّح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة، و اللّه أعلم.

قرأ الجمهور وَ قالَ مُوسى بالواو، و قرأ مجاهـد و ابن كثير و ابن محيصن «قال موسى» بلا واو، و كـذلك هو فى مصاحف أهل مكـة. و قرأ الكوفيون إلا عاصما «و من يكون له عاقبـة الدّار» بالتحتية على أن اسم يكون عاقبة الدار. و التذكير لوقوع الفصل، و لأنه تأنيث مجازى، و قرأ الباقون (تكون) بالفوقيـة، و هى أوضـح من القراءة الأولى، و المراد بالـدار هنا الدنيا و عاقبتها هى الدار الآخرة، و المعنى: لمن تكون له العاقبة المحمودة؟ و الضمير فى إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ للشأن، أى: إن الشأن أنه لا يفلح الظالمون، أى:

لا يفوزون بمطلب خير، و يجوز أن يكون المراد بعاقبـة الدار: خاتمة الخير، و قال فرعون يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِى تمسـك اللعين بمجرّد الـدعوى الباطلـة مغالطـة لقومه منه، و قـد كـان يعلم أنه ربه اللّه عزّ و جلّ، ثم رجع إلى تكبره و تجبره، و إيهام قومه بكمال اقتداره، فقال: فَأَوْقِدْ لِى يا هامانُ عَلَى الطِّينِ أى: اطبخ لى الطين حتى يصير آجرا فَاجْعَلْ لِى صَرْحاً أى: اجعل لى من هذا الطين الذى توقد عليه حتى يصير آجرا صرحا: أى قصـرا عاليا لَعَلِّى أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى أى: أصعد إليه وَ إِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكـاذِبِينَ و الطلوع، و الاطلاع: واحـد، يقـال طلع الجبـل و اطلع وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ المراد بالأرض: أرض مصـر، و الاسـتكبار: التعظيم بغير اسـتحقاق، بل بالعدوان لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، و لا شبهة ينصبها فى مقابلة ما أظهره من المعجزات وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ أى: فرعون و جنوده، و المراد بالرجوع: البعث و المعاد، قرأ نافع و شيبـة و ابن محيصن و حميـد و يعقوب و حمزة و الكسائى «لا يرجعون» بفتح الياء و كسـر الجيم مبنيا للفاعل. و قرأ الباقون بضـم الياء و فتح الجيم مبنيا للمفعول، و اختار القراءة الأولى: أبو حاتم، و اختار القراءة الثانية: أبو عبيد

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۰۱

فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ بعـد أن عتوا فى الكفر و جاوزوا الحدّ فيه فَنَبَذْناهُمْ فِى الْيَمِ أى: طرحناهم فى البحر، و قد تقدّم بيان الكلام فى هذا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظّالِمِينَ الخطاب لنبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلم أى: انظر يا محمد كيف كان آخر أمر الكافرين، حين صاروا إلى الهلاك وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ أى: صيرناهم رؤساء متبوعين مطاعين فى الكافرين، فكأنهم بإصرارهم على الكفر و التمادى فيه، يـدعون أتباعهم إلى النار لأنهم اقتدوا، و سـلكوا طريقتهم تقليدا لهم. و قيل المعنى: إنه يأتمّ بهم، أى: يعتبر بهم من جاء بعدهم، و يتعظ بما أصيبوا به، و الأول أولى وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ أى: لا ينصرهم أحد و لا يمنعهم مانع من عـذاب اللّه وَ أَتْبَعْناهُمْ فِى هـذِهِ الـدُّنْيا لَعْنَةً أى: طردا و إبعادا، أو أمرنا العباد بلعنهم، فكل من ذكرهم لعنهم، و الأوّل أولى وَ يَوْمَ الْقِيامَـةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ المقبوح: المطرود المبعد. و قال أبو عبيدة و ابن كيسان: معناه من المهلكين الممقوتين. و قال أبو زيد: قبح اللّه فلانا قبحا و قبوحا: أبعده من كل خير.

قال أبو عمرو: قبحت وجهه بالتخفيف: بمعنى قبحت بالتشديد، و مثله قول الشاعر:

ألا قبّح اللّه البراجم كلّهاو قبّح يربوعا و قبّح دارما

و قيل: المقبوح المشوّه الخلقة، و العامل فى (يوم) محذوف يفسـره من المقبوحين، و التقدير: و قبحوا يوم القيامة، أو هو معطوف على موضع فى هـذه الـدنيا، أى: و أتبعناهم لعنـة يوم القيامـة، أو معطوف على لعنة على حذف مضاف، أى: و لعنة يوم القيامة وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَـى الْكِتابَ يعنى التوراة وَ مِنْ بَعْـدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى أى: قوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم، و قيل من بعـد ما أهلكنـا فرعون و قومه و خسـفنا بقـارون، و انتصـاب بَصـائِرَ لِلنّاسِ على أنه مفعول له أو حال، أى: آتيناه الكتاب لأجل يتبصـر به الناس، أو حال كونه بصائر الناس يبصرون به الحق، و يهتدون إليه و ينقذون أنفسهم به من الضلالة بالاهتداء به وَ رَحْمَةً لهم من

اللّه رحمهم بها لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ هذه النعم فيشكرون اللّه و يؤمنون به و يجيبون داعيه إلى ما فيه خير لهم.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى أبى طلحة عن ابن عباس رِدْءاً يُصَدِّقُنِي كى يصدقنى. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: لما قال فرعون يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي قال جبريل: يا ربّ طغى عبدك فأذن لى فى هلكه، فقال: يا جبريل هو عبدى و لن يسبقنى، له أجل يجىء ذلك الأجل، فلما قال: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى «۱» قال اللّه: يا جبريل سبقت دعوتك فى عبدى و قد جاء أوان هلاكه. و أخرج ابن مردويه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «كلمتان قالهما فرعون: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي و قوله: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى قال: كان بينهما أربعون عاما فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى «۲». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: بلغنى أن فرعون أوّل من طبخ الآجرّ. و أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج. و أخرج البزار و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن

---

(۱). النازعات: ۲۴.

(۲). النازعات: ۲۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۰۲

مردويه عن أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «ما أهلك اللّه قوما و لا قرنا و لا أمّة و لا أهل قرية بعذاب من السّماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التى مسخت قردة، ألم تر إلى قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى و أخرجه البزار و ابن جرير و ابن أبى حاتم من وجه آخر عن أبى سعيد موقوفا.

[سورة القصص (۲۸): الآيات ۴۴ الى ۵۷]

وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۴۴) وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۴۵) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۶) وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۴۷) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (۴۸)

قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۹) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵۰) وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۵۱) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (۵۲) وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (۵۳)

أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۵۴) وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (۵۵) إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۵۶) وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۵۷)

قوله: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ هذا شروع فى بيان إنزال القرآن، أى: و ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربى، فيكون من حذف الموصوف و إقامة الصفة مقامه، و اختاره الزجاج. و قال الكلبى: بجانب الوادى الغربى: أى حيث ناجى موسى ربه إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ أى: عهدنا إليه، و أحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون و قومه وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ لذلك حتى تقف على

حقيقته و تحكيه من جهة نفسك. و إذا تقرّر أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن أن يكون بالحضور عندها من نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و المشاهدة لها منه، و انتفى بالأدلة الصحيحة أنه لم يتلقّ ذلك من غيره من البشر، و لا علمه معلم منهم، كما قدّمنا تقريره تبين أنه من عند اللّه سبحانه بوحى منه إلى رسوله بواسطة الملك النازل بذلك، فهذا الكلام هو على طريقه وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ «۱» و قيل: معنى

---

(۱). آل عمران: ۴۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۰۳

إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ إذ كلفناه و ألزمناه، و قيل: أخبرناه أن أمة محمد خير الأمم، و لا يستلزم نفى كونه بجانب الغربى؛ نفى كونه من الشاهدين، لأنه يجوز أن يحضر و لا يشهد. قيل: المراد بالشاهدين: السبعون الذين اختارهم موسى للميقات وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً أى: خلقنا أمما بين زمانك يا محمد، و زمان موسى فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ طالت عليهم المهلة و تمادى عليهم الأمد، فتغيرت الشرائع، و الأحكام و تنوسيت الأديان، فتركوا أمر اللّه و نسوا عهده، و مثله قوله سبحانه: فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ «۱»، و قد استدلّ بهذا الكلام على أن اللّه سبحانه قد عهد إلى موسى عهودا فى محمد صلّى اللّه عليه و سلم و فى الإيمان به فلما طال عليهم العمر و مضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود، و تركوا الوفاء بها وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ أى:

مقيما بينهم كما أقام موسى حتى تقرأ على أهل مكة خبرهم و تقصّ عليهم من جهة نفسك يقال: ثوى يثوى ثواء و ثويا فهو ثاو. قال ذو الرمة:

لقد كان فى حول ثواء ثويتهتقضى لبانات و يسأم سائم

و قال العجاج:

فبات حيث يدخل الثّوىّ يعنى الضيف المقيم.

و قال آخر:

طال الثّواء على رسول المنزل تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا أى: تقرأ على أهل مدين آياتنا، و تتعلم منهم، و قيل: تذكرهم بالوعد و الوعيد، و الجملة: فى محل نصب على الحال، أو خبر ثان، و يجوز أن تكون هذه الجملة هى الخبر، و ثاويا حال. و جعلها الفراء مستأنفة كأنه قيل: و ها أنت تتلو على أمتك وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ أى: أرسلناك إلى أهل مكة، و أنزلنا عليك هذه الأخبار، و لو لا ذلك لما علمتها. قال الزجاج: المعنى أنك لم تشاهد قصص الأنبياء، و لا تليت عليك، و لكن أوحيناها إليك، و قصصناها عليك وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا أى: و ما كنت يا محمد بجانب الجبل، المسمى بالطور إذ نادينا موسى لما أتى إلى الميقات مع السبعين. و قيل: المنادى هو أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم. قال وهب: و ذلك أن موسى لما ذكر اللّه له فضل محمد و أمته قال: يا رب أرنيهم، فقال اللّه: إنك لن تدركهم و إن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم، قال: بلى يا ربّ، فقال اللّه: يا أمة محمد! فأجابوا من أصلاب آبائهم. فيكون معنى الآية على هذا: ما كنت يا محمد بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك، و سيأتى ما يدلّ على هذا و يقوّيه و يرجحه فى آخر البحث إن شاء اللّه وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ أى: و لكن فعلنا ذلك رحمة منا بكم، و قيل: و لكن أرسلنا بالقرآن رحمة لكم، و قيل: علمناك، و قيل: عرفناك. قال الأخفش: هو منصوب: يعنى: رحمة على المصدر، أى: و لكن رحمناك رحمة. و قال الزجاج: هو مفعول

---

(۱). الحديد: ۱۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۰۴

من أجله، أي: فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة. قال النحاس: أي لم تشهد قصص الأنبياء، و لا تليت عليك، و لكن بعثناك، و أوحيناها إليك للرحمة. و قال الكسائي: هو خبر لكان مقدّرة، أي: و لكن كان ذلك رحمة.

و قرأ عيسى بن عمر و أبو حيوة رحمة بالرفع على تقدير: و لكن أنت رحمة. و قال الكسائي: الرفع على أنها اسم كان المقدّرة، و هو بعيد إلا على تقدير أنها تامة، و اللام في لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ متعلق بالفعل المقدر على الاختلاف في تقديره، و القوم: هم أهل مكة، فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله صلّى اللّه عليه و سلم، و جملة «ما أتاهم» إلخ صفة لقوما لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أي: يتعظون بإنذارك وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ لو لا هذه: هي الامتناعية، و أن و ما في حيزها في موضع رفع بالابتداء، و جوابها محذوف.

قال الزجاج: و تقديره ما أرسلنا إليهم رسلا، يعني: أن الحامل على إرسال الرسل هو إزاحة عللهم، فهو كقوله سبحانه: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ «۱» و قد رواه ابن عطية لعاجلناهم بالعقوبة، و وافقه على هذا التقدير الواحدي فقال: و المعنى لو لا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم، و قوله: فَيَقُولُوا عطف على تصيبهم و من جملة ما هو في حيز لولا، أي: فيقولوا: رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا و لو لا هذه الثانية: هي التحضيضية، أي: هلا أرسلت إلينا رسولا من عندك، و جوابها هو فَنَتَّبِعَ آياتِكَ و هو منصوب بإضمار أن لكونه جوابا للتحضيض، و المراد بالآيات: الآيات التنزيلية الظاهرة الواضحة، و إنما عطف القول على تصيبهم لكونه هو السبب للإرسال، و لكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول، و كان وجوده بوجودهما جعلت العقوبة كأنها هي السبب لإرسال الرسل بواسطة القول وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بهذه الآيات، و معنى الآيات أنا لو عذبناهم لقالوا: طال العهد بالرسل و لم يرسل اللّه إلينا رسولا، و يظنون أن ذلك عذر لهم، و لا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل، و لكنا أكملنا الحجة، و أزحنا العلة، و أتممنا البيان بإرسالك يا محمد إليهم فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أي: فلما جاء أهل مكة الحقّ من عند اللّه و هو محمد و ما أنزل عليه من القرآن تعنتا منهم و جدالا بالباطل قالوا: هلا أوتي هذا الرسول مثل ما أوتي موسى من الآيات التي من جملتها، التوراة المنزلة عليه جملة واحدة، فأجاب اللّه عليهم بقوله: أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ أي: من قبل هذا القول، أو من قبل ظهور محمد؛ و المعنى: أنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد، و جملة قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم و عنادهم، و المراد بقولهم: سِحْرانِ موسى و محمد، و التظاهر: التعاون، أي: تعاونا على السحر، و الضمير في قوله: «أو لم يكفروا» لكفار قريش، و قيل:

هو لليهود. و الأوّل أولى؛ فإن اليهود لا يصفون موسى بالسحر، إنما يصفه بذلك كفار قريش، و أمثالهم إلا أن يراد من أنكر نبوّة موسى كفرعون و قومه، فإنهم وصفوا موسى و هارون بالسحر، و لكنهم ليسوا من اليهود، و يمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى، و من كفر بمحمد، فإن الذين كفروا وصفوه بالسحر، و الذين كفروا بمحمد و صفوه أيضا بالسحر. و قيل: المعنى: أو لم يكفر اليهود في عصر محمد بما أوتي موسى من قبله بالبشارة

---

(۱). النساء: ۱۶۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۰۵

بعيسى و محمد. قرأ الجمهور (ساحران) و قرأ الكوفيون (سحران) يعنون: التوراة، و القرآن، و قيل:

الإنجيل، و القرآن. قال بالأوّل الفراء. و قال بالثاني أبو زيد. و قيل: إن الضمير في «أو لم يكفروا» لليهود، و أنهم عنوا بقولهم (ساحران) عيسى و محمدا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ أي: بكلّ من موسى و محمد، أو من موسى و هارون، أو من موسى و عيسى

على اختلاف الأقوال، و هذا على قراءة الجمهور، و أما على القراءة الثانية، فالمراد: التوراة و القرآن، أو الإنجيل و القرآن. و فى هذه الجملة تقرير لما تقدّمها من وصف النبيين بالسحر، أو و من وصف الكتابين به، و تأكيد لذلك. ثم أمر اللّه سبحانه نبيه أن يقول لهم قولا يظهر به عجزهم، فقال: قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ أى: قل لهم يا محمد فأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة و القرآن، و أتبعه جواب الأمر، و قد جزمه جمهور القراء لذلك. و قرأ زيد بن علىّ برفع أتبعه على الاستئناف، أى: فأنا أتبعه. قال الفراء: إنه على هذه القراءة صفة للكتاب، و فى هذا الكلام تهكم به. و فيه أيضا دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور لأنه رجع الكلام إلى الكتابين لا إلى الرسولين، و معنى إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ إن كنتم فيما وصفتم به الرسولين، أو الكتابين صادقين فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ أى: لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين، و جواب الشرط فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ أى: آراءهم الزائغة، و استحساناتهم الزائفة، بلا حجة و لا برهان. و قيل المعنى: فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به، و تعدية يستجيبوا باللام هو أحد الجائزين وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ أى: لا أحد أضلّ منه، بل هو الفرد الكامل فى الضلال إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لأنفسهم بالكفر، و تكذيب الأنبياء، و الإعراض عن آيات اللّه وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ قرأ الجمهور «وصّلنا» بتشديد الصاد، و قرأ الحسن بتخفيفها، و معنى الآية: أتبعنا بعضه بعضا، و بعثنا رسولا بعد رسول. و قال أبو عبيدة و الأخفش: معناه أتممنا. و قال ابن عيينة و السدىّ: بينا.

و قال ابن زيد: وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا، و الأولى: أولى.

و هو مأخوذ من وصل الحبال بعضها ببعض، و منه قول الشاعر:

فقل لبنى مروان ما بال ذمّتىو حبل ضعيف لا يزال يوصّل

و قال امرؤ القيس:

يقلّب كفّيه بخيط موصّل «١» الضمير فى «لهم» عائد إلى قريش، و قيل: إلى اليهود، و قيل: للجميع لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فيكون التذكير سببا لإيمانهم مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ أى: من قبل القرآن، و الموصول: مبتدأ، و خبره. هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ أخبر سبحانه أن طائفة من بنى إسرائيل آمنوا

---

(١). و صدره: درير كخذروف الوليد أمرّه.

و درير: سريع. و الخذروف: شىء يدوره الصبى فى يده، و يسمع له صوت، و يسمى الخرارة. و أمرّه: أحكم فتله.

بالقرآن كعبد اللّه بن سلام، و سائر من أسلم من أهل الكتاب، و قيل: الضمير فى «من قبله» يرجع إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و الأوّل أولى. و الضمير فى «به» راجع إلى القرآن على القول الأوّل، و إلى محمد على القول الثانى وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ أى: و إذا يتلى القرآن عليهم قالوا صدّقنا به إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا أى: الحق الذى نعرفه المنزل من ربنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أى: مخلصين للّه بالتوحيد، أو مؤمنين بمحمد و بما جاء به، لما نعلمه من ذكره فى التوراة و الإنجيل من التبشير به، و أنه سيبعث آخر الزمان، و ينزل عليه القرآن، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ أى: الموصوفين بتلك الصفات، و الباء فى بِما صَبَرُوا للسببية، أى: بسبب صبرهم، و ثباتهم على الإيمان بالكتاب الأوّل، و الكتاب الآخر، و بالنبىّ الأوّل، و النبىّ الآخر وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ الدرء: أى: يدفعون بالاحتمال، و الكلام الحسن ما يلاقونه من الأذى.

و قيل: يدفعون بالطاعة المعصية، و قيل: بالتوبة و الاستغفار من الذنوب، و قيل: بالتوبة و الاستغفار من الذنوب، و قيل: بشهادة أن لا إله إلا اللّه الشرك وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ أى: ينفقون أموالهم فى الطاعات، و فيما أمر به الشرع. ثم مدحهم سبحانه بإعراضهم

عن اللغو فقال: وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ تكرّما، و تنزّها، و تأدّبا بآداب الشرع، و مثله قوله سبحانه: وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً «۱»، و اللغو هنا: هو ما يسمعونه من المشركين من الشتم لهم، و لدينهم، و الاستهزاء بهم وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا يلحقنا من ضرر كفركم شيء، و لا يلحقكم من نفع إيماننا شيء سَلامٌ عَلَيْكُمْ ليس المراد بهذا السلام سلام التحية، و لكن المراد به سلام المتاركة، و معناه أمنة لكم، و سلامة لا نجاريكم، و لا نجاوبكم فيما أنتم فيه. قال الزجاج: و هذا قبل الأمر بالقتال لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ أي: لا نطلب صحبتهم. و قال مقاتل: لا نريد أن نكون من أهل الجهل و السفه. و قال الكلبي: لا نحبّ دينكم الذي أنتم عليه إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ من الناس، و ليس ذلك إليك وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ هدايته وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ أي: القابلين للهداية، المستعدّين لها، و هذه الآية نزلت في أبي طالب كما ثبت في الصحيحين و غيرهما، و قد تقدّم ذلك في براءة. قال الزجاج: أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب، و قد تقرّر في الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل في ذلك أبو طالب دخولا أوليا وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أي: قال مشركو قريش و من تابعهم: إن ندخل في دينك يا محمد؛ نتخطف من أرضنا، أي: يتخطفنا العرب من أرضنا: يعنون مكة، و لا طاقة لنا بهم، و هذا من جملة أعذارهم الباطلة، و تعللاتهم العاطلة، و التخطف في الأصل: هو الانتزاع بسرعة. قرأ الجمهور «نتخطف» بالجزم جوابا للشرط، و قرأ المنقري بالرفع على الاستئناف. ثم ردّ اللّه ذلك عليهم ردّا مصدّرا باستفهام التوبيخ، و التقريع فقال: أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً أي: ألم نجعل لهم حرما ذا أمن. قال أبو البقاء: عدّاه بنفسه لأنه بمعنى جعل كما صرّح بذلك في قوله: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً «۲»، ثم وصف هذا الحرم بقوله: يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ أي: تجمع إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضي

---

(۱). الفرقان: ۷۲.

(۲). العنكبوت: ۶۷.

المختلفة، و تحمل إليه. قرأ الجمهور «يجبى» بالتحتية اعتبارا بتذكير كل شيء، و وجود الحائل بين الفعل و بين ثمرات، و أيضا ليس بتأنيث ثمرات بحقيقي، و اختار قراءة الجمهور أبو عبيد لما ذكرنا، و قرأ نافع بالفوقية اعتبارا بثمرات. و قرأ الجمهور أيضا ثَمَراتُ بفتحتين، و قرأ أبان بضمتين، جمع ثمر بضمتين، و قرئ بفتح الثاء و سكون الميم رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا منتصب على المصدرية لأن معنى يجبى: نرزقهم و يجوز أن ينتصب على أنه مفعول له لفعل محذوف، أي: نسوقه إليهم رزقا من لدنا، و يجوز أن ينتصب على الحال، أي: رازقين وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ لفرط جهلهم و مزيد غفلتهم، و عدم تفكرهم في أمر معادهم، و رشادهم، لكونهم ممن طبع اللّه على قلبه، و جعل على بصره غشاوة.

و قد أخرج الفريابي و النسائي و ابن جرير و ابن أبي حاتم و صححه و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقي معا في الدلائل عن أبي هريرة في قوله: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا قال: نودوا يا أمّة محمّد أعطيتكم قبل أن تسألوني، و استجبت لكم قبل أن تدعوني. و أخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعا.

و أخرجه عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن عساكر عنه وجه آخر بنحوه. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم في الدلائل و أبو نصر السجزي في الإبانة، و الديلمي عن عمرو بن عبسة قال: سألت النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم عن قوله وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا ما كان النداء و ما كانت الرحمة؟ قال: «كتبه اللّه قبل أن يخلق خلقه بألفي عام، ثم وضعه على عرشه، ثم نادى: يا أمّة محمّد سبقت رحمتي غضبي، أعطيتكم قبل أن تسألوني، و غفرت لكم قبل أن تستغفروني، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا

اللّه، و أن محمّدا عبدى، و رسولى صادقا أدخلته الجنّة». و أخرج الختلى فى الديباج عن سهل بن سعد الساعدى مرفوعا مثله. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم عن حذيفة فى قوله: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا مرفوعا قال نودوا: يا أمة محمد ما دعوتمونا إذ استجبنا لكم، و لا سألتمونا إذ أعطيناكم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا «إن اللّه نادى: يا أمة محمّد أجيبوا ربّكم، قال: فأجابوا و هم فى أصلاب آبائهم و أرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا: لبّيك أنت ربّنا حقا، و نحن عبيدك حقا، قال: صدقتم أنا ربّكم، و أنتم عبيدى حقا، قد عفوت عنكم قبل أن تدعونى، و أعطيتكم قبل أن تسألونى، فمن لقينى منكم بشهادة أن لا إله إلا اللّه دخل الجنّة. و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الهالك فى الفترة يقول: ربّ لم يأتنى كتاب و لا رسول، ثم قرأ هذه الآية رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا الآية».

و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا إلخ: قال:

هم أهل الكتاب إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ يعنى بالكتابين: التوراة و الفرقان. و أخرج ابن شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو القاسم البغوى و الباوردى و ابن قانع الثلاثة فى معاجم الصحابة. و الطبرانى و ابن مردويه بسند جيد عن رفاعة القرظى قال: نزلت وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ إلى قوله: أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ فى عشرة رهط أنا أحدهم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ قال: يعنى من آمن بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم من أهل

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۰۸

الكتاب. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأوّل و الآخر، و رجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها و تزوّجها. و عبد مملوك أحسن عبادة ربّه و نصح لسيده». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث المسيب و مسلم و غيره من حديث أبى هريرة أن قوله: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ نزلت فى أبى طالب لما امتنع من الإسلام. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس أن ناسا من قريش قالوا للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: إن نتبعك يتخطفنا الناس، فنزلت وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ قال: ثمرات الأرض.

[سورة القصص (۲۸): الآيات ۵۸ الى ۷۰]

وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (۵۸) وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَ أَهْلُها ظالِمُونَ (۵۹) وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ زِينَتُها وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۶۰) أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (۶۱) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۶۲)

قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (۶۳) وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (۶۴) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (۶۵) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (۶۶) فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (۶۷)

وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۸) وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ (۶۹) وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۷۰)

قوله: وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ أى: من أهل قرية كانوا فى خفض عيش، و دعة و رخاء، فوقع منهم البطر فأهلكوا. قال الزجاج: البطر:

الطغيـان عنـد النعمـة. قال عطاء: عاشوا فى البطر فأكلوا رزق اللّه، و عبـدوا الأصـنام. قال الزجاج و المازنى: معنى بَطِرَتْ مَعِيشَتَها بطرت فى معيشـتها، فلما حـذفت «فى» تعـدّى الفعل كقوله: وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ «١» و قـال الفراء: هو منصوب على التفسـير كما تقـول: أبطرک مالـک و بطرته، و نظيره عنـده قـوله تعـالى: إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ «٢» و نصـب المعـارف على التميز غير جـائز عند البصـريين، لأـن معنى التفسـير أن تكون النكرة دالـة على الجنس. و قيل: إن معيشـتها منصوبـة ببطرت على تضـمينه معنى جهلت فَتِلْکَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا أى: لم يسكنها أحد بعدهم إلّا زمنا قليلا،

---

(١). الأعراف: ١۵۵.

(٢). البقرة: ١٣٠.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٠٩

كالـذى يمرّ بهـا مسـافرا، فـإنه يلبث فيهـا يومـا، أو بعض يوم، أو لم يبق من يسـكنها فيهـا إلاـ أيامـا قليلـة، لشؤم مـا وقع فيهـا من معاصـيهم. و قيل: إن الاستثناء يرجع إلى المساكن، أى: لم تسكن بعد هلاک أهلها إلا قليلا من المساكن و أكثرها، خراب، كذا قال الفراء و هو قول ضـعيف وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ منهم لأنهم لم يتركوا وارثا يرث منازلهم، و أموالهم، و محلّ جملة «لم تسـكن» الرفع على أنهـا خبر ثان لاسم الإشارة، و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال وَ ما كانَ رَبُّکَ مُهْلِکَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا أى: و ما صحّ، و لا استقام أن يكون اللّه مهلک القرى الكافرة، أى: الكافر أهلها حتى يبعث فى أمها رسولاـ ينـذرهم، و يتلو عليهم آيات اللّه الناطقـة بما أوجبه اللّه عليهم، و ما أعـدّه من الثواب للمطيع، و العقاب للعاصـى، و معنى أمهـا: أكبرهـا و أعظمهـا، و خص الأـعظم منهـا بالبعثـة إليهـا، لأـن فيهـا أشـراف القوم، و أهـل الفهم و الرأى، و فيها: الملوک و الأكابر، فصارت بهذا الاعتبار كالأمّ لما حولها من القرى. و قال الحسن: أمّ القرى: أوّلها.

و قيـل: المراد بأمّ القرى هنا مكـة كما فى قوله: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ «١» الآية، و قد تقدّم بيان ما تضـمنته هذه الآية فى آخر سورة يوسف، و جملة «يتلو آياتنا» فى محل نصب على الحال، أى: تاليا عليهم و مخبرا لهم أن العذاب سينزل بهم إن لم يؤمنوا وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ هـذه الجملة معطوفة على الجملة التى قبلها، و الاسـتثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أى: و ما كنـا مهلكين لأهـل القرى بعـد أن نبعث إلى أمهـا رسولاـ يـدعوهم إلى الحـق إلاـ حـال كونهم ظـالمين قـد اسـتحقوا الإهلاـک لإصـرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم، و تأكيد الحجة عليهم كما فى قوله سبحانه: وَ ما كانَ رَبُّکَ لِيُهْلِکَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ «٢»، ثم قال سبحانه: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ زِينَتُها الخطاب لكفار مكة، أى: و ما أعطيتم من شـىء من الأشـياء فهو متـاع الحيـاة الـدنيا تتمتعون به مـدّة حياتكم، أو بعض حياتكم، ثم تزولون عنه، أو يزول عنكم، و على كل حال فـذلک إلى فناء و انقضاء وَ ما عِنْدَ اللَّهِ من ثوابه و جزائه خَيْرٌ من ذلک الزائل الفانى لأنه لـذّة خالصـة عن شوب الكـدر وَ أَبْقى لأنه يـدوم أبدا، و هذا ينقضـى بسرعة أَ فَلا تَعْقِلُونَ أن الباقى أفضل من الفانى، و ما فيه لذّة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبـة، بالكـدر المنغصة بعوارض البدن و القلب، و قرئ بنصب «متاع» على المصدرية، أى: متمتعون متاع الحياة، قرأ أبو عمرو «يعقلون» بالتحتيـة، و قرأ الباقون بالفوقيـة على الخطاب، و قراءتهم أرجـح لقوله: وَ ما أُوتِيتُمْ أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ أى: وعدناه بالجنة، و ما فيها من النعم التى لا تحصـى، فهو لاقيه، أى: مدركه لا محالة فإن اللّه لا يخلف الميعاد كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا فأعطى منها بعض ما أراد مع سرعة زواله و تنغيصه ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ هذا معطوف على قوله: مَتَّعْناهُ داخل معه فى حيز الصلة مؤكـد لإنكار التشابه و مقرّر له، و المعنى: ثم هـذا الذى متعناه هو يوم القيامة من المحضرين بالنار، و تخصيص المحضرين بالذين أحضروا للعذاب اقتضاء المقام، و الاستفهام للإنكار، أى: ليس حالهما سواء، فإن الموعود بالجنة لا

بدّ أن يظفر بما وعده به مع أنه لا يفوته نصيبه من الدنيا، و هذا حال

(۱). آل عمران: ۹۶.

(۲). هود: ۱۱۷.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۱۰

المؤمن. و أما حال الكافر، فإنه لم يكن معه إلا مجرّد التمتيع بشىء من الدنيا يستوى فيه هو و المؤمن، و ينال كل واحد منهما حظه منه، و هو صائر إلى النار، فهل يستويان؟ قرأ الجمهور «ثم هو» بضم الهاء. و قرأ الكسائى و قالوا بسكون الهاء إجراء لثمّ مجرى الواو و الفاء، و انتصاب يوم فى قوله: وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ بالعطف على يوم القيامة أو بإضمار اذكر، أى: يوم ينادى اللّه سبحانه هؤلاء المشركين فَيَقُولُ لهم أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أنهم ينصرونكم و يشفعون لكم، و مفعولا يزعمون محذوفان، أى: تزعمونهم شركائى لدلالة الكلام عليهما قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ أى: حقت عليهم كلمة العذاب، و هم رؤساء الضلال الذين اتخذوهم أربابا من دون اللّه، كذا قال الكلبى. و قال قتادة: هم الشيطان رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أى: دعوناهم إلى الغواية يعنون الأتباع أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا أى: أضللناهم كما ضللنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ منهم، و المعنى: أن رؤساء الضلال أو الشياطين تبرّؤوا ممن أطاعهم. قال الزجاج:

برىء بعضهم من بعض، و صاروا أعداء. كما قال اللّه تعالى: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ «۱» و هؤلاء مبتدأ، و الذين أغوينا صفته، و العائد محذوف، أى: أغويناهم، و الخبر: أغويناهم، و كما أغوينا: نعت مصدر محذوف. و قيل: إن خبر هؤلاء هو الذين أغوينا، و أما أغويناهم كما غوينا؛ فكلام مستأنف لتقرير ما قبله، و رجح هذا أبو علىّ الفارسى، و اعترض الوجه الأوّل، و ردّ اعتراضه أبو البقاء ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ و إنما كانوا يعبدون أهواءهم، و قيل إن «ما» فى ما كانوا: مصدرية، أى: تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا، و الأوّل أولى وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ أى: قيل للكفار من بنى آدم هذا القول، و المعنى: استغيثوا بآلهتكم التى كنتم تعبدونهم من دون اللّه فى الدنيا لينصروكم و يدفعوا عنكم فَدَعَوْهُمْ عند ذلك فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ و لا نفعوهم بوجه من وجوه النفع وَ رَأَوُا الْعَذابَ أى: التابع و المتبوع قد غشيهم، لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ قال الزجاج: جواب لو محذوف، و المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم ذلك و لم يروا العذاب. و قيل المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم، و قيل المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا لعلموا أن العذاب حق. و قيل المعنى: لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب. و قيل:

قد آن لهم أن يهتدوا لو كانوا يهتدون، و قيل: غير ذلك. و الأوّل أولى، و يوم فى قوله: وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ معطوف على ما قبله، أى: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ أى: خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمى الذين لا يهتدون، و الأصل فعموا عن الأنباء، و لكنه عكس الكلام للمبالغة، و الأنباء: الأخبار، و إنما سمى حججهم أخبارا، لم تكن من الحجة فى شىء، و إنما هى: أقاصيص، و حكايات فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ لا يسأل بعضهم بعضا، و لا ينطقون بحجة و لا يدرون بما يجيبون، لأن اللّه قد أعذر إليهم فى الدنيا، فلا يكون لهم عذر، و لا حجة يوم القيامة. قرأ الجمهور «عميت» بفتح العين و تخفيف الميم. و قرأ الأعمش و جناح بن حبيش بضم العين و تشديد الميم فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ إن تاب من الشرك

(۱). الزخرف: ۶۷.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۱۱

و صدّق بما جاء به الرسل و أدّى الفرائض و اجتنب المعاصى فعسى أن يكون من المفلحين، أى: الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين، و عسى و إن كانت فى الأصل للرجاء فهو من اللّه واجب على ما هو عادة الكرام. و قيل:

إن الترجى هو من التائب المذكور، لا من جهة اللّه سبحانه وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ أى: يخلقه.

وَ يَخْتارُ ما يشاء أن يختاره لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «۱» و هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم، و اختاروهم، أى: الاختيار إلى اللّه ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ أى: التخير، و قيل: المراد من الآية أنه ليس لأحد من خلق اللّه أن يختار، بل الاختيار هو إلى اللّه عزّ و جلّ. و قيل: إن هذه الآية جواب عن قولهم لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «۲» و قيل: هذه الآية جواب عن اليهود حيث قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به.

قال الزجاج: الوقف على «و يختار» تام على أن ما نافية. قال: و يجوز أن تكون «ما» فى موضع نصب بيختار، و المعنى: و يختار الذى كان لهم فيه الخيرة. و الصحيح الأوّل لإجماعهم على الوقف. و قال ابن جرير:

إن تقدير الآية: و يختار لولايته الخيرة من خلقه، و هذا فى غاية من الضعف. و جوّز ابن عطية أن تكون كان تامة، و يكون لهم الخيرة جملة مستأنفة. و هذا أيضا بعيد جدا. و قيل إن «ما» مصدرية، أى: يختار اختيارهم، و المصدر واقع موقع المفعول به، أى: و يختار مختارهم، و هذا كالتفسير لكلام ابن جرير. و الراجح أوّل هذه التفاسير، و مثله قوله سبحانه: وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ «۳» و الخيرة: التخير، كالطيرة فإنها التطير، اسمان يستعملان استعمال المصدر، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: سُبْحانَ اللَّهِ أى: تنزّه تنزّها خاصا به من غير أن ينازعه منازع، و يشاركه مشارك وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: عن الذين يجعلونهم شركاء له، أو عن إشراكهم وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ أى: تخفيه من الشرك، أو من عداوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، أو من جميع ما يخفونه مما يخالف الحق وَ ما يُعْلِنُونَ أى: يظهرونه من ذلك. قرأ الجمهور «تكن» بضم التاء الفوقية و كسر الكاف. و قرأ ابن محيصن و حميد بفتح الفوقية، و ضم الكاف. ثم تمدح سبحانه و تعالى بالوحدانية، و التفرّد باستحقاق الحمد فقال: وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى أى: الدنيا وَ الْآخِرَةِ أى: الدار الآخرة وَ لَهُ الْحُكْمُ يقضى بين عباده بما شاء من غير مشارك وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بالبعث فيجازى المحسن بإحسانه، و المسيء بإساءته، لا ترجعون إلى غيره.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ قال: قال اللّه لم نهلك قرية بإيمان، و لكنه أهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها، و لو كانت مكة آمنت لم يهلكوا مع من هلك، و لكنهم كذبوا و ظلموا فبذلك هلكوا. و أخرج مسلم و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «يقول اللّه عزّ و جلّ: يا بن آدم مرضت فلم تعدنى» الحديث بطوله. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير قال: «يحشر النّاس

---

(۱). الأنبياء: ۲۳.

(۲). الزخرف: ۳۱.

(۳). الأحزاب: ۳۶.

يوم القيامة أجوع ما كانوا و أعطش ما كانوا و أعرى ما كانوا، فمن أطعم للّه عزّ و جلّ أطعمه اللّه، و من كسا للّه عزّ و جلّ كساه اللّه، و من سقى للّه عزّ و جلّ سقاه اللّه، و من كان فى رضا اللّه كان اللّه على رضاه».

و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ قال: الحجج فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ

قال: بالأنساب. و قد ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلم الصحيح فى تعليم الاستخارة و كيفية صلاتها و دعائها فلا نطول بذكره.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٧١ الى ٨٨]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ لا يُلَقَّاها إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠)

فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٨٥)

وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (٨٦) وَ لا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

قوله: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ أى: أخبرونى إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً السرمد: الدائم المستمرّ،

فتح القدير، ج۴، ص: ٢١٣

من السرد، و هو المتابعة، فالميم زائدة، و منه قول طرفة:

لعمرك ما أمرى علىّ بغمّة نهارى و لا ليلى علىّ بسرمد

و قيل: إن ميمه أصلية، و وزنه فعلل لا فعمل، و هو الظاهر، بين لهم سبحانه أنه مهد لهم أسباب المعيشة؛ ليقوموا بشكر النعمة. فإنه لو كان الدهر الذى يعيشون فيه ليلا دائما إلى يوم القيامة؛ لم يتمكنوا من الحركة فيه، و طلب ما لا بدّ لهم منه مما يقوم به العيش، من المطاعم، و المشارب، و الملابس، ثم امتنّ عليهم فقال:

مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أى: هل لكم إله من الآلهة التى تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء، أى: بنور تطلبون فيه المعيشة، و تبصرون فيه ما تحتاجون إليه، و تصلح به ثماركم، و تنمو عنده زرائعكم، و تعيش فيه دوابكم أَ فَلا تَسْمَعُونَ هذا الكلام سماع فهم، و قبول، و تدبر، و تفكر. ثم لما فرغ من الامتنان عليهم بوجود النهار، امتنّ عليهم بوجود الليل فقال: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ أى: جعل جميع الدهر الذى تعيشون فيه نهارا إلى يوم القيامة

مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أى: تستقرّون فيه من النصب، و التعب، و تستريحون مما تزاولون من طلب المعاش، و الكسب أَ فَلا تُبْصِرُونَ هذه المنفعة العظيمة؛ إبصار متعظ متيقظ، حتى تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير اللّه، و إذا أقرّوا بأنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه عزّ و جلّ، فقد لزمتهم الحجة، و بطل ما يتمسكون به من الشبه الساقطة، و إنما قرن سبحانه بالضياء قوله: أَ فَلا تَسْمَعُونَ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه و وصف فوائده، و قرن بالليل قوله: أَ فَلا تُبْصِرُونَ لأن البصر يدرك ما لا يدركه السمع من ذلك «١» وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ أى: فى الليل وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أى: فى النهار، بالسعى فى المكاسب وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى: و لكى تشكروا نعمة اللّه عليكم، و هذه الآية من باب اللف و النشر، كما فى قول امرئ القيس:

كأنّ قلوب الطير رطبا و يابسالدى و كرها العنّاب و الحشف البالى

و اعلم أنه و إن كان السكون فى النهار ممكنا، و طلب الرزق فى الليل ممكنا، و ذلك عند طلوع القمر على الأرض، أو عند الاستضاءة بشىء بما له نور كالسراج، لكن ذلك قليل نادر مخالف لما يألفه العباد، فلا اعتبار به وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ كرّر سبحانه هذا لاختلاف الحالتين لأنهم ينادون مرة، فيدعون الأصنام، و ينادون أخرى، فيسكتون، و فى هذا التكرير أيضا تقريع بعد تقريع، و توبيخ بعد توبيخ، و قوله: وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عطف على ينادى، و جاء بصيغة الماضى للدلالة على التحقق، و المعنى: و أخرجنا من أكل أمة من الأمم شهيدا يشهد عليهم. قال مجاهد: هم الأنبياء، و قيل:

عدول كلّ أمة، و الأوّل: أولى.

---

(١). الصواب: أنه قرن السمع بالليل لأن الليل يتطلب حاسة السمع أكثر من غيرها. و قرن البصر مع النهار لأنه يعتمد على الضياء.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۱۴

و مثله قوله سبحانه: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً «١» ثم بين سبحانه ما يقوله لكل أمة من هذه الأمم بقوله: فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ أى:

حجتكم و دليلكم بأن معى شركاء، فعند ذلك اعترفوا، و خرسوا عن إقامة البرهان، و لذا قال: فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ فى الإلهية و أنه وحده لا شريك له وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى: غاب عنهم و بطل، و ذهب ما كانوا يختلقونه من الكذب فى الدنيا؛ بأنّ للّه شركاء يستحقون العبادة. ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال بقصة قارون لما اشتملت عليه من بديع القدرة، و عجيب الصنع فقال: إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى قارون على وزن فاعول اسم أعجمى ممتنع للعجمة و العلمية، و ليس بعربىّ مشتق من قرنت.

قال الزجاج: لو كان قارون من قرنت الشىء لانصرف. قال النخعى و قتادة و غيرهما: كان ابن عمّ موسى، و هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب، و موسى هو ابن عمران بن قاهث. و قال ابن إسحاق:

كان عم موسى لأب و أم، فجعله أخا لعمران، و هما ابنا قاهث. و قيل: هو ابن خالة موسى، و لم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ للتوراة منه، فنافق كما نافق السامرى، و خرج عن طاعة موسى، و هو معنى قوله: فَبَغى عَلَيْهِمْ أى: جاوز الحدّ فى التجبر، و التكبر عليهم، و خرج عن طاعة موسى، و كفر باللّه. قال الضحاك:

بغيه على بنى إسرائيل: استخفافه بهم لكثرة ماله و ولده. و قال قتادة: بغيه بنسبته ما آتاه اللّه من المال إلى نفسه، لعلمه و حيلته. و قيل: كان عاملا لفرعون على بنى إسرائيل، فتعدّى عليهم و ظلمهم، و قيل: كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية وَ آتَيْناهُ

مِنَ الْكُنُوزِ جمع كنز: و هو المال المدّخر. قال عطاء: أصاب كنزا من كنوز يوسف، و قيل: كان يعمل الكيمياء، و «ما» فى قوله: ما إِنَّ مَفاتِحَهُ موصولة، صلتها إنّ و ما فى حيزها، و لهذا كسرت. و نقل الأخفش الصغير عن الكوفيين منع المكسورة، و ما فى حيزها صلة الذى، و استقبح ذلك منهم لوروده فى الكتاب العزيز فى هذا الموضع، و المفاتح جمع مفتح بالكسر، و هو ما يفتح به، و قيل: المراد بالمفاتح: الخزائن، فيكون واحدها مفتح بفتح الميم. قال الواحدى: إن المفاتح:

الخزائن فى قول أكثر المفسرين كقوله: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ «٢» قال: و هو اختيار الزجاج فإنه قال: الأشبه فى التفسير أن مفاتحه: خزائن ماله. و قال آخرون: هى جمع مفتاح، و هو ما يفتح به الباب، و هذا قول قتادة و مجاهد لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ هذه الجملة خبر إن و هى و اسمها و خبرها صلة ما الموصولة، يقال ناء بحمله: إذا نهض به مثقلا، و يقال ناء بى الحمل: إذا أثقلنى، و المعنى: يثقلهم حمل المفاتح. قال أبو عبيدة:

هذا من المقلوب، و المعنى: لتنوء بها العصبة: أى: تنهض بها. قال أبو زيد: نؤت بالحمل: إذا نهضت به. قال الشاعر:

إنّا وجدنا خلفا بئس الخلفعبدا إذا ما ناء بالحمل وقف

و قال الفراء، معنى تنوء بالعصبة: تميلهم بثقلها كما يقال: يذهب بالبؤس، و يذهب البؤس، و ذهبت به، و أذهبته، و جئت به، و أجأته و نؤت به، و أنأته، و اختار هذا النحاس، و به قال كثير من السلف،

---

(١). النساء: ٤١.

(٢). الأنعام: ٥٩.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٢١٥

و قيل: هو مأخوذ من النأى، و هو البعد و هو بعيد. و قرأ بديل بن ميسرة «لينوء» بالياء، أى: لينوء الواحد منها أو المذكور، فحمل على المعنى، و المراد بالعصبة: الجماعة التى يتعصب بعضها لبعض. قيل: هى من الثلاثة إلى العشرة، و قيل: من العشرة إلى الخمسة عشرة، و قيل: ما بين العشرة إلى العشرين، و قيل: من الخمسة إلى العشرة، و قيل: أربعون، و قيل: سبعون، و قيل: غير ذلك إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ الظرف منصوب بتنوء، و قيل: بآتيناه، و قيل: ببغى. و ردّهما أبو حيان بأن الإيتاء و البغى لم يكونا ذلك الوقت. و قال ابن جرير: هو متعلق بمحذوف و هو اذكر، و المراد بقومه هنا: هم المؤمنون من بنى إسرائيل.

و قال الفراء: هو موسى و هو جمع أريد به الواحد، و معنى لا تفرح: لا تبطر و لا تأشر إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ البطرين الأشرين الذين لا يشكرون اللّه على ما أعطاهم. قال الزجاج: المعنى لا تفرح بالمال، فإن الفرح بالمال لا يؤدى حقه، و قيل المعنى: لا تفسد كقول الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدّى أمانةو تحمل أخرى أفرحتك الودائع

أى: أفسدتك. قال الزجاج: الفرحين و الفارحين: سواء. و قال الفراء: معنى الفرحين: الذين هم فى حال الفرح، و الفارحين: الذين يفرحون فى المستقبل. و قال مجاهد: معنى لا تفرح لا تبغ إن اللّه لا يحبّ الفرحين الباغين. و قيل معناه: لا تبخل إن اللّه لا يحبّ الباخلين وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ أى: و اطلب فيما أعطاك اللّه من الأموال الدار الآخرة، فأنفقه فيما يرضاه اللّه لا فى التجبر و البغى. و قرئ «و اتبع» وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا. قال جمهور المفسرين: و هو أن يعمل فى دنياه لآخرته، و نصيب الإنسان: عمره الصالح. قال الزجاج: لا تنس أن تعمل لآخرتك لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا، الذى يعمل به لآخرته. و قال الحسن و قتادة: معناه لا تضيع حظك من دنياك، فى تمتعك بالحلال، و طلبك إياه، و هذا ألصق بمعنى النظم القرآنى وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ أى: أحسن إلى عباد اللّه كما أحسن اللّه إليك بما أنعم به عليك من نعم الدنيا، و قيل: أطع اللّه و

اعبده كما أنعم عليك، و يؤيده ما ثبت فى الصحيحين و غيرهما «أنّ جبريل سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن الإحسان فقال: أن تعبد اللّه كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك» وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ أى: لا تعمل فيها بمعاصى اللّه إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ فى الأرض قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي قال قارون: هذه المقالة ردّا على من نصحه بما تقدّم، أى: إنما أعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمى، فقوله: «على علم» فى محل نصب على الحال، و عندى إما ظرف لأوتيته، و إما صلة للعلم، و هذا العلم الذى جعله سببا لما ناله من الدنيا.

قيل: هو علم التوراة، و قيل: علمه بوجوه المكاسب، و التجارات، و قيل: معرفة الكنوز و الدفائن، و قيل:

علم الكيمياء، و قيل المعنى: إن اللّه آتانى هذه الكنوز على علم منه باستحقاقى إياها لفضل علمه منى. و اختار هذا الزجاج، و أنكر ما عداه، ثم ردّ اللّه عليه قوله هذا فقال: أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً المراد بالقرون: الأمم الخالية، و معنى أكثر جمعا: أكثر منه جمعا للمال، و لو كان المال، أو القوّة يدلان على فضيلة؛ لما أهلكهم اللّه. و قيل: القوّة الآلات، و الجمع:

فتح القدير، ج‌4، ص: 216

الأعوان. و هذا الكلام خارج مخرج التقريع و التوبيخ لقارون، لأنه قد قرأ التوراة، و علم علم القرون الأولى، و إهلاك اللّه سبحانه لهم وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ أى: لا يسألون سؤال استعتاب كما فى قوله:

وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ* «1» فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ «2» و إنما يسألون سؤال تقريع و توبيخ كما فى قوله:

فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «3» و قال مجاهد: لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين لأنهم يعرفون بسيماهم، فإنهم يحشرون؛ سود الوجوه، زرق العيون. و قال قتادة: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها و كثرتها، بل يدخلون النار. و قيل: لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ الفاء للعطف على «قال» و ما بينهما اعتراض، و «فى زينته» متعلق بخرج، أو بمحذوف هو حال من فاعل خرج. و قد ذكر المفسرون فى هذه الزينة التى خرج فيها روايات مختلفة، و المراد أنه خرج فى زينة انبهر لها من رآها، و لهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثلها، كما حكى اللّه عنهم بقوله: قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا و زينتها يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ أى: نصيب وافر من الدنيا.

و اختلف فى هؤلاء القائلين بهذه المقالة، فقيل: هم من مؤمنى ذلك الوقت، و قيل: هم قوم من الكفار وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ و هم أحبار بنى إسرائيل، قالوا للذين تمنوا: وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ أى: ثواب اللّه فى الآخرة خير مما تمنونه لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فلا تمنوا عرض الدنيا الزائل الذى لا يدوم وَ لا يُلَقَّاها أى: هذه الكلمة التى تكلم بها الأحبار، و قيل: الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة، و قيل: إلى الجنة إِلَّا الصَّابِرُونَ على طاعة اللّه، و المصبرون أنفسهم عن الشهوات فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ يقال: خسف المكان يخسف خسوفا: ذهب فى الأرض، و خسف به الأرض خسفا: أى غاب به فيها، و المعنى: أن اللّه سبحانه غيبه، و غيب داره فى الأرض فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه وَ ما كانَ هو فى نفسه مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ من الممتنعين مما نزل به من الخسف وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ أى: منذ زمان قريب يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ أى: يقول كلّ واحد منهم متندّما على ما فرط منه من التمنى.

قال النحاس: أحسن ما قيل فى هذا؛ ما قاله الخليل، و سيبويه، و يونس، و الكسائى أن القوم تنبهوا فقالوا:

وى! و المتندم من العرب يقول فى خلال ندمه: وى. قال الجوهرى: وى: كلمة تعجب، و يقال: ويك، و قد تدخل وى على كأن المخففة، و المشددة، ويكأن اللّه. قال الخليل: هى مفصولة تقول وى، ثم تبتدئ فتقول كأن. و قال الفراء: هى كلمة تقرير كقولك: أما ترى صنع اللّه، و إحسانه، و قيل: هى كلمة تنبيه بمنزلة ألا. و قال قطرب: إنما هو ويلك فأسقطت لامه، و منه قول

عنترة:

و لقد شفا نفسى و أبرأ سقمهاقول الفوارس ويک عنتر أقدم

و قال ابن الأعرابى: معنى ويكأن اللّه: أعلم أن اللّه. و قال القتبى: معناها بلغة حمير رحمة، و قيل: هى بمعنى ألم تر؟ و روى عن الكسائى أنه قال: هى كلمة تفجع لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا برحمته، و عصمنا

---

(۱). النحل: ۸۴.

(۲). فصلت: ۲۴.

(۳). الحجر: ۹۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۱۷

من مثل ما كان عليه قارون من البطر، و البغى، و لم يؤاخذنا بما وقع منا من ذلك التمنى لَخَسَفَ بِنا كما خسف به. قرأ حفص «لخسف» مبنيا للفاعل، و قرأ الباقون مبنيا للمفعول وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ أى: لا يفوزون بمطلب من مطالبهم تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ أى: الجنة، و الإشارة إليها لقصد التعظيم لها، و التفخيم لشأنها، كأنه قال: تلك التى سمعت بخبرها، و بلغك شأنها نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ أى: رفعة و تكبرا على المؤمنين وَ لا فَساداً أى: عملا بمعاصى اللّه سبحانه فيها، و ذكر العلوّ و الفساد منكرين فى حيز النفى، يدلّ على شمولهما لكلّ ما يطلق عليه أنه علوّ، و أنه فساد من غير تخصيص بنوع خاص، أما الفساد: فظاهر أنه لا يجوز شىء منه، كائنا ما كان، و أما العلوّ: فالممنوع منه ما كان على طريق التكبر على الغير، و التطاول على الناس، و ليس منه طلب العلو فى الحقّ، و الرئاسة فى الدين، و لا محبة اللباس الحسن، و المركوب الحسن، و المنزل الحسن مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها و هو أن اللّه يجازيه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى: إلا مثل ما كانوا يعملون، فحذف المضاف، و أقيم المضاف إليه مقامه، و قد تقدّم بيان معنى هذه الآية فى سورة النمل إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ قال المفسرون: أى أنزل عليك القرآن. و قال الزجاج:

فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن، و تقدير الكلام: فرض عليك أحكام القرآن و فرائضه لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قال جمهور المفسرين: أى إلى مكة. و قال مجاهد، و عكرمة، و الزهرى، و الحسن: إن المعنى:

لرادّك إلى يوم القيامة، و هو اختيار الزجاج، يقال بينى و بينك المعاد، أى: يوم القيامة، لأن الناس يعودون فيه أحياء. و قال أبو مالك و أبو صالح: لرادّك إلى معاد الجنة. و به قال أبو سعيد الخدرى، و روى عن مجاهد. و قيل «إلى معاد»: إلى الموت قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و إنك فى ضلال، و المراد من جاء بالهدى هو النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و من هو فى ضلال مبين: المشركون، و الأولى: حمل الآية على العموم، و أن اللّه سبحانه يعلم حال كلّ طائفة من هاتين الطائفتين و يجازيها بما تستحقه من خير و شرّ وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ أى: ما كنت ترجو أنا نرسلك إلى العباد، و ننزل عليك القرآن. و قيل: ما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب بردّك إلى معادك، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ منقطع، أى: لكن إلقاؤه عليك رحمة من ربك، و يجوز أن يكون متصلا حملا على المعنى، كأنه قيل: و ما ألقى إليك الكتاب إلا لأجل الرحمة من ربك. و الأوّل: أولى، و به جزم الكسائى، و الفرّاء فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ أى: عونا لهم، و فيه تعريض بغيره من الأمة. و قيل: المراد لا تكوننّ ظهيرا لهم بمداراتهم وَ لا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ أى: لا يصدنك يا محمّد الكافرون و أقوالهم و كذبهم و أذاهم عن تلاوة آيات اللّه و العمل بها بعد إذ أنزلها اللّه إليك و فرضت عليك. قرأ الجمهور بفتح الياء و ضم الصاد من صدّه يصدّه. و قرأ عاصم بضم

الیاء و کسر الصاد، من أصدّه بمعنی صدّه وَ ادْعُ إِلی رَبِّکَ أی: ادع الناس إلی اللّه و إلی توحیده، و العمل بفرائضه، و اجتناب معاصیه وَ لا تَکُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِکِینَ و فیه تعریض بغیره کما تقدّم، لأنه صلّی اللّه علیه و سلم

فتح القدیر، ج۴، ص: ۲۱۸

لا یکون من المشرکین بحال من الأحوال، و کذلک قوله: وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فإنه تعریض لغیره.

ثم وحد سبحانه نفسه و وصفها بالبقاء و الدوام فقال: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ کُلُّ شَیْ‌ءٍ من الأشیاء کائنا ما کان هالِکٌ إِلَّا وَجْهَهُ أی: إلا ذاته. قال الزجاج: وجهه منصوب علی الاستثناء، و لو کان فی غیر القرآن کان مرفوعا بمعنی کلّ شی‌ء غیر وجهه هالک. کما قال الشاعر:

و کلّ أخ مفارقه أخوهلعمر أبیک إلّا الفرقدان

و المعنی کلّ أخ غیر الفرقدین مفارقه أخوه لَهُ الْحُکْمُ أی القضاء النافذ بما شاء، و یحکم بما أراد وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ عند البعث لیجزی المحسن بإحسانه، و المسی‌ء بإساءته، لا إله غیره سبحانه و تعالی.

و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، عن ابن عباس فی قوله: سَرْمَداً قال: دائما: و أخرج ابن أبی حاتم عنه وَ ضَلَّ عَنْهُمْ یوم القیامهٔ ما کانُوا یَفْتَرُونَ قال: یکذبون فی الدنیا. و أخرج ابن أبی شیبهٔ فی المصنف، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الحاکم و صححه، و ابن مردویه عنه أیضا إِنَّ قارُونَ کانَ مِنْ قَوْمِ مُوسی قال: کان ابن عمه، و کان یتبع العلم حتی جمع علما، فلم یزل فی أمره ذلک حتی بغی علی موسی و حسده، فقال له موسی: إن اللّه أمرنی أن آخذ الزکاهٔ، فأبی فقال: إن موسی یرید أن یأکل أموالکم؛ و جاءکم بأشیاء فاحتملتموها، فتحتملون أن تعطوه أموالکم؟ فقالوا لا نحتمل فما تری، فقال لهم:

أری أن أرسل إلی بغی من بغایا بنی إسرائیل، فنرسلها إلیه، فترمیه بأنه أرادها علی نفسها، فأرسلوا إلیها، فقالوا لها: نعطیک حکمک علی أن تشهدی علی موسی أنه فجر بک، قالت: نعم فجاء قارون إلی موسی فقال: اجمع بنی إسرائیل فأخبرهم بما أمرک ربک، قال نعم، فجمعهم فقالوا له: ما أمرک ربک؟ قال:

أمرنی أن تعبدوا اللّه و لا تشرکوا به شیئا و أن تصلوا الرحم و کذا و کذا، و أمرنی إذا زنا و قد أحصن أن یرجم، قالوا: و إن کنت أنت؟ قال: نعم، قالوا: فإنک قد زنیت. قال أنا؟ فأرسلوا للمرأهٔ فجاءت، ما تشهدین علی موسی؟ فقال لها موسی: أنشدک باللّه إلا ما صدقت. قالت: أما إذ أنشدتنی باللّه، فإنهم دعونی، و جعلوا لی جعلا علی أن أقذفک بنفسی، و أنا أشهد أنک بری‌ء، و أنک رسول اللّه، فخرّ موسی ساجدا یبکی، فأوحی اللّه إلیه ما یبکیک؟ قد سلطناک علی الأرض، فمرها فتعطیک، فرفع رأسه فقال خذیهم، فأخذتهم إلی أعقابهم، فجعلوا یقولون: یا موسی! یا موسی! فقال: خذیهم، فأخذتهم إلی رکبهم، فجعلوا یقولون یا موسی! یا موسی! فقال: خذیهم إلی أعناقهم، فجعلوا یقولون: یا موسی! یا موسی! فقال: خذیهم، فغشیتهم، فأوحی اللّه یا موسی: سألک عبادی، و تضرّعوا إلیک، فلم تجبهم و عزّتی لو أنهم دعونی لأجبتهم. قال ابن عباس: و ذلک قوله: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ خسف به إلی الأرض السفلی. و أخرج ابن أبی شیبهٔ، و عبد بن حمید، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، عن خیثمهٔ قال: کانت مفاتیح کنوز قارون من جلود، کل مفتاح مثل الأصبع، کل مفتاح علی خزانهٔ علی حدهٔ، فإذا رکب حملت المفاتیح علی سبعین بغلا أغرّ محجلا.

و أخرج سعید بن منصور، و ابن المنذر عنه قال: وجدت فی الإنجیل أن بغال مفاتیح خزائن قارون غر محجلهٔ لا یزید مفتاح منها علی إصبع لکل مفتاح کنز. قلت: لم أجد فی الإنجیل هذا الذی ذکره خیثمهٔ. و أخرج ابن المنذر، و ابن

فتح القدیر، ج۴، ص: ۲۱۹

أبی حاتم، عن ابن عباس فی قوله: لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَهِٔ قال: تثقل. و أخرج ابن المنذر عنه قال: لا یرفعها العصبهٔ من الرجال أولو القوّهٔ.

و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: العصبة أربعون رجلا. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ قال: المرحين، و فى قوله: وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا قال: أن تعمل فيها لآخرتك. و أخرج ابن مردويه، عن أوس بن أوس الثقفى، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ فى أربعة آلاف بغل. و قد روى عن جماعة من التابعين أقوال فى بيان ما خرج به على قومه من الزينة، و لا يصحّ منها شيء مرفوعا، بل هى من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرّة، و لا أدرى كيف إسناد هذا الحديث الذى رفعه ابن مردويه فمن ظفر بكتابه فلينظر فيه.

و أخرج الفريابى عن ابن عباس فى قوله: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ قال: خسف به إلى الأرض السفلى.

و أخرج المحاملى، و الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً قال: التجبر فى الأرض و الأخذ بغير الحق.

و روى نحوه عن مسلم البطين؛ و ابن جريج، و عكرمة. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ قال: بغيا فى الأرض. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: هو الشرف، و العلوّ عند ذوى سلطانهم. إن كان ذلك للتقوى به على الحق، فهو من خصال الخير، لا من خصال الشرّ. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، عن علىّ بن أبى طالب قال: إن الرجل ليحبّ أن يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل صاحبه، فيدخل فى هذه الآية تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكر هذه الرواية عن علىّ رضى اللّه عنه: و هذا محمول على من أحبّ ذلك لا لمجرّد التجمل، فهذا لا بأس به، فقد ثبت «أنّ رجلا قال يا رسول اللّه إنى أحبّ أن يكون ثوبى حسنا و نعلى حسنة، أ فمن الكبر ذلك؟ قال لا، إنّ اللّه جميل يحبّ الجمال» و أخرج ابن مردويه، و ابن عساكر عن على بن أبى طالب أنه قال: نزلت هذه الآية، يعنى تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ إلخ فى أهل العدل و التواضع من الولاة و أهل القدرة من سائر الناس. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن مردويه عن عدى بن حاتم قال: لما دخل على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم ألقى إليه و سادة، فجلس على الأرض فقال: أشهد أنك لا تبغى علوّا فى الأرض و لا فسادا فأسلم «١». و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك. و أخرج أيضا ابن مردويه، عن علىّ بن الحسين بن واقد أن قوله تعالى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ الآية أنزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بالجحفة حين خرج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم مهاجرا إلى المدينة. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و البخارى، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى، من طرق ابن عباس فى قوله: لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قال: إلى مكة، زاد ابن مردويه كما أخرجك منها. و أخرج الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن مردويه، عن أبى سعيد الخدرى: لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ

---

(١). الذى جلس على الأرض هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و الذى قال: أشهد أنك ... إلخ، هو عدى بن حاتم.

قال: الآخرة. و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى فى تاريخه و أبو يعلى و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قال: معاده الجنة، و فى لفظ معاده آخرته. و أخرج الحاكم فى التاريخ، و الديلمى، عن علىّ بن أبى طالب قال لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ الجنة. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن مردويه عنه قال: لما نزلت كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ «١» قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فلما نزلت كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ* «٢» قالت الملائكة: هلك كلّ نفس، فلما نزلت كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ قالت الملائكة: هلك أهل السماء و الأرض. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ قال: إلا ما أريد به وجهه.

(١). الرحمن: ٢۶.

(٢). آل عمران: ١٨۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٢١

سورة العنكبوت

اشارة

و قد اختلف فى كونها مكية، أو مدنية، أو بعضها مكيا، و بعضها مدنيا على ثلاثة أقوال: الأوّل أنها مكية كلها، أخرجه ابن الضريس، و النحاس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس، و أخرجه ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير، و به قال الحسن، و عكرمة، و عطاء، و جابر بن زيد. و القول الثانى:

أنها مدنية كلها، قال القرطبى: و هو أحد قولى، ابن عباس، و قتادة. و القول الثالث: أنها مكية إلا عشر آيات من أوّلها، و هو قول يحيى بن سلام. و حكى عن علىّ بن أبى طالب أنها نزلت بين مكة و المدينة، و هذا قول رابع. و أخرج الدارقطنى فى السنن عن عائشة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يصلى فى كسوف الشمس، و القمر أربع ركعات، و أربع سجدات، يقرأ فى الركعة الأولى: بالعنكبوت، أو الروم، و فى الثانية: بيس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١ الى ١٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۴)

مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۵) وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِى ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ (٩)

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِى صُدُورِ الْعالَمِينَ (١٠) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (١١) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٢) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

قد تقدّم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى فى سورة البقرة، و الاستفهام فى قوله: أَ حَسِبَ النَّاسُ للتقريع و التوبيخ، و أَنْ يُتْرَكُوا فى موضع نصب بحسب، و هى و ما دخلت عليه قائمة مقام المفعولين على قول سيبويه و الجمهور، و أَنْ يَقُولُوا فى موضع نصب على تقدير: لأن يقولوا، أو بأن يقولوا، أو على أن يقولوا، و قيل: هو بدل من أن يتركوا، و معنى الآية: أن الناس لا يتركون

بغير اختبار و لا ابتلاء أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ أى: و هم لا يبتلون فى أموالهم، و أنفسهم، و ليس الأمر كما حسبوا،

بل لا بد أن يختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق، و الصادق من الكاذب، فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان و استبعاده، و بيان أنه لا بد من الامتحان بأنواع التكاليف و غيرها. قال الزجاج: المعنى: أ حسبوا أن نقنع منهم بأن يقولوا إنا مؤمنون فقط، و لا يمتحنون بما تتبين به حقيقة إيمانهم، و هو قوله: أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ قال السدّى و قتادة و مجاهد: أى لا يبتلون فى أموالهم، و أنفسهم بالقتل، و التعذيب، و سيأتى فى بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما ذكرناه، و ظاهرها شمول كلّ الناس من أهل الإيمان، و إن كان السبب خاصا، فالاعتبار بعموم اللفظ كما قررناه غير مرّة. قال ابن عطية: و هذه الآية و إن كانت نازلة فى سبب خاص، فهى باقية فى أمة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم موجود حكمها بقية الدهر، و ذلك أن الفتنة من اللّه باقية فى ثغور المسلمين بالأسر و نكاية العدوّ و غير ذلك وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: هذه سنة اللّه فى عباده، و أنه يختبر مؤمنى هذه الأمة، كما اختبر من قبلهم من الأمم، كما جاء به القرآن فى غير موضع من قصص الأنبياء، و ما وقع مع قومهم من المحن، و ما اختبر اللّه به أتباعهم، و من آمن بهم من تلك الأمور التى نزلت بهم فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا فى قولهم: آمنا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ منهم فى ذلك، قرأ الجمهور «فليعلمنّ» بفتح الياء و اللام فى الموضعين، أى: ليظهرنّ اللّه الصادق، و الكاذب فى قولهم، و يميز بينهم، و قرأ علىّ بن أبى طالب فى الموضعين بضم الياء و كسر اللام. و المعنى: أى يعلم الطائفتين فى الآخرة بمنازلهم، أو يعلم الناس بصدق من صدق، و يفضح الكاذبين بكذبهم، أو يضع لكلّ طائفة علامة تشتهر بها، و تتميز عن غيرها أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا أى: يفوتونا و يعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون، و هو سادّ مسدّ مفعولى حسب، و أم هى المنقطعة ساءَ ما يَحْكُمُونَ أى: بئس الذى يحكمونه حكمهم ذلك. و قال الزجاج: «ما» فى موضع نصب بمعنى ساء شيئا أو حكما يحكمون. قال: و يجوز أن تكون «ما» فى موضع رفع بمعنى ساء الشىء أو الحكم حكمهم، و جعلها ابن كيسان مصدرية، أى: ساء حكمهم مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ أى: من كان يطمع، و الرجاء: بمعنى الطمع. قاله سعيد بن جبير. و قيل: الرجاء هنا: بمعنى الخوف. قال القرطبى: و أجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت، و منه قول الهذلى:

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها «۱» قال الزجاج: معنى من كان يرجو لقاء اللّه: من كان يرجو ثواب لقاء اللّه، أى: ثواب المصير إليه، فالرجاء على هذا: معناه الأمل فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ أى: الأجل المضروب للبعث آت لا محالة. قال مقاتل: يعنى يوم القيامة، و المعنى: فليعمل لذلك اليوم كما فى قوله: فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً «۲» و من فى الآية التى هنا يجوز أن تكون شرطية، و الجزاء فإن أجل اللّه لآت، و يجوز أن تكون

---

(۱). و عجز البيت:

و حالفها فى بيت نوب عوامل.

(۲). الكهف: ۱۱۰.

موصولة، و دخلت الفاء فى جوابها تشبيها لها بالشرطية. و فى الآية من الوعد و الوعيد، و الترهيب و الترغيب ما لا يخفى وَ هُوَ السَّمِيعُ لأقوال عباده الْعَلِيمُ بما يسرونه و ما يعلنونه وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ أى: من جاهد الكفار و جاهد نفسه بالصبر على الطاعات فإنما يجاهد لنفسه، أى: ثواب ذلك له لا لغيره و لا يرجع إلى اللّه سبحانه من نفع ذلك شىء إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ فلا يحتاج إلى طاعاتهم كما لا تضرّه معاصيهم. و قيل المعنى: و من جاهد عدوّه لنفسه لا يريد بذلك وجه اللّه، فليس

للّه حاجة بجهاده، و الأوّل: أولى وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أى: لنغطينها عنهم بالمغفرة، بسبب ما عملوا من الصالحات وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِی كانُوا يَعْمَلُونَ أى: بأحسن جزاء أعمالهم، و قيل: بجزاء أحسن أعمالهم، و المراد بأحسن: مجرّد الوصف لا التفضيل لئلا يكون جزاؤهم بالحسن مسكوتا عنه، و قيل: يعطيهم أكثر و أحسن منه كما فى قوله: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها «۱» وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً انتصاب حسنا على أنه نعت مصدر محذوف، أى: إيصاء حسنا على المبالغة، أو على حذف المضاف: أى: ذا حسن. هذا مذهب البصريين، و قال الكوفيون: تقديره و وصينا الإنسان أن يفعل حسنا، فهو مفعول لفعل مقدّر، و منه قول الشاعر:

عجبت من دهماء إذ تشكوناو من أبى دهماء إذ يوصينا

خيرا بها كأنّما خافونا أى: يوصينا أن نفعل بها خيرا، و مثله قول الحطيئة:

وصّيت من برّة قلبا حرّابالكلب خيرا و الحمأة شرّا

قال الزجاج: معناه و وصينا الإنسان: أن يفعل بوالديه ما يحسن، و قيل: هو صفة لموصوف محذوف، أى: و وصيناه أمرا ذا حسن، و قيل: هو منتصب على أنه مفعول به على التضمين، أى: ألزمناه حسنا، و قيل: منصوب بنزع الخافض، أى: و وصيناه بحسن، و قيل: هو مصدر لفعل محذوف، أى: يحسن حسنا، و معنى الآية: التوصية للإنسان بوالديه بالبرّ بهما، و العطف عليهما. قرأ الجمهور «حسنا» بضم الحاء و إسكان السين، و قرأ أبو رجاء، و أبو العالية، و الضحاك بفتحهما، و قرأ الجحدرى «إحسانا» و كذا فى مصحف أبىّ وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِی ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما أى: طلبا منك، و ألزماك أن تشرك بى إلها ليس لك به علم بكونه إلها فلا تطعهما، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، و عبر بنفى العلم عن نفى الإله لأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه، فكيف بما علم بطلانه؟ و إذا لم تجز طاعة الأبوين فى هذا المطلب مع المجاهدة منهما له، فعدم جوازها مع تجرّد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى، و يلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصى اللّه سبحانه، فلا طاعة لهما فيما هو معصية للّه كما صحّ ذلك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: أخبركم بصالح أعمالكم، و طالحها، فأجازى كلا منكم بما يستحقه، و الموصول فى قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فى محل رفع على الابتداء و خبره

---

(۱). الأنعام: ۱۶۰.

لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِی الصَّالِحِينَ أى: فى زمرة الراسخين فى الصلاح، و يجوز أن يكون فى محل نصب على الاشتغال، و يجوز أن يكون المعنى: لندخلنهم فى مدخل الصالحين، و هو الجنة كذا قيل، و الأوّل أولى وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِی اللَّهِ أى: فى شأن اللّه و لأجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان، و كما يفعله أهل المعاصى مع أهل الطاعات، من إيقاع الأذى عليهم لأجل الإيمان باللّه، و العمل بما أمر به جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ التى هى ما يوقعونه عليه من الأذى كَعَذابِ اللَّهِ أى: جزع من أذاهم. فلم يصبر عليه و جعله فى الشدّة، و العظم كعذاب اللّه، فأطاع الناس كما يطيع اللّه، و قيل: هو المنافق إذا أوذى فى اللّه رجع عن الدين فكفر. قال الزجاج: ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذية فى اللّه وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ أى: نصر من اللّه للمؤمنين، و فتح و غلبة للأعداء و غنيمة يغنمونها منهم لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أى:

داخلون معكم فى دينكم، و معاونون لكم على عدوّكم، فكذبهم اللّه. و قال: أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِی صُدُورِ الْعالَمِينَ أى: هو سبحانه أعلم بما فى صدورهم منهم من خير و شرّ، فكيف يدّعون هذه الدعوى الكاذبة. و هؤلاء هم قوم ممن كان فى إيمانهم ضعف، كانوا إذا مسهم الأذى من الكفار وافقوهم. و إذا ظهرت قوّة الإسلام و نصر اللّه المؤمنين فى موطن من المواطن لَيَقُولُنَّ

إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ و قيل: المراد بهذا، و ما قبله:

المنافقون. قال مجاهد: نزلت فى ناس كانوا يؤمنون باللّه بألسنتهم. فإذا أصابهم بلاء من اللّه أو مصيبة افتتنوا.

و قال الضحاك: نزلت فى ناس من المنافقين بمكة، كانوا يؤمنون، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك، و الظاهر أن هذا النظم من قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إلى قوله: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا نازل فى المنافقين لما يظهر من السياق، و لقوله: وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ فإنها لتقرير ما قبلها و تأكيده: أى: ليميزن اللّه بين الطائفتين، و يظهر إخلاص المخلصين، و نفاق المنافقين، فالمخلص الذى لا يتزلزل بما يصيبه من الأذى، و يصبر فى اللّه حق الصبر، و لا يجعل فتنة الناس كعذاب اللّه. و المنافق الذى يميل هكذا و هكذا، فإن أصابه أذى من الكافرين وافقهم و تابعهم، و كفر باللّه عزّ و جلّ، و إن خفقت ريح الإسلام، و طلع نصره، و لاح فتحه رجع إلى الإسلام، و زعم أنه من المسلمين وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا اللام فى «للذين آمنوا» هى: لام التبليغ، أى: قالوا مخاطبين لهم كما سبق بيانه فى غير موضع، أى: قالوا لهم اسلكوا طريقتنا، و ادخلوا فى ديننا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ أى: إن كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث و النشور، كما تقولون فلنحمل ذلك عنكم، فنؤاخذ به دونكم، و اللام فى لنحمل:

لام الأمر، كأنهم أمروا أنفسهم بذلك. و قال الفراء و الزجاج: هو أمر فى تأويل الشرط و الجزاء، أى: إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، ثم ردّ اللّه عليهم بقوله: وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ من الأولى:

بيانية. و الثانية: مزيدة للاستغراق، أى: و ما هم بحاملين شيئا من خطيئاتهم التى التزموا بها و ضمنوا لهم حملها، ثم وصفهم اللّه سبحانه بالكذب فى هذا التحمل فقال: إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم.

قال المهدوى: هذا التكذيب لهم من اللّه عزّ و جلّ حمل على المعنى، لأن المعنى: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، فلما كان الأمر يرجع فى المعنى إلى الخبر، أوقع عليه التكذيب كما يوقع على الخبر وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ أى:

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۲۵

أوزارهم التى عملوها، و التعبير عنها بالأثقال للإيذان بأنها ذنوب عظيمة وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ أى: أوزارا مع أوزارهم. و هى أوزار من أضلوهم، و أخرجوهم عن الهدى إلى الضلالة، و مثله قوله سبحانه: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ «۱» و مثله قوله صلّى اللّه عليه و سلم «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها» كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى صحيح مسلم، و غيره وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ تقريعا و توبيخا عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ أى: يختلقونه من الأكاذيب التى كانوا يأتون بها فى الدنيا.

و قال مقاتل: يعنى قولهم و نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من اللّه.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم فى قوله: الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا الآية قال: أنزلت فى ناس كانوا بمكة قد أقرّوا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من المدينة، لما أنزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار، و لا إسلام حتى تهاجروا، قال: فخرجوا عامدين إلى المدينة، فاتبعهم المشركون، فردّوهم، فنزلت فيهم هذه الآية، فكتبوا إليهم أنه قد أنزل فيكم كذا و كذا، فقالوا:

نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا فاتبعهم المشركون، فقاتلوهم، فمنهم من قتل و منهم من نجا، فأنزل اللّه فيهم ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «۲» و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه بأخصر منه. و أخرج ابن سعد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن عساكر عن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن عمير قال: نزلت فى عمار بن ياسر؛ إذ كان يعذب فى اللّه الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا الآية. و أخرج ابن ماجة، و ابن مردويه، عن ابن مسعود قال: أوّل

من أظهر اللّه إسلامه سبعة:

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أبو بكر، و سمية أم عمار، و عمار، و صهيب، و بلال، و المقداد. فأما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فمنعه اللّه بعمه أبى طالب، و أما أبو بكر فمنعه اللّه بقومه، و أما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدرع الحديد، و صهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا و قد أتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه فى اللّه، و هان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة، و هو يقول:

أحد أحد. و أخرج الفريابى، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله:

أَنْ يَسْبِقُونا قال: أن يعجزونا. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، عن سعد بن أبى وقاص قال: قالت أمى لا آكل طعاما، و لا أشرب شرابا حتى تكفر بمحمّد فامتنعت من الطعام و الشراب، حتى جعلوا يشجرون فاها بالعصا «٣»، فنزلت هذه الآية وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما و أخرجه أيضا الترمذى من حديثه، و قال: نزلت فى أربع آيات و ذكر نحو هذه القصة، و قال: حسن صحيح. و قد أخرج هذا الحديث أحمد، و مسلم، و أبو داود، و النسائى أيضا. و أخرج أحمد، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و الترمذى، و صححه، و ابن ماجة، و أبو يعلى، و ابن حبان، و أبو نعيم، و البيهقى، و الضياء عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لقد أوذيت فى اللّه و ما

---

(١). النحل: ٢٥.

(٢). النحل: ١١٠.

(٣). الشّجر: مفتح الفم، و المقصود: ادخلوا فى شجره عودا حتى يفتحوه.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٢٢٦

يؤذى أحد، و لقد أخفت فى اللّه و ما يخاف أحد، و لقد أتت عليّ ثالثة و ما لى و لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما واراه إبط بلال». و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ قال: يرتدّ عن دين اللّه إذا أوذى فى اللّه.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١٤ الى ٢٧]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (١٥) وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨)

أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (٢٢) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ

مِنْ ناصِرِينَ (۲۵) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۶) وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (۲۷)

أجمل سبحانه قصة نوح تصديقا لقوله فى أوّل السورة وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و فيه تثبيت للنبى صلّى اللّه عليه و سلم، كأنه قيل له: إن نوحا لبث ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه و لم يؤمن منهم إلا قليل، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك، و كثرة عدد أمتك. قيل: و وقع فى النظم إلا خمسين عاما، و لم يقل: تسعمائة سنة و خمسين، لأن فى الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثانى، فقد يطلق على ما يقرب منه. و قد اختلف فى مقدار عمر نوح، و سيأتى آخر البحث. و ليس فى الآية إلا أنه لبث فيهم هذه المدة، و هى لا تدل على أنها جميع عمره. فقد تلبث فى غيرهم قبل اللبث فيهم، و قد تلبث فى الأرض بعد هلاكهم بالطوفان، و الفاء فى فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ للتعقيب، أى: أخذهم عقب تمام المدة المذكورة، و الطوفان: يقال لكل شىء كثير، مطيف بجمع، محيط بهم، من مطر، أو قتل، أو موت قاله النحاس: و قال سعيد بن جبير و قتادة و السدى:

هو المطر. و قال الضحاك: الغرق، و قيل: الموت، و منه قول الشاعر:

أفناهم طوفان موت جارف

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۲۷

و جملة وَ هُمْ ظالِمُونَ فى محل نصب على الحال، أى: مستمرون على الظلم و لم ينجع فيهم ما وعظهم به نوح، و ذكرهم هذه المدّة بطولها فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ أى: أنجينا نوحا و أنجينا من معه فى السفينة من أولاده و أتباعه. و اختلف فى عددهم على أقوال وَ جَعَلْناها أى: السفينة آيَةً لِلْعالَمِينَ أى:

عبرة عظيمة لهم، و فى كونها آية وجوه: أحدها أنها كانت باقية على الجودىّ مدّة مديدة. و ثانيها: أن اللّه سلم السفينة من الرياح المزعجة. و ثالثها: أن الماء غيض قبل نفاذ الزاد. و هذا غير مناسب لوصف السفينة بأن اللّه جعلها آية، و قيل: إن الضمير راجع فى جعلناها إلى الواقعة، أو إلى النجاة، أو إلى العقوبة بالغرق.

وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ انتصاب إبراهيم بالعطف على نوحا. و قال النسائى: هو معطوف على الهاء فى جعلناها و قيل: منصوب بمقدّر، أى: و اذكر إبراهيم. و إذ قال: منصوب على الظرفية، أى: و أرسلنا إبراهيم وقت قوله لقومه: اعبدوا اللّه، أو جعلنا إبراهيم آية وقت قوله هذا، أو و اذكر إبراهيم وقت قوله، على أن الظرف بدل اشتمال من إبراهيم اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ أى: أفردوه بالعبادة و خصوه بها و اتقوه أن تشركوا به شيئا ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ أى: عبادة اللّه و تقواه خير لكم من الشرك، و لا خير فى الشرك أبدا، و لكنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شيئا من العلم، أو تعلمون علما تميزون به بين ما هو خير، و ما هو شرّ. قرأ الجمهور «و إبراهيم» بالنصب، و وجهه ما قدّمنا. و قرأ النخعى و أبو جعفر و أبو حنيفة بالرفع على الابتداء و الخبر مقدّر، أى: و من المرسلين إبراهيم إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً بين لهم إبراهيم أنهم يعبدون ما لا ينفع و لا يضرّ، و لا يسمع و لا يبصر، و الأوثان: هى الأصنام. و قال أبو عبيدة: الصنم ما يتخذ من ذهب، أو فضة، أو نحاس، و الوثن: ما يتخذ من جصّ أو حجارة. و قال الجوهرى: الوثن:

الصنم، و الجمع: أوثان وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً أى: و تكذبون كذبا على أن معنى تخلقون تكذبون، و يجوز أن يكون معناه: تعملون و تنحتون، أى: تعملونها و تنحتونها للإفك. قال الحسن: معنى تخلقون تنحتون، أى: إنما تعبدون أوثانا، و أنتم تصنعونها. قرأ الجمهور «تخلقون» بفتح الفوقية و سكون الخاء، و ضم اللام مضارع خلق، و إفكا بكسر الهمزة و سكون الفاء. و قرأ علىّ بن أبى طالب، و زيد بن علىّ، و السلمى، و قتادة بفتح الخاء و اللام مشدّدة، و الأصل تتخلقون. و روى عن زيد بن علىّ أنه قرأ بضم التاء و تشديد اللام مكسورة. و قرأ ابن الزبير و فضيل بن ورقان «أفكا» بفتح الهمزة و كسر الفاء و هو مصدر كالكذب، أو صفة

لمصدر محذوف، أى: خلقا أفكا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً أى:

لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئا من الرزق فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ أى: اصرفوا رغبتكم فى أرزاقكم إلى اللّه، فهو الذى عنده الرزق كله، فاسألوه من فضله، و وحدوه دون غيره وَ اشْكُرُوا لَهُ أى: على نعمائه، فإن الشكر موجب لبقائها و سبب للمزيد عليها، يقال شكرته، و شكرت له إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بالموت ثم بالبعث لا إلى غيره وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ قيل: هذا من قول إبراهيم، أى:

و إن تكذبونى فقد وقع ذلك لغيرى ممن قبلكم، و قيل: هو من قول اللّه سبحانه: أى: و إن تكذبوا محمّدا فذلك عادة الكفار مع من سلف وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ لقومه الذين أرسل إليهم، و ليس

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۲۸

عليه هدايتهم، و ليس ذلك فى وسعه أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قرأ الجمهور «أو لم يروا» بالتحتية على الخبر، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و أبو حاتم. قال أبو عبيد: كأنه قال: أو لم ير الأمم. و قرأ أبو بكر، و الأعمش، و ابن وثاب، و حمزة، و الكسائى بالفوقية على الخطاب من إبراهيم لقومه، و قيل: هو خطاب من اللّه لقريش. قرأ الجمهور «كيف يبدئ» بضم التحتية من أبدأ يبدئ. و قرأ الزبيرى، و عيسى بن عمر، و أبو عمرو بفتحها من بدأ يبدأ. و قرأ الزهرى «كيف بدأ» و المعنى: ألم يروا كيف يخلقهم اللّه ابتداء؟ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ينفخ فيه الروح، ثم يخرجه إلى الدنيا، ثم يتوفاه بعد ذلك، و كذلك سائر الحيوانات، و سائر النباتات، فإذا رأيتم قدرة اللّه سبحانه على الابتداء، و الإيجاد، فهو القادر على الإعادة، و الهمزة لإنكار عدم رؤيتهم، و الواو: للعطف على مقدّر إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لأنه إذا أراد أمرا قال له: كن فيكون. ثم أمر سبحانه إبراهيم أن يأمر قومه بالمسير فى الأرض؛ ليتفكروا و يعتبروا فقال: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ على كثرتهم، و اختلاف ألوانهم، و طبائعهم، و ألسنتهم، و انظروا إلى مساكن القرون الماضية، و الأمم الخالية، و آثارهم لتعلموا بذلك كمال قدرة اللّه. و قيل: إن المعنى:

قل لهم يا محمّد: سيروا، و معنى قوله: ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ أن اللّه الذى بدأ النشأة الأولى، و خلقها على تلك الكيفية ينشئها نشأة ثانية عند البعث، و الجملة عطف على جملة سيروا فى الأرض، داخلة معها فى حيز القول، و جملة إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تعليل لما قبلها. قرأ الجمهور ب «النشأة» بالقصر و سكون الشين. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو بالمدّ و فتح الشين، و هما لغتان كالرأفة و الرآفة. و هى منتصبة على المصدرية بحذف الزوائد، و الأصل: الإنشاءة يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ أى: هو سبحانه بعد النشأة الآخرة، يعذب من يشاء تعذيبه، و هم الكفار و العصاة، و يرحم من يشاء رحمته، و هم المؤمنون به، المصدّقون لرسله، العاملون بأوامره و نواهيه وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ أى: ترجعون، و تردّون لا إلى غيره وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ قال الفراء: و لا من فى السماء بمعجزين اللّه فيها. قال:

و هو كما فى قول حسان:

فمن يهجو رسول اللّه منكمو يمدحه و ينصره سواء

أى: و من يمدحه، و ينصره سواء. و مثله قوله تعالى: وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ «۱» أى: إلا من له مقام معلوم، و المعنى: أنه لا يعجزه سبحانه أهل الأرض، و لا أهل السماء فى السماء إن عصوه. و قال قطرب: إن معنى الآية: و لا فى السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتنى فلان هاهنا و لا بالبصرة، يعنى:

و لا بالبصرة لو صار إليها. و قال المبرد: المعنى و لا من فى السماء، على أن من ليست موصولة بل نكرة، و فى السماء صفة لها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف، و ردّ ذلك علىّ بن سليمان و قال: لا يجوز و رجح ما قاله قطرب وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ

وَ لا نَصِيرٍ من مزيدة للتأكيد، أى: ليس لكم ولىّ يواليكم، و لا نصير ينصركم، و يدفع عنكم عذاب اللّه وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ المراد بالآيات: الآيات

---

(١). الصافات: ١۶۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٢٩

التنزيلية، أو التكوينية، أو جميعهما، و كفروا بلقاء اللّه، أى: أنكروا البعث و ما بعده، و لم يعملوا بما أخبرتهم به رسل اللّه سبحانه، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الكافرين بالآيات و اللقاء، و هو مبتدأ، و خبره يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي أى: إنهم فى الدنيا آيسون من رحمة اللّه لم ينجع فيهم ما نزل من كتب اللّه، و لا ما أخبرتهم به رسله. و قيل المعنى: أنهم ييأسون يوم القيامة من رحمة اللّه و هى الجنة. و المعنى أنهم أويسوا من الرحمة وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ كرّر سبحانه الإشارة للتأكيد، و وصف العذاب بكونه أليما للدلالة على أنه فى غاية الشدّة فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ هذا رجوع إلى خطاب إبراهيم بعد الاعتراض بما تقدم من خطاب محمد صلّى اللّه عليه و سلم على قول من قال: إن قوله قل سيروا فى الأرض خطاب لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم، و أما على قول من قال: إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام، فالكلام فى سياقه سابقا و لا حقا، أى:

قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم: افعلوا بإبراهيم أحد الأمرين المذكورين، ثم اتفقوا على تحريقه فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ و جعلها عليه بردا و سلاما إِنَّ فِي ذلِكَ أى: فى إنجاء اللّه لإبراهيم لَآياتٍ بينة، أى: دلالات واضحة، و علامات ظاهرة على عظيم قدرة اللّه، و بديع صنعه، حيث أضرموا تلك النار العظيمة، و ألقوه فيها، و لم تحرقه، و لا أثرت فيه أثرا، بل صارت إلى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها من الحرارة و الإحراق، و إنما خصّ المؤمنون، لأنهم الذين يعتبرون بآيات اللّه سبحانه، و أما من عداهم فهم عن ذلك غافلون. قرأ الجمهور بنصب «جواب قومه» على أنه خبر كان، و ما بعده اسمها. و قرأ سالم الأفطس و عمرو بن دينار و الحسن برفعه على أنه اسم كان، و ما بعده فى محل نصب على الخبر وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أى: قال إبراهيم لقومه: أى للتوادد بينكم، و التواصل لاجتماعكم على عبادتها، و للخشية من ذهاب المودّة فيما بينكم إن تركتم عبادتها. قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و الكسائى «مودّة بينكم» برفع مودّة غير منوّنة، و إضافتها إلى بينكم. و قرأ الأعمش، و ابن وثاب «مودّة» برفعها منوّنة. و قرأ نافع، و ابن عامر، و أبو بكر بنصب «مودة» منوّنة و نصب بينكم على الظرفية. و قرأ حمزة، و حفص بنصب «مودّة» مضافة إلى بينكم. فأما قراءة الرفع، فذكر الزجاج لها وجهين: الأوّل أنها ارتفعت على خبر إنّ فى إنما اتخذتم، و جعل ما موصولة، و التقدير: إن الذى اتخذتموه من دون اللّه أوثانا مودّة بينكم. الوجه الثانى: أن تكون على إضمار مبتدأ، أى: هى مودّة أو تلك مودّة. و المعنى: أن المودّة هى التى جمعتكم على عبادة الأوثان و اتخاذها. قيل: و يجوز أن تكون مودّة مرتفعة بالابتداء، و خبرها فى الحياة الدنيا. و من قرأ برفع مودّة منوّنة: فتوجيهه كالقراءة الأولى، و نصب بينكم على الظرفية. و من قرأ بنصب مودّة و لم ينوّنها جعلها مفعول اتخذتم، و جعل إنما حرفا واحدا للحصر، و هكذا من نصبها و نوّنها. و يجوز أن يكون النصب فى هاتين القراءتين على أن المودّة علة، فهى مفعول لأجله، و على قراءة الرفع يكون مفعول اتخذتم الثانى محذوفا، أى: أوثانا آلهة، و على تقدير أن ما فى قوله «إنما اتخذتم» موصولة يكون المفعول الأوّل: ضميرها، أى: اتخذتموه، و المفعول الثانى: أوثانا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ أى: يكفر بعض هؤلاء المتخذين للأوثان؛ العابدين لها بالبعض الآخر منهم، فيتبرأ القادة من الأتباع، و الأتباع من القادة، و قيل:

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٣٠

المعنى يتبرأ العابدون للأوثان من الأوثان، و تتبرأ الأوثان من العابدين لها وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أى: يلعن كلّ فريق الآخر على

التفسيرين المذكورين وَ مَأْواكُمُ النَّارُ أى: الكفار، و قيل: يدخل فى ذلك الأوثان، أى: هى منزلكم الذى تأوون إليه وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ يخلصونكم منها بنصرتهم لكم فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ أى: آمن لإبراهيم لوط فصدّقه فى جميع ما جاء به، و قيل: إنه لم يؤمن به إلا حين رأى النار لا تحرقه، و كان لوط ابن أخى إبراهيم وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي قال النخعى و قتادة: الذى قال إنى مهاجر إلى ربى هو إبراهيم. قال قتادة: هاجر من كوثى و هى قرية من سواد الكوفة إلى حران ثم إلى الشام و معه ابن أخيه لوط و امرأته سارّة، و المعنى: إنى مهاجر عن دار قومى إلى حيث أعبد ربى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: الغالب الذى أفعاله جارية على مقتضى الحكمة، و قيل: إن القائل: إنى مهاجر إلى ربى هو لوط، و الأوّل أولى لرجوع الضمير فى قوله: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ إلى إبراهيم، و كذا فى قوله: وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ و كذا فى قوله: وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ فإن هذه الضمائر كلها لإبراهيم بلا خلاف، أى: منّ اللّه عليه بالأولاد فوهب له إسحاق ولدا له، و يعقوب ولدا لولده إسحاق، و جعل فى ذرّيته النبوّة، و الكتاب فلم يبعث اللّه نبيا بعد إبراهيم إلا من صلبه، و وحد الكتاب لأن الألف و اللام فيه للجنس الشامل للكتب، و المراد: التوراة، و الإنجيل، و الزبور، و القرآن، و معنى: وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا أنه أعطى فى الدنيا الأولاد، و أخبره اللّه باستمرار النبوّة فيهم، و ذلك مما تقرّ به عينه، و يزداد به سروره، و قيل: أجره فى الدنيا أن أهل الملل كلها تدّعيه، و تقول هو منهم. و قيل:

أعطاه فى الدنيا عملا صالحا، و عاقبة حسنة، و إنه فى الآخرة لمن الصالحين، أى: الكاملين فى الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة، و كثرة العطاء من الربّ سبحانه.

و قد أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: بعث اللّه نوحا و هو ابن أربعين سنة، و لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما؛ يدعوهم إلى اللّه، و عاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس و فشوا. و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال:

كان عمر نوح قبل أن يبعث إلى قومه، و بعد ما بعث ألفا و سبعمائة سنة. و أخرج ابن جرير عن عوف بن أبى شدّاد قال: إن اللّه أرسل نوحا إلى قومه، و هو ابن خمسين و ثلاثمائة سنة فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، ثم عاش بعد ذلك خمسين و ثلاثمائة سنة. و أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب ذمّ الدنيا عن أنس بن مالك قال: جاء ملك الموت إلى نوح فقال: يا أطول النبيين عمرا كيف وجدت الدنيا و لذتها؟ قال: كرجل دخل بيتا له بابان، فقال فى وسط البيت هنيهة، ثم خرج من الباب الآخر. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن قتادة فى قوله: وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ قال: أبقاها اللّه آية، فهى على الجودىّ.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً قال: تقولون كذبا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ قال: هى الحياة بعد الموت، و هو النشور. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ قال: صدّق

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۳۱

لوط إبراهيم. و أخرج أبو يعلى و ابن مردويه عن أنس قال: «أوّل من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان ابن عفّان، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: صحبهما اللّه، إنّ عثمان لأوّل من هاجر إلى اللّه بأهله بعد لوط». و أخرج ابن مندة، و ابن عساكر عن أسماء بنت أبى بكر قالت: هاجر عثمان إلى الحبشة، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّه أوّل من هاجر بعد إبراهيم و لوط». و أخرج ابن عساكر، و الطبرانى، و الحاكم فى الكنى عن زيد بن ثابت قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما كان بين عثمان و بين رقيّة و بين لوط مهاجر». و أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال:

أوّل من هاجر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عثمان بن عفان كما هاجر لوط إلى إبراهيم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ قال: هما ولدا إبراهيم، و فى قوله: وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا قال إن اللّه وصى أهل الأديان بدينه فليس من أهل الأديان دين إلا و هم يقولون: إبراهيم و يرضون به. و أخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله: وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا قال: الذكر الحسن. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الولد الصالح و الثناء، و قول ابن عباس: هما ولدا إبراهيم لعله يريده ولده و ولد ولده، لأن ولد الولد بمنزلة الولد، و مثل هذا لا يخفى على مثل ابن عباس فهو حبر الأمة، و هذه الرواية عنه هى من رواية العوفى، و فى الصحيحين «إنّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم».

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٢٨ الى ٤٠]

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٢٨) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (٣١) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٢)

وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٣٧)

وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٢٣٢

قوله: وَ لُوطاً منصوب بالعطف على نوحا، أو على إبراهيم، أو بتقدير اذكر. قال الكسائى المعنى:

و أنجينا لوطا، أو: و أرسلنا لوطا إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ ظرف للعامل فى لوط إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الكسائى، و أبو بكر «أ إنكم» بالاستفهام. و قرأ الباقون بلا استفهام، و الفاحشة: الخصلة المتناهية فى القبح، و جملة ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ مقرّرة لكمال قبح هذه الخصلة، و أنهم منفردون بذلك، لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم. ثم بين سبحانه هذه الفاحشة فقال: أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ أى: تلوطون بهم وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ قيل: إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم، فقطعوا السبيل بهذا السبب. قال الفراء: كانوا يعترضون الناس فى الطرق بعملهم الخبيث، و قيل: كانوا يقطعون الطريق على المارّة، بقتلهم و نهبهم. و الظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سببا لقطع الطريق، من غير تقييد بسبب خاص، و قيل: إن معنى قطع الطريق: قطع النسل، بالعدول عن النساء إلى الرجال وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ النادى، و الندىّ، و المنتدى: مجلس القوم، و متحدّثهم.

و اختلف فى المنكر الذى كانوا يأتونه فيه؛ فقيل: كانوا يحذفون الناس بالحصباء، و يستخفون بالغريب، و قيل: كانوا يتضارطون

فى مجالسهم، و قيل: كانوا يأتون الرجال فى مجالسهم، و بعضهم يرى بعضا، و قيل:
كانوا يلعبون بالحمام، و قيل: كانوا يخضبون أصابعهم بالحناء، و قيل: كانوا يناقرون بين الديكة، و يناطحون بين الكباش، و قيل: يلعبون بالنرد، و الشطرنج، و يلبسون المصبغات؛ و لا مانع من أنهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات. قال الزجاج: و فى هذا إعلام أنه لا ينبغى أن يتعاشر الناس على المنكر، و أن لا يجتمعوا على الهزء و المناهى. و لما أنكر لوط عليهم ما كانوا يفعلونه أجابوا بما حكى اللّه عنهم بقوله: فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ أى: فما أجابوا بشىء إلا بهذا القول؛ رجوعا منهم إلى التكذيب، و اللجاج، و العناد، و قد تقدّم الكلام على هذه الآية، و قد تقدّم فى سورة النمل فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ «۱» و تقدّم فى سورة الأعراف وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ «۲» و قد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطا كان ثابتا على الإرشاد، و مكرّرا للنهى لهم، و الوعيد عليهم، فقالوا له أوّلا: ائتنا بعذاب اللّه كما فى هذه الآية، فلما كثر منه ذلك، و لم يسكت عنهم قالوا: أخرجوهم كما فى الأعراف، و النمل، و قيل: إنهم قالوا أوّلا: أخرجوهم من قريتكم، ثم قالوا ثانيا: ائتنا بعذاب اللّه. ثم إن لوطا لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من اللّه سبحانه فقال: رَبِّ انْصُرْنِی عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ بإنزال عذابك عليهم، و إفسادهم هو بما سبق من إتيان الرجال، و عمل المنكر فى ناديهم، فاستجاب اللّه سبحانه، و بعث لعذابهم ملائكته، و أمرهم بتبشير إبراهيم قبل عذابهم، و لهذا قال:
وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى أى: بالبشارة بالولد، و هو إسحاق، و بولد الولد، و هو يعقوب قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ أى: قالوا لإبراهيم هذه المقالة، و القرية هى: قرية سدوم التى كان

---

(۱). النمل: ۵۶.

(۲). الأعراف: ۸۲.

فيها قوم لوط، و جملة إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ تعليل للإهلاك، أى: إهلاكنا لهم بهذا السبب قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً أى: قال لهم إبراهيم: إن فى هذه القرية التى أنتم مهلكوها لوطا؛ فكيف تهلكونها؟ قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها من الأخيار، و الأشرار، و نحن أعلم من غيرنا بمكان لوط لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ من العذاب. قرأ الأعمش، و حمزة، و يعقوب، و الكسائى «لننجينه» بالتخفيف، و قرأ الباقون بالتشديد إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ أى: الباقين فى العذاب، و هو لفظ مشترك بين الماضى و الباقى، و قد تقدّم تحقيقه، و قيل المعنى: من الباقين فى القرية التى سينزل بها العذاب، فتعذب من جملتهم، و لا تنجو فيمن نجا وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ أى: لما جاءت الرسل لوطا بعد مفارقتهم إبراهيم سىء بهم، أى: جاءه ما ساءه و خاف منه، لأنه ظنهم من البشر، فخاف عليهم من قومه لكونهم فى أحسن صورة من الصور البشرية، و «أن» فى أن جاءت زائدة للتأكيد وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً أى: عجز عن تدبيرهم، و حزن، و ضاق صدره، و ضيق الذراع: كناية عن العجز، كما يقال فى الكناية عن الفقر: ضاقت يده، و قد تقدّم تفسير هذا مستوفى فى سورة هود. و لما شاهد الملائكة ما حلّ به من الحزن و التضجر قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ أى: لا تخف علينا من قومك، و لا تحزن، فإنهم لا يقدرون علينا إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ من العذاب الذى أمرنا اللّه بأن ننزله بهم إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ أخبروا لوطا بما جاءوا به من إهلاك قومه، و تنجيته، و أهله إلا امرأته كما أخبروا بذلك إبراهيم، قرأ حمزة، و الكسائى، و شعبة، و يعقوب، و الأعمش «منجوك» بالتخفيف. و قرأ الباقون بالتشديد. قال المبرد: الكاف فى منجوك مخفوض، و لم يجز عطف الظاهر على المضمر المخفوض، فحمل الثانى على المعنى، و صار التقدير: و ننجى أهلك

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هـذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ هذه الجملة مستأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من تخصيص التنجية به، و بأهله، و الرجز:

العذاب، أى: عذابا من السماء، و هو الرمى بالحجارة، و قيل: إحراقهم بنار نازلة من السماء، و قيل:

هو الخسف، و الحصب كما فى غير هذا الموضع، و معنى كون الخسف من السماء: أن الأمر به نزل من السماء.

قرأ ابن عامر «منزّلون» بالتشديد. و بها قرأ ابن عباس. و قرأ الباقون بالتخفيف، و الباء فى بِما كانُوا يَفْسُقُونَ للسببية، أى: لسبب فسقهم وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً أى: أبقينا من القرية علامة، و دلالة بينة، و هى الآثار التى بها من الحجارة، رجموا بها، و خراب الديار. و قال مجاهد: هو الماء الأسود الباقى على وجه أرضهم، و لا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر، و خص من يعقل، لأنه الذى يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً أى: و أرسلنا إليهم، و قد تقدم ذكره، و ذكر نسبه و ذكر قومه فى سورة الأعراف و سورة هود: فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ أى: أفردوه بالعبادة، و خصوه بها وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ أى: توقعوه و افعلوا اليوم من الأعمال ما يدفع عذابه عنكم. قال يونس النحوى:

معناه: اخشوا الآخرة التى فيها الجزاء على الأعمال وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ العثو و العثى: أشدّ الفساد. و قد تقدّم تفسيره فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أى: الزلزلة، و تقدّم فى سورة هود وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ أى: صيحة جبريل، و هى سبب الرجفة فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ أى: أصبحوا فى بلدهم

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۳۴

أو منازلهم جاثمين على الركب ميتين وَ عاداً وَ ثَمُودَ قال الكسائى: قال بعضهم هو راجع إلى أوّل السورة، أى: وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و فتنا عادا و ثمود، قال: و أحبّ إلىّ أن يكون على «فأخذتهم الرجفة» أى: و أخذت عادا و ثمود. و قال الزجاج: التقدير و أهلكنا عادا و ثمود، و قيل المعنى: و اذكر عادا و ثمود؛ إذ أرسلنا إليهم هودا و صالحا وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ أى: و قد ظهر لكم يا معاشر الكفار.

مساكنهم بالحجر، و الأحقاف آيات بينات تتعظون بها، و تتفكرون فيها، ففاعل تبين: محذوف وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ التى يعملونها من الكفر و معاصى اللّه فَصَدَّهُمْ بهذا التزيين عَنِ السَّبِيلِ أى: الطريق الواضح الموصل إلى الحق وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ أى: أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال. قال الفراء: كانوا عقلاء ذوى بصائر، فلم تنفعهم بصائرهم، و قيل المعنى: كانوا مستبصرين فى كفرهم، و ضلالتهم معجبين بها يحسبون أنهم على هدى، و يرون أن أمرهم حقّ، فوصفهم بالاستبصار على هذا، باعتبار ما عند أنفسهم وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ قال الكسائى: إن شئت كان محمولا على «عادا» و كان فيه ما فيه، و إن شئت كان على «فصدّهم عن السبيل» أى: و صدّ قارون، و فرعون، و هامان. و قيل التقدير: و أهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ عن عبادة اللّه وَ ما كانُوا سابِقِينَ أى: فائتين، يقال سبق طالبه: إذا فاته: و قيل: و ما كانوا سابقين فى الكفر، بل قد سبقهم إليه قرون كثيرة، فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ أى: عاقبناه بكفره، و تكذيبه. قال الكسائى: فَكُلًّا أَخَذْنا أى: فأخذنا كلا بذنبه فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً أى: ريحا تأتى بالحصباء، و هى الحصى الصغار فترجمهم بها، و هم قوم لوط وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ و هم: ثمود، و أهل مدين وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ و هو قارون و أصحابه وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا و هم قوم نوح و قوم فرعون وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ بما فعل بهم، لأنه قد أرسل إليهم رسله، و أنزل عليهم كتبه وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ باستمرارهم على الكفر و تكذيبهم للرسل و عملهم بمعاصى اللّه.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ قال: مجلسكم. و أخرج الفريابى، و أحمد، و عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه، و ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن

أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، و ابن عساكر عن أمّ هانئ بنت أبى طالب قالت: سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن قول اللّه سبحانه وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ قال: «كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السّبيل، و يسخرون منهم».

قال الترمذى بعد إخراجه و تحسينه: و لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبى صغيرة عن سماك. و أخرج ابن مردويه، عن جابر أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم نهى عن الحذف، و هو قول اللّه سبحانه وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال: هو الحذف. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله. و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن عائشة فى الآية قالت:

الضّراط. و أخرج الفريابى، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم فى

فتح القدير، ج‏4، ص: 235

قوله: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قال: الصيحة، و فى قوله: وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ قال: فى الضلالة.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً قال: قوم لوط وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ قال: ثمود وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ قال: قارون وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا قال: قوم نوح.

[سورة العنكبوت (29): الآيات 41 الى 46]

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ (43) خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44) اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (45)

وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46)

قوله: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ يوالونهم، و يتكلون عليهم فى حاجاتهم من دون اللّه؛ سواء كانوا من الجماد، أو الحيوان، و من الأحياء؛ أو من الأموات كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً فإن بيتها لا يغنى عنها شيئا لا فى حرّ، و لا قرّ، و لا مطر، كذلك ما اتخذوه وليا من دون اللّه، فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع و لا تضرّه، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرّا، و لا بردا. قال: و لا يحسن الوقف على العنكبوت، لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذى لا يقيها من شىء، شبهت الآلهة التى لا تنفع و لا تضرّ به، و قد جوّز الوقف على العنكبوت الأخفش، و غلطه ابن الأنبارى قال: لأن: اتخذت صلة للعنكبوت كأنه قال: كمثل العنكبوت التى اتخذت بيتا، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول، و العنكبوت تقع على الواحد، و الجمع، و المذكر، و المؤنث، و تجمع على عناكب و عنكبوتات، و هى الدّويبة الصغيرة التى تنسج نسجا رقيقا. و قد يقال لها: عكنباة، و منه قول الشاعر:

كأنّما يسقط من لغامهابيت عكنباة على زمامها

وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لا بيت أضعف منه، مما يتخذه الهوامّ بيتا، و لا يدانيه فى الوهى، و الوهى شىء من ذلك لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أن اتخاذهم الأولياء من دون اللّه كاتخاذ العنكبوت بيتا، أو لو كانوا يعلمون شيئا من العلم لعلموا بهذا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ما: استفهامية، أو نافية: أو موصولة، و من: للتبعيض؛ أو مزيدة للتوكيد. و قيل: إن هذه الجملة على

إضمار القول، أى:

قل للكافرين إن اللّه يعلم أىّ شىء يدعون من دونه. و جزم أبو على الفارسى بأنها استفهامية، و على تقدير النفى كأنه قيل: إن اللّه يعلم أنكم لا تدعون من دونه من شىء، يعنى: ما تدعونه ليس بشىء، و على تقدير

الموصولة: إن اللّه يعلم الذين تدعونهم من دونه، و يجوز أن تكون ما: مصدرية، و من شىء: عبارة عن المصدر. قرأ عاصم، و أبو عمرو، و يعقوب «يدعون» بالتحتية. و اختار هذه القراءة أبو عبيد لذكر الأمم قبل هذه الآية. و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الغالب المصدر أفعاله على غاية الإحكام، و الإتقان وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ أى: هذا المثل و غيره من الأمثال التى فى القرآن، نضربها للناس تنبيها لهم، و تقريبا لما بعد من أفهامهم وَ ما يَعْقِلُها أى: يفهمها و يتعقل الأمر الذى ضربناها لأجله إِلَّا الْعالِمُونَ باللّه الراسخون فى العلم، المتدبرون، المتفكرون لما يتلى عليهم، و ما يشاهدونه خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ أى: بالعدل، و القسط مراعيا فى خلقها مصالح عباده. و قيل:

المراد بالحق: كلامه و قدرته، و محل بالحق: النصب على الحال إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ أى: لدلالة عظيمة، و علامة ظاهرة على قدرته، و تفرّده بالإلهية، و خص المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بذلك اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ أى: القرآن، و فيه الأمر بالتلاوة للقرآن، و المحافظة على قراءته مع التدبر لآياته، و التفكر فى معانيه وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ أى: دم على إقامتها، و استمرّ على أدائها كما أمرت بذلك، و جملة «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر» تعليل لما قبلها، و الفحشاء: ما قبح من العمل، و المنكر: ما لا يعرف فى الشريعة، أى: تمنعه عن معاصى اللّه و تبعده منها، و معنى نهيها عن ذلك أن فعلها يكون سببا للانتهاء، و المراد هنا: الصلوات المفروضة وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ أى: أكبر من كل شىء، أى: أفضل من العبادات كلها بغير ذكر. قال ابن عطية: و عندى أن المعنى: و لذكر اللّه أكبر على الإطلاق، أى: هو الذى ينهى عن الفحشاء و المنكر، فالجزء الذى منه فى الصلاة يفعل ذلك، و كذلك يفعل ما لم يكن منه فى الصلاة، لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر للّه، مراقب له. و قيل: ذكر اللّه أكبر من الصلاة، فى النهى عن الفحشاء، و المنكر، مع المداومة عليه. قال الفراء و ابن قتيبة: المراد بالذكر فى الآية:

التسبيح و التهليل، يقول: هو أكبر، و أحرى بأن ينهى عن الفحشاء و المنكر. و قيل: المراد بالذكر هنا الصلاة، أى: و للصلاة أكبر من سائر الطاعات، و عبر عنها بالذكر كما فى قوله: فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ «۱» للدلالة على أن ما فيها من الذكر: هو العمدة فى تفضيلها على سائر الطاعات، و قيل المعنى: و لذكر اللّه لكم بالثواب، و الثناء عليكم منه أكبر من ذكركم له فى عبادتكم و صلواتكم، و اختار هذا ابن جرير، و يؤيده حديث «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، و من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم» وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بالخير: خيرا، و بالشرّ: شرّا وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أى: إلا بالخصلة التى هى أحسن، و ذلك على سبيل الدعاء لهم إلى اللّه عزّ و جلّ، و التنبيه لهم على حججه و براهينه؛ رجاء إجابتهم إلى الإسلام، لا على طريق الإغلاظ و المخاشنة إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ بأن أفرطوا فى المجادلة، و لم يتأدّبوا مع المسلمين، فلا بأس بالإغلاظ عليهم، و التخشين فى مجادلتهم، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين؛ بأن المراد بأهل الكتاب: اليهود، و النصارى. و قيل معنى الآية: لا تجادلوا

---

(۱). الجمعة: ۹.

من آمن بمحمّد من أهل الكتاب؛ كعبد اللّه بن سلام، و سائر من آمن منهم إلا بالتى هى أحسن، يعنى:
بالموافقة فيما حدّثوكم به من أخبار أهل الكتاب، و يكون المراد بالذين ظلموا على هذا القول: هم الباقون على كفرهم. و قيل: هذه الآية منسوخة بآيات القتال، و بذلك قال قتادة، و مقاتل. قال النحاس: من قال منسوخة احتج بأن الآية مكية، و لم يكن فى ذلك الوقت قتال مفروض، و لا طلب جزية، و لا غير ذلك.

قال سعيد بن جبير و مجاهد: إن المراد بالذين ظلموا منهم: الذين نصبوا القتال للمسلمين، فجدالهم بالسيف حتى يسلموا؛ أو يعطوا الجزية وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا من القرآن وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ من التوراة، و الإنجيل، أى: آمنا بأنهما منزلان من عند اللّه، و أنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية، و البعثة المحمّدية، و لا يدخل فى ذلك ما حرّفوه و بدّلوه وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ لا شريك له، و لا ضدّ، و لا ندّ، وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ أى: و نحن معاشر أمة محمّد مطيعون له خاصة، لم نقل: عزير ابن اللّه، و لا اتخذنا أحبارنا و رهباننا أربابا من دون اللّه، و يحتمل أن يراد: و نحن جميعا منقادون له، و لا يقدح فى هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتمّ من انقياد أهل الكتاب، و طاعتهم أبلغ من طاعاتهم.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ الآية قال:
ذاك مثل ضربه اللّه لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت. و أخرج أبو داود فى مراسيله عن يزيد بن مرثد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «العنكبوت شيطان مسخها اللّه فمن وجدها فليقتلها». و أخرج ابن أبى حاتم عن مزيد بن ميسرة قال: العنكبوت شيطان. و أخرج الخطيب عن علىّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:
«دخلت أنا و أبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهنّ» و روى القرطبى فى تفسيره عن على أيضا أنه قال: طهّروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإنّ تركه فى البيت يورث الفقر. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى قال: نسجت العنكبوت مرتين، مرة على داود، و الثانية على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ قال: فى الصلاة منتهى و مزدجر عن المعاصى. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن عمران بن حصين قال: سئل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم عن قول اللّه إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ فقال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر فلا صلاة له». و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس قال:
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم يزدد بها من اللّه إلا بعدا». و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و البيهقى فى الشعب عن الحسن قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر فلا صلاة له» و فى لفظ «لم يزدد بها من اللّه إلا بعدا». و أخرج الخطيب عن ابن عمر مرفوعا نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا نحوه. قال السيوطى: و سنده ضعيف. و أخرج سعيد بن منصور، و أحمد فى الزهد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى فى الشعب عنه نحوه موقوفا. قال ابن كثير فى تفسيره: و الأصح فى هذا كله: الموقوفات عن ابن مسعود، و ابن عباس، و الحسن، و قتادة، و الأعمش، و غيرهم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم،

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۳۸

عن ابن عباس فى قوله: وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ يقول: و لذكر اللّه لعباده إذا ذكروه؛ أكبر من ذكرهم إيّاه.
و أخرج الفريابى، و سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب، عن عبد اللّه بن ربيعة قال: سألنى ابن عباس عن قول اللّه وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ فقلت: ذكر اللّه بالتسبيح، و التهليل، و التكبير قال: لذكر اللّه إياكم أكبر من ذكركم إياه، ثم قال: اذكرونى؛ أذكركم.

و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير عن ابن مسعود وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ قال: ذكر اللّه العبد أكبر من ذكر العبد للّه. و أخرج ابن السنى، و ابن مردويه، و الديلمى عن ابن عمر نحوه.
و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: لها وجهان: ذكر اللّه أكبر مما سواه، و فى لفظ: ذكر اللّه عند ما حرّمه، و ذكر اللّه إياكم أعظم من ذكركم إياه. و أخرج أحمد فى الزهد، و ابن المنذر عن معاذ بن جبل قال: ما عمل آدمىّ عملا أنجى له من عذاب اللّه من ذكر اللّه، قالوا: و لا الجهاد فى سبيل اللّه؟ قال: و لا أن يضرب بسيفه حتى يتقطع، لأن اللّه يقول فى كتابه العزيز وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ.
و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و الحاكم فى الكنى، و البيهقى فى الشعب عن عنترة قال: قلت لابن عباس: أىّ العمل أفضل؟ قال: ذكر اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قال: بلا إله إلا اللّه. و أخرج البخارى، و النسائى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، و يفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا تصدّقوا أهل الكتاب و لا تكذّبوهم وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . و أخرج البيهقى فى الشعب، و الديلمى، و أبو نصر السجزى فى الإبانة، عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنّهم لن يهدوكم و قد ضلّوا، إما أن تصدّقوا بباطل، أو تكذّبوا بحقّ، و اللّه لو كان موسى حيّا بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتّبعنى». و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير عن ابن مسعود قال: «لا تسألوا أهل الكتاب» و ذكر نحو حديث جابر، ثم قال: «فإن كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب اللّه فخذوه، و ما خالف كتاب اللّه فدعوه».

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ۴٧ الى ۵۵]

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ (۴٧) وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (۴٨) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ (۴٩) وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵٠) أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵١)
قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۵٢) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۵٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (۵۴) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۵)
فتح القدير، ج۴، ص: ٢٣٩
قوله: وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ هذا خطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و الإشارة إلى مصدر الفعل؛ كما بيناه فى مواضع كثيرة، أى: و مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا إليك الكتاب، و هو القرآن، و قيل المعنى:
كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ يعنى: مؤمنى أهل الكتاب؛ كعبد اللّه بن سلام، و خصهم بإيتائهم الكتاب؛ لكونهم العاملين به، و كأن غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه، و جحدهم لصفات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم المذكورة فيه وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ الإشارة إلى أهل مكة، و المراد أن منهم؛ و هو من قد أسلم. من يؤمن به، أى: بالقرآن، و قيل: الإشارة إلى جميع العرب وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا أى: آيات القرآن إِلَّا الْكافِرُونَ المصممون على كفرهم من المشركين؛ و أهل الكتاب وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ الضمير فى قبله راجع إلى القرآن؛ لأنه المراد بقوله: أنزلنا إليك

الكتاب؛ أى: ما كنت يا محمّد تقرأ قبل القرآن كتابا، و لا تقدر على ذلك؛ لأنك أمّى؛ لا تقرأ، و لا تكتب وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ أى: و لا تكتبه لأنك لا تقدر على الكتابة. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم أن محمّد صلّى اللّه عليه و سلم لا يخط، و لا يقرأ، فنزلت هذه الآية. قال النحاس: و ذلك دليل على نبوّته لأنه لا يكتب، و لا يخالط أهل الكتاب، و لم يكن بمكة أهل كتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء و الأمم إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ أى: لو كنت ممن يقدر على التلاوة و الخط لقالوا لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب اللّه السابقة، أو من الكتب المدوّنة فى أخبار الأمم، فلما كنت أميا لا تقرأ، و لا تكتب؛ لم يكن هناك موضع للريبة، و لا محل للشك أبدا، بل إنكار من أنكر، و كفر من كفر؛ مجرّد عناد، و جحود بلا شبهة، و سماهم مبطلين لأن ارتيابهم على تقدير أنه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ و يكتب ظلم منهم لظهور نزاهته، و وضوح معجزاته بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ يعنى: القرآن فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ يعنى: المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهده صلّى اللّه عليه و سلم، و حفظوا بعده، و قال قتادة و مقاتل: إن الضمير يرجع إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، أى: بل محمّد آيات بينات، أى: ذو آيات. و قرأ ابن مسعود «بل هى آيات بينات» قال الفراء: معنى هذه القراءة: بل آيات القرآن آيات بينات ... و اختار ابن جرير ما قاله قتادة و مقاتل، و قد استدل لما قالاه بقراءة ابن السميقع «بل هذا آيات بيّنات» و لا دليل فى هذه القراءة على ذلك، لأن الإشارة يجوز أن تكون إلى القراءة كما جاز أن تكون إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، بل رجوعها إلى القرآن أظهر لعدم احتياج ذلك إلى التأويل، و التقدير. وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ أى: المجاوزون للحدّ فى الظلم وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ أى: قال المشركون هذا القول، و المعنى: هلا أنزلت عليه آيات كآيات الأنبياء، و ذلك كآيات موسى، و ناقة صالح، و إحياء المسيح للموتى، ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عليهم فقال: قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ ينزلها على من يشاء من عباده، و لا قدرة لأحد على ذلك وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أنذركم كما أمرت، و أبين لكم كما

ينبغى، ليس فى قدرتى غير ذلك. قرأ ابن كثير، و أبو بكر، و حمزة، و الكسائى «لو لا أنزل عليه آية» بالإفراد. و قرأ الباقون بالجمع، و اختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله «قل إنما الآيات» أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ هذه الجملة مستأنفة للردّ على اقتراحهم، و بيان بطلانه، أى: أو لم يكف المشركين من الآيات التى اقترحوها؛ هذا الكتاب المعجز الذى قد تحدّيتهم بأن يأتوا بمثله؛ أو بسورة منه؛ فعجزوا، و لو أتيتهم بآيات موسى، و آيات غيره من الأنبياء لما آمنوا، كما لم يؤمنوا بالقرآن الذى يتلى عليهم فى كلّ زمان، و مكان إِنَّ فِي ذلِكَ الإشارة إلى الكتاب الموصوف بما ذكر لَرَحْمَةً عظيمة فى الدنيا، و الآخرة وَ ذِكْرى فى الدنيا يتذكرون بها، و ترشدهم إلى الحق لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى: لقوم يصدّقون بما جئت به من عند اللّه فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً أى: قل للمكذبين: كفى اللّه شهيدا بما وقع بينى و بينكم يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تخفى عليه من ذلك خافية، و من جملته ما صدر بينكم و بين رسوله وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ أى: آمنوا بما يعبدونه من دون اللّه، و كفروا بالحق، و هو اللّه سبحانه، أولئك هم الجامعون بين خسران الدنيا، و الآخرة وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ استهزاء و تكذيبا منهم بذلك كقولهم: فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ «۱» وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى قد جعله اللّه لعذابهم، و عينه، و هو القيامة، و قال الضحاك: الأجل: مدّة أعمارهم لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب لَجاءَهُمُ الْعَذابُ أى: لولا ذلك الأجل المضروب لجاءهم العذاب الذى يستحقونه بذنوبهم. و قيل: المراد بالأجل المسمى: النفخة الأولى، و قيل: الوقت الذى قدّره اللّه لعذابهم فى الدنيا، بالقتل، و الأسر يوم بدر. و الحاصل أن لكل عذاب أجلا، لا يتقدّم عليه، و لا يتأخر عنه كما فى قوله سبحانه: لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ «۲» و جملة وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً مستأنفة مبينة لمجيء العذاب المذكور قبلها، و معنى بغتة: فجأة، و جملة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ فى محل نصب على الحال، أى: حال كونهم لا يعلمون بإتيانه، ثم

ذكر سبحانه أن موعد عذابهم النار، فقال:

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ أى: يطلبون منك تعجيل عذابهم، و الحال أن مكان العذاب محيط بهم، أى: سيحيط بهم عن قرب، فإن ما هو آت قريب، و المراد بالكافرين: جنسهم، فيدخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولا أوّليا، فقوله:

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ إخبار عنهم، و قوله ثانيا:

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ تعجب منهم، و قيل: التكرير للتأكيد. ثم ذكر سبحانه كيفية إحاطة العذاب بهم، فقال: يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ أى: من جميع جهاتهم، فإذا غشيهم العذاب على هذه الصفة، فقد أحاطت بهم جهنم وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ القائل: هو اللّه سبحانه؛ أو بعض ملائكته بأمره، أى: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر و المعاصى. قرأ أهل المدينة و الكوفة

---

(١). الأنفال: ٣٢.

(٢). الأنعام: ۶٧.

«نقول» بالنون. و قرأ الباقون بالتحتية «١»، و اختار القراءة الأخيرة أبو عبيد لقوله: قُلْ كَفى بِاللَّهِ و قرأ ابن مسعود و ابن أبى عبلة «و يقال ذوقوا».

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و الإسماعيلى فى معجمه عن ابن عباس فى قوله:

وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ قال: لم يكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ و لا يكتب، كان أميا، و فى قوله: بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ قال: كان اللّه أنزل شأن محمّد فى التوراة و الإنجيل لأهل العلم، و علمه لهم، و جعله لهم آية فقال لهم: إن آية نبوّته أن يخرج حين يخرج؛ و لا يعلم كتابا، و لا يخطه بيمينه، و هى الآيات البينات التى قال اللّه تعالى. و أخرج البيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ الآية قال: لم يكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ، و لا يكتب.

و أخرج الفريابى، و الدارمى، و أبو داود فى مراسيله، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن يحيى ابن جعدة قال: جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوها، فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلم «كفى بقوم حمقا أو ضلالة، أن يرغبوا عمّا جاء به نبيّهم إليهم، إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزلت أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ الآية. و أخرج الإسماعيلى فى معجمه، و ابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبى هريرة فذكره بمعناه. و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و البيهقى فى الشعب، عن الزهرى، أن حفصة جاءت إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم بكتاب من قصص يوسف فى كتف، فجعلت تقرؤه و النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم يتلوّن وجهه فقال: «و الذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف و أنا نبيّكم فاتّبعتموه و تركتمونى لضللتم». و أخرج عبد الرزاق، و ابن سعد، و ابن الضريس، و الحاكم فى الكنى، و البيهقى فى الشعب عن عبد اللّه بن الحارث الأنصارى قال: دخل عمر ابن الخطاب على النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب، أعرضها عليك، فتغيّر وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم تغيّرا شديدا لم أر مثله قط، فقال عبد اللّه بن الحارث لعمر:

أما ترى وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم؟ فقال عمر: رضينا باللّه ربّا و بالإسلام دينا و بمحمّد نبيا، فسرّى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و قال: «لو نزل موسى فاتّبعتموه و تركتمونى لضللتم، أنا حظّكم من النبيّين و أنتم حظى من الأمم». و أخرج نحوه عبد الرزاق و البيهقى من طريق أبى قلابة عن عمر. و أخرج البيهقى و صححه عن عمر ابن الخطاب قال سألت رسول اللّه

صلّى اللّه عليه و سلم عن تعلّم التوراة فقال: «لا تتعلمها و آمن بها، و تعلّموا ما أنزل إليكم و آمنوا به». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ قال:
جهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه، و تكون فيه الشمس و القمر، ثم يستوقد، فيكون هو جهنم، و فى هذا نكارة شديدة، فإن الأحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بأن جهنم موجودة مخلوقة على الصفات التى ورد بها الكتاب و السنة.

---

(١). جاء فى كتاب السبعة فى القراءات: قرأ ابن كثير و أبو عمرو و ابن عامر «و نقول» بالنون و قرأ نافع و عاصم و حمزة و الكسائى «و يقول».

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴۲

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ۵۶ الى ۶۹]

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (۵۶) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (۵۷) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (۵۸) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۵۹) وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۰)
وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (۶۱) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۶۲) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۶۳) وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۶۴) فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (۶۵)
لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۶۶) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (۶۷) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (۶۸) وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (۶۹)
لما ذكر سبحانه حال الكفرة من أهل الكتاب، و من المشركين، و جمعهم فى الإنذار، و جعلهم من أهل النار اشتدّ عنادهم، و زاد فسادهم، و سعوا فى إيذاء المسلمين بكل وجه، فقال اللّه سبحانه يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أضافهم إليه بعد خطابه لهم تشريفا و تكريما، و الذين آمنوا صفة موضحة أو مميزة إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ إن كنتم فى ضيق بمكة من إظهار الإيمان، و فى مكايدة للكفار، فاخرجوا منها لتتيسر لكم عبادتى وحدى، و تتسهل عليكم. قال الزجاج: أمروا بالهجرة من الموضع الذى لا يمكنهم فيه عبادة اللّه، و كذلك يجب على من كان فى بلد يعمل فيها بالمعاصى، و لا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له أن يعبد اللّه حق عبادته. و قال مطرف بن الشخير: المعنى إن رحمتى واسعة، و رزقى لكم واسع، فابتغوه فى الأرض.
و قيل المعنى: إن أرضى التى هى أرض الجنة واسعة، فاعبدون حتى أورثكموها. و انتصاب إياى بفعل مضمر، أى: فاعبدوا إياى. ثم خوّفهم سبحانه بالموت ليهون عليهم أمر الهجرة فقال: كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ أى: كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت لا محالة، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان، و مفارقة الإخوان، و الخلان، ثم إلى اللّه المرجع بالموت، و البعث، لا إلى غيره، فكل حيّ فى سفر إلى دار القرار، و إن طال لبثه فى هذه الدار وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً فى هذا الترغيب إلى الهجرة، و أن جزاء من هاجر، أن يكون فى غرف الجنة، و معنى «لنبوّئنهم» لننزلنهم غرف الجنة، و هى علاليها، فانتصاب غرفا على أنه المفعول الثانى؛ على تضمين نبوئنهم معنى: ننزلنهم، أو على الظرفية مع عدم

التضمين، لأن نبوئنهم لا يتعدّى إلا إلى مفعول واحد، و إما منصوب بنزع الخافض اتساعا، أى:

فى غرف الجنة، و هو مأخوذ من المباءة: و هى الإنزال. قرأ أبو عمرو، و يعقوب، و الجحدرى، و ابن أبى

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴۳

إسحاق، و ابن محيصن، و الأعمش، و حمزة، و الكسائى، و خلف «يا عبادى» بإسكان الياء و فتحها الباقون. و قرأ ابن عامر «إن أرضى» بفتح الياء، و سكنها الباقون. و قرأ السلمى و أبو بكر عن عاصم «يرجعون» بالتحتية و قرأ الباقون بالفوقية. و قرأ ابن مسعود، و الأعمش، و يحيى بن وثاب و حمزة، و الكسائى: «لنثوينهم» بالثاء المثلثة مكان الباء الموحدة، و قرأ الباقون بالباء الموحدة، و معنى لنثوينهم بالمثلثة: لنعطينهم غرفا يثوون فيها، من الثوى: و هو الإقامة. قال الزجاج: يقال ثوى الرجل: إذا أقام، و أثويته: إذا أنزلته منزلا يقيم فيه. قال الأخفش: لا تعجبنى هذه القراءات لأنك لا تقول أثويته الدار، بل تقول فى الدار، و ليس فى الآية حرف جرّ فى المفعول الثانى. قال أبو على الفارسى:

هو على إرادة حرف الجرّ، ثم حذف كما تقول أمرتك الخير، أى: بالخير. ثم وصف سبحانه تلك الغرف فقال: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أى: من تحت الغرف خالِدِينَ فِيها أى: فى الغرف لا يموتون أبدا، أو فى الجنة، و الأوّل: أولى نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ المخصوص بالمدح محذوف، أى: فى الغرف لا يموتون أبدا، أو فى الجنة، و الأوّل: أولى نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ المخصوب المدح محذوف، أى: نعم أجر العاملين أجرهم، و المعنى: العاملين للأعمال الصالحة. ثم وصف هؤلاء العاملين فقال: الَّذِينَ صَبَرُوا على مشاق التكليف و على أذية المشركين لهم، و يجوز أن يكون منصوبا على المدح وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أى:

يفوّضون أمورهم إليه فى كلّ إقدام و إحجام. ثم ذكر سبحانه ما يعين على الصبر و التوكل، و هو النظر فى حال الدوابّ فقال: وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ قد تقدّم الكلام فى كأين، و أن أصلها: أى دخلت عليها كاف التشبيه و صار فيها معنى كم كما صرح به الخليل و سيبويه، و تقديرها عندهما كشىء كثير من العدد من دابة. و قيل المعنى: و كم من دابة. و معنى «لا تحمل رزقها» لا تطيق حمل رزقها لضعفها و لا تدّخره، و إنما يرزقها اللّه من فضله، و يرزقكم، فكيف لا يتوكلون على اللّه مع قوّتهم و قدرتهم على أسباب العيش كتوكلها على اللّه مع ضعفها و عجزها. قال الحسن: تأكل لوقتها، لا تدّخر شيئا. قال مجاهد: يعنى الطير و البهائم تأكل بأفواهها و لا تحمل شيئا وَ هُوَ السَّمِيعُ الذى يسمع كلّ مسموع الْعَلِيمُ بكل معلوم. ثم إنه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة و غيرهم و عجب السامع من كونهم يقرّون بأنه خالقهم و رازقهم و لا يوحدونه و يتركون عبادة غيره فقال: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ أى: خلقها، لا يقدرون على إنكار ذلك، و لا يتمكنون من جحوده فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ أى: فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرّده بالإلهية، و أنه وحده لا شريك له، و الاستفهام: للإنكار و الاستبعاد. و لما قال المشركون لبعض المؤمنين: لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع سبحانه ذلك بقوله: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ أى: التوسع فى الرزق، و التقدير له هو من اللّه الباسط القابض يبسطه لمن يشاء، و يضيقه على من يشاء على حسب ما تقتضيه حكمته، و ما يليق بحال عباده من القبض و البسط، و لهذا قال: إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يعلم ما فيه صلاح عباده، و فسادهم وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَ أى: نزّله و أحيا به الأرض اللّه، يعترفون بذلك لا يجدون إلى إنكاره سبيلا. ثم لما اعترفوا هذا الاعتراف فى هذه الآيات،

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴۴

و هو يقتضى بطلان ما هم عليه من الشرك، و عدم إفراد اللّه سبحانه بالعبادة، أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يحمد اللّه على إقرارهم، و عدم جحودهم مع تصلبهم فى العناد، و تشدّدهم فى ردّ كلّ ما جاء به رسول اللّه من التوحيد فقال: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ أى: احمد اللّه على أن جعل الحقّ معك، و أظهر حجتك عليهم، ثم ذمهم فقال: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ الأشياء

التى يتعقلها العقلاء. فلذلك لا يعملون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ما هى عليه عند كلّ عاقل. ثم أشار سبحانه إلى تحقير الدنيا و أنها من جنس اللعب و اللهو، و أن الدار على الحقيقة: هى دار الآخرة فقال: وَ ما هٰذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ من جنس ما يلهو به الصبيان و يلعبون به وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ قال ابن قتيبة، و أبو عبيدة:

إن الحيوان: الحياة. قال الواحدى: و هو قول جميع المفسرين ذهبوا إلى أن معنى الحيوان هاهنا: الحياة، و أنه مصدر بمنزلة الحياة، فيكون كالنزوان و الغليان و يكون التقدير: و إن الدار الآخرة لهى دار الحيوان، أو ذات الحيوان، أى: دار الحياة الباقية التى لا تزول، و لا ينغصها موت، و لا مرض، و لا هم، و لا غم لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ شيئا من العلم لما آثروا عليها الدار الفانية المنغصة. ثم بين سبحانه أنه ليس المانع لهم من الإيمان إلا مجرّد تأثير الحياة فقال: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى: إذا انقطع رجاؤهم من الحياة، و خافوا الغرق رجعوا إلى الفطرة، فدعوا اللّه وحده كائنين على صورة المخلصين له الدين بصدق نياتهم، و تركهم عند ذلك لدعاء الأصنام لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدّة العظيمة النازلة بهم غير اللّه سبحانه: فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ أى: فاجؤوا المعاودة إلى الشرك، و دعوا غير اللّه سبحانه.

و الركوب: هو الاستعلاء، و هو متعدّ بنفسه، و إنما عدّى بكلمة: فى للإشعار بأن المركوب فى نفسه من قبيل الأمكنة، و اللام فى لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ و فى قوله: وَ لِيَتَمَتَّعُوا للتعليل؛ أى: فاجؤوا الشرك باللّه ليكفروا بنعمة اللّه، و ليتمتعوا بهما فهما فى الفعلين لام كى، و قيل: هما لاما الأمر تهديدا و وعيدا، أى:

اكفروا بما أعطيناكم من النعمة و تمتعوا، و يدلّ على هذه القراءة قراءة أبىّ «و تمتعوا» و هذا الاحتمال للأمرين إنما هو على قراءة أبى عمرو، و ابن عامر و عاصم، و ورش بكسر اللام، و أما على قراءة الجمهور بسكونها فلا خلاف أنها لام الأمر، و فى قوله: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ تهديد عظيم لهم أى: فسيعلمون عاقبة ذلك، و ما فيه من الوبال عليهم أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً أى: ألم ينظروا، يعنى: كفار قريش أنا جعلنا حرمهم هذا حرما آمنا يأمن فيه ساكنه من الغارة، و القتل، و السبى، و النهب فصاروا فى سلامة، و عافية مما صار فيه غيرهم من العرب، فإنهم فى كلّ حين تطرقهم الغارات، و تجتاح أموالهم الغزاة، و تسفك دماءهم الجنود، و تستبيح حرمهم، و أموالهم شطار العرب، و شياطينها، و جملة وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ فى محل نصب على الحال، أى: يختلسون من حولهم بالقتل، و السبى، و النهب، و الخطف: الأخذ بسرعة، و قد مضى تحقيق معناه فى سورة القصص أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ و هو الشرك بعد ظهور حجة اللّه عليهم و إقرارهم بما يوجب التوحيد وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ يجعلون كفرها مكان شكرها، و فى هذا الاستفهام من التقريع، و التوبيخ ما لا يقادر قدره وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى: لا أحد أظلم منه،

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴۵

و هو من زعم أن للّه شريكا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أى: كذّب بالرسول الذى أرسل إليه، و الكتاب الذى أنزله على رسوله. و قال السدّى: كذّب بالتوحيد، و الظاهر شموله لما يصدق عليه أنه حق. ثم هدّد المكذبين و توعدهم فقال: أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ أى: مكان يستقرّون فيه، و الاستفهام للتقرير، و المعنى: أليس يستحقون الاستقرار فيها و قد فعلوا ما فعلوا؟ ثم لما ذكر حال المشركين الجاحدين للتوحيد الكافرين بنعم اللّه أردفه بحال عباده الصالحين، فقال: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا أى: جاهدوا فى شأن اللّه لطلب مرضاته، و رجاء ما عنده من الخير لنهدينهم سبلنا، أى: الطريق الموصل إلينا. قال ابن عطية: هى مكية نزلت قبل فرض الجهاد العرفى «۱»، و إنما هو جهاد عامّ فى دين اللّه و طلب مرضاته، و قيل: الآية هذه نزلت فى العباد. و قال إبراهيم بن أدهم: هى فى الذين يعملون بما يعلمون وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ بالنصر و العون، و من كان معه لم يخذل، و دخلت لام التوكيد على مع بتأويل كونها اسما، أو على أنها حرف، و دخلت عليها لإفادة معنى الاستقرار كما تقول: إن زيدا لفى الدار،

و البحث مقرّر فی علم النحو.

و قد أخرج ابن مردویه عن علیّ بن أبی طالب قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «لمّا نزلت هذه الآیهٔ إِنَّکَ مَیِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَیِّتُونَ «۲»؛ قلت: یا ربّ أ یموت الخلائق کلّهم و یبقی الأنبیاء؟ فنزلت کُلُّ نَفْسٍ ذائِقَهُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَیْنا تُرْجَعُونَ . و ینظر کیف صحهٔ هذا، فإن النبی صلّی اللّه علیه و سلم بعد أن یسمع قول اللّه سبحانه إِنَّکَ مَیِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَیِّتُونَ یعلم أنه میت، و قد علم أن من قبله من الأنبیاء قد ماتوا، و أنه خاتم الأنبیاء، فکیف ینشأ عن هذه الآیهٔ ما رواه عنه علیّ رضی اللّه عنه من قوله: «أ یموت الخلائق و یبقی الأنبیاء» فلعلّ هذه الروایهٔ لا تصح مرفوعهٔ، و لا موقوفهٔ. و أخرج عبد بن حمید، و ابن أبی حاتم، و ابن مردویه، و البیهقی، و ابن عساکر، قال السیوطی بسند ضعیف عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم حتّی دخل بعض حیطان المدینهٔ فجعل یلتقط التّمر و یأکل، فقال لی: مالک لا تأکل؟ قلت: لا أشتهیه یا رسول اللّه، قال: لکنّی أشتهیه و هذه صبح رابعهٔ منذ لم أذق طعاما و لم أجده، و لو شئت لدعوت ربّی فأعطانی مثل ملک کسری و قیصر، فکیف بک یا ابن عمر إذا بقیت فی قوم یخبئون رزق سنتهم و یضعف الیقین.

قال: فو اللّه ما برحنا و لا رمنا حتی نزلت وَ کَأَیِّنْ مِنْ دَابَّهٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا الآیهٔ، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: إنّ اللّه لم یأمرنی بکنز الدّنیا و لا باتّباع الشّهوات، ألا و إنّی لا أکنز دینارا و لا درهما، و لا أخبأ رزقا لغد». و هذا الحدیث فیه نکارهٔ شدیدهٔ لمخالفته لما کان علیه النبی صلّی اللّه علیه و سلم فقد کان یعطی نساءه قوت العام کما ثبت ذلک فی کتب الحدیث المعتبرهٔ. و فی إسناده أبو العطوف الجوزی، و هو ضعیف. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَهَ لَهِیَ الْحَیَوانُ قال: باقیهٔ. و أخرج ابن أبی الدنیا، و البیهقی فی الشعب عن أبی جعفر قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «یا عجبا کلّ العجب للمصدّق بدار الحیوان، و هو یسعی لدار الغرور» و هو مرسل.

---

(۱). قتال الأعداء.

(۲). الزمر: ۳۰.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۲۴۶

سورهٔ الرّوم

اشارهٔ

قال القرطبی کلها مکیهٔ بلا خلاف و أخرج ابن الضریس، و النحاس، و ابن مردویه، و البیهقی فی الدلائل من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورهٔ الروم بمکهٔ. و أخرج ابن مردویه عن ابن الزبیر مثله. و أخرج عبد الرزاق و أحمد. قال السیوطی بسند حسن عن رجل من الصحابهٔ: أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم صلّی بهم الصبح، فقرأ فیها سورهٔ الروم. و أخرج البزار عن الأغرّ المدنی مثله. و أخرج عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملک بن عمیر أن النبی صلّی اللّه علیه و سلم قرأ فی الفجر یوم الجمعهٔ بسورهٔ الروم. و أخرج ابن أبی شیبهٔ فی المصنف، و أحمد، و ابن قانع من طریق عبد الملک بن عمیر مثل حدیث الرجل الذی من الصحابهٔ، و زاد: یتردّد فیها، فلما انصرف قال: «إنما یلبس علینا فی صلاتنا قوم یحضرون الصلاهٔ بغیر طهور، من شهد الصلاهٔ فلیحسن الطهور».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة الروم (۳۰): الآيات ۱ الى ۱۰]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (۱) غُلِبَتِ الرُّومُ (۲) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (۳) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (۴)

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۵) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۶) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (۷) أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (۸) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۹)

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (۱۰)

قد تقدّم الكلام على فاتحة هذه السورة فى فاتحة سورة البقرة، و تقدّم الكلام على محلها من الإعراب، و محل أمثالها فى غير موضع من فواتح السور، قرأ الجمهور غُلِبَتِ الرُّومُ بضم الغين المعجمة و كسر اللام مبنيا للمفعول، و قرأ علىّ بن أبى طالب، و أبو سعيد الخدرى، و معاوية بن قرّة و ابن عمر، و أهل الشام بفتح الغين و اللام مبنيا للفاعل. قال النحاس: قراءة أكثر الناس غُلِبَتِ بضم الغين و كسر اللام. قال أهل التفسير:

غلبت فارس الروم ففرح بذلك كفار مكة و قالوا: الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب، و افتخروا على المسلمين و قالوا: نحن أيضا نغلبكم كما غلبت فارس الروم، و كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب. و معنى فِي أَدْنَى الْأَرْضِ فى أقرب أرضهم من أرض العرب، أو فى أقرب

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۲۴۷

أرض العرب منهم، قيل: هى أرض الجزيرة، و قيل: أذرعات، و قيل: كسكر، و قيل: الأردن، و قيل:

فلسطين، و هذه المواضع هى أقرب إلى بلاد العرب من غيرها، و إنما حملت الأرض على أرض العرب لأنها المعهود فى ألسنتهم إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب، و قيل إن الألف و اللام عوض عن المضاف إليه، و التقدير: فى أدنى أرضهم، فيعود الضمير إلى الروم، و يكون المعنى: فى أقرب أرض الروم من العرب.

قال ابن عطية: إن كانت الوقعة بأذرعات، فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، و إن كانت الوقعة بالجزيرة، فهى أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، و إن كانت بالأردن، فهى أدنى إلى أرض الروم وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ أى: و الروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون أهل فارس، و التغلب و الغلبة لغتان، و المصدر مضاف إلى المفعول على قراءة الجمهور، و إلى الفاعل على قراءة غيرهم. قرأ الجمهور «سيغلبون» مبنيا للفاعل و قرأ على، و أبو سعيد، و معاوية بن قرّة، و ابن عمر، و أهل الشام على البناء للمفعول، و سيأتى فى آخر البحث ما يقوّى قراءة الجمهور فى الموضعين. و قرأ أبو حيوة الشامى و ابن السميقع «من بعد غلبهم» بسكون اللام فِي بِضْعِ سِنِينَ متعلق بما قبله، و قد تقدّم تفسير البضع و اشتقاقه فى سورة يوسف، و المراد به هنا:

ما بين الثلاثة إلى العشرة لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ أى: هو المنفرد بالقدرة، و إنفاذ الأحكام وقت مغلوبيتهم، و وقت غالبيتهم، فكلّ ذلك بأمر اللّه سبحانه و قضائه، قرأ الجمهور «من قبل و من بعد» بضمهما لكونهما مقطوعين عن الإضافة، و التقدير: من قبل الغلب و من بعده، أو من قبل كلّ أمر، و من بعده.

و حكى الكسائى من قبل و من بعد بكسر الأوّل منوّنا و ضم الثانى بلا تنوين. و حكى الفراء من قبل و من بعد بكسرهما من غير تنوين، و غلطه النحاس. قال شهاب الدين: قد قرئ بكسرهما منوّنين. قال الزجاج:

و معنى الآية: من متقدّم و من متأخر وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ أى: يوم أن تغلب الروم على فارس فى بضع سنين؛ يفرح المؤمنون بنصر اللّه للروم لكونهم: أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب، بخلاف فارس؛ فإنه لا كتاب لهم، و لهذا سرّ المشركون بنصرهم على الروم، و قيل: نصر اللّه هو إظهار صدق المؤمنين، فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس، و الأوّل أولى. قال الزجاج: و هذه الآية من الآيات التى تدل على أن القرآن من عند اللّه لأنه إنباء بما سيكون، و هذا لا يعلمه إلا اللّه سبحانه يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ أن ينصره وَ هُوَ الْعَزِيزُ الغالب القاهر الرَّحِيمُ الكثير الرحمة لعباده المؤمنين، و قيل:

المراد بالرحمة هنا: الدنيوية، و هى شاملة للمسلم و الكافر وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ أى: وعد اللّه وعدا لا يخلفه، و هو ظهور الروم على فارس وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أنّ اللّه لا يخلف وعده، و هم الكفار، و قيل: كفار مكة على الخصوص يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا أى: يعلمون ظاهر ما يشاهدونه من زخارف الدنيا و ملاذها، و أمر معاشهم، و أسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية، و قيل: هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع، و قيل: الظاهر الباطل وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ التى هى النعمة الدائمة، و اللذة الخالصة هُمْ غافِلُونَ لا يلتفتون إليها، و لا يعدون لها ما يحتاج إليه، أو غافلون عن الإيمان بها، و التصديق بمجيئها أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما

فتح القدير، ج‏4، ص: 248

الهمزة للإنكار عليهم و الواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره، و فى أنفسهم ظرف للتفكر، و ليس مفعولا للتفكر و المعنى: أن أسباب التفكر حاصلة لهم، و هى أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغى، لعلموا وحدانية اللّه، و صدق أنبيائه، و قيل: إنها مفعول للتفكر. و المعنى: أو لم يتفكروا فى خلق اللّه إياهم و لم يكونوا شيئا، و «ما» فى «ما خلق اللّه» نافية، أى: لم يخلقها إلا بالحق الثابت الذى يحق ثبوته أو هى اسم فى محل نصب على إسقاط الخافض، أى: بما خلق اللّه، و العامل: إما العلم الذى يؤدى إليه التفكّر و قال الزجاج فى الكلام حذف: أى فيعلموا، فجعل ما معمولة للفعل المقدّر لا للعلم المدلول عليه، و الباء فى إِلَّا بِالْحَقِ إما للسببية، أو هى و مجرورها: فى محل نصب على الحال، أى: ملتبسة بالحق. قال الفراء: معناه إلا للحق، أى:

للثواب و العقاب، و قيل: بالحق بالعدل، و قيل: بالحكمة، و قيل: بالحق، أى: أنه هو الحق و للحق خلقها وَ أَجَلٍ مُسَمًّى معطوف على الحق، أى: و بأجل مسمى للسموات و الأرض و ما بينهما تنتهى إليه، و هو يوم القيامة، و فى هذا تنبيه على الفناء، و أن لكل مخلوق أجلا لا يجاوزه. و قيل معنى: وَ أَجَلٍ مُسَمًّى أنه خلق ما خلق فى وقت سماه لخلق ذلك الشى‏ء وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ أى: لكافرون بالبعث بعد الموت، و اللام هى المؤكدة، و المراد بهؤلاء الكفار على الإطلاق، أو كفار مكة أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ الاستفهام للتقريع و التوبيخ، لعدم تفكرهم فى الآثار، و تأملهم لمواقع الاعتبار، و الفاء فى فَيَنْظُرُوا للعطف على يسيروا داخل تحت ما تضمنه الاستفهام من التقريع و التوبيخ، و المعنى: أنهم قد ساروا و شاهدوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من طوائف الكفار الذين أهلكهم اللّه بسبب كفرهم باللّه، و جحودهم للحق، و تكذيبهم للرسل، و جملة كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً مبينة للكيفية التى كانوا عليها، و أنهم أقدر من كفار مكة، و من تابعهم على الأمور الدنيوية، و معنى وَ أَثارُوا الْأَرْضَ حرثوها و قلبوها للزراعة، و زاولوا أسباب ذلك، و لم يكن أهل مكة أهل حرث وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها أى:

عمروها عمارة أكثر مما عمرها هؤلاء، لأن أولئك كانوا أطول منهم أعمارا، و أقوى أجساما، و أكثر تحصيلا لأسباب المعاش. فعمروا الأرض بالأبنية، و الزراعة، و الغرس وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى:

المعجزات، و قيل: بالأحكام الشرعية فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ بتعذيبهم على غير ذنب وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بالكفر، و

التكذيب ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا أى: عملوا السيئات من الشرك و المعاصى السُّواى هى فعلى من السوء تأنيث الأسوأ، و هو: الأقبح، أى: كان عاقبتهم العقوبة التى هى أسوأ العقوبات، و قيل: هى اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة، و يجوز أن تكون مصدرا كالبشرى، و الذكرى. وصفت به العقوبة مبالغة. قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو «عاقبة» بالرفع، على أنها اسم كان، و تذكير الفعل لكون تأنيثها مجازيا، و الخبر: السوأى، أى: الفعلة؛ أو الخصلة؛ أو العقوبة السّوأى، أو الخبر أَنْ كَذَّبُوا أى: كان آخر أمرهم التكذيب، و قرأ الباقون: «عاقبة» بالنصب على خبر كان، و الاسم السّوأى، أو أن كذبوا، و يكون التقدير: ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساؤوا، و السوأى مصدر أساؤوا، أو صفة لمحذوف. و قال الكسائى: إن قوله: أَنْ كَذَّبُوا فى محل نصب على العلة، أى: لأن

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴۹

كذبوا بآيات اللّه التى أنزلها على رسله، أو بأن كذبوا، و من القائلين بأن السوأى جهنم: الفراء، و الزجاج، و ابن قتيبة، و أكثر المفسرين، و سميت سوأى: لكونها تسوء صاحبها. قال الزجاج: المعنى: ثم كان عاقبة الذين أشركوا النار بتكذيبهم آيات اللّه و استهزائهم، و جملة وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ عطف على كذبوا داخلة معه فى حكم العلية على أحد القولين، أو فى حكم الاسمية لكان، أو الخبرية لها على القول الآخر.

و قد أخرج أحمد، و الترمذى و حسنه، و النسائى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الكبير، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، و الضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله: الم غُلِبَتِ الرُّومُ قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنهم كانوا أصحاب أوثان، و كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أصحاب كتاب، فذكروه لأبى بكر، فذكره أبو بكر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أما إنّهم سيغلبون» فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا و بينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا و كذا، و إن ظهرتم كان لكم كذا و كذا، فجعل بينهم أجلا خمس سنين فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال: ألا جعلته- أراه قال- دون العشر، فظهرت الروم بعد ذلك، فذلك قوله: الم غُلِبَتِ الرُّومُ فغلبت، ثم غلبت بعد بقول اللّه لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. و أخرج أبو يعلى، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن البراء بن عازب نحوه. و زاد أنه لما مضى الأجل، و لم تغلب الروم فارسا، ساء النبىّ ما جعله أبو بكر من المدّة، و كرهه و قال: «ما دعاك إلى هذا؟» قال: تصديقا للّه، و لرسوله فقال: «تعرّض لهم و أعظم الخطة و اجعله إلى بضع سنين»، فأتاهم أبو بكر فقال: هل لكم فى العود فإن العود أحمد؟ قالوا نعم، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارسا، و ربطوا خيولهم بالمدائن، و بنوا رومية، فقمر أبو بكر، فجاء به أبو بكر يحمله إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «۱»، فقال: «هذا السحت، تصدّق به». و أخرج الترمذى و صححه، و الدارقطنى فى الأفراد، و الطبرانى، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، و البيهقى فى الشعب، عن نيار بن مكرم الأسلمى قال: لما نزلت الم غُلِبَتِ الرُّومُ الآية كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم، و كان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم و إياهم أهل الكتاب، و فى ذلك يقول اللّه وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ و كانت قريش تحبّ ظهور فارس لأنهم؛ و إياهم ليسوا أهل كتاب، و لا إيمان ببعث، فلما أنزل اللّه هذه الآية؛ خرج أبو بكر يصيح فى نواحى مكة الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ فقال ناس من قريش لأبى بكر: ذلك بيننا و بينكم يزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال بلى، و ذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر، و المشركون، و تواضعوا الرهان، و قالوا لأبى بكر: لم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين؟ فسم بيننا و بينك وسطا ننتهى إليه، قال: فسموا بينهم ستّ سنين، فمضت

(۱). أی: ربح أبو بكر الرهان و أخذ ما راهن عليه، و جاء به إلی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۵۰

فتح القدير ج۴ ۲۹۹

الستّ قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبی بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم، فعاب المسلمون علی أبی بكر تسميته ستّ سنين لأن اللّه قال: فِي بِضْعِ سِنِينَ فأسلم عند ذلک ناس كثير.

و أخرج الترمذی و حسنه، و ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عباس أن النبی صلّی اللّه عليه و سلم قال: لأبی بكر: «ألا احتطت يا أبا بكر، فإنّ البضع ما بين ثلاث إلی تسع». و أخرج البخاری عنه فی تاريخه نحوه. و أخرج الفريابی، و الترمذی و حسنه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و ابن مردويه عن أبی سعيد قال:

لما كان يوم بدر ظهر الروم علی فارس، فأعجب ذلک المؤمنين، فنزلت الم غُلِبَتِ الرُّومُ قرأها بالنصب:

يعنی للغين علی البناء للفاعل إلی قوله: يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ قال: ففرح المؤمنون بظهور الروم علی فارس، و هذه الرواية مفسرة لقراءة أبی سعيد و من معه، و أخرج الحاكم و صححه عن أبی الدرداء قال:

سيجیء أقوام يقرءون الم غُلِبَتِ الرُّومُ يعنی بفتح الغين، و إنما هی غلبت: يعنی بضمها، و فی الباب روايات و ما ذكرناه يغنی عما سواه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا يعنی: معايشهم متی يغرسون، و متی يزرعون، و متی يحصدون. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر فی قوله: كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً قال: كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل.

[سورة الروم (۳۰): الآيات ۱۱ الی ۲۷]

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (۱۲) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَ كانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ (۱۳) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (۱۴) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (۱۵)

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (۱۶) فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ (۱۷) وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ (۱۸) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (۱۹) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (۲۰)

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۲۱) وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (۲۲) وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۲۳) وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۲۴) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (۲۵)

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (۲۶) وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۷)

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۵۱

قوله اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أى: يخلقهم أولا، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء، كما كانوا ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ إلى موقف الحساب، فيجازى المحسن بإحسانه، و المسىء بإساءته، و أفرد الضمير فى يعيده:

باعتبار لفظ الخلق، و جمعه فى ترجعون: باعتبار معناه. قرأ أبو بكر، و أبو عمرو «يرجعون» بالتحتية.

و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، و الالتفات المؤذن بالمبالغة وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ قرأ الجمهور «يبلس» على البناء للفاعل. و قرأ السلمى على البناء للمفعول، يقال أبلس الرجل: إذا سكت، و انقطعت حجته. قال الفراء و الزجاج: المبلس: الساكت المنقطع فى حجته؛ الذى أيس أن يهتدى إليها، و منه قول العجاج:

يا صاح هل تعرف رسما مكرساقال نعم أعرفه و أبلسا «١»

و قال الكلبى: أى يئس المشركون من كلّ خير؛ حين عاينوا العذاب، و قد قدّمنا تفسير الإبلاس عند قوله: فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ «٢» وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ أى: لم يكن للمشركين يوم تقوم الساعة من شركائهم الذين عبدوهم من دون اللّه شفعاء يجيرونهم من عذاب اللّه وَ كانُوا فى ذلك الوقت بِشُرَكائِهِمْ أى: بآلهتهم الذين جعلوهم شركاء اللّه كافِرِينَ أى: جاحدين لكونهم آلهة؛ لأنهم علموا إذ ذاك أنهم لا ينفعون و لا يضرون، و قيل إن معنى الآية: كانوا فى الدنيا كافرين بسبب عبادتهم، و الأوّل أولى وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ أى: يتفرّق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله: اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ المراد بالتفرّق: أن كلّ طائفة تنفرد، فالمؤمنون يصيرون إلى الجنة، و الكافرون إلى النار، و ليس المراد:

تفرّق كلّ فرد منهم عن الآخر، و مثله قوله تعالى: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ «٣» و ذلك بعد تمام الحساب، فلا يجتمعون أبدا. ثم بين سبحانه كيفية تفرّقهم فقال: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ قال النحاس: سمعت الزجاج يقول معنى «أما» دع ما كنا فيه و خذ فى غيره، و كذا قال سيبويه: إن معناها مهما يكن من شىء فخذ فى غير ما كنا فيه، و الروضة: كل أرض ذات نبات، قال المفسرون: و المراد بها هاهنا: الجنة، و معنى يحبرون: يسرون، و الحبور و الحبرة: السرور، أى: فهم فى رياض الجنة ينعمون. قال أبو عبيد: الروضة: ما كان فى سفل، فإذا كان مرتفعا: فهو ترعة.

و قال غيره: أحسن ما تكون الروضة إذا كانت فى مكان مرتفع، و منه قول الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبةخضراء جاد عليها مسبل هطل

و قيل: معنى «يحبرون» يكرمون. قال النحاس: حكى الكسائى حبرته: أى أكرمته و نعمته، و الأولى تفسير يحبرون: بالسرور كما هو المعنى العربىّ، و نفس دخول الجنة يستلزم الإكرام و النعيم، و فى السرور زيادة على ذلك. و قيل: التحبير التحسين فمعنى يحبرون: يحسن إليهم، و قيل: هو السماع الذى يسمعونه

(١). المكرس: الذى قد بعّرت فيه الإبل و بوّلت، فركب بعضه بعضا.

(٢). الأنعام: ۴۴.

(٣). الشورى: ٧.

فى الجنة، و قيل: غير ذلك، و الوجه ما ذكرناه وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا باللّه وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كذّبوا ب لِقاءِ الْآخِرَةِ أى: البعث، و الجنة، و النار، و الإشارة بقوله: فَأُولئِكَ إلى المتصفين بهذه الصفات، و هو: مبتدأ، و خبره: فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ أى: مقيمون فيه، و قيل: مجموعون، و قيل: نازلون، و قيل: معذبون، و المعانى متقاربة، و المراد: دوام عذابهم. ثم لما بين عاقبة طائفة المؤمنين، و طائفة الكافرين، أرشد المؤمنين إلى ما فيه الأجر الوافر، و الخير العام فقال: فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ و الفاء

لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى: فإذا علمتم ذلك؛ فسبحوا اللّه، أى:
نزهوه عما لا يليق به فى وقت الصباح، و المساء، و فى العشى، و فى وقت الظهيرة. و قيل: المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس، فقوله «حين تمسون» صلاة المغرب و العشاء، و قوله: «و حين تصبحون» صلاة الفجر، و قوله: «و عشيا» صلاة العصر، و قوله: «و حين تظهرون» صلاة الظهر، كذا قال الضحاك، و سعيد بن جبير، و غيرهما، قال الواحدى قال المفسرون: إن معنى «فسبحان اللّه» فصلوا للّه. قال النحاس:
أهل التفسير على أن هذه الآية فى الصلوات قال: و سمعت محمّد بن يزيد يقول: حقيقته عندى: فسبحوا اللّه فى الصلوات، لأن التسبيح يكون فى الصلاة، و جملة وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد، و الإيذان بمشروعية الجمع بينه و بين التسبيح، كما فى قوله سبحانه:
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ* «۱» و قوله: وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ «۲» و قيل: معنى و له الحمد: أى الاختصاص له بالصلاة التى يقرأ فيها الحمد، و قرأ عكرمة «حينا تمسون و حينا تصبحون» و المعنى: حينا تمسون فيه، و حينا تصبحون فيه، و العشىّ: من صلاة المغرب إلى العتمة. قال الجوهرى، و قال قوم: هو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، و منه قول الشاعر:
غدونا غدوة سحرا بليل عشيّا بعد ما انتصف النّهار
و قوله: عَشِيًّا معطوف على حين، و فى السماوات متعلق بنفس الحمد؛ أى: الحمد به يكون فى السماوات و الأرض يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ كالإنسان من النطفة، و الطير من البيضة وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ كالنطفة، و البيضة من الحيوان. و قد سبق بيان هذا فى سورة آل عمران. قيل: و وجه تعلق هذه الآية بالتى قبلها؛ أن الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت، و هو النوم إلى شبه الوجود، و هو اليقظة، و عند العشاء يخرج من اليقظة إلى النوم وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها أى يحييها بالنبات بعد موتها باليباس، و هو شبيه بإخراج الحىّ من الميت وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ أى: و مثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم.
قرأ الجمهور «تخرجون» على البناء للمفعول. و قرأ حمزة و الكسائى على البناء للفاعل، فأسند الخروج إليهم كقوله: يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ «۳» وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ أى: من آياته الباهرة الدالة على البعث أن خلقكم، أى: خلق أباكم آدم من تراب، و خلقكم فى ضمن خلقه، لأن الفرع مستمد من

---

(۱). الحجر: ۹۸.

(۲). البقرة: ۳۰.

(۳). المعارج: ۴۳.

الأصل و مأخوذ منه، و قد مضى تفسير هذا فى الأنعام، و إن: فى موضع رفع بالابتداء، و من آياته: خبره ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ إذا: هى الفجائية، أى: ثم فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشرا تنتشرون فى الأرض، و إذا الفجائية: و إن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء، لكنها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة، و هى أطوار الإنسان كما حكاه اللّه فى مواضع، من كونه نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظما مكسوّا لحما، فاجأ بالبشرية و الانتشار، و معنى تنتشرون: تنصرفون فيما هو قوام معايشكم وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً أى: و من علاماته و دلالاته الدالة على البعث: أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا، أى: من جنسكم فى البشرية، و الإنسانية، و قيل: المراد حوّاء، فإنه خلقها من ضلع آدم لِتَسْكُنُوا إِلَيْها أى: تألفوها، و تميلوا إليها، فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر، و لا يميل قلبه إليه وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً أى: ودادا و تراحما بسبب

عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض؛ من غير أن يكون بينكم قبل ذلك معرفة؛ فضلا عن مودّة و رحمة. و قال مجاهد: المودّة: الجماع، و الرحمة: الولد، و به قال الحسن. و قال السدّى: المودّة: المحبة، و الرحمة: الشفقة. و قيل: المودّة حبّ الرجل امرأته، و الرحمة: رحمته إياها من أن يصيبها بسوء. و قوله «أن خلق لكم»: فى موضع رفع على الابتداء، و من آياته: خبره إِنَّ فِي ذٰلِكَ المذكور سابقا. لَآياتٍ عظيمة الشأن؛ بديعة البيان؛ واضحة الدلالة على قدرته سبحانه على البعث، و النشور لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال؛ لكون التفكر مادّة له يتحصل عنه، و أما الغافلون عن التفكر؛ فما هم إلا كالأنعام وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة التى هى أجرام السموات و الأرض، و جعلها باقية ما دامت هذه الدار، و خلق فيها من عجائب الصنع، و غرائب التكوين ما هو عبرة للمعتبرين؛ قادر على أن يخلقكم بعد موتكم، و ينشركم من قبوركم وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ أى: لغاتكم: من عرب، و عجم، و ترك، و روم، و غير ذلك من اللغات وَ أَلْوانِكُمْ من البياض، و السواد، و الحمرة، و الصفرة، و الزرقة، و الخضرة، مع كونكم أولاد رجل واحد، و أم واحدة، و يجمعكم نوع واحد، و هو: الإنسانية، و فصل واحد، و هو: الناطقية، حتى صرتم متميزين فى ذات بينكم، لا يلتبس هذا بهذا، بل فى كلّ فرد من أفرادكم؛ ما يميزه عن غيره من الأفراد، و فى هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون، و لا يفهمه إلا المتفكرون إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ الذين هم من جنس هذا العالم، من غير فرق بين برّ و فاجر، قرأ الجمهور بفتح لام العالمين. و قرأ حفص وحده بكسرها. قال الفراء: و له وجه جيد لأنه قد قال: لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ «۱» وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ «۲». وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: و من آياته منامكم بالليل، و ابتغاؤكم من فضله بالنهار. و قيل: المعنى صحيح من دون تقديم و تأخير، أى: و من آياته العظيمة؛ أنكم تنامون بالليل، و تنامون فى بعض الأحوال للاستراحة كوقت القيلولة، و ابتغاؤكم من فضله فيهما، فإن

---

(۱). آل عمران: ۱۹۰.

(۲). العنكبوت: ۴۳.

كل واحد منهما يقع فيه ذلك، و إن كان ابتغاء الفضل فى النهار: أكثر. و الأوّل: هو المناسب لسائر الآيات الواردة فى هذا المعنى، و الآخر: هو المناسب للنظم القرآنى هاهنا. و وجه ذكر النوم، و الابتغاء هاهنا، و جعلهما من جملة الأدلة على البعث أن النوم شبيه بالموت، و التصرّف فى الحاجات، و السعى فى المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ أى: يسمعون الآيات و المواعظ، سماع متفكّر متدبر، فيستدلون بذلك على البعث وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً المعنى: أن يريكم، فحذف أن لدلالة الكلام عليه كما قال طرفة:

ألا أيهذا اللّائمى أحضر الوغىو أن أشهد اللّذات هل أنت مخلدى

و التقدير: أن أحضر، فلما حذف الحرف فى الآية، و البيت؛ بطل عمله، و منه المثل المشهور «تسمع بالمعيدى خير من أن تراه» و قيل هو على التقديم و التأخير، أى: و يريكم البرق من آياته، فيكون: من عطف جملة فعلية على جملة اسمية، و يجوز أن يكون: «يريكم» صفة لموصوف محذوف، أى: من آياته آية يريكم بها و فيها البرق، و قيل التقدير: و من آياته يريكم البرق خوفا و طمعا من آياته. قال الزجاج: فيكون من عطف جملة على جملة. قال قتادة: خوفا للمسافر، و طمعا للمقيم، و قال الضحاك: خوفا من الصواعق، و طمعا فى الغيث. و قال يحيى بن سلام: خوفا من البرد أن يهلك الزرع، و طمعا فى المطر أن يحيى الزرع. و قال ابن بحر: خوفا أن يكون البرق برقا خلبا لا يمطر، و طمعا أن يكون ممطرا، و أنشد:

لا يكن برقك برقا خلّباإنّ خير البرق ما الغيث معه

و انتصاب خوفا و طمعا على العلة وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها أى: يحييها بالنبات بعد موتها باليباس إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ فإن من له نصيب من العقل يعلم أن ذلك آية يستدلّ بها على القدرة الباهرة وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ أى: قيامهما و استمساكهما بإرادته سبحانه، و قدرته بلا عمد يعمدهما، و لا مستقرّ يستقران عليه. قال الفراء: يقول أن تدوما قائمتين بأمره ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ أى: ثم بعد موتكم و مصيركم فى القبور؛ إذا دعاكم دعوة واحدة؛ فاجأتم الخروج منها بسرعة من غير تلبث، و لا توقف، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعى المطاع. و من الأرض: متعلق بدعاء، أى: دعاكم من الأرض التى أنتم فيها، كما يقال دعوته من أسفل الوادى فطلع إلىّ، أو متعلق بمحذوف هو صفة لدعوة، أو متعلق بمحذوف يدلّ عليه تخرجون، أى: خرجتم من الأرض، و لا يجوز أن يتعلق بتخرجون، لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها، و هذه الدعوة هى: نفخة إسرافيل الآخرة فى الصور على ما تقدّم بيانه، و قد أجمع القراء على فتح التاء فى «تخرجون» هنا، و غلط من قال إنه قرئ هنا بضمها على البناء للمفعول، و إنما قرئ بضمها فى الأعراف وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ من جميع المخلوقات ملكا و تصرّفا و خلقا، ليس لغيره فى ذلك شىء كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ أى:

مطيعون طاعة انقياد، و قيل: مقرّون بالعبودية، و قيل: مصلون، و قيل: قائمون يوم القيامة كقوله:

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ «1»: أى للحساب، و قيل: بالشهادة أنهم عباده، و قيل: مخلصون وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ بعد الموت فيحييه الحياة الدائمة وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ أى: هين عليه لا يستصعبه، أو أهون عليه بالنسبة إلى قدرتكم، و على ما يقوله بعضكم لبعض، و إلا فلا شىء فى قدرته بعضه أهون من بعض، بل كلّ الأشياء مستوية يوجدها بقوله: كن فتكون. قال أبو عبيد: من جعل أهون عبارة عن تفضيل شىء على شىء فقوله مردود بقوله: وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً* «2» و بقوله: وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما «3» و العرب تحمل أفعل على فاعل كثيرا كما فى قول الفرزدق:

إنّ الذى سمك السّماء بنى لنابيتا دعائمه أعزّ و أطول

أى: عزيزة طويلة؛ و أنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك:

تمنّى رجال أن أموت و إن أمتفتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى: لست بواحد، و مثله قول الآخر:

لعمرك إن الزّبرقان لباذللمعروفه عند السنين و أفضل

أى: و فاضل، و قرأ عبد اللّه بن مسعود «و هو عليه هين» و قال مجاهد و عكرمة و الضحاك: إن الإعادة أهون عليه، أى: على اللّه من البداية، أى: أيسر و إن كان جميعه هينا. و قيل: المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداية، و قيل: الضمير فى عليه للخلق، أى: و هو أهون على الخلق لأنه يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون، و يقال لهم: كونوا فيكونون، فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى آخر النشأة وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى‏ قال الخليل: المثل: الصفة، أى: و له الوصف الأعلى فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كما قال: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ* «4» أى: صفتها. و قال مجاهد: المثل الأعلى: قول لا إله إلا اللّه، و به قال قتادة، و قال الزجاج وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى‏ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: قوله «و هو أهون عليه» قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب و يسهل. و قيل المثل الأعلى: هو أنه ليس كمثله شىء، و قيل:

هو أن ما أراده كان بقول كن، و فى السموات و الأرض: متعلق بمضمون الجملة المتقدّمة. و المعنى: أنه سبحانه عرف بالمثل الأعلى، و وصف به فى السموات و الأرض، و يجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الأعلى، أو من المثل، أو من الضمير

فى الأعلى وَ هُوَ الْعَزِيزُ فى ملكه القادر الذى لا يغالب الْحَكِيمُ فى أقواله، و أفعاله.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُبْلِسُ قال: ييتئس. و أخرج الفريابى، و ابن جرير، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم يُبْلِسُ قال: يكتئب، و عنه الإبلاس: الفضيحة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: يُحْبَرُونَ قال: يكرمون. و أخرج الديلمى عن جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «إذا كان يوم القيامة قال اللّه: أين الذين كانوا ينزّهون أسماعهم، و أبصارهم عن مزامير الشيطان

---

(١). المطففين: ۶.

(٢). النساء: ١۶٩.

(٣). البقرة: ٢۵۵.

(۴). الرعد: ٣۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢۵۶

ميزوهم، فيميزون فى كثب المسك و العنبر؛ ثم يقول للملائكة: أسمعوهم من تسبيحى و تحميدى و تهليلى، قال: فيسبّحون بأصوات لم يسمع السّامعون بمثلها قطّ». و أخرج الدينورى فى المجالسة عن مجاهد قال:

ينادى مناد يوم القيامة فذكر نحوه، و لم يسمّ من رواه له عن رسول اللّه. و أخرج ابن أبى الدنيا فى ذمّ الملاهى، و الأصبهانى فى الترغيب عن محمّد بن المنكدر نحوه. و أخرج ابن أبى الدنيا، و الضياء المقدسى، كلاهما فى صفة الجنة، قال السيوطى بسند صحيح عن ابن عباس قال: «فى الجنة شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب المجدّ فى ظلها مائة عام، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف و غيرهم، فيتحدّثون فى ظلها، فيشتهى بعضهم، و يذكر لهو الدنيا، فيرسل اللّه ريحا من الجنة فتحرّك تلك الشجرة بكل لهو كان فى الدنيا». و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج الفريابى، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة». و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه عن أبى رزين قال: جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال: هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن؟ قال: نعم، فقرأ فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ صلاة المغرب وَ حِينَ تُصْبِحُونَ صلاة الصبح وَ عَشِيًّا صلاة العصر وَ حِينَ تُظْهِرُونَ صلاة الظهر، و قرأ وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ «١». و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر عنه قال: جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة، فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ قال: المغرب و العشاء وَ حِينَ تُصْبِحُونَ الفجر وَ عَشِيًّا العصر وَ حِينَ تُظْهِرُونَ الظهر. و أخرج أحمد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن السنى فى عمل يوم و ليلة، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدعوات عن معاذ بن أنس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «ألا أخبركم لم سمّى اللّه إبراهيم خليله الذى وفّى؟ لأنه كان يقول كلّما أصبح و أمسى: فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ و فى إسناده ابن لهيعة.

و أخرج أبو داود، و الطبرانى، و ابن السنى، و ابن مردويه عن ابن عباس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من قال حين يصبح: فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ أدرك ما فاته فى يومه، و من قالها حين يمسى: أدرك ما فاته فى ليلته» و إسناده ضعيف. و أخرج ابن جرير، عن ابن عباس فى قوله: كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ يقول مطيعون: يعنى الحياة و النشور و الموت و هم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس

فی قوله: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ قال: أيسر. و أخرج ابن الأنباری عنه أيضا فی قوله: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ قال: الإعادة أهون على المخلوق، لأنه يقول له يوم القيامة كن فيكون، و ابتدأ الخلقة من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عنه أيضا فی قوله: وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى ليس كمثله شیء.

---

(١). النور: ٥٨.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٢٥٧

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٢٨ الى ٣٧]

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِی ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِی مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِی ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)

قوله: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا قد تقدّم تحقيق معنى المثل، و من فی مِنْ أَنْفُسِكُمْ لابتداء الغاية، و هی و مجرورها: فی محلّ نصب صفة لمثلا، أی: مثلا منتزعا و مأخوذا من أنفسكم، فإنها أقرب شیء منكم، و أبين من غيرها عندكم، فإذا ضرب لكم المثل بها فی بطلان الشرك كان أظهر دلالة، و أعظم وضوحا. ثم بين المثل المذكور فقال: هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِی ما رَزَقْناكُمْ «من» فی «مما ملكت»: للتبعيض، و فی «من شركاء»: زائدة للتأكيد، و المعنى هل لكم شركاء فيما رزقناكم؛ كائنون من النوع الذی ملكت أيمانكم، و هم: العبيد، و الإماء، و الاستفهام للإنكار، و جملة: فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ جواب للاستفهام الذی بمعنى النفی، و محققة لمعنى الشركة بينهم، و بين العبيد، و الإماء المملوكين لهم فی أموالهم، أی: هل ترضون لأنفسكم، و الحال أن عبيدكم و إماءكم، و أمثالكم فی البشرية أن يساووكم فی التصرّف بما رزقناكم من الأموال، و يشاركوكم فيها من غير فرق بينكم و بينهم تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ الكاف نعت مصدر محذوف، أی: تخافونهم خيفة كخيفتكم أنفسكم، أی: كما تخافون الأحرار المشابهين لكم فی الحرية، و ملك الأموال، و جواز التصرف، و المقصود نفی الأشياء الثلاثة: الشركة بينهم و بين المملوكين، و الاستواء معهم، و خوفهم إيّاهم. و ليس المراد: ثبوت الشركة، و نفی الاستواء، و الخوف كما قيل فی قولهم: ما تأتينا فتحدّثنا. و المراد: إقامة الحجة على المشركين، فإنهم لا بدّ أن يقولوا لا نرضى بذلك، فيقال لهم:

فكيف تنزّهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم و هم أمثالكم فی البشرية، و تجعلون عبيد اللّه شركاء له؟

فإذا بطلت الشركة بين العبيد، و ساداتهم، فيما يملكه السادة بطلت الشركة بين اللّه و بين أحد من خلقه، و الخلق كلهم عبيد اللّه تعالى، و لم يبق إلا أنه الربّ وحده لا شريك له. و قرأ الجمهور «أنفسكم» بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله، و قرأ ابن أبی عبلة بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۲۵۸

كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ تفصيلا واضحا، و بيانا جليا لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية، و التكوينية باستعمال عقولهم، فى تدبرها و التفكر فيها. ثم أضرب سبحانه على مخاطبة المشركين، و إرشادهم إلى الحق بما ضربه لهم من المثل فقال: بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أى: لم يعقلوا الآيات بل اتبعوا أهواءهم الزائغة، و آراءهم الفاسدة الزائفة، و محل «بغير علم»: النصب على الحال، أى: جاهلين بأنهم على ضلالة فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ أى: لا أحد يقدر على هدايته، لأن الرشاد و الهداية بتقدير اللّه، و إرادته وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ أى: ما لهؤلاء الذين أضلهم اللّه من ناصرين ينصرونهم، و يحولون بينهم و بين عذاب اللّه سبحانه. ثم أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بتوحيده و عبادته كما أمره فقال: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً شبه الإقبال على الدين بتقويم وجهه إليه و إقباله عليه، و انتصاب حنيفا: على الحال من فاعل أقم؛ أو من مفعوله: أى: مائلا إليه؛ مستقيما عليه، غير ملتفت إلى غيره من الأديان الباطلة فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها الفطرة فى الأصل: الخلقة، و المراد بها هنا: الملة، و هى: الإسلام و التوحيد. قال الواحدى: هذا قول المفسرين فى فطرة اللّه، و المراد بالناس هنا: الذين فطرهم اللّه على الإسلام، لأن المشرك لم يفطر على الإسلام، و هذا الخطاب؛ و إن كان خاصا برسول اللّه، فأمته داخلة معه فيه. قال القرطبى باتفاق من أهل التأويل: و الأولى: حمل أناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم، و كافرهم، و أنهم جميعا مفطورون على ذلك لو لا عوارض تعرض لهم، فيبقون بسببها على الكفر كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى الصحيح قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «ما من مولود إلّا يولد على الفطرة». و فى رواية: «على هذه الملّة، و لكنّ أبواه يهوّدانه و ينصّرانه و يمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: و اقرءوا إن شئتم فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ و فى رواية «حتّى تكونوا أنتم تجدعونها». و سيأتى فى آخر البحث ما ورد معاضدا لحديث أبى هريرة هذا، فكل فرد من أفراد الناس مفطور: أى مخلوق على ملة الإسلام، و لكن لا اعتبار بالإيمان و الإسلام الفطريين، و إنما يعتبر الإيمان و الإسلام الشرعيان، و هذا قول جماعة من الصحابة، و من بعدهم، و قول جماعة من المفسرين؛ و هو الحق. و القول بأن المراد بالفطرة هنا: الإسلام هو مذهب جمهور السلف. و قال آخرون:

هى البداءة التى ابتدأهم اللّه عليها، فإن ابتدأهم للحياة و الموت، و السعادة و الشقاوة. و الفاطر فى كلام العرب هو المبتدئ، و هذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة، و إهمال معناها شرعا. و المعنى الشرعيّ؛ مقدّم على المعنى اللغوى؛ باتفاق أهل الشرع، و لا ينافى ذلك ورود الفطرة فى الكتاب، أو السنة فى بعض المواضع مرادا بها المعنى اللغوى كقوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ «۱» أى: خالقهما و مبتديهما، و كقوله: وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي «۲» إذ لا نزاع فى أن المعنى اللغوى هو هذا، و لكن النزاع فى المعنى الشرعى للفطرة، و هو ما ذكره الأوّلون كما بيناه، و انتصاب فطرة على أنها مصدر مؤكد للجملة التى قبلها.

و قال الزجاج: فطرة منصوب بمعنى: اتبع فطرة اللّه، قال: لأن معنى فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ اتبع

---

(۱). فاطر: ۱.

(۲). يس: ۲۲.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۲۵۹

الدين، و اتبع فطرة اللّه. و قال ابن جرير: هى مصدر من معنى «فأقم وجهك» لأن معنى ذلك: فطرة اللّه الناس على الدين، و قيل: هى منصوبة على الإغراء، أى: الزموا فطرة اللّه، أو عليكم فطرة اللّه، و ردّ هذا الوجه أبو حيان و قال: إن كلمة الإغراء لا تضمر؛ إذ

هی عوض عن الفعل، فلو حذفها لزم حذف العوض، و المعوّض عنه، و هو إجحاف. و أجیب بأن هذا رأی البصریین، و أما الکسائی و أتباعه، فیجیزون ذلک. و جملة لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ تعلیل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة، أی: هذه الفطرة التی فطر اللّه الناس علیها لا تبدیل لها من جهة الخالق سبحانه. و قیل: هو نفی معناه النهی، أی: لا تبدّلوا خلق اللّه.

قال مجاهد و إبراهیم النخعی: معناه لا تبدیل لدین اللّه. قال قتادة، و ابن جبیر، و الضحاک، و ابن زید: هذا فی المعتقدات. و قال عکرمة: إن المعنی لا تغییر لخلق اللّه فی البهائم؛ بأن تخصی فحولها ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ أی: ذلک الدین المأمور بإقامة الوجه له هو الدین القیم، أو لزوم الفطرة: هو الدین القیم وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ذلک حتی یفعلوه و یعملوا به مُنِيبِينَ إِلَيْهِ أی: راجعین إلیه بالتوبة، و الإخلاص، و مطیعین له فی أوامره، و نواهیه. و منه قول أبی قیس بن الأسلت:

فإن تابوا فإنّ بنی سلیمو قومهم هوازن قد أنابوا

قال الجوهری: أناب إلی اللّه: أقبل و تاب، و انتصابه علی الحال من فاعل أقم. قال المبرد: لأن معنی أقم وجهک: أقیموا وجوهکم. قال الفراء: المعنی فأقم وجهک، و من معک منیبین، و کذا قال الزجاج و قال تقدیره: فأقم وجهک، و أمتک، فالحال من الجمیع. و جاز حذف المعطوف لدلالة منیبین علیه. و قیل:

هو منصوب علی القطع، و قیل: علی أنه خبر لکان محذوفة، أی: و کونوا منیبین إلیه لدلالة وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ علی ذلک. ثم أمرهم سبحانه بالتقوی بعد أمرهم بالإنابة، فقال: وَ اتَّقُوهُ أی: باجتناب معاصیه، و هو معطوف علی الفعل المقدر ناصبا لمنیبین وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ التی أمرتم بها وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ باللّه. و قوله: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً هو بدل مما قبله بإعادة الجار، و الشیع: الفرق، أی: لا تکونوا من الذین تفرقوا فرقا فی الدین، یشایع بعضهم بعضا من أهل البدع و الأهواء: و قیل المراد بالذین فرقوا دینهم شیعا: الیهود و النصاری. و قرأ حمزة و الکسائی «فارقوا دینهم» و رویت هذه القراءة عن علی بن أبی طالب، أی: فارقوا دینهم الذی یجب اتباعه، و هو التوحید. و قد تقدّم تفسیر هذه الآیة فی آخر سورة الأنعام كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ أی: کل فریق بما لدیهم من الدین المبنی علی غیر الصواب، مسرورون مبتهجون، یظنون أنهم علی الحق، و لیس بأیدیهم منه شیء. و قال الفراء:

یجوز أن یکون قوله: «من الذین فرقوا دینهم و کانوا شیعا» مستأنفا، کما یجوز أن یکون متصلا بما قبله وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ أی: قحط و شدّة دَعَوْا رَبَّهُمْ أن یرفع ذلک عنهم و استغاثوا به مُنِيبِينَ إِلَيْهِ أی: راجعین إلیه ملتجئین به لا یعولون علی غیره، و قیل: مقبلین علیه بکل قلوبهم ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً بإجابة دعائهم، و رفع تلک الشدائد عنهم إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ إذا: هی الفجائیة، وقعت جواب الشرط لأنها کالفاء فی إفادة التعقیب، أی: فاجأ فریق منهم الإشراک، و هم الذین

فتح القدیر، ج۴، ص: ۲۶۰

دعوه فخلصهم مما کانوا فیه. و هذا الکلام مسوق للتعجیب من أحوالهم، و ما صاروا علیه من الاعتراف بوحدانیة اللّه سبحانه عند نزول الشدائد، و الرجوع إلی الشرک عند رفع ذلک عنهم، و اللام فی لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ هی لام کی، و قیل: لام لقصد الوعید و التهدید، و قیل: هی لام العاقبة. ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذین وقع منهم ما وقع فقال: فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ما یتعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الألیم. قرأ الجمهور «فتمتعوا» علی الخطاب. و قرأ أبو العالیة بالتحتیة علی البناء للمفعول، و فی مصحف ابن مسعود «فلیتمتعوا» أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً أم: هی المنقطعة، و الاستفهام: للإنکار، و السلطان:

الحجة الظاهرة فَهُوَ يَتَكَلَّمُ أی: یدل کما فی قوله: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ «۱» قال الفراء:

إن العرب تؤنث السلطان، یقولون: قضت به علیک السلطان. فأما البصریون: فالتذکیر عندهم أفصح، و به جاء القرآن، و التأنیث عندهم جائز؛ لأنه بمعنی الحجة، و قیل: المراد بالسلطان: الملک بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ أی: ینطق بإشراکهم باللّه سبحانه، و یجوز

أن تكون الباء سببية، أى: بالأمر الذى بسببه يشركون وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً أى: خصبا و نعمة، و سعة و عافية فَرِحُوا بِها فرح بطر، و أشر، لا فرح شكر بها و ابتهاج بوصولها إليهم قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ثم قال سبحانه: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ شدة على أى صفة بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ أى: بسبب ذنوبهم إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ القنوط:

الإياس من الرحمة، كذا قال الجمهور. و قال الحسن: القنوط: ترك فرائض اللّه سبحانه. قرأ الجمهور «يقنطون» بضم النون. و قرأ أبو عمرو و الكسائى و يعقوب بكسرها أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ من عباده، و يوسع له وَ يَقْدِرُ أى: يضيق على من يشاء لمصلحة فى التوسيع لمن وسع له، و فى التضييق على من ضيق عليه إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فيستدلون على الحق لدلالتها على كمال القدرة و بديع الصنع و غريب الخلق.

و قد أخرج الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان يلبى أهل الشرك: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه و ما ملك، فأنزل اللّه هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ الآية. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال هى فى الآلهة، و فيه يقول تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ قال: دين اللّه ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ قال: القضاء القيم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و أحمد، و النسائى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن الأسود ابن سريع، أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بعث سريّة إلى خيبر فقاتلوا المشركين، فانتهى القتل إلى الذريّة، فلمّا جاءوا قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «ما حملكم على قتل الذريّة؟ قالوا: يا رسول اللّه! إنّما كانوا أولاد المشركين، قال:

و هل خياركم إلا أولاد المشركين؟ و الذى نفسى بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتّى يعرب عنها لسانها». و أخرج أحمد من حديث جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يعبّر عنه لسانه، فإذا عبّر عنه لسانه إمّا شاكرا و إما كفورا» رواه أحمد عن الربيع بن أنس

---

(۱). الجاثية: ۲۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۱

عن الحسن عن جابر. و قال الإمام أحمد فى المسند: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام حدثنا قتادة عن مطرف عن عياض بن حماد؛ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم خطب يوما فقال فى خطبته حاكيا عن اللّه سبحانه: «و إنّى خلقت عبادى حنفاء كلّهم، و إنّهم أتتهم الشّياطين فأضلّتهم عن دينهم و حرّمت عليهم ما أحللت لهم» الحديث.

[سورة الروم (۳۰): الآيات ۳۸ الى ۴۶]

فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۳۸) وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (۳۹) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۴۰) ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۱) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (۴۲)

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (۴۳) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (۴۴) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (۴۵) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ

مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۴۶)
لما بين سبحانه كيفية التعظيم لأمر اللّه أشار إلى ما ينبغى من مواساة القرابة، و أهل الحاجات ممن بسط اللّه له فى رزقه فقال: فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلم، و أمته أسوته، أو لكل مكلف له مال؛ وسع اللّه به عليه، و قدم الإحسان إلى القرابة؛ لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة، وصلة رحم مرغب فيها، و المراد: الإحسان إليهم بالصدقة، و الصلة، و البر وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ أى: و آت المسكين، و ابن السبيل حقهما الذى يستحقانه. و وجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان، و لكون ذلك واجبا على كلّ من له مال فاضل عن كفايته، و كفاية من يعول.
و قد اختلف فى هذه الآية؛ هل هى محكمة أو منسوخة؟ فقيل: هى منسوخة بآية المواريث. و قيل:
محكمة؛ و للقريب فى مال قريبه الغنىّ حقّ واجب، و به قال مجاهد و قتادة. قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد و رحمه محتاج.
قال مقاتل: حق المسكين: أن يتصدّق عليه، و حق ابن السبيل: الضيافة. و قيل:
المراد بالقربى: قرابة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. قال القرطبى: و الأوّل أصح، فإن حقهم مبين فى كتاب اللّه عزّ و جلّ فى قوله: فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى «۱» و قال الحسن: إن الأمر فى إيتاء ذى القربى للندب ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ أى: ذلك الإيتاء أفضل من الإمساك لمن يريد التقرّب إلى اللّه سبحانه وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى: الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لوجه اللّه امتثالا لأمره وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً قرأ

---

(۱). الأنفال: ۴۱.

الجمهور «آتيتم» بمعنى أعطيتم، و قرأ مجاهد، و حميد، و ابن كثير بالقصر بمعنى ما فعلتم، و أجمعوا على القراءة بالمدّ فى قوله: وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ و أصل الربا: الزيادة، و قراءة القصر تؤول إلى قراءة المدّ، لأن معناها ما فعلتم على وجه الإعطاء، كما تقول: أتيت خطأ و أتيت صوابا؛ و المعنى فى الآية: ما أعطيتم من زيادة خالية عن العوض لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ أى: ليزيد، و يزكو فى أموالهم فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ أى: لا يبارك اللّه فيه. قال السدىّ: الربا فى هذا الموضع: الهدية يهديها الرجل لأخيه يطلب المكافأة، لأن ذلك لا يربو عند اللّه، لا يؤجر عليه صاحبه، و لا إثم عليه، و هكذا قال قتادة و الضحاك. قال الواحدى: و هذا قول جماعة المفسرين. قال الزجاج: يعنى دفع الإنسان الشىء ليعوّض أكثر منه، و ذلك ليس بحرام، و لكنه لا ثواب فيه، لأن الذى يهبه يستدعى به ما هو أكثر منه. و قال الشعبى: معنى الآية أن ما خدم به الإنسان أحدا لينتفع به فى دنياه، فإن ذلك النفع الذى يجزى به الخدمة لا يربو عند اللّه. و قيل: هذا كان حراما على النبى صلّى اللّه عليه و سلم على الخصوص لقوله سبحانه: وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ و معناها: أن تعطى فتأخذ أكثر منه عوضا عنه. و قيل: إن هذه الآية نزلت فى هبة الثواب. قال ابن عطية: و ما يجرى مجراه مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه. قال عكرمة: الربا ربوان: فربا حلال، و ربا حرام، فأما الربا الحلال: فهو الذى يهدى يلتمس ما هو أفضل منه، يعنى: كما فى هذه الآية. و قيل: إن هذا الذى فى هذه الآية هو الربا المحرّم، فمعنى لا يربو عند اللّه على هذا القول: لا يحكم به، بل هو للمأخوذ منه.
قال المهلب: اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب، فقال مالك: ينظر فيه، فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له؛ فله ذلك، مثل هبة الفقير للغنىّ، و هبة الخادم للمخدوم، و هبة الرجل لأميره، و هو أحد قولى الشافعى. و قال أبو حنيفة: لا يكون له ثواب إذا لم يشترط، و هو قول الشافعى الآخر. قرأ الجمهور «ليربو» بالتحتية على أن الفعل مسند إلى ضمير

الربا. و قرأ نافع و يعقوب بالفوقية مضمومة خطابا للجماعة؛ بمعنى: لتكونوا ذوى زيادات. و قرأ أبو مالك «لتربوها» و معنى الآية: أنه لا يزكو عند اللّه، و لا يثيب عليه، لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه، خالصا له وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ أى: و ما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة، و إنما تقصدون بها ما عند اللّه فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ المضعف دون الأضعاف من الحسنات الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

قال الفراء: هو نحو قولهم: مسمن و معطش و مضعف إذا كانت له إبل سمان، أو عطاش، أو ضعيفة. و قرأ أبىّ «المضعفون» بفتح العين اسم مفعول اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ عاد سبحانه إلى الاحتجاج على المشركين، و أنه الخالق الرازق المميت المحيى، ثم قال على جهة الاستفهام: هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ و معلوم أنهم يقولون:

ليس فيهم من يفعل شيئا من ذلك، فتقوم عليهم الحجة، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: نزّهوه تنزيها، و هو متعال عن أن يجوز عليه شىء من ذلك، و قوله: مِنْ شُرَكائِكُمْ

خبر مقدّم، و من: للتبعيض، و المبتدأ: هو الموصول، أعنى: من يفعل، و من ذلكم: متعلق بمحذوف؛

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۳

لأنه حال من شىء المذكور بعده، و من فى «من شىء» مزيدة للتوكيد، و أضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم آلهة، و يجعلون لهم نصيبا من أموالهم ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ بين سبحانه أن الشرك و المعاصى؛ سبب لظهور الفساد فى العالم.

و اختلف فى معنى ظهور الفساد المذكور، فقيل: هو القحط، و عدم النبات، و نقصان الرزق، و كثرة الخوف، و نحو ذلك. و قال مجاهد و عكرمة: فساد البرّ: قتل ابن آدم أخاه، يعنى: قتل قابيل لهابيل، و فى البحر: الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا.

و ليت شعرى أىّ دليل دلهما على هذا التخصيص البعيد و التعيين الغريب؟ فإن الآية نزلت على محمّد صلّى اللّه عليه و سلم، و التعريف فى الفساد: يدلّ على الجنس، فيعم كلّ فساد واقع فى حيزىّ البرّ، و البحر، و قال السدّى: الفساد:

الشرك، و هو أعظم الفساد. و يمكن أن يقال: إن الشرك؛ و إن كان الفرد الكامل فى أنواع المعاصى، و لكن لا دليل على أنه المراد بخصوصه. و قيل: الفساد كساد الأسعار، و قلة المعاش، و قيل: الفساد قطع السبل، و الظلم، و قيل: غير ذلك مما هو تخصيص لا- دليل عليه. و الظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه؛ سواء كان راجعا إلى أفعال بنى آدم من معاصيهم، و اقترافهم السيئات و تقاطعهم، و تظالمهم، و تقاتلهم، أو راجعا إلى ما هو من جهة اللّه سبحانه بسبب ذنوبهم، كالقحط، و كثرة الخوف، و الموتان، و نقصان الزرائع، و نقصان الثمار. و البرّ و البحر: هما المعروفان المشهوران، و قيل البرّ: الفيافى، و البحر: القرى التى على ماء قاله عكرمة، و العرب تسمى الأمصار: البحار. قال مجاهد: البرّ: ما كان من المدن و القرى على غير نهر، و البحر: ما كان على شط نهر، و الأوّل: أولى. و يكون معنى البرّ: مدن البرّ، و معنى البحر:

مدن البحر، و ما يتصل بالمدن من مزارعها و مراعيها، و الباء فى بما كسبت: للسببية، و ما: إما موصولة؛ أو مصدرية لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا اللام متعلقة بظهر، و هى لام العلة، أى: ليذيقهم عقاب بعض عملهم، أو جزاء بعض عملهم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عما هم فيه من المعاصى، و يتوبون إلى اللّه قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ لما بين سبحانه ظهور الفساد بما كسبت أيدى المشركين، و العصاة بين لهم ضلال أمثالهم من أهل الزمن الأوّل، و أمرهم بأن يسيروا لينظروا آثارهم، و يشاهدوا كيف كانت عاقبتهم، فإن منازلهم خاوية، و أراضيهم مقفرة موحشة، كعاد و ثمود، و نحوهم من طوائف الكفار، و جملة كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ مستأنفة لبيان الحالة التى كانوا عليها، و إيضاح السبب الذى صارت عاقبتهم به إلى ما صارت إليه

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ هـذا خطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أمته و أسوته فيه، كأن المعنى: إذا قد ظهر الفساد بالسبب المتقدّم؛ فأقم وجهك يا محمّد إلخ.

قال الزجاج: اجعل جهتك اتباع الدين القيم، و هو الإسلام المستقيم «من قبل أن يأتى يوم» يعنى: يوم القيامة «لا مردّ له» لا يقدر أحد على ردّه، و المردّ: مصدر ردّ، و قيل المعنى: أوضح الحق، و بالغ فى الأعذار، و «من اللّه» يتعلق بيأتى، أو بمحذوف يدل عليه المصدر، أى: لا يردّه من اللّه أحد، و قيل: يجوز أن يكون المعنى: لا يردّه اللّه لتعلق إرادته القديمة بمجيئه، و فيه من الضعف و سوء الأدب مع اللّه ما لا يخفى يَوْمَئِذٍ

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۴

يَصَّدَّعُونَ أصله: يتصدعون، و التصدع: التفرق، يقال: تصدع القوم: إذا تفرقوا، و منه قول الشاعر:

و كنّا كندمانى جذيمة حقبةمن الدّهر حتّى قيل لن يتصدّعا

و المراد بتفرقهم هاهنا: إن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة، و أهل النار يصيرون إلى النار مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ أى: جزاء كفره، و هو النار وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ أى: يوطئون لأنفسهم منازل فى الجنة بالعمل الصالح، و المهاد: الفراش، و قد مهدت الفراش مهدا: إذا بسطته و وطأته، فجعل الأعمال الصالحة التى هى سبب لدخول الجنة، كبناء المنازل فى الجنة، و فرشها. و قيل المعنى: فعلى أنفسهم يشفقون، من قولهم فى المشفق: أمّ فرشت فأنامت، و تقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على الاختصاص.

و قال مجاهد «فلأنفسهم يمهدون» فى القبر، و اللام فى لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا متعلقة بيصدّعون، أو يمهدون: أى: يتفرّقون ليجزى اللّه المؤمنين بما يستحقونه مِنْ فَضْلِهِ أو يمهدون لأنفسهم، بالأعمال الصالحة ليجزيهم، و قيل: يتعلق بمحذوف. قال ابن عطية: تقديره ذلك ليجزى، و تكون الإشارة إلى ما تقدّم من قوله: من عمل و من كفر. و جعل أبو حيان قسيم قوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ محذوفا لدلالة قوله: إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ عليه، لأنه كناية عن بغضه لهم؛ الموجب لغضبه سبحانه، و غضبه يستتبع عقوبته وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ أى: و من دلالات بديع قدرته إرسال الرياح مبشرات بالمطر لأنها تتقدّمه كما فى قوله سبحانه: بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ* «۱» قرأ الجمهور «الرياح» و قرأ الأعمش «الريح» بالإفراد على قصد الجنس لأجل قوله «مبشرات» و اللام فى قوله: وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ متعلقة بيرسل، أى: يرسل الرياح مبشرات، و يرسلها ليذيقكم من رحمته، يعنى: الغيث و الخصب، و قيل: هو متعلق بمحذوف، أى: و ليذيقكم أرسلها، و قيل: الواو مزيدة على رأى من يجوز ذلك، فتتعلق اللام بيرسل وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ معطوف على ليذيقكم من رحمته، أى: يرسل الرياح لتجرى الفلك فى البحر عند هبوبها، و لما أسند الجرى إلى الفلك عقبه بقوله بأمره وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أى: تبتغوا الرزق بالتجارة التى تحملها السفن وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ هذه النعم، فتفردون اللّه بالعبادة، و تستكثرون من الطاعة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً الآية قال: الربا ربوان: ربا لا بأس به، و ربا لا يصلح. فأما الربا الذى لا بأس به، فهدية الرجل إلى الرجل يريد فضلها و أضعافها.

و أخرج البيهقى عنه قال: هذا هو الربا الحلال أن يهدى يريد أكثر منه و ليس له أجر و لا وزر، و نهى النبى صلّى اللّه عليه و سلم خاصة فقال: وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ «۲». و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ قال: هى الصدقة، و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قال: البر البرية التى ليس عندها نهر، و البحر: ما كان من المدائن، و القرى على شط نهر.

و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: نقصان البركة بأعمال العباد كى يتوبوا. و أخرج

(١). الأعراف: ٥٧.

(٢). المدثر: ۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢۶۵

ابن المنـذر عنه أيضا: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ قال: من الذنوب. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا يَصَّدَّعُونَ قال: يتفرقون.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ۴٧ الى ۶٠]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (۴٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴٨) وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (۴٩) فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۵٠) وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (۵١)

فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (۵٢) وَ ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۵٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (۵۴) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (۵۵) وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۵۶)

فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۵٧) وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (۵٨) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۵٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (۶٠)

قوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ كما أرسلناك إلى قومك فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى: المعجزات، و الحجج النيرات، فانتقمنا منهم، أى: فكفروا فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا أى: فعلوا الإجرام، و هى الآثام وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ هذا إخبار من اللّه سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه، و هو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، و فيه تشريف للمؤمنين، و مزيد تكرمة لعباده الصالحين، و وقف بعض القراء على حقا، و جعل اسم كان ضميرا فيها و خبرها: حقا، أى: و كان الانتقام حقا. قال ابن عطية:

و هذا ضعيف، و الصحيح أن نصر المؤمنين: اسمها، و حقا: خبرها، و علينا: متعلق بحقا، أو بمحذوف هو صفة له اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ قرأ حمزة، و الكسائى، و ابن كثير، و ابن محيصن يرسل «الريح» بالإفراد. و قرأ الباقون «الرياح» قال أبو عمرو: كل ما كان بمعنى الرحمة: فهو جمع، و ما كان بمعنى العذاب:

فهو موحد، و هذه الجملة مستأنفة، مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح، فتكون على هذا جملة «و لقد أرسلنا» إلى قوله: وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ معترضة فَتُثِيرُ سَحاباً أى: تزعجه من حيث هو فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ تارة سائرا، و تارة واقفا، و تارة مطبقا، و تارة غير مطبق، و تارة إلى مسافة بعيدة، و تارة إلى مسافة قريبة، و قد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة، و فى سورة النور

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۶

وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً تارة أخرى، أو يجعله بعد بسطه؛ قطعا متفرقة، و الكسف: جمع كسفة، و الكسفة:

القطعة من السحاب. و قد تقدم تفسيره و اختلاف القراءة فيه فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ الودق:

المطر، و من خلاله: من وسطه. و قرأ أبو العالية، و الضحاك «يخرج من خلل» فَإِذا أَصابَ بِهِ أى:

بالمطر مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أى: بلادهم، و أرضهم إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ إذا: هى الفجائية، أى:

فاجؤوا الاستبشار؛ بمجىء المطر، و الاستبشار: الفرح وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ أى: من قبل أن ينزل عليهم المطر، و إن: هى المخففة، و فيها ضمير شأن مقدر هو اسمها، أى: و إن الشأن كانوا من قبل أن ينزل عليهم، و قوله: مِنْ قَبْلِهِ تكرير للتأكيد، قاله الأخفش، و أكثر النحويين كما حكاه عنهم النحاس. و قال قطرب: إن الضمير فى قبله راجع إلى المطر، أى: و إن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر.

و قيل المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم؛ من قبل الزرع، و المطر، و قيل: من قبل أن ينزل عليهم من قبل السحاب، أى: من قبل رؤيته، و اختار هذا النحاس. و قيل: الضمير عائد إلى الكسف، و قيل: إلى الإرسال، و قيل: إلى الاستبشار. و الراجح: الوجه الأول، و ما بعده من هذه الوجوه كلها؛ ففى غاية التكلف، و التعسف، و خبر كان: لَمُبْلِسِينَ أى: آيسين أو بائسين. و قد تقدّم تحقيق الكلام فى هذا فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ الناشئة عن إنزال المطر من النبات، و الثمار، و الزرائع التى بها يكون الخصب، و رخاء العيش، أى: انظر نظر اعتبار، و استبصار لتستدل بذلك على توحيد اللّه، و تفرده بهذا الصنع العجيب.

قرأ الجمهور «أثر» بالتوحيد. و قرأ ابن عامر، و حفص، و حمزة، و الكسائى آثار بالجمع كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها فاعل الإحياء ضمير يعود إلى اللّه سبحانه، و قيل: ضمير يعود إلى الأثر، و هذه الجملة فى محل نصب بانظر، أى: انظر إلى كيفية هذا الإحياء البديع للأرض. و قرأ الجحدرى و أبو حيوة «تحيى» بالفوقية على أن فاعله ضمير يعود إلى الرحمة أو إلى الآثار على قراءة من قرأ بالجمع، و الإشارة بقوله: إِنَّ ذلِكَ إلى اللّه سبحانه، أى: إن اللّه العظيم الشأن المخترع لهذه الأشياء المذكورة لَمُحْيِ الْمَوْتى أى:

لقادر على إحيائهم فى الآخرة، و بعثهم، و مجازاتهم كما أحيا الأرض الميتة بالمطر وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أى: عظيم القدرة كثيرها وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا الضمير فى: فرأوه يرجع إلى الزرع، و النبات الذى كان من أثر رحمة اللّه، أى: فرأوه مصفرا من البرد الناشئ عن الريح التى أرسلها اللّه بعد اخضراره.

و قيل: راجع إلى الريح، و هو يجوز تذكيره، و تأنيثه. و قيل: راجع إلى الأثر المدلول عليه بالآثار. و قيل:

راجع إلى السحاب؛ لأنه إذا كان مصفرا لم يمطر، و الأول أولى. و اللام هى: الموطئة، و جواب القسم:

لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ و هو يسدّ مسد جواب الشرط، و المعنى: و لئن أرسلنا ريحا حارة، أو باردة، فضربت زرعهم بالصّفار لظلوا من بعد ذلك يكفرون باللّه، و يجحدون نعمه، و فى هذا دليل على سرعة تقلبهم، و عدم صبرهم، و ضعف قلوبهم، و ليس كذا حال أهل الإيمان. ثم شبههم بالموتى و بالصم فقال: فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى إذا دعوتهم، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق، و معرفتهم للصواب وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا دعوتهم إلى الحق، و وعظتهم بمواعظ اللّه، و ذكرتهم الآخرة و ما فيها، و قوله: إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۷

بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات، و كونهم صمّ الآذان، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة النمل.

ثم وصفهم بالعمى فقال: وَ ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ لفقدهم للانتفاع بالأبصار كما ينبغى، أو لفقدهم للبصائر إِنْ تُسْمِعُ

إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا أى: ما تسمع إلا هؤلاء لكونهم أهل التفكر، و التدبر، و استدلال بالآثار على المؤثر فَهُمْ مُسْلِمُونَ أى: منقادون للحق؛ متبعون له اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ذكر سبحانه استدلالا آخر على كمال قدرته، و هو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة، و معنى من ضعف: من نطفة. قال الواحدى: قال المفسرون: من نطفة، و المعنى: من ذى ضعف. و قيل: المراد حال الطفولية و الصغر ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً و هى: قوّة الشباب، فإنه إذ ذاك تستحكم القوّة، و تشتدّ الخلقة إلى بلوغ النهاية ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً أى: عند الكبر و الهرم وَ شَيْبَةً الشيبة:

هى تمام الضعف، و نهاية الكبر. قرأ الجمهور «ضعف» بضم الضاد فى هذه المواضع. و قرأ عاصم، و حمزة بفتحها. و قرأ الجحدرى بالفتح فى الأوّلين، و الضم فى الثالث. قال الفراء: الضم: لغة قريش، و الفتح:

لغة تميم. قال الجوهرى: الضعف: و الضعف خلاف القوّة، و قيل: هو بالفتح فى الرأى، و بالضم: فى الجسم يَخْلُقُ ما يَشاءُ يعنى: من جميع الأشياء، و من جملتها: القوّة و الضعف فى بنى آدم وَ هُوَ الْعَلِيمُ بتدبيره الْقَدِيرُ على خلق ما يريده، و أجاز الكوفيون «من ضعف» بفتح الضاد، و العين وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أى: القيامة، و سميت ساعة: لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ أى: يحلفون ما لبثوا فى الدنيا، أو فى قبورهم غير ساعة، فيمكن أن يكونوا استقلوا مدّة لبثهم، و استقرّ ذلك فى أذهانهم، فحلفوا عليه، و هم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع. و قال ابن قتيبة:

إنهم كذبوا فى هذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبل، و هذا هو الظاهر لأنهم إن أرادوا لبثهم فى الدنيا، فقد علم كلّ واحد منهم مقداره، و إن أرادوا لبثهم فى القبور، فقد حلفوا على جهالة إن كانوا لا يعرفون الأوقات فى البرزخ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ يقال أفك الرجل: إذا صرف عن الصدق، فالمعنى: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون. و قيل: المراد يصرفون عن الحق، و قيل: عن الخير، و الأوّل أولى، و هو دليل على أن حلفهم كذب وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ اختلف فى تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة، و قيل: الأنبياء، و قيل: علماء الأمم، و قيل: مؤمنو هذه الأمة، و لا مانع من الحمل على الجميع. و معنى فى كتاب اللّه، فى علمه و قضائه. قال الزجاج: فى علم اللّه المثبت فى اللوح المحفوظ. قال الواحدى: و المفسرون حملوا هذا على التقديم، و التأخير على تقدير: و قال الذين أوتوا العلم فى كتاب اللّه، و كان ردّ الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد، أو للمقابلة لليمين باليمين، ثم نبهوهم على طريقة التبكيت بأن فَهذا الوقت الذى صاروا فيه هو يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ أنه حق، بل كنتم تستعجلونه تكذيبا و استهزاء فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ أى: لا ينفعهم الاعتذار يومئذ، و لا يفيدهم علمهم بالقيامة، و قيل: لما ردّ عليهم المؤمنون؛ سألوا الرجوع إلى الدنيا، و اعتذروا فلم يعذروا. قرأ الجمهور «لا تنفع» بالفوقية، و قرأ عاصم، و حمزة، و الكسائى بالتحتية

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۸

وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ يقال: استعتبته فأعتبنى، أى: استرضيته فأرضانى، و ذلك إذا كنت جانيا عليه، و حقيقة أعتبته: أزلت عتبة، و المعنى: أنهم لا يدعون إلى إزالة عتبهم من التوبة، و الطاعة كما دعوا إلى ذلك فى الدنيا وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ أى: من كلّ مثل من الأمثال التى تدلهم على توحيد اللّه، و صدق رسله، و احتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو لئن جئتهم بآية؛ كالعصا، و اليد لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ أى: ما أنت يا محمّد و أصحابك إلا مبطلون أصحاب أباطيل؛ تتبعون السحر، و ما هو مشاكل له فى البطلان كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أى: مثل ذلك الطبع يطبع اللّه على قلوب الفاقدين للعلم النافع؛ الذى يهتدون به إلى الحق، و ينجون به من الباطل، ثم أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم بالصبر؛ معللا لذلك بحقية وعد اللّه، و عدم الخلف فيه، فقال: فَاصْبِرْ على ما تسمعه منهم من الأذى، و تنظره من الأفعال الكفرية، فإن اللّه قد وعدك بالنصر عليهم، و إعلاء حجتك، و

إظهار دعوتك، و وعده حق لا خلف فيه وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ أى: لا يحملنك على الخفة، و يستفزنك عن دينك، و ما أنت عليه الذين لا يوقنون باللّه، و لا يصدقون أنبياءه، و لا يؤمنون بكتبه، و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلم، يقال استخف فلان فلانا: أى: استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغيّ. قرأ الجمهور «يستخفنك» بالخاء المعجمة و الفاء، و قرأ يعقوب، و ابن أبى إسحاق: بحاء مهملة و قاف من استحقاق، و النهى فى الآية من باب: لا أرينك هاهنا.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول:

«ما من مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقّا على اللّه أن يردّ عنه نار جهنّم يوم القيامة، ثم تلا وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ و هو من طريق شهر بن حوشب عن أمّ الدرداء عن أبى الدرداء. و أخرج أبو يعلى و ابن المنذر عنه فى قوله: وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً قال: قطعا بعضها فوق بعض فَتَرَى الْوَدْقَ قال:

المطر يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ قال: من بينه. و أخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ فى دعاء النبى صلّى اللّه عليه و سلم لأهل بدر، و الإسناد ضعيف. و المشهور فى الصحيحين و غيرهما أن عائشة استدلت بهذه الآية على ردّ رواية من روى من الصحابة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم نادى أهل قليب بدر، و هو من الاستدلال بالعام على ردّ الخاص فقد قال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم لما قيل له: إنك تنادى أجسادا بالية «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» و فى مسلم من حديث أنس؛ أنّ عمر ابن الخطاب لما سمع النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم يناديهم، فقال: يا رسول اللّه! تناديهم بعد ثلاث و هل يسمعون؟ يقول اللّه إنّك لا تسمع الموتى، فقال: و الذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم، و لكنّهم لا يطيقون أن يجيبوا».

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۹

سورة لقمان

اشارة

و هى مكية إلا ثلاث آيات، و هى قوله: وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ إلى الآيات الثلاث. قاله ابن عباس فيما أخرجه النحاس عنه. و أخرج ابن الضريس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عنه أنها مكية و لم يستثن، و حكى القرطبى عن قتادة أنها مكية إلا آيتين. و أخرج النسائى، و ابن ماجة عن البراء قال: كنا نصلى خلف النبى صلّى اللّه عليه و سلم الظهر نسمع منه الآية من سورة لقمان و الذاريات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة لقمان (۳۱): الآيات ۱ الى ۱۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (۱) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (۲) هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (۳) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴)

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۶) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ

أَلِيم (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيم (٨) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)
خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيم (١٠) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (١١)

قوله: الم تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ قد تقدّم الكلام على أمثال فاتحة هذه السورة، و محلها من الإعراب مستوفى فلا نعيده، و بيان مرجع الإشارة أيضا، و الْحَكِيمِ إما أن يكون بمعنى مفعل، أو بمعنى فاعل، أو بمعنى ذى الحكمة أو الحكيم قائله، و هُدىً وَ رَحْمَةً منصوبان على الحال على قراءة الجمهور. قال الزجاج: المعنى تلك آيات الكتاب فى حال الهداية و الرحمة، و قرأ حمزة «و رحمة» بالرفع على أنهما خبر مبتدأ محذوف، أي: هو هدى و رحمة، و يجوز أن يكونا خبر تلك، و المحسن: العامل للحسنات، أو من يعبد اللّه كأنه يراه كما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلم فى الصحيح لما سأله جبريل عن الإحسان: فقال: «أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ثم بين عمل المحسنين فقال: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ و الموصول: فى محل جر على الوصف للمحسنين، أو فى محل رفع، أو نصب على المدح، أو القطع، و خص هذه العبادات الثلاث لأنها عمدة العبادات أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قد تقدم تفسير هذا فى أوائل سورة البقرة، و المعنى هنا: أن أولئك المتصفين بالإحسان، و فعل تلك الطاعات التى هى أمهات العبادات؛ هم على طريقة الهدى، و هم الفائزون بمطالبهم الظافرون بخيرى

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٧٠

الدارين وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ و من إما موصولة، أو موصوفة، و لهو الحديث كلّ ما يلهى عن الخير من الغناء، و الملاهى، و الأحاديث المكذوبة، و كلّ ما هو منكر، و الإضافة بيانية. و قيل:
المراد شراء القينات المغنيات، و المغنين، فيكون التقدير: و من يشترى أهل لهو الحديث. قال الحسن: لهو الحديث المعازف و الغناء، و روى عنه أنه قال: هو الكفر و الشرك. قال القرطبى: إن أولى ما قيل فى هذا الباب: هو تفسير لهو الحديث بالغناء، قال: و هو قول الصحابة و التابعين، و اللام فى لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ للتعليل. قرأ الجمهور بضم الياء من: «ليضل» أي: ليضل غيره عن طريق الهدى، و منهج الحق، و إذا أضل غيره؛ فقد ضل فى نفسه. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و ابن محيصن، و حميد، و ورش، و ابن أبى إسحاق بفتح الياء، أي: ليضل هو فى نفسه. قال الزجاج: من قرأ بضم الياء، فمعناه ليضل غيره، فإذا أضل غيره فقد ضل هو، و من قرأ بفتح الياء فمعناه ليصير أمره إلى الضلال، و هو إن لم يكن يشترى الضلالة، فإنه يصير أمره إلى ذلك، فأفاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد، و يؤيد هذا سبب نزول الآية و سيأتى. قال الطبرى: قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء و المنع منه، و إنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد، و عبد اللّه العنبرى. قال القاضى أبو بكر بن العربى: يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شىء منها عليه حرام؛ لا من ظاهرها، و لا من باطنها، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها؟
قلت: قد جمعت رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم فى الغناء، و ما استدل به المحللون له، و المحرمون له، و حققت هذا المقام بما لا يحتاج من نظر فيها، و تدبر معانيها إلى النظر فى غيرها، و سميتها «إبطال دعوى الإجماع، على تحريم مطلق السماع» فمن أحبّ تحقيق المقام كما ينبغى فليرجع إليها.
و محل قوله: بِغَيْرِ عِلْمٍ النصب على الحال، أي: حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه، أو بحال ما ينفع من التجارة، و ما يضر، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض وَ يَتَّخِذَها هُزُواً قرأ الجمهور برفع «يتخذها» عطفا على يشترى فهو من جملة الصلة، و قيل: الرفع على الاستئناف، و الضمير المنصوب فى يتخذها: يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها، و الأول أولى. و قرأ حمزة، و الكسائى، و

الأعمش «و يتخذها» بالنصب: عطفا على يضل، و الضمير المنصوب راجع إلى السبيل، فتكون على هذه القراءة من جملة التعليل للتحريم، و المعنى: أنه يشترى لهو الحديث للإضلال عن سبيل اللّه، و اتخاذ السبيل هزوا، أى: مهزوءا به، و السبيل: يذكر و يؤنث، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ إلى من، و الجمع باعتبار معناها، كما أن الإفراد فى الفعلين باعتبار لفظها، و العذاب المهين: هو الشديد الذى يصير به من وقع عليه مهينا وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا أى: و إذا تتلى آيات القرآن على هذا المستهزئ وَلَّى مُسْتَكْبِراً أى: أعرض عنها حال كونه مبالغا فى التكبر، و جملة كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فى محل نصب على الحال، أى: كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها؛ مع أنه قد سمعها، و لكن أشبهت حاله حال من لم يسمع، و جملة كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً حال ثانية، أو بدل من التى قبلها، أو حال من ضمير يسمعها، و يجوز أن تكون مستأنفة، و الوقر: الثقل،

فتح القدير، ج‏4، ص: 271

و قد تقدم بيانه، و فيه مبالغة إعراض ذلك المعرض فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ أى: أخبره بأن له العذاب البليغ فى الألم، ثم لما بيّن سبحانه حال من يعرض عن الآيات؛ بين حال من يقبل عليها فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أى: آمنوا باللّه و بآياته، و لم يعرضوا عنها بل قبلوها، و عملوا بها لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ أى: نعيم الجنات فعكسه للمبالغة، جعل لهم جنات النعيم، كما جعل للفريق الأول: العذاب المهين، و انتصاب خالِدِينَ فِيها على الحال، و قرأ زيد بن على «خالدون فيها» على أنه خبر ثان لأن وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا هما مصدران الأول مؤكد لنفسه، أى: وعد اللّه وعدا، و الثانى: مؤكد لغيره، و هو مضمون الجملة الأولى، و تقديره حق ذلك حقا. و المعنى أن وعده كائن لا محالة، و لا خلف فيه وَ هُوَ الْعَزِيزُ الذى لا يغلبه غالب الْحَكِيمُ فى كلّ أفعاله، و أقواله. ثم بين سبحانه عزّته، و حكمته بقوله: خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها العمد: جمع عماد. و قد تقدم الكلام فيه فى سورة الرعد، و ترونها: فى محل جرّ صفة لعمد، فيمكن أن تكون ثمّ عمد، و لكن لا ترى. و يجوز أن تكون فى موضع نصب على الحال، أى: و لا عمد ألبتة. قال النحاس: و سمعت على بن سليمان يقول: الأولى أن يكون مستأنفا، أى: و لا عمد ثم وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أى: جبالا ثوابت أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ فى محل نصب على العلة، أى: كراهة أن تميد بكم، و الكوفيون يقدّرونه لئلا تميد، و المعنى: أنه خلقها و جعلها مستقرّة ثابتة لا تتحرّك؛ بجبال جعلها عليها؛ و أرساها على ظهرها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ أى: من كلّ نوع من أنواع الدوابّ، و قد تقدّم بيان معنى البثّ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ أى: أنزلنا من السماء مطرا فأنبتنا فيها بسبب إنزاله من كلّ زوج، أى: من كلّ صنف، و وصفه بكونه كريما لحسن لونه، و كثرة منافعه. و قيل: إن المراد بذلك الناس، فالكريم منهم: من يصير إلى الجنة، و اللئيم: من يصير إلى النار. قاله:

الشعبى و غيره، و الأوّل أولى. و الإشارة بقوله: هذا إلى ما ذكر فى خلق السموات و الأرض، و هو:

مبتدأ، و خبره: خَلْقُ اللَّهِ أى: مخلوقه فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ من آلهتكم التى تعبدونها، و الاستفهام: للتقريع، و التوبيخ، و المعنى: فأرونى أىّ شى‏ء خلقوا مما يحاكى خلق اللّه أو يقاربه؟

و هذا الأمر لهم لقصد التعجيز و التبكيت. ثم أضرب عن تبكيتهم بما ذكر؛ إلى الحكم عليهم بالضلال الظاهر، فقال: بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ فقرّر ظلمهم أوّلا، و ضلالهم ثانيا، و وصف ضلالهم بالوضوح و الظهور، و من كان هكذا فلا يعقل الحجة، و لا يهتدى إلى الحق.

و قد أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ يعنى:

باطل الحديث. و هو النضر بن الحارث بن علقمة اشترى أحاديث الأعاجم و صنيعهم فى دهرهم. و كان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام، و يكذب بالقرآن. و أخرج الفريابى، و ابن جرير، و ابن مردويه عنه فى الآية قال: باطل الحديث. و هو الغناء و نحوه لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قال: قراءة القرآن، و ذكر اللّه، نزلت فى رجل من قريش اشترى جارية مغنية. و أخرج البخارى فى الأدب

المفرد، و ابن أبى الـدنيا، و ابن جرير، و ابن أبى حـاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى السـنن عنه أيضـا فى الآيـة قال: هو الغناء، و أشباهه. و أخرج ابن

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۷۲

جرير، و ابن المنـذر، و ابن مردويه عنه أيضـا فى الآيـة قـال: الجوارى الضاربات. و أخرج ابن أبى شـيبة، و ابن أبى الـدنيا، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صـححه، و البيهقى فى الشـعب عن أبى الصـهباء قال: سألت عبد اللّه بن مسـعود عن قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَـدِيثِ قـال: هو و اللّه الغناء. و لفظ ابن جرير: هو الغناء و اللّه الـذى لا إله إلا هو، يردّدها ثلاث مرات. و أخرج سـعيد بـن منصـور، و أحمـد، و الترمـذى، و ابـن ماجـة، و ابن أبى الـدنيا، و ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حـاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى عن أبى أمامة عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم قال: «لا تبيعوا القينات و لا تشتروهنّ، و لا خير فى تجارة فيهنّ، و ثمنهنّ حرام» فى مثل هـذا أنزلت هـذه الآية وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ الآية، و فى إسـناده عبيد اللّه بن زحر عن على بن زيـد عن القاسم بن عبـد الرحمن و فيهم ضـعف. و أخرج ابن أبى الـدنيا فى ذم الملاهى، و ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ اللّه حرّم القينة و بيعها و ثمنها و تعليمها و الاستماع إليها، ثم قرأ وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ . و أخرج ابن أبى الدنيا، و البيهقى فى السـنن عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل» و روياه عنه موقوفا، و أخرج ابن أبى الدنيا، و ابن مردويه عن أبى أمامة أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم قـال: «ما رفع أحـد صوته بغناء إلا بعث اللّه إليه شـيطانين يجلسان على منكبيه يضـربان بأعقابهما على صدره حتّى يمسک».

و فى الباب أحاديث فى كلّ حديث منها مقال. و أخرج البيهقى فى الشـعب عن ابن مسعود فى قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ قال: الرجل يشترى جارية تغنيه ليلا و نهارا. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن عمر «أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول فى قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ

إنّما ذلک شراء الرّجل اللعب و الباطل». و أخرج ابن أبى الدنيا و البيهقى عن نافع قال: كنت أسير مع عبد اللّه ابن عمر فى طريق، فسمع زمّارة فوضع إصبعيه فى أذنيه، ثمّ عدل عن الطريق، فلم يزل يقول يا نافع أ تسمع؟ قلت: لا. فأخرج إصبعيه من أذنيه و قال: هكـذا رأيت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم صـنع. و أخرج ابن أبى الـدنيا عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم قال: «نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة لهو، و مزامير شيطان، و صوت عند مصيبة، خمش وجوه، و شقّ جيوب، و رنّة شيطان».

[سورة لقمان (۳۱): الآيات ۱۲ الى ۱۹]

وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۱۲) وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (۱۳) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (۱۴) وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۵) يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۱۶)

يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱۷) وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (۱۸) وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ

الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٢٧٣

اختلف فى لقمان: هل هو عجمى، أم عربى؟ مشتق من اللقم، فمن قال: إنه عجمى؛ منعه للتعريف و العجمة، و من قال: إنه عربى؛ منعه للتعريف، و لزيادة الألف و النون. و اختلفوا أيضا: هو نبىّ، أم رجل صالح؟ فذهب أكثر أهل العلم: إلى أنه ليس بنبىّ. و حكى الواحدى عن عكرمة، و السدى و الشعبى أنه كان نبيا، و الأوّل أرجح لما سيأتى فى آخر البحث. و قيل: لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط، مع أن الراوى لذلك عنه جابر الجعفى، و هو ضعيف جدا. و هو لقمان بن باعور ابن ناحور بن تارخ، و هو آزر أبو إبراهيم، و قيل: هو لقمان بن عنقا بن مرون، و كان نوبيا من أهل أيلة، ذكره السهيلى. قال وهب: هو ابن أخت أيوب. و قال مقاتل: هو ابن خالته، عاش ألف سنة، و أخذ عنه العلم، و كان يفتى قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفى إذ كفيت. قال الواقدى: كان قاضيا فى بنى إسرائيل، و الحكمة التى آتاه اللّه: هى الفقه، و العقل، و الإصابة فى القول، و فسر الحكمة؛ من قال بنبوّته: بالنبوّة أَنِ اشْكُرْ لِي أن هى المفسرة، لأن فى إيتاء الحكمة: معنى القول. و قيل: التقدير قلنا له: أن اشكر لى. و قال الزجاج: المعنى و لقد آتينا لقمان الحكمة لأن اشكر لى. و قيل بأن اشكر لى، فشكر، فكان حكيما بشكره، و الشكر للّه الثناء عليه فى مقابلة النعمة، و طاعته فيما أمر به. ثم بين سبحانه أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر، فقال: وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ لأن نفع ذلك راجع إليه، و فائدته حاصلة له، إذ به تستبقى النعمة، و بسببه يستجلب المزيد لها من اللّه سبحانه: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ أى:

من جعل كفر النعم مكان شكرها، فإن اللّه غنىّ عن شكره؛ غير محتاج إليه؛ حميد مستحق للحمد من خلقه لإنعامه عليهم بنعمه التى لا يحاط بقدرها، و لا يحصر عددها، و إن لم يحمده أحد من خلقه، فإن كلّ موجود ناطق بحمده بلسان الحال. قال يحيى بن سلام: غنىّ عن خلقه؛ حميد فى فعله وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ قال السهيلى: اسم ابنه ثاران فى قول ابن جرير و القتبى و قال الكلبى: مشكم. و قال النقاش: أنعم. و قيل:

ماتان. قال القشيرى: كان ابنه و امرأته كافرين، فما زال يعظهما حتى أسلما، و هذه الجملة معطوفة على ما تقدّم، و التقدير: آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا فى نفسه، و حين جعلناه واعظا لغيره. قال الزجاج: إذ فى موضع نصب بآتينا. و المعنى: و لقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال: قال النحاس: و أحسبه غلطا لأن فى الكلام واوا، و هى تمنع من ذلك، و معنى: وَ هُوَ يَعِظُهُ يخاطبه بالمواعظ التى ترغّبه فى التوحيد و تصدّه عن الشّرك يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ قرأ الجمهور بكسر الياء. و قرأ ابن كثير بإسكانها. و قرأ حفص بفتحها، و نهيه عن الشرك يدلّ على أنه كان كافرا كما تقدّم، و جملة: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ تعليل لما قبلها، و بدأ فى وعظه بنهيه عن الشرك؛ لأنه أهمّ من غيره.

و قد اختلف فى هذه الجملة، فقيل: هى من كلام لقمان، و قيل: هى من كلام اللّه، فتكون منقطعة عما قبلها. و يؤيد هذا ما ثبت فى الحديث الصحيح أنها لما نزلت: وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ «١» شق ذلك

---

(١). الأنعام: ٨٢.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٢٧٤

على الصحابة، و قالوا: أينا لم يظلم نفسه. فأنزل اللّه: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ فطابت أنفسهم.

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ هذه الوصية بالوالدين، و ما بعدها إلى قوله: بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ اعتراض بين كلام لقمان؛ لقصد التأكيد لما فيها من النهى عن الشرك باللّه، و تفسير التوصية هى قوله: أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ و ما بينهما: اعتراض بين المفسر و

المفسر، و فى جعل الشكر لهما مقترنا بالشكر للّه: دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد، و أكبرها، و أشدّها وجوبا، و معنى حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ أنها حملته فى بطنها، و هى تزداد كلّ يوم ضعفا على ضعف، و قيل المعنى: إن المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل، و انتصاب وهنا: على المصدر. و قال النحاس: على أنه مفعول ثان بإسقاط الحرف، أى:

حملته بضعف على ضعف، و قال الزجاج: المعنى لزمها بحملها إياه أن تضعف، مرّة بعد مرة، و قيل انتصابه على الحال من أمه و «على وهن»: صفة لوهنا، أى: وهنا كائنا على وهن. قرأ الجمهور بسكون الهاء فى الموضعين. و قرأ عيسى الثقفى و هى رواية عن أبى عمرو بفتحهما و هما: لغتان. قال قعنب:

هل للعواذل من ناه فيزجرهاإنّ العواذل فيها الأين و الوهن

وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ الفصال: الفطام، و هو: أن يفصل الولد عن الأم، و هو: مبتدأ، و خبره:

الظرف. و قرأ الجحدرى، و قتادة، و أبو رجاء، و الحسن، و يعقوب «و فصله» و هما لغتان، يقال انفصل عن كذا: أى: تميز، و به سمى الفصيل. و قد قدّمنا أن أمه فى قوله: أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ هى المفسرة.

و قال الزجاج: هى مصدرية. و المعنى: بأن اشكر لى. قال النحاس: و أجود منه أن تكون أن مفسرة، و جملة:

إِلَيَّ الْمَصِيرُ تعليل لوجوب امتثال الأمر، أى: الرجوع إلىّ لا إلى غيرى وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أى: ما لا علم لك بشركته فَلا تُطِعْهُما فى ذلك. و قد قدّمنا تفسير الآية، و سبب نزولها فى سورة العنكبوت، و انتصاب مَعْرُوفاً: على أنه صفة لمصدر محذوف، أى: و صاحبهما صحابا معروفا، و قيل: هو منصوب بنزع الخافض، و التقدير بمعروف وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَ أى:

اتبع سبيل من رجع إلىّ من عبادى الصالحين بالتوبة و الإخلاص ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ جميعا لا إلى غيرى فَأُنَبِّئُكُمْ أى: أخبركم عند رجوعكم بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من خير و شرّ، فأجازى كلّ عامل بعمله.

و قد قيل: إن هذا السياق من قوله: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ إلى هنا: من كلام لقمان، فلا يكون اعتراضا، و فيه بعد. ثم شرع سبحانه فى حكاية بقية كلام لقمان؛ فى وعظه لابنه فقال: يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ الضمير فى إنها: عائد إلى الخطيئة؛ لما روى أن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد هل يعلمها اللّه؟ فقال إنها: أى الخطيئة، و الجملة الشرطية: مفسرة للضمير، أى: إن الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل. قال الزجاج: التقدير إن التى سألتنى عنها إن تك مثقال حبة من خردل، و عبر بالخردلة لأنها أصغر الحبوب، و لا يدرك بالحسّ ثقلها، و لا ترجح ميزانا. و قيل: إن الضمير فى «إنها» راجع إلى الخصلة من الإساءة، و الإحسان، أى: إن الخصلة من الإساءة و الإحسان؛ إن تك مثقال حبة إلخ، ثم زاد فى بيان خفاء الحبة مع خفتها فقال: فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ فإن كونها فى الصخرة قد صارت

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۷۵

فى أخفى مكان و أحرزه أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ أى: أو حيث كانت من بقاع السموات أو من بقاع الأرض يَأْتِ بِهَا اللَّهُ أى: يحضرها، و يحاسب فاعلها عليها إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ لا تخفى عليه خافية. بل يصل علمه إلى كلّ خفى خَبِيرٌ بكل شىء لا يغيب عنه شيء. قرأ الجمهور «إن تك» بالفوقية على معنى إن تك الخطيئة؛ أو المسألة؛ أو الخصلة؛ أو القصة. و قرءوا «مثقال» بالنصب على أنه خبر كان.

و اسمها هو أحد تلك المقدرات. و قرأ نافع برفع مثقال على أنه اسم كان، و هى تامة. و أنث الفعل فى هذه القراءة لإضافة مثقال إلى المؤنث. و قرأ الجمهور «فتكن» بضم الكاف. و قرأ الجحدرى بكسرها و تشديد النون، من الكنّ الذى هو الشىء المغطى. قال السدّى: هذه الصخرة هى صخرة ليست فى السموات و لا فى الأرض. ثم حكى سبحانه عن لقمان أنه أمر ابنه بإقامة

الصلاة، و الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، و الصبر على المصيبة. و وجه تخصيص هذه الطاعات: أنها أمهات العبادات، و عماد الخير كله. و الإشارة بقوله: إِنَّ ذلِكَ إلى الطاعات المذكورة، و خبر إنّ: قوله: مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أى: مما جعله اللّه عزيمة، و أوجبه على عباده. و قيل المعنى: من حق الأمور التى أمر اللّه بها. و العزم: يجوز أن يكون بمعنى المعزوم، أى: من معزومات الأمور، أو بمعنى العازم كقوله: فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ «۱» قال المبرد: إن العين تبدل حاء. فيقال عزم و حزم. قال ابن جرير: و يحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق، و عزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، و صوّب هذا القرطبى وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ قرأ الجمهور «تصعر» و قرأ ابن كثير و ابن عامر و عاصم «تصاعر»، و المعنى متقارب، و الصعر: الميل، يقال صعر خدّه و صاعر خدّه: إذا أمال وجهه، و أعرض تكبرا، و المعنى: لا تعرض عن الناس تكبرا عليهم. و منه قول الشاعر:

و كنّا إذا الجبّار صعّر خدّهمشينا إليه بالسّيوف نعاتبه

و رواه ابن جرير هكذا:

و كنّا إذا الجبّار صعّر خدّهأقمنا له من ميله فتقوّما «۲»

قال الهروى وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ أى: لا تعرض عنهم تكبرا، يقال أصاب البعير صعر: إذا أصابه داء يلوى عنقه، و قيل المعنى: و لا تلو شدقك إذا ذكر الرجل عندك؛ كأنك تحتقره. و قال ابن خويز منداد: كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة، و لعله فهم من التصعير التذلل وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً أى: خيلاء و فرحا، و المعنى: النهى عن التكبر، و التجبر، و المختال يمرح فى مشية، و هو مصدر فى موضع الحال، و قد تقدّم تحقيقه، جملة إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ: تعليل للنهى؛ لأن الاختيال: هو المرح، و الفخور: هو الذى يفتخر على الناس بماله من المال، أو الشرف، أو القوة، أو غير ذلك، و ليس منه: التحدّث بنعم اللّه، فإن اللّه يقول: وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ «۳» وَ اقْصِدْ فِي

---

(۱). محمّد: ۲۱.

(۲). قال ابن عطية: فتقوّم؛ لأن قافية الشعر مخفوضة، و المعنى: فتقوّم أنت. القرطبى (۱۴/ ۶۹)

(۳). الضحى: ۱۱.

مَشْيِكَ أى: توسط فيه، و القصد: ما بين الإسراع و البطء. يقال قصد فلان فى مشيته إذا مشى مستويا لا يدبّ دبيب المتماوتين، و لا يثب و ثوب الشياطين. و قد ثبت أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان إذا مشى أسرع، فلا بدّ أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحدّ فى السرعة. و قال مقاتل: معناه لا تختل فى مشيتك. و قال عطاء: امش بالوقار و السكينة. كقوله: يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً «۱» وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ أى:

أنقص منه، و اخفضه، و لا تتكلف رفعه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذى السامع. و جملة: إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ تعليل للأمر بالغض من الصوت، أى: أوحشها، و أقبحها. قال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير؛ أوّله زفير، و آخره شهيق قال المبرد: تأويله إن الجهر بالصوت ليس بمحمود، و إنه داخل فى باب الصوت المنكر، و اللام فى لصوت: للتأكيد، و وحد الصوت مع كونه مضافا إلى الجمع:

لأنه مصدر، و هو يدلّ على الكثرة، و هو مصدر صات يصوت صوتا فهو صائت.

و قد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أ تدرون ما كان لقمان؟ قالوا:

اللّه و رسوله أعلم، قال: كان حبشيّا». و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و ابن أبى الدنيا فى كتاب المملوكين، و ابن

جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان لقمان عبدا حبشيّا نجّارا.

و أخرج الطبرانى، و ابن حبان فى الضعفاء، و ابن عساكر عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «اتّخذوا السّودان، فإنّ ثلاثة منهم سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، و النّجاشىّ، و بلال المؤذن». قال الطبرانى:

أراد الحبشة.

و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ يعنى: العقل، و الفهم، و الفطنة فى غير نبوّة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن عكرمة أنه كان نبيا، و قد قدّمنا أن الراوى عنه جابر الجعفى، و هو ضعيف جدا. و أخرج أحمد، و الحكيم الترمذى، و الحاكم فى الكنى، و البيهقى فى الشعب عن ابن عمر عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إنّ لقمان الحكيم كان يقول: إنّ اللّه إذا استودع شيئا حفظه» و قد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة، و التابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان، و حكمه، و لم يصح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من ذلك شىء، و لا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشىء منها حتى نقبله. و قد حكى سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه فى هذا الوضع، و فيه كفاية، و ما عدا ذلك مما لم يصح؛ فليس فى ذكره إلا شغلة للحيز، و قطيعة للوقت، و لم يكن نبيا حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، و لا صحّ إسناد ما روى عنه من الكلمات؛ حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلمات الحكمة التى هى: ضالة المؤمن. و أخرج أبو يعلى، و الطبرانى، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن أبى عثمان النهدى أن سعد بن أبى وقاص قال: أنزلت فيّ هذه الآية وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي و قد تقدّم ذكر هذا. و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال: نزلت هذه الآية فى سعد بن أبى وقاص. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَهْناً عَلى وَهْنٍ قال: شدّة بعد شدة، و خلقا بعد خلق: و أخرج الطبرانى، و ابن عدىّ و ابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى

---

(١). الفرقان: ۶۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۷۷

أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سئل عن قوله: وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ فقال: لىّ الشدق. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ قال: لا تتكبر فتحتقر عباد اللّه، و تعرض عنهم إذا كلموك. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: هو الذى إذا سلم عليه؛ لوى عنقه كالمستكبر.

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٢٠ الى ٢٨]

أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (٢١) وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (٢٤)

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)

لما فرغ سبحانه من قصة لقمان، رجع إلى توبيخ المشركين، و تبكيتهم، و إقامة الحجج عليهم، فقال:
أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ قال الزجاج: معنى تسخيرها للآدميين:
الانتفاع بها، انتهى، فمن مخلوقات السموات المسخرة لبنى آدم: أى التى ينتفعون بها الشمس و القمر، و النجوم، و نحو ذلك. و من جملة ذلك الملائكة، فإنهم حفظة لبنى آدم بأمر اللّه سبحانه، و من مخلوقات الأرض المسخرة لبنى آدم: الأحجار، و التراب، و الزرع، و الشجر، و الثمر، و الحيوانات التى ينتفعون بها، و العشب الذى يرعون فيه دوابهم، و غير ذلك مما لا يحصى كثرة، فالمراد بالتسخير: جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له سواء كان منقادا له و داخلا تحت تصرّفه أم لا وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً أى:
أتمّ و أكمل عليكم نعمه، يقال: سبغت النعمة إذا تمت و كملت. قرأ الجمهور «أسبغ» بالسين، و قرأ ابن عباس و يحيى بن عمارة «أصبغ» بالصاد مكان السين. و النعم جمع نعمة على قراءة نافع و أبى عمرو و حفص، و قرأ الباقون «نعمة» بسكون العين على الإفراد، و التنوين: اسم جنس يراد به الجمع، و يدلّ به على الكثرة، كقوله: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها «۱» و هى قراءة ابن عباس. و المراد بالنعم الظاهرة: ما يدرك بالعقل، أو الحسّ، و يعرفه من يتعرفه، و بالباطنة: ما لا يدرك للناس، و يخفى عليهم. و قيل: الظاهرة الصحة و كمال الخلق، و الباطنة: المعرفة، و العقل. و قيل: الظاهرة: ما يرى بالأبصار من المال، و الجاه، و الجمال،

---

(۱). إبراهيم: ۳۴.

و فعل الطاعات، و الباطنة: ما يجده المرء فى نفسه من العلم باللّه، و حسن اليقين، و ما يدفعه اللّه عن العبد من الآفات. و قيل: الظاهرة: نعم الدنيا، و الباطنة: نعم الآخرة. و قيل: الظاهرة: الإسلام و الجمال، و الباطنة: ما ستره اللّه على العبد من الأعمال السيئة وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ أى: فى شأن اللّه سبحانه فى توحيده، و صفاته مكابرة، و عنادا بعد ظهور الحق له، و قيام الحجة عليه، و لهذا قال: بِغَيْرِ عِلْمٍ من عقل، و لا نقل وَ لا هُدىً يهتدى به إلى طريق الصواب وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ أنزله اللّه سبحانه، بل مجرّد تعنت، و محض عناد، و قد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ أى: إذا قيل لهؤلاء المجادلين، و الجمع: باعتبار معنى من، اتبعوا ما أنزل اللّه على رسوله من الكتاب؛ تمسكوا بمجرد التقليد البحت، و قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام، و نمشى فى الطريق التى كانوا يمشون بها فى دينهم، ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد، و التبكيت أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ أى: يدعو آباءهم الذين اقتدوا بهم فى دينهم، أى: يتبعونهم فى الشرك، و لو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك، و يجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الأتباع إلى عذاب السعير، لأنه زين لهم أتباع آبائهم، و التدين بدينهم، و يجوز أن يراد أن يدعو جميع التابعين، و المتبوعين إلى العذاب، فدعاؤه للمتبوعين: بتزيينه لهم الشرك، و دعاؤه للتابعين: بتزيينه لهم دين آبائهم، و جواب لو: محذوف، أى: يدعوهم، فيتبعونهم، و محل الجملة: النصب على الحال. و ما أقبح التقليد، و أكثر ضرره على صاحبه، و أوخم عاقبته، و أشأك عائدته على من وقع فيه. فإن الداعى إلى ما أنزل اللّه على رسوله كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق، فتأبى ذلك و تهافت فى نار الحريق و عذاب السعير وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ أى: يفوّض إليه أمره، و يخلص له عبادته، و يقبل عليه بكليته وَ هُوَ مُحْسِنٌ فى أعماله، لأن العبادة من غير إحسان لها، و لا معرفة بما يحتاج إليه فيها؛ لا تقع بالموقع الذى تقع به عبادة المحسنين: و قد صح عن الصادق المصدوق لما سأله جبريل عن الإحسان أنه قال له: «أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى أى: اعتصم بالعهد الأوثق و تعلق به، و هو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى اللّه؛ بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل،

فتمسك بأوثق عرى حبل متدلّ منه وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ أى: مصيرها إليه؛ لا إلى غيره. و قرأ علىّ بن أبى طالب، و السلمى، و عبد اللّه بن مسلم بن يسار «و من يسلّم» بالتشديد قال النحاس: و التخفيف فى هذا أعرف كما قال عزّ و جلّ: فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ «١» وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ أى: لا تحزن لذلك، فإن كفره لا يضرك، بين سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين، ثم توعدهم بقوله: إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أى: نخبرهم بقبائح أعمالهم، و نجازيهم عليها إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أى: بما تسرّه صدورهم، لا تخفى عليه من ذلك خافية. فالسرّ عنده كالعلانية نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا أى:

نبقيهم فى الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها. فإن النعيم الزائل: هو أقل قليل بالنسبة إلى النعيم الدائم. و انتصاب

---

(١). آل عمران: ٢٠.

قليلا: على أنه صفة لمصدر محذوف، أى: تمتيعا قليلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ أى: نلجئهم إلى عذاب النار. فإنه لا أثقل منه على من وقع فيه، و أصيب به، فلهذا استعير له الغلظ وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ أى: يعترفون باللّه خالق ذلك؛ لوضوح الأمر فيه عندهم. و هذا اعتراف منهم مما يدل على التوحيد، و بطلان الشرك، و لهذا قال: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ أى: قل يا محمّد:

الحمد للّه على اعترافكم، فكيف تعبدون غيره، و تجعلونه شريكا له؟ أو المعنى: فقل الحمد للّه على ما هدانا له من دينه و لا حمد لغيره ثم أضرب عن ذلك فقال: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أى: لا ينظرون، و لا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء؛ هو الذى تجب له العبادة دون غيره لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ملكا، و خلقا فلا يستحق العبادة غيره إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ عن غيره الْحَمِيدُ أى:

المستحق للحمد، أو المحمود من عباده بلسان المقال، أو بلسان الحال. ثم لما ذكر سبحانه أن له ما فى السموات و الأرض؛ أتبعه بما يدلّ على أنه له وراء ذلك ما لا يحيط به عدد، و لا يحصر بحدّ، فقال: وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ أى: لو أن جميع ما فى الأرض من الشجر: أقلام، و وحد الشجرة لما تقرّر فى علم المعانى؛ أن استغراق المفرد أشمل، فكأنه قال: كل شجرة أقلام حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا و قد بريت أقلاما، و جمع الأقلام لقصد التكثير، أى: لو أن يعدّ كلّ شجرة من الشجر أقلاما، قال أبو حيان: و هو من وقوع المفرد موقع الجمع، و النكرة موقع المعرفة، كقوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ «١»، ثم قال سبحانه: وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ أى: يمدّه من بعد نفاذه سبعة أبحر. قرأ الجمهور «و البحر» بالرفع: على أنه مبتدأ، و يمدّه: خبره، و الجملة فى محل الحال، أى: و الحال أن البحر المحيط مع سعته يمدّه السبعة الأبحر مدّا لا ينقطع، كذا قال سيبويه. و قال المبرد: إن البحر مرتفع بفعل مقدّر، تقديره: و لو ثبت البحر حال كونه تمدّه من بعده سبعة أبحر، و قيل: هو مرتفع بالعطف على أن؛ و ما فى حيزها. و قرأ أبو عمرو و ابن أبى إسحاق، و البحر بالنصب عطفا على اسم أن، أو بفعل مضمر يفسره يمدّه. و قرأ ابن هرمز و الحسن «يمدّه» بضم حرف المضارعة، و كسر الميم، و من أمدّ. و قرأ جعفر بن محمّد و البحر «مداده» و جواب لو ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ أى: كلماته التى هى: عبارة عن معلوماته. قال أبو علىّ الفارسى: المراد بالكلمات؛ و اللّه أعلم ما فى المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود، و وافقه القفال فقال: المعنى أن الأشجار لو كانت أقلاما، و البحار مدادا، فكتب بها عجائب صنع اللّه الدالة على قدرته، و وحدانيته لم تنفد تلك العجائب. قال القشيرى: ردّ القفال معنى الكلمات إلى المقدورات، و حمل الآية على الكلام القديم: أولى.

قال النحاس: قد تبين أن الكلمات هاهنا: يراد بها العلم، و حقائق الأشياء، لأنه جلّ و علا علم قبل أن يخلق الخلق؛ ما هو خالق فى

السموات و الأرض من شى‌ء، و علم ما فيه من مثاقيل الذرّ، و علم الأجناس كلها، و ما فيها من شعرة، و عضو و ما فى الشجرة من ورقة، و ما فيها من ضروب الخلق. و قيل: إن قريشا قالت:
ما أكثر كلام محمّد، فنزلت، قاله السدّى، و قيل: إنها لما نزلت: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا «٢»

---

(١). البقرة: ١٠۶.

(٢). الإسراء: ٨۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٨٠

فى اليهود، قالوا كيف و قد أوتينا التوراة فيها كلام اللّه و أحكامه، فنزلت. قال أبو عبيدة: المراد بالبحر هنا:
الماء العذب الذى ينبت الأقلام، و أما الماء المالح، فلا ينبت الأقلام. قلت: ما أسقط هذا الكلام، و أقلّ جدواه إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أى: غالب لا يعجزه شى‌ء، و لا يخرج عن حكمته، و علمه فرد من أفراد مخلوقاته ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ أى: إلا كخلق نفس واحدة و بعثها. قال النحاس: كذا قدّره النحويون، كخلق نفس مثل قوله: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ «١» قال الزجاج: أى: قدرة اللّه على بعث الخلق كلهم و على خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة، و بعث نفس واحدة إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لكل ما يسمع بَصِيرٌ بكل ما يبصر. و قد أخرج البيهقى فى الشعب عن عطاء قال: سألت ابن عباس عن قوله:
وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ الآية، قال: هذه من كنوز علمى، سألت عنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: «أما الظاهرة:
فما سوّى من خلقك، و أمّا الباطنة: فما ستر من عورتك، و لو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم».
و أخرج ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، و الديلمى، و ابن النجار عنه قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن قوله وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً فقال: أما الظاهرة: فالإسلام و ما سوّى من خلقك و ما أسبغ عليك من رزقه، و أمّا الباطنة: فما ستر من مساوئ عملك». و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: النعمة الظاهرة: الإسلام، و النعمة الباطنة: كل ما يستر عليكم من الذنوب، و العيوب، و الحدود. و أخرج الفريابى، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا أنه قال فى تفسير الآية هى:
لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن أبى إسحاق، و ابن جرير، عنه أيضا فى قوله وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ الآية «أن أحبار اليهود قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بالمدينة: يا محمّد! أ رأيت قولك وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا «٢» إيّانا تريد أم قومك؟ فقال كلّا، فقالوا: أ لست تتلو فيما جاءك أنّا قد أوتينا التوراة و فيها تبيان كلّ شى‌ء؟ فقال: إنّها فى علم اللّه قليل، و أنزل اللّه وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ الآية. و أخرجه ابن مردويه عنه بأطول منه. و أخرج ابن مردويه أيضا عن ابن مسعود نحوه.

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٢٩ الى ٣۴]

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۳۴)

---

(۱). يوسف: ۸۲.

(۲). الإسراء: ۸۵.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۲۸۱

الخطاب بقوله: أَ لَمْ تَرَ لكلّ أحد يصلح لذلك، أو للرسول صلّى اللّه عليه و سلم أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ أى: يدخل كلّ واحد منهما فى الآخر، و قد تقدّم تفسيره فى سورة: الحج، و الأنعام وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ أى: ذللهما، و جعلهما منقادين بالطلوع، و الأفول تقديرا للآجال، و تتميما للمنافع، و الجملة معطوفة على ما قبلهما مع اختلافهما كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى اختلف فى الأجل المسمى ماذا هو؟ فقيل: هو يوم القيامة، و قيل: وقت الطلوع: و وقت الأفول، و الأوّل: أولى، و جملة:

وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ معطوفة على أن اللّه يولج، أى: خبير بما تعملونه من الأعمال؛ لا تخفى عليه منها خافية، لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة، فقدرته على العلم بما تعملونه بالأولى، قرأ الجمهور:

«تعملون» بالفوقية، و قرأ السلمى و نصر بن عامر و الدورى عن أبى عمرو: بالتحتية على الخبر، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره، و الباء فى بِأَنَّ اللَّهَ للسببية، أى: ذلك بسبب أنه سبحانه هُوَ الْحَقُّ و غيره الباطل، أو متعلقة بمحذوف، أى: فعل ذلك ليعلموا أنه الحق وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ قال مجاهد: الذى يدعون من دونه هو الشيطان، و قيل: ما أشركوا به من صنم، و هذا أولى وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ معطوفة على جملة «أن اللّه هو الحق» و المعنى: أن ذلك الصنع البديع الذى وصفه فى الآيات المتقدّمة للاستدلال به على حقية اللّه، و بطلان ما سواه، و علوّه و كبريائه: هو العلىّ فى مكانته، ذو الكبرياء فى ربوبيته، و سلطانه. ثم ذكر من عجيب صنعه، و بديع قدرته نوعا آخر فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ أى: بلطفه بكم، و رحمته لكم، و ذلك من أعظم نعمه عليكم لأنها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم فى البحر لطلب الرزق، و قرأ ابن هرمز «بنعمات اللّه» جمع نعمة لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ من للتبعيض، أى: ليريكم بعض آياته. قال يحيى بن سلام: و هو جرى السفن فى البحر بالريح.

و قال ابن شجرة: المراد بقوله: «من آياته ما يشاهدونه من قدرة اللّه. و قال النقاش: ما يرزقهم اللّه فى البحر إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ هذه الجملة تعليل لما قبلها، أى: إن فيما ذكر لآيات عظيمة لكل من له صبر بليغ، و شكر كثير يصبر عن معاصى اللّه و يشكر نعمه وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ شبه الموج لكبره: بما يظلّ الإنسان من جبل، أو سحاب، أو غيرهما، و إنما شبه الموج و هو واحد بالظلل.

و هى جمع، لأن الموج يأتى شيئا بعد شى‌ء، و يركب بعضه بعضا. و قيل: إن الموج فى معنى الجمع؛ لأنه مصدر، و أصل الموج: الحركة، و الازدحام، و منه يقال: ماج البحر، و ماج الناس. و قرأ محمّد ابن الحنفية «موج كالظلال» جمع ظلّ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى: دعوا اللّه وحده؛ لا يعوّلون على غيره فى خلاصهم؛ لأنهم يعلمون أنه لا يضرّ، و لا ينفع سواه، و لكنه تغلب على طبائعهم العادات، و تقليد الأموات، فإذا وقعوا فى مثل هذه الحالة اعترفوا بوحدانية اللّه، و أخلصوا دينهم له طلبا للخلاص، و السلامة مما وقعوا فيه فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ صاروا على قسمين: فقسم مُقْتَصِدٌ أى: موف بما عاهد اللّه فى البحر من إخلاص الدين له؛ باق على ذلك بعد أن نجاه اللّه من هول البحر، و أخرجه إلى البرّ سالما. قال الحسن: معنى مقتصد مؤمن متمسك بالتوحيد،

و الطاعة. و قال مجاهد: مقتصد فی القول؛ مضمر للكفر،

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۸۲

و الأولى ما ذكرناه، و يكون فی الكلام حذف، و التقدير: فمنهم مقتصد، و منهم كافر، و يدلّ على هذا المحذوف قوله: وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ الختر: أسوأ الغدر و أقبحه، و منه قول الأعشى:

بالأبلق الفرد من تيماء منزلهحصن حصين و جار غير ختّار

قال الجوهری: الختر: الغدر، يقال ختره؛ فهو ختار. قال الماوردی: و هذا قول الجمهور. و قال ابن عطية: إنه الجاحد، و جحد الآيات: إنكارها، و الكفور: عظيم الكفر بنعم اللّه سبحانه يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِی والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ أی: لا يغنی الوالد عن ولده شيئا، و لا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه. و قد تقدّم بيان معناه فی البقرة وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً ذكر سبحانه فردين من القرابات، و هو الوالد، و الولد، و هما الغاية فی الحنوّ و الشفقة على بعضهم البعض، فما عداهما من القرابات لا يجزی بالأولى، فكيف بالأجانب. اللهمّ اجعلنا ممن لا يرجو سواك، و لا يعوّل على غيرك إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ لا يتخلف؛ فما وعد به من الخير و أوعد به من الشرّ، فهو كائن لا محالة فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا و زخارفها، فإنها زائلة ذاهبة وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ قرأ الجمهور «الغرور» بفتح الغين المعجمة، و الغرور: هو الشيطان، لأن من شأنه أن يغرّ الخلق، و يمنيهم بالأمانی الباطلة، و يلهيهم عن الآخرة، و يصدّهم عن طريق الحق. و قرأ سماك بن حرب و أبو حيوة و ابن السميقع بضم الغين مصدر غرّ يغرّ غرورا، و يجوز أن يكون مصدرا؛ واقعا وصفا للشيطان على المبالغة إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ أی: علم وقتها الذی تقوم فيه. قال الفراء: إن معنى هذا الكلام النفی، أی: ما يعلمه أحد إلا اللّه عزّ و جلّ. قال النحاس: و إنما صار فيه معنى النفی لما ورد عن النبی صلّى اللّه عليه و سلم أنه قال فی قوله: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ «۱» إنها هذه وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ فی الأوقات التی جعلها معينة لإنزاله و لا يعلم ذلك غيره وَ يَعْلَمُ ما فِی الْأَرْحامِ من الذكور و الإناث، و الصلاح و الفساد وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة، و الأنبياء، و الجنّ، و الإنس ما ذا تَكْسِبُ غَداً من كسب دين أو كسب دنيا وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ أی: بأیّ مكان يقضی اللّه عليها بالموت.

قرأ الجمهور «و ينزل الغيث» مشدّدا. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و حمزة، و الكسائی مخففا. و قرأ الجمهور «بأیّ أرض» و قرأ أبیّ بن كعب و موسى الأهوازی «بأية» و جوّز ذلك الفراء و هی لغة ضعيفة. قال الأخفش: يجوز أن يقال مررت بجارية أیّ جارية. قال الزجاج: من ادّعى أنه يعلم شيئا من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فی قوله (ختار) قال: جحاد. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ قال: هو الشيطان. و كذا قال مجاهد و عكرمة و قتادة. و أخرج الفريابی، و ابن جرير، و ابن أبی حاتم عن مجاهد قال: «جاء رجل من أهل البادية إلى النبی صلّى اللّه عليه و سلم فقال:

إن امرأتی حبلى فأخبرنی ما تلد؟ و بلادنا مجدبة فأخبرنی متى ينزل الغيث؟ و قد علمت متى ولدت فأخبرنی

---

(۱). الأنعام: ۵۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۸۳

متى أموت؟ فأنزل اللّه إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ الآية». و أخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه و زاد:

و قد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا؟ و زاد أيضا أنه سأله عن قيام الساعة. و أخرج البخاری و مسلم و غيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلا اللّه: لا يعلم ما فی غد إلا اللّه، و لا متى تقوم

السّاعة إلا اللّه، و لا ما فى الأرحام إلا اللّه، و لا متى ينزل الغيث إلا اللّه، و ما تدرى نفس بأىّ أرض تموت إلا اللّه»، و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة فى حديث سؤاله عن الساعة و جوابه بأشراطها، ثم قال: «خمس لا يعلمهنّ إلا اللّه» ثم تلا هذه الآية. و فى الباب أحاديث.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۸۴

سورة السّجدة

اشارة

و هى مكية كما رواه ابن الضريس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس، و رواه ابن مردويه عن ابن الزبير. و أخرج ابن النجار عن ابن عباس قال: هى مكية سوى ثلاث آيات أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً إلى تمام الآيات الثلاث، و كذا قال الكلبى، و مقاتل، و قيل: إلا خمس آيات من قوله: تَتَجافى جُنُوبُهُمْ إلى قوله: الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ و قد ثبت عند مسلم، و أهل السنن من حديث أبى هريرة أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم كان يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة ب «الم تنزيل» السجدة، و «هل أتى على الإنسان» «۱».

و أخرجه البخارى و مسلم و غيرهما من حديثه أيضا. و أخرج أبو عبيد فى فضائله و أحمد، و عبد بن حميد، و الدارمى، و الترمذى، و النسائى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن جابر قال: «كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لا ينام حتى يقرأ «الم تنزيل» السّجدة، و «تبارك الذى بيده الملك» «۲»». و أخرج أبو نصر و الطبرانى و البيهقى فى سننه عن ابن عباس يرفعه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من صلّى أربع ركعات خلف العشاء الأخيرة قرأ فى الركعتين الأوليين «قل يا أيها الكافرون» و «قل هو الله أحد» و فى الركعتين الأخريين «تبارك الذى بيده الملك» و «الم تنزيل» السجدة كتبن له كأربع ركعات من ليلة القدر». و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ «تبارك الذى بيده الملك» و «الم تنزيل» السجدة، بين المغرب و العشاء الآخرة فكأنّما قام ليلة القدر». و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت:
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ فى ليلة «الم تنزيل» السجدة، و «يس» و «اقتربت الساعة» و «تبارك الذى بيده الملك» كنّ له نورا و حرزا من الشيطان، و رفع فى الدرجات إلى يوم القيامة».

و أخرج ابن الضريس عن المسيب بن رافع أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «الم تنزيل» تجىء لها جناحان يوم القيامة تظل صاحبها و تقول: لا سبيل عليه، لا سبيل عليه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة السجده (۳۲): الآيات ۱ الى ۱۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۲) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۳) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (۴)

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (۵) ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ

الرَّحِيمُ (۶) الَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْ‏ءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِینٍ (۷) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِینٍ (۸) ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِیهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِیلاً ما تَشْکُرُونَ (۹)

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِی الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ کافِرُونَ (۱۰) قُلْ یَتَوَفَّاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ ثُمَّ إِلی رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ (۱۱)

---

(۱). الإنسان: ۱.

(۲). الملک: ۱.

فتح القدیر، ج‏۴، ص: ۲۸۵

قوله: الم قد قدمنا الکلام علی فاتحة هذه السورة، و علی محلها من الإعراب فی سورة البقرة، و فی مواضع کثیرة من فواتح السور، و ارتفاع تَنْزِیلُ علی أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر؛ علی تقدیر أن: الم فی محل رفع علی أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو خبر لقوله: الم علی تقدیر أنه اسم للسورة، و لا رَیْبَ فِیهِ فی محل نصب علی الحال، و یجوز أن یکون ارتفاع تنزیل علی أنه مبتدأ؛ و خبره لا ریب فیه، و من ربّ العالمین فی محل نصب علی الحال، و یجوز أن تکون هذه کلها أخبارا للمبتدأ قبل تنزیل، أو لقوله: الم علی تقدیر أنه مبتدأ لا علی تقدیر أنه حروف مسروده علی نمط التعدید. قال مکی: و أحسن الوجوه أن تکون «لا ریب فیه»: فی موضع الحال، و «من رب العالمین»: الخبر، و المعنی علی هذه الوجوه:

أن تنزیل الکتاب المتلوّ لا ریب فیه، و لا شکّ، و أنه منزل من ربّ العالمین، و أنه لیس بکذب، و لا سحر، و لا کهانة، و لا أساطیر الأوّلین، و «أم» فی أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ هی: المنقطعة التی بمعنی: بل و الهمزة، أی: بل أ یقولون هو مفتری، فأضرب عن الکلام الأوّل إلی ما هو معتقد الکفار مع الاستفهام المتضمن للتقریع و التوبیخ، و معنی «افتراه»: افتعله، و اختلقه. ثم أضرب عن معتقدهم إلی بیان ما هو الحق فی شأن الکتاب فقال: بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فکذبهم سبحانه فی دعوی الافتراء، ثم بین العلة التی کان التنزیل لأجلها فقال: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِیرٍ مِنْ قَبْلِکَ و هم العرب، و کانوا أمة أمیة لم یأتهم رسول، و قیل:

قریش خاصة، و المفعول الثانی: لتنذر محذوف، أی: لتنذر قوما العقاب، و جملة ما أتاهم من نذیر فی محل نصب علی الحال، و من قبلک: صفة لنذیر. و جوّز أبو حیان أن تکون ما موصولة، و التقدیر: لتنذر قوما العقاب الذی أتاهم من نذیر قبلک، و هو ضعیف جدّا، فإن المراد تعلیل الإنزال بالإنذار لقوم لم یأتهم نذیر قبله، لا تعلیله بالإنذار لقوم قد أنذر بما أنذرهم به، و قیل: المراد بالقوم: أهل الفترة ما بین عیسی و محمّد صلّی اللّه علیه و سلم لَعَلَّهُمْ یَهْتَدُونَ رجاء أن یهتدوا، أو کی یهتدوا اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ قد تقدّم تفسیر هذه الآیة فی سورة الأعراف، و المراد من ذکرها هنا: تعریفهم کمال قدرته، و عظیم صنعه لیسمعوا القرآن، و یتأملوه، و معنی خلق: أوجد و أبدع. قال الحسن: الأیام هنا هی من أیام الدنیا، و قیل: مقدار الیوم: ألف سنة فی سنی الدنیا، قاله الضحاک. فعلی هذا المراد بالأیام هنا هی من أیام الآخرة؛ لا من أیام الدنیا، و لیست ثم للترتیب فی قوله: ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ و قد تقدّم تفسیر هذا مستوفی ما لَکُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا شَفِیعٍ أی: لیس لکم من دون اللّه، أو من دون عذابه من ولیّ یوالیکم، و یردّ عنکم عذابه، و لا شفیع یشفع لکم عنده أَ فَلا تَتَذَکَّرُونَ تذکر تدبر

فتح القدیر، ج‏۴، ص: ۲۸۶

و تفکر، و تسمعون هذه المواعظ سماع من یفهم و یعقل حتی تنتفعوا بها یُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَی الْأَرْضِ لما بین سبحانه خلق السموات و الأرض، و ما بینهما بین تدبیره لأمرها، أی: یحکم الأمر بقضائه و قدره من السماء إلی الأرض، و المعنی: ینزل أمره

من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال سبحانه:
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَ «١» و مسافة ما بين سماء الدنيا و الأرض التى تحتها نزولا و طلوعا ألف سنة من أيام الدنيا. و قيل المراد بالأمور: المأمور به من الأعمال، أى: ينزله مدبرا من السماء إلى الأرض. و قيل: يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة، و غيرها نازلة أحكامها و آثارها إلى الأرض. و قيل: ينزل الوحى مع جبريل. و قيل: العرش موضع التدبير كما أن ما دون العرش موضع التفصيل كما فى قوله: ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ... يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ «٢» و ما دون السموات موضع التصرّف.
قال اللّه: وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا «٣» ثم لما ذكر سبحانه تدبير الأمر قال: ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ أى: ثم يرجع ذلك الأمر و يعود ذلك التدبير إليه سبحانه فى يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، و ذلك باعتبار مسافة النزول من السماء، و الطلوع من الأرض كما قدّمنا. و قيل:
إن المراد أنه يعرج إليه فى يوم القيامة الذى مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، و ذلك حين ينقطع أمر الدنيا، و يموت من فيها. و قيل: هى أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع من يرسله إليها من الملائكة، و المعنى: أنه يثبت ذلك عنده، و يكتب فى صحف ملائكته ما عمله أهل الأرض فى كلّ وقت من الأوقات؛ إلى أن تبلغ مدة الدنيا آخرها. و قيل: معنى يعرج إليه: يثبت فى علمه موجودا بالفعل فى برهة من الزمان؛ هى مقدار ألف سنة، و المراد طول امتداد ما بين تدبير الحوادث، و حدوثها من الزمان، و قيل: يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها فى اللوح المحفوظ؛ فتنزل بها الملائكة، ثم تعرج إليه فى زمان هو كألف سنة من أيام الدنيا. و قيل: يقضى قضاء ألف سنة فتنزل به الملائكة، ثم تعرج بعد الألف لألف آخر. و قيل: المراد أن الأعمال التى هى طاعات يدبرها اللّه سبحانه، و ينزل بها ملائكته، ثم لا يعرج إليه منها إلا الخالص بعد مدّة متطاولة لقلّة المخلصين من عباده. و قيل: الضمير فى يعرج يعود إلى الملك و إن لم يجر له ذكر لأنه مفهوم من السياق، و قد جاء صريحا فى قوله: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ «٤» و الضمير فى إليه يرجع إلى السماء على لغة من يذكرها، أو إلى مكان الملك الذى يرجع إليه، و هو الذى أقرّه اللّه فيه. و قيل المعنى: يدبر أمر الشمس فى طلوعها و غروبها، و رجوعها إلى موضعها من الطلوع فى يوم كان مقداره فى المسافة ألف سنة. و قيل المعنى: إن الملك يعرج إلى اللّه فى يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة، لأن ما بين السماء و الأرض مسافة خمسمائة عام، فمسافة النزول من السماء إلى الأرض، و الرجوع من الأرض إلى السماء ألف عام، و قد رجح هذا جماعة من المفسرين منهم ابن جرير. و قيل: مسافة النزول ألف سنة، و مسافة الطلوع ألف سنة، روى ذلك عن الضحاك. و هذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة، و ليس المراد به مسمى اليوم الذى هو مدّة النهار بين ليلتين، و العرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر:

---

(١). الطلاق: ١٢.

(٢). الرعد: ٢.

(٣). الفرقان: ٥٠.

(٤). المعارج: ۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٨٧ يومان يوم مقامات و أنديةو يوم سير إلى الأعداء تأويب «١»
فإن الشاعر لم يرد يومين مخصوصين، و إنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين، فعبر عن كلّ واحد من الشطرين بيوم. قرأ الجمهور «يعرج» على البناء للفاعل. و قرأ ابن أبى عبلة على البناء للمفعول، و الأصل يعرج به، ثم حذف حرف الجار فاستتر الضمير. و قد

استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية و بين قوله سبحانه: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ «۲» فقيل فى الجواب إن يوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، و لكنه باعتبار صعوبته و شدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة، و العرب تصف كثيرا يوم المكروه بالطول، كما تصف يوم السرور بالقصر كما قال الشاعر «۳»:

و يوم كظلّ الرمح قصّر طولهدم الزّقّ عنّا و اصطفاق المزاهر

و قول الآخر:

و يوم كإبهام القطاة قطعته و قيل: إن يوم القيامة فيه أيام؛ فمنها ما مقداره ألف سنة، و منها ما مقداره خمسون ألف سنة. و قيل: هى أوقات مختلفة يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة، ثم ينقل إلى نوع آخر فيعذب به خمسين ألف سنة. و قيل: مواقف القيامة خمسون موقفا كلّ موقف ألف سنة، فيكون معنى يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ أنه يعرج إليه فى وقت من تلك الأوقات، أو موقف من تلك المواقف. و حكى الثعلبى عن مجاهد و قتادة و الضحاك أنه أراد سبحانه فى قوله: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التى هى مقام جبريل، و المراد: أنه يسير جبريل و من معه من الملائكة فى ذلك المقام إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، فى مقدار يوم واحد من أيام الدنيا، و أراد بقوله: فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ المسافة التى بين الأرض و بين سماء الدنيا هبوطا و صعودا، فإنها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا. و قيل: إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، و ذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ فى يوم أو يومين و انقطع؛ لا يكون مثل من ينفذ أمره فى سنين متطاولة، فقوله:

فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ يعنى: يدبر الأمر فى زمان، يوم منه: ألف سنة. فكم يكون الشهر منه؟ و كم تكون السنة منه؟ و على هذا فلا فرق بين ألف سنة، و بين خمسين ألف سنة. و قيل: غير ذلك.

و قد وقف حبر الأمة ابن عباس لما سئل عن الآيتين، كما سيأتى فى آخر البحث إن شاء اللّه. قرأ الجمهور مِمَّا تَعُدُّونَ بالفوقية على الخطاب، و قرأ الحسن و السلمى و ابن وثاب و الأعمش بالتحتية على الغيبة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى اللّه سبحانه باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف، و هو مبتدأ و خبره عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أى: العالم بما غاب عن الخلق، و ما حضرهم. و فى هذا: معنى التهديد لأنه سبحانه إذا علم

---

(۱). التأويب: سير النهار كله إلى الليل، يقال: أوّب القوم تأويبا، أى ساروا إلى الليل، و البيت لسلامة بن جندل.

(۲). المعارج: ۴.

(۳). هو شرمة بن الطفيل.

بما يغيب و ما يحضر، فهو مجاز لكل عامل بعمله، أو: فهو يدبر الأمر بما تقضيه حكمته الْعَزِيزُ القاهر الغالب الرَّحِيمُ بعباده، و هذه أخبار لذلك المبتدأ، و كذلك قوله: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ هو خبر آخر. قرأ الجمهور «خلقه» بفتح اللام. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و ابن عامر بإسكانها، فعلى القراءة الأولى: هو فعل ماض نعتا لشىء، فهو فى محل جرّ، و قد اختار قراءة الجمهور أبو عبيد، و أبو حاتم، و يجوز أن تكون صفة للمضاف، فيكون فى محل نصب. و أما على القراءة الثانية: ففى نصبه أوجه: الأوّل أن يكون بدلا من كلّ شىء بدل اشتمال، و الضمير عائد إلى كلّ شىء، و هذا هو الوجه المشهور عند النحاة.

الثانى: أنه بدل كلّ من كلّ، و الضمير راجع إلى اللّه سبحانه؛ و معنى أحسن: حسن، لأنه ما من شىء إلا و هو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة، فكل المخلوقات حسنة. الثالث: أن يكون كلّ شىء هو المفعول الأوّل، و خلقه: هو المفعول الثانى على تضمين

أحسن: معنى أعطى، و المعنى: أعطى كلّ شىء خلقه الذى خصه به. و قيل: على تضمينه معنى ألهم. قال الفراء: ألهم خلقه كلّ شىء مما يحتاجون إليه. الرابع: أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة، أى: خلقه خلقا كقوله: صُنْعَ اللَّهِ «۱» و هذا قول سيبويه، و الضمير:

يعود إلى اللّه سبحانه. و الخامس: أنه منصوب بنزع الخافض، و المعنى أحسن كلّ شىء فى خلقه، و معنى الآية: أنه أتقن و أحكم خلق مخلوقاته، فبعض المخلوقات و إن لم تكن حسنة فى نفسها، فهى متقنة محكمة، فتكون هذه الآية معناها معنى: أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ «۲» أى: لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة، و لا خلق البهيمة على خلق الإنسان، و قيل: هو عموم فى اللفظ خصوص فى المعنى، أى: أحسن خلق كلّ شىء حسن وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ يعنى: آدم خلقه من طين، فصار على صورة بديعة، و شكل حسن جَعَلَ نَسْلَهُ أى: ذريته مِنْ سُلالَةٍ سميت الذرية سلالة: لأنها تسلّ من الأصل، و تنفصل عنه، و قد تقدم تفسيرها فى سور المؤمنين؛ و معنى مِنْ ماءٍ مَهِينٍ من ماء ممتهن؛ لا خطر له عند الناس و هو المنىّ. و قال الزجاج: من ماء ضعيف ثُمَّ سَوَّاهُ أى: الإنسان الذى بدأ خلقه من طين، و هو آدم، أو جميع النوع، و المراد: أنه عدل خلقه، و سوّى شكله، و ناسب بين أعضائه وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ الإضافة للتشريف، و التكريم، و هذه الإضافة تقوّى أن الكلام فى آدم، لا فى ذريته، و إن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع. ثم خاطب جميع النوع فقال: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ أى: خلق لكم هذه الأشياء تكميلا لنعمته عليكم، و تتميما لتسويته لخلقكم حتى تجتمع لكم النعم، فتسمعون كلّ مسموع، و تبصرون كلّ مبصر، و تتعقلون كلّ متعقل، و تفهمون كلّ ما يفهم، و أفرد السمع لكونه مصدرا يشمل القليل و الكثير، و خص السمع بذكر المصدر دون البصر، و الفؤاد بذكرهما بالاسم و لهذا جمعا، لأن السمع قوّة واحدة و لها محل واحد، و هو الأذن و لا اختيار لها فيه، فإن الصوت يصل إليها، و لا تقدر على رده، و لا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض؛ بخلاف الأبصار فمحلها العين و له فيه اختيار، فإنها تتحرّك إلى جانب المرئى دون غيره، و تطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشىء؛ و كذلك الفؤاد له نوع اختيار فى إدراكه،

---

(۱). النمل: ۸۸.

(۲). طه: ۵۰.

فيتعقل هذا دون هذا، و يفهم هذا دون هذا. قرأ الجمهور «و بدأ» بالهمز، و الزهرى بألف خالصة بدون همز، و انتصاب قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ على أنه صفة مصدر محذوف، أى: شكرا قليلا، أو صفة زمان محذوف، أى: زمانا قليلا. و فى هذا بيان لكفرهم لنعم اللّه، و تركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ قد تقدم اختلاف القراء فى هذه الهمزة، و فى الهمزة التى بعدها، و الضلال:

الغيبوبة، يقال: ضلّ الميت فى التراب إذا غاب و بطل، و العرب تقول للشىء إذا غلب عليه غيره حتى خفى أثره قد ضلّ. و منه قول الأخطل:

كنت القذى فى موج أكدر مزبدقذف الأتىّ به فضلّ ضلالا

قال قطرب: معنى ضللنا فى الأرض: غبنا فى الأرض. قرأ الجمهور «ضللنا» بفتح ضاد معجمة، و لام مفتوحة بمعنى: ذهبنا وضعنا، و صرنا ترابا، و غبنا عن الأعين، و قرأ يحيى بن يعمر، و ابن محيصن، و أبو رجاء «ضللنا» بكسر اللام، و هى لغة العالية من نجد. قال الجوهرى: و أهل العالية يقولون: ضللت بالكسر. قال و أضله: أى أضاعه و أهلكه، يقال ضلّ الميت إذا دفن. و قرأ علىّ بن

أبى طالب، و الحسن و الأعمش، و أبان بن سعيد «صللنا» بصاد مهملة و لام مفتوحة: أى أنتنا. قال النحاس: و لا يعرف فى اللغة صللنا، و لكن يقال: صلّ اللحم: إذا أنتن. قال الجوهرى: صلّ اللحم يصلّ بالكسر صلولا: إذا أنتن، مطبوخا كان أو نيئا، و منه قول الحطيئة:

ذاک فتى يبذل ذا قدرةلا يفسد اللّحم لديه الصّلول

أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أى: نبعث، و نصير أحياء، و الاستفهام: للاستنكار. و هذا قول منكرى البعث من الكفار، فأضرب اللّه سبحانه من بيان كفرهم بإنكار البعث إلى بيان ما هو أبلغ منه، و هو كفرهم بلقاء اللّه، فقال: بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ أى: جاحدون له مكابرة و عنادا، فإن اعترافهم بأنه المبتدئ للخلق؛ يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة. ثم أمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يبين لهم الحق و يردّ عليهم ما زعموه من الباطل، فقال: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ يقال: توفاه اللّه و استوفى روحه: إذا قبضه إليه، و ملك الموت: هو عزرائيل، و معنى و كلّ بكم: و كلّ بقبض أرواحكم عند حضور آجالكم ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ أى: تصيرون إليه أحياء بالبعث و النشور لا إلى غيره؛ فيجازيكم بأعمالكم، إن خيرا فخير، و إن شرا فشر.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ الآية قال: هذا فى الدنيا تعرج الملائكة إليه فى يوم مقداره ألف سنة. و أخرج الفريابى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه عنه فى قوله: فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ قال: من الأيام الستة التى خلق اللّه فيها السموات و الأرض.

و أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى المصاحف و الحاكم و صححه عن عبد اللّه بن أبى مليكة قال: دخلت على عبد اللّه بن عباس أنا و عبد اللّه بن فيروز مولى عثمان

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۹۰

ابن عفان، فقال له ابن فيروز: يا أبا عباس. قوله: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ فكأن ابن عباس اتهمه فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال:

إنما سألتك لتخبرنى، فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما اللّه فى كتابه اللّه أعلم بهما، و أكره أن أقول فى كتاب اللّه ما لا أعلم، فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب، فسأله عنهما إنسان؛ فلم يخبره و لم يدر. فقلت: ألا أخبرک بما حضرت من ابن عباس؟ قال: بلى، فأخبرته فقال للسائل: هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيها، و هو أعلم منى. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ قال: لا ينتصف النهار فى مقدار يوم من أيام الدنيا فى ذلک اليوم حتى يقضى بين العباد، فينزل أهل الجنة الجنة، و أهل النار النار، و لو كان إلى غيره لم يفرغ فى خمسين ألف سنة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ من أيامكم هذه، و مسيرة ما بين السماء و الأرض خمسمائة عام. و أخرج ابن أبى شيبة، و الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس أنه كان يقرأ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ قال: أما رأيت القردة ليست بحسنة، و لكنه أحكم خلقها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية أنه قال: أما إن است القردة ليست بحسنة و لكنه أحكم خلقها، و قال خَلَقَهُ صورته. و قال أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ القبيح و الحسن، و العقارب و الحيات، و كلّ شىء مما خلق، و غيره لا يحسن شيئا من ذلک. و أخرج الطبرانى عن أبى أمامة قال: بينما نحن مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذ لقينا عمرو ابن زرارة الأنصارىّ فى حلّة قد أسبل، فأخذ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بناحية ثوبه، فقال: يا رسول اللّه! إنى أحمش السّاقين، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يا عمرو بن زرارة إنّ اللّه عزّ و جلّ قد أحسن كلّ شىء خلقه، يا عمرو بن زرارة إنّ اللّه لا يحبّ المسبلين». و أخرج أحمد و الطبرانى عن الشريد بن سويد قال: أبصر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم رجلا قد أسبل إزاره، فقال: ارفع إزارک، فقال: يا رسول اللّه إنى أحنف، تصطکّ ركبتاى، فقال: ارفع إزارک كلّ خلق اللّه حسن».

[سورة السجده (٣٢): الآيات ١٢ الى ٢٢]

وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١۴) إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١۵) تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (١۶)

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٩١

قوله: وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ المراد بالمجرمين: هم القائلون أ إذا ضللنا، و الخطاب هنا لكل من يصلح له، أو لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و يجوز أن يراد بالمجرمين: كل مجرم، و يدخل فيه أولئك القائلون دخولا أوليا، و معنى: ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ مطأطئوها حياء و ندما على ما فرط منهم فى الدنيا من الشرك باللّه، و العصيان له، و معنى عند ربهم: عند محاسبته لهم. قال الزجاج: و المخاطبة للنبى صلّى اللّه عليه و سلم مخاطبة لأمته، فالمعنى: و لو ترى يا محمّد منكرى البعث يوم القيامة لرأيت العجب رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا أى: يقولون: ربنا أبصرنا الآن ما كنا نكذب به، و سمعنا ما كنا ننكره، و قيل: أبصرنا صدق وعيدك و سمعنا تصديق رسلك، فهؤلاء أبصروا حين لم ينفعهم البصر، و سمعوا حين لم ينفعهم السمع فَارْجِعْنا إلى الدنيا نَعْمَلْ عملا صالِحاً كما أمرتنا إِنَّا مُوقِنُونَ أى: مصدّقون، و قيل:

مصدقون بالذى جاء به محمّد صلّى اللّه عليه و سلم، وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن؛ طمعا فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدنيا، و أنى لهم ذلك فقد حقت عليهم كلمة اللّه فإنهم وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ «١» و قيل معنى: إِنَّا مُوقِنُونَ أنها قد زالت عنهم الشكوك التى كانت تخالطهم فى الدنيا لما رأوا ما رأوا، و سمعوا ما سمعوا، و يجوز أن يكون معنى أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا صرنا ممن يسمع و يبصر، فلا يحتاج إلى تقدير مفعول، و يجوز أن يكون صالحا مفعولا لنعمل، كما يجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف، و جواب لو محذوف؛ أى: لرأيت أمرا فظيعا و هولا هائلا وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها هذا ردّ عليهم لما طلبوا الرجعة، أى: لو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها، فهدينا الناس جميعا فلم يكفر منهم أحد. قال النحاس: فى معنى هذا قولان: أحدهما أنه فى الدنيا، و الآخر أنه فى الآخرة: أى و لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ و جملة لو شئنا: مقدّرة بقول معطوف على المقدّر قبل قوله:

«أبصرنا» أى: و نقول: لو شئنا، و معنى: وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی أى: نفذ قضائى و قدرى، و سبقت كلمتى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ هذا هو القول الذى وجب من اللّه، و حقّ على عباده، و نفذ فيه قضاؤه، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطى كلّ نفس هداها، و إنما قضى عليهم بهذا، لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة، و أنهم ممن يختار الضلالة على الهدى، و الفاء فى قوله: فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله، و الباء فى «بما نسيتم» للسببية، و فيه إشعار بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق القول المتقدّم، بل بذاك و هذا.

و اختلف فى النسيان المذكور هنا، فقيل: هو النسيان الحقيقى، و هو الذى يزول عنده الذكر؛ و قيل:
هو الترك. و المعنى على الأوّل: أنهم لم يعملوا لذلك اليوم، فكانوا كالناسين له الذين لا يذكرونه. و على الثانى: لا بدّ من تقدير مضاف قبل لقاء، أى: ذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا، و رجح الثانى: المبرد و أنشد:

---

(١). الأنعام: ٢٨.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٩٢ كأنه خارجا من جنب صفحته‌سفّود شرب نسوه عند مفتأد «١»

أى تركوه، و كذا قال الضحاك، و يحيى بن سلام: إن النسيان هنا: بمعنى الترك. قال يحيى بن سلام:
و المعنى: بما تركتم الإيمان بالبعث فى هذا اليوم تركناكم من الخير، و كذا قال السدّى، و قال مجاهد: تركناكم فى العذاب. و قال مقاتل: إذا دخلوا النار. قالت لهم الخزنة: ذوقوا العذاب بما نسيتم، و استعار الذوق للإحساس، و منه قول طفيل:
فذوقوا كما ذقنا غداة محجّرمن الغيظ فى أكبادنا و التّحوّب
و قوله: وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تكرير لقصد التأكيد، أى: ذوقوا العذاب الدائم الذى لا ينقطع أبدا بما كنتم تعملونه فى الدنيا من الكفر و المعاصى. قال الرازى فى تفسيره: إن اسم الإشارة فى قوله: بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا يحتمل ثلاثة أوجه: أن يكون إشارة إلى اللقاء، و أن يكون إشارة إلى اليوم، و أن يكون إشارة إلى العذاب، و جملة: إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا مستأنفة لبيان ما يستحق الهداية إلى الإيمان، و من لا يستحقها؛ إنما يصدق بآياتنا و ينتفع بها الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً لا غيرهم ممن يذكر بها، أى: يوعظ بها و لا يتذكر و لا يؤمن بها، و معنى «خرّوا سجدا» سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيما لآيات اللّه، و خوفا من سطوته و عذابه: وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أى: نزّهوه عن كلّ ما لا يليق به متلبسين بحمده على نعمه التى أجلّها و أكملها: الهداية إلى الإيمان، و المعنى: قالوا فى سجودهم: سبحان اللّه و بحمده، أو سبحان ربى الأعلى و بحمده. و قال سفيان: المعنى: صلوا حمدا لربهم، و جملة: وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ فى محل نصب على الحال، أى: حال كونهم خاضعين للّه، متذللين له؛ غير مستكبرين عليه تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ أى: ترتفع و تنبو يقال: جفى الشىء عن الشىء، و تجافى عنه:
إذا لم يلزمه و نبا عنه، و المضاجع: جمع المضجع، و هو الموضع الذى يضطجع فيه. قال الزجاج و الرمانى:
التجافى و التجفى إلى جهة فوق، و كذلك هو فى الصفح عن المخطئ فى سبّ و نحوه، و الجنوب: جمع جنب، و الجملة فى محل نصب على الحال، أى: متجافية جنوبهم عن مضاجعهم، و هم المتهجدون فى الليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش، و به قال الحسن، و مجاهد، و عطاء، و الجمهور، و المراد بالصلاة صلاة التنفل، بالليل من غير تقييد. و قال قتادة و عكرمة: هو التنفل ما بين المغرب و العشاء، و قيل: صلاة العشاء فقط، و هو رواية عن الحسن و عطاء. و قال الضحاك: صلاة العشاء و الصبح فى جماعة، و قيل: هم الذين يقومون لذكر اللّه سواء كان فى صلاة أو غيرها يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً هذه الجملة فى محل نصب على الحال أيضا من الضمير الذى فى جنوبهم، فهى حال بعد حال، و يجوز أن تكون الجملة الأولى مستأنفة لبيان نوع من أنواع طاعاتهم، و المعنى: تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين ربهم خوفا من عذابه، و طمعا فى رحمته

---

(١). السّفود: حديدة يشوى عليها اللحم. و الشّرب: جماعة القوم يشربون.

و المفتأد: موضع النار الذى يشوى فيه. و البيت من معلقة النابغة الذبيانى.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٩٣

وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ أى: من الذى رزقناهم أو من رزقهم، و ذلك الصدقة الواجبة، و قيل: صدقة النفل، و الأولى: الحمل على

العموم، و انتصاب خوفا و طمعا: على العلة، و يجوز أن يكونا مصدرين منتصبين بمقدّر فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أَخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ النكرة فى سياق النفى تفيد العموم، أى: لا تعلم نفس من النفوس- أى نفس كانت- ما أخفاه اللّه سبحانه لأولئك الذين تقدّم ذكرهم بما تقرّ به أعينهم، قرأ الجمهور قرّة بالإفراد. و قرأ ابن مسعود، و أبو هريرة، و أبو الدرداء «من قرّات» بالجمع، و قرأ حمزة ما أخفى بسكون الياء على أنه فعل مضارع مسند إلى اللّه سبحانه، و قرأ الباقون بفتحها فعلا ماضيا مبنيا للمفعول. و قرأ ابن مسعود «ما نخفى» بالنون مضمومة، و قرأ الأعمش «يخفى» بالتحتية مضمومة. قال الزجاج فى معنى قراءة حمزة، أى: منه ما أخفى اللّه لهم، و هى قراءة محمّد بن كعب، و «ما» فى موضع نصب. ثم بين سبحانه أن ذلك بسبب أعمالهم الصالحة فقال: جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أى: لأجل الجزاء بما كانوا يعملونه فى الدنيا، أو جوزوا جزاء بذلك أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً الاستفهام: للإنكار؟ أى: ليس المؤمن كالفاسق فقد ظهر ما بينهما من التفاوت، و لهذا قال: لا يَسْتَوُونَ ففيه زيادة تصريف لما أفاده الإنكار الذى أفاده الاستفهام. قال الزجاج: جعل الاثنين جماعة حيث قال: لا يَسْتَوُونَ لأجل معنى من، و قيل: لكون الاثنين أقل الجمع، و سيأتى بيان سبب نزولها آخر البحث. ثم بين سبحانه عاقبة حال الطائفتين، و بدأ بالمؤمنين فقال: أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى قرأ الجمهور «جنات» بالجمع، و قرأ طلحة بن مصرف «جنة المأوى» بالإفراد، و المأوى هو الذى يأوون إليه، و أضاف الجنات إليه لكونه المأوى الحقيقى، و قيل: المأوى جنة من الجنات، و قد تقدّم الكلام على هذا، و معنى: نُزُلًا أنها معدّة لهم عند نزولهم، و هو فى الأصل ما يعدّ للنازل من الطعام و الشراب، كما بيناه فى آل عمران، و انتصابه على الحال. و قرأ أبو حيوة «نزلا» بسكون الزاى، و الباء فى بِما كانُوا يَعْمَلُونَ للسببية، أى: بسبب ما كانوا يعملونه، أو بسبب عملهم. ثم ذكر الفريق الآخر فقال: وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا أى: خرجوا عن طاعة اللّه، و تمرّدوا عليه و على رسله فَمَأْواهُمُ النَّارُ أى: منزلهم الذى يصيرون إليه، و يستقرّون فيه هو النار كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها أى: إذا أرادوا الخروج منها ردّوا إليها راغمين مكرهين، و قيل: إذا دفعهم اللهب إلى أعلاها ردّوا إلى مواضعهم وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ و القائل لهم هذه المقالة: هو خزنة جهنم من الملائكة، أو القائل لهم: هو اللّه عزّ و جلّ، و فى هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا فى النار من الإغاظة لهم ما لا يخفى وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى و هو عذاب الدنيا. قال الحسن و أبو العالية و الضحاك و النخعى: هو مصائب الدنيا، و أسقامها، و قيل: الحدود، و قيل: القتل بالسيف يوم بدر، و قيل: سنين الجوع بمكة، و قيل: عذاب القبر، و لا مانع من الحمل على الجميع دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ و هو عذاب الآخرة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ مما هم فيه من الشرك و المعاصى بسبب ما ينزل بهم من العذاب إلى الإيمان و الطاعة و يتوبون عما كانوا فيه. و فى هذا التعليل دليل على ضعف قول من قال: إن العذاب الأدنى هو عذاب القبر

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۹۴

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها أى: لا أحد أظلم منه لكونه سمع من آيات اللّه ما يوجب الإقبال على الإيمان و الطاعة، فجعل الإعراض مكان ذلك، و المجيء بثمّ للدلالة على استبعاد ذلك، و أنه مما ينبغى أن لا يكون إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ أى: من أهل الإجرام على العموم، فيدخل فيه من أعرض عن آيات اللّه دخولا أوّليا.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا نَسِيناكُمْ قال:

تركناكم. و أخرج البيهقى فى الشعب عنه قال: نزلت هذه الآية فى شأن الصلوات الخمس إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً أى: أتوها وَ سَبَّحُوا أى: صلوا بأمر ربهم وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ عن إتيان الصلاة فى الجماعات. و أخرج الترمذى و صححه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و محمّد بن نصر فى كتاب الصلاة عن أنس بن مالك أن هذه الآية تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة. و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن مردويه عنه قال:

نزلت فی صلاهٔ العشاء. و أخرج الفريابی، و ابن جرير، و ابن أبی حاتم، و ابن مردويه عنه أيضا فی الآيهٔ قال: كانوا لا ينامون حتی يصلوا العشاء. و أخرج ابن أبی شيبهٔ عنه قال: كنا نجتنب الفرش قبل صلاهٔ العشاء.
و أخرج عبد الرزاق فی المصنف و ابن مردويه عنه أيضا قال: ما رأيت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم راقدا قط قبل العشاء، و لا متحدّثا بعدها، فإن هذه الآيهٔ نزلت فی ذلک تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبی صلّی اللّه عليه و سلم قال: تتجافی جنوبهم عن المضاجع قال: هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنی عليهم. فلما ذكر ذلک جعل الرجل يعتزل فراشه مخافهٔ أن تغلبه عينه، فوقتها قبل أن ينام الصغير، و يكسل الكبير. و أخرج ابن مردويه عن بلال قال: كنا نجلس فی المسجد و ناس من أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم يصلون بعد المغرب العشاء، تتجافی جنوبهم عن المضاجع. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فی زوائد الزهد، و ابن عدیّ، و ابن مردويه عن أنس نحوه. و أخرج ابن أبی شيبهٔ، و أبو داود، و محمّد بن نصر، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و ابن مردويه، و البيهقی فی سننه عن أنس فی قوله: تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ قال: كانوا ينتظرون ما بين المغرب و العشاء يصلون. و أخرج أحمد، و ابن جرير، و ابن مردويه عن معاذ ابن جبل عن النبی صلّی اللّه عليه و سلم: «فی قوله تَتَجافی جُنُوبُهُمْ قال: قيام العبد من الليل». و أخرج أحمد، و الترمذی و صححه، و النسائی، و ابن ماجهٔ، و ابن نصر فی كتاب الصلاهٔ، و ابن جرير، و ابن أبی حاتم، و الحاكم، و صححه، و ابن مردويه، و البيهقی فی الشعب عن معاذ بن جبل عن النبی صلّی اللّه عليه و سلم، و ذكر حديثا و أرشد فيه إلی أنواع من الطاعات و قال فيه: «و صلاهٔ الرّجل فی جوف اللّيل، ثم قرأ تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ . و أخرج ابن مردويه عن أبی هريرهٔ مرفوعا فی حديث قال فيه: «و صلاهٔ المرء فی جوف اللّيل، ثمّ تلا هذه الآيهٔ». و أخرج ابن مردويه عن أنس فی الآيهٔ قال: كان لا تمرّ عليهم ليلهٔ إلا أخذوا منها.
و أخرج عبد اللّه بن أحمد فی زوائد الزهد من طريق أبی عبد اللّه الجدلی عن عبادهٔ بن الصامت عن كعب قال: «إذا حشر النّاس نادی مناد: هذا يوم الفصل أين الذين تتجافی جنوبهم عن المضاجع» الحديث.
فتح القدير، ج۴، ص: ۲۹۵
و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فی الآيهٔ يقول: تتجافی لذكر اللّه كلما استيقظوا ذكروا اللّه، إما فی الصلاهٔ، و إما فی القيام أو القعود. أو علی جنوبهم لا يزالون يذكرون اللّه. و أخرج الفريابی، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و محمّد بن نصر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشيخ، و الحاكم، و صححه، و البيهقی فی البعث عن ابن عباس قال: كان عرش اللّه علی الماء فاتخذ جنهٔ لنفسه، ثم اتخذ دونها أخری، ثم أطبقهما بلؤلؤهٔ واحدهٔ، ثم قال: وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ «۱» لم يعلم الخلق ما فيهما. و هی التی قال اللّه فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ تأتيهم منها كلّ يوم تحفهٔ. و أخرج الفريابی، و ابن أبی شيبهٔ، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الطبرانی، و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: إنه لمكتوب فی التوراهٔ: لقد أعدّ اللّه للذين تتجافی جنوبهم عن المضاجع: ما لم تر عين و لم تسمع أذن، و لم يخطر علی قلب بشر، و لا يعلم ملک مقرّب، و لا نبیّ مرسل، و إنه لفی القرآن فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ و أخرج البخاری و مسلم و غيرهما عن أبی هريرهٔ عن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم، قال اللّه تعالی: «أعددت لعبادی الصّالحين ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر علی قلب بشر». قال أبو هريرهٔ. و اقرءوا إن شئتم فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ . و فی الباب أحاديث عن جماعهٔ من الصحابهٔ، و هی معروفهٔ فلا نطول بذكرها. و أخرج أبو الفرج الأصبهانی فی كتاب الأغانی، و الواحدی، و ابن عدی، و ابن مردويه، و الخطيب، و ابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبهٔ لعلیّ بن أبی طالب: أنا أحدّ منک سنانا، و أنشط منک لسانا، و أملأ للكتيبهٔ منک، فقال له علیّ: اسكت فإنما أنت فاسق، فنزلت أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ يعنی بالمؤمن: عليا، و بالفاسق: الوليد بن عقبهٔ بن أبی معيط. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب، و ابن عساكر عنه فی الآيهٔ نحوه. و روی نحو هذا عن

عطاء بن يسار و السدّى و عبد الرحمن بن أبى ليلى. و أخرج الفريابى، و ابن منيع، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود فى قوله: وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى قال: يوم بدر دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ قال: يوم القيامة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ قال: لعلّ من بقى منهم أن يتوب فيرجع. و أخرج ابن أبى شيبة، و النسائى، و ابن المنذر، و الحاكم، و صححه، و ابن مردويه عن ابن مسعود فى الآية قال: العذاب الأدنى سنون أصابتهم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ قال: يتوبون. و أخرج مسلم، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و أبو عوانة فى صحيحه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب عن أبىّ بن كعب فى قوله: وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى قال: مصائب الدنيا، و الروم، و البطشة، و الدخان. و أخرج ابن جرير عنه قال: يوم بدر. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى قال: الحدود لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ قال: يتوبون. و أخرج ابن منيع، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه. قال السيوطى بسند ضعيف عن معاذ بن جبل: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «ثلاث من فعلهنّ فقد أجرم:

---

(١). الرحمن: ۶۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۹۶

من عقد لواء فى غير حقّ، أو عقّ والديه، أو مشى مع ظالم لينصره فقد أجرم، يقول اللّه: إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ . قال ابن كثير بعد إخراجه: هذا حديث غريب.

[سورة السجده (۳۲): الآيات ۲۳ الى ۳۰]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (۲۳) وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (۲۴) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۲۵) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَ فَلا يَسْمَعُونَ (۲۶) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلا يُبْصِرُونَ (۲۷)
وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۲۸) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (۲۹) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (۳۰)

قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ أى: التوراة فَلا تَكُنْ يا محمّد فِي مِرْيَةٍ أى: شك و ريبة مِنْ لِقائِهِ قال الواحدى: قال المفسرون: وعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أنه سيلقى موسى قبل أن يموت، ثم لقيه فى السماء أو فى بيت المقدس حين أسرى به. و هذا قول مجاهد و الكلبى و السدّى. و قيل: فلا تكن فى شك من لقاء موسى فى القيامة و ستلقاه فيها. و قيل: فلا تكن فى شك من لقاء موسى للكتاب قاله الزجاج.

و قال الحسن: إن معناه: و لقد آتينا موسى الكتاب فكذّب و أوذى، فلا تكن فى شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب و الأذى، فيكون الضمير فى لقائه على هذا عائدا على محذوف، و المعنى: من لقاء ما لاقى موسى.

قال النحاس: و هذا قول غريب. و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى: قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكّل بكم، فلا تكن فى مرية من لقائه، فجاء معترضا بين وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ و بين وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ و قيل: الضمير راجع إلى الكتاب الذى هو الفرقان كقوله: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ «۱» و المعنى: أنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، و لقيناه مثل ما

لقيناک من الوحی فلا تکن فی شک من أنک لقيت مثله و نظيره، و ما أبعد هـذا، و لعلّ الحامل لقائله عليه قوله: وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِی إِسْرائِيلَ فإن الضمير راجع إلى الكتاب، و قيل: إن الضمير فی لقائه عائد إلى الرجوع المفهوم من قوله: ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ أی: لا تکن فی مرية من لقاء الرجوع، و هذا بعيد أيضا.

و اختلف فی قوله: وَ جَعَلْناهُ فقيل: هو راجع إلى الكتاب، أی: جعلنا التوراة هـدى لبنی إسرائيل، قاله الحسن و غيره. و قال قتادة: إنه راجع إلى موسى، أی: و جعلنا موسى هدى لبنی إسرائيل وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً أی: قتادة يقتدون به فی دينهم، و قرأ الكوفيون «أئمـة» قال النحاس: و هو لحن عند جميع النحويين، لأنه جمع بين همزتين فی كلمة واحدة، و معنى يَهْدُونَ بِأَمْرِنا أی: يدعونهم إلى الهداية بما يلقونه إليه من أحكام التوراة و مواعظها بأمرنا، أی: بأمرنا لهم بذلک، أو لأجل أمرنا. و قال قتادة: المراد

---

(۱). النمل: ۶.

بالأئمة: الأنبياء منهم. و قيل: العلماء لَمَّا صَبَرُوا قرأ الجمهور «لما» بفتح اللام و تشديد الميم، أی:

حين صبروا، و الضمير: للأئمة، و فی: لما، معنى الجزاء، و التقدير: لما صبروا؛ جعلناهم أئمة. و قرأ حمزة، و الكسائی، و خلف، و ورش عن يعقوب و يحيى بن وثاب بكسر اللام و تخفيف الميم: أی جعلناهم أئمة لصبرهم، و اختار هذه القراءة أبو عبيد مستدلا بقراءة ابن مسعود «بما صبروا» بالباء، و هـذا الصبر هو صبرهم على مشاقّ التكليف، و الهداية للناس، و قيل: صبروا عن الدنيا وَ كانُوا بِآياتِنا التنزيلية يُوقِنُونَ أی: يصدّقونها، و يعلمون أنها حق، و أنها من عند اللّه لمزيد تفكرهم، و كثرة تدبرهم إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ أی: يقضی بينهم، و يحكم بين المؤمنين و الكفار يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ و قيل:

يقضی بين الأنبياء و أممهم، حكاه النقاش أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ أی: أو لم يبين لهم، و الهمزة للإنكار، و الفاعل ما دلّ عليه كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ أی: أو لم نبين لهم كثرة إهلاكنا من قبلهم. قال الفراء:

كم فی موضع رفع بيهد. و قال المبرد: إن الفاعل الهدى المدلول عليه بيهد: أی: أو لم يهد لهم الهدى. و قال الزجاج: كم فی موضع نصب بأهلكنا، قرأ الجمهور «أو لم يهد» بالتحتية، و قرأ السلمی، و قتادة، و أبو زيد عن يعقوب بالنون، و هـذه القراءة واضحة. قال النحاس: و القراءة بالياء التحتية فيها إشكال لأنه يقال:

الفعل لا يخلو من فاعل فأين الفاعل ليهد؟ و يجاب عنه بأن الفاعل هو ما قدّمنا ذكره، و المراد بالقرون: عاد و ثمود و نحوهم، و جملة يَمْشُونَ فِی مَساكِنِهِمْ فی محل نصب على الحال من ضمير لهم، أی: و الحال أنهم يمشون فی مساكن المهلكين و يشاهدونها، و ينظرون ما فيها من العبر و آثار العذاب، و لا يعتبرون بذلک، و قيل: يعود إلى المهلكين، و المعنى: أهلكناهم حال كونهم ماشين فی مساكنهم، و الأوّل أولى إِنَّ فِی ذلِكَ المذكور لَآياتٍ عظيمات أَ فَلا يَسْمَعُونَ ها و يتعظون بها أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ أی: أو لم يعلموا بسوقنا الماء إلى الأرض التی لا تنبت إلا بسوق الماء إليها؟ و قيل:

هی اليابسة، و أصله من الجرز: و هو القطع، أی: التی قطع نباتها لعدم الماء، و لا يقال للتی لا تنبت أصلا كالسباخ جرز لقوله: فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً قيل: هی أرض اليمن، و قيل: أرض عدن. و قال الضحاک:

هی الأرض العطشى، و قال الفراء: هی الأرض التی لا نبات فيها. و قال الأصمعی: هی الأرض التی لا تنبت شيئا. قال المبرد: يبعد أن تكن لأرض بعينها لدخول الألف و اللام، و قيل: هی مشتقة من قولهم رجل جروز: إذا كان لا يبقى شيئا إلا أكله، و منه قول الراجز:

خب جروز و إذا جاع بكیو يأكل التمر و لا يلقى النّوى

و كذلك ناقة جروز: إذا كانت تأكل كلّ شىء تجده. و قال مجاهد: إنها أرض النيل، لأن الماء إنما يأتيها فى كلّ عام فَنُخْرِجُ بِهِ أى: بالماء زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ أى: من الزرع كالتبن، و الورق، و نحوهما مما لا يأكله الناس وَ أَنْفُسُهُمْ أى: يأكلون الحبوب الخارجة فى الزرع مما يقتاتونه، و جملة تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ فى محلّ نصب على الحال أَ فَلا يُبْصِرُونَ هذه النعم و يشكرون المنعم، و يوحدونه لكونه المنفرد بإيجاد ذلك وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ القائلون: هم الكفار على العموم،

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۹۸

أو كفار مكة على الخصوص، أى: متى الفتح الذى تعدونا به، يعنون بالفتح: القضاء، و الفصل بين العباد، و هو يوم البعث الذى يقضى اللّه فيه بين عباده، قاله مجاهد و غيره. و قال الفراء و القتبى: هو فتح مكة. قال قتادة: قال أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم للكفار: إن لنا يوما ننعم فيه، و نستريح، و يحكم اللّه بيننا و بينكم، يعنون:

يوم القيامة، فقال الكفار: متى هذا الفتح؟ و قال السدّى: هو يوم بدر، لأن أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلم كانوا يقولون للكفار: إن اللّه ناصرنا و مظهرنا عليكم، و متى فى قوله: مَتى هذَا الْفَتْحُ فى موضع رفع، أو فى موضع نصب على الظرفية. ثم أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم أن يجيب عليهم فقال: قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ و فى هذا دليل على أن يوم الفتح هو يوم القيامة، لأن يوم فتح مكة و يوم بدرهما مما ينفع فيه الإيمان، و قد أسلم أهل مكة يوم الفتح، و قبل ذلك منهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و معنى: وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ لا يمهلون، و لا يؤخرون، و يوم فى يَوْمَ الْفَتْحِ منصوب على الظرفية، و أجاز الفراء الرفع فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ أى: عن سفههم و تكذيبهم و لا تجبهم إلا بما أمرت به وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ أى:

و انتظر يوم الفتح، و هو يوم القيامة، أو يوم إهلاكهم بالقتل إنهم منتظرون بك حوادث الزمان من موت، أو قتل، أو غلبة كقوله: فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ «۱» و يجوز أن يراد: إنهم منتظرون لإهلاكهم، و الآية منسوخة بآية السيف، و قيل: غير منسوخة، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال. و قرأ ابن السميقع «إنهم منتظرون» بفتح الظاء مبنيا للمفعول، و رويت هذه القراءة عن مجاهد و ابن محيصن. قال الفراء: لا يصح هذا إلّا بإضمار، أى: إنهم منتظر بهم. قال أبو حاتم: الصحيح الكسر، أى: انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك.

و قد أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما من حديث ابن عباس قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران رجلا طويلا جعدا كأنّه من رجال شنوءة، و رأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة و البياض، سبط الرأس، و رأيت مالكا خازن جهنّم و الدّجال» فى آيات أراهنّ اللّه إياه.

قال: فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ فكان قتادة يفسرها أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قد لقى موسى وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ قال: جعل اللّه موسى هدى لبنى إسرائيل. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و الضياء فى المختارة بسند قال السيوطى: صحيح عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ قال: من لقاء موسى، قيل أو لقى موسى؟ قال: نعم، ألا ترى إلى قوله: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا «۲» و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ قال: الجرز التى لا تمطر إلا مطرا لا يغنى عنها شيئا إلا ما يأتيها من السيول. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ قال:

أرض باليمن. قال القرطبى فى تفسيره: و الإسناد عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه. و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ قال: يوم بدر فتح للنبى صلّى اللّه عليه و سلم فلم ينفع الذين كفروا إيمانهم بعد الموت.

(۱). التوبة: ۵۲.

(۲). الزخرف: ۴۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۹۹

سورة الأحزاب

اشارة

أخرج ابن الضريس، و النحاس، و ابن مردويه، و البيهقی فی الدلائل من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة الأحزاب بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج عبد الرزاق فی المصنف، و الطيالسی، و سعيد بن منصور، و عبد اللّه بن أحمد فی زوائد المسند، و ابن منيع و النسائی و ابن المنذر، و ابن الأنباری فی المصاحف، و الدارقطنی فی الأفراد، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و الضياء فی المختارة، عن زرّ قال: قال لی أبیّ بن كعب كأين تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأين تعدّها؟ قلت: ثلاثا و سبعين آية، فقال أقط؟ لقد رأيتها و إنّها لتعادل سورة البقرة، أو أكثر من سورة البقرة، و لقد قرأنا فيها «الشّيخ و الشّيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا من اللّه و اللّه عزيز حكيم» فرفع فيما رفع. قال ابن كثير: و إسناده حسن. و أخرج البخاری و مسلم و غيرهما، عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب قام، فحمد اللّه و أثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيّها الناس إنّ اللّه بعث محمّدا بالحق و أنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها و وعيناها «الشّيخ و الشّيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة» و رجم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و رجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم فی كتاب اللّه، فيضلّوا بترك فريضة أنزلها اللّه. و قد روى عنه نحو هذا من طرق. و أخرج ابن مردويه عن حذيفة قال: قال لی عمر بن الخطاب: كم تعدّون سورة الأحزاب؟

قلت: ثنتين أو ثلاثا و سبعين؛ قال: إن كانت لتقارب سورة البقرة، و إن كان فيها لآية الرجم. و أخرج البخاری فی تاريخه عن حذيفة قال: قرأت سورة الأحزاب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها. و أخرج أبو عبيد فی الفضائل و ابن الأنباری، و ابن مردويه عن عائشة، قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ فی زمان النبیّ صلّى اللّه عليه و سلم مائتی آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدّر منها إلا على ما هو الآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (۱) وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۲) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (۳) ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ ما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (۴)

ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵) النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (۶)

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰۰

فتح القدير ج۴ ۳۴۹

قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ أى: دم على ذلك، و ازدد منه: وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ من أهل مكة، و من هو على مثل كفرهم وَ الْمُنافِقِينَ أى: الذين يظهرون الإسلام و يبطنون الكفر قال الواحدى:

إنه أراد سبحانه بالكافرين: أبا سفيان، و عكرمة، و أبا الأعور السلمى، و ذلك أنهم قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلم: ارفض ذكر آلهتنا، و قل: إن لها شفاعة لمن عبدها. قال: و المنافقين عبد اللّه بن أبىّ و عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح.

و سيأتى آخر البحث بيان سبب نزول الآية: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً أى: كثير العلم و الحكمة بليغهم، قال النحاس: و دلّ بقوله: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً على أنه كان يميل إليهم: يعنى النبى صلّى اللّه عليه و سلم استدعاء لهم إلى الإسلام، و المعنى: أن اللّه عزّ و جلّ لو علم أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنهم لأنه حكيم، و لا يخفى بعد هذه الدلالة التى زعمها، و لكن هذه الجملة تعليل لجملة الأمر بالتقوى، و النهى عن طاعة الكافرين و المنافقين، و المعنى: أنه لا يأمرك أو ينهاك إلا بما علم فيه صلاحا، أو فسادا لكثرة علمه، وسعة حكمته وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ من القرآن: أى: اتبع الوحى فى كلّ أمورك، و لا تتبع شيئا مما عداه من مشورات الكافرين و المنافقين، و لا من الرأى البحت، فإن فيما أوحى إليك ما يغنيك عن ذلك، و جملة: إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً تعليل لأمره باتباع ما أوحى إليك، و الأمر له صلّى اللّه عليه و سلم أمر لأمته، فهم مأمورون باتباع القرآن، كما هو مأمور باتباعه، و لهذا جاء بخطابه، و خطابهم فى قوله: بِما تَعْمَلُونَ على قراءة الجمهور بالفوقية للخطاب، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم، و قرأ أبو عمرو و السلمى، و ابن أبى إسحاق بالتحتية وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا أى: اعتمد عليه و فوّض أمورك إليه، و كفى به حافظا يحفظ من توكل عليه. ثم ذكر سبحانه مثلا توطئة و تمهيدا لما يتعقبه من الأحكام القرآنية، التى هى من الوحى الذى أمره اللّه باتباعه فقال: ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ

و قد اختلف فى سبب نزول هذه الآية كما سيأتى، و قيل: هى مثل ضربه اللّه للمظاهر، أى: كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى يكون له أمّان، و كذلك لا يكون الدعىّ ابنا لرجلين.

و قيل: كان الواحد من المنافقين يقول: لى قلب يأمرنى بكذا و قلب بكذا، فنزلت الآية لردّ النفاق، و بيان أنه لا يجتمع مع الإسلام، كما لا يجتمع قلبان، و القلب بضعة صغيرة على هيئة الصنوبرة خلقها اللّه، و جعلها محلا للعلم وَ ما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ و قرأ الكوفيون، و ابن عامر «اللائى»:

بياء ساكنة بعد همزة، و قرأ أبو عمرو، و البزى بياء ساكنة بعد ألف محضة. قال أبو عمرو بن العلاء: إنها لغة قريش التى أمر الناس أن يقرءوا بها، و قرأ قنبل و ورش بهمزة مكسورة بدون ياء. قرأ عاصم تظاهرون بضم الفوقية، و كسر الهاء بعد ألف؛ مضارع ظاهر، و قرأ ابن عامر بفتح الفوقية و الهاء، و تشديد الظاء مضارع تظاهر، و الأصل تتظاهرون و قرأ الباقون «تظّهرون» بفتح الفوقية و تشديد الظاء بدون ألف، و الأصل:

تتظهرون، و الظهار مشتق من الظهر، و أصله أن يقول الرجل لامرأته: أنت علىّ كظهر أمى، و المعنى:

و ما جعل اللّه نساءكم اللائى تقولون لهنّ هذا القول كأمهاتكم فى التحريم، و لكنه منكر من القول و زور وَ كذلك ما جَعَلَ الأدعياء الذين تدّعون أنهم أَبْناءَكُمْ أبناء لكم، و الأدعياء جمع دعىّ، و هو الذى

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰۱

يدعى ابنا لغير أبيه، و سيأتى الكلام فى الظهار فى سورة المجادلة، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى ما تقدّم من ذكر الظهار و الادعاء، و هو: مبتدأ، و خبره: قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ أى: ليس ذلك إلا مجرد قول بالأفواه، و لا تأثير له، فلا تصير المرأة به أما، و لا ابن الغير

به؛ ابنا، و لا يترتب على ذلك شىء من أحكام الأمومة و البنوّة. و قيل: الإشارة راجعة إلى الادّعاء، أى: ادّعاؤكم أن أبناء الغير أبناؤكم: لا حقيقة له، بل هو مجرّد قول بالفم وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَ الذى يحقّ اتباعه لكونه حقا فى نفسه لا باطلا، فيدخل تحته دعاء الأبناء لآبائهم وَ هُوَ يَهْدِی السَّبِيلَ أى: يدلّ على الطريق الموصلة إلى الحق، و فى هذا إرشاد للعباد إلى قول الحق، و ترك قول الباطل و الزور. ثم صرّح سبحانه بما يجب على العباد من دعاء الأبناء للآباء فقال:

ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ للصلب، و انسبوهم إليهم، و لا تدعوهم إلى غيرهم، و جملة هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ تعليل للأمر بدعاء الأبناء للآباء، و الضمير راجع إلى مصدر ادعوهم، و معنى أقسط: أى: أعدل كلّ كلام يتعلق بذلك، فترك الإضافة للعموم كقوله اللّه أكبر، و قد يكون المضاف إليه مقدّرا خاصا، أى:

أعدل من قولكم: هو ابن فلان، و لم يكن ابنه لصلبه. ثم تمم سبحانه الإرشاد للعباد فقال: فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِی الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ أى: فهم إخوانكم فى الدين، و هم مواليكم، فقولوا: أخى و مولاى، و لا تقولوا ابن فلان، حيث لم تعلموا آباءهم على الحقيقة. قال الزجاج: و يجوز أن يكون مواليكم:

أولياءكم فى الدين. و قيل المعنى: فإن كانوا محررين و لم يكونوا أحرارا، فقولوا موالى فلان وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ أى: لا إثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأ من غير عمد، وَ لكِنْ الإثم فى ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ و هو ما قلتموه على طريقة العمد من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم مع علمكم بذلك.

قال قتادة: لو دعوت رجلا لغير أبيه، و أنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً يغفر للمخطئ و يرحمه و يتجاوز عنه، أو غفورا للذنوب رحيما بالعباد، و من جملة من يغفر له و يرحمه من دعا رجلا لغير أبيه خطأ. أو قبل النهى عن ذلك. ثم ذكر سبحانه لرسوله مزية عظيمة، و خصوصية جليلة لا يشاركه فيها أحد من العباد فقال: النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أى: هو أحقّ بهم فى كلّ أمور الدين و الدنيا، و أولى بهم من أنفسهم فضلا عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم، و إن كانوا محتاجين إليها، و يجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم، و يجب عليهم أن يقدّموا حكمه عليهم؛ على حكمهم لأنفسهم. و بالجملة فإذا دعاهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لشىء، و دعتهم أنفسهم إلى غيره، وجب عليهم أن يقدّموا ما دعاهم إليه، و يؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه، و يجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، و يقدّموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم، و تطلبه خواطرهم. و قيل: المراد بأنفسهم فى الآية: بعضهم، فيكون المعنى: أن النبىّ أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض. و قيل: هى خاصة بالقضاء، أى: هو أولى بهم من أنفسهم فيما قضى به بينهم. و قيل أولى بهم فى الجهاد بين يديه، و بذل النفس دونه، و الأوّل أولى وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ أى: مثل أمهاتهم فى الحكم بالتحريم، و منزلات منزلتهنّ فى استحقاق التعظيم، فلا يحلّ لأحد أن يتزوج بواحدة منهنّ، كما لا يحلّ له أن يتزوج بأمه، فهذه الأمومة مختصة بتحريم

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰۲

النكاح لهنّ، و بالتعظيم لجنابهنّ، و تخصيص المؤمنين يدلّ على أنهنّ لسن أمهات نساء المؤمنين، و لا بناتهنّ أخوات المؤمنين، و لا إخوتهنّ أخوال المؤمنين. و قال القرطبى: الذى يظهر لى أنهنّ أمهات الرجال و النساء تعظيما لحقهنّ على الرجال و النساء كما يدلّ عليه قوله: «النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم» و هذا يشمل الرجال و النساء ضرورة. قال: ثم إن فى مصحف أبىّ بن كعب «و أزواجه أمهاتهم، و هو أب لهم» و قرأ ابن عباس «أولى بالمؤمنين من أنفسهم و هو أب و أزواجه أمهاتهم»، ثم بين سبحانه أن القرابة أولى ببعضهم البعض فقال:

وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ المراد بأولى الأرحام: القرابات، أى: هم أحقّ ببعضهم البعض فى الميراث، و قد تقدّم تفسير

هذه الآية فى آخر سورة الأنفال، و هى ناسخة لما كان فى صدر الإسلام، من التوارث بالهجرة و الموالاة. قال قتادة: لما نزل قوله سبحانه فى سورة الأنفال: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا «۱» فتوارث المسلمون بالهجرة، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، و كذا قال غيره. و قيل: إن هذه الآية ناسخة للتوارث بالحلف و المؤاخاة فى الدين، و فِي كِتابِ اللَّهِ يجوز أن يتعلق بأفعل التفضيل فى قوله: أَوْلى بِبَعْضٍ لأنه يعمل فى الظرف، و يجوز أن يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير، أى: كائنا فى كتاب اللّه، و المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، أو القرآن، أو آية المواريث، و قوله: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يجوز أن يكون بيانا ل أُولُوا الْأَرْحامِ و المعنى: أن ذوى القرابات من لمؤمنين وَ الْمُهاجِرِينَ بعضهم أولى بعض، و يجوز أن يتعلق بأولى: أى: و أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين و المهاجرين الذين هم أجانب، و قيل: إن معنى الآية: و أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض، إلا ما يجوز لأزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم من كونهم كالأمهات فى تحريم النكاح، و فى هذا من الضعف ما لا يخفى إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً هذا الاستثناء إما متصل من أعمّ العام، و التقدير: أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كلّ شيء من الإرث و غيره؛ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا من صدقة، أو وصية؛ فإن ذلك جائز.

قاله قتادة و الحسن و عطاء و محمّد ابن الحنفية. قال محمّد ابن الحنفية: نزلت فى إجازة الوصية لليهودى و النصرانى، فالكافر ولىّ فى النسب لا فى الدين، فتجوز الوصية له، و يجوز أن يكون منقطعا، و المعنى: لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به، و معنى الآية: أن للّه سبحانه لما نسخ التوارث بالحلف و الهجرة؛ أباح أن يوصى لهم. و قال مجاهد: أراد بالمعروف النصرة و حفظ الحرمة بحق الإيمان و الهجرة، و الإشارة بقوله: كانَ ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره، أى: كان نسخ الميراث بالهجرة، و المحالفة، و المعاقدة، و ردّه إلى ذوى الأرحام من القرابات فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً أى: فى اللوح المحفوظ، أو: فى القرآن مكتوبا.

و قد أخرج أحمد، و الترمذى، و حسنه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: قام النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يوما يصلى، فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين قلبا معكم و قلبا معهم؟ فنزل ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ

---

(۱). الأنفال: ۷۲.

قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ و أخرج ابن مردويه عنه من طريق أخرى بلفظ صلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم صلاة فسها فيها، فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون، فقالوا: إن له قلبين، و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عنه أيضا قال:

كان رجل من قريش يسمى من دعائه ذا القلبين. فأنزل اللّه هذا فى شأنه. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما، عن ابن عمر: أنّ زيد بن حارثة مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ما كنّا ندعوه إلا زيد بن محمّد حتى نزل القرآن ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ الآية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أنت زيد بن حارثة بن شراحيل». و أخرج البخارىّ و غيره عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «ما من مؤمن إلا و أنا أولى النّاس به فى الدّنيا و الآخرة، اقرءوا إن شئتم النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فأيّما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته من كانوا، فإن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه». و أخرج أحمد، و أبو داود، و ابن مردويه من حديث جابر نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و النسائى عن بريدة قال: غزوت مع علىّ إلى اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ذكرت عليّا فتنقّصته، فرأيت وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم تغيّر و قال: «يا بريدة أ لست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول اللّه! قال: من كنت مولاه فعلىّ مولاه» و قد ثبت فى الصحيح أنه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «و الذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه و ماله و ولده و النّاس أجمعين».

و أخرج ابن سعد و ابن المنذر، و البيهقى فى سننه، عن عائشة أن امرأة قالت لها: يا أمّه، فقالت:
أنا أمّ رجالكم و لست أمّ نسائكم. و أخرج ابن سعد عن أم سلمة قالت: أنا أمّ الرّجال منكم و النّساء. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و إسحاق بن راهويه و ابن المنذر، و البيهقى فى دلائله، عن بجالة: قال مرّ عمر ابن الخطاب بغلام و هو يقرأ فى المصحف: «النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم و أزواجه أمّهاتهم و هو أب لهم» فقال: يا غلام حكها، فقال: هذا مصحف أبيّ، فذهب إليه فسأله، فقال: إنه كان يلهينى القرآن، و يلهيك الصّفق فى الأسواق. و أخرج الفريابى، و الحاكم، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه كان يقرأ «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم و هو أب لهم و أزواجه أمّهاتهم».

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٧ الى ١٧]

وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (٧) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (١١)
وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً (١٣) وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً (١٤) وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلاً (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦)
قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (١٧)

فتح القدير، ج۴، ص: ٣٠۴

قوله: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ العامل فى الظرف محذوف، أى: و اذكر، كأنه قال: يا أيها النبى! اتق اللّه، و اذكر أن اللّه أخذ ميثاق النبيين. قال قتادة: أخذ اللّه الميثاق على النبيين خصوصا أن يصدق بعضهم بعضا، و يتبع بعضهم بعضا. و قال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا اللّه، و يدعو إلى عبادة اللّه، و أن يصدق بعضهم بعضا، و أن ينصحوا لقومهم. و الميثاق: هو اليمين، و قيل: هو الإقرار باللّه، و الأوّل أولى، و قد سبق تحقيقه. ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم و لغيرهم، فقال:
وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ و وجه تخصيصهم بالذكر: الإعلام بأن لهم مزيد شرف و فضل، لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة، و من أولى العزم من الرسل، و تقديم ذكر نبينا صلّى اللّه عليه و سلم مع تأخر زمانه فيه من التشريف له، و التعظيم ما لا يخفى. قال الزجاج: و أخذ الميثاق حيث أخرجوا من صلب آدم كالذر. ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره و وصفه بالغلظ فقال: وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً أى: عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا، و ما أخذه اللّه عليهم، و يجوز أن يكون قد أخذ اللّه عليهم الميثاق مرّتين، فأخذ عليهم فى المرّة الأولى مجرّد الميثاق بدون تغليظ، و لا تشديد، ثم أخذه عليهم ثانيا:
مغلظا مشدّدا، و مثل هذه الآية قوله: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ، ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ «١» و اللام فى قوله: لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ يجوز أن تكون لام كى، أى: لكى يسأل الصادقين من النبيين عن صدقهم فى تبليغ الرسالة إلى قومهم، و فى هذا وعيد لغيرهم، لأنهم إذا كانوا يسألون عن ذلك فكيف غيرهم. و

قيل: ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم، كما فى قوله: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ «۲» و يجوز أن تتعلق بمحذوف، أى: فعل ذلك ليسأل وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً معطوف على ما دل عليه لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ إذ التقدير: أثاب الصادقين و أعدّ للكافرين، و يجوز أن يكون معطوفا على أخذنا، لأن المعنى: أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه ليثيب المؤمنين و أعدّ للكافرين. و قيل: إنه قد حذف من الثانى ما أثبت مقابله فى الأوّل، و من الأوّل ما أثبت مقابله فى الثانى، و التقدير: ليسأل الصادقين عن صدقهم فأثابهم، و يسأل الكافرين عما أجابوا به رسلهم، و أعدّ لهم عذابا أليما. و قيل: إنه معطوف على المقدّر عاملا فى ليسأل كما ذكرنا، و يجوز أن يكون الكلام قد تمّ عند قوله: لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ و تكون جملة: وَ أَعَدَّ لهم مستأنفة؛ لبيان ما أعدّه للكفار يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هذا تحقيق لما سبق من الأمر بتقوى اللّه؛ بحيث لا يبقى معها خوف من أحد و قوله: عَلَيْكُمْ متعلق بالنعمة إن كانت مصدرا أو بمحذوف هو حال، أى: كائنة عليكم، و معنى إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ حين جاءتكم جنود، و هو ظرف للنعمة، أو للمقدّر عاملا فى عليكم، أو المحذوف هو اذكر، و المراد بالجنود: جنود الأحزاب الذين تحزبوا

---

(۱). آل عمران: ۸۱.

(۲). الأعراف: ۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰۵

على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و غزوه إلى المدينة، و هى الغزوة المسماة «غزوة الخندق» و هم: أبو سفيان بن حرب بقريش و من معهم من الألفاف، و عيينة بن حصن الفزارى و من معه من قومه غطفان و بنو قريظة و النضير، فضايقوا المسلمين مضايقة شديدة، كما وصف اللّه سبحانه فى هذه الآيات، و كانت هذه الغزوة فى شوّال سنة خمس من الهجرة. قاله ابن إسحاق. و قال ابن وهب و ابن القاسم عن مالك: كانت فى سنة أربع. و قد بسط أهل السير فى هذه الوقعة ما هو معروف، فلا نطيل بذكرها فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً معطوف على جاءتكم.

قال مجاهد: هى الصبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم، و نزعت فساطيطهم، و يدلّ على هذا ما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلم من قوله: «نصرت بالصبا، و أهلكت عاد بالدبور»، و المراد بقوله: وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها الملائكة. قال المفسرون: بعث اللّه عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، و قطعت أطناب الفساطيط، و أطفأت النيران، و أكفأت القدور، و جالت الخيل بعضها فى بعض، و أرسل اللّه عليهم الرعب، و كثر تكبير الملائكة فى جوانب العسكر حتى كان سيد كلّ قوم يقول لقومه: يا بنى فلان هلمّ إلىّ، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً قرأ الجمهور «تعملون» بالفوقية، أى: بما تعملون أيها المسلمون من ترتيب الحرب، و حفر الخندق، و استنصاركم به، و توكلكم عليه، و قرأ أبو عمرو بالتحتية، أى: بما يعمله الكفار من العناد للّه و لرسوله، و التحزب على المسلمين و اجتماعهم عليهم من كلّ جهة إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ إذ هذه و ما بعدها بدل من إذ الأولى، و العامل فى هذه هو العامل فى تلك، و قيل:

منصوبة بمحذوف، هو: اذكر، و معنى مِنْ فَوْقِكُمْ من أعلى الوادى، و هو من جهة المشرق، و الذين جاءوا من هذه الجهة هم غطفان، و سيدهم: عيينة بن حصن، و هوازن، و سيدهم: عوف بن مالك، و بنو النضير، و معنى وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ من أسفل الوادى من جهة المغرب من ناحية مكة، و هم قريش و من معهم من الأحابيش، و سيدهم: أبو سفيان بن حرب، و جاء أبو الأعور السلمى، و معه حيى بن أخطب اليهودى؛ فى يهود بنى قريظة من وجه الخندق، و معهم عامر بن الطفيل، و جملة وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ معطوفة على ما قبلها، أى: مالت عن كلّ شىء، فلم تنظر إلا إلى عدوّها مقبلا من كلّ جانب، و قيل:

شخصت دهشا من فرط الهول و الحيرة وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ جمع حنجرة، و هى جوف الحلقوم، أى: ارتفعت القلوب عن مكانها، و وصلت من الفزع و الخوف إلى الحناجر، فلو لا أنه ضاق الحلقوم عنها، و هو الذى نهايته الحنجرة لخرجت، كما قال قتادة. و قيل: هو على طريق المبالغة المعهود فى كلام العرب، و إن لم ترتفع القلوب إلى ذلك المكان، و لا خرجت عن موضعها، و لكنه مثل فى اضطرابها و جبنها. قال الفراء:

و المعنى أنهم جبنوا، و جزع أكثرهم، و سبيل الجبان إذا اشتدّ خوفه أن تنتفخ رئته، فإذا انتفخت الرئة ارتفع القلب إلى الحنجرة، و لهذا يقال للجبان: انتفخ سحره وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا أى: الظنون المختلفة، فبعضهم ظنّ النصر، و رجا الظفر، و بعضهم ظنّ خلاف ذلك. و قال الحسن: ظنّ المنافقون أن يستأصل محمّد و أصحابه، و ظنّ المؤمنون أنه ينصر. و قيل: الآية خطاب للمنافقين، و الأولى ما قاله الحسن. فيكون الخطاب لمن أظهر الإسلام على الإطلاق أعمّ من أن يكون مؤمنا فى الواقع أو منافقا.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰۶

و اختلف القراء فى هذه الألف فى «الظنونا»: فأثبتها وصلا و وقفا نافع، و ابن عامر، و أبو بكر، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو، و الكسائى، و تمسكوا بخط المصحف العثمانى و جميع المصاحف فى جميع البلدان، فإن الألف فيها كلها ثابتة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد إلا أنه قال: لا ينبغى للقارئ أن يدرج القراءة بعدهنّ بل يقف عليهنّ، و تمسكوا أيضا بما فى أشعار العرب من مثل هذا. و قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الجحدرى، و يعقوب بحذفها فى الوصل و الوقف معا، و قالوا هى من زيادات الخطّ فكتبت كذلك، و لا ينبغى النطق بها، و أما فى الشعر فهو يجوز فيه للضرورة ما لا يجوز فى غيره. قرأ ابن كثير، و الكسائى، و ابن محيصن بإثباتها وقفا و حذفها وصلا، و هذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية، و هذه الألف هى التى تسميها النحاة ألف الإطلاق، و الكلام فيها معروف فى علم النحو، و هكذا اختلف القراءة فى الألف التى فى قوله «الرسولا، و السبيلا» كما سيأتى آخر هذه السورة هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ الظرف منتصب بالفعل الذى بعده، قيل: بتظنون، و استضعفه ابن عطية، و هو ظرف مكان يقال للمكان البعيد هنالك كما يقال للمكان القريب هنا، و للمتوسط هناك. و قد يكون ظرف زمان: أى: عند ذلك الوقت ابتلى المؤمنون و منه قول الشاعر:

و إذا الأمور تعاظمت و تشاكلتفهناك يعترفون أين المفزع

أى: فى ذلك الوقت، و المعنى: أن فى ذلك المكان أو الزمان اختبر المؤمنون بالخوف، و القتال، و الجوع، و الحصر، و النزال ليتبين المؤمن من المنافق وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً قرأ الجمهور «زلزلوا» بضم الزاى الأولى و كسر الثانية على ما هو الأصل فى المبنى للمفعول، و روى عن أبى عمرو أنه قرأ بكسر الأولى، و روى الزمخشرى عنه أنه قرأ بإشمامها كسرا، و قرأ الجمهور «زلزالا» بكسر الزاى الأولى، و قرأ عاصم، و الجحدرى، و عيسى بن عمر بفتحها. قال الزجاج: كل مصدر من المضاعف على فعلال يجوز فيه الكسر و الفتح: نحو قلقلته قلقالا، و زلزلوا زلزالا، و الكسر أجود. قال ابن سلام: معنى زلزلوا: حرّكوا بالخوف تحريكا شديدا. و قال الضحاك: هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق، و قيل: المعنى أنهم اضطربوا اضطرابا مختلفا، فمنهم من اضطرب فى نفسه، و منهم من اضطرب فى دينه وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ معطوف على «إذ زاغت الأبصار»، و المرض فى القلوب هو الشكّ و الريبة، و المراد ب الْمُنافِقُونَ عبد اللّه بن أبىّ و أصحابه، و ب الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أهل الشك و الاضطراب ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ من النصر و الظفر إِلَّا غُرُوراً أى: باطلا من القول، و كان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين رجلا من أهل النفاق و الشك، و هذا القول المحكى عن هؤلاء هو كالتفسير للظنون المذكورة، أى: كان ظنّ هؤلاء هذا الظنّ، كما كان ظنّ المؤمنين النصر، و إعلاء كلمة اللّه وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أى: من المنافقين. قال مقاتل: هم بنو سالم من المنافقين. و قال السدّى: هم عبد اللّه بن أبى و أصحابه، و قيل: هم أوس بن قبطى و

أصحابه، و الطائفة تقع على الواحد فما فوقه، و القول الذى قالته هذه الطائفة هو قوله: يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ أى: لا موضع إقامة لكم، أو لا إقامة لكم هاهنا فى العسكر.

قال أبو عبيد: يثرب اسم الأرض، و مدينة النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى ناحية منها. قال السهيلى: و سميت يثرب، لأن

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰۷

الذى نزلها من العمالقة اسمه يثرب بن عميل، قرأ الجمهور «لا مقام لكم» بفتح الميم، و قرأ حفص و السلمى و الجحدرى و أبو حيوة بضمها، على أنه مصدر من أقام يقيم، و على القراءة الأولى هو اسم مكان فَارْجِعُوا أى: إلى منازلكم، أمروهم بالهرب من عسكر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و ذلك «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و المسلمين خرجوا عام الخندق حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع و الخندق بينهم و بين القوم، فقال هؤلاء المنافقون: ليس هاهنا موضع إقامة، و أمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة» وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَ معطوف على «قالت طائفة منهم»، أى: يستأذنون فى الرجوع إلى منازلهم، و هم بنو حارثة، و بنو سلمة، و جملة يَقُولُونَ بدل من قوله: «يستأذن» أو حال استئناف جوابا لسؤال مقدّر، و القول الذى قالوه هو قولهم إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ أى: ضائعة سائبة ليست بحصينة، و لا ممتنعة عن العدوّ. قال الزجاج: يقال عور المكان يعور عورا و عورة، و بيوت عورة و عورة، و هى مصدر. قال مجاهد و مقاتل و الحسن: قالوا بيوتنا ضائعة نخشى عليها السرّاق. و قال قتادة: قالوا بيوتنا مما يلى العدوّ و لا نأمن على أهلنا. قال الهروى: كل مكان ليس بممنوع، و لا مستور فهو عورة، و العورة فى الأصل: الخلل فأطلقت على المختل، و المراد: ذات عورة، و قرأ ابن عباس، و عكرمة، و مجاهد، و أبو رجاء العطاردى عورة بكسر الواو أى: قصيرة الجدران. قال الجوهرى: العورة كل حال يتخوّف منه فى ثغر أو حرب. قال النحاس يقال أعور المكان: إذا تبينت فيه عورة، و أعور الفارس:

إذا تبين منه موضع الخلل، ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ فكذّبهم اللّه سبحانه فيما ذكروه، و الجملة فى محل نصب على الحال، ثم بين سبب استئذانهم و ما يريدونه به، فقال: إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً أى: ما يريدون إلا الهرب من القتال، و قيل المراد: ما يريدون إلا الفرار من الدين وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها يعنى: بيوتهم، أو المدينة، و الأقطار: النواحى؛ جمع قطر، و هو الجانب و الناحية، و المعنى: لو دخلت عليهم بيوتهم، أو المدينة من جوانبها جميعا لا من بعضها، و نزلت بهم هذه النازلة الشديدة، و استبيحت ديارهم، و هتكت حرمهم و منازلهم ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ من جهة أخرى عند نزول هذه النازلة الشديدة بهم لَآتَوْها أى: لجاءوها أو أعطوها، و معنى الفتنة هنا: إما القتال فى العصبية كما قال الضحاك، أو الشرك باللّه، و الرجعة إلى الكفر الذى يبطنونه، و يظهرون خلافه كما قال الحسن، قرأ الجمهور لآتوها بالمدّ، أى: لأعطوها من أنفسهم، و قرأ نافع و ابن كثير بالقصر، أى: لجاءوها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً أى:

بالمدينة بعد أن أتوا الفتنة إلا تلبثا يسيرا حتى يهلكوا، كذا قال الحسن و السدّى و الفراء و القتبى، و قال أكثر المفسرين: إن المعنى: و ما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلا، بل هم مسرعون إليها راغبون فيها لا يقفون عنها إلا مجرّد وقوع السؤال لهم، و لا يتعللون عن الإجابة بأن بيوتهم فى هذه الحالة عورة مع أنها قد صارت عورة على الحقيقة، كما تعللوا عن إجابة الرسول، و القتال معه بأنها عورة، و لم تكن إذ ذاك عورة. ثم حكى اللّه سبحانه عنهم ما قد كان وقع منهم من قبل من المعاهدة للّه، و لرسوله بالثبات فى الحرب، و عدم الفرار عنه فقال: وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ أى: من قبل غزوة الخندق، و من بعد بدر، قال قتادة: و ذلك أنهم غابوا عن بدر، و رأوا ما أعطى اللّه أهل بدر من الكرامة و النصر فقالوا: لئن أشهدنا

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰۸

اللّه قتالا لنقاتلنّ، و هم بنو حارثة، و بنو سلمة وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا أى: مسؤولا عنه، و مطلوبا صاحبه بالوفاء به، و مجازى على

تركك الوفاء به قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ فإن من حضر أجله مات أو قتل فرّ أو لم يفرّ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا أى: تمتعا قليلا- أو زمانا قليلا بعد فرارهم إلى أن تنقضى آجالهم، و كلّ ما هو آت فهو قريب. قرأ الجمهور «تمتعون» بالفوقية، و قرأ يعقوب الحضرمى فى رواية الساجى عنه بالتحتية. و فى بعض الروايات «لا تمتعوا» بحذف النون إعمالا لإذن، و على قراءة الجمهور هى ملغاة قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أى: هلاكا أو نقصا فى الأموال و جدبا و مرضا أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً يرحمكم بها من خصب و نصر و عافية وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا يواليهم، و يدفع عنهم وَ لا نَصِيراً ينصرهم من عذاب اللّه.

و قد أخرج الطبرانى، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل عن أبى مريم الغسانى أن أعرابيا قال: يا رسول اللّه أىّ شىء كان أوّل نبوّتك؟ قال: أخذ اللّه منّى الميثاق كما أخذ من النّبيّين ميثاقهم، ثم تلا- وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً و دعوة إبراهيم قال: وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ «١»، و بشرى عيسى ابن مريم، و رأت أمّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قيل:

يا رسول اللّه متى أخذ ميثاقك؟ قال: «و آدم بين الرّوح و الجسد». و أخرج البزار و الطبرانى فى الأوسط و أبو نعيم فى الدلائل عنه قال: قيل يا رسول اللّه! متى كنت نبيا؟ قال: و آدم بين الرّوح و الجسد».

و فى الباب أحاديث قد صحّح بعضها. و أخرج الحسن بن سفيان، و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل و الديلمى، و ابن عساكر من طريق قتادة عن الحسن عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ الآية قال: «كنت أوّل النبيين فى الخلق و آخرهم فى البعث»، فبدأ به قبلهم. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: مِيثاقَهُمْ عهدهم. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى بسند صحيح عن ابن عباس وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ قال:

إنما أخذ اللّه ميثاق النبيين على قومهم. و أخرج الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و أبو نعيم، و البيهقى، كلاهما فى الدلائل و ابن عساكر من طرق عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب و نحن صافون قعود و أبو سفيان و من معهم من الأحزاب فوقنا، و قريظة اليهود أسفل منا؛ نخافهم على ذرارينا، و ما أتت علينا ليلة قط أشدّ ظلمة و لا أشدّ ريحا فى أصوات ريحها أمثال الصواعق، و هى ظلمة ما يرى أحد منا إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له، فيتسللون و نحن ثلاثمائة، أو نحو ذلك إذ استقبلنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم رجلا حتى مرّ علىّ و ما علىّ جنة من العدوّ و لا- من البرد إلا مرط لامرأتى ما يجاوز ركبتى، فأتانى و أنا جاث على ركبتى فقال: من هذا؟ فقلت: حذيفة، قال: حذيفة، فتقاصرت إلى الأرض، فقلت بلى يا رسول اللّه! كراهية أن أقوم، قال: قم فقمت، فقال:

---

(١). البقرة: ١٢٩.

إنه كان فى القوم خبر، فأتنى بخبر القوم، قال: و أنا من أشدّ القوم فزعا و أشدّهم قرّا، فخرجت فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «اللّهمّ احفظه من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و من فوقه و من تحته؛ قال: فو اللّه ما خلق اللّه فزعا و لا قرّا فى جوفى إلا خرج من جوفى، فما أجد منه شيئا؛ فلما وليت قال: يا حذيفة لا تحدّثنّ فى القوم شيئا حتّى تأتينى، فخرجت حتّى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد، و إذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار و يمسح خاصرته و يقول:

الرّحيل الرّحيل، ثم دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون: يا آل عامر الرّحيل الرّحيل لا مقام لكم، و إذا الرّيح فى عسكرهم ما تجاوز شبرا، فو اللّه إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم و فرشهم، الرّيح تضربهم، ثم خرجت نحو النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فلما انتصف فىّ الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارسا معتمّين فقالوا:

أخبر صاحبك أنّ اللّه كفاه القوم، فرجعت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فأخبرته و هو مشتمل فى شملة يصلّى، و كان إذا حزبه أمر صلّى، فأخبرته خبر القوم إنّى تركتهم يترحّلون، و أنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ قال: كان يوم أبى سفيان يوم الأحزاب.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال: لما كان ليلة الأحزاب جاءت الشمال إلى الجنوب، فقالت: انطلقى فانصرى اللّه و رسوله، فقالت الجنوب: إن الحرّة لا تسرى بالليل، فغضب اللّه عليها و جعلها عقيما، فأرسل عليهم الصبا، فأطفأت نيرانهم و قطعت أطنابهم فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «نصرت بالصّبا و أهلكت عاد بالدّبور»، فذلك قوله:

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث ابن عباس قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «نصرت بالصّبا و أهلكت عاد بالدّبور». و أخرج البخارى و غيره عن عائشة فى قوله: إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ الآية قالت: كان ذلك يوم الخندق، و فى الباب أحاديث فى وصف هذه الغزوة و ما وقع فيها، و قد اشتملت عليها كتب الغزوات و السير. و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب، و هى المدينة تنفى البأس كما ينفى الكير خبث الحديد». و أخرج أحمد، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن البراء بن عازب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من سمّى المدينة يثرب فليستغفر اللّه، هى طابة، هى طابة» و لفظ أحمد «إنّما هى طابة» و إسناده ضعيف. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَ قال: هم بنو حارثة قالوا: بُيُوتَنا عَوْرَةٌ أى: مختلة نخشى عليها السرق. و أخرج ابن مردويه عن جابر نحوه. و أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها قال: لأعطوها: يعنى إدخال بنى حارثة أهل الشام على المدينة.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۱۰

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱۸ الى ۲۵]

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً (۱۸) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۱۹) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً (۲۰) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (۲۱) وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً (۲۲)

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (۲۳) لِيَجْزِيَ اللَّهُ

الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۴) وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (۲۵)

قوله: قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ يقال: عاقه، و اعتاقه، و عوقه: إذا صرفه عن الوجه الذى يريده. قال الواحدى قال المفسرون: هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و ذلک أنهم قالوا لهم: ما محمد و أصحابه إلا أكلة رأس، و لو كانوا لحما لالتقمهم أبو سفيان و حزبه. فخلوهم و تعالوا إلينا، و قيل: إن القائل هذه المقالة اليهود قالوا: لِإِخْوانِهِمْ من المنافقين هَلُمَّ إِلَيْنا و معنى هلم:

أقبل و احضر، و أهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد و الجماعة، و المذكر و المؤنث، و غيرهم من العرب يقولون: هلم للواحد المذكر، و هلمى للمؤنث، و هلما للاثنين. و هلموا للجماعة، و قد مرّ الكلام على هذا فى سورة الأنعام وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ أى الحرب إِلَّا قَلِيلًا خوفا من الموت، و قيل المعنى: لا يحضرون القتال إلا رياء و سمعة من غير احتساب أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ أى: بخلاء عليكم لا يعاونونكم بحفر الخندق، و لا بالنفقة فى سبيل اللّه، قال مجاهد و قتادة. و قيل: أشحة بالقتال معكم، و قيل: بالنفقة على فقرائكم، و مساكينكم. و قيل: أشحة بالغنائم إذا أصابوها. قاله السدّى. و انتصابه على الحال من فاعل يأتون. أو من المعوقين. و قال الفراء: يجوز فى نصبه أربعة أوجه: منها: النصب على الذم، و منها: بتقدير فعل محذوف، أى: يأتونه أشحة. قال النحاس: و لا يجوز أن يكون العامل فيه للمعوقين، و لا القائلين لئلا يفرق بين الصلة و الموصول فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ أى: تدور يمينا و شمالا، و ذلک سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ أى: كعين الذى يغشى عليه من الموت، و هو الذى نزل به الموت و غشيته أسبابه، فيذهل و يذهب عقله، و يشخص بصره فلا يطرف، كذلک هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف، و يقال للميت إذا شخص بصره: دارت عيناه، و دارت حماليق عينيه، و الكاف: نعت مصدر محذوف فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ يقال: سلق فلان

فلانا بلسانه: إذا أغلظ له فى القول مجاهرا. قال الفراء: أى آذوكم بالكلام فى الأمن بألسنة سليطة ذربة، و يقال: خطيب مسلاق و مصلاق إذا كان بليغا، و منه قول الأعشى:

فيهم المجد و السّماحة و النّجدةفيهم و الخاطب السّلاق

قال القتبى: المعنى آذوكم بالكلام الشديد، و السلق: الأذى، و منه قول الشاعر:

و لقد سلقنا هوازنابنواهل حتّى انحنينا

قال قتادة: معنى الآية: بسطوا ألسنتهم فيكم فى وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطنا فإنا قد شهدنا معكم، فعند الغنيمة أشحّ قوم و أبسطهم لسانا، و وقت البأس أجبن قوم و أخوفهم. قال النحاس: و هذا قول حسن، و انتصاب: أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ على الحالية من فاعل سلقوكم، و يجوز أن يكون نصبه على الذمّ. و قرأ ابن أبى عبلة برفع أشحة، و المراد هنا: أنهم أشحة على الغنيمة، يشاحون المسلمين عند القسمة، قال يحيى بن سلام. و قيل: على المال أن ينفقوه فى سبيل اللّه. قاله السدّى. و يمكن أن يقال معناه: أنهم قليلو الخير من غير تقييد بنوع من أنواعه، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الموصوفين بتلک الصفات لَمْ يُؤْمِنُوا إيمانا خالصا بل هم منافقون، يظهرون الإيمان، و يبطنون الكفر فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ أى:

أبطلها، بمعنى: أظهر بطلانها، لأنها لم تكن لهم أعمال تقتضى الثواب حتى يبطلها اللّه. قال مقاتل: أبطل جهادهم لأنه لم يكن فى إيمان وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً أى: و كان ذلک الإحباط لأعمالهم، أو كان نفاقهم على اللّه هينا يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا أى: يحسب هؤلاء المنافقون لجبنهم أن الأحزاب باقون فى معسكرهم لم يذهبوا إلى ديارهم، و ذلک لما نزل بهم من

الفشل و الروع وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ مرة أخرى بعد هذه المرة يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ أي: يتمنون أنهم فى بادية الأعراب لما حلّ بهم من الرهبة، و البادى خلاف الحاضر، يقال: بدا يبدو بداوة: إذا خرج إلى البادية يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ أي: عن أخباركم، و ما جرى لكم، كل قادم عليهم من جهتكم، أو يسأل بعضهم بعضا عن الأخبار التى بلغته من أخبار الأحزاب، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و المعنى: أنهم يتمنون أنهم بعيد عنكم يسألون عن أخباركم من غير مشاهدة للقتال لفرط جبنهم و ضعف نياتهم وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا أي: لو كانوا معكم فى هذه الغزوة مشاهدين للقتال ما قاتلوا معكم إلا قتالا قليلا؛ خوفا من العار و حمية على الديار لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ أي: قدوة صالحة، يقال لى فى فلان أسوة: أي لى به، و الأسوة من الائتساء، كالقدوة من الاقتداء: اسم يوضع موضع المصدر. قال الجوهري: و الأسوة و الإسوة بالضم و الكسر، و الجمع: أسى و إسى. قرأ الجمهور «أسوة» بالضم للهمزة، و قرأ عاصم بكسرها، و هما لغتان كما قال الفراء و غيره.

و فى هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، أي: لقد كان لكم فى رسول اللّه حيث بذل نفسه للقتال؛ و خرج إلى الخندق لنصرة دين اللّه، أسوة، و هذه الآية و إن كان سببها خاصا فهى عامة

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۱۲

فى كلّ شيء، و مثلها: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «۱»، و قوله: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ «۲»، و اللام فى لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ: متعلق بحسنة، أو: بمحذوف هو صفة لحسنة، أي: كائنة لمن يرجو اللّه. و قيل: إن الجملة بدل من الكاف فى لكم، و ردّه أبو حيان و قال: إنه لا يبدل من ضمير المخاطب بإعادة الجار. و يجاب عنه: بأنه قد أجاز ذلك الكوفيون و الأخفش و إن منعه البصريون، و المراد بمن كان يرجو اللّه: المؤمنون، فإنهم الذين يرجون اللّه و يخافون عذابه، و معنى يرجون اللّه: يرجون ثوابه أو لقاءه، و معنى يرجون اليوم الآخر: أنهم يرجون رحمة اللّه فيه، أو يصدقون بحصوله، و أنه كائن لا محالة، و هذه الجملة تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً معطوف على كان، أي: و لمن ذكر اللّه فى جميع أحواله ذكرا كثيرا، و جمع بين الرجاء للّه و الذكر له، فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. ثم بين سبحانه ما وقع من المؤمنين المخلصين عند رؤيتهم للأحزاب، و مشاهدتهم لتلك الجيوش التى أحاطت بهم كالبحر العباب فقال: وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ الإشارة بقوله «هذا» إلى ما رأوه من الجيوش، أو إلى الخطب الذى نزل، و البلاء الذى دهم، و هذا القول منهم قالوه استبشارا بحصول ما وعدهم اللّه و رسوله من مجيء هذه الجنود، و إنه يتعقب مجيئهم إليهم نزول النصر، و الظفر من عند اللّه، و «ما» فى «ما وعدنا اللّه» هى الموصولة، أو المصدرية، ثم أردفوا ما قالوه بقولهم: وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أي: ظهر صدق خبر اللّه و رسوله وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً أي: ما زادهم ما رأوه إلا إيمانا باللّه و تسليما لأمره. قال الفراء: ما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيمانا و تسليما. قال عليّ بن سليمان: «رأى» يدل على الرؤية، و تأنيث الرؤية غير حقيقى، و المعنى: ما زادهم الرؤية إلا إيمانا للرب، و تسليما للقضاء، و لو قال ما زادتهم لجاز مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ أي: من المؤمنين المخلصين رجال صدقوا: أتوا بالصدق، من صدقنى إذا قال الصدق، و محل «ما عاهدوا اللّه عليه»: النصب بنزع الخافض، و المعنى: أنهم وفوا بما عاهدوا عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ليلة العقبة من الثبات معه، و المقاتلة لمن قاتله، بخلاف من كذب فى عهده، و خان اللّه و رسوله، و هم المنافقون، و قيل: هم الذين نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ثبتوا له، و لم يفروا، و وجه إظهار الاسم الشريف، و الرسول فى قوله: صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ بعد قوله: ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ هو قصد التعظيم كما فى قول الشاعر:

أرى الموت لا يسبق الموت شيء و أيضا لو أضمرهما لجمع بين ضمير اللّه، و ضمير رسوله فى لفظ واحد. و قال صدقا، و قد ورد النهى عن جمعهما كما فى حديث «بئس خطيب القوم أنت» لمن قال و من يعصهما فقد غوى. ثم فصل سبحانه حال

الصادقين بما وعدوا اللّه و رسوله، و قسمهم إلى قسمين فقال: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ

(۱). الحشر: ۷.

(۲). آل عمران: ۳۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۱۳

النحب: ما التزمه الإنسان، و اعتقد الوفاء به، و منه قول الشاعر:

عشيۀ فرّ الحارثيون بعد ماقضى نحبه فى ملتقى القوم هوبر

و قال الآخر:

بطخفۀ جالدنا الملوک و خيلناعشيّۀ بسطام جرين على نحب

أى: على أمر عظيم، و النحب: يطلق على النذر، و القتل، و الموت. قال ابن قتيبۀ: قضى نحبه: أى:

قتل، و أصل النحب: النذر. كانوا يوم بدر نذروا إن لقوا العدو أن يقاتلوا حتى يقتلوا، أو يفتح اللّه لهم فقتلوا، فقيل فلان قضى نحبه: أى قتل، و النحب أيضا: الحاجۀ و إدراک الأمنيۀ، يقول قائلهم: مالى عندهم نحب، و النحب: العهد، و منه قول الشاعر:

لقد نحبت كلب على الناس إنّهمأحقّ بتاج الماجد المتكرّم

و قال الآخر:

قد نحب المجد علينا نحبا «۱» و من ورود النحب فى الحاجۀ و إدراک الأمنيۀ قول الشاعر:

أنحب فيقضى أم ضلال و باطل «۲» و معنى الآيۀ: أن من المؤمنين رجالا- أدركوا أمنيتهم، و قضوا حاجتهم، و وفوا بنذرهم، فقاتلوا حتى قتلوا، و ذلک يوم أحد كحمزۀ، و مصعب بن عمير، و أنس بن النضر وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ قضاء نحبه حتى يحضر أجله كعثمان بن عفان، و طلحۀ و الزبير و أمثالهم، فإنهم مستمرّون على الوفاء بما عاهدوا اللّه عليه من الثبات مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و القتال لعدوّه، و منتظرون لقضاء حاجتهم و حصول أمنيتهم بالقتل و إدراک فضل الشهادۀ، و جملۀ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا معطوفۀ على صدقوا، أى: ما غيروا عهدهم الذى عاهدوا اللّه و رسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم، بل ثبتوا عليه ثبوتا مستمرا، أما الذين قضوا نحبهم فظاهر، و أما الذين ينتظرون قضاء نحبهم فقد استمروا على ذلک حتى فارقوا الدنيا، و لم يغيروا و لا بدّلوا، و اللام فى قوله: لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ يجوز أن يتعلق بصدقوا أو بزادهم، أو بما بدلوا، أو بمحذوف، كأنه قيل: وقع جميع ما وقع ليجزى اللّه الصادقين بصدقهم وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ بما صدر عنهم من التغيير و التبديل، جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبۀ السوء، و أرادوها بسبب تبديلهم، و تغييرهم كما قصد الصادقون عاقبۀ الصدق بوفائهم، فكل من الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب و العقاب، فكأنهما استويا فى طلبها، و السعى لتحصيلها، و مفعول «إن شاء» و جوابها محذوفان، أى: إن شاء تعذيبهم عذبهم، و ذلک إذا أقاموا على

(۱). و قبله: يا عمرو يا ابن الأكرمين نسبا.

(۲). هذا عجز بيت للبيد، و صدره: ألا تسألان المرء ماذا يحاول.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۱۴

النفاق، و لم يتركوه و يتوبوا عنه إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً أى: لمن تاب منهم، و أقلع عما كان عليه من النفاق. ثم رجع سبحانه إلى حكايۀ بقيۀ القصۀ و ما امتنّ به على رسوله و المؤمنين من النعمۀ فقال: وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا و هم الأحزاب، و الجملۀ

معطوفة على فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً أو على المقدّر عاملا فى ليجزى اللّه الصادقين بصدقهم، كأن قيل: وقع ما وقع من الحوادث و ردّ اللّه الذين كفروا، و محل بِغَيْظِهِمْ النصب على الحال، و الباء للمصاحبة، أى: حال كونهم متلبسين بغيظهم و مصاحبين له، و يجوز أن تكون للسببية، و جملة: لَمْ يَنالُوا خَيْراً فى محل نصب على الحال أيضا من الموصول، أو من الحال الأولى على التعاقب، أو التدخل. و المعنى: أن اللّه ردّهم بغيظهم لم يشف صدورهم و لا نالوا خيرا فى اعتقادهم، و هو الظفر بالمسلمين، أو لم ينالوا خيرا أىّ خير، بل رجعوا خاسرين لم يربحوا إلاـ عناء السفر، و غرم النفقة وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ بما أرسله من الريح، و الجنود من الملائكة وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً على كلّ ما يريده إذا قال له كن كان، عزيزا غالبا قاهرا لا يغالبه أحد من خلقه، و لا يعارضه معارض فى سلطانه و جبروته.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم فى قوله: سَلَقُوكُمْ قال: استقبلوكم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً قال: هينا. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب، و ابن عساكر، و ابن النجار عن عمر فى قوله: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ قال: فى جوع رسول اللّه، و قد استدلّ بهذه الآية جماعة من الصحابة فى مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السنة، و هى خارجة عما نحن بصدده. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ إلى آخر الآية قال: إن اللّه قال لهم فى سورة البقرة أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ «۱» فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب فى الخندق قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ فتأوّل المسلمون ذلك فلم يزدهم إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً.

و أخرج البخارى و غيره عن أنس قال: نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ و أخرج ابن سعد، و أحمد، و مسلم، و الترمذى، و النسائى، و البغوى فى معجمه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و أبو نعيم، و البيهقى عن أنس قال: غاب عمى أنس بن النضر عن بدر فشق عليه: و قال أوّل مشهد شهده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم غبت عنه لئن أرانى اللّه مشهدا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فيما بعد ليرينّ اللّه ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ قال:

واها لريح الجنة أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد فى جسده بضع و ثمانون ما بين ضربة و طعنة و رمية، و نزلت هذه الآية رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ و كانوا يرون أنها نزلت فيه و فى أصحابه، و قد روى عنه نحوه من طريق أخرى عند الترمذى و صححه، و النسائى، و غيرهما. و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة: «أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حين انصرف من أحد مرّ على مصعب بن عمير و هو مقتول،

---

(۱). البقرة: ۲۱۴.

فوقف عليه و دعا له، ثم قرأ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ الآية، ثم قال: أشهد أنّ هؤلاء شهداء عند اللّه فأتوهم و زوروهم، و الذى نفسى بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه» و قد تعقب الحاكم فى تصحيحه الذهبى كما ذكر السيوطى و لكنه قد أخرج الحاكم حديثا آخر و صححه.

و أخرجه أيضا البيهقى فى الدلائل عن أبى ذرّ قال: لمّا فرغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يوم أحد مرّ على مصعب بن عمير مقتولا على طريقه، فقرأ: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ الآية. و أخرج ابن مردويه من حديث خباب مثله، و هما يشهدان لحديث أبى هريرة. و أخرج الترمذى و حسنه، و أبو يعلى، و ابن جرير، و الطبرانى، و ابن مردويه، عن طلحة: «أن

أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قالوا لأعرابىّ جاهل:

سله عمّن قضى نحبه، من هو؟ و كانوا لا يجترءون على مسألته، يوقّرونه و يهابونه، فسأله الأعرابىّ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم إنّى اطلعت من باب المسجد فقال: «أين السائل عمّن قضى نحبه»؟ قال الأعرابى: أنا، قال: «هذا ممّن قضى نحبه». و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى و ابن مردويه من حديثه نحوه. و أخرج الترمذى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن معاوية قال:

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «طلحة ممّن قضى نحبه». و أخرج سعيد بن منصور، و أبو يعلى، و أبو نعيم، و ابن المنذر، و ابن مردويه عن عائشة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من سرّه أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة». و أخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله. و أخرج ابن مندة و ابن عساكر من حديث أسماء بنت أبى بكر نحوه. و أخرج أبو الشيخ، و ابن عساكر عن علىّ أن هذه الآية نزلت فى طلحة.

و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ قال: الموت على ما عاهدوا اللّه عليه، و منهم من ينتظر الموت على ذلك. و أخرج أحمد، و البخارى، و ابن مردويه عن سليمان بن صرد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يوم الأحزاب «الآن نغزوهم و لا يغزونا» و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ قال: مات على ما هو عليه من التصديق و الإيمان وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ذلك وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لم يغيروا كما غير المنافقون.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢٧)

قوله: وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أى: عاضدوهم و عاونوهم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هم بنو قريظة، فإنهم عاونوا الأحزاب و نقضوا العهد الذى كان بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و صاروا يدا واحدة مع الأحزاب. و الصياصى جمع صيصية: و هى الحصون، و كلّ شىء يتحصن به: يقال له صيصية، و منه صيصية الديك: و هى الشوكة التى فى رجله، و صياصى البقر: قرونها لأنها تمتنع بها، و يقال لشوكة

الحائك التى يسوّى بها السداة و اللحمة: صيصية، و منه قول دريد بن الصمة:

فجئت إليه و الرّماح تنوشه كوقع الصّياصى فى النّسيج الممدّد

و من إطلاقها على الحصون قول الشاعر:

فأصبحت الثيران صرعى و أصبحت نساء تميم يبتدرن الصّياصيا

وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ أى: الخوف الشديد حتى سلموا أنفسهم للقتل، و أولادهم و نساءهم للسبى، و هى معنى قوله: فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً فالفريق الأوّل هم الرجال، و الفريق الثانى:

هم النساء و الذرية، و هذه الجملة مبينة و مقرّرة لقذف الرعب فى قلوبهم. قرأ الجمهور «تقتلون» بالفوقية على الخطاب، و كذلك قرءوا «تأسرون» و قرأ ابن ذكوان فى رواية عنه بالتحتية فيهما، و قرأ اليمانى بالفوقية فى الأوّل، و التحتية فى الثانى، و قرأ أبو حيوة «تأسرون» بضم السين. و قد حكى الفراء كسر السين و ضمها فهما لغتان، و وجه تقديم مفعول الفعل الأوّل و تأخير

مفعول الفعل الثانى أن الرجال لما كانوا أهل الشوكة، و كان الوارد عليهم أشدّ الأمرين و هو القتل، كان الاهتمام بتقديم ذكرهم أنسب بالمقام.

و قد اختلف فى عدد المقتولين و المأسورين، فقيل: كان المقتولون من ستّمائة إلى سبعمائة، و قيل: ستّمائة، و قيل: سبعمائة، و قيل: ثمانمائة، و قيل: تسعمائة، و كان المأسورون سبعمائة، و قيل: سبعمائة و خمسين، و قيل: تسعمائة وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ المراد بالأرض: العقار و النخيل، و بالديار:

المنازل و الحصون، و بالأموال: الحلّى، و الأثاث، و المواشى، و السلاح، و الدراهم، و الدنانير وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها أى: و أورثكم أرضا لم تطئوها، و جملة لم تطئوها: صفة لأرضا. قرأ الجمهور «لم تطئوها» بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة، و قرأ زيد بن على «تطوها» بفتح الطاء و واو ساكنة.

و اختلف المفسرون فى تعيين هذه الأرض المذكورة، فقال يزيد بن رومان، و ابن زيد، و مقاتل: إنها خيبر و لم يكونوا إذ ذاك قد نالوها، فوعدهم اللّه بها. و قال قتادة: كنا نتحدّث أنها مكة. و قال الحسن:

فارس و الروم. و قال عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ‌ءٍ قَدِيراً أى: هو سبحانه قدير على كلّ ما أراده من خير و شرّ و نعمة و نقمة، و على إنجاز ما وعد به من الفتح للمسلمين.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: مِنْ صَياصِيهِمْ قال: حصونهم. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و ابن مردويه عن عائشة قالت: خرجت يوم الخندق أقفو النّاس، فإذا أنا بسعد بن معاذ و رماه رجل من قريش يقال له ابن الفرقدة بسهم فأصاب أكحله فقطعه، فدعا اللّه سعد فقال: اللهم لا تمتنى حتّى تقرّ عينى من قريظة، فبعث اللّه الريح على المشركين وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ و لحق أبو سفيان و من معه بتهامة، و لحق عيينة بن بدر و من معه بنجد، و رجعت بنو قريظة فتحصّنوا فى صياصيهم، و رجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى المدينة و أمر بقبّة من أدم، فضربت على سعد فى المسجد، قالت: فجاء جبريل، و إن على ثناياه لوقع الغبار، فقال: أو قد وضعت السّلاح؟ لا و اللّه ما وضعت الملائكة بعد السّلاح:

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۱۷

اخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم، فلبس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لأمته، و أذّن فى الناس بالرحيل أن يخرجوا فحاصرهم خمسا و عشرين ليلة، فلما اشتدّ حصرهم و اشتدّ البلاء عليهم، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول اللّه، قالوا:

ننزل على حكم سعد بن معاذ، فنزلوا، و بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى سعد بن معاذ فأتى به على حمار، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «احكم فيهم» قال: فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم و تسبى ذراريهم، و تقسم أموالهم، فقال: «لقد حكمت فيهم بحكم اللّه و حكم رسوله».

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۲۸ الى ۳۴]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (۲۸) وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (۲۹) يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۳۰) وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (۳۱) يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۳۲)

وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ

عَنْكَمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (۳۳) وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكَنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (۳۴)

قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ قيل: هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدّمها من المنع من إيذاء النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و كان قد تأذى ببعض الزوجات. قال الواحدى: قال المفسرون: إن أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم سألنه شيئا من عرض الدنيا و طلبن منه الزيادة فى النفقة و آذينه بغيرة بعضهنّ على بعض، فآلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم منهنّ شهرا، و أنزل اللّه آية هذه، و كنّ يومئذ تسعا: عائشة، و حفصة، و أمّ سلمة، و أمّ حبيبة، و سودة هؤلاء من نساء قريش، و صفية الخيبرية، و ميمونة الهلالية، و زينب بنت جحش الأسدية، و جويرية بنت الحارث المصطلقية. و معنى الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها سعتها و نضارتها و رفاهيتها و التنعم فيها فَتَعالَيْنَ أى: أقبلن إلىّ أُمَتِّعْكُنَ بالجزم جوابا للأمر، أى: أعطكن المتعة وَ كذا أُسَرِّحْكُنَ بالجزم، أى: أطلقكنّ و بالجزم فى الفعلين قرأ الجمهور، و قرأ حميد الخراز بالرفع فى الفعلين على الاستئناف، و المراد بالسراح الجميل: هو الواقع من غير ضرار على مقتضى السنة. و قيل: إن جزم الفعلين على أنهما جواب الشرط، و على هذا يكون قوله: فَتَعالَيْنَ اعتراضا بين الشرط و الجزاء وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ أى: الجنة و نعيمها فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَ أى اللاتى عملن عملا صالحا أَجْراً عَظِيماً لا يمكن وصفه، و لا يقادر قدره و ذلك بسبب إحسانهن، و بمقابلة صالح عملهنّ.

و قد اختلف العلماء فى كيفية تخيير النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم أزواجه على قولين: القول الأوّل أنه خيرهنّ بإذن اللّه فى البقاء على الزوجية، أو الطلاق؛ فاخترن البقاء، و بهذا قالت عائشة، و مجاهد، و عكرمة، و الشعبى،

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۱۸

و الزهرى، و ربيعة. و القول الثانى: أنه إنما خيرهنّ بين الدنيا، فيفارقهنّ، و بين الآخرة، فيمسكهن و لم يخيرهنّ فى الطلاق، و بهذا قال علىّ، و الحسن، و قتادة، و الراجح الأوّل. و اختلفوا أيضا فى المخيرة إذا اختارت زوجها هل يحسب مجرّد ذلك التخيير على الزوج طلقة أم لا؟ فذهب الجمهور من السلف و الخلف إلى أنه لا يكون التخيير مع اختيار المرأة لزوجها طلاقا لا واحدة و لا أكثر. و قال على و زيد بن ثابت: إن اختارت زوجها؛ فواحدة بائنة، و به قال الحسن و الليث: و حكاه الخطابى و النقاش عن مالك. و الراجح الأوّل لحديث عائشة الثابت فى الصحيحين قالت: «خيرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فاخترناه فلم يعدّه طلاقا» و لا وجه لجعل مجرّد التخيير طلاقا، و دعوى أنه كناية من كنايات الطلاق مدفوعة بأن المخير لم يرد الفرقة لمجرّد التخيير، بل أراد تفويض المرأة و جعل أمرها بيدها، فإن اختارت البقاء بقيت على ما كانت عليه من الزوجية، و إن اختارت الفرقة صارت مطلقة.

اختلفوا فى اختيارها لنفسها هل يكون ذلك طلقة رجعية أو بائنة؟ فقال بالأوّل: عمر، و ابن مسعود، و ابن عباس، و ابن أبى ليلى، و الثورى، و الشافعى، و قال بالثانى: علىّ، و أبو حنيفة، و أصحابه، و روى عن مالك. و الراجح الأوّل، لأنه يبعد كلّ البعد أن يطلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم نساءه على خلاف ما أمره اللّه به، و قد أمره بقوله: إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ و روى عن زيد بن ثابت أنها إذا اختارت نفسها:

فثلاث طلقات، و ليس لهذا القول وجه. و قد روى عن على أنها إذا اختارت نفسها فليس بشىء، و إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية، ثم لما اختار نساء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم رسول اللّه أنزل فيهنّ هذه الآيات تكرمة لهنّ، و تعظيما لحقهنّ، فقال: يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ أى: ظاهرة القبح، واضحة الفحش، و قد عصمهنّ اللّه عن ذلك، و برأهنّ و طهرهنّ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ أى: يعذبهنّ مثلى عذاب غيرهنّ من النساء إذا أتين بمثل تلك الفاحشة، و ذلك لشرفهنّ و علوّ درجتهنّ، و ارتفاع منزلتهنّ. و قد ثبت فى هذه الشريعة فى غير موضع أن تضاعف الشرف، و ارتفاع الدرجات؛ يوجب لصاحبه

إذا عصى تضاعف العقوبات. و قرأ أبو عمرو «يضعف» على البناء للمفعول، و فرق هو و أبو عبيد بين يضاعف، و يضعف فقالا: يكون يضاعف ثلاثة عذابات و يضعف عذابين. قال النحاس: هذه التفرقة التى جاء بها لا يعرفها أحد من أهل اللغة، و المعنى فى يضاعف و يضعف واحد: أى يجعل ضعفين؛ و هكذا ضعف ما قالاه ابن جرير وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً لا يتعاظمه و لا يصعب عليه وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً قرأ الجمهور «يقنت» بالتحتية، و كذا قرءوا: يأت منكنّ، حملا على لفظ من فى الموضعين، و قرأ الجحدرى و يعقوب، و ابن عامر فى رواية و أبو جعفر بالفوقية حملا على المعنى، و معنى «من يقنت»:

من يطع، و كذا اختلف القراء فى «مبينة»، فمنهم من قرأها بالكسر، و منهم من قرأها بفتح الياء، كما تقدّم فى النساء. و قرأ ابن كثير، و ابن عامر «نضعف» بالنون و نصب العذاب، و قرئ «نضاعف» بكسر العين على البناء للفاعل نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ قرأ حمزة و الكسائى بالتحتية، و كذا قرأ يعمل بالتحتية، و قرأ الباقون تعمل بالفوقية، و نؤت بالنون، و معنى إتيانهنّ الأجر مرّتين: أنه يكون لهنّ من الأجر على الطاعة مثلا ما يستحقه

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۱۹

غيرهنّ من النساء إذا فعلن تلك الطاعة. و فى هذا دليل قوىّ على أن معنى «يضاعف لها العذاب ضعفين»:

أنه يكون العذاب مرّتين لا ثلاثا، لأن المراد إظهار شرفهنّ، و مزيتهنّ فى الطاعة و المعصية، بكون حسنتهنّ كحسنتين، و سيئتهن كسيئتين، و لو كانت سيئتهنّ كثلاث سيئات لم يناسب ذلك كون حسنتهنّ كحسنتين، فإن اللّه أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهنّ مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرهن وَ أَعْتَدْنا لَها زيادة على الأجر مرّتين رِزْقاً كَرِيماً. قال المفسرون: الرزق الكريم هو نعيم الجنة، حكى ذلك عنهم النحاس.

ثم أظهر سبحانه فضيلتهنّ على سائر النساء تصريحا، فقال: يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ قال الزجاج: لم يقل كواحدة من النساء، لأن أحد: نفى عام للمذكر و المؤنث، و الواحد و الجماعة. و قد يقال على ما ليس بآدمىّ كما يقال: ليس فيها أحد لا شاة و لا بعير. و المعنى: لستنّ كجماعة واحدة من جماعات النساء فى الفضل و الشرف. ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد فقال: إِنِ اتَّقَيْتُنَ فبين سبحانه أن هذه الفضيلة لهنّ إنما تكون بملازمتهنّ للتقوى، لا لمجرّد اتصالهنّ بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و قد وقعت منهنّ و للّه الحمد التقوى البينة، و الإيمان الخالص، و المشى على طريقة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى حياته و بعد مماته. و جواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه؛ أى: إن اتقيتنّ فلستنّ كأحد من النساء. و قيل: إن جوابه فَلا تَخْضَعْنَ و الأوّل أولى. و معنى فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ لا تلنّ القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء، فإنه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة، و هى قوله: فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ أى: فجور و شك و نفاق، و انتصاب يطمع لكونه جواب النهى. كذا قرأ الجمهور. و حكى أبو حاتم أن الأعرج قرأ «فيطمع» بفتح الياء، و كسر الميم. قال النحاس: أحسب هذا غلطا، و رويت هذه القراءة عن أبى السمّال، و عيسى بن عمر و ابن محيصن، و روى عنهم أنهم قرءوا بالجزم عطفا على محل فعل النهى وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً عند الناس بعيدا من الريبة على سنن الشرع، لا ينكر سامعه شيئا، و لا يطمع فيهنّ أهل الفسق و الفجور بسببه وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَ قرأ الجمهور «و قرن» بكسر القاف من وقر يقر وقارا: أى: سكن، و الأمر منه:

قر بكسر القاف، و للنساء: قرن، مثل: عدن و زنّ. و قال المبرد: هو من القرار، لا من الوقار، تقول:

قررت بالمكان بفتح الراء، و الأصل: اقررن بكسر الراء، فحذفت الراء الأولى تخفيفا، كما قالوا فى ظللت ظلت، و نقلوا حركتها إلى القاف، و استغنى عن ألف الوصل بتحريك القاف. و قال أبو على الفارسى: أبدلت الراء الأولى ياء كراهة التضعيف كما أبدلت فى قيراط و دينار، و صار للياء حركة الحرف الذى أبدلت منه، و التقدير اقيرن، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة

تحریک الیاء بالکسر؛ فتسقط الیاء لاجتماع الساکنین، و تسقط همزة الوصل لتحریک ما بعدها فیصیر قرن. و قرأ نافع و عاصم بفتح القاف و أصله قررت بالمکان:

إذا أقمت فیه بکسر الراء، أقرّ بفتح القاف کحمد یحمد، و هی لغة أهل الحجاز، ذکر أبو عبید عن الکسائی، و ذکرها الزجاج و غیره، قال الفراء: هو کما تقول: هل حست صاحبک؟ أی: هل أحسسته؟ قال أبو عبید: کان أشیاخنا من أهل العربیة ینکرون القراءة بالفتح للقاف، و ذلک لأن قررت بالمکان أقرّ لا یجوّزه کثیر من أهل العربیة. و الصحیح قررت أقرّ بالکسر، و معناه: الأمر لهنّ بالتوقیر و السکون فی بیوتهنّ، و أن

فتح القدیر، ج۴، ص: ۳۲۰

لا یخرجن، و هذا یخالف ما ذکرناه هنا عنه عن الکسائی و هو من أجلّ مشایخه. و قد وافقه علی الإنکار لهذه القراءة أبو حاتم فقال: إن قرن بفتح القاف لا مذهب له فی کلام العرب. قال النحاس: قد خولف أبو حاتم فی قوله إنه لا مذهب له فی کلام العرب بل فیه مذهبان: أحدهما حکاه الکسائی، و الآخر علیّ بن سلیمان، فأما المذهب الذی حکاه الکسائی فهو ما قدّمناه من روایة أبی عبید عنه، و أما المذهب الذی حکاه علیّ بن سلیمان، فقال: إنه من قررن به عینا أقرّ. و المعنی: و اقررن به عینا فی بیوتکنّ. قال النحاس: و هو وجه حسن.

و أقول: لیس بحسن و لا هو معنی الآیة، فإن المراد بها أمرهنّ بالسکون و الاستقرار فی بیوتهنّ، و لیس من قرّة العین. و قرأ ابن أبی عبلة «و اقررن» بألف وصل و راءین، الأولی مکسورة علی الأصل وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِیَّةِ الْأُولی التبرّج: أن تبدی المرأة من زینتها و محاسنها ما یجب علیها ستره، مما تستدعی به شهوة الرجل. و قد تقدّم معنی التبرّج فی سورة النور. قال المبرد: هو مأخوذ من السعة، یقال فی أسنانه برج:

إذا کانت متفرّقة. و قیل: التبرّج هو التبختر فی المشی، و هذا ضعیف جدّا.

و قد اختلف فی المراد: بالجاهلیة الأولی، فقیل: ما بین آدم، و نوح، و قیل: ما بین نوح و إدریس، و قیل: ما بین نوح، و إبراهیم، و قیل: ما بین موسی، و عیسی، و قیل: ما بین عیسی، و محمّد. و قال المبرد: الجاهلیة الأولی کما تقول الجاهلیة الجهلاء. قال: و کان نساء الجاهلیة تظهر ما یقبح إظهاره، حتی کانت المرأة تجلس مع زوجها و خلیلها، فینفرد خلیلها بما فوق الإزار إلی أعلی، و ینفرد زوجها بما دون الإزار إلی أسفل، و ربما سأل أحدهما صاحبه البدل. قال ابن عطیة: و الذی یظهر لی أنه أشار إلی الجاهلیة التی لحقنها فأمرن بالنقلة عن سیرتهنّ فیها، و هی ما کان قبل الشرع من سیرة الکفرة، لأنهم کانوا لا غیرة عندهم، و لیس المعنی أنّ ثم جاهلیة أخری کذا قال، و هو قول حسن. و یمکن أن یراد بالجاهلیة الأخری: ما یقع فی الإسلام من التشبه بأهل الجاهلیة؛ بقول، أو فعل، فیکون المعنی: و لا تبرّجن أیتها المسلمات بعد إسلامکنّ مثل تبرّج أهل الجاهلیة التی کنتنّ علیها، و کان علیها من قبلکنّ، أی: لا تحدثن بأفعالکنّ و أقوالکنّ جاهلیة تشابه الجاهلیة التی کانت من قبل وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِینَ الزَّکاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ خصّ الصلاة و الزکاة لأنهما أصل الطاعات البدنیة و المالیة. ثم عمم فأمرهنّ بالطاعة للّه، و لرسوله فی کلّ ما هو شرع إِنَّما یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ أی: إنما أوصاکنّ اللّه بما أوصاکنّ من التقوی، و أن لا تخضعن بالقول، و من قول المعروف، و السکون فی البیوت، و عدم التبرّج، و إقامة الصلاة، و إیتاء الزکاة، و الطاعة لیذهب عنکم الرجس أهل البیت، و المراد بالرجس: الإثم و الذنب المدنسان للأعراض الحاصلان بسبب ترک ما أمر اللّه به، و فعل ما نهی عنه، فیدخل تحت ذلک کلّ ما لیس فیه للّه رضا، و انتصاب أهل البیت علی المدح کما قال الزجاج، قال: و إن شئت علی البدل. قال: و یجوز الرفع و الخفض. قال النحاس: إن خفض فعلی أنه بدل من الکاف و المیم، و اعترضه المبرد بأنه لا یجوز البدل من المخاطب، و یجوز أن یکون نصبه علی النداء وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً أی: یطهرکم من الأرجاس، و الأدران تطهیرا کاملا و فی

استعارة الرجس للمعصية و الترشيح

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۲۱

لها بالتطهير؛ تنفير عنها بليغ، و زجر لفاعلها شديد.

و قد اختلف أهل العلم فى أهل البيت المذكورين فى الآية، فقال ابن عباس، و عكرمة، و عطاء، و الكلبى، و مقاتل، و سعيد بن جبير: إن أهل البيت المذكورين فى الآية هنّ زوجات النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم خاصة. قالوا: و المراد بالبيت بيت النبى صلّى اللّه عليه و سلم و مساكن زوجاته لقوله: وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَ و أيضا السياق فى الزوجات من قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إلى قوله: وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً. و قال أبو سعيد الخدرى، و مجاهد، و قتادة، و روى عن الكلبى أن أهل البيت المذكورين فى الآية هم علىّ، و فاطمة، و الحسن، و الحسين خاصة، و من حججهم الخطاب فى الآية بما يصلح للذكور لا للإناث، و هو قوله: عَنْكُمُ و ل يُطَهِّرَكُمْ و لو كان للنساء خاصة لقال عنكنّ و يطهركنّ. و أجاب الأولون عن هذا أن التذكير باعتبار لفظ الأهل كما قال سبحانه: أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ «۱» و كما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك؟ يريد زوجته أو زوجاته، فيقول: هم بخير.

و لنذكر هاهنا ما تمسك به كلّ فريق: أما الأوّلون فتمسكوا بالسياق، فإنه فى الزوجات كما ذكرنا، و بما أخرجه ابن أبى حاتم و ابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ قال: نزلت فى نساء النبى صلّى اللّه عليه و سلم خاصة. و قال عكرمة: من شاء باهلته أنها نزلت فى أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج نحوه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن عكرمة نحوه، و أخرج ابن سعد عن عروة نحوه.

و أما ما تمسك به الآخرون، فأخرج الترمذى و صححه و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه من طرق عن أمّ سلمة قالت: فى بيتى نزلت إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ و فى البيت فاطمة و علىّ و الحسن و الحسين، فجللهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتى، فأذهب عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيرا». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن أمّ سلمة أيضا أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم كان فى بيتها على منامة له عليه كساء خيبرى، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ادعى زوجك و ابنيك حسنا و حسينا، فدعتهم، فبينما هم يأكلون، إذ نزلت على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً فأخذ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بفضلة كسائه فغشّاهم إيّاها، ثم أخرج يده من الكساء و ألوى بها إلى السّماء، ثم قال: اللّهمّ هؤلاء أهل بيتى و خاصّتى فأذهب عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيرا، قالها ثلاث مرات. قالت أمّ سلمة: فأدخلت رأسى فى السّتر فقلت: يا رسول اللّه و أنا معكم؟ فقال: «إنّك إلى خير» مرّتين. و أخرجه أيضا أحمد من حديثها قال: حدّثنا عبد اللّه بن نمير، حدّثنا عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء بن أبى رباح، حدّثنى من سمع أمّ سلمة تذكر أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فذكره. و فى إسناده مجهول و هو شيخ

---

(۱). هود: ۷۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۲۲

عطاء، و بقية رجاله ثقات. و قد أخرجه الطبرانى عنها من طريقين بنحوه. و قد ذكر ابن كثير فى تفسيره لحديث أمّ سلمة طرقا كثيرة فى مسند أحمد و غيره. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب من حديث أبى سعيد الخدرى نحوه. و أخرج الترمذى، و ابن

جرير، و الطبرانى، و ابن مردويه عن عمر بن أبى سلمة ربيب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال:
لما نزلت هذه الآية على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ و ذكر نحو حديث أمّ سلمة.
و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و مسلم، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم عن عائشة، قالت:
خرج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم غداة و عليه مرط مرحّل من شعر أسود، فجاء الحسن و الحسين فأدخلهما معه، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علىّ فأدخله معه، ثم قال: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن واثلة بن الأسقع، قال: جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى فاطمة، و معه علىّ و حسن و حسين، حتى دخل، فأدنى عليا و فاطمة، و أجلسهما بين يديه، و أجلس حسنا و حسينا، كلّ واحد منهما على فخذه، ثم لفّ عليهم ثوبه و أنا مستدبرهم، ثم تلا هذه الآية:
إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ و قال: اللهمّ هؤلاء أهل بيتى، اللهمّ أذهب عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيرا» قلت: يا رسول اللّه! و أنا من أهلك؟ قال: و أنت من أهلى». قال واثلة: إنه لأرجى ما أرجوه. و له طرق فى مسند أحمد. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و الترمذى، و حسنه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى و صحّحه، و ابن مردويه عن أنس: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يمرّ بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول:
الصّلاة يا أهل البيت! الصلاة! إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً». و أخرج مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «أذكّركم اللّه فى أهل بيتى».
فقيل لزيد: و من أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، و لكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده: آل علىّ، و آل عقيل، و آل جعفر، و آل العباس. و أخرج الحكيم الترمذى، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ اللّه قسم الخلق قسمين، فجعلنى فى خيرهما قسما، فذلك قوله: وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ «۱» وَ أَصْحابُ الشِّمالِ «۲» فأنا من أصحاب اليمين، و أنا خير أصحاب اليمين. ثم جعل القسمين أثلاثا، فجعلنى فى خيرها ثلاثا، فذلك قوله: أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ «۳» وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ «۴» وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ «۵» فأنا من السابقين، و أنا خير السّابقين.
ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلنى فى خيرها قبيلة، و ذلك قوله: وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ «۶» و أنا أتقى ولد آدم و أكرمهم على اللّه و لا فخر. ثم جعل القبائل بيوتا، فجعلنى فى خيرها بيتا، فذلك قوله: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً فأنا و أهل بيتى مطهّرون من الذنوب» و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن أبى الحمراء قال: رابطت المدينة

---

(۱). الواقعة: ۲۷.

(۲). الواقعة: ۴۱.

(۳). الواقعة: ۸.

(۴). الواقعة: ۹.

(۵). الواقعة: ۱۰.

(۶). الحجرات: ۱۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۲۳

سبعة أشهر على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، قال: رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا طلع الفجر جاء إلى باب

عليّ و فاطمة فقال: «الصلاة الصلاة إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً». و فى إسناده أبو داود الأعمى، و هو وضاع كذّاب. و فى الباب أحاديث و آثار، و قد ذكرنا هاهنا ما يصلح للتمسك به دون ما لا يصلح.

و قد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين، فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات و لعلى و فاطمة و الحسن و الحسين، أما الزوجات فلكونهنّ المرادات فى سياق هذه الآيات كما قدّمنا، و لكونهنّ الساكنات فى بيوته صلّى اللّه عليه و سلم النازلات فى منازله، و يعضد ذلك ما تقدّم عن ابن عباس و غيره. و أما دخول عليّ و فاطمة و الحسن و الحسين فلكونهم قرابته و أهل بيته فى النسب، و يؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرّحة بأنهم سبب النزول، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين؛ فقد أعمل بعض ما يجب إعماله، و أهمل ما لا يجوز إهماله. و قد رجّح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبى، و ابن كثير، و غيرهما. و قال جماعة: هم بنو هاشم، و استدلوا بما تقدم من حديث ابن عباس، و يقول زيد بن أرقم المتقدّم، حيث قال: و لكنّ آله من حرم الصدقة بعده:

آل عليّ، و آل عقيل، و آل جعفر، و آل العباس، فهؤلاء ذهبوا إلى أن المراد بالبيت بيت النسب.

قوله: وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ أى: اذكرن موضع النعمة إذ صيركنّ اللّه فى بيوت يتلى فيها آيات اللّه و الحكمة، أو اذكرنها، و تفكرن فيها لتتعظن بمواعظ اللّه، أو اذكرنها للناس ليتعظوا بها، و يهتدوا بهداها، أو اذكرنها بالتلاوة لها لتحفظنها، و لا تتركن الاستكثار من التلاوة. قال القرطبى:

قال أهل التأويل؛ آيات اللّه: هى القرآن، و الحكمة: السنة. و قال مقاتل: المراد بالآيات و الحكمة: أمره و نهيه فى القرآن. و قيل: إن القرآن جامع بين كونه بينات دالة على التوحيد و صدق النبوة، و بين كونه حكمة مشتملة على فنون من العلوم و الشرائع إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً أى: لطيفا بأوليائه خبيرا بجميع خلقه و جميع ما يصدر منهم من خير و شرّ و طاعة و معصية، فهو يجازى المحسن بإحسانه و المسىء بإساءته.

و قد أخرج أحمد، و مسلم، و النسائى، و ابن مردويه من طريق أبى الزبير عن جابر قال: أقبل أبو بكر يستأذن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و النّاس ببابه جلوس، و النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم جالس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبى بكر و عمر فدخلا، و النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم جالس و حوله نساؤه و هو ساكت، فقال عمر:

لأكلمنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لعلّه يضحك، فقال عمر: يا رسول اللّه لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألت النفقة آنفا فوجأت فى عنقها، فضحك النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم حتى بدت نواجذه و قال: «هنّ حولى يسألننى النفقة» فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، و قام عمر إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ما ليس عنده، فنهاهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقلن نساؤه: و اللّه لا نسأل رسول اللّه بعد هذا المجلس ما ليس عنده، و أنزل اللّه الخيار، فنادى بعائشة فقال: «إنّى ذاكر لك أمرا ما أحبّ أن تعجلى فيه حتّى تستأمرى أبويك» قالت: ما هو؟ فتلا عليها: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ الآية، قالت عائشة: أ فيك أستأمر أبوىّ، بل أختار اللّه و رسوله، و أسألك أن لا تذكر لنسائك ما اخترت: فقال: «إنّ اللّه لم يبعثنى متعنّتا و لكن

بعثنى معلّما مبشّرا، لا تسألنى امرأة منهن عمّا اخترت إلا أخبرتها». و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن عائشة: أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم جاءها حين أمره اللّه أن يخيّر أزواجه قالت: فبدأ بى فقال: «إنّى ذاكر لك أمرا فلا عليك أن تستعجلى حتّى تستأمرى أبويك» و قد علم أنّ أبوىّ لم يكونا يأمرانى بفراقه، فقال:

«إنّ اللّه قال: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا إلى تمام الآية» فقلت له:

ففى أىّ هذا أستأمر أبوىّ، فإنّى أريد اللّه و رسوله و الدّار الآخرة، و فعل أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم مثل ما فعلت.
و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً قال يقول: من يطع اللّه منكنّ و تعمل منكنّ للّه و رسوله بطاعته. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله:
فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ قال: يقول لا ترخصن بالقول و لا تخضعن بالكلام. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ قال: مقارنة الرجال فى القول حتى يطمع الذى فى قلبه مرض. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن محمّد بن سيرين قال: نبئت أنه قيل لسودة زوج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: ما لك لا تحجين و لا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت و اعتمرت و أمرنى اللّه أن أقرّ فى بيتى، فو اللّه لا أخرج من بيتى حتى أموت؛ قال: فو اللّه ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت بجنازتها. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن سعد و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن المنذر عن مسروق قال: كانت عائشة إذا قرأت وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَ بكت حتى تبل خمارها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب قال: كانت الجاهلية الأولى: فيما بين نوح، و إدريس، و كانت ألف سنة.
و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب سأله فقال:
أ رأيت قول اللّه لأزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى هل كانت جاهلية غير واحدة، فقال ابن عباس: ما سمعت بأولى إلا و لها آخرة، فقال له عمر: فأتنى من كتاب اللّه ما يصدّق ذلك، فقال:
إن اللّه يقول: وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ كما جاهدتم أوّل مرّة فقال عمر: من أمرنا أن نجاهد؟
قال: بنى مخزوم و عبد شمس. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أيضا فى الآية قال: تكون جاهلية أخرى.
و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة أنها تلت هذه الآية فقالت: الجاهلية الأولى كانت على عهد إبراهيم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: الجاهلية الأولى ما بين عيسى و محمّد. و قد قدّمنا ذكر الآثار الواردة فى سبب نزول قوله: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ و أخرج عبد الرزاق، و ابن سعد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ قال: القرآن و السنة يمتنّ بذلك عليهنّ. و أخرج ابن سعد عن أبى أمامة عن سهل فى قوله:
وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَ الآية قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يصلى فى بيوت أزواجه النوافل بالليل و النهار.
فتح القدير، ج‏4، ص: 325

[سورة الأحزاب (33): الآيات 35 الى 36]

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْقانِتِينَ وَ الْقانِتاتِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقاتِ وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِراتِ وَ الْخاشِعِينَ وَ الْخاشِعاتِ وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقاتِ وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِماتِ وَ الْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحافِظاتِ وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَ الذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (35) وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (36)
قوله: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ بدأ سبحانه بذكر الإسلام الذى هو مجرّد الدخول فى الدين، و الانقياد له مع العمل، كما ثبت فى الحديث الصحيح أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لما سأله جبريل عن الإسلام قال: «هو أن تشهد أن لا إله إلا اللّه، و تقيم الصّلاة، و تؤتى الزّكاة، و تحجّ البيت، و تصوم رمضان» ثمّ عطف على المسلمين الْمُسْلِماتِ تشريفا لهنّ بالذكر. و هكذا فيما بعد، و إن كنّ داخلات فى لفظ المسلمين و المؤمنين و نحو ذلك، و التذكير إنما هو لتغليب الذكور على الإناث، كما فى جميع ما ورد فى

الکتاب العزيز من ذلک، ثم ذکر:

الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ و هم من يؤمن بـاللّه، و ملائکته، و کتبه، و رسله، و القـدر خيره و شرّه، کما ثبت ذلک فى الصحيح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و القانت: العابـد المطيع، و کـذا القانتـة، و قيل المـداومين على العبادة و الطاعة، و الصادق، و الصادقـة: هما من يتکلم بالصـدق، و يتجنب الکذب، و يفى بما عوهد عليه، و الصابر، و الصابرة: هما من يصبر عن الشـهوات، و على مشـاق التکليـف، و الخـاشع، و الخاشـعة: همـا المتواضـعان للّه؛ الخائفـان منه؛ الخاضـعان فى عبـاداتهم للّه، و المتصدّق، و المتصدّقـة: همـا من تصـدّق من مـاله بمـا أوجبه اللّه عليه. و قيـل: ذلـک أعمّ من صدقـة الفرض و النفـل، و کـذلک: الصـائم و الصائمـة، قيـل: ذلـک مختصّ بالفرض، و قيل: هو أعمّ، و الحافظ، و الحافظـة لفرجيهما عن الحرام بالتعفف، و التنزّه، و الاقتصار على الحلال، و الـذاکر، و الـذاکرة: هما من يذکر اللّه على أحواله، و فى ذکر الکثرة دليل على مشـروعية الاسـتکثار من ذکر اللّه سبحانه بالقلب و اللسان، و اکتفى فى الحافظات بما تقدّم فى الحافظين من ذکر الفروج و التقدير:

و الحـافظين فروجهم، و الحافظـات فروجهن، و کـذا فى الـذاکرات، و التقـدير: و الـذاکرين اللّه کثيرا، و الـذاکرات اللّه کثيرا، و الخبر لجميع مـا تقـدّم: هو قوله: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً أى: مغفرة لـذنوبهم التى أذنبوها، و أجرا عظيما على طاعاتهم الـتى فعلوهـا من الإسـلام، و الإيمـان، و القنوت، و الصـدق، و الصـبر، و الخشوع، و التصـدّق، و الصوم، و العفـاف، و الـذکر، و وصف الأجر بالعظم: للدلالـة على أنه بالغ غايـة المبالغ، و لا شـىء أعظم من أجر هو الجنـة و نعيمها الـدائم الـذى لا ينقطع و لا ينفـد، اللهم اغفر ذنوبنـا و أعظم أجورنا وَ ما کانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَکُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ أى: ما صحّ، و لا استقام لرجل، و لا امرأة من المؤمنين. و لفظ ما کان، و ما ينبغى، و نحوهما معناهما المنع، و الحظر من الشـىء و الإخبار بأنه لا يحل أن يکون شرعا، و قـد يکون لما يمتنع عقلا کقوله: ما کانَ لَکُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها «۱» و معنى الآية: أنه لا يحلّ لمن يؤمن باللّه إذا قضى اللّه أمرا أن يختار من أمر نفسه ما شاء،

---

(۱). النمل: ۶.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۲۶

بل يجب عليه أن يذعن للقضاء، و يوقف نفسه على ما قضاه اللّه عليه و اختاره له، و جمع الضميرين فى قوله:

لهم و من أمرهم لأن مؤمن و مؤمنـة وقعا فى سياق النفى، فهما يعمان کلّ مؤمن و مؤمنـة. قرأ الکوفيون «أن يکون» بالتحتيـة، و اختـار هـذه القراءة أبو عبيـد لأنه قـد فرّق بين الفعل و فاعله المؤنث بقوله لهم مع کون التأنيث غير حقيقى، و قرأ الباقون بالفوقية لکونه مسندا إلى الخيرة و هى مؤنثة لفظا، و الخيرة مصدر بمعنى الاختيار.

و قرأ ابن السـميقع «الخيرة» بسکون التحتيـة، و الباقون بتحريکها، ثم توعـد سبحانه من لم يـذعن لقضاء اللّه و قدره فقال: وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فى أمر من الأمور، و من ذلـک عـدم الرضـا بالقضـاء فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً أى: ضلّ عن طريق الحق ضـلالا واضحا ظاهرا لا يخفى.

و قد أخرج أحمد، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و ابن مردويه عن أمّ سلمة قالت:

قلت: يا رسول اللّه! ما لنا لا نـذکر فى القرآن کما يذکر الرجال؟ فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر و هو يقول: إن اللّه يقول: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ إلى آخر الآية. و روى نحو هذا عنها من طريق أخرى أخرجها الفريابى، و ابن سعد، و ابن أبى شيبـة، و عبـد بـن حميـد، و النسـائى، و ابـن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حـاتم، و ابن مردويه. و أخرج الفريـابى و سـعيد بن منصور، و عبـد بن حميد، و الترمذى و حسـنه، و الطبرانى، و ابن مردويه عن أمّ عمارة الأنصارية أنها أتت النبىّ صلّى اللّه عليه و

سلم فقالت: ما أرى كلّ شىء إلا للرجال، و ما أرى النساء يذكرن بشىء؟ فنزلت هذه الآية إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ و أخرج ابن جرير، و الطبرانى، و ابن مردويه بإسناد. قال السيوطى: حسن، عن ابن عباس قال: قالت النساء: يا رسول اللّه! ما باله يذكر المؤمنين و لا يذكر المؤمنات؟ فنزلت إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها، قالت: لست بناكحته، قال: بلى فانكحيه، قالت:

يا رسول اللّه أؤامر نفسى، فبينما هما يتحدّثان أنزل اللّه هذه الآية على رسوله: وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ الآية، قالت: قد رضيته لى يا رسول اللّه منكحا، قال: نعم، قالت: إذا لا أعصى رسول اللّه قد أنكحته نفسى. و أخرج نحوه عنه ابن جرير من طريق أخرى. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لزينب: «إنّى أريد أن أزوّجك زيد بن حارثة، فإنّى قد رضيته لك» قالت: يا رسول اللّه! لكنّى لا أرضاه لنفسى و أنا أيّم قومى، و بنت عمّتك فلم أكن لأفعل، فنزلت هذه الآية وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ يعنى زيدا وَ لا مُؤْمِنَةٍ يعنى زينب إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً يعنى النكاح فى هذا الموضع أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ يقول: ليس لهم الخيرة من أمرهم خلاف ما أمر اللّه به وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً قالت: قد أطعتك فاصنع ما شئت، فزوّجها زيدا و دخل عليها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: نزلت فى أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، و كانت أوّل امرأة هاجرت، فوهبت نفسها للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، فزوّجها زيد بن حارثة، فسخطت هى و أخوها، و قالا: إنما أردنا رسول اللّه فزوّجنا عبده.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۲۷

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۳۷ الى ۴۰]

وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (۳۷) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (۳۸) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (۳۹) ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۴۰)

لما زوّج رسول اللّه زيد بن حارثة بزينب بنت جحش كما مرّ فى تفسير الآية التى قبل هذه أنزل اللّه سبحانه:

وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أى: و اذكر إذ تقول للذى أنعم اللّه عليه و هو زيد بن حارثة، أنعم اللّه عليه بالإسلام، و أنعم عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بأن أعتقه من الرق، و كان من سبى الجاهلية اشتراه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى الجاهلية و أعتقه و تبناه، و سيأتى فى بيان سبب نزول الآية فى آخر البحث ما يوضح المراد منها. قال القرطبى: و قد اختلف فى تأويل هذه الآية، فذهب قتادة، و ابن زيد، و جماعة من المفسرين، منهم: ابن جرير الطبرى، و غيره إلى أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم وقع منه استحسان لزينب بنت جحش و هى فى عصمة زيد، و كان حريصا على أن يطلقها زيد فيتزوّجها هو، ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها، و يشكو منها غلظة قول، و عصيان أمر، و أذى باللسان، و تعظما بالشرف قال له: اتق اللّه فيما تقول عنها و أمسك عليك زوجك، و هو يخفى الحرص على طلاق زيد إياها، و هذا الذى كان يخفى فى نفسه، و لكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف. انتهى. أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ يعنى: زينب وَ اتَّقِ اللَّهَ فى أمرها و لا تعجل بطلاقها وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ و هو نكاحها إن طلقها زيد، و قيل: حبها وَ تَخْشَى النَّاسَ أى:

تستحييهم، أو تخاف من تعييرهم بأن يقولوا أمر مولاه بطلاق امرأته ثم تزوّجها وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فی كلّ حال، و تخاف منه، و تستحييه، و الواو: للحال، أی: تخفی فی نفسك ذلك الأمر مخافة من الناس فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً قضاء الوطر فی اللغة: بلوغ منتهی ما فی النفس من الشیء، يقال قضی و طرا منه: إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه، و منه قول عمر بن أبی ربيعة:

أيّها الرائح المجدّ ابتكاراقد قضی من تهامة الأوطارا

أی: فرغ من أعمال الحج و بلغ ما أراد منه، و المراد هنا: أنه قضی وطره منها بنكاحها، و الدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة، و قيل المراد به: الطلاق، لأن الرجل إنما يطلق امرأته؛ إذا لم يبق له فيها حاجة و قال المبرد: الوطر الشهوة و المحبة و أنشد:

و كيف ثوائی بالمدينة بعد ماقضی وطرا منها جميل بن معمر

و قال أبو عبيدة: الوطر: الأرب و الحاجة، و أنشد قول الفزاری:

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۲۸ ودّعنا قبل أن نودّعهلمّا قضی من شبابنا وطرا

قرأ الجمهور زَوَّجْناكَها و قرأ علیّ، و ابناه الحسن و الحسين: زوّجتكها، فلما أعلمه اللّه بذلك دخل عليها بغير إذن، و لا عقد، و لا تقدير صداق، و لا شیء مما هو معتبر فی النكاح فی حق أمته. و قيل: المراد به: الأمر له بأن يتزوّجها. و الأوّل أولی، و به جاءت الأخبار الصحيحة، ثم علل سبحانه ذلك بقوله:

لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ أی: ضيق و مشقة فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ أی: فی التزوّج بأزواج من يجعلونه ابنا، كما كانت تفعله العرب، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون، و كان النبیّ صلّی اللّه عليه و سلم قد تبنی زيد بن حارثة، فكان يقال زيد بن محمّد حتی نزل قوله سبحانه: ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ و كانت العرب تعتقد أنه يحرم عليه نساء من تبنوه، كما تحرم عليه نساء أبنائهم حقيقة. و الأدعياء: جمع دعیّ، و هو الذی يدعی ابنا من غير أن يكون ابنا علی الحقيقة، فأخبرهم اللّه أن نساء الأدعياء حلال لهم إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً بخلاف ابن الصلب، فإن امرأته تحرّم علی أبيه بنفس العقد عليها وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا أی: كان قضاء اللّه فی زينب أن يتزوّجها رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم قضاء ماضيا مفعولا لا محالة. ثم بين سبحانه أنه لم يكن علی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم حرج فی هذا النكاح، فقال: ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ أی: فيما أحلّ اللّه له و قدّره و قضاه، يقال فرض له كذا، أی قدّر له سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ أی: إن هذا هو السنن الأقدم فی الأنبياء، و الأمم الماضية أن ينالوا ما أحله اللّه لهم من أمر النكاح و غيره وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً أی: قضاء مقضيا. قال مقاتل: أخبر اللّه أن أمر زينب كان من حكم اللّه و قدره، و انتصاب سنة علی المصدر، أی: سنّ اللّه سنة اللّه، أو اسم وضع موضع المصدر، أو منصوب بجعل، أو بالإغراء.

و ردّه أبو حيان بأن عامل الإغراء لا يحذف. ثم ذكر سبحانه الأنبياء الماضين، و أثنی عليهم فقال: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ و الموصول فی محلّ جر صفة ل «للذين خلوا» أو منصوب علی المدح، مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به إلی عباده و خشيته فی كلّ فعل و قول، و لا يخشون سواه، و لا يبالون بقول الناس، و لا بتعبيرهم، بل خشيتهم مقصورة علی اللّه سبحانه: وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً حاضرا فی كلّ مكان يكفی عباده كلّ ما يخافونه، أو محاسبا لهم فی كلّ شیء. و لما تزوج صلّی اللّه عليه و سلم زينب قال الناس: تزوج امرأة ابنه، فأنزل اللّه: ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ أی: ليس بأب لزيد بن حارثة علی الحقيقة حتّی تحرم عليه زوجته، و لا هو أب لأحد لم يلده. قال الواحدی: قال المفسرون: لم يكن أبا أحد لم يلده، و قد ولد له من الذكور إبراهيم و القاسم و الطيب و المطهر. قال القرطبی: و لكن لم يعش له ابن حتی يصير رجلا. قال: و أما الحسن و الحسين فكانا طفلين و لم يكونا رجلين معاصرين له وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ قال الأخفش و الفراء: و لكن كان رسول اللّه، و أجازا الرفع. و كذا قرأ ابن أبی عبلة بالرفع فی رسول، و فی خاتم علی معنی: و لكن هو رسول اللّه، و خاتم النبيين، و قرأ الجمهور: بتخفيف لكن، و نصب رسول، و

خاتم، و وجه النصب: على خبرية كان المقدرة كما تقدّم، و يجوز أن يكون بالعطف على أبا أحد. و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه بتشديد لكن، و نصب رسول على أنه اسمها، و خبرها محذوف، أى: و لكن رسول اللّه هو: و قرأ

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۲۹

الجمهور خاتم بكسر التاء. و قرأ عاصم بفتحها- و معنى القراءة الأولى: أنه ختمهم، أى: جاء آخرهم.

و معنى القراءة الثانية: أنه صار كالخاتم لهم الذى يتختمون به و يتزينون بكونه منهم. و قيل: كسر التاء و فتحها لغتان. قال أبو عبيد: الوجه الكسر لأن التأويل أنه ختمهم فهو خاتمهم، و أنه قال «أنا خاتم النبيين» و خاتم الشىء: آخره و منه قولهم: خاتمه المسك. و قال الحسن: الخاتم هو الذى ختم به وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‌ءٍ عَلِيماً قد أحاط علمه بكل شىء، و من جملة معلوماته هذه الأحكام المذكورة هنا.

و قد أخرج أحمد، و البخارى، و الترمذى و غيرهم عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: اتّق اللّه و أمسك عليك زوجك، فنزلت وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ. قال أنس: فلو كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كاتما شيئا لكتم هذه الآية، فتزوّجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فما أو لم على امرأة من نسائه ما أو لم عليها، ذبح شاة فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها فكانت تفخر على أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم تقول: زوّجكنّ أهاليكنّ و زوّجنى اللّه من فوق سبع سموات. و أخرج أحمد، و مسلم، و النسائى، و غيرهم عن أنس قال: لما انقضت عدّة زينب، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لزيد: «اذهب فاذكرها علىّ» فانطلق، قال: فلمّا رأيتها عظمت فى صدرى، فقلت: يا زينب أبشرى أرسلنى رسول اللّه يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربّى، فقامت إلى مسجدها و نزل القرآن، و جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و دخل عليها بغير إذن، و لقد رأيتنا حين دخلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أطعمنا عليها الخبز و اللّحم، فخرج النّاس و بقى رجال يتحدّثون فى البيت بعد الطّعام، فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و اتّبعته، فجعل يتتبع حجر نسائه يسلّم عليهن و يقولون: يا رسول اللّه كيف وجدت أهلك؟ فما أدرى أنا أخبرته أنّ القوم قد خرجوا أو أخبر، فانطلق حتّى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى السّتر بينى و بينه، و نزل الحجاب، و وعظ القوم بما وعظوا به: لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ الآية». و أخرج سعيد بن حميد، و الترمذى، و صححه ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن عائشة قالت: لو كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية: وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ يعنى: بالإسلام وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ يعنى بالعتق أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ إلى قوله: وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا و إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لما تزوّجها قالوا تزوّج حليلة ابنه، فأنزل اللّه ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم تبناه و هو صغير، فلبث حتى صار رجلا، يقال له زيد بن محمّد، فأنزل اللّه ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ يعنى أعدل عند اللّه. و أخرج ابن سعد عن محمّد بن كعب القرظى فى قوله: سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ قال: يعنى يتزوّج من النساء ما شاء؛ هذا فريضة، و كان من قبل من الأنبياء هذا سنتهم، قد كان لسليمان بن داود ألف امرأة، و كان لداود مائة امرأة. و أخرج ابن المنذر، و الطبرانى عن ابن جريج فى قوله: سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ قال داود: و المرأة التى نكحها و اسمها اليسعية، فذلك سنة فى محمّد و زينب وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً كذلك من سنته فى داود و المرأة، و النبى و زينب. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ما

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۳۰

كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ قال: نزلت فى زيد بن حارثة. و أخرج أحمد، و مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «مثلى و مثل النبيّين كمثل رجل بنى دارا، فانتهى، إلا لبنة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللّبنة» و

أخرج البخاری و مسلم و غیرهما عن جابر قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «مثلی و مثل الأنبیاء کمثل رجل ابتنی دارا فأکملها و أحسنها إلا موضع لبنة، فکان من دخلها فنظر إلیها قال ما أحسنها إلا موضع اللّبنة، فأنا موضع اللّبنة حتّی ختم بی الأنبیاء». و أخرج البخاری، و مسلم، و غیرهما من حدیث أبی هریرة نحوه. و أخرج أحمد، و الترمذی و صحّحه من حدیث أبیّ بن کعب نحوه أیضا.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآیات ٤١ الی ٤٨]

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اذْکُرُوا اللَّهَ ذِکْراً کَثِیراً (٤١) وَ سَبِّحُوهُ بُکْرَةً وَ أَصِیلًا (٤٢) هُوَ الَّذِی یُصَلِّی عَلَیْکُمْ وَ مَلائِکَتُهُ لِیُخْرِجَکُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ وَ کانَ بِالْمُؤْمِنِینَ رَحِیماً (٤٣) تَحِیَّتُهُمْ یَوْمَ یَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً کَرِیماً (٤٤) یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنَّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً (٤٥)

وَ داعِیاً إِلَی اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِیراً (٤٦) وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا کَبِیراً (٤٧) وَ لا تُطِعِ الْکافِرِینَ وَ الْمُنافِقِینَ وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلًا (٤٨)

قوله: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اذْکُرُوا اللَّهَ ذِکْراً کَثِیراً أمر سبحانه عباده بأن یستکثروا من ذکره بالتهلیل، و التحمید، و التسبیح، و التکبیر، و کلّ ما هو ذکر اللّه تعالی. قال مجاهد: هو أن لا ینساه أبدا، و قال الکلبی: و یقال ذکرا کثیرا: بالصلوات الخمس، و قال مقاتل: هو التسبیح، و التحمید، و التهلیل، و التکبیر علی کلّ حال وَ سَبِّحُوهُ بُکْرَةً وَ أَصِیلًا أی: نزّهوه عما لا یلیق به فی وقت البکرة، و وقت الأصیل، و هما أوّل النهار و آخره، و تخصیصهما بالذکر لمزید ثواب التسبیح فیهما، و خص التسبیح بالذکر بعد دخوله تحت عموم قوله: اذْکُرُوا اللَّهَ تنبیها علی مزید شرفه، و إنافة ثوابه علی غیره من الأذکار.

و قیل: المراد بالتسبیح بکرة: صلاة الفجر، و بالتسبیح أصیلا: صلاة المغرب. و قال قتادة، و ابن جریر:

المراد: صلاة الغداة و صلاة العصر. و قال الکلبی: أما بکرة: فصلاة الفجر، و أما أصیلا: فصلاة الظهر، و العصر، و المغرب، و العشاء. قال المبرّد: و الأصیل: العشیّ، و جمعه أصائل هُوَ الَّذِی یُصَلِّی عَلَیْکُمْ وَ مَلائِکَتُهُ و الصلاة من اللّه علی العباد رحمته لهم، و برکته علیهم، و من الملائکة الدعاء لهم، و الاستغفار کما قال: وَ یَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِینَ آمَنُوا «١» قال مقاتل بن سلیمان، و مقاتل بن حیان: المعنی و یأمر ملائکته بالاستغفار لکم، و الجملة مستأنفة کالتعلیل لما قبلها من الأمر بالذکر و التسبیح. و قیل: الصلاة من اللّه علی العبد: هی إشاعة الذکر الجمیل له فی عباده، و قیل: الثناء علیه، و عطف ملائکته علی الضمیر هنا معنی مجازی یعمّ صلاة اللّه بمعنی الرحمة، و صلاة الملائکة، بمعنی الدعاء لئلا یجمع بین حقیقة و مجاز فی کلمة واحدة، و اللام فی لِیُخْرِجَکُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ متعلق بیصلی، أی: یعتنی بأمورکم هو و ملائکته لیخرجکم من ظلمات المعاصی إلی نور الطاعات، و من ظلمة الضلالة إلی نور الهدی، و معنی الآیة: تثبیت

---

(١). غافر: ٧.

فتح القدیر، ج‌٤، ص: ٣٣١

المؤمنین علی الهدایة، و دوامهم علیها لأنهم کانوا وقت الخطاب علی الهدایة. ثم أخبر سبحانه برحمته للمؤمنین تأنیسا لهم، و تثبیتا فقال: وَ کانَ بِالْمُؤْمِنِینَ رَحِیماً و فی هذه الجملة تقریر لمضمون ما تقدّمها، ثم بین سبحانه أن هذه الرحمة منه لا تخص السامعین وقت الخطاب؛ بل هی عامة لهم، و لمن بعدهم، و فی الدار الآخرة فقال: تَحِیَّتُهُمْ یَوْمَ یَلْقَوْنَهُ سَلامٌ أی: تحیة المؤمنین من اللّه سبحانه یوم لقائهم له عند الموت، أو عند البعث، أو عند دخول الجنة هی التسلیم علیهم منه عزّ و جلّ. و قیل: المراد تحیة

بعضـهم لبعض يوم يلقون ربهم سـلام، و ذلـك لأنـه كـان بالمؤمنين رحيما، فلما شـملتهم رحمته، و أمنوا من عقابه حيا بعضـهم بعضا سـرورا و اسـتبشارا. و المعنى: سلامة لنا من عذاب النار. قال الزجاج: المعنى: فيسلمهم اللّه من الآفات، و يبشرهم بالأمن من المخافات يوم يلقونه. و قيل: الضمير فى «يلقونه»: راجع إلى ملك الموت، و هو الذى يحييهم، كما ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلم عليه. و قال مقاتل: هو تسليم الملائكة عليهم يوم يلقون الربّ كما فى قوله: وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ «۱» وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً أى: أعدّ لهم فى الجنة رزقا حسنا ما تشـتهيه أنفسـهم و تلذه أعينهم. ثم ذكر سـبحانه صـفات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم التى أرسله لها فقال: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً أى: على أمته يشهد لمن صدقه، و آمن به، و على من كـذبه و كفر به، قـال مجاهـد: شاهـدا على أمته بالتبليغ إليهم، و على سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم وَ مُبَشِّراً للمؤمنين برحمـة اللّه، و بمـا أعـدّه لهم من جزيـل الثواب، و عظيم الأـجر وَ نَـذِيراً للكافرين و العصاة بالنار، و بما أعـدّه اللّه لهم من عظيم العقاب وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ يدعو عباد اللّه إلى التوحيد، و الإيمان بما جاء به، و العمل بما شرعه لهم، و معنى بِإِذْنِهِ بأمره له بذلك و تقديره، و قيل: بتبشيره وَ سِراجاً مُنِيراً أى: يستضاء به فى ظلم الضلالة، كما يستضاء بالمصباح فى الظلمة.

قال الزجاج: وَ سِراجاً أى: ذا سراج منير، أى: كتاب نير، و انتصاب شاهدا و ما بعده: على الحال وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ عطف على مقدّر يقتضـيه المقام، كأنه قال فاشهد و بشر، أو فدبر أحوال الناس وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أو هو من عطف جملة على جملة، و هى المذكورة سابقا، و لا يمنع من ذلك الاختلاف بين الجملتين بالإخبار و الإنشاء. أمره سـبحانه بأن يبشـرهم بأن لهم من اللّه فضلا كبيرا على سائر الأمم، و قـد بين ذلك سـبحانه بقوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ «۲» ثم نهـاه سـبحانه عن طاعـة أعـداء الـدين فقـال: وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ أى: لا تطعهم فيما يشـيرون عليك به من المداهنـة فى الدين، و فى الآية تعريض لغيره من أمته لأنه صـلّى اللّه عليه و سـلم معصوم عن طاعتهم فى شـىء مما يريدونه، و يشيرون به عليه، و قد تقدّم تفسير هذه الآية فى أوّل السورة وَ دَعْ أَذاهُمْ أى:

لا تبال بما يصدر منهم إليك من الأذى بسبب يصيبك فى دين اللّه و شدّتك على أعدائه، أو دع أن تؤذيهم مجازاة لهم على ما يفعلونه من الأذى لك، فالمصدر على الأوّل: مضاف إلى الفاعل. و على الثانى: مضاف إلى المفعول،

---

(۱). الرعد: ۲۳ و ۲۴.

(۲). الشورى: ۲۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۳۲

و هى منسوخـة بآيـة السـيف: وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فى كلّ شؤونك وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا توكل إليه الأمور و تفوّض إليه الشؤون، فمن فوّض إليه أموره كفاه، و من و كلّ إليه أحواله لم يحتج فيها إلى سواه.

و قـد أخرج ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حـاتم عن ابن عباس فى قوله: اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً يقول: لا يفرض على عباده فريضـة إلا جعل لها أجلا معلوما، ثم عـذر أهلها فى حال العـذر؛ غير الذكر، فإن اللّه لم يجعل له حدا ينتهى إليه و لم يعذر أحدا فى تركـه إلاـ مغلوبـا على عقله، فقـال: اذكروا اللّه قيامـا و قعـودا، و على جنـوبكم بالليـل و النهـار، فى البرّ و البحر، فى السـفر و الحضر، فى الغنى و الفقر، فى الصحة و السقم، فى السرّ و العلانية و على كلّ حال، و قال: وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا إذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو و ملائكته قال اللّه: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ

و قـد ورد فى فضل الـذكر و الاسـتكثار منه أحاديث كثيرة، و قـد صـنف فى الأذكار المتعلقـة بالليل و النهار جماعـة من الأئمـة: كالنسائى، و النووى، و الجزرى، و غيرهم، و قد نطقت الآيات القرآنية بفضل الذاكرين و فضيلة الذكر وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ «۱» و قد

ورد أنه أفضل من الجهاد كما فى حديث أبى سعيد الخدرى عند أحمد، و الترمذى، و البيهقى «أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سئل: أى: العباد أفضل درجة عند اللّه يوم القيامة؟ قال:
الذاكرون اللّه كثيرا، قلت: يا رسول اللّه و من الغازى فى سبيل اللّه؟ قال: لو ضرب بسيفه فى الكفار و المشركين حتى ينكسر و يختضب دما لكان الذاكرون أفضل منه درجة» و أخرج أحمد عن أبى الدرداء قال:
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم و أزكاها عند مليككم و أرفعها فى درجاتكم و خير لكم من إعطاء الذهب و الورق، و خير لكم من أن تلقوا أعداءكم، فتضربوا أعناقهم، و يضربوا أعناقكم؟
قالوا: و ما هو يا رسول اللّه؟ قال: ذكر اللّه عزّ و جلّ». و أخرجه أيضا الترمذى، و ابن ماجة. و فى صحيح مسلم و غيره من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «سبق المفرّدون، قالوا: و ما المفرّدون يا رسول اللّه؟ قال: الذاكرون اللّه كثيرا» و أخرج أحمد، و أبو يعلى، و ابن حبان، و الحاكم، و صححه، و البيهقى عن أبى سعيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «أكثروا ذكر اللّه حتى يقولوا مجنون». و أخرج الطبرانى عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «اذكروا اللّه حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون».
و ورد فى فضل التسبيح بخصوصه أحاديث ثابتة فى الصحيحين و غيرهما، فمن ذلك حديث أبى هريرة قال: «من قال فى يوم مائة مرّة سبحان اللّه و بحمده حطت خطاياه و لو كانت مثل زبد البحر». و أخرج أحمد و مسلم و الترمذى و غيرهم عن سعد بن أبى وقاص قال: «كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال لنا: أ يعجز أحدكم أن يكتسب فى اليوم ألف حسنة؟ فقال رجل: كيف يكتسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: يسبح اللّه مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة و يحطّ عنه ألف خطيئة». و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و عبد ابن حميد، و ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت، و أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه فى الشعب عن البراء بن عازب فى قوله: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ قال: يوم

---

(١). العنكبوت: ٢٩.

يلقون ملك الموت ليس من مؤمن يقبض روحه إلا سلم عليه. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه، و الخطيب، و ابن عساكر عن ابن عباس قال: لما نزلت يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً و قد كان أمر عليا و معاذا أن يسيرا إلى اليمن، فقال: انطلقا فبشرا و لا تنفرا، و يسرا و لا تعسرا، فإنها قد أنزلت علىّ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً قال: شاهدا على أمتك، و مبشرا بالجنة، و نذيرا من النار، و داعيا إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً بالقرآن. و أخرج أحمد، و البخارى، و غيرهما من عطاء بن يسار قال: لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرنى عن صفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى التوراة فقال: أجل و اللّه إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن «يا أيّها النّبىّ إنّا أرسلناك شاهدا و مبشّرا و نذيرا، و حرزا للأمّيين، أنت عبدى و رسولى، سمّيتك المتوكّل ليس بفظّ و لا غليظ و لا صخّاب فى الأسواق، و لا تجزى بالسّيّئة السيئة، و لكن تعفو و تصفح» زاد أحمد «و لن يقبضه اللّه حتّى يقيم الملّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا اللّه، فيفتح بها أعينا عميا، و آذانا صمّا، و قلوبا غلفا». و قد ذكر البخارى فى صحيحه فى البيوع هذا الحديث فقال: و قال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد اللّه بن سلام، و لم يقل عبد اللّه بن عمرو، و هذا أولى، فعبد اللّه بن سلام هو الذى كان يسأل عن التوراة فيخبر بما فيها.

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴۹ الى ۵۲]

يـا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (۴۹) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَ بَناتِ عَمِّكَ وَ بَناتِ عَمَّاتِكَ وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۰) تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (۵۱) لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (۵۲)

لما ذكر سبحانه قصة زيد، و طلاقه لزينب، و كان قد دخل بها، و خطبها النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم بعد انقضاء عدّتها، كما تقدّم، خاطب المؤمنين مبينا لهم حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل الدخول فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ أى: عقدتم بهنّ عقد النكاح، و لم يرد لفظ النكاح فى كتاب اللّه إلا فى معنى العقد كما قاله صاحب الكشاف و القرطبى و غيرهما. و قد اختلف فى لفظ النكاح هل هو حقيقة فى الوطء، أو فى العقد، أو فيهما على طريقة الاشتراك، و كلام صاحب الكشاف فى هذا الموضع يشعر بأنه حقيقة فى الوطء، فإنه قال النكاح الوطء، و تسمية العقد نكاحا

لملابسته له من حيث أنه طريق إليه، و نظيره تسميته الخمر إثما لأنها سبب فى اقتراف الإثم. و معنى: مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَ من قبل أن تجامعوهنّ، فكنى عن ذلك بلفظ المسّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها و هذا مجمع عليه كما حكى ذلك القرطبى و ابن كثير، و معنى تعتدّونها: تستوفون عددها، من عددت الدراهم فأنا أعتدّها. و إسناد ذلك إلى الرجال للدلالة على أن العدّة حق لهم كما يفيده فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ قرأ الجمهور «تعتدّونها» بتشديد الدال، و قرأ ابن كثير فى رواية عنه و أهل مكة بتخفيفها. و فى هذه القراءة وجهان: أحدهما أن تكون بمعنى الأولى، مأخوذة من الاعتداد: أى تستوفون عددها، و لكنهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف. قال الرازى: و لو كان من الاعتداء الذى هو الظلم لضعف، الاعتداء يتعدّى بعلى. و قيل: يجوز أن يكون من الاعتداء بحذف حرف الجرّ، أى: تعتدّون عليها، أى: على العدّة مجازا و مثله قوله:

تحنّ فتبدى ما بها من صبابةو أخفى الذى لو لا الأسى لقضانى

أى: لقضى علىّ. و الوجه الثانى: أن يكون المعنى: تعتدون فيها، و المراد بالاعتداء هذا. هو ما فى قوله: وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا «۱» فيكون معنى الآية على القراءة الآخرة: فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدون عليهنّ فيها بالمضارة. و قد أنكر ابن عطية صحة هذه القراءة عن ابن كثير و قال: إن البزّى غلط عليه، و هذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى: وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ «۲» و بقوله: وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ «۳» و المتعة المذكورة هنا قد تقدّم الكلام فيها فى البقرة. و قال سعيد بن جبير، هذه المتعة المذكورة هنا منسوخة بالآية التى فى البقرة و هى قوله: وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ «۴» و قيل: المتعة هنا هى أعمّ من أن تكون نصف الصداق، أو المتعة خاصة إن لم يكن قد سمى لها، فمع التسمية للصداق تستحق نصف المسمى عملا بقوله: فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ لهنّ، و مع عدم التسمية تستحق المتعة عملا بهذه الآية، و يؤيد ذلك قوله تعالى: لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ «۵» و هذا الجمع لا بدّ منه، و هو مقدّم على الترجيح و على دعوى

النسخ، و تخصص من هذه الآية المتوفى عنها زوجها، فإنه إذا مات بعد العقد عليها، و قبل الدخول بها كان الموت كالدخول فتعتد أربعة أشهر و عشرا. قال ابن كثير: بالإجماع، فيكون المخصص: هو الإجماع، و قد استدلّ بهذه الآية القائلون بأنه لا طلاق قبل النكاح، و هم الجمهور، و ذهب مالك: و أبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح إذا قال: إن تزوّجت فلانة فهى طالق، فتطلق إذا تزوّجها. و وجه الاستدلال بالآية لما قاله الجمهور أنه قال:
إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَ فعقب الطلاق بالنكاح بلفظ ثم المشعرة بالترتيب و المهلة وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا أى: أخرجوهنّ من منازلكم: إذ ليس لكم عليهنّ عدّة، و السراح الجميل:
الذى لا ضرار فيه، و قيل: السراح، و قيل: السراح الجميل: أن لا يطالبها بما كان قد أعطاها، و قيل:

---

(١). البقرة: ٢٣١.

(٢). البقرة: ٢٢٨.

(٣). الطلاق: ۴.

(۴). البقرة: ٢٣٧.

(۵). البقرة: ٢٣۶.

السراح الجميل هنا كناية عن الطلاق، و هو بعيد لأنه قد تقدم ذكر الطلاق، و رتب عليه التمتيع، و عطف عليه السراح الجميل، فلا بدّ أن يراد به معنى غير الطلاق يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَ ذكر سبحانه فى هذه الآية أنواع الأنكحة التى أحلها لرسوله، و بدأ بأزواجه اللاتى قد أعطاهنّ أجورهنّ: أى مهورهنّ، فإن المهور: أجور الأبضاع، و إيتاؤها: إما تسليمها معجلة، أو تسميتها فى العقد.
و اختلف فى معنى قوله: أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ فقال ابن زيد و الضحاك: إن اللّه أحلّ له أن يتزوّج كل امرأة يؤتيها مهرها، فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ما عدا ذوات المحارم. و قال الجمهور: المراد أحللنا لك أزواجك: الكائنات عندك، لأنهنّ قد اخترنك على الدنيا و زينتها، و هذا هو الظاهر، لأنه قوله أحللنا، و آتيت: ماضيان، و تقييد الإحلال بإيتاء الأجور ليس لتوقف الحلّ عليه، لأنه يصح العقد بلا تسمية، و يجب مهر المثل مع الوطء، و المتعة مع عدمه، فكأنه لقصد الإرشاد إلى ما هو أفضل وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ أى: السرارى اللاتى دخلن فى ملكه بالغنيمة، و معنى مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ مما ردّه اللّه عليك من الكفار بالغنيمة لنسائهم المأخوذات على وجه القهر و الغلبة، و ليس المراد بهذا القيد إخراج ما ملكه بغير الغنيمة، فإنها تحلّ له السرية المشتراة و الموهوبة و نحوهما، و لكنه إشارة إلى ما هو أفضل كالقيد الأوّل المصرّح بإيتاء الأجور، و هكذا قيد المهاجرة فى قوله: وَ بَناتِ عَمِّكَ وَ بَناتِ عَمَّاتِكَ وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ فإنه للإشارة إلى ما هو أفضل، و للإيذان بشرف الهجرة، و شرف من هاجر، و المراد هنا الاشتراك فى الهجرة لا فى الصحبة فيها. و قيل إن هذا القيد: أعنى المهاجرة معتبر و أنها لا تحلّ له من لم تهاجر من هؤلاء كما فى قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا «١» و يؤيد هذا حديث أمّ هانئ، و سيأتى آخر البحث هذا إن شاء اللّه تعالى و وجه إفراد العم، و الخال و جمع العمة، و الخالة ما ذكره القرطبى أن العم و الخال فى الإطلاق اسم جنس كالشاعر و الراجز، و ليس كذلك العمة و الخالة.
قال: و هذا عرف لغوى، فجاء الكلام عليه بغاية البيان. و حكاه عن ابن العربى، و قال ابن كثير: إنه وحد لفظ الذكر لشرفه، و جمع الأنثى كقوله: عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمائِلِ «٢» و قوله: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ* «٣» وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ «۴» و له

نظائر كثيرة. انتهى. و قال النيسابورى. و إنما لم يجمع العم و الخال اكتفاء بجنسيتهما مع أن لجمع البنات دلالة على ذلك لامتناع اجتماع أختين تحت واحد، و لم يحسن هذا الاختصار فى العمة و الخالة لإمكان سبق الوهم إلى أن التاء فيهما للوحدة انتهى. و كلّ وجه من هذه الوجوه يحتمل المناقشة بالنقض و المعارضة، و أحسنها تعليل جمع العمة و الخالة بسبق الوهم إلى أن التاء للوحدة، و ليس فى العم و الخال ما يسبق الوهم إليه بأنه أريد به الوحدة؛ إلا مجرّد صيغة الإفراد و هى لا تقتضى ذلك بعد إضافتها لما تقرّر من عموم أسماء الأجناس المضافة، على أن هذا الوجه الأحسن لا يصفو عن شوب المناقشة وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِي هو معطوف على مفعول أحللنا، أى: و أحللنا لك امرأة مصدقة بالتوحيد إن وهبت نفسها لك بغير صداق. و أما من لم تكن مؤمنة فلا تحل لك بمجرّد هبتها نفسها لك، و لكن ليس بواجب

---

(١). الأنفال: ٧٢.

(٢). النحل: ٤٨.

(٣). البقرة: ٢٥٧.

(٤). الأنعام: ١.

عليك بحيث يلزمك قبول ذلك، بل مقيدا بإرادتك، و لهذا قال: إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها أى:

يصيّرها منكوحة له، و يتملك بضعها بتلك الهبة بلا مهر. و قد قيل: إنه لم ينكح النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم من الواهبات أنفسهن أحدا و لم يكن عنده منهنّ شى‌ء. و قيل: كان عنده منهنّ خولة بنت حكيم كما فى صحيح البخارى عن عائشة. و قال قتادة: هى ميمونة بنت الحارث. و قال الشعبى: هى زينب بنت خزيمة الأنصارية أمّ المساكين. و قال علىّ بن الحسين، و الضحاك، و مقاتل: هى أمّ شريك بنت جابر الأسدية. و قال عروة بن الزبير: هى أمّ حكيم بنت الأوقص السلمية. ثم بيّن سبحانه أن هذا النوع من النكاح خاص برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لا يحلّ لغيره من أمته فقال: خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أى: هذا الإحلال الخالص هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين. و لفظ خالصة إما حال من امرأة، قاله الزجاج. أو مصدر مؤكد كوعد اللّه، أى:

خالص لك خلوصا. قرأ الجمهور «و امرأة» بالنصب. و قرأ أبو حيوة بالرفع على الابتداء. و قرأ الجمهور «إن وهبت» بكسر إن. و قرأ أبىّ و الحسن و عيسى بن عمر بفتحها على أنه بدل من امرأة بدل اشتمال. أو على حذف لام العلة، أى: لأن وهبت، و قرأ الجمهور «خالصة» بالنصب، و قرئ بالرفع على أنها صفة لامرأة على قراءة من قرأ امرأة بالرفع، و قد أجمع العلماء على أن هذا خاص بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و أنه لا يجوز لغيره و لا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها إلا ما روى عن أبى حنيفة و صاحبيه أنه يصحّ النكاح إذا وهبت، و أشهد هو على نفسه بمهر. و أما بدون مهر فلا خلاف فى أن ذلك خاص بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و لهذا قال: قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ أى: ما فرضه اللّه سبحانه على المؤمنين فى حقّ أزواجهم من شرائط العقد و حقوقه، فإن ذلك حق عليهم مفروض لا يحلّ لهم الإخلال به، و لا الاقتداء برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فيما خصه اللّه به توسعة عليه و تكريما له، فلا يتزوجوا إلا أربعا بمهر و بينة و ولىّ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ أى: و علمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من كونهنّ ممن يجوز سبيه و حربه، لا من كان لا يجوز سبيه أو كان له عهد من المسلمين لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ قال المفسرون: هذا يرجع إلى أوّل الآية: أى أحللنا لك أزواجك و ما ملكت يمينك و الموهوبة لكيلا يكون عليك حرج، فتكون اللام متعلقة بأحللنا، و قيل: هى متعلقة بخالصة، و الأوّل أولى، و الحرج: الضيق، أى: وسعنا عليك فى التحليل لك

لئلا يضيق صدرک، فتظن أنک قد أثمت فی بعض المنکوحات وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً یغفر الذنوب، و یرحم العباد، و لذلک وسع الأمر، و لم یضیقه تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ قرئ «ترجئ» مهموزا و غیر مهموز، و هما لغتان، و الإرجاء التأخیر، یقال: أرجأت الأمر و أرجیته: إذا أخرته وَ تُؤْوِی إِلَیْکَ مَنْ تَشاءُ أی: تضم إلیک، یقال آواه إلیه بالمد: ضمه إلیه، و أوی مقصورا: أی ضم إلیه، و المعنی: أن اللّه وسع علی رسوله و جعل الخیار إلیه فی نسائه، فیؤخر من شاء منهنّ و یؤخر نوبتها و یترکها و لا یأتیها من غیر طلاق، و یضم إلیه من شاء منهنّ و یضاجعها و یبیت عندها، و قد کان القسم واجبا علیه حتی نزلت هذه الآیة، فارتفع الوجوب و صار الخیار إلیه، و کان ممن آوی إلیه عائشة و حفصة و أمّ سلمة و زینب، و ممن أرجأه سودة و جویریة و أم حبیبة و میمونة و صفیة، فکان صلّی اللّه علیه و سلم یسوّی بین من آواه فی القسم، و کان یقسم لمن أرجأه ما شاء. هذا قول جمهور

المفسرین فی معنی الآیة. و هو الذی دلت علیه الأدلة الثابتة فی الصحیح و غیره. و قیل: هذه الآیة فی الواهبات أنفسهنّ، لا فی غیرهنّ من الزوجات. قاله الشعبی و غیره. و قیل: معنی الآیة فی الطلاق: أی: تطلق من تشاء منهنّ و تمسک من تشاء. و قال الحسن: إن المعنی: تنکح من شئت من نساء أمتک، و تترک نکاح من شئت منهنّ. و قد قیل: إن هذه ناسخة لقوله: لا یَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ و سیأتی بیان ذلک وَ مَنِ ابْتَغَیْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَیْکَ الابتغاء: الطلب، و العزل: الإزالة، و المعنی: أنه إن أراد أن یؤوی إلیه امرأة ممن قد عزلهنّ من القسمة و یضمها إلیه فلا حرج علیه فی ذلک. و الحاصل أن اللّه سبحانه فوّض الأمر إلی رسوله یصنع فی زوجاته ما شاء من تقدیم و تأخیر، و عزل و إمساک، و ضمّ من أرجأ، و إرجاء من ضمّ إلیه، و ما شاء فی أمرهنّ فعل توسعة علیه و نفیا للحرج عنه. و أصل الجناح: المیل، یقال جنحت السفینة:

إذا مالت. و المعنی: لا میل علیک بلوم و لا عتب فیما فعلت، و الإشارة بقوله: ذلِکَ إلی ما تقدّم من التفویض إلی مشیئته، و هو: مبتدأ، و خبره: أَنْ تَقَرَّ أَعْیُنُهُنَ أی: ذلک التفویض الذی فوّضناک أقرب إلی رضاهنّ لأنه حکم اللّه سبحانه. قال قتادة: أی ذلک التخییر الذی خیرناک فی صحبتهنّ أدنی إلی رضاهنّ إذ کان من عندنا، لأنهنّ إذا علمن أنه من اللّه قرّت أعینهنّ. قرأ الجمهور تَقَرَّ علی البناء للفاعل مسندا إلی أعینهنّ، و قرأ ابن محیصن «تقر» بضم التاء من أقرر ضمیر المخاطب و نصب أعینهنّ علی المفعولیة، و قرئ علی البناء للمفعول. و قد تقدّم بیان معنی قرّة العین فی سورة مریم، وَ معنی لا یَحْزَنَ لا یحصل معهنّ حزن بتأثیرک بعضهنّ دون بعض وَ یَرْضَیْنَ بِما آتَیْتَهُنَّ کُلُّهُنَ أی: یرضین جمیعا بما أعطیتهنّ من تقریب و إرجاء، و عزل و إیواء. قرأ الجمهور «کلهنّ» بالرفع تأکیدا لفاعل یرضین. و قرأ أبو إیاس بالنصب تأکیدا لضمیر المفعول فی آتیتهنّ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ ما فِی قُلُوبِکُمْ من کلّ ما تضمرونه، و من ذلک ما تضمرونه من أمور النساء وَ کانَ اللَّهُ عَلِیماً بکل شیء لا تخفی علیه خافیة (حلیما) لا یعاجل العصاة بالعقوبة لا یَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ قرأ الجمهور «لا یحلّ» بالتحتیة للفصل بین الفعل و فاعله المؤنث، و قرأ ابن کثیر بالفوقیة.

و قد اختلف أهل العلم فی تفسیر هذه الآیة علی أقوال: الأوّل أنها محکمة، و أنه حرّم علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم أن یتزوّج علی نسائه، مکافأة لهنّ بما فعلن من اختیار اللّه و رسوله، و الدار الآخرة لما خیرهنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم بأمر اللّه له بذلک، و هذا قول ابن عباس، و مجاهد، و الضحاک، و قتادة، و الحسن، و ابن سیرین، و أبی بکر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، و ابن زید و ابن جریر. و قال أبو أمامة بن سهل بن حنیف: لما حرّم اللّه علیهنّ أن یتزوجن من بعده حرّم علیه أن یتزوّج غیرهن. و قال أبیّ بن کعب و عکرمة و أبو رزین: إن المعنی: لا یحل لک النساء من بعد الأصناف التی سماها اللّه. قال القرطبی: و هو اختیار ابن جریر. و قیل:

لا یحلّ لک الیهودیات و لا النصرانیات لأنهنّ لا یصح أن یتصفن بأنهنّ أمهات المؤمنین. و هذا القول فیه بعد لأنه یکن التقدیر:

لا يحلّ لک النساء من بعد المسلمات. و لم يجر للمسلمات ذکر. و قيل: هذه الآية منسوخة بالسنة و بقوله سبحانه: تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِی إِلَيْکَ مَنْ تَشاءُ و بهذا قالت عائشة، و أم سلمة،

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۳۸

و علیّ بن أبی طالب، و علی بن الحسين و غيرهم، و هذا هو الراجح، و سيأتی فی آخر البحث ما يدل عليه من الأدلة وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ أی: تتبدل فحذفت إحدی التاءين، أی: ليس لک أن تطلق واحدة منهنّ أو أکثر و تتزوّج بدل من طلقت منهنّ، و «من» فی قوله: مِنْ أَزْواجٍ مزيدة للتأکيد.

و قال ابن زيد: هذا شیء کانت العرب تفعله يقول: خذ زوجتی، و أعطنی زوجتک، و قد أنکر النحاس، و ابن جرير ما ذکره ابن زيد. قال ابن جرير: ما فعلت العرب هذا قط. و يدفع هذا الإنکار منهما ما أخرجه الدارقطنی عن أبی هريرة قال: کان البدل فی الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: تنزل لی عن امرأتک و أنزل لک عن امرأتی، فأنزل اللّه عزّ و جلّ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ و أخرجه أيضا عنه البزار و ابن مردويه، و جملة:

وَ لَوْ أَعْجَبَکَ حُسْنُهُنَ فی محل نصب علی الحال من فاعل تبدّل، و المعنی: أنه لا يحل التبدّل بأزواجک، و لو أعجبک حسن غيرهنّ ممن أردت أن تجعلها بدلا من إحداهنّ، و هذا التبدّل أيضا من جملة ما نسخه اللّه فی حق رسوله علی القول الراجح، و قوله: إِلَّا ما مَلَکَتْ يَمِينُکَ استثناء من النساء لأنه يتناول الحرائر و الإماء.

و قد اختلف العلماء فی تحليل الأمة الکافرة. القول الأوّل: أنه تحلّ للنبیّ صلّی اللّه عليه و سلم لعموم هذه الآية، و به قال مجاهد، و سعيد بن جبير، و عطاء، و الحکم. القول الثانی: أنها لا تحلّ له تنزيها لقدره عن مباشرة الکافرة.

و يترجح القول الأوّل بعموم هذه الآية، و تعليل المنع بالتنزّه ضعيف فلا تنزّه عما أحله اللّه سبحانه، فإن ما أحله فهو طيب، لا خبيث باعتبار ما يتعلق بأمور النکاح، لا باعتبار غير ذلک، فالمشرکون نجس بنص القرآن.

و يمکن ترجيح القول الثانی بقوله سبحانه: وَ لا تُمْسِکُوا بِعِصَمِ الْکَوافِرِ «۱» فإنه نهی عام وَ کانَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ رَقِيباً أی: مراقبا حافظا مهيمنا، لا يخفی عليه شیء، و لا يفوته شیء.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: إِذا نَکَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ قال: هذا فی الرجل يتزوّج المرأة، ثم يطلقها من قبل أن يمسها، فإذا طلقها واحدة بانت منه، و لا عدّة عليها تتزوّج من شاءت، ثم قال: فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا يقول: إن کان سمی لها صداقا فليس لها إلا النصف، و إن لم يکن سمی لها صداقا متعها علی قدر عسره و يسره، و هو السراح الجميل.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: إِذا نَکَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَ منسوخة نسختها التی فی البقرة فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن سعيد بن المسيب نحوه. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن و أبی العالية قالا: ليست بمنسوخة، لها نصف الصداق و لها المتاع. و أخرج عبد الرزاق عن ابن جريج قال: بلغ ابن عباس أن ابن مسعود يقول: إن طلق ما لم ينکح فهو جائز، فقال ابن عباس أخطأ فی هذا، إن اللّه يقول: إِذا نَکَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَ و لم يقل:

إذا طلقتم المؤمنات ثم نکحتموهنّ. و أخرج ابن أبی حاتم، و الحاکم و صححه عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية و قال: لا يکون طلاق حتی يکون نکاح. و قد وردت أحاديث منها أنه «لا طلاق إلّا بعد نکاح» و هی

---

(۱). الممتحنة: ۱۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۳۹

معروفة. و أخرج ابن سعد، و ابن راهويه، و عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى عن أم هانئ بنت أبى طالب. قالت: خطبنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فاعتذرت إليه فعذرنى، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ إلى قوله:

هاجَرْنَ مَعَکَ قالت: فلم أكن أحلّ له لأنى لم أهاجر معه. كنت من الطلقاء. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه من وجه آخر عنها قالت: نزلت فىّ هذه الآية وَ بَناتِ عَمِّکَ وَ بَناتِ عَمَّاتِکَ وَ بَناتِ خالِکَ وَ بَناتِ خالاتِکَ اللَّاتِی هاجَرْنَ مَعَکَ أراد النبىّ أن يتزوّجنى، فنهى عنى إذ لم أهاجر. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ إلى قوله: خالِصَةً لَکَ قال: فحرّم اللّه عليه سوى ذلك من النساء، و كان قبل ذلك ينكح فى أىّ النساء شاء لم يحرم ذلك عليه، و كان نساؤه يجدن من ذلك وجدا شديدا أن ينكح فى أىّ النساء أحبّ، فلما أنزل إنى حرّمت عليك من النساء سوى ما قصصت عليك أعجب ذلك نساءه.

و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى السنن عن عائشة قالت: التى وهبت نفسها للنبى صلّى اللّه عليه و سلم خولة بنت حكيم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن سعد، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و البخارى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى، و ابن مردويه، عن عروة أن خولة بنت حكيم كانت من اللاتى و هبن أنفسهنّ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن أبى حاتم عن محمّد بن كعب، و عمر بن الحكم، و عبد اللّه بن عبيدة قالوا: تزوّج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ثلاث عشرة امرأة: ست من قريش: خديجة، و عائشة، و حفصة، و أم حبيبة، و سودة، و أم سلمة، و ثلاث من بنى عامر بن صعصعة، و امرأتين من بنى هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، و هى التى و هبت نفسها للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و زينب أم المساكين، و العامرية و هى التى اختارت الدنيا، و امرأة من بنى الجون، و هى التى استعاذت منه، و زينب بنت جحش الأسدية، و السبيتين: صفية بنت حيى، و جويرية بنت الحارث الخزاعية. و أخرج البخارى، و ابن مردويه عن أنس قال: جاءت امرأة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقالت: يا نبىّ اللّه هل لك بى حاجة؟ فقالت ابن أنس: ما كان أقلّ حياءها، فقال: هى خير منك، رغبت فى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فعرضت نفسها عليه. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن سهل بن سعد الساعدى أن امرأة جاءت إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فوهبت نفسها له فصمت، الحديث بطوله. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله: قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِی أَزْواجِهِمْ قال: فرض اللّه عليهم أنه لا نكاح إلا بولىّ و شاهدين. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس مثله و زاد و مهر. و أخرج ابن أبى شيبة عن على قال: نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن توطأ الحامل حتى تضع؛ و الحائل حتى تستبرأ بحيضة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ قال: تؤخر. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عنه فى قوله:

تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ يقول: من شئت خليت سبيله منهنّ، و من أحببت أمسكت منهنّ، و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتى و هبن أنفسهنّ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أقول تهب المرأة نفسها، فلما أنزل اللّه تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ الآية قلت: ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك.

و أخرج ابن سعد، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى رزين

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴۰

قال: همّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يطلق من نسائه، فلما رأين ذلك أتينه فقلن: لا تخلّ سبيلنا و أنت فى حلّ فيما بيننا و بينك، افرض لنا من نفسك و مالك ما شئت، فأنزل اللّه تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ يقول: تعزل من تشاء، فأرجأ منهن نسوة، و آوى

نسوة، و كان ممن أرجى: ميمونة، و جويرية، و أم حبيبة، و صفية، و سودة، و كان يقسم بينهن من نفسه و ماله ما شاء، و كان ممن آوى: عائشة، و حفصة، و أم سلمة، و زينب، فكانت قسمته من نفسه و ماله بينهنّ سواء. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن عائشة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ قالت: كنت أقول: إن كان ذلك إلىّ، فإنى لا أريد أن أوثر عليك أحدا. و أخرج الرويانى، و الدارمى و ابن سعد، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة عن زياد- رجل من الأنصار- قال: قلت لأبى بن كعب: أ رأيت لو أن أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم متن أما كان يحلّ له أن يتزوّج؟ قال: و ما يمنعه من ذلك، قلت: قوله: لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ قال: إنما أحلّ له ضربا من النساء و وصف له صفة فقال: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ إلى قوله: وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً ثم قال: لا يحلّ لك النساء من بعد هذه الصفة. و أخرج عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن أصناف النساء إلى ما كان من المؤمنات المهاجرات، قال: لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ، وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ فأحلّ له الفتيات المؤمنات وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِي و حرم كلّ ذات دين غير الإسلام، و قال: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ إلى قوله: خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ و حرّم ما سوى ذلك من أصناف النساء».

و أخرج ابن مردويه عنه قال: «نهى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم أن يتزوّج بعد نسائه الأول شيئا» و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: حبسه اللّه عليهن كما حبسهن عليه. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن أنس قال: لما خيرهنّ؛ فاخترن اللّه، و رسوله قصره عليهن فقال: لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ. و أخرج ابن سعد، و ابن أبى حاتم عن أم سلمة قالت: لم يمت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حتى أحلّ اللّه له أن يتزوّج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، و ذلك قول اللّه: تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ. و أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و ابن سعد، و أحمد، و عبد بن حميد، و أبو داود فى ناسخه، و الترمذى و صححه، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى من طريق عطاء عن عائشة قالت: لم يمت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حتى أحلّ له أن يتزوّج من النساء ما شاء إلا ذات محرم لقوله: تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ. و أخرج ابن سعد عن ابن عباس مثله. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن سعد، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى رزين لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ قال: من المشركات إلا ما سبيت فملكت يمينك. و أخرج البزار، و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: كان البدل فى الجاهلية أن يقول الرجل للرجل:

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴۱

بادلنى امرأتك و أبادلك امرأتى: أى تنزل لى عن امرأتك، و أنزل لك عن امرأتى، فأنزل اللّه: وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَ قال: فدخل عيينة بن حصن الفزارى إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و عنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أين الاستئذان؟ قال: يا رسول اللّه! ما استأذنت على رجل من الأنصار منذ أدركت، ثم قال: من هذه الحميراء إلى جنبك؟ فقال رسول اللّه: هذه عائشة أم المؤمنين، قال: أفلا أنزل لك عن أحسن خلق اللّه؟ قال: يا عيينة إن اللّه حرّم ذلك، فلما أن خرج قالت عائشة:

من هذا؟ قال: أحمق مطاع، و إنه على ما ترين لسيد قومه».

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤) لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَ لا أَبْنائِهِنَّ وَ لا إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَ لا نِسائِهِنَّ وَ لا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِ هذا نهى عام لكل مؤمن أن يدخل بيوت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلا بإذن منه. و سبب النزول: ما وقع من بعض الصحابة فى وليمة زينب، و سيأتى بيان ذلك آخر البحث إن شاء اللّه. و قوله: إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أى: لا تدخلوها فى حال من الأحوال إلا فى حال كونكم مأذونا لكم، و هو فى موضع نصب على الحال، أى: إلّا مصحوبين بالإذن، أو بنزع الخافض، أى: إلا بأن يؤذن لكم، أو منصوب على الظرفية، أى: إلا وقت أن يؤذن لكم، و قوله: إِلى طَعامٍ متعلق بيؤذن على تضمينه معنى الدعاء، أى: إلا أن يؤذن لكم مدعوّين إلى طعام، و انتصاب: غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ على الحال، و العامل فيه يؤذن أو مقدّر، أى: ادخلوا غير ناظرين، و معنى ناظرين: منتظرين، و إناه: نضجه و إدراكه، يقال: أنى يأنى أنى: إذا حان و أدرك. قرأ الجمهور «غير ناظرين» بالنصب. و قرأ ابن أبى عبلة غير بالجرّ: صفة لطعام، و ضعف النحاة هذه القراءة لعدم بروز الضمير و لكنه جاريا على غير من هو له، فكان حقه أن يقال غير ناظرين إناه أنتم ثم بين لهم سبحانه ما ينبغى فى ذلك فقال: وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا و فيه تأكيد للمنع، و بيان الوقت الذى يكون فيه الدخول، و هو عند الإذن. قال ابن العربى: و تقدير الكلام: و لكن إذا دعيتم، و أذن لكم فادخلوا، و إلا فنفس الدعوة لا تكون إذنا كافيا فى الدخول، و قيل: إن فيه دلالة بينة على أن المراد بالإذن إلى الطعام: هو الدعوة إليه فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا أمرهم سبحانه بالانتشار بعد الطعام، و هو التفرّق، و المراد الإلزام بالخروج من المنزل الذى

وقعت الدعوة إليه عند انقضاء المقصود من الأكل وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ عطف على قوله غير ناظرين، أو على مقدّر، أى: و لا تدخلوا و لا تمكثوا مستأنسين. و المعنى: النهى لهم عن أن يجلسوا بعد الطعام يتحدّثون بالحديث. قال الرازى فى قوله: إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ إما أن يكون فيه تقديم و تأخير تقديره:

و لا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم، فلا يكون منعا من الدخول فى غير وقت الطعام بغير إذن. و إما أن لا يكون فيه تقديم و تأخير فيكون معناه: و لا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام، فيكون الإذن مشروطا بكونه إلى طعام، فإن لم يؤذن إلى طعام؛ فلا يجوز الدخول، فلو أذن لواحد فى الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام فلا يجوز، فنقول المراد: هو الثانى ليعمّ النهى عن الدخول. و أما كونه لا يجوز إلا بإذن إلى طعام، فلما هو مذكور فى سبب النزول أن الخطاب مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام، و يدخلون من غير إذن فمنعوا من الدخول فى وقتهم بغير إذن. و قال ابن عادل: الأولى أن يقال المراد: هو الثانى، لأن التقديم و التأخير خلاف الأصل، و قوله: إِلى طَعامٍ من باب التخصيص بالذكر، فلا يدلّ على نفى ما عداه، لا سيما إذا علم مثله، فإن من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله بإذنه إلى غير الطعام، انتهى. و الأولى فى التعبير عن هذا المعنى الذى أراده أن يقال: قد دلت الأدلة على جواز دخول بيوته صلّى اللّه عليه و سلم بإذنه لغير الطعام، و ذلك معلوم لا شك فيه، فقد كان الصحابة و

غيرهم يستأذنون عليه لغير الطعام فيأذن لهم، و ذلک يوجب قصر هذه الآية على السبب الذين نزلت فيه، و هو القوم الذى كانوا يتحينون طعام النبى صلّى اللّه عليه و سلم فيدخلون و يقعدون منتظرين لإدراكه، و أمثالهم، فلا تدلّ على المنع من الدخول مع الإذن لغير ذلک، و إلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بإذنه، لغير الطعام، و اللازم باطل فالملزوم مثله. قال ابن عطية: و كانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة، أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام و نضجه، و كذلک إذا فرغوا منه جلسوا كذلک، فنهى اللّه المؤمنين عن ذلک فى بيت النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و دخل فى النهى سائر المؤمنين، و التزم الناس أدب اللّه لهم فى ذلک فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل لا قبله لانتظار نضج الطعام، و الإشارة بقوله: إِنَّ ذلِكُمْ إلى الانتظار، و الاستئناس للحديث، و أشير إليهما بما يشار به إلى الواحد بتأويلهما بالمذكور كما فى قوله: عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ «۱» أى: إن ذلک المذكور من الأمرين كانَ يُؤْذِي النَّبِيَ لأنهم كانوا يضيقون المنزل عليه، و على أهله، و يتحدّثون بما لا يريده. قال الزجاج: كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يحتمل إطالتهم كرما منه فيصبر على الأذى فى ذلک، فعلم اللّه من يحضره الأدب؛ فصار أدبا لهم و لمن بعدهم فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ أى يستحيى أن يقول لكم: قوموا، أو اخرجوا وَ اللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ أى: لا يترک أن يبين لكم ما هو الحق، و لا يمتنع من بيانه، و إظهاره و التعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة. قرأ الجمهور «يستحيى» بيائين، و روى عن ابن كثير أنه قرأ بياء واحدة، و هى لغة تميم يقولون: استحى يستحى: مثل استقى يستقى، ثم ذكر سبحانه أدبا آخر متعلقا بنساء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فقال: وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً أى: شيئا يتمتع به، من الماعون و غيره فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أى: من وراء ستر بينكم و بينهنّ. و المتاع يطلق على

---

(۱). البقرة: ۶۸.

كل ما يتمتع به، فلا وجه لما قيل من أن المراد به: العارية، أو الفتوى، أو المصحف، و الإشارة بقوله:

ذلِكُمْ إلى سؤال المتاع من وراء حجاب، و قيل: الإشارة إلى جميع ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن، و عدم الاستئناس للحديث عند الدخول و سؤال المتاع، و الأوّل أولى، و اسم الإشارة: مبتدأ، و خبره:

أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَ أى: أكثر تطهيرا لها من الريبة، و خواطر السوء التى تعرض للرجال فى أمر النساء، و للنساء فى أمر الرجال. و فى هذا أدب لكل مؤمن، و تحذيرا له من أن يثق بنفسه فى الخلوة مع من لا تحلّ له، و المكالمة من دون حجاب لمن تحرم عليه وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ أى: ما صح لكم و لا استقام أن تؤذوه بشىء من الأشياء كائنا ما كان، و من جملة ذلک دخول بيوته بغير إذن منه، و اللبث فيها على غير الوجه الذى يريده، و تكليم نسائه من دون حجاب وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أى:

و لا كان لكم ذلک بعد وفاته لأنهنّ أمهات المؤمنين، و لا يحلّ للأولاد نكاح الأمهات، و الإشارة بقوله: إِنَّ ذلِكُمْ إلى نكاح أزواجه من بعده كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً أى: ذنبا عظيما، و خطبا هائلا شديدا.

و كان سبب نزول الآية أنه قال قائل: لو قد مات محمّد لتزوّجنا نساءه، و سيأتى بيان ذلک إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيماً يعلم كلّ شى‏ء من الأشياء، و من جملة ذلک ما تظهرونه من شأن أزواج رسوله، و ما تكتمونه فى صدوركم. و فى هذا وعيد شديد، لأن إحاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها و شرّها. ثم بين سبحانه من لا يلزم الحجاب منه فقال: لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَ لا أَبْنائِهِنَّ وَ لا إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَ فهؤلاء لا يجب على نساء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و لا غيرهنّ من النساء الاحتجاب منهم، و لم يذكر العمّ و الخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين. و قال

الزجاج: العمّ و الخال ربما يصفان المرأة لولديهما، فإن المرأة تحلّ لابن العم و ابن الخال فكره لهما الرؤية، و هذا ضعيف جدّا، فإن تجويز وصف المرأة لمن تحل له ممكن من غيرهما ممن يجوز له النظر إليها، لا سيما أبناء الإخوة و أبناء الأخوات، و اللازم باطل فالملزوم مثله، و هكذا يستلزم أن لا يجوز للنساء الأجنبيات أن ينظرن إليها لأنهنّ يصفنها، و اللازم باطل فالملزوم مثله، و هكذا لا وجه لما قاله الشعبى و عكرمة من أنه للمرأة أن تضع خمارها عند عمها أو خالها، و الأولى أن يقال أنه سبحانه اقتصر هاهنا على بعض ما ذكره من المحارم فى سورة النور اكتفاء بما تقدّم وَ لا نِسائِهِنَ هذه الإضافة تقتضى أن يكون المراد بالنساء المؤمنات، لأن الكافرات غير مأمونات على العورات، و النساء كلهنّ عورة وَ لا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ من العبيد و الإماء، و قيل: الإماء خاصة، و من لم يبلغ من العبيد، و الخلاف فى ذلك معروف. و قد تقدّم فى سورة النور ما فيه كفاية. ثم أمرهنّ سبحانه بالتقوى التى هى ملاك الأمر كله، وَ المعنى اتَّقِينَ اللّه فى كلّ الأمور التى من جملتها ما هو مذكور هنا إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً لم يغب عنه شيء من الأشياء كائنا ما كان، فهو مجاز للمحسن بإحسانه و للمسيء بإساءته.

و قد أخرج البخارى، و مسلم عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول اللّه إن نساءك يدخل عليهنّ البرّ و الفاجر فلو حجبتهنّ، فأنزل اللّه آية الحجاب. و فى لفظ أنه قال عمر: يا رسول اللّه يدخل

عليك البرّ و الفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل اللّه آية الحجاب. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن أنس قال: «لما تزوّج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدّثون و إذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام و قعد ثلاثة نفر، فجاء النبى صلّى اللّه عليه و سلم ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى و بينه، فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِ الآية. و أخرج ابن جرير عن عائشة أن أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم كنّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع، و هو صعيد أفيح، و كان عمر بن الخطاب يقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم احجب نساءك، فلم يكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالى عشاء، و كانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب، فأنزل اللّه الحجاب قال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِ الآية. و أخرج ابن سعد عن أنس قال: نزل الحجاب مبتنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بزينب بنت جحش، و ذلك سنة خمس من الهجرة، و حجب نساءه من يومئذ و أنا ابن خمس عشرة سنة. و كذا: و أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان، قال: نزل الحجاب على نسائه فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة، و به قال قتادة و الواقدى. و زعم أبو عبيدة و خليفة بن خياط أن ذلك كان فى سنة ثلاث.

و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ قال: نزلت فى رجل همّ أن يتزوّج بعض نساء النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم بعده. قال سفيان. و ذكروا أنها عائشة. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد اللّه قال: أيحجبنا محمّد عن بنات عمنا. و يتزوّج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجنّ نساءه من بعده، فنزلت هذه الآية. و أخرج عبد الرزاق، و عبد ابن حميد، و ابن المنذر عن قتادة قال: قال طلحة بن عبيد اللّه: لو قبض النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم لتزوّجت عائشة. فنزلت.

و أخرج ابن سعد عن أبى بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم قال: نزلت فى طلحة لأنه قال: إذا توفّى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم تزوّجت عائشة. قال ابن عطية: و هذا عندى لا يصح على طلحة بن عبيد اللّه. قال القرطبى: قال شيخنا الإمام أبو العباس: و قد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة و حاشاهم عن مثله، و إنما الكذب فى نقله، و إنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين

الجهال. و أخرج البيهقى فى السنن عن ابن عباس قال: قال رجل من أصحاب النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم: لو قد مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم تزوّجت عائشة أو أمّ سلمة، فأنزل اللّه: وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ الآية. و أخرج ابن جرير عنه «أنّ رجلا أتى بعض أزواج النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم فكلّمها و هو ابن عمها، فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم: لا تقومنّ هذا المقام بعد يومك هذا، فقال: يا رسول اللّه إنها ابنة عمى، و اللّه ما قلت لها منكرا، و لا قالت لى، قال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم: قد عرفت ذلك، إنه ليس أحد أغير من اللّه، و إنه ليس أحد أغير منى، فمضى ثم قال: يمنعنى من كلام ابنة عمّى! لأتزوّجنّها من بعده، فأنزل اللّه هذه الآية، فأعتق ذلك الرجل رقبة و حمل على عشرة أبعرة فى سبيل اللّه، و حجّ ماشيا توبة من كلمته.

و أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس قالت: خطبنى علىّ فبلغ ذلك فاطمة، فأتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم

فقالت: إن أسماء متزوّجة عليا، فقال لها النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم: ما كان لها أن تؤذى اللّه و رسوله. و أخرج ابن سعد عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف فى قوله: إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ قال: إن تكلموا به فتقولون نتزوّج فلانة لبعض أزواج النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم، أو تخفوا ذلك فى أنفسكم فلا تنطقوا به؛ يعلمه اللّه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لا جُناحَ عَلَيْهِنَ إلى آخر الآية قال: أنزلت هذه فى نساء النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم خاصة، و قوله: نِسائِهِنَ يعنى نساء المسلمات ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ من المماليك و الإماء و رخص لهنّ أن يروهنّ بعد ما ضرب الحجاب عليهنّ.

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۵۶ الى ۵۸]

إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (۵۶) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (۵۷) وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۵۸)

قرأ الجمهور: وَ مَلائِكَتَهُ بنصب الملائكة عطفا على لفظ اسم إن. و قرأ ابن عباس: «و ملائكته» بالرفع عطفا على محل اسم إنّ، و الضمير فى قوله: يُصَلُّونَ راجع إلى اللّه، و إلى الملائكة، و فيه تشريف للملائكة عظيم حيث جعل الضمير لهم و للّه سبحانه واحدا، فلا يرد الاعتراض بما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلم لما سمع قول الخطيب يقول: من يطع اللّه و رسوله فقد رشد، و من يعصهما فقد غوى، فقال: بئس خطيب القوم أنت، قل و من يعص اللّه و رسوله، و وجه ذلك أنه ليس لأحد أن يجمع ذكر اللّه سبحانه مع غيره فى ضمير واحد، و هذا الحديث ثابت فى الصحيح. و ثبت أيضا فى الصحيح أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أمر مناديا ينادى يوم خيبر:

إنّ اللّه و رسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهليّة. و لأهل العلم أبحاث فى الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع ذكرها، و الآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها للّه و لملائكته واحدا، و التعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و يحمل الذمّ لذلك الخطيب الجامع بينهما على أنه صلّى اللّه عليه و سلم فهم منه إرادة التسوية بينهما بين اللّه سبحانه و بين رسوله، فيختص المنع بمثل ذلك، و هذا أحسن ما قيل فى الجمع. و قالت طائفة: فى هذه حذف، و التقدير: إن اللّه يصلى و ملائكته يصلون. و على هذا القول فلا تكون الآية مما جمع فيه بين ذكر اللّه و ذكر غيره فى ضمير واحد، و لا يرد أيضا ما قيل: إن الصلاة من اللّه الرحمة و من ملائكته الدعاء فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين فى لفظ يصلون، و يقال على القول الأوّل أنه أريد بيصلون معنى مجازى يعمّ المعنيين، و ذلك بأن يراد بقوله يصلون يهتمون بإظهار شرفه، أو يعظمون شأنه، أو يعتنون بأمره. و حكى البخارى عن أبى العالية أن صلاة اللّه سبحانه ثناؤه عليه عند ملائكته، و صلاة الملائكة الدعاء. و روى

الترمذى فى سننه عن سفيان الثورى، و غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا: صلاة الربّ: الرحمة، و صلاة الملائكة:
الاستغفار. و حكى الواحدى عن مقاتل أنه قال: أما صلاة الربّ: فالمغفرة، و أما صلاة الملائكة:
فالاستغفار. و قال عطاء بن أبى رباح: صلاته تبارك و تعالى سبوح قدوس سبقت رحمتى غضبى. و المقصود من هذه الآية أن اللّه سبحانه أخبر عباده بمنزلة نبيه فى الملأ الأعلى بأنه يثنى عليه عند ملائكته، و أن الملائكة

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴۶

تصلى عليه، و أمر عباده بأن يقتدوا بذلك و يصلوا عليه.

و قد اختلف أهل العلم فى الصلاة على النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم هل هى واجبة أم مستحبة؟ بعد اتفاقهم على أن الصلاة عليه فرض فى العمر مرة. و قد حكى هذا الإجماع القرطبى فى تفسيره، فقال قوم من أهل العلم: إنها واجبة عند ذكره، و قال قوم: تجب فى كلّ مجلس مرة. و قد وردت أحاديث مصرّحة بذمّ من سمع ذكر النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم فلم يصلّ عليه.

و اختلف العلماء فى الصلاة على النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم فى تشهد الصلاة المفترضة هل هى واجبة أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنها فيها سنة مؤكدة غير واجبة. قال ابن المنذر: يستحب أن لا يصلى أحد صلاة إلّا صلى فيها على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فإن ترك ذلك تارك؛ فصلاته مجزئة فى مذهب مالك، و أهل المدينة، و سفيان الثورى، و أهل الكوفة من أصحاب الرأى و غيرهم، و هو قول جمهور أهل العلم. قال: و شذّ الشافعى فأوجب على تاركها الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان، و هذا القول عن الشافعى لم يروه عنه إلا حرملة بن يحيى و لا يوجد عن الشافعى إلا من روايته. قال الطحاوى: لم يقل به أحد من أهل العلم غير الشافعى. و قال الخطابى، و هو من الشافعية: إنها ليست بواجبة فى الصلاة. قال: و هو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعى، و لا أعلم له فى ذلك قدوة. انتهى. و قد قال بقول الشافعى جماعة من أهل العلم منهم الشعبى و مقاتل بن حيان، و إليه ذهب أحمد بن حنبل أخيرا، كما حكاه أبو زرعة الدمشقى، و به قال ابن راهويه و ابن المواز من المالكية.

و قد جمعت فى هذه المسألة رسالة مستقلة ذكرت فيها ما احتج به الموجبون لها و ما أجاب به الجمهور، و أشفّ ما يستدلّ به على الوجوب الحديث الثابت بلفظ «إنّ اللّه أمرنا أن نصلّى عليك، فكيف نصلّى عليك فى صلاتنا، فقال: قولوا ...» الحديث. فإن هذا الأمر يصلح للاستدلال به على الوجوب. و أما على بطلان الصلاة بالترك، و وجوب الإعادة لها فلا، لأن الواجبات لا يستلزم عدمها العدم؛ كما يستلزم ذلك الشروط و الأركان.

و اعلم أنه قد ورد فى فضل الصلاة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أحاديث كثيرة، لو جمعت لجاءت فى مصنف مستقل، و لو لم يكن منها إلا الأحاديث الثابتة فى الصحيح من قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «من صلّى علىّ صلاة صلّى اللّه عليه بها عشرا» ناهيك بهذه الفضيلة الجليلة و المكرمة النبيلة. و أما صفة الصلاة عليه صلّى اللّه عليه و سلم فقد وردت فيها صفات كثيرة بأحاديث ثابتة فى الصحيحين و غيرهما، منها ما هو مقيد بصفة الصلاة عليه فى الصلاة، و منها ما هو مطلق، و هى معروفة فى كتب الحديث فلا نطيل بذكرها. و الذى يحصل به الامتثال لمطلق الأمر فى هذه الآية هو أن يقول القائل: اللهم صلّ و سلم على رسولك، أو على محمّد أو على النبى، أو اللهم صلّ على محمّد و سلم. و من أراد أن يصلى عليه، و يسلم عليه بصفة من الصفات التى ورد التعليم بها و الإرشاد إليها، فذلك أكمل، و هى صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة المطهرة، و سيأتى بعضها آخر البحث، و سيأتى الكلام فى الصلاة على الآل. و كان ظاهر هذا الأمر بالصلاة و التسليم فى الآية أن يقول القائل: صليت عليه و سلمت عليه، أو الصلاة عليه و السلام عليه، أو عليه الصلاة و التسليم، لأن اللّه سبحانه أمر بإيقاع

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴۷

الصلاة عليه و التسليم منا، فالامتثال هو أن يكون ذلك على ما ذكرنا، فكيف كان الامتثال لأمر اللّه لنا بذلك أن نقول: اللهم

صلّ عليه و سلم بمقابلة أمر اللّه لنا بأمرنا له بأن يصلى عليه و يسلم عليه. و قد أجيب عن هذا بأن هذه الصلاة و التسليم لما كانتا شعارا عظيما للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و تشريفا كريما، و كلنا ذلک إلى اللّه عزّ و جلّ، و أرجعناه إليه، و هذا الجواب ضعيف جدّا. و أحسن ما يجاب به أن يقال: إن الصلاة و التسليم المأمور بهما فى الآية هما أن نقول: اللهم صلّ عليه و سلم، أو نحو ذلک مما يؤدّى معناه، كما بينه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لنا، فاقتضى ذلک البيان فى الأحاديث الكثيرة أن هذه هى الصلاة الشرعية.

و اعلم أن هذه الصلاة من اللّه على رسوله؛ و إن كان معناها الرحمة فقد صارت شعارا له يختصّ به دون غيره، فلا يجوز لنا أن نصلى على غيره من أمته، كما يجوز لنا أن نقول: اللهم ارحم فلانا أو رحم اللّه فلانا، و بهذا قال جمهور العلماء مع اختلافهم هل هو محرّم، أو مكروه كراهة شديدة، أو مكروه كراهة تنزيه على ثلاثة أقوال. و قد قال ابن عباس كما رواه عنه ابن أبى شيبة، و البيهقى فى الشعب لا تصلح الصلاة على أحد إلا على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و لكن يدعى للمسلمين و المسلمات بالاستغفار. و قال قوم: إن ذلک جائز لقوله تعالى:

وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَکَ سَكَنٌ لَهُمْ «۱» و لقوله: أُولئِکَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ «۲» و لقوله:

هُوَ الَّذِی يُصَلِّی عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ و لحديث عبد اللّه بن أبى أوفى الثابت فى الصحيحين و غيرهما قال:

«كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللّهمّ صلّ عليهم، فأتاه أبى بصدقته فقال: اللّهمّ صلّ على آل أبى أوفى» و يجاب عن هذا بأن هذا الشعار الثابت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم له أن يخص به من شاء، و ليس لنا أن نطلقه على غيره. و أما قوله تعالى: هُوَ الَّذِی يُصَلِّی عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ و قوله: أُولئِکَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ فهذا ليس فيه إلا أن اللّه سبحانه يصلى على طوائف من عباده كما يصلى على من صلى على رسوله مرّة واحدة عشر صلوات، و ليس فى ذلک أمر لنا و لا شرعة اللّه فى حقنا، بل لم يشرع لنا إلا الصلاة و التسليم على رسوله. و كما أن لفظ الصلاة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم شعار له، فكذا لفظ السلام عليه. و قد جرت عادة جمهور هذه الأمة، و السواد الأعظم من سلفها و خلفها على الترضى عن الصحابة، و الترحم على من بعدهم، و الدعاء لهم بمغفرة اللّه و عفوه، كما أرشدنا إلى ذلک بقوله سبحانه: وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِی قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا «۳» ثم لما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه فقال: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِی الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ قيل: المراد بالأذى: هنا هو فعل ما يكرهانه من المعاصى لاستحالة التأذى منه سبحانه. قال الواحدى: قال المفسرون هم المشركون، و اليهود، و النصارى وصفوا اللّه بالوالد فقالوا: عزير ابن اللّه، و المسيح بن اللّه، و الملائكة بنات اللّه، و كذبوا رسول اللّه، و شجوا وجهه و كسروا رباعيته و قالوا مجنون شاعر كذاب ساحر. قال القرطبى: و بهذا قال جمهور العلماء. و قال عكرمة: الأذية للّه سبحانه بالتصوير و التعرّض لفعل ما لا يفعله إلا اللّه بنحت الصور و غيرها. و قال جماعة: إن الآية على حذف مضاف،

---

(۱). التوبة: ۱۰۳.

(۲). البقرة: ۱۵۷.

(۳). الحشر: ۱۰.

و التقدير: إن الذين يؤذون أولياء اللّه، و أما أذية رسوله فهى كلّ ما يؤذيه من الأقوال و الأفعال، و معنى اللعنة: الطرد و الإبعاد من رحمته، و جعل ذلک فى الدنيا و الآخرة لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم و

مماتهم إلا و اللعنة واقعة عليهم و مصاحبة لهم وَ أَعَدَّ لَهُمْ مع ذلک اللعن عَذاباً مُهِيناً يصيرون به فى الإهانة فى الدار الآخرة، لما يفيده معنى الإعداد من كونه فى الدار الآخرة. ثم لما فرغ من الذمّ لمن آذى اللّه و رسوله ذكر الأذية لصالحى عباده فقال: وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بوجه من وجوه الأذى من قول أو فعل، و معنى بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا أنه لم يكن ذلک لسبب فعلوه يوجب عليهم الأذية، و يستحقونها به، فأما الأذية للمؤمن و المؤمنة بما كسبه مما يوجب عليه حدّا أو تعزيرا أو نحوهما، فذلک حق أثبته الشرع و أمر أمرنا اللّه به و ندبنا إليه، و هكذا إذا وقع من المؤمنين و المؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة أو ضرب، فإن القصاص من الفاعل ليس من الأذية المحرّمة على أى وجه كان ما لم يجاوز ما شرعه اللّه. ثم أخبر عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين و المؤمنات بغير ما اكتسبوا فقال: فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً أى: ظاهرا واضحا لا شک فى كونه من البهتان و الإثم، و قد تقدّم بيان حقيقة البهتان، و حقيقة الإثم.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِ يبرّكون. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا لموسى: هل يصلى ربک؟ فناداه ربه: يا موسى سألوک هل يصلى ربک؟ فقل نعم أنا أصلى و ملائكتى على أنبيائى و رسلى، فأنزل اللّه على نبيه إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِ الآية. و أخرج ابن مردويه عنه قال: إن صلاة اللّه على النبىّ: هى المغفرة، إن اللّه لا يصلى و لكن يغفر، و أما صلاة الناس على النبىّ فهى الاستغفار له. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قرأ صلّوا عليه كما صلّى اللّه عليه و سلّموا تسليما. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن كعب بن عجرة قال: لما نزلت إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِ الآية، قلنا: يا رسول اللّه! قد علمنا السلام عليک فكيف الصلاة عليک؟

قال: قولوا اللهم صلّ على محمّد و على آل محمّد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنک حميد مجيد، و بارک على محمّد و على آل محمّد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنک حميد مجيد. و أخرجه البخارى، و مسلم، و غيرهما من حديثه بلفظ: قال رجل يا رسول اللّه: أما السلام عليک فقد علمناه فكيف الصلاة عليک قال: قل اللهم صلّ على محمّد و على آل محمّد كما صليت على آل إبراهيم إنک حميد مجيد، اللهم بارک على محمّد و على آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم إنک حميد مجيد. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و أحمد، و النسائى من حديث طلحة بن عبيد اللّه قال: قلت: يا رسول اللّه كيف الصلاة عليک؟ قال: قل اللهم صلّ على محمّد و على آل محمّد، كما صليت على إبراهيم، و آل إبراهيم إنک حميد مجيد، و بارک على محمّد و على آل محمّد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم إنک حميد مجيد. و فى الأحاديث اختلاف، ففى بعضها على إبراهيم فقط، و فى بعضها على آل إبراهيم فقط، و فى بعضها بالجمع بينهما كحديث طلحة هذا.

و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما من حديث أبى حميد الساعدى أنهم قالوا: يا رسول اللّه! كيف نصلى

عليک؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: قولوا اللهم صلّ على محمّد و أزواجه و ذرّيته كما صليت على آل إبراهيم، و بارک على محمّد، و أزواجه و ذرّيته كما باركت على آل إبراهيم إنک حميد مجيد» و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدّا، و فى بعضها التقييد بالصلاة كما فى حديث أبى مسعود عند ابن خزيمة، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه:

أن رجلا قال: يا رسول اللّه أما السلام عليک فقد عرفناه فكيف نصلى عليک إذا نحن صلينا عليک فى صلاتنا؟

الحديث و أخرج الشافعى فى مسنده من حديث أبى هريرة مثله. و جميع التعليمات الواردة عنه صلّى اللّه عليه و سلم فى الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه إلا النادر اليسير من الأحاديث، فينبغى للمصلى عليه أن يضم آله إليه فى صلاته عليه، و قد

قال بذلك جماعة، و نقله إمام الحرمين، و الغزالى قولا عن الشافعى كما رواه عنهما ابن كثير فى تفسيره، و لا حاجة إلى التمسك بقول قائل فى مثل هذا مع تصريح الأحاديث الصحيحة به، و لا وجه لقول من قال: إن هذه التعليمات الواردة عنه صلّى اللّه عليه و سلم فى صفة الصلاة عليه مقيدة بالصلاة فى الصلاة؛ حملا لمطلق الأحاديث على المقيد منها بذلك القيد، لما فى حديث كعب بن عجرة و غيره أن ذلك السؤال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «صلّوا على أنبياء اللّه و رسله، فإنّ اللّه بعثهم كما بعثنى» و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ الآية قال: نزلت فى الذين طعنوا على النبى صلّى اللّه عليه و سلم حين اتخذ صفية بنت حيى، و روى عنه أنها نزلت فى الذين قذفوا عائشة.

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۵۹ الى ۶۸]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۹) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً (۶۰) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلاً (۶۱) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (۶۲) يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (۶۳)
إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (۶۴) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۶۵) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولا (۶۶) وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (۶۷) رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (۶۸)
لما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذى رسوله، و المؤمنين، و المؤمنات من عباده أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بأن يأمر بعض من ناله الأذى ببعض ما يدفع ما يقع عليه منه فقال: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَ من: للتبعيض، و الجلابيب: جمع جلباب، و هو ثوب أكبر من الخمار. قال الجوهرى: الجلباب: الملحفة، و قيل: القناع، و قيل: هو ثوب يستر جميع بدن المرأة، كما ثبت فى الصحيح من حديث أم عطية أنها قالت: يا رسول اللّه إحدانا لا يكون لها جلباب، فقال: «لتلبسها أختها من جلبابها» قال الواحدى: قال المفسرون: يغطين وجوههنّ و رؤوسهنّ؛ إلا عينا واحدة، فيعلم أنهنّ حرائر فلا يعرض لهن

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۰

فتح القدير ج۴ ۳۹۹

بأذى. و قال الحسن: تغطى نصف وجهها. و قال قتادة: تلويه فوق الجبين و تشدّه ثم تعطفه على الأنف و إن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر و معظم الوجه، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى إدناء الجلابيب، و هو:
مبتدأ، و خبره: أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ أى: أقرب أن يعرفن فيتميزن عن الإماء و يظهر للناس أنهنّ حرائر فَلا يُؤْذَيْنَ من جهة أهل الريبة بالتعرض لهنّ مراقبة لهنّ و لأهلهنّ، و ليس المراد بقوله: ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ أن تعرف الواحدة منهن من هى، بل المراد أن يعرفن أنهن حرائر لا إماء؛ لأنه قد لبسن لبسة تختص بالحرائر وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً لما سلف منهنّ من ترك إدناء الجلابيب رَحِيماً بهن أو غفورا لذنوب المذنبين، رحيما بهم، فيدخلن فى ذلك دخولا أوّليا. ثم توعد سبحانه أهل النفاق و الإرجاف فقال: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ عما هم عليه من النفاق وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أى: شك و ريبة عما هم عليه من الاضطراب وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ عما يصدر منهم من الإرجاف بذكر الأخبار الكاذبة المتضمنة لتوهين جانب المسلمين، و ظهور المشركين عليهم. قال القرطبى: أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشىء واحد، و المعنى: أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق، و مرض القلوب، و

الإرجاف على المسلمين، فهو على هذا من باب قوله:

إلى الملك القرم و ابن الهمامو ليث الكتيبة فى المزدحم

أى: إلى الملك القرم بن الهمام ليث الكتيبة. و قال عكرمة و شهر بن حوشب: الذين فى قلوبهم مرض هم: الزناة. و الإرجاف فى اللغة: إشاعة الكذب و الباطل، يقال أرجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقة؛ لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت، من الرجفة و هى: الزلزلة. يقال رجفت الأرض: أى تحركت، و تزلزلت ترجف رجفا، و الرجفان: الاضطراب الشديد، و سمى البحر رجافا لاضطرابه، و منه قول الشاعر:

المطعمون اللحم كلّ عشيّةحتى تغيب الشّمس فى الرّجّاف

و الإرجاف: واحد الأراجيف، و أرجفوا فى الشيء: خاضوا فيه، و منه قول شاعر:

فإنّا و إن عيّرتمونا بقلّةو أرجف بالإسلام باغ و حاسد

و قول الآخر «۱»:

أ بالأراجيف يا ابن اللؤم توعدنىو فى الأراجيف خلت اللؤم و الخور

و ذلك بأن هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بأنهم هزموا، و تارة بأنهم قتلوا، و تارة بأنهم غلبوا، و نحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الأخبار، فتوعدهم اللّه سبحانه بقوله: لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ أى: لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل، و التشريد بأمرنا لك بذلك. قال المبرد: قد أغراه اللّه بهم فى قوله بعد هذه الآية مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلًا فهذا فى معنى الأمر بقتلهم و أخذهم، أى:

---

(۱). هو العين المنقرى يهجو به العجاج بن رؤبة.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۱

هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق و الإرجاف. قال النحاس: و هذا من أحسن ما قيل فى الآية. و أقول: ليس هذا بحسن و لا أحسن، فإن قوله ملعونين إلخ، إنما هو لمجرّد الدعاء عليهم لا أنه أمر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بقتالهم و لا تسليط له عليهم، و قد قيل: إنهم انتهوا بعد نزول هذه الآية عن الإرجاف فلم يغره اللّه بهم، و جملة لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ جواب القسم، و جملة: ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلًا معطوفة على جملة جواب القسم، أى: لا يجاورونك فيها إلا جوارا قليلا حتى يهلكوا، و انتصاب مَلْعُونِينَ على الحال، كما قال المبرد و غيره، و المعنى مطرودين أَيْنَما وجدوا و أدركوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا دعاء عليهم بأن يؤخذوا و يقتلوا تَقْتِيلًا و قيل: إن هذا هو الحكم فيهم و ليس بدعاء عليهم، و الأوّل أولى. و قيل معنى الآية: أنهم إن أصرّوا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا و هم مطرودون سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ أى: سنّ اللّه ذلك فى الأمم الماضية، و هو لعن المنافقين، و أخذهم، و تقتيلهم، و كذا حكم المرجفين، و هو منتصب على المصدر. قال الزجاج: بين اللّه فى الذين ينافقون الأنبياء، و يرجفون بهم أن يقتلوا حيثما ثقفوا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا أى: تحويلا، و تغييرا، بل هى ثابتة دائمة فى أمثال هؤلاء فى الخلف و السلف يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ أى: عن وقت قيامها و حصولها، قيل: السائلون عن الساعة هم أولئك المنافقون، و المرجفون لما توعدوا بالعذاب، سألوا عن الساعة استبعادا، و تكذيبا وَ ما يُدْرِيكَ يا محمّد! أى: ما يعلمك و يخبرك لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً أى: فى زمان قريب، و انتصاب قريبا على الظرفية، و التذكير لكون الساعة فى معنى: اليوم أو الوقت مع كون تأنيث الساعة ليس بحقيقى، و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لبيان أنها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها، و هو رسول اللّه، فكيف بغيره من الناس؟ و فى هذا تهديد لهم عظيم إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ أى: طردهم، و أبعدهم

من رحمته وَ أَعَدَّ لَهُمْ فى الآخرة مع ذلك اللعن منه لهم فى الدنيا سَعِيراً أى نارا شديدة التسعر خالِدِينَ فِيها أَبَداً بلا انقطاع لا يَجِدُونَ وَلِيًّا يواليهم و يحفظهم من عذابها وَ لا نَصِيراً ينصرهم و يخلصهم منها، و يوم فى قوله: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ظرف لقوله لا يجدون، و قيل: لخالدين، و قيل: لنصيرا، و قيل: لفعل مقدر، و هو الذكر. قرأ الجمهور «تقلّب» بضم التاء و فتح اللام على البناء للمفعول. و قرأ عيسى الهمدانى، و ابن أبى إسحاق «نقلّب» بالنون و كسر اللام على البناء للفاعل، و هو اللّه سبحانه. و قرأ عيسى أيضا بضم التاء و كسر اللام على معنى تقلب السعير وجوههم. و قرأ أبو حيوة، و أبو جعفر، و شيبة بفتح التاء و اللام على معنى تتقلب، و معنى هذا التقلب المذكور فى الآية: هو تقلبها تارة على جهة منها، و تارة على جهة أخرى ظهرا لبطن، أو تغير ألوانهم بلفح النار، فتسودّ تارة و تخضرّ أخرى، أو تبديل جلودهم بجلود أخرى، فحينئذ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا و الجملة مستأنفة كأنه قيل فما حالهم؟ فقيل: يقولون، و يجوز أن يكون المعنى: يقولون يوم تقلب وجوههم فى النار: يا ليتنا إلخ. تمنوا أنهم أطاعوا اللّه و الرسول، و آمنوا بما جاء به، لينجوا مما هم فيه من العذاب، كما نجا المؤمنون؛ و هذه الألف فى الرسولا، و الألف التى ستأتى فى «السبيلا» هى الألف التى تقع فى الفواصل و يسميها النحاة ألف الإطلاق، و قد سبق بيان هذا فى أوّل

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۲

هذه السورة وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا هذه الجملة معطوفة على الجملة الأوّلى، و المراد بالسادة و الكبراء: هم الرؤساء، و القادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم فى الدنيا و يقتدون بهم، و فى هذا زجر عن التقليد شديد. و كم فى الكتاب العزيز من التنبيه على هذا، و التحذير منه، و التنفير عنه، و لكن لمن يفهم معنى كلام اللّه، و يقتدى به، و ينصف من نفسه، لا لمن هو من جنس الأنعام، فى سوء الفهم، و مزيدة البلادة، و شدّة التعصب. و قرأ الحسن و ابن عامر «ساداتنا» بكسر التاء جمع سادة، فهو جمع الجمع. و قال مقاتل: هم المطعمون فى غزوة بدر، و الأوّل أولى، و لا وجه للتخصيص بطائفة معينة فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا أى عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر باللّه و رسوله، و السبيل هو التوحيد، ثم دعوا عليهم فى ذلك الموقف فقالوا:

رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ أى: مثل عذابنا مرتين. و قال قتادة: عذاب الدنيا و الآخرة، و قيل:

عذاب الكفر، و عذاب الإضلال وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً قرأ الجمهور «كثيرا» بالمثلثة، أى: لعنا كثير العدد، عظيم القدر، شديد الموقع، و اختار هذه القراءة أبو حاتم، و أبو عبيد، و النحاس، و قرأ ابن مسعود و أصحابه، و يحيى بن وثاب و عاصم بالباء الموحدة، أى: كبيرا فى نفسه شديدا عليهم ثقيل الموقع.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن عائشة قال: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، و كانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر فقال: يا سودة أما و اللّه ما تخفين علينا فانظرى كيف تخرجين، قالت: فانكفأت راجعة، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى بيتى و إنه ليتعشى و فى يده عرق، فدخلت و قالت: يا رسول اللّه إنى خرجت لبعض حاجتى فقال لى عمر كذا و كذا، فأوحى إليه ثم رفع عنه، و إن العرق فى يده ما وضعه فقال: إنه قد أذن لكنّ أن تخرجن لحاجتكنّ، و أخرج سعيد بن منصور، و ابن سعد، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال: كان نساء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يخرجن بالليل لحاجتهن، و كان ناس من المنافقين يتعرّضون لهن فيؤذين، فقيل ذلك للمنافقين، فقالوا: إنما نفعله بالإماء، فنزلت هذه يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ الآية، و أخرج ابن سعد عن محمّد بن كعب القرظى قال: كان رجل من المنافقين يتعرّض لنساء المؤمنين يؤذيهن، فإذا قيل له: قال كنت أحسبها أمة، فأمرهن اللّه أن يخالفن زىّ الإماء و يدنين عليهم من جلابيبهنّ تخمر وجهها إلا إحدى عينيها ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ يقول: ذلك أحرى أن يعرفن. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية قال: أمر اللّه نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن

من فوق رؤوسهن بالجلابيب و يبدين عينا واحدة.

و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و أبو داود، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن أمّ سلمة قالت:

لما نزلت هذه الآية يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَ خرج نساء الأنصار كأن رؤوسهن الغربان من السكينة، و عليهن أكسية سود يلبسنها، هكذا فى الزوائد بلفظ من السكينة، و ليس لها معنى، فإن المراد تشبيه الأكسية السود: بالغربان، لا أن المراد وصفهن بالسكينة كما يقال: كأن على رؤوسهم الطير. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: رحم اللّه نساء الأنصار لما نزلت يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ الآية شققن مروطهن، فاعتجرن بها و صلين خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كأنما على رؤوسهن الغربان. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عباس

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۳

فى الآية قال: كانت الحرّة تلبس لباس الأمة فأمر اللّه نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن، و إدناء الجلباب أن تقنع و تشدّه على جبينها. و أخرج ابن سعد عن محمّد بن كعب فى قوله: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ يعنى:

المنافقين بأعيانهم وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ شك: يعنى المنافقين أيضا. و أخرج ابن سعد أيضا عن عبيد ابن جبر قال: الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ هم: المنافقون جميعا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ قال: لنسلطنك عليهم.

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۶۹ الى ۷۳]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (۶۹) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (۷۰) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (۷۱) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً (۷۲) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۷۳)

قوله: لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى هو قولهم: إن به أدرة أو برصا أو عيبا، و سيأتى بيان ذلك آخر البحث، و فيه تأديب للمؤمنين، و زجر لهم عن أن يدخلوا فى شىء من الأمور التى تؤذى رسول اللّه قال مقاتل: وعظ اللّه المؤمنين أن لا يؤذوا محمّدا صلّى اللّه عليه و سلم كما آذى بنو إسرائيل موسى. و قد وقع الخلاف فيما أوذى به نبينا محمّد صلّى اللّه عليه و سلم حتى نزلت هذه الآية، فحكى النقاش أن أذيتهم محمّدا قولهم زيد بن محمّد. و قال أبو وائل: إنه صلّى اللّه عليه و سلم قسم قسما، فقال رجل من الأنصار: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه اللّه، و قيل: نزلت فى قصة زيد بن ثابت، و زينب بنت جحش، و ما سمع فيها من قالة الناس، و معنى: وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً و كان عند اللّه عظيما ذا وجاهة، و الوجيه عند اللّه: العظيم القدر، الرفيع المنزلة، و قيل فى تفسير الوجاهة:

إنه كلمه تكليما. قرأ الجمهور «و كان عند اللّه» بالنون على الظرفية المجازية، و قرأ ابن مسعود و الأعمش و أبو حيوة «عبد اللّه» بالباء الموحدة من العبودية، و ما فى قوله: فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا هى: الموصولة أو المصدرية، أى: من الذى قالوه، أو من قولهم: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ أى: فى كل أمر من الأمور وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً أى: قولا صوابا و حقا. قال قتادة و مقاتل: يعنى قولوا قولا سديدا فى شأن زيد و زينب، و لا تنسبوا النبى صلّى اللّه عليه و سلم إلى ما لا يحلّ. و قال عكرمة: إن القول السديد: لا إله إلا اللّه. و قيل:

هو الذى يوافق ظاهره باطنه، و قيل: هو ما أريد به وجه اللّه دون غيره، و قيل: هو الإصلاح بين الناس.

و السديـد: مأخوذ من تسديـد السـهم ليصاب به الغرض، و الظاهر من الآية أنه أمرهم بأن يقولوا قولا سديدا فى جميع ما يأتونه و يذرونه، فلا يخص ذلک نوعا دون نوع، و إن لم يكن فى اللفظ ما يقتضـى العموم، فالمقام يفيد هذا المعنى، لأنه أرشد سـبحانه عبـاده إلى أن يقولوا قولاـ يخـالف أهـل الأـذى. ثم ذكر مـا لهؤلاء الـذين امتثلوا الأمر بالتقوى، و القول السديـد من الأجر فقال: يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ أى: يجعلها صالحة لا فاسدة بما يهديهم إليه و يوفقهم فيه وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ أى: يجعلها مكفرة مغفورة وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۴

فى فعل ما هو طاعـة و اجتناب ما هو معصـية فَقَـدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً أى: ظفر بالخير ظفرا عظيما. و نال خير الـدنيا و الآخرة، و هـذه الجملة مسـتأنفة مقرّرة لما سـبقها. ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما لأهل الطاعة من الخير بعد بيان ما لأهل المعصية من العذاب بين عظم شأن التكاليف الشـرعية و صعوبة أمرها فقال: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها.

و اختلف فى تفسير هذه الأمانة المذكورة هنا، فقال الواحدى: معنى الأمانة هاهنا فى قول جميع المفسرين الطاعة و الفرائض التى يتعلق بأدائها الثواب، و بتضـييعها العقاب. قال القرطبى: و الأمانة: تعمّ جميع و صائف الدين على الصـحيح من الأقوال، و هو قول الجمهور.

و قـد اختلف فى تفاصـيل بعضـها، فقال ابن مسعود: هى فى أمانة الأموال كالودائع و غيرها، و روى عنه أنها فى كلّ الفرائض، و أشدّها أمانة: المال. و قال أبىّ بن كعب: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها.

و قال أبو الدرداء: غسل الجنابة أمانة، و إن اللّه لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيرها. و قال ابن عمر:

أوّل ما خلق اللّه من الإنسان فرجه و قال: هذه أمانة أستودعكها فلا تلبسها إلا بحق، فإن حفظتها حفظتک.

فالفرج أمانـة، و الأذن أمانـة، و العين أمانة، و اللسان أمانة، و البطن أمانة، و اليد أمانة، و الرجل أمانة، و لا إيمان لمن لا أمانة له. و قال السـدّى: هى ائتمان آدم ابنه قابيل على ولـده هابيل، و خيانته إياه فى قتله. و ما أبعـد هذا القول، و ليت شـعرى ما هو الذى سوّغ للسـدّى تفسير هـذه الآيـة بهذا، فإن كان ذلک لدليل دله على ذلک فلا دليل، و ليست هذه الآية حكاية عن الماضـين من العباد حتى يكون له فى ذلک متمسک أبعـد من كل بعيد، و أوهن من بيوت العنكبوت، و إن كان تفسـير هذا عملا بما تقتضـيه اللغـة العربيـة، فليس فى لغة العرب ما يقتضـى هذا؛ و يوجب حمل هذه الأمانة المطلقة على شـىء كان فى أوّل هذا العالم، و إن كان هذا تفسـيرا منه بمحض الرأى، فليس الكتاب العزيز عرضة لتلاعب آراء الرجال به، و لهذا ورد الوعيد على من فسـر القرآن برأيه، فاحذر أيها الطالب للحق عن قبول مثل هذه التفاسـير، و اشدد يديک فى تفسير كتاب اللّه على ما تقتضيه اللغة العربية، فهو قرآن عربىّ كما وصـفه اللّه، فإن جاءک التفسير عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فلا تلتفت إلى غيره، و إذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل، و كذلک ما جاء عن الصـحابة رضى اللّه عنهم، فإنهم من جملة العرب، و من أهل اللغة، و ممن جمع إلى اللغة العربية العلم بالاصـطلاحات الشـرعية، و لكن إذا كـان معنى اللفـظ أوسع ممـا فسـروه به فى لغـة العرب، فعليـک أن تضم إلى مـا ذكره الصـحابى ما تقتضـيه لغة العرب و أسـرارها، فخذ هذه كلية تنتفع بها، و قد ذكرنا فى خطبة هذا التفسير ما يرشدک إلى هذا. قال الحسن: إن الأمانـة عرضت على السـموات و الأـرض و الجبـال فقـالت: و مـا فيهـا؟ فقـال لهـا: إن أحسـنت آجرتک و إن أسأت عـذبتک، فقـالت: لاـ قـال مجاهـد: فلما خلق اللّه آدم عرضـها عليه، و قيل له ذلک فقال: قـد تحملتها. و روى نحو هـذا عن غير الحسن و مجاهـد. قال النحاس: و هـذا القول هو الـذى عليه أهل التفسـير. و قيل: هـذه الأمانـة هى ما أودعه اللّه فى السـموات، و الأرض، و الجبال، و سائر المخلوقات من الـدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها، إلا الإنسان فإنه كتمها و جحـدها. كذا قال

بعض المتكلمين مفسرا للقرآن برأيه الزائف،

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۵

فيكون على هذا معنى عرضنا أظهرنا. قال جماعة من العلماء: و من المعلوم أن الجماد لا يفهم و لا يجيب، فلا بدّ من تقدير الحياة فيها، و هذا العرض فى الآية هو عرض تخيير لا عرض إلزام. و قال القفال و غيره: العرض فى هذه الآية ضرب مثل، أى: إن السموات و الأرض و الجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب و العقاب، أى: أن التكليف أمر عظيم؛ حقه أن تعجز عنه السموات و الأرض، و الجبال، و قد كلفه الإنسان و هو ظلوم جهول لو عقل، و هذا كقوله: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ «۱» إن عرضنا بمعنى عارضنا، أى: عارضنا الأمانة بالسموات و الأرض و الجبال، فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة، و رجحت الأمانة بثقلها عليها. و قيل: إن عرض الأمانة على السموات و الأرض و الجبال إنما كان من آدم عليه السلام، و أن اللّه أمره أن يعرض ذلك عليها. و هذا أيضا تحريف لا تفسير، و معنى وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ أى: التزم بحقها، و هو فى ذلك ظلوم لنفسه جهول لما يلزمه، أو جهول لقدر ما دخل فيه، كما قال سعيد بن جبير، أو جهول بربه، كما قال الحسن: و قال الزجاج: معنى حملها: خان فيها، و جعل الآية فى الكفار، و الفساق، و العصاة، و قيل معنى حملها: كلفها و ألزمها، أو صار مستعدّا لها بالفطرة، أو حملها عند عرضها عليه فى عالم الذرّ عند خروج ذرية آدم من ظهره و أخذ الميثاق عليهم، و اللام فى لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ متعلق بحملها، أى: حملها الإنسان ليعذّب اللّه العاصى، و يثيب المطيع، و على هذا فجملة إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا معترضة بين الجملة و غايتها للإيذان بعدم وفائه بما تحمله. قال مقاتل بن سليمان و مقاتل بن حيان: ليعذبهم بما خانوا من الأمانة، و كذبوا من الرسل، و نقضوا من الميثاق الذى أقرّوا به حين أخرجوا من ظهر آدم. و قال الحسن و قتادة: هؤلاء المعذبون هم الذين خانوها، و هؤلاء الذين يتوب اللّه عليهم هم الذين أدّوها. و قال ابن قتيبة: أى عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق، و شرك المشرك؛ فيعذبهما اللّه، و يظهر إيمان المؤمن فيتوب اللّه عليه، أى: يعود عليه بالمغفرة و الرحمة إن حصل منه تقصير فى بعض الطاعات، و لذلك ذكر بلفظ التوبة، فدلّ على أن المؤمن العاصى خارج من العذاب وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً أى: كثير المغفرة و الرحمة للمؤمنين من عباده إذا قصروا فى شىء مما يجب عليهم. و قد قيل إن المراد بالأمانة العقل، و الراجح ما قدّمنا عن الجمهور، و ما عداه فلا يخلو عن ضعف لعدم وروده على المعنى العربى، و لا انطباقه على ما يقتضيه الشرع، و لا موافقته لما يقتضيه تعريف الأمانة.

و قد أخرج البخارى و غيره من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ موسى كان رجلا حييا ستّيرا لا يرى من جلده شىء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل، فقالوا ما تستّر هذا السّتر إلا من عيب بجلده، إمّا برص، و إمّا أدرة، و إما آفة، و إنّ اللّه عزّ و جلّ أراد أن يبرئ موسى ممّا قالوا:

فخلا يوما وحده، فخلع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلمّا فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها و إن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه فطلب الحجر فجعل يقول: ثوبى حجر ثوبى حجر، حتى انتهى إلى ملأ من

---

(۱). الحشر: ۲۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۶

بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق اللّه، و أبرأه ممّا يقولون، و قام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه و طفق بالحجر ضربا بعصاه، فو اللّه إنّ بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا» و أخرج نحوه البزار و ابن الأنبارى و ابن مردويه من حديث أنس. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن جرير، و ابن المنذر و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لا تَكُونُوا

كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى قال: قال له قومه إنه آدر، فخرج ذات يوم ليغتسل فوضع ثيابه على حجر فخرجت الصخرة تشتد بثيابه، فخرج موسى يتبعها عريانا حتى انتهت به إلى مجالس بنى إسرائيل فرأوه و ليس بآدر فذلك قوله: فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً. و أخرج الحاكم و صححه من طريق السدّى عن أبى مالك عن ابن عباس و عن مرّة عن ابن مسعود و ناس من الصحابة: أن اللّه أوحى إلى موسى إنى متوفّ هارون فأت به جبل كذا و كذا، فانطلقا نحو الجبل فإذا هم بشجرة و بيت فيه سرير عليه فرش، و ريح طيب، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل و البيت و ما فيه أعجبه قال: يا موسى إنى أحبّ أن أنام على هذا السرير، قال نم عليه، قال نم معى، فلما نام أخذ هارون الموت، فلما قبض رفع ذلك البيت، و ذهبت الشجرة، و رفع السرير إلى السماء؛ فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا قتل هارون، و حسده حبّ بنى إسرائيل له، و كان هارون أألف بهم و ألين، و كان فى موسى بعض الغلظة عليهم، فلما بلغه ذلك قال: و يحكم إنه كان أخى أفترونى أقتله؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا اللّه، فنزل بالسرير حتى نظروا إليه بين السماء و الأرض فصدّقوه. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن ابن مسعود قال: قسم رسول اللّه ذات يوم قسما، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه اللّه، فذكر ذلك للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فاحمرّ وجهه ثم قال: رحمة اللّه على موسى لقد أوذى أكثر من هذا فصبر. و أخرج أحمد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن أبى موسى الأشعرى قال: صلّى بنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم صلاة الظهر ثم قال: على مكانكم اثبتوا، ثم أتى الرّجال فقال: إن اللّه أمرنى أن آمركم أن تتقوا اللّه و أن تقولوا قولا سديدا، ثم أتى النساء فقال: إنّ اللّه أمرنى أن آمركنّ أن تتقين اللّه و أن تقلن قولا سديدا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى كتاب الأضداد عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ الآية قال الأمانة الفرائض عرضها اللّه على السموات و الأرض، و الجبال إن أدّوها أثابهم، و إن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك و أشفقوا من غير معصية، و لكن تعظيما لدين اللّه أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، و هو قوله: وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا يعنى: غرّا بأمر اللّه. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى كتاب الأضداد، و الحاكم و صححه عنه فى الآية قال: عرضت على آدم، فقيل خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك؛ و إن عصيت عذبتك، قال: قبلتها بما فيها، فما كان إلا ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الذنب. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عنه أيضا من طريق أخرى نحوه.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۷

سورة سبإ

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى فى قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها، و هى قوله: وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فقالت فرقة: هى مكية، و قالت فرقة: هى مدنية، و سيأتى الخلاف فى معنى هذه الآية إن شاء اللّه، و فيمن نزلت. و أخرج ابن الضريس، و النحاس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة سبأ بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱ الى ۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ (۱) یَعْلَمُ ما یَلِجُ فِی الْأَرْضِ وَ ما یَخْرُجُ مِنْها وَ ما یَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما یَعْرُجُ فِیها وَ هُوَ الرَّحِیمُ الْغَفُورُ (۲) وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لا تَأْتِینَا السَّاعَةُ قُلْ بَلی وَ رَبِّی لَتَأْتِیَنَّکُمْ عالِمِ الْغَیْبِ لا یَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِکَ وَ لا أَکْبَرُ إِلاَّ فِی کِتابٍ مُبِینٍ (۳) لِیَجْزِیَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (۴)

وَ الَّذِینَ سَعَوْا فِی آیاتِنا مُعاجِزِینَ أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِیمٌ (۵) وَ یَرَی الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ هُوَ الْحَقَّ وَ یَهْدِی إِلی صِراطِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ (۶) وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا هَلْ نَدُلُّکُمْ عَلی رَجُلٍ یُنَبِّئُکُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ کُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّکُمْ لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ (۷) أَفْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِی الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِیدِ (۸) أَ فَلَمْ یَرَوْا إِلی ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَیْهِمْ کِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِکُلِّ عَبْدٍ مُنِیبٍ (۹)

قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ تعریف الحمد، مع لام الاختصاص: مشعران باختصاص جمیع أفراد الحمد باللّه سبحانه علی ما تقدّم تحقیقه فی فاتحة الکتاب، و الموصول فی محل جرّ علی النعت، أو البدل، أو النصب علی الاختصاص، أو الرفع علی تقدیر مبتدأ، و معنی: لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ أن جمیع ما هو فیها فی ملکه، و تحت تصرفه یفعل به ما یشاء، و یحکم فیه بما یرید، و کلّ نعمة واصلة إلی العبد، فهی مما خلقه له، و منّ به علیه، فحمده علی ما فی السموات و الأرض هو حمد له علی النعم التی أنعم بها علی خلقه لهم. و لما بین أن الحمد الدنیوی من عباده الحامدین له مختص به؛ بین أن الحمد الأخروی مختصّ به کذلک فقال: وَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْآخِرَةِ و قوله: «له» متعلق بنفس الحمد، أو بما تعلق به خبر الحمد، أعنی:

فی الآخرة، فإنه متعلق بمتعلق عام هو الاستقرار، أو نحوه، و المعنی: أن له سبحانه علی الاختصاص حمد

فتح القدیر، ج۴، ص: ۳۵۸

عباده الذین یحمدون فی الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة، کما فی قوله: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی صَدَقَنا وَعْدَهُ «۱» و قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی هَدانا لِهذا «۲» و قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إلی قوله:

الَّذِی أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ «۳» و قوله: وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ «۴» فهو سبحانه المحمود فی الآخرة، کما أنه المحمود فی الدنیا و هو المالک للآخرة کما أنه المالک للدنیا وَ هُوَ الْحَکِیمُ الذی أحکم أمر الدارین الْخَبِیرُ بأمر خلقه فیهما، قیل: و الفرق بین الحمدین أن الحمد فی الدنیا عبادة، و فی الآخرة تلذذ و ابتهاج، لأنه قد انقطع التکلیف فیها. ثم ذکر سبحانه بعض ما یحیط به من علمه من أمور السموات و الأرض فقال: یَعْلَمُ ما یَلِجُ فِی الْأَرْضِ أی: ما یدخل فیها من مطر، أو کنز، أو دفین وَ ما یَخْرُجُ مِنْها من زرع، و نبات، و حیوان وَ ما یَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ من الأمطار، و الثلوج، و البرد، و الصواعق، و البرکات، و من ذلک ما ینزل منها من ملائکته و کتبه إلی أنبیائه وَ ما یَعْرُجُ فِیها من الملائکة، و أعمال العباد. قرأ الجمهور «ینزل» بفتح الیاء و تخفیف الزای مسندا إلی «ما» و قرأ علیّ بن أبی طالب، و السلمی بضم الیاء و تشدید الزای مسندا إلی اللّه سبحانه: وَ هُوَ الرَّحِیمُ بعباده الْغَفُورُ لذنوبهم وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لا تَأْتِینَا السَّاعَةُ المراد بهؤلاء القائلین جنس الکفرة علی الإطلاق، أو کفار مکة علی الخصوص، و معنی لا تأتینا الساعة: أنها لا تأتی بحال من الأحوال، إنکارا منهم لوجودها لا لمجرد إتیانها فی حال تکلمهم أو فی حال حیاتهم مع تحقق وجودها فیما بعد، فردّ اللّه علیهم و أمر رسوله أن یقول لهم: قُلْ بَلی وَ رَبِّی لَتَأْتِیَنَّکُمْ و هذا القسم لتأکید الإتیان، قرأ الجمهور «لتأتینکم» بالفوقیة: أی الساعة، و قرأ طلق المعلم بالتحتیة علی تأویل الساعة بالیوم أو الوقت. قال طلق: سمعت أشیاخنا یقرءون بالیاء، یعنی: التحتیة علی المعنی، کأنه قال لیأتینکم البعث أو أمره کما قال: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِیَهُمُ الْمَلائِکَةُ أَوْ یَأْتِیَ أَمْرُ رَبِّکَ قرأ نافع و ابن عامر «عالم الغیب» بالرفع علی أنه مبتدأ، و خبره لا یعزب، أو علی تقدیر مبتدأ،

و قرأ عاصم، و ابن كثير، و أبو عمرو بالجرّ على أنه نعت لربّى، و قرأ حمزة، و الكسائى علام بالجرّ مع صيغة المبالغة، و معنى لا يَعْزُبُ لا يغيب عنه و لا يستتر عليه و لا يبعد عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ المثقال وَ لا أَكْبَرُ منه إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ و هو اللوح المحفوظ.

و المعنى: إلا و هو مثبت فى اللوح المحفوظ الذى اشتمل على معلومات اللّه سبحانه فهو مؤكد لنفى العزوب.

قرأ الجمهور: يَعْزُبُ بضم الزاى، و قرأ يحيى بن وثّاب بكسرها. قال الفراء: و الكسر أحبّ إلىّ، و هما لغتان، يقال عزب يعزب بالضم، و يعزب بالكسر إذا بعد و غاب. و قرأ الجمهور «و لا أصغر و لا أكبر» بالرفع على الابتداء، و الخبر إلا فى كتاب، أو على العطف على مثقال، و قرأ قتادة و الأعمش بنصبهما عطفا على ذرّة، أو على أن لا: هى: لا التبرئة التى يبنى اسمها على الفتح، و اللام فى لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ للتعليل لقوله: لَتَأْتِيَنَّكُمْ أى: إتيان الساعة فائدته جزاء المؤمنين بالثواب، و الكافرين بالعقاب، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الموصول، أى: أولئك الذى عملوا الصالحات لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

---

(۱). الزمر: ۷۴.

(۲). الأعراف: ۴۳.

(۳). فاطر: ۳۴ و ۳۵.

(۴). يونس: ۱۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۹

لذنوبهم وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ و هو الجنة بسبب إيمانهم، و عملهم الصالح مع التفضل عليهم من اللّه سبحانه.

ثم ذكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند إتيان الساعة فقال: وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أى سعوا فى إبطال آياتنا المنزلة على الرسل، و قدحوا فيها و صدوا الناس عنها، و معنى «معاجزين» مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا و لا يدركون، و ذلك باعتقادهم أنهم لا يبعثون، يقال عاجزه أو عجزه: إذا غالبه و سبقه. قرأ الجمهور مُعاجِزِينَ و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و حميد و مجاهد و أبو عمرو «معجزين» أى: مثبطين للناس عن الأيمان بالآيات أُولئِكَ أى: الذين سعوا لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ الرجز: هو العذاب، فمن للبيان، و قيل: الرجز هو أسوأ العذاب و أشدّه، و الأوّل أولى، و من ذلك قوله: فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ قرأ الجمهور «أليم» بالجرّ صفة لرجز، و قرأ ابن كثير، و حفص عن عاصم بالرفع صفة لعذاب، و الأليم: الشديد الألم وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَ لما ذكر الذين سعوا فى إبطال آيات اللّه ذكر الذين يؤمنون بها، و معنى وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أى: يعلمون و هم الصحابة. و قال مقاتل: هم مؤمنو أهل الكتاب، و قيل: جميع المسلمين، و الموصول: هو المفعول الأوّل ليرى، و المفعول الثانى: الحقّ، و الضمير: هو ضمير الفصل. و بالنصب قرأ الجمهور و قرأ ابن أبى عبلة بالرفع على أنه خبر الضمير، و الجملة: فى محل نصب على أنها المفعول الثانى، و هى لغة تميم، إنهم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، و الجملة: فى محل نصب على أنها المفعول الثانى، و هى لغة تميم، فإنهم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، و زعم الفرّاء أن الاختيار الرفع، و خالفه غيره و قالوا النصب أكثر. قيل و قوله: يَرَى معطوف على ليجزى، و به قال الزجاج و الفراء، و اعترض عليهما بأن قوله: «ليجزى» متعلق بقوله: «لتأتينكم» و لا يقال لتأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق، و الأولى أنه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا فى الآيات، أى: إن ذلك السعى منهم يدلّ على جهلهم لأنهم مخالفون لما يعلمه أهل العلم فى شأن القرآن وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ معطوف على الحق عطف فعل على اسم، لأنه فى تأويله كما فى قوله: صافَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ أى: و قابضات كأنه قيل: و هاديا، و قيل إنه مستأنف و فاعله ضمير يرجع إلى فاعل أنزل، و هو القرآن، و

الصراط: الطريق، أي: و يهدى إلى طريق الْعَزِيزِ فى ملكه الْحَمِيدِ عند خلقه، و المراد: أنه يهدى إلى دين اللّه و هو التوحيد. ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من كلام منكرى البعث فقال:

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أى: قال بعض لبعض هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يعنون محمّد صلّى اللّه عليه و سلم أى: هل نرشدكم إلى رجل يُنَبِّئُكُمْ أى: يخبركم بأمر عجيب، و نبأ غريب هو أنكم إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أى: فرقتم كلّ تفريق و قطعتم كلّ تقطيع و صرتم بعد موتكم رفاتا و ترابا إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أى:

تخلقون خلقا جديدا، و تبعثون من قبوركم أحياء، و تعودون إلى الصور التى كنتم عليها، قال هذا القول بعضهم لبعض استهزاء بما وعدهم اللّه على لسان رسوله من البعث، و أخرجوا الكلام مخرج التلهى به و التضاحك مما يقوله من ذلك، «و إذا» فى موضع نصب بقوله: مُزِّقْتُمْ قال النحاس: و لا يجوز أن يكون العامل فيها ينبئكم لأنه ليس يخبرهم ذلك الوقت، و لا يجوز أن يكون العامل فيها ما بعد إنّ لأنه لا يعمل فيما قبلها.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۶۰

و أجاز الزجاج أن يكون العامل فيها محذوفا، و التقدير: إذا مزّقتم كلّ ممزّق بعثتم، أو نبئتم بأنكم تبعثون إذا مزقتم، و قال المهدوى: لا يجوز أن يعمل فيه مزقتم لأنه مضاف إليه و المضاف إليه لا يعمل فى المضاف. و أصل المزق: خرق الأشياء، يقال: ثوب مزيق، و ممزق، و متمزق، و ممزوق. ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار أنهم ردّدوا ما وعدهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من البعث بين أمرين فقالوا: أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ أهو كاذب فيما قاله أم به جنون بحيث لا يعقل ما يقوله، و الهمزة فى أفترى هى همزة الاستفهام و حذفت لأجلها همزة الوصل كما تقدّم فى قوله: أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ثم ردّ عليهم سبحانه ما قالوه فى رسوله فقال: بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِيدِ أى: ليس الأمر كما زعموا، بل هم الذين ضلوا عن الفهم و إدراك الحقائق، فكفروا بالآخرة و لم يؤمنوا بما جاءهم به، فصاروا بسبب ذلك فى العذاب الدائم فى الآخرة و هم اليوم فى الضلال البعيد عن الحق غاية البعد. ثم وبخهم سبحانه بما اجترءوا عليه من التكذيب؛ مبينا لهم أن ذلك لم يصدر منهم إلا لعدم التفكر و التدبر فى خلق السماء و الأرض، و أن من قدر على هذا الخلق العظيم لا يعجزه أن يبعث من مخلوقاته ما هو دون ذلك، و يعيده إلى ما كان عليه من الذات و الصفات، و معنى إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ أنهم إذا نظروا رأوا السماء خلفهم و قدّامهم، و كذلك إذا نظروا فى الأرض؛ رأوها خلفهم و قدّامهم، فالسماء و الأرض محيطتان بهم فهو القادر على أن ينزل بهم ما شاء من العذاب بسبب كفرهم، و تكذيبهم لرسوله، و إنكارهم للبعث، فهذه الآية اشتملت على أمرين: أحدهما أن هذا الخلق الذى خلقه اللّه من السماء و الأرض يدلّ على كمال القدرة على ما هو دونه من البعث كما فى قوله: أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ «۱». و الأمر الآخر: التهديد لهم بأن من خلق السماء و الأرض على هذه الهيئة التى قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما قادر على تعجيل العذاب لهم إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ كما خسف بقارون أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً أى: قطعا مِنَ السَّماءِ كما أسقطها على أصحاب الأيكة؛ فكيف يأمنون ذلك. قرأ الجمهور إِنْ نَشَأْ بنون العظمة، و كذا نخسف و نسقط.

و قرأ حمزة و الكسائى بالياء التحتية فى الأفعال الثلاثة؛ أى: إن يشأ اللّه. و قرأ الكسائى وحده بإدغام الفاء فى الباء فى نَخْسِفْ بِهِمُ قال أبو على الفارسى: و ذلك غير جائز لأن الفاء من باطن الشفة السفلى و أطراف الثنايا العليا بخلاف الباء، و قرأ الجمهور «كسفا» بسكون السين. و قرأ حفص و السلمى بفتحها إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور من خلق السماء و الأرض لَآيَةً واضحة و دلالة بينة لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ أى: راجع إلى ربه بالتوبة و الإخلاص و خصّ المنيب لأنه المنتفع بالتفكر.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ قال: من المطر وَ ما يَخْرُجُ مِنْها قال: من النبات وَ ما يَنْزِلُ

مِنَ السَّماءِ قال: من الملائكة وَ ما يَعْرُجُ فِيها قال: الملائكة.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ قال: الرجز هو العذاب الأليم الموجع، و فى قوله: وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ قال: أصحاب محمّد. و أخرج

---

(۱). يس: ۸۱.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۳۶۱

ابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال: يعنى المؤمنين من أهل الكتاب. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ قال: قال ذلك مشركو قريش إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ يقول: إذا أكلتكم الأرض و صرتم رفاتا و عظاما و تقطعتكم السباع و الطير إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ إنكم ستحيون و تبعثون، قالوا ذلك تكذيبا به أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ قال: قالوا إما أن يكون يكذب على اللّه و إما أن يكون مجنونا أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ قالوا: إنك إن نظرت عن يمينك و عن شمالك و من بين يديك و من خلفك رأيت السماء و الأرض إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ كما خسفنا بمن كان قبلهم أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ أى: قطعا من السماء إن يشأ أن يعذب بسمائه فعل و إن يشأ أن يعذب بأرضه فعل و كلّ خلقه له جند إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ قال: تائب مقبل إلى اللّه.

[سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱۰ الى ۱۴]

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (۱۰) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱) وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (۱۲) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (۱۳) فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (۱۴)

ثم ذكر سبحانه من عباده المنيبين إليه داود و سليمان، كما قال فى داود: فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ «۱» و قال فى سليمان: وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ «۲» فقال: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا أى: آتيناه بسبب إنابته فضلا منا على سائر الأنبياء. و اختلف فى هذا الفضل على أقوال: فقيل النبوّة، و قيل:

الزبور، و قيل: العلم، و قيل: القوّة كما فى قوله: وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ «۳» و قيل: تسخير الجبال، كما فى قوله: يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ و قيل: التوبة، قيل: الحكم بالعدل، كما فى قوله: يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ «۴» و قيل: هو إلانة الحديد كما فى قوله: وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ و قيل: حسن الصوت، و الأولى أن يقال: إن هذا الفضل المذكور هو ما ذكره اللّه بعده من قوله:

يا جِبالُ إلى آخر الآية، و جملة يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ مقدّرة بالقول، أى: قلنا يا جبال. و التأويب:

التسبيح كما فى قوله: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ «۵» قال أبو ميسرة: هو التسبيح بلسان الحبشة. و كان إذا سبح داود سبحت معه، و معنى تسبيح الجبال: أن اللّه يجعلها قادرة على ذلك، أو يخلق فيها التسبيح معجزة لداود، و قيل: معنى أوّبى: سيرى معه، من التأويب الذى هو سير النهار أجمع، و منه قول ابن مقبل:

(۱). ص: ۲۴.

(۲). ص: ۳۴.

(۳). ص: ۱۷.

(۴). ص: ۲۶.

(۵). ص: ۱۸.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۶۲ لحقنا بحيّ أوّبوا السير بعد مادفعنا شعاع الشمس و الطرف مجنح

قرأ الجمهور أَوِّبِي بفتح الهمزة و تشديد الواو على صيغة الأمر، من التأويب: و هو الترجيع، أو التسبيح، أو السير، أو النوح. و قرأ ابن عباس و الحسن، و قتادة، و ابن أبى إسحاق أَوِّبِي بضم الهمزة أمرا من آب يؤوب إذا رجع، أى: ارجعى معه. قرأ الجمهور: وَ الطَّيْرَ بالنصب عطفا على فَضْلًا على معنى: و سخرنا له الطير، لأن إيتاءه إياها تسخيرها له، أو عطفا على محل يا جِبالُ لأنه منصوب تقديرا، إذ المعنى: نادينا الجبال و الطير. و قال سيبويه و أبو عمرو بن العلاء: انتصابه بفعل مضمر على معنى و سخرنا له الطير. و قال الزجاج، و النحاس: يجوز أن يكون مفعولا معه كما تقول: استوى الماء و الخشبة.

و قال الكسائى إنه معطوف على فضلا لكن على تقدير مضاف محذوف، أى: آتيناه فضلا و تسبيح الطير.

و قرأ السلمى، و الأعرج، و يعقوب، و أبو نوفل، و ابن أبى إسحاق، و نصر بن عاصم، و ابن هرمز، و مسلمة ابن عبد الملك بالرفع عطفا على لفظ الجبال، أو على المضمر فى: أوّبى؛ لوقوع الفصل بين المعطوف و المعطوف عليه وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ معطوف على آتيناه: أى: جعلناه لينا ليعمل به ما شاء. قال الحسن: صار الحديد كالشمع يعمله من غير نار. و قال السدّىّ: كان الحديد فى يده كالطين المبلول و العجين و الشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار و لا ضرب بمطرقة، و كذا قال مقاتل، و كان يفرغ من عمل الدرع فى بعض يوم أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ فى: أن هذه وجهان: أحدهما أنها مصدرية على حذف الجرّ، أى: بأن اعمل، و الثانى: أنّها المفسرة لقوله: وَ أَلَنَّا و فيه نظر لأنها لا تكون إلا بعد القول أو ما هو فى معناه. و قدّر بعضهم فعلا فى معنى القول، فقال: التقدير و أمرناه أن اعمل. و قوله: سابِغاتٍ صفة لموصوف محذوف، أى دروعا سابغات، و السابغات: الكوامل الواسعات، يقال سبغ الدرع و الثوب و غيرهما: إذا غطى كلّ ما هو عليه و فضل منه فضلة وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ السرد نسج الدروع، و يقال السرد و الزرد كما يقال السراد و المراد لصانع الدروع، و السرد أيضا الخرز، يقال سرد يسرد: إذا خرز، و منه سرد الكلام: إذا جاء به متواليا، و منه حديث عائشة لم يكن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يسرد الحديث كسردكم. قال سيبويه: و منه سرندى: أى جرىء، و معنى سرد الدروع إحكامها، و أن يكون نظام حلقها ولاء غير مختلف، و منه قول لبيد:

سرد الدروع مضاعفا أسرادهلينال طول العيش غير مروم

و قول أبى ذؤيب الهذلى:

و عليهما مسرودتان قضاهماداود أو صنع السّوابغ تبّع

قال قتادة: كانت الدروع قبل داود ثقالا، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع الخفة و الحصانة، أى:

قدّر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه فلا تقصد الحصانة فيثقل و لا الخفة فيزيل المنعة، و قال ابن زيد: التقدير الذى أمر به فى قدر الحلقة، أى: لا تعملها صغيرة فتضعف و لا يقوى الدرع على الدفاع، و لا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها. و قيل: إن التقدير هو فى المسمار: أى لا تجعل مسمار الدرع رقيقا فيقلق و لا غليظا

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۶۳

فيفصم الحلق. ثم خاطب داود و أهله فقال: وَ اعْمَلُوا صالِحاً أى: عملا صالحا كما فى قوله: اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً ثم علل الأمر بالعمل الصالح بقوله: إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أى: لا يخفى علىّ شىء من ذلك وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ قرأ الجمهور الرِّيحَ بالنصب على تقدير: و سخرنا لسليمان الريح كما قال الزجاج، و قرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه بالرفع على الابتداء و الخبر، أى: و لسليمان الريح ثابتة أو مسخرة، و قرأ الجمهور الرِّيحَ و قرأ الحسن و أبو حيوة و خالد بن إلياس «الرياح» بالجمع غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ أى تسير بالغداة مسيرة شهر، و تسير بالعشى كذلك، و الجملة إما مستأنفة لبيان تسخير الريح، أو فى محل نصب على الحال، و المعنى: أنها كانت تسير فى اليوم الواحد مسيرة شهرين. قال الحسن: كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر، و بينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من إصطخر فيبيت بكابل، و بينهما مسيرة شهر وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ القطر: النحاس الذائب. قال الواحدى: قال المفسرون: أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن كجرى الماء، و إنما يعمل الناس اليوم بما أعطى سليمان، و المعنى: أسلنا له عين النحاس كما ألنا الحديد لداود، و قال قتادة: أسال اللّه له عينا يستعملها فيما يريد وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ من: مبتدأ، و يعمل: خبره، و من الجنّ: متعلق به، أو بمحذوف على أنه حال، أو: من يعمل معطوف على الريح، و من الجنّ حال، و المعنى: و سخرنا له من يعمل بين يديه حال كونه من الجنّ بإذن ربه، أى: بأمره. و الإذن مصدر مضاف إلى فاعله، و الجار و المجرور: فى محل نصب على الحال، أى: مسخرا أو ميسرا بأمر ربه وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا أى: و من يعدل من الجنّ عن أمرنا الذى أمرناه به: و هو طاعة سليمان نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ قال أكثر المفسرين: و ذلك فى الآخرة، و قيل: فى الدنيا. قال السدّى: و كلّ اللّه بالجنّ ملكا بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة فتحرقه. ثم ذكر سبحانه ما يعمله الجنّ لسليمان فقال: يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ و مِنْ فى قوله: مِنْ مَحارِيبَ للبيان، و المحاريب فى اللغة: كل موضع مرتفع، و هى الأبنية الرفيعة، و القصور العالية. قال المبرد: لا يكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرج، و منه قيل: للذى يصلى فيه: محراب لأنه يرفع و يعظم. و قال مجاهد: المحاريب دون القصور. و قال أبو عبيدة: المحراب: أشرف بيوت الدار، و منه قول الشاعر:

و ماذا عليه إن ذكرت أوانساكغزلان رمل فى محاريب أقيال

و قال الضحاك: المراد بالمحاريب: هنا المساجد، و التماثيل: جمع تمثال: و هو كلّ شىء مثلته بشىء، أى:

صورته بصورته من نحاس، أو زجاج، أو رخام، أو غير ذلك. قيل: كانت هذه التماثيل صور الأنبياء، و الملائكة، و العلماء، و الصلحاء، و كانوا يصوّرونها فى المساجد ليراها الناس، فيزدادوا عبادة و اجتهادا.

و قيل: هى تماثيل أشياء ليست من الحيوان. و قد استدل بهذا على أن التصوير كان مباحا فى شرع سليمان، و نسخ ذلك بشرع نبينا محمّد صلّى اللّه عليه و سلم. و الجفان جمع جفنة: و هى القصعة الكبيرة. و الجواب جمع جابية: و هى حفيرة كالحوض، و قيل: هى الحوض الكبير يجبى الماء: أى يجمعه. قال الواحدى: قال المفسرون: يعنى

قصاعا فى العظم كحياض الإبل، يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها. قال النحاس: الأولى إثبات الياء فى الجوابى، و من حذف الياء قال سبيل الألف و اللام أن تدخل على النكرة فلا تغيرها عن حالها، فلما كان يقال جواب و دخلت الألف و اللام أقرّ على حاله فحذف الياء. قال الكسائى: يقال جبوت الماء و جبيته فى الحوض: أى جمعته، و الجابية الحوض الذى يجبى فيه الماء للإبل. و قال النحاس: و الجابية، القدر العظيمة، و الحوض العظيم الكبير الذى يجبى فيه الشىء، أى: يجمع، و منه جبيت الخراج، و جبيت الجراد:

جمعته فى الكساء وَ قُدُورٍ راسِياتٍ قال قتادة: هى قدور النحاس تكون بفارس، و قال الضّحاك: هى قدور تنحت من الجبال

الصمّ عملتها له الشياطين، و معنى راسيات: ثابتات لا تحمل و لا تحرّك لعظمها. ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم، أى: سليمان و أهله، فقال: اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً أى:

و قلنا لهم اعملوا بطاعة اللّه يا آل داود! شكرا له على ما آتاكم، و اعملوا عملا شكرا على أنه صفة مصدر محذوف، أو اعملوا للشكر على أنه مفعول له أو حال، أى: شاكرين، أو مفعول به، و سميت الطاعة شكرا لأنها من جملة أنواعه، أو منصوب على المصدرية بفعل مقدّر من جنسه، أى: اشكروا شكرا. ثم بين بعد أمرهم بالشكر أن الشاكرين له من عباده ليسوا بالكثير فقال: وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ أى: العامل بطاعتى؛ الشاكر لنعمتى قليل. و ارتفاع قليل على أنه خبر مقدّم. و من عبادى: صفة له. و الشكور: مبتدأ فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ أى: حكمنا عليه به و ألزمناه إياه ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ يعنى الأرضة. و قرئ «الأرض» بفتح الراء: أى الأكل، يقال أرضت الخشبة أرضا: إذا أكلتها الأرضة.

و معنى تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ تأكل عصاه التى كان متكئا عليها، و المنسأة: العصا بلغة الحبشة، أو هى مأخوذة من نسأت الغنم: أى زجرتها. قال الزجاج: المنسأة التى ينسأ بها: أى يطرد. قرأ الجمهور مِنْسَأَتَهُ بهمزة مفتوحة. و قرأ ابن ذكوان بهمزة ساكنة. و قرأ نافع و أبو عمر بألف محضة. قال المبرد:

بعض العرب يبدل من همزتها ألفا و أنشد:

إذا دببت على المنساة من كبرفقد تباعد عنك اللّهو و الغزل

و مثل قراءة الجمهور قول الشاعر:

ضربنا بمنسأة وجههفصار بذاك مهينا ذليلا

و مثله:

أمن أجل حبل لا أباك ضربتهبمنسأة قد جرّ حبلك أحبلا

و مما يدلّ على قراءة ابن ذكوان قول طرفة:

أمون كألواح الإران نسأتهاعلى لاحب كأنّه ظهر برجد «١»

---

(١). الأمون: التى يؤمن عثارها. و الإران: تابوت الموتى. و اللّاحب: الطريق الواضح. و البرجد: كساء مخطط.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۶۵

فَلَمَّا خَرَّ أى: سقط تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أى: ظهر لهم، من تبينت الشيء إذا علمته: أى: علمت الجنّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ أى: لو صح ما يزعمونه من أنهم يعلمون الغيب لعلموا بموته، و لم يلبثوا بعد موته مدة طويلة فى العذاب المهين؛ فى العمل الذى أمرهم به، و الطاعة له، و هو إذ ذاك ميت. قال مقاتل: العذاب المهين: الشقاء و النصب فى العمل. قال الواحدى: قال المفسرون: كانت الناس فى زمان سليمان يقولون إن الجنّ تعلم الغيب، فلما مكث سليمان قائما على عصاه حولا ميتا، و الجنّ تعمل تلك الأعمال الشاقة التى كانت تعمل فى حياة سليمان لا يشعرون بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فخرّ ميتا فعلموا بموته، و علم الناس أن الجنّ لا تعلم الغيب، و يجوز أن يكون تبينت الجنّ من تبين الشيء، لا من تبينت الشيء، أى: ظهر و تجلى، و أن و ما فى حيزها بد اشتمال من الجنّ مع تقدير محذوف، أى: ظهر أمر الجن للناس أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين، أو ظهر أن الجنّ لو كانوا يعلمون الغيب إلخ. قرأ الجمهور تَبَيَّنَتِ على البناء للفاعل مسندا إلى الجنّ. و قرأ ابن عباس و يعقوب تُبَيِّنَتِ على البناء للمفعول، و معنى القراءتين يعرف مما قدّمنا.

و قد أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

أَوِّبِي مَعَهُ قال: سبحي معه، و روى مثله عن أبى ميسرة، و مجاهد، و عكرمة، و قتادة، و ابن زيد.
و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ قال: كالعجين. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طرق عنه أيضا فى قوله: وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ قال: خلق الحديد. و أخرج عبد الرّزّاق و الحاكم عنه أيضا وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ قال: لا تدقّ المسامير و توسع الحلق فتسلس، و لا تغلظ المسامير و تضيق الحلق فتقصم، و اجعله قدرا. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طرق عنه أيضا فى قوله: وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ قال النحاس. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: القطر: النحاس لم يقدر عليها أحد بعد سليمان، و إنما يعمل الناس بعده فيما كان أعطى سليمان.
و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: القطر: الصفر. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس فى قوله: وَ تَماثِيلَ قال: اتخذ سليمان تماثيل من نحاس فقال: يا ربّ انفخ فيها الروح، فإنها أقوى على الخدمة، فنفخ اللّه فيها الروح، فكانت تخدمه، و كان إسفنديار من بقاياهم، فقيل لداود و سليمان:
اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله كَالْجَوابِ قال: كالجوبة من الأرض وَ قُدُورٍ راسِياتٍ قال: أثافيها منها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ يقول: قليل من عبادى الموحدين توحيدهم. و أخرج هؤلاء عنه أيضا قال: لبث سليمان على عصاه حولا بعد ما مات ثم خرّ على رأس الحول، فأخذت الجنّ عصى مثل عصاه، و دابة مثل دابته، فأرسلوها عليها، فأكلتها فى سنة، و كان ابن عباس يقرأ: فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ الآية، قال سفيان: و فى قراءة ابن مسعود «و هم يدأبون له حولا». و أخرج البزار و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن السنى،

فتح القدير، ج ۴، ص: ۳۶۶

و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «كان سليمان إذا صلّى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها ما اسمك؟ فتقول كذا و كذا، فيقول لم أنت؟ فتقول لكذا و كذا، فإن كانت لغرس غرست، و إن كانت لدواء كتبت» و صلى ذات يوم فإذا شجرة نابتة بين يديه فقال لها: ما اسمك؟ قالت الخرّوب. قال:
لأيّ شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان: اللّهم عمّ عن الجنّ موتى حتى يعلم الإنس أن الجنّ لا يعلمون الغيب، فهيأ عصا فتوكأ عليها، و قبضه اللّه و هو متكئ عليها، فمكث حولا ميتا و الجنّ تعمل، فأكلتها الأرضة فسقطت، فعلموا عند ذلك بموته، فتبيّنت الإنس أَنْ الجنّ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ و كان ابن عباس يقرؤها كذلك، فشكرت الجنّ للأرضة، فأينما كانت يأتونها بالماء، و أخرجه الحاكم و صححه عن ابن عباس موقوفا. و أخرج الديلمى عن زيد بن أرقم مرفوعا يقول اللّه عزّ و جلّ: «إنى تفضّلت على عبادى بثلاث: ألقيت الدّابة على الحبّة، و لو لا ذلك لكنزها الملوك كما يكنزون الذهب و الفضّة، و ألقيت النتن على الجسد و لو لا ذلك لم يدفن حبيب حبيبه، و استلبت الحزن و لو لا ذلك لذهب النّسل».

[سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱۵ الى ۲۱]

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ (۱۵) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (۱۶) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَ هَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ (۱۷) وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ (۱۸) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۱۹)

وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقبه بحال الجاحدين لها، فقال: لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ المراد بسبإ القبيلة التى هى من أولاد سبأ، و هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود. قرأ الجمهور لِسَبَإٍ بالجرّ و التنوين على أنه اسم حىّ، أى: الحى الذى هم أولاد سبأ، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو لِسَبَإٍ ممنوع الصرف بتأويل القبيلة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و يقوّى القراءة الأولى قوله: فِي مَسْكَنِهِمْ و لو كان على تأويل القبيلة لقال فى مساكنها، فمما ورد على القراءة الأولى قول الشاعر:

الواردون و تيم فى ذرى سبأقد عضّ أعناقها جلد الجواميس

و مما ورد على القراءة الثانية قول الشاعر:

من سبأ الحاضرين مأرب إذيبنون من دون سيلها العرما

و قرأ قنبل و أبو حيوة و الجحدرى لِسَبَإٍ بإسكان الهمزة، و قرئ بقلبها ألفا. و قرأ الجمهور

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۶۷

فِي مَسْكَنِهِمْ على الجمع، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم، و وجه الاختيار أنها كانت لهم منازل كثيرة، و مساكن متعددة. و قرأ حمزة و حفص بالإفراد مع فتح الكاف. و قرأ الكسائى بالإفراد مع كسرها، و بهذه القراءة قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش، و وجه الإفراد أنه مصدر يشمل القليل و الكثير، أو اسم مكان و أريد به معنى الجمع، و هذه المساكن التى كانت لهم هى التى يقال لها الآن مأرب، و بينها و بين صنعاء مسيرة ثلاث ليال، و معنى قوله: آيَةٌ أى: علامة دالة على كمال قدرة اللّه و بديع صنعه، ثم بين هذه الآية فقال: جَنَّتانِ و ارتفاعهما على البدل من آية، قاله الفراء، أو: على أنهما خبر مبتدأ محذوف قاله الزجاج، أو على أنهما: مبتدأ، و خبره: عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ و اختار هذا الوجه ابن عطية، و فيه: أنه لا يجوز الابتداء بالنكرة من غير مسوّغ و قرأ ابن أبى عبلة «جنتين» بالنصب على أنهما خبر ثان و اسمها آية، و هاتان الجنتان:

كانتا عن يمين واديهم و شماله قد أحاطتا به من جهتيه، و كانت مساكنهم فى الوادى، و الآية هى الجنتان، كانت المرأة تمشى فيهما و على رأسها المكتل، فيمتلئ من أنواع الفواكه التى تتساقط من غير أن تمسها بيدها. و قال عبد الرحمن بن زيد: إن الآية التى كانت لأهل سبأ فى مساكنهم أنه لم يروا فيها بعوضة و لا ذبابا و لا برغوثا و لا قملة و لا عقربا و لا حية و لا غير ذلك من الهوام، و إذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم. قال القشيرى: و لم يرد جنتين اثنتين، بل أراد من الجهتين يمنة و يسرة فى كلّ جهة بساتين كثيرة كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ أى: قيل لهم ذلك و لم يكن ثم أمر، و لكن المراد تمكينهم من تلك النعم، و قيل إنها قالت لهم الملائكة، و المراد بالرزق: هو ثمار الجنتين، و قيل: إنهم خوطبوا بذلك على لسان نبيهم وَ اشْكُرُوا لَهُ على ما رزقكم من هذه النعم و اعملوا بطاعته و اجتنبوا معاصيه، و جملة بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ مستأنفة لبيان موجب الشكر. و المعنى: هذه بلدة طيبة لكثرة أشجارها و طيب ثمارها. و قيل معنى كونها طيبة: أنها غير سبخة، و قيل ليس فيها هوامّ. و قال مجاهد: هى صنعاء. و معنى وَ رَبٌّ غَفُورٌ أن المنعم عليهم ربّ غفور لذنوبهم. قال مقاتل: المعنى و ربكم إن شكرتم فيما رزقكم ربّ غفور للذنوب.

و قيل إنما جمع لهم بين طيب البلدة و المغفرة للإشارة إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام. و قرأ ورش بنصب بلدة و ربّ على المدح، أو على تقدير اسكنوا بلدة و اشكروا ربا. ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التى أنعم بها عليهم فقال: فَأَعْرَضُوا عن الشكر و كفروا باللّه و كذبوا أنبياءهم قال السدّى: بعث اللّه إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم، و كذا قال وهب. ثم لما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة أرسل اللّه عليهم نقمة سلب بها ما أنعم به عليهم فقال: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ و ذلك أن

الماء كان يأتى أرض سبأ من أودية اليمن، فردموا ردما بين جبلين و حبسوا الماء، و جعلوا فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، و كانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الباب الثانى، ثم من الثالث فأخصبوا و كثرت أموالهم، فلما كذبوا رسلهم بعث اللّه جرذا، ففتقت ذلك الردم حتى انتقض فدخل الماء جنتهم فغرقها و دفن السيل بيوتهم، فهذا هو سيل العرم، و هو جمع عرمة: و هى السكر «١» التى تحبس الماء، و كذا قال قتادة و غيره. و قال السدّى:

---

(١). السكر بالسكون: ما سد به النهر.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۶۸

العرم اسم للسدّ. و المعنى: أرسلنا عليهم سيل السدّ العرم. و قال عطاء: العرم اسم الوادى. و قال الزجاج: العرم اسم الجرذ الذى نقب السدّ عليهم، و هو الذى يقال له الخلد: فنسب السيل إليه لكونه سبب جريانه.

قال ابن الأعرابى: العرم من أسماء الفأر. و قال مجاهد و ابن أبى نجيح: العرم ماء أحمر أرسله اللّه فى السدّ فشقه و هدمه. و قيل إن العرم اسم المطر الشديد، و قيل اسم للسيل الشديد، و العرامة فى الأصل: الشدّة و الشراسة و الصعوبة: يقال عرم فلان: إذا تشدّد و تصعب. و روى عن ابن الأعرابى أنه قال: العرم السيل الذى لا يطاق. و قال المبرّد: العرم كلّ شىء حاجز بين شيئين وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ أى: أهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة، و الأنواع الحسنة، و أعطيناهم بدلهما جنتين لا خير فيهما، و لا فائدة لهم فيما هو نابت فيهما؛ و لهذا قال: ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ قرأ الجمهور بتنوين أُكُلٍ و عدم إضافته إلى خَمْطٍ و قرأ أبو عمرو بالإضافة. قال الخليل: الخمط الأراك، و كذا قال كثير من المفسرين. و قال أبو عبيدة: الخمط كلّ شجرة مرّة ذات شوك. و قال الزجاج: كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله. و قال المبرّد: كل شىء تغير إلى ما لا يشتهى، يقال له: خمط، و منه: اللبن إذا تغير، و قراءة الجمهور أولى من قراءة أبى عمرو. و الخمط: نعت لأكل أو بدل منه، لأن الأكل هو الخمط بعينه. و قال الأخفش:

الإضافة أحسن فى كلام العرب: مثل ثوب خزّ و دار آجر، و الأولى تفسير الخمط بما ذكره الخليل و من معه.

قال الجوهرى: الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل، و تسمية البدل جنتين للمشاكلة أو التهكم بهم، و الأثل هو الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء كذا قال الفراء و غيره قال: إلا أنه أعظم من الطرفاء طولا، الواحدة أثلة، و الجمع أثلات. و قال الحسن: الأثل: الخشب. و قال أبو عبيدة: هو شجر النطار، و الأوّل أولى، و لا ثمر للأثل. و السدر: شجر معروف. قال الفراء: هو السمر. قال الأزهرى: السدر من الشجر سدران:

برىّ لا ينتفع به و لا يصلح للغسول، و له ثمر عفص لا يؤكل، و هو الذى يسمى الضال. و الثانى سدر ينبت على الماء و ثمره النبق، و ورقة غسول يشبه شجر العناب. قيل و وصف السدر بالقلة لأن منه نوعا يطيب أكله، و هو النوع الثانى ذكره الأزهرى. قال قتادة: بينما شجرهم من خير شجر إذ صيره اللّه من شرّ الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة و أنبت بدلها الأراك و الطرفاء و السدر. و يحتمل أن يرجع قوله: قَلِيلٍ إلى جميع ما ذكر من الخمط و الأثل و السدر. و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من التبديل، أو إلى مصدر جَزَيْناهُمْ و الباء فى بِما كَفَرُوا للسببية، أى: ذلك التبديل، أو ذلك الجزاء بسبب كفرهم للنعمة بإعراضهم عن شكرها وَ هَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ أى: و هل نجازى هذا الجزاء بسلب النعمة و نزول النقمة إلا الشديد الكفر المتبالغ فيه. قرأ الجمهور «يجازى» بضم التحتية و فتح الزاى على البناء للمفعول.

و قرأ حمزة و الكسائى و يعقوب و حفص بالنون و كسر الزاى على البناء للفاعل و هو اللّه سبحانه، و الكفور على القراءة الأولى مرفوع، و على القراءة الثانية منصوب، و اختار القراءة الثانية أبو عبيد و أبو حاتم قالا: لأن قبله جَزَيْناهُمْ و ظاهر الآية أنه لا يجازى

إلاـ الكفور مع كون أهـل المعاصـى يجـازون، و قـد قـال قوم: إن معنى الآيـة أنه لاـ يجـازى هـذا الجزاء، و هو الاصـطلام «١» و الإهلاك إلا من كفر. و قال مجاهد: إن المؤمن يكفر عنه

(١). قال فى القاموس: اصطلمه: استأصله.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۶۹

سيئاته، و الكافر يجازى بكل عمل عمله و قال طاوس: هو المناقشة فى الحساب، و أما المؤمن فلا يناقش.
و قـال الحسن: إن المعنى إنه يجـازى الكـافر مثلا بمثل و رجـح هـذا الجواب النحاس وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها هذا معطوف على قوله: لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ أى: و كان من قصـتهم: أنا جعلنا بينهم و بين القرى التى باركنا فيها بالماء و الشجر، و هى قرى الشـام قُرىً ظـاهِرَةً أى: متواصـلة، و كـان متجرهم من أرضـهم الـتى هى مـأرب إلى الشـام، و كـانوا يبيتون بقريـة، و يقيلون بأخرى حتى يرجعوا، و كانوا لا يحتاجون إلى زاد يحملونه من أرضـهم إلى الشام، فهذا من جملة الحكاية لما أنعم اللّه به عليهم. قال الحسن: إن هـذه القرى هى بين اليمن و الشام، قيل إنها كانت أربعة آلاف و سـبعمائة قرية، و قيل هى بين المدينة و الشام. و قـال المبرّد: القرى الظـاهرة هى المعروفـة، و إنمـا قيل لها ظاهرة لظهورها، إذا خرجت من هـذه ظهرت لك الأخرى فكانت قرى ظاهرة: أى معروفـة، يقال هذا أمر ظاهر: أى معروف وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ أى: جعلنا السـير من القرية إلى القرية مقدارا معينا واحدا، و ذلك نصف يوم كما قال المفسـرون. قال الفرّاء: أى جعلنا بين كلّ قريتين نصف يوم حتى يكون فى قرية، و المبيت فى أخرى إلى أن يصل إلى الشام، و إنما يبالغ الإنسان فى السير لعـدم الزاد و الماء و الخوف فى الطريق، فإذا وجد الزاد و الأمن لم يحمل نفسه المشـقة، بل ينزل أينما أراد. و الحاصل أن اللّه سبحانه عـدّد عليهم النعم، ثم ذكر ما نزل بهم من النقم، ثم عاد لتعديد بقية ما أنعم به عليهم مما هو خارج عن بلدهم من اتصال القرى بينهم و بين ما يريدون السـفر إليه، ثم ذكر بعد ذلك تبديله بالمفاوز و البرارى كما سيأتى و قوله: سِيرُوا فِيها هو على تقدير القول: أى و قلنا لهم سيروا فى تلك القرى المتصلة، فهو أمر تمكين، أى: و مكنـاهم من السير فيها متى شاؤوا لَيالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ مما يخافونه، و انتصاب ليالى و أياما على الظرفيـة، و انتصاب آمنين على الحال. قال قتادة: كانوا يسـيرون غير خائفين و لا جياع و لا ظمأى، كانوا يسـيرون مسـيرة أربعة أشـهر فى أمان لا يحرّك بعضهم بعضا و لو لقى الرجل قاتل أبيه لم يحرّكه. ثم ذكر سـبحانه أنهم لم يشـكروا النعمـة، بل طلبوا التعب و الكـد فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا و كان هذا القول منهم بطرا و طغيانا لما سـئموا النعمة و لم يصبروا على العافية، فتمنوا طول الأسفار و التباعد بين الديار، و سـألوا اللّه تعـالى أن يجعـل بينهم و بين الشـام مكان تلك القرى المتواصـلة الكثيرة الماء و الشـجر و الأمن، المفاوز و القفار و البرارى المتباعـدة الأقطـار، فأجـابهم اللّه إلى ذلـك و خرّب تلك القرى المتواصـلة، و ذهب بما فيها من الخير و الماء و الشـجر، فكانت دعوتهم هـذه كـدعوة بنى إسـرائيل حيث قالوا فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها «١» الآية مكان المنّ و السـلوى، و كقول النضر بن الحارث اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ «٢» الآية. قرأ الجمهور رَبَّنـا بـالنصب على أنه منـادى مضـاف، و قرءوا أيضا باعِدْ و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و ابن محيصن و هشام عن ابن عامر (بعّد) بتشديد العين، و قرأ ابن السـميقع: بضم العين فعلا ماضـيا، فيكون معنى هذه القراءة الشكوى من بعد الأسـفار، و قرأ أبو صالح و محمّد بن الحنفية و أبو العالية و نصر بن عاصم و يعقوب «ربنا» بالرفع «باعد» بفتح العين على أنه فعل ماض على الابتداء و الخبر. و المعنى: لقد باعد ربّنا بين أسفارنا، و رويت هذه القراءة عن

(١). البقرة: ۶۱.

(۲). الأنفال: ۳۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۷۰

ابن عباس، و اختار أبو حاتم، قال لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب الذى كان بينهم و بين الشام بالقرى المتواصلة، بطرا و أشرا و كفرا للنعمة. و قرأ يحيى بن يعمر و عيسى بن عمر «ربنا» بالرفع «بعد» بفتح العين مشدّدة، فيكون معنى هذه القراءة الشكوى بأن ربهم بعّد بين أسفارهم، مع كونها قريبة متصلة بالقرى و الشجر و الماء، فيكون هذا من جملة بطرهم، و قرأ أخو الحسن البصرى كقراءة ابن السميقع السابقة مع رفع (بين) على أنه الفاعل، كما قيل فى قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ و روى الفرّاء و الزجاج قراءة مثل هذه القراءة لكن مع نصب بين على أنه ظرف، و التقدير: بعد سيرنا بين أسفارنا. قال النحاس: و هذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال إحداها أجود من الأخرى، كما لا يقال ذلك فى أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، و لكن أخبر عنهم أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم، فلما فعل ذلك بهم شكوا و تضرّروا، و لهذا قال سبحانه: وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ حيث كفروا باللّه و بطروا نعمته و تعرّضوا لنقمته فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ يتحدّث الناس بأخبارهم. و المعنى: جعلناهم ذوى أحاديث يتحدّث بها من بعدهم تعجبا من فعلهم و اعتبارا لحالهم و عاقبتهم وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أى: فرّقناهم فى كلّ وجه من البلاد كلّ التفريق، و هذه الجملة مبينة لجعلهم أحاديث، و ذلك أن اللّه سبحانه لما أغرق مكانهم و أذهب جنتهم، تفرّقوا فى البلاد فصارت العرب تضرب بهم الأمثال، فتقول: تفرّقوا أيدى سبأ. قال الشعبى:

فلحقت الأنصار بيثرب، و غسان بالشام، و الأزد بعمان، و خزاعة بتهامة إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أى:

فيما ذكر من قصتهم و ما فعل اللّه بهم لآيات بينات، و دلالات واضحات لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أى: لكلّ من هو كثير الصبر و الشكر، و خصّ الصبار الشكور لأنهما المنتفعان بالمواعظ و الآيات وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ قرأ الجمهور صدق بالتخفيف و رفع إبليس و نصب ظنه. قال الزجاج: و هو على المصدر:

أى صدق عليهم ظنا ظنه، أو صدق فى ظنه، أو على الظرف. و المعنى: أنه ظنّ بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه فوجدهم كذلك، و يجوز أن يكون منتصبا على المفعولية، أو بإسقاط الخافض. و قرأ حمزة و الكسائى و يحيى بن وثاب و الأعمش و عاصم صَدَّقَ بالتشديد، و ظنه بالنصب على أنه مفعول به. قال أبو على الفارسى: أى صدّق الظنّ الذى ظنه. قال مجاهد: ظنّ ظنا فصدّق ظنه، فكان كما ظنّ، و قرأ أبو جعفر و أبو الجهجاه و الزهرى و زيد بن علىّ «صدق» بالتخفيف و «إبليس» بالنصب و «ظنه» بالرفع؛ قال أبو حاتم: لا وجه لهذه القراءة عندى، و قد أجاز هذه القراءة الفرّاء و ذكرها الزجاج، و جعل الظنّ: فاعل صدق، و إبليس: مفعوله. و المعنى: أن إبليس سوّل له ظنه شيئا فيهم فصدق ظنه، فكأنه قال: و لقد صدق عليهم ظنّ إبليس.

و روى عن أبى عمرو أنه قرأ برفعهما مع تخفيف صدق على أن يكون ظنه بدل اشتمال من إبليس، قيل: و هذه الآية خاصة بأهل سبأ. و المعنى: أنهم غيروا و بدّلوا بعد أن كانوا قد آمنوا بما جاءت به رسلهم، و قيل هى عامة، أى: صدّق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع اللّه. قال مجاهد و الحسن. قال الكلبى: إنه ظنّ أنه إن أغواهم أجابوه، و إن أضلهم أطاعوه فصدّق ظنه فَاتَّبَعُوهُ قال الحسن: ما ضربهم بسوط و لا بعصا، و إنما ظنّ فكان كما ظنّ بوسوسته، و انتصاب إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ على الاستثناء، و فيه

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۷۱

وجهان: أحدهما أن يراد به بعض المؤمنين، لأن كثيرا من المؤمنين يذنب و ينقاد لإبليس فى بعض المعاصى، و لم يسلم منه إلا فريق، و هم الذين قال فيهم إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ* و قيل المراد بفريقا من المؤمنين: المؤمنون كلهم على أن تكون من بيانية وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ أى: ما كان له تسلط عليهم: أى لم يقهرهم على الكفر، و إنما كان منه الدعاء و الوسوسة

و التزيين، و قيل السلطان: القوّة، و قيل:

الحجة، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ منقطع، و المعنى: لا سلطان له عليهم، و لكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم. و قيل: هو متصل مفرّغ من أعم العام، أى: ما كان له عليهم تسلط بحال من الأحوال و لا لعلة من العلل إلّا ليتميز من يؤمن، و من لا يؤمن، لأنه سبحانه قد علم ذلك علما أزليا. و قال الفرّاء: المعنى إلا لنعلم ذلك عندكم، و قيل إلا لتعلموا أنتم، و قيل: ليعلم أولياؤنا و الملائكة.

و قرأ الزهرى «إلا ليعلم» على البناء للمفعول، و الأولى حمل العلم هنا على التمييز و الإظهار كما ذكرنا وَ رَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ أى: محافظ عليه. قال مقاتل: علم كلّ شىء من الإيمان و الشكّ.

و قد أخرج أحمد، و البخارى، و الترمذى، و حسنه، و الحاكم و صححه، و غيرهم عن فروة بن مسيك المرادى قال: «أتيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فقلت: يا رسول اللّه ألا أقاتل من أدبر من قومى بمن أقبل منهم؟ فأذن لى فى قتالهم و أمرنى، فلما خرجت من عنده أرسل فى أثرى فردّنى فقال: ادع القوم، فمن أسلم منهم فاقبل منه، و من لم يسلم فلا تعجل حتّى أحدث إليك، و أنزل فى سبأ ما أنزل، فقال رجل، يا رسول اللّه و ما سبأ: أرض أم امرأة؟ قال: ليس بأرض و لا امرأة، و لكنّه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة، و تشاءم منهم أربعة، فأمّا الذين تشاءموا: فلخم و جذام و غسّان و عاملة، و أما الذين تيامنوا، فالأزد و الأشعريون و حمير و كندة و مذحج و أنمار، فقال رجل: يا رسول اللّه و ما أنمار فأزد قال: الذى منهم خثعم و بجيلة». و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و الطبرانى، و ابن عدىّ، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه بأخصر منه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: سَيْلَ الْعَرِمِ قال: الشديد. و أخرج ابن جرير عنه قال: سَيْلَ الْعَرِمِ واد كان باليمن كان يسيل إلى مكة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: أُكُلٍ خَمْطٍ قال:

الأراك. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: وَ هَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ قال: تلك المناقشة. و أخرج إسحاق بن بشر، و ابن عساكر عنه أيضا فى قوله: وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ يعنى: بين مساكنهم وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها يعنى الأرض المقدّسة قُرىً ظاهِرَةً يعنى عامرة مخصبة وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ يعنى فيما بين مساكنهم و بين أرض الشام سيروا فيها إذا ظعنوا من منازلهم إلى أرض الشام من الأرض المقدسة.

و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ قال إبليس:

إن آدم خلق من تراب و من طين و من حمأ مسنون خلقا ضعيفا، و إنى خلقت من نار، و النار تحرق كلّ شىء لأحتنكنّ ذرّيته إلّا قليلا. قال فصدّق ظنه عليهم فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قال هم المؤمنون كلهم.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۷۲

[سورة سبإ (۳۴): الآيات ۲۲ الى ۲۷]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ وَ ما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَ ما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (۲۲) وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۲۳) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۲۴) قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۲۵) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (۲۶)

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۷)

قوله: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ هذا أمر للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بأن يقول لكفار قريش أو للكفار على الإطلاق هذا

القول، و مفعولا زعمتم محذوفان، أی: زعمتموهم آلهة لدلالة السياق عليهما. قال مقاتل:
يقول ادعوهم ليكشفوا عنكم الضرّ الذی نزل بكم فی سنّی الجوع. ثم أجاب سبحانه عنهم فقال: لاـ يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِی السَّماواتِ وَ لاـ فِی الْأَرْضِ أی: ليس لهم قدرة على خير و لا شرّ، و لا على جلب نفع و لا دفع ضرر فی أمر من الأمور، و ذكر السموات و الأرض لقصد التعميم لكونهما ظرفا للموجودات الخارجية وَ ما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ أی: ليس للآلهة فی السموات و الأرض مشاركة؛ لاـ بالخلق؛ و لا بالملك؛ و لا بالتصرّف وَ ما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ أی: و ما للّه سبحانه من تلك الآلهة من معين يعينه على شیء من أمر السموات و الأرض و من فيهما وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ أی: شفاعة من يشفع عنده من الملائكة و غيرهم، و قوله: إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أی: لا تنفع الشفاعة فی حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة و النبيين و نحوهم من أهل العلم و العمل، و معلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة، لا للكافرين، و يجوز أن يكون المعنى: لا تنفع الشفاعة من الشفاء المتأهلين لها فی حال من الأحوال إلّا كائنة لمن أذن له؛ أی: لأجله و فی شأنه من المستحقّين للشفاعة لهم، لا من عداهم من غير المستحقين لها، و اللام فی لِمَنْ يجوز أن تتعلق بنفس الشفاعة. قال أبو البقاء:
كما تقول شفعت له، و يجوز أن تتعلق بتنفع، و الأولى أنها متعلقة بالمحذوف كما ذكرنا. قيل: و المراد بقوله:
لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ أنها لا توجد أصلا إلا لمن أذن له، و إنما علق النفی بنفعها لا بوقوعها تصريحا بنفی ما هو غرضهم من وقوعها.
قرأ الجمهور أَذِنَ بفتح الهمزة: أی أذن له اللّه سبحانه، لأن اسمه سبحانه مذكور قبل هذا، و قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الكسائی بضمها على البناء للمفعول، و الآذن هو اللّه سبحانه، و مثل هذه الآية قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِی يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ «۱» و قوله: وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى «۲» ثم أخبر سبحانه عن خوف هؤلاء الشفعاء و المشفوع لهم فقال: حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قرأ الجمهور: فُزِّعَ مبنيا للمفعول، و الفاعل: هو اللّه، و القائم مقام الفاعل: هو الجارّ و المجرور، و قرأ ابن عامر: فزّع مبنيا للفاعل، و فاعله ضمير يرجع إلى اللّه سبحانه، و كلا القراءتين بتشديد الزای، و فعّل:

---

(۱). البقرة: ۲۵۵.

(۲). الأنبياء: ۲۸.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۷۳

معناه السلب، فالتفريع إزالة الفزع. و قرأ الحسن مثل قراءة الجمهور إلا أنه خفف الزای. قال قطرب: معنى فزّع عن قلوبهم أخرج ما فيها من الفزع، و هو الخوف. و قال مجاهد: كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة.
و المعنى: أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون اللّه من الملائكة و الأنبياء و الأصنام، إلا أن اللّه سبحانه يأذن للملائكة، و الأنبياء، و نحوهم فی الشفاعة لمن يستحقها، و هم على غاية الفزع من اللّه كما قال تعالى: وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ فإذا أذن لهم فی الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل، و الخوف الشديد من أن يحدث شیء من أقدار اللّه، فإذا سرّی عليهم قالُوا للملائكة فوقهم، و هم الذين يوردون عليهم الوحی بالإذن ما ذا قالَ رَبُّكُمْ أی: ماذا أمر به، فيقولون لهم قال: القول الْحَقَ و هو قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فله أن يحكم فی عباده بما يشاء، و يفعل ما يريد، و قيل: هذا الفزع يكون للملائكة فی كلّ أمر يأمر به الربّ. و المعنى: لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم فزعون اليوم مطيعون للّه، دون الجمادات و الشياطين، و قيل: إن الذين يقولون: ماذا قال ربكم هم المشفوع لهم، و الذين أجابوهم: هم الشفعاء من الملائكة و الأنبياء. و قال الحسن، و ابن زيد، و مجاهد: معنى الآية: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين فی الآخرة. قالت لهم الملائكة:

ماذا قال ربكم فى الدنيا؟ قالوا الحقّ، فأقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار. و قرأ ابن عمر و قتادة: فرغ بالراء المهملة و الغين المعجمة من الفراغ. و المعنى: فرغ اللّه قلوبهم، أى: كشف عنها الخوف. و قرأ ابن مسعود (افرنقع) بعد الفاء راء مهملة ثم نون ثم قاف ثم عين مهملة من الافرنقاع: و هو التفرّق. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يبكت المشركين و يوبخهم فقال: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: من ينعم عليكم بهذه الأرزاق التى تتمتعون بها، فإن آلهتكم لا يملكون مثقال ذرة، و الرزق من السماء: هو المطر و ما ينتفع به منها: من الشمس، و القمر، و النجوم، و الرزق من الأرض: هو النبات، و المعادن، و نحو ذلك، و لما كان الكفار لا يقدرون على جواب هذا الاستفهام، و لم تقبل عقولهم نسبة هذا الرزق إلى آلهتهم، و ربما يتوقفون فى نسبته إلى اللّه مخافة أن تقوم عليهم الحجة، فأمر اللّه رسوله بأن يجيب عن ذلك فقال: قُلِ اللَّهُ أى:

هو الذى يرزقكم من السموات و الأرض، ثم أمره سبحانه أن يخبرهم بأنهم على ضلالة، لكن على وجه الإنصاف فى الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى و من هو على الضلالة، فقال: وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ و المعنى: أن أحد الفريقين من الذين يوحدون اللّه الخالق الرّزاق و يخصونه بالعبادة، و الذين يعبدون الجمادات التى لا تقدر على خلق، و لا رزق، و لا نفع، و لا ضرّ لعلى أحد الأمرين من الهدى و الضلالة، و معلوم لكلّ عاقل أن من عبد الذى يخلق و يرزق و ينفع و يضرّ: هو الذى على الهدى، و من عبد الذى لا يقدر على خلق و لا رزق و لا نفع و لا ضرّ: هو الذى على الضلالة، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى، و هم المسلمون، و فريق الضلالة و هم المشركون على وجه أبلغ من التصريح. قال المبرّد: و معنى هذا الكلام معنى قول المتبصر فى الحجة لصاحبه: أحدنا كاذب، و قد عرف أنه الصادق المصيب، و صاحبه الكاذب المخطئ. قال: و أو عند البصريين على بابها و ليست للشكّ، لكنها على ما تستعمله العرب فى مثل هذا إذا

لم يرد المخبر أن يبين و هو عالم بالمعنى. و قال أبو عبيدة و الفرّاء: هى بمعنى الواو، و تقديره: و إنا على هدى و إياكم لفى ضلال مبين، و منه قول جرير:

أ ثعلبة الفوارس أو رياحاعدلت بهم طهيّة و الخشابا «۱»

أى ثعلبة و رياحا، و كذا قول الآخر:

فلما اشتدّ بأس الحرب فيناتأمّلنا رياحا أو رزاما

أى: و رزاما، و قوله: أو إياكم معطوف على اسم إن، و خبرها: هو المذكور، و حذف خبر الثانى للدلالة عليه، أى: إنا لعلى هدى، أو فى ضلال مبين، و إنكم لعلى هدى، أو فى ضلال مبين، و يجوز العكس:

و هو كون المذكور خبر الثانى، و خبر الأوّل محذوفا، كما تقدّم فى قوله: وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ «۲» ثم أردف سبحانه هذا الكلام المنصف بكلام أبلغ منه فى الإنصاف، و أبعد من الجدل و المشاغبة فقال: قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ أى: إنما أدعوكم إلى ما فيه خير لكم و نفع، و لا ينالنى من كفركم و ترككم لإجابتى ضرر، و هذا كقوله سبحانه: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ «۳» و فى إسناد الجرم إلى المسلمين؛ و نسبة مطلق العمل إلى المخاطبين، مع كون أعمال المسلمين من البرّ الخالص و الطاعة المحضة، و أعمال الكفار من المعصية البينة، و الإثم الواضح من الإنصاف ما لا يقادر قدره. و المقصود: المهادنة و المتاركة، و قد نسخت هذه الآية، و أمثالها بآية السيف. ثم أمره سبحانه بأن يهدّدهم بعذاب الآخرة، لكن على وجه لا تصريح فيه فقال: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا أى: يوم القيامة ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِ أى: يحكم و يقضى بيننا بالحقّ، فيثيب المطيع، و يعاقب العاصى وَ هُوَ الْفَتَّاحُ أى: الحاكم بالحقّ القاضى بالصواب الْعَلِيمُ بما يتعلق بحكمه و قضائه من المصالح. و هذه أيضا منسوخة بآية السيف. ثم أمره سبحانه أن يورد عليهم حجة أخرى يظهر بها ما هم عليه من الخطأ فقال: قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ

أی: أرونی الـذین ألحقتموهم باللّه شـرکاء له، و هـذه الرؤیـة: هی القلبیـة، فیکون شـرکاء: هو المفعول الثالث، لأن الفعل تعـدّی بالهمزة إلی ثلاثة. الأوّل: الیاء فی أرونی، و الثانی: الموصول، و الثالث: شرکاء، و عائد الموصول:

محـذوف، أی: ألحقتموهم، و یجوز أن تکون هی البصـریة، و تعدّی الفعل بالهمزة إلی اثنین: الأوّل: الیاء، و الثانی: الموصول، و یکون شرکاء منتصبا علی الحال. ثم ردّ علیهم ما یدعونه من الشرکاء و أبطل ذلک فقال:

کَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ أی: ارتـدعوا عن دعـوی المشارکـة، بـل المنفرد بالإلهیـة، هـو اللّه العزیز بـالقهر و الغلبـة، الحکیم بالحکمة الباهرة.

و قـد أخرج ابن جریر، و ابن أبی حـاتم عن ابن عبـاس فی قوله: فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قال: جلی. و أخرج ابن أبی حاتم، و ابن مردویه عنه قال: لما أوحی الجبار إلی محمّد صلّی اللّه علیه و سلم دعا الرسول من الملائکة لیبعثه بالوحی،

---

(۱). ثعلبة و ریاح: ممدوحا جریر، و طهیة و الخشاب: مهجوا جریر. [دیوان جریر: ۵۸].

(۲). التوبة: ۶۲.

(۳). الکافرون: ۶.

فسـمعت الملائکـة صوت الجبـار یتکلم بالوحی، فلما کشف عن قلوبهم سـئلوا عما قال اللّه، فقالوا الحقّ، و علموا أن اللّه لا یقول إلا حقا. قال ابن عباس: و صوت الوحی کصوت الحدید علی الصـفا، فلما سمعوا خرّوا سجدا، فلما رفعوا رؤوسهم قالُوا ما ذا قالَ رَبُّکُمْ قالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْکَبِیرُ. و أخرج عبـد ابن حمید، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عنه أیضا قال: ینزل الأمر إلی السـماء الـدنیا له وقعـة کوقعـة السلسـلة علی الصـخرة، فیفزع له جمیع أهـل السـموات فیقولون: ماذا قال ربکم؟ ثم یرجعون إلی أنفسـهم فیقولون: الحق و هو العلیّ الکبیر. و أخرج البخاری و أبو داود، و الترمـذی، و ابن ماجـة و غیرهم من حدیث أبی هریرة أن النبیّ صلّی اللّه علیه و سـلم قال: «إذا قضـی اللّه الأمر فی السّـماء ضـربت الملائکـة بأجنحتها خضـعانا لقوله: کأنه سلسـلة علی صـفوان ینفذهم ذلک، فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربّکم؟ قالوا للذی قال: الحقّ و هو العلیّ الکبیر» الحدیث و فی معناه أحادیث. و أخرج سـعید بن منصور، و عبـد بن حمیـد، و ابن جریر، و ابن المنـذر، و ابن أبی حاتم عن عکرمـة فی قوله: وَ إِنَّا أَوْ إِیَّاکُمْ لَعَلی هُـدیً أَوْ فِی ضَـلالٍ مُبِینٍ قـال: نحن علی هـدی، و إنکم لفی ضـلال مبین. و أخرج ابن جریر، و ابن المنـذر، و ابن أبی حاتم، و البیهقی فی الأسماء و الصفات عن ابن عباس قال (الفتاح) القاضی.

[سورة سبإ (۳۴): الآیات ۲۸ الی ۳۳]

وَ ما أَرْسَـلْناکَ إِلَّا کَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ (۲۸) وَ یَقُولُونَ مَتی هذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۲۹) قُلْ لَکُمْ مِیعادُ یَوْمٍ لا تَسْـتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَ لا تَسْتَقْدِمُونَ (۳۰) وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهـذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِی بَیْنَ یَدَیْهِ وَ لَوْ تَری إِذِ الظَّالِمُـونَ مَوْقُوفُونَ عِنْـدَ رَبِّهِمْ یَرْجِعُ بَعْضُـهُمْ إِلی بَعْضٍ الْقَوْلَ یَقُولُ الَّذِینَ اسْتُضْـعِفُوا لِلَّذِینَ اسْـتَکْبَرُوا لَوْ لاـ أَنْتُمْ لَکُنَّا مُؤْمِنِینَ (۳۱) قالَ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا لِلَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْناکُمْ عَنِ الْهُدی بَعْدَ إِذْ جاءَکُمْ بَلْ کُنْتُمْ مُجْرِمِینَ (۳۲)

وَ قالَ الَّذِینَ اسْتُضْـعِفُوا لِلَّذِینَ اسْـتَکْبَرُوا بَلْ مَکْرُ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَکْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِی أَعْناقِ الَّذِینَ کَفَرُوا هَلْ یُجْزَوْنَ إِلَّا ما کانُوا یَعْمَلُونَ (۳۳)

فی انتصاب کَافَّةً وجوه، فقیل: إنه منتصب علی الحال من الکاف فی أَرْسَلْناکَ قال الزجاج:

أی و ما أرسلناک إلا جامعا للناس بالإنـذار و الإبلاغ، و الکافة بمعنى الجامع، و الهاء فیه للمبالغة کعلامة. قال أبو حیان: أما قول الزجاج إن کافة بمعنى جامعا، و الهاء فیه للمبالغـة، فإن اللغـة لا تساعـد علیه لأن کفّ لیس معناه جمع، بل معناه منع. یقال کف یکف: منع یمنع. و المعنى: إلا مانعا لهم من الکفر، و منه الکفّ لأنها تمنع من خروج ما فیه. و قیل: إنه منتصب على المصدریـة، و الهـاء: للمبالغـة، کالعاقبـة، و العافیـة، و المراد: أنهـا صـفة مصـدر محـذوف، أی: إلا رسالـة کافـة. و قیل: إنه حال من الناس و التقـدیر: و ما أرسـلناک إلا للناس کافـة، و ردّ بأنه لا یتقدّم الحال من المجرور علیه کما هو مقرّر فی علم الإعراب. و یجاب عنه بأنه قد جوّز ذلک أبو علیّ الفارسی، و ابن کیسان، و ابن برهان، و منه قول الشاعر:

فتح القدیر، ج۴، ص: ۳۷۶ إذا المرء أعیته السیادة ناشئافمطلبها کهلا علیه عسیر

و قول الآخر:

تسلیت طرّا عنکم بعد بینکمبذکراکم حتّى کأنّکم عندی

و قول الآخر:

غافلا تعرض المنیّة للمرء فیدعى و لات حین إباء

و ممن رجـح کونها حالا من المجرور بعـدها ابن عطیـة، و قال: قدمت للاهتمام و التقوّی، و قیل: المعنى إلا ذا کافة، أی: ذا منع، فحذف المضاف. قیل: و اللام فی لِلنَّاسِ بمعنى: إلى، أی: و ما أرسلناک إلى الناس إلا جامعا لهم بالإنذار و الإبلاغ، أو مانعا لهم من الکفر و المعاصی، و انتصاب بَشِیراً وَ نَذِیراً على الحال، أی: مبشـرا لهم بالجنـة، و منـذرا لهم من النار وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ مـا عنـد اللّه و مـا لهم من النفع فی إرسال الرسل وَ یَقُولُونَ مَتى هـذَا الْوَعْـدُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ أی: متى یکون هـذا الوعد الذی تعدونا به و هو قیام الساعة أخبرونا به إن کنتم صادقین، قالوا هذا على طریقة الاسـتهزاء برسول اللّه صـلّى اللّه علیه و سلم و من معه من المؤمنین فـأمر اللّه رسوله صـلّى اللّه علیه و سـلم أن یجیب عنهم فقـال: قُـلْ لَکُمْ مِیعـادُ یَوْمٍ أی: میقات یوم و هو یوم البعث. و قیل: وقت حضور الموت، و قیل: أراد یوم بدر لأنه کان یوم عذابهم فی الدنیا، و على کلّ تقدیر فهذه الإضافة للبیان، و یجوز فی میعاد: أن یکون مصـدرا مرادا به الوعـد، و أن یکون اسم زمان. قال أبو عبیـدة: الوعـد و الوعید و المیعاد بمعنى. و قرأ ابن أبی عبلـة بتنوین مِیعـادُ و رفعه، و نصب «یوم» على أن یکون میعـاد مبتـدأ، و یومـا ظرف، و الخبر لکم. و قرأ عیسـى بن عمر برفع «میعاد» منوّنا، و نصب «یوم» مضافا إلى الجملـة بعـده. و أجاز النحویون مِیعادٌ یَوْمٌ برفعهما منوّنین على أن میعاد مبتـدأ و یوم بـدل منه، و جملـة لا تَسْـتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَـةً وَ لا تَسْـتَقْدِمُونَ صـفة لمیعاد، أی: هـذا المیعاد المضـروب لکم لا تتأخرون عنه و لا تتقدّمون علیه، بل یکون لا محالة فی الوقت الذی قد قدّر اللّه وقوعه فیه. ثم ذکر سـبحانه طرفا من قبائح الکفار، و نوعا من أنواع کفرهم فقال: وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِی بَیْنَ یَدَیْهِ و هی: الکتب القدیمة، کالتوراة و الإنجیل، و الرسـل المتقدّمون. و قیل:

المراد بالـذی بین یـدیه الـدار الآـخرة. ثم أخبر سـبحانه عن حـالهم فی الآـخرة فقـال: وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ الخطاب لمحمّـد صـلّى اللّه علیه و سـلم، أو لکل من یصـلح له، و معنى موقوفون عند ربهم: محبوسون فی موقف الحساب یَرْجِعُ بَعْضُـهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ أی: یتراجعون الکلام فیما بینهم باللوم و العتاب بعـد أن کانوا فی الدنیا متعاضدین متناصـرین متحابین. ثم بین سـبحانه تلـک المراجعـة فقـال: یَقُولُ الَّذِینَ اسْتُضْـعِفُوا و هم الأتبـاع لِلَّذِینَ اسْـتَکْبَرُوا و هم الرؤسـاء المتبوعون لَوْ لاـ أَنْتُمْ صـددتمونا عن الإیمـان بـاللّه، و الاتباع لرسوله لَکُنَّا مُؤْمِنِینَ باللّه مصـدّقین لرسوله و کتابه قالَ الَّذِینَ اسْـتَکْبَرُوا لِلَّذِینَ اسْتُضْـعِفُوا مجیبین علیهم مستنکرین لما قالوه أَ نَحْنُ صَدَدْناکُمْ عَنِ الْهُدى أی: منعناکم عن الإیمان

فتح القدیر، ج۴، ص: ۳۷۷

بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ الهدى، قالوا هذا منكرين لما ادّعوه عليهم من الصدّ لهم، و جاحدين لما نسبوه إليهم من ذلك، ثم بينوا أنهم الصادّون لأنفسهم، الممتنعون من الهدى بعد إذ جاءهم فقالوا: بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ أى: مصرّين على الكفر، كثيرى الإجرام، عظيمى الآثام وَ قالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ردّا لما أجابوا به عليهم، و دفعا لما نسبوه إليهم من صدّهم لأنفسهم بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أصل المكر فى كلام العرب: الخديعة و الحيلة، يقال: مكر به إذا خدعه و احتال عليه. و المعنى: بل مكركم بنا الليل و النهار، فحذف المضاف إليه، و أقيم الظرف مقامه اتساعا. و قال الأخفش: هو على تقدير هذا مكر الليل و النهار. قال النحاس: المعنى و اللّه أعلم، بل مكركم فى الليل و النهار، و دعاؤكم لنا إلى الكفر هو الذى حملنا على هذا. و قال سفيان الثورى: بل عملكم فى الليل و النهار، و يجوز أن يجعل الليل و النهار ماكرين على الإسناد المجازى كما تقرّر فى علم المعانى. قال المبرّد كما تقول العرب: نهاره صائم، و ليله قائم، و أنشد قول جرير:

لقد لمتنا يا أمّ غيلان فى السّرىو نمت و ما ليل المطىّ بنائم

و أنشد سيبويه:

فنام ليلى و تجلّى همّى و قرأ قتادة و يحيى بن يعمر برفع «مكر» منوّنا، و نصب الليل و النهار، و التقدير: بل مكر كائن فى الليل و النهار. و قرأ سعيد بن جبير، و أبو رزين بفتح الكاف و تشديد الراء مضافا بمعنى الكرور، من كرّ يكرّ إذا جاء و ذهب، و ارتفاع مكر على هذه القراءات على أنه مبتدأ و خبره محذوف، أى: مكر الليل و النهار صدّنا، أو على أنه فاعل لفعل محذوف: أى صدّنا مكر الليل و النهار، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف كما تقدّم عن الأخفش. و قرأ طلحة بن راشد كما قرأ سعيد بن جبير، و لكنه نصب مكر على المصدرية، أى: بل تكرّرن الإغواء مكرّا دائما لا تفترون عنه، و انتصاب إِذْ تَأْمُرُونَنا على أنه ظرف للمكر، أى: بل مكركم بنا وقت أمركم لنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً أى: أشباها و أمثالا. قال المبرد يقال ندّ فلان فلان: أى مثله و أنشد:

أ تيما تجعلون إلىّ ندّاو ما تيم لذى حسب نديد

و الضمير فى قوله: وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ راجع إلى الفريقين، أى: أضمر الفريقان الندامة على ما فعلوا من الكفر و أخفوها عن غيرهم، أو أخفاها كلّ منهم عن الآخر مخافة الشماتة. و قيل:

المراد بأسرّوا هنا أظهروا لأنه من الأضداد يكون تارة بمعنى الإخفاء، و تارة بمعنى الإظهار، و منه قول امرئ القيس:

تجاوزت أحراسا و أهوال معشرعلىّ حراصا لو يسرّون مقتلى

و قيل معنى: أسروا الندامة: تبينت الندامة فى أسرة وجوههم وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا الأغلال جمع غلّ، يقال فى رقبته غلّ من حديد، أى: جعلت الأغلال من الحديد فى أعناق هؤلاء

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۷۸

فى النار، و المراد بالذين كفروا: هم المذكورون سابقا، و الإظهار لمزيد الذمّ، أو للكفار على العموم فيدخل هؤلاء فيهم دخولا أوّليا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى: إلا جزاء ما كانوا يعملونه من الشرك باللّه، أو إلا بما كانوا يعملون على حذف الخافض.

و قد أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ قال: إلى الناس جميعا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: أرسل اللّه محمّدا إلى العرب و العجم، فأكرمهم على اللّه أطوعهم له. و أخرج هؤلاء عنه فى قوله: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ قال: هذا قول مشركى العرب كفروا بالقرآن و بالذى بين يديه من الكتب و الأنبياء.

[سورة سبإ (۳۴): الآيات ۳۴ الى ۴۲]

وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۳۴) وَ قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۳۵) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۳۶) وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (۳۷) وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (۳۸)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۳۹) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (۴۰) قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (۴۱) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (۴۲)

لما قصّ سبحانه حال من تقدّم من الكفار أتبعه بما فيه التسلية لرسوله، و بيان أن كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمرّ في الأعصر الأوّل فقال: وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ من القرى مِنْ نَذِيرٍ ينذرهم و يحذرهم عقاب اللّه إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها أي: رؤساؤها و أغنياؤها و جبابرتها و قادة الشرّ لرسلهم إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ أي: بما أرسلتم به من التوحيد و الإيمان، و جملة إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها في محل نصب على الحال. ثم ذكر ما افتخروا به من الأموال و الأولاد و قاسوا حالهم في الدار الآخرة على حالهم في هذه الدار على تقدير صحة ما أنذرهم به الرسل فقال: وَ قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ و المعنى: أنّ اللّه فضلنا عليكم بالأموال و الأولاد في الدنيا، و ذلك يدل على أنه قد رضي ما نحن عليه من الدين، و ما نحن بمعذبين في الآخرة بعد إحسانه إلينا في الدنيا، و رضاه عنا، فأمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم بأن يجيب عنهم و قال: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ أن يبسطه له وَ يَقْدِرُ أي: يضيق على من يشاء أن يضيقه عليه، فهو سبحانه قد يرزق الكافر و العاصي استدراجا له، و قد يمتحن المؤمن بالتقتير توفيرا لأجره، و ليس مجرّد بسط الرزق لمن له يدل على أنه قد رضي عنه و رضي عمله، و لا قبضه عنه يدل على أنه لم يرضه، و لا رضي عمله، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مثل هذا من الغلط البين أو المغالطة لواضحة وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ هذا، و من جملة هؤلاء الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى،

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۷۹

ثم زاد هذا الجواب تأييدا و تأكيدا وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى أي: ليسوا بالخصلة التي تقرّبكم عندنا قربى. قال مجاهد: الزلفى: القربى، و الزلفة: القربة. قال الأخفش: زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتي تقربكم عندنا تقريبا فتكون زلفى منصوبة المحلّ. قال الفرّاء: إن التي تكون للأموال و الأولاد جميعا. و قال الزجاج: إن المعنى و ما أموالكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى، و لا أولادكم بالشيء يقرّبكم عندنا زلفى، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه و أنشد:

نحن بما عندنا و أنت بماعندك راض و الرّأي مختلف

و يجوز في غير القرآن باللتين و باللاتي و باللواتي و بالذي للأولاد خاصة؛ أي: لا تزيدكم الأموال عندنا درجة و رفعة و لا تقربكم تقريبا إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً هو استثناء منقطع فيكون محله النصب، أي: لكن من آمن و عمل صالحا، أو في محل جرّ بدلا من الضمير في تقرّبكم، كذا قال الزجاج. قال النحاس: و هذا القول غلط، لأن الكاف و الميم للمخاطب فلا يجوز البدل و لو جاز هذا لجاز رأيتك زيدا. و يجاب عنه بأن الأخفش و الكوفيين يجوّزون ذلك، و قد قال بمثل قول الزجاج الفراء و أجاز الفراء أن يكون في موضع رفع بمعنى ما هو إلا من آمن، و الإشارة بقوله: فَأُولئِكَ إلى من، و الجمع باعتبار معناها و هو مبتدأ و

خبره لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ أی: جزاء الزيادة، و هی المرادة بقوله: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها «١».

و هو من إضافة المصدر إلى المفعول، أی: جزاء التضعيف للحسنات، و قيل: لهم جزاء الإضعاف لأن الضعف فی معنى الجمع، و الباء فی بِما عَمِلُوا للسببية وَ هُمْ فِی الْغُرُفاتِ آمِنُونَ من جميع ما يكرهون، و المراد غرفات الجنة، قرأ الجمهور جَزاءُ الضِّعْفِ بالإضافة، و قرأ الزهری و يعقوب و نصر بن عاصم و قتادة برفعهما على أن الضعف بدل من جزاء. و روى عن يعقوب أنه قرأ «جزاء» بالنصب منوّنا، و «الضعف» بالرفع على تقدير: فأولئك لهم الضعف جزاء، أی: حال كونه جزاء. و قرأ الجمهور فِی الْغُرُفاتِ بالجمع، و اختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً «٢» و قرأ الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و خلف «فی الغرفة» بالإفراد لقوله: أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ «٣» و لما ذكر سبحانه حال المؤمنين ذكر حال الكافرين فقال: وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِی آياتِنا بالرد لها و الطعن فيها حال كونهم مُعاجِزِينَ مسابقين لنا زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم، أو معاندين لنا بكفرهم أُولئِكَ فِی الْعَذابِ مُحْضَرُونَ أی: فی عذاب جهنم تحضرهم الزبانية إليها لا يجدون عنها محيصا. ثم كرّر سبحانه ما تقدّم لقصد التأكيد للحجة، و الدفع لما قاله الكفرة فقال: قُلْ إِنَّ رَبِّی يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ أی: يوسعه لمن يشاء، و يضيقه على من يشاء، و ليس فی ذلك دلالة على سعادة و لا شقاوة وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ أی يخلفه عليكم، يقال أخلف له و أخلف عليه: إذا أعطاه عوضه و بدله، و ذلك البدل إما فی الدنيا و إما فی الآخرة وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فإن رزق العباد لبعضهم البعض إنما هو بتيسير اللّه و تقديره، و ليسوا برازقين على الحقيقة بل على طريق المجاز، كما يقال فی الرجل إنه يرزق عياله،

---

(١). الأنعام: ١٦٠.

(٢). العنكبوت: ٥٨.

(٣). الفرقان: ٧٥.

و فی الأمير إنه يرزق جنده، و الرزاق للأمير و المأمور و الكبير و الصغير هو الخالق لهم، و من أخرج من العباد إلى غيره شيئا مما رزقه اللّه فهو إنما تصرّف فی رزق اللّه فاستحق بما خرج من الثواب عليه المضاعف لامتثاله لأمر اللّه و إنفاقه فيما أمره اللّه وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً الظرف منصوب بفعل مقدّر نحو اذكر، أو هو متصل بقول: وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ أی: و لو تراهم أيضا يوم نحشرهم جميعا للحساب؛ العابد و المعبود، و المستكبر و المستضعف، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ تقريعا للمشركين و توبيخا لمن عبد غير اللّه عزّ و جلّ كما فی قوله لعيسى: أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ «١» و إنما خصص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين و الأصنام لأنهم أشرف معبودات المشركين. قال النحاس: و المعنى أن الملائكة إذا أكذبتهم كان فی ذلك تبكيت للمشركين، و جملة: قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أی: تنزيها لك أنت الذی نتولاه و نطيعه و نعبده من دونهم، ما اتخذناهم عابدين و لا توليناهم و ليس لنا غيرك وليا، ثم صرّحوا بما كان المشركون يعبدونه فقالوا: بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَ أی: الشياطين و هم إبليس و جنوده، و يزعمون أنهم يرونهم، و أنهم ملائكة، و أنهم بنات اللّه، و قيل: كانوا يدخلون أجواف الأصنام و يخاطبونهم منها أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ أی: أكثر المشركين بالجنّ مؤمنون بهم مصدّقون لهم، قيل: و الأكثر فی معنى الكلّ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا يعنی العابدين و المعبودين لا يملك بعضهم و هم المعبودون لبعض، و هم العابدون نَفْعاً أی: شفاعة و نجاة وَ لا ضَرًّا أی: عذابا و هلاكا، إنما قيل لهم هذا القول إظهارا لعجزهم و قصورهم و تبكيتا لعابديهم، و قوله: وَ لا ضَرًّا هو على حذف

مضـاف، أی: لا یملکون لهم دفع ضـرّ، و قوله: وَ نَقُولُ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا عطف علی قوله: یَقُولُ لِلْمَلائِکَةِ أی: للـذین ظلموا أنفسـهم بعبادهٔ غیر اللّه ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِی کُنْتُمْ بِها تُکَذِّبُونَ فی الدنیا.

و قـد أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن أبی رزین قال: کان رجلان شـریکین، خرج أحدهما إلی الساحل و بقی الآخر، فلما بعث اللّه النبیّ صـلّی اللّه علیه و سـلم کتب إلی صـاحبه یسأله ما فعل؟ فکتب إلیه أنه لم یتبعه أحـد من قریش إلا رذالـهٔ الناس و مسـاکینهم، فترک تجـارته ثم أتی صـاحبه فقـال: دلنی علیه، و کـان یقرأ الکتب، فأتی النبیّ صـلّی اللّه علیه و سـلم فقال: إلی ما تدعو؟ قال: إلی کذا و کذا، قال: أشهد أنک رسول اللّه، قال: و ما علمک بذلک؟

قال: إنه لم یبعث نبیّ إلا اتبعه رذالـهٔ الناس و مساکینهم، فنزلت هذه الآیات وَ ما أَرْسَـلْنا فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها الآیات، فأرسل إلیه النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم إن اللّه قد أنزل تصدیق ما قلت. و أخرج عبد بن حمید، و ابن المنذر عن مجاهد فی قوله: جَزاءُ الضِّعْفِ قال: تضعیف الحسـنهٔ. و أخرج الحکیم الترمـذی فی نوادر الأصول، و ابن المنـذر، و ابن أبی حاتم عن محمّـد بن کعب قال: إذا کان الرجل غنیا تقیا آتاه اللّه أجره مرتین، و تلا هذه الآیهٔ: وَ ما أَمْوالُکُمْ وَ لا أَوْلادُکُمْ إلی قوله: فَأُولئِکَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ قال: تضعیف

---

(۱). المائدهٔ:.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۳۸۱

الحسـنهٔ. و أخرج سـعید بن منصور، و البخـاری فی الأدب المفرد، و ابن المنـذر، و ابن أبی حاتم، و البیهقی فی الشـعب عن ابن عبـاس فی قوله: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ قال: فی غیر إسـراف و لا تقتیر، و عن مجاهـد مثله، و عن الحسن مثله، و أخرج الدارقطنی، و البیهقی فی الشـعب عن جابر عن النبیّ صـلّی اللّه علیه و سـلم قال: «کلّما أنفق العبد من نفقهٔ فعلی اللّه خلفها ضامنا إلا نفقـهٔ فی بنیان أو معصـیهٔ». و أخرج نحوه ابن عـدی فی الکامل، و البیهقی من وجه آخر عنه مرفوعا بأطول منه. و قد ثبت فی الصـحیح من حدیث أبی هریرهٔ أن رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سلم قال: «قال اللّه عزّ و جلّ أنفق یا ابن آدم أنفق علیک» و ثبت فی الصـحیح من حـدیثه أیضا قال: قال رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلم: «ما من یوم یصـبح العباد فیه إلا و ملکان ینزلان؛ فیقول أحـدهما: اللّهمّ أعـط منفقـا خلفـا، و یقول الآخر: اللّهمّ أعـط ممسـکا تلفا». و أخرج ابن مردویه عن علیّ بن أبی طالب سـمعت رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلم یقول: «إنّ لکـلّ یوم نحسـا، فادفعوا نحس ذلک الیوم بالصّدقـهٔ» ثم قال: اقرءوا مواضع الخلف، فانی سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم یقول: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ إذا لم تنفقوا کیف یخلف.

و أخرج الحکیم الترمذی فی نوادر الأصول عن أبی هریرهٔ عن رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سلم قال: «إنّ المعونهٔ تنزل من السّماء علی قدر المؤونهٔ».

[سورهٔ سبإ (۳۴): الآیات ۴۳ الی ۵۰]

وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا بَیِّناتٍ قالُوا ما هـذا إِلَّا رَجُلٌ یُرِیـدُ أَنْ یَصُدَّکُمْ عَمَّا کانَ یَعْبُدُ آباؤُکُمْ وَ قالُوا ما هذا إِلَّا إِفْکٌ مُفْتَریً وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هـذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِینٌ (۴۳) وَ مـا آتَیْناهُمْ مِنْ کُتُبٍ یَدْرُسُونَها وَ ما أَرْسَـلْنا إِلَیْهِمْ قَبْلَکَ مِنْ نَـذِیرٍ (۴۴) وَ کَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ مـا آتَیْناهُمْ فَکَذَّبُوا رُسُلِی فَکَیْفَ کانَ نَکِیرِ (۴۵) قُلْ إِنَّما أَعِظُکُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنی وَ فُرادی ثُمَّ تَتَفَکَّرُوا ما بِصاحِبِکُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَـذِیرٌ لَکُمْ بَیْنَ یَدَیْ عَـذابٍ شَدِیـدٍ (۴۶) قُلْ ما سَأَلْتُکُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکُمْ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلَی اللَّهِ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (۴۷)

قُلْ إِنَّ رَبِّی یَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُیُوبِ (۴۸) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ ما یُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما یُعِیدُ (۴۹) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلی نَفْسِی وَ إِنِ اهْتَدَیْتُ فَبِما یُوحِی إِلَیَّ رَبِّی إِنَّهُ سَمِیعٌ قَرِیبٌ (۵۰)

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أنواع كفرهم، فقال: وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا أی: الآیات القرآنیة حال كونها بَیِّناتٍ واضحات الدلالات ظاهرات المعانی قالُوا ما هذا یعنون التالی لها، و هو النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم إِلَّا رَجُلٌ یُرِیدُ أَنْ یَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ یَعْبُدُ آباؤُكُمْ أی: أسلافكم من الأصنام التی كانوا یعبدونها وَ قالُوا ثانیا ما هذا یعنون القرآن الكریم إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَریً أی: كذب مختلق وَ قالَ الَّذِینَ كَفَرُوا ثالثا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ أی: لأمر الدین الذی جاءهم به رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِینٌ و هذا الإنكار منهم خاص بالتوحید، و أما إنكار القرآن و المعجزة فكان متفقا علیه بین أهل الكتاب و المشركین، و قیل: أرید بالأوّل، و هو قولهم: إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَریً معناه، و بالثانی: و هو قولهم إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِینٌ نظمه المعجز. و قیل: إن طائفة منهم قالوا: إنه إفك، و طائفة قالوا: إنه سحر، و قیل:

فتح القدیر، ج۴، ص: ۳۸۲

إنهم جمیعا قالوا تارة إنه إفك، و تارة إنه سحر، و الأوّل أولی وَ ما آتَیْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ یَدْرُسُونَها أی:

ما أنزلنا علی العرب كتبا سماویة یدرسون فیها وَ ما أَرْسَلْنا إِلَیْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِیرٍ یدعوهم إلی الحقّ و ینذرهم بالعذاب، فلیس لتكذیبهم بالقرآن و بالرسول وجه، و لا شبه یتشبثون بها. قال قتادة: ما أنزل اللّه علی العرب كتابا قبل القرآن، و لا بعث إلیهم نبیا قبل محمّد صلّی اللّه علیه و سلم. قال الفرّاء: أی من أین كذبوك، و لم یأتهم كتاب و لا نذیر بهذا الذی فعلوه؟ ثم خوّفهم سبحانه و أخبر عن عاقبتهم، و عاقبة من كان قبلهم فقال: وَ كَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ من القرون الخالیة وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَیْناهُمْ أی: ما بلغ أهل مكة من مشركی قریش و غیرهم من العرب عشر ما آتینا من قبلهم من القوّة، و كثرة المال، و طول العمر فأهلكهم اللّه، كعاد و ثمود و أمثالهم. و المعشار: هو العشر. قال الجوهری: معشار الشیء عشره. و قیل المعشار: عشر العشر، و الأوّل أولی. و قیل إن المعنی: ما بلغ من قبلهم معشار ما آتینا هؤلاء من البیّنات و الهدی. و قیل ما بلغ من قبلهم معشار شكر ما أعطیناهم، و قیل: ما أعطی اللّه من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم و البیان و الحجة و البرهان، و الأوّل أولی. و قیل: المعشار عشر العشیر، و العشیر عشر العشر، فیكون جزءا من ألف جزء.

قال الماوردی: و هو الأظهر لأن المراد به المبالغة فی التقلیل. قلت: مراعاة المبالغة فی القلیل لا یسوغ لأجلها الخروج عن المعنی العربی، و قوله: فَكَذَّبُوا رُسُلِی عطف علی كَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ علی طریقة التفسیر، كقوله: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا «۱» الآیة، و الأولی أن یكون من عطف الخاص علی العام، لأن التكذیب الأول لما حذف منه المتعلق للتكذیب أفاد العموم، فمعناه: كذبوا الكتب المنزلة، و الرسل المرسلة، و المعجزات الواضحة، و تكذیب الرسل أخص منه، و إن كان مستلزما فقد روعیت الدلالة اللفظیة لا الدلالة الالتزامیة فَكَیْفَ كانَ نَكِیرِ أی: فكیف كان إنكاری لهم بالعذاب و العقوبة، فلیحذر هؤلاء من مثل ذلك، قیل: و فی الكلام حذف، و التقدیر: فأهلكناهم فكیف كان نكیر، و النكیر اسم بمعنی الإنكار. ثم أمر سبحانه رسوله أن یقیم علیهم حجة ینقطعون عندها فقال: قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أی: أحذركم و أنذركم سوء عاقبة ما أنتم فیه، و أوصیكم بخصلة واحدة، و هی: أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنی وَ فُرادی هذا تفسیر للخصلة الواحدة، أو بدل منها، أی: هی قیامكم و تشمیركم فی طلب الحقّ بالفكرة الصادقة متفرقین اثنین اثنین، و واحدا واحدا، لأن الاجتماع یشوّش الفكر، و لیس المراد القیام علی الرجلین، بل المراد القیام بطلب الحقّ و إصداق الفكر فیه، كما یقال قام فلان بأمر كذا ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا فی أمر النبی و ما جاء به من الكتاب، فإنكم عند ذلك تعلمون أن ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ و ذلك لأنهم كانوا یقولون:

إن محمّدا مجنون، فقال اللّه سبحانه قل لهم اعتبروا أمری بواحدة، و هی أن تقوموا للّه، و فی ذاته مجتمعین، فیقول الرجل

لصاحبه: هلمّ فلنتصادق، هل رأينا بهـذا الرجل من جنـة، أى: جنون أو جرّبنا عليه كـذبا، ثم ينفرد كلّ واحد عن صاحبه فيتفكر و ينظر، فإن فى ذلك ما يدل على أن محمّدا صلّى اللّه عليه و سلم صادق و أنه رسول من عند اللّه، و أنه ليس بكاذب و لا ساحر و لا مجنون، و هو معنى قوله: إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذابٍ شَدِيدٍ

---

(١). القمر: ٩.

فتح القدير، ج۴، ص: ٣٨٣

أى: ما هو إلا نـذير لكم بين يدى الساعة، و قيل إن جملة: ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ مستأنفة من جهة اللّه سبحانه مسوقة للتنبيه على طريقـة النظر، و التأمـل بـأن هـذا الأمر العظيم و الـدعوى، لا يعرّض نفسه له إلا مجنون لا يبالى بما يقال فيه، و ما ينسب إليه من الكذب، و قد علموا أنه أرجح الناس عقلا، فوجب أن يصدّقوه فى دعواه، لا سيما مع انضمام المعجزة الواضحة و إجماعهم على أنه لم يكن ممن يفترى الكـذب، و لا قـد جرّبوا عليه كـذبا مـدّة عمره و عمرهم. و قيـل: يجوز أن تكون مـا فى مـا بِصـاحِبِكُمْ استفهامية، أى: ثم تتفكروا أىّ شـىء به من آثـار الجنون، و قيـل المراد بقوله: إِنَّمـا أَعِظُكُمْ بِواحِـدَةٍ هى: لا إله إلّا اللّه كـذا قال مجاهد و السدّى. و قيل: القرآن؛ لأنه يجمع المواعظ كلها، و الأولى ما ذكرناه أوّلا. و قال الزجاج: إن أَنْ فى قوله: أَنْ تَقُومُوا فى موضع نصب بمعنى لأن تقوموا.

و قال السدّى: معنى مثنى و فرادى: منفردا برأيه، و مشاورا لغيره. و قال القتبى مناظرا مع عشيرته، و مفكرا فى نفسه. و قيل المثنى: عمـل النهـار، و الفرادى: عمـل الليل، قاله الماوردى. و ما أبرد هـذا القول و أقلّ جـدواه. و اختار أبو حاتم و ابن الأنبارى الوقف على قوله: ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا و على هـذا تكون جملـة: مـا بِصـاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ مستأنفة كمـا قـدّمنا، و قيل: ليس بوقف، لأن المعنى: ثم تتفكروا هـل جربتم عليه كـذبا، أو رأيتم منه جنـة، أو فى أحواله من فسـاد. ثم أمر سبحانه أن يخبرهم أنه لم يكن له غرض فى الدنيا، و لا رغبة فيها حتى تنقطع عندهم الشكوك، و يرتفع الريب فقال: قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ أى: ما طلبت منكم من جعل تجعلونه لى مقابل الرسالة فهو لكم إن سألتكموه، و المراد نفى السؤال بالكلية، كما يقول القائل:

ما أملكه فى هـذا فقـد و هبته لك، يريـد أنه لا ملك له فيه أصـلا، و مثل هذه الآية قوله: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى «١» و قوله: ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا «٢».

ثم بين لهم أن أجره عنـد اللّه سبحانه فقـال: إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ أى: مـا أجرى إلا على اللّه لا على غيره وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ أى: مطلع لا يغيب عنه منه شـىء قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِ القذف: الرمى بالسهم، و الحصى، و الكلام. قال الكلبى: يرمى على معنى يـأتى به، و قـال مقاتـل: يتكلم بـالحق و هو القرآن و الوحى، أى: يلقيه إلى أنبيـائه. و قـال قتادة بِالْحَقِ أى: بالوحى، و المعنى: أنه يبين الحجة، و يظهرها للناس على ألسن رسله، و قيل: يرمى الباطل بالحق فيدمغه عَلَّامُ الْغُيُوبِ قرأ الجمهور برفع عَلَّامُ على أنه خبر ثان لأنّ، أو خبر مبتـدأ محـذوف، أو بدل من الضـمير فى يقذف، أو معطوف على محل اسم إن. قال الزجاج: الرفع من وجهين على الموضع، لأن الموضع موضع رفع، أو على البدل. و قرأ زيد بن على و عيسـى بن عمرو بن أبى إسحاق بالنصب نعتـا لاسم إنّ؛ أو بـدلا منه، أو على المـدح. قال الفراء: و الرفع فى مثل هـذا أكثر كقوله: إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ «٣»، و قرئ الغيوب بالحركات الثلاث فى الغين، و هو جمع غيب، و الغيب هو الأمر الذى غاب و خفى جدّا قُلْ جاءَ الْحَقُ

---

(١). الشورى: ٢٣.

(٢). الفرقان: ٥٧.

(٣). ص: ۶۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۸۴

أى: الإسلام و التوحيد. و قال قتادة: القرآن. و قال النحاس: التقدير صاحب الحقّ، أى: الكتاب الذى فيه البراهين و الحجج. و أقول: لا وجه لتقدير المضاف، فإن القرآن قد جاء كما جاء صاحبه وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ أى: ذهب الباطل ذهابا لم يبق منه إقبال و لا إدبار و لا إبداء و لا إعادة. قال قتادة: الباطل هو الشيطان؛ أى: ما يخلق الشيطان ابتداء و لا يبعث، و به قال مقاتل و الكلبى. و قيل: يجوز أن تكون ما استفهامية، أى: أىّ شىء يبديه، و أىّ شىء يعيده؟ و الأوّل أولى قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ عن الطريق الحقة الواضحة فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي أى: إثم ضلالتى يكون على نفسى، و ذلك أن الكفار قالوا له تركت دين آبائك فضللت، فأمره اللّه أن يقول لهم هذا القول: وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي من الحكمة و الموعظة و البيان بالقرآن إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ منى و منكم يعلم الهدى و الضلالة، قرأ الجمهور «ضللت» بفتح اللام، و قرأ الحسن و يحيى بن وثاب بكسر اللام، و هى لغة أهل العالية.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ يقول: من القوّة فى الدنيا. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن محمّد بن كعب القرظى فى الآية «١» قال: يقوم الرجل مع الرجل أو وحده فيفكر ما بصاحبه من جنة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ يقول: إنه ليس بمجنون. و أخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله: ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أى: من جعل فهو لكم، يقول: لم أسألكم على الإسلام جعلا، و فى قوله: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِ قال: بالوحى، و فى قوله: وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ قال: الشيطان لا يبدئ و لا يعيد إذا هلك. و أخرج هؤلاء أيضا عنه فى قوله: وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ قال: ما يخلق إبليس شيئا و لا يبعثه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن عمر بن سعد فى قوله: إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي قال: إنما أؤخذ بجنايتى.

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ٥١ الى ٥۴]

وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥۴)

ثم ذكر سبحانه حالا من أحوال الكفار فقال: وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، أو لكل من يصلح له، قيل المراد فزعهم عند نزول الموت بهم. و قال الحسن: هو فزعهم فى القبور من الصيحة، و قال قتادة: هو فزعهم إذا خرجوا من قبورهم. و قال السدّى: هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فرارا و لا رجوعا إلى التوبة. و قال ابن مغفل: هو فزعهم إذا عاينوا

---

(١). أى: قوله تعالى: قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَ فُرادى ....

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۸۵

عقاب اللّه يوم القيامة. و قال سعيد بن جبير: هو الخسف الذى يخسف بهم فى البيداء، فيبقى رجل منهم، فيخبر الناس بما لقى أصحابه فيفزعون. و جواب لو محذوف، أى: لرأيت أمرا هائلا، و معنى فَلا فَوْتَ فلا يفوتنى أحد منهم و لا ينجو منهم ناج. قال

مجاهـد: فلاـ مهرب وَ أَخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ من ظهر الأرض أو من القبور، أو من موقف الحساب. و قيل: من حيث كانوا، فهم من اللّه قريب لا يبعـدون عنه و لا يفوتونه. قيل: و يجوز أن يكون هـذا الفزع هو الفزع الذى بمعنى الإجابة، يقال فزع الرجل: إذا أجاب الصارخ الذى يستغيث به كفزعهم إلى الحرب يوم بدر وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ أى: بمحمّد، قاله قتادة، أو بالقرآن.

و قـال مجاهـد: بـاللّه عزّ و جـلّ. و قـال الحسن: بـالبعث وَ أَنَّى لَهُمُ التَّنـاوُشُ التنـاوش التنـاول، و هو تفاعل من التناوش الـذى هو التناول، و المعنى: كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعـد، يعنى فى الآخرة و قـد تركوه فى الدنيا، و هو معنى مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ و هو تمثيـل لحـالهم فى طلب الخلاص بعـد ما فات عنهم. قال ابن السـكيت: يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخـذ برأسه أو بلحيته ناشـه ينوشه نوشا، و أنشد:

فهى تنوش الحوض نوشا من علانوشا به تقطع أجواز الفلا «١»

أى: تناول ماء الحوض من فوق، و منه المناوشـة فى القتال، و قيل التناوش: الرجعـة، أى: و أنى لهم الرجعـة إلى الـدنيا ليؤمنوا، و منه قول الشاعر:

تمنّى أن تؤوب إلىّ مىّو ليس إلى تناوشها سبيل

و جملـة وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ فى محـل نصب على الحـال، أى: و الحال أن قـد كفروا بما آمنوا به الآن من قبل هـذا الوقت، و ذلـك حـال كونهم فى الـدنيا. قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الكسائى و الأعمش «التناؤش» بالهمز، و قرأ الباقون بالواو، و اسـتبعد أبو عبيد و النحاس القراءة الأولى، و لا وجه للاستبعاد، فقد ثبت ذلك فى لغة العرب و أشعارها، و منه قول الشاعر:

قعدت زمانا عن طلابك للعلاو جئت نئيشا بعد ما فاتك الخيرا «٢»

أى: و جئت أخيرا. قـال الفراء: الهمز و ترك الهمز متقـارب وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ أى: يرمون بالظنّ فيقولون: لا بعث و لا نشور و لا جنـة و لا نار مِنْ مَكانٍ بَعِيـدٍ أى من جهة بعيدة ليس فيها مسـتند لظنهم الباطل. و قيل المعنى: يقولون فى القرآن أقوالا باطلة: إنه سحر و شـعر و أساطير الأوّلين. و قيل يقولون فى محمّـد إنه ساحر شاعر كاهن مجنون. و قرأ أبو حيوة، و مجاهـد، و محبوب عن أبى عمرو «يقـذفون» مبنيا للمفعول: أى يرجمون بما يسوؤهم من جراء أعمالهم من حيث لا يحتسـبون، و فيه تمثيل لحالهم بحال من يرمى شـيئا لا يراه من مكان بعيـد لا مجال للوهم فى لحوقه، و الجملة إما معطوفة على: و قد كفروا به على أنها حكاية للحال الماضية و استحضار لصورتها، أو مستأنفة لبيان تمثيل حالهم وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ من

---

(١). البيت لغيلان بن حريث.

(٢). فى القرطبى (١٤/ ٣١٧): الخبر.

النجاة من العـذاب و منعوا من ذلك، و قيل: حيل بينهم و بين ما يشـتهون فى الـدنيا من أموالهم و أهليهم، أو حيل بينهم و بين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ أى: بأمثالهم و نظرائهم من كفار الأمم الماضية، و الأشياع جمع شيع، و شيع جمع شـيعة، و جملـة: إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ تعليل لما قبلها، أى: فى شك موقع فى الريبـة أو ذى ريبة من أمر الرسل و البعث و الجنـة و النار، أو فى التوحيد و ما جاءتهم به الرسل من الدين، يقال أراب الرجل: إذا صار ذا ريبة فهو مريب، و قيل: هو من الريب الذى هو الشكّ، فهو كما يقال: عجب عجيب و شعر شاعر.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَلا فَوْتَ قال: فلا نجاة: و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ قال: هو جيش السـفيانى، قيل من أين أخذوا؟ قال: من تحت أقدامهم. و قد ثبت فى

الصحيح أنه يخسف بجيش فى البيداء من حديث حفصة و عائشة، و خارج الصحيح من حديث أمّ سلمة و صفية و أبى هريرة و ابن مسعود، و ليس فى شىء منها أن ذلك سبب نزول هذه الآية، و لكنه أخرج ابن جرير من حديث حذيفة بن اليمان قصة الخسف هذه مرفوعة، و قال فى آخرها: فذلك قوله عزّ و جلّ فى سورة سبأ وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ الآية.

و أخرج الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ قال: كيف لهم الرّد مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ قال: يسألون الردّ، و ليس بحين ردّ. و أخرج ابن المنذر عن التيمى قال: أتيت ابن عباس قلت: ما التناوش؟ قال: تناول الشىء و ليس بحين ذاك.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۸۷

سورة فاطر

اشارة

و هى مكية: قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج البخارى، و ابن الضريس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة فاطر بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱ الى ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱) ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَ ما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲) يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۳) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴)

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۵) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (۶) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۷) أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (۸)

الفطر: الشقّ عن الشىء، يقال فطرته فانفطر، و منه فطر ناب البعير: إذا طلع، فهو بعير فاطر، و تفطر الشىء تشقق، و الفطر: الابتداء و الاختراع، و هو المراد هنا، و المعنى الْحَمْدُ لِلَّهِ مبدع السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و مخترعهما، و المقصود من هذا أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم فهو قادر على الإعادة.

قرأ الجمهور «فاطر» على صيغة اسم الفاعل، و قرأ الزهرى و الضحاك «فطر» على صيغة الفعل الماضى، فعلى القراءة الأولى هو نعت للّه لأن إضافته محضة لكونه بمعنى الماضى، و إن كانت غير محضة كان بدلا، و مثله جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا يجوز فيه الوجهان، و انتصاب رسلا بفعل مضمر على الوجه الأوّل، لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضى لا يعمل، و جوّز الكسائى عمله. و أما على الوجه الثانى فهو منصوب بجاعل، و الرسل من الملائكة: هم جبريل و ميكائيل و إسرافيل و عزرائيل. و قرأ

الحسن «جاعل» بالرفع، و قرأ خليل ابن نشيط و يحيى بن يعمر «جعل» على صيغة الماضى. و قرأ الحسن و حميد «رسلا» بسكون السين، و هى لغة تميم أُولِي أَجْنِحَةٍ صفة لرسلا، و الأجنحة: جمع جناح مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ صفة لأجنحة، و قد تقدم الكلام فى مثنى و ثلاث و رباع فى النساء. قال قتادة: بعضهم له جناحان، و بعضهم ثلاثة، و بعضهم أربعة، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، و يعرجون بها من الأرض إلى السماء. قال يحيى بن سلام: يرسلهم اللّه إلى الأنبياء. و قال السدّى: إلى العباد بنعمه أو نقمه، و جملة: يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ مستأنفة

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۸۸

مقرّرة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة، و المعنى: أنه يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء، و هو قول أكثر المفسرين، و اختاره الفراء و الزجاج. و قيل: إن هذه الزيادة فى الخلق غير خاصة بالملائكة، فقال الزهرى و ابن جريج: إنها حسن الصوت. و قال قتادة: الملاحة فى العينين، و الحسن فى الأنف، و الحلاوة فى الفم، و قيل: الوجه الحسن، و قيل: الخط الحسن، و قيل: الشعر الجعد، و قيل: العقل و التمييز، و قيل: العلوم و الصنائع، و لا وجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كلّ زيادة، و جملة إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تعليل لما قبلها من أنه يزيد فى الخلق ما يشاء ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها أى: ما يأتيهم اللّه به من مطر و رزق لا يقدر أحد أن يمسكه وَ ما يُمْسِكْ من ذلك لا يقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه، و قيل المعنى: إن الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير اللّه، و قيل: هو الدعاء، و قيل: التوبة، و قيل: التوفيق و الهداية. و لا وجه لهذا التخصيص، بل المعنى: كل ما يفتحه اللّه للناس من خزائن رحمته فيشمل كلّ نعمة ينعم اللّه بها على خلقه، و هكذا الإمساك يتناول كلّ شىء يمنعه اللّه من نعمه، فهو سبحانه المعطى المانع القابض الباسط لا معطى سواه و لا منعم غيره. ثم أمر اللّه سبحانه عباده أن يتذكروا نعمه الفائضة عليهم التى لا تعدّ و لا تحصى وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها و معنى هذا الأمر لهم بالذكر هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها و طلب المزيد منها هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ من: زائدة و خالق: مبتدأ، و غير اللّه:

صفة له. قال الزجاج: و رفع غير على معنى هل خالق غير اللّه، لأن «من» زيادة مؤكدة، و من خفض غير جعلها صفة على اللفظ. قرأ الجمهور برفع «غير» و قرأ حمزة و الكسائى بخفضها، و قرأ الفضل بن إبراهيم بنصبها على الاستثناء، و جملة: يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ خبر المبتدأ، أو جملة مستأنفة، أو صفة أخرى لخالق، و خبره محذوف، و الرزق من السماء: بالمطر، و من الأرض: بالنبات و غير ذلك، و جملة:

لا إِلهَ إِلَّا هُوَ مستأنفة لتقرير النفى المستفاد من الاستفهام فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ من الأفك بالفتح: و هو الصرف، يقال: ما أفكك عن كذا؟ أى: ما صرفك، أى: فكيف تصرفون، و قيل: هو مأخوذ من الإفك بالكسر، و هو الكذب لأنه مصروف عن الصدق. قال الزجاج: أى من أين يقع لكم الإفك و التكذيب بتوحيد اللّه و البعث، و أنتم مقرّون بأن اللّه خلقكم و رزقكم. ثم عزّى اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ليتأسى بمن قبله من الأنبياء و يتسلى عن تكذيب كفار العرب له وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ لا إلى غيره فيجازى كلا بما يستحقه. قرأ الحسن، و الأعرج، و يعقوب، و ابن عامر، و أبو حيوة، و ابن محيصن، و حميد، و الأعمش، و يحيى بن وثاب، و حمزة، و الكسائى، و خلف «ترجع» بفتح الفوقية على البناء للفاعل، و قرأ الباقون بضمها على البناء للمفعول يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: وعده بالبعث، و النشور، و الحساب، و العقاب، و الجنة، و النار، كما أشير إليه بقوله: وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا بزخرفها و نعيمها. قال سعيد بن جبير: غرور الحياة الدنيا ترجع الأمور فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا بزخرفها و نعيمها. قال سعيد بن جبير: غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها و لذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول: يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي «۱» وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ

---

(۱). الفجر: ۲۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۸۹

قرأ الجمهور بفتح الغين، أى: المبالغ فى الغرور، و هو الشيطان. قال ابن السكيت و أبو حاتم:

الغرور الشيطان و يجوز أن يكون مصدرا، و استبعده الزجاج، لأن غرر به متعد، و مصدر المتعدى إنما هو على فعل نحو ضربته ضربا، إلا فى أشياء يسيرة معروفة لا يقاس عليها، و معنى الآية: لا يغرنكم الشيطان باللّه فيقول لكم: إن اللّه يتجاوز عنكم، و يغفر لكم لفضلكم، أو لسعة رحمته لكم. و قرأ أبو حيوة، و أبو سماك، و محمّد بن السميقع بضم الغين، و هو الباطل. قال ابن السكيت: و الغرور بالضم: ما يغرّ من متاع الدنيا. و قال الزجاج: يجوز أن يكون الغرور جمع غار، مثل قاعد و قعود، قيل: و يجوز أن يكون مصدر غرّة كاللزوم و النهوك، و فيه ما تقدّم عن الزجاج من الاستبعاد. ثم حذر سبحانه عباده من الشيطان فقال:

إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا أى: فعادوه بطاعة اللّه، و لا تطيعوه فى معاصى اللّه. ثم بين لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم فقال: إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ أى: إنما يدعو أشياعه، و أتباعه، و المطيعين له إلى معاصى اللّه سبحانه لأجل أن يكونوا من أهل النار، و محل الموصول فى قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ الرفع على الابتداء، و لهم عذاب شديد: خبره، أو الرفع على البدل من فاعل يكونوا، أو النصب على البدل من حزبه، أو النعت له، أو إضمار فعل يدل على الذمّ، و الجرّ على البدل من أصحاب، أو النعت له. و الرفع على الابتداء أقوى هذه الوجوه، لأنه سبحانه بعد ذكر عداوة الشيطان و دعائه لحزبه؛ ذكر حال الفريقين من المطيعين له، و العاصين عليه فالفريق الأوّل قال: «لهم عذاب شديد» و الفريق الآخر قال فيه: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ أى: يغفر اللّه لهم بسبب الإيمان، و العمل الصالح، و يعطيهم أجرا كبيرا و هو الجنة أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما سبق من ذكر التفاوت بين الفريقين، و «من»: فى موضع رفع بالابتداء، و خبره: محذوف. قال الكسائى: و التقدير ذهبت نفسك عليهم حسرات. قال: و يدلّ عليه قوله:

فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ قال: و هذا كلام عربىّ ظريف لا يعرفه إلا القليل. و قال الزجاج:

تقديره كمن هداه، و قدّره غيرهما كمن لم يزين له، و هذا أولى لموافقته لفظا و معنى، و قد و هم صاحب الكشاف، فحكى عن الزجاج ما قاله الكسائى. قال النحاس: و الذى قاله الكسائى أحسن ما قيل فى الآية، لما ذكره من الدلالة على المحذوف، و المعنى: أن اللّه عزّ و جلّ نهى نبيه صلّى اللّه عليه و سلم عن شدّة الاغتمام بهم، و الحزن عليهم كما قال: فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ «۱» و جملة: فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ مقرّرة لما قبلها، أى: يضلّ من يشاء أن يضله، و يهدى من يشاء أن يهديه فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ قرأ الجمهور بفتح الفوقية و الهاء مسندا إلى النفس، فتكون من باب: لا أرينك هاهنا. و قرأ أبو جعفر، و شيبة، و ابن محيصن، و الأشهب بضم التاء و كسر الهاء، و نصب «نفسك» و انتصاب «حسرات» على أنه علة:

أى للحسرات، و يجوز أن ينتصب على الحال كأنها صارت كلها حسرات لفرط التحسر كما روى عن سيبويه.

و قال المبرد: إنها تمييز. و الحسرة شدّة الحزن على ما فات من الأمر إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ لا يخفى

---

(۱). الكهف: ۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۹۰

عليه من أفعالهم و أقوالهم خافية، و الجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنته من الوعيد الشديد.

و قد أخرج أبو عبيد فى فضائله، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس قال: كنت لا أدرى ما فاطر السموات و الأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: ابتدأتها. و أخرج ابن أبى حاتم

عنه أنه قال: فاطِرِ السَّماواتِ بـديع السـموات. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ قال: الصوت الحسن. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ الآية قال: ما يفتح اللّه للناس من باب توبة فَلا مُمْسِكَ لَها هم يتوبون إن شاؤوا و إن أبوا، و ما أمسك من باب توبـة فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ و هم لا يتوبون. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى الآية قال: يقول ليس لك من الأمر شيء.

و أخرج ابن المنـذر عن ابن جريـج فى قـوله: لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ قـال: كـل شـيء فى القرآن لهم مغفرة و أجر كـبير، و رزق كريم: فهو الجنـة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة و الحسن فى قوله: أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ قال: الشيطان زين لهم؛ هى و اللّه الضلالات فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ أى: لا تحزن عليهم.

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٩ الى ١٤]

وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَ ما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣)

إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)

ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه و عظيم قدرته، ليتفكروا فى ذلك و ليعتبروا به، فقال:

وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ قرأ الجمهور: الرياح، و قرأ ابـن كـثير، و ابـن محيصـن، و الأعمش، و يحيى ابـن وثـاب، و حمزة، و الكسـائى «الرّيـح» بالإفراد فَتُثِيرُ سَحاباً جاء بالمضارع بعد الماضى استحضارا للصورة، لأن ذلك أدخل فى اعتبار المعتبرين، و معنى كونها: تثير السحاب أنها تزعجه من حيث هو فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ قال أبو عبيدة: سبيله فنسوقه، لأنه قال: فتثير سحابا. قيل النكتة فى التعبير بالماضيين بعد المضارع: الدلالة على التحقق. قال المبرد: ميت و ميّت واحد، و قال هذا قول البصريين، و أنشد:

فتح القدير، ج۴، ص: ٣٩١ ليس من مات فاستراح بميتإنّما الميت ميّت الأحياء «١»

فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ أى: أحيينا بـالمطر الأرض بإنبـات مـا ينبت فيهـا، و إن لم يتقدّم ذكر المطر فالسحاب يـدل عليه، أو أحيينا بالسحاب، لأنه سبب المطر بَعْدَ مَوْتِها أى: بعد يبسها، استعار الإحياء للنبات و الموت لليبس كَذلِكَ النُّشُورُ أى: كذلك يحيى اللّه العباد بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها، و النشور: البعث، من نشر الإنسان نشورا، و الكاف فى محل رفع على الخبرية، أى: مثل إحياء موات الأرض؛ إحياء الأموات، فكيف تنكرونه و قد شاهدتم غير مرّة ما هو مثله و شبيه به مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ قال الفراء: معناه من كـان يريـد علم العزة لمن هى؟ فإنها للّه جميعا. و قال قتادة: من كان يريـد العزّة فليتعزز بطاعـة اللّه، فجعل معنى فلله العزّة: الـدعاء إلى طاعـة من له العزّة، كما يقال من أراد المال؛ فالمال لفلان، أى: فليطلبه من عنده. و قال الزجاج: تقديره من كـان يريـد بعبـاده العزّة، و العزّة له سـبحانه، فـإن اللّه عزّ و جـلّ يعزّه فى الـدنيا و الآخرة. و قيل المراد بقوله: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ المشـركون، فـإنهم كانوا يتعزّزون بعبادة الأصـنام: كقوله: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا «٢» و قيل المراد: الـذين كانوا يتعزّزون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ «٣» الآية فَلِلَّهِ

الْعِزَّةُ جَمِيعاً أى: فليطلبها منه لا- من غيره، و الظاهر فى معنى الآية: أن من كان يريد العزّة و يطلبها من اللّه عزّ و جلّ: فلله العزّة جميعا، ليس لغيره منها شىء، فتشمل الآية كلّ من طلب العزّة، و يكون المقصود بها التنبيه لذوى الأقدار و الهمم؛ من أين تنال العزّة، و من أىّ جهة تطلب؟ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ أى: إلى اللّه يصعد لا إلى غيره، و معنى صعوده إليه: قبوله له، أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف، و خصّ الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه، و هو يتناول كلّ كلام يتصف بكونه طيبا من ذكر اللّه، و أمر بمعروف، و نهى عن منكر، و تلاوة و غير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد، أو بالتحميد و التمجيد. و قيل المراد بصعوده: صعوده إلى سماء الدنيا. و قيل المراد بصعوده:

علم اللّه به، و معنى: وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، كما قال الحسن، و شهر بن حوشب، و سعيد بن جبير و مجاهد، و قتادة، و أبو العالية، و الضحاك، و وجهه أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح. و قيل إن فاعل يرفعه: هو الكلم الطيب، و مفعوله: العمل الصالح، و وجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد و الإيمان. و قيل: إن فاعل يرفعه ضمير يعود إلى اللّه عزّ و جلّ. و المعنى:

أن اللّه يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب، لأن العمل يحقق الكلام. و قيل: و العمل الصالح يرفع صاحبه، و هو الذى أراد العزّة. و قال قتادة: المعنى أن اللّه يرفع العمل الصالح لصاحبه، أى: يقبله، فيكون قوله:

وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ على هذا: مبتدأ، خبره: يرفعه، و كذا على قول من قال: يرفع صاحبه. قرأ الجمهور «يصعد» من صعد الثلاثى. «و الكلم الطّيّب» بالرفع على الفاعلية. و قرأ على، و ابن مسعود «يصعد» بضم حرف المضارعة من أصعد، «و الكلم الطّيّب» بالنصب على المفعولية و قرأ الضحاك على البناء للمفعول،

---

(١). البيت لعدى بن الرعلاء.

(٢). مريم: ٨١.

(٣). النساء: ٣٩.

و قرأ الجمهور «الكلم» و قرأ أبو عبد الرحمن «الكلام» و قرأ الجمهور «و العمل الصّالح» بالرفع على العطف أو على الابتداء. و قرأ ابن أبى عبلة، و عيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ انتصاب السيئات على أنها صفة لمصدر محذوف، أى: يمكرون المكرات السيئات، و ذلك لأن «مكر» لازم، و يجوز أن يضمن يمكرون: معنى يكسبون، فتكون السيئات مفعولا به، قال مجاهد و قتادة هم أهل الرياء. و قال أبو العالية: هم الذين مكروا بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لما اجتمعوا فى دار الندوة. و قال الكلبى:

هم الذين يعملون السيئات فى الدنيا. و قال مقاتل: هم المشركون، و معنى: لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ لهم عذاب بالغ الغاية فى الشدّة وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ أى: يبطل و يهلك، و منه وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً و المكر فى الأصل: الخديعة و الاحتيال، و الإشارة بقوله: إلى الذين مكروا السيئات على اختلاف الأقوال فى تفسير مكرهم، و جملة: هُوَ يَبُورُ خبر مكر أولئك. ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على البعث و النشور فقال: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ أى: خلقكم ابتداء فى ضمن خلق أبيكم آدم من تراب. و قال قتادة:

يعنى آدم، و التقدير على هذا: خلق أباكم الأوّل، و أصلكم الذى ترجعون إليه من تراب ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ أخرجها من ظهر آبائكم ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً أى: زوج بعضكم ببعض، فالذكر زوج الأنثى، أو جعلكم أصنافا ذكرانا و إناثا وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ أى: لا- يكون حمل و لا- وضع إلا- و اللّه عالم به، فلا يخرج شىء عن علمه و تدبيره وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ

عُمُرِهِ إِلَّا فِی کِتابٍ أی: ما یطول عمر أحد، و لا ینقص من عمره إلا فی کتاب، أی: فی اللوح المحفوظ قال الفراء: یرید آخر غیر الأوّل، فکنی عنه بالضمیر کأنه الأوّل لأن لفظ الثانی لو ظهر کان کالأوّل کأنه قال: و لا ینقص من عمر معمر، فالکنایة فی عمره ترجع إلی آخر غیر الأوّل، و مثله قولک عندی درهم و نصفه: أی نصف آخر.
قیل: إنما سمی معمرا باعتبار مصیره إلیه. و المعنی: و ما یمدّ فی عمر أحد و لا ینقص من عمر أحد، لکن لا علی معنی لا ینقص من عمره بعد کونه زائدا، بل علی معنی أنه لا یجعل من الابتداء ناقصا إلا و هو فی کتاب.
قال سعید بن جبیر: و ما یعمر من معمر إلا کتب عمره: کم هو سنة، کم هو شهرا، کم هو یوما، کم هو ساعة، ثم یکتب فی کتاب آخر نقص من عمره ساعة، نقص من عمره یوم، نقص من عمره شهر، نقص من عمره سنة حتی یستوفی أجله، فما مضی من أجله فهو النقصان، و ما یستقبل، هو الذی یعمره. و قال قتادة: المعمر من بلغ ستین سنة، و المنقوص من عمره من یموت قبل ستین سنة. و قیل المعنی: إن اللّه کتب عمر الإنسان کذا إن أطاع، و دونه إن عصی فأیهما بلغ فهو فی کتاب، و الضمیر علی هذا یرجع إلی معمر.
و قیل المعنی: و ما یعمر من معمر إلی الهرم، و لا ینقص آخر من عمر الهرم إلا فی کتاب، أی: بقضاء اللّه قاله الضحاک، و اختاره النحاس. قال: و هو أشبهها بظاهر التنزیل، و الأولی أن یقال ظاهر النظم القرآنی أن تطویل العمر و تقصیره: هما بقضاء اللّه و قدره لأسباب تقتضی التطویل، و أسباب تقتضی التقصیر.
فمن أسباب التطویل: ما ورد فی صلة الرّحم عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم و نحو ذلک. و من أسباب التقصیر الاستکثار من معاصی اللّه عزّ و جلّ، فإذا کان العمر المضروب للرجل مثلا سبعین سنة، فقد یزید اللّه له علیها إذا فعل

أسباب الزیادة، و قد ینقصه منها إذا فعل أسباب النقصان، و الکلّ فی کتاب مبین فلا تخالف بین هذه الآیة، و بین قوله سبحانه: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا یَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا یَسْتَقْدِمُونَ* «۱» و یؤید هذا قوله سبحانه: یَمْحُوا اللَّهُ ما یَشاءُ وَ یُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْکِتابِ «۲» و قد قدّمنا فی تفسیرها ما یزید ما ذکرنا هنا وضوحا و بیانا. قرأ الجمهور «ینقص» مبنیا للمفعول. و قرأ یعقوب و سلام و روی عن أبی عمرو «ینقص» مبنیا للفاعل. و قرأ الجمهور «من عمره» بضمّ المیم. و قرأ الحسن و الأعرج و الزهری بسکونها، و الإشارة بقوله: إِنَّ ذلِکَ إلی ما سبق من الخلق و ما بعده عَلَی اللَّهِ یَسِیرٌ لا یصعب علیه منه شیء، و لا یعزب عنه کثیر و لا قلیل، و لا کبیر و لا صغیر. ثم ذکر سبحانه نوعا آخر من بدیع صنعه، و عجیب قدرته فقال: وَ ما یَسْتَوِی الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ فالمراد بالبحران العذب و المالح، فالعذب الفرات الحلو، و الأجاج المرّ، و المراد ب سائِغٌ شَرابُهُ الذی یسهل انحداره فی الحلق لعذوبته. و قرأ عیسی بن عمر «سیّغ» بتشدید الیاء، و روی تسکینها عنه، و قرأ طلحة و أبو نهیک «ملح» بفتح المیم «و من کلّ» منهما تَأْکُلُونَ لَحْماً طَرِیًّا و هو ما یصاد منهما من حیواناتهما التی تؤکل وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْیَةً تَلْبَسُونَها الظاهر أن المعنی: و تستخرجون منهما حلیة تلبسونها. و قال المبرّد: إنما تستخرج الحلیة من المالح، و روی عن الزجاج أنه قال: إنما تستخرج الحلیة منهما إذا اختلطا، لا من کلّ واحد منهما علی انفراده، و رجح النحاس قول المبرّد. و معنی تَلْبَسُونَها تلبسون کلّ شیء منها بحسبه، کالخاتم فی الأصبع، و السوار فی الذراع، و القلادة فی العنق، و الخلخال فی الرجل، و مما یلبس حلیة السلاح الذی یحمل کالسیف و الدرع و نحوهما وَ تَرَی الْفُلْکَ فِیهِ أی: فی کلّ واحد من البحرین. و قال النحاس: الضمیر یعود إلی الماء المالح خاصة، و لو لا ذلک لقال: فیهما مَواخِرَ یقال مخرت السفینة تمخر: إذا شقت الماء. فالمعنی: و تری السفن فی البحرین شواقّ للماء بعضها مقبلة، و بعضها مدبرة بریح واحدة، و قد تقدّم الکلام علی هذا فی سورة النحل، و اللام فی لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ متعلقة بما یدل علیه الکلام السابق، أی: فعل ذلک لتبتغوا أو بمواخر. قال مجاهد: ابتغاء الفضل هو التجارة فی البحر إلی البلدان

البعيدة فى مدّة قريبة كما تقدّم فى البقرة وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ اللّه على ما أنعم عليكم به من ذلك. قال أكثر المفسرين: إن المراد من الآية ضرب المثل فى حقّ المؤمن و الكافر، و الكفر و الإيمان، فكما لا يستوى البحران كذلك لا يستوى المؤمن و الكافر، و لا الكفر و الإيمان يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ أى: يضيف بعض أجزائهما إلى بعض، فيزيد فى أحدهما بالنقص فى الآخر، و قد تقدّم تفسيره فى آل عمران، و فى مواضع من الكتاب العزيز وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى قدّره اللّه لجريانهما، و هو يوم القيامة. و قيل: هو المدّة التى يقطعان فى مثلها الفلك، و هو سنة:
للشمس، و شهر: للقمر، و قيل: المراد به جرى الشمس فى اليوم، و القمر فى الليلة. و قد تقدّم تفسير هذا مستوفى فى سورة لقمان، و الإشارة بقوله: ذلِكُمُ إلى الفاعل لهذه الأفعال و هو اللّه سبحانه، و اسم

---

(۱). الأعراف: ۳۴.

(۲). الرعد: ۳۹.

الإشارة: مبتدأ، و خبره: اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ أى: هذا الذى من صنعته ما تقدّم: هو الخالق المقدّر، و القادر المقتدر المالك للعالم، و المتصرّف فيه، و يجوز أن يكون قوله: له الملك جملة مستقلة فى مقابلة قوله:
وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ أى: لا يقدرون عليه و لا على خلقه، و القطمير:
القشرة الرقيقة التى تكون بين التمرة و النواة، و تصير على النواة كاللفافة لها. و قال المبرّد: هو شقّ النواة. و قال قتادة: هو القمع الذى على رأس النواة. قال الجوهرى: و يقال هى النكتة البيضاء التى فى ظهر النواة تنبت منها النخلة. ثم بين سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون اللّه بأنهم لا ينفعون و لا يضرّون فقال: إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ أى إن تستغيثوا بهم فى النوائب لا يسمعوا دعاءكم، لكونها جمادات لا تدرك شيئا من المدركات وَ لَوْ سَمِعُوا على طريقة الفرض، و التقدير مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ لعجزهم عن ذلك. قال قتادة: المعنى و لو سمعوا لم ينفعوكم. و قيل المعنى: لو جعلنا لهم سماعا و حياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع للّه منكم و لم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتموهم إليه من الكفر وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ أى:
يتبرؤون من عبادتكم لهم، و يقولون: ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ و يجوز أن يرجع وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ و ما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم الكفار، و هم: الملائكة و الجنّ و الشياطين. و المعنى: أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقا، و ينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ أى: لا يخبرك مثل من هو خبير بالأشياء عالم بها، و هو اللّه سبحانه، فإنه لا أحد أخبر بخلقه و أقوالهم، و أفعالهم منه سبحانه، و هو الخبير بكنه الأمور و حقائقها.
و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: يقوم ملك بالصور بين السماء و الأرض فينفخ فيه، فلا يبقى خلق للّه فى السموات و الأرض إلا من شاء اللّه إلا مات، ثم يرسل اللّه من تحت العرش منيا كمنى الرجال، فتنبت أجسامهم و لحومهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى، ثم قرأ عبد اللّه اللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ الآية. و أخرج أبو داود، و الطيالسى، و أحمد، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى رزين العقيلى قال: قلت: يا رسول اللّه كيف يحيى اللّه الموتى؟ قال: «أما مررت بأرض مجدبة، ثمّ مررت بها مخضبة تهتزّ خضراء؟
قلت: بلى، قال: كذلك يحيى اللّه الموتى، و كذلك النشور». و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن مسعود قال: إذا حدّثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب

اللّه، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان اللّه و بحمده، و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر و تبارك اللّه، قبض عليهنّ ملك يضمهنّ تحت جناحه، ثم يصعد بهنّ إلى السماء، فلا يمرّ بهنّ على جمع من الملائكة إلا استغفر لقائلهنّ حتى يجيء بهنّ وجه الرحمن، ثم قرأ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ قال: أداء الفرائض، فمن ذكر اللّه فى أداء فرائضه حمل عمله ذكر اللّه فصعد به إلى اللّه، و من ذكر اللّه و لم يؤدّ فرائضه ردّ كلامه على عمله، و كان عمله أولى به. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ الآية قال: يقول ليس أحد قضيت له طول العمر و الحياة

فتح القدير، ج‏4، ص: 395

إلا و هو بالغ ما قدّرت له من العمر، و قد قضيت له ذلك، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدّرت له لا يزاد عليه، و ليس أحد قضيت له أنه قصير العمر و الحياة ببالغ العمر، و لكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتب له، فذلك قوله: وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ يقول: كل ذلك فى كتاب عنده. و أخرج أحمد، و مسلم، و أبو عوانة، و ابن حبان، و الطبرانى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقرّ فى الرّحم بأربعين أو بخمسة و أربعين ليلة، فيقول أىّ ربّ أ شقىّ أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول اللّه و يكتبان، ثم يكتب عمله و رزقه و أجله و أثره و مصيبته، ثمّ تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها و لا ينقص». و أخرج ابن أبى شيبة، و مسلم، و النسائى، و أبو الشيخ عن عبد اللّه بن مسعود قال: قالت أمّ حبيبة: اللهم أمتعنى بزوجى النبىّ، و بأبى أبى سفيان، و بأخى معاوية، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّك سألت اللّه لآجال مضروبة، و أيّام معدودة، و أرزاق مقسومة، و لن يعجّل اللّه شيئا قبل حلّه أو يؤخّر شيئا، و لو كنت سألت اللّه أن يعيذك من عذاب فى النار، أو عذاب فى القبر كان خيرا و أفضل» و هذه الأحاديث مخصصة بما ورد من قبول الدعاء، و أنه يعتلج هو و القضاء، و بما ورد فى صلة الرحم أنها تزيد فى العمر، فلا معارضة بين الأدلة كما قدّمنا. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ قال: القطمير القشر، و فى لفظ: الجلد الذى يكون على ظهر النواة.

[سورة فاطر (35): الآيات 15 الى 26]

يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17) وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْ‏ءٌ وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18) وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ (19)

وَ لا الظُّلُماتُ وَ لا النُّورُ (20) وَ لا الظِّلُّ وَ لا الْحَرُورُ (21) وَ ما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَ لا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23) إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ (24)

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (26)

ثم ذكر سبحانه افتقار خلقه إليه، و مزيد حاجتهم إلى فضله، فقال: يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ أى: المحتاجون إليه فى جميع أمور الدين و الدنيا، فهم الفقراء إليه على الإطلاق و هُوَ الْغَنِيُّ على الإطلاق الْحَمِيدُ أى: المستحقّ للحمد من عباده بإحسانه إليهم. ثم ذكر سبحانه نوعا من الأنواع التى يتحقق عندها افتقارهم إليه، و استغناؤه عنهم فقال: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ أى:

إن يشأ يفنكم و يأت بـدلكم بخلق جديـد يطيعونه و لا يعصونه، أو يأت بنوع من أنواع الخلق، و عالم من العالم غير ما تعرفون وَ ما ذلِكَ الإذهاب لكم و الإتيان بآخرين عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ أى: بممتنع و لا متعسـر، و قد مضى تفسير هذا فى سورة إبراهيم وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أى: نفس وازرة فحذف

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۹۶

الموصوف للعلم به، و معنى تزر: تحمل. و المعنى: لا تحمل نفس حمل نفس أخرى، أى: إثمها بل كلّ نفس تحمل وزرها، و لا تخالف هذه الآية قوله: وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «۱» لأنهم إنما حملوا أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم، و الكلّ من أوزارهم، لا من أوزار غيرهم، و مثل هـذا حـديث «من سنّ سـنة سـيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة» فإن الذى سنّ السـنة السيئة إنما حمل وزر سنته السيئة، و قد تقدّم الكلام على هذه الآية مستوفى وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها قال الفراء: أى نفس مثقلة، قال:

و هـذا يقع للمـذكر و المؤنث. قال الأخفش: و إن تدع مثقلة إنسانا إلى حملها، و هو ذنوبها لا يُحْمَلْ مِنْهُ أى: من حملها شَيْءٌ وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى أى: و لو كان الـذى تـدعوه ذا قرابـة لها، لم يحمل من حملها شيئا: و معنى الآية: و إن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفسـا أخرى إلى حمـل شـىء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المـدعوّة من تلك الـذنوب شـيئا، و لو كانت قريبـة لها فى النسب، فكيف بغيرهـا مما لا قرابـة بينها و بين الداعيـة لها؟ و قرئ «ذو قربى» على أن كان تامـة، كقوله: وَ إِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ «۲» و جملة إِنَّمـا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ مسـتأنفة مسوقـة لبيـان من يتعظ بالإنـذار، و معنى يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ أنه يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه و هو غائب عنهم، أو يخشونه فى الخلوات عن الناس.

قال الزجاج: تأويله أن إنـذارك إنما ينفع الـذين يخشون ربهم، فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار، كقوله: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها «۳» و قوله: إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الـذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ «۴» و معنى: وَ أَقـامُوا الصَّلاةَ أنهم احتفلوا بأمرهـا، و لـم يشـتغلوا عنهـا بشـىء ممـا يلهيهم وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ التزكى: التطهر من أدناس الشـرك و الفواحش، و المعنى: أن من تطهر بترك المعاصـى و اسـتكثر من العمل الصالـح فإنما يتطهر لنفسه، لأنّ نفع ذلك مختصّ به، كما أن وزر من تـدنس لا يكون إلا عليه لا على غيره. قرأ الجمهور «و من تزكّى فإنّما يتزكّى» و قرأ أبو عمرو «فإنّما يزكّى» بإدغام التاء فى الزاى و قرأ ابن مسعود و طلحة «و من أزكى فإنما يزكى» وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ لا إلى غيره، ذكر سبحانه أوّلا أنه لا يحمل أحد ذنب أحد، ثم ذكر ثانيـا أن المـذنب إن دعـا غيره و لو كـان من قرابته إلى حمـل شـىء من ذنوبه لا يحمله، ثم ذكر ثالثـا أن ثواب الطـاعة مختصّ بفاعلها ليس لغيره منه شـىء. ثم ضـرب مثلا للمؤمن و الكافر فقال: وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى أى: المسلوب حاسـة البصـر وَ الْبَصِيرُ الذى له ملكة البصـر، فشبه الكافر بالأعمى، و شـبه المؤمن بالبصير وَ لَا الظُّلُماتُ وَ لَا النُّورُ أى: و لا تستوى الظلمات و لا النور، فشبه الباطـل بالظلمـات، و شـبه الحقّ بـالنور. قـال الأخفش: و لا فى قوله: «و لا النّور، و لا الحرور» زائـدة، و التقـدير: و ما يستوى الظلمات و النور، و لا الظلّ و الحرور، و الحرور: شدّة حرّ الشمس. قال الأخفش: و الحرور لا يكون إلا مع شمس النهار، و السـموم يكون بالليل، و قيل عكسه. و قال رؤبـة بن العجاج: الحرور يكون بالليل خاصة، و السـموم يكون بالنهار خاصة. و قال الفراء: السموم لا يكون إلا بالنهار، و الحرور يكون فيهما. قال النحاس: و هذا أصح. و قال قطرب: الحرور الحرّ، و الظلّ البرد،

---

(۱). العنكبوت: ۱۳.

(۲). البقرة: ۲۸۰.

(۳). النازعات: ۴۵.

(۴). يس: ١١.

فتح القدير، ج۴، ص: ٣٩٧

و المعنى: أنه لا يستوى الظلّ الذى لا حرّ فيه و لا أذى، و الحرّ الذى يؤذى. قيل: أراد الثواب و العقاب، و سمى الحرّ حرورا مبالغة فى شدّة الحرّ، لأن زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى: و قال الكلبى: أراد بالظلّ:

الجنة، و بالحرور: النار. و قال عطاء: يعنى ظلّ الليل، و شمس النهار. قيل: و إنما جمع الظلمات، و أفرد النور، لتعدّد فنون الباطل، و اتحاد الحقّ. ثم ذكر سبحانه تمثيلا آخر للمؤمن و الكافر فقال: وَ ما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَ لَا الْأَمْواتُ فشبه المؤمنين بالأحياء، و شبه الكافرين بالأموات، و قيل: أراد تمثيل العلماء و الجهلة. و قال ابن قتيبة: الأحياء: العقلاء، و الأموات: الجهال. قال قتادة: هذه كلها أمثال: أى كما لا تستوى هذه الأشياء؛ كذلك لا يستوى الكافر و المؤمن إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ أن يسمعه من أوليائه الذين خلقهم لجنته و وفقهم لطاعته وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ يعنى: الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم، أى: كما لا تسمع من مات كذلك لا تسمع من مات قلبه، قرأ الجمهور بتنوين «مسمع» و قطعه عن الإضافة. و قرأ الحسن، و عيسى الثقفى، و عمرو بن ميمون بإضافة إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ أى: ما أنت إلا رسول منذر ليس عليه إلا الإنذار و التبليغ، و الهدى و الضلالة بيد اللّه عزّ و جلّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِ يجوز أن يكون بالحقّ فى محل نصب على الحال من الفاعل، أى: محقين، أو من المفعول، أى: محقا، أو: نعت لمصدر محذوف، أى: إرسالا ملتبسا بالحقّ، أو هو متعلق ببشيرا، أى: بشيرا بالوعد الحقّ، و نذيرا بالوعد الحقّ، و الأولى أن يكون نعتا للمصدر المحذوف، و يكون معنى بشيرا: بشيرا لأهل الطاعة، و نذيرا لأهل المعصية وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ أى: ما من أمة من الأمم الماضية إلا مضى فيها نذير من الأنبياء ينذرها، و اقتصر على ذكر النذير دون البشير، لأنه ألصق بالمقام، ثم سلى نبيه صلّى اللّه عليه و سلم و عزّاه، فقال:

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: كذب من قبلهم من الأمم الماضية أنبياءهم جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى: بالمعجزات الواضحة، و الدلالات الظاهرة وَ بِالزُّبُرِ أى: الكتب المكتوبة كصحف إبراهيم وَ بِالْكِتابِ الْمُنِيرِ كالتوراة و الإنجيل، قيل: الكتاب المنير داخل تحت الزبر و تحت البينات، و العطف لتغاير المفهومات، و إن كنت متحدة فى الصدق، و الأولى تخصيص البينات بالمعجزات، و الزبر بالكتب التى فيها مواعظ، و الكتاب بما فيه شرائع و أحكام، ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا وضع الظاهر موضع الضمير يفيد التصريح بذمهم بما فى حيز الصلة، و يشعر بعلة الأخذ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أى: فكيف كان نكيرى عليهم و عقوبتى لهم، و قرأ ورش عن نافع، و شيبة بإثبات الياء فى «نكير» وصلا لا وقفا، و قد مضى بيان معنى هذا قريبا.

و قد أخرج أحمد، و الترمذى و صححه، و النسائى، و ابن ماجة عن عمرو بن الأحوص أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال فى حجة الوداع «ألا لا يجنى جان إلا على نفسه، لا يجنى والد على ولده و لا مولود على والده» و أخرج سعيد بن منصور، و أبو داود، و الترمذى، و النسائى، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن أبى رمثة قال: انطلقت مع أبى نحو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فلما رأيته قال لأبى: ابنك هذا؟ قال: إى و ربّ الكعبة، قال: أما أنه لا يجنى عليك، و لا تجنى عليه، ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى

فتح القدير، ج۴، ص: ٣٩٨

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ قال: يكون عليه وزر لا يجد أحدا يحمل عنه من وزره شيئا.

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٢٧ الى ٣٥]

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٣٣) وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَ لا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (٣٥)

ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته الباهرة، و خلقا من مخلوقاته البديعة فقال: أَ لَمْ تَرَ و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أو لكلّ من يصلح له أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً و هذه الرؤية هى القلبية: أى ألم تعلم، و أن و اسمها و خبرها سدّت مسدّ المفعولين فَأَخْرَجْنا بِهِ أى: بالماء، و النكتة فى هذا الالتفات إظهار كمال العناية بالفعل لما فيه من الصنع البديع، و انتصاب مُخْتَلِفاً أَلْوانُها على الوصف لثمرات، و المراد بالألوان: الأجناس و الأصناف، أى: بعضها أبيض، و بعضها أحمر، و بعضها أصفر، و بعضها أخضر، و بعضها أسود وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ الجدد جمع جدة، و هى الطريق. قال الأخفش: و لو كان جمع جديد لقال جدد بضم الجيم و الدال، نحو سرير و سرر. قال زهير:

كأنه أسفع الخدين ذو جددطاو و يرتع بعد الصّيف عريانا

و قيل: الجدد القطع، مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعته، حكاه ابن بحر. قال الجوهرى: الجدة:

الخطة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه، و الجدة: الطريقة، و الجمع: جدد و جدائد، و من ذلك قول أبى ذؤيب:

جون السّراة له جدائد أربع «١» قال المبرد: جدد: طرائق و خطوط. قال الواحدى: و نحو هذا قال المفسرون فى تفسير الجدد. و قال الفراء: هى الطرق تكون فى الجبال كالعروق بيض و سود و حمر واحدها جدة. و المعنى: أن اللّه سبحانه أخبر

---

(١). و صدر البيت: و الدّهر لا يبقى على حدثانه.

عن جدد الجبال، و هى طرائقها، أو الخطوط التى فيها بأن لون بعضها البياض و لون بعضها الحمرة، و هو معنى قوله: بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها قرأ الجمهور «جدد» بضم الجيم و فتح الدال. و قرأ الزهرى بضمهما جمع جديدة و روى عنه أنه قرأ بفتحهما و ردّها أبو حاتم و صححها غيره و قال: الجدد الطريق الواضح البين وَ غَرابِيبُ سُودٌ الغربيب: الشديد السواد الذى يشبه لونه لون الغراب. قال الجوهرى: تقول هذا أسود غربيب: أى شديد السواد، و إذا قلت غرابيب سود جعلت السود بدلا من غرابيب. قال الفراء:

فى الكلام تقديم و تأخير و تقديره: و سود غرابيب، لأنه يقال أسود غربيب، و قلّ ما يقال غربيب أسود، و قوله:

مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها صفة لجدد، و قوله: وَ غَرابِيبُ معطوف على جدد على معنى: و من الجبال جدد بيض و حمر، و من الجبال غرابيب على لون واحد، و هو السواد، أو على حمر، على معنى: و من الجبال جدد بيض و حمر و سود. و قيل: معطوف على بيض، و لا بدّ من تقدير مضاف محذوف قبل جدد، أى: و من الجبال ذو جدد، لأن الجدد إنما هى ألوان بعضها وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ قوله مختلف: صفة لموصوف محذوف، أى: و منهم صنف، أو نوع أو بعض مختلف ألوانه

بـالحمرة و السواد و البيـاض و الخضـرة و الصـفرة. قـال الفراء: أى خلق مختلف ألوانه كاختلاف الثمرات و الجبـال، و إنما ذكر سبحانه اختلاف الألوان فى هـذه الأشياء، لأن هـذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة اللّه و بديع صـنعه، و معنى كَذلِكَ أى: مختلفا مثل ذلك الاختلاف، و هو صـفة لمصدر محذوف، و التقدير مختلف ألوانه اختلافا كائنا كذلك، أى: كاختلاف الجبال و الثمار. و قرأ الزهرى «و الـدواب» بتخفيف الباء. و قرأ ابن السـميقع «ألوانها». و قيل: إن قوله: كَذلِكَ متعلق بما بعـده، أى: مثل ذلـك المطر و الاعتبار فى مخلوقات اللّه، و اختلاف ألوانها، يخشـى اللّه من عباده العلماء، و هـذا اختاره ابن عطيـة، و هو مردود بأن ما بعد إنما لا يعمل فيما قبلها. و الراجح الوجه الأوّل، و الوقف على كذلك تامّ. ثم استؤنف الكلام و أخبر سبحانه بقوله:

إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ أو هو من تتمة قوله: إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ على معنى إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به، و بما يليق به من صـفاته الجليلة و أفعاله الجميلة، و على كلّ تقدير فهو سـبحانه قد عين فى هذه الآية أهل خشيته، و هم العلمـاء به و تعظيم قـدرته. قـال مجاهـد: إنمـا العـالم من خشـى اللّه عزّ و جـلّ و قال مسـروق: كفى بخشـية اللّه علما و كفى بالاغترار جهلا، فمن كان أعلم باللّه كان أخشاهم له. قال الربيع بن أنس: من لم يخش اللّه فليس بعالم. و قال الشـعبى: العالم من خـاف اللّه. و وجه تقـديم المفعول أن المقـام مقـام حصـر الفاعليـة و لو أخر انعكس الأمر. و قرأ عمر بن عبـد العزيز برفع الاسـم الشـريف و نصب العلماء، و رويت هـذه القراءة عن أبى حنيفـة قال فى الكشاف: الخشـية فى هذه القراءة اسـتعارة، و المعنى: أنه يجلّهم و يعظّمهم كمـا يجلّ المهيب المخشـى من الرجال بين الناس، و جملـة: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ تعليل لوجوب الخشـية لـدلالته على أنـه معـاقب على معصـيته غـافر لمن تـاب من عبـاده إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتـابَ اللَّهِ أى: يسـتمرّون على تلاوته و يـداومونها. و الكتـاب: هو القرآن الكريم، و لا وجه لمـا قيـل إن المراد به جنس كتب اللّه وَ أَقـامُوا الصَّلاةَ أى: فعلوهـا فى أوقاتهـا مع كمال أركانها و أذكارها وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۰۰

فتح القدير ج۴ ۴۴۹

فيه حثّ على الإنفاق كيف ما تهيأ، فإن تهيأ سرّا فهو أفضل و إلا فعلانية، و لا يمنعه ظنه أن يكون رياء، و يمكن أن يراد بالسرّ: صدقـة النفـل، و بالعلانيـة: صدقـة الفرض و جملـة يَرْجُونَ تِجـارَةً لَنْ تَبُورَ فى محل رفع على خبريـة إنّ كما قال ثعلب و غيره، و المراد بالتجـارة ثواب الطاعـة و معنى: لَنْ تَبُورَ لن تكسـد و لن تهلـك، و هى صـفة للتجـارة و الإخبـار برجـائهم لثواب ما عملوا بمنزلـة الوعـد بحصول مرجوهم، و اللام فى: لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ متعلق بلن تبور، على معنى: أنها لن تكسـد لأجل أن يوفيهم أجور أعمالهم الصالحة، و مثل هذه الآية قوله سـبحانه: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ «۱» و قيل: إن اللام متعلقـة بمحـذوف دلّ عليه السـياق، أى: فعلوا ذلك ليوفّيهم، و معنى: وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ أنه يتفضل عليهم بزيادة على أجورهم التى هى جزاء أعمالهم، و جملة:

إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ تعليل لما ذكر من التوفيـة و الزيادة، أى: غفور لـذنوبهم شـكور لطاعتهم، و قيل: إن هـذه الجملة هى خبر إنّ، و تكون جملـة يرجون فى محـل نصب على الحـال، و الأوّل أولى وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتـابِ يعنى: القرآن، و قيـل: اللوح المحفوظ على أن من تبعيضـية أو ابتدائية، و جملة: هُوَ الْحَقُّ خبر الموصول وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ منتصب على الحال: أى موافقا لمـا تقـدّمه من الكتب إِنَّ اللَّهَ بِعِبـادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ أى: محيط بجميع أمورهم ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا المفعول الأوّل لأورثنا: الموصول، و المفعول الثانى: الكتاب، و إنما قـدّم المفعول الثانى لقصد التشـريف و التعظيم للكتاب، و المعنى: ثم أورثنا الـذين اصـطفيناهم من عبادنا الكتاب، و هو القرآن، أى قضـينا و قـدّرنا بأن نورث العلماء من أمتك يا محمّد هذا الكتاب الـذى أنزلناه عليك، و معنى اصـطفائهم اختيارهم و استخلاصـهم، و لا شك أن علماء هـذه الأمـة من الصـحابة فمن بعدهم؛ قد

شرفهم اللّه على سائر العباد، و جعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس، و أكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء، و سيد ولد آدم. قال مقاتل: يعنى قرآن محمّد جعلناه ينتهى إلى الذين اصطفينا من عبادنا. و قيل إن المعنى: أورثناه من الأمم السالفة، أى: أخرناه عنهم و أعطيناه الذين اصطفينا، و الأوّل أولى. ثم قسم سبحانه هؤلاء الذى أورثهم كتابه؛ و اصطفاهم من عباده إلى ثلاثة أقسام فقال: فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قد استشكل كثيرا من أهل العلم معنى هذه الآية، لأنه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من ذلك المقسم، و هو من اصطفاهم من العباد، فكيف يكون من اصطفاه اللّه ظالما لنفسه؟ فقيل: إن التقسيم هو راجع إلى العباد، أى: فمن عبادنا ظالم لنفسه، و هو الكافر، و يكون ضمير يدخلونها عائدا إلى المقتصد و السابق. و قيل: المراد بالظالم لنفسه هو المقصر فى العمل به، و هو المرجئ لأمر اللّه، و ليس من ضرورة ورثة الكتاب مراعاته حقّ رعايته، لقوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ «٢» و هذا فيه نظر، لأن ظلم النفس لا يناسب الاصطفاء. و قيل الظالم لنفسه: هو الذى عمل الصغائر، و قد روى هذا القول عن عمر و عثمان و ابن مسعود و أبى الدرداء و عائشة، و هذا هو الراجح، لأن عمل الصغائر لا ينافى الاصطفاء، و لا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور

---

(١). النساء: ١٧٣.

(٢). الأعراف: ١٦٩.

من ذهب إلى آخر ما سيأتى. و وجه كونه ظالما لنفسه أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له، فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظا عظيما، و قيل: الظالم لنفسه هو صاحب الكبائر.

و قد اختلف السلف فى تفسير السابق و المقتصد، فقال عكرمة و قتادة و الضحاك: إن المقتصد المؤمن العاصى، و السابق التقىّ على الإطلاق، و به قال الفراء، و قال مجاهد فى تفسير الآية: فمنهم ظالم لنفسه أصحاب المشأمة وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ أصحاب الميمنة وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ السابقون من الناس كلهم. و قال المبرد: إن المقتصد هو الذى يعطى الدنيا حقها و الآخرة حقها. و قال الحسن: الظالم الذى ترجح سيئاته على حسناته، و المقتصد: الذى استوت حسناته و سيئاته، و السابق: من رجحت حسناته على سيئاته. و قال مقاتل: الظالم لنفسه: أصحاب الكبائر من أهل التوحيد، و المقتصد: الذى لم يصب كبيرة، و السابق: الذى سبق إلى الأعمال الصالحة. و حكى النحاس أن الظالم: صاحب الكبائر، و المقتصد: الذى لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته، فتكون جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها للذين سبقوا بالخيرات لا غير، قال: و هذا قول جماعة من أهل النظر، لأن الضمير فى حقيقة النظر لما يليه أولى. و قال الضحاك. فيهم ظالم لنفسه: أى من ذرّيتهم ظالم لنفسه. و قال سهل بن عبد اللّه: السابق: العالم، و المقتصد: المتعلم، و الظالم لنفسه:

الجاهل. و قال ذو النون المصرى: الظالم لنفسه: الذاكر للّه بلسانه فقط، المقتصد: الذاكر بقلبه، و السابق:

الذى لا ينساه. و قال الأنطاكى: الظالم: صاحب الأقوال، و المقتصد: صاحب الأفعال، و السابق:

صاحب الأحوال. و قال ابن عطاء: الظالم: الذى يحب اللّه من أجل الدنيا، و المقتصد: الذى يحب اللّه من أجل العقبى، و السابق: الذى أسقط مراده بمراد الحقّ. و قيل: الظالم الذى يعبد اللّه خوفا من النار، و المقتصد: الذى يعبده طمعا فى الجنة، و السابق: الذى يعبده لا لسبب. و قيل: الظالم الذى يحبّ نفسه، و المقتصد: الذى يحبّ دينه، و السابق: الذى يحبّ ربه. و قيل: الظالم الذى ينتصف و لا ينصف، و المقتصد: الذى ينتصف و ينصف، و السابق: الذى ينصف و لا ينتصف. و قد ذكر الثعلبى و غيره أقوالا كثيرة، و لا شك أن المعانى اللغوية للظالم و المقتصد و السابق معروفة، و هو يصدق على الظلم للنفس بمجرّد إحرامها

للحظ، و تفويت ما هو خير لها، فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوّتها من الثواب، و إن كان قائما بما أوجب اللّه عليه تاركا لما نهاه اللّه عنه، فهو من هذه الحيثية ممن اصطفاه اللّه، و من أهل الجنة، فلا إشكال فى الآية، و من هذا قول آدم: رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا «۱» و قول يونس إِنِّی كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ «۲» و معنى المقتصد هو من يتوسط فى أمر الدين، و لا يميل إلى جانب الإفراط، و لا إلى جانب التفريط و هذا من أهل الجنة، و أما السابق: فهو الذى سبق غيره فى أمور الدين، و هو خير الثلاثة.

و قد استشكل تقديم الظالم على المقتصد، و تقديمها على السابق، مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه، و السابق أفضل منهما، فقيل: إن التقديم لا يقتضى التشريف كما فى قوله: لا يَسْتَوِی أَصْحابُ

---

(۱). الأعراف: ۲۳.

(۲). الأنبياء: ۸۷.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۰۲

النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ «۱» و نحوها من الآيات القرآنية التى فيها تقديم أهل الشرّ على أهل الخير، و تقديم المفضولين على الفاضلين. و قيل: وجه التقديم هنا أن المقتصدين بالنسبة إلى أهل المعاصى قليل، و السابقين بالنسبة إلى الفريقين أقلّ قليل، فقدّم الأكثر على الأقلّ، و الأوّل أولى فإن الكثرة بمجرّدها لا تقتضى تقديم الذكر، و قد قيل فى وجه التقديم غير ما ذكرنا مما لا حاجة إلى التطويل به، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى توريث الكتاب و الاصطفاء، و قيل: إلى السبق بالخيرات، و الأوّل أولى، و هو: مبتدأ، و خبره: هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ أى: الفضل الذى لا يقادر قدره، و ارتفاع جَنَّاتُ عَدْنٍ على أنها مبتدأ، و ما بعدها خبرها، أو على البدل من الفضل لأنه لما كان هو السبب فى نيل الثواب نزل منزلة المسبب، و على هذا فتكون جملة:
يَدْخُلُونَها مستأنفة و قد قدّمنا أن الضمير فى يدخلونها يعود إلى الأصناف الثلاثة، فلا وجه لقصره على الصنف الأخير، و قرأ زرّ بن حبيش و الترمذى «جنّة» بالإفراد، و قرأ الجحدرى «جنات» بالنصب على الاشتغال، و جوّز أبو البقاء أن تكون جنات خبرا ثانيا لاسم الإشارة، و قرأ أبو عمرو «يدخلونها» على البناء للمفعول، و قوله: يُحَلَّوْنَ خبر ثان لجنات عدن، أو حال مقدّرة، و هو من حليت المرأة فهى حال، و فيه إشارة إلى سرعة الدخول، فإن فى تحليتهم خارج الجنة تأخيرا للدخول، فلما قال: يُحَلَّوْنَ فِيها أشار أن دخولهم على وجه السرعة مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ من الأولى تبعيضية، و الثانية بيانية، أى: يحلون بعض أساور كائنة من ذهب، و الأساور جمع أسورة جمع سوار، و انتصاب لُؤْلُؤاً بالعطف على محل مِنْ أَساوِرَ و قرئ بالجرّ عطفا على ذهب وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ قد تقدّم تفسير الآية مستوفى فى سورة الحج وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ قرأ الجمهور «الحزن» بفتحتين. و قرأ جناح ابن حبيش بضمّ الحاء و سكون الزاى. و المعنى: أنهم يقولون هذه المقالة إذا دخلوا الجنة. قال قتادة: حزن الموت. و قال عكرمة: حزن السيئات و الذنوب و خوف ردّ الطاعات. و قال القاسم: حزن زوال النعم و خوف العاقبة. و قيل حزن أهوال يوم القيامة. و قال الكلبى: ما كان يحزنهم فى الدنيا من أمر يوم القيامة.

و قال سعيد بن جبير: همّ الخبز فى الدنيا، و قيل همّ المعيشة. و قال الزجاج: أذهب اللّه عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش أو معاد. و هذا أرجح الأقوال، فإن الدنيا و إن بلغ نعيمها أىّ مبلغ لا تخلو من شوائب و نوائب تكثر لأجلها الأحزان، و خصوصا أهل الإيمان، فإنهم لا يزالون وجلين من عذاب اللّه خائفين من عقابه، مضطربى القلوب فى كلّ حين، هل تقبل أعمالهم أو تردّ؟ حذرين من عاقبة السوء و خاتمة الشرّ، ثم لا تزال همومهم و أحزانهم حتى يدخلوا الجنة. و أما أهل العصيان: فهم و إن نفس عن خناقهم قليلا فى حياة الدنيا التى هى دار الغرور، و تناسوا دار القرار يوما من دهرهم فلا بدّ أن يشتدّ و جلهم

و تعظم مصيبتهم، و تغلى مراجل أحزانهم إذا شارفوا الموت، و قربوا من منازل الآخرة، ثم إذا قبضت أرواحهم، و لاح لهم ما يسوءهم من جزاء أعمالهم ازدادوا غما و حزنا، فإن تفضل اللّه عليهم بالمغفرة، و أدخلهم الجنة، فقد أذهب عنهم أحزانهم و أزال غمومهم و همومهم إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ أى: غفور لمن عصاه، شكور لمن أطاعه

---

(١). الحشر: ٢٠.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۴٠٣

الَّذِى أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ أى: دار الإقامة التى يقام فيها أبدا، و لا ينتقل عنها تفضلا منه و رحمة لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ أى: لا يصيبنا فى الجنة عناء و لا تعب و لا مشقة وَ لا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ و هو الإعياء من التعب، و الكلال من النصب.

و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها قال الأبيض و الأحمر و الأسود، و فى قوله: وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ قال: طرائق بيضٌ يعنى الألوان. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: الغربيب الأسود: الشديد السواد. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ قال: طرائق تكون فى الجبل بيض وَ حُمْرٌ فتلك الجدد وَ غَرابِيبُ سُودٌ قال: جبال سود وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ قال:

كَذلِكَ اختلاف الناس و الدّواب و الأنعام كاختلاف الجبال، ثم قال: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ قال: فصل لما قبلها. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ قال: العلماء باللّه الذين يخافونه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: الذين يعلمون أن اللّه على كلّ شى‏ء قدير. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن عدىّ عن ابن مسعود قال:

ليس العلم من كثرة الحديث، و لكن العلم من الخشية. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد، و الطبرانى عنه قال: كفى بخشية اللّه علما، و كفى باغترار باللّه جهلا. و أخرج أحمد فى الزهد عنه أيضا قال: ليس العلم بكثرة الرواية و لكن العلم الخشية. و أخرج ابن أبى شيبة عن حذيفة قال: بحسب المؤمن من العلم أن يخشى اللّه. و أخرج عبد الغنى بن سعيد الثقفى فى تفسيره عن ابن عباس أن حصين بن الحارث ابن عبد المطلب بن عبد مناف نزلت فيه إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا قال: هم أمة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم ورثهم اللّه كلّ كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، و مقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا، و سابقهم يدخل الجنة بغير حساب. و أخرج الطيالسى، و أحمد، و عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: أنه قال فى هذه الآية «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ قال: هؤلاء كلّهم بمنزلة واحدة، و كلّهم يدخلون الجنّة». و فى إسناده رجلان مجهولان. قال الإمام أحمد فى مسنده قال: حدّثنا شعبة عن الوليد بن العيزار، أنه سمع رجلا من ثقيف يحدّث عن رجل من كنانة عن أبى سعيد. و أخرج الفريابى، و أحمد، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا، فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ فأمّا الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنّة بغير حساب. و أما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا. و أمّا الذين ظلموا

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۴٠۴

أنفسهم، فأولئك الذين يحسبون فى طول المحشر، ثمّ هم الذين تلافاهم اللّه برحمته، فهم الذين يقولون:
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ إلى آخر الآية». قال البيهقى: إذا كثرت روايات فى حديث ظهر أن للحديث أصلا اه. و فى إسناد أحمد: محمّد بن إسحاق، و فى إسناد ابن أبى حاتم رجل مجهول، لأنه رواه من طريق الأعمش عن رجل عن أبى ثابت عن أبى الدرداء، و رواه ابن جرير عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى عن عوف بن مالك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «أمتى ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنّة بغير حساب، و ثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنّة، و ثلث يمحّصون و يكشفون، ثم تأتى الملائكة فيقولون وجدناهم يقولون: لا إله إلا اللّه وحده، فيقول اللّه: أدخلوهم الجنّة بقولهم لا إله إلا اللّه وحده، و احملوا خطاياهم على أهل التكذيب و هى التى قال اللّه: وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ و تصديقها فى التى ذكر فى الملائكة. قال اللّه تعالى:
ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فجعلهم ثلاثة أفواج. فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذى يكشف و يمحّص، و منهم مقتصد، و هو الذى يحاسب حسابا يسيرا. و منهم سابق بالخيرات، فهو الذى يلج الجنّة بغير حساب و لا عذاب بإذن اللّه، يدخلونها جميعا». قال ابن كثير بعد ذكر هذا الحديث: غريب جدّا اه. و هذه الأحاديث يقوّى بعضها بعضا و يجب المصير إليها، و يدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر، و يؤيدها ما أخرجه الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث عن أسامة بن زيد: فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ الآية قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كلّهم من هذه الأمّة، و كلّهم فى الجنّة» و ما أخرجه الطيالسى، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و الحاكم، و ابن مردويه عن عقبة بن صهبان قال: قلت لعائشة أ رأيت قول اللّه ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الآية، قالت: أما السابق، فمن مضى فى حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فشهد له بالجنة. و أما المقتصد فمن تبع آثارهم، فعمل بمثل عملهم حتى لحق بهم. و أما الظالم لنفسه، فمثلى و مثلك و من اتبعنا، و كلّ فى الجنة. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، و ثلث يحاسبون حسابا يسيرا، و ثلث يجيئون بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا، فيقول الربّ: أدخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى، ثم قرأ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الآية.
و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا نزع بهذه الآية ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ قال: ألا إن سابقنا سابق، و مقتصدنا ناج و ظالمنا مغفور له.
و أخرجه العقيلى، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث من وجه آخر عنه مرفوعا. و أخرجه ابن النجار من حديث أنس مرفوعا. و أخرج الطبرانى عن ابن عباس قال: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، و المقتصد يدخل الجنة برحمة اللّه، و الظالم لنفسه و أصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم، و أخرج سعيد ابن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن عثمان بن عفان أنه نزع بهذه الآية، ثم قال: ألا إن سابقنا أهل جهادنا، ألا و إن مقتصدنا أهل حضرنا، ألا و إن ظالمنا أهل بدونا. و أخرج سعيد بن منصور، و البيهقى فى البعث عن البراء بن عازب فى قوله: فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ الآية قال:
فتح القدير، ج۴، ص: ۴۰۵
أشهد على اللّه أن يدخلهم جميعا الجنة. و أخرج الفريابى، و ابن جرير، و ابن مردويه عنه قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم هذه الآية «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا قال: كلهم ناج و هى هذه الأمة».
و أخرج الفريابى، و عبد بن حميد عن ابن عباس فى الآية قال: هى مثل التى فى الواقعة أصحاب الميمنة و أصحاب المشأمة. و السابقون: صنفان ناجيان، و صنف هالك. و أخرج الفريابى، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و البيهقى

عنه فى قوله: فمنهم ظالم لنفسه قال: هو الكافر، و المقتصد: أصحاب اليمين.

و هذا المروىّ عنه رضى اللّه عنه لا يطابق ما هو الظاهر من النظم القرآنى، و لا يوافق ما قدّمنا من الروايات عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و عن جماعة من الصحابة. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن عبد اللّه بن الحارث أن ابن عباس سأل كعبا عن هذه الآية، فقال نجوا كلهم، ثم قال: تحاكت مناكبهم و ربّ الكعبة، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم، و قد قدّمنا عن ابن عباس ما يفيده أن الظالم لنفسه من الناجين، فتعارضت الأقوال عنه. و أخرج الترمذى، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى: أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم تلا قول اللّه جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً فقال: «إنّ عليهم التّيجان، إنّ أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق و المغرب». و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الآية قال: هم قوم فى الدنيا يخافون اللّه، و يجتهدون له فى العبادة سرّا و علانية، و فى قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم، فهم خائفون أن لا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من الذنوب التى سلفت، فعندها قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ غفر لنا العظيم، و شكر لنا القليل من أعمالنا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه عنه فى الآية قال: حزن النار.

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٣٦ الى ٤٥]

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (٣٩) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (٤٠)

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤٢) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَ مَكْرَ السَّيِّئِ وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤) وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (٤٥)

فتح القدير، ج ۴، ص: ۴۰۶

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر جزاء عباده الصالحين، ذكر جزاء عباده الكافرين فقال: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا أى: لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا و يستريحوا من العذاب وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها بل كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ و هذه الآية هى مثل قوله سبحانه: لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى «١» قرأ الجمهور «فيموتوا» بالنصب جوابا للنفى، و قرأ عيسى بن عمر و الحسن بإثبات النون. قال المازنى: على العطف على يقضى. و قال ابن عطية: هى قراءة ضعيفة و لا وجه لهذا التضعيف بل هى كقوله: وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ «٢» كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ أى: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى كلّ من هو مبالغ فى الكفر، و قرأ أبو عمرو «نجزى» على البناء للمفعول وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها من الصراخ: و

هو الصياح، أى: و هم يستغيثون فى النار رافعين أصواتهم، و الصارخ: المستغيث، و منه قول الشاعر:

كنّا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصّراخ له قرع الظّنابيبا «٣»

رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِی كُنَّا نَعْمَلُ أى و هم يصطرخون يقولون: ربنا ... إلخ. قال مقاتل: هو أنهم ينادون: ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى نعمل: من الشرك و المعاصى، فنجعل الإيمان منا بدل ما كنا عليه من الكفر، و الطاعة بدل المعصية، و انتصاب صالحا على أنه صفة لمصدر محذوف، أى: عملا صالحا، أو صفة لموصوف محذوف، أى: نعمل شيئا صالحا. قيل و زيادة قوله: غَيْرَ الَّذِی كُنَّا نَعْمَلُ للتحسر على ما عملوه من غير الأعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأن أعمالهم فى الدنيا كانت غير صالحة، فأجاب اللّه سبحانه عليهم بقوله: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ و الاستفهام: للتقريع و التوبيخ، و الواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره، و ما: نكرة موصوفة، أى: أو لم نعمركم عمرا يتمكن من التذكر فيه من تذكر. فقيل: هو ستون سنة، و قيل: أربعون، و قيل: ثمانى عشرة سنة. قال بالأوّل: جماعة من الصحابة، و بالثانى: الحسن و مسروق و غيرهما، و بالثالث: عطاء و قتادة. و قرأ الأعمش «ما يذّكّر» بالإدغام وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ قال الواحدى: قال جمهور المفسرين: هو النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و قال عكرمة و سفيان ابن عيينة و وكيع و الحسن بن الفضل و الفراء و ابن جرير: هو الشيب، و يكون معناه على هذا القول: أو لم نعمركم حتى شبتم، و قيل: هو القرآن، و قيل: الحمى. قال الأزهرى: معناه: أن الحمى رسول الموت، أى: كأنها تشعر بقدومه و تنذر بمجيئه، و الشيب: نذير أيضا، لأنه يأتى فى سنّ الاكتهال، و هو علامة لمفارقة سنّ الصبا الذى هو سنّ اللهو و اللعب، و قيل: هو موت الأهل و الأقارب، و قيل: هو كمال العقل، و قيل:

---

(١). الأعلى: ١٣.

(٢). المرسلات: ٣٦.

(٣). البيت لسلامة بن جندل، و الظّنابيب: جمع الظنبوب، و هو مسمار يكون فى جبّة السّنان، و قرع ظنابيب الأمر: ذلّله.

البلوغ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ أى: فذوقوا عذاب جهنم، لأنكم لم تعتبروا و لم تتعظوا، فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب اللّه، و يحول بينكم و بينه. قال مقاتل: فذوقوا العذاب، فما للمشركين من مانع يمنعهم إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قرأ الجمهور بإضافة عالم إلى غيب، و قرأ جناح ابن حبيش بالتنوين و نصب غيب. و المعنى: أنه عالم بكل شى‏ء و من ذلك أعمالا لا تخفى عليه منها خافية، فلو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحا كما قال سبحانه: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «١» إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ تعليل لما قبله، لأنه إذا علم مضمرات الصدور و هى أخفى من كلّ شى‏ء علم ما فوقها بالأولى، و قيل: هذه الجملة مفسرة للجملة الأولى هُوَ الَّذِی جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِی الْأَرْضِ أى: جعلكم أمة خالفة لمن قبلها. قال قتادة: خلفا بعد خلف و قرنا بعد قرن، و الخلف: هو التالى للمتقدّم، و قيل: جعلكم خلفاءه فى أرضه فَمَنْ كَفَرَ منكم هذه النعمة فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ أى: عليه ضرر كفره، لا يتعدّاه إلى غيره وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً أى: غضبا و بغضا وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً أى: نقصا و هلاكا، و المعنى: أن الكفر لا ينفع عند اللّه حيث لا يزيدهم إلا المقت، و لا ينفعهم فى أنفسهم حيث لا يزيدهم إلا الخسار. ثم أمره سبحانه أن يوبخهم و يبكتهم فقال: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: أخبرونى عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهة و عبدتموهم من دون اللّه، و جملة: أَرُونِی ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ بدل اشتمال من أرأيتم، و المعنى: أخبرونى عن شركائكم، أرونى أىّ شى‏ء خلقوا من الأرض؟ و قيل: إن الفعلان، و هما أرأيتم و أرونى من باب التنازع. و قد أعمل الثانى على ما هو اختيار البصريين أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِی السَّماواتِ أى: أم لهم شركة مع اللّه فى خلقها، أو ملكها، أو التصرف

فيها حتى يستحقوا بذلك الشركة فى الإلهية أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً أى: أم أنزلنا عليهم كتابا بالشركة فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ أى: على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب. قرأ ابن كثير و أبو عمرو و حمزة و حفص عن عاصم «بيّنة» بالتوحيد، و قرأ الباقون بالجمع. قال مقاتل: يقول هل أعطينا كفار مكة كتابا، فهم على بيان منه بأن مع اللّه شريكا. ثم أضرب سبحانه عن هذا إلى غيره فقال: بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً أى: ما يعد الظالمون بعضهم بعضا كما يفعله الرّؤساء و القادة من المواعيد لأتباعهم إلا غرورا يغرونهم به و يزينونه لهم، و هو الأباطيل التى تغرّ و لا حقيقة لها، و ذلك قولهم: إن هذه الآلهة تنفعهم و تقرّبهم إلى اللّه، و تشفع لهم عنده. و قيل: إن الشياطين تعد المشركين بذلك، و قيل: المراد بالوعد الذى يعد بعضهم بعضا هو أنهم ينصرون على المسلمين و يغلبونهم، و جملة: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا مستأنفة لبيان قدرة اللّه سبحانه، و بديع صنعه بعد بيان ضعف الأصنام و عدم قدرتها على شىء، و قيل المعنى: إن شركهم يقتضى زوال السموات و الأرض كقوله: تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً «٢» وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ أى: ما أمسكهما من أحد من بعد إمساكه، أو من بعد زوالهما، و الجملة سادّة مسدّ جواب القسم و الشرط، و معنى:

---

(١). الأنعام: ٢٨.

(٢). مريم: ٩٠ و ٩١.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٤٠٨

أَنْ تَزُولا- لئلا- تزولا- أو: كراهة أن تزولا- قال الزجاج: المعنى أن اللّه يمنع السموات و الأرض من أن تزولا، فلا حاجة إلى التقدير. قال الفراء: أى و لو زالتا ما أمسكهما من أحد، قال: و هو مثل قوله:

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ و قيل: المراد زوالهما يوم القيامة، و جملة:

إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً تعليل لما قبلها من إمساكه تعالى للسموات و الأرض وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ المراد قريش، أقسموا قبل أن يبعث اللّه محمّدا صلّى اللّه عليه و سلم، بهذا القسم حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، و معنى: مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ يعنى: المكذبة للرسل، و النذير: النبىّ، و الهدى: الاستقامة، و كانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كان الرسل فى بنى إسرائيل فَلَمَّا جاءَهُمْ ما تمنوه، و هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الذى هو أشرف نَذِيرٌ و أكرم مرسل و كان من أنفسهم ما زادَهُمْ مجيئه إِلَّا نُفُوراً منهم عنه، و تباعدا عن إجابته اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ أى: لأجل الاستكبار و العتوّ وَ لأجل مَكْرَ السَّيِّئِ أى: مكر العمل السيئ، أو: مكروا المكر السيئ، و المكر: هو الحيلة و الخداع، و العمل القبيح، و أضيف إلى صفته كقوله: مسجد الجامع، و صلاة الأولى، و أنث إحدى لكونه أمة مؤنثة كما قال الأخفش. و قيل المعنى: من إحدى الأمم على العموم، و قيل:

من الأمة التى يقال لها إحدى الأمم تفضيلا لها. قرأ الجمهور «و مكر السّيئ» بخفض همزة السىء، و قرأ الأعمش و حمزة بسكونها وصلا. و قد غلط كثير من النحاة هذه القراءة، و نزهوا الأعمش على جلالته أن يقرأ بها، قالوا: و إنما كان يقف بالسكون، فغلط من روى عنه أنه كان يقرأ بالسكون وصلا، و توجيه هذه القراءة ممكن، بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف كما فى قول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من اللّه و لا واغل

بسكون الباء من أشرب، و مثله قراءة من قرأ «و ما يشعركم» بسكون الراء، و مثل ذلك قراءة أبى عمرو «إلى بارئكم» بسكون الهمزة، و غير ذلك كثير. قال أبو على الفارسى: هذا على إجراء الوصل مجرى الوقف، و قرأ ابن مسعود «و مكرا سيّئا» وَ لا يَحِيقُ

الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ أى: لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء. قال الكلبى: يحيق بمعنى يحيط، و الحوق الإحاطة، يقال حاق به كذا إذا أحاط به و هذا هو الظاهر من معنى يحيق فى لغة العرب، و لكن قطرب فسره هنا بينزل، و أنشد:

و قد دفعوا المنيّة فاستقلّت ذراعا بعد ما كانت تحيق

أى تنزل فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ أى: سنة اللّه فيهم؛ بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا أى: لا يقدر أحد أن يبدّل سنة اللّه التى سنها بالأمم المكذبة من إنزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلا عنه وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا بأن يحوّل ما جرت به سنة اللّه من العذاب، فيدفعه عنهم، و يضعه على غيرهم، و نفى وجدان التبديل و التحويل؛ عبارة عن نفى وجودهما أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى ما قبلها و تأكيده،

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۰۹

أى: ألم يسيروا فى الأرض فينظروا ما أنزلنا بعاد و ثمود، و مدين و أمثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل، فإن ذلك هو من سنة اللّه فى المكذبين التى لا تبدّل و لا تحوّل، و آثار عذابهم و ما أنزل اللّه بهم موجودة فى مساكنهم ظاهرة فى منازلهم وَ الحال أن أولئك كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً و أطول أعمارا، و أكثر أموالا، و أقوى أبدانا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ أى: ما كان ليسبقه و يفوته من شىء من الأشياء كائنا ما كان فيهما إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً أى: كثير العلم، و كثير القدرة لا يخفى عليه شىء، و لا يصعب عليه أمر وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا من الذنوب و عملوا من الخطايا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها أى الأرض مِنْ دَابَّةٍ من الدواب التى تدبّ كائنة ما كانت، أما بنو آدم فلذنوبهم، و أما غيرهم فلشؤم معاصى بنى آدم. و قيل: المراد ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدبّ من بنى آدم و الجنّ، و قد قال بالأوّل ابن مسعود و قتادة، و قال بالثانى الكلبى. و قال ابن جريج؛ و الأخفش، و الحسين بن الفضل: أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى و هو يوم القيامة فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً أى: بمن يستحق منهم الثواب، و من يستحق منهم العقاب، و العامل فى إذا هو جاء، لا بصيرا، و فى هذا تسلية للمؤمنين، و وعيد للكافرين.

و قد أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و أبو الشيخ و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى السنن عن ابن عباس فى قوله: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ قال: ستين سنة. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عنه أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين؟ و هو العمر الذى قال اللّه أ و لم نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكّر» و فى إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومى، و فيه مقال. و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و البخارى و النسائى، و البزار، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و ابن مردويه، و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أعذر اللّه إلى امرئ أخّر عمره حتّى بلغ ستين سنة» و أخرج عبد بن حميد، و الطبرانى، و الحاكم، و ابن مردويه عن سهل بن سعد مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير عن علىّ ابن أبى طالب قال: العمر الذى عمرهم اللّه به ستون سنة. و أخرج الترمذى، و ابن ماجة، و الحاكم، و ابن المنذر، و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أعمار أمّتى ما بين السّتين إلى السّبعين، و أقلّهم من يجوز ذلك». قال الترمذى بعد إخراجه: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ثم أخرجه فى موضع آخر من كتاب الزهد و قال: هذا حديث حسن غريب من حديث أبى صالح عن أبى هريرة، و قد روى من غير وجه عنه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية قال: هو ستّ و أربعون سنة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: العمر الذى أعذر اللّه إلى ابن آدم فيه بقوله: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ أربعون سنة.

و أخرج أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الدارقطنى فى الأفراد، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و الخطيب فى تاريخه عن أبى هريرة قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول على المنبر: قال: وقع

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۱۰

فى نفس موسى هل ينام اللّه عزّ و جلّ؟ فأرسل اللّه إليه ملكا فأرّقه ثلاثا و أعطاه قارورتين، فى كلّ يد قارورة، و أمره أن يحتفظ بهما، فجعل ينام و تكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ، فيحبس إحداهما على الأخرى، حتّى نام نومة، فاصطفقت يداه و انكسرت القارورتان. قال: ضرب اللّه له مثلا: إنّ اللّه تبارك و تعالى لو كان ينام لم تستمسك السّماء و الأرض» و أخرجه ابن أبى حاتم من طريق عبد اللّه بن سلام أن موسى قال:

يا جبريل هل ينام ربّك؟ فذكر نحوه. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة، و البيهقى عن سعيد بن أبى بردة عن أبيه أن موسى فذكر نحوه. و أخرج الفريابى، و ابن المنذر، و الطبرانى، و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال:

إنّه كاد الجعل ليعذب فى جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ الآية.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۱۱

سورة يس

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: بالإجماع إلا أن فرقة قالت: وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ نزلت فى بنى سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم، و ينتقلوا إلى جوار مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و سيأتى بيان ذلك. و أخرج ابن الضريس، و النحاس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: سورة يس نزلت بمكة و أخرج ابن مردويه عن عائشة مثله. و أخرج الدارمى، و الترمذى، و محمّد بن نصر، و البيهقى فى الشعب عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ لكلّ شىء قلبا، و قلب القرآن يس، من قرأ يس، كتب اللّه له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرّات» قال الترمذى بعد إخراجه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن، و فى إسناده هارون و أبو محمّد، و هو شيخ مجهول، و فى الباب عن أبى بكر، و لا يصح لضعف إسناده. و أخرج البزار من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ لكلّ شىء قلبا، و قلب القرآن يس»، ثم قال بعد إخراجه: لا نعلم رواه إلا زيد عن حميد، يعنى زيد بن الحباب عن حميد المكى مولى آل علقمة. و أخرج الدارمى، و أبو يعلى، و الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه اللّه غفر له فى تلك اللّيلة» قال ابن كثير: إسناده جيد. و أخرج ابن حبان، و الضياء عن جندب بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه اللّه غفر له» و إسناده فى صحيح ابن حبان هكذا: حدّثنا محمّد بن إسحاق ابن إبراهيم مولى ثقيف، حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد الكوبى، حدّثنا أبى، حدثنا زياد بن خيثمة، حدثنا محمّد بن جحادة عن الحسن عن جندب بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فذكره. و أخرج أحمد، و أبو داود، و النسائى، و ابن ماجة، و محمّد بن نصر، و ابن حبان و الطبرانى، و الحاكم، و البيهقى فى الشعب عن معقل بن يسار أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «يس قلب القرآن، لا يقرؤها عبد يريد اللّه و الدّار الآخرة إلا غفر له ما تقدّم من ذنبه، فاقرؤوها على موتاكم» و قد ذكر له أحمد إسنادين: أحدهما فيه مجهول، و الآخر ذكر فيه عن أبى عثمان و قال: و ليس بالنهدى عن أبيه عن معقل. و أخرج سعيد بن

منصور، و البيهقى عن حسان بن عطية أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من قرأ يس فكأنّما قرأ القرآن عشر مرّات». و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه و الخطيب و البيهقى عن أبى بكر الصديق قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «سورة يس تدعى فى التوراة المعمّمة، تعمّ صاحبها بخير الدنيا و الآخرة، تكابد عنه بلوى الدّنيا و الآخرة، و تدفع عنه أهاويل الآخرة، و تدعى الدّافعة و القاضية، تدفع عن صاحبها كلّ سوء، و تقضى له كلّ حاجة، من قرأها عدلت عشرين حجّة، و من سمعها عدلت له ألف دينار فى سبيل اللّه، و من كتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف دواء، و ألف نور، و ألف يقين، و ألف بركة، و ألف رحمة، و نزعت عنه كلّ غلّ و داء» قال البيهقى:

تقرّب به عبد الرحمن بن أبى بكر الجدعانى عن سليمان بن رافع الجندى، و هو منكر. قلت: و هذا الحديث

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۱۲

هو الذى تقدّمت الإشارة من الترمذى إلى ضعف إسناده، و لا يبعد أن يكون موضوعا، فهذه الألفاظ كلها منكرة بعيدة من كلام من أوتى جوامع الكلم، و قد ذكره الثعلبى من حديث عائشة، و ذكره الخطيب من حديث أنس. و ذكر نحوه الخطيب من حديث علىّ بأخصر منه. و أخرج البزار عن ابن عباس قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى سورة يس: «لوددت أنّها فى قلب كلّ إنسان من أمتى» و إسناده هكذا: قال حدثنا سلمة ابن شبيب، حدّثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فذكره. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه قال السيوطى بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«من دوام على قراءة يس كلّ ليلة ثمّ مات مات شهيدا». و أخرج الدارمى عن ابن عباس قال: من قرأ يس حين يصبح أعطى يسر يومه حتى يمسى، و من قرأها فى صدر ليلته أعطى يسر ليلته حتى يصبح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة يس (۳۶): الآيات ۱ الى ۱۲]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يس (۱) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (۲) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۳) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴)

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (۵) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (۶) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۷) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (۸) وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (۹) وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۱۰) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (۱۱) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (۱۲)

قوله: يس قرأ الجمهور بسكون النون، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و حمزة و حفص و قالون و ورش بإدغام النون فى الواو الذى بعدها، و قرأ عيسى بن عمر بفتح النون، و قرأ ابن عباس، و ابن أبى إسحاق، و نصر بن عاصم بكسرها، فالفتح على البناء أو على أنه مفعول فعل مقدّر تقديره: اتل يس، و الكسر على البناء أيضا كجير، و قيل الفتح و الكسر للفرار من التقاء الساكنين. و أما وجه قراءة الجمهور بالسكون للنون، فلكونها مسرودة على نمط التعديد؛ فلا حظ لها من الإعراب. و قرأ هارون الأعور و محمّد بن السميقع و الكلبى بضم النون على البناء كمنذ و حيث و قط، و قيل: على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: هذه يس، و منعت من الصرف للعلمية و التأنيث.

و اختلف فى معنى هذه اللفظة، فقيل: معناها يا رجل، أو يا إنسان. قال ابن الأنبارى: الوقف على يس حسن لمن قال هو افتتاح

للسورة، و من قال معناه يا رجل لم يقف عليه. و قال سعيد بن جبير و غيره:
هو اسم من أسماء محمّد صلّى اللّه عليه و سلم دليله إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ و منه قول السعد الحميرى:
يا نفس لا تمحضى بالنّصح جاهدةعلى المودّة إلّا آل ياسين
فتح القدير، ج۴، ص: ۴۱۳

و منه قوله: سَلامٌ عَلى إِلْ‌ياسِينَ «۱» أى على آل محمّد، و سيأتى فى الصافات ما المراد بآل ياسين.
قال الواحدى: قال ابن عباس و المفسرون: يريد يا إنسان: يعنى محمّدا صلّى اللّه عليه و سلم. و قال أبو بكر الوراق: معناه يا سيد البشر. و قال مالك: هو اسم من أسماء اللّه تعالى، روى ذلك عنه أشهب. و حكى أبو عبد الرحمن السلمى عن جعفر الصادق أن معناه يا سيد. و قال كعب: هو قسم أقسم اللّه به، و رجح الزجاج أن معناه يا محمّد.
و اختلفوا هل هو عربىّ أو غير عربىّ؟ فقال سعيد بن جبير و عكرمة: حبشى، و قال الكلبى: سريانى تكلمت به العرب فصار من لغتهم. و قال الشعبى: هو بلغة طيئ. و قال الحسن: هو بلغة كلب. و قد تقدّم فى طه و فى مفتتح سورة البقرة ما يغنى عن التطويل هاهنا وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ بالجرّ على أنه مقسم به ابتداء.
و قيل هو معطوف على يس على تقدير كونه مجرورا بإضمار القسم. قال النقاش: لم يقسم اللّه لأحد من أنبيائه بالرسالة فى كتابه إلا لمحمّد صلّى اللّه عليه و سلم تعظيما له و تمجيدا، و الحكيم المحكم الذى لا يتناقض و لا يتخالف، أو الحكيم قائله، و جواب القسم إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ و هذا ردّ على من أنكر رسالته من الكفار بقولهم: لَسْتَ مُرْسَلًا «۲» و قوله: عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ خبر آخر لإنّ، أى: إنك على صراط مستقيم، و الصراط المستقيم: الطريق القيم الموصل إلى المطلوب. قال الزجاج: على طريقة الأنبياء الذين تقدّموك، و يجوز أن يكون فى محل نصب على الحال تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو، و أبو بكر برفع «تنزيل» على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو تنزيل، و يجوز أن يكون خبرا لقوله يس إن جعل اسما للسورة، و قرأ الباقون بالنصب على المصدرية، أى: نزّل اللّه ذلك تنزيل العزيز الرحيم. و المعنى: أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم، و قيل المعنى: إنك يا محمّد تنزيل العزيز الرحيم، و الأوّل أولى. و قيل: هو منصوب على المدح على قراءة من قرأ بالنصب، و عبر سبحانه عن المنزل بالمصدر مبالغة حتى كأنه نفس التنزيل، و قرأ أبو حيوة، و الترمذى، و أبو جعفر يزيد بن القعقاع و شيبة «تنزيل» بالجرّ على النعت للقرآن أو البدل منه، و اللام فى لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ يجوز أن تتعلق بتنزيل، أو بفعل مضمر يدلّ عليه من المرسلين، أى: أرسلناك لتنذر، و «ما» فى ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ هى النافية، أى: لم ينذر آباؤهم، و يجوز أن تكون موصولة أو موصوفة، أى: لتنذر قوما الذى أنذره آباؤهم، أو لتنذرهم عذابا أنذره آباؤهم، و يجوز أن تكون مصدرية، أى: إنذار آبائهم، و على القول بأنها نافية يكون المعنى: ما أنذر آباؤهم برسول من أنفسهم، و يجوز أن يراد ما أنذر آباؤهم الأقربون لتطاول مدة الفترة، و قوله: فَهُمْ غافِلُونَ متعلق بنفى الإنذار على الوجه الأوّل:
أى لم ينذر آباؤهم فهم بسبب ذلك غافلون، و على الوجوه الآخرة متعلق بقوله لتنذر، أى: فهم غافلون عما أنذرنا به آباءهم، و قد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المعنى على النفى، و هو الظاهر من النظم لترتيب فهم غافلون على ما قبله، و اللام فى قوله: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ هى الموطئة للقسم، أى: و اللّه لقد حقّ القول على أكثرهم؛ و معنى حقّ: ثبت و وجب القول، أى: العذاب على أكثرهم، أى: أكثر أهل

---

(۱). الصافات: ۱۳۰.

(۲). الرعد: ۴۳.

فتح القدير، ج‏4، ص: 414

مكة، أو أكثر الكفار على الإطلاق، أو أكثر كفار العرب، و هم من مات على الكفر و أصرّ عليه طول حياته فيتفرّع قوله: فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ على ما قبله بهذا الاعتبار، أي: لأن اللّه سبحانه قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر و الموت عليه، و قيل: المراد بالقول المذكور هنا هو قوله سبحانه: فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ «1» و جملة إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا تقرير لما قبلها مثلت حالهم بحال الذين غلت أعناقهم فَهِيَ أي: الأغلال منتهية إِلَى الْأَذْقانِ فلا يقدرون عند ذلك على الالتفات و لا يتمكنون من عطفها، و هو معنى قوله: فَهُمْ مُقْمَحُونَ أي: رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم. قال الفراء و الزجاج: المقمح: الغاضّ بصره بعد رفع رأسه؛ و معنى الإقماح رفع الرأس و غضّ البصر، يقال أقمح البعير رأسه و قمح: إذا رفع رأسه و لم يشرب الماء، قال الأزهري: أراد اللّه أن أيديهم لما غلت عند أعناقهم رفعت الأغلال إلى أذقانهم و رؤوسهم صعداء، فهم مرفوعو الرؤوس رفع الأغلال إياها.

و قال قتادة: معنى مقمحون: مغلولون، و الأوّل أولى، و منه قول الشاعر:

و نحن على جوانبها قعودنغضّ الطّرف كالإبل القماح

قال الزجاج: قيل للكانونين شهرا قماح، لأن الإبل إذا وردت الماء رفعت رؤوسها لشدة البرد، و أنشد قول أبي زيد الهذلي:

فتى ما ابن الأغرّ إذا شتوناو حبّ الزّاد في شهري قماح

قال أبو عبيدة: قمح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض و لم يشرب. و قال أبو عبيدة أيضا: هو مثل ضربه اللّه لهم في امتناعهم عن الهدى كامتناع المغلول، كما يقال فلان حمار، أي: لا يبصر الهدى، و كما قال الشاعر:

لهم عن الرّشد أغلال و أقياد و قال الفراء: هذا ضرب مثل، أي: حسبناهم عن الإنفاق في سبيل اللّه، و هو كقوله: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى‏ عُنُقِكَ «2» و به قال الضحاك. و قيل: الآية إشارة إلى ما يفعل بقوم في النار من وضع الأغلال في أعناقهم كما قال تعالى: إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ «3» و قرأ ابن عباس «إنّا جعلنا في أيمانهم أغلالا» قال الزجاج: أي في أيديهم. قال النحاس: و هذه القراءة تفسير و لا يقرأ بما خالف المصحف. قال: و في الكلام حذف على قراءة الجماعة، التقدير: إنا جعلنا في أعناقهم و في أيديهم أغلالا فهي إلى الأذقان؛ فلفظ هي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، و العرب تحذف مثل هذا، و نظيره سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «4» و تقديره: و سرابيل تقيكم البرد، لأن ما وقى من الحرّ وقى من البرد، لأن الغلّ إذا كان في العنق فلا بدّ أن يكون في اليد، و لا سيما و قد قال اللّه فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فقد علم أنه يراد به الأيدي فهم مقمحون، أي: رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق، لأن من غلت يداه إلى ذقنه ارتفع رأسه. و روى عن ابن عباس أنه قرأ «إنا جعلنا في أيديهم أغلالا» و عن ابن مسعود أنه قرأ «إنا جعلنا في أيمانهم أغلالا» كما روى سابقا من قراءة ابن عباس

---

(1). ص: 84 و 85.

(2). الإسراء: 29.

(3). غافر: 73.

(4). النحل: 81.

فتح القدير، ج‏4، ص: 415

وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا أي: منعناهم عن الإيمان بموانع فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان، كالمضروب أمامه و خلفه بالأسداد، و السدّ بضم السين و فتحها لغتان، و من هذا المعنى في الآية قول الشاعر:

و من الحوادث لا أبالك أنّنى ضربت علىّ الأرض بالأسداد

لا أهتدى فيها لموضع تلعةٍبين العذيب و بين أرض مراد

فَأَغْشَيْناهُمْ أى: غطينا أبصارهم فَهُمْ بسبب ذلك لا يُبْصِرُونَ أى لا يقدرون على إبصار شى‏ء. قال الفراء: فألبسنا أبصارهم غشاوة: أى عمى، فهم لا يبصرون سبيل الهدى، و كذا قال قتادة: إن المعنى لا يبصرون الهدى. و قال السدّى: لا يبصرون محمّدا حين ائتمروا على قتله. و قال الضحاك:

و جعلنا من بين أيديهم سدّا: أى الدنيا و من خلفهم سدّا: أى الآخرة فأغشيناهم فهم لا يبصرون: أى عموا عن البعث، و عموا عن قبول الشرائع فى الدنيا. و قيل ما بين أيديهم الآخرة و ما خلفهم الدنيا، قرأ الجمهور بالغين المعجمة: أى غطينا أبصارهم، فهو على حذف مضاف. و قرأ ابن عباس، و عمر بن عبد العزيز، و الحسن، و يحيى ابن يعمر، و أبو رجاء، و عكرمة بالعين المهملة من العشا، و هو ضعف البصر. و منه وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ «١» وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أى: إنذارك إياهم و عدمه سواء. قال الزجاج: أى من أضله اللّه هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار إنما ينفع الإنذار من ذكر فى قوله: إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ أى: اتبع القرآن، و خشى اللّه فى الدنيا، و جملة «لا يؤمنون» مستأنفة مبينة لما قبلها من الاستواء، أو فى محل نصب على الحال، أو بدل، و بالغيب فى محل نصب على الحال من الفاعل أو المفعول فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ أى: بشر هذا الذى اتبع الذكر، و خشى الرحمن بالغيب بمغفرة عظيمة و أجر كريم، أى: حسن، و هو الجنة. ثم أخبر سبحانه بإحيائه الموتى فقال: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى أى: نبعثهم بعد الموت. و قال الحسن و الضحاك: أى نحييهم بالإيمان بعد الجهل، و الأوّل أولى. ثم توعدهم بكتب آثارهم فقال: وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا أى أسلفوا من الأعمال الصالحة و الطالحة وَ آثارَهُمْ أى ما أبقوه من الحسنة التى لا ينقطع نفعها بعد الموت: كمن سنّ سنة حسنة أو نحو ذلك، أو السيئات التى تبقى بعد موت فاعلها، كمن سنّ سنة سيئة. قال مجاهد و ابن زيد: و نظيره قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ «٢» و قوله: يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ «٣» و قيل المراد بالآية آثار المشائين إلى المساجد، و به قال جماعة من الصحابة و التابعين. قال النحاس: و هو أولى ما قيل فى الآية لأنها نزلت فى ذلك. و يجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية لا بخصوص سببها، و عمومها يقتضى كتب جميع آثار الخير و الشرّ، و من الخير تعليم العلم و تصنيفه، و الوقف على القرب، و عمارة المساجد، و القناطر. و من الشرّ ابتداع المظالم و إحداث ما يضرّ بالناس، و يقتدى به أهل الجور، و يعملون عليه من مكس أو غيره، و لهذا قال سبحانه وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ أى: و كلّ شى‏ء من أعمال العباد و غيرها كائنا ما كان فى إمام مبين، أى: كتاب

---

(١). الزخرف: ٣٦.

(٢). الانفطار: ٥.

(٣). القيامة: ١٣.

مقتدى به موضح لكل شى‏ء. قال مجاهد و قتادة و ابن زيد: أراد اللوح المحفوظ، و قالت فرقة: أراد صحائف الأعمال. قرأ الجمهور «و نكتب» على البناء للفاعل. و قرأ زرّ و مسروق على البناء للمفعول. و قرأ الجمهور كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ بنصب كلّ على الاشتغال. و قرأ أبو السّمّال بالرفع. على الابتداء.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود و ابن عباس فى قوله: يس قالا: يا محمّد. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله:

يس قال: يا إنسان. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن و الضحاك و عكرمة مثله. و أخرج ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال: «كان النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ فى المسجد فيجهر بالقراءة، حتّى تأذى به ناس من قريش، حتّى قاموا ليأخذوه، و إذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم، و إذا هم عمى لا يبصرون، فجاؤوا إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم، فقالوا: ننشدك اللّه و الرّحم يا محمّد، قال: و لم يكن بطن من بطون قريش إلا و للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلم فيهم قرابة، فدعا النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم حتى ذهب ذلك عنهم، فنزلت يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إلى قوله: أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ قال: فلم يؤمن من ذلك النفر أحد». و فى الباب روايات فى سبب نزول ذلك، هذه الرواية أحسنها و أقربها إلى الصحة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: الأغلال ما بين الصدر إلى الذقن فَهُمْ مُقْمَحُونَ كما تقمح الدابة باللجام. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله:

وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا الآية قال: كانوا يمرّون على النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم فلا يرونه. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: اجتمعت قريش بباب النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم ينتظرون خروجه ليؤذوه، فشقّ ذلك عليه، فأتاه جبريل بسورة يس، و أمره بالخروج عليهم، فأخذ كفا من تراب و خرج و هو يقرؤها و يذرّ التراب على رؤوسهم، فما رأوه حتى جاز، فجعل أحدهم يلمس رأسه فيجد التراب، و جاء بعضهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا ننتظر محمّدا، فقال: لقد رأيته داخلا المسجد، قال: قوموا فقد سحركم. و أخرج عبد الرزاق، و الترمذى و حسنه، و البزار، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن أبى سعيد الخدرى قال: كان بنو سلمة فى ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فأنزل اللّه إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ فدعاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال: إنّه يكتب آثاركم، ثم قرأ عليهم الآية فتركوا. و أخرج الفريابى، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد، و ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و فى صحيح مسلم و غيره من حديث جابر قال: «إنّ بنى سلمة أرادوا أن يبيعوا ديارهم و يتحوّلوا قريبا من المسجد، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

يا بنى سلمة، دياركم تكتب آثاركم».

[سورة يس (٣٦): الآيات ١٣ الى ٢٧]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧)

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)

أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۴۱۷

قوله: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ قد تقدّم الكلام على نظير هذا فى سورة البقرة، و سورة النمل، و المعنى: اضرب لأجلهم مثلا، أو اضرب لأجل نفسك أصحاب القرية مثلا: أى مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية، فعلى الأوّل لما قال تعالى: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ و قال: لِتُنْذِرَ قَوْماً قال قل لهم: ما أنا بدعا من الرسل، فإن قبلى بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون، و أنذروهم بما

أنذرتكم، و ذكروا التوحيد، و خوّفوا بالقيامة، و بشروا بنعيم دار الإقامة. و على الثانى لما قال: إن الإنذار لا ينفع من أضله اللّه، و كتب عليه أنه لا يؤمن، قال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم: اضرب لنفسك و لقومك مثلا: أى مثل لهم عند نفسك مثلا بأصحاب القرية حيث جاءهم ثلاثة رسل و لم يؤمنوا، و صبر الرسل على الإيذاء و أنت جئت إليهم واحدا، و قومك أكثر من قوم الثلاثة، فإنهم جاءوا إلى أهل القرية، و أنت بعثتك إلى الناس كافة. و المعنى: و اضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية، أى: اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية، فترك المثل، و أقيم أصحاب القرية مقامه فى الإعراب. و قيل: لا حاجة إلى الإضمار، بل المعنى: اجعل أصحاب القرية لهم مثلا على أن يكون مثلا و أصحاب القرية مفعولين لا ضرب، أو يكون أصحاب القرية بدلا من مثلا، و قد قدّمنا الكلام على المفعول الأوّل من هذين المفعولين هل هو مثلا أو أصحاب القرية. و قد قيل: إن ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ «۱» و يستعمل أخرى فى ذكر حالة غريبة، و بيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيره لها كما فى قوله:
وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ «۲» أى: بينا لكم أحوالا بديعة غريبة. هى فى الغرابة كالأمثال فقوله سبحانه هنا وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا يصح اعتبار الأمرين فيه. قال القرطبى: هذه القرية هى إنطاكية فى قول جميع المفسرين، و قوله: إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ بدل اشتمال من أصحاب القرية، و المرسلون: هم أصحاب عيسى بعثهم إلى أهل إنطاكية للدّعاء إلى اللّه، فأضاف اللّه سبحانه الإرسال إلى نفسه فى قوله: إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ لأن عيسى أرسلهم بأمر اللّه سبحانه، و يجوز أن يكون اللّه أرسلهم بعد رفع عيسى إلى السماء، فكذبوهما فى الرسالة، و قيل ضربوهما و سجنوهما. قيل: و اسم الاثنين يوحنا و شمعون. و قيل: أسماء الثلاثة صادق و مصدوق و شلوم قاله ابن جرير و غيره. و قيل: سمعان و يحيى و بولس فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ قرأ الجمهور

---

(۱). التحريم: ۱۰.

(۲). إبراهيم: ۴۵.

بالتشديد، و قرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الزاى. قال الجوهرى «فعزّزنا» يخفف و يشدّد، أى: قوينا و شدّدنا فالقراءتان على هذا بمعنى. و قيل: التخفيف بمعنى غلبنا و قهرنا، و منه وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ «۱» و التشديد بمعنى: قوّينا و كثرنا. قيل: و هذا الثالث هو شمعون، و قيل غيره فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ أى: قال الثلاثة جميعا، و جاءوا بكلامهم هذا مؤكدا لسبق التكذيب للاثنين، و التكذيب لهما تكذيب للثالث، لأنهم أرسلوا جميعا بشى‌ء واحد، و هو الدعاء إلى اللّه عزّ و جلّ، و هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر؛ كأنه قيل: ما قال هؤلاء الرّسل بعد التعزيز لهم بثالث؟ و كذلك جملة: قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فإنها مستأنفة جواب سؤال قدّر: كأنه قيل فما قال لهم أهل إنطاكية، فقيل: قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا، أى: مشاركون لنا فى البشرية، فليس لكم مزية علينا تختصون بها. ثم صرّحوا بجحود إنزال الكتب السماوية فقالوا: وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْ‌ءٍ مما تدّعونه أنتم و يدّعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل و أتباعهم إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ أى: ما أنتم إلا تكذبون فى دعوى ما تدّعون من ذلك، فأجابوهم بإثبات رسالتهم بكلام مؤكد تأكيدا بليغا لتكرر الإنكار من أهل أنطاكية، و هو قوله: رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ فأكدوا الجواب بالقسم الذى يفهم من قولهم: ربنا يعلم، و بإنّ، و باللام وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أى: ما يجب علينا من جهة ربنا إلا تبليغ رسالته على وجه الظهور و الوضوح، و ليس علينا غير ذلك، و هذه الجملة مستأنفة كالتى قبلها، و كذلك جملة: قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ فإنها مستأنفة جوابا عن سؤال مقدّر، أى: إنا تشاءمنا بكم، لم تجدوا جوابا تجيبون به على الرسل إلا هذا الجواب المبنى على الجهل المنبئ عن الغباوة العظيمة، و عدم وجود حجة تدفعون الرسل بها. قال مقاتل: حبس عنهم المطر ثلاث سنين. قيل: إنهم

أقاموا ينـذرونهم عشـر سـنين، ثم رجعوا إلى التجبر و التكبر لما ضاقت صـدورهم و أعيتهم العلل فقالوا: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ أى: لئن لم تتركوا هـذه الـدعوى و تعرضوا عن هذه المقالة لنرجمنكم بالحجارة وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ أى: شديد فظيع. قال الفراء: عامة ما فى القرآن من الرجم المراد به القتل.

و قال قتادة: هو على بابه من الرجم بالحجارة. قيل: و معنى العذاب الأليم: القتل، و قيل: الشتم، و قيل:

هو التعـذيب المؤلم من غير تقييـد بنوع خـاص و هـذا هو الظـاهر. ثم أجـاب عليهم الرسـل دفعـا لمـا زعموه من التطير بهم قـالُوا طـائِرُكُمْ مَعَكُمْ أى: شـأمكم معكم من جهـة أنفسـكم، لازم فى أعنـاقكم، و ليس هو من شؤمنـا. قـال الفراء: طائركم معكم: أى رزقكم و عملكم و به قـال قتادة. قرأ الجمهور «طائركم» اسم فاعل: أى ما طار لكم من الخير و الشرّ، و قرأ الحسن «طيركم» أى: تطيركـم أَ إِنْ ذُكِّرْتُـمْ قرأ الجمهـور مـن السبعة و غيرهـم بهمزة استفهام بعـدها إن الشرطية على الخلاـف بينهم فى التسـهيل و التحقيق، و إدخال ألف بين الهمزتين و عـدمه. و قرأ أبو جعفر و زرّ بن حبيش و ابن السـميقع و طلحـة بهمزتين مفتوحتين. و قرأ الأعمش و عيسى بن عمر و الحسن «أين» بفتح الهمزة و سكون الياء على صيغة الظرف.

---

(۱). ص: ۲۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۱۹

و اختلف سيبويه و يونس إذا اجتمع استفهام و شرط أيّهما يجاب؟ فذهب سيبويه إلى أنه يجاب الاستفهام، و ذهب يونس إلى أنه يجاب الشـرط، و على القولين فالجواب هنا محـذوف، أى: أئن ذكرتم فطائركم معكم لدلالـة ما تقـدّم عليه. و قرأ الماجشون «أن ذكرتم» بهمزة مفتوحة، أى: لأن ذكرتم، ثم أضـربوا عما يقتضـيه الاسـتفهام و الشرط من كون التذكير سببا للشؤم فقالوا: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْـرِفُونَ أى: ليس الأـمر كـذلك، بـل أنتم قوم عادتكم الإسـراف فى المعصـية. قال قتادة: مسـرفون فى تطيركم. و قال يحيى بن سـلام: مسرفون فى كفركم. و قال ابن بحر: السرف هنا الفساد، و الإسراف فى الأصل: مجاوزة الحد فى مخالفة الحقّ وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى هو حبيب بن موسى النجار، و كان نجارا، و قيل: إسكافا، و قيل: قصارا.

و قال مجاهـد و مقاتل: هو حبيب بن إسـرائيل النجار، و كان ينحت الأصـنام. و قال قتادة: كان يعبد اللّه فى غار، فلما سـمع بخبر الرسل جاء يسعى، و جملة: قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال لهم عند مجيئه؟ فقيل: قال يا قوم اتبعوا المرسلين هؤلاء الذين أرسلوا إليكم فإنهم جاءوا بحق، ثم أكد ذلك و كرّره فقال: اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً أى: لا يسألونكم أجرا على ما جاءوكم به من الهدى وَ هُمْ مُهْتَدُونَ يعنى: الرسل. ثم أبرز الكلام فى معرض النصيحة لنفسه، و هو يريد مناصـحة قومه فقـال: وَ ما لِيَ لا أَعْبُـدُ الَّذِي فَطَرَنِي أى: أىّ مانع من جانبى يمنعنى من عبادة الـذى خلقنى. ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه، بل أرادهم بكلامه فقال: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ و لم يقل إليه ارجع، و فيه مبالغـة فى التهديد. ثم عاد إلى المساق الأوّل لقصد التأكيد و مزيد الإيضاح فقال:

أَ أَتَّخِـذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَـةً فجعـل الإنكار متوجها إلى نفسه، و هم المرادون به، أى: لا أتخـذ من دون اللّه آلهـة و أعبـدها، و أترك عبادة من يستحق العبادة و هو الـذى فطرنى. ثم بين حال هـذه الأصـنام التى يعبـدونها من دون اللّه سبحانه إنكارا عليهم، و بيانا لضـلال عقولهم و قصور إدراكهم فقـال: إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُـرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَـفاعَتُهُمْ شَـيْئاً أى: شيئا من النفع كائنا ما كان وَ لا يُنْقِذُونِ من ذلك الضرّ الذى أرادنى الرحمن به، و هذه الجملة صفة لآلهة، أو مستأنفة لبيان حالها فى عدم النفع و الدفع، و قوله: لا تُغْنِ جواب الشـرط، و قرأ طلحة بن مصرّف «إن يردنى» بفتح الياء، قال: إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى: إنى إذا اتخذت من دونه آلهة لفى ضلال مبين واضح، و هذا تعريض بهم كما سبق، و الضلال: الخسران.

ثم صرّح بإيمانه تصريحا لا يبقى بعده شك فقال: إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ خاطب بهذا الكلام المرسلين. قال المفسرون: أراد القوم قتله، فأقبل هو على المرسلين، فقال: إني آمنت بربكم أيها الرسل فاسمعون، أي: اسمعوا إيماني و اشهدوا لي به. و قيل: إنه خاطب بهذا الكلام قومه لما أرادوا قتله تصلبا في الدين و تشدّدا في الحقّ، فلما قال هذا القول و صرّح بالإيمان وثبوا عليه فقتلوه، و قيل: وطئوه بأرجلهم، و قيل: حرقوه، و قيل: حفروا له حفرة و ألقوه فيها، و قيل: إنهم لم يقتلوه بل رفعه اللّه إلى السماء فهو في الجنة، و به قال الحسن، و قيل: نشروه بالمنشار قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ أي: قيل له ذلك تكريما له بدخولها بعد قتله كما هي سنة اللّه في شهداء عباده. و على قول من قال إنه رفع إلى السماء و لم يقتل يكون المعنى: أنهم

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۰

لما أرادوا قتله نجاه اللّه من القتل، و قيل له: ادخل الجنة فلما دخلها و شاهدها قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، أي: فماذا قال بعد أن قيل له ادخل الجنة فدخلها؟ فقيل: قال يا ليت قومي إلخ، و ما: في بِما غَفَرَ لِي هي المصدرية، أي:

بغفران ربي، و قيل: هي الموصولة، أي: بالذي غفر لي ربي، و العائد محذوف، أي: غفره لي ربي، و استضعف هذا لأنه لا معنى لتمنيه أن يعلم قومه بذنوبه المغفورة، و ليس المراد إلا التمني منه بأن يعلم قومه بغفران ربه له. و قال الفراء: إنها استفهامية بمعنى التعجب، كأنه قال: بأيّ شيء غفر لي ربي. قال الكسائي:

لو صح هذا لقال بم من غير ألف. و يجاب عنه بأنه قد ورد في لغة العرب إثباتها و إن كان مكسورا بالنسبة إلى حذفها، و منه قول الشاعر:

على ما قام يشتمني لئيم كخنزير تمرّغ في دمان

و في معنى تمنيه قولان: أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله، و حميد عاقبته إرغاما لهم.

و قيل: إنه تمنى أن يعلموا بذلك ليؤمنوا مثل إيمانه، فيصيروا إلى مثل حاله.

و قد أخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ قال: هي إنطاكية.

و أخرج ابن أبي حاتم عن بريدة مثله. و أخرج ابن سعد و ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان بين موسى بن عمران و بين عيسى ابن مريم ألف سنة و تسعمائة سنة، و لم يكن بينهما فترة، و أنه أرسل بينهما ألف نبيّ من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، و كان بين ميلاد عيسى و النبي صلّى اللّه عليه و سلم خمسمائة سنة و تسع و ستون سنة، بعث في أوّلها ثلاثة أنبياء و هو قوله: إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ و الذي عزّز به شمعون، و كان من الحواريين، و كانت الفترة التي لم يبعث اللّه فيها رسولا أربعمائة سنة و أربع و ثلاثون سنة. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا في قوله: طائِرُكُمْ مَعَكُمْ قال: شؤمكم معكم.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله: وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ قال: هو حبيب النجار. و أخرج ابن أبي حاتم عنه من وجه آخر، قال اسم صاحب يس: حبيب، و كان الجذام قد أسرع فيه. و أخرج الحاكم عن ابن مسعود قال: لما قال صاحب يس يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ خنقوه ليموت فالتفت إلى الأنبياء فقال: إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ أي: فاشهدوا لي.

[سورة يس (۳۶): الآيات ۲۸ الى ۴۰]

وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ (۲۸) إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (۲۹) يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۰) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ

(۳۱) وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (۳۲)

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (۳۳) وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (۳۴) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (۳۵) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ (۳۶) وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (۳۷)

وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۳۸) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (۳۹) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۴۰)

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۱

لما وقع ما وقع منهم مع حبيب النجار غضب اللّه له و عجل لهم النقمة و أهلكهم بالصيحة، و معنى وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ أى: على قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له، أو من بعد رفع اللّه له إلى السموات على الاختلاف السابق مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ لإهلاكهم و للانتقام منهم، أى: لم نحتج إلى إرسال جنود من السماء لإهلاكهم كما وقع ذلك للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يوم بدر من إرسال الملائكة لنصرته و حرب أعدائه وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ أى: و ما صحّ فى قضائنا و حكمتنا أن ننزل لإهلاكهم جندا لسبق قضائنا و قدرنا بأن إهلاكهم بالصيحة لا بإنزال الجند. و قال قتادة و مجاهد و الحسن: أى ما أنزلنا عليهم من رسالة من السماء و لا نبىّ بعد قتله. و روى عن الحسن أنه قال: هم الملائكة النازلون بالوحى على الأنبياء، و الظاهر أن معنى النظم القرآنى تحقير شأنهم و تصغير أمرهم، أى: ليسوا بأحقاء بأن ننزل لإهلاكهم جندا من السماء، بل أهلكناهم بصيحة واحدة كما يفيده قوله: إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً أى: إن كانت العقوبة أو النقمة أو الأخذة إلا صيحة واحدة صاح بها جبريل فأهلكهم. قال المفسرون: أخذ جبريل بعضادتى باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حسّ كالنار إذا طفئت، و هو معنى قوله: فَإِذا هُمْ خامِدُونَ أى:

قوم خامدون ميتون، شبههم بالنار إذا طفئت، لأن الحياة كالنار الساطعة، و الموت كخمودها. قرأ الجمهور صَيْحَةً بالنصب على أن كان ناقصة، و اسمها ضمير يعود إلى ما يفهم من السياق كما قدّمنا.

و قرأ أبو جعفر، و شيبة، و الأعرج، و معاذ القارى برفعها على أن كان تامة، أى: وقع و حدث، و أنكر هذه القراءة أبو حاتم و كثير من النحويين بسبب التأنيث فى قوله إِنْ كانَتْ قال أبو حاتم:

فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال: إن كان إلا صيحة و قدّر الزجاج هذه القراءة بقوله: إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة، و قدّرها غيره: ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة. و قرأ عبد اللّه بن مسعود إن كانت إلا زقية واحدة و الزقية: الصيحة. قال النحاس: و هذا مخالف للمصحف، و أيضا فإن اللغة المعروفة زقا يزقو إذا صاح، و منه المثل «أثقل من الزّواقى» فكان يجب على هذا أن تكون زقوة، و يجاب عنه بما ذكره الجوهرى قال: الزقو و الزقى مصدر، و قد زقا الصدا يزقو زقاء:

أى: صاح، و كلّ صائح زاق، و الزقية الصيحة يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ قرأ الجمهور بنصب حسرة، على أنها منادى منكر كأنه نادى الحسرة و قال لها: هذا أوانك فاحضرى. و قيل: إنها منصوبة على المصدرية، و المنادى: محذوف، و التقدير: يا هؤلاء تحسروا حسرة. و قرأ قتادة و أبىّ فى رواية عنه بضم حسرة على النداء.

قال الفراء: فى توجيه هذه القراءة: إن الاختيار النصب و إنها لو رفعت النكرة لكان صوابا، و استشهد بأشياء

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۲

نقلها عن العرب منها أنه سمع من العرب يا مهتم بأمرنا لا تهتم، و أنشد:

يا دار غيّرها البلى تغييرا قال النحاس: و فى هذا إبطال باب النداء أو أكثره. قال: و تقدير ما ذكره: يا أيها المهتم لا تهتم بأمرنا، و

تقدير البيت: يا أيتها الدار. و حقيقة الحسرة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيرا. قال ابن جرير: المعنى يا حسرة من العباد على أنفسهم، و تندّما و تلهفا فى استهزائهم برسل اللّه، و يؤيد هذا قراءة ابن عباس و علىّ بن الحسين «يا حسرة العباد» على الإضافة، و رويت هذه القراءة عن أبىّ. و قال الضحاك: إنّها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل. و قيل: هى من قول الرجل الذى جاء من أقصى المدينة. و قيل إن القائل: يا حسرة على العباد هم الكفار المكذبون، و العباد: الرسل، و ذلك أنهم لما رأوا العذاب تحسروا على قتلهم و تمنوا الإيمان قاله أبو العالية و مجاهد، و قيل: إن التحسر عليهم هو من اللّه عزّ و جلّ بطريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه و قرأ ابن هرمز، و مسلم بن جندب و عكرمة و أبو الزناد يا حَسْرَةً بسكون الهاء إجراء للوصل مجرى الوقف. و قرئ «يا حسرتا» كما قرئ بذلك فى سورة الزمر، و جملة ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ مستأنفة مسوقة لبيان ما كانوا عليه من تكذيب الرسل و الاستهزاء بهم، و أن ذلك هو سبب التحسر عليهم. ثم عجب سبحانه من حالهم حيث لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخالية فقال أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أى: ألم يعلموا كثرة من أهلكنا قبلهم من القرون التى أهلكناها من الأمم الخالية، و جملة: أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ بدل من كم أهلكنا على المعنى. قال سيبويه: أنّ بدل من كم، و هى الخبرية، فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام، و المعنى: ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون. و قال الفراء: كم فى موضع نصب من وجهين: أحدهما ب (يروا)، و استشهد على هذا بأنه فى قراءة ابن مسعود «ا لم يروا من أهلكنا» و الوجه الآخر أن تكون كم فى موضع نصب بأهلكنا.

قال النحاس: القول الأوّل محال، لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها لأنها استفهام، و محال أن يدخل الاستفهام فى حيز ما قبله، و كذا حكمها إذا كانت خبرا، و إن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا فجعل أنهم بدلا من كم، و قد ردّ ذلك المبرد أشدّ ردّ وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ أى: محضرون لدينا يوم القيامة للجزاء. قرأ ابن عامر، و عاصم، و حمزة لما بتشديدها، و قرأ الباقون بتخفيفها. قال الفراء: من شدّد جعل لما بمعنى إلا، و إن بمعنى ما: أى ما كلّ إلا جميع لدينا محضرون، و معنى جميع مجموعون، فهو فعيل بمعنى مفعول، و لدينا ظرف له، و أما على قراءة التخفيف فإن هى المخففة من الثقيلة، و ما بعدها مرفوع بالابتداء، و تنوين كُلٌّ عوض عن المضاف إليه و ما بعده الخبر، و اللام هى الفارقة بين المخففة و النافية. قال أبو عبيدة: و ما على هذه القراءة زائدة، و التقدير عنده: و إن كلّ لجميع. و قيل معنى محضرون معذبون، و الأولى أنه على معناه الحقيقى من الإحضار للحساب. ثم ذكر سبحانه البرهان على التوحيد و الحشر مع تعداد النعم و تذكيرها فقال: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ فآية: خبر مقدّم، و تنكيرها للتفخيم، و لهم صفتها، أو متعلقة بآية لأنها بمعنى علامة، و الأرض: مبتدأ، و يجوز أن تكون آية مبتدأ لكونها قد تخصصت بالصفة، و ما بعدها

فتح القدير، ج‏4، ص: 423

الخبر. قرأ أهل المدينة «الميتة» بالتشديد و خففها الباقون، و جملة أَحْيَيْناها مستأنفة مبينة لكيفية كونها آية، و قيل هى صفة للأرض فنبههم اللّه بهذا على إحياء الموتى و ذكرهم نعمه و كمال قدرته، فإنه سبحانه أحيا الأرض بالنبات: و أخرج منها الحبوب التى يأكلونها و يتغذون بها، و هو معنى قوله: وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ و هو ما يقتاتونه من الحبوب، و تقديم منه للدلالة على أن الحبّ معظم ما يؤكل و أكثر ما يقوم به المعاش وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ أى: جعلنا فى الأرض جنات من أنواع النخل و العنب، و خصصهما بالذكر لأنهما أعلى الثمار و أنفعها للعباد وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ أى: فجرنا فى الأرض بعضا من العيون، فحذف الموصوف و أقيمت الصفة مقامه، أو المفعول العيون، و من مزيدة على رأى من جوّز زيادتها فى الإثبات و هو الأخفش و من وافقه، و المراد بالعيون عيون الماء. قرأ الجمهور فَجَّرْنا بالتشديد، و قرأ جناح بن حبيش بالتخفيف، و الفجر و التفجير: كالفتح و التفتيح، لفظا و معنى، و اللام فى لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ متعلق بجعلنا، و الضمير فى مِنْ ثَمَرِهِ

يعود إلى المـذكور من الجنـات و النخيل، و قيل: هو راجع إلى ماء العيون لأن الثمر منه، قاله الجرجانى. قرأ الجمهور: ثَمَرِهِ بفتح الثاء و الميم، و قرأ حمزة و الكسائى بضـمهما، و قرأ الأعمش بضم الثاء و إسكان الميم، و قد تقدّم الكلام فى هذا فى الأنعام، و قوله: وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ معطوف على ثمره، أى: ليأكلوا من ثمره و يأكلوا مما عملته أيـديهم كالعصـير و الـدبس و نحوهما، و كـذلك مـا غرسـوه و حفروه على أن مـا موصولـة، و قيـل: هى نافيـة؛ و المعنى: لم يعملوه، بـل العامـل له هو اللّه، أى: وجـدوها معمولـة و لا صـنع لهـم فيهـا، و هـو قـول الضـحاك و مقاتـل. قرأ الجمهـور عَمِلَتْهُ و قرأ الكوفيـون «عملت» بحـذف الضـمير، و الاستفهام فى قوله:

أَ فَلا يَشْكُرُونَ للتقريع و التوبيخ لهم بعدم شـكرهم للنعم، و جملة سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مستأنفة مسوقة لتنزيه سبحانه عما وقع منهم من ترک الشكر لنعمه المـذكورة و التعجب من إخلالهم بذلک، و قد تقدّم الكلام مسـتوفى فى معنى سـبحان، و هو فى تقـدير الأمـر للعبـاد بأن ينزهوه عما لا يليق به، و الأزواج: الأنواع و الأصـناف، لأن كلّ صـنف مختلف الألوان و الطعوم و الأشـكال، و مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ بيـان للأزواج، و المراد كـلّ ما ينبت فيها من الأشـياء المـذكورة و غيرها وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أى: خلق الأزواج من أنفسـهم، و هم الـذكور و الإناث وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ من أصـناف خلقه فى البرّ و البحر، و السـماء و الأرض وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ الكلام فى هذا كما قدّمنا فى قوله: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها و المعنى:

أن ذلک علامـة دالـة على توحيد اللّه و قدرته و وجوب إلهيته، و السـلخ: الكشط و النزع، يقال سـلخه اللّه من دينه، ثم يسـتعمل بمعنى الإخراج، فجعـل سبحانه ذهـاب الضـوء و مجىء الظلمـة كالسـلخ من الشـىء، و هو اسـتعارة بليغـة فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ أى: داخلون فى الظلام مفاجأة و بغتـة، يقـال أظلمنا: أى دخلنا فى ظلام الليل، و أظهرنا دخلنا فى وقت الظهر، و كـذلک أصبحنا و أمسينا، و قيل «منه» بمعنى عنه، و المعنى:

نسلخ عنه ضـياء النهار. قال الفراء: يرمى بالنهار على الليل فيأتى بالظلمـة، و ذلک أن الأصل هى الظلمة و النهار داخل عليه، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل، أى: كشط و أزيل فتظهر الظلمة وَ الشَّمْسُ تَجْرِی لِمُسْتَقَرٍّ لَها

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۴

يحتمل أن تكون الواو للعطف على الليل، و التقـدير: و آيـة لهم الشـمس، و يجوز أن تكون الواو ابتدائية، و الشـمس مبتدأ، و ما بعدها الخبر، و يكون الكلام مستأنفا مشتملا على ذكر آية مستقلة. قيل:

و فى الكلام حـذف، و التقـدير: تجرى لمجرى مسـتقرّ لها، فتكون اللام للعلّة: أى: لأجل مسـتقرّ لها، و قيل اللام بمعنى إلى و قد قرئ بـذلک. قيل: و المراد بالمسـتقرّ: يوم القيامـة، فعنـده تسـتقرّ و لا يبقى لها حركـة، و قيل مسـتقرّها هو أبعد ما تنتهى إليه و لا تجـاوزه، و قيـل نهايـة ارتفاعهـا فى الصـيف و نهايـة هبوطها فى الشـتاء، و قيل مسـتقرها تحت العرش، لأنها تـذهب إلى هنالک فتسـجد، فتسـتأذن فى الرجوع فيؤذن لها، و هـذا هو الرّاجح. و قال الحسن: إن للشـمس فى السـنة ثلاثمائة و ستين مطلعا تنزل فى كـلّ يوم مطلعـا ثم لا تنزل إلى الحول، فهى تجرى فى تلک المنازل، و هو مسـتقرّها، و قيل: غير ذلک. و قرأ ابن مسـعود، و ابن عباس، و عكرمة، و زين العابدين، و ابنه الباقر، و الصادق بن الباقر: «لا مسـتقرّ لها» التى لنفى الجنس، و بناء مسـتقرّ على الفتح. و قرأ ابن أبى عبلة: لا مستقرّ بلا التى بمعنى ليس، و مستقرّ اسمها، و لها خبرها، و الإشارة بقوله:

ذلِکَ إلى جرى الشمس، أى: ذلک الجرى تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ أى: الغالب القاهر الْعَلِيمِ

أى: المحيط علمه بكل شىء، و يحتمل أن تكون الإشارة راجعة إلى المستقرّ، أى: ذلک المستقرّ: تقدير اللّه.

وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو برفع القمر على الابتـداء. و قرأ الباقون بالنصب على الاشـتغال، و انتصاب منازل على أنه مفعول ثان، لأن قدرنا بمعنى صيرنا، و يجوز أن يكون منتصبا على الحال، أى: قدّرنا سيره حال كونه ذا منازل، و

يجوز أن يكون منتصبا على الظرفية، أى: فى منازل. و اختار أبو عبيد النصب فى القمر، قال: لأن قبله فعلا و هو نسلخ، و بعده فعلا و هو قدّرنا. قال النحاس: أهل العربية جميعا فيما علمت على خلاف ما قال. منهم الفراء قال: الرفع أعجب إلىّ، قال: و إنما كان الرفع عندهم أولى لأنّه معطوف على ما قبله، و معناه: و آية لهم القمر. قال أبو حاتم: الرفع أولى، لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء، و المنازل: هى الثمانية و العشرون التى ينزل القمر فى كلّ ليلة فى واحد منها و هى معروفة و سيأتى ذكرها، فإذا صار القمر فى آخرها عاد إلى أوّلها، فيقطع الفلك فى ثمان و عشرين ليلة، ثم يستتر ليلتين، ثم يطلع هلالا، فيعود فى قطع تلك المنازل من الفلك حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ قال الزجاج: العرجون هو عود العذق الذى فيه الشماريخ، و هو فعلون من الانعراج، و هو الانعطاف، أى:

سار فى منازله، فإذا كان فى آخرها دقّ و استقوس و صغر حتى صار كالعرجون القديم، و على هذا فالنون زائدة.

قال قتادة: و هو العذق اليابس المنحنى من النخلة. قال ثعلب: العرجون الذى يبقى فى النخلة إذا قطعت، و القديم: البالى. و قال الخليل: العرجون أصل العذق و هو أصفر عريض، يشبه به الهلال إذا انحنى، و كذا قال الجوهرى: إنه أصل العذق الذى يعوج و يقطع منه الشماريخ، فيبقى على النخل يابسا، و عرجته: ضربته بالعرجون، و على هذا فالنون أصلية. قرأ الجمهور كَالْعُرْجُونِ بضم العين و الجيم: و قرأ سليمان التيمى بكسر العين و فتح الجيم، و هما لغتان، و القديم: العتيق لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ الشمس مرفوعة بالابتداء، لأنه لا يجوز أن تعمل لا فى المعرفة: أى لا يصح و لا يمكن للشمس أن تدرك القمر فى

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۵

سرعة السير و تنزل فى المنزل الذى ينزل فيه القمر، لأن لكل واحد منهما سلطانا على انفراده، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر، فيذهب سلطانه إلى أن يأذن اللّه بالقيامة، فتطلع الشمس من مغربها. و قال الضحاك: معناه إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، و إذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء. و قال مجاهد:

أى لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر. و قال الحسن: إنهما لا يجتمعان فى السماء ليلة الهلال خاصة، و كذا قال يحيى بن سلام. و قيل معناه: إذا اجتمعا فى السماء كان أحدهما بين يدى الآخر فى منزل لا يشتركان فيه. و قيل القمر فى سماء الدنيا، و الشمس فى السماء الرابعة «۱». ذكره النحاس و المهدوى. قال النحاس:

و أحسن ما قيل فى معناه و أبينه: أن سير القمر سير سريع، و الشمس لا تدركه فى السير. و أما قوله: وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ «۲» فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدّم بيانه فى الأنعام، و يأتى فى سورة القيامة أيضا، و جمعهما لانقضاء الدنيا و قيام الساعة وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ أى: لا يسبقه فيفوته، و لكن يعاقبه. و يجىء كلّ واحد منهما فى وقته و لا يسبق صاحبه، و قيل: المراد من الليل و النهار آيتاهما، و هما الشمس و القمر، فيكون عكس قوله: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ أى: و لا القمر سابق الشمس، و إيراد السبق مكان الإدراك لسرعة سير القمر وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ التنوين فى «كلّ» عوض عن المضاف إليه: أى و كلّ واحد منهما، و الفلك: هو الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة، و الخلاف فى كون السماء مبسوطة أو مستديرة معروف، و السبح: السير بانبساط و سهولة، و الجمع فى قوله:

يَسْبَحُونَ باعتبار اختلاف مطالعهما، فكأنهما متعدّدان بتعدّدها، أو المراد: الشمس و القمر و الكواكب.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ الآية يقول: ما كابدناهم بالجموع: أى الأمر أيسر علينا من ذلك. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ يقول: يا ويلا للعباد. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

يا حسرة على العباد قال: الندامة على العباد الذين ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ يقول:

الندامة عليهم يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ قال: وجدوه معمولا لم تعمله أيديهم: يعنى الفرات و دجلة و نهر بلخ و أشباهها أَ فَلا يَشْكُرُونَ لها. و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن أبى ذرّ قال: سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن قوله: وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها قال:

مستقرّها تحت العرش. و فى لفظ للبخارى و غيره من حديثه قال: «كنت مع النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم فى المسجد عند غروب الشّمس فقال: «يا أبا ذرّ أ تدرى أين تغرب الشّمس؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها». و فى لفظ من حديثه أيضا عند أحمد و الترمذى و النسائى و غيرهم قال: يا أبا ذرّ أ تدرى أين تذهب هذه؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم،

---

(١). هذا الكلام لا يعتمد على نص من القرآن أو السنة، فكل ما يخالف الحقائق العلمية فى هذا المجال لا يعتد به.

(٢). القيامة: ٩.

قال: فإنّها تذهب حتّى تسجد بين يدى ربّها فتستأذن فى الرّجوع فيأذن لها، و كأنّها قد قيل لها اطلعى من حيث جئت، فتطلع من مغربها، ثم قرأ «ذلك مستقرّ لها» و ذلك قراءة عبد اللّه. و أخرج الترمذى و النسائى و غيرهما من قول ابن عمر نحوه. و أخرج الخطيب فى كتاب النجوم عن ابن عباس فى قوله: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ الآية قال: هى ثمانية و عشرون منزلا ينزلها القمر فى كلّ شهر: أربعة عشر منها شامية، و أربعة عشر منها يمانية، أولها الشرطين و البطين و الثريا و الدبران و الهقعة و الهنعة و الذراع و النثرة و الطرف و الجبهة و الدبرة و الصرفة و العوّاء و السماك، و هو آخر الشامية، و الغفر و الزبانا و الإكليل و القلب و الشولة و النعائم و البلدة و سعد الذابح و سعد بلع و سعد السعود و سعد الأخبية و مقدّم الدلو و مؤخر الدلو و الحوت، و هو آخر اليمانية، فإذا سار هذه الثمانية و عشرين منزلا عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ كما كان فى أوّل الشهر. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: كالعرجون القديم: يعنى أصل العذق العتيق.

[سورة يس (٣٦): الآيات ٤١ الى ٥٤]

وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (٤٢) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ (٤٤) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)

وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٤٦) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٧) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٨) ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠)

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)

ثم ذكر سبحانه و تعالى نوعا آخر مما امتنّ به على عباده من النعم فقال: وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ أى: دلالة و علامة، و قيل معنى: آيَةٌ هنا: العبرة، و قيل: النعمة، و قيل النذارة.

و قد اختلف فى معنى أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ و إلى من يرجع الضمير، لأن الضمير الأوّل و هو قوله:

وَ آيَةٌ لَهُمْ لأهل مكة، أو لكفار العرب، أو للكفار على الإطلاق الكائنين فى عصر محمّد صلّى اللّه عليه و سلم، فقيل:
الضمير يرجع إلى القرون الماضية، و المعنى: أن اللّه حمل ذرّية القرون الماضية فى الفلك المشحون، فالضميران مختلفان. و هذا حكاه النحاس عن على بن سليمان الأخفش. و قيل: الضميران لكفار مكة و نحوهم. و المعنى:
أن اللّه حمل ذرّياتهم من أولادهم و ضعفائهم على الفلك، فامتنّ اللّه عليهم بذلك، أى: إنهم يحملونهم معهم فى السفن إذا سافروا، أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها. و قيل: الذرّية الآباء و الأجداد، و الفلك: هو سفينة نوح؛ أى: إن اللّه حمل آباء هؤلاء و أجدادهم فى سفينة نوح. قال الواحدى: و الذرّية تقع على الآباء

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۷

كما تقع على الأولاد. قال أبو عثمان: و سمى الآباء ذرية، لأن منهم ذرء الأبناء، و قيل الذرّية النطف الكائنة فى بطون النساء، و شبه البطون بالفلك المشحون، و الراجح القول الثانى ثم الأوّل ثم الثالث، و أما الرابع ففى غاية البعد و النكارة، و قد تقدّم الكلام فى الذرية و اشتقاقها فى سورة البقرة مستوفى، و المشحون المملوء الموقر، و الفلك يطلق على الواحد و الجمع كما تقدّم فى يونس، و ارتفاع آية على أنها خبر مقدّم، و المبتدأ أَنَّا حَمَلْنا أو العكس على ما قدّمنا. و قيل: إن الضمير فى قوله: وَ آيَةٌ لَهُمْ يرجع إلى العباد المذكورين فى قوله:
يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ لأنّه قال بعد ذلك: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ و قال: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ
ثم قال: وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فكأنه قال: و آية للعباد أنا حملنا ذريات العباد، و لا يلزم أن يكون المراد بأحد الضميرين البعض منهم، و بالضمير الآخر البعض الآخر، و هذا قول حسن وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ أى: و خلقنا لهم مما يماثل الفلك ما يركبونه على أن ما هى الموصولة. قال مجاهد و قتادة و جماعة من أهل التفسير: و هى الإبل خلقها لهم للركوب فى البرّ مثل السفن المركوبة فى البحر، و العرب تسمى الإبل: سفائن البرّ، و قيل المعنى: و خلقنا لهم سفنا أمثال تلك السفن يركبونها، قاله الحسن و الضحاك و أبو مالك. قال النحاس: و هذا أصحّ لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس، و قيل: هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ هذا من تمام الآية التى امتنّ اللّه بها عليهم، و وجه الامتنان أنه لم يغرقهم فى لجج البحار مع قدرته على ذلك، و الضمير يرجع إما إلى أصحاب الذرية، أو إلى الذرية، أو إلى الجميع على اختلاف الأقوال، و الصريخ بمعنى المصرخ و المصرخ هو المغيث، أى: فلا مغيث لهم يغيثهم إن شئنا إغراقهم، و قيل: هو المنعة.
و معنى ينقذون: يخلصون، يقال أنقذه و استنفذه، إذا خلصه من مكروه إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا استثناء مفرّغ من أعمّ العلل، أى: لا صريخ لهم، و لا ينقذون لشىء من الأشياء إلا لرحمة منا، كذا قال الكسائى و الزجاج و غيرهما، و قيل: هو استثناء منقطع، أى: لكن لرحمة منا. و قيل:
هو منصوب على المصدرية بفعل مقدّر وَ انتصاب مَتاعاً على العطف على رحمة، أى: نمتعهم بالحياة الدنيا إِلى حِينٍ و هو الموت، قاله قتادة. و قال يحيى بن سلام: إلى القيامة وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ أى: ما بين أيديكم من الآفات و النوازل فإنها محيطة بكم، و ما خلفكم منها، قال قتادة معنى اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ أى: من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم وَ ما خَلْفَكُمْ فى الآخرة. و قال سعيد بن جبير و مجاهد: ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ما مضى من الذنوب وَ ما خَلْفَكُمْ ما بقى منها. و قيل: ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ الدنيا وَ ما خَلْفَكُمْ الآخرة، قاله سفيان. و حكى عكس هذا القول الثعلبى عن ابن عباس. و قيل: ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ما ظهر لكم وَ ما خَلْفَكُمْ ما خفى عنكم، و جواب إذا محذوف، و التقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا كما يدلّ عليه إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أى: رجاء أن ترحموا، أو كى ترحموا، أو راجين أن ترحموا وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ ما: هى النافية، و صيغة المضارع للدلالة على التجدّد، و من الأولى: مزيدة للتوكيد، و الثانية:

للتبعيض، و المعنى: ما تأتيهم من آية دالة على نبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم و على صحة ما دعا إليه

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۸

من التوحيد فى حال من الأحوال إلا كانوا عنها معرضين. و ظاهره يشمل الآيات التنزيلية، و الآيات التكوينية، و جملة: إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ فى محلّ نصب على الحال كما مرّ تقريره فى غير موضع. و المراد بالإعراض: عدم الالتفات إليها، و ترك النظر الصحيح فيها، و هذه الآية متعلقة بقوله: يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: إذا جاءتهم الرسل كذّبوا، و إذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أى: تصدّقوا على الفقراء مما أعطاكم اللّه، و أنعم به عليكم من الأموال، قال الحسن: يعنى اليهود أمروا بإطعام الفقراء. و قال مقاتل: إن المؤمنين قالوا لكفار قريش:

أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه للّه من أموالكم من الحرث و الأنعام كما فى قوله سبحانه: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً «۱» فكان جوابهم ما حكاه اللّه عنهم بقوله: قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا استهزاء بهم، و تهكما بقولهم: أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ أى: من لو يشاء اللّه رزقه، و قد كانوا سمعوا المسلمين يقولون: إن الرّزّاق هو اللّه، و أنه يغنى من يشاء، و يفقر من يشاء فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمسلمين و قالوا: نحن نوافق مشيئة اللّه فلا نطعم من لم يطعمه اللّه، و هذا غلط منهم، و مكابرة و مجادلة بالباطل، فإنّ اللّه سبحانه أغنى بعض خلقه و أفقر بعضا، و أمر الغنىّ أن يطعم الفقير، و ابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة. و قولهم: مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ هو و إن كان كلاما صحيحا فى نفسه، و لكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة اللّه، أو إنكار جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة اللّه كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلا. و قوله: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ من تمام كلام الكفار. و المعنى: أنكم أيها المسلمون فى سؤال المال، و أمرنا بإطعام الفقراء لفى ضلال فى غاية الوضوح و الظهور. و قيل هو من كلام اللّه سبحانه جوابا على هذه المقالة التى قالها الكفار. و قال القشيرى و الماوردى: إن الآية نزلت فى قوم من الزنادقة. و قد كان فى كفار قريش و غيرهم من سائر العرب قوم يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع، فقالوا هذه المقالة استهزاء بالمسلمين و مناقضة لهم. و حكى نحو هذا القرطبى عن ابن عباس وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ الذى تعدونا به من العذاب و القيامة، و المصير إلى الجنة أو النار. إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فيما تقولونه و تعدونا به. قالوا ذلك استهزاء منهم و سخرية بالمؤمنين. و مقصودهم إنكار ذلك بالمرّة، و نفى تحققه و جحد وقوعه، فأجاب اللّه سبحانه عنهم بقوله: ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً أى: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، و هى نفخة إسرافيل فى الصور تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ أى:

يختصمون فى ذات بينهم فى البيع و الشراء و نحوهما من أمور الدنيا، و هذه هى النفخة الأولى، و هى نفخة الصعق.

و قد اختلف القراء فى يخصمون، فقرأ حمزة بسكون الخاء و تخفيف الصاد من خصم يخصم، و المعنى:

يخصم بعضهم بعضا، فالمفعول محذوف. و قرأ أبو عمرو و قالون بإخفاء فتحة الخاء و تشديد الصاد، و قرأ نافع و ابن كثير و هشام كذلك إلا أنهم أخلصوا فتحة الخاء، و قرأ الباقون بكسر الخاء و تشديد الصاد. و الأصل

---

(۱). الأنعام: ۱۳۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۹

فى القراءات الثلاث يختصمون فأدغمت التاء فى الصاد، فنافع و ابن كثير و هشام نقلوا فتحة التاء قبلها نقلا كاملا، و أبو عمرو و قالون اختلسا حركتها تنبيها على أن الخاء أصلها السكون، و الباقون حذفوا حركتها، فالتقى ساكنان فكسروا أوّلهما. و روى عن أبى عمرو، و قالون أنهما قرءا بتسكين الخاء و تشديد الصاد و هى مشكلة لاجتماع ساكنين فيها. و قرأ أبىّ «يختصمون» على ما هو الأصل فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً أى:

لا يستطيع بعضهم أن يوصى إلى بعض بما له و ما عليه، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة و الإقلاع عن المعاصى، بل يموتون فى أسواقهم و مواضعهم وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ أى: إلى منازلهم التى ماتوا خارجين عنها، و قيل المعنى: لا يرجعون إلى أهلهم قولا، و هذا إخبار عما ينزل بهم عند النفخة الأولى. ثم أخبر سبحانه عما ينزل بهم عند النفخة الثانية فقال: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ و هى النفخة التى يبعثون بها من قبورهم، و لهذا قال: فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ أى: القبور إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ أى: يسرعون، و بين النفختين: أربعون سنة. و عبر عن المستقبل بلفظ الماضى حيث قال: وَ نُفِخَ تنبيها على تحقق وقوعه كما ذكره أهل البيان، و جعلوا هذه الآية مثالا له، و الصور بإسكان الواو، هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل كما وردت بذلك السنة، و إطلاق هذا الاسم على القرن معروف فى لغة العرب، و منه قول الشاعر:

نحن نطحناهم غداة الغورين بالضّابحات فى غبار النّقعين

نطحا شديدا لا كنطح الصّورين.

أى: القرنين. و قد مضى هذا مستوفى فى سورة الأنعام. و قال قتادة: الصور: جمع صورة، أى: نفخ فى الصور الأرواح، و الأجداث: جمع جدث، و هو القبر. و قرئ «الأجداف» و هى لغة، و اللغة الفصيحة بالثاء المثلثة. و النسل، و النسلان: الإسراع فى السير، يقال: نسل ينسل، كضرب يضرب، و يقال ينسل بالضم، و منه: قول امرئ القيس:

فسلّى ثيابى من ثيابك تنسلى و قول الآخر:

عسلان الذّئب أمسى قارباً برد اللّيل عليه فنسل

قالوا: يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا أى: قالوا عند بعثهم من القبور بالنفخة يا ويلنا: نادوا ويلهم، كأنهم قالوا له احضر فهذا أوان حضورك، و هؤلاء القائلون هم الكفار. قال ابن الأنبارى: الوقف على يا ويلنا وقف حسن. ثم يبتدئ الكلام بقوله: مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول، و ما داخلهم من الفزع أنهم كانوا نياما. قرأ الجمهور: يا وَيْلَنا و قرأ ابن أبى ليلى «يا ويلتنا» بزيادة التاء. و قرأ الجمهور مَنْ بَعَثَنا بفتح ميم من على الاستفهام، و قرأ ابن عباس و الضحاك و أبو نهيك بكسر الميم على أنها حرف جرّ، و رويت هذه القراءة عن علىّ بن أبى طالب. و على هذه القراءة تكون من متعلقة بالويل، و قرأ الجمهور: مَنْ بَعَثَنا. و فى قراءة أبىّ «من أهبّنا» من هبّ من نومه: إذا انتبه،

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۳۰

و أنشد ثعلب على هذه القراءة:

و عاذلة هبّت بليل تلومنى و لم يعتمرنى قبل ذاك عذول

و قيل: إنهم يقولون ذلك إذا عاينوا جهنم، و قال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور و هجعوا هجعة إلى النفخة الثانية، و جملة: هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ جواب عليهم من جهة الملائكة، أو من جهة المؤمنين. و قيل: هو من كلام الكفرة يجيب به بعضهم على بعض. قال بالأوّل الفراء، و بالثانى مجاهد. و قال قتادة: هى من قول اللّه سبحانه، و ما فى قوله: ما وَعَدَ الرَّحْمنُ موصولة و عائدها محذوف و المعنى: هذا الذى وعده الرحمن، و صدق فيه المرسلون قد حق عليكم، و نزل بكم، و مفعولا الوعد و الصدق محذوفان: أى وعدكموه الرحمن و صدقكموه المرسلون، و الأصل وعدكم به، و صدقكم فيه، أو وعدناه الرحمن، و صدقنا المرسلون على أن هذا من قول المؤمنين، أو من قول الكفار إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً أى: ما كانت تلك النفخة المذكورة إلا صيحة واحدة صاحها إسرافيل بنفخة فى الصور فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ أى: فإذا هم مجموعون محضرون لدينا بسرعة للحساب و العقاب فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ من النفوس شَيْئاً مما تستحقه، أى: لا ينقص من ثواب عملها شيئا من النقص، و لا تظلم فيه بنوع من أنواع الظلم وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: إلا جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا،

أو إلا بما كنتم تعملونه، أى: بسببه، أو: فى مقابلته.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ الآية قال: فى سفينة نوح حمل فيها من كلّ زوجين اثنين وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ قال: السفن التى فى البحر و الأنهار التى يركب الناس فيها. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن أبى صالح نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ قال: هى السفن جعلت من بعد سفينة نوح. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: يعنى الإبل خلقها اللّه كما رأيت، فهى سفن البرّ يحملون عليها و يركبونها. و مثله عن الحسن، و عكرمة، و عبد اللّه بن شدّاد، و مجاهد. و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله: فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً الآية قال: تقوم الساعة و الناس فى أسواقهم يتبايعون و يذرعون الثياب و يحلبون اللقاح، و فى حوائجهم فلا يستطيعون توصية وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ و أخرج عبد بن حميد، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن المنذر عن الزبير بن العوّام قال: إن الساعة تقوم و الرجل يذرع الثوب، و الرجل يحلب الناقة، ثم قرأ: فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً الآية. و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لتقومنّ السّاعة و قد نشر الرّجلان ثوبهما، فلا يتبايعانه، و لا يطويانه، و لتقومنّ السّاعة و هو يليط حوضه فلا يسقى فيه، و لتقومنّ السّاعة و قد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، و لتقومنّ السّاعة و قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها». و أخرج الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبيّ بن كعب فى قوله: مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا قال: ينامون قبل البعث نومة.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۳۱

[سورة يس (۳۶): الآيات ۵۵ الى ۷۰]

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (۵۵) هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (۵۶) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ (۵۷) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (۵۸) وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (۵۹)

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۰) وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (۶۲) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۶۳) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۶۴)

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۶۵) وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (۶۶) وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ (۶۷) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ (۶۸) وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (۶۹)

لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (۷۰)

لما ذكر اللّه سبحانه حال الكافرين أتبعه بحكاية حال عباده الصالحين، و جعله من جملة ما يقال للكفار يومئذ زيادة لحسرتهم، و تكميلا لجزعهم، و تتميما لما نزل بهم من البلاء، و ما شاهدوه من الشقاء، فإذا رأوا ما أعدّه اللّه لهم من أنواع العذاب، و ما أعدّه لأوليائه من أنواع النعيم، بلغ ذلك من قلوبهم مبلغا عظيما، و زاد فى ضيق صدورهم زيادة لا يقادر قدرها. و المعنى إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ فى ذلك الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ بما هم فيه من اللذات التى هى ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر على الاهتمام بأمر الكفار، و مصيرهم إلى النار و إن كانوا من قرابتهم. و الأولى عدم تخصيص الشغل بشىء معين. و قال قتادة و مجاهد: شغلهم ذلك اليوم بافتضاض العذارى. و قال وكيع: شغلهم بالسماع. و قال ابن كيسان: بزيارة بعضهم بعضا، و قيل

شغلهم كونهم ذلك اليوم فى ضيافة اللّه. قرأ الكوفيون و ابن عامر: شغل بضمتين.
و قرأ الباقون بضم الشين و سكون الغين. و هما لغتان كما قال الفراء. و قرأ مجاهد و أبو السمال بفتحتين. و قرأ يزيد النحوى، و ابن هبيرة بفتح الشين و سكون الغين. و قرأ الجمهور فاكِهُونَ بالرفع على أنه خبر إنّ، و فى شغل متعلق به، أو فى محل نصب على الحال: و يجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر إنّ و فاكهون خبر ثان. و قرأ الأعمش و طلحة بن مصرف «فاكهين» بالنصب على أنه حال، و فى شغل هو الخبر. و قرأ الحسن، و أبو جعفر، و أبو حيوة، و أبو رجاء، و شيبة، و قتادة، و مجاهد «فكهون» قال الفراء: هما لغتان كالفاره و الفره، و الحاذر و الحذر. و قال الكسائى و أبو عبيدة الفاكه: ذو الفاكهة مثل تامر و لابن، و الفكه: المتفكه و المتنعم. و قال قتادة: الفكهون المعجبون. و قال أبو زيد: يقال رجل فكه: إذا كان طيب النفس ضحوكا. و قال مجاهد، و الضحاك كما قال قتادة. و قال السدّى كما قال الكسائى هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية شغلهم و تفكههم و تكميلها بما يزيدهم سرورا و بهجة من كون أزواجهم معهم على هذه الصفة من الاتكاء على الأرائك، فالضمير و هو هم:
مبتدأ، و أزواجهم معطوف عليه، و الخبر: متكئون، و يجوز أن يكون هم تأكيدا للضمير فى فاكِهُونَ
فتح القدير، ج۴، ص: ۴۳۲
و أزواجهم معطوف على ذلك الضمير، و ارتفاع متكئون على أنه خبر لمبتدأ محذوف، و فى ظلال متعلق به أو حال، و كذا على الأرائك و جوّز أبو البقاء أن يكون فِي ظِلالٍ هو الخبر و عَلَى الْأَرائِكِ مستأنف. قرأ الجمهور فِي ظِلالٍ بكسر الظاء و بالألف و هو جمع ظلّ. و قرأ ابن مسعود و عبيد بن عمير و الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و الكسائى و خلف فِي ظُلَلٍ بضم الظاء من غير ألف جمع ظلة، و على القراءتين فالمراد الفرش و الستور التى تظلهم كالخيام و الحجال، و الأرائك جمع أريكة، كسفائن جمع سفينة، و المراد بها السرر التى فى الحجال. قال أحمد بن يحيى ثعلب: الأريكة لا يكون إلا سريرا فى قبة. و قال مقاتل:
إن المراد بالظلال أكنان القصور، و جملة لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ مبينة لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل و المشارب و نحوها. و المراد فاكهة كثيرة من كلّ نوع من أنواع الفواكه وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ ما هذه هى الموصولة و العائد محذوف أو موصوفة أو مصدرية، و يدّعون مضارع ادّعى. قال أبو عبيدة: يدّعون يتمنون، و العرب تقول: ادّع علىّ ما شئت: أى تمنّ، و فلان فى خير ما يدّعى: أى ما يتمنى. و قال الزجاج هو من الدعاء، أى: ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم، من دعوت غلامى، فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل و الارتحال بمعنى الرحل. و قيل: افتعل بمعنى تفاعل، أى: ما يتداعونه كقولهم ارتموا و تراموا. و قيل: المعنى:
إن من ادّعى منهم شيئا فهو له، لأن اللّه قد طبعهم على أن لا يدّعى أحد منهم شيئا إلا و هو يحسن و يجمل به أن يدّعيه، و ما: مبتدأ، و خبرها: لهم، و الجملة معطوفة على ما قبلها. و قرئ «يدعون» بالتخفيف و معناها واضح. قال ابن الأنبارى: و الوقف على يدّعون وقف حسن، ثم يبتدئ سَلامٌ على معنى لهم سلام، و قيل: إن سلام هو خبر ما، أى: مسلم خالص أو ذو سلامة. و قال الزجاج: سلام مرفوع على البدل من ما، أى: و لهم أن يسلم اللّه عليهم، و هذا منى أهل الجنة، و الأولى أن يحمل قوله: وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ على العموم، و هذا السلام يدخل تحته دخولا أوّليا، و لا وجه لقصره على نوع خاص، و إن كان أشرف أنواعه تحقيقا لمعنى العموم، و رعاية لما يقتضيه النظم القرآنى. و قيل: إن سلام مرتفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أى: سلام يقال لهم: قَوْلًا و قيل: إن سلام مبتدأ، و خبره: الناصب لقولا، أى:
سلام يقال لهم قولا، و قيل: خبره من ربّ العالمين، و قيل: التقدير: سلام عليكم هذا على قراءة الجمهور و قرأ أبيّ و ابن مسعود

و عيسى «سلاما» بالنصب إما على المصدرية أو على الحالية بمعنى خالصا، و السلام:

إما من التحية أو من السلامة. و قرأ محمّد بن كعب القرظى «سلم» كأنه قال سلم لهم لا- يتنازعون فيه، و انتصاب قولا على المصدرية بفعل محذوف على معنى: قال اللّه لهم ذلك قولا، أو يقوله لهم قولا، أو يقال لهم قولا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ أى: من جهته، قيل: يرسل اللّه سبحانه إليهم بالسلام. و قال مقاتل: إن الملائكة تدخل على أهل الجنة من كلّ باب يقولون: سلامٌ عليكم يا أهل الجنة من ربّ رحيم وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ هو على إضمار القول مقابل ما قيل للمؤمنين، أى: و يقال للمجرمين: امتازوا، أى:

انعزلوا، من مازه غيره، يقال مزت الشيء من الشيء: إذا عزلته عنه و نحيته. قال مقاتل: معناه اعتزلوا اليوم:

يعنى فى الآخرة من الصالحين. و قال السدّى: كونوا على حدة. و قال الزجاج: انفردوا عن المؤمنين. و قال

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۳۳

قتادة: عزلوا عن كلّ خير. و قال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، و النصارى فرقة، و المجوس فرقة، و الصابئون فرقة، و عبدة الأوثان فرقة. و قال داود بن الجراح: يمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء فإنهم يكونون مع المجرمين. ثم وبخهم اللّه سبحانه و قرعهم بقوله: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ و هذا من جملة ما يقال لهم. و العهد: الوصية، أى: ألم أوصكم و أبلغكم على ألسن رسلى أن لا تعبدوا الشيطان، أى: لا تطيعوه. قال الزجاج: المعنى ألم أتقدّم إليكم على لسان الرسل يا بنى آدم. و قال مقاتل: يعنى الذين أمروا بالاعتزال. قال الكسائى: لا للنهى، و قيل: المراد بالعهد هنا: الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهر آدم، و قيل: هو ما نصبه اللّه لهم من الدلائل العقلية التى فى سماواته و أرضه و جملة إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ تعليل لما قبلها من النهى عن طاعة الشيطان و قبول وسوسته، و جملة وَ أَنِ اعْبُدُونِي عطف على أن لا تعبدوا، و أن فى الموضعين هى المفسرة للعهد الذى فيه معنى القول، و يجوز أن تكون مصدرية فيهما، أى ألم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا بأن اعبدونى، أو ألم أعهد إليكم فى ترك عبادة الشيطان و فى عبادتى هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أى: عبادة اللّه و توحيده، أو الإشارة إلى دين الإسلام، ثم ذكر سبحانه عداوة الشيطان لبنى آدم فقال: وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً اللام هى الموطئة للقسم، و الجملة مستأنفة للتقريع و التوبيخ، و اللّه لقد أضل إلخ. قرأ نافع و عاصم جِبِلًّا بكسر الجيم و الباء و تشديد اللام، و قرأ أبو عمرو، و ابن عامر بضم الجيم و سكون الباء، و قرأ الباقون بضمتين مع تخفيف اللام، و قرأ ابن إسحاق، و الزهرى، و ابن هرمز بضمتين مع تشديد اللام، و كذلك قرأ الحسن، و عيسى بن عمر، و النضر بن أنس، و قرأ أبو يحيى، و حماد بن سلمة، و الأشهب العقيلى بكسر الجيم و إسكان الباء و تخفيف اللام. قال النحاس: و أبينها القراءة الأولى. و الدليل على ذلك أنهم قد قرءوا جميعا وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ «۱» بكسر الجيم و الباء و تشديد اللام، فيكون جبلا جمع جبلة، و اشتقاق الكل من جبل اللّه الخلق، أى: خلقهم، و معنى الآية: أن الشيطان قد أغوى خلقا كثيرا كما قال مجاهد. و قال قتادة: جموعا كثيرة، و قال الكلبى: أمما كثيرة. قال الثعلبى: و القراءات كلها بمعنى الخلق، و قرئ «جيلا» بالجيم و الياء التحتية. قال الضحاك: الجيل الواحد عشرة آلاف، و الكثير ما يحصيه إلا اللّه عزّ و جلّ، و رويت هذه القراءة عن علىّ بن أبى طالب، و الهمزة فى قوله: أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ للتقريع و التوبيخ، و الفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام كما تقدّم فى نظائره، أى: أ تشاهدون آثار العقوبات، أ فلم تكونوا تعقلون، أو أ فلم تكونوا تعقلون عداوة الشيطان لكم، أو أ فلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا قرأ الجمهور أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ الخطاب. و قرأ طلحة و عيسى بالغيبة هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ أى: و يقال لهم عند أن يدنوا من النار: هذه جهنم التى كنتم توعدون بها فى الدنيا على ألسنة الرسل، و القائل لهم الملائكة، ثم يقولون لهم:

اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أى: قاسوا حرّها اليوم و ادخلوها و ذوقوا أنواع العذاب فيها بما كنتم تكفرون، أى: بسبب كفركم

باللّه فى الدنيا و طاعتكم للشيطان و عبادتكم للأوثان، و هذا الأمر أمر تنكيل

---

(۱). الشعراء: ۱۸۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۳۴

و إهانة كقوله: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ «۱» الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ اليوم ظرف لما بعده، و قرئ يختم على البناء للمفعول، و النائب الجار و المجرور بعده. قال المفسرون: إنهم ينكرون الشرك و تكذيب الرسل كما فى قولهم: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «۲» فيختم اللّه على أفواههم ختما لا يقدرون معه على الكلام، و فى هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم، ثم قال:

وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أى: تكلمت أيديهم بما كانوا يفعلونه، و شهدت أرجلهم عليهم بما كانوا يعملون. قرأ الجمهور تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ و قرأ طلحة بن مصرف «و لتكلّمنا»، «و لتشهد» بلام كى. و قيل سبب الختم على أفواههم ليعرفهم أهل الموقف. و قيل ختم على أفواههم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم لأن شهادة غير الناطق أبلغ فى الحجة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز. و قيل: ليعلموا أن أعضاءهم التى كانت أعوانا لهم فى معاصى اللّه صارت شهودا عليهم، و جعل ما تنطق به الأيدى كلاما و إقرارا لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصى، و جعل نطق الأرجل شهادة لأنها حاضرة عند كلّ معصية، و كلام الفاعل إقرار، و كلام الحاضر شهادة، و هذا اعتبار بالغالب، و إلا فالأرجل قد تكون مباشرة للمعصية كما تكون الأيدى مباشرة لها وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ أى: أذهبنا أعينهم و جعلناها بحيث لا يبدو لها شقّ و لا جفن. قال الكسائى: طمس يطمس و يطمس و المطموس و الطميس عند أهل اللغة الذى ليس فى عينيه شقّ كما فى قوله: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ «۳» و مفعول المشيئة محذوف، أى: لو نشاء أن نطمس على أعينهم لطمسنا. قال السدّى و الحسن: المعنى لتركناهم عميا يتردّدون لا يبصرون طريق الهدى، و اختار هذا ابن جرير فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ معطوف على لطمسنا، أى: تبادروا إلى الطريق ليجوزوه و يمضوا فيه، و الصراط منصوب بنزع الخافض، أى: فاستبقوا إليه، و قال عطاء و مقاتل و قتادة: المعنى لو نشاء لفقأنا أعينهم و أعميناهم عن غيهم، و حوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى، فأبصروا رشدهم، و اهتدوا و تبادروا إلى طريق الآخرة، و معنى فَأَنَّى يُبْصِرُونَ أى: كيف يبصرون الطريق و يحسنون سلوكه و لا أبصار لهم. و قرأ عيسى بن عمر فَاسْتَبِقُوا على صيغة الأمر، أى: فيقال لهم استبقوا، و فى هذا تهديد لهم. ثم كرّر التهديد لهم فقال: وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ المسخ تبديل الخلقة إلى حجر أو غيره من الجماد أو بهيمة، و المكانة المكان، أى: لو شئنا لبدّلنا خلقهم على المكان الذى هم فيه.

قيل: و المكانة أخص من المكانة كالمقامة و المقام. قال الحسن: أى لأقعدناهم فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ أى: لا يقدرون على ذهاب و لا مجىء. قال الحسن: فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم و لا يرجعوا وراءهم، و كذلك الجماد لا يتقدّم و لا يتأخر. و قيل المعنى: لو نشاء لأهلكناهم فى مساكنهم، و قيل:

لمسخناهم فى المكان الذى فعلوا فيه المعصية. و قال يحيى بن سلام: هذا كله يوم القيامة. قرأ الجمهور عَلى مَكانَتِهِمْ بالإفراد. و قرأ الحسن و السلمى و زرّ بن حبيش و أبو بكر عن عاصم «مكاناتهم» بالجمع.

و قرأ الجمهور مُضِيًّا بضم الميم، و قرأ أبو حيوة مُضِيًّا بفتحها، و روى عنه أنه قرأ بكسرها و رويت

---

(۱). الدخان: ۴۹.

(۲). الأنعام: ۲۳.

(۳). البقرة: ۲۰.

هذه القراءة عن الكسائی. قيل و المعنی: و لا يستطيعون رجوعا، فوضع الفعل موضع المصدر لمراعاة الفاصلة، يقال مضی يمضی مضيا: إذا ذهب فی الأرض، و رجع يرجع رجوعا: إذا عاد من حيث جاء وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِی الْخَلْقِ قرأ الجمهور نُنَكِّسْهُ بفتح النون الأولی و سكون الثانية و ضم الكاف مخففة. و قرأ عاصم و حمزة بضم النون الأولی و فتح الثانية و كسر الكاف مشدّدة. و المعنی: من نطل عمره نغير خلقه، و نجعله علی عكس ما كان عليه أوّلا من القوّة و الطراوة. قال الزجاج: المعنی من أطلنا عمره نكسنا خلقه، فصار بدل القوّة الضعف، و بدل الشباب الهرم، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلی أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً «۱» و قوله: ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ «۲» و معنی «أ لا تعقلون» أفلا تعلمون بعقولكم أن من قدر علی ذلك قدر علی البعث و النشور. قرأ الجمهور «يعقلون» بالتحتية و قرأ نافع و ابن ذكوان بالفوقية علی الخطاب. و لما قال كفار مكة: إن القرآن شعر، و إن محمّدا شاعر ردّ اللّه عليهم بقوله وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ و المعنی: نفی كون القرآن شعرا، ثم نفی أن يكون النبیّ شاعرا، فقال:

وَ ما يَنْبَغِی لَهُ أی: لا يصح له الشعر و لا يتأتی منه، و لا يسهل عليه لو طلبه و أراد أن يقوله، بل كان صلّی اللّه عليه و سلم إذا أراد أن ينشد بيتا قد قاله شاعر متمثلا به كسر وزنه، فإنه لما أنشد بيت طرفة بن العبد المشهور، و هو قوله:

ستبدی لك الأيام ما كنت جاهلاو يأتيك بالأخبار من لم تزوّد

قال: و يأتيك من لم تزوّده بالأخبار و أنشد مرّة أخری قول العباس بن مرداس السلمی:

أ تجعل نهبی و نهب العبيدبين عيينة و الأقرع

فقال: بين الأقرع و عيينة، و أنشد أيضا:

كفی بالإسلام و الشّيب للمرء ناهيا فقال أبو بكر: يا رسول اللّه إنما قال الشاعر:

كفی الشّيب و الإسلام للمرء ناهيا فقال: أشهد أنك رسول اللّه، يقول اللّه عزّ و جلّ وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِی لَهُ و قد وقع منه صلّی اللّه عليه و سلم كثير من مثل هذا. قال الخليل كان الشعر أحبّ إلی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم من كثير من الكلام، و لكن لا يتأتی منه اه. و وجه عدم تعليمه الشعر و عدم قدرته عليه، التكميل للحجة و الدحض للشبهة، كما جعله اللّه أميا لا يقرأ و لا يكتب، و أما ما روی عنه من قوله صلّی اللّه عليه و سلم:

هل أنت إلّا إصبع دميتو فی سبيل اللّه ما لقيت

---

(۱). الحج: ۵.

(۲). التين: ۵.

و قوله:

أنا النّبیّ لا كذبأنا ابن عبد المطّلب

و نحو ذلك، فمن الاتفاق الوارد من غير قصد كما يأتی ذلك فی بعض آيات القرآن، و ليس بشعر و لا مراد به الشعر، بل اتفق ذلك اتفاقا كما يقع فی كثير من كلام الناس، فإنهم قد يتكلمون بما لو اعتبره معتبر لكان علی وزن الشعر و لا يعدّونه شعرا، و

ذلک کقوله تعالى: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ «۱» و قوله:
وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ «۲» على أنه قد قال الأخفش إن قوله أنا النبىّ لا كذب ليس بشعر.
و قال الخليل فى كتاب العين: إن ما جاء من السجع على جزءين لا يكون شعرا. قال ابن العربى، و الأظهر من حاله أنه قال لا كذب برفع الباء من كذب، و بخفضها من عبد المطلب. قال النحاس: قال بعضهم:
إنما الرواية بالإعراب، و إذا كانت بالإعراب لم يكن شعرا، لأنه إذا فتح الباء من الأوّل أو ضمهما أو نوّنها و كسر الباء من الثانى خرج عن وزن الشعر. و قيل إن الضمير فى له عائد إلى القرآن أى و ما ينبغى للقرآن أن يكون شعرا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ أى ما القرآن إلا ذكر من الأذكار و موعظة من المواعظ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ أى: كتب من كتب اللّه السماوية مشتمل على الأحكام الشرعية لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا أى: لينذر القرآن من كان حيا؛ أى: قلبه صحيح يقبل الحقّ و يأبى الباطل، أو لينذر الرسول من كان حيا. قرأ الجمهور بالياء التحتية، و قرأ نافع و ابن عامر بالفوقية، فعلى القراءة الأولى المراد القرآن، و على الثانية المراد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ أى: و تجب كلمة العذاب على المصرّين على الكفر الممتنعين من الإيمان باللّه و برسله.
و قد أخرج ابن أبى شيبة، و ابن أبى الدنيا، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ قال: فى افتضاض الأبكار. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن مسعود فى الآية قال: شغلهم افتضاض العذارى. و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة و قتادة مثله. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد عن ابن عمر قال: إن المؤمن كلما أراد زوجة وجدها عذراء. و قد روى نحوه مرفوعا عن أبى سعيد مرفوعا عند الطبرانى فى الصغير و أبى الشيخ فى العظمة. و روى أيضا نحوه عن أبى هريرة مرفوعا عند الضياء المقدسى فى صفة الجنة.
و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ قال: ضرب الأوتار. قال أبو حاتم:
هذا لعله خطأ من المستمع، و إنما هو افتضاض الأبكار. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه قال فاكِهُونَ فرحون. و أخرج ابن ماجة، و ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة، و البزار، و ابن أبى حاتم، و الآجرى فى الرؤية، و ابن مردويه عن جابر قال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «بينا أهل الجنّة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السّلام عليكم يا أهل الجنة، و ذلك قول اللّه سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ قال: فينظر إليهم و ينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، و يبقى نوره و بركته عليهم فى ديارهم» قال ابن كثير: فى إسناده نظر.
و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: إن اللّه هو يسلم عليهم. و أخرج أحمد، و مسلم،

---

(۱). آل عمران: ۹۲.

(۲). سبأ: ۱۳.

و النسائى، و البزار، و ابن أبى الدنيا فى التوبة و اللفظ له، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أنس فى قوله: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ قال: «كنّا عند النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فضحك حتّى بدت نواجذه، قال: أ تردون ممّا ضحكت؟ قلنا: لا- يا رسول اللّه! قال: من مخاطبة العبد ربّه يقول: يا ربّ ألم تجرنى من الظلم؟ فيقول بلى، فيقول: إنى لا أجيز علىّ إلا شاهدا منى، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا و بالكرام الكاتبين شهودا فيختم على فيه. و يقال لأركانه: انطقى،

فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه و بين الكلام، فيقول: بعدا لكنّ و سحقا فعنكن كنت أناضل». و أخرج مسلم، و الترمذى، و ابن مردويه، و البيهقى عن أبى سعيد و أبى هريرة قالا: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يلقى العبد ربه فيقول اللّه:
فل ألم أكرمك و أسوّدك و أسخر لك الخيل و الإبل و أذرك ترأس و تربع؟ فيقول بلى أى ربّ، فيقول أ فظننت أنك أنك ملاقىّ؟ فيقول لا، إنى أنساك كما نسيتنى. ثم يلقى فيقول له مثل ذلك، ثم يلقى فيقول له مثل ذلك، فيقول: آمنت بك و بكتابك و برسولك و صليت و صمت و تصدّقت و يثنى بخير ما استطاع، فيقول: ألا نبعث شاهدنا عليك، فيفكر فى نفسه من الذى يشهد علىّ فيختم على فيه، و يقال لفخذه انطقى فتنطق فخذه و فمه و عظامه بعمله ما كان و ذلك ليعذر من نفسه، و ذلك المنافق، و ذلك الذى يسخط عليه».
و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من حديث أبى موسى نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله: وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ قال:
أعميناهم و أضللناهم عن الهدى فَأَنَّى يُبْصِرُونَ فكيف يهتدون. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ قال: أهلكناهم عَلى مَكانَتِهِمْ قال: فى مساكنهم. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم قال: بلغنى أنه قيل لعائشة: هل كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يتمثل بشىء من الشعر؟ قالت كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت أخى بنى قيس فيجعل أوّله آخره يقول: «و يأتيك من لم تزوّد بالأخبار، فقال أبو بكر: ليس هكذا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: إنّى و اللّه ما أنا بشاعر و لا ينبغى لى» و هذا يردّ ما نقلناه عن الخليل سابقا أن الشعر كان أحبّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من كثير من الكلام و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد عنها قالت: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا استراث الخبر «۱» تمثّل ببيت طرفة:
و يأتيك بالأخبار من لم تزوّد و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يتمثّل من الأشعار: و يأتيك بالأخبار من لم تزوّد و أخرج البيهقى فى سننه عن عائشة قالت: ما جمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بيت شعر قط إلّا بيتا واحدا:
تفاءل بما تهوى يكن فلقلّمايقال لشىء كان إلا تحقّق

---

(۱). فى النهاية: راث علينا خبر فلان يريث: إذا أبطأ.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۳۸

قالت عائشة: و لم يقل تحققا لئلا يعربه فيصير شعرا، و إسناده هكذا: قال أخبرنا أبو عبيد اللّه الحافظ:
يعنى الحاكم حدّثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم حدّثنا أبو محمّد عبد اللّه بن خلال النحوى الضرير حدّثنا على بن عمرو الأنصارى حدّثنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن عروة عن عائشة فذكره. و قد سئل المزّى عن هذا الحديث فقال: هو منكر و لم يعرف شيخ الحاكم و لا الضرير.

[سورة يس (۳۶): الآيات ۷۱ الى ۸۳]

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (۷۱) وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ (۷۲) وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (۷۳) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (۷۴) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (۷۵)

فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (٧٦) أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)

أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

ثم ذكر سبحانه قدرته العظيمة، و إنعامه على عبيده، و جحد الكفار لنعمه فقال: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً و الهمزة للإنكار و التعجيب من حالهم، و الواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره و الرؤية هى القلبية، أى: أو لم يعلموا بالتفكر و الاعتبار أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ أى: لأجلهم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا، أى: مما أبدعناه و عملنا من غير واسطة و لا شركة، و إسناد العمل إلى الأيدى مبالغة فى الاختصاص، و التفرّد بالخلق كما يقول الواحد منا: عملته بيدى للدلالة على تفرّده بعمله، و ما بمعنى الذى، و حذف العائد لطول الصلة، و يجوز أن تكون مصدرية، و الأنعام جمع نعم، و هى البقر و الغنم و الإبل، و قد سبق تحقيق الكلام فيها. ثم ذكر سبحانه المنافع المترتبة على خلق الأنعام فقال: فَهُمْ لَها مالِكُونَ أى ضابطون قاهرون يتصرفون بها كيف شاؤوا، و لو خلقناها وحشية لنفرت عنهم و لم يقدروا على ضبطها، و يجوز أن يكون المراد أنها صارت فى أملاكهم، و معدودة من جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة الملك وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ أى: جعلناها لهم مسخرة لا تمتنع مما يريدون منها من منافعهم حتى الذبح، و يقودها الصبىّ فتنقاد له، و يزجرها فتنزجر، و الفاء فى قوله: فَمِنْها رَكُوبُهُمْ لتفريع أحكام التذليل عليه؛ أى: فمنها مركوبهم الذى يركبونه كما يقال ناقة حلوب: أى محلوبة. قرأ الجمهور «ركوبهم» بفتح الراء. و قرأ الأعمش و الحسن و ابن السميقع بضم الراء على المصدر. و قرأ أبىّ و عائشة «ركوبتهم» و الركوب و الركوبة واحد، مثل الحلوب و الحلوبة و الحمول و الحمولة، و قال أبو عبيدة: الركوبة تكون للواحدة و الجماعة، و الركوب لا يكون إلا للجماعة. و زعم أبو حاتم أنه لا يجوز فمنها ركوبهم بضم الراء لأنه مصدر، و الركوب ما يركب، و أجاز

ذلك الفراء كما يقال: فمنها أكلهم و منها شربهم و معنى: وَ مِنْها يَأْكُلُونَ ما يأكلونه من لحمها، و من للتبعيض وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ أى: لهم فى الأنعام منافع غير الركوب لها، و الأكل منها، و هى ما ينتفعون به من أصوافها، و أوبارها، و أشعارها، و ما يتخذونه من الأدهان من شحومها، و كذلك الحمل عليها و الحراثة بها وَ مَشارِبُ أى: و لهم فيها مشارب مما يحصل من ألبانها أَ فَلا يَشْكُرُونَ اللّه على هذه النعم، و يوحدونه، و يخصونه بالعبادة. ثم ذكر سبحانه جهلهم، و اغترارهم، و وضعهم كفران النعم مكان شكرها فقال: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً من الأصنام و نحوها يعبدونها و لا قدرة لها على شىء، و لم يحصل لهم منها فائدة، و لا عاد عليهم من عبادتها عائدة لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ أى: رجاء أن ينصروا من جهتهم إن نزل بهم عذاب أو دهمهم من الأمور، و جملة: لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ مستأنفة لبيان بطلان ما رجوه منها و أملوه من نفعها، و جمعهم بالواو و النون جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أنهم ينفعون و يضرون و يعقلون وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ أى: و الكفار جند للأصنام محضرون، أى: يحضرونهم فى الدنيا. قال الحسن: يمنعون منهم و يدفعون عنهم، و قال قتادة: أى يغضبون لهم فى الدنيا. قال الزجاج: ينتصرون للأصنام و هى لا تستطيع نصرهم. و قيل: إنه نهى لهم عن الأسباب التى تحزن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و إن النهى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن التأثر بما يصدر منهم هو من باب «لا أرينّك هاهنا» فإنه يراد به نهى من خاطبه عن الحضور لديه.

لا نهى نفسه عن الرؤية، و هذا بعيد و الأوّل أولى و الكلام من باب التسلية كما ذكرناه، و يجوز أن يكون المراد بالقول المذكور هو قولهم: إنه ساحر و شاعر و مجنون، و جملة إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ لتعليل ما تقدّم من النهى. فإن علمه سبحانه بما

يظهرون و يضمرون مستلزم للمجازاة لهم بذلك. و أن جميع ما صدر منهم لا يعزب عنه سواء كان خافيا أو باديا، سرّا أو جهرا، مظهرا أو مضمرا. و تقديم السرّ على الجهر للمبالغة فى شمول علمه لجميع المعلومات، و جملة أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث و للتعجيب من جهله، فإن مشاهدة خلقهم فى أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية؛ مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك؛ من بعث الأجسام و ردّها كما كانت، و الإنسان المذكور فى الآية؛ المراد به جنس الإنسان كما فى قوله: أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً «۱» و لا وجه لتخصيصه بإنسان معين كما قيل: إنه عبد اللّه بن أبىّ، و أنه قيل له ذلك لما أنكر البعث. و قال الحسن: هو أمية بن خلف. و قال سعيد بن جبير: هو العاص بن وائل السهمى.

و قال قتادة و مجاهد: هو أبىّ بن خلف الجمحى، فإن أحد هؤلاء و إن كان سببا للنزول فمعنى الآية خطاب الإنسان من حيث هو، لا إنسان معين، و يدخل من كان سببا للنزول تحت جنس الإنسان دخولا أوّليا، و النطفة هى اليسير من الماء، و قد تقدّم معناها فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ هذه الجملة معطوفة على الجملة المنفية قبلها داخلة معها فى حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، و إذا هى الفجائية، أى: ألم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء، ففجأ خصومتنا فى أمر قد قامت فيه عليه حجج اللّه و براهينه، و الخصيم الشديد

---

(۱). مريم: ۶۱.

الخصومة الكثير الجدال، و معنى المبين: المظهر لما يقوله الموضح له بقوّة عارضته و طلاقة لسانه، و هكذا جملة:

وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ معطوفة على الجملة المنفية داخلة فى حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، فهى تكميل للتعجيب من حال الإنسان، و بيان جهله بالحقائق، و إهماله للتفكر فى نفسه فضلا عن التفكر فى سائر مخلوقات اللّه، و يجوز أن تكون جملة: فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ معطوفة على خلقنا، و هذه معطوفة عليها، أى: أورد فى شأننا قصة غريبة كالمثل: و هى إنكاره إحياءنا للعظام، و نسى خلقه: أى خلقنا إياه، و هذه الجملة معطوفة على ضرب، أو فى محلّ نصب على الحال بتقدير قد، و جملة: قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ استئناف جوابا عن سؤال مقدّر كأنه قيل: ما هذا المثل الذى ضربه؟ فقيل قال: من يحيى العظام و هى رميم، و هذا الاستفهام للإنكار لأنه قاس قدرة اللّه على قدرة العبد، فأنكر أن اللّه يحيى العظام البالية حيث لم يكن فى مقدور البشر، يقال رمّ العظم يرمّ رما إذا بلى فهو رميم و رمام و إنما قال رميم و لم يقل رميمة مع كونه خبرا للمؤنث لأنه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرمة و الرفات، و قيل: لكونه معدولا عن فاعله و كلّ معدول عن وجهه يكون مصروفا عن إعرابه كما فى قوله: وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا «۱» لأنه مصروف عن باغية، كذا قال البغوى و القرطبى، و قال بالأوّل صاحب الكشاف. و الأولى أن يقال: إنه فعيل بمعنى فاعل؛ أو مفعول و هو يستوى فيه المذكر و المؤنث كما قيل فى جريح و صبور. ثم أجاب سبحانه عن الضارب لهذا المثل فقال: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ أى: ابتدأها و خلقها أوّل مرة من غير شىء، و من قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه خافية و لا يخرج عن علمه خارج كائنا ما كان. و قد استدلّ أبو حنيفة و بعض أصحاب الشافعى بهذه الآية على أن العظام مما تحله الحياة و قال الشافعى: لا تحله الحياة و أن المراد بقوله: مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ من يحيى أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف، و ردّ بأن هذا التقدير خلاف الظاهر الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً هذا رجوع منه سبحانه إلى تقرير ما تقدّم من دفع استبعادهم، فنبه سبحانه على وحدانيته و دلّ على قدرته على إحياء الموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود النديّ الرطب، و ذلك أن الشجر المعروف بالمرخ، و الشجر المعروف بالعفار إذا

قطع منهما عودان، و ضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار و هما أخضران. قيل: المرخ هو الذكر؛ و العفار هو الأنثى، و يسمى الأوّل الزند و الثانى الزندة، و قال الأخضر و لم يقل الخضراء اعتبارا باللفظ. و قرئ (الخضر) اعتبارا بالمعنى، و قد تقرّر أنه يجوز تذكير اسم الجنس كما فى قوله: نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ «٢» و قوله: نَخْلٍ خاوِيَةٍ «٣» فبنو تميم و نجد يذكّرونه، و أهل الحجاز يؤنّثونه إلا نادرا، و الموصول بدل من الموصول الأوّل فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أى: تقدحون منه النار و توقدونها من ذلك الشجر الأخضر. ثم ذكر سبحانه ما هو أعظم خلقا من الإنسان فقال: أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ و الهمزة للإنكار، و الواو للعطف على مقدّر كنظائره، و معنى الآية: أن من قدر على خلق السموات و الأرض؛ و هما فى غاية العظم، و كبر الأجزاء؛ يقدر على إعادة

---

(١). مريم: ٢٨.

(٢). القمر: ٢٠.

(٣). الحاقة: ٧.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٤٤١

خلق البشر الذى هو صغير الشكل ضعيف القوّة، كما قال سبحانه: لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ «١». و قرأ الجمهور بِقادِرٍ بصيغة اسم الفاعل. و قرأ الجحدرى، و ابن أبى إسحاق، و الأعرج، و سلام بن المنذر، و أبو يعقوب الحضرمى «يقدر» بصيغة الفعل المضارع. ثم أجاب سبحانه عما أفاده الاستفهام من الإنكار التقريرىّ بقوله: بَلى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ أى: بلى هو قادر على ذلك و هو المبالغ فى الخلق و العلم على أكمل وجه و أتمه. و قرأ الحسن، و الجحدرى، و مالك بن دينار «و هو الخالق». ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على كمال قدرته، و تيسر المبدأ و الإعادة عليه فقال: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أى: إنما شأنه سبحانه إذا تعلقت إرادته بشى‌ء من الأشياء أن يقول له: أحدث فيحدث من غير توقف على شى‌ء آخر أصلا، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة النحل و فى البقرة.

قرأ الجمهور: فَيَكُونُ بالرفع على الاستئناف. و قرأ الكسائى بالنصب عطفا على يقول. ثم نزّه سبحانه نفسه عن أن يوصف بغير القدرة فقال: فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‌ءٍ و الملكوت فى كلام العرب لفظ مبالغة فى الملك كالجبروت و الرحموت كأنه قال: فسبحان الذى بيده مالكية الأشياء الكلية. قال قتادة: ملكوت كلّ شى‌ء: مفاتح كلّ شى‌ء. قرأ الجمهور مَلَكُوتُ و قرأ الأعمش و طلحة بن مصرف و إبراهيم التيمى «ملكة» بزنة شجرة، و قرأ الجمهور وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بالفوقية على الخطاب مبنيا للمفعول. و قرأ السلمى و زر بن حبيش و أصحاب ابن مسعود بالتحتية على الغيبة مبنيا للمفعول أيضا. و قرأ زيد بن علىّ على البناء للفاعل، أى: ترجعون إليه لا إلى غيره و ذلك فى الدار الآخرة بعد البعث.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم فى معجمه، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، و الضياء فى المختارة عن ابن عباس قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بعظم حائل ففته بيده فقال: يا محمّد أ يحيى اللّه هذا بعد ما أرى؟ قال: «نعم، يبعث اللّه هذا، ثمّ يميتك ثمّ يحييك ثمّ يدخلك نار جهنم» فنزلت الآيات من آخر يس أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ إلى آخر السورة.

و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عنه قال: جاء عبد اللّه بن أبىّ فى يده عظم حائل إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و ذكر مثل ما تقدّم قال ابن كثير: و هذا منكر، لأن السورة مكية و عبد اللّه بن أبىّ إنما كان بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: جاء أبىّ بن خلف الجمحى و ذكر نحو ما تقدّم. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال:

نزلت فی أبی جهل و ذکر نحو ما تقدّم.

---

(۱). غافر: ۵۷.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۴۴۲

سورة الصّافّات

اشارة

و هی مکیـة. قال القرطبی: فی قول الجمیع، و أخرج ابن الضـریس، و ابن النحاس، و ابن مردویه، و البیهقی فی الـدلائل، عن ابن عباس قـال: نزلت بمکـة. و أخرج النسـائی، و البیهقی فی سـننه، عن ابن عمر قـال: کـان رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلم یأمرنا بالتخفیف و یؤمّنا بالصّافات. قال ابن کثیر: تفرّد به النسائی. و أخرج ابن أبی داود فی فضائل القرآن، و ابن النجار فی تاریخه من طریق نهشل بن سعد الوردانی، عن الضّـحّاک، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «من قرأ یس و الصّافات یوم الجمعة ثمّ سأل اللّه أعطاه سؤاله».

و أخرج أبو نعیم فی الدلائل، و السّـلفی فی الطیوریات، عن ابن عباس: أن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم لما سأله ملوک حضرموت عند قدومهم علیه أن یقرأ علیهم شیئا ممّا أنزل اللّه قرأ الصَّافَّاتِ صَفًّا حتی بلغ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ الحدیث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة الصافات (۳۷): الآیات ۱ الی ۱۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا (۱) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (۲) فَالتَّالِیاتِ ذِکْراً (۳) إِنَّ إِلهَکُمْ لَواحِدٌ (۴)

رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ (۵) إِنَّا زَیَّنَّا السَّماءَ الدُّنْیا بِزِینَةٍ الْکَواکِبِ (۶) وَ حِفْظاً مِنْ کُلِّ شَیْطانٍ مارِدٍ (۷) لا یَسَّمَّعُونَ إِلَی الْمَلَإِ الْأَعْلی وَ یُقْذَفُونَ مِنْ کُلِّ جانِبٍ (۸) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (۹)

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (۱۰) فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِینٍ لازِبٍ (۱۱) بَلْ عَجِبْتَ وَ یَسْخَرُونَ (۱۲) وَ إِذا ذُکِّرُوا لا یَذْکُرُونَ (۱۳) وَ إِذا رَأَوْا آیَةً یَسْتَسْخِرُونَ (۱۴)

وَ قالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِینٌ (۱۵) أَ إِذا مِتْنا وَ کُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۱۶) أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (۱۷) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ (۱۸) فَإِنَّما هِیَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ یَنْظُرُونَ (۱۹)

قوله: وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا قرأ أبو عمرو، و حمزة، و قیل: حمزة فقط بإدغام التاء من الصافات فی صاد صفا، و إدغام التاء من الزاجرات فی زای زجرا، و إدغام التاء من التالیات فی ذال ذکرا، و هذه القراءة قد أنکرها أحمد بن حنبل لما سمعها. قال النحاس: و هی بعیده فی العربیة من ثلاث جهات: الجهة الأولی أن التاء لیست من مخرج الصاد، و لا من مخرج الزای، و لا من مخرج الدال، و لا من أخواتهن. الجهة الثانیة:

أن التاء فی کلمة و ما بعدها فی کلمة أخری. الثالثة: أنک إذا أدغمت جمعت بین ساکنین من کلمتین، و إنما یجوز الجمع بین ساکنین فی مثل هذا إذا کانا فی کلمة واحدة. و قال الواحدی: إدغام التاء فی الصاد حسن لمقاربة الحرفین، ألا تری أنهما من

طرف اللسان. و قرأ الباقون بإظهار جميع ذلك، و الواو للقسم، و المقسم به الملائكة: الصافات، و الزاجرات، و التاليات و المراد بالصافات: التى تصفّ فى السماء من الملائكة كصفوف الخلق فى الدنيا، قاله ابن مسعود، و ابن عباس، و عكرمة، و سعيد بن جبير، و مجاهد، و قتادة. و قيل: إنها تصفّ

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۴۳

أجنحتها فى الهواء واقفة فيه حتى يأمرها اللّه بما يريد. و قال الحسن: صَفًّا كصفوفهم عند ربهم فى صلاتهم.

و قيل: المراد بالصافات هنا الطير كما فى قوله: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ «۱». و الأوّل أولى، و الصف: ترتيب الجمع على خطّ كالصفّ فى الصلاة، و قيل: الصافات جماعات الناس المؤمنين إذا قاموا صفا فى الصلاة أو فى الجهاد، ذكره القشيرى. و المراد ب فَالزَّاجِراتِ الفاعلات للزجر من الملائكة، إما لأنها تزجر السحاب كما قال السدّى، و إما لأنها تزجر عن المعاصى بالمواعظ و النصائح. و قال قتادة: المراد بالزاجرات: الزواجر من القرآن، و هى كلّ ما ينهى، و يزجر عن القبيح، و الأوّل أولى. و انتصاب صفّا.

و زَجْراً على المصدرية لتأكيد ما قبلها. و قيل: المراد بالزاجرات العلماء، لأنهم هم الذين يزجرون أهل المعاصى. و الزجر فى الأصل: الدفع بقوّة، و هو هنا: قوّة التصويت، و منه قول الشاعر:

زجر أبى عروة السّباع إذاأشفق أن يختلطن بالغنم

و منه زجرت الإبل و الغنم: إذا أفزعتها بصوتك، و المراد ب فَالتَّالِياتِ ذِكْراً الملائكة التى تتلو القرآن كما قال ابن مسعود، و ابن عباس، و الحسن، و مجاهد، و ابن جبير، و السدّى. و قيل: المراد جبريل وحده، فذكر بلفظ الجمع تعظيما له مع أنه لا يخلو من أتباع له من الملائكة. و قال قتادة: المراد كلّ من تلا ذكر اللّه و كتبه. و قيل: المراد آيات القرآن، و وصفها بالتلاوة و إن كانت متلوّة كما فى قوله: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ «۲» و قيل: لأن بعضها يتلو بعضها و يتبعه. و ذكر الماوردى أن التاليات: هم الأنبياء يتلون الذكر على أممهم، و انتصاب ذكرا على أنه مفعول به، و يجوز أن يكون مصدرا كما قبله من قوله صَفًّا و زَجْراً. قيل: و هذه الفاء فى قوله: فَالزَّاجِراتِ فَالتَّالِياتِ إما لترتب الصفات أنفسها فى الوجود أو لترتب موصوفاتها فى الفضل، و فى الكلّ نظر، و قوله: إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ جواب القسم، أى: أقسم اللّه بهذه الأقسام إنه واحد ليس له شريك. و أجاز الكسائى فتح إن الواقعة فى جواب القسم رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يجوز أن يكون خبرا ثانيا، و أن يكون بدلا من لَواحِدٌ و أن يكون خبر مبتدأ محذوف. قال ابن الأنبارى: الوقف على لواحد وقف حسن، ثم يبتدئ ربّ السموات و الأرض على معنى هو ربّ السموات و الأرض. قال النحاس: و يجوز أن يكون بدلا من لواحد. و المعنى فى الآية:

أن وجود هذه المخلوقات على هذا الشكل البديع من أوضح الدلائل على وجود الصانع و قدرته، و أنه ربّ ذلك كله، أى: خالقه و مالكه، و المراد بما بينهما: ما بين السموات و الأرض من المخلوقات. و المراد ب الْمَشارِقِ مشارق الشمس. قيل: إن اللّه سبحانه خلق للشمس كلّ يوم مشرقا و مغربا بعدد أيام السنة، تطلع كلّ يوم من واحد منها و تغرب من واحد، كذا قال ابن الأنبارى و ابن عبد البرّ. و أما قوله فى سورة الرحمن رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ «۳» فالمراد بالمشرقين: أقصى مطلع تطلع منه الشمس فى الأيام الطوال، و أقصر يوم فى الأيام القصار، و كذلك فى المغربين. و أما ذكر المشرق و المغرب بالإفراد فالمراد به الجهة التى تشرق منها الشمس، و الجهة التى تغرب منها، و لعله قد تقدّم لنا فى هذا كلام أوسع من هذا

---

(۱). الملك: ۱۹.

(۲). النمل: ۳۶.

(۳). الرحمن: ۱۷.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۴۴

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ المراد بالسماء الدنيا التى تلى الأرض، من الدنوّ و هو القرب، فهى أقرب السموات إلى الأرض. قرأ الجمهور بِزِينَةِ الْكَواكِبِ بإضافة زينة إلى الكواكب. و المعنى: زيناها بتزيين الكواكب: أى بحسنها. و قرأ مسروق و الأعمش و النخعى و حمزة بتنوين «زينة» و خفض الْكَواكِبِ على أنها بدل من الزينة على أن المراد بالزينة الاسم لا المصدر، و التقدير بعد طرح المبدل منه:

إنا زينا السماء بالكواكب، فإن الكواكب فى أنفسها زينة عظيمة، فإنها فى أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة.

و قرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه بتنوين بِزِينَةٍ و نصب «الكواكب» على أن الزينة مصدر و فاعله محذوف، و التقدير: بأن اللّه زين الكواكب بكونها مضيئة حسنة فى أنفسها، أو تكون الكواكب منصوبة بإضمار أعنى، أو بدلا من السماء بدل اشتمال، و انتصاب حفظا على المصدرية بإضمار فعل: أى حفظناها حفظا، أو على أنه مفعول لأجله: أى زيناها بالكواكب للحفظ، أو بالعطف على محل زينة كأنه قال: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ أى: متمرد خارج عن الطاعة يرمى بالكواكب، كقوله: وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ «۱»، و جملة لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى مستأنفة لبيان حالهم بعد حفظ السماء منهم. و قال أبو حاتم: أى لئلا يسمعوا، ثم حذف أن فرفع الفعل، و كذا قال الكلبى، و الملأ الأعلى: أهل السماء الدنيا فما فوقها، و سمى الكلّ منهم أعلى بإضافته إلى ملأ الأرض، و الضمير فى يسمعون إلى الشياطين. و قيل: إن جملة لا يسمعون صفة لكل شيطان، و قيل جوابا عن سؤال مقدّر كأنه قيل: فما كان حالهم بعد حفظ السماء عنهم؟ فقال: لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى قرأ الجمهور «يسمعون» بسكون السين و تخفيف الميم. و قرأ حمزة و الكسائى و عاصم فى رواية حفص عنه بتشديد الميم و السين، و الأصل يتسمعون فأدغم التاء فى السين، فالقراءة الأولى تدلّ على انتفاء سماعهم دون استماعهم، و القراءة الثانية تدلّ على انتفائهما و فى معنى القراءة الأولى قوله تعالى: إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ «۲» قال مجاهد: كانوا يتسمعون و لكن لا يسمعون. و اختار أبو عبيدة القراءة الثانية، قال: لأن العرب لا تكاد تقول: سمعت إليه، و تقول تسمعت إليه وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً أى: يرمون من كلّ جانب من جوانب السماء بالشهب إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع، و انتصاب دحورا على أنه مفعول لأجله و الدحور الطرد، تقول دحرته دحرا و دحورا: طردته. قرأ الجمهور دُحُوراً بضم الدال، و قرأ علىّ و السلمى و يعقوب الحضرمى، و ابن أبى عبلة بفتحها. و روى عن أبى عمرو أنه قرأ يُقْذَفُونَ مبنيا للفاعل، و هى قراءة غير مطابقة لما هو المراد من النظم القرآنى، و قيل: إن انتصاب دحورا على الحال: أى مدحورين، و قيل: هو جمع داحر نحو قاعد و قعود فيكون حالا أيضا. و قيل: إنه مصدر لمقدّر: أى يدحرون دحورا. و قال الفراء: إن المعنى يقذفون بما يدحرهم: أى بدحور، ثم حذفت الباء فانتصب بنزع الخافض.

---

(۱). الملك: ۵.

(۲). الشعراء: ۲۱۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۴۵

و اختلف هل كان هذا الرمى لهم بالشهب قبل المبعث أو بعده، فقال بالأوّل طائفة، و بالآخر آخرون، و قالت طائفة بالجمع بين القولين: إن الشياطين لم تكن ترمى قبل المبعث رميا يقطعها عن السمع، و لكن كانت ترمى وقتا و لا ترمى وقتا آخر و ترمى من جانب و لا ترمى من جانب آخر، ثم بعد المبعث رميت فى كلّ وقت، و من كلّ جانب حتى صارت لا تقدر على استراق شىء

من السمع؛ إلا من اختطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب، و معنى وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ و لهم عذاب دائم لا ينقطع، و المراد به العذاب فى الآخرة غير العذاب الذى لهم فى الدنيا من الرمى بالشهب. و قال مقاتل: يعنى دائما إلى النفخة الأولى، و الأوّل أولى. و قد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب الدائم. و قال السدّى و أبو صالح و الكلبى: هو الموجع الذى يصل وجعه إلى القلب، مأخوذ من الوصب و هو المرض، و قيل: هو الشديد، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ هو من قوله: لا يَسَّمَّعُونَ أو من قوله: وَ يُقْذَفُونَ و قيل الاستثناء راجع إلى غير الوحى لقوله: إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ بل يخطف الواحد منهم خطفة مما يتفاوض فيه الملائكة و يدور بينهم مما سيكون فى العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض. و الخطف الاختلاس مسارقة و أخذ الشىء بسرعة.

قرأ الجمهور خَطِفَ بفتح الخاء و كسر الطاء مخففة، و قرأ قتادة و الحسن بكسرهما و تشديد الطاء، و هى لغة تميم بن مرّ و بكر بن وائل. و قرأ عيسى بن عمر بفتح الخاء و كسر الطاء مشددة. و قرأ ابن عباس بكسرهما مع تخفيف الطاء، و قيل: إن الاستثناء منقطع فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ أى: لحقه و تبعه شهاب ثاقب:

نجم مضىء فيحرقه، و ربما لا يحرقه فيلقى إلى إخوانه ما خطفه، و ليست الشهب التى يرجم بها هى الكواكب الثوابت بل من غير الثوابت، و أصل الثقوب الإضاءة. قال الكسائى: ثقبت النار تثقب ثقابة و ثقوبا: إذا اتقدت، و هذه الآية هى كقوله: إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ «١» فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا أى: اسأل الكفار المنكرين للبعث أهم أشدّ خلقا و أقوى أجساما و أعظم أعضاء، أم من خلقنا من السموات و الأرض و الملائكة؟ قال الزجاج: المعنى فاسألهم سؤال تقرير أهم أشدّ خلقا: أى أحكم صنعة أم من خلقنا قبلهم من الأمم السالفة؟ يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقا من غيرهم من الأمم و قد أهلكناهم بالتكذيب فما الذى يؤمنهم من العذاب؟ ثم ذكر خلق الإنسان فقال: إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ أى: إنا خلقناهم فى ضمن خلق أبيهم آدم من طين لازب: أى لاصق، يقال لزب يلزب لزوبا:

إذا لصق. و قال قتادة و ابن زيد: اللازب اللازق. و قال عكرمة: اللازب اللزج. و قال سعيد بن جبير:

اللازب الجيد الذى يلصق باليد. و قال مجاهد: هو اللازم، و العرب تقول: طين لازب و لازم تبدل الباء من الميم، و اللازم الثابت كما يقال: صار الشىء ضربة لازب، و منه قول النابغة:

لا تحسبون الخير لا شرّ بعدهو لا تحسبون الشرّ ضربة لازب

و حكى الفراء عن العرب: طين لاتب بمعنى لازم، و اللاتب: الثابت. قال الأصمعى. و اللاتب:

اللاصق مثل اللازب. و المعنى فى الآية: أن هؤلاء كيف يستبعدون المعاد و هم مخلوقون من هذا الخلق الضيف

---

(١). الحجر: ١٨.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۴۴۶

و لم ينكره من هو مخلوق خلقا أقوى منهم و أعظم و أكمل و أتمّ. و قيل اللازب هو المنتن قاله مجاهد و الضحاك.

قرأ الجمهور أَمْ مَنْ خَلَقْنا بتشديد الميم و هى أم المتصلة، و قرأ الأعمش بالتخفيف، و هو استفهام ثان على قراءته. قيل: و قد قرئ لازم و لاتب، و لا أدرى من قرأ بذلك. ثم أضرب سبحانه عن الكلام السابق فقال: بَلْ عَجِبْتَ يا محمّد من قدرة اللّه سبحانه وَ يَسْخَرُونَ منك بسبب تعجبك، أو يسخرون منك بما تقوله من إثبات المعاد. قرأ الجمهور بفتح التاء من عَجِبْتَ على الخطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و قرأ حمزة و الكسائى بضمها، و رويت هذه القراءة عن علىّ و ابن مسعود و ابن عباس، و اختارها أبو عبيد و الفراء. قال الفراء: قرأها الناس بنصب التاء و رفعها، و الرفع أحبّ إلىّ لأنها عن علىّ و عبد اللّه و ابن عباس

قال: و العجب إن أسند إلى اللّه فليس معناه من اللّه كمعناه من العباد. قال الهروى: و قال بعض الأئمة: معنى قوله: بَلْ عَجِبْتَ بل جازيتهم على عجبهم، لأن اللّه أخبر عنهم فى غير موضع بالتعجب من الخلق كما قال: وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ «١» و قالوا: إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ «٢» أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ «٣» و قال علىّ بن سليمان: معنى القراءتين واحد، و التقدير: قل يا محمّد بل عجبت لأن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم مخاطب بالقرآن. قال النحاس: و هذا قول حسن و إضمار القول كثير. و قيل: إن معنى الإخبار من اللّه سبحانه عن نفسه بالعجب أنه ظهر من أمره و سخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين. قال الهروى:

و يقال معنى عجب ربكم: أى رضى ربكم و أثاب، فسماه عجبا، و ليس بعجب فى الحقيقة، فيكون معنى عجبت هنا عظم فعلهم عندى. و حكى النقاش أن معنى بل عجبت: بل أنكرت. قال الحسن بن الفضل:

التعجب من اللّه إنكار الشىء و تعظيمه، و هو لغة العرب، و قيل معناه: أنه بلغ فى كمال قدرته و كثرة مخلوقاته إلى حيث عجب منها، و هؤلاء لجهلهم يسخرون منها، و الواو فى وَ يَسْخَرُونَ للحال؛ أى: بل عجبت و الحال أنهم يسخرون، و يجوز أن تكون للاستئناف وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ أى: و إذا وعظوا بموعظة من مواعظ اللّه أو مواعظ رسوله لا يذكرون، أى: لا يتعظون بها و لا ينتفعون بما فيها. قال سعيد بن المسيب:

أى إذا ذكر لهم ما حلّ بالمكذّبين ممن كان قبلهم أعرضوا عنه و لم يتدبروا وَ إِذا رَأَوْا آيَةً أى معجزة من معجزات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يَسْتَسْخِرُونَ أى يبالغون فى السخرية. قال قتادة: يسخرون و يقولون إنها سخرية، يقال سخر و استسخر بمعنى، مثل قرّ و استقرّ، و عجب و استعجب. و الأوّل أولى، لأن زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى. و قيل معنى يستسخرون: يستدعون السخرية من غيرهم. و قال مجاهد: يستهزئون وَ قالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أى: ما هذا الذى تأتينا به إلا سحر واضح ظاهر أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً الاستفهام للإنكار: أى أ نبعث إذا متنا؟ فالعامل فى إذا هو ما دلّ عليه أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ و هو أ نبعث، لا نفس مبعوثون لتوسط ما يمنع من عمله فيه، و هذا الإنكار للبعث منهم هو السبب الذى لأجله كذبوا الرسل و ما نزل عليهم و استهزءوا بما جاءوا به من المعجزات، و قد تقدّم تفسير معنى هذه الآية فى مواضع أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ هو: مبتدأ، و خبره: محذوف، و قيل: معطوف على محل إن و اسمها، و قيل: على

---

(١). ص: ۴.

(٢). ص: ۵.

(٣). يونس: ٢.

الضمير فى مبعوثون لوقوع الفصل بينهما و الهمزة للإنكار داخلة على حرف العطف، و لهذا قرأ الجمهور بفتح الواو، و قرأ ابن عامر و قالون بسكونها على أن أو هى العاطفة، و ليست الهمزة للاستفهام، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله بأن يجيب عنهم تبكيتا لهم، فقال: قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ أى: نعم تبعثون، و أنتم صاغرون ذليلون. قال الواحدى: و الدخور أشدّ الصغار، و جملة و أنتم داخرون فى محل نصب على الحال. ثم ذكر سبحانه أن بعثهم يقع بزجرة واحدة فقال: فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ الضمير للقصة أو البعثة المفهومة مما قبلها، أى: إنما قصة البعث أو البعثة زجرة واحدة، أى: صيحة واحدة من إسرافيل بنفخة فى الصور عند البعث فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ أى: يبصرون ما يفعل اللّه بهم من العذاب. و قال الحسن: هى النفخة الثانية، و سميت الصيحة زجرة، لأن المقصود منها الزجر، و قيل معنى ينظرون: ينتظرون ما يفعل بهم، و الأوّل أولى.

و قد أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، من طرق عن ابن مسعود وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا قال: الملائكة فَالزَّاجِراتِ زَجْراً قال: الملائكة فَالتَّالِياتِ ذِكْراً قال: الملائكة. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد و عكرمة مثله.

و أخرج ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عنه أنه كان يقرأ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى مخففة. و قال: إنهم كانوا يتسمعون و لكن لا يسمعون. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: عَذابٌ واصِبٌ قال: دائم. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة عنه أيضا إذا رمى الشهاب لم يخطئ من رمى به و تلا فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عنه أيضا فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ قال: لا يقتلون بالشهاب و لا يموتون، و لكنها تحرق، و تخبل، و تجرح فى غير قتل. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: مِنْ طِينٍ لازِبٍ قال: ملتصق. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر عنه أيضا مِنْ طِينٍ لازِبٍ قال: اللزج الجيد. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: اللازب، و الحمأ، و الطين واحد: كان أوّله ترابا ثم صار حمأ منتنا، ثم صار طينا لازبا، فخلق اللّه منه آدم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: اللازب الذى يلصق بعضه إلى بعض. و أخرج الفريابى، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و صححه عن ابن مسعود أنه كان يقرأ بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ بالرفع للتاء من عجبت.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٢٠ الى ٤٩]

وَ قالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (٢٤)

ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٢٧) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩)

وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤)

إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَ ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَواكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (٤٤)

يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (٤٧) وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩)

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٤٤٨

قوله: وَ قالُوا يا وَيْلَنا أى: قال أولئك المبعوثون لما عاينوا البعث الذى كانوا يكذبون به فى الدنيا:

يا ويلنا، دعوا بالويل على أنفسهم. قال الزجاج: الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة، و قال الفراء: إن أصله ياوى لنا، و وى بمعنى الحزن كأنه قال: يا حزن لنا. قال النحاس: و لو كان كما قال لكان منفصلا، و هو فى المصحف متصل، و لا نعلم أحدا يكتبه إلا متصلا، و جملة هذا يَوْمُ الدِّينِ تعليل لدعائهم بالويل على أنفسهم، و الدين الجزاء، فكأنهم قالوا هذا اليوم الذى نجازى

فيه بأعمالنا من الكفر و التكذيب للرسل فأجاب عليهم الملائكة بقولهم: هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ و يجوز أن يكون هذا من قول بعضهم لبعض، و الفصل الحكم و القضاء لأنه يفصل فيه بين المحسن و المسيء، و قوله: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ هو أمر من اللّه سبحانه للملائكة بأن يحشروا المشركين و أزواجهم، و هم أشباههم فى الشرك، و المتابعون لهم فى الكفر، و المشايعون لهم فى تكذيب الرسل، كذا قال قتادة و أبو العالية. و قال الحسن و مجاهد: المراد بأزواجهم نساؤهم المشركات الموافقات لهم على الكفر و الظلم. و قال الضحاك: أزواجهم قرناؤهم من الشياطين يحشر كلّ كافر مع شيطانه، و به قال مقاتل وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأصنام و الشياطين، و هذا العموم المستفاد من ما الموصولة، فإنها عبارة عن المعبودين، لا عن العابدين كما قيل مخصوص، لأن من طوائف الكفار من عبد المسيح، و منهم من عبد الملائكة فيخرجون بقوله: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ «١» و وجه حشر الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل هو زيادة التبكيت لعابديها و تخجيلهم و إظهار أنها لا تنفع و لا تضرّ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ أى عرّفوا هؤلاء المحشورين طريق النار و سوقوهم إليها، يقال هديته الطريق و هديته إليها: أى دللته عليها، و فى هذا تهكم بهم وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ أى احبسوهم، يقال وقفت الدابة أقفها وقفا فوقفت هى وقوفا يتعدّى و لا يتعدّى، و هذا الحبس لهم يكون قبل السوق إلى جهنم: أى وقوفهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار بعد ذلك، و جملة إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ تعليل للجملة الأولى. قال الكلبى: أى: مسؤولون عن أعمالهم و أقوالهم و أفعالهم. و قال الضحاك: عن خطاياهم، و قيل: عن لا إله إلا اللّه، و قيل: عن ظلم العباد، و قيل: هذا السؤال هو المذكور بعد هذا بقوله: ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ أى: أىّ شيء لكم لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم فى الدنيا، و هذا توبيخ لهم و تقريع و تهكم بهم، و أصله تتناصر و فطرحت إحدى التاءين تخفيفا. قرأ

---

(١). الأنبياء: ١٠١.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۴۹

الجمهور إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ بكسر الهمزة، و قرأ عيسى بن عمر بفتحها. قال الكسائى: أى لأنهم أو بأنهم، و قيل: الإشارة بقوله ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ إلى قول أبى جهل يوم بدر نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ «١» ثم اضرب سبحانه عما تقدم إلى بيان الحالة التى هم عليها هنالك فقال: بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ أى:

منقادون لعجزهم عن الحيلة. قال قتادة: مستسلمون فى عذاب اللّه. و قال الأخفش: ملقون بأيديهم، يقال استسلم للشيء: إذا انقاد له و خضع وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ أى: أقبل بعض الكفار على بعض يتساءلون. قيل: هم الأتباع و الرؤساء يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ و تقريع و مخاصمة. و قال مجاهد: هو قول الكفار للشياطين. و قال قتادة: هو قول الإنس للجنّ، و الأوّل أولى لقوله: قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ أى: كنتم تأتوننا فى الدنيا عن اليمين: أى من جهة الحقّ و الدين و الطاعة و تصدّوننا عنها. قال الزجاج: كنتم تأتوننا من قبل الدين، فتروننا أن الدين و الحق ما تضلوننا به، و اليمين عبارة عن الحق، و هذا كقوله تعالى إخبارا عن إبليس: ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ «٢» قال الواحدى: قال أهل المعانى: إن الرّؤساء كانوا قد حلفوا لهؤلاء الأتباع أن ما يدعونهم إليه هو الحق فوثقوا بأيمانهم؛ فمعنى تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ أى من ناحية الأيمان التى كنتم تحلفونها فوثقنا بها. قال: و المفسرون على القول الأوّل. و قيل المعنى: تأتوننا عن اليمين التى نحبها و نتفاءل بها لتغرّونا بذلك عن جهة النصح، و العرب تتفاءل بما جاء عن اليمين و تسميه السانح. و قيل اليمين بمعنى القوّة، أى: تمنعوننا بقوّة و غلبة و قهر كما فى قوله:

فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ «٣» أى: بالقوّة و هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و كذلك جملة:

قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ فإنها مستأنفة جواب سؤال مقدّر؛ و المعنى: أنه قال الرؤساء أو الشياطين لهؤلاء القائلين: كنتم تأتوننا عن اليمين بل لم تكونوا مؤمنين و لم نمنعكم من الإيمان. و المعنى: أنكم لم تكونوا مؤمنين قطّ حتى ننقلكم عن الإيمان إلى الكفر بل كنتم من الأصل على الكفر فأقمتم عليه وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ من تسلط بقهر و غلبة حتى ندخلكم فى الإيمان و نخرجكم من الكفر بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ أى: متجاوزين الحدّ فى الكفر و الضلال، و قوله: فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ من قول المتبوعين، أى: وجب علينا و عليكم، و لزمنا قول ربنا، يعنون قوله تعالى: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ «۴» إنا لذائقو العذاب: أى إنا جميعا لذائقو العذاب الذى ورد به الوعيد. قال الزجاج: أى إن المضلّ و الضّال فى النار فَأَغْوَيْناكُمْ أى أضللناكم عن الهدى، و دعوناكم إلى ما كنا فيه من الغىّ، و زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر إِنَّا كُنَّا غاوِينَ فلا عتب علينا فى تعرّضنا لإغوائكم، لأنا أردنا أن تكونوا أمثالنا فى الغواية؛ و معنى الآية: أقدمنا على إغوائكم لأنا كنا موصوفين فى أنفسنا بالغواية، فأقرّوا هاهنا بأنهم تسببوا لإغوائهم، لكن لا بطريق القهر و الغلبة، و نفوا عن أنفسهم فيما سبق أنهم قهروهم و غلبوهم، فقالوا: وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ ثم أخبر اللّه سبحانه عن الأتباع و المتبوعين بقوله: فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ كما كانوا مشتركين فى الغواية

---

(۱). القمر: ۴۴.

(۲). الأعراف: ۱۷.

(۳). الصافات: ۹۳.

(۴). ص: ۸۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۵۰

فتح القدير ج۴ ۴۹۹

إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ أى: إنا نفعل مثل ذلك الفعل بالمجرمين، أى: أهل الإجرام، و هم المشركون كما يفيده قوله سبحانه: إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ أى: إذا قيل لهم قولوا لا إله إلا اللّه يستكبرون عن القول، و محل يستكبرون النصب على أنه خبر كان، أو الرفع على أنه خبر إن، و كان ملغاة وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ يعنون النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، أى: لقول شاعر مجنون، فردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: بَلْ جاءَ بِالْحَقِ يعنى القرآن المشتمل على التوحيد و الوعد و الوعيد وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ أى: صدّقهم فيما جاءوا به من التوحيد و الوعيد، و إثبات الدار الآخرة و لم يخالفهم و لا جاء بشىء لم تأت به الرسل قبله إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ أى: إنكم بسبب شرككم و تكذيبكم لذائقوا العذاب الشديد الألم. قرأ الجمهور لَذائِقُوا بحذف النون و خفض العذاب، و قرأ أبان بن ثعلب عن عاصم و أبو السمال بحذفها و نصب العذاب، و أنشد سيبويه فى مثل هذه القراءة بالحذف للنون و النصب للعذاب قول الشاعر:

فألفيته غير مستعتبو لا ذاكر اللّه إلّا قليلا

و أجاز سيبويه أيضا وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ بنصب الصلاة على هذا التوجيه. و قد قرىء بإثبات النون و نصب العذاب على الأصل. ثم بين سبحانه أن ما ذاقوه من العذاب ليس إلا بسبب أعمالهم، فقال: وَ ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: إلا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر و المعاصى، أو إلا بما كنتم تعملون.

ثم استثنى المؤمنين فقال: إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ قرأ أهل المدينة و الكوفة الْمُخْلَصِينَ بفتح اللام، أى: الذين أخلصهم اللّه لطاعته و توحيده. و قرأ الباقون بكسرها، أى الذين أخلصوا للّه العبادة و التوحيد، و الاستثناء إما متصل على تقدير تعميم الخطاب فى

تجزون لجميع المكلّفين، أو منقطع، أى: لكن عباد اللّه المخلصين لا يذوقون العذاب، و الإشارة بقوله: أَولٰئِكَ إلى المخلصين، و هو: مبتدأ، و خبره قوله:

لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ أى: لهؤلاء المخلصين رزق يرزقهم اللّه إياه معلوم فى حسنه و طيبه، و عدم انقطاعه.

قال قتادة: يعنى الجنة، و قيل: معلوم الوقت، و هو أن يعطوا منه بكرة و عشية كما فى قوله: وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا «١» و قيل هو المذكور فى قوله بعده فَواكِهُ فإنه بدل من رزق، أو خبر مبتدأ محذوف، أى: هو فواكه، و هذا هو الظاهر. و الفواكه جمع الفاكهة و هى الثمار كلها رطبها و يابسها، و خصص الفواكه بالذكر لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه كذا قيل. و الأولى أن يقال: إن تخصيصها بالذكر لأنها أطيب ما يأكلونه و ألذّ ما تشتهيه أنفسهم. و قيل: إن الفواكه من أتباع سائر الأطعمة، فذكرها يغنى عن ذكر غيرها، و جملة وَ هُمْ مُكْرَمُونَ فى محل نصب على الحال، أى: و لهم من اللّه عزّ و جلّ إكرام عظيم برفع درجاتهم عنده، و سماع كلامه و لقائه فى الجنة قرأ الجمهور مُكْرَمُونَ بتخفيف الراء. و قرأ أبو مقسم بتشديدها و قوله: فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يجوز أن يتعلق بمكرمون و أن يكون خبرا ثانيا، و أن يكون حالا، و قوله:

عَلى سُرُرٍ يحتمل أن يكون حالا، و أن يكون خبرا ثالثا، و انتصاب مُتَقابِلِينَ على الحالية من الضمير

---

(١). مريم: ۶۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۵۱

فى مكرمون، أو من الضمير فى متعلق على سرر. قال عكرمة و مجاهد: معنى التقابل أنه لا ينظر بعضهم فى قفا بعض، و قيل: إنها تدور بهم الأسرّة كيف شاؤوا فلا يرى بعضهم قفا بعض. قرأ الجمهور سُرُرٍ بضم الراء. و قرأ أبو السمال بفتحها، و هى لغة بعض تميم. ثم ذكر سبحانه صفة أخرى لهم فقال: يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ و يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة جوابا عن سؤال مقدّر، و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير متقابلين، و الكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكلّ إناء فيه الشراب، فإن كان فارغا فليس بكأس. و قال الضحاك و السدّى: كل كأس فى القرآن فهى الخمر. قال النحاس: و حكى من يوثق به من أهل اللغة أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأس، فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام لم يقل له مائدة، و من معين متعلق بمحذوف هو صفة لكأس. قال الزجاج: بكأس من معين، أى: من خمر تجرى كما تجرى العيون على وجه الأرض، و المعين الماء الجارى، و قوله: بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ صفتان لكأس. قال الزجاج: أى ذات لذّة فحذف المضاف، و يجوز أن يكون الوصف بالمصدر لقصد المبالغة فى كونها لذّة فلا يحتاج إلى تقدير المضاف. قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضا من اللبن له لذّة لذيذة، يقال شراب لذّ و لذيذ كما يقال نبات غضّ و غضيض، و منه قول الشاعر:

بحديثها اللذّ الذى لو كلّمت أسد الفلاة به أتين سراعا

و اللذيذ: كل شىء مستطاب، و قيل البيضاء: هى التى لم يعتصرها الرجال. ثم وصف هذه الكأس من الخمر بغير ما يتصف به خمر الدنيا، فقال: لا فِيها غَوْلٌ أى: لا تغتال عقولهم فتذهب بها، و لا يصيبهم منها مرض و لا صداع وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ أى: يسكرون، يقال: نزف الشارب فهو منزوف و نزيف إذا سكر، و منه قول امرئ القيس:

و إذ هى تمشى كمشى النّزيف يصرعه بالكثيب البهر

و قال أيضا:

نزيف إذا قامت لوجه تمايلت ..... «١» ....

و منه قول الآخر:

فلثمت فاها آخذا بقرونهاشرب النزيف ببرد ماء الحشرج

قال الفراء: العرب تقول ليس فيها غيلة و غائلة و غول سواء. و قال أبو عبيدة: الغول أن تغتال عقولهم، و أنشد قول مطيع بن إياس:

---

(١). و عجز البيت: تراشى الفؤاد الرّخص ألّا تختّرا.

و الختر: خدر يحصل عند شراب الدواء أو السّم.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۵۲ و ما زالت الكأس تغتالهمو تذهب بالأوّل الأوّل

و قال الواحدى: الغول حقيقته الإهلاك، يقال غاله غولا و اغتاله: أى أهلكه، و الغول كلّ ما اغتالك:

أى أهلكك. قرأ الجمهور يُنْزَفُونَ بضم الياء و فتح الزاى مبنيا للمفعول. و قرأ حمزة و الكسائى بضم الياء و كسر الزاى من أنزف الرجل: إذا ذهب عقله من السكر فهو نزيف و منزوف، يقال أحصد الزرع:

إذا حان حصاده، و أقطف الكرم: إذا حان قطافه. قال الفراء: من كسر الزاى فله معنيان، يقال أنزف الرجل: إذا فنيت خمره، و أنزف: إذا ذهب عقله من السكر، و تحمل هذه القراءة على معنى لا ينفد شرابهم لزيادة الفائدة. قال النحاس: و القراءة الأولى أبين و أصحّ فى المعنى، لأن معنى لا ينزفون عند جمهور المفسرين:

لا تذهب عقولهم، فنفى اللّه عزّ و جلّ عن خمر الجنة الآفات التى تلحق فى الدنيا من خمرها من الصداع و السكر.

و قال الزجاج و أبو على الفارسى معنى: لا ينزفون بكسر الزاى: لا يسكرون. قال المهدوى: لا يكون معنى ينزفون يسكرون، لأن قبله لا ـ فِيها غَوْلٌ أى: لا تغتال عقولهم فيكون تكريرا، و هذا يقوّى ما قاله قتادة: إن الغول وجع البطن و كذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد. و قال الحسن: إن الغول الصداع. و قال ابن كيسان: هو المغص، فيكون معنى الآية: لا ـ فيها نوع من أنواع الفساد المصاحبة لشرب الخمر فى الدنيا من مغص أو وجع بطن أو صداع أو عربدة أو لغو أو تأثيم و لا هم يسكرون منها. و يؤيد هذا أن أصل الغول الفساد الذى يلحق فى خفاء، يقال اغتاله اغتيالا: إذا أفسد عليه أمره فى خفية، و منه الغول و الغيلة القتل خفية. و قرأ ابن أبى إسحاق يُنْزَفُونَ بفتح الياء و كسر الزاى. و قرأ طلحة بن مصرّف بفتح الياء و ضم الزاى. و لما ذكر سبحانه صفة مشروبهم ذكر عقبه صفة منكوحهم فقال: وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أى نساء قصرن طرفهنّ على أزواجهنّ فلا يردن غيرهم، و القصر معناه الحبس، و منه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطّرف لو دبّ محولمن الذّرّ فوق الإتب منها لأثّرا

و المحول: الصغير من الذرّ، و الأتب القميص، و قيل القاصرات: المحبوسات على أزواجهنّ، و الأوّل أولى لأنه قال: قاصرات الطرف، و لم يقل مقصورات، و العين عظام العيون جمع عيناء و هى الواسعة العين. قال الزجاج: معنى عِينٌ كبار الأعين حسانها. و قال مجاهد: العين حسان العيون. و قال الحسن: هنّ الشديدات بياض العين الشديدات سوادها، و الأوّل أولى كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ قال الحسن و أبو زيد:

شبههنّ ببيض النعام تكنها النعامة بالريش من الريح و الغبار. فلونه أبيض فى صفرة، و هو أحسن ألوان النساء، و قال سعيد بن جبير و السدّى: شبههنّ ببطن البيض قبل أن يقشر و تمسه الأيدى و به قال ابن جرير، و منه قول امرئ القيس:

و بيضة خدر لا يرام خباؤهاتمتّعت من لهو بها غير معجل

قال المبرد: و تقول العرب إذا وصفت الشىء بالحسن و النظافة كأنه بيض النعام المغطى بالريش. و قيل

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۵۳

المكنون: المصون عن الكسر: أى إنهنّ عذارى، و قيل: المراد بالبيض اللؤلؤ كما فى قوله: وَ حُورٌ عِينٌ كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ و مثله قول الشاعر:

و هى بيضاء مثل لؤلؤة الغوّاص ميزت من جوهر مكنون

و الأوّل أولى، و إنما قال مكنون و لم يقل مكنونات لأنه وصف البيض باعتبار اللفظ.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ قال: تقول الملائكة للزبانية هذا القول. و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و ابن أبى شيبة، و ابن منيع فى مسنده، و عبد ابن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث من طريق النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب فى قوله: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ قال: أمثالهم الذين هم مثلهم: يجىء أصحاب الرّبا مع أصحاب الرّبا، و أصحاب الزّنا مع أصحاب الزّنا، و أصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج فى الجنة، و أزواج فى النار. و أخرج الفريابى، و سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله:

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ قال: أشباههم، و فى لفظ: نظراءهم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ قال: وجهوهم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: دلوهم إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ قال: طريق النار. و أخرج عنه أيضا فى قوله: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ قال: احبسوهم إنهم محاسبون. و أخرج البخارى فى تاريخه، و الدارمى، و الترمذى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما من داع دعا إلى شىء إلا كان موقوفا معه يوم القيامة لازما به لا يفارقه و إن دعا رجل رجلا، ثم قرأ وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ . و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ قال: ذلك إذا بعثوا فى النفخة الثانية. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ قال: كانوا إذا لم يشرك باللّه يستنكفون، وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ لا يعقل، قال: فحكى اللّه صدقه فقال: بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلا اللّه، فمن قال لا إله إلا اللّه فقد عصم منى ماله و نفسه إلا بحقّه و حسابه على اللّه». و أنزل اللّه فى كتابه و ذكر قوما استكبروا، فقال: إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ و قال: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها «۱» و هى «لا إله إلا اللّه محمّد رسول اللّه» استكبر عنها المشركون يوم الحديبية، يوم كاتبهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على قضية المدّة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و البيهقى فى البعث.

(۱). الفتح: ۲۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۵۴

عن ابن عباس فى قوله: يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ قال: الخمر لا فِيها غَوْلٌ قال ليس فيها صداع وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ قال: لا تذهب عقولهم. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عنه قال فى الخمر أربع خصال: السكر و الصداع و القىء و البول، فنزّه اللّه خمر الجنة عنها، فقال: لا فِيها غَوْلٌ لا تغول عقولهم من السكر وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ قال: يقيئون عنها كما يقىء صاحب خمر الدنيا عنها.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس لا فِيها غَوْلٌ قال: هى الخمر ليس فيها وجع بطن. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله: وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ يقول:

عن غير أزواجهنّ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ قال: اللؤلؤ المكنون. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ قال: بياض البيضة ينزع عنها فوقها و غشاؤها.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٥٠ الى ٧٤]

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٥٠) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤)

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)

إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (٦١) أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)

طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (٦٩)

فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)

قوله: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ معطوف على يطاف، أى: يسأل هذا ذاك، و ذاك هذا حال شربهم عن أحوالهم التى كانت فى الدنيا، و ذلك من تمام نعيم الجنة. و التقدير: فيقبل بعضهم على بعض، و إنما عبر عنه بالماضى للدلالة على تحقق وقوعه قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ أى: قال قائل من أهل الجنة فى حال إقبال بعضهم على بعض بالحديث و سؤال بعضهم لبعض إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ أى: صاحب ملازم لى فى الدنيا كافر بالبعث منكر له كما يدلّ عليه قوله: أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ يعنى: بالبعث و الجزاء، و هذا الاستفهام من القرين لتوبيخ ذلك المؤمن و تبكيته بإيمانه؛ و تصديقه بما وعد اللّه به من البعث، و كان هذا القول منه فى الدنيا. ثم ذكر ما يدلّ على الاستبعاد للبعث عنده و فى زعمه فقال: أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ أى: مجزيون بأعمالنا و محاسبون بها بعد أن صرنا ترابا و عظاما و قيل معنى مدينون:

مسوسون، يقال دانه: إذا ساسه. قال سعيد بن جبير: قرينه شريكه، و قيل: أراد بالقرين الشيطان الذى يقارنه و أنه كان يوسوس إليه بإنكار البعث، و قد مضى ذكر قصتهما فى سورة الكهف، و الاختلاف فى

اسميهما، قرأ الجمهور لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ بتخفيف الصاد من التصديق، أى: لمن المصدّقين بالبعث، و قرئ بتشديدها، و لا أدرى من قرأ بها، و معناها بعيد لأنها من التصدّق لا من التصديق، و يمكن تأويلها بأنه أنكر عليه التصدّق بماله لطلب الثواب، و علل ذلك باستبعاد البعث.

و قد اختلف القراء فى هذه الاستفهامات الثلاثة، فقرأ نافع الأولى و الثانية بالاستفهام بهمزة، و الثالثة بكسر الألف من غير استفهام، و وافقه الكسائى إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين، و ابن عامر الأولى و الثالثة بهمزتين، و الثانية بكسر الألف من غير استفهام، و الباقون بالاستفهام فى جميعها. ثم اختلفوا، فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطوّلة، و بعده ساكنة خفيفة، و أبو

عمرو مطوّلـة، و عاصم و حمزة بهمزتين. قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ القائل هو المؤمن الذى فى الجنة بعد ما حكى لجلسائه فيها ما قاله له قرينه فى الدنيا، أى: هل أنتم مطلعون إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين الذى قال لى تلك المقالة كيف منزلته فى النار؟ قال ابن الأعرابى:

و الاستفهام هو بمعنى الأمر، أى: اطلعوا، و قيل: القائل هو اللّه سبحانه، و قيل: الملائكة، و الأوّل أولى فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ أى: فاطلع على النار ذلك المؤمن الذى صار يحدث أصحابه فى الجنة بما قال له قرينه فى الدنيا، فرأى قرينه فى وسط الجحيم. قال الزجاج: سواء كلّ شىء وسطه. قرأ الجمهور مُطَّلِعُونَ بتشديد الطاء مفتوحة و بفتح النون، فاطلع ماضيا مبنيا للفاعل من الطلوع. و قرأ ابن عباس و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو مطلعون بسكون الطاء و فتح النون فَاطَّلَعَ بقطع الهمزة مضمومة و كسر اللام ماضيا مبنيا للمفعول. قال النحاس: فاطلع فيه قولان على هذه القراءة أحدهما أن يكون فعلا مستقبلا، أى: فأطلع أنا، و يكون منصوبا على أنه جواب الاستفهام، و القول الثانى: أن يكون فعلا ماضيا، و قرأ حماد بن أبى عمار مُطَّلِعُونَ بتخفيف الطاء و كسر النون فاطلع مبنيا للمفعول، و أنكر هذه القراءة أبو حاتم و غيره. قال النحاس: هى لحن، لأنه لا يجوز الجمع بين النون و الإضافة، و لو كان مضافا لقال هل أنتم مطلعىّ، و إن كان سيبويه و الفراء قد حكيا مثله و أنشدا:

هم القائلون الخير و الآمرونهإذا ما خشوا من محدث الدّهر معظما

و لكنه شاذ خارج عن كلام العرب قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ أى قال ذلك الذى من أهل الجنة لما اطلع على قرينه و رآه فى النار: تاللّه إن كدت لتردين: أى لتهلكنى بالإغواء. قال الكسائى: لتردين لتهلكنى، و الردى: الهلاك. قال المبرد: لو قيل لتردين لتوقعنى فى النار لكان جائزا. قال مقاتل: المعنى و اللّه لقد كدت أن تغوينى فانزل منزلتك، و المعنى متقارب، فمن أغوى إنسانا فقد أهلكه وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ أى: لو لا رحمة ربى، و إنعامه علىّ بالإسلام، و هدايتى إلى الحقّ، و عصمتى عن الضلال لكنت من المحضرين معك فى النار. قال الفراء: أى لكنت معك فى النار محضرا. قال الماوردى: و أحضر لا يستعمل إلّا فى الشرّ. و لما تمم كلامه مع ذلك القرين الذى هو فى النار عاد إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة فقال:

أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ و الهمزة للاستفهام التقريرى و فيها معنى التعجيب، و الفاء للعطف على محذوف كما فى نظائره، أى: أ نحن مخلّدون منعمون فما نحن بميتين إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى التى كانت فى الدنيا، و قوله هذا

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۵۶

كان على طريقة الابتهاج و السرور بما أنعم اللّه عليهم من نعيم الجنة الذى لا ينقطع و أنهم مخلدون لا يموتون أبدا، و قوله: وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ هو من تمام كلامه، أى: و ما نحن بمعذبين كما يعذب الكفار. ثم قال مشيرا إلى ما هم فيه من النعيم إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى: إن هذا الأمر العظيم، و النعيم المقيم، و الخلود الدائم الذى نحن فيه لهو الفوز العظيم الذى لا يقادر قدره و لا يمكن الإحاطة بوصفه، و قوله لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ من تمام كلامه؛ أى: لمثل هذا العطاء؛ و الفضل العظيم فليعمل العاملون، فإن هذه هى التجارة الرابحة، لا العمل للدنيا الزائلة فإنها صفقة خاسرة، نعيمها منقطع، و خيرها زائل، و صاحبها عن قريب منها راحل. و قيل: إن هذا من قول اللّه سبحانه، و قيل: من قول الملائكة، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور بِمَيِّتِينَ و قرأ زيد بن علىّ «بمايتين» و انتصاب إلا موتتنا على المصدرية، و الاستثناء مفرّغ، و يجوز أن يكون الاستثناء منقطعا. أى: لكن الموتة الأولى التى كانت فى الدنيا أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ الإشارة بقوله ذلك إلى ما ذكره من نعيم الجنة، و هو: مبتدأ، و خبره: خير، و نزلا: تمييز، و النزل فى اللغة الرزق الذى يصلح أن ينزلوا معه و يقيموا فيه، و الخيرية بالنسبة إلى ما اختاره الكفار على غيره. قال الزجاج:

المعنى أذلك خير فى باب الإنزال التى يبقون بها نزلا- أم نزل أهل النار، و هو قوله: أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ و هو ما يكره تناوله. قال

الواحدی: و هو شیء مرّ کریه یکره أهل النار علی تناوله فهم یترقمونه، و هی علی هذا مشتقة من الترقیم و هو البلع علی جهد لکراهتها و نتنها. و اختلف فیها هل هی من شجر الدنیا التی یعرفها العرب أم لا علی قولین: أحدهما أنها معروفة من شجر الدنیا فقال قطرب: إنها شجرة مرّة تکون بتهامة من أخبث الشجر. و قال غیره: بل هو کلّ نبات قاتل. القول الثانی: أنها غیر معروفة فی شجر الدنیا. قال قتادة: لما ذکر اللّه هذه الشجرة افتتن بها الظلمة فقالوا: کیف تکون فی النار شجرة. فأنزل اللّه تعالی إِنّٰا جَعَلْنٰاهٰا فِتْنَةً لِلظّٰالِمِینَ قال الزجاج: حین افتتنوا بها و کذبوا بوجودها. و قیل: معنی جعلها فتنة لهم: أنها محنة لهم لکونهم یعذبون بها، و المراد بالظالمین هنا: الکفار أو أهل المعاصی الموجبة للنار. ثم بین سبحانه أوصاف هذه الشجرة ردّا علی منکریها فقال: إِنَّهٰا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِی أَصْلِ الْجَحِیمِ أی: فی قعرها، قال الحسن:

أصلها فی قعر جهنم، و أغصانها ترفع إلی درکاتها، ثم قال: طَلْعُهٰا کَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّیٰاطِینِ أی: ثمرها و ما تحمله کأنه فی تناهی قبحه و شناعة منظره رؤوس الشیاطین، فشبه المحسوس بالمتخیل، و إن کان غیر مرئیّ للدلالة علی أنه غایة فی القبح کما تقول فی تشبیه من یستقبحونه: کأنه شیطان، و فی تشبیه من یستحسنونه:

کأنه ملک، کما فی قوله: ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلّٰا مَلَکٌ کَرِیمٌ «۱» و منه قول امرئ القیس:

أ یقتلنی و المشرفیّ مضاجعیو مسنونة زرق کأنیاب أغوال

و قال الزجاج و الفراء: الشیاطین حیات لها رؤوس و أعراف، و هی من أقبح الحیات و أخبثها، و أخفها جسما، و قیل إن رؤوس الشیاطین اسم لنبت قبیح معروف بالیمن یقال له الاستن، و یقال له الشیطان. قال النحاس: و لیس ذلک معروفا عند العرب. و قیل: هو شجر خشن منتن مرّ منکر الصورة یسمی ثمره رؤوس

---

(۱). یوسف: ۳۱.

الشیاطین فَإِنَّهُمْ لَآکِلُونَ مِنْهٰا أی: من الشجرة أو من طلعها، و التأنیث لاکتساب الطلع التأنیث من إضافته إلی الشجرة فَمٰالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ و ذلک أنهم یکرهون علی أکلها حتی تمتلئ بطونهم، فهذا طعامهم، و فاکهتهم بدل رزق أهل الجنة ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَیْهٰا بعد الأکل منها لَشَوْباً مِنْ حَمِیمٍ الشوب: الخلط. قال الفراء: شاب طعامه و شرابه: إذا خلطهما بشیء یشوبهما شوبا و شیابة، و الحمیم:

الماء الحارّ. فأخبر سبحانه أنه یشاب لهم طعامهم من تلک الشجرة بالماء الحارّ لیکون أفظع لعذابهم و أشنع لحالهم کما فی قوله: وَ سُقُوا ماءً حَمِیماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ قرأ الجمهور لَشَوْباً بفتح الشین، و هو مصدر، و قرأ شیبان النحوی بالضم. قال الزجاج: المفتوح مصدر، و المضموم اسم بمعنی المشوب، کالنقص بمعنی المنقوص ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَی الْجَحِیمِ أی: مرجعهم بعد شرب الحمیم و أکل الزقوم إلی الجحیم، و ذلک أنهم یوردون الحمیم لشربه، و هو خارج الجحیم، کما تورد الإبل، ثم یردّون إلی الجحیم کما فی قوله سبحانه:

یَطُوفُونَ بَیْنَهٰا وَ بَیْنَ حَمِیمٍ آنٍ و قیل: إن الزقوم و الحمیم نزل یقدّم إلیهم قبل دخولها. قال أبو عبیدة:

ثم بمعنی الواو، و قرأ ابن مسعود «ثمّ إنّ مقیلهم لإلی الجحیم» و جملة إِنَّهُمْ أَلْفَوْا أی: وجدوا آبٰاءَهُمْ ضٰالِّینَ تعلیل لاستحقاقهم ما تقدّم ذکره، أی: صادفوهم کذلک فاقتدوا بهم تقلیدا و ضلالة لا لحجة أصلا فَهُمْ عَلیٰ آثٰارِهِمْ یُهْرَعُونَ الإهراع الإسراع، الإهراع برعدة. و قال أبو عبیدة:

یهرعون: یستحثون من خلفهم، یقال جاء فلان یهرع إلی النار: إذا استحثه البرد إلیها. و قال المفضل یزعجون من شدّة الإسراع.

قال الزجاج: هرع و أهرع: إذا استحثّ و انزعج، و المعنى: يتبعون آباءهم فى سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ أى: ضلّ قبل هؤلاء المذكورين أكثر الأوّلين من الأمم الماضية وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ أى: أرسلنا فى هؤلاء الأوّلين رسلا أنذروهم العذاب و بينوا لهم الحقّ فلم ينجع ذلك فيهم فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ أى: الذين أنذرتهم الرسل فإنهم صاروا إلى النار. قال مقاتل: يقول كان عاقبتهم العذاب، يحذر كفار مكة ثم استثنى عباده المؤمنين فقال:

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أى: إلا من أخلصهم اللّه بتوفيقهم إلى الإيمان و التوحيد، و قرئ الْمُخْلِصِينَ بكسر اللام، أى: الذين أخلصوا للّه طاعاتهم و لم يشوبوها بشىء مما يغيرها.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و هناد و ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله: فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ

قال: اطلع ثم التفت إلى أصحابه فقال: لقد رأيت جماجم القوم تغلى. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: قول اللّه لأهل الجنة كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* قال هنيئا: أى لا تموتون فيها فعند ذلك قالوا: أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ قال: هذا قول اللّه لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ و أخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال: كنت أمشى مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يده فى يدى، فرأى جنازة فأسرع المشى حتى أتى القبر، ثم جثى على ركبتيه فجعل يبكى حتى بلّ الثرى، ثم قال: لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: دخلت مع النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم على مريض يجود بنفسه فقال: لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال:

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۵۸

مرّ أبو جهل برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هو جالس، فلما بعد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى «۱». فلما سمع أبو جهل قال: من توعد يا محمّد؟ قال: إياك، قال: بما توعدنى؟ قال:

أوعدك بالعزيز الكريم، قال أبو جهل: أليس أنا العزيز الكريم؟ فأنزل اللّه: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ «۲» إلى قوله: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ «۳» فلما بلغ أبا جهل ما نزل فيه جمع أصحابه، فأخرج إليهم زبدا و تمرا فقال: تزقموا من هذا، فو اللّه ما يتوعدكم محمّد إلا بهذا، فأنزل اللّه إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ إلى قوله: ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ و أخرج ابن أبى شيبة عنه قال: لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلى الأرض لأفسدت على الناس معايشهم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذ عنه أيضا ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً قال: لمزجا. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال فى قوله:

لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ يخالط طعامهم و يشاب بالحميم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة، حتى يقيل هؤلاء، و يقيل هؤلاء، أهل الجنة، و أهل النار، و قرأ «ثمّ إنّ مقيلهم لإلى الجحيم» و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ قال: وجدوا آباءهم.

[سورة الصافات (۳۷): الآيات ۷۵ الى ۱۱۳]

وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (۷۵) وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۷۶) وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (۷۷) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (۷۸) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (۷۹)

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۸۰) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۸۱) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۸۲) وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (۸۳) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (۸۴)

إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (۸۵) أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (۸۶) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۸۷) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (۸۸) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (۸۹)

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (٩١) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤)

قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (٩٥) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ (٩٦) قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَ قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩)

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (١٠٤)

قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (١٠٩)

كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى إِسْحاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

---

(١). القيامة: ٣۴ و ٣۵.

(٢). الدخان: ۴٣ و ۴۴.

(٣). الدخان: ۴٩.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۵٩

لما ذكر سبحانه أنه أرسل فى الأمم الماضية منذرين ذكر تفصيل بعض ما أجمله فقال: وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ و اللام هى الموطئة للقسم، و كذا اللام فى قوله: فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ أى: نحن، و المراد أن نوحا دعا ربه على قومه لما عصوه، فأجاب اللّه دعاءه و أهلك قومه بالطوفان. فالنداء هنا هو نداء الدعاء و الاستغاثة به، كقوله: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «١» و قوله: أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ «٢» قال الكسائى:

أى فلنعم المجيبون له كنا فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ المراد بأهله أهل دينه، و هم من آمن معه؛ و كانوا ثمانين، و الكرب العظيم: هو الغرق، و قيل: تكذيب قومه له، و ما يصدر منهم إليه من أنواع الأذايا وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ وحدهم دون غيرهم كما يشعر به ضمير الفصل، و ذلك لأن اللّه أهلك الكفرة بدعائه، و لم يبق منهم باقية، و من كان معه فى السفينة من المؤمنين ماتوا كما قيل، و لم يبق إلا أولاده. قال سعيد بن المسيب: كان ولد نوح ثلاثة و الناس كلهم من ولد نوح، فسام أبو العرب و فارس و الروم و اليهود و النصارى. و حاتم أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند، و الهند، و النوب، و الزنج، و الحبشة، و القبط، و البربر و غيرهم. و يافث أبو الصقالب و الترك و الخزر و يأجوج و مأجوج و غيرهم. و قيل: إنه كان لمن مع نوح ذرّية كما يدلّ عليه قوله: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ «٣» و قوله: قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ «۴» فيكون على هذا معنى وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ و ذرّيته و ذرية من معه دون ذرّية من كفر، فإن اللّه أغرقهم فلم يبق لهم ذرّية وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ يعنى فى الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة من الأمم، و المتروك هذا هو قوله: سَلامٌ عَلى نُوحٍ أى: تركنا هذا الكلام بعينه، و ارتفاعه على الحكاية، و السلام هو الثناء الحسن، أى: يثنون عليه ثناء حسنا و يدعون له و يترحمون عليه. قال الزجاج: تركنا عليه الذكر الجميل إلى يوم القيامة، و ذلك الذكر هو قوله: سَلامٌ عَلى نُوحٍ قال الكسائى: فى ارتفاع سلام وجهان: أحدهما و تركنا عليه فى الآخرين يقال سلام على نوح. و الوجه الثانى: أن

يكون المعنى: و أبقينا عليه، و تمّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: سلام على نوح، أى: سلامة له من أن يذكر بسوء فى الآخرين. قال المبرد: أى تركنا عليه هذه الكلمة باقية:

يعنى يسلمون عليه تسليما و يدعون له، و هو من الكلام المحكى كقوله: سُورَةٌ أَنْزَلْناها «۵» و قيل: إنه ضمن تركنا معنى قلنا. قال الكوفيون: جملة سلام على نوح فى العالمين فى محل نصب مفعول تركنا، لأنه ضمن معنى قلنا. قال الكسائى: و فى قراءة ابن مسعود «سلاما» منصوب بتركنا، أى: تركنا عليه ثناء حسنا، و قيل: المراد بالآخرين أمة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم، و فى العالمين متعلق بما تعلق به الجار و المجرور الواقع خبرا، و هو على نوح، أى: سلام ثابت أو مستمرّ أو مستقرّ على نوح فى العالمين من الملائكة و الجنّ و الإنس، و هذا يدل على عدم اختصاص ذلك بأمة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم كما قيل: إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ هذه الجملة تعليل لما قبلها من التكرمة لنوح بإجابة دعائه، و بقاء الثناء من اللّه عليه، و بقاء ذريته، أى: إنا كذلك نجزى من كان محسنا فى أقواله و أفعاله راسخا فى الإحسان معروفا به، و الكاف فى كذلك نعت مصدر محذوف، أى:

---

(۱). نوح: ۲۶.

(۲). القمر: ۱۰.

(۳). الإسراء: ۳.

(۴). هود: ۴۸.

(۵). النور: ۱.

جزاء كذلك الجزاء إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ هذا بيان لكونه من المحسنين و تعليل له بأنه كان عبدا مؤمنا مخلصا للّه ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ أى: الكفرة الذين لم يؤمنوا باللّه و لا صدّقوا نوحا. ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم، و بين أنه ممن شايع نوحا فقال: وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ أى: من أهل دينه، و ممّن شايعه و وافقه على الدعاء إلى اللّه، و إلى توحيده و الإيمان به. قال مجاهد: أى على منهاجه و سنته. قال الأصمعى:

الشيعة الأعوان و هو مأخوذ من الشياع، و هو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد، و قال الفراء: المعنى و إن من شيعة محمّد لإبراهيم، فالهاء فى شيعته على هذا لمحمّد صلّى اللّه عليه و سلم، و كذا قال الكلبى. و لا يخفى ما فى هذا من الضعف و المخالفة للسياق. و الظرف فى قوله: إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ منصوب بفعل محذوف، أى: اذكر، و قيل: بما فى الشيعة من معنى المتابعة. قال أبو حيان: لا يجوز لأن فيه الفصل بين العامل و المعمول بأجنبىّ، و هو إبراهيم، و الأولى أن يقال: إن لام الابتداء تمنع ما بعدها من العمل فيما قبلها، و القلب السليم المخلص من الشرك و الشك. و قيل: هو الناصح للّه فى خلقه، و قيل: الذى يعلم أن اللّه حقّ، و أن الساعة قائمة، و أن اللّه يبعث من فى القبور. و معنى مجيئه إلى ربه يحتمل وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده و طاعته. الثانى: عند إلقائه فى النار. و قوله: إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ بدل من الجملة الأولى، أو ظرف لسليم، أو ظرف لجاء، و المعنى: وقت قال لأبيه آزر و قومه من الكفار: أىّ شيء تعبدون أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ انتصاب إفكا على أنه مفعول لأجله، و انتصاب آلهة على أنه مفعول تريدون، و التقدير: أ تريدون آلهة من دون اللّه للإفك، و دون: ظرف لتريدون، و تقديم هذه المعمولات للفعل عليه للاهتمام. و قيل: انتصاب إفكا على أنه مفعول به لتريدون، و آلهة بدل منه، جعلها نفس الإفك مبالغة، و هذا أولى من الوجه الأوّل. و قيل: انتصابه على الحال من فاعل تريدون، أى: أ تريدون آلهة آفكين، أو ذوى إفك. قال المبرد: الإفك أسوأ الكذب، و هو الذى لا يثبت و يضطرب و منه ائتفكت بهم الأرض فما

ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ أى: ما ظنكم به إذا لقيتموه و قد عبدتم غيره و ما ترونه يصنع بكم؟ و هو تحذير مثل قوله: ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ «۱» و قيل: المعنى: أىّ شىء توهمتموه باللّه حتى أشركتم به غيره فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ قال الواحدى: قال المفسرون: كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم بذلك لئلا ينكروا عليه و ذلك أنه أراد أن يكايدهم فى أصنامهم لتلزمهم الحجة فى أنها غير معبودة، و كان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه، و أراد أن يتخلف عنهم فاعتلّ بالسقم: و ذلك أنهم كلفوه أن يخرج معهم إلى عيدهم فنظر إلى النجوم يريهم أنه مستدلّ بها على حاله، فلما نظر إليها قال إنى سقيم أى سأسقم، و قال الحسن: إنهم لما كلفوه أن يخرج معهم تفكّر فيما يعمل، فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأى، أى: فيما طلع له منه، فعلم أن كلّ شىء يسقم فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ قال الخليل و المبرد: يقال للرجل إذا فكر فى الشىء يدبره: نظر فى النجوم. و قيل: كانت الساعة التى دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة تعتاده فيها الحمى. و قال الضحاك: معنى إنى سقيم: سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم فى الغالب ثم يموت، و هذا تورية و تعريض كما قال للملك لما سأله عن سارّة هى أختى، يعنى: أخوّة الدين. و قال سعيد

---

(۱). الإنفطار: ۶

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۶۱

ابن جبير: أشار لهم إلى مرض يسقم و يعدى و هو الطاعون و كانوا يهربون من ذلك، و لهذا قال: فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ أى: تركوه و ذهبوا مخافة العدوى فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ يقال راغ روغا و روغانا: إذا مال، و منه طريق رائغ: أى مائل. و منه قول الشاعر:

فيريك من طرف اللّسان حلاوةو يروغ عنك كما يروغ الثّعلب

و قال السدّى: ذهب إليهم، و قال أبو مالك: جاء إليهم، و قال الكلبى: أقبل عليهم: و المعنى متقارب فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ أى: فقال إبراهيم للأصنام التى راغ إليها استهزاء و سخرية: ألا تأكلون من الطعام الذى كانوا يصنعونه لها، و خاطبها كما يخاطب من يعقل، لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة، و كذا قوله: ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ فإنه خاطبهم خطاب من يعقل، و الاستفهام للتهكم بهم لأنه قد علم أنها جمادات لا تنطق.

قيل: إنهم تركوا عند أصنامهم طعامهم للتبرك بها، و ليأكلوه إذا رجعوا من عيدهم. و قيل تركوه للسدنة، و قيل إن إبراهيم هو الذى قرب إليها الطعام مستهزئا بها فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ أى: فمال عليهم يضربهم ضربا باليمين فانتصابه على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف، أو هو مصدر لراغ، لأنه بمعنى ضرب. قال الواحد:

قال المفسرون: يعنى بيده اليمنى يضربهم بها. و قال السدّى: بالقوة و القدرة لأن اليمين أقوى اليدين. قال الفراء و ثعلب ضربا بالقوة، و اليمين القوة. و قال الضحاك و الربيع بن أنس: المراد باليمين: اليمين التى حلفها حين قال: وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ و قيل: المراد باليمين هنا العدل كما فى قوله: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ أى: بالعدل، و اليمين: كناية عن العدل، كما أن الشمال: كناية عن الجور، و أول هذه الأقوال أولاها فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ أى: أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون لما علموا بما صنعه بها، و يزفون فى محل نصب على الحال من فاعل أقبلوا قرأ الجمهور يَزِفُّونَ بفتح الياء من زف الظليم «۱» يزف إذا عدا بسرعة، و قرأ حمزة بضم الياء من أزف يزف: أى دخل فى الزفيف، أو يحملون غيرهم على الزفيف. قال الأصمعى: أزففت الإبل: أى حملتها على أن تزف، و قيل هما لغتان، يقال زف القوم و أزفوا، و زفت العروس و أزففتها، حكى ذلك عن الخليل. قال النحاس: زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة: يعنى يزفون بضم الياء، و قد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء، و شبهها بقولهم أطردت الرجل:

أى صيرته إلى ذلک، و قال المبرد: الزفيف الإسراع. و قال الزجاج: الزفيف أوّل عدو النعام. و قال قتادة و السدّى: معنى يزفون يمشون. و قال الضحاک: يسعون. و قال يحيى بن سلام: يرعدون غضبا. و قال مجاهد: يختالون، أى: يمشون مشى الخيلاء، و قيل: يتسللون تسللا بين المشى و العدو، و الأولى تفسير يزفون بيسرعون، و قرئ يَزِفُّونَ على البناء للمفعول، و قرئ يَزِفُّونَ كيرمون. و حكى الثعلبى عن الحسن و مجاهد و ابن السميقع أنهم قرءوا «يزفّون» بالراء المهملة، و هى ركض بين المشى و العدو قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ لما أنكروا على إبراهيم ما فعله بالأصنام، ذكر لهم الدليل الدال على فساد عبادتها، فقال

---

(١). الظليم: ذكر النعام.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۶۲

مبكتا لهم، و منكرا عليهم أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ أى: أ تعبدون أصناما أنتم تنحتونها، و النحت: النجر و البرى، نحته ينحته بالكسر نحتا: أى براه، و النحاتة البراية، و جملة: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ فى محل نصب على الحال من فاعل تعبدون، و ما فى ما تَعْمَلُونَ موصولة، أى: و خلق الذى تصنعونه على العموم و يدخل فيها الأصنام التى ينحتونها دخولا أوليا، و يكون معنى العمل هنا التصوير و النحت و نحوهما، و يجوز أن تكون مصدرية، أى: خلقكم و خلق عملكم، و يجوز أن تكون استفهامية، و معنى الاستفهام التوبيخ و التقريع، أى: و أى شىء تعملون، و يجوز أن تكون نافية، أى: إن العمل فى الحقيقة ليس لكم فأنتم لا تعملون شيئا، و قد طول صاحب الكشاف الكلام فى رد قول من قال إنها مصدرية، و لكن بما لا طائل تحته، و جعلها موصولة أولى بالمقام، و أوفق بسياق الكلام، و جملة: قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كالجملة التى قبلها، قالوا هذه المقالة لما عجزوا عن جواب ما أورده عليهم من الحجة الواضحة، فتشاوروا فيما بينهم أن بينوا له حائطا من حجارة و يملؤوه حطبا و يضرموه، ثم يلقوه فيه، و الجحيم: النار الشديدة الاتقاد، قال الزجاج: و كلّ نار بعضها فوق بعض فهى جحيم، و اللام فى الجحيم عوض عن المضاف إليه؛ أى: فى جحيم ذلک البنيان، ثم لما ألقوه فيها نجاه اللّه منها، و جعلها عليه بردا و سلاما، و هو معنى قوله: فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ الكيد: المكر و الحيلة، أى:

احتالوا لإهلاكه فجعلناهم الأسفلين المقهورين المغلوبين، لأنها قامت له بذلک عليهم الحجة التى لا يقدرون على دفعها، و لا يمكنهم جحدها، فإن النار الشديدة الاتقاد العظيمة الاضطرام المتراكمة الجمار إذا صارت بعد إلقائه عليها بردا و سلاما، و لم تؤثر فيه أقل تأثير كان ذلک من الحجة بمكان يفهمه كلّ من له عقل، و صار المنكر له سافلا ساقط الحجة ظاهر التعصب واضح التعسف، و سبحان من يجعل المحن لمن يدعو إلى دينه منحا، و يسوق إليهم الخير بما هو من صور الضير. و لما انقضت هذه الوقعة و أسفر الصبح لذى عينين، و ظهرت حجة اللّه لإبراهيم، و قامت براهين نبوته، و سطعت أنوار معجزته قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي أى: مهاجر من بلد قومى الذين فعلوا ما فعلوا تعصبا للأصنام، و كفرا باللّه، و تكذيبا لرسله إلى حيث أمرنى بالمهاجرة إليه.

أو إلى حيث أتمكن من عبادته سَيَهْدِينِ أى: سيهدينى إلى المكان الذى أمرنى بالذهاب إليه، أو إلى مقصدى.

قيل: إن اللّه سبحانه أمره بالمسير إلى الشام، و قد سبق بيان هذا فى سورة الكهف مستوفى «١». قال مقاتل:

فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد فقال: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ أى ولدا صالحا من الصالحين يعيننى على طاعتک و يؤنسنى فى الغربة هكذا قال المفسرون، و عللوا ذلک بأن الهبة قد غلب معناها فى الولد، فتحمل عند الإطلاق عليه، و إذا وردت مقيدة حملت على ما قيدت به كما فى قوله: وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا «٢» و على فرض أنها لم تغلب فى طلب الولد فقوله: فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ يدل على أنه

---

(۱). ورده سير إبراهيم إلى الشام فى سورة العنكبوت آية: ۲۶.

(۲). مريم: ۵۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۶۳

ما أراد بقوله: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ إلا الولد، و معنى حليم: أن يكون حليما عند كبره، فكأنه بشر ببقاء ذلك الغلام حتى يكبر و يصير حليما، لأن الصغير لا يوصف بالحلم. قال الزجاج: هذه البشارة تدل على أنه مبشر بابن ذكر، و أنه يبقى حتى ينتهى فى السن و يوصف بالحلم فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ فى الكلام حذف كما تشعر به هذه الفاء الفصيحة و التقدير: فوهبنا له الغلام فنشأ حتى صار إلى السن التى يسعى فيها مع أبيه فى أمور دنياه. قال مجاهد: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ أى: شبّ و أدرك سعيه سعى إبراهيم.

و قال مقاتل: لما مشى معه. قال الفراء كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة. و قال الحسن: هو سعى العقل الذى تقوم به الحجة. و قال ابن زيد: هو السعى فى العبادة، و قيل: هو الاحتلام قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ قال إبراهيم لابنه لما بلغ ذلك المبلغ: إنى رأيت فى المنام هذه الرؤيا. قال مقاتل:

رأى إبراهيم ذلك ثلاث ليال متتابعات. قال قتادة: رؤيا الأنبياء حقّ إذا رأوا شيئا فعلوه.

و قد اختلف أهل العلم فى الذبيح؟ هل هو إسحاق أو إسماعيل. قال القرطبى: فقال أكثرهم: الذبيح إسحاق و ممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب و ابنه عبد اللّه، و هو الصحيح عن عبد اللّه بن مسعود، و رواه أيضا عن جابر، و علىّ بن أبى طالب، و عبد اللّه بن عمر، و عمر بن الخطاب، قال: فهؤلاء سبعة من الصحابة. قال: و من التابعين و غيرهم: علقمة، و الشعبى، و مجاهد، و سعيد بن جبير، و كعب الأحبار، و قتادة، و مسروق، و عكرمة، و القاسم بن أبى برزة، و عطاء، و مقاتل، و عبد الرحمن بن سابط، و المهرى، و السدّى، و عبد اللّه بن أبى الهذيل، و مالك بن أنس كلهم قالوا الذبيح إسحاق، و عليه أهل الكتابين اليهود و النصارى، و اختاره غير واحد، منهم: النحاس، و ابن جرير الطبرى، و غيرهما. قال و قال آخرون: هو إسماعيل، و ممن قال بذلك أبو هريرة، و أبو الطفيل عامر بن واثلة، و روى ذلك عن ابن عمر و ابن عباس أيضا، و من التابعين سعيد بن المسيب، و الشعبى، و يوسف بن مهران، و مجاهد، و الربيع بن أنس، و محمّد بن كعب القرظى، و الكلبى، و علقمة، و عن الأصمعى قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال: يا أصمعى أين عزب عنك عقلك، و متى كان إسحاق بمكة؟ و إنما كان إسماعيل بمكة. قال ابن كثير فى تفسيره: و قد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، و حكى ذلك عن طائفة من السلف حتى يقال عن بعض الصحابة و ليس فى ذلك كتاب و لا سنة، و ما أظنّ ذلك تلقى إلا عن أخبار أهل الكتاب، و أخذ مسلما من غير حجة، و كتاب اللّه شاهد و مرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، و ذكر أنه الذبيح، و قال بعد ذلك وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ

و احتجّ القائلون بأنه إسحاق بأن اللّه عزّ و جل قد أخبرهم عن إبراهيم حين فارق قومه، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارّة و ابن أخيه لوط فقال: إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ أنه دعا فقال: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فقال تعالى: فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ «۱» و لأن اللّه قال: وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ فذكر أنه فى الغلام الحليم الذى بشر به إبراهيم، و إنما بشر بإسحاق،

---

(۱). مريم: ۴۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۶۴

لأنه قال: وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ و قال هنا: بِغُلامٍ حَلِيمٍ و ذلک قبل أن يعرف هاجر، و قبل أن يصير له إسماعيل، و ليس فى القرآن أنه بشر بولد إلا إسحاق. قال الزجاج اللّه أعلم أيّهما الذبيح اه، و ما استدلّ به الفريقان يمكن الجواب عنه و المناقشة له.

و من جملة ما احتجّ به من قال إنه إسماعيل بأن اللّه وصفه بالصبر دون إسحاق كما فى قوله: وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ «١» و هو صبره على الذبح، و وصفه بصدق الوعد فى قوله: إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ «٢» لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح، فوفى به، و لأن اللّه سبحانه قال: وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا فكيف يأمره بذبحه، و قد وعده أن يكون نبيا، و أيضا فإن اللّه قال: فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ «٣» فكيف يؤمر بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد فى يعقوب، و أيضا ورد فى الأخبار تعليق قرن الكبش فى الكعبة، فدل على أن الذبيح إسماعيل، و لو كان إسحاق لكان الذبح واقعا ببيت المقدس و كلّ هذا أيضا يحتمل المناقشة فَانْظُرْ ما ذا تَرى قرأ حمزة و الكسائى «ترى» بضم الفوقية و كسر الراء، و المفعولان محذوفان، أى: انظر ماذا ترينى إياه من صبرك و احتمالك. و قرأ الباقون من السبعة بفتح التاء و الراء من الرأى، و هو مضارع رأيت، و قرأ الضحاك و الأعمش، «ترى» بضم التاء و فتح الراء مبنيا للمفعول، أى: ماذا يخيل إليك و يسنح لخاطرك. قال الفراء فى بيان معنى القراءة الأولى: انظر ماذا ترى من صبرك و جزعك. قال الزجاج: لم يقل هذا أحد غيره، و إنما قال العلماء ماذا تشير؟ أى ما تريك نفسك من الرأى، و قال أبو عبيد: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة و كذا قال أبو حاتم، و غلطهما النحاس و قال: هذا يكون من رؤية العين و غيرها، و معنى القراءة الثانية ظاهر واضح، و إنما شاوره ليعلم صبره لأمر اللّه، و إلا فرؤيا الأنبياء وحى، و امتثالها لازم لهم متحتم عليهم قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ أى: ما تؤمر به مما أوحى إليك من ذبحى، و ما: موصولة، و قيل: مصدرية على معنى افعل أمرك، و المصدر مضاف إلى المفعول، و تسمية المأمور به أمرا، و الأوّل أولى سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ على ما ابتلانى من الذبح، و التعليق بمشيئة اللّه سبحانه تبركا بها منه فَلَمَّا أَسْلَما أى: استسلما لأمر اللّه و أطاعاه و انقادا له. قرأ الجمهور أَسْلَمْنا و قرأ علىّ و ابن مسعود و ابن عباس «فلمّا سلّما» أى: فوضا أمرهما إلى اللّه، و روى عن ابن عباس أنه قرأ استسلما قال قتادة: أسلم أحدهما نفسه للّه، و أسلم الآخر ابنه، يقال: سلم لأمر اللّه و أسلم و استسلم بمعنى واحد.

و قد اختلف فى جواب لما ماذا هو؟ فقيل: هو محذوف، و تقديره ظهر صبرهما أو أجزلنا لهما أجرهما أو فديناه بكبش هكذا قال البصريون. و قال الكوفيون: الجواب هو ناديناه، و الواو زائدة مقحمة، و اعترض عليهم النحاس بأن الواو من حروف المعانى و لا يجوز أن تزاد، و قال الأخفش الجواب وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ و الواو زائدة، و روى هذا أيضا عن الكوفيين. و اعتراض النحاس يرد عليه كما ورد على الأوّل وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ التلّ: الصرع و الدفع، يقال تلت الرجل: إذا ألقيته، و المراد أنه أضجعه على جبينه على الأرض، و الجبين أحد

---

(١). الأنبياء: ٨٥.

(٢). مريم: ٥٤.

(٣). هود: ٧١.

جانبى الجبهة، فللوجه جبينان و الجبهة بينهما، و قيل: كبه على وجهه كيلا يرى منه ما يؤثر الرّقة لقلبه.

و اختلف فى الموضع الذى أراد ذبحه فيه، فقيل: هو مكة فى المقام، و قيل: فى المنحر بمنى عند الجمار، و قيل: على الصخرة التى بأصل جبل ثبير، و قيل: بالشام وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا أى: عزمت على الإتيان بما رأيته. قال المفسرون: لما أضجعه للذبح نودى من الجبل يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا، و جعله مصدّقا بمجرد العزم؛ و إن لم يذبحه لأنه قد أتى بما أمكنه،

و المطلوب استسلامهما لأمر اللّه و قد فعلا. قال القرطبى: قال أهل السنة إن نفس الذبح لم يقع، و لو وقع لم يتصور رفعه، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل، لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء. قال: و معنى.
صَدَّقْتَ الرُّؤْيا فعلت ما أمكنك ثم امتنعت لما منعناك، هذا أصح ما قيل فى هذا الباب. و قالت طائفة:
ليس هذا مما ينسخ بوجه، لأن معنى ذبحت الشىء قطعته، و قد كان إبراهيم يأخذ السكين فيمرّ بها على حلقه فتنقلب كما قال مجاهد. و قال بعضهم: كان كلما قطع جزءا التأم و قالت طائفة منهم السدّى: ضرب اللّه على عنقه صفيحة نحاس، فجعل إبراهيم يحزّ و لا يقطع شيئا. و قال بعضهم إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيقى الذى هو فرى الأوداج، و انهار الدم، و إنما رأى أنه أضجعه للذبح، فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقى فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له قد صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أى: نجزيهم بالخلاص من الشدائد و السلامة من المحن، فالجملة كالتعليل لما قبلها. قال مقاتل: جزاء اللّه سبحانه بإحسانه فى طاعته العفو عن ذبح ابنه إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ البلاء و الابتلاء: الاختبار، و المعنى: إن هذا هو الاختبار الظاهر حيث اختبره اللّه فى طاعته بذبح ولده. و قيل المعنى: إن هذا هو النعمة الظاهرة حيث سلم اللّه ولده من الذبح و فداه بالكبش، يقال أبلاه اللّه إبلاء و بلاء: إذا أنعم عليه: و الأوّل أولى، و إن كان الابتلاء يستعمل فى الاختبار بالخير و الشرّ، و منه وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً «١» و لكن المناسب للمقام المعنى الأول. قال أبو زيد: هذا فى البلاء الذى نزل به فى أن يذبح ولده. قال: و هذا من البلاء المكروه وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ الذبح: اسم المذبوح و جمعه ذبوح كالطحن اسم للمطحون، و بالفتح المصدر، و معنى عظيم: عظيم القدر، و لم يرد عظم الجثة و إنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح، أو لأنه متقبل. قال النحاس: العظيم فى اللغة يكون للكبير و للشريف، و أهل التفسير على أنه هاهنا للشريف: أى المتقبل. قال الواحدى: قال أكثر المفسرين:
أنزل عليه كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفا. و قال الحسن: ما فدى إلا بتيس من الأروى اهبط عليه من ثبير فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه. قال الزجاج: قد قيل إنه فدى بوعل، و الوعل التيس الجبلى، و معنى الآية:
جعلنا الذبح فداء له و خلصناه به من الذبح وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ أى: فى الأمم الآخرة التى تأتى بعده، و السلام الثناء الجميل. و قال عكرمة: سلام منا، و قيل: سلامة من الآفات، و الكلام فى هذا كالكلام فى قوله: سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ و قد تقدم فى هذه السورة بيان معناه، و وجه إعرابه كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أى: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى من انقاد لأمر اللّه

---

(١). الأنبياء: ٣٥.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۴۶۶
إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ أى: الذين أعطوا العبودية حقها، و رسخوا فى الإيمان باللّه و توحيده وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ أى: بشرنا إبراهيم بولد يولد له و يصير نبيا بعد أن يبلغ السن التى يتأهل فيها لذلك، و انتصاب نبيا على الحال، و هى حال مقدرة. قال الزجاج: إن كان الذبيح إسحاق فيظهر كونها مقدرة و الأولى أن يقال إن من فسر الذبيح بإسحاق جعل البشارة هنا خاصة بنبوته. و فى ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه، و لا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة، فإن وجود ذى الحال ليس بشرط، و إنما الشرط المقارنة للفعل، و «من الصالحين» كما يجوز أن يكون صفة لنبيا يجوز أن يكون حالا من الضمير المستتر فيه، فتكون أحوالا متداخلة وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى إِسْحاقَ أى: على إبراهيم و على إسحاق بمرادفة نعم اللّه عليهما، و قيل:
كثرنا ولدهما، و قيل: إن الضمير فى عليه يعود إلى إسماعيل و هو بعيد، و قيل: المراد بالمباركة هنا: هى الثناء الحسن عليهما إلى يوم القيامة وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ أى: محسن فى عمله بالإيمان و التوحيد، و ظالم لها بالكفر و المعاصى، لما

ذكر سبحانه البركة فى الذرية؛ بين أن كون الذرية من هذا العنصر الشريف؛ و المحتد المبارك ليس بنافع لهم، بل إنما ينتفعون بأعمالهم، لا بآبائهم، فإن اليهود و النصارى و إن كانوا من ولد إسحاق فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال البين، و العرب و إن كانوا من ولد إسماعيل فقد ماتوا على الشرك إلا من أنقذه اللّه بالإسلام.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ يقول: لم يبق إلا ذرية نوح وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ يقول: يذكر بخير. و أخرج الترمذى و حسنه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن سمرة بن جندب عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ قال: حام و سام و يافث. و أخرج ابن سعد، و أحمد، و الترمذى و حسنه، و أبو يعلى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه عن سمرة أيضا أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «سام أبو العرب، و حام أبو الحبش، و يافث أبو الروم» و الحديثان هما من سماع الحسن عن سمرة، و فى سماعه منه مقال معروف، و قد قيل: إنه لم يسمع منه إلا حديث العقيقة فقط و ما عداه فبواسطة. قال ابن عبد البر: و قد روى عن عمران ابن حصين عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم مثله. و أخرج البزار، و ابن أبى حاتم، و الخطيب فى تالى التلخيص عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ولد نوح ثلاثة: سام و حام و يافث، فولد سام العرب و فارس و الروم و الخير فيهم، و ولد يافث يأجوج و مأجوج و الترك و الصقالبة و لا خير فيهم، و ولد حام القبط و البربر و السودان» و هو من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عنه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ قال: من أهل دينه. و أخرج عبد بن حميد عنه فى قوله: إِنِّي سَقِيمٌ قال: مريض. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال:

مطعون. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قال:

يخرجون. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي قال: حين هاجر. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قال: العمل. و أخرج الطبرانى

عنه أيضا قال: لما أراد إبراهيم أن يذبح إسحاق قال لأبيه: إذا ذبحتنى فاعتزل لا أضطرب فينتضح عليك دمى، فشده، فلما أخذ الشفرة، و أراد أن يذبحه نودى من خلفه أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا و أخرج أحمد عنه أيضا مرفوعا مثله مع زيادة و أخرجه عنه موقوفا. و أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صححه من طريق مجاهد عنه أيضا فى قوله: وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ قال: من شيعة نوح على منهاجه و سننه فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قال شب حتى بلغ سعيه سعى أبيه فى العمل فَلَمَّا أَسْلَما سلما ما أمر به وَ تَلَّهُ وضع وجهه إلى الأرض، فقال لا تذبحنى و أنت تنظر عسى أن ترحمنى، فلا تجهز على، و أن أجزع فأنكص فأمتنع منك، و لكن اربط يدى إلى رقبتى ثم ضع وجهى إلى الأرض، فلما أدخل يده ليذبحه فلم تصل المدية حتى نودى: أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فأمسك يده، قوله: وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ بكبش عظيم متقبل، و زعم ابن عباس أن الذبيح إسماعيل. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«رؤيا الأنبياء وحى» و أخرجه البخارى و غيره من قول عبيد بن عمير و استدل بهذه الآية. و أخرج ابن جرير، و الحاكم من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال: المفدى إسماعيل، و زعمت اليهود أنه إسحاق و كذبت اليهود. و أخرج الفريابى، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طريق الشعبى عن ابن عباس قال: الذبيح إسماعيل. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طريق مجاهد، و يوسف بن ماهك عن ابن عباس قال الذبيح إسماعيل. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير من طريق يوسف ابن ماهك، و أبى الطفيل عن ابن عباس قال الذبيح إسماعيل. و أخرج عبد بن حميد، و

ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه عن ابن عمر فی قوله: وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ قال: إسماعيل ذبح عنه إبراهيم الكبش.
و أخرج عبد بن حميد من طريق الفرزدق الشاعر قال: رأيت أبا هريرة يخطب على منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و يقول: إن الذی أمر بذبحه إسماعيل. و أخرج البزار، و ابن جرير، و ابن أبی حاتم، و الحاكم، و ابن مردويه عن العباس ابن عبد المطلب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قال نبی اللّه داود: يا رب أسمع الناس يقولون: رب إبراهيم و إسحاق و يعقوب فاجعلنی رابعا، قال: إن إبراهيم ألقی فی النار فصبر من أجلی، و إن إسحاق جاد لی بنفسه، و إن يعقوب غاب عنه يوسف، و تلك بلية لم تنلك» و فی إسناده الحسن بن دينار البصری، و هو متروك عن علی بن زيد بن جدعان و هو ضعيف. و أخرج الديلمی عن أبی سعيد الخدری مرفوعا نحوه. و أخرج الدارقطنی فی الأفراد، و الديلمی عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الذّبيح إسحاق» و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب عن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الذّبيح إسحاق» و أخرج ابن مردويه عن أبی هريرة مرفوعا مثله. و أخرج ابن مردويه عن بهار و كانت له صحبة، قال: إسحاق ذبيح اللّه.
و أخرج الطبرانی و ابن مردويه عن ابن مسعود قال سئل النبی صلّى اللّه عليه و سلّم من أكرم الناس؟ قال: «يوسف بن يعقوب ابن إسحاق ذبيح اللّه». و أخرج عبد الرزاق و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: الذبيح إسحاق. و أخرج عبد بن حميد، و البخاری فی تاريخه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و ابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب قال: الذبيح إسحاق.
و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و الحاكم من طريق سعيد بن جبير عن
فتح القدير، ج‏4، ص: 468
ابن عباس قال: الذبيح إسحاق. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فی قوله: وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ قال: أكبه على وجهه. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عنه قال: صرعه للذبح. و أخرج ابن جرير، و ابن أبی حاتم، و ابن مردويه عن علیّ بن أبی طالب فی قوله: وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ قال: كبش أعين أبيض أقرن قد ربط بسمرة فی أصل ثبير. و أخرج ابن أبی شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ قال: كبش قد رعى فی الجنة أربعين خريفا، و أخرج عبد بن حميد عنه قال: فدى إسماعيل بكبشين أملحين أقرنين أعينين. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانی، و ابن مردويه عن ابن عباس أن رجلا قال: نذرت لأنحر نفسی، فقال ابن عباس: لقد كان لكم فی رسول اللّه أسوة حسنة، ثم تلا وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ فأمره بكبش فذبحه. و أخرج الطبرانی من طريق أخرى عنه نحوه. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فی قوله: وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قال: إنما بشر به نبيا حين فداه اللّه من الذبح و لم تكن البشارة بالنبوّة عند مولده.
و بما سقناه من الاختلاف فی الذبيح هل هو إسحاق أو إسماعيل، و ما استدل به المختلفون فی ذلك تعلم أنه لم يكن فی المقام ما يوجب القطع، أو يتعين رجحانه تعينا ظاهرا، و قد رجح كلّ قول طائفة من المحققين المنصفين كابن جرير فإنه رجح أنه إسحاق، و لكنه لم يستدل على ذلك إلا ببعض مما سقناه هاهنا، و كابن كثير فإنه رجح أنه إسماعيل، و جعل الأدلة على ذلك أقوى و أصح، و ليس الأمر كما ذكره، فإنها لم تكن دون أدلة القائلين بأن الذبيح إسحاق لم تكن فوقها و لا أرجح منها، و لم يصح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فی ذلك شی‏ء، و ما روی عنه فهو إما موضوع أو ضعيف جدّا، و لم يبق إلا مجرّد استنباطات من القرآن كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق، هی محتملة و لا تقوم حجة بمحتمل، فالوقف هو الذی لا ينبغی مجاوزته، و فيه السلامة من الترجيح، بلا مرجح، و من الاستدلال بما هو محتمل.

[سورة الصافات (37): الآيات 114 الى 148]

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَ هارُونَ (۱۱۴) وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۱۱۵) وَ نَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (۱۱۶) وَ آتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (۱۱۷) وَ هَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (۱۱۸)

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (۱۱۹) سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ (۱۲۰) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۲۱) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۲۲) وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۲۳)

إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۲۴) أَ تَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (۱۲۵) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۱۲۶) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۲۷) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۲۸)

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (۱۲۹) سَلامٌ عَلى إِلْ‌ياسِينَ (۱۳۰) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۳۱) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۳۳)

إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (۱۳۴) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (۱۳۵) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (۱۳۶) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (۱۳۷) وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۳۸)

وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۳۹) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۱۴۰) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (۱۴۱) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (۱۴۲) فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (۱۴۳)

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۱۴۴) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (۱۴۵) وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (۱۴۶) وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (۱۴۷) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (۱۴۸)

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۶۹

لما فرغ سبحانه من ذكر إنجاء الذبيح من الذبح، و ما منّ عليه بعد ذلك من النبوّة ذكر ما منّ به على موسى و هارون، فقال: وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَ هارُونَ يعنى بالنبوّة و غيرها من النعم العظيمة التى أنعم اللّه بها عليهما وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ المراد بقومهما: هم المؤمنون من بنى إسرائيل، و المراد بالكرب العظيم: هو ما كانوا فيه من استعباد فرعون إياهم، و ما كان نصيبهم من جهته من البلاء، و قيل: هو الغرق الذى أهلك فرعون و قومه، و الأوّل أولى وَ نَصَرْناهُمْ جاء بضمير الجماعة. قال الفراء: الضمير لموسى و هارون و قومهما، لأن قبله و نجيناهما و قومهما، و المراد بالنصر التأييد لهم على عدوّهم فَكانُوا بسبب ذلك هُمُ الْغالِبِينَ على عدوّهم بعد أن كانوا تحت أسرهم و قهرهم، و قيل: الضمير فى نصرناهم عائد على الاثنين موسى و هارون تعظيما لهما، و الأوّل أولى وَ آتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ المراد بالكتاب التوراة: و المستبين: البين الظاهر، يقال: استبان كذا. أى: صار بينا وَ هَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ أى: القيم لا اعوجاج فيه، و هو دين الإسلام فإنه الطريق الموصلة إلى المطلوب وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ أى: أبقينا عليهما فى الأمم المتأخرة الثناء الجميل، و قد قدّمنا الكلام فى السلام و فى وجه إعرابه بالرفع، و كذلك تقدّم تفسير إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ فى هذه السورة وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ قال المفسرون: هو نبىّ من أنبياء بنى إسرائيل، و قصته مشهورة مع قومه، قيل: و هو إلياس بن يس من سبط هارون أخى موسى. قال ابن إسحاق و غيره:

كان إلياس هو القيم بأمر بنى إسرائيل بعد يوشع، و قيل: هو إدريس، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور إِلْياسَ بهمزة مكسورة مقطوعة، و قرأ ابن ذكوان بوصلها، و رويت هذه القراءة عن ابن عامر، و قرأ ابن مسعود، و الأعمش، و يحيى بن وثاب «و إنّ إدريس لمن المرسلين» و قرأ أبىّ «و إنّ إبليس» بهمزة مكسورة ثم تحتية ساكنة ثم لام مكسورة ثم تحتية ساكنة ثم سين مهملة مفتوحة إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ هو ظرف لقوله من المرسلين، أو متعلق بمحذوف، أى: اذكر يا محمّد إذ قال، و المعنى: ألا تتقون عذاب اللّه، ثم أنكر عليهم بقوله: أَ تَدْعُونَ بَعْلًا هو اسم لصنم كانوا يعبدونه، أى: أ تعبدون صنما و تطلبون الخير منه.

قال ثعلب: اختلف الناس فى قوله سبحانه: بَعْلًا فقالت طائفة: البعل هنا الصنم، و قالت طائفة:
البعل هنا ملك، و قال ابن إسحاق: امرأة كانوا يعبدونها. قال الواحدى: و المفسرون يقولون ربا، و هو بلغة اليمن، يقولون للسيد و الربّ البعل. قال النحاس: القولان صحيحان، أى: أ تدعون صنما عملتموه ربا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ أى: و تتركون عبادة أحسن من يقال له خالق، و انتصاب الاسم الشريف فى قوله: اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ على أنه بدل من أحسن، هذا على قراءة حمزة و الكسائى و الربيع

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۷۰

ابن خثيم و ابن أبى إسحاق و يحيى بن وثاب و الأعمش، فإنهم قرءوا بنصب الثلاثة الأسماء و قيل: النصب على المدح، و قيل: على عطف البيان، و حكى أبو عبيد أن النصب على النعت. قال النحاس: و هو غلط و إنما هو بدل، و لا يجوز النعت لأنه ليس بتحلية و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و أبو حاتم. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و عاصم، و أبو جعفر، و شيبة، و نافع بالرفع. قال أبو حاتم: بمعنى هو اللّه ربكم. قال النحاس:

و أولى ما قيل: إنه مبتدأ و خبر بغير إضمار و لا حذف. و حكى عن الأخفش أن الرفع أولى و أحسن. قال ابن الأنبارى: من رفع أو نصب لم يقف على أحسن الخالقين على جهة التمام لأن اللّه مترجم عن أحسن الخالقين على الوجهين جميعا، و المعنى، أنه خالقكم و خالق و من قبلكم فهو الذى تحقّ له العبادة فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أى: فإنهم بسبب تكذيبه لمحضرون فى العذاب، و قد تقدّم أن الإحضار المطلق مخصوص بالشرّ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أى: من كان مؤمنا به من قومه، و قرئ بكسر اللام و فتحها كما تقدّم، و المعنى على قراءة الكسر: أنهم أخلصوا للّه؛ و على قراءة الفتح: أن اللّه استخلصهم من عباده. و قد تقدّم تفسير وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلى إِلْ‌ياسِينَ قرأ نافع و ابن عامر و الأعرج على آل ياسين بإضافة آل بمعنى آل ياسين، و قرأ الباقون بكسر الهمزة و سكون اللام موصولة بياسين إلا الحسن، فإنه قرأ «الياسين» بإدخال آلة التعريف على ياسين، قيل: المراد على هذه القراءات كلها إلياس، و عليه وقع التسليم، و لكنه اسم أعجمى، و العرب تضطرب فى هذه الأسماء الأعجمية و يكثر تغييرهم لها. قال ابن جنى: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعبا؛ فياسين، و إلياس، و إلياسين شىء واحد. قال الأخفش: العرب تسمى قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون المهالبة على أنهم سموا كلّ رجل منهم بالمهلب. قال: فعلى هذا إنه سمى كل رجل منهم بالياسين. قال الفراء: يذهب بالياسين إلى أن يجعله جمعا فيجعل أصحابه داخلين معه فى اسمه.
قال أبو علىّ الفارسى: تقديره الياسيين إلا أن الياءين للنسبة حذفتا كما حذفتا فى الأشعرين و الأعجمين.
و رجح الفرّاء و أبو عبيدة قراءة الجمهور قالا: لأنه لم يقل فى شىء من السور على آل فلان، إنما جاء بالاسم كذلك الياسين لأنه إنما هو بمعنى إلياس أو بمعنى إلياس و أتباعه. و قال الكلبى: المراد بآل ياسين آل محمّد.
قال الواحدى: و هذا بعيد لأن ما بعده من الكلام و ما قبله لا يدلّ عليه، و قد تقدّم تفسير إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ مستوفى وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ قد تقدّم ذكر قصة لوط مستوفاة إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ الظرف متعلق بمحذوف هو اذكر و لا يصح تعلقه بالمرسلين، لأنه لم يرسل وقت تنجيته إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ قد تقدم أن الغابر يكون بمعنى الماضى، و يكون بمعنى الباقى، فالمعنى: إلا عجوزا فى الباقين فى العذاب، أو الماضين الذين قد هلكوا ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ أى: أهلكناهم بالعقوبة، و المعنى: أن فى نجاته و أهله جميعا إلا العجوز و تدمير الباقين من قومه الذين لم يؤمنوا به دلالة بينة على ثبوت كونه من المرسلين وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ خاطب بهذا العرب أو أهل مكة على الخصوص: أى تمرون على منازلهم التى فيها آثار العذاب وقت الصباح وَ بِاللَّيْلِ و المعنى تمرون على منازلهم فى ذهابكم إلى الشام و رجوعكم منه نهارا و ليلا أَ فَلا تَعْقِلُونَ ما تشاهدونه فى ديارهم من آثار عقوبة

فتح القدير، ج‏4، ص: 471

اللّه النازلة بهم، فإن في ذلك عبرة للمعتبرين و موعظة للمتدبرين وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ يونس هو ذو النون، و هو ابن متى. قال المفسرون: و كان يونس قد وعد قومه العذاب، فلما تأخر عنهم العذاب خرج عنهم و قصد البحر و ركب السفينة، فكان بذهابه إلى البحر كالفار من مولاه فوصف بالإباق، و هو معنى قوله: إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ و أصل الإباق الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه وصف به. و قال المبرد. تأويل أبق تباعد: أى ذهب إليه، و من ذلك قولهم عبد آبق.

و قد اختلف أهل العلم هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه أو بعده؟ و معنى المشحون: المملوء فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ المساهمة أصلها المغالبة، و هى الاقتراع، و هو أن يخرج السهم على من غلب. قال المبرد: أى فقارع. قال: و أصله من السهام التى تجال، و معنى فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فصار من المغلوبين. قال: يقال دحضت حجته و أدحضها اللّه، و أصله من الزلق عن مقام الظفر، و منه قول الشاعر:

قتلنا المدحضين بكلّ فجّفقد قرّت بقتلهم العيون

أى: المغلوبين فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ يقال: لقمت اللقمة و التقمتها: إذا ابتلعتها، أى: فابتلعه الحوت، و معنى وَ هُوَ مُلِيمٌ و هو مستحق للوم، يقال: رجل مليم إذا أتى بما يلام عليه، و أما الملوم:

فهو الذى يلام سواء أتى بما يستحق أن يلام عليه أم لا، و قيل: المليم المعيب، يقال ألام الرجل إذا عمل شيئا صار به معيبا. و معنى هذه المساهمة: أن يونس لما ركب السفينة احتبست، فقال الملاحون: هاهنا عبد أبق من سيده، و هذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجرى، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس، فقال أنا الآبق و زج نفسه فى الماء. قال سعيد بن جبير: لما استهموا جاء حوت إلى السفينة فاغرا فاه ينتظر أمر ربه حتى إذا ألقى نفسه فى الماء أخذه الحوت فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ أى: الذاكرين للّه، أو المصلين له لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أى: لصار بطن الحوت له قبرا إلى يوم البعث، و قيل: للبث فى بطنه حيا.

و اختلف المفسرون كم أقام فى بطن الحوت؟ فقال: السدى، و الكلبى، و مقاتل بن سليمان: أربعين يوما. و قال الضحاك: عشرين يوما. و قال عطاء: سبعة أيام. و قال مقاتل بن حبان: ثلاثة أيام، و قيل:

ساعة واحدة. و فى هذه الآية ترغيب فى ذكر اللّه، و تنشيط للذاكرين له فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ النبذ الطرح. قال ابن الأعرابى: هو الصحراء، و قال الأخفش: الفضاء، و قال أبو عبيدة: الواسع من الأرض، و قال الفراء: المكان الخالى. و روى عن أبى عبيدة أيضا أنه قال: هو وجه الأرض، و أنشد لرجل من خزاعة:

و رفعت رجلا لا أخاف عثارهاو نبذت بالبلد العراء ثيابى

و المعنى: أن اللّه طرحه من بطن الحوت فى الصحراء الواسعة التى لا نبات فيها، و هو عند إلقائه سقيم

فتح القدير، ج‏4، ص: 472

لما ناله فى بطن الحوت من الضرر، قيل صار بدنه كبدن الطفل حين يولد.

و قد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله: فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ، و قوله فى موضع آخر: لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ «1» فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبذ بالعراء.

و أجاب النحاس و غيره بأن اللّه سبحانه أخبر هاهنا أنه نبذ بالعراء و هو غير مذموم، و لو لا رحمته عز و جل لنبذ بالعراء و هو مذموم وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ أى: شجرة فوقه تظلل عليه، و قيل معنى عليه:

عنده، و قيل معنى عليه: له. و اليقطين: هى شجرة الدباء. و قال المبرد: اليقطين يقال لكل شجرة ليس لها ساق، بل تمتد على وجه

الأرض نحو الدباء، و البطيخ، و الحنظل، فإن كان لها ساق يقلها فيقال لها شجرة فقط، و هذا قول الحسن، و مقاتل و غيرهما. و قال سعيد بن جبير: هو كلّ شيء ينبت ثم يموت من عامه.

قال الجوهري: اليقطين ما لا ساق له من شجر؛ كشجر القرع و نحوه. قال الزجاج: اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان: أي: أقام به فهو يفعيل، و قيل: هو اسم أعجمي. قال المفسرون: كان يستظل بظلها من الشمس، و قيض اللّه له أروية من الوحش تروح عليه بكرة و عشية، فكان يشرب من لبنها حتى اشتد لحمه و نبت شعره ثم أرسله اللّه بعد ذلك، و هو معنى قوله: وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ هم قومه الذين هرب منهم إلى البحر و جرى له ما جرى بعد هربه كما قصه اللّه علينا في هذه السورة، و هم أهل نينوى.

قال قتادة: أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل، و قد مر الكلام على قصته في سورة يونس مستوفي، «و أو» في أو يزيدون، قيل: هي بمعنى الواو، و المعنى: و يزيدون. و قال الفراء: أو هاهنا بمعنى بل، و هو قول مقاتل، و الكلبي. و قال المبرد، و الزجاج، و الأخفش: أو هنا على أصله، و المعنى: أو يزيدون في تقديركم إذا رآهم الرائي قال: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون، فالشك إنما دخل على حكاية قول المخلوقين. قال مقاتل و الكلبي: كانوا يزيدون عشرين ألفا. و قال الحسن: بضعا و ثلاثين ألفا. و قال سعيد بن جبير: سبعين ألفا.

و قرأ جعفر بن محمّد: و يزيدون بدون ألف الشك.

و قد وقع الخلاف بين المفسرين هل هذا الإرسال المذكور هو الذي كان قبل التقام الحوت له، و تكون الواو في و أرسلناه لمجرد الجمع بين ما وقع له مع الحوت؛ و بين إرساله إلى قومه من غير اعتبار تقديم ما تقدم في السياق، و تأخير ما تأخر، أو هو إرسال له بعد ما وقع له مع الحوت ما وقع على قولين، و قد قدمنا الإشارة إلى الاختلاف بين أهل العلم هل كان قد أرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر أو لم يرسل إلا بعد ذلك؟

و الراجح أنه كان رسولا قبل أن يذهب إلى البحر؛ كما يدل عليه ما قدمنا في سورة يونس، و بقي مستمرا على الرسالة، و هذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدم نبوته و رسالته فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ أي:

وقع منهم الإيمان بعد ما شاهدوا أعلام نبوته فمتعهم اللّه في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم و منتهى أعمارهم.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم، و ابن عساكر عن ابن مسعود قال:

إلياس هو إدريس. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة مثله. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس

---

(١). القلم: ۴۹.

قال: قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «الخضر هو إلياس» و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقي في الدلائل و ضعفه عن أنس قال:

«كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم في سفر، فنزل منزلا فإذا رجل في الوادي يقول: اللهم اجعلني من أمة محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم المرحومة المغفور المثاب لها فأشرفت على الوادي فإذا طوله ثمانون ذراعا و أكثر، فقال: من أنت؟

فقلت: أنس خادم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال: أين هو؟ فقلت: هو ذا يسمع كلامك، قال: فأته و أقرئه السلام و قل له أخوك إلياس يقرئك السلام، فأتيت النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبرته، فجاء حتى عانقه و قعدا يتحدّثان، فقال له: يا رسول اللّه إني إنما آكل في كلّ سنة يوما و هذا يوم فطري فآكل أنا و أنت، فنزلت عليهما المائدة من السماء خبز و حوت و كرفس، فأكلا و أطعماني و صليا العصر ثم ودّعه، ثم رأيته مرّ على السحاب نحو السماء». قال الذهبي متعقبا لتصحيح الحاكم له: بل

موضوع قبح اللّه من وضعه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن ابن عباس فی قوله: أَ تَدْعُونَ بَعْلًا قال: صنما. و أخرج ابن أبی حاتم، و الطبرانی، و ابن مردویه عنه فی قوله: سَلامٌ عَلی إِلْیاسِینَ قال: نحن آل محمّد آل یاسین. و أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: بعث اللّه یونس إلی أهل قریته فردّوا علیه ما جاءهم به فامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلک أوحی اللّه إلیهم إنی مرسل علیهم العذاب فی یوم کذا و کذا، فأخرج من بین أظهرهم، فأعلم قومه الذی وعد اللّه من عذابه إیاهم، فقالوا ارمقوه فإن خرج من بین أظهرکم فهو و اللّه کائن ما وعدکم، فلما کانت اللیلة التی وعدوا بالعذاب فی صبیحتها أدلج فرآه القوم فحذروا، فخرجوا من القریة إلی براز من أرضهم و فرقوا بین کلّ دابة و ولدها، ثم عجوا إلی اللّه و أنابوا و استقالوا فأقالهم اللّه، و انتظر یونس الخبر عن القریة و أهلها حتی مرّ به مارّ، فقال ما فعل أهل القریة، قال: إن نبیهم لما خرج من بنی أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قریتهم إلی براز من الأرض، ثم فرقوا بین کلّ ذات ولد و ولدها ثم عجوا إلی اللّه و تابوا إلیه، فتقبل منهم و أخر عنهم العذاب، فقال یونس عند ذلک: لا أرجع إلیهم کذابا أبدا و مضی علی وجهه، و قد قدّمنا الکلام علی قصته و ما روی فیها فی سورة یونس فلا نکرره. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و البیهقی عن ابن عباس فی قوله: فَساهَمَ قال: اقترع فَکانَ مِنَ الْمُدْحَضِینَ قال:

المقروعین. و أخرج ابن أبی شیبة، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: وَ هُوَ مُلِیمٌ قال: مسیء.

و أخرج عبد الرزاق، و الفریابی، و أحمد، فی الزهد، و عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: فَلَوْ لا أَنَّهُ کانَ مِنَ الْمُسَبِّحِینَ قال: من المصلین. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عنه أیضا فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ قال: ألقیناه بالساحل. و أخرج هؤلاء عنه أیضا شَجَرَةً مِنْ یَقْطِینٍ قال: القرع. و أخرج ابن أبی شیبة، و ابن المنذر من طریق سعید بن جبیر، عنه أیضا قال: الیقطین کلّ شیء یذهب علی وجه الأرض. و أخرج أحمد فی الزهد، و عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن مردویه عنه أیضا قال: إنما کانت رسالة یونس بعد ما نبذه الحوت، ثم تلا: فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ إلی قوله: وَ أَرْسَلْناهُ إِلی مِائَةِ أَلْفٍ و قد تقدّم عنه ما یدلّ علی أن رسالته کانت من قبل ذلک: و لیس فی الآیة ما یدلّ علی ما ذکره کما قدّمنا. و أخرج الترمذی، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و ابن مردویه عن أبیّ بن کعب

فتح القدیر، ج۴، ص: ۴۷۴

قال: سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم عن قول اللّه: وَ أَرْسَلْناهُ إِلی مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ یَزِیدُونَ قال: یزیدون عشرین ألفا. قال الترمذی: غریب. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: یزیدون ثلاثین ألفا. و روی عنه أنهم یزیدون بضعة و ثلاثین ألفا. و روی عنه أنهم یزیدون بضعة و أربعین ألفا، و لا یتعلق بالخلاف فی هذا کثیر فائدة.

[سورة الصافات (۳۷): الآیات ۱۴۹ الی ۱۸۲]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّکَ الْبَناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ (۱۴۹) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِکَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ (۱۵۰) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْکِهِمْ لَیَقُولُونَ (۱۵۱) وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَکاذِبُونَ (۱۵۲) أَصْطَفَی الْبَناتِ عَلَی الْبَنِینَ (۱۵۳)

ما لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ (۱۵۴) أَ فَلا تَذَکَّرُونَ (۱۵۵) أَمْ لَکُمْ سُلْطانٌ مُبِینٌ (۱۵۶) فَأْتُوا بِکِتابِکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۱۵۷) وَ جَعَلُوا بَیْنَهُ وَ بَیْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۵۸)

سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا یَصِفُونَ (۱۵۹) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ (۱۶۰) فَإِنَّکُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ (۱۶۱) ما أَنْتُمْ عَلَیْهِ بِفاتِنِینَ (۱۶۲) إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِیمِ (۱۶۳)

وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (۱۶۴) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (۱۶۵) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (۱۶۶) وَ إِنْ کانُوا لَیَقُولُونَ (۱۶۷) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا

ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (۱۶۸)
لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۶۹) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۱۷۰) وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (۱۷۱) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (۱۷۲) وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (۱۷۳)
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (۱۷۴) وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (۱۷۵) أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (۱۷۶) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (۱۷۷) وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (۱۷۸)
وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (۱۷۹) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (۱۸۰) وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (۱۸۱) وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۸۲)

لما كانت قريش، و قبائل من العرب يزعمون أن الملائكة بنات اللّه أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم باستفتائهم على طريقة التقريع و التوبيخ، فقال: فَاسْتَفْتِهِمْ يا محمّد: أى استخبرهم أَ لِرَبِّكَ الْبَناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ أى: كيف يجعلون للّه على تقدير صدق ما زعموه من الكذب أدنى الجنسين و أوضعهما و هو الإناث، و لهم أعلاهما و أرفعهما و هم الذكور، و هل هذا إلا حيف فى القسمة لضعف عقولهم، و سواء إدراكهم، و مثله قوله: أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى «۱» ثم زاد فى توبيخهم، و تقريعهم فقال: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ فأضرب عن الكلام الأوّل إلى ما هو أشدّ منه فى التبكيت و التهكم بهم، أى: كيف جعلوهم إناثا و هم لم يحضروا عند خلقنا لهم، و هذا كقوله: وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ «۲» فبين سبحانه أن مثل ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة و لم يشهدوا، و لا دلّ دليل على قولهم من السمع، و لا هو مما يدرك بالعقل حتى ينسبوا إدراكه إلى عقولهم. ثم أخبر سبحانه عن كذبهم فقال: أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فبين سبحانه أن قولهم هذا هو من الإفك و الافتراء من دون دليل و لا شبهة دليل فإنه لم يلد و لم يولد. قرأ الجمهور وَلَدَ اللَّهُ فعلا ماضيا مسندا إلى اللّه. و قرئ بإضافة ولد إلى اللّه على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: يقولون الملائكة ولد اللّه، و الولد بمعنى

---

(۱). النجم: ۲۱ و ۲۲.

(۲). الزخرف: ۱۹.

مفعول يستوى فيه المفرد و المثنى، و المجموع، و المذكر و المؤنث. ثم كرر سبحانه تقريعهم، و توبيخهم فقال:
أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنها للاستفهام الإنكارى، و قد حذف معها همزة الوصل استغناء به عنها. و قرأ نافع فى رواية عنه، و أبو جعفر، و شيبة، و الأعمش بهمزة وصل تثبت ابتداء، و تسقط درجا، و يكون الاستفهام منويا قاله الفراء. و حذف حرفه للعلم به من المقام، أو على أن اصطفى و ما بعده بدل من الجملة المحكية بالقول. و على تقدير عدم الاستفهام و البدل. فقد حكى جماعة من المحققين منهم الفراء أن التوبيخ يكون باستفهام، و بغير استفهام كما فى قوله: أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا «۱» و قيل: هو على إضمار القول. و ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ جملتان استفهاميتان ليس لأحدهما تعلق بالأخرى من حيث الإعراب: استفهمهم أوّلا عما استقرّ لهم و ثبت؟ استفهام بإنكار، و ثانيا:
استفهام تعجب من هذا الحكم الذى حكموا به، و المعنى: أىّ شىء ثبت لكم كيف تحكمون للّه بالبنات و هم القسم الذى تكرهونه، و لكم بالبنين و هم القسم الذى تحبونه؟ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ أى: تتذكرون فحذفت إحدى التاءين، و المعنى: ألا تعتبرون و تتفكرون فتتذكرون بطلان قولكم أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ أى:

حجة واضحة ظاهرة على هذا الذى تقولونه، و هو إضراب عن توبيخ إلى توبيخ و انتقال من تقريع إلى تقريع.
فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أى: فأتوا بحجّتكم الواضحة على هذا إن كنتم صادقين فيما تقولونه، أو فأتوا بالكتاب الذى ينطق لكم بالحجة و يشتمل عليها وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً قال أكثر المفسرين:
إن المراد بالجنة هنا الملائكة، قيل لهم: جنة، لأنهم لا يرون. و قال مجاهد: هم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجنة. و قال أبو مالك: إنما قيل لهم الجنة لأنهم خزّان على الجنان. و النسب: الصهر. قال قتادة و الكلبى:
قالوا لعنهم اللّه: إن اللّه صاهر الجنّ فكانت الملائكة من أولادهم؛ قالا: و القائل بهذه المقالة اليهود. و قال مجاهد و السدّى و مقاتل: إن القائل بذلك كنانة و خزاعة قالوا: إن اللّه خطب إلى سادات الجن فزوّجوه من سروات بناتهم، فالملائكة بنات اللّه من سروات بنات الجن. و قال الحسن: أشركوا الشيطان فى عبادة اللّه، فهو النسب الذى جعلوه. ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أى:
علموا أن هؤلاء الكفار الذين قالوا هذا القول يحضرون النار و يعذبون فيها. و قيل: علمت الجنة إنهم أنفسهم يحضرون للحساب. و الأوّل أولى، لأن الإحضار إذا أطلق فالمراد لعذاب. و قيل المعنى: و لقد علمت الجنة إنهم لمحضرون إلى الجنة. ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ أو هو حكاية لتنزيه الملك للّه عزّ و جلّ عما وصفه به المشركون، و الاستثناء فى قوله. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ منقطع، و التقدير:
لكن عباد اللّه المخلصين بريئون عن أن يصفوا اللّه بشىء من ذلك. و قد قرئ بفتح اللام و كسرها و معناهما ما بيناه قريبا. و قيل: هو استثناء من المحضرين، أى: إنهم يحضرون النار إلا من أخلص، فيكون متصلا لا منقطعا، و على هذا تكون جملة التسبيح معترضة. ثم خاطب الكفار على العموم أو كفار مكة على الخصوص فقال: فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ أى: فإنكم و آلهتكم التى تعبدون من دون اللّه لستم

---

(١). الأحقاف: ٢٠.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۷۶

بفاتنين على اللّه بإفساد عباده و إضلالهم، و على متعلقة بفاتنين، و الواو فى و ما تعبدون إما للعطف على اسم إن، أو هو بمعنى مع، و ما موصولة أو مصدرية، أى: فإنكم و الذى تعبدون، أو و عبادتكم، و معنى فاتنين مضلين، يقال فتنت الرجل و أفتنته، و يقال فتنه على الشىء و بالشىء كما يقال أضله على الشىء و أضله به.
قال الفراء: أهل الحجاز يقولون فتنته، و أهل نجد يقولون أفتنته، و يقال فتن فلان على فلان امرأته: أى أفسدها عليه، فالفتنة هنا بمعنى الإضلال و الإفساد. قال مقاتل: يقول ما أنتم بمضلين أحدا بآلهتكم إلا من قدّر اللّه له أن يصلى الجحيم، و ما فى ما أَنْتُمْ نافية و أَنْتُمْ خطاب لهم و لمن يعبدونه على التغليب.
قال الزجاج: أهل التفسير مجمعون فيما علمت أن المعنى: ما أنتم بمضلين أحدا إلا من قدّر اللّه عز و جلّ عليه أن يضلّ، و منه قول الشاعر:
فردّ بنعمته كيده‌عليه و كان لنا فاتنا
أى: مضلا إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ قرأ الجمهور صالِ بكسر اللام لأنه منقوص مضاف حذفت الياء لالتقاء الساكنين و حمل على لفظ من، و أفرد كما أفرد هو. و قرأ الحسن، و ابن أبى عبلة بضم اللام مع واو بعدها، و روى عنهما أنهما قرءا بضم اللام بدون واو. فأما مع الواو فعلى أنه جمع سلامة بالواو حملا على معنى من، و حذفت نون الجمع للإضافة، و أما بدون الواو فيحتمل أن

يكون جمعا، و إنما حذفت الواو خطا كما حذفت لفظا، و يحتمل أن يكون مفردا، و حقه على هذا كسر اللام. قال النحاس: و جماعة أهل التفسير يقولون: إنه لحن لأنه لا يجوز هذا قاض المدينة، و المعنى: أن الكفار و ما يعبدونه لا يقدرون على إضلال أحد من عباد اللّه إلا من هو من أهل النار و هم المصرّون على الكفر، و إنما يصرّ على الكفر من سبق القضاء عليه بالشقاوة، و إنه ممن يصلى النار: أى: يدخلها، ثم قال الملائكة مخبرين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم كما حكاه اللّه سبحانه عنهم وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ و فى الكلام حذف، و التقدير: و ما منا من أحد، أو و ما منا ملك إلا له مقام معلوم فى عبادة اللّه. و قيل التقدير: و ما منا إلا من له مقام معلوم، رجح البصريون التقدير الأوّل، و رجح الكوفيون الثانى. قال الزجاج: هذا قول الملائكة و فيه مضمر. المعنى و ما منا ملك إلا له مقام معلوم. ثم قالوا: وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ أى: فى مواقف الطاعة. قال قتادة: هم الملائكة صفوا أقدامهم. و قال الكلبى: صفوف الملائكة فى السماء كصفوف أهل الدنيا فى الأرض وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ أى: المنزّهون للّه المقدّسون له عما أضافه إليه المشركون، و قيل: المصلون، و قيل: المراد بقولهم المسبحون مجموع التسبيح باللسان و بالصلاة، و المقصود أن هذه الصفات هى صفات الملائكة، و ليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات اللّه وَ إِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ هذا رجوع إلى الإخبار عن المشركين، أى:

كانوا قبل المبعث المحمّدى إذا عيروا بالجهل قالوا: لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ أى كتابا من كتب الأوّلين كالتوراة و الإنجيل لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أى: لأخلصنا العبادة له و لم نكفر به، و إن فى قوله:

وَ إِنْ كانُوا هى المخففة من الثقيلة، و فيها ضمير شأن محذوف، و اللام هى الفارقة بينها و بين النافية، أى: و إن الشأن كان كفار العرب ليقولون ... إلخ، و الفاء فى قوله: فَكَفَرُوا بِهِ هى الفصيحة الدالة على

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۷۷

محذوف مقدّر فى الكلام. قال الفراء: تقديره فجاءهم محمّد بالذكر فكفروا به، و هذا على طريق التعجب منهم فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أى: عاقبة كفرهم و مغبته، و فى هذا تهديد لهم شديد، و جملة: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ مستأنفة مقرّرة للوعيد، و المراد بالكلمة ما وعدهم اللّه به من النصر و الظفر على الكفار. قال مقاتل: عنى بالكلمة قوله سبحانه كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «۱» و قال الفراء: سبقت كلمتنا بالسعادة لهم، و الأولى تفسير هذه الكلمة بما هو مذكور هنا، فإنه قال: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ فهذه هى الكلمة المذكورة سابقا و هذا تفسير لها، و المراد بجند اللّه حزبه و هم الرسل و أتباعهم.

قال الشيبانى: جاء هنا على الجمع: يعنى قوله: لَهُمُ الْغالِبُونَ من أجل أنه رأس آية، و هذا الوعد لهم بالنصر و الغلبة لا ينافيه انهزامهم فى بعض المواطن، و غلبة الكفار لهم، فإن الغالب فى كلّ موطن هو انتصارهم على الأعداء، و غلبتهم لهم، فخرج الكلام مخرج الغالب، على أن العاقبة المحمودة لهم على كلّ حال و فى كل موطن كما قال سبحانه: وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ* ثم أمر اللّه سبحانه رسوله بالإعراض عنهم و الإغماض عما يصدر منهم من الجهالات و الضلالات فقال: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ أى: أعرض عنهم إلى مدّة معلومة عند اللّه سبحانه، و هى مدة الكف عن القتال. قال السدّى و مجاهد: حتى نأمرك بالقتال. و قال قتادة:

إلى الموت، و قيل: إلى يوم بدر، و قيل: إلى يوم فتح مكة، و قيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أى: و أبصرهم إذا نزل بهم العذاب بالقتل و الأسر فسوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار، و عبر بالإبصار عن قرب الأمر: أى: فسوف يبصرون عن قريب. و قيل المعنى: فسوف يبصرون العذاب يوم القيامة. ثم هددهم بقوله سبحانه: أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم: متى هذا العذاب؟ فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ أى: إذا نزل عذاب اللّه لهم بفنائهم، و الساحة فى اللغة: فناء الدار الواسع، قال الفراء: نزل بساحتهم و نزل بهم سواء. قال الزجاج: و كان عذاب هؤلاء بالقتل، قيل: المراد به نزول رسول

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بساحتهم يوم فتح مكة. قرأ الجمهور «نزل» مبنيا للفاعل.
و قرأ عبد اللّه بن مسعود على البناء للمفعول، و الجار و المجرور قائم مقام الفاعل فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ أى: بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب، و المخصوص بالذم محذوف، أى: صباحهم. و خصّ الصباح بالذكر لأن العذاب كان يأتيهم فيه. ثم كرر سبحانه ما سبق تأكيدا للوعد بالعذاب فقال: وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ و حذف مفعول أبصر هاهنا و ذكره أوّلا إما لدلالة الأوّل عليه فتركه هنا اختصارا، أو قصدا إلى التعميم للإيذان بأن ما يبصره من أنواع عذابهم لا يحيط به الوصف. و قيل: هذه الجملة المراد بها أحوال القيامة، و الجملة الأولى المراد بها عذابهم فى الدنيا، و على هذا فلا يكون من باب التأكيد، بل من باب التأسيس. ثم نزّه سبحانه نفسه عن قبيح ما يصدر منهم فقال: سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ العزّة: الغلبة و القوة، و المراد تنزيهه عن كلّ ما يصفونه به مما لا يليق بجنابه الشريف، و ربّ العزّة بدل من ربك. ثم ذكر ما يدلّ على تشريف رسله و تكريمهم فقال: وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ أى: الذين أرسلهم

---

(١). المجادلة: ٢١.

إلى عباده و بلغوا رسالاته، و هو من السلام الذى هو التحية، و قيل: معناه أمن لهم و سلامة من المكاره وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ إرشاد لعباده إلى حمده على إرسال رسله إليهم مبشرين و منذرين، و تعليم لهم كيف يصنعون عند إنعامه عليهم، و ما يثنون عليه به، و قيل: إنه الحمد على هلاك المشركين و نصر الرسل عليهم، و الأولى أنه حمد للّه سبحانه على كلّ ما أنعم به على خلقه أجمعين كما يفيده حذف المحمود عليه، فإن حذفه مشعر بالتعميم كما تقرّر فى علم المعانى، و الحمد: هو الثناء الجميل بقصد التعظيم.
و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً قال: زعم أعداء اللّه أنه تبارك و تعالى هو و إبليس أخوان. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ قال:
فإنكم يا معشر المشركين و ما تعبدون: يعنى الآلهة ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ قال: بمضلين إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ يقول: إلا من سبق فى علمى أنه سيصلى الجحيم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية يقول: إنكم لا تضلون أنتم و لا أضل منكم إلا من قضيت عليه أنه صال الجحيم. و أخرج عبد ابن حميد، و ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: لا تفتنون إلا من هو صال الجحيم. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير عنه أيضا فى قوله: وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ قال: الملائكة وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ قال: الملائكة وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ قال: الملائكة. و أخرج محمّد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن عائشة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما فى السّماء موضع قدم إلّا عليه ملك ساجد أو قائم، و ذلك قول الملائكة:
وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . و أخرج محمّد بن نصر، و ابن عساكر عن العلاء بن سعد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال يوما لأصحابه: «أطّت السّماء و حقّ لها أن تئطّ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد، ثم قرأ: وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ .
و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال: «إن من السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا و عليه جبهة ملك أو قدماه قائما أو ساجدا، ثم قرأ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ و أخرج الترمذى و حسنه، و ابن جرير، و ابن مردويه عن أبى ذرّ قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنى أرى ما لا ترون و أسمع ما لا تسمعون، إن السماء أطت و حقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا و ملك واضع جبهته ساجدا للّه». و قد ثبت فى الصحيح و غيره «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أمر الصحابة أن يصفوا كما تصفّ الملائكة عند ربهم، فقالوا: و كيف تصفّ الملائكة عند ربهم قال: يقيمون الصفوف المقدّمة «۱»، و يتراصون فى الصف». و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ قال: لما جاء المشركين من أهل مكة ذكر الأوّلين، و علم الآخرين كفروا بالكتاب

---

(۱). فى صحيح مسلم (۴۳۰): يتمون الصفوف الأول.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن أنس قال: «صبّح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خيبر و قد خرجوا بالمساحى، فلما نظروا إليه قالوا: محمّد و الخميس، فقال: اللّه أكبر خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» الحديث. و أخرج ابن سعد، و ابن مردويه من طريق سعيد عن قتادة عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إذا سلمتم على المرسلين فسلموا علىّ فإنما أنا بشر من المرسلين» و أخرج ابن مردويه من طريق أبى العوام عن قتادة عن أنس مرفوعا نحوه بأطول منه. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و أبو يعلى، و ابن مردويه عن أبى سعيد عن رسول اللّه أنه كان إذا أراد أن يسلم من صلاته قال: سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ و أخرج الطبرانى عن ابن عباس قال: كنا نعرف انصراف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الصلاة بقوله:
سُبْحانَ رَبِّكَ إلى آخر الآية. و أخرج الخطيب نحوه من حديث أبى سعيد. و أخرج الطبرانى عن زيد ابن أرقم عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من قال دبر كلّ صلاة: سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون و سلام على المرسلين و الحمد للّه ربّ العالمين» ثلاث مرات «فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر». و أخرج حميد بن زنجويه فى ترغيبه من طريق الأصبغ بن نباتة عن علىّ بن أبى طالب نحوه.
و إلى هنا انتهى الجزء الثالث «۱» من هذا التفسير المبارك بمعونة اللّه، المقبول بفضل اللّه، بقلم مصنفه «محمّد بن على الشوكانى غفر اللّه لهما»، فى نهار الخميس الحادى و العشرين من شهر محرم الحرام من شهور سنة تسع و عشرين و مائتين و ألف من الهجرة النبوية، حامدا للّه شاكرا له مصليا مسلما على رسوله و آله، و يتلوه إن شاء اللّه تفسير سورة ص.
انتهى سماع هذا الجزء على مؤلفه حفظه اللّه فى يوم الإثنين غرة شهر جمادى الآخرة سنة ۱۲۳۰ ه.
كتبه يحيى بن على الشوكانى غفر اللّه لهما

---

(۱). (من تجزئة المؤلف)

سورة ص

اشارة

آياتها ست و ثمانون، و قيل خمس و ثمانون، و قيل ثمان و ثمانون آية، و هى مكية: قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن

الضريس، و النحاس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة «ص» بمكة. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و عبد بن حميد، و الترمذى و صححه، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل، فقال: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، و يفعل و يفعل ... و يقول و يقول ... فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث إليه، فجاء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فدخل البيت و بينهم و بين أبى طالب قدر مجلس رجل، فخشى أبو جهل أن يجلس إلى أبى طالب و يكون أرقى عليه- فوثب فجلس فى ذلك المجلس، فلم يجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال أبو طالب: أى ابن أخى ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم. و تقول و تقول ... قال: و أكثروا عليه من القول، و تلكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا عم إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، و تؤدّى إليهم بها العجم الجزية، ففزعوا لكلمته و لقوله: فقال القوم: كلمة واحدة نعم و أبيك عشرا، قالوا فما هى؟ قال:

لا إله إلا اللّه، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، و هم يقولون: أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ فنزل فيهم: ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ إلى قوله: بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة ص (٣٨): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ (٣) وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (٤)

أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (٥) وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (٦) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩)

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (١٠) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (١١)

قوله: ص قرأ الجمهور بسكون الدال كسائر حروف التهجى فى أوائل السور؛ فإنها ساكنة الأواخر على الوقف. و قرأ أبىّ بن كعب، و الحسن، و ابن أبى إسحاق، و نصر بن عاصم، و ابن أبى عبلة، و أبو السمال بكسر الدال من غير تنوين، و وجه الكسر أنه لالتقاء الساكنين، و قيل: وجه الكسر أنه من صادى يصادى إذا عارض- و المعنى صاد القرآن بعملك: أى عارضه بعملك و قابله فاعمل به، و هذا حكاه النحاس عن

الحسن البصرى و قال: إنه فسر قراءته هذه بهذا، و عنه أن المعنى: اتله و تعرّض لقراءته. و قرأ عيسى بن عمر: صاد بفتح الدال، و الفتح لالتقاء الساكنين، و قيل: نصب على الإغراء. و قيل معناه: صاد محمّد قلوب الخلق و استمالها حتى آمنوا به، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو، و روى عن ابن أبى إسحاق أيضا أنه قرأ «صاد» بالكسر و التنوين تشبيها لهذا الحرف بما هو غير متمكن من الأصوات. و قرأ هارون الأعور و ابن السميقع «صاد» بالضم من غير تنوين على البناء نحو منذ و حيث.

و قد اختلف فى معنى «صاد» فقال الضحاك: معناه صدق اللّه. و قال عطاء: صدق محمّد. و قال سعيد ابن جبير: هو بحر يحيى اللّه به الموتى بين النفختين. و قال محمّد بن كعب: هو مفتاح اسم اللّه. و قال قتادة:

هو اسم من أسماء اللّه. و روى عنه أنه قال: هو اسم من أسماء الرحمن. و قال مجاهد: هو فاتحة السورة.

و قيل: هو مما استأثر اللّه بعلمه، و هذا هو الحقّ كما قدّمنا فى فاتحة سورة البقرة. قيل: و هو إما اسم للحروف مسرودا على نمط التعبد، أو اسم للسورة، أو خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب إضمار اذكر أو اقرأ، و الواو فى قوله: وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ هى واو القسم، و الإقسام بالقرآن فيه تنبيه على شرف قدره و علوّ محله، و معنى ذِي الذِّكْرِ أنه مشتمل على الذكر فيه بيان كلّ شىء. قال مقاتل: معنى ذِي الذِّكْرِ ذى البيان. و قال الضحاك: ذى الشرف كما فى قوله: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ «۱» أى: شرفكم، و قيل: أى ذى الموعظة.

و اختلف فى جواب هذا القسم ما هو؟ فقال الزجاج و الكسائى و الكوفيون غير الفراء: إنه قوله: إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ و قال الفراء: لا نجده مستقيما لتأخره جدّا عن قوله: وَ الْقُرْآنِ و رجح هو و ثعلب أن الجواب قوله: كَمْ أَهْلَكْنا و قال الأخفش: الجواب هو إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ و قيل: هو صاد، لأن معناه حقّ، فهو جواب لقوله: وَ الْقُرْآنِ كما تقول حقا و اللّه وجب و اللّه. ذكره ابن الأنبارى، و روى أيضا عن ثعلب و الفراء: و هو مبنىّ على أن جواب القسم يجوز تقدّمه و هو ضعيف.

و قيل: الجواب محذوف، و التقدير: و القرآن ذى الذكر لتبعثنّ و نحو ذلك. و قال ابن عطية: تقديره ما الأمر كما يزعم الكفار، و القول بالحذف أولى. و قيل إن قوله: ص مقسم به، و على هذا القول تكون الواو فى «القرآن» للعطف عليه، و لما كان الإقسام بالقرآن دالا على صدقه، و أنه حقّ، و أنه ليس بمحل للريب قال سبحانه: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ فأضرب عن ذلك و كأنه قال لا ريب فيه قطعا، و لم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه. بل هم فى عزّة عن قبول الحقّ: أى تكبر و تجبر. و شقاق: أى و امتناع عن قبول الحقّ، و العزّة عند العرب: الغلبة و القهر، يقال: من عزّ بزّ أى: من غلب سلب، و منه: وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ أى: غلبنى، و منه قول الشاعر «۲»:

يعزّ على الطريق بمنكبيه كما ابترك الخليع على القداح

---

(۱). الأنبياء: ۱۰.

(۲). هو جرير.

و الشقاق: مأخوذ من الشقّ و قد تقدّم بيانه. ثم خوّفهم سبحانه و هدّدهم بما فعله بمن قبلهم من الكفار فقال: كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ يعنى الأمم الخالية المهلكة بتكذيب الرسل، أى: كم أهلكنا من الأمم الخالية الذين كانوا أمنع من هؤلاء و أشدّ قوّة و أكثر أموالا و كم: هى الخبرية الدالة على التكثير، و هى فى محل نصب بأهلكنا على أنها مفعول به، و من قرن: تمييز، و «من» فى «من قبلهم» هى: لابتداء الغاية فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ النداء هنا: هو نداء الاستغاثة منهم عند نزول العذاب بهم، و ليس الحين حين مناص. قال الحسن: نادوا بالتوبة و ليس حين التوبة و لا حين ينفع العمل. و المناص: مصدر ناص ينوص، و هو الفوت و التأخر. و لات: بمعنى ليس بلغة أهل اليمن. و قال النحويون: هى لا التى بمعنى لى زيدت عليه التاء كما فى قولهم: ربّ و ربت، و ثمّ و ثمت قال الفراء: النوص التأخر، و أنشد قول امرئ القيس:

أمن ذكر ليلى إذ نأتك تنوص قال: يقال ناص عن قرنه ينوص نوصا: أى فرّ و زاغ. قال الفراء: و يقال ناص ينوص: إذا تقدّم.

و قيل المعنى: أنه قال بعضهم لبعض مناص، أى: عليكم بالفرار و الهزيمة، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص، فقال اللّه وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ قال سيبويه: لات مشبهة بليس، و الاسم فيها مضمر، أى: ليس حيننا حين مناص. قال الزجاج: التقدير و ليس أواننا. قال ابن كيسان: و القول كما قال سيبويه، و الوقف عليها عند الكسائى بالهاء، و به قال المبرد و الأخفش. قال الكسائى و الفرّاء و الخليل

و سيبويه و الأخفش: و التاء تكتب منقطعة عن حين، و كذلك هى فى المصاحف. و قال أبو عبيد: تكتب متصلة بحين، فيقال: «و لا تحين» و منه قول أبى وجزة السعدى:

العاطفون تحين ما من عاطفو المطعمون زمان ما من مطعم

و قد يستغنى بحين عن المضاف إليه كما قال الشاعر:

تذكر حبّ ليلى لات حيناو أمسى الشيب قد قطع القرينا

قال أبو عبيد: لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا فى حين و أوان و الآن. قلت: بل قد يزيدونها فى غير ذلك كما فى قول الشاعر:

فلتعرفنّ خلائقا مشمولةو لتندمنّ و لات ساعة مندم

و قد أنشد الفراء هذا البيت مستدلا به على أن من العرب من يخفض بها، و جملة: وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ فى محل نصب على الحال من ضمير نادوا. قرأ الجمهور «لات» بفتح التاء، و قرئ «لات» بالكسر كجير وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ أى: عجب الكفار الذين وصفهم اللّه سبحانه بأنهم فى عزّة و شقاق أن جاءهم منذر منهم، أى: رسول من أنفسهم ينذرهم بالعذاب إن استمرّوا على الكفر، و أن و ما فى حيزها فى محل نصب بنزع الخافض، أى: من أن جاءهم، و هو كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع من أنواع كفرهم وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ قالوا هذا القول لما شاهدوا ما جاء به من المعجزات الخارجة

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۴۸۳

عن قدرة البشر، أى: هذا المدّعى للرسالة ساحر فيما يظهره من المعجزات كذاب فيما يدّعيه من أن اللّه أرسله.

قيل: و وضع الظاهر موضع المضمر لإظهار الغضب عليهم، و أن ما قالوه لا يتجاسر على مثله إلا المتوغلون فى الكفر. ثم أنكروا ما جاء به صلّى اللّه عليه و سلّم من التوحيد و ما نفاه من الشركاء للّه فقالوا: أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً أى: صيرها إلها واحدا و قصرها على اللّه سبحانه إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ أى: لأمر بالغ فى العجب إلى الغاية. قال الجوهرى: العجيب الأمر الذى يتعجب منه، و كذلك العجاب بالضم و العجاب بالتشديد أكثر منه قرأ الجمهور «عجاب» مخففا. و قرأ علىّ و السلمى و عيسى بن عمر و ابن مقسم بتشديد الجيم. قال مقاتل: عجاب يعنى بالتخفيف لغة أزد شنوءة، قيل: و العجاب بالتخفيف و التشديد يدلان على أنه قد تجاوز الحدّ فى العجب، كما يقال الطويل: الذى فيه طول، و الطوال الذى قد تجاوز حدّ الطول و كلام الجوهرى يفيد اختصاص المبالغة بعجّاب مشدّد الجيم لا بالمخفف، و قد قدّمنا فى صدر هذه السورة سبب نزول هذه الآيات وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ المراد بالملإ: الأشراف كما هو مقرر فى غير موضع من تفسير الكتاب العزيز أى:

انطلقوا من مجلسهم الذى كانوا فيه عند أبى طالب كما تقدم قائلين أَنِ امْشُوا أى: قائلين لبعضهم بعضا امضوا على ما كنتم عليه و لا تدخلوا فى دينه وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ أى: اثبتوا على عبادتها، و قيل المعنى:

و انطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام امشوا و اصبروا على آلهتكم، و «أن» فى قوله: أَنِ امْشُوا هى المفسرة للقول المقدّر، أو لقوله: وَ انْطَلَقَ لأنه مضمن معنى القول، و يجوز أن تكون مصدرية معمولة للمقدر، أو للمذكور، أى: بأن امشوا. و قيل المراد بالانطلاق: الاندفاع فى القول، و امشوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها، أى: اجتمعوا و أكثروا، و هو بعيد جدّا، و خلاف ما يدل عليه الانطلاق و المشى بحقيقتهما، و خلاف ما تقدم فى سبب النزول، و جملة إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ تعليل لما تقدمه من الأمر بالصبر، أى: يريده محمّد بنا و بآلهتنا، و يودّ تمامه ليعلو علينا، و نكون له أتباعا فيتحكم بما يريد، فيكون هذا الكلام خارجا مخرج التحذير منه و التنفير عنه. و قيل المعنى: إن هذا الأمر يريده اللّه سبحانه، و ما أراده فهو كائن لا محالة، فاصبروا على عبادة آلهتكم. و قيل المعنى: إن دينكم لشىء يراد، أى: يطلب ليؤخذ منكم و تغلبوا عليه، و الأوّل أولى ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ أى: ما سمعنا بهذا الذى يقوله محمّد من التوحيد فى الملة الآخرة. و هى ملة النصرانية فإنها آخر الملل قبل ملة الإسلام، كذا قال

محمّد بن كعب القرظى، و قتادة و مقاتل، و الكلبى، و السدّى. و قال مجاهد: يعنون ملة قريش، و روى مثله عن قتادة أيضا.
و قال الحسن: المعنى ما سمعنا: أن هذا يكون آخر الزمان. و قيل المعنى: ما سمعناه من اليهود و النصارى أن محمّدا رسول إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ أى: ما هذا إلا كذب اختلقه محمّد و افتراه. ثم استنكروا أن يخصّ اللّه رسوله بمزية النبوّة دونهم فقالوا: أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا و الاستفهام للإنكار، أى: كيف يكون ذلك و نحن الرؤساء و الأشراف؟ قال الزجاج: قالوا كيف أنزل على محمّد القرآن من بيننا و نحن أكبر سنا و أعظم شرفا منه؟ و هذا مثل قولهم: لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «۱» فأنكروا أن يتفضل اللّه سبحانه على من يشاء من عباده بما شاء. و لما ذكر استنكارهم لنزول القرآن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

---

(۱). الزخرف: ۳۱.

دونهم بين السبب الذى لأجله تركوا تصديق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما جاء به، فقال: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي أى: من القرآن، أو الوحى لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه، و إهمالهم للأدلة الدالة على أنه حقّ منزل من عند اللّه بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ أى: بل السبب أنهم لم يذوقوا عذابى فاغترّوا بطول المهلة، و لو ذاقوا عذابى على ما هم عليه من الشرك؛ و الشكّ لصدّقوا ما جئت به من القرآن، و لم يشكوا فيه أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أى: مفاتيح نعم ربك و هى النبوّة و ما هو دونها من النعم حتى يعطوها من شاؤوا، فما لهم و لإنكار ما تفضل اللّه به على هذا النبىّ و اختاره له و اصطفاه لرسالته.
و المعنى: بل أعندهم، لأن أم هى المنقطعة المقدّرة ببل و الهمزة. و العزيز: الغالب القاهر. و الوهاب: المعطى بغير حساب أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما أى: بل ألهم ملك هذه الأشياء حتى يعطوا من شاؤوا، و يمنعوا من شاؤوا، و يعترضوا على إعطاء اللّه سبحانه ما شاء لمن شاء، و قوله: فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ جواب شرط محذوف، أى: إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب التى توصلهم إلى السماء أو إلى العرش حتى يحكموا بما يريدون من عطاء و منع، و يدبروا أمر العالم بما يشتهون، أو فليصعدوا، و ليمنعوا الملائكة من نزولهم بالوحى على محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم. و الأسباب: أبواب السموات التى تنزل الملائكة منها. قال مجاهد و قتادة، و منه قول زهير:
و لو رام أسباب السماء بسلّم «۱» قال الربيع بن أنس: الأسباب أدقّ من الشعر، و أشدّ من الحديد؛ و لكن لا ترى. و قال السدّى فِي الْأَسْبابِ فى الفضل و الدين. و قيل: فليعملوا فى أسباب القوّة إن ظنوا أنها مانعة و هو قول أبى عبيدة.
و قيل الأسباب: الحبال، يعنى: إن وجدوا حبالا يصعدون فيها إلى السماء فعلوا، و الأسباب عند أهل اللغة كل شىء يتوصل به إلى المطلوب كائنا ما كان. و فى هذا الكلام تهكم بهم و تعجيز لهم جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ هذا وعد من اللّه سبحانه لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بالنصر عليهم و الظفر بهم، و جند: مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هم جند، يعنى الكفار مهزوم مكسور عما قريب، فلا تبال بهم و لا تظنّ أنهم يصلون إلى شىء مما يضمرونه بك من الكيد، و «ما» فى قوله: ما هُنالِكَ هى صفة لجند لإفادة التعظيم و التحقير، أى: جند أىّ جند. و قيل: هى زائدة، يقال: هزمت الجيش كسرته، و تهزمت القربة: إذا تكسرت، و هذا الكلام متصل بما تقدّم، و هو قوله: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ و هم جند من الأحزاب مهزومون، فلا تحزن لعزّتهم و شقاقهم، فإنى أسلب عزّهم و أهزم جمعهم، و قد وقع ذلك و للّه الحمد فى يوم بدر و فيما بعده من مواطن اللّه.

و قد أخرج عبد بن حميد عن أبى صالح قال: سئل جابر بن عبد اللّه و ابن عباس عن ص فقال:

---

(۱). و صدره: و من هاب أسباب المنايا ينلنه.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۸۵

لا ندرى ما هو. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: ص محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم، و أخرج ابن جرير عنه وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ قال: ذى الشرف. و أخرج أبو داود الطيالسى، و عبد الرزاق، و الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه عن التميمى قال: سألت ابن عباس عن قول اللّه تعالى: فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ قال: ليس بحين نزو و لا فرار. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق عكرمة عنه فى الآية قال: نادوا النداء حين لا ينفعهم، و أنشد:

تذكرت ليلى لات حين تذكرو قد بنت منها و المناص بعيد

و أخرج عنه أيضا فى الآية قال: ليس هذا حين زوال. و أخرج ابن المنذر من طريق عطية عنه أيضا قال:

لا حين فرار. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ الآية قال:

نزلت حين انطلق أشراف قريش إلى أبى طالب فكلموه فى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن مردويه عنه وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ قال: أبو جهل. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ قال: النصرانية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ قال: فى السماء.

[سورة ص (۳۸): الآيات ۱۲ الى ۲۵]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (۱۲) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (۱۳) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (۱۴) وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (۱۵) وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (۱۶)

اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۱۷) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ (۱۸) وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (۱۹) وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ (۲۰) وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (۲۱)

إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ (۲۲) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ (۲۳) قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ قَلِيلٌ ما هُمْ وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ (۲۴) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ (۲۵)

لما ذكر سبحانه أحوال الكفار المعاصرين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ذكر أمثالهم ممن تقدّمهم و عمل عملهم من الكفر و التكذيب، فقال: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ قال المفسرون: كانت له أوتاد يعذب بها الناس، و ذلك أنه كان إذا غضب على أحد وتد يديه و رجليه و رأسه على الأرض. و قيل المراد بالأوتاد:

الجموع و الجنود الكثيرة، يعنى: أنهم كانوا يقوّون أمره و يشدّون سلطانه كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه، فالكلام خارج مخرج الاستعارة على هذا. قال ابن قتيبة: العرب تقول هم فى عزّ ثابت الأوتاد، و ملك ثابت الأوتاد، يريدون ملكا دائما شديدا، و أصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت و يقوم بالأوتاد. و قيل:

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۴۸۶

المراد بالأوتاد هنا البناء المحكم، أی: و فرعون ذو الأبنیة المحکمة. قال الضحاک: و البنیان یسمی أوتادا، و الأوتاد: جمع وتد أفصحها فتح الواو و کسر التاء، و یقال وتد بفتحهما و ودّ بإدغام التاء فی الدال و ودت.

قال الأصمعی: و یقال وتد واتد مثل شغل شاغل و أنشد:

لاقت علی الماء جذیلا واتداو لم یکن یخلفها المواعدا

وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَیْکَةِ الأیکة: الغیضة، و قد تقدّم تفسیرها و اختلاف القرّاء فی قراءتها فی سورة الشعراء، و معنی أُولئِکَ الْأَحْزابُ أنهم الموصوفون بالقوّة و الکثرة کقولهم: فلان هو الرجل، و قریش و إن کانوا حزبا کما قال اللّه سبحانه فیما تقدّم جُنْدٌ ما هُنالِکَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ و لکن هؤلاء الذین قصهم اللّه علینا من الأمم السالفة هم أکثر منهم عددا، و أقوی أبدانا، و أوسع أموالا و أعمارا، و هذه الجملة یجوز أن تکون مستأنفة، و یجوز أن تکون خبرا، و المبتدأ قوله: وَ عادٌ کذا قال أبو البقاء و هو ضعیف، بل الظاهر أن (عاد) و ما بعده معطوفات علی قوم نوح، و الأولی أن تکون هذه الجملة خبرا لمبتدأ محذوف، أو بدلا من الأمم المذکورة إِنْ کُلٌّ إِلَّا کَذَّبَ الرُّسُلَ إن: هی النافیة، و المعنی: ما کلّ حزب من هذه الأحزاب إلا کذب الرسل، لأن تکذیب الحزب لرسوله المرسل إلیه تکذیب لجمیع الرسل أو هو من مقابلة الجمع بالجمع، و المراد تکذیب کلّ حزب لرسوله، و الاستثناء مفرغ من أعمّ الأحوال، أی: ما کلّ أحد من الأحزاب فی جمیع أحواله إلا وقع منه تکذیب الرسل فَحَقَّ عِقابِ أی: فحقّ علیهم عقابی بتکذیبهم، و معنی حقّ: ثبت و وجب، و إن تأخر فکأنه واقع بهم، و کلّ ما هو آت قریب. قرأ یعقوب بإثبات الیاء فی «عقاب» و حذفها الباقون مطابقة لرؤوس الآی وَ ما یَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَیْحَةً واحِدَةً أی:

ما ینتظرون إلا صیحة، و هی النفخة الکائنة عند قیام الساعة. و قیل: هی النفخة الثانیة، و علی الأوّل: المراد من عاصر نبینا صلّی اللّه علیه و سلّم من الکفار، و علی الثانی: المراد کفار الأمم المذکورة، أی: لیس بینهم و بین حلول ما أعدّ اللّه لهم من عذاب إلا أن ینفخ فی الصور النفخة الثانیة. و قیل: المراد بالصیحة عذاب یفجؤهم فی الدنیا کما قال الشاعر:

صاح الزمان بآل برمک صیحةخرّوا لشدتها علی الأذقان

و جملة ما لَها مِنْ فَواقٍ فی محل نصب صفة لصیحة. قال الزجاج: فواق و فواق بفتح الفاء و ضمها، أی: ما لها من رجوع، و الفواق: ما بین حلبتی الناقة، و هو مشتقّ من الرجوع أیضا، لأنه یعود اللبن إلی الضرع بین الحلبتین، و أفاق من مرضه: أی رجع إلی الصحة، و لهذا قال مجاهد و مقاتل: إن الفواق الرجوع.

و قال قتادة ما لها من مثنویة. و قال السدّی: ما لها من إفاقة، و قیل ما لها من مردّ. قال الجوهری: ما لها من نظرة و راحة و إفاقة، و معنی الآیة أن تلک الصیحة هی میعاد عذابهم، فإذا جاءت لم ترجع، و لا تردّ عنهم، و لا تصرف منهم، و لا تتوقف مقدار فواق ناقة، و هی ما بین حلبتی الحالب لها، و منه قول الأعشی:

حتی إذا فیقة فی ضرعها اجتمعتجاءت لترضع شقّ النفس لو رضعا

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۴۸۷

و الفیقة اسم اللبن الذی یجتمع بین الحلبتین، و جمعها فیق و أفواق. قرأ حمزة و الکسائی ما لها من فواق بضم الفاء، و قرأ الباقون بفتحها. قال الفراء و أبو عبیدة: الفواق بفتح الفاء الراحة، أی: لا یفیقون فیها کما یفیق المریض، و المغشی علیه، و بالضم الانتظار وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ یَوْمِ الْحِسابِ لما سمعوا ما توعدهم اللّه به من العذاب قالوا هذه المقالة استهزاء و سخریة. و القط فی اللغة: النصیب، من القط، و هو القطع، و بهذا قال قتادة، و سعید بن جبیر، قال الفراء: القط فی کلام العرب: الحظ و النصیب، و منه قیل للصک: قط. قال أبو عبیدة و الکسائی: القط الکتاب بالجوائز، و الجمع القطوط، و منه قول الأعشی:

و لا الملك النعمان يوم لقيته‌بغبطته يعطى القطوط و يأفق

و معنى يـأفق: يصـلح، و معنى الآيـة سؤالهم لربهم أن يعجـل لهم نصـيبهم و حظهم من العـذاب، و هو مثل قوله: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ* و قال السـدّى: سألوا ربهم أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به و قال إسـماعيل بن أبى خالد: المعنى عجل لنا أرزاقنا، و به قال سعيد بن جبير و السدّى. و قال أبو العالية و الكلبى و مقاتل: لما نزل فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ* «۱» وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ «۲» قالت قريش: زعمت يا محمّد أنا نؤتى كتابنا بشمالنا فعجل لنا قطنا قبل يوم الحساب. ثم أمر اللّه سبحانه نبيه أن يصبر على ما يسمعه من أقوالهم فقال: اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ من أقوالهم الباطلة التى هذا القول المحكى عنهم من جملتها، و هذه الآية منسوخة بآية السيف وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ لما فرغ من ذكر قرون الضلالة، و أمم الكفر و التكذيب، و أمر نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بالصبر على ما يسمعه زاد فى تسليته بذكر قصة داود و ما بعدها. و معنى اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ اذكر قصته فإنك تجد فيها ما تتسلى به، و الأيد: القوّة و منه رجل أيد: أى قوىّ، و تأيد الشي‌ء: تقوّى و المراد ما كان فيه عليه السلام من القوّة على العبادة. قال الزجاج:

و كانت قوّة داود على العبادة أتمّ قوّة، و من قوّته ما أخبرنا به نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم أنه كان يصوم يوما و يفطر يوما، و كان يصلى نصف الليل و كان لا يفرّ إذا لاقى العدوّ، و جملة إِنَّهُ أَوَّابٌ تعليل لكونه ذا الأيد، و الأواب: الرجاع عن كلّ ما يكرهه اللّه سبحانه إلى ما يحبه، و لا يستطيع ذلك إلا من كان قويا فى دينه. و قيل: معناه كلما ذكر ذنبه استغفر منه و تاب عنه، و هذا داخل تحت المعنى الأوّل، يقال آب يؤوب: إذا رجع إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ أى: يقدّسن اللّه سبحانه و ينزهنه عما لا يليق به. و جملة يُسَبِّحْنَ فى محل نصب على الحال، و فى هذا بيان ما أعطاه اللّه من البرهان و المعجزة، و هو تسبيح الجبال معه. قال مقاتل: كان داود إذا ذكر اللّه ذكرت الجبال معه، و كان يفقه تسبيح الجبال. و قال محمّد بن إسحاق: أوتى داود من حسن الصوت ما يكون له فى الجبال دوىّ حسن، فهذا معنى تسبيح الجبال، و الأوّل أولى. و قيل معنى «يسبّحن» يصلين، و «معه» متعلق بسخرنا. و معنى «بالعشىّ و الإشراق» قال الكلبى: غدوة و عشية، يقال أشرقت الشمس: إذا أضاءت، و ذلك وقت الضحى. و أما شروقها فطلوعها. قال الزجاج:

شرقت الشمس: إذا طلعت، و أشرقت: إذا أضاءت وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً معطوف على الجبال، و انتصاب

---

(۱). الحاقة: ۱۹.

(۲). الحاقة: ۲۵.

محشورة على الحال من الطير، أى: و سخرنا الطير حال كونها محشورة، أى: مجموعة إليه تسبح اللّه معه، قيل: كانت تجمعها إليه الملائكة. و قيل: كانت تجمعها الريح كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ أى: كل واحد من داود و الجبال و الطير رجاع إلى طاعة اللّه و أمره، و الضمير فى له راجع إلى اللّه عزّ و جلّ. و قيل: الضمير لداود، أى: لأجل تسبيح داود مسبح، فوضع أوّاب موضع مسبح، و الأوّل أولى. و قد قدّمنا أن الأوّاب: الكثير الرجوع إلى اللّه سبحانه وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ قوّيناه و ثبتناه بالنصر فى المواطن على أعدائه و إلقاء الرعب منه فى قلوبهم. و قيل: بكثرة الجنود وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ المراد بالحكمة: النبوّة و المعرفة بكل ما يحكم به. و قال مقاتل: الفهم و العلم. و قال مجاهد: العدل. و قال أبو العالية: العلم بكتاب اللّه. و قال شريح: السنة. و المراد بفصل الخطاب الفصل فى القضاء و به قال الحسن، و الكلبى، و مقاتل. و حكى الواحدى عن الأكثر أن فصل الخطاب: الشهود و الأيمان لأنها إنما تنقطع الخصومة بهذا. و قيل: هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير فى اللفظ القليل، وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ

لما مـدحه اللّه سبحانه بما تقـدم ذكره أردف ذلك بذكر هذه القصة الواقعة له لما فيها من الأخبار العجيبة. قال مقاتل: بعث اللّه إلى داود ملكين، جبريل و ميكائيل لينبهه على التوبة، فأتياه و هو فى محرابه. قال النحاس: و لا خلاف بين أهل التفسير أن المراد بالخصم هاهنا الملكان، و الخصم مصـدر يقع على الواحـد و الاثنين و الجماعـة. و معنى تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ أتوه من أعلى سوره و نزلوا إليه، و السور: الحائط المرتفع، و جاء بلفظ الجمع فى تسوروا مع كونهم اثنين نظرا إلى ما يحتمله لفظ الخصم من الجمع. و منه قول الشاعر:

و خصم غضاب ينفضون لحاهم كنفض البراذين العراب المخاليا

و المحراب: الغرفة لأنهم تسوروا عليه و هو فيها، كـذا قـال يحيى بن سـلام. و قال أبو عبيـدة: إنه صـدر المجلس و منه محراب المسجد. و قيل: إنهما كانا إنسيين و لم يكونا ملكين، و العامل فى «إذ» فى قوله: إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ النبأ: هل أتاك الخبر الواقع فى وقت تسورهم، و بهذا قال ابن عطية و مكى و أبو البقاء. و قيل:

العامل فيه أتاك. و قيل: معمول للخصم. و قيل: معمول المحذوف، أى: و هل أتاك نبأ تحاكم الخصم. و قيل:

هو معمول لتسوروا. و قيل: هو بـدل مما قبله. و قال الفراء إن أحـد الظرفين المذكورين بمعنى لما فَفَزِعَ مِنْهُمْ و ذلك لأنهما أتياه ليلا فى غير وقت دخول الخصوم، و دخلوا عليه بغير إذنه، و لم يـدخلوا من الباب الـذى يدخل منه الناس. قال ابن العربى: و كان محراب داود من الامتناع بالارتفاع بحيث لا يرتقى إليه آدمى بحيلة، و جملة: قالُوا لا تَخَفْ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالوا لداود لما فزع منهم؟

و ارتفاع خَصْمانِ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: نحن خصـمان، و جاء فيما سبق بلفظ الجمع، و هنا بلفظ التثنية لما ذكرنا من أن لفظ الخصم يحتمل المفرد، و المثنى، و المجموع، فالكل جائز. قال الخليل:

هو كمـا تقول نحن فعلنـا كـذا: إذا كنتمـا اثنين. و قـال الكسـائى: جمع لما كان خبرا فلما انقضـى الخبر و جاءت المخاطبـة أخبر الاثنان عن أنفسـهما، فقالا: خصـمان، و قوله: بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ هو على سبيل الفرض و التقـدير، و على سبيل التعريض لأن من المعلوم أن الملكين لا يبغيان. ثم طلبا منه أن يحكم بينهما بالحق

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۸۹

و نهيـاه عن الجور فقالاـ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ أى: لا تجر فى حكمك، يقال شط الرجل و أشط شـططا و إشـطاطا: إذا جـار فى حكمه. قـال أبو عبيـد: شـططت عليه و أشـططت: أى جرت. و قال الأخفش: معناه لا تسرف، و قيل: لا تفرط، و قيل: لا تمل. و المعنى متقارب. و الأصل فيه البعـد، من شـطت الـدار: إذا بعـدت. قال أبو عمرو: الشـطط مجاوزة القـدر فى كلّ شـىء وَ اهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ سواء الصـراط: وسـطه. و المعنى: أرشـدنا إلى الحق و احملنـا عليه. ثم لمـا أخبراه عن الخصومـة إجمالا شرعا فى تفصـيلهما و شـرحهما فقالا: إِنَّ هـذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً المراد بالأخوة هنا: أخوة الدين أو الصـحبة، و النعجة هى الأنثى من الضأن، و قـد يقال لبقر الوحش نعجة وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ قال الواحدى: النعجة: البقرة الوحشـية، و العرب تكنى عن المرأة بها، و تشبه النساء بالنعاج من البقر. قرأ الجمهور تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ بكسر التاء الفوقيـة. و قرأ الحسن، و زيـد بن على بفتحها. قال النحاس: و هى لغة شاذة، و إنما عنى ب «هذا» داود لأنه كان له تسع و تسعون امرأة، و عنى بقوله: وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ [أوريا] زوج المرأة التى أراد أن يتزوجها داود كما سيأتى بيان ذلك فَقالَ أَكْفِلْنِيها أى: ضـمها إلىّ و انزل لى عنها حتى أكفلها و أصـير بعلا لها. قال ابن كيسان: اجعلها كفلى و نصيبى وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ أى: غلبنى، يقال عزه يعزه عزا: إذا غلبه. و فى المثل «من عزّ بزّ» أى: من غلب سلب و الاسم العزة: و هى القوة.

قال عطاء: المعنى إن تكلم كان أفصح منى. و قرأ ابن مسعود و عبيد بن عمير «و عازنى فى الخطاب» أى:

غـالبنى من المعـازة و هى المغالبـة قـالَ لَقَـدْ ظَلَمَـكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِـكَ إِلى نِعاجِهِ أى: بسؤاله نعجتك ليضـمها إلى نعاجه التسع و التسـعين إن كـان الأـمر على مـا تقول، و اللاـم: هى الموطئـة للقسم، و هى: و ما بعـدها جواب للقسم المقـدر، و جاء بالقسم فى كلامه مبالغة فى إنكار ما سـمعه من طلب صاحب التسع و التسعين النعجة أن يضم إليه النعجة الواحدة التى مع صاحبه و لم يكن معه غيرهـا. و يمكن أنه إنمـا قـال بهـذا بعـد أن سـمع الاـعتراف من الآـخر. قـال النحاس. و يقال: إن خطيئـة داود هى قوله: لَقَدْ ظَلَمَكَ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ و هم الشركاء واحدهم خليط: و هو المخالط فى المال لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ أى: يتعدى بعضـهم على بعض، و يظلمه غير مراع لحقه إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فإنهم يتحامون ذلك، و لا يظلمون خليطا و لا غيره وَ قَلِيلٌ ما هُمْ أى: و قليل هم، و ما:

زائدة للتوكيد و التعجيب. و قيل: هى موصولة، و هم: مبتدأ، و قليل: خبره وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ

قال أبو عمرو و الفراء: ظن يعنى أيقن. و معنى «فتناه» ابتليناه، و المعنى: أنه عنـد أن تخاصـما إليه و قال ما قال علم عند ذلك أنه المراد، و أن مقصودهما التعريض به و بصاحبه الذى أراد أن ينزل له عن امرأته. قال الواحدى: قال المفسـرون: فلما قضـى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، فعند ذلك علم داود بما أراده. قرأ الجمهور: «فتناه» بالتخفيف للتاء و تشديد النون. و قرأ عمر بن الخطاب، و الحسن، و أبو رجاء بالتشديـد للتاء و النون، و هى مبالغة فى الفتنة. و قرأ الضـحاك «افتناه» و قرأ قتادة و عبيد بن عمير و ابن السميقع «فتناه» بتخفيفهما و إسناد الفعل إلى الملكين، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۹۰

لذنبه وَ خَرَّ راكِعاً أى: ساجدا، و عبر بالركوع عن السـجود. قال ابن العربى: لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هنا السـجود، فإن السجود هو الميل، و الركوع هو الانحناء و أحدهما يدخل فى الآخر و لكنه قد يختص كلّ واحد منهما بهيئة. ثم جاء فى هذا على تسمية أحدهما بالآخر. و قيل المعنى للسجود راكعا:

أى: مصليا. و قيل: بل كان ركوعهم سجودا، و قيل: بل كان سجودهم ركوعا وَ أَنابَ أى: رجع إلى اللّه بالتوبة من ذنبه.

و قـد اختلف المفسـرون فى ذنب داود الذى استغفر له و تاب عنه على أقوال: الأول أنه نظر إلى امرأة الرجل التى أراد أن تكون زوجة له، كذا قال سعيد بن جبير و غيره. قال الزجاج: و لم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها، و صارت الأولى له و الثانيـة عليه. القول الثـانى أنه أرسـل زوجهـا فى جملـة الغزاة. الثـالث أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها. الرابع أن أوريا كان خطب تلـك المرأة فلمـا غـاب خطبهـا داود فزوّجت منه لجلاـلته فـاغتم لـذلك أوريـا، فعتب اللّه عليه حيث لم يتركهـا لخاطبها. الخامس أنه لم يجزع على قتل أوريا كما كان يجزع على من هلك من الجنـد، ثم تزوج امرأته فعاتبه اللّه على ذلك، لأن ذنوب الأنبياء و إن صغرت فهى عظيمة. السادس أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر كما قدمنا «۱».

و أقول: الظاهر من الخصومة التى وقعت بين الملكين تعريضا لداود عليه السلام أنه طلب من زوج المرأة الواحدة أن ينزل له عنها و يضـمها إلى نسائه، و لا ينافى هذا العصـمة الكائنة للأنبياء، فقد نبهه اللّه على ذلك و عرض له بإرسال ملائكته إليه ليتخاصـموا فى مثل قصته حتى يستغفر لذنبه و يتوب منه فاستغفر و تاب. و قد قال سبحانه وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى «۲» و هو أبو البشر و أوّل الأنبيـاء، و وقع لغيره من الأنبيـاء مـا قصه اللّه علينـا فى كتـابه. ثم أخبر سـبحانه أنه قبل اسـتغفاره و توبته قال: فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ أى: ذلك الذنب الذى اسـتغفر منه. قال عطاء الخراسانى و غيره: إن داود بقى ساجدا أربعين يوما حتى نبت الرعى حول وجهه و غمر رأسه.

قال ابن الأنبارى: الوقف على قوله: فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ تامّ، ثم يبتـدئ الكلام بقوله: وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ الزلفى: القربة و الكرامـة بعـد المغفرة لذنبه. قال مجاهد: الزلفى الدنوّ من اللّه عزّ و جلّ يوم القيامة، و المراد بحسن المآب: حسن المرجع و هو

الجنة.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ما لَها مِنْ فَواقٍ قال: من رجعة.

وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قال: سألوا اللّه أن يجعل لهم. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق الزبير بن عدى عنه عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قال: نصيبنا من الجنة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: ذَا الْأَيْدِ قال: القوّة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الأوّاب المسبح. و أخرج الديلمى عن مجاهد قال: سألت ابن عمر عن الأوّاب فقال: سألت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عنه فقال: هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر اللّه. و أخرج

---

(۱). هذا هو القول السديد و اللّه أعلم لأن ما عداه مما ذكر لا يصح بحق أنبياء اللّه و رسله و هو من الإسرائيليات.

(۲). طه: ۱۲۱.

عبد بن حميد عن ابن عباس قال: الأوّاب الموقن. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد عن عطاء الخراسانى عنه قال لم يزل فى نفسى من صلاة الضحى حتى قرأت هذه الآية إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ و أخرج ابن المنذر، و ابن مردويه عنه أيضا قال: لقد أتى علىّ زمان و ما أدرى وجه الآية يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ حتى رأيت الناس يصلون الضحى. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه عنه قال: كنت أمرّ بهذه الآية يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ فما أدرى ما هى؟ حتى حدثتنى أمّ هانئ بنت أبى طالب أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم دخل عليها يوم الفتح، فدعا بوضوء فتوضّأ ثم صلّى الضّحى، ثم قال:

«يا أمّ هانئ هذه صلاة الإشراق». و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه من وجه آخر عنه نحوه. و الأحاديث فى صلاة الضحى كثيرة جدّا قد ذكرناها فى شرحنا للمنتقى. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: استعدى رجل من بنى إسرائيل عند داود على رجل من عظمائهم فقال: إن هذا غصبنى بقرا لى، فسأل داود الرجل عن ذلك فجحده، فسأل الآخر البينة فلم يكن له بينة، فقال لهما داود: قوما حتى أنظر فى أمر كما، فقاما من عنده، فأتى داود فى منامه فقيل له: اقتل الرجل الذى استعدى، فقال: إن هذه رؤيا و لست أعجل حتى أتثبت، فأتى الليلة الثانية فى منامه فأمر أن يقتل الرجل فلم يفعل، ثم أتى الليلة الثالثة، فقيل له: اقتل الرجل أو تأتيك العقوبة من اللّه، فأرسل داود إلى الرجل فقال: إن اللّه أمرنى أن أقتلك، قال:

تقتلنى بغير بينة و لا تثبت؟ قال: نعم، و اللّه لأنفذن أمر اللّه فيك، فقال الرجل: لا تعجل علىّ حتى أخبرك، إنى و اللّه ما أخذت بهذا الذنب و لكنى كنت اغتلت والد هذا فقتلته فبذلك أخذت، فأمر به داود فقتل فاشتدّت هيبته فى بنى إسرائيل و شدّد به ملكه، فهو قول اللّه وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ قال: أعطى الفهم. و أخرج ابن أبى حاتم، و الديلمى عن أبى موسى الأشعرى قال: أوّل من قال أما بعد داود عليه السلام وَ هو فَصْلَ الْخِطابِ و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن سعد، و عبد بن حميد، و ابن المنذر عن الشعبى أنه سمع زياد بن أبيه يقول: فصل الخطاب الذى أوتى داود: أما بعد. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: أن داود حدّث نفسه إذا ابتلى أنه يعتصم، فقيل له: إنك ستبتلى و ستعلم اليوم الذى تبتلى فيه فخذ حذرك، فقيل له هذا اليوم الذى تبتلى فيه، فأخذ الزبور و دخل المحراب و أغلق باب المحراب و أخذ الزبور فى حجره، و أقعد منصفا:

يعنى خادما على الباب و قال: لا تأذن لأحد علىّ اليوم، فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب كأحسن ما يكون الطير، فيه من كلّ لون، فجعل يدور بين يديه، فدنا منه فأمكن أن يأخذه، فتناوله بيده ليأخذه فاستوفز من خلفه، فأطبق الزبور و قام إليه ليأخذه، فطار فوقع على كوّة المحراب، فدنا منه ليأخذه فأفضى فوقع على خصّ فأشرف عليه لينظر أين وقع؟ فإذا هو بامرأة عند بركتها

تغتسل من الحيض، فلما رأت ظله حركت رأسها، فغطت جسدها أجمع بشعرها، و كان زوجها غازيا فى سبيل اللّه، فكتب داود إلى رأس الغزاة: انظر أوريا فاجعله فى حملة التابوت و كان حملة التابوت إما أن يفتح عليهم و إما أن يقتلوا، فقدّمه فى حملة التابوت فقتل، فلما انقضت عدّتها خطبها داود، فاشترطت عليه إن ولدت غلاما أن يكون الخليفة من

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۹۲

بعده، و أشهدت عليه خمسين من بنى إسرائيل و كتب عليه بذلك كتابا، فما شعر بفتنته أنه افتتن حتى ولدت سليمان، و شب فتسوّر عليه الملكان المحراب و كان شأنهما ما قصّ اللّه فى كتابه و خرّ داود ساجدا، فغفر اللّه له و تاب عليه «۱». و أخرج الحاكم و صححه و البيهقى فى الشعب قال: ما أصاب داود بعد ما أصابه بعد القدر إلا من عجب بنفسه، و ذلك أنه قال: يا ربّ ما من ساعة من ليل و لا نهار إلا و عابد من آل داود يعبدك يصلى لك أو يسبح أو يكبر و ذكر أشياء، فكره اللّه ذلك، فقال: يا داود إن ذلك لم يكن إلا بى فلو لا عونى ما قويت عليه، و عزّتى و جلالى لأكلنك إلى نفسك يوما، قال: يا ربّ فأخبرنى به، فأخبر به فأصابته الفتنة ذلك اليوم. و أخرج أصل القصة الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أنس مرفوعا بإسناد ضعيف. و أخرجها ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس مطوّلة. و أخرجها جماعة من التابعين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: إِنَّ هـذا أَخِي قال: على دينى. و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و أحمد فى الزهد، و ابن جرير، و الطبرانى عنه قال: ما زاد داود على أن فَقالَ أَكْفِلْنِيها. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَكْفِلْنِيها قال ما زاد داود على أن قال: تحوّل لى عنها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ قَلِيلٌ ما هُمْ يقول: قليل الذى هم فيه، و فى قوله: وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ قال: اختبرناه. و أخرج أحمد، و البخارى، و أبو داود، و الترمذى، و النسائى، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عنه أيضا أنه قال فى السجود فى ص ليست من عزائم السجود، و قد رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يسجد فيها. و أخرج النسائى و ابن مردويه بسند جيد عنه أيضا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سجد فى ص و قال: سجدها داود و نسجدها شكرا. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة «أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سجد فى ص». و أخرج ابن مردويه عن أنس مثله مرفوعا. و أخرج الدارمى، و أبو داود، و ابن خزيمة، و ابن حبان، و الدار قطنى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن أبى سعيد قال: «قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو على المنبر ص، فلما بلغ السجدة نزل فسجد و سجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تهيأ الناس للسجود، فقال: إنما هى توبة و لكنى رأيتكم تهيأتم للسجود، فنزل فسجد». و أخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه ذكر يوم القيامة فعظم شأنه و شدّته قال: و يقول الرحمن عزّ و جلّ لداود عليه السلام مرّ بين يدىّ، فيقول داود: يا ربّ أخاف أن تدحضنى خطيئتى، فيقول خذ بقدمى، فيأخذ بقدمه عزّ و جلّ فيمرّ، قال: فتلك الزلفى التى قال اللّه وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ

[سورة ص (۳۸): الآيات ۲۶ الى ۳۳]

يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (۲۶) وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (۲۷) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (۲۸) كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (۲۹) وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۳۰)

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (۳۱) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (۳۲) رُدُّوها عَلَيَّ

فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ (٣٣)

---

(١). هذه القصة من الإسرائيليات التى لا يعتد بها و لا تجوز فى حق داود عليه السلام.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۹۳

لما تمم سبحانه قصة داود أردفها ببيان تفويض أمر خلافة الأرض إليه، و الجملة مقولة لقول مقدر معطوف على غفرنا: أى و قلنا له يا داوُدُ إِنَّا استخلفناك على الأرض، أو جَعَلْناكَ خَلِيفَةً لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ أى بالعدل الذى هو حكم اللّه بين عباده وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى أى: هوى النفس فى الحكم بين العباد. و فيه تنبيه لداود عليه السلام أن الذى عوتب عليه ليس بعدل و أن فيه شائبة من اتباع هوى النفس فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بالنصب على أنه جواب للنهى و فاعل يضلك هو الهوى، و يجوز أن يكون الفعل مجزوما بالعطف على النهى، و إنما حرك لالتقاء الساكنين، فعلى الوجه الأول يكون المنهى عنه الجمع بينهما، و على الوجه الثانى يكون النهى عن كلّ واحد منهما على حدة. و سبيل اللّه: هو طريق الحق، أو طريق الجنة، و جملة إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ تعليل للنهى عن اتباع الهوى و الوقوع فى الضلال، و الباء فى بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ للسببية، و معنى النسيان الترك: أى: بسبب تركهم العمل لذلك اليوم: قال الزجاج: أى بتركهم العمل لذلك اليوم صاروا بمنزلة الناسين و إن كانوا ينذرون و يذكرون. و قال عكرمة و السدّى: فى الآية تقديم و تأخير، و التقدير: و لهم عذاب يوم الحساب بما نسوا، أى: تركوا القضاء بالعدل، و الأوّل أولى. و جملة وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا مستأنفة مقرّرة لما قبلها من أمر البعث و الحساب: أى ما خلقنا هذه الأشياء خلقا باطلا خارجا على الحكمة الباهرة، بل خلقناها للدلالة على قدرتنا، فانتصاب باطلا على المصدرية، أو على الحالية، أو على أنه مفعول لأجله، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى المنفىّ قبله، و هو: مبتدأ، و خبره: ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا أى: مظنونهم، فإنهم يظنون أن هذه الأشياء خلقت لا لغرض، و يقولون إنه لا قيامة، و لا بعث، و لا حساب، و ذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ و الفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل، أى: فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم و كفرهم. ثم وبخهم و بكتهم فقال: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إنا نعطى فى الآخرة كما تعطون فنزلت، و أم هى المنقطعة المقدّرة ببل و الهمزة: أى بل أ نجعل الذين آمنوا باللّه، و صدقوا رسله، و عملوا بفرائضه كالمفسدين فى الأرض بالمعاصى. ثم أضرب سبحانه إضرابا آخر، و انتقل عن الأول إلى ما هو أظهر استحالة منه فقال: أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ أى: بل نجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين و المنافقين و المنهمكين فى معاصى اللّه سبحانه من المسلمين، و قيل: إن الفجار هنا خاص بالكافرين، و قيل: المراد بالمتقين الصحابة، و لا وجه للتخصيص بغير مخصص، و الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۹۴

ارتفاع كتاب على أنه خبر مبتدأ محذوف، و أنزلناه إليك صفة له، و مبارك: خبر ثان للمبتدأ و لا يجوز أن يكون صفة أخرى لكتاب لما تقرر من أنه لا يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح، و قد جوزه بعض النحاة، و التقدير: القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمّد كثير الخير و البركة. و قرئ «مباركا» على الحال و قوله: لِيَدَّبَّرُوا أصله ليتدبروا فأدغمت التاء فى الدال و هو متعلق بأنزلناه. و فى الآية دليل على أن اللّه سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر و التفكر فى معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر. قرأ الجمهور «ليدبروا» بالإدغام. و قرأ أبو جعفر و شيبة «لتدبروا» بالتاء الفوقية على الخطاب، و رويت هذه القراءة عن عاصم و الكسائى، و هى قراءة على رضى اللّه عنه، و الأصل لتتدبروا بتاءين؛ فحذف إحداهما تخفيفا وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ أى: ليتعظ

أهل العقول، و الألباب جمع لب: و هو العقل وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّابٌ أخبر سبحانه بأن من جملة نعمه على داود أنه وهب له سليمان ولدا، ثم مدح سليمان فقال: نِعْمَ الْعَبْدُ و المخصوص بالمدح محذوف، أى: نعم العبد سليمان، و قيل: إن المدح هنا بقوله: نعم العبد هو لداود، و الأول أولى، و جملة إِنَّهُ أَوّابٌ تعليل لما قبلها من المدح، و الأواب:

الرجاع إلى اللّه بالتوبة كما تقدم بيانه، و الظرف فى قوله: إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ متعلق بمحذوف و هو اذكر، أى: اذكر ما صدر عنه وقت عرض الصافنات الجياد عليه بِالْعَشِيِّ و قيل: هو متعلق بنعم، و هو مع كونه غير متصرف لا وجه لتقييده بذلك الوقت، و قيل: متعلق بأواب، و لا وجه لتقييد كونه أوابا بذلك الوقت، و العشى من الظهر أو العصر إلى آخر النهار، و الصافنات جمع صافن.

و قد اختلف أهل اللغة فى معناه، فقال القتبى و الفراء: الصافن فى كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها، و به قال قتادة، و منه الحديث «من أحب أن يتمثل له الناس صفونا فليتبوأ مقعده من النار» أى: يديمون القيام له، و استدلوا بقول النابغة:

لنا قبة مضروبة بفنائهاعتاق المهارى و الجياد الصّوافن

و لا حجة لهم فى هذا فإنه استدلال بمحل النزاع، و هو مصادرة لأن النزاع فى الصافن ما ذا هو؟ و قال الزجاج هو الذى يقف على إحدى اليدين و يرفع الأخرى و يجعل على الأرض طرف الحافر منها حتى كأنه يقوم على ثلاث و هى الرجلان و إحدى اليدين، و قد يفعل ذلك بإحدى رجليه و هى علامة الفراهة، و أنشد الزجاج قول الشاعر:

ألف الصفون فما يزال كأنّهمما يقوم على الثلاث كسير

و من هذا قول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليهمقلّدة أعنّتها صفونا

فإن قوله صفونا لا بدّ أن يحمل على معنى غير مجرّد القيام، لأن مجرّد القيام قد استفيد من قوله: عاكفة عليه. و قال أبو عبيد: الصافن هو الذى يجمع يديه و يسويهما، و أما الذى يقف على سنبكه فاسمه المتخيم،

فتح القدير، ج‏4، ص: 495

و الجياد: جمع جواد، يقال للفرس إذا كان شديد العدو. و قيل: إنها الطوال الأعناق، مأخوذ من الجيد:

و هو العنق، قيل: كانت مائة فرس، و قيل: كانت عشرين ألفا، و قيل: كانت عشرين فرسا، و قيل: إنها خرجت له من البحر و كانت لها أجنحة فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي انتصاب حب الخير على أنه مفعول أحببت بعد تضمينه معنى آثرت. قال الفراء: يقول آثرت حب الخير، و كلّ من أحب شيئا فقد آثره. و قيل: انتصابه على المصدرية بحذف الزوائد و الناصب له أحببت، و قيل: هو مصدر تشبيهى، أى: حبا مثل حب الخير، و الأول أولى. و المراد بالخير هنا: الخيل. قال الزجاج: الخير: هنا الخيل. و قال الفراء: الخير و الخيل فى كلام العرب واحد. قال النحاس: و فى الحديث «الخيل معقود بنواصيها الخير» فكأنها سميت خيرا لهذا. و قيل: إنها سميت خيرا لما فيها من المنافع. «و عن» فى عَنْ ذِكْرِ رَبِّي بمعنى على. و المعنى: آثرت حبّ الخيل على ذكر ربى: يعنى صلاة العصر حَتّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ يعنى الشمس و لم يتقدّم لها ذكر، و لكن المقام يدلّ على ذلك. قال الزجاج: إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشى‏ء أو دليل الذكر، و قد جرى هنا الدليل، و هو قوله بالعشىّ. و التوارى: الاستتار عن الأبصار، و الحجاب:

ما يحجبها عن الأبصار. قال قتادة و كعب: الحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق و هو جبل قاف، و سمى الليل حجابا لأنه يستر ما فيه، و قيل: و الضمير فى قوله: حَتّى تَوارَتْ للخيل، أى: حتى توارت فى المسابقة عن الأعين. و الأوّل أولى، و قوله: رُدُّوها عَلَيَّ من تمام قول سليمان: أى أعيدوا عرضها علىّ مرّة أخرى. قال الحسن: إن سليمان لما شغله عرض الخيل حتى فاتته صلاة العصر

غضب للّه و قال ردّوها عليّ:

أی: أعيدوها. و قيل: الضمير فی ردّوها يعود إلی الشمس و يكون ذلک معجزة له، و إنما أمر بإرجاعها بعد مغيبها لأجل أن يصلی العصر، و الأوّل أولی، و الفاء فی قوله: فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ هی الفصيحة التی تدل علی محذوف فی الكلام، و التقدير هنا: فردّوها عليه. قال أبو عبيدة: طفق يفعل مثل ما زال يفعل، و هو مثل ظلّ و بات و انتصاب مسحا علی المصدرية بفعل مقدّر، أی: يمسح مسحا لأن خبر طفق لا يكون إلا فعلا مضارعا، و قيل: هو مصدر فی موضع الحال، و الأول أولی. و السوق جمع ساق، و الأعناق جمع عنق، و المراد أنه طفق يضرب أعناقها و سوقها، يقال مسح علاوته: أی ضرب عنقه. قال الفراء: المسح هنا القطع، قال: و المعنی أنه أقبل يضرب سوقها و أعناقها لأنها كانت سبب فوت صلاته، و كذا قال أبو عبيدة. قال الزجاج: و لم يكن يفعل ذلک إلا و قد أباحه اللّه له، و جائز أن يباح ذلک لسليمان و يحظر فی هذا الوقت.

و قد اختلف المفسرون فی تفسير هذه الآية، فقال قوم: المراد بالمسح ما تقدّم. و قال آخرون منهم الزهری و قتادة: إن المراد به المسح علی سوقها و أعناقها لكشف الغبار عنها حبا لها. و القول الأوّل أولی بسياق الكلام فإنه ذكر أنه آثرها علی ذكر ربه حتی فاتته صلاة العصر، ثم أمرهم بردّها عليه ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلک، و ما صدّه عن عبادة ربه، و شغله عن القيام بما فرضه اللّه عليه، و لا يناسب هذا أن يكون الغرض من ردّها عليه هو كشف الغبار عن سوقها و أعناقها بالمسح عليها بيده أو بثوبه، و لا متمسک لمن قال: إن

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۹۶

إفساد المال لا يصدر عن النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم فإن هذا مجرّد استبعاد باعتبار ما هو المتقرّر فی شرعنا مع جواز أن يكون فی شرع سليمان أن مثل هذا مباح علی أن إفساد المال المنهیّ عنه فی شرعنا إنما هو مجرّد إضاعته لغير غرض صحيح، و أما لغرض صحيح فقد جاز مثله فی شرعنا كما وقع منه صلّی اللّه عليه و سلّم من إكفاء القدور التی طبخت من الغنيمة قبل القسمة، و لهذا نظائر كثيرة فی الشريعة، و من ذلک ما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكر.

و قد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس فی قوله: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِی الْأَرْضِ قال: الذين آمنوا: علیّ، و حمزة، و عبيدة بن الحارث، و المفسدين فی الأرض: عتبة، و شيبة، و الوليد. و أخرج ابن أبی حاتم عن أبی هريرة قال: الصَّافِناتُ الْجِيادُ خيل خلقت علی ما شاء. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد فی قوله: الصَّافِناتُ قال: صفون الفرس رفع إحدی يديه حتی يكون علی أطراف الحافر، و فی قوله: الْجِيادُ السراع. و أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس فی قوله: حُبَّ الْخَيْرِ قال: الماء، و فی قوله ردّوها علیّ قال: الخيل فَطَفِقَ مَسْحاً قال: عقرا بالسيف. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن علیّ بن أبی طالب قال: الصلاة التی فرّط فيها سليمان صلاة العصر. و أخرج الفريابی، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبی حاتم عن إبراهيم التيمی فی قوله:

إذ عرض عليه بالعشیّ الصافنات الجياد قال: كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة فعقرها. و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير عن ابن مسعود بقوله: حَتَّی تَوارَتْ بِالْحِجابِ قال: توارت من وراء ياقوتة خضراء، فخضرة السماء منها. و أخرج ابن أبی شيبة فی المصنف عن ابن عباس قال: كان سليمان لا يكلم إعظاما له، فلقد فاتته صلاة العصر و ما استطاع أحد أن يكلمه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: عَنْ ذِكْرِ رَبِّی يقول: من ذكر ربی فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ قال: قطع سوقها و أعناقها بالسيف.

[سورة ص (۳۸): الآيات ۳۴ الی ۴۰]

وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (٣۴) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣۵) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (٣۶) وَ الشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ (٣٧) وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (٣٨)

هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٩) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ (۴٠)

قوله: وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ أى: ابتليناه و اختبرناه. قال الواحدى: قال أكثر المفسرين: تزوّج سليمان امرأة من بنات الملوك، فعبدت الصنم فى داره و لم يعلم بذلك سليمان، فامتحن بسبب غفلته عن ذلك. و قيل: إن سبب الفتنة أنه تزوّج سليمان امرأة يقال لها جرادة و كان يحبها حبا شديدا، فاختصم إليه فريقان: أحدهما من أهل جرادة، فأحبّ أن يكون القضاء لهم، ثم قضى بينهم بالحق. و قيل: إن السبب أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضى بين أحد. و قيل: إنه تزوّج جرادة هذه و هى مشركة لأنه عرض عليها الإسلام فقالت: اقتلنى و لا أسلم. و قال كعب الأحبار: إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه. و قال الحسن: إنه قارب بعض نسائه فى شىء من حيض أو غيره. و قيل: إنه أمر أن لا يتزوج امرأة إلّا من بنى

فتح القدير، ج۴، ص: ۴٩٧

إسرائيل فتزوّج امرأة من غيرهم. و قيل: إن سبب فتنته ما ثبت فى الحديث الصحيح أنه قال: لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة تأتى كلّ واحدة بفارس يقاتل فى سبيل اللّه، و لم يقل إن شاء اللّه. و قيل غير ذلك. ثم بين سبحانه ما عاقبه به فقال: وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً انتصاب جسدا على أنه مفعول ألقينا، و قيل:

انتصابه على الحال على تأويله بالمشتق، أى: ضعيفا أو فارغا، و الأوّل أولى. قال أكثر المفسرين: هذا الجسد الذى ألقاه اللّه على كرسى سليمان هو شيطان اسمه صخر، و كان متمرّدا عليه غير داخل فى طاعته، ألقى اللّه شبه سليمان عليه و ما زال يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان، و ذلك عند دخول سليمان الكنيف لأنه كان يلقيه إذا دخل الكنيف، فجاء صخر فى صورة سليمان فأخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان، فقعد على سرير سليمان و أقام أربعين يوما على ملكه و سليمان هارب. و قال مجاهد: إن شيطانا قال له سليمان:

كيف تفتنون الناس؟ قال: أرنى خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه فى البحر، فذهب ملكه و قعد الشيطان على كرسيه و منعه اللّه نساء سليمان فلم يقربهنّ، و كان سليمان يستطعم فيقول: أ تعرفوننى أطعمونى؟ فيكذبوه حتى أعطته امرأة يوما حوتا فشقّ بطنه فوجد خاتمه فى بطنه فرجع إليه ملكه، و هو معنى قوله: ثُمَّ أَنابَ أى: رجع إلى ملكه بعد أربعين يوما. و قيل معنى أناب: رجع إلى اللّه بالتوبة من ذنبه، و هذا هو الصواب، و تكون جملة: قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي بدلا من جملة أناب و تفسيرا له، أى: اغفر لى ما صدر عنى من الذنب الذى ابتليتنى لأجله. ثم لما قدّم التوبة و الاستغفار جعلها وسيلة إلى إجابة طلبته فقال: وَ هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي قال أبو عبيدة: معنى لا ينبغى لأحد من بعدى: لا يكون لأحد من بعدى، و قيل المعنى: لا ينبغى لأحد أن يسلبه منى بعد هذه السلبة، أو لا يصح لأحد من بعدى لعظمته و ليس هذا من سؤال نبىّ اللّه سليمان عليه السلام للدنيا و ملكها و الشرف بين أهلها، بل المراد بسؤاله الملك أن يتمكن به من إنفاذ أحكام اللّه سبحانه، و الأخذ على يد المتمرّدين من عباده من الجنّ و الإنس، و لو لم يكن من المقتضيات لهذا السؤال منه إلا ما رآه عند قعود الشيطان على كرسيه من الأحكام الشيطانية الجارية فى عباد اللّه «١»، و جملة إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ تعليل لما قبلها مما طلبه من مغفرة اللّه له و هبة الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده:

أى فإنك كثير الهبات عظيم الموهبات. ثم ذكر سبحانه إجابته لدعوته و إعطاءه لمسألته فقال: فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ أى: ذللناها له و جعلناها منقادة لأمره. ثم بين كيفية التسخير لها بقوله: تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً أى: لينة الهبوب ليست بالعاصف، مأخوذ من الرخاوة، و

المعنى أنها ريح لينة لا تزعزع و لا تعصف مع قوة هبوبها و سرعة جريها، و لا ينافى هذا قوله فى آية أخرى وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ «٢» لأن المراد أنها فى قوة العاصفة و لا تعصف. و قيل: إنها كانت تارة رخاء، و تارة عاصفة على ما يريده سليمان و يشتهيه، و هذا أولى فى الجمع بين الآيتين حَيْثُ أَصابَ أى: حيث أراد. قال الزجاج: إجماع أهل اللغة و المفسرين أن معنى حيث أصاب: حيث أراد، و حقيقته حيث قعد. و قال الأصمعى و ابن الأعرابى: العرب تقول:

---

(١). ما جاء فى تفسير فتنة سليمان غير الحديث الصحيح إنما هو من الإسرائيليات التى تنسب إلى الأنبياء ما لا يليق بهم، فلا يعتد بها.

(٢). الأنبياء: ٨١..

أصاب الصواب، و أخطأ الجواب. و قيل: إن معنى أصاب بلغة حمير أراد، و ليس من لغة العرب، و قيل:

هو بلسان هجر، و الأول أولى، و هو مأخوذ من إصابة السهم للغرض وَ الشَّياطِينَ معطوف على الريح، أى: و سخرنا له الشياطين، و قوله: كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ بدل من الشياطين، أى: كل بناء منهم، و غواص منهم يبنون له ما يشاء من المبانى، و يغوصون فى البحر فيستخرجون له الدر منه، و من هذا قول الشاعر «١»:

إلا سليمان إذ قال الجليل لهقم فى البرية فاحددها عن الفند

و خيّس الجنّ أنى قد أذنت لهميبنون تدمر بالصفّاح و العمد

وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ معطوف على كلّ داخل فى حكم البدل، و هم مردة الشياطين سخروا له حتى قرنهم فى الأصفاد. يقال: قرنهم فى الحبال إذا كانوا جماعة كثيرة، و الأصفاد: الأغلال واحدها صفة.

قال الزجاج: هى السلاسل، فكل ما شددته شدا وثيقا بالحديد و غيره فقد صفدته. قال أبو عبيدة: صفدت الرجل فهو مصفود، و صفدته فهو مصفد، و من هذا قول عمرو بن كلثوم فى معلقته:

فآبوا بالنهاب و بالسباياو أبنا بالملوك مصفّدينا

قال يحيى بن سلام: و لم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم و لم يسخرهم، و الإشارة بقوله:

«هذا» إلى ما تقدم من تسخير الريح و الشياطين له، و هو بتقدير القول: أى و قلنا له هذا عَطاؤُنا الذى أعطيناكه من الملك العظيم الذى طلبته فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ قال الحسن و الضحاك و غيرهما: أى فأعط من شئت و امنع من شئت بِغَيْرِ حِسابٍ لا حساب عليك فى ذلك الإعطاء أو الإمساك، أو عطاؤنا لك بغير حساب لكثرته و عظمته. و قال قتادة: إن قوله: هذا عَطاؤُنا إشارة إلى ما أعطيه من قوة الجماع، و هذا لا وجه لقصر الآية عليه لو قدّرنا أنه قد تقدم ذكره من جملة تلك المذكورات، فكيف يدعى اختصاص الآية به مع عدم ذكره وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى أى قربة فى الآخرة وَ حُسْنَ مَآبٍ و حسن مرجع، و هو الجنة.

و قد أخرج الفريابى، و الحكيم الترمذى، و الحاكم و صححه عن ابن عباس فى قوله: وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى‏ كُرْسِيِّهِ جَسَداً قال: هو الشيطان الذى كان على كرسيه يقضى بين الناس أربعين يوما، و كان لسليمان امرأة يقال لها جرادة، و كان بين بعض أهلها و بين قوم خصومة، فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها، فأوحى اللّه إليه أن سيصيبك بلاء، فكان لا يدرى أ يأتيه من السماء أم من الأرض؟

و أخرج النسائى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم قال السيوطى بسند قوى عن ابن عباس قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء فأعطى لجرادة خاتمه، و كانت جرادة امرأته و كانت أحب نسائه إليه، فجاء الشيطان فى صورة سليمان فقال لها: هاتى خاتمى فأعطته،

فلما لبسه دانت له الإنس و الجن و الشياطين، فلما خرج سليمان

(۱). هو النابغة الذبيانی.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۹۹

من الخلاء قال هاتی خاتمی، قالت قد أعطيته سليمان. قال أنا سليمان، قالت كذبت لست سليمان، فجعل لا يأتی أحدا يقول أنا سليمان إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذلک عرف أنه من أمر اللّه، و قام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد اللّه أن يرد على سليمان سلطانه ألقى فی قلوب الناس إنكار ذلک الشيطان، فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: تنكرن من أمر سليمان شيئا؟ قلن نعم إنه يأتينا و نحن نحيض، و ما كان يأتينا قبل ذلک، فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتبا فيها سحر و كفر فدفنوها تحت كرسی سليمان، ثم أثاروها و قرءوها على الناس و قالوا بهذا كان يظهر سليمان على الناس و يغلبهم فأكفر الناس سليمان فلم يزالوا يكفرونه، و بعث ذلک الشيطان بالخاتم فطرحه فی البحر فتلقته سمكة فأخذته، و كان سليمان يعمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكا فيه تلک السمكة التی فی بطنها الخاتم، فدعا سليمان فقال: تحمل لی هذا السمک؟ قال نعم، قال بكم؟ قال بسمكة من هذا السمک، فحمل سليمان السمک ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلک السمكة التی فی بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها فإذا الخاتم فی جوفها فأخذه فلبسه، فلما لبسه دانت له الجنّ و الإنس و الشياطين و عاد إلى حاله و هرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان فی طلبه، و كان شيطانا مريدا، فجعلوا يطلبونه و لا يقدرون عليه حتى وجدوه يوما نائما فجاؤوا فبنوا عليه بنيانا من رصاص فاستيقظ فوثب، فجعل لا يثب فی مكان من البيت إلا انباط معه الرصاص فأخذوه فأوثقوه و جاءوا به إلى سليمان فأمر به فنقر له تخت من رخام ثم أدخله فی جوفه ثم شدّ بالنحاس ثم أمر به فطرح فی البحر «۱»، فذلک قوله: وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى‏ كُرْسِيِّهِ جَسَداً يعنی الشيطان الذی كان سلط عليه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ أَلْقَيْنا عَلى‏ كُرْسِيِّهِ قال: صخر الجنی تمثل على كرسيه على صورته. و أخرج البخاری، و مسلم و غيرهما عن أبی هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«إنّ عفريتا من الجنّ جعل يتفلّت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتی و إنّ اللّه أمكننی منه، فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سواری المسجد حتّى تصبحوا فتنظروا إليه كلّكم، فذكرت قول أخی سليمان وَ هَبْ لِی مُلْكاً لا يَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی فردّه اللّه خاسئا». و أخرج ابن جرير، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: فَامْنُنْ يقول: أعتق من الجنّ من شئت و أمسک منهم من شئت.

[سورة ص (۳۸): الآيات ۴۱ الى ۵۴]

وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى‏ رَبَّهُ أَنِّی مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ (۴۱) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ (۴۲) وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرى‏ لِأُولِي الْأَلْبابِ (۴۳) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۴۴) وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ (۴۵)

إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (۴۶) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (۴۷) وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (۴۸) هذا ذِكْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (۴۹) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (۵۰)

مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرابٍ (۵۱) وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (۵۲) هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (۵۳)

إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (۵۴)

(۱). هذا كسابقه من الإسرائيليات التى لا يعتد بها.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰۰

فتح القدير ج۴ ۵۴۹

قوله: وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ معطوف على قوله: وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ و أيوب عطف بيان، و إِذْ نادى رَبَّهُ بدل اشتمال من عبدنا أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه حكاية لكلامه الذى نادى ربه به، و لو لم يحكه لقال إنه مسه. و قرأ عيسى بن عمر بكسرها على إضمار القول.

و فى ذكر قصة أيوب إرشاد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى الاقتداء به فى الصبر على المكاره. قرأ الجمهور بضم النون من قوله: بِنُصْبٍ و سكون الصاد، فقيل: هو جمع نصب بفتحتين نحو أسد و أسد، و قيل: هو لغة فى النصب، نحو رشد و رشد. و قرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع، و شيبة و حفص، و نافع فى رواية عنه بضمتين، و رويت هذه القراءة عن الحسن. و قرأ أبو حيوة و يعقوب و حفص فى رواية بفتح و سكون، و هذه القراءات كلها بمعنى واحد، و إنما اختلفت القراءات باختلاف اللغات .. و قال أبو عبيدة: إن النصب بفتحتين: التعب و الإعياء، و على بقية القراءات الشرّ و البلاء، و معنى قوله: وَ عَذابٍ أى ألم. قال قتادة و مقاتل: النصب فى الجسد، و العذاب فى المال. قال النحاس و فيه بعد كذا قال. و الأولى تفسير النصب بالمعنى اللغوى و هو التعب و الإعياء، و تفسير العذاب بما يصدق عليه مسمى العذاب و هو الألم، و كلاهما راجع إلى البدن ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هو بتقدير القول: أى قلنا له: اركض برجلك كذا قال الكسائى: و الركض الدفع بالرجل، يقال ركض الدابة برجله: إذا ضربها بها. و قال المبرد: الركض التحريك. قال الأصمعى: يقال ركضت الدابة، و لا يقال ركضت هى، لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه، و لا فعل لها فى ذلك، و حكى سيبويه: ركضت الدابة فركضت، مثل جبرت العظم فجبر هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ هذا أيضا من مقول القول المقدّر: المغتسل هو الماء الذى يغتسل به، و الشراب الذى يشرب منه. و قيل: إن المغتسل هو المكان الذى يغتسل فيه. قال قتادة: هما عينان بأرض الشام فى أرض يقال لها الجابية فاغتسل من إحداهما فأذهب اللّه ظاهر دائه، و شرب من الأخرى فأذهب اللّه باطن دائه، و كذا قال الحسن. و قال مقاتل نبعت عين جارية فاغتسل فيها فخرج صحيحا، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبا باردا. و فى الكلام حذف، و التقدير:

فركض برجله فنبعت عين، فقلنا له: هذا مغتسل إلخ، و أسند المسّ إلى الشيطان مع أن اللّه سبحانه هو الذى مسه بذلك: إما لكونه لما عمل بوسوسته عوقب على ذلك النصب و العذاب. فقد قيل إنه أعجب بكثرة ماله، و قيل استغاثه مظلوم فلم يغثه، و قيل: إنه قال ذلك على طريقة الأدب، و قيل إنه قال ذلك لأن الشيطان وسوس إلى أتباعه فرفضوه و أخرجوه من ديارهم، و قيل المراد به ما كان يوسوسه الشيطان إليه حال مرضه و ابتلائه من تحسين الجزع و عدم الصبر على المصيبة، و قيل غير ذلك. و قوله: وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ معطوف على مقدّر كأنه قيل: فاغتسل و شرب، فكشفنا بذلك ما به من ضرّ و وهبنا له أهله. قيل: أحياهم اللّه بعد أن أماتهم. و قيل: جمعهم بعد تفرقهم، و قيل: غيرهم مثلهم، ثم زاده مثلهم معهم، و هو معنى قوله:

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰۱

وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ فكانوا مثل ما كانوا من قبل ابتلائه، و انتصاب قوله: رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ على أنه مفعول لأجله، أى: وهبناهم له لأجل رحمتنا إياه، و ليتذكر بحاله أولو الألباب فيصبروا على الشدائد كما صبر، و قد تقدّم فى سورة الأنبياء تفسير هذه الآية مستوفى فلا نعيده وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً معطوف على اركض، أو على وهبنا؛ أو التقدير و قلنا له: خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً و

الضغث: عثكال النخل بشماريخه، و قيل: هو قبضة من حشيش مختلط رطبها بيابسها، و قيل: الحزمة الكبيرة من القضبان، و أصل المادّة تدلّ على جمع المختلطات. قال الواحدى: الضغث ملء الكفّ من الشجر و الحشيش و الشماريخ فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ أى: اضرب بذلك الضغث، و لا تحنث فى يمينك، و الحنث: الإثم، و يطلق على فعل ما حلف على تركه، و كان أيوب قد حلف فى مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة.

و اختلف فى سبب ذلك، فقال سعيد بن المسيب إنه جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز، فخاف خيانتها فحلف ليضربنها. و قال يحيى بن سلام و غيره: إن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقرّبا إليه، فإنه إذا فعل ذلك برىء، فحلف ليضربنها إن عوفى مائة جلدة. و قيل: باعت ذؤابتها برغيفين إذ لم تجد شيئا، و كان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام، فلهذا حلف ليضربنها. و قيل: جاءها إبليس فى صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب، فقال أداويه على أنه إذا برىء قال أنت شفيتنى، لا أريد جزاء سواه، قالت:

نعم، فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها.

و قد اختلف العلماء هل هذا خاصّ بأيوب أو عامّ للناس كلهم؟ و أن من حلف خرج من يمينه بمثل ذلك قال الشافعى: إذا حلف ليضربنّ فلانا مائة جلدة أو ضربا و لم يقل ضربا شديدا و لم ينو بقلبه فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور فى الآية، حكاه ابن المنذر عنه و عن أبى ثور و أصحاب الرأى. و قال عطاء: هو خاصّ بأيوب و رواه ابن القاسم عن مالك. ثم أثنى اللّه سبحانه على أيوب فقال: إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً أى:

على البلاء الذى ابتليناه به، فإنه ابتلى بالداء العظيم فى جسده و ذهاب ماله و أهله و ولده فصبر نِعْمَ الْعَبْدُ أى: أيوب إِنَّهُ أَوَّابٌ أى: رجاع إلى اللّه بالاستغفار و التوبة وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ قرأ الجمهور عِبادَنا بالجمع. و قرأ ابن عباس و مجاهد و حميد و ابن محيصن و ابن كثير «عبدنا» بالإفراد. فعلى قراءة الجمهور يكون إبراهيم و إسحاق و يعقوب عطف بيان، و على القراءة الأخرى يكون إبراهيم عطف بيان، و ما بعده عطف على عبدنا لا على إبراهيم. و قد يقال: لما كان المراد بعبدنا الجنس جاز إبدال الجماعة منه. و قيل: إن إبراهيم و ما بعده بدل، أو: النصب بإضمار أعنى، و عطف البيان أظهر، و قراءة الجمهور أبين و قد اختارها أبو عبيد، و أبو حاتم أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ الأيدى، جمع اليد التى بمعنى القوّة و القدرة. قال قتادة: أعطوا قوّة فى العبادة و نصرا فى الدين. قال الواحدى: و به قال مجاهد، و سعيد بن جبير، و المفسرون. قال النحاس: أما الأبصار فمتفق على أنها البصائر فى الدين و العلم. و أما الأيدى فمختلف فى تأويلها؛ فأهل التفسير يقولون: إنها القوّة فى الدين، و قوم يقولون: الأيدى جمع يد و هى النعمة، أى: هم أصحاب النعم، أى: الذين أنعم اللّه عزّ و جلّ عليهم، و قيل: هم أصحاب النعم على الناس و الإحسان

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰۲

إليهم، لأنهم قد أحسنوا و قدّموا خيرا، و اختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور أُولِي الْأَيْدِي بإثبات الياء فى الأيدى. و قرأ ابن مسعود و الأعمش و الحسن و عيسى الْأَيْدِ بغير ياء، فقيل معناها معنى القراءة الأولى، و إنما حذفت الياء لدلالة كسرة الدال عليها، و قيل: الأيد: القوّة، و جملة: إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ تعليل لما وصفوا به. قرأ الجمهور بِخالِصَةٍ بالتنوين و عدم الإضافة على أنها مصدر بمعنى الإخلاص، فيكون ذكرى منصوبا به، أو: بمعنى الخلوص، فيكون ذكرى مرفوعا به، أو يكون خالصة اسم فاعل على بابه، و ذكرى بدل منها أو بيان لها أو بإضمار أعنى أو مرفوعة بإضمار مبتدأ، و الدار يجوز أن تكون مفعولا به لذكرى و أن تكون ظرفا: إما على الاتساع، أو على إسقاط الخافض؛ و على كلّ تقدير؛ فخالصة: صفة لموصوف محذوف، و الباء: للسببية، أى: بسبب خصلة خالصة. و قرأ نافع، و شيبة، و أبو جعفر، و هشام عن ابن عامر بإضافة خالصة إلى ذكرى على أن الإضافة

للبيـان، لأـن الخالصـة تكون ذكرى و غير ذكرى، أو على أن خالصـة: مصـدر مضـاف إلى مفعول، و الفاعل: محـذوف. أى: بأن أخلصوا ذكرى الـدار، أو مصدر بمعنى الخلوص مضافا إلى فاعله. قال مجاهد: معنى الآية استصـفيناهم بذكر الآخرة فأخلصـناهم بـذكرها. و قال قتادة: كانوا يـدعون إلى الآخرة و إلى اللّه. و قال السدّى: أخلصوا بخوف الآخرة. قال الواحدى: فمن قرأ بالتنوين فى خالصـة؛ كـان المعنى جعلناهم لنا خالصـين؛ بأن خلصت لهم ذكرى الـدار، و الخالصـة: مصـدر بمعنى الخلوص، و الـذكرى بمعنى التـذكر، أى: خلص لهم تـذكر الدار، و هو أنهم يذكرون التأهب لها، و يزهدون فى الدنيا، و ذلك من شأن الأنبياء. و أما من أضـاف فـالمعنى: أخلصـنا لهم بـأن خلصت لهم ذكرى الـدار، و الخالصـة مصـدر مضـاف إلى الفاعل، و الـذكرى على هـذا المعنى الذكر وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ الاصـطفاء: الاختيار، و الأخيار، جمع خيّر بالتشديد، و التخفيف؛ كأموات فى جمع ميت مشدّدا و مخففا؛ و المعنى: إنهم عندنا لمن المختارين من أبناء جنسـهم من الأخيار وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ قيل: وجه إفراده بالـذكر بعد ذكر أبيه، و أخيه، و ابن أخيه؛ للإشعار بأنه عريق فى الصبر الذى هو المقصود بالتذكير هنا وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ و قد تقـدّم ذكر اليسع، و الكلام فيه فى الأنعام، و تقـدّم ذكر ذا الكفل و الكلام فيه فى سورة الأنبياء، و المراد من ذكر هؤلاء أنهم من جملة من صبر من الأنبياء و تحملوا الشدائد فى دين اللّه. أمر اللّه رسوله صـلّى اللّه عليه و سـلم بأن يذكرهم ليسلك مسلكهم فى الصبر وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ يعنى: الذين اختارهم اللّه لنبوّته، و اصـطفاهم من خلقه هذا ذِكْرٌ الإشارة إلى ما تقدّم من ذكر أوصافهم، أى: هـذا ذكر جميـل فى الـدنيا و شـرف يـذكرون به أبـدا وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ أى: لهم مع الـذكر الجميل حسن مآب فى الآـخرة، و المـآب: المرجع، و المعنى: أنهـم يرجعـون فى الآـخرة إلى مغفرة اللّـه، و رضـوانه، و نعيم جنته. ثم بين حسن المرجع فقال: جَنَّاتِ عَدْنٍ قرأ الجمهور جَنَّاتِ بالنصب بـدلا من حسن مآب، سواء كان جنات عـدن معرفة أو نكرة لأن المعرفة تبدل من النكرة و بـالعكس، و يجوز أن يكون جنـات عطف بيـان إن كـانت نكرة، و لاـ يجوز ذلـك فيهـا إن كـانت معرفـة على مـذهب جمهور النحاة و قد جوزه بعضهم. و يجوز أن يكون نصب جنات بإضمار فعل. و العدن فى الأصل: الإقامة،

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰۳

يقال عـدن بالمكان: إذا أقام فيه، و قيل: هو اسم لقصـر فى الجنة، و قرئ برفع جنات على أنها مبتدأ. و خبرها مفتحة، أو على أنها خبر مبتـدأ محـذوف، أى: هى جنـات عـدن، و قوله: مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ حـال من جنات، و العامل فيها ما فى المتقين من معنى الفعل، و الأبواب: مرتفعة باسم المفعول، كقوله: وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها و الرّابط بين الحال و صاحبها ضـمير مقدر، أى: منها، أو الألف و اللام لقيامه مقام الضـمير، إذ الأصل أبوابها. و قيل: إن ارتفاع الأبواب على البدل من الضمير فى مفتحة العائد على جنات، و به قال أبو علىّ الفارسـى، أى: مفتحة هى الأبواب. قال الفراء: المعنى مفتحة أبوابها، و العرب تجعل الألف و اللام خلفا من الإضافة. و قال الزجاج: المعنى مفتحـة لهم الأبواب منها. قال الحسن: إن الأبواب يقال لها: انفتحى فتنفتح، انغلقى فتنغلق، و قيل: تفتح لهم الملائكـة الأبواب، و انتصاب مُتَّكِئِينَ فِيها على الحال من ضـمير لهم، و العامل فيه مفتحة، و قيل: هو حال من يَدْعُونَ قدّمت على العامل فِيها أى يـدعون فى الجنات حال كونهم متكئين فيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ أى: بألوان متنوّعـة متكثرة من الفواكه وَ شَرابٍ كثير، فحذف كثيرا لدلالة الأوّل عليه، و على جعل مُتَّكِئِينَ حالا من ضـمير لهم، و العامل فيه مفتحة، فتكون جملة يَدْعُونَ مستأنفة لبيان حـالهم. و قيل إن يـدعون فى محل نصب على الحال من ضـمير متكئين وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ أى: قاصـرات طرفهنّ على أزواجهن لاـ ينظرن إلى غيرهم، و قـد مضـى بيـانه فى سورة الصافـات. و الأـتراب: المتحـدات فى السنّ، أو المتساويات فى الحسن. و قـال مجاهـد: معنى أتراب أنهنّ متواخيـات لاـ يتبـاغضن و لاـ يتغـايرن. و قيل: أترابا للأزواج. و الأتراب: جمع ترب، و اشـتقاقه من التراب لأنه يمسـهنّ فى وقت واحـد لاتحاد مولـدهنّ هـذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ أى: هذا الجزاء الذى وعدتم به لأجل يوم الحساب، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء، أو المعنى: فى يوم الحساب.

قرأ الجمهور ما تُوعَدُونَ بالفوقية على الخطاب. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و ابن محيصن، و يعقوب بالتحتية على الخبر، و اختار هـذه القراءة أبو عبيـد، و أبو حاتم لقوله: وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ فإنه خبر. إِنَّ هـذا لَرِزْقُنا أى: إن هذا المذكور من النعم و الكرامات لرزقنا الذى أنعمنا به عليكم ما لَهُ مِنْ نَفادٍ أى انقطاع و لا يفنى أبدا، و مثله قوله: عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ «۱» فنعم الجنة لا تنقطع عن أهلها.
و قـد أخرج أحمـد فى الزهـد، و ابن أبى حـاتم، و ابن عسـاكر عن ابن عبـاس قـال: إن الشـيطان عرج إلى السـماء، فقال: يا رب سلطنى على أيوب، قال اللّه: لقد سـلطتك على ماله و ولده و لم أسـلطك على جسده، فنزل فجمع جنوده، فقال لهم: قد سـلطت على أيوب فـأرونى سـلطانكم، فصـاروا نيرانـا ثم صـاروا مـاء، فبينـاهم فى المشـرق إذا هم بالمغرب، و بينما هم بالمغرب إذا هم بالمشـرق. فأرسـل طائفـة منهم إلى زرعه، و طائفـة إلى أهله، و طائفـة إلى بقره، و طائفـة إلى غنمه و قال: إنه لا يعتصم منكم إلا بـالمعروف، فـأتوه بالمصـائب بعضـها على بعض، فجـاء صـاحب الزرع فقـال: يـا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل على زرعك نارا فأحرقته؟ ثم جاء صاحب الإبل، فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل إلى إبلك عدوا فذهب بها، ثم جاء صاحب البقر فقال:

---

(۱). هود: ۱۰۸.

يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل إلى بقرك عـدوا فذهب بها؟ ثم جاءه صاحب الغنم فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل على غنمك عـدوا فـذهب بها؟ و تفرد هو لبنيه فجمعهم فى بيت أكبرهم، فبينما هم يأكلون و يشـربون إذ هبت ريـح فأخذت بأركان البيت فألقته عليهم، فجاء الشيطان إلى أيوب بصورة غلام بأذنيه قرطان فقال:
يـا أيوب ألم تر إلى ربـك جمع بنيـك فى بيت أكبرهم فبينمـا هم يأكلون و يشـربون إذ هبت ريـح أخـذت بأركان البيت فألقته عليهم، فلو رأيتهم حين اختلطت دماءهم و لحومهم بطعامهم و شرابهم؟ فقال له أيوب: فأين كنت؟ قال: كنت معهم، قال: فكيف انفلتّ؟ قال انفلت، قال أيوب أنت الشـيطان؛ ثم قال أيوب أنا اليوم كيوم ولدتنى أمى، فقام فحلق رأسه و قام يصـلى، فرنّ إبليس رنـة سـمعها أهـل السـماء و أهـل الأـرض، ثم عرج إلى السـماء فقـال: أى رب إنه قـد اعتصم فسلطنى عليه فإنى لا أسـتطيعه إلا بسـلطانك، قال: قـد سـلطتك على جسده و لم أسـلطك على قلبه، فنزل فنفخ تحت قدمه نفخة قرح ما بين قدمه إلى قرنه، فصار قرحة واحدة و ألقى على الرماد حتى بدا حجاب قلبه، فكانت امرأته تسعى عليه، حتى قالت له: ألا ترى يا أيوب قد نزل و اللّه بى من الجهـد و الفاقـة ما إن بعت قرونى برغيف فأطعمتك فادع اللّه أن يشـفيك و يريحك قال: ويحك كنا فى النعم سـبعين عاما فاصبرى حتى نكون فى الضـراء سـبعين عاما، فكان فى البلاء سبع سنين و دعا فجاء جبريل يوما فدعا بيده، ثم قال قم، فقام فنحاه عن مكانه و قال: اركض برجلك هـذا مغتسل بارد و شـراب فركض برجله فنبعت عين، فقال اغتسل، فاغتسل منها، ثم جاء أيضـا فقال: اركض برجلك فنبعت عين أخرى فقال له اشـرب منها، و هو قوله: ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هـذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ و ألبسه اللّه حلـة من الجنـة، فتنحى أيوب فجلس فى ناحيـة و جاءت امرأته فلم تعرفه، فقالت: يا عبـد اللّه أين المبتلى الـذى كان هاهنا؟ لعل الكلاب قـد ذهبت به أو الـذئاب و جعلت تكلمه ساعـة، فقال: ويحك أنا أيوب قـد ردّ اللّه علىّ جسـدى. ورد عليه ماله و ولـده عيانا و مثلهم معهم، و أمطر عليه جرادا من ذهب، فجعل يأخـذ الجراد بيده ثم يجعله فى ثوبه و ينشـر كساءه و يأخذه فيجعل فيه، فأوحى اللّه إليه يا أيوب أما شبعت؟ قال:
يا رب من ذا الذى يشبع من فضلك و رحمتك.
و فى هذا نكارة شديدة، فإن اللّه سـبحانه لا يمكن الشـيطان من نبى من أنبيائه و يسـلط عليه هذا التسـليط العظيم. و أخرج أحمد فى الزهـد، و عبـد بن حميـد، و ابن أبى حاتم، و ابن عساكر عن ابن عباس قال: إن إبليس قعـد على الطريق و أخذ تابوتا يداوى

الناس، فقالت امرأة أيوب: يا عبد اللّه إن هاهنا مبتلى من أمره كذا و كذا فهل لك أن تداويه قال: نعم بشرط إن أنا شفيته أن يقول أنت شفيتنى لا أريد منه أجرا غيره. فأتت أيوب فذكرت له ذلك، فقال: ويحك ذاك الشيطان، للّه على إن شفانى اللّه أن أجلدك مائة جلدة، فلما شفاه اللّه أمره أن يأخذ ضغثا فيضربها به، فأخذ عذقا فيه شمراخ فضربها ضربة واحدة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عنه فى قوله: وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً قال: هو الأسل. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: الضغث القبضة من المرعى الرطب. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الضغث: الحزمة.

و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و الطبرانى، و ابن عساكر من طريق أبى أمامة ابن سهل بن حنيف

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰۵

قال: «حملت وليدة فى بنى ساعدة من زنا، فقيل لها ممن حملك؟ قالت من فلان المقعد، فسئل المقعد فقال صدقت، فرفع ذلك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: خذوا عثكولا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة واحدة». و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و الطبرانى، و ابن عساكر نحوه من طريق أخرى عن أبى أمامة ابن سهل بن حنيف عن سعيد بن سعد بن عبادة. و أخرج الطبرانى عن سهل بن سعد نحوه.

و أخرج ابن عساكر عن ابن مسعود قال: أيوب رأس الصابرين يوم القيامة و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أُولِي الْأَيْدِي قال: القوّة فى العبادة وَ الْأَبْصارِ قال: الفقه فى الدين. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أُولِي الْأَيْدِي قال: النعمة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله:

إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ قال: أخلصوا بذكر دار الآخرة أن يعملوا لها.

[سورة ص (۳۸): الآيات ۵۵ الى ۷۰]

هذا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (۵۵) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (۵۶) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ (۵۷) وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (۵۸) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (۵۹)

قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (۶۰) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (۶۱) وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (۶۲) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (۶۳) إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (۶۴)

قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۶۵) رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (۶۶) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (۶۷) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (۶۸) ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۶۹)

إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۷۰)

قوله: هذا قال الزجاج: هذا خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر هذا فيوقف على هذا. قال ابن الأنبارى: و هذا وقف حسن ثم يبتدئ وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ و يجوز أن يكون هذا مبتدأ و خبره محذوف، أى:

هذا كما ذكر، أو هذا ذكر. ثم ذكر سبحانه ما لأهل الشرّ بعد أن ذكر ما لأهل الخير فقال: وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ أى: الذين طغوا على اللّه و كذبوا رسله لَشَرَّ مَآبٍ لشر منقلب ينقلبون إليه، ثم بين ذلك فقال: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها و انتصاب جهنم على أنها بدل من شرّ مآب، أو منصوبة بأعنى، و يجوز أن يكون عطف بيان على قول البعض كما سلف قريبا، و يجوز أن يكون منصوبا على الاشتغال، أى: يصلون جهنم يصلونها، و معنى يصلونها: يدخلونها، و هو فى محل نصب على الحالية فَبِئْسَ الْمِهادُ أى: بئس ما مهدوا لأنفسهم، و هو الفراش، مأخوذ من مهد الصبى، و يجوز أن يكون المراد بالمهد: الموضع، و المخصوص بالذمّ محذوف،

أی: بئس المهـاد هی کما فی قوله: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ «۱» شبه اللّه سبحانه ما تحتهم من نار جهنم بالمهاد هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ هذا: فی موضع رفع بالابتداء، و خبره:

حمیم و غساق علی التقدیم و التأخیر، أی: هذا حمیم و غساق فلیذوقوه. قال الفراء و الزجاج: تقدیر الآیة:

هذا حمیم و غساق فلیذوقوه، أو یقال لهم فی ذلک الیوم هذه المقالة. و الحمیم: الماء الحارّ الذی قد انتهی حرّه،

---

(۱). الأعراف: ۴۱.

و الغساق: ما سال من جلود أهل النار من القیح و الصدید، من قولهم غسقت عینه إذا انصبّت، و الغسقان الانصباب. قال النحاس: و یجوز أن یکون المعنی الأمر هـذا، و ارتفاع حمیم و غساق علی أنهما خبران لمبتـدأ محذوف، أی: هو حمیم و غساق، و یجوز أن یکون هذا فی موضع نصب بإضمار فعل یفسره ما بعده، أی:

لیـذوقوا هـذا فلیـذوقوه، و یجوز أن یکون حمیم مرتفع علی الابتـداء و خبره مقـدّر قبله، أی: منه حمیم، و منه غساق، و مثله قول الشاعر:

حتی ما إذا أضاء البرق فی غلسو غودر البقل ملویّ و مخضود

أی: منه ملویّ، و منه مخضود، و قیل: الغساق ما قتل ببرده، و منه قیل للّیل: غاسق، لأنه أبرد من النهار، و قیل: هو الزمهریر، و قیل: الغساق المنتن، و قیل: الغساق عین فی جهنم یسیل منه کلّ ذوب حیة و عقرب. و قال قتادة: هو ما یسیل من فروج النساء الزوانی، و من نتن لحوم الکفرة، و جلودهم. و قـال محمّـد بن کعب: هو عصارة أهل النار، و قال السـدی: الغساق الـذی یسـیل من دموع أهل النار یسـقونه مع الحمیم، و کـذا قال ابن زیـد. و قال مجاهـد و مقاتل: هو الثلج البارد الذی قد انتهی برده، و تفسـیر الغساق بالبارد أنسب بما تقتضیه لغة العرب، و منه قول الشاعر:

إذا ما تذکرت الحیاة و طیبهاإلیّ جری دمع من اللیل غاسق

أی: بـارد، و أنسب أیضـا بمقابلـة الحمیم. و قرأ أهل المدینـة، و أهل البصـرة، و بعض الکوفیین بتخفیف السـین من غَسَّاقٌ و قرأ یحیی بن وثاب، و الأعمش، و حمزة بالتشدیـد، و هما لغتان بمعنی واحد کما قال الأخفش. و قیل: معناهما مختلف، فمن خفف فهو اسم مثل عذاب و جواب و صواب، و من شدّد قال:

هو اسم فاعل للمبالغة نحو ضـرّاب و قتال وَ آخَرُ مِنْ شَـكْلِهِ قرأ الجمهور وَ آخَرُ مفرد مذکر، و قرأ أبو عمرو «و أخر» بضم الهمزة علی أنه جمع، و أنکر قراءة الجمهور لقوله أزواج، و أنکر عـاصم الجحـدری قراءة أبی عمرو و قـال: لو کـانت کمـا قرأ لقال من شکلها، و ارتفاع آخر علی أنه مبتدأ و خبره أزواج، و یجوز أن یکون من شکله خبرا مقدّما، و أزواج مبتدأ مؤخرا، و الجملة خبر آخر، و یجوز أن یکون خبرا آخر مقدرا، أی: و آخر لهم، و مِنْ شَـكْلِهِ أَزْواجٌ جملة مسـتقلة؛ و معنی الآیة علی قراءة الجمهور: و عـذاب آخر أو مـذوق آخر، أو نوع آخر من شـکل العـذاب، أو المـذوق، أو النوع الأـوّل، و الشـکل المثل، و علی القراءة الثانیة یکون معنی الآیة: و مذوقات أخر، أو أنواع أخر من شـکل ذلک المذوق أو النوع المتقدّم. و إفراد الضـمیر فی شکله علی تأویل المذکور، أی: من شکل المذکور، و معنی أَزْواجٌ أجناس، و أنواع، و أشباه.

و حاصـل معنی الآیـة: أن لأهـل النـار حمیمـا، و غساقـا، و أنواعـا مـن العـذاب من مثـل الحمیم، و الغسـاق. قـال الواحـدی: قـال المفسـرون: هو الزمهریر، و لاـ یتمّ هـذا الـذی حکـاه عن المفسـرین إلاـ علی تقـدیر أن الزمهریر أنواع مختلفـة و أجناس متفاوتة لیطـابق معنی أزواج، أو علی تقـدیر أن لکـلّ فرد مـن أهـل النـار زمهریرا هـذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ الفـوج: الجماعـة، و الاقتحـام:

الدخول، و هذا حكاية لقول الملائكة الذين هم خزنة

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰۷

النار، و ذلك أن القادة، و الرؤساء إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع؛ قالت الخزنة للقادة: هذا فوج، يعنون: الأتباع، مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ أى داخل معكم إلى النار، و قوله: لا مَرْحَباً بِهِمْ من قول القادة و الرؤساء لما قالت لهم الخزنة ذلك قالوا لا مرحبا بهم، أى: لا اتسعت منازلهم فى النار، و الرحب:

السعة، و المعنى: لا كرامة لهم، و هذا إخبار من اللّه سبحانه بانقطاع المودة بين الكفار، و أن المودّة التى كانت بينهم تصير عداوة. و جملة لا مرحبا بهم: دعائية لا محل لها من الإعراب، أو صفة للفوج، أو حال منه أو بتقدير القول: أى: مقولا فى حقهم لا مرحبا بهم، و قيل: إنها من تمام قول الخزنة. و الأوّل أولى كما يدل عليه جواب الأتباع الآتى، و جملة: إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ تعليل من جهة القائلين لا مرحبا بهم، أى: إنهم صالوا النار كما صليناها و مستحقون لها كما استحقيناها. و جملة (قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم) مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أى: قال الأتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم بل أنتم لا مرحبا بكم، أى: لا كرامة لكم، ثم عللوا ذلك بقولهم: أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا أى: أنتم قدّمتم العذاب أو الصّلى لنا و أوقعتمونا فيه، و دعوتمونا إليه بما كنتم تقولون لنا من أن الحقّ ما أنتم عليه، و أن الأنبياء غير صادقين فيما جاءوا به فَبِئْسَ الْقَرارُ أى: بئس المقرّ جهنم لنا و لكم. ثم حكى عن الأتباع أيضا أنهم أردفوا هذا القول بقول آخر، و هو قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ أى: زده عذابا ذا ضعف، و الضعف بأن يزيد عليه مثله، و معنى من قدّم لنا هذا: من دعانا إليه، و سوّغه لنا. قال الفراء: المعنى من سوّغ لنا هذا و سنه، و قيل معناه:

قدّم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى الكفر فزده عذابا ضعفا فى النار، أى: عذابا بكفره، و عذابا بدعائه إيانا، فصار ذلك ضعفا، و مثله قوله سبحانه: رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ «۱» و قوله: رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ «۲» و قيل: المراد بالضعف هنا الحيات و العقارب وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ قيل: هو من قول الرؤساء، و قيل: من قول الطاغين المذكورين سابقا. قال الكلبى:

ينظرون فى النار فلا يرون من كان يخالفهم من المؤمنين معهم فيها، فعند ذلك قالوا: ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدّهم من الأشرار. و قيل: يعنون فقراء المؤمنين كعمار، و خباب، و صهيب، و بلال، و سالم، و سلمان. و قيل: أرادوا أصحاب محمّد على العموم أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ قال مجاهد: المعنى أتخذناهم سخريا فى الدنيا فأخطأنا، أم زاغت عنهم الأبصار فلم نعلم مكانهم؟ و الإنكار المفهوم من الاستفهام متوجه إلى كلّ واحد من الأمرين. قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا: اتخذوهم سخريا، و زاغت عنهم أبصارهم. قال الفراء: و الاستفهام هنا بمعنى التوبيخ و التعجب. قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الكسائى، و ابن كثير، و الأعمش بحذف همزة اتخذناهم فى الوصل، و هذه القراءة تحتمل أن يكون الكلام خبرا محضا، و تكون الجملة فى محل نصب صفة ثانية لرجالا، و أن يكون المراد الاستفهام، و حذفت أداته لدلالة أم عليها؛ فتكون أم على الوجه الأوّل منقطعة بمعنى بل و الهمزة، أى: بل أزاغت عنهم الأبصار على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار، ثم الإضراب و الانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء و التحقير، و على الثانى أم هى المتصلة.

---

(۱). الأعراف: ۳۸.

(۲). الأحزاب: ۶۸.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰۸

و قرأ الباقون بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل، و لا محل للجملة حينئذ، و فيه التوبيخ لأنفسهم على الأمرين جميعا لأن أم على هـذه القراءة هى للتسوية. و قرأ أبو جعفر، و نافع، و شيبة، و المفضل، و هبيرة، و يحيى بن وثاب، و الأعمش، و حمزة، و الكسائى «سخريا» بضم السين، و قرأ الباقون بكسرها. قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء، و من ضم جعله من التسخير و الإشارة بقوله: إِنَّ ذلِكَ إلى ما تقدّم من حكاية حالهم، و خبر إنّ قوله: لَحَقٌّ أى: لواقع ثابت فى الدار الآخرة لا يتخلف ألبتة، و تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ: خبر مبتدأ محذوف، و الجملة بيان لذلك، و قيل: بيان لحقّ، و قيل: بدل منه، و قيل: بدل من محل ذلك، و يجوز أن يكون خبرا بعد خبر، و هذا على قراءة الجمهور برفع تخاصم. و المعنى:

إن ذلك الذى حكاه اللّه عنهم لحقّ لا بدّ أن يتكلموا به، و هو تخاصم أهل النار فيها، و ما قالته الرؤساء للأتباع، و ما قالته الأتباع لهم. و قرأ ابن أبى عبلة بنصب تَخاصُمُ على أنه بدل من ذلك أو بإضمار أعنى. و قرأ ابن السميقع «تخاصم» بصيغة الفعل الماضى، فتكون جملة مستأنفة. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يقول قولا جامعا بين التخويف و الإرشاد إلى التوحيد فقال: قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ أى: مخوّف لكم من عقاب اللّه و عذابه وَ ما مِنْ إِلهٍ يستحق العبادة إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الذى لا شريك له الْقَهَّارُ لكل شىء سواه رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا من المخلوقات الْعَزِيزُ الذى لا يغالبه مغالب الْغَفَّارُ لمن أطاعه، و قيل معنى الْعَزِيزُ: المنيع الذى لا مثل له، و معنى الْغَفَّارُ الستار لذنوب خلقه. ثم أمره سبحانه أن يبالغ فى إنذارهم، و يبين لهم عظم الأمر، و جلالته فقال: قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أى: ما أنذرتكم به من العقاب، و ما بينته لكم من التوحيد: هو خبر عظيم، و نبأ جليل، من شأنه العناية به، و التعظيم له، و عدم الاستخفاف به، و مثل هذه الآية قوله: عَمَّ يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ «١».

و قال مجاهد، و قتادة، و مقاتل: هو القرآن، فإنه نبأ عظيم لأنه كلام اللّه. قال الزجاج: قل النبأ الذى أنبأتكم به عن اللّه نبأ عظيم: يعنى ما أنبأهم به من قصص الأولين، و ذلك دليل على صدقه، و نبوّته؛ لأنه لم يعلم ذلك إلا بوحى من اللّه، و جملة: أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ توبيخ لهم، و تقريع لكونهم أعرضوا عنه، و لم يتفكروا فيه فيعلموا صدقه و يستدلوا به على ما أنكروه من البعث، و قوله: ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى استئناف مسوق لتقرير أنه نبأ عظيم، و الملأ الأعلى هم الملائكة إِذْ يَخْتَصِمُونَ أى: وقت اختصامهم، فقوله: بِالْمَلَإِ الْأَعْلى متعلق بعلم على تضمينه معنى الإحاطة، و قوله: إِذْ يَخْتَصِمُونَ متعلق بمحذوف، أى: ما كان لى فيما سبق علم بوجه من الوجوه بحال الملأ الأعلى وقت اختصامهم، و الضمير فى يختصمون راجع إلى الملأ الأعلى، و الخصومة الكائنة بينهم هى فى أمر آدم كما يفيده ما سيأتى قريبا، و جملة إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ معترضة بين اختصامهم المجمل و بين تفصيله بقوله: إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ. و المعنى: ما يوحى إلىّ إلا أنما أنا نذير مبين. قال الفراء: المعنى ما يوحى إلىّ إلا أننى نذير مبين أبين لكم ما تأتون من الفرائض و السنن و ما تدعون من الحرام و المعصية. قال:

---

(١). النبأ: ١ و ٢.

كأنك قلت ما يوحى إلىّ إلا الإنذار. قال النحاس: و يجوز أن تكون فى محل نصب بمعنى ما يوحى إلىّ إلا لأنما أنا نذير مبين. قرأ الجمهور بفتح همزة أنما على أنها و ما فى حيزها فى محل رفع لقيامها مقام الفاعل، أى:

ما يوحى إلىّ إلا الإنذار، أو إلا كونى نذيرا مبينا، أو فى محل نصب، أو جرّ بعد إسقاط لام العلة، و القائم مقام الفاعل على هذا الجارّ و المجرور. و قرأ أبو جعفر بكسر الهمزة لأن فى الوحى معنى القول، و هى القائمة مقام الفاعل على سبيل الحكاية، كأنه قيل: ما يوحى إلىّ إلا هذه الجملة المتضمنة لهذا الإخبار، و هو أن أقول لكم: إنما أنا نذير مبين. و قيل: إن الضمير فى يختصمون عائد إلى قريش؛ يعنى قول من قال منهم: الملائكة بنات اللّه، و المعنى: ما كان لى علم بالملائكة إذ تختصم فيهم

قريش، و الأوّل أولى.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ غَسَّاقٌ قال: الزمهرير وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ قال: من نحوه أَزْواجٌ قال: ألوان من العذاب. و أخرج أحمد، و الترمذى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن حبان، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث عن أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لو أنّ دلوا من غسّاق يهرق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا». قال الترمذى بعد إخراجه:

لا نعرفه إلّا من حديث رشدين بن سعد. قلت: و رشدين فيه مقال معروف. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، عن ابن مسعود فى قوله: فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ قال: أفاعى و حيات. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِالْمَلَإِ الْأَعْلى قال: الملائكة حين شووروا فى خلق آدم فاختصموا فيه، و قالوا: لا تجعل فى الأرض خليفة. و أخرج محمّد بن نصر فى كتاب الصلاة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ قال: هى الخصومة فى شأن آدم حيث قالوا: أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها. و أخرج عبد الرزاق، و أحمد، و عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه، و ابن نصر فى كتاب الصلاة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أتانى الليلة ربى فى أحسن صورة، أحسبه قال فى المنام، قال: يا محمّد هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت لا، فوضع يده بين كتفيّ حتى وجدت بردها بين ثديى أو فى نحرى، فعلمت ما فى السموات و الأرض، ثم قال لى: يا محمّد هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت نعم فى الكفارات، و الكفارات: المكث فى المساجد بعد الصلوات، و المشى على الأقدام إلى الجماعات، و إبلاغ الوضوء فى المكاره» الحديث «۱». و أخرج الترمذى و صححه، و محمّد بن نصر، و الطبرانى، و الحاكم، و ابن مردويه من حديث معاذ بن جبل نحوه بأطول منه، و قال «و إسباغ الوضوء فى السّبرات» «۲». و أخرج الطبرانى و ابن مردويه من حديث جابر بن سمرة نحوه بأخصر منه.

و أخرجا أيضا من حديث أبى هريرة نحوه، و فى الباب أحاديث.

---

(۱). للحديث روايات عدة ذكرها السيوطى فى الدر المنثور (۷/ ۲۰۲) و للحافظ ابن رجب الحنبلى رسالة فى شرح هذا الحديث سماها: «اختيار الأولى فى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» فلتراجع فإنها قيمة.

(۲). السبرات: جمع سبرة و هى شدة البرد.

[سورة ص (۳۸): الآيات ۷۱ الى ۸۸]

إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (۷۱) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (۷۲) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۷۳) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ (۷۴) قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (۷۵)

قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (۷۶) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (۷۷) وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (۷۸) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۷۹) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (۸۰)

إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (۸۱) قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (۸۲) إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (۸۳) قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ (۸۴) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (۸۵)

قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (۸۶) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۸۷) وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (۸۸)

لما ذكر سبحانه خصومة الملائكة إجمالا فيما تقدّم ذكرها هنا تفصيلا، فقال: إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إذ هذه هى بدل من إِذْ يَخْتَصِمُونَ لاشتمال ما فى حيز هذه على الخصومة. و قيل: هى منصوبة بإضمار اذكر و الأوّل أولى إذا كانت خصومة الملائكة فى شأن من يستخلف فى الأرض. و أما إذا كانت فى غير ذلك مما تقدّم ذكره فالثانى أولى إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ أى: خالق فيما سيأتى من الزمن بَشَراً: أى جسما من جنس البشر مأخوذ من مباشرته للأرض، أو من كونه بادى البشرة. و قوله:

مِنْ طِينٍ متعلق بمحذوف هو صفة لبشر أو بخالق و معنى: فَإِذا سَوَّيْتُهُ صوّرته على صورة البشر، و صارت أجزاؤه مستوية وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي أى: من الروح الذى أملكه، و لا يملكه غيرى.

و قيل: هو تمثيل، و لا نفخ و لا منفوخ فيه. و المراد: جعله حيا بعد أن كان جمادا لا حياة فيه. و قد مرّ الكلام فى هذا فى سورة الحجر فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ هو أمر من وقع يقع، و انتصاب ساجدين على الحال، و السجود هنا: هو سجود التحية، لا سجود العبادة، و قد مضى تحقيقه فى سورة البقرة فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ فى الكلام حذف تدلّ عليه الفاء و التقدير: فخلقه فسوّاه و نفخ فيه من روحه، فسجد له الملائكة. و قوله:

كُلُّهُمْ يفيد أنهم سجدوا جميعا و لم يبق منهم أحد. و قوله: أَجْمَعُونَ يفيد أنهم اجتمعوا على السجود فى وقت واحد: فالأوّل لقصد الإحاطة، و الثانى: لقصد الاجتماع. قال فى الكشاف: فأفاد معا أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقى منهم ملك إلا سجد، و أنهم سجدوا جميعا فى وقت واحد غير متفرّقين فى أوقات. و قيل: إنه أكد بتأكيدين للمبالغة فى التعميم إِلَّا إِبْلِيسَ الاستثناء متصل على تقدير أنه كان متصفا بصفات الملائكة داخلا فى عدادهم فغلبوا عليه، أو منقطع على ما هو الظاهر من عدم دخوله فيهم أى لكن إبليس اسْتَكْبَرَ أى: أنف من السجود جهلا منه بأنه طاعة للّه، وَ كان استكباره استكبار كفر، فلذلك كانَ مِنَ الْكافِرِينَ أى: صار منهم بمخالفته لأمر اللّه و استكباره عن طاعته، أو كان من الكافرين فى علم اللّه سبحانه، و قد تقدّم الكلام على هذا مستوفى فى سورة البقرة، و الأعراف، و بنى إسرائيل، و الكهف، و طه. ثم إن اللّه سبحانه سأله عن سبب تركه للسجود الذى أمره به ف قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَ أى: ما صرفك و صدك عن السجود لما توليت خلقه من غير واسطة، و أضاف

فتح القدير، ج‏4، ص: 511

خلقه إلى نفسه تكريما له و تشريفا، مع أنه سبحانه خالق كلّ شىء كما أضاف إلى نفسه الروح، و البيت، و الناقة، و المساجد. قال مجاهد: اليد هنا بمعنى التأكيد و الصلة مجازا كقوله: وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ و قيل: أراد باليد القدرة، يقال: ما لى بهذا الأمر يد، و ما لى به يدان، أى قدرة، و منه قول الشاعر:

تحملت من ذلفاء ما ليس لى يدو لا للجبال الراسيات يدان

و قيل: التثنية فى اليد للدلالة على أنها ليست بمعنى القوّة و القدرة، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه، و «ما» فى قوله: لِما خَلَقْتُ هى المصدرية أو الموصولة. و قرأ الجحدرى «لما» بالتشديد مع فتح اللام على أنها ظرف بمعنى: حين، كما قال أبو علىّ الفارسى. و قرئ «بيدى» على الإفراد أَسْتَكْبَرْتَ قرأ الجمهور بهمزة الاستفهام، و هو استفهام توبيخ و تقريع و أَمْ متصلة. و قرأ ابن كثير فى رواية عنه و أهل مكة بألف وصل، و يجوز أن يكون الاستفهام مرادا فيوافق القراءة الأولى كما فى قول الشاعر:

تروح من الحىّ أم تبتكر و قول الآخر:

بسبع رمين الجمر أم بثمانيا و يحتمل أن يكون خبرا محضا من غير إرادة للاستفهام فتكون أَمْ منقطعة، و المعنى: استكبرت عن السجود الذى أمرت به بل كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ أى: المستحقين للترفع عن طاعة أمر اللّه؛ المتعالين عن ذلك، و قيل المعنى:

استكبرت عن السجود الآن، أم لم تزل من القوم الذين يتكبرون عن ذلك، و جملة:
قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، ادّعى اللعين لنفسه أنه خير من آدم، و فى ضمن كلامه هذا أن سجود الفاضل للمفضول لا يحسن، ثم علل ما ادّعاه من كونه خيرا منه بقوله: خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ و فى زعمه أن عنصر النار أشرف من عنصر الطين، و ذهب عنه أن النار إنما هى بمنزلة الخادم لعنصر الطين إن احتيج إليها استدعيت كما يستدعى الخادم و إن استغنى عنها طردت، و أيضا فالطين يستولى على النار فيطفئها، و أيضا فهى لا توجد إلا بما أصله من عنصر الأرض، و على كلّ حال فقد شرّف آدم بشرف و كرّم بكرامة لا يوازيها شىء من شرف العناصر، و ذلك أن اللّه خلقه بيديه، و نفخ فيه من روحه، و الجواهر فى أنفسها متجانسة، و إنما تشرف بعارض من عوارضها، و جملة قالَ فَاخْرُجْ مِنْها مستأنفة كالتى قبلها:
أى: فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة، ثم علل أمره بالخروج بقوله: فَإِنَّكَ رَجِيمٌ أى: مرجوم بالكواكب مطرود من كلّ خير وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ أى: طردى لك عن الرحمة و إبعادى لك منها، و يوم الدين: يوم الجزاء، فأخبر سبحانه و تعالى أن تلك اللعنة مستمرّة له دائمة عليه ما دامت الدنيا، ثم فى الآخرة يلقى من أنواع عذاب اللّه و عقوبته و سخطه ما هو به حقيق، و ليس المراد أن اللعنة تزول عنه فى الآخرة، بل هو ملعون أبدا، و لكن لما كان له فى الآخرة ما ينسى عنده اللعنة و يذهل عند الوقوع فيه

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۱۲

منها صارت كأنها لم تكن بجنب ما يكون فيه، و جملة: قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ مستأنفة كما تقدّم فيما قبلها، أى: أمهلنى و لا تعاجلنى إلى غاية هى يوم يبعثون، يعنى: آدم و ذريته قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ أى: الممهلين إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ الذى قدّره اللّه لفناء الخلائق، و هو عند النفخة الآخرة، و قيل: هو النفخة الأولى. قيل: إنما طلب إبليس الانتظار إلى يوم البعث ليتخلص من الموت، لأنه إذا أنظر إلى يوم البعث لم يمت قبل البعث، و عند مجيء البعث لا يموت، فحينئذ يتخلص من الموت. فأجيب بما يبطل مراده، و ينقض عليه مقصده، و هو الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم و هو الذى يعلمه اللّه و لا يعلمه غيره، فلما سمع اللعين إنظار اللّه له إلى ذلك الوقت قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ فأقسم بعزّة اللّه أنه يضلّ بنى آدم بتزيين الشهوات لهم، و إدخال الشبه عليهم حتى يصيروا غاوين جميعا. ثم لما علم أن كيده لا ينجع إلا فى أتباعه، و أحزابه من أهل الكفر و المعاصى، استثنى من لا يقدر على إضلاله، و لا يجد السبيل إلى إغوائه فقال: إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ أى: الذين أخلصتهم لطاعتك و عصمتهم من الشيطان الرجيم و قد تقدّم تفسير هذه الآيات فى سورة الحجر و غيرها. و قد أقسم هاهنا بعزّة اللّه، و أقسم فى موضع آخر بقوله: فَبِما أَغْوَيْتَنِي و لا تنافى بين القسمين فإن إغواءه إياه من آثار عزّته سبحانه و جملة: قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ مستأنفة كالجمل التى قبلها. قرأ الجمهور بنصب الحق فى الموضعين على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم فانتصب، أو هما منصوبان على الإغراء: أى الزموا الحق، أو مصدران مؤكدان لمضمون قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ و قرأ ابن عباس، و مجاهد، و الأعمش، و عاصم، و حمزة برفع الأوّل، و نصب الثانى، فرفع الأوّل على أنه مبتدأ، و خبره مقدّر، أى: فالحق منى، أو الحق أنا، أو خبره: لأملأن، أو هو خبر مبتدأ محذوف، و أما نصب الثانى: فبالفعل المذكور بعده، أى: و أنا أقول الحق، و أجاز الفراء، و أبو عبيد أن يكون منصوبا بمعنى حقا لأملأن جهنم. و اعترض عليهما بأن ما بعد اللام مقطوع عما قبلها.
و روى عن سيبويه، و الفراء أيضا أن المعنى فالحق أن إملاء جهنم. و روى عن ابن عباس، و مجاهد أنهما قرءا برفعهما، فرفع الأوّل على ما تقدّم، و رفع الثانى بالابتداء، و خبره الجملة المذكورة بعده، و العائد محذوف.
و قرأ ابن السميقع و طلحة بن مصرف بخفضهما على تقدير حرف القسم. قال الفراء: كما يقول اللّه عزّ و جلّ لأفعلنّ كذا، و غلطه أبو العباس ثعلب و قال: لا يجوز الخفض بحرف مضمر، و جملة لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ جواب القسم على قراءة الجمهور، و جملة: وَ

الْحَقَّ أَقُولُ معترضة بين القسم و جوابه، و معنى مِنْكَ أی: من جنسک من الشياطين وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أی: من ذرّية آدم فأطاعوک إذ دعوتهم إلى الضلال و الغواية و أَجْمَعِينَ تأكيد للمعطوف، و المعطوف عليه، أی: لأملأنها من الشياطين و أتباعهم أجمعين. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يخبرهم بأنه إنما يريد بالدعوة إلى اللّه امتثال أمره لا عرض الدنيا الزائل، فقال: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ و الضمير فی عليه راجع إلى تبليغ الوحی، و لم يتقدّم له ذكر، و لكنه مفهوم من السياق. و قل: هو عائد إلى ما تقدّم من قوله: أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا و قيل: الضمير راجع إلى القرآن، و قيل: إلى الدّعاء إلى اللّه على العموم، فيشمل القرآن و غيره من الوحی

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۱۳

و من قول الرسول صلّى اللّه عليه و سلم. و المعنى ما أطلب منكم من جعل تعطونيه عليه وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ حتى أقول ما لا أعلم إذ أدعوكم إلى غير ما أمرنی اللّه بالدعوة إليه، و التكلف: التصنع إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ أی: ما هذا القرآن، أو الوحی، أو ما أدعوكم إليه إلا ذكر من اللّه عزّ و جلّ للجنّ و الإنس. قال الأعمش:

ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين وَ لَتَعْلَمُنَّ أيها الكفار نَبَأَهُ أی: ما أنبأ عنه، و أخبر به من الدّعاء إلى اللّه و توحيده، و الترغيب إلى الجنة، و التحذير من النار بَعْدَ حِينٍ قال قتادة و الزجاج و الفراء: بعد الموت. و قال عكرمة و ابن زيد: يوم القيامة. و قال الكلبی: من بقی علم ذلک لما ظهر أمره و علا، و من مات علمه بعد الموت. قال السدّی: و ذلک يوم بدر.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس إِذْ يَخْتَصِمُونَ أن الخصومة هی إِذْ قالَ رَبُّکَ إلخ.

و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ فی العظمة، و البيهقی عن ابن عمر قال: خلق اللّه أربعا بيده: العرش، و جنة عدن، و القلم، و آدم. و أخرج ابن أبی الدنيا فی صفة الجنة، و أبو الشيخ فی العظمة، و البيهقی فی الأسماء و الصفات عن عبد اللّه بن الحارث قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «خلق اللّه ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، و كتب التوراة بيده، و غرس الفردوس بيده». و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد فی قوله: فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ قال: أنا الحق أقول الحق. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ قال: قل يا محمّد ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ما أدعوكم إليه مِنْ أَجْرٍ عرض دنيا. و فی البخاری، و مسلم، و غيرهما عن مسروق قال: بينما رجل يحدّث فی المسجد، فقال فيما يقول: يَوْمَ تَأْتِی السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ قال: دخان يكون يوم القيامة يأخذ بأسماع المنافقين و أبصارهم، و يأخذ المؤمنين كهيئة الزكام، قال: قمنا حتى دخلنا على عبد اللّه و هو فی بيته و كان متكئا فاستوى قاعدا فقال: يا أيها الناس من علم منكم علما فليقل به، و من لم يعلم فليقل اللّه أعلم. فإن من العلم أن يقول العالم لما لا يعلم اللّه أعلم، قال اللّه تعالى لرسوله صلّى اللّه عليه و سلم: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ و أخرج البخاری عن عمر قال: نهينا عن التكلف. و أخرج الطبرانی و الحاكم و البيهقی عن سلمان قال: نهانا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن نتكلف للضيف.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۱۴

سورة الزّمر

اشارة

هی اثنتان و سبعون آية، و قيل خمس و سبعون، و هی مكية فی قول الحسن، و عكرمة، و جابر بن زيد.

و أخرج ابن الضريس، و ابن مردويه، و البيهقی فی الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الزمر بمكة.

و أخرج النحاس فی ناسخه عنه قال: نزلت بمكة سورة الزمر سوى ثلاث آيات نزلن بالمدينة فی وحشیّ قاتل حمزة يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ الثلاث الآيات. و قال آخرون: إلا سبع آيات من قوله:

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ إلى آخر السبع. و أخرج النسائی عن عائشة: قالت: «كان رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم يصوم حتّی نقول ما يريد أن يفطر، و يفطر حتّی نقول ما يريد أن يصوم، و كان يقرأ فی كلّ ليلة بنی إسرائيل و الزمر» و أخرجه الترمذی عنها بلفظ: كان رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم لا ينام حتّی يقرأ الزّمر و بنی إسرائيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزمر (۳۹): الآيات ۱ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (۲) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (۳) لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۴)

خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (۵) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۶)

قوله: تَنْزِيلُ الْكِتابِ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف هو اسم إشارة، أی: هذا تنزيل. و قال أبو حيان: إن المبتدأ المقدّر لفظ هو؛ ليعود على قوله: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ كأنه قيل: و هذا الذكر ما هو؟ فقيل: هو تنزيل الكتاب، و قيل: ارتفاعه على أنه مبتدأ، و خبره: الجارّ و المجرور بعده، أی:

تنزيل كائن من اللّه، و إلى هذا ذهب الزجاج و الفراء. قال الفراء: و يجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هذا تنزيل، و أجاز الفراء و الكسائی النصب على أنه مفعول به لفعل مقدّر، أی: اتبعوا أو اقرءوا تنزيل الكتاب. و قال الفراء: يجوز نصبه على الإغراء، أی: الزموا، و الكتاب: هو القرآن، و قوله: مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ على الوجه الأوّل صلة للتنزيل، أو: خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: متعلق بمحذوف على أنه

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۱۵

حال عمل فيه اسم الإشارة المقدّر إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِ الباء سببية متعلقة بالإنزال، أی:

أنزلناه بسبب الحقّ، و يجوز أن تتعلق بمحذوف هو حال من الفاعل: أی متلبّسين بالحقّ، أو من المفعول، أی: متلبسا بالحق، و المراد كلّ ما فيه من إثبات التوحيد، و النبوّة، و المعاد، و أنواع التكاليف. قال مقاتل:

يقول لم ننزله باطلا- لغير شیء فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و انتصاب مخلصا على الحال من فاعل اعبد، و الإخلاص: أن يقصد العبد بعمله وجه اللّه سبحانه، و الدين: العبادة و الطاعة، و رأسها توحيد اللّه، و أنه لا شريك له. قرأ الجمهور «الدين» بالنصب على أنه مفعول مخلصا.

و قرأ ابن أبی عبلة برفعه على أن مخلصا مسند إلى الدين على طريقة المجاز. قيل: و كان عليه أن يقرأ مخلصا بفتح اللام. و فی الآية دليل على وجوب النية، و إخلاصها عن الشوائب، لأن الإخلاص من الأمور القلبية التی لا تكون إلا بأعمال القلب، و قد جاءت السنة الصحيحة أن ملاک الأمر فی الأقوال و الأفعال النية، كما فی حديث «إنّما الأعمال بالنيّات»، و حديث «و لا قول و لا

عمل إلا بنيّة»، و جملة: أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من الأمر بالإخلاص، أى: إن الدين الخالص من شوائب الشرك، و غيره:

هو للّه، و ما سواه من الأديان فليس بدين اللّه الخالص الذى أمر به. قال قتادة: الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا اللّه وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لما أمر سبحانه بعبادته على وجه الإخلاص و أن الدين الخالص له لا لغيره بين بطلان الشرك الذى هو مخالف للإخلاص، و الموصول: عبارة عن المشركين، و محله الرفع على الابتداء، و خبره قوله: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ و جملة: ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى فى محل نصب على الحال بتقدير القول، و الاستثناء مفرّغ من أعمّ العلل، و المعنى: و الذين لم يخلصوا العبادة للّه، بل شابوها بعبادة غيره قائلين ما نعبدهم لشىء من الأشياء إلا ليقرّبونا إلى اللّه تقريبا، و الضمير فى نعبدهم راجع إلى الأشياء التى كانوا يعبدونها من الملائكة و عيسى و الأصنام، و هم المرادون بالأولياء و المراد بقولهم:

إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى الشفاعة، كما حكاه الواحدى عن المفسرين. قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم من ربكم و خالقكم و من خلق السموات و الأرض و أنزل من السماء ماء؟ قالوا: اللّه، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم للأصنام؟ قالوا: ليقرّبونا إلى اللّه زلفى، و يشفعوا لنا عنده. قال الكلبى: جواب هذا الكلام قوله فى سورة الأحقاف: فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً، و الزلفى: اسم أقيم مقام المصدر، كأنه قال: إلا ليقربونا إلى اللّه تقريبا. و فى قراءة ابن مسعود، و ابن عباس، و مجاهد «قالوا ما نعبدهم» و معنى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أى: بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازى كلا بما يستحقه، و قيل: بين المخلصين للدين و بين الذين لم يخلصوا، و حذف الأول لدلالة الحال عليه، و معنى: فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فى الذى اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد و الشرك، فإن كلّ طائفة تدّعى أن الحقّ معها إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ أى: يرشد لدينه، و لا يوفق للاهتداء إلى الحقّ من هو كاذب فى زعمه أن الآلهة تقربه إلى اللّه، و كفر باتخاذها آلهة، و جعلها شركاء للّه، و الكفّار صيغة مبالغة تدلّ على أن كفر هؤلاء قد بلغ إلى الغاية. و قرأ الحسن، و الأعرج على صيغة المبالغة ككفار، و رويت هذه القراءة عن أنس.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۱۶

لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى هذا مقرّر لما سبق من إبطال قول المشركين بأن الملائكة بنات اللّه لتضمنه استحالة الولد فى حقه سبحانه على الإطلاق، فلو أراد أن يتخذ ولدا لامتنع اتخاذ الولد حقيقة، و لم يتأتّ ذلك إلا بأن يصطفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ أى: يختار من جملة خلقه ما شاء أن يصطفيه، إذ لا موجود سواه إلا و هو مخلوق له، و لا يصح أن يكون المخلوق ولدا للخالق لعدم المجانسة بينهما، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبدا كما يفيده التعبير بالاصطفاء مكان الاتخاذ؛ فمعنى الآية: لو أراد أن يتخذ ولدا لوقع منه شىء ليس هو من اتخاذ الولد، بل إنما هو من الاصطفاء لبعض مخلوقاته، و لهذا نزّه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق فقال: سُبْحانَهُ أى: تنزيها له عن ذلك، و جملة: هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ مبينة لتنزّهه بحسب الصفات بعد تنزّهه بحسب الذات، أى: هو المستجمع لصفات الكمال المتوحد فى ذاته فلا مماثل له القهار لكل مخلوقاته، و من كان متصفا بهذه الصفات استحال وجود الولد فى حقه، لأن الولد مماثل لوالده و لا مماثل له سبحانه، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا. ثم لما ذكر سبحانه كونه منزّها عن الولد بكونه إلها واحدا قهارا ذكر ما يدل على ذلك من صفاته فقال: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ أى: لم يخلقهما باطلا لغير شىء، و من كان هذا الخلق العظيم خلقه استحال أن يكون له شريك، أو صاحبة، أو ولد. ثم بين كيفية تصرفه فى السموات و الأرض فقال: يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ التكوير فى اللغة: طرح الشىء بعضه على بعض. يقال كوّر المتاع: إذا ألقى بعضه على بعض، و منه كوّر العمامة؛ فمعنى تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوؤه، و معنى تكوير النهار على الليل: تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته، و هو معنى قوله تعالى: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً هكذا قال قتادة و غيره. و قال الضحاك: أى يلقى هذا على هذا، و هذا على هذا، و هو مقارب

للقول الأوّل.

و قيل معنى الآية: أن ما نقص من الليل دخل فى النهار، و ما نقص من النهار دخل فى الليل، و هو معنى قوله:
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ* و قيل المعنى: إن هذا يكرّ على هذا و هذا يكر على هذا كرورا متتابعا. قال الراغب: تكوير الشيء إدارته و ضم بعضه إلى بعض ككور العمامة اه. و الإشارة بهذا التكوير المذكور فى الآية إلى جريان الشمس فى مطالعها، و انتقاص الليل و النهار و ازديادهما. قال الرازى: إن النور و الظلمة عسكران عظيمان، و فى كلّ يوم يغلب هذا ذاك، و ذاك هذا؟ ثم ذكر تسخيره لسلطان النهار، و سلطان الليل، و هما الشمس و القمر فقال: وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ أى: جعلهما منقادين لأمره بالطلوع و الغروب لمنافع العباد، ثم بين كيفية هذا التسخير فقال: كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أى: يجرى فى فلكه إلى أن تنصرم الدنيا، و ذلك يوم القيامة، و قد تقدّم الكلام على الأجل المسمى لجريهما مستوفى فى سورة «يس». أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ألا: حرف تنبيه، و المعنى: تنبهوا أيها العباد، فاللّه هو الغالب الساتر لذنوب خلقه بالمغفرة. ثم بين سبحانه نوعا آخر من قدرته و بديع صنعه، فقال: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ و هى: نفس آدم ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها جاء بثمّ للدلالة على ترتب خلق حواء على خلق آدم، و تراخيه عنه لأنها خلقت منه، و العطف: إما على مقدّر هو صفة لنفس. قال الفراء و الزجاج التقدير خلقكم

فتح القدير، ج‏4، ص: 517

من نفس خلقها واحدة ثم جعل منها زوجها. و يجوز أن يكون العطف على معنى واحدة، أى: من نفس انفردت ثم جعل إلخ، و التعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثمّ للدلالة على أن خلق حوّاء من ضلع آدم أدخل فى كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة، لأن خلق آدم هو على عادة اللّه المستمرة فى خلقه، و خلقها على الصفة المذكورة لم تجر به عادة لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها، و قد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى فى سورة الأعراف. ثم بين سبحانه نوعا آخر من قدرته الباهرة فقال: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ و هو معطوف على خلقكم، و عبر بالإنزال لما يروى أنه خلقها فى الجنة ثم أنزلها، فيكون الإنزال حقيقة، و يحتمل أن يكون مجازا، لأنها لم تعش إلّا بالنبات، و النبات إنّما يعيش بالماء و الماء منزل من السماء، كانت الأنعام كأنها منزلة، لأن سبب سببها منزل كما أطلق على السبب فى قوله:

إذا نزل السماء بأرض قومرعيناه و إن كانوا غضابا

و قيل: إن أنزل بمعنى أنشأ و جعل، أو بمعنى: أعطى، و قيل: جعل الخلق إنزالا، لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء، و الثمانية الأزواج: هى ما فى قوله من الضأن اثنين، و من المعز اثنين، و من الإبل اثنين، و من البقر اثنين، و يعنى بالاثنين فى الأربعة المواضع: الذكر و الأنثى، و قد تقدّم تفسير الآية فى سورة الأنعام.

ثم بين سبحانه نوعا آخر من قدرته البديعة فقال: يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ و الجملة استئنافية لبيان ما تضمنته من الأطوار المختلفة فى خلقهم، و خلقا: مصدر مؤكد للفعل المذكور، و مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ صفة له، أى: خلقا كائنا من بعد خلق. قال قتادة و السدّى: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظما، ثم لحما. و قال ابن زيد: خلقكم خلقا فى بطون أمهاتكم من بعد خلقكم فى ظهر آدم، و قوله:

فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ متعلق بقوله: يَخْلُقُكُمْ و هذه الظلمات الثلاث هى: ظلمة البطن، و ظلمة الرّحم، و ظلمة المشيمة قاله مجاهد، و عكرمة، و قتادة، و الضحاك. و قال سعيد بن جبير: ظلمة المشيمة، و ظلمة الرّحم، و ظلمة الليل. و قال أبو عبيدة: ظلمة صلب الرجل، و ظلمة بطن المرأة، و ظلمة الرّحم، و الإشارة بقوله: ذلِكُمُ اللَّهُ إليه سبحانه باعتبار أفعاله السابقة، و الاسم الشريف: خبره رَبُّكُمْ خبر آخر لَهُ الْمُلْكُ الحقيقى فى الدنيا و الآخرة لا شركة لغيره فيه، و هو خبر ثالث، و قوله: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خبر رابع فَأَنَّى تُصْرَفُونَ أى: فكيف تنصرفون عن عبادته و تنقلبون عنها إلى عبادة غيره.

قرأ حمزة: «إمهاتكم» بكسر الهمزة و الميم. و قرأ الكسائى بكسر الهمزة و فتح الميم. و قرأ الباقون بضم الهمزة و فتح الميم.
و قد أخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشى أن رجلا قال: يا رسول اللّه إنّا نعطى أموالنا التماس الذكر فهل لنا فى ذلک من أجر؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا» قال: يا رسول اللّه إنما نعطى التماس الأجر و الذكر فهل لنا أجر؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ اللّه لا يقبل إلا ما أخلص له، ثم تلا هذه الآية أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُكَوِّرُ اللَّيْلَ

فتح القدير، ج ۴، ص: ۵۱۸

قال: يحمل الليل. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ قال: علقة، ثم مضغة، ثم عظاما فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ البطن، و الرحم، و المشيمة.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٧ الى ١٢]

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٧) وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (٩) قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (١١)
وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢)

لما ذكر سبحانه النعم التى أنعم بها على عباده، و بين لهم من بديع صنعه، و عجيب فعله ما يوجب على كل عاقل أن يؤمن به عقبه بقوله: إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ أى: غير محتاج إليكم و لا إلى إيمانكم و لا إلى عبادتكم له فإنه الغنىّ المطلق، وَ مع كون كفر الكافر لا يضرّه كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن، فهو أيضا لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ أى: لا يرضى لأحد من عباده الكفر و لا يحبه و لا يأمر به، و مثل هذه الآية قوله: إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ «١» و مثلها ما ثبت فى صحيح مسلم من قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «يا عبادى لو أنّ أوّلكم و آخركم و إنسكم و جنّكم كانوا على قلب أفجر رجل منكم ما نقص ذلک من ملكى شيئا».
و قد اختلف المفسرون فى هذه الآية هل هى على عمومها، و إن الكفر غير مرضىّ للّه سبحانه على كلّ حال كما هو الظاهر، أو هى خاصة؟ و المعنى: لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، و قد ذهب إلى التخصيص حبر الأمة ابن عباس رضى اللّه عنه كما سيأتى بيانه آخر البحث، و تابعه على ذلک عكرمة و السدّى و غيرهما.
ثم اختلفوا فى الآية اختلافا آخر. فقال قوم: إنه يريد كفر الكافر و لا يرضاه، و قال آخرون: إنه لا يريده و لا يرضاه، و الكلام فى تحقيق مثل هذا يطول جدا. و قد استدلّ القائلون بتخصيص هذه الآية، و المثبتون للإرادة مع عدم الرضا بما ثبت فى آيات كثيرة من الكتاب العزيز أنه سبحانه يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ* «٢» وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ* «٣» وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ* «۴» و نحو هذا مما يؤدى معناه كثير فى الكتاب العزيز. ثم لما ذكر سبحانه أنه لا يرضى لعباده الكفر بين أنه يرضى لهم الشكر، فقال: وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ أى:
يرضى لكم الشكر المدلول عليه بقوله و إن تشكروا و يثيبكم عليه، و إنما رضى لهم سبحانه الشكر لأنه سبب سعادتهم فى الدنيا

و الآخرة كما قال سبحانه لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ «۵» قرأ أبو جعفر، و أبو عمرو، و شيبة،

---

(۱). إبراهيم: ۸.

(۲). الرعد: ۲۷.

(۳). يونس: ۲۵.

(۴). الإنسان: ۳۰.

(۵). إبراهيم: ۷.

و هبيرة عن عاصم بإسكان الهاء من يرضه، و أشبع الضمة على الهاء ابن ذكوان، و ابن كثير، و الكسائى، و ابن محيصن، و ورش عن نافع، و اختلس الباقون وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏ أى: لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى، و قد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ يوم القيامة فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من خير و شر، و فيه تهديد شديد إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أى: بما تضمره القلوب و تستره، فكيف بما تظهره و تبديه وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ أىّ ضر كان من مرض أو فقر أو خوف دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ أى: راجعا إليه مستغيثا به فى دفع ما نزل به تاركا لما كان يدعوه، و يستغيث به من ميت، أو حيّ، أو صنم، أو غير ذلك ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ أى: أعطاه و ملكه، يقال خوّله الشى‏ء: أى ملكه إياه، و كان أبو عمرو بن العلاء ينشد:

هنالك إن يستخولوا المال يخولواو إن يسألوا يعطوا و إن ييسروا يغلوا «۱»

و منه قول أبى النجم:

أعطى و لم يبخل فلم يبخّل‏كوم الذّرى من خول المخوّل

نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ أى: نسى الضرّ الذى كان يدعو اللّه إلى كشفه عنه من قبل أن يخوله ما خوله، و قيل: نسى الدعاء الذى كان يتضرع به و تركه، أو نسى ربه الذى كان يدعوه و يتضرّع إليه، ثم جاوز ذلك إلى الشرك باللّه، و هو معنى قوله: وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً أى: شركاء من الأصنام أو غيرها يستغيث بها و يعبدها لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ أى: ليضل الناس عن طريق اللّه التى هى الإسلام و التوحيد.

و قال السدّى: يعنى أندادا من الرجال يعتمد عليهم فى جميع أموره. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يهدّد من كان متصفا بتلك الصفة فقال: قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا أى: تمتعا قليلا، أو زمانا قليلا، فمتاع الدنيا قليل، ثم علل ذلك بقوله: إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ أى: مصيرك إليها عن قريب، و فيه من التهديد أمر عظيم. قال الزجاج: لفظه لفظ الأمر، و معناه التهديد و الوعيد، قرأ الجمهور لِيُضِلَّ بضم الياء، و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو بفتحها. ثم لما ذكر سبحانه صفات المشركين و تمسكهم بغير اللّه عند اندفاع المكروهات عنهم ذكر صفات المؤمنين فقال: أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ و هذا إلى آخره من تمام الكلام المأمور به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و المعنى ذلك الكافر أحسن حالا و مآلا، أمن هو قائم بطاعات اللّه فى السرّاء و الضرّاء فى ساعات الليل، مستمرّ على ذلك، غير مقتصر على دعاء اللّه سبحانه عند نزول الضرر به. قرأ الحسن، و أبو عمرو، و ابن عامر، و عاصم، و الكسائى أَمَّنْ بالتشديد، و قرأ نافع، و ابن كثير، و حمزة، و يحيى ابن وثاب، و الأعمش بالتخفيف، فعلى القراءة الأولى: أم داخلة على من الموصولة و أدغمت الميم فى الميم، و أم هى المتصلة و معادلها محذوف تقديره: الكافر خير أم الذى هو قانت؟ و قيل: هى المنقطعة المقدّرة ببل و الهمزة، أى: بل أمن هو قانت كالكافر؟ و أما على القراءة الثانية: فقيل: الهمزة للاستفهام دخلت على من

(۱). البيت لزهير، و معنى «إن ييسروا يغلوا»: إذا قامروا بالميسر، يأخذون سمان الإبل، فيقامرون عليها.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۲۰

و الاستفهام: للتقرير و مقابله محذوف، أى: أمن هو قانت كمن كفر؟ و قال الفراء: إن الهمزة فى هذه القراءة للنداء، و من: منادى، و هى عبارة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم المأمور بقوله: قُلْ تَمَتَّعْ و التقدير: يا من هو قانت؛ قل: كيت و كيت، و قيل التقدير: يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة. و من القائلين بأن الهمزة للنداء الفرّاء، و ضعف ذلك أبو حيان، و قال: هو أجنبىّ عما قبله، و عما بعده، و قد سبقه إلى هذا التضعيف أبو علىّ الفارسى، و اعترض على هذه القراءة من أصلها أبو حاتم، و الأخفش، و لا وجه لذلك فإنا إذا ثبتت الرواية بطلت الدّراية.

و قد اختلف فى تفسير القانت هنا فقيل: المطيع، و قيل: الخاشع فى صلاته، و قيل: القائم فى صلاته، و قيل: الدّاعى لربه. قال النحاس: أصل القنوت: الطاعة، فكل ما قيل فيه فهو داخل فى الطاعة، و المراد بآناء الليل: ساعاته، و قيل: جوفه، و قيل: ما بين المغرب و العشاء، و انتصاب ساجِداً وَ قائِماً على الحال، أى: جامعا بين السجود و القيام، و قدّم السجود على القيام لكونه أدخل فى العبادة، و محل يَحْذَرُ الْآخِرَةَ النصب على الحال أيضا، أى: يحذر عذاب الآخرة قاله سعيد بن جبير و مقاتل وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ فيجمع بين الرجاء و الخوف، و ما اجتمعا فى قلب رجل إلا فاز. قيل: و فى الكلام حذف، و التقدير:

كمن لا يفعل شيئا من ذلك كما يدل عليه السياق. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يقول لهم قولا آخر يتبين به الحقّ من الباطل فقال: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أى: الذين يعلمون أن ما وعد اللّه به من البعث و الثواب و العقاب حقّ، و الذين لا يعلمون ذلك، أو الذين يعلمون ما أنزل اللّه على رسله، و الذين لا يعلمون ذلك، أو المراد: العلماء و الجهال، و معلوم عند كلّ من له عقل أنه لا استواء بين العلم و الجهل، و لا بين العالم و الجاهل. قال الزجاج: أى كما لا يستوى الذين يعلمون و الذين لا يعلمون، كذلك لا يستوى المطيع و العاصى. و قيل المراد بالذين يعلمون: هم العاملون بعلمهم فإنهم المنتفعون به، لأنّ من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ أى: إنما يتعظ و يتدبر و يتفكر أصحاب العقول، و هم المؤمنون لا الكفار، فإنهم و إن زعموا أن لهم عقولا فهى كالعدم و هذه الجملة ليست من جملة الكلام المأمور به بل من جهة اللّه سبحانه قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لما نفى سبحانه المساواة بين من يعلم و من لا يعلم، و بين أنه إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه، و الإيمان به. و المعنى: يا أيها الذين صدّقوا بتوحيد اللّه اتقوا ربكم بطاعته، و اجتناب معاصيه، و إخلاص الإيمان له، و نفى الشركاء عنه، و المراد قل لهم قولى هذا بعينه. ثم لما أمر اللّه سبحانه المؤمنين بالتقوى بين لهم ما فى هذه التقوى من الفوائد فقال لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ أى: للذين عملوا الأعمال الحسنة فى هذه الدنيا على وجه الإخلاص حسنة عظيمة و هى الجنة، و قوله: فِي هذِهِ الدُّنْيا متعلق بأحسنوا، و قيل: هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها، فيكون المعنى: للذين أحسنوا فى العمل حسنة فى الدنيا بالصحة و العافية و الظفر و الغنيمة، و الأوّل أولى. ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات و الإحسان فى وطنه أرشد اللّه سبحانه من كان كذلك إلى الهجرة فقال: وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۲۱

أى فليهاجر إلى حيث يمكنه طاعة اللّه. و العمل بما أمر به. و الترك لما نهى عنه، و مثل ذلك قوله سبحانه:

أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها «۱» و قد مضى الكلام فى الهجرة مستوفى فى سورة النساء، و قيل المراد بأرض هنا: أرض الجنة، رغبهم فى سعتها وسعة نعيمها كما فى قوله: جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ «۲» و الأوّل أولى. ثم لما بين سبحانه

ما للمحسنين إذا أحسنوا، و كان لا بدّ فى ذلك من الصبر على فعل الطاعة و على كفّ النفس عن الشهوات، أشار إلى فضيلة الصبر و عظيم مقداره فقال: إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ أى: يوفيهم اللّه أجرهم فى مقابلة صبرهم بغير حساب، أى: بما لا يقدر على حصره حاصر، و لا يستطيع حسبانه حاسب. قال عطاء: بما لا يهتدى إليه عقل و لا وصف. و قال مقاتل: أجرهم الجنة، و أرزاقهم فيها بغير حساب. و الحاصل أن الآية تدلّ على أن ثواب الصابرين و أجرهم لا نهاية له، لأن كلّ شيء يدخل تحت الحساب فهو متناه، و ما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه، و هذه فضيلة عظيمة و مثوبة جليلة تقتضى أن على كلّ راغب فى ثواب اللّه، و طامع فيما عنده من الخير أن يتوفر على الصبر و يزم نفسه بزمامه و يقيدها بقيده، فإن الجزع لا يردّ قضاء قد نزل، و لا يجلب خيرا قد سلب، و لا يدفع مكروها قد وقع، و إذا تصوّر العاقل هذا حقّ تصوره و تعقله حقّ تعقله علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم، و ظفر بهذا الجزاء الخطير، و غير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى، و مع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره و لا يبلغ مداه، فضمّ إلى مصيبته مصيبة أخرى و لم يظفر بغير الجزع، و ما أحسن قول من قال:

أرى الصبر محمودا و عنه مذاهبفكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب

هناك يحقّ الصبر و الصبر واجبو ما كان منه للضرورة أوجب

ثم أمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يخبرهم بما أمر به من التوحيد و الإخلاص فقال: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أى: أعبده عبادة خالصة من الشرك و الرّياء و غير ذلك. قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلم: ما يحملك على الذى أتيتنا به، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك و سادات قومك يعبدون اللات و العزّى فتأخذ بها؟ فأنزل اللّه الآية، و قد تقدّم بيان معنى الآية فى أوّل هذه السورة وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ أى: من هذه الأمة، و كذلك كان صلّى اللّه عليه و سلم فإنه أوّل من خالف دين آبائه و دعا إلى التوحيد، و اللام للتعليل: أى و أمرت بما أمرت به لأجل أن أكون، و قيل: إنها مزيدة للتأكيد، و الأوّل أولى.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله:

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ يعنى: الكفار الذين لم يرد اللّه أن يطهر قلوبهم فيقولون لا إله إلا اللّه، ثم قال: وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ و هم عباده المخلصون الذين قال: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ* فألزمهم شهادة أن لا إله إلا اللّه و حببها إليهم. و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ قال: لا يرضى لعباده المسلمين الكفر. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: و اللّه ما رضى

---

(۱). النساء: ۹۷.

(۲). آل عمران: ۱۳۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۲۲

اللّه لعبد ضلالة، و لا أمره بها، و لا دعا إليها، و لكن رضى لكم طاعته، و أمركم بها، و نهاكم عن معصيته.

و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن عساكر عن ابن عمر أنه تلا هذه الآية أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ قال: ذاك عثمان بن عفان، و فى لفظ:

نزلت فى عثمان بن عفان. و أخرج ابن سعد فى طبقاته، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله:

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ الآية قال: نزلت فى عمار بن ياسر. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

يَحْذَرُ الْآخِرَةَ يقول: يحذر عذاب الآخرة. و أخرج الترمذى، و النسائى، و ابن ماجة عن أنس قال: دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على رجل و هو فى الموت، فقال: «كيف تجدك؟» قال: أرجو اللّه و أخاف ذنوبى، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه اللّه الذى يرجو و أمّنه الذى يخاف» أخرجوه من طريق سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس. قال الترمذى: غريب، و قد رواه بعضهم عن ثابت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم مرسلا.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ١٣ الى ٢٠]

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (١٧)

الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (١٨) أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ (٢٠)

قوله: قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي أى: بترك إخلاص العبادة له، و توحيده، و الدعاء إلى ترك الشرك و تضليل أهله عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ و هو يوم القيامة. قال أكثر المفسرين: المعنى إنى أخاف إن عصيت ربى بإجابة المشركين إلى ما دعونى إليه من عبادة غير اللّه. قال أبو حمزة اليمانى، و ابن المسيب: هذه الآية منسوخة بقوله: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ «١» و فى هذه الآية دليل على أن الأمر للوجوب، لأن قبله إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ فالمراد: عصيان هذا الأمر قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ التقديم مشعر بالاختصاص، أى: لا أعبد غيره لا استقلالا، و لا على جهة الشركة، و معنى مُخْلِصاً لَهُ دِينِي أنه خالص للّه غير مشوب بشرك و لا رياء و لا غيرهما، و قد تقدّم تحقيقه فى أول السورة. قال الرازى: فإن قيل ما معنى التكرير فى قوله: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ و قوله: قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي قلنا: ليس هذا بتكرير، لأن الأوّل: إخبار بأنه مأمور من جهة اللّه بالإيمان و العبادة، و الثانى: إخبار بأنه أمر أن لا يعبد أحدا غير اللّه فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ أن تعبدوه مِنْ دُونِهِ هذا الأمر للتهديد و التقريع

---

(١). الفتح: ٢.

و التوبيخ كقوله: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ «١» و قيل إن الأمر على حقيقته، و هو منسوخ بآية السيف، و الأوّل أولى قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: إن الكاملين فى الخسران هم هؤلاء، لأن من دخل النار فقد خسر نفسه و أهله. قال الزجاج: و هذا يعنى به الكفار، فإنهم خسروا أنفسهم بالتخليد فى النار، و خسروا أهليهم، لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل فى الجنة، و جملة: أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ مستأنفة لتأكيد ما قبلها، و تصديرها بحرف التنبيه للإشعار بأن هذا الخسران الذى حلّ بهم قد بلغ من العظم إلى غاية ليس فوقها غاية، و كذلك تعريف الخسران و وصفه بكونه مبينا، فإنه يدلّ على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران، و أنه لا خسران يساويه، و لا عقوبة تدانيه. ثم بين سبحانه هذا الخسران الذى حلّ بهم و البلاء النازل عليهم بقوله: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ الظلل عبارة عن أطباق النار، أى: لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب

عليهم وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ أی: أطباق من النار، و سمی ما تحتهم ظللا لأنها تظلّ من تحتها من أهل النار، لأن طبقات النار صار فی کلّ طبقة منها طائفة من طوائف الکفار، و مثل هذه الآیة قوله: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ «۲» و قوله: یَوْمَ یَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ «۳» و الإشارة بقوله: ذلِکَ إلی ما تقدّم ذکره من وصف عذابهم فی النار، و هو: مبتدأ، و خبره: قوله: یُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ أی: یحذرهم بما توعد به الکفار من العذاب لیخافوه فیتقوه، و هو معنی یا عِبادِ فَاتَّقُونِ أی: اتقوا هذه المعاصی الموجبة لمثل هذا العذاب علی الکفار، و وجه تخصیص العباد بالمؤمنین أن الغالب فی القرآن إطلاق لفظ العباد علیهم، و قیل: هو للکفار و أهل المعاصی، و قیل: هو عامّ للمسلمین و الکفار وَ الَّذِینَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ یَعْبُدُوها الموصول: مبتدأ، و خبره:

قوله: لَهُمُ الْبُشْری و الطاغوت بناء مبالغة فی المصدر کالرحموت و العظموت، و هو الأوثان و الشیطان.

و قال مجاهد و ابن زید: هو الشیطان. و قال الضحاک و السدّی: هو الأوثان. و قیل: إنه الکاهن، و قیل:

هو اسم أعجمی مثل طالوت، و جالوت، و قیل: إنه اسم عربیّ مشتق من الطغیان. قال الأخفش: الطاغوت جمع، و یجوز أن یکون واحده مؤنثا، و معنی اجتنبوا الطاغوت: أعرضوا عن عبادته و خصوا عبادتهم باللّه عزّ و جلّ، و قوله: أَنْ یَعْبُدُوها فی محل نصب علی البدل من الطاغوت بدل اشتمال، کأنه قال: اجتنبوا عبادة الطاغوت، و قد تقدّم الکلام علی تفسیر الطاغوت مستوفی فی سورة البقرة، و قوله: وَ أَنابُوا إِلَی اللَّهِ معطوف علی اجتنبوا، و المعنی: رجعوا إلیه و أقبلوا علی عبادته معرضین عما سواه لَهُمُ الْبُشْری بالثواب الجزیل و هو الجنة، و هذه البشری إما علی ألسنة الرسل، أو عند حضور الموت أو عند البعث فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ المراد بالعباد هنا العموم، فیدخل الموصوفون بالاجتناب و الإنابة إلیه دخولا أوّلیا، و المعنی: یستمعون القول الحقّ من کتاب اللّه و سنة رسوله فیتبعون أحسنه أی محکمه، و یعملون به. قال السدّی: یتبعون أحسن ما یؤمرون به فیعملون بما فیه، و قیل: هو الرجل یسمع الحسن، و القبیح فیتحدّث بالحسن، و ینکف عن القبیح؛ فلا یتحدّث به، و قیل: یستمعون القرآن، و غیره فیتبعون

---

(۱). فصلت: ۴۰.

(۲). الأعراف: ۴۱.

(۳). العنکبوت: ۵.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۵۲۴

القرآن، و قیل: یستمعون الرخص و العزائم، فیتبعون العزائم، و یترکون الرخص، و قیل: یأخذون بالعفو، و یترکون العقوبة. ثم أثنی سبحانه علی هؤلاء المذکورین فقال: أُولئِکَ الَّذِینَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِکَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ أی هم الذین أوصلهم اللّه إلی الحق و هم أصحاب العقول الصحیحة، لأنهم الذین انتفعوا بعقولهم، و لم ینتفع من عداهم بعقولهم. ثم ذکر سبحانه من سبقت له الشقاوة و حرم السعادة فقال: أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَیْهِ کَلِمَةُ الْعَذابِ من هذه یحتمل أن تکون موصولة فی محل رفع بالابتداء، و خبرها: محذوف، أی: کمن یخاف، أو فأنت تخلصه أو تتأسف علیه، و یحتمل أن تکون شرطیة، و جوابه أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِی النَّارِ فالفاء: فاء الجواب دخلت علی جملة الجزاء، و أعیدت الهمزة الإنکاریة لتأکید معنی الإنکار.

و قال سیبویه إنه کرّر الاستفهام لطول الکلام. و قال الفراء: المعنی أ فأنت تنقذ من حقت علیه کلمة العذاب، و المراد بکلمة العذاب هنا هی قوله تعالی لإبلیس: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ «۱» و قوله:

لَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکُمْ أَجْمَعِینَ «۲» و معنی الآیة التسلیة لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم، لأنه کان حریصا علی

إيمان قومه، فأعلمه اللّه أن من سبق عليه القضاء، و حقت عليه كلمة اللّه لا يقدر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن ينقذه من النار بأن يجعله مؤمنا. قال عطاء: يريد أبا لهب و ولده، و من تخلف من عشيرة النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم عن الإيمان، و فى الآية تنزيل لمن يستحقّ العذاب بمن قد صار فيه، و تنزيل دعائه إلى الإيمان منزلة الإخراج له من عذاب النار. و لما ذكر سبحانه فيما سبق أن لأهل الشقاوة ظللا من فوقهم النار، و من تحتهم ظلل استدرك عنهم من كان من أهل السعادة فقال: لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ و ذلك لأن الجنة درجات بعضها فوق بعض، و معنى مَبْنِيَّةٌ أنها مبنية بناء المنازل فى إحكام أساسها و قوّة بنائها و إن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة إليها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أى: من تحت تلك الغرف، و فى ذلك كمال لبهجتها و زيادة لرونقها، و انتصاب وَعْدَ اللَّهِ على المصدرية المؤكدة لمضمون الجملة، لأن قوله: لَهُمْ غُرَفٌ فى معنى وعدهم اللّه بذلك، و جملة: لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ مقرّرة للوعد، أى: لا يخلف اللّه ما وعد به الفريقين من الخير و الشرّ.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ الآية. قال:

هم الكفار الذين خلقهم اللّه للنار زالت عنهم الدنيا و حرمت عليهم الجنة. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله:

خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ قال: أهليهم من أهل الجنة كانوا أعدّوا لهم لو عملوا بطاعة اللّه فغبنوهم.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: كان سعيد بن زيد، و أبو ذرّ، و سلمان يتبعون فى الجاهلية أحسن القول، و أحسن القول و الكلام: لا إله إلا اللّه، قالوا بها، فأنزل اللّه على نبيه يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ الآية. و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد: قال: لما نزل: «فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مناديا فنادى: من مات لا يشرك باللّه شيئا دخل الجنة، فاستقبل عمر الرسول فردّه فقال: يا رسول اللّه خشيت أن يتكل الناس فلا يعملون، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: لو

---

(۱). ص: ۸۵.

(۲). الأعراف: ۱۸.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۲۵

يعلم الناس قدر رحمة ربى لا تكلوا، و لو يعلمون قدر سخط ربى و عقابه لاستصغروا أعمالهم» و هذا الحديث أصله فى الصحيح من حديث أبى هريرة.

[سورة الزمر (۳۹): الآيات ۲۱ الى ۲۶]

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (۲۱) أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۲۲) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۲۳) أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۲۴) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (۲۵)

فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۲۶)

لما ذكر سبحانه الآخرة، و وصفها بوصف يوجب الرغبة فيها، و الشوق إليها أتبعه بذكر الدنيا، و وصفها بوصف يوجب الرغبة عنها، و النفرة منها، فذكر تمثيلا لها فى سرعة زوالها؛ و قرب اضمحلالها؛ مع ما فى ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرته الباهرة و

صنعه البديع فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً أى:

من السحاب مطرا فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ أى: فأدخله و أسكنه فيها، و الينابيع جمع ينبوع من نبع الماء ينبع، و الينبوع: عين الماء و الأمكنة التى ينبع منها الماء، و المعنى أدخل الماء النازل من السماء فى الأرض و جعله فيها عيونا جارية، أو جعله فى ينابيع، أى: فى أمكنة ينبع منها الماء، فهو على الوجه الثانى منصوب بنزع الخافض. قال مقاتل: فجعله عيونا و ركايا «١» فى الأرض ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ أى: يخرج بذلك الماء من الأرض زرعا مختلفا ألوانه من أصفر و أخضر و أبيض و أحمر، أو من برّ و شعير و غيرهما إذا كان المراد بالألوان الأصناف ثُمَّ يَهِيجُ يقال هاج النبت يهيج هيجا إذا تمّ جفافه. قال الجوهرى: يقال هاج النبت هياجا: إذا يبس، و أرض هائجة يبس بقلها أو اصفرّ، و أهاجت الريح النبت أيبسته. قال المبرد: قال الأصمعى: يقال هاجت الأرض تهيج: إذا أدبر نبتها و ولى. قال: و كذلك هاج النبت فَتَراهُ مُصْفَرًّا أى: تراه بعد خضرته و نضارته و حسن رونقه مصفرّا قد ذهبت خضرته و نضارته ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً أى:

متفتتا متكسرا، من تحطم العود: إذا تفتت من اليبس إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ أى: فيما تقدّم ذكره تذكير لأهل العقول الصحيحة، فإنهم الذين يتعقلون الأشياء على حقيقتها فيتفكرون و يعتبرون و يعلمون بأن الحياة الدنيا حالها كحال هذا الزرع فى سرعة التصرم و قرب التقضى، و ذهاب بهجتها و زوال رونقها و نضارتها، فإذا أنتج لهم التفكر و الاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها و الميل إليها و إيثارها على دار النعيم الدائم و الحياة المستمرة و اللذة الخالصة، و لم يبق معهم شك فى أن اللّه قادر على البعث و الحشر،

---

(١). الرّكية: البئر، ج. ركايا.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۵۲۶

لأن من قدر على هذا قدر على ذلك. و قيل هو مثل ضربه اللّه للقرآن و لصدور من فى الأرض. و المعنى: أنزل من السماء قرآنا فسلكه فى قلوب المؤمنين، ثم يخرج به دينا بعضه أفضل من بعض، فأما المؤمن فيزداد إيمانا و يقينا، و أما الذى فى قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع، و هذا بالتغيير أشبه منه بالتفسير. قرأ الجمهور ثُمَّ يَجْعَلُهُ بالرفع عطفا على ما قبله، و قرأ أبو بشر بالنصب بإضمار أن، و لا وجه لذلك. ثم لما ذكر سبحانه أن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب، ذكر شرح الصدر للإسلام، لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به فقال: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ أى: وسعه لقبول الحقّ و فتحه للاهتداء إلى سبيل الخير.

قال السدّى: وسع صدره للإسلام للفرح به، و الطمأنينة إليه، و الكلام فى الهمزة و الفاء كما تقدم فى أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ و من: مبتدأ، و خبرها: محذوف تقديره كمن قسا قلبه و حرج صدره، و دلّ على هذا الخبر المحذوف قوله: فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ و المعنى: أ فمن وسع اللّه صدره للإسلام فقبله، و اهتدى بهديه فَهُوَ بسبب ذلك الشرح عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ يفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختياره، فصار فى ظلمات الضلالة، و بليات الجهالة. قال قتادة: النور كتاب اللّه به يؤخذ و إليه ينتهى. قال الزجاج:

تقدير الآية: أ فمن شرح اللّه صدره كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ قال الفراء و الزجاج: أى عن ذكر اللّه كما تقول أتخمت عن طعام أكلته و من طعام أكلته، و المعنى: أنه غلظ قلبه و جفا عن قبول ذكر اللّه، يقال: قسا القلب إذا صلب، و قلب قاس؛ أى: صلب لا يرقّ و لا يلين، و قيل: معنى من ذكر اللّه من أجل ذكره الذى حقه أن تنشرح له الصدور، و تطمئن به القلوب. و المعنى:

أنه إذا ذكر اللّه اشمأزوا، و الأول أولى، و يؤيده قراءة من قرأ عن ذكر اللّه، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى القاسية قلوبهم، و هو

مبتدأ، و خبره: فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أی: ظاهر واضح. ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز فقال: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ يعنى القرآن، و سماه حديثا لأنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم كان يحدّث به قومه و يخبرهم بما ينزل عليه منه. و فيه بيان أن أحسن القول المذكور سابقا هو القرآن، و انتصاب كِتاباً على البدل من أحسن الحديث، و يحتمل أن يكون حالا منه مُتَشابِهاً صفة لكتابا، أی:

يشبه بعضه بعضا فی الحسن و الإحكام و صحة المعانی، و قوة المبانی، و بلوغه إلى أعلى درجات البلاغة. و قال قتادة: يشبه بعضه بعضا فی الآی و الحروف، و قيل: يشبه كتب اللّه المنزلة على أنبيائه، و مَثانِيَ صفة أخرى لكتابا: أی تثنى فيه القصص و تتكرر فيه الموعظ و الأحكام. و قيل: يثنى فی التلاوة فلا يملّ سامعه و لا يسأم قارئه. قرأ الجمهور مَثانِيَ بفتح الياء، و قرأ هشام عن ابن عامر و بشر بسكونها تخفيفا و استثقالا لتحريكها، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف، أی: هو مثانی، و قال الرازی فی تبيين مثانی أن أكثر الأشياء المذكورة فی القرآن متكرّرة: زوجين زوجين مثل: الأمر و النهی، و العامّ و الخاصّ، و المجمل و المفصل، و أحوال السموات و الأرض، و الجنة و النار، و النور و الظلمة، و اللوح و القلم، و الملائكة و الشياطين، و العرش و الكرسی، و الوعد و الوعيد، و الرجاء و الخوف، و المقصود من ذلك البيان بأن كلّ ما سوى الحقّ زوج، و أن الفرد الأحد الحقّ هو اللّه، و لا يخفى ما فی كلامه هذا من التكلف و البعد عن مقصود التنزيل تَقْشَعِرُّ

فتح القدير، ج‏4، ص: 527

مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ هذه الجملة يجوز أن تكون صفة لكتابا، و أن تكون حالا منه، لأنه و إن كان نكرة فقد تخصص بالصفة، أو مستأنفة لبيان ما يحصل عند سماعه من التأثر لسامعيه، و الاقشعرار:

التقبض، يقال اقشعرّ جلده: إذا تقبض و تجمع من الخوف. و المعنى: أنها تأخذهم منه قشعريرة. قال الزجاج: إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرّت جلود الخائفين للّه ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إذا ذكرت آيات الرحمة. قال الواحدی: و هذا قول جميع المفسرين، و من ذلك قول امرئ القيس:

فبتّ أكابد ليل التّمامو القلب من خشية مقشعرّ «1»

و قيل المعنى: أن القرآن لما كان فی غاية الجزالة و البلاغة، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته اقشعرّت الجلود منه إعظاما له، و تعجبا من حسنه و بلاغته، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ عدّى تلين بإلى لتضمينه فعلا يتعدّى بها، كأنه قيل: سكنت و اطمأنت إلى ذكر اللّه لينة غير منقبضة، و مفعول ذكر اللّه محذوف، و التقدير: إلى ذكر اللّه رحمته و ثوابه و جنته، و حذف للعلم به. قال قتادة: هذا نعت أولياء اللّه، نعتهم بأنها تقشعرّ جلودهم، و تطمئن قلوبهم إلى ذكر اللّه، و لم ينعتهم بذهاب عقولهم و الغشيان عليهم إنما ذلك فی أهل البدع و هو من الشيطان، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الكتاب الموصوف بتلك الصفات، و هو مبتدأ، و هُدَى اللَّهِ خبره، أی: ذلك الكتاب هدى اللّه يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ أن يهديه من عباده، و قيل: إن الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما وهبه اللّه لهؤلاء من خشية عذابه، و رجاء ثوابه وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ أی: يجعل قلبه قاسيا مظلما غير قابل للحقّ فَما لَهُ مِنْ هادٍ يهديه إلى الحق، و يخلصه من الضلال. قرأ الجمهور مِنْ هادٍ بغير ياء. و قرأ ابن كثير، و ابن محيصن بالياء. ثم لما حكم على القاسية قلوبهم بحكم فی الدنيا و هو الضلال، حكم عليهم فی الآخرة بحكم آخر و هو العذاب فقال: أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ و الاستفهام للإنكار، و قد تقدّم الكلام فيه، و فی هذه الفاء الداخلة على من فی قوله: أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ و من: مبتدأ، و خبرها: محذوف لدلالة المقام عليه، و المعنى: أ فمن شأنه أن يقی نفسه بوجهه الذی هو أشرف أعضائه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده قد صارت مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه شیء من ذلك و لا يحتاج إلى الاتقاء. قال الزجاج: المعنى أ فمن يتقی بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة. قال عطاء و ابن زيد: يرمى به مكتوفا فی النار، فأوّل شیء

تمس منه وجهه. و قال مجاهد: يجرّ على وجهه فى النار. قال الأخفش: المعنى أ فمن يتقى بوجهه سوء العذاب أفضل، أم من سعد؟ مثل قوله: أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ «۲» ثم أخبر سبحانه عما تقوله الخزنة للكفار فقال: وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ و هو معطوف على يتقى، أى:
و يقال لهم، و جاء بصيغة الماضى للدلالة على التحقيق. قال عطاء: أى جزاء ما كنتم تعملون، و مثل هذه الآية قوله: هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ «۳» و قد تقدّم الكلام على معنى الذوق فى

---

(۱). «ليل التّمام»: أطول ما يكون من ليالى الشتاء.

(۲). فصلت: ۴۰.

(۳). التوبة: ۳۵.

غير موضع. ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار، فقال: كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى:
من قبل الكفار المعاصرين لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم. و المعنى: أنهم كذبوا رسلهم فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ أى: من جهة لا يحتسبون إتيان العذاب منها، و ذلك عند أمنهم و غفلتهم عن عقوبة اللّه لهم بتكذيبهم فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ أى: الذلّ و الهوان فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بالمسخ، و الخسف، و القتل، و الأسر، و غير ذلك وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لكونه فى غاية الشدّة مع دوامه لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أى: لو كانوا ممن يعلم الأشياء، و يتفكر فيها، و يعمل بمقتضى علمه. قال المبرّد: يقال لكل ما نال الجارحة من شي‏ء قد ذاقته، أى: وصل إليها كما تصل الحلاوة و المرارة إلى الذائق لهما. قال: و الخزى المكروه.
و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً الآية قال:
ما فى الأرض ماء إلا نزل من السماء، و لكن عروق فى الأرض تغيره، فذلك قوله: فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ فمن سرّه أن يعود الملح عذبا فليصعده. و أخرج ابن مردويه عنه فى قوله: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ قال: أبو بكر الصديق. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: تلا النبى صلّى اللّه عليه و سلم هذه الآية أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ قلنا يا نبيّ اللّه كيف انشراح صدره؟ قال: إذا دخل النور القلب انشرح و انفسح. قلنا: فما علامة ذلك يا رسول اللّه؟ فقال: الإنابة إلى دار الخلود، و التجافى عن دار الغرور، و التأهب للموت قبل نزول الموت. و أخرجه ابن مردويه عن محمد بن كعب القرظى مرفوعا مرسلا. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عمر «أن رجلا قال: يا نبيّ اللّه أى المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم ذكرا للموت، و أحسنهم له استعدادا، و إذا دخل النور فى القلب انفسح و استوسع، فقالوا: ما آية ذلك يا نبيّ اللّه؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود و التجافى عن دار الغرور، و الاستعداد للموت قبل نزول الموت».
و أخرجه عن أبى جعفر عبد اللّه بن المسور عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ينحوه، و زاد فيه. ثم قرأ أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ و أخرج الترمذى، و ابن مردويه، و ابن شاهين فى الترغيب فى الذكر، و البيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر اللّه، فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر اللّه قسوة للقلب، و إنّ أبعد النّاس من اللّه القلب القاسى». و أخرج ابن جرير عن ابن عباس «قال: قالوا يا رسول اللّه لو حدّثتنا، فنزل اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ الآية». و أخرج ابن مردويه عنه فى قوله: مَثانِيَ قال: القرآن كله مثانى. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال:
كتاب اللّه مثانى ثنى فيه الأمر مرارا. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن المنذر، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن عبد اللّه بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدّتى أسماء كيف كان يصنع أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا قرءوا القرآن؟ قالت: كانوا كما

نعتهم اللّه تدمع أعينهم و تقشعرّ جلودهم، قلت: فإن ناسا هاهنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية، قالت: أعوذ باللّه من الشيطان. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ قال: ينطلق به إلى النار مكتوفا ثم يرمى به فيها، فأوّل ما تمسّ وجهه النار.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۲۹

[سورة الزمر (۳۹): الآيات ۲۷ الى ۳۵]

وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۷) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۲۸) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَ رَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۲۹) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (۳۰) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (۳۱)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (۳۲) وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (۳۳) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (۳۴) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (۳۵)

قوله: وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ قد قدّمنا تحقيق المثل، و كيفية ضربه فى غير موضع، و معنى مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ما يحتاجون إليه، و ليس المراد ما هو أعمّ من ذلك، فهو هنا كما فى قوله: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ أى: من شىء يحتاجون إليه فى أمر دينهم، و قيل المعنى: ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ يتعظمون فيعتبرون، و انتصاب قُرْآناً عَرَبِيًّا على الحال من هذا و هى حال مؤكدة، و تسمى هذه حالا موطئة، لأن الحال فى الحقيقة هو عربيا، و قرآنا توطئة له، نحو جاءنى زيد رجلا صالحا: كذا قال الأخفش، و يجوز أن ينتصب على المدح. قال الزجاج:

عربيا منتصب على الحال، و قرآنا توكيد، و معنى غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه.

قال الضحاك: أى: غير مختلف. قال النحاس أحسن ما قيل فى معناه قول الضحاك، و قيل: غير متضادّ، و قيل: غير ذى لبس، و قيل: غير ذى لحن، و قيل: غير ذى شك كما قال الشاعر:

و قد أتاك يقين غير ذى عوج من الإله و قول غير مكذوب

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ علة أخرى بعد العلة الأولى. و هى لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أى: لكى يتقوا الكفر و الكذب. ثم ذكر سبحانه مثلا من الأمثال القرآنية للتذكير و الاتعاظ، فقال: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا أى:

تمثيل حالة عجيبة بأخرى مثلها. ثم بين المثل فقال: رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ قال الكسائى: نصب رجلا لأنه تفسير للمثل، و قيل: هو منصوب بنزع الخافض، أى: ضرب اللّه مثلا برجل، و قيل: إن رجلا هو المفعول الأوّل، و مثلا: هو المفعول الثانى، و أخر المفعول الأوّل ليتصل بما هو من تمامه، و قد تقدّم تحقيق هذا فى سورة «يس»، و جملة فِيهِ شُرَكاءُ فى محل نصب صفة لرجل، و التشاكس: التخالف.

قال الفراء: أى مختلفون. و قال المبرد: أى متعاسرون من شكس يشكس شكسا فهو شكس مثل عسر يعسر عسرا فهو عسر. قال الجوهرى: التشاكس الاختلاف. قال: و يقال رجل شكس بالتسكين: أى صعب الخلق، و هذا مثل من أشرك باللّه و عبد آلهة كثيرة. ثم قال: وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ أى: خالصا له، و هذا مثل من يعبد اللّه وحده. قرأ الجمهور «سلما» بفتح السين و اللام، و قرأ سعيد بن جبير، و عكرمة، و أبو العالية بكسر السين و سكون اللام. و قرأ ابن عباس، و مجاهد، و الجحدرى، و أبو عمرو، و ابن كثير،

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳۰

و يعقوب «سالما» بالألف و كسر اللام اسم فاعل من سلم له فهو سالم، و اختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأن السالم الخالص ضدّ المشترك، و السلم ضدّ الحرب، و لا موضع للحرب هاهنا. و أجيب عنه بأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما: فالسلم و إن كان ضدّ الحرب فله معنى آخر بمعنى سالم، من سلم له كذا: إذا خلص له. و أيضا يلزمه فى سالم ما ألزم به، لأنه يقال شىء سالم: أى لا عاهة به، و اختار أبو حاتم القراءة الأولى. و الحاصل أن قراءة الجمهور هى على الوصف بالمصدر للمبالغة، أو على حذف مضاف، أى: ذا سلم، و مثلها قراءة سعيد بن جبير و من معه. ثم جاء سبحانه بما يدلّ على التفاوت بين الرجلين فقال:

هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا و هذا الاستفهام للإنكار و الاستبعاد، و المعنى: هل يستوى هذا الذى يخدم جماعة شركاء؛ أخلاقهم مختلفة، و نياتهم متباينة يستخدمه كل واحد منهم فيتعب و ينصب مع كون كل واحد منهم غير راض بخدمته، و هذا الذى يخدم واحدا لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضى عنه، و إذا عصاه عفا عنه. فإن بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوّه باستوائهما، لأن أحدهما فى أعلى المنازل، و الآخر فى أدناها، و انتصاب مثلا على التمييز المحول عن الفاعل لأن الأصل هل يستوى مثلهما، و أفرد التمييز و لم يثنه لأن الأصل فى التمييز الإفراد لكونه مبينا للجنس و جملة الْحَمْدُ لِلَّهِ تقرير لما قبلها من نفى الاستواء، و للإيذان للموحدين بما فى توحيدهم للّه من النعمة العظيمة المستحقة لتخصيص الحمد به. ثم أضرب سبحانه عن نفى الاستواء المفهوم من الاستفهام الإنكارى إلى بيان أن أكثر الناس لا يعلمون فقال: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ و هم المشركون فإنهم لا يعلمون ذلك مع ظهوره و وضوحه. قال الواحدى و البغوى: و المراد بالأكثر الكلّ و الظاهر خلاف ما قالاه، فإن المؤمنين باللّه يعلمون ما فى التوحيد من رفعة شأنه و علوّ مكانه، و إن الشرك لا يماثله بوجه من الوجوه، و لا يساويه فى وصف من الأوصاف، و يعلمون أن اللّه سبحانه يستحق الحمد على هذه النعمة، و أن الحمد مختصّ به. ثم أخبر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بأن الموت يدركه لا محالة فقال:

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ قرأ الجمهور «ميت، و ميتون» بالتشديد و قرأ ابن محيصن، و ابن أبى عبلة، و عيسى بن عمر، و ابن أبى إسحاق، و اليمانى «مائت و مائتون» و بها قرأ عبد اللّه بن الزبير. و قد استحسن هذه القراءة بعض المفسرين لكون موته و موتهم مستقبلا، و لا وجه للاستحسان، فإن قراءة الجمهور تفيد هذا المعنى. قال الفراء و الكسائى: الميت بالتشديد من لم يمت و سيموت، و الميت بالتخفيف من قد مات و فارقته الرّوح. قال قتادة: نعيت إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم نفسه و نعيت إليهم أنفسهم، و وجه هذا الإخبار الإعلام للصحابة بأنه يموت، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت مع كونه توطئة و تمهيدا لما بعده حيث قال: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ أى: تخاصمهم يا محمد و تحتجّ عليهم بأنك قد بلغتهم و أنذرتهم و هم يخاصمونك، أو يخاصم المؤمن الكافر، و الظالم المظلوم. ثم بين سبحانه حال كل فريق من المختصمين فقال: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ أى: لا أحد أظلم ممن كذب على اللّه، فزعم أن له ولدا، أو شريكا، أو صاحبة وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ و هو ما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من دعاء الناس إلى التوحيد، و أمرهم بالقيام بفرائض الشرع، و نهيهم عن محرماته و إخبارهم بالبعث و النشور، و ما أعدّ اللّه للمطيع

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳۱

و العاصى. ثم استفهم سبحانه استفهاما تقريريا فقال: أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ أى: أليس لهؤلاء المفترين المكذّبين بالصدق، و المثوى: المقام، و هو مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام به يثوى ثواء و ثويا، مثل مضى مضاء و مضيا. و حكى أبو عبيد أنه يقال أثوى و أنشد قول الأعشى:

أثوى و قصّر ليلة ليزوّداو مضى و أخلف من قتيلة موعدا

و أنكر ذلك الأصمعى، و قال: لا نعرف أثوى. ثم ذكر سبحانه فريق المؤمنين المصدّقين فقال: وَ الَّذِی جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ الموصول فى موضع رفع بالابتداء، و هو عبارة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و من تابعه، و خبره: أُولئِکَ هُمُ الْمُتَّقُونَ و قيل: الذى جاء بالصدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و الذى صدّق به أبو بكر.

و قال مجاهد: الذى جاء بالصدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و الذى صدّق به علىّ بن أبى طالب. و قال السدّى: الذى جاء بالصدق جبريل، و الذى صدّق به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و قال قتادة و مقاتل و ابن زيد: الذى جاء بالصدق النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و الذى صدّق به المؤمنون. و قال النخعى: الذى جاء بالصدق و صدّق به هم المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة. و قيل: إن ذلك عام فى كل من دعا إلى توحيد اللّه و أرشد إلى ما شرعه لعباده، و اختار هذا ابن جرير و هو الذى اختاره من هذه الأقوال، و يؤيده قراءة ابن مسعود «و الذين جاءوا بالصّدق و صدّقوا به». و لفظ الذى كما وقع فى قراءة الجمهور و إن كان مفردا فمعناه الجمع، لأنه يراد به الجنس كما يفيده قوله: أُولئِکَ هُمُ الْمُتَّقُونَ أى المتصفون بالتقوى التى هى عنوان النجاة. و قرأ أبو صالح «و صدق به» مخففا، أى: صدق به الناس. ثم ذكر سبحانه ما لهؤلاء الصادقين المصدّقين فى الآخرة فقال: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ أى: لهم كل ما يشاءونه من رفع الدرجات و دفع المضرّات، و تكفير السيئات، و فى هذا ترغيب عظيم، و تشويق بالغ، و الإشارة بقوله: ذلِکَ إلى ما تقدم ذكره من جزائهم، و هو مبتدأ، و خبره قوله: جَزاءُ الْمُحْسِنِینَ أى: الذين أحسنوا فى أعمالهم. و قد ثبت فى الصحيح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن الإحسان أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ثم بين سبحانه ما هو الغاية مما لهم عند ربهم فقال: لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِی عَمِلُوا فإن ذلك هو أعظم ما يرجونه من دفع الضرر عنهم لأن اللّه سبحانه إذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم غفر لهم ما دونه بطريقة الأولى، و اللّام متعلقة بيشاؤون، أو بالمحسنين، أو بمحذوف. قرأ الجمهور «أسوأ» على أنه أفعل تفضيل. و قيل: ليست للتفضيل بل بمعنى سيئ الذى عملوا. و قرأ ابن كثير فى رواية عنه أسواء بألف بين الهمزة و الواو بزنة أجمال جمع سوء، وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِی كانُوا يَعْمَلُونَ لما ذكر سبحانه ما يدلّ على دفع المضارّ عنهم ذكر ما يدلّ على جلب أعظم المنافع إليهم، و إضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه، بل من إضافة الشىء إلى بعضه قصدا إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل. قال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم، و لا يجزيهم بالمساوى.

و قد أخرج الآجرّى، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: غَيْرَ ذِی عِوَجٍ قال: غير مخلوق. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا الآية قال: الرجل يعبد آلهة شتى،

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۵۳۲

فهذا مثل ضربه اللّه لأهل الأوثان وَ رَجُلًا سَلَماً يعبد إلها واحدا ضرب لنفسه مثلا. و أخرجا عنه أيضا فى قوله: وَ رَجُلًا سَلَماً قال: ليس لأحد فيه شىء. و أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عمر قال: لقد لبثنا برهة من دهرنا؛ و نحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا و فى أهل الكتابين من قبلنا إِنَّکَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ الآية، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها نزلت فينا. و أخرج نعيم بن حماد فى الفتن و الحاكم و صححه و ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن مردويه عنه أيضا قال: نزلت علينا الآية: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ و ما ندرى ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة، فقلنا هذا الذى وعدنا ربنا أن نختصم فيه. و أخرج عبد الرزاق، و أحمد، و ابن منيع، و عبد بن حميد، و الترمذى و صححه، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى البعث

و النشور عن الزبير بن العوّام قال: «لما نزلت إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ قلت: يا رسول اللّه أ يكرّر علينا ما يكون بيننا فى الدنيا مع خواصّ الذنوب؟ قال: نعم ليكرّرن عليكم ذلك حتى يؤدى إلى كل ذى حقّ حقه. قال الزبير فو اللّه إن الأمر لشديد». و أخرج سعيد بن منصور عن أبى سعيد الخدرى قال: لما نزلت ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ كنا نقول: ربنا واحد، و ديننا واحد، و نبينا واحد فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين؛ و شدّ بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله:

وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ يعنى بلا إله إلا اللّه وَ صَدَّقَ بِهِ يعنى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ يعنى: اتقوا الشرك. و أخرج ابن جرير، و الباوردى فى معرفة الصحابة، و ابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان، و له صحبة عن علىّ بن أبى طالب قال: الذى جاء بالصدق محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و صدّق به أبو بكر. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مثله.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٦ الى ٤٢]

أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٦) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَ لَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (٣٧) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٤٠)

إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳۳

قوله: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ قرأ الجمهور عَبْدَهُ بالإفراد. و قرأ حمزة، و الكسائى «عباده» بالجمع، فعلى القراءة الأولى المراد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم أو الجنس، و يدخل فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم دخولا أوّليا، و على القراءة الأخرى المراد: الأنبياء، أو المؤمنون، أو الجميع، و اختار أبو عبيد قراءة الجمهور لقوله عقبه وَ يُخَوِّفُونَكَ و الاستفهام للإنكار لعدم كفايته سبحانه على أبلغ وجه كأنها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره. و قيل: المراد بالعبد و العباد: ما يعمّ المسلم، و الكافر. قال الجرجانى: إن اللّه كاف عبده المؤمن، و عبده الكافر هذا بالثواب، و هذا بالعقاب. و قرئ «بكافى عباده» بالإضافة، و قرئ «يكافى» بصيغة المضارع، و قوله: وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ يجوز أن يكون فى محل نصب على الحال، إذ المعنى أليس كافيك حال تخويفهم إياك، و يجوز أن تكون مستأنفة، و الذين من دونه عبارة عن المعبودات التى يعبدونها وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ أى: من حقّ عليه القضاء بضلالة؛ فما له من هاد يهديه إلى الرّشد، و يخرجه من الضلالة، وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍ يخرجه من الهداية، و يوقعه فى الضلالة أَ لَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ أى: غالب لكل شىء قاهر له ذِي انْتِقامٍ ينتقم من عصاته بما يصبه عليهم من عذابه و ما ينزله بهم من سوط عقابه وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ذكر سبحانه اعترافهم إذا سئلوا عن الخالق بأنه اللّه سبحانه مع عبادتهم للأوثان، و اتخاذهم الآلهة من دون اللّه، و فى هذا أعظم دليل على أنهم كانوا فى غفلة شديدة و جهالة عظيمة لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم و لما يعبدون من دون اللّه هو اللّه سبحانه، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل؛ و تشريك مخلوق مع خالقه فى العبادة؟

و قد كانوا يذكرون بحسن العقول، و كمال الإدراك، و الفطنة التامة، و لكنهم لما قلدوا أسلافهم و أحسنوا الظنّ بهم هجروا ما يقتضيه العقل، و عملوا بما هو محض الجهل. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يبكتهم بعد هذا الاعتراف و يوبخهم فقال: قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أى:

أخبرونى عن آلهتكم هذه هل تقدر على كشف ما أراده اللّه بى من الضرّ، و الضر هو الشدّة أو أعلى أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ عنى بحيث لا تصل إلىّ، و الرحمة النعمة و الرّخاء. قرأ الجمهور ممسكات و كاشفات فى الموضعين بالإضافة و قرأهما أبو عمرو بالتنوين. قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية سألهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فسكتوا، و قال غيره: قالوا لا تدفع شيئا من قدر اللّه و لكنها تشفع، فنزل قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ فى جميع أمورى فى جلب النفع، و دفع الضرّ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ أى: عليه، لا على غيره يعتمد المعتمدون، و اختار أبو عبيد، و أبو حاتم قراءة أبى عمرو، لأن كاشفات اسم فاعل فى معنى الاستقبال، و ما كان كذلك فتنوينه أجود، و بها قرأ الحسن، و عاصم ثم أمره سبحانه أن يهدّدهم، و يتوعدهم فقال: قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ أى: على حالتكم التى أنتم عليها و تمكنتم منها إِنِّي عامِلٌ أى: على حالتى التى أنا عليها، و تمكنت منها، و حذف ذلك للعلم به مما قبله فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ أى: يهينه، و يذله فى الدنيا، فيظهر عند ذلك أنه المبطل؛ و خصمه المحقّ، و المراد بهذا العذاب عذاب الدنيا و ما حلّ بهم من القتل، و الأسر، و القهر، و الذلة. ثم ذكر عذاب الآخرة فقال: وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳۴

أى: دائم مستمرّ فى الدار الآخرة، و هو عذاب النار. ثم لما كان يعظم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إصرارهم على الكفر أخبره بأنه لم يكلف إلا بالبيان، لا بأن يهدى من ضلّ، فقال: إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ أى: لأجلهم و لبيان ما كلفوا به، و بِالْحَقِ حال من الفاعل أو المفعول: أى محقين، أو ملتبسا بالحقّ فَمَنِ اهْتَدى طريق الحق و سلكها فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَ عنها فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها أى: على نفسه، فضرر ذلك عليه لا يتعدّى إلى غيره وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ أى: بمكلف بهدايتهم مخاطب بها، بل ليس عليك إلا البلاغ و قد فعلت. و هذه الآيات هى منسوخة بآية السيف، فقد أمر اللّه رسوله بعد هذا أن يقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلا اللّه و يعملوا بأحكام الإسلام. ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته البالغة و صنعته العجيبة فقال: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها أى: يقبضها عند حضور أجلها، و يخرجها من الأبدان وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها أى: و يتوفى الأنفس التى لم تمت، أى: لم يحضر أجلها فى منامها.

و قد اختلف فى هذا، فقيل يقبضها عن التصرّف مع بقاء الروح فى الجسد. و قال الفراء: المعنى و يقبض التى لم تمت عند انقضاء أجلها قال: و قد يكون توفيها نومها، فيكون التقدير على هذا: و التى لم تمت وفاتها نومها. قال الزجاج: لكل إنسان نفسان: أحدهما نفس التمييز و هى التى تفارقه إذا نام فلا يعقل، و الأخرى نفس الحياة إذا زالت معها زال النفس، و النائم يتنفس. قال القشيرى: فى هذا بعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة فى الحالين شىء واحد، و لهذا قال: فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى أى:

النائمة إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى و هو الوقت المضروب لموته، و قد قال بمثل قول الزجاج: ابن الأنبارى. و قال سعيد بن جبير: إن اللّه يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، و أرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء اللّه أن تتعارف فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى فيعيدها، و الأولى أن يقال: إن توفى الأنفس حال النوم بإزالة الإحساس و حصول الآفة به فى محل الحس، فيمسك التى قضى عليها الموت و لا يردّها إلى الجسد الذى كانت فيه و يرسل الأخرى بأن يعيد عليها إحساسها. قيل و معنى: يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها هو على حذف مضاف، أى: عند موت أجسادها.

و قد اختلف العقلاء فی النفس و الروح هل هما شیء واحد أو شیئان؟ و الکلام فی ذلک یطول جدّا، و هو معروف فی الکتب الموضوعة لهذا الشأن. قرأ الجمهور «قضی» مبنیا للفاعل، أی: قضی اللّه علیها الموت، و قرأ حمزة، و الکسائی، و الأعمش، و یحیی بن وثاب علی البناء للمفعول، و اختار أبو عبید، و أبو حاتم القراءة الأولی لموافقتها لقوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ و الإشارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ إلی ما تقدّم من التوفی، و الإمساک، و الإرسال للنفوس لَآياتٍ أی: لآیات عجیبة بدیعة دالة علی القدرة الباهرة، و لکن لیس کون ذلک آیات یفهمه کل أحد بل لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فی ذلک و یتدبرونه و یستدلون به علی توحید اللّه و کما قدرته، فإن فی هذا التوفی و الإمساک و الإرسال موعظة للمتعظین و تذکرة للمتذکرین.

و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها الآیة قال: نفس و روح بینهما مثل شعاع الشمس، فیتوفی اللّه النفس فی منامه، و یدع الروح فی جوفه تتقلب

فتح القدیر، ج۴، ص: ۵۳۵

و تعیش، فإن بدا له أن یقبضه قبض الروح فمات، و إن أخر أجله ردّ النفس إلی مکانها من جوفه. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر، و الطبرانی فی الأوسط، و أبو الشیخ فی العظمة، و ابن مردویه، و الضیاء فی المختارة عنه فی الآیة قال: تلتقی أرواح الأحیاء، و أرواح الأموات فی المنام فیتساءلون بینهم ما شاء اللّه، ثم یمسک اللّه أرواح الأموات، و یرسل أرواح الأحیاء إلی أجسادها إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لا یغلط بشیء منها فذلک قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و أخرج عبد بن حمید عنه أیضا فی الآیة قال:

کل نفس لها سبب تجری فیه، فإذا قضی علیها الموت نامت حتی ینقطع السبب، و التی لم تمت فی منامها تترک. و أخرج البخاری، و مسلم من حدیث أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «إذا أوی أحدکم إلی فراشه فلینفضه بداخلة إزاره فإنّه لا یدری ما خلفه علیه، ثم لیقل باسمک ربّی وضعت جنبی و باسمک أرفعه، إن أمسکت نفسی فارحمها، و إن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادک الصّالحین».

[سورة الزمر (۳۹): الآیات ۴۳ الی ۴۸]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لا يَعْقِلُونَ (۴۳) قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۴۴) وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴۵) قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۴۶) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (۴۷)

وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۴۸)

قوله: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ أم: هی المنقطعة المقدّرة ببل، و الهمزة، أی: بل اتخذوا من دون اللّه آلهة شفعاء تشفع لهم عند اللّه قُلْ أَ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لا يَعْقِلُونَ للإنکار و التوبیخ و الواو للعطف علی محذوف مقدّر، أی: أ یشفعون و لو کانوا ... إلخ، و جواب لو محذوف تقدیره تتخذونهم.

أی: و إن کانوا بهذه الصفة تتخذونهم، و معنی لا یملکون شیئا أنهم غیر مالکین لشیء من الأشیاء، و تدخل الشفاعة فی ذلک دخولا أوّلیا، و لا یعقلون شیئا لأنها جمادات لا عقل لها، و جمعهم بالواو و النون لاعتقاد الکفار فیهم أنهم یعقلون. ثم أمره سبحانه بأن یخبرهم أن الشفاعة للّه وحده فقال: قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً فلیس لأحد منها شیء إلا أن یکون بإذنه لمن ارتضی،

كما فى قوله: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ «١» و قوله: وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى «٢» و انتصاب جميعا على الحال، و إنما أكد الشفاعة بما يؤكد به الاثنان فصاعدا لأنها مصدر يطلق على الواحد، و الاثنين، و الجماعة، ثم وصفه بسعة الملك فقال: لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: يملكهما، و يملك ما فيهما، و يتصرف فى ذلك كيف يشاء، و يفعل ما يريد ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ لا إلى غيره، و ذلك بعد البعث وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

---

(١). البقرة: ٢٥٥.

(٢). الأنبياء: ٢٨.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳۶

انتصاب وحده على الحال عند يونس، و على المصدر عند الخليل و سيبويه، و الاشمئزاز فى اللغة:
النفور. قال أبو عبيدة: اشمأزت: نفرت، و قال المبرد: انقبضت. و بالأوّل: قال قتادة، و بالثانى: قال مجاهد و المعنى متقارب. و قال المؤرج: أنكرت، و قال أبو زيد: اشمأزّ الرجل ذعر من الفزع، و المناسب للمقام تفسير اشمأزت بانقبضت، و هو فى الأصل الازورار، و كان المشركون إذا قيل لهم لا إله إلا اللّه انقبضوا، كما حكاه اللّه عنهم فى قوله: وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً «١» ثم ذكر سبحانه استبشارهم بذكر أصنامهم فقال: وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ أى: يفرحون بذلك و يبتهجون به، و العامل فى إذا فى قوله: وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ الفعل الذى بعدها، و هو اشمأزت، و العامل فى إذا فى قوله: وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ الفعل العامل فى إذا الفجائية، و التقدير: فاجؤوا الاستبشار وقت ذكر الذين من دونه. و لما لم يقبل المتمردون من الكفار ما جاءهم به صلّى اللّه عليه و سلم من الدعاء إلى الخير و صمموا على كفرهم، أمره اللّه سبحانه أن يردّ الأمر إليه فقال: قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ و قد تقدّم تفسير فاطر السموات، و تفسير عالم الغيب و الشهادة، و هما منصوبان على النداء و معنى: تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ تجازى المحسن بإحسانه، و تعاقب المسيء بإساءته، فإنه بذلك يظهر من هو المحقّ، و من هو المبطل، و يرتفع عنده خلاف المختلفين، و تخاصم المتخاصمين. ثم لما حكى عن الكفار ما حكاه من الاشمئزاز عند ذكر اللّه، و الاستبشار عند ذكر الأصنام ذكر ما يدلّ على شدّة عذابهم، و عظيم عقوبتهم فقال: وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً أى جميع ما فى الدنيا من الأموال و الذخائر وَ مِثْلَهُ مَعَهُ أى: منضما إليه لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: من سوء عذاب ذلك اليوم، و قد مضى تفسير هذا فى آل عمران وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ أى: ظهر لهم من عقوبات اللّه و سخطه؛ و شدّة عذابه ما لم يكن فى حسابهم، و فى هذا وعيد عظيم، و تهديد بالغ، و قال مجاهد: عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هى سيئات، و كذا قال السدّى. و قال سفيان الثورى: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء هذه آيتهم و قصتهم. و قال عكرمة بن عمار: جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديدا، فقيل له ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب اللّه وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ فأنا أخشى أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا أى مساوى أعمالهم من الشرك و ظلم أولياء اللّه، و «ما» يحتمل أن تكون مصدرية، أى: سيئات كسبهم، و أن تكون موصولة: أى سيئات الذى كسبوه وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: أحاط بهم و نزل بهم ما كانوا يستهزءون به من الإنذار الذى كان ينذرهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم.
و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ الآية قال: قست و نفرت قُلُوبُ هؤلاء الأربعة الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أبو جهل بن هشام، و الوليد بن عقبة،

---

(١). الإسراء: ۴۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳۷

و صفوان، و أبيّ بن خلف وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ اللات و العزى إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ و أخرج مسلم، و أبو داود، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن عائشة قالت: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم ربّ جبريل و ميكائيل و إسرافيل فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم».

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ۴۹ الى ۶۱]

فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۴۹) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۵۰) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵۱) أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۲) قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵۳)

وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (۵۴) وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (۵۵) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (۵۶) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (۵۷) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۵۸)

بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (۵۹) وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (۶۰) وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۱)

قوله: فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ المراد بالإنسان هنا: الجنس باعتبار بعض أفراده أو غالبها، و قيل المراد به الكفار فقط و الأوّل أولى، و لا يمنع من حمله على الجنس خصوص سببه، لأن الاعتبار: بعموم اللفظ وفاء بحقّ النظم القرآنى، و وفاء بمدلوله، و المعنى: أن شأن غالب نوع الإنسان أنه إذا مسه ضرّ من مرض، أو فقر، أو غيرهما دعا اللّه، و تضرع إليه فى رفعه و دفعه ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا أى: أعطيناه نعمة كائنة من عندنا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ منى بوجوه المكاسب، أو على خير عندى، أو على علم من اللّه بفضلى. و قال الحسن، على علم علمنى اللّه إياه، و قيل: قد علمت أنى إذا أوتيت هذا فى الدنيا أن لى عند اللّه منزلة، و جاء بالضمير فى أوتيته مذكرا مع كونه راجعا إلى النعمة لأنها بمعنى الإنعام. و قيل: إن الضمير عائد إلى ما، و هى موصولة، و الأوّل أولى بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ هذا ردّ لما قاله، أى: ليس ذلك الذى أعطيناك لما ذكرت، بل هو محنة لك، و اختبار لحالك أ تشكر أم تكفر؟ قال الفراء: أنث الضمير فى قوله: «هى» لتأنيث الفتنة، و لو قال بل هو فتنة لجاز. و قال النحاس: بل عطيته فتنة. و قيل: تأنيث الضمير باعتبار لفظ الفتنة، و تذكير الأوّل فى قوله: أُوتِيتُهُ باعتبار معناها وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن ذلك استدراج

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳۸

لهم من اللّه و امتحان لما عندهم من الشكر أو الكفر قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: قال هذه الكلمة التى قالوها و هى قولهم: إنما أوتيته على علم الذين من قبلهم كقارون و غيره، فإن قارون قال: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي «١» فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ يجوز أن تكون ما هذه نافية، أى: لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئا، و أن تكون استفهامية، أى: أىّ شىء أغنى عنهم ذلك فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا أى: جزاء سيئات كسبهم، أو أصابهم سيئات هى جزاء كسبهم، و سمى الجزاء سيئات لوقوعها فى مقابلة سيئاتهم، فيكون ذلك من باب المشاكلة كقوله: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها «٢»، ثم أوعد سبحانه الكفار فى عصره فقال:

وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ الموجودين من الكفار سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا كما أصاب من قبلهم، و قد أصابهم فى الدنيا ما أصابهم من القحط و القتل و الأسر و القهر وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ أى: بفائتين على اللّه بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما شاء من العقوبة أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ أى: يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعه له وَ يَقْدِرُ أى: يقبضه لمن يشاء أن يقبضه و يضيقه عليه.

قال مقاتل: و عظهم اللّه ليعتبروا فى توحيده، و ذلك حين مطروا بعد سبع سنين، فقال: أو لم يعلموا أن اللّه يوسع الرزق لمن يشاء و يقتر على من يشاء إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أى: فى ذلك المذكور لدلالات عظيمة و علامات جليلة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ و خصّ المؤمنين لأنهم المنتفعون بالآيات المتفكرون فيها. ثم لما ذكر سبحانه ما ذكره من الوعيد عقبه بذكر سعة رحمته و عظيم مغفرته و أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يبشرهم بذلك فقال: قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ المراد بالإسراف: الإفراط فى المعاصى، و الاستكثار منها، و معنى لا تقنطوا: لا تيأسوا من رحمة اللّه: من مغفرته. ثم لما نهاهم عن القنوط أخرهم بما يدفع ذلك و يرفعه و يجعل الرجاء مكان القنوط فقال: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً.

و اعلم أن هذه الآية أرجى آية فى كتاب اللّه سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أوّلا أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، و مزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف فى المعاصى، و الاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهى عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهى عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، و بفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك و لا يتخالج القلب عند سماعه ظنّ، فقال: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ فالألف و اللام قد صيرت الجمع الذى دخلت عليه للجنس الذى يستلزم استغراق أفراده، فهو فى قوّة: إن اللّه يغفر كلّ ذنب كائنا ما كان، إلا ما أخرجه النصّ القرآنى و هو الشرك إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* «۳» ثم لم يكتف بما أخبر عباده من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: جَمِيعاً فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم الصادقين فى رجائه. الخالعين لثياب القنوط الرافضين لسوء الظنّ بمن لا يتعاظمه ذنب، و لا يبخل بمغفرته و رحمته على عباده المتوجهين إليه فى طلب العفو الملتجئين به فى مغفرة ذنوبهم و ما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلا إنه هو الغفور الرحيم. أى: كثير المغفرة و الرحمة؛ عظيمهما؛ بليغهما؛ واسعهما، فمن

---

(۱). القصص: ۷۸.

(۲). الشورى: ۴۰.

(۳). النساء: ۴۸.

أبى هذا التفضل العظيم و العطاء الجسيم؛ و ظنّ أن تقنيط عباد اللّه و تأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم اللّه به؛ فقد ركب أعظم الشطط و غلط أقبح الغلط، فإن التبشير و عدم التقنيط الذى جاءت به مواعيد اللّه فى كتابه العزيز، و المسلك الذى سلكه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم كما صح عنه من قوله: «يسّروا و لا تعسّروا، و بشّروا و لا تنفّروا».

و إذا تقرّر لك هذا فاعلم أن الجمع بين هذه الآية و بين قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* هو أن كلّ ذنب كائنا ما كان ما عدا الشرك باللّه مغفور لمن شاء اللّه أن يغفر له، على أنه يمكن أن يقال إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعا يدل على أنه يشاء غفرانها جميعا، و ذلك يستلزم أنه يشاء المغفرة لكلّ المذنبين من المسلمين، فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية. و أما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة و أنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين و

زعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات. فهو جمع بين الضب و النون، و بين الملاح و الحادى، و على نفسها براقش تجنى، و لو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر اللّه بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، و قد قال: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* فلو كانت التوبة قيدا فى المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، و قد قال سبحانه وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ «۱» قال الواحدى: المفسرون كلهم قالوا: إن هذه الآية فى قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك و قتل النفس و معاداة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم.

قلت: هب أنها فى هؤلاء القوم، فكان ماذا؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب كما هو متفق عليه بين أهل العلم، و لو كانت الآيات القرآنية، و الأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها، و اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله.

و فى السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة فى الصحيحين و غيرهما فى هذا الباب ما إن عرفه المطلع عليه حقّ معرفته و قدّره حقّ قدره علم صحة ما ذكرناه و عرف حقيقة ما حررناه. قرأ الجمهور «يا عبادى» بإثبات الياء وصلا و وقفا، و روى أبو بكر عن عاصم أنه يقف بغير ياء. و قرأ الجمهور «تقنطوا» بفتح النون، قرأ أبو عمرو و الكسائى بكسرها وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ أى: ارجعوا إليه بالطاعة. لما بشرهم سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعا، أمرهم بالرجوع إليه بفعل الطاعات و اجتناب المعاصى، و ليس فى هذا ما يدلّ على تقييد الآية الأولى بالتوبة لا بمطابقة، و لا تضمن، و لا التزام، بل غاية ما فيها أنه بشرهم بتلك البشارة العظمى، ثم دعاهم إلى الخير و خوّفهم من الشرّ على أنه يمكن أن يقال:

إن هذه الجملة مستأنفة خطابا للكفار الذين لم يسلموا بدليل قوله: وَ أَسْلِمُوا لَهُ جاء بها لتحذير الكفار و إنذارهم بعد ترغيب المسلمين بالآية الأولى و تبشيرهم، و هذا و إن كان بعيدا و لكنه يمكن أن يقال به، و المعنى على ما هو الظاهر: أن اللّه جمع لعباده بين التبشير العظيم، و الأمر بالإنابة إليه و الإخلاص له و الاستسلام لأمره

---

(۱). الرعد: ۶.

و الخضوع لحكمه، و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ أى: عذاب الدنيا كما يفيده قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ فليس فى ذلك ما يدلّ على ما زعمه الزاعمون، و تمسك به القانطون المقنطون، و الحمد للّه رب العالمين وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ يعنى: القرآن، يقول: أحلوا حلاله، و حرموا حرامه، و القرآن كله حسن. قال الحسن: التزموا طاعته و اجتنبوا معاصيه. و قال السدّى: الأحسن ما أمر اللّه به فى كتابه. و قال ابن زيد: يعنى المحكمات، و كلوا علم المتشابه إلى عالمه. و قيل: الناسخ دون المنسوخ، و قيل: العفو دون الانتقام بما يحق فيه الانتقام، و قيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ أى: من قبل أن يفاجئكم العذاب؛ و أنتم غافلون عنه لا تشعرون به، و قيل: أراد أنهم يموتون بغتة فيقعون فى العذاب. و الأوّل أولى لأن الذى يأتيهم بغتة هو العذاب فى الدنيا بالقتل، و الأسر، و القهر، و الخوف، و الجدب، لا عذاب الآخرة، و لا الموت، لأنه لم يسند الإتيان إليه أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ قال البصريون: أى حذرا أن تقول. و قال الكوفيون: لئلا تقول. قال المبرد: بادروا خوف أن تقول، أو حذرا من أن تقول نفس. و قال الزجاج: خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها: يا حسرتا على ما فرّطت فى جنب اللّه، قيل: و المراد بالنفس هنا النفس الكافرة، و قيل: المراد به التكثير كما فى قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ «۱» قرأ الجمهور «يا حسرتا» بالألف بدلا من الياء المضاف إليها، و

الأصل يا حسرتى، و قرأ ابن كثير «يا حسرتاه» بهاء السكت وقفا، و قرأ أبو جعفر «يا حسرتى» بالياء على الأصل. و الحسرة: الندامة، و معنى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ على ما فرّطت فى طاعة اللّه، قاله الحسن. و قال الضحاك: على ما فرّطت فى ذكر اللّه، و يعنى به القرآن، و العمل به. و قال أبو عبيدة فِي جَنْبِ اللَّهِ أى: فى ثواب اللّه. و قال الفراء: الجنب: القرب و الجوار، أى: فى قرب اللّه و جواره، و منه قوله: وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ «٢» و المعنى على هذا القول، على ما فرّطت فى طلب جنب اللّه: أى فى طلب جواره و قربه و هو الجنة، و به قال ابن الأعرابى و قال الزجاج: أى فرّطت فى الطريق الذى هو طريق اللّه من توحيده و الإقرار بنبوّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و على هذا فالجنب بمعنى الجانب:

أى قصرت فى الجانب الذى يؤدّى إلى رضا اللّه، و منه قول الشاعر:

النّاس جنب و الأمير جنبا «٣» أى الناس من جانب و الأمير من جانب وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أى: و ما كنت إلا من المستهزئين بدين اللّه فى الدنيا، و محل الجملة النصب على الحال. قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة اللّه حتى سخر من أهلها أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أى لو أن اللّه أرشدنى إلى دينه لكنت ممن يتقى الشرك و المعاصى، و هذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة، و يتعللون به من العلل الباطلة كما فى قوله:

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا «٤» فهى كلمة حقّ يريدون بها باطلا. ثم ذكر سبحانه مقالة.

---

(١). التكوير: ١۴.

(٢). النساء: ٣۶.

(٣). و صدره: قسم مجهودا لذاك القلب.

(۴). الأنعام: ١۴٨.

أخرى مما قالوا فقال: أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً أى: رجعة إلى الدنيا فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ المؤمنين باللّه الموحدين له، المحسنين فى أعمالهم، و انتصاب أكون: إما لكونه معطوفا على كرّة فإنها مصدر و أكون فى تأويل المصدر: كما فى قول الشاعر:

للبس عباءة و تقرّ عينى أحبّ إلىّ من لبس الشّفوف

و أنشد الفرّاء على هذا:

فما لك منها غير ذكرى و خشيةو تسأل عن ركبانها أين يمّموا

و إما لكونه جواب التمنى المفهوم من قوله: لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً. ثم ذكر سبحانه جوابه على هذه النفس المتمنية المتعللة بغير علة فقال: بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ

المراد بالآيات: هى الآيات التنزيلية و هو القرآن، و معنى التكذيب بها قوله: إنها ليست من عند اللّه و تكبر عن الإيمان بها، و كان مع ذلك التكذيب و الاستكبار من الكافرين باللّه. و جاء سبحانه بخطاب المذكر فى قوله:

جاءتك و كذّبت و استكبرت و كنت، لأن النفس تطلق على المذكر و المؤنث. قال المبرد: تقول العرب نفس واحد، أى: إنسان واحد، و بفتح التاء فى هذه المواضع قرأ الجمهور. و قرأ الجحدرى، و أبو حيوة، و يحيى ابن يعمر بكسرها فى جميعها، و هى قراءة أبى بكر، و ابنته عائشة، و أمّ سلمة، و رويت عن ابن كثير وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أى: ترى الذين كذبوا على اللّه بأن له شركاء و صاحبة و ولدا وجوههم مسودّة لما أحاط بهم من العذاب، و شاهدوه من غضب اللّه

و نقمته، و جملة «وجوههم مسودّة» فى محل نصب على الحال. قال الأخفش: ترى غير عامل فى وجوههم مسوّدة، إنما هو مبتدأ و خبر، و الأولى أن ترى إن كانت من الرؤية البصرية، فجملة «وجوههم مسودّة» حالية، و إن كانت قلبية فهى فى محل نصب على أنها المفعول الثانى لترى، و الاستفهام فى قوله: أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ للتقرير، أى: ليس فيها مقام للمتكبرين عن طاعة اللّه، و الكبر هو بطر الحقّ و غمط الناس كما ثبت فى الحديث الصحيح وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا أى: اتقوا الشرك و معاصى اللّه، و الباء فى بِمَفازَتِهِمْ متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول، أى: متلبسين بمفازتهم. قرأ الجمهور بمفازتهم بالإفراد على أنها مصدر ميمى و الفوز: الظفر بالخير، و النجاة من الشرّ. قال المبرد: المفازة مفعلة من الفوز و هو السعادة، و إن جمع فحسن:

كقولك السعادة و السعادات. و المعنى ينجيهم اللّه بفوزهم، أى: بنجاتهم من النار، و فوزهم بالجنة. و قرأ حمزة، و الكسائى، و أبو بكر بمفازاتهم جمع مفازة، و جمعها مع كونها مصدر لاختلاف الأنواع، و جملة لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ فى محل نصب على الحال من الموصول، و كذلك جملة وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ فى محل نصب على الحال: أى ينفى السوء و الحزن عنهم و يجوز أن تكون الباء فى بمفازتهم للسببية، أى: بسبب فوزهم مع انتفاء مساس السوء لهم، و عدم وصول الحزن إلى قلوبهم لأنهم رضوا بثواب اللّه، و أمنوا من عقابه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم قال السيوطى بسند صحيح و ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۵۴۲

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا الآية فى مشركى أهل مكة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عمر قال: كنا نقول ليس لمفتتن توبة و ما اللّه بقابل منه شيئا، عرفوا اللّه و آمنوا به و صدّقوا رسوله ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم، و كانوا يقولونه لأنفسهم، فلما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم المدينة أنزل اللّه فيهم يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا الآيات؛ قال ابن عمر: فكتبتها بيدى، ثم بعثت بها إلى هشام بن العاصى. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن أبى سعد قال: لما أسلم وحشى أنزل اللّه وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَ لا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِ «۱» قال وحشىّ و أصحابه: قد ارتكبنا هذا كله، فأنزل اللّه قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا الآية. و أخرج البخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة قال: «خرج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم على رهط من أصحابه و هم يضحكون و يتحدّثون فقال: و الذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، و لبكيتم كثيرا، ثم انصرف و أبكى القوم، و أوحى اللّه إليه: يا محمد لم تقنط عبادى؟ فرجع النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فقال: أبشروا و سدّدوا و قاربوا». و أخرج ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن عمر بن الخطاب أنها نزلت فيمن افتتن. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس أنها نزلت فى مشركى مكة لما قالوا إن اللّه لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك و قتل الأنفس و غير ذلك. و أخرج أحمد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن ثوبان:

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «ما أحبّ أن لى الدنيا و ما فيها بهذه الآية يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ إلى آخر الآية، فقال رجل و من أشرك؟ فسكت النبى صلّى اللّه عليه و سلم، قال ألا و من أشرك ثلاث مرات». و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و أبو داود، و الترمذى و حسنه، و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و الحاكم، و ابن مردويه عن أسماء بنت يزيد سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ «يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه إن اللّه يغفر الذنوب جميعا و لا يبالى إنه هو الغفور الرحيم». و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا فى حسن الظن باللّه و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود أنه مرّ على قاض يذكر الناس فقال: يا مذكر الناس

لا تقنط الناس، ثم قرأ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا الآيۀ. و أخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال: قال عليّ: أيّ آيۀ أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ «۲» الآيۀ و نحوها، فقال عليّ: ما في القرآن أوسع من يا عِبادِيَ الآيـۀ. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر عن ابن عبـاس في قوله: يـا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ الآيـۀ قال: قـد دعا اللّه إلى مغفرتـه مـن زعـم أن المسيح ابن اللّه، و من زعم أن عزيرا ابن اللّه، و من زعم أن اللّه فقير، و من زعم أن يـد اللّه مغلولـۀ، و من زعم أن اللّه ثـالث لهؤلاء أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء من فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى «۳» و قـال: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي «۴» قال ابن عباس؛ و من آيس العباد من التوبـۀ بعد هذا فقد جحد كتاب اللّه، و لكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب اللّه عليه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر،

---

(۱). الفرقان: ۶۸.

(۲). النساء: ۱۱۰.

(۳). النازعات: ۲۴.

(۴). القصص: ۳۸.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴۳

و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ قال: أخبر اللّه ما العباد قائلون قبل أن يقولوا، و علمهم قبل أن يعلموا.

[سورۀ الزمر (۳۹): الآيات ۶۲ الى ۷۲]

اللَّهُ خـالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ وَ هُوَ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ وَكِيـلٌ (۶۲) لَهُ مَقالِيـدُ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِيـنَ كَفَرُوا بِآيـاتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۶۳) قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (۶۴) وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (۶۵) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۶)

وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۷) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمـاواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شـاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَـإِذا هُمْ قِيـامٌ يَنْظُرُونَ (۶۸) وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهـا وَ وُضِعَ الْكِتـابُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۶۹) وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (۷۰) وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُهـا فُتِحَتْ أَبْوابُهـا وَ قـالَ لَهُمْ خَزَنَتُهـا أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هـذا قالُوا بَلى وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (۷۱)

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۷۲)

قوله: اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ من الأشياء الموجودۀ في الدنيا و الآخرۀ كائنا ما كان من غير فرق بين شيء و شيء، و قد تقدّم تفسير هذه الآيۀ في الأنعام وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أي: الأشياء كلها موكولۀ إليه فهو القائم بحفظها و تدبيرها من غير مشارك له لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ المقاليد واحدها مقليد و مقلاد أو لا واحد له من لفظه كأساطير، و هي مفاتيح السموات و الأرض، و الرزق و الرحمـۀ. قاله مقاتل و قتادۀ و غيرهما. و قال الليث: المقلاد الخزانۀ، و معنى الآيۀ له خزائن السموات و الأرض، و به قال الضحاك و السدّي. و قيل: خزائن السموات: المطر، و خزائن الأرض: النبات. و قيل: هي عبارۀ عن قدرته سبحانه و حفظه لها، و الأوّل أولى. قال الجوهري: الإقليد المفتاح، ثم قال: و الجمع مقاليد، و قيل: هي لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر، و سبحان اللّه و بحمده،

و أستغفر اللّه، و لا حول و لا قوّة إلا باللّه. و قيل: غير ذلك وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ أى: بالقرآن و سائر الآيات الدالـة على اللّه سبحانه و توحيده، و معنى الخاسرون: الكاملون فى الخسران لأنهم صاروا بهذا الكفر إلى النار قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ الاستفهام للإنكار التوبيخى، و الفاء للعطف على مقـدّر كنظائره، و غير منصوب بأعبـد، و أعبد معمول لتأمرونى على تقدير أن المصدرية، فلما حذفت بطل عملها، و الأصل: أفتأمرونى أن أعبد غير اللّه.

قاله الكسائى و غيره. و يجوز أن يكون غير: منصوبا بتأمرونى، و أعبد: بدل منه بدل اشتمال، و أن مضمرة معه أيضا. و يجوز أن يكون غير منصوبة بفعل مقدر، أى: أ فتلزمونى غير اللّه، أى: عبادة غير اللّه، أو أعبد غير اللّه أعبد. أمره اللّه سبحانه أن يقول هذا للكفار لما دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام، و قالوا هو

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴۴

دين آبائك. قرأ الجمهور «تأمرونّى» بإدغام نون الرفع فى نون الوقاية على خلاف بينهم فى فتح الياء و تسكينها.

و قرأ نافع «تأمرونى» بنون خفيفة و فتح الياء، و قرأ ابن عامر «تأمروننى» بالفك و سكون الياء وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ أى: من الرسل لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ هـذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل، لأن اللّه سبحانه قد عصمهم عن الشرك، و وجه إيراده على هذا الوجه التحذير، و الإنذار للعباد من الشرك، لأنه إذا كان موجبا لإحباط عمل الأنبياء على الفرض، و التقـدير: فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى. قيل: و فى الكلام تقـديم و تأخير، و التقدير: و لقد أوحى إليك لئن أشركت و أوحى إلى الذين من قبلك كذلك. قال مقاتل: أى أوحى إليك و إلى الأنبياء قبلك بالتوحيد و التوحيد محذوف، قال: لئن أشركت يا محمد ليحبطن عملك، و هو خطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلم خاصة. و قيل إفراد الخطاب فى قوله: لَئِنْ أَشْرَكْتَ باعتبار كل واحد من الأنبياء، كأنه قيل أوحى إليك و إلى كل واحد من الأنبياء هـذا الكلام، و هو لئن أشركت، و هذه الآية مقيدة بالموت على الشرك كما فى الآية الأخرى وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ «۱» و قيل: هذا خاص بالأنبياء لأن الشرك منهم أعظم ذنبا من الشرك من غيرهم، و الأوّل أولى، ثم أمر اللّه سبحانه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بتوحيده، فقال: بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ و فى هذا ردّ على المشركين حيث أمروه بعبادة الأصنام، و وجه الردّ ما يفيده التقديم من القصر. قال الزجاج: لفظ اسم اللّه منصوب باعبد قال: و لا اختلاف فى هذا بين البصريين و الكوفيين. قال الفراء: هو منصوب بإضمار فعل، و روى مثله عن الكسائى، و الأوّل أولى. قال الزجاج: و الفاء فى فاعبد للمجازاة. و قال الأخفش: زائدة. قال عطاء و مقاتل معنى فاعبد: وحد، لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ لإنعامه عليك بما هداك إليه من التوحيد و الدعاء إلى دينه و اختصك به من الرسالة وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ قال المبرد: أى عظموه حق عظمته، من قولك فلان عظيم القدر، و إنما وصفهم بهذا لأنهم عبدوا غير اللّه و أمروا رسوله بأن يكون مثلهم فى الشرك. و قرأ الحسن، و أبو حيوة، و عيسى بن عمر قدّروا بالتشديد وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ القبضة فى اللغة ما قبضت عليه بجميع كفك، فأخبر سبحانه عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمها و كثافتها فى مقدوره كالشىء الذى يقبض عليه القابض بكفه كما يقولون: هو فى يد فلان و فى قبضته للشىء الذى يهون عليه التصرّف فيه و إن لم يقبض عليه، و كذا قوله: وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ فإن ذكر اليمين للمبالغة فى كمال القدرة كما يطوى الواحد منا الشىء المقدور له طيه بيمينه، و اليمين فى كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة و الملك. قال الأخفش بيمينه يقول فى قدرته، نحو قوله: أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ «۲» أى: ما كانت لكم قدرة عليه، و ليس الملك لليمين دون الشمال و سائر الجسد، و منه قوله سبحانه: لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ «۳» أى: بالقوّة و القدرة، و منه قول الشاعر:

إذا ما راية نصبت لمجدتلقّاها عرابة باليمين

(۱). البقرة: ۲۱۷.

(۲). النساء: ۳.

(۳). الحاقة: ۴۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴۵

و قول الآخر:

و لمّا رأيت الشمس أشرق نورهاتناولت منها حاجتى بيمين

و قول الآخر:

عطست بأنف شامخ و تناولت يداى الثّريّا قاعدا غير قائم

و جملة وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ فى محل نصب على الحال، أى: ما عظموه حق تعظيمه، و الحال أنه متصف بهذه الصفة الدالة على كمال القدرة. قرأ الجمهور برفع «قبضته» على أنها خبر المبتدأ، و قرأ الحسن بنصبها، و وجه ابن خالويه بأنه على الظرفية: و قرأ الجمهور «مطويّات» بالرفع على أنها خبر المبتدأ، و الجملة فى محل نصب على الحال كالتى قبلها، و بيمينه متعلق بمطويات، أو حال من الضمير فى مطويات أو خبر ثان، و قرأ عيسى و الجحدرى بنصب «مطويات»، و وجه ذلك أن السموات معطوفة على الأرض، و تكون قبضته خبرا عن الأرض و السموات، و تكون مطويات حالا، أو تكون مطويات منصوبة بفعل مقدّر، و بيمينه الخبر، و خصّ يوم القيامة بالذكر و إن كانت قدرته شاملة، لأن الدعاوى تنقطع فيه كما قال سبحانه: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ «۱» و قال: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ «۲» ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ به من المعبودات التى يجعلونها شركاء له مع هذه القدرة العظيمة و الحكمة الباهرة وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ هذه هى النفخة الأولى، و الصور: هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل، و قد تقدّم غير مرة، و معنى صعق: زالت عقولهم فخرّوا مغشيا عليهم، و قيل: ماتوا. قال الواحدى: قال المفسرون مات من الفزع؛ و شدة الصوت أهل السموات و الأرض. قرأ الجمهور الصُّورِ بسكون الواو، و قرأ قتادة و زيد بن على بفتحها جمع صورة، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ متصل، و المستثنى جبريل، و ميكائيل، و إسرافيل، و قيل: رضوان، و حملة العرش، و خزنة الجنة و النار ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى يجوز أن يكون أخرى فى محل رفع على النيابة و هى صفة لمصدر محذوف، أى: نفخة أخرى، و يجوز أن يكون فى محل نصب و القائم مقام الفاعل فيه فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ يعنى الخلق كلهم على أرجلهم ينظرون ما يقال لهم، أو ينتظرون ذلك. قرأ الجمهور «قيام» بالرفع على أنه خبر، و ينظرون فى محل نصب على الحال، و قرأ زيد بن علىّ بالنصب على أنه حال، و الخبر ينظرون، و العامل فى الحال ما عمل فى إذا الفجائية. قال الكسائى كما تقول خرجت فإذا زيد جالسا وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها الإشراق الإضاءة، يقال أشرقت الشمس: إذا أضاءت، و شرقت: إذا طلعت، و معنى بنور ربها: بعدل ربها، قاله الحسن و غيره. و قال الضحاك: بحكم ربها، و المعنى: أن الأرض أضاءت و أنارت بما أقامه اللّه من العدل بين أهلها، و ما قضى به من الحق فيهم، فالعدل نور و الظلم ظلمات. و قيل: إن اللّه يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض؛ فتشرق به غير نور الشمس و القمر، و لا مانع من الحمل على المعنى الحقيقى، فإن اللّه سبحانه هو نور السموات

(۱). الحج: ۵۶.

(۲). الفاتحة: ۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴۶

و الأرض. قرأ الجمهور «أشرقت» مبنيا للفاعل، و قرأ ابن عباس، و أبو الجوزاء، و عبيد بن عمير على البناء للمفعول وَ وُضِعَ الْكِتابُ قيل: هو اللوح المحفوظ. و قال قتادة: يعنى الكتب و الصحف التى فيها أعمال بنى آدم فآخذ بيمينه و آخذ بشماله، و كذا قال مقاتل. و قيل: هو من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه، أى: وضع الكتاب للحساب وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ أى: جيء بهم إلى الموقف فسئلوا عما أجابتهم به أممهم وَ الشُّهَداءِ الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم كما فى قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ «۱» و قيل: المراد بالشهداء الذين استشهدوا فى سبيل اللّه، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين اللّه. و قيل: هم الحفظة كما قال تعالى: وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ «۲» وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ أى: و قضى بين العباد بالعدل و الصدق، و الحال أنهم لا يظلمون: أى لا ينقصون من ثوابهم، و لا يزاد على ما يستحقونه من عقابهم وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من خير و شرّ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ فى الدنيا لا يحتاج إلى كاتب، و لا حاسب، و لا شاهد، و إنما وضع الكتاب، و جيء بالنبيين و الشهداء لتكميل الحجة و قطع المعذرة. ثم ذكر سبحانه تفصيل ما ذكره من توفية كل نفس ما كسبت فقال: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً أى: سيق الكافرون إلى النار حال كونهم زمرا، أى: جماعات متفرقة بعضها يتلو بعضا. قال أبو عبيدة و الأخفش، زمرا: جماعات متفرّقة بعضها إثر بعض، و منه قول الشاعر:

و ترى الناس إلى أبوابه زمرا تنتابه بعد زمر

و اشتقاقه من الزمر، و هو الصوت، إذ الجماعة لا تخلو عنه حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها أى:

فتحت أبواب النار ليدخلوها، و هى سبعة أبواب، و قد مضى بيان ذلك فى سورة الحجر وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها جمع خازن نحو سدنة و سادن أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ أى: من أنفسكم يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ التى أنزلها عليهم وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا أى: يخوّفونكم لقاء هذا اليوم الذى صرتم فيه، قالوا لهم هذا القول تقريعا و توبيخا، فأجابوا بالاعتراف، و لم يقدروا على الجدل الذى كانوا يتعللون به فى الدنيا لانكشاف الأمر و ظهوره، و لهذا قالُوا بَلى أى: قد أتتنا الرسل بآيات اللّه، و أنذرونا بما سنلقاه وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ و هى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ*، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ التى قد فتحت لكم لتدخلوها و انتصاب خالِدِينَ على الحال، أى: مقدّرين الخلود فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ المخصوص بالذم محذوف، أى: بئس مثواهم جهنم، و قد تقدّم تحقيق المثوى فى غير موضع.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: مفاتيحها. و أخرج أبو يعلى، و يوسف القاضى فى سننه، و أبو الحسن القطان، و ابن

---

(۱). البقرة: ۱۴۳.

(۲). ق: ۲۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴۷

السنى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن عثمان بن عفان قال: سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن قول اللّه لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فقال لى: «يا عثمان لقد سألتنى عن مسألة لم يسألنى عنها أحد قبلك، مقاليد السموات و الأرض: لا إله إلا اللّه، و اللّه أكبر، و سبحانه اللّه، و الحمد للّه، و أستغفر اللّه الذى لا إله إلا هو، الأوّل و الآخر، و الظاهر و الباطن، يحيى و يميت و هو حىّ لا يموت، بيده الخير و هو على كل شيء قدير؛ ثم ذكر فضل هذه الكلمات» و أخرجه ابن مردويه عن ابن

عباس عن عثمان قال: جاء إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقال له: أخبرنى عن مقاليد السموات و الأرض، فذكره. و أخرجه الحارث بن أبى أسامة، و ابن مردويه عن أبى هريرة عن عثمان. و أخرجه العقيلى، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عمر عن عثمان.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن قريشا دعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، و يزوجوه ما أراد من النساء و يطئون عقبه، فقالوا له: هذا لك يا محمد و تكفّ عن شتم آلهتنا و لا تذكرها بسوء، قال: حتى أنظر ما يأتينى من ربى، فجاء بالوحى قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ إلى آخر السورة، و أنزل اللّه عليه قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ إلى قوله: مِنَ الْخاسِرِينَ و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: يا محمد إنا نجد أن اللّه يحمل السموات يوم القيامة على إصبع، و الشجر على إصبع، و الماء و الثرى على إصبع، و سائر الخلق على إصبع، فيقول أنا الملك، فضحك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «يقبض اللّه الأرض يوم القيامة و يطوى السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟» و فى الباب أحاديث، و آثار تقتضى حمل الآية على ظاهرها من دون تكلف لتأويل، و لا تعسف لقال و قيل، و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رجل من اليهود بسوق المدينة: و الذى اصطفى موسى على البشر، فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه، فقال: أتقول هذا و فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فذكرت ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال: «قال اللّه وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ فأكون أوّل من يرفع رأسه، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أرفع رأسه قبلى، أو كان ممن استثنى اللّه». و أخرج أبو يعلى، و الدارقطنى فى الأفراد، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ قال: «هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة يوم القيامة» الحديث. و أخرجه سعيد بن منصور، و عبد بن حميد من أقوال أبى هريرة. و أخرج الفريابى، و ابن جرير، و أبو نصر السجزى فى الإبانة، و ابن مردويه عن أنس أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن قوله: إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ فقال: «جبريل و ميكائيل و ملك الموت و إسرافيل و حملة العرش». و أخرج ابن المنذر عن جابر فى قوله: إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ قال: موسى، لأنه كان صعق قبل.

و الأحاديث الواردة فى كيفية نفخ الصور كثيرة. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله:

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴۸

وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ قال: النبيين: الرسل، و الشهداء: الذين يشهدون لهم بالبلاغ ليس فيهم طعان و لا لعان. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عنه فى الآية قال: يشهدون بتبليغ الرسالة و تكذيب الأمم إياهم.

[سورة الزمر (۳۹): الآيات ۷۳ الى ۷۵]

اشارة

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (۷۳) وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (۷۴) وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ

حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٧٥)

لما ذكر فيما تقدّم حال الذين كفروا و سوقهم إلى جهنم، ذكر هنا حال المتقين و سوقهم إلى الجنة فقال:

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً أى ساقتهم الملائكة سوق إعزاز و تشريف و تكريم. و قد سبق بيان معنى الزمر حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها جواب إذا محذوف. قال المبرد تقديره: سعدوا و فتحت، و أنشد قول الشاعر:

فلو أنّها نفس تموت جميعةو لكنّها نفس تساقط أنفسا

فحذف جواب لو، و التقدير: لكان أروح. و قال الزجاج: القول عندى أن الجواب محذوف على تقدير:

حتى إذا جاءوها، و كانت هذه الأشياء التى ذكرت دخلوها فالجواب دخلوها و حذف لأن فى الكلام دليلا عليه. و قال الأخفش و الكوفيون: الجواب فتحت و الواو زائدة، و هو خطأ عند البصريين، لأن الواو من حروف المعانى فلا تزاد. و قيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على اللّه، و التقدير: حتى إذا جاءوها و أبوابها مفتحة بدليل قوله: جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ «١» و حذفت الواو فى قصة أهل النار، لأنهم وقفوا على النار و فتحت بعد وقوفهم إذلالا و ترويعا. ذكر معناه النحاس منسوبا إلى بعض أهل العلم، قال: و لا أعلم أنه سبقه إليه أحد. و على هذا القول تكون الواو واو الحال بتقدير قد، أى: جاءوها و قد فتحت لهم الأبواب. و قيل: إنها واو الثمانية، و ذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا يقولون فى العدد: خمسة ستة سبعة و ثمانية، و قد مضى القول فى هذا فى سورة براءة مستوفى، و فى سورة الكهف أيضا. ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين فقال: وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ أى:

سلامة لكم من كلّ آفة طِبْتُمْ فى الدنيا فلم تتدنسوا بالشرك و المعاصى. قال مجاهد: طبتم بطاعة اللّه، و قيل: بالعمل الصالح، و المعنى واحد. قال مقاتل: إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة و النار فيقتصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم حتى إذا هذبوا و طيبوا قال لهم رضوان و أصحابه سَلامٌ عَلَيْكُمْ الآية فَادْخُلُوها أى: ادخلوا الجنة خالِدِينَ أى: مقدّرين الخلود فعند ذلك قال أهل الجنة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ بالبعث و الثواب بالجنة وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ أى: أرض الجنة كأنها صارت من غيرهم إليهم؛ فملكوها، و تصرفوا فيها، و قيل: إنهم ورثوا الأرض التى كانت لأهل النار لو كانوا

---

(١). ص: ٥٠.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٥٤٩

مؤمنين. قاله أكثر المفسرين. و قيل: إنها أرض الدنيا، و فى الكلام تقديم و تأخير نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ المخصوص بالمدح محذوف، أى:

فنعم أجر العاملين الجنة، و هذا من تمام قول أهل الجنة. و قيل: هو من قول اللّه سبحانه وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ أى: محيطين محدقين به، يقال حفّ القوم بفلان: إذا أطافوا به، و «من» مزيدة. قاله الأخفش، أو للابتداء، و المعنى: أن الرائى يراهم بهذه الصفة فى ذلك اليوم و جملة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ فى محل نصب على الحال، أى: حال كونهم مسبحين للّه متلبسين بحمده، و قيل: معنى يسبحون يصلون حول العرش شكرا لربهم، و الحافّين: جمع حافّ، قاله الأخفش. و قال الفراء: لا واحد له إذ لا يقع لهم هذا الاسم إلا مجتمعين وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ أى: بين العباد بإدخال بعضهم الجنة و بعضهم النار، و قيل: بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء و بين أممهم بالحق، و قيل: بين الملائكة بإقامتهم فى منازلهم على حسب درجاتهم، و الأوّل أولى وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ القائلون هم المؤمنون حمدوا اللّه على قضائه بينهم، و بين أهل النار بالحق، و قيل: القائلون هم

الملائكة حمدوا اللّه تعالى على عدله فى الحكم و قضائه بين عباده بالحقّ.
و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أوّل زمرة يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر، و الذين يلونهم على ضوء أشدّ كوكب درّىّ فى السماء إضاءة».
و أخرجا و غيرهما عن سهل بن سعد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «فى الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى باب الريان لا يدخله إلا الصائمون» و قد ورد فى كون أبواب الجنة ثمانية أبواب أحاديث فى الصحيحين و غيرهما.
و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ قال: أرض الجنة. و أخرج هناد عن أبى العالية مثله.
فتح القدير، ج۴، ص: ۵۵۰

سورة غافر

اشارة

فتح القدير ج۴ ۵۹۹
و هى سورة المؤمن، و تسمى سورة الطّول، و هى مكية فى قول الحسن، و عطاء، و عكرمة، و جابر. قال الحسن: إلا قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ لأن الصلوات نزلت بالمدينة. و قال ابن عباس و قتادة: إلا آيتين نزلتا بالمدينة، و هما إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ و التى بعدها، و هى خمس و ثمانون آية، و قيل: اثنتان و ثمانون آية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت سورة حم المؤمن بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج ابن الضريس، و النحاس، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت الحواميم السبع بمكة. و أخرج ابن مردويه، و الديلمى عن سمرة بن جندب قال: نزلت الحواميم جميعا بمكة. و أخرج محمد بن نصر و ابن مردويه عن أنس بن مالك سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «إنّ اللّه أعطانى السّبع «۱» مكان التوراة، و أعطانى الرّاءات إلى الطّواسين مكان الإنجيل، و أعطانى ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزّبور، و فضّلنى بالحواميم و المفصّل، ما قرأهنّ نبى قبلى». و أخرج أبو عبيد فى فضائله عن ابن عباس قال: إن لكل شىء لبابا، و إن لباب القرآن الحواميم.
و أخرج أبو عبيد، و ابن الضريس، و ابن المنذر، و الحاكم، و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال: الحواميم ديباج القرآن. و أخرج أبو عبيد و محمد بن نصر و ابن المنذر عنه قال: إذا وقعت فى الحواميم وقعت فى روضات دمثات أتأنق فيهنّ. و أخرج أبو الشيخ و أبو نعيم و الديلمى عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الحواميم ديباج القرآن». و أخرج البيهقى فى الشعب عن خليل بن مرّة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «الحواميم سبع، و أبواب النّار سبع، تجىء كلّ حم منها تقف على باب من هذه الأبواب تقول: اللّهمّ لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بى و يقرؤنى». و أخرج أبو عبيد، و ابن سعد، و محمد بن نصر، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ حم المؤمن إلى إليه المصير و آية الكرسىّ حين يصبح، حفظ بهما حتّى يمسى، و من قرأهما حين يمسى، حفظ بهما حتّى يصبح».
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة غافر (۴۰): الآيات ۱ الى ۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤)
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٥) وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (٦) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَ قِهِمُ السَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)

---

(١). و هى الطوال و آخرها براءة. انظر تفسير غريب القرآن؛ لابن قتيبة ص: ٣٥.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٥٥١

قوله: حم قرأ الجمهور بفتح الحاء مشبعا، و قرأ حمزة و الكسائى بإمالته إمالة محضة. و قرأ أبو عمرو بإمالته بين بين، و قرأ الجمهور حم بسكون الميم كسائر الحروف المقطعة. و قرأ الزهرى بضمها على أنها خبر مبتدأ مضمر أو مبتدأ و الخبر ما بعده. و قرأ عيسى بن عمر الثقفى بفتحها على أنها منصوبة بفعل مقدر أو على أنها حركة بناء لا حركة إعراب. و قرأ ابن أبى إسحاق و أبو السمال بكسرها لالتقاء الساكنين، أو بتقدير القسم. و قرأ الجمهور بوصل الحاء بالميم. و قرأ أبو جعفر بقطعها.
و قد اختلف فى معناه، فقيل: هو اسم من أسماء اللّه، و قيل: اسم من أسماء القرآن. و قال الضحاك و الكسائى: معناه قضى، و جعلاه بمعنى حمّ: أى قضى و وقع، و قيل: معناه حمّ أمر اللّه، أى: قرب نصره لأوليائه، و انتقامه من أعدائه. و هذا كله تكلف لا موجب له، و تعسف لا ملجئ إليه، و الحق أن هذه الفاتحة لهذه السورة، و أمثالها من المتشابه الذى استأثر اللّه بعلم معناه كما قدّمنا تحقيقه فى فاتحة سورة البقرة. تَنْزِيلُ الْكِتابِ هو خبر لحم على تقدير أنه مبتدأ، أو: خبر لمبتدأ مضمر، أو: هو مبتدأ، و خبره: مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ قال الرازى: المراد بتنزيل: المنزل، و المعنى: أن القرآن منزل من عند اللّه ليس بكذب عليه.
و العزيز: الغالب القاهر، و العليم: الكثير العلم بخلقه، و ما يقولونه و يفعلونه غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ قال الفراء: جعلها كالنعت للمعرفة، و هى نكرة، و وجه قوله هذا أن إضافتها لفظية، و لكنه يجوز أن تجعل إضافتها معنوية، كما قال سيبويه: أن كل ما إضافته غير محضة يجوز أن تجعل محضة، و توصف به المعارف إلا الصفة المشبهة. و أما الكوفيون فلم يستثنوا شيئا بل جعلوا الصفة المشبهة كاسم الفاعل فى جواز جعلها إضافة محضة، و ذلك حيث لا يراد بها زمان مخصوص، فيجوّزون فى شديد هنا أن تكون إضافته محضة.
و على قول سيبويه لا بدّ من تأويله بمشدد. و قال الزجاج: إن هذه الصفات الثلاث مخفوضة على البدل. و روى عنه أنه جعل غافر، و قابل: مخفوضين على الوصف، و شديد: مخفوض على البدل، و المعنى: غافر الذنب لأوليائه، و قابل توبتهم، و شديد العقاب لأعدائه، و التوب مصدر بمعنى التوبة من تاب يتوب توبة و توبا، و قيل: هو جمع توبة، و قيل: غافر الذنب لمن قال لا إله إلا اللّه، و قابل التوب من الشرك، و شديد العقاب لمن لا يوحده، و قوله: ذِي الطَّوْلِ يجوز أن يكون صفة، لأنه معرفة و أن يكون بدلا، و أصل الطول:
الإنعام و التفضل، أى: ذى الإنعام على عباده، و التفضّل عليهم. و قال مجاهد: ذى الغنى و السعة. و منه قوله: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا «١» أى: غنى وسعة، و قال عكرمة: ذى الطول ذى المنّ. قال

(۱). النساء: ۲۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۵۲

الجوهری: و الطول بالفتح المنّ يقال منه طال عليه و يطول عليه إذا امتنّ عليه. و قال محمد بن كعب: ذی الطول ذی التفضل. قال الماوردی: و الفرق بين المنّ و التفضل أن المنّ عفو عن ذنب، و التفضل إحسان غير مستحقّ. ثم ذكر ما يدلّ على توحيده و أنه الحقيق بالعبادة فقال: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ لا إلى غيره، و ذلك فی اليوم الآخر. ثم لما ذكر أن القرآن كتاب اللّه أنزله ليهتدى به فی الدين ذكر أحوال من يجادل فيه لقصد إبطاله فقال: ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أی: ما يخاصم فی دفع آيات اللّه و تكذيبها إلا الذين كفروا، و المراد الجدال بالباطل، و القصد إلى دحض الحقّ كما فی قوله: وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ فأما الجدال لاستيضاح الحقّ، و رفع اللبس، و البحث عن الراجح و المرجوح، و عن المحكم و المتشابه، و دفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، و ردّهم بالجدال إلى المحكم فهو من أعظم ما يتقرّب المتقرّبون، و بذلك أخذ اللّه الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ «۱» قال: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ «۲» و قال: وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ «۳» فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ لما حكم سبحانه على المجادلين فی آيات اللّه بالكفر، نهی رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن أن يغترّ بشیء من حظوظهم الدنيوية فقال: فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة فی البلاد، و ما يحصلونه من الأرباح، و يجمعونه من الأموال فإنهم معاقبون عما قليل، و إن أمهلوا فإنهم لا يهملون. قال الزجاج: لا يغررك سلامتهم بعد كفرهم، فإن عاقبتهم الهلاك. قرأ الجمهور «لا يغررك» بفك الإدغام. و قرأ زيد ابن علی، و عبيد بن عمير بالإدغام. ثم بين حال من كان قبلهم، و أن هؤلاء سلكوا سبيل أولئك فی التكذيب فقال: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ الضمير من بعدهم يرجع إلى قوم نوح، أی:

و كذبت الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل من بعد قوم نوح كعاد و ثمود وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ أی: همت كلّ أمة من تلك الأمم المكذبة برسولهم الذی أرسل إليهم ليأخذوه ليتمكنوا منه، فيحبسوه و يعذبوه و يصيبوا منه ما أرادوا. و قال قتادة و السدّی: ليقتلوه، و الأخذ قد يرد بمعنى الإهلاك، كقوله: ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ «۴» و العرب تسمی الأسير: الأخيذ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ أی: خاصموا رسولهم بالباطل من القول ليدحضوا به الحقّ ليزيلوه، و منه مكان دحض: أی مزلقة و مزلة أقدام، و الباطل: داحض لأنه يزلق، و يزول فلا يستقرّ. قال يحيى بن سلام: جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ أی: فأخذت هؤلاء المجادلين بالباطل، فكيف كان عقابی الذی عاقبتهم به، و حذف ياء المتكلم من عقاب اجتزاء بالكسرة عنها وصلا و وقفا لأنها رأس آية وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أی: وجبت و ثبتت و لزمت، يقال حقّ الشیء؛ إذا لزم و ثبت، و المعنى: و كما حقت كلمة العذاب على الأمم المكذبة لرسلهم حقت على الذين كفروا به، و جادلوك بالباطل، و تحزبوا عليك، و جملة أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ للتعليل، أی: لأجل أنهم مستحقون للنار. قال

(۱). آل عمران: ۱۸۷.

(۲). البقرة: ۱۵۹.

(۳). العنكبوت: ۴۶.

(۴). الحج: ۴۴.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۵۵۳

الأخفش: أی لأنهم، أو بأنهم. و یجوز أن تکون فی محل رفع بدلا من کلمة. قرأ الجمهور «کلمة» بالتوحید، و قرأ نافع و ابن عامر «کلمات» بالجمع. ثم ذکر أحوال حملة العرش و من حوله فقال: الَّذِینَ یَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ و الموصول: مبتدأ، و خبره: یسبحون بحمد ربهم، و الجملة مستأنفة مسوقة لتسلیة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم ببیان أن هذا الجنس من الملائکة الذین هم أعلی طبقاتهم یضمون إلی تسبیحهم للّه و الإیمان به الاستغفار للذین آمنوا باللّه و رسوله و صدّقوا، و المراد بمن حول العرش: هم الملائکة الذین یطوفون به مهللین مکبرین، و هو فی محل رفع عطفا علی الذین یحملون العرش، و هذا هو الظاهر. و قیل: یجوز أن تکون فی محل نصب عطفا علی العرش، و الأوّل أولی. و المعنی: أن الملائکة الذین یحملون العرش، و کذلک الملائکة الذین هم حول العرش ینزهون اللّه متلبسین بحمده علی نعمه، و یؤمنون باللّه، و یستغفرون اللّه لعباده المؤمنین به. ثم بین سبحانه کیفیة استغفارهم للمؤمنین فقال حاکیا عنهم رَبَّنا وَسِعْتَ کُلَّ شَیْ‏ءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً و هو بتقدیر القول: أی یقولون ربنا، أو قائلین: ربنا وسعت کل شی‏ء رحمة و علما، انتصاب رحمة و علما علی التمییز المحوّل عن الفاعل، و الأصل وسعت رحمتک و علمک کل شی‏ء فَاغْفِرْ لِلَّذِینَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِیلَکَ أی: أوقعوا التوبة عن الذنوب و اتبعوا سبیل اللّه، و هو دین الإسلام وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِیمِ أی: احفظهم منه رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ «و أدخلهم» معطوف علی قوله: «قهم» و وسط الجملة الندائیة لقصد المبالغة بالتکریر، و وصف جنات عدن بأنها الَّتِی وَعَدْتَهُمْ إیاها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّیَّاتِهِمْ أی: و أدخل من صلح، و المراد بالصلاح هاهنا: الإیمان باللّه و العمل بما شرعه اللّه، فمن فعل ذلک فقد صلح لدخول الجنة، و یجوز عطف (و من صلح) علی الضمیر فی وعدتهم:

أی و وعدت من صلح، و الأولی عطفه علی الضمیر الأوّل فی: و أدخلهم. قال الفراء و الزجاج: نصبه من مکانین إن شئت علی الضمیر فی أدخلهم، و إن شئت علی الضمیر فی وعدتهم. قرأ الجمهور بفتح اللام من صلح. و قرأ ابن أبی عبلة بضمها. و قرأ الجمهور «و ذریاتهم» علی الجمع. و قرأ عیسی بن عمر علی الإفراد إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ أی: الغالب القاهر الکثیر الحکمة الباهرة وَ قِهِمُ السَّیِّئاتِ أی:

العقوبات، أو: جزاء السیئات علی تقدیر مضاف محذوف. قال قتادة: و قهم ما یسوءهم من العذاب وَ مَنْ تَقِ السَّیِّئاتِ یَوْمَئِذٍ أی: یوم القیامة فَقَدْ رَحِمْتَهُ یقال وقاه یقیه وقایة: أی حفظه، و معنی فَقَدْ رَحِمْتَهُ أی: رحمته من عذابک و أدخلته جنتک، و الإشارة بقوله: وَ ذلِکَ إلی ما تقدّم من إدخالهم الجنات، و وقایتهم السیئات، و هو: مبتدأ، و خبره: هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ أی: الظفر الذی لا ظفر مثله، و النجاة التی لا تساویها نجاة.

و قد أخرج ابن مردویه عن أبی أمامة قال: حم اسم من أسماء اللّه. و أخرج عبد الرزاق فی المصنف، و أبو عبید، و ابن سعد، و ابن أبی شیبة، و أبو داود، و الترمذی، و الحاکم و صححه، و ابن مردویه عن المهلب ابن أبی صفرة قال: حدّثنی من سمع النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم یقول لیلة الخندق «إن أتیتم اللّیلة فقولوا حم لا ینصرون».

و أخرج ابن أبی شیبة، و النسائی، و الحاکم، و ابن مردویه عن البراء بن عازب أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم قال: «إنّکم

فتح القدیر، ج‏۴، ص: ۵۵۴

تلقون عدوّکم فلیکن شعارکم حم لا ینصرون». و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و البیهقی فی الأسماء و الصفات عن ابن عباس فی قوله: ذِی الطَّوْلِ قال: ذی السعة و الغنی. و أخرج الطبرانی فی الأوسط، و ابن مردویه عن ابن عمر فی قوله: غافِرِ الذَّنْبِ الآیة قال: غافر الذنب لمن یقول لا إله إلا اللّه قابِلِ التَّوْبِ ممن یقول لا إله إلا اللّه شَدِیدِ الْعِقابِ لمن لا یقول لا إله إلا اللّه ذِی الطَّوْلِ ذی الغنی لا إِلهَ إِلَّا هُوَ کانت کفار قریش لا یوحدونه فوحد نفسه إِلَیْهِ الْمَصِیرُ مصیر من یقول لا إله إلا اللّه فیدخله الجنة،

و مصير من لا يقول لا إله إلا اللّه فيدخله النار. و أخرج عبد بن حميد عن أبى هريرة قال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «إن جدالا فى القرآن كفر». و أخرج عبد بن حميد، و أبو داود عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «مراء فى القرآن كفر».

[سورة غافر (۴۰): الآيات ۱۰ الى ۲۰]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (۱۰) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (۱۱) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (۱۲) هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آياتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (۱۳) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (۱۴)

رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (۱۵) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (۱۶) الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۱۷) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ (۱۸) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِى الصُّدُورُ (۱۹)

وَ اللَّهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۲۰)

لما ذكر سبحانه حال أصحاب النار، و أنها حقت عليهم كلمة العذاب، و أنهم أصحاب النار ذكر أحوالهم بعد دخول النار فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ قال الواحدى قال المفسرون: إنهم لما رأوا أعمالهم، و نظروا فى كتابهم، و أدخلوا النار، و مقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم ناداهم حين عاينوا عذاب اللّه مناد لَمَقْتُ اللَّهِ إياكم فى الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ اليوم. قال الأخفش: هذه اللام فى لمقت هى لام الابتداء أوقعت بعد ينادون، لأن معناه يقال لهم، و النداء قول. قال الكلبى: يقول كل إنسان لنفسه من أهل النار: مقتّك يا نفس، فتقول الملائكة لهم و هم فى النار: لمقت اللّه إياكم فى الدنيا أشدّ من مقتكم أنفسكم اليوم. و قال الحسن: يعطون كتابهم، فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم، فينادون:

لمقت اللّه إياكم فى الدنيا إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ أكبر من مقتكم أنفسكم إذ عاينتم النار، و الظرف فى إِذْ تُدْعَوْنَ منصوب بمقدّر محذوف دلّ عليه المذكور، أى: مقتكم وقت دعائكم، و قيل: بمحذوف هو

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۵۵

اذكروا، و قيل: بالمقت المذكور، و المقت: أشدّ البغض، ثم أخبر سبحانه عما يقولون فى النار فقال: قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ اثنتين فى الموضعين نعتان لمصدر محذوف، أى: أمتنا إماتتين اثنتين، و أحييتنا إحياءتين اثنتين و المراد بالإماتتين: أنهم كانوا نطفا لا حياة لهم فى أصلاب آبائهم، ثم أماتهم بعد أن صاروا أحياء فى الدنيا، و المراد بالإحياءتين: أنه أحياهم الحياة الأولى فى الدنيا، ثم أحياهم عند البعث، و مثل هذه الآية قوله: وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ «۱» و قيل معنى الآية: أنهم أميتوا فى الدنيا عند انقضاء آجالهم ثم أحياهم اللّه فى قبورهم للسؤال، ثم أميتوا ثم أحياهم اللّه فى الآخرة، و وجه هذا القول أن الموت سلب الحياة، و لا حياة للنطفة. و وجه القول الأوّل أن الموت قد يطلق على عادم الحياة من الأصل، و قد ذهب إلى تفسير الأوّل جمهور السلف. و قال ابن زيد: المراد بالآية أنه خلقهم فى ظهر آدم و استخرجهم و أحياهم و أخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ثم أحياهم فى الدنيا ثم أماتهم. ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد أن صاروا فى النار بما كذبوا به فى الدنيا فقال حاكيا عنهم فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا التى أسلفناها فى الدنيا من تكذيب الرّسل و الإشراك باللّه و ترك توحيده، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف، و ندموا حيث لا ينفعهم الندم، و قد جعلوا اعترافهم هذا مقدّمة لقولهم: فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ أى: هل إلى خروج

لنا من النار، و رجوع لنا إلى الدنيا من سبيل، و مثل هذا قولهم الذى حكاه اللّه عنهم هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ «٢» و قوله: فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً «٣» و قوله: يا لَيْتَنا نُرَدُّ «۴» الآية. ثم أجاب اللّه سبحانه عن قولهم هذا بقوله: ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ أى: ذلك الذى أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دعى اللّه فى الدنيا وحده دون غيره كفرتم به، و تركتم توحيده وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ غيره من الأصنام أو غيرها تُؤْمِنُوا بالإشراك و تجيبوا الدّاعى إليه، فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار، و هو ما كانوا فيه من ترك توحيد اللّه، و إشراك غيره به فى العبادة التى رأسها الدّعاء، و محل ذلكم الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر ذلكم، أو: مبتدأ خبره محذوف، أى: ذلكم العذاب الذى أنتم فيه بذلك السبب، و فى الكلام حذف، و التقدير: فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الردّ، و ذلك لأنكم كنتم إذا دعى اللّه ... إلخ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ وحده دون غيره، و هو الذى حكم عليكم بالخلود فى النار، و عدم الخروج منها و الْعَلِيِ المتعالى عن أن يكون له مماثل فى ذاته و لا صفاته، و الْكَبِيرِ الذى كبر على أن يكون له مثل أو صاحبة أو ولد أو شريك هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ أى: دلائل توحيده، و علامات قدرته وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً يعنى المطر فإنه سبب الأرزاق. جمع سبحانه بين إظهار الآيات، و إنزال الأرزاق، لأن بإظهار الآيات قوام الأديان، و بالأرزاق قوام الأبدان، و هذه الآيات هى التكوينية التى جعلها اللّه سبحانه فى سماواته و أرضه، و ما فيهما و ما بينهما. قرأ الجمهور «ينزل» بالتشديد. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو بالتخفيف وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ أى: ما يتذكر و يتعظ بتلك الآيات الباهرة فيستدلّ بها على التوحيد، و صدق الوعد و الوعيد إلا من ينيب، أى: يرجع إلى طاعة اللّه بما يستفيده من النظر فى آيات اللّه. ثم لما ذكر سبحانه ما نصبه من

---

(١). البقرة: ٢٨.

(٢). الشورى: ۴۴.

(٣). السجدة: ١٢.

(۴). الأنعام: ٢٧.

الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه، و إخلاص الدّين له فقال: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى:

إذا كان الأمر كما ذكر من ذلك فادعوا اللّه وحده مخلصين له العبادة التى أمركم بها وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ ذلك، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، و دعوهم يموتوا بغيظهم و يهلكوا بحسرتهم رَفِيعُ الدَّرَجاتِ و ارتفاع رفيع الدرجات على أنه خبر آخر عن المبتدأ المتقدّم: أى هو الذى يريكم آياته، و هو رفيع الدرجات، و كذلك ذُو الْعَرْشِ خبر ثالث، و يجوز أن يكون رفيع الدرجات: مبتدأ، و خبره: «ذو العرش»، و يجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف، و رفيع صفة مشبهة. و المعنى: رفيع الصفات، أو رفيع درجات ملائكته:

أى معارجهم، أو رفيع درجات أنبيائه و أوليائه فى الجنة. و قال الكلبى و سعيد بن جبير: رفيع السموات السبع، و على هذا الوجه يكون رفيع بمعنى رافع، و معنى ذو العرش: مالكه و خالقه و المتصرف فيه، و ذلك يقتضى علوّ شأنه و عظم سلطانه، و من كان كذلك فهو الذى يحقّ له العبادة و يجب له الإخلاص، و جملة يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ فى محل رفع على أنها خبر آخر للمبتدأ المتقدّم أو للمقدّر، و معنى ذلك أنه سبحانه يلقى الوحى عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ و سمى الوحى روحا، لأن الناس يحيون به من موت الكفر. كما تحيا الأبدان بالأرواح و قوله: مِنْ أَمْرِهِ متعلق بيلقى، و «من» لابتداء الغاية، و يجوز أن يكون متعلقا بمحذوف على أنه حال من الروح، و مثل هذه الآية قوله تعالى: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا «١» و قيل الروح جبريل كما فى

قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِکَ «۲» و قوله: نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِ «۳» و قوله: عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ هم الأنبياء، و معنى مِنْ أَمْرِهِ من قضائه لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ قرأ الجمهور «لينذر» مبنيا للفاعل و نصب اليوم، و الفاعل هو اللّه سبحانه أو الرسول أو من يشاء، و المنذر به محذوف تقديره: لينذر العذاب يوم التلاق. و قرأ أبيّ و جماعة كذلك إلا أنه رفع اليوم على الفاعلية مجازا. و قرأ ابن عباس، و الحسن، و ابن السميقع «لتنذر» بالفوقية على أن الفاعل ضمير المخاطب و هو الرسول، أو ضمير يرجع إلى الرّوح لأنه يجوز تأنيثها. و قرأ اليمانى «لينذر» على البناء للمفعول، و رفع يوم على النيابة، و معنى يَوْمَ التَّلاقِ يوم يلتقى أهل السموات و الأرض فى المحشر، و به قال قتادة. و قال أبو العالية و مقاتل: يوم يلتقى العابدون و المعبودون، و قيل الظالم و المظلوم، و قيل الأوّلون و الآخرون، و قيل جزاء الأعمال و العاملون، و قوله: يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ بدل من يوم التلاق. و قال ابن عطية. هو منتصب بقوله: لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ و قيل: منتصب بإضمار اذكر، و الأوّل أولى، و معنى بارزون: خارجون من قبورهم لا يسترهم شىء، و جملة لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ مستأنفة مبينة لبروزهم و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير بارزون، و يجوز أن تكون خبرا ثانيا للمبتدأ: أى لا يخفى عليه سبحانه شىء منهم و لا من أعمالهم التى عملوها فى الدنيا، و جملة لِمَنِ الْمُلْکُ الْيَوْمَ مستأنفة جواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل: فماذا يقال عند بروز الخلائق فى ذلك اليوم؟ فقيل: يقال لمن الملك اليوم؟ قال المفسرون:

إذا هلك كل من فى السموات و الأرض، فيقول الرّبّ تبارك و تعالى: لِمَنِ الْمُلْکُ الْيَوْمَ يعنى يوم القيامة

---

(۱). الشورى: ۵۲.

(۲). الشعراء: ۱۹۳ و ۱۹۴.

(۳). النحل: ۱۰۲.

فلا يجيبه أحد فيجيب تعالى نفسه، فيقول: لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ قال الحسن: هو السائل تعالى، و هو المجيب حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه، و قيل: إنه سبحانه يأمر مناديا ينادى بذلك، فيقول أهل المحشر مؤمنهم و كافرهم: لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ و قيل: إنه يجيب المنادى بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار، و قيل:

هو حكاية لما ينطق به لسان الحال فى ذلك اليوم لانقطاع دعاوى المبطلين، كما فى قوله تعالى: وَ ما أَدْراکَ ما يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ ما أَدْراکَ ما يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لا تَمْلِکُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ «۱» و قوله:

الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ من تمام الجواب على القول بأن المجيب هو اللّه سبحانه، و أما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم أو بعضهم فهو مستأنف لبيان ما يقوله اللّه سبحانه بعد جوابهم، أى: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من خير و شرّ لا ظلم اليوم على أحد منهم بنقص من ثوابه أو بزيادة فى عقابه إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ أى: سريع حساب لأنه سبحانه لا يحتاج إلى تفكر فى ذلك كما يحتاجه غيره لإحاطة علمه بكل شىء فلا يعزب عنه مثقال ذرة. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله بإنذار عباده فقال: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ أى: يوم القيامة سميت بذلك لقربها، يقال أزف فلان: أى قرب، يأزف أزفا، و منه قول النابغة:

أزف التّرحّل غير أنّ ركابنالمّا تزل بركابنا و كأن قد

و منه قوله تعالى: أَزِفَتِ الْآزِفَةُ «۲» أى: قربت الساعة، و قيل: إن يوم الآزفة هو يوم حضور الموت، و الأوّل أولى. قال الزجاج: و قيل: لها آزفة لأنها قريبة، و إن استبعد الناس أمرها، و ما هو كائن فهو قريب إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ و ذلك أنها تزول

عن مواضعها من الخوف حتى تصير إلى الحنجرة كقوله: وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ «٣» كاظِمِينَ مغمومين، مكروبين، ممتلئين غما. قال الزجاج:

المعنى إذ قلوب الناس لدى الحناجر فى حال كظمهم. قال قتادة: وقعت قلوبهم فى الحناجر من المخافة، فهى لا تخرج و لا تعود فى أمكنتها. و قيل: هو إخبار عن نهاية الجزع، و إنما قال كاظمين باعتبار أهل القلوب، لأن المعنى: إذ قلوب الناس لدى حناجرهم، فيكون حالا منهم. و قيل: حالا من القلوب، و جمع الحال منها جمع العقلاء لأنه أسند إليها ما يسند إلى العقلاء، فجمعت جمعه. ثم بين سبحانه أنه لا ينفع الكافرين فى ذلك اليوم أحد فقال: ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ أى: قريب ينفعهم وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ فى شفاعته لهم، و محل يطاع الجر على أنه صفة لشفيع. ثم وصف سبحانه شمول علمه لكل شىء و إن كان فى غاية الخفاء فقال: يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ و هى مسارقة النظر إلى ما لا يحلّ النظر إليه، و الجملة خبر آخر لقوله: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ قال المؤرج: فيه تقديم و تأخير، أى: يعلم الأعين الخائنة. و قال قتادة: خائنة الأعين:

الهمز بالعين فيما لا يحب اللّه. و قال الضحاك: هو قول الإنسان ما رأيت، و قد رأى، و رأيت و ما رأى.

و قال سفيان: هى النظرة بعد النظرة. و الأول أولى، و به قال مجاهد وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ من الضمائر و تسرّه من معاصى اللّه وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِ فيجازى كل أحد بما يستحقه من خير و شرّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

---

(١). الانفطار: ١٧- ١٩.

(٢). النجم: ٥٧.

(٣). الأحزاب: ١٠.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٥٥٨

أى: تعبدونهم من دون اللّه لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ لأنهم لا يعلمون شيئا، و لا يقدرون على شىء: قرأ الجمهور «يدعون» بالتحتية يعنى: الظالمين، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و أبو حاتم، و قرأ نافع، و شيبة، و هشام بالفوقية على الخطاب لهم إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ فلا يخفى عليه من المسموعات و المبصرات خافية.

و قد أخرج الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه عن ابن مسعود فى قوله: أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ قال: هى مثل التى فى البقرة كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ «١» كانوا أمواتا فى صلب آبائهم ثم أخرجهم فأحياهم ثم أماتهم ثم يحييهم بعد الموت.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: كنتم ترابا قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة، فما موتتان و حياتان كقوله: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ الآية.

و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: يَوْمَ التَّلاقِ قال: يوم القيامة يلتقى فيه آدم و آخر ولده.

و أخرج عنه أيضا قال: يَوْمَ التَّلاقِ يوم الآزفة، و نحو هذا من أسماء يوم القيامة يلتقى فيه آدم و آخر ولده.

و أخرج عنه أيضا قال: يَوْمَ التَّلاقِ يوم الآزفة، و نحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه اللّه و حذره عباده.

و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و أبو نعيم فى الحلية عنه أيضا قال: ينادى مناد بين يدى الساعة: يا أيها الناس أتتكم الساعة، فيسمعها الأحياء و الأموات، و ينزل اللّه إلى السماء الدنيا فيقول: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ. و أخرج ابن أبى الدنيا فى البعث، و الديلمى عن أبى سعيد عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم مثله. و أخرج عبد

بن حميد عن ابن مسعود قال: «يجمع اللّه الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص اللّه فيها قط، فأول ما يتكلم أن ينادى مناد لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ فأول ما يبدأ به من الخصومات الدماء». و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ قال: الرجل يكون فى القوم فتمرّ بهم المرأة فيريهم أنه يغضّ بصره عنها، و إذا غفلوا لحظ إليها، و إذا نظروا غضّ بصره عنها، و قد اطلع اللّه من قلبه أنه ودّ أن ينظر إلى عورتها. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى الشعب عنه فى الآية قال: إذا نظر إليها يريد الخيانة أو لا وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ قال: إذا قدر عليها أ يزنى بها أم لا؟ ألا أخبركم بالتى تليها وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِ قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة، و بالسيئة السيئة.

و أخرج أبو داود، و النسائى، و ابن مردويه عن سعد قال: «لما كان يوم فتح مكة أمن النبى صلّى اللّه عليه و سلم الناس إلا أربعة نفر و امرأتين، و قال: اقتلوهم و إن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، منهم عبد اللّه بن سعد ابن أبى سرح، فاختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الناس إلى البيعة جاء به، فقال:

يا رسول اللّه بايع عبد اللّه، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى بيعته، ثم بايعه، ثم أقبل على أصحابه

---

(١). البقرة: ٢٨.

فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآنى كففت يدى عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: ما يدرينا يا رسول اللّه ما فى نفسك هلا اومأت إلينا بعينك؟ فقال: إنه لا ينبغى لنبى أن يكون له خائنة الأعين».

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٢١ الى ٢٩]

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (٢١) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢٢) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ (٢٥)

وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (٢٦) وَ قالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (٢٧) وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ (٢٩)

لما خوّفهم سبحانه بأحوال الآخرة؛ أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال: أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار بغيرهم، فإن الذين مضوا من الكفار كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً من هؤلاء الحاضرين من الكفار و أقوى وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ بما عمروا فيها من الحصون و القصور و بما لهم من العدد و العدّة، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم اللّه، و قوله:

فَيَنْظُرُوا إما مجزوم بالعطف على يسيروا، أو منصوب بجواب الاستفهام، و قوله: كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً بيان للتفاوت بين حال هؤلاء و أولئك، و قوله: وَ آثاراً عطف على قوّة. قرأ الجمهور «أشدّ منهم» و قرأ ابن عامر «أشد منكم» على الالتفات فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ أى: بسبب ذنوبهم وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ أى من دافع يدفع عنهم العذاب، و قد مرّ تفسير هذه الآية فى مواضع، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من الأخذ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى: بالحجج الواضحة فَكَفَرُوا بما جاءوهم به فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ يفعل كلّ ما يريده لا يعجزه شىء شَدِيدُ الْعِقابِ لمن عصاه و لم يرجع إليه، ثم ذكر سبحانه قصة موسى و فرعون ليعتبروا فقال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا هى التسع الآيات التى قد تقدّم ذكرها فى غير موضع وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ أى: حجة بينة واضحة، و هى التوراة إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا إنه ساحِرٌ كَذَّابٌ أى: فيما جاء به، و خصهم بالذكر لأنهم رؤساء المكذبين بموسى، ففرعون الملك، و هامان الوزير، و قارون صاحب الأموال

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۶۰

و الكنوز فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا و هى معجزاته الظاهرة الواضحة قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ قال قتادة: هذا قتل غير القتل الأوّل، لأن فرعون قد كان أمسك عن قتل الولدان وقت ولادة موسى، فلما بعث اللّه موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل، فكان يأمر بقتل الذكور، و ترك النساء، و مثل هذا قول فرعون سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ «۱» وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ أى:

فى خسران و وبال، لأنه يذهب باطلا، و يحيق بهم ما يريده اللّه عزّ و جلّ وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى إنما قال هذا لأنه كان فى خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل العذاب، و المعنى: اتركونى أقتله وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ الذى يزعم أنه أرسله إلينا فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك، أى: لا يهولنكم ذلك فإنه لا ربّ له حقيقة، بل أنا ربكم الأعلى، ثم ذكر العلة التى لأجلها أراد أن يقتله فقال: إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ الذى أنتم عليه من عبادة غير اللّه و يدخلكم فى دينه الذى هو عبادة اللّه وحده أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ أى: يوقع بين الناس الخلاف و الفتنة، جعل اللعين ظهور ما دعا إليه موسى، و انتشاره فى الأرض، و اهتداء الناس به فسادا، و ليس الفساد إلا ما هو عليه هو و من تابعه. قرأ الكوفيون و يعقوب «أو أن يظهر» بأو التى للإبهام، و المعنى: أنه لا بدّ من وقوع أحد الأمرين. و قرأ الباقون «و أن يظهر» بدون ألف على معنى وقوع الأمرين جميعا، و قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو بفتح الياء من «إنى أخاف» و قرأ نافع و أبو عمرو و حفص يظهر بضم الياء و كسر الهاء من أظهر، و فاعله ضمير موسى، و الفساد نصبا على أنه مفعول به، و قرأ الباقون بفتح الياء و الهاء، و رفع الفساد على الفاعلية وَ قالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الكسائى بإدغام الذال، و قرأ الباقون بالإظهار، لما هدّده فرعون بالقتل استعاذ باللّه عزّ و جلّ من كلّ متعظم عن الإيمان باللّه غير مؤمن بالبعث و النشور، و يدخل فرعون فى هذا العموم دخولا أوّليا وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ قال الحسن، و مقاتل، و السدّى: كان قبطيا، و هو ابن عم فرعون، و هو الذى نجا مع موسى، و هو المراد بقوله:

وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى «۲» الآية، و قيل: كان من بنى إسرائيل و لم يكن من آل فرعون و هو خلاف ما فى الآية، و قد تمحل لذلك بأن فى الآية تقديما و تأخيرا، و التقدير: و قال رجل مؤمن من بنى إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون. قال القشيرى: و من جعله إسرائيليا ففيه بعد، لأنه يقال كتمه أمر كذا و لا يقال كتم منه كما قال سبحانه وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً «۳» و أيضا ما كان فرعون يحتمل من بنى إسرائيل مثل هذا القول.

و قد اختلف فى اسم هذا الرجل، فقيل: حبيب، و قيل: حزقيل، و قيل: غير ذلك، قرأ الجمهور «رجل» بضم الجيم، و قرأ الأعمش و عبد الوارث بسكونها، و هى لغة تميم و نجد، و الأولى هى الفصيحة، و قرئ بكسر الجيم «و مؤمن» صفة لرجل، «و من آل

فرعون» صفة أخرى، و «يكتم إيمانه» صفة ثالثة، و الاستفهام فى أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا للإنكار، و أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ فى موضع نصب بنزع

(١). الأعراف: ١٢٧.

(٢). القصص: ٢٠.

(٣). النساء: ٤٢.

الخافض، أى: لأن يقول أو كراهة أن يقول، و جملة وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحات، و الدلالات الظاهرات على نبوّته، و صحة رسالته، ثم تلطف لهم فى الدفع عنه فقال: وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ و لم يكن قوله هذا لشك منه، فإنه كان مؤمنا كما وصفه اللّه، و لا يشك المؤمن، و معنى يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ أنه إذا لم يصبكم كله فلا أقلّ من أن يصيبكم بعضه، و حذفت النون من يكن فى الموضعين تخفيفا لكثرة الاستعمال: كما قال سيبويه، و قال أبو عبيدة و أبو الهيثم: بعض هنا بمعنى كلّ: أى يصبكم كلّ الذى يعدكم، و أنشد أبو عبيد على هذا قول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضهاأو يرتبط بعض النّفوس حمامها

أى كلّ النفوس، و قد اعترض عليه، و أجيب بأن البعض قد يستعمل فى لغة العرب بمعنى الكلّ كما فى قول الشاعر:

قد يدرك المتأنّى بعض حاجتهو قد يكون مع المستعجل الزّلل

و قول الآخر:

إنّ الأمور إذا الأحداث دبّرهادون الشّيوخ ترى فى بعضها خللا

و ليس فى البيتين ما يدلّ على ما زعموه، و أما بيت لبيد فقيل إنه أراد ببعض النفوس نفسه، و لا ضرورة تلجئ إلى حمل ما فى الآية على ذلك، لأنه أراد التنزّل معهم و إيهامهم أنه لا يعتقد صحة نبوّته كما يفيده قوله:

يَكْتُمُ إِيمانَهُ قال أهل المعانى: و هذا على المظاهرة فى الحجاج، كأنه قال لهم: أقلّ ما يكون فى صدقه أن يصيبكم بعض الذى يعدكم، و فى بعض ذلك هلاككم، فكأن الحاصل بالبعض هو الحاصل بالكل: و قال الليث: بعض هاهنا صلة يريد يصبكم الذى يعدكم، و قيل: يصبكم هذا العذاب الذى يقوله فى الدنيا و هو بعض ما يتوعدكم به من العذاب، و قيل: إنه وعدهم بالثواب و العقاب، فإذا كفروا أصابهم العقاب، و هو بعض ما وعدهم به إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن، و هو احتجاج آخر ذو وجهين: أحدهما أنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه اللّه إلى البينات و لا أيده بالمعجزات، و ثانيهما أنه إذا كان كذلك خذله اللّه و أهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله، و المسرف المقيم على المعاصى المستكثر منها، و الكذاب المفترى يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ذكرهم ذلك الرجل المؤمن ما هم فيه من الملك ليشكروا اللّه و لا يتمادوا فى كفرهم، و معنى ظاهرين: الظهور على الناس و الغلبة لهم و الاستعلاء عليهم، و الأرض أرض مصر، و انتصاب ظاهرين على الحال فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا أى:

من يمنعنا من عذابه و يحول بيننا و بينه عند مجيئه، و فى هذا تحذير منه لهم من نقمة اللّه بهم، و إنزال عذابه عليهم، فلما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصح الصحيح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة و الرعاية بمكان مكين، و أنه لا يسلك بهم إلا مسلكا يكون فيه جلب النفع لهم، و دفع الضرّ عنهم، و لهذا قال:

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۶۲

ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى قال ابن زيـد: أى ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسـى. و قال الضـحاك: ما أعلمكم إلا ما أعلم، و الرؤية هنا هى القلبية لا البصـرية، و المفعول الثانى: هو إلا ما أرى وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ أى: ما أهديكم بهذا الرأى إلا طريق الحقّ. قرأ الجمهور «الرشاد» بتخفيف الشـين، و قرأ معاذ ابن جبل بتشديدها على أنها صـيغة مبالغة كضرّاب. و قال النحاس: هى لحن، و لا وجه لذلك.

و قـد أخرج ابن المنـذر، و ابن أبى حـاتم عن ابن عبـاس فى قوله: وَ قـالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ قال: لم يكن فى آل فرعون مؤمن غير امرأة فرعون، و غير المؤمن الـذى أنـذر موسـى الذى قال: إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ «۱» قال ابن المنذر، أخبرت أن اسمه حزقيل. و أخرج عبد بن حميد عن أبى إسحاق قال:

اسـمه حبيب. و أخرج البخارى و غيره من طريق عروة قال: قيل لعبد اللّه بن عمرو بن العاص أخبرنا بأشدّ شـىء صنعه المشركون برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، قال: بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و لوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديـدا، فأقبل أبو بكر فأخـذ بمنكبيه و دفعه عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم ثم قـال أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جـاءَكُمْ بِالْبَيِّنـاتِ مِنْ رَبِّكُمْ و أخرج أبـو نعيم فى فضـائل الصحابة و البزار عن علىّ بن أبى طالب أنه قال: أيها الناس أخبرونى من أشجع الناس؟

قالوا أنت. قال: أما أنى ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه و لكن أخبرونى بأشجع الناس؟ قالوا لا نعلم فمن؟

قال أبو بكر، رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أخذته قريش، فهذا يجؤه و هذا يتلتله «۲»، و هم يقولون أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحدا، قال: فو اللّه ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضـرب هذا و يجىء هذا و يتلتل هذا، و هو يقول: ويلكم أ تقتلون رجلا أن يقـول ربى اللّه؟ ثم رفع بردة كـانت عليه، فبكى حتى اخضـلّت لحيته، ثم قـال: أنشـدكم أ مؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسـكت القوم، فقال: ألا تجيبون؟ فو اللّه لساعـة من أبى بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه و هـذا رجل أعلن إيمانه.

[سورة غافر (۴۰): الآيات ۳۰ الى ۴۰]

وَ قـالَ الَّذِی آمَنَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ مِثْلَ یَوْمِ الْأَحْزابِ (۳۰) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِینَ مِنْ بَعْـدِهِمْ وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (۳۱) وَ یـا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ یَوْمَ التَّنادِ (۳۲) یَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِینَ ما لَکُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَ مَنْ یُضْـلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۳۳) وَ لَقَدْ جاءَکُمْ یُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَیِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِی شَکٍّ مِمَّا جاءَکُمْ بِهِ حَتَّی إِذا هَلَکَ قُلْتُمْ لَنْ یَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً کَذلِکَ یُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (۳۴)

الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُـلْطانٍ أَتاهُمْ کَبُرَ مَقْتاً عِنْـدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِینَ آمَنُوا کَذلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلی کُلِّ قَلْبِ مُتَکَبِّرٍ جَبَّارٍ (۳۵) وَ قالَ فِرْعَوْنُ یا هامانُ ابْنِ لِی صَـرْحاً لَعَلِّی أَبْلُغُ الْأَسْـبابَ (۳۶) أَسْـبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلی إِلهِ مُوسی وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ کاذِباً وَ کَذلِکَ زُیِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُـدَّ عَنِ السَّبِیـلِ وَ ما کَیْـدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِی تَبابٍ (۳۷) وَ قـالَ الَّذِی آمَنَ یا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْـدِکُمْ سَبِیلَ الرَّشادِ (۳۸) یا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَیاةُ الدُّنْیا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِیَ دارُ الْقَرارِ (۳۹)

مَنْ عَمِلَ سَیِّئَةً فَلا یُجْزی إِلاَّ مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ یُرْزَقُونَ فِیها بِغَیْرِ حِسابٍ (۴۰)

---

(۱). القصص: ۲۰.

(۲). «یجؤه»: یضربه. و «یتلتله»: یحرّکه بعنف.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۵۶۳

ثم کرّر ذلک الرجل المؤمن تذکیرهم، و حذرهم أن ینزل بهم ما نزل بمن قبلهم، فقال اللّه حاکیا عنه:

وَ قالَ الَّذِی آمَنَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ مِثْلَ یَوْمِ الْأَحْزابِ أی: مثل یوم عذاب الأمم الماضیة الذین تحزبوا علی أنبیائهم، و أفرد الیوم لأن جمع الأحزاب قد أغنی عن جمعه، ثم فسر الأحزاب فقال: مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ أی: مثل حالهم فی العذاب، أو مثل عادتهم فی الإقامة علی التکذیب، أو مثل جزاء ما کانوا علیه من الکفر و التکذیب وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ أی: لا یعذبهم بغیر ذنب، و نفی الإرادة للظلم یستلزم نفی الظلم بفحوی الخطاب. ثم زاد فی الوعظ و التذکیر فقال:

وَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ یَوْمَ التَّنادِ قرأ الجمهور «التناد» بتخفیف الدال و حذف الیاء، و الأصل التنادی، و هو التفاعل من النداء، یقال تنادی القوم: أی نادی بعضهم بعضا، و قرأ الحسن، و ابن السمیقع، و یعقوب، و ابن کثیر، و مجاهد بإثبات الیاء علی الأصل، و قرأ ابن عباس، و الضحاک، و عکرمة بتشدید الدال. قال بعض أهل اللغة هو لحن، لأنه من ندّ ینِدّ: إذا مرّ علی وجهه هاربا. قال النحاس: و هذا غلط، و القراءة حسنة علی معنی التنافی. قال الضحاک: فی معناه أنهم إذا سمعوا بزفیر جهنم ندّوا هربا، فلا یأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفا من الملائکة فیرجعون إلی المکان الذی کانوا فیه، فذلک قوله: یَوْمَ التَّنادِ و علی قراءة الجمهور المعنی: یوم ینادی بعضهم بعضا، أو ینادی أهل النار أهل الجنة، و أهل الجنة أهل النار، أو ینادی فیه بسعادة السعداء، و شقاوة الأشقیاء، أو یوم ینادی فیه کلّ أناس بإمامهم، و لا مانع من الحمل علی جمیع هذه المعانی، و قوله: یَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِینَ بدل من یوم التناد، أی: منصرفین عن الموقف إلی النار، أو فارّین منها. قال قتادة و مقاتل: المعنی إلی النار بعد الحساب، و جملة ما لَکُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ فی محل نصب علی الحال، أی: ما لکم من یعصمکم من عذاب اللّه، و یمنعکم منه وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ یهدیه إلی طریق الرشاد. ثم زاد فی وعظهم و تذکیرهم فقال: وَ لَقَدْ جاءَکُمْ یُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَیِّناتِ أی: یوسف بن یعقوب، و المعنی: أن یوسف بن یعقوب جاءهم بالمعجزات، و الآیات الواضحات من قبل مجیء موسی إلیهم، أی: جاء إلی آبائکم، فجعل المجیء إلی الآباء مجیئا إلی الأبناء.

و قیل: المراد بیوسف هنا یوسف بن إفرائیم بن یوسف بن یعقوب، و کان أقام فیهم نبیا عشرین سنة. و حکی النقاش عن الضحاک أن اللّه بعث إلیهم رسولا من الجنّ یقال له یوسف، و الأوّل أولی. و قد قیل إن فرعون موسی أدرک أیام یوسف بن یعقوب لطول عمره فَما زِلْتُمْ فِی شَکٍّ مِمَّا جاءَکُمْ بِهِ من البینات و لم تؤمنوا به حَتَّی إِذا هَلَکَ یوسف قُلْتُمْ لَنْ یَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا فکفروا به فی حیاته و کفروا بمن بعده من الرسل بعد موته کَذلِکَ یُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ أی: مثل ذلک الضلال الواضح

فتح القدیر، ج۴، ص: ۵۶۴

یضلّ اللّه من هو مسرف فی معاصی اللّه مستکثر منها مرتاب فی دین اللّه شاک فی وحدانیته و وعده و وعیده، و الموصول فی قوله: الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ بدل من «من». و الجمع باعتبار معناها، أو بیان لها، أو صفة، أو فی محل نصب بإضمار أعنی، أو خبر مبتدأ محذوف، أی: هم الذین، أو: مبتدأ، و خبره:

یطبع، و بِغَیْرِ سُلْطانٍ متعلق بیجادلون، أی: یجادلون فی آیات اللّه بغیر حجة واضحة، و أَتاهُمْ صفة لسلطان کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِینَ آمَنُوا یحتمل أن یراد به التعجب، و أن یراد به الذمّ کبئس، و فاعل کبر ضمیر یعود إلی الجدال المفهوم من یجادلون،

و قيل: فاعله ضمير يعود إلى من فى «من هو مسرف» و الأوّل أولى. و قوله: عِنْدَ اللَّهِ متعلق بكبر، و كذلك عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا قيل: هذا من كلام الرجل المؤمن، و قيل: ابتداء كلام من اللّه سبحانه كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ أى:
كما طبع على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك يطبع: أى يختم على كلّ قلب متكبر جبار. قرأ الجمهور بإضافة قلب إلى متكبر، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد، و فى الكلام حذف و تقديره: كذلك يطبع اللّه على كلّ قلب كل متكبر، فحذف كلّ الثانية لدلالة الأولى عليها، و المعنى: أنه سبحانه يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين، و قرأ أبو عمرو، و ابن محيصن، و ابن ذكوان عن أهل الشام بتنوين قلب على أن متكبر صفة له، فيكون القلب مرادا به الجملة، لأن القلب هو محل التكبر، و سائر الأعضاء تبع له فى ذلك، و قرأ ابن مسعود على قلب كلّ متكبر. ثم لما سمع فرعون هذا رجع إلى تكبره و تجبره معرضا عن الموعظة نافرا من قبولها و قال: يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً أى: قصرا مشيدا كما تقدّم بيان تفسيره لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أى الطرق. قال قتادة و الزهرى و السدّى و الأخفش: هى الأبواب. و قوله: أَسْبابَ السَّماواتِ بيان للأسباب، لأن الشىء إذا أبهم ثم فسر كان أوقع فى النفوس، و أنشد الأخفش عند تفسيره للآية بيت زهير:
و من هاب أسباب المنايا ينلنهو لو رام أسباب السّماء بسلّم
و قيل: أسباب السموات الأمور التى يستمسك بها فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى قرأ الجمهور بالرفع عطفا على أبلغ، فهو على هذا داخل فى حيز الترجى. و قرأ الأعرج، و السلمى، و عيسى بن عمر و حفص بالنصب على جواب الأمر فى قوله: ابْنِ لِي أو على جواب الترجى كما قال أبو عبيد و غيره. قال النحاس: و معنى النصب خلاف معنى الرفع، لأن معنى النصب: متى بلغت الأسباب اطلعت، و معنى الرفع: لعلى أبلغ الأسباب، و لعلى أطلع بعد ذلك، و فى هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم، و بمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جدّا وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً أى: و إنى لأظنّ موسى كاذبا فى ادعائه بأن له إلها، أو فيما يدّعيه من الرسالة وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ أى: و مثل ذلك التزيين زين الشيطان لفرعون سوء عمله من الشرك و التكذيب، فتمادى فى الغىّ و استمرّ على الطغيان وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ أى: سبيل الرشاد. قرأ الجمهور «و صدّ» بفتح الصاد و الدال: أى صدّ فرعون الناس عن السبيل، و قرأ الكوفيون «و صدّ» بضم الصاد مبنيا للمفعول، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و أبو حاتم، و لعلّ وجه الاختيار لها منهما كونها مطابقة لما أجمعوا عليه فى زين من البناء للمفعول، و قرأ يحيى بن وثاب، و علقمة «صد» بكسر الصاد،
فتح القدير، ج۴، ص: ۵۶۵
و قرأ ابن أبى إسحاق، و عبد الرحمن بن أبى بكرة بفتح الصاد و ضمّ الدال منوّنا على أنه مصدر معطوف على سوء عمله: أى: زين له الشيطان سوء العمل و الصدّ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ التباب: الخسار و الهلاك و منه تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ «۱»، ثم إن ذلك الرجل المؤمن أعاد التذكير و التحذير كما حكى اللّه عنه بقوله: وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ أى: اقتدوا بى فى الدين أهدكم طريق الرشاد، و هو الجنة، و قيل: هذا من قول موسى، و الأوّل أولى. و قرأ معاذ بن جبل «الرشاد» بتشديد الشين كما تقدّم قريبا فى قول فرعون و وقع فى المصحف اتبعون بدون ياء، و كذلك قرأ أبو عمرو، و نافع بحذفها فى الوقف، و إثباتها فى الوصل، و قرأ يعقوب، و ابن كثير بإثباتها وصلا و وقفا، و قرأ الباقون بحذفها وصلا، و وقفا فمن أثبتها فعلى ما هو الأصل، و من حذفها فلكونها حذفت فى المصحف يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ يتمتع بها أياما، ثم تنقطع و تزول وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ أى: الاستقرار لكونها دائمة لا تنقطع و مستمرة لا تزول مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها أى: من عمل فى دار الدنيا معصية من المعاصى كائنة ما كانت فلا يجزى إلا مثلها و لا يعذب إلا بقدرها، و الظاهر شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة، و قيل: هى خاصة بالشرك، و لا وجه لذلك وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ أى: من عمل صالحا مع كونه مؤمنا باللّه، و بما جاءت به رسله فَأُولئِكَ الذين جمعوا بين العمل الصالح و الإيمان يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها

بِغَيْرِ حِسابٍ أی: بغیر تقدیر، و محاسبة. قال مقاتل: یقول لا تبعة علیهم فیما یعطون فی الجنة من الخیر، و قیل: العمل الصالح، هو لا إله إلا اللّه. قرأ الجمهور «یدخلون» بفتح التحتیة مبنیا للفاعل. و قرأ ابن کثیر، و ابن محیصن، و أبو عمرو، و یعقوب و أبو بکر عن عاصم بضمها مبنیا للمفعول.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس مِثْلَ دَأْبِ قال: مثل حال. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حمید عن قتادة مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ قال: هم الأحزاب: قوم نوح و عاد و ثمود. و أخرج ابن المنذر عن ابن جریج فی قوله: وَ لَقَدْ جاءَکُمْ یُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَیِّناتِ قال: رؤیا یوسف، و فی قوله: الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ قال یهود. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: إِلَّا فِی تَبابٍ قال: خسران. و أخرج عبد بن حمید عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: إِنَّما هذِهِ الْحَیاةُ الدُّنْیا مَتاعٌ قال: الدنیا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة. و أخرج ابن مردویه عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «إن الحیاة الدنیا متاع و لیس من متاعها شیء أفضل من المرأة الصالحة، التی إذا نظرت إلیها سرّتک، و إذا غبت عنها حفظتک فی نفسها و مالک».

---

(۱). المسد: ۱.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۵۶۶

[سورة غافر (۴۰): الآیات ۴۱ الی ۵۲]

وَ یا قَوْمِ ما لِی أَدْعُوکُمْ إِلَی النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِی إِلَی النَّارِ (۴۱) تَدْعُونَنِی لِأَکْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِکَ بِهِ ما لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوکُمْ إِلَی الْعَزِیزِ الْغَفَّارِ (۴۲) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِی إِلَیْهِ لَیْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِی الدُّنْیا وَ لا فِی الْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَی اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِینَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (۴۳) فَسَتَذْکُرُونَ ما أَقُولُ لَکُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِی إِلَی اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِیرٌ بِالْعِبادِ (۴۴) فَوَقاهُ اللَّهُ سَیِّئاتِ ما مَکَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (۴۵)

النَّارُ یُعْرَضُونَ عَلَیْها غُدُوًّا وَ عَشِیًّا وَ یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (۴۶) وَ إِذْ یَتَحاجُّونَ فِی النَّارِ فَیَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُنَّا لَکُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِیباً مِنَ النَّارِ (۴۷) قالَ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُلٌّ فِیها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَکَمَ بَیْنَ الْعِبادِ (۴۸) وَ قالَ الَّذِینَ فِی النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّکُمْ یُخَفِّفْ عَنَّا یَوْماً مِنَ الْعَذابِ (۴۹) قالُوا أَ وَ لَمْ تَکُ تَأْتِیکُمْ رُسُلُکُمْ بِالْبَیِّناتِ قالُوا بَلی قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْکافِرِینَ إِلاَّ فِی ضَلالٍ (۵۰)

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ (۵۱) یَوْمَ لا یَنْفَعُ الظَّالِمِینَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (۵۲)

کرّر ذلک الرجل المؤمن دعاءهم إلی اللّه و صرّح بإیمانه، و لم یسلک المسالک المتقدّمة من إیهامه لهم أنه منهم، و أنه إنما تصدّی للتذکیر کراهة أن یصیبهم بعض ما توعدهم به موسی، کما یقوله الرجل المحبّ لقومه من التحذیر عن الوقوع فیما یخاف علیهم الوقوع فیه فقال: وَ یا قَوْمِ ما لِی أَدْعُوکُمْ إِلَی النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِی إِلَی النَّارِ أی: أخبرونی عنکم کیف هذه الحال: أدعوکم إلی النجاة من النار و دخول الجنة بالإیمان باللّه و إجابة رسله، و تدعوننی إلی النار بما تریدونه منی من الشرک. قیل: معنی ما لِی أَدْعُوکُمْ ما لکم أدعوکم کما تقول: مالی أراک حزینا أی مالک. ثم فسر الدعوتین فقال: تَدْعُونَنِی لِأَکْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِکَ بِهِ ما لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ فقوله تدعوننی بدل من تدعوننی الأولی أو بیان لها ما لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ أی ما لا علم لی بکونه شریکا للّه وَ أَنَا أَدْعُوکُمْ إِلَی الْعَزِیزِ الْغَفَّارِ أی: إلی العزیز فی انتقامه ممن کفر «الغفار» لذنب من آمن به لا جَرَمَ قد تقدّم تفسیر

هـذا فى سورة هود، و جرم فعـل مـاض بمعنى حقّ، و لا الداخلـة عليه لنفى ما ادّعوه و ردّ ما زعموه، و فاعل هـذا الفعل هو قوله: أَنَّمـا تَـدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الـدُّنْيا وَ لا فِي الْـآخِرَةِ أى: حقّ و وجب بطلان دعوته. قال الزجاج: معناه ليس له استجابة دعوة تنفع، و قيل:

ليس له دعوة توجب له الألوهية فى الدنيا و لا فى الآخرة. و قال الكلبى: ليس له شفاعة وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ أى: مرجعنا و مصيرنا إلى بالموت أوّلا، و بالبعث آخرا، فيجازى كل أحد بما يستحقه من خير و شرّ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ أى: المستكثرين من معاصـى اللّه. قال قتادة و ابن سيرين: يعنى المشركين. و قال مجاهد و الشعبى: هم السفهاء السفاكون للدّماء بغير حقها. و قال عكرمة: الجبارون، و المتكبرون. و قيل: هم الذين تعدّوا حدود اللّه، «و أن» فى الموضعين عطف على «أن» فى قوله:

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۶۷

أَنَّما تَـدْعُونَنِي إِلَيْهِ و المعنى: و حقّ أن مردّنا إلى اللّه، و حقّ أن المسـرفين إلـخ فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ إذا نزل بكم العـذاب و تعلمون أنى قـد بالغت فى نصـحكم و تـذكيركم، و فى هـذا الإبهام من التخويف و التهديـد ما لا يخفى وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ أى: أتوكل عليه و أسـلم أمرى إليه. قيل: إنه قال هـذا لما أرادوا الإيقاع به. قال مقاتل: هرب هـذا المؤمن إلى الجبل فلم يقـدروا عليه. و قيل: القائل هو موسـى، و الأوّل أولى فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا أى: وقاه اللّه ما أرادوا به من المكر السيئ، و ما أرادوه به من الشرّ. قال قتادة:

نجاه اللّه مع بنى إسرائيل وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ أى: أحاط بهم، و نزل عليهم سوء العذاب.

قـال الكسـائى: يقـال حـاق يحيق حيقـا و حيوقـا: إذا نزل و لزم. قـال الكلبى: غرقوا فى البحر و دخلوا النـار، و المراد بـآل فرعون: فرعون و قومه، و ترک التصـريح به للاسـتغناء بـذكرهم عن ذكره لكونه أولى بذلک منهم، أو المراد بآل فرعون فرعون نفسه. و الأوّل أولى لأنهم قد عذبوا فى الدنيا جميعا بالغرق، و سـيعذبون فى الآخرة بالنار ثم بين سبحانه ما أجمله من سوء العذاب، فقال: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُـدُوًّا وَ عَشِـيًّا فارتفاع النار على أنها بدل من سوء العذاب، و قيل: على أنها خبر مبتدأ محذوف، أو: مبتدأ، و خبره: يعرضـون، و الأـوّل أولى و رجحه الزجـاج و على الوجهين الأـخيرين تكون الجملـة مسـتأنفة جواب سؤال مقـدّر. و قرئ بالنصب على تقـدير فعل يفسـره يعرضون من حيث المعنى، أى: يصـلون النار يعرضون عليها، أو على الاختصاص، و أجاز الفرّاء الخفض على البـدل من العـذاب. و ذهب الجمهور أن هـذا العرض هو فى البرزخ، و قيـل: هو فى الآخرة. قال الفراء: و يكون فى الآيـة تقـديم و تأخير، أى: أدخلوا آل فرعون أشـدّ العـذاب النار يعرضون عليها غـدوّا و عشـيا، و لا ملجئ إلى هذا التكلف، فإن قوله: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ يدل دلالة واضـحة على أن ذلک العرض هو فى البرزخ، و قوله: أَدْخِلُوا هو بتقـدير القول: أى يقال للملائكـة أدخلوا آل فرعون، و أَشَـدَّ الْعَـذابِ هو عذاب النار. قرأ حمزة، و الكسائى، و نافع، و حفص «أدخلوا» بفتـح الهمزة و كسر الخـاء، و هو على تقـدير القول كما ذكر. و قرأ الباقون «ادخلوا» بهمزة وصل من دخل يـدخل أمرا لآل فرعون بالدخول بتقدير حرف النداء، أى: ادخلوا يا آل فرعون أشدّ العذاب وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ الظرف منصوب بإضـمار اذكر. و المعنى: اذكر لقومک وقت تخاصـمهم فى النار، ثم بين سبحانه هذا التخاصم فقال: فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا عن الانقيـاد للأنبيـاء و الاتباع لهم، و هم رؤساء الكفر إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً جمع لتابع، كخـدم و خادم، أو مصـدر واقع موقع اسم الفاعل، أى: تابعين أو على حذف مضاف، أى: ذوى تبع. قال البصريون:

التبع يكون واحـدا و يكون جمعـا. و قال الكوفيون هو جمع لا واحـد له فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ أى: هل تـدفعون عنا نصيبا منها، أو تحملونه معنا، و انتصاب نصيبا بفعل مقدّر يدل عليه مغنون: أى:

هل تدفعون عنا نصـيبا أو تمنعون على تضمينه معنى حاملين، أى: هل أنتم حاملون معنا نصيبا، أو على المصدرية هل تدفعون عنا

نصيبا أو تمنعون على تضمينه معنى حاملين، أى: هل أنتم حاملون معنا نصيبا، أو على المصدرية قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر و المعنى: إنا نحن و أنتم جميعا فى جهنم، فكيف نغنى عنكم. قرأ الجمهور «كلّ»، بالرّفع على الابتداء، و خبره «فيها»، و الجملة خبر

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۶۸

إن، قاله الأخفش. و قرأ ابن السميقع و عيسى بن عمر «كلّا» بالنصب. قال الكسائى و الفراء على التأكيد لاسم إن بمعنى كلنا، و تنوينه عوض عن المضاف إليه، و قيل: على الحال و رجحه ابن مالك إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ أى: قضى بينهم بأن فريقا فى الجنة، و فريقا فى السعير وَ قالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ من الأمم الكافرة، مستكبرهم و ضعيفهم لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ جمع خازن، و هو القوّام بتعذيب أهل النار ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ يوما ظرف ليخفف، و مفعول يخفف محذوف، أى: يخفف عنا شيئا من العذاب مقدار يوم أو فى يوم، و جملة قالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و الاستفهام للتوبيخ و التقريع قالُوا بَلى أى: أتونا بها فكذبناهم و لم نؤمن بهم و لا بما جاءوا به من الحجج الواضحة، فلما اعترفوا قالُوا أى: قال لهم الملائكة الذين هم خزنة جهنم فَادْعُوا أى: إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإنا لا ندعو لمن كفر باللّه و كذب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة.

ثم أخبروهم بأن دعاءهم لا يفيد شيئا فقالوا: وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ أى: فى ضياع و بطلان و خسار و تبار، و جملة إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مستأنفة من جهته سبحانه، أى: نجعلهم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم، و الموصول: فى محل نصب عطفا على رسلنا، أى: لننصر رسلنا، و ننصر الذين آمنوا معهم فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بما عوّدهم اللّه من الانتقام منهم بالقتل، و السلب، و الأسر، و القهر وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ و هو يوم القيامة. قال زيد بن أسلم: الأشهاد هم الملائكة و النبيون. و قال مجاهد و السدّى: الأشهاد الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ، و على الأمم بالتكذيب. قال الزجاج: الأشهاد جمع شاهد مثل صاحب و أصحاب. قال النحاس: ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال و لا يقاس عليه، و لكن ما جاء منه مسموعا أدّى على ما يسمع، فهو على هذا جمع شهيد، مثل شريف و أشراف، و معنى نصرهم يوم يقوم الأشهاد: أن اللّه يجازيهم بأعمالهم، فيدخلهم الجنة، و يكرمهم بكراماته، و يجازى الكفار بأعمالهم، فيلعنهم، و يدخلهم النار، و هو معنى قوله: يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ أى: البعد عن الرّحمة وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ أى: النار و يوم بدل من يوم يقول الأشهاد، و إنما لم تنفعهم المعذرة لأنها معذرة باطلة، و تعلة داحضة و شبهة زائغة، قرأ الجمهور «تنفع» بالفوقية. و قرأ نافع و الكوفيون بالتحتية، و الكل جائز فى اللغة.

و قد أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله: وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ قال: السفاكين للدّماء بغير حقها. و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة و العشىّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، و إن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك اللّه إليه يوم القيامة» زاد ابن مردويه.

ثم قرأ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا. و أخرج البزار و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلا أثابه اللّه، قلنا يا رسول اللّه ما إثابة الكافر؟ قال: المال و الولد و الصحة و أشباه ذلك، قلنا: و ما إثابته فى الآخرة؟

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۶۹

قال: عذابا دون العذاب، و قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ . و أخرج أحمد، و الترمذى و حسنه، و ابن أبى الدنيا، و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من

ردّ عـن عرض أخيـه ردّ اللّه عن وجهه نـار جهنّم يـوم القيامـة، ثم تلا ـ إِنَّا لَنَنْصُـرُ رُسُـلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا». و أخرج ابن مردويه من حديث أبى هريرة مثله.

[سورة غافر (۴۰): الآيات ۵۳ الى ۶۵]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (۵۳) هُدىً وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (۵۴) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (۵۵) إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۵۶) لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۵۷)

وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ لا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (۵۸) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (۵۹) وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (۶۰) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (۶۱) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۶۲)

كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (۶۳) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَ السَّماءَ بِناءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (۶۴) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۶۵)

قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى هذا من جملة ما قصه اللّه سبحانه قريبا من نصره لرسله: أى:

آتيناه التوراة و النبوّة، كما فى قوله سبحانه: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ «۱» قال مقاتل: الهدى من الضلالة: يعنى التوراة وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ هُدىً وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ المراد بالكتاب التوراة، و معنى أورثنا أن اللّه سبحانه لما أنزل التوراة على موسى بقيت بعده فيهم و توارثوها خلفا عن سلف.

و قيل: المراد بالكتاب سائر الكتب المنزلة على أنبياء بنى إسرائيل بعد موت موسى، و هدى و ذكرى: فى محل نصب على أنهما مفعول لأجله، أى: لأجل الهدى و الذكر، أو على أنهما مصدران فى موضع الحال، أى:

هاديا و مذكرا، و المراد بأولى الألباب: أهل العقول السليمة. ثم أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بالصبر على الأذى فقال:

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: اصبر على أذى المشركين كما صبر من قبلك من الرسل؛ إن وعد اللّه الذى وعد به رسله حقّ لا خلف فيه، و لا شك فى وقوعه كما فى قوله: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا «۲» و قوله:

---

(۱). المائدة: ۴۴.

(۲). غافر: ۵۱.

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ «۱» قال الكلبى: نسخ هذا بآية السيف. ثم أمره سبحانه بالاستغفار لذنبه فقال: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ قيل: المراد ذنب أمتك فهو على حذف مضاف، و قيل: المراد الصغائر عند من يجوّزها على الأنبياء، و قيل: هو مجرد تعبد له صلّى اللّه عليه و سلم بالاستغفار لزيادة الثواب، و قد غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ أى: دم على تنزيه اللّه متلبسا بحمده، و قيل: المراد صلّ فى الوقتين: صلاة

العصر، و صلاة الفجر. قاله الحسن و قتادة، و قيل: هما صلاتان: ركعتان غدوة، و ركعتان عشية، و ذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ أى: بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهة اللّه سبحانه إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ أى: ما فى قلوبهم إلا تكبر عن الحق يحملهم على تكذيبك، و جملة ما هُمْ بِبالِغِيهِ صفة لكبر قال الزجاج: المعنى ما فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغى إرادتهم فيه، فجعله على حذف المضاف. و قال غيره: ما هم ببالغى الكبر. و قال ابن قتيبة: المعنى إن فى صدورهم إلا كبر، أى: تكبر على محمد صلّى اللّه عليه و سلم و طمع أن يغلبوه و ما هم ببالغى ذلك، و قيل: المراد بالكبر الأمر الكبير، أى:

يطلبون النبوّة، أو يطلبون أمرا كبيرا يصلون به إليك من القتل و نحوه و لا يبلغون ذلك. و قال مجاهد: معناه فى صدورهم عظمة ما هم ببالغيها. و المراد بهذه الآية المشركون، و قيل: اليهود كما سيأتى بيانه آخر البحث إن شاء اللّه. ثم أمره اللّه سبحانه بأن يستعيذ باللّه من شرورهم فقال: فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أى: فالتجئ إليه من شرّهم، و كيدهم، و بغيهم عليك إنه السميع لأقوالهم؛ البصير بأفعالهم لا تخفى عليه من ذلك خافية. ثم بين سبحانه عظيم قدرته فقال: لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ أى: أعظم فى النفوس و أجلّ فى الصدور، لعظم أجرامهما، و استقرارهما من غير عمد، و جريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب، فكيف ينكرون البعث و إحياء ما هو دونهما من كل وجه كما فى قوله: أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ «٢» قال أبو العالية: المعنى لخلق السموات و الأرض أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود. و قال يحيى بن سلام: هو احتجاج على منكرى البعث، أى: هما أكبر من إعادة خلق الناس وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ بعظيم قدرة اللّه و أنه لا يعجزه شىء.

ثم لما ذكر سبحانه الجدال بالباطل ذكر مثالا للباطل و الحق و أنهما لا يستويان فقال: وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أى: الذى يجادل بالباطل، و الذى يجادل بالحق وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ لَا الْمُسِيءُ أى: و لا يستوى المحسن بالإيمان، و العمل الصالح؛ و المسىء بالكفر، و المعاصى، و زيادة «لا» فى و لا المسىء للتأكيد قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ قرأ الجمهور «يتذكرون» بالتحية على الغيبة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و أبو حاتم، لأن قبلها و بعدها على الغيبة لا على الخطاب، و قرأ الكوفيون بالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات، أى: تذكرا قليلا ما تتذكرون إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها أى: لا شك فى مجيئها، و حصولها وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ و لا يصدقونه لقصور أفهامهم و ضعف عقولهم عن إدراك

---

(١). الصافات: ١٧١- ١٧٣.

(٢). يس: ٨١.

الحجة، و المراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث. ثم لما بين سبحانه أن قيام الساعة حق لا شك فيه و لا شبهة، أرشد عباده إلى ما هو الوسيلة إلى السعادة فى دار الخلود، فأمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يحكى عنه ما أمره بإبلاغه و هو وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ قال أكثر المفسرين المعنى: وحدونى و اعبدونى أتقبل عبادتكم و أغفر لكم، و قيل: المراد بالدعاء: السؤال بجلب النفع، و دفع الضر. قيل: الأوّل أولى لأن الدعاء فى أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو العبادة. قلت: بل الثانى أولى لأن معنى الدعاء حقيقة و شرعا: هو الطلب، فإن استعمل فى غير ذلك فهو مجاز، على أن الدعاء فى نفسه باعتبار معناه الحقيقى هو عبادة، بل مخ العبادة كما ورد بذلك الحديث الصحيح، فاللّه سبحانه قد أمر عباده بدعائه و وعدهم بالإجابة و وعده الحق، و ما يبدل القول لديه، و لا يخلف الميعاد. ثم صرّح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقى و هو الطلب هو من عبادته فقال:

إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ أي: ذليلين صاغرين و هذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء اللّه، و فيه لطف بعباده عظيم و إحسان إليهم جليل؛ حيث توعد من ترك طلب الخير منه، و استدفاع الشرّ به بهذا الوعيد البالغ، و عاقبه بهذه العقوبة العظيمة. فيا عباد اللّه وجهوا رغباتكم و عوّلوا فى كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه، و أرشدكم إلى التعويل عليه، و كفل لكم الإجابة به بإعطاء الطلبة، فهو الكريم المطلق الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه، و يغضب على من لم يطلب من فضله العظيم، و ملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا و الدين، قيل: و هذا الوعد بالإجابة مقيد بالمشيئة؛ أى:
أستجب لكم إن شئت كقوله سبحانه: فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ «١» اللّه، قرأ الجمهور «سيدخلون» بفتح الياء و ضم الخاء مبنيا للفاعل، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و ورش و أبو جعفر بضم الياء و فتح الخاء مبنيا للمفعول. ثم ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على عباده فقال: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ من الحركات فى طلب الكسب لكونه جعله مظلما باردا تناسبه الراحة بالسكون و النوم وَ النَّهارَ مُبْصِراً أى: مضيئا لتبصروا فى حوائجكم و تتصرفوا فى طلب معايشكم إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ يتفضل عليهم بنعمه التى لا تحصى وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ النعم، و لا يعترفون بها، إما لجحودهم لها، و كفرهم بها كما هو شأن الكفار، أو لإغفالهم للنظر، و إهمالهم لما يجب من شكر المنعم، و هم الجاهلون ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ بين سبحانه فى هذا كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده قرأ الجمهور خالق بالرفع على أنه خبر بعد الخبر الأوّل عن المبتدأ، و قرأ زيد بن علىّ بنصبه على الاختصاص فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أى: فكيف تنقلبون عن عبادته و تنصرفون عن توحيده كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ أى: مثل الإفك يؤفك الجاحدون لآيات اللّه المنكرون لتوحيده. ثم ذكر لهم سبحانه نوعا آخر من نعمه التى أنعم بها عليهم مع ما فى ذلك من الدلالة على كمال قدرته و تفرّده بالإلهية فقال: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَ السَّماءَ بِناءً أى: موضع قرار فيها تحيون، و فيها تموتون وَ السَّماءَ بِناءً: أى سقفا قائما ثابتا. ثم بين بعض نعمه المتعلقة بأنفس العباد فقال: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ أى: خلقكم فى أحسن صورة. قال الزجاج: خلقكم أحسن الحيوان كله. قرأ الجمهور

---

(١). الأنعام: ٤١.

«صوركم» بضم الصاد و قرأ الأعمش و أبو رزين بكسرها. قال الجوهرى: و الصور بكسر الصاد لغة فى الصور بضمها وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أى: المستلذات ذلِكُمُ المبعوث بهذه النعوت الجليلة اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ أى: كثرة خيره و بركته هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أى: الباقى الذى لا يفنى المنفرد بالألوهية فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى: الطاعة و العبادة الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ قال الفراء: هو خبر و فيه إضمار أمره، أى: احمدوه.
و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم. قال السيوطى بسند صحيح عن أبى العالية قال: إن اليهود أتوا النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقالوا: إن الدجال يكون منا فى آخر الزمان، و يكون فى أمره فعظموا أمره، و قالوا: نصنع كذا و نصنع كذا، فأنزل اللّه إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ قال: لا يبلغ الذى يقول: فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ فأمر نبيه أن يتعوّذ من فتنة الدجال لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ الدجال. و أخرج ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار فى الآية قال:
هم اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله:
إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ قال: عظمة قريش. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و أحمد، و عبد بن حميد، و البخارى فى

الأدب المفرد، و أبو داود، و الترمذى، و النسائى، و ابن ماجة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن حبان، و الحاكم، و صححه، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحليـة، و البيهقى فى الشعب عن النعمان بن بشير قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الدعاء هو العبادة، ثم قرأ وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي قال: عن دعائى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ . قال الترمذى: حسن صحيح. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب عن البراء أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إن الدعاء هو العبادة وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ . و أخرج ابن جرير و ابن مردويه و أبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ قال: وحدونى أغفر لكم. و أخرج الحاكم و صححه عن جرير بن عبد اللّه فى الآية قال: اعبدونى. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الدعاء الاستغفار» و أخرج ابن أبى شيبة، و الحاكم، و أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من لم يدع اللّه يغضب عليه». و أخرج أحمد، و الحكيم الترمذى، و أبو يعلى، و الطبرانى عن معاذ بن جبل عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: «لا ينفع حذر من قدر، و لكن الدعاء ينفع مما نزل و مما لم ينزل فعليكم بالدعاء». و أخرج الترمذى، و الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الدعاء مخّ العبادة». و أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صححه عن ابن عباس قال: أفضل العبادة الدعاء، قرأ وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ الآية. و أخرج البخارى فى الأدب عن عائشة قالت: سئل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم أىّ العبادة أفضل؟ فقال: دعاء المرء لنفسه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا اللّه فليقل على أثرها: الحمد للّه ربّ العالمين، و ذلك قوله: فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۷۳

[سورة غافر (۴۰): الآيات ۶۶ الى ۸۵]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۶۶) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۷) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۶۸) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (۶۹) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۷۰)

إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (۷۱) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (۷۲) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۷۳) مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (۷۴) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (۷۵)

ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۷۶) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (۷۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (۷۸) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۷۹) وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (۸۰)

وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (۸۱) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸۲) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۸۳) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (۸۴) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ

إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (٨٥)

أمر اللّه سبحانه رسوله أن يخبر المشركين بأن اللّه نهاه عن عبادة غيره و أمره بالتوحيد فقال: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ و هى: الأصنام. ثم بين وجه النهى فقال: لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي و هى للأدلة العقلية و النقلية، فإنها توجب التوحيد وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ أى:

استسلم له بالانقياد و الخضوع. ثم أردف هذا بذكر دليل من الأدلة على التوحيد فقال: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ أى: خلق أباكم الأوّل، و هو آدم، و خلقه من تراب يستلزم خلق ذرّيته منه ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ قد تقدم تفسير هذا فى غير موضع ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا أى: أطفالا، و أفرده لكونه اسم جنس، أو على معنى يخرج كلّ واحد منكم طفلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ و هى الحالة التى تجتمع فيها القوّة و العقل، و قد سبق بيان الأشدّ مستوفى فى الأنعام، و اللام التعليلية فى: لتبلغوا معطوفة على علة أخرى،

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۷۴

ليخرجكم مناسبة لها، و التقدير: لتكبروا شيئا فشيئا، ثم لتبلغوا غاية الكمال، و قوله: ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً معطوف على لتبلغوا، قرأ نافع، و حفص، و أبو عمرو، و ابن محيصن، و هشام «شيوخا» بضم الشين، و قرأ الباقون بكسرها، و قرىء و شيخا على الإفراد لقوله طفلا، و الشيخ من جاوز أربعين سنة وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ أى: من قبل الشيخوخة وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى أى: وقت الموت أو يوم القيامة، و اللام هى لام العاقبة وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى: لكى تعقلوا توحيد ربكم و قدرته البالغة فى خلقكم على هذه الأطوار المختلفة هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ أى: يقدر على الإحياء و الإماتة فَإِذا قَضى أَمْراً من الأمور التى يريدها فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ من غير توقف، و هو تمثيل لتأثير قدرته فى المقدورات عند تعلق إرادته بها، و قد تقدّم تحقيق معناه فى البقرة و فيما بعدها. ثم عجب سبحانه من أحوال المجادلين فى آيات اللّه فقال: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ و قد سبق بيان معنى المجادلة أَنَّى يُصْرَفُونَ أى: كيف يصرفون عنها مع قيام الأدلة الدالة على صحتها، و أنها فى أنفسها موجبة للتوحيد.

قال ابن زيد: هم المشركون بدليل قوله: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا قال القرطبى:

و قال أكثر المفسرين نزلت فى القدرية. قال ابن سيرين: إن لم تكن هذه الآية نزلت فى القدرية فلا أدرى فيمن نزلت، و يجاب عن هذا بأن اللّه سبحانه قد وصف هؤلاء بصفة تدلّ على غير ما قالوه، فقال: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ أى: بالقرآن، و هذا وصف لا يصحّ أن يطلق على فرقة من فرق الإسلام، و الموصول إما فى محل جرّ على أنه نعت للموصول الأوّل، أو بدل منه، و يجوز أن يكون فى محل نصب على الذمّ، و المراد بالكتاب: إما القرآن، أو: جنس الكتب المنزلة من عند اللّه، و قوله: وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا معطوف على قوله بالكتاب، و يراد به ما يوحى إلى الرسل من غير كتاب إن كانت اللام فى الكتاب للجنس، أو سائر الكتب إن كان المراد بالكتاب: القرآن فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبة أمرهم، و وبال كفرهم، و فى هذا وعيد شديد، و الظرف فى قوله: إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ متعلق بيعلمون، أى: فسوف يعلمون وقت كون الأغلال فى أعناقهم وَ السَّلاسِلُ معطوف على الأغلال، و التقدير: إذ الأغلال و السلاسل فى أعناقهم، و يجوز أن يرتفع السلاسل: على أنه مبتدأ، و خبره: محذوف لدلالة فى أعناقهم عليه، و يجوز أن يكون خبره:

يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ بحذف العائد، أى: يسحبون بها فى الحميم، و هذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل، و قرأ ابن عباس، و ابن مسعود، و عكرمة، و أبو الجوزاء بنصبها، و قرءوا «يسحبون» بفتح الياء مبنيا للفاعل، فتكون السلاسل مفعولا مقدّما، و قرأ بعضهم بجرّ السلاسل. قال الفراء: و هذه القراءة محمولة على المعنى، إذ المعنى: أعناقهم فى الأغلال و السلاسل. و قال الزجاج: المعنى على هذه القراءة: و فى السلاسل يسحبون، و اعترضه ابن الأنبارى بأن ذلك لا يجوز فى العربية، و محل يسحبون على تقدير عطف السلاسل على الأغلال، و على تقدير كونها: مبتدأ، و خبرها: فى أعناقهم النصب على الحال، أو لا محل له، بل هو

مستأنف جواب سؤال مقدّر، و الحميم: هو المتناهى فى الحرّ، و قيل: الصديد و قد تقدّم تفسيره ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ يقال سجرت التنور: أى أوقدته، و سجرته: ملأته بالوقود، و منه

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۷۵

وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ «۱» أى: المملوء، فالمعنى توقد بهم النار، أو تملأ بهم. قال مجاهد و مقاتل: توقد بهم النار فصاروا وقودها ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هذا توبيخ و تقريع لهم، أى: أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون اللّه قالُوا ضَلُّوا عَنَّا أى: ذهبوا، و فقدناهم فلا نراهم، ثم أضربوا عن ذلك، و انتقلوا إلى الإخبار بعدمهم، و أنه لا وجود لهم فقالوا: بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً أى: لم نكن نعبد شيئا، قالوا هذا لما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة و الجهالة، و أنهم كانوا يعبدون ما لا يبصر و لا يسمع، و لا يضرّ و لا ينفع، و ليس هذا إنكارا منهم لوجود الأصنام التى كانوا يعبدونها، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ أى: مثل ذلك الضلال يضلّ اللّه الكافرين حيث عبدوا هذه الأصنام التى أوصلتهم إلى النار، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى الإضلال المدلول عليه بالفعل: أى ذلك الإضلال بسبب بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ أى: بما كنتم تظهرون فى الدنيا من الفرح بمعاصى اللّه، و السرور بمخالفة رسله و كتبه، و قيل: بما كنتم تفرحون به من المال و الأتباع و الصحة، و قيل:

بما كنتم تفرحون به من إنكار البعث، و قيل: المراد بالفرح هنا: البطر و التكبر، و بالمرح: الزيادة فى البطر.

و قال مجاهد و غيره: تمرحون: أى تبطرون و تأشرون. و قال الضحاك: الفرح السرور، و المرح: العدوان.

و قال مقاتل. المرح: البطر و الخيلاء ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ حال كونكم خالِدِينَ فِيها أى:

مقدّرين الخلود فيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ عن قبول الحق جهنم. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بالصبر، فقال: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: وعده بالانتقام منهم كائن لا محالة، إما فى الدنيا، أو فى الآخرة، و لهذا قال: فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ من العذاب فى الدنيا بالقتل، و الأسر، و القهر، و ما فى «فإما» زائدة على مذهب المبرد و الزجاج، و الأصل فإن نرك، و لحقت بالفعل دون التأكيد و قوله:

أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ معطوف على نرينك، أى: أو نتوفينك قبل إنزال العذاب بهم فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ يوم القيامة فنعذبهم وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ أى: أنبأناك بأخبارهم و ما لقوه من قومهم وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ خبره و لا أوصلنا إليك علم ما كان بينه و بين قومه وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لا من قبل نفسه، و المراد بالآية: المعجزة الدالة على نبوّته فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ أى: إذا جاء الوقت المعين لعذابهم فى الدنيا أو فى الآخرة قُضِيَ بِالْحَقِ فيما بينهم فينجى اللّه بقضائه الحق عباده المحقين وَ خَسِرَ هُنالِكَ أى: فى ذلك الوقت الْمُبْطِلُونَ الذين يتبعون الباطل، و يعملون به. ثم امتنّ سبحانه على عباده بنوع من أنواع نعمه التى لا تحصى فقال: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ أى: خلقها لأجلكم، قال الزجاج: الأنعام هاهنا: الإبل، و قيل: الأزواج الثمانية لِتَرْكَبُوا مِنْها من للتبعيض، و كذلك فى قوله: وَ مِنْها تَأْكُلُونَ و يجوز أن تكون لابتداء الغاية فى الموضعين و معناها ابتداء الركوب، و ابتداء الأكل، و الأوّل أولى. و المعنى: لتركبوا بعضها و تأكلوا بعضها وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ أخر غير الركوب و الأكل من الوبر، و الصوف، و الشعر، و الزبد، و السمن، و الجبن، و غير ذلك وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ قال مجاهد، و مقاتل، و قتادة: تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد،

---

(۱). الطور: ۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۷۶

و قد تقدم بيان هذا مستوفى فى سورة النحل وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ أى: على الإبل فى البرّ، و على السفن فى البحر. و قيل: المراد بالحمل على الأنعام هنا حمل الولدان، و النساء بالهوادج وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ أى: دلالاته الدالة على كمال قدرته و وحدانيته فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ فإنها كلها من الظهور، و عدم الخفاء بحيث لا ينكرها منكر، و لا يجحدها جاحد، و فيه تقريع لهم، و توبيخ عظيم، و نصب أى بتنكرون، و إنما قدم على العامل فيه لأن له صدر الكلام. ثم أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار، و التفكر فى آيات اللّه فقال:

أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم التى عصت اللّه، و كذبت رسلها، فإن الآثار الموجودة فى ديارهم تدلّ على ما نزل بهم من العقوبة و ما صاروا إليه من سوء العاقبة.

ثم بين سبحانه أن تلك الأمم كانوا فوق هؤلاء فى الكثرة و القوّة فقال: كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً أى:

أكثر منهم عددا و أقوى منهم أجسادا، و أوسع منهم أموالا وَ أظهر منهم آثاراً فِي الْأَرْضِ بالعمائر، و المصانع، و الحرث فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ يجوز أن تكون ما الأولى استفهامية:

أى: أىّ شىء أغنى عنهم، أو نافية: أى: لم يغن عنهم، و ما الثانية يجوز أن تكون موصولة و أن تكون مصدرية فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى: بالحجج الواضحات و المعجزات الظاهرات فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أى: أظهروا الفرح بما عندهم مما يدعون أنه من العلم من الشبه الداحضة، و الدعاوى الزائفة، و سماه علما تهكما بهم، أو على ما يعتقدونه. و قال مجاهد: قالوا نحن أعلم منهم لن نعذب، و لن نبعث، و قيل: المراد من علم أحوال الدنيا لا الدين كما فى قوله: يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا و قيل: الذين فرحوا بما عندهم من العلم هم الرسل، و ذلك أنه لما كذبهم قومهم أعلمهم اللّه بأنه مهلك الكافرين، و منجى المؤمنين ففرحوا بذلك وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: أحاط بهم جزاء استهزائهم فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا أى: عاينوا عذابنا النازل بهم قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ و هى الأصنام التى كانوا يعبدونها فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا أى: عند معاينة عذابنا، لأن ذلك الإيمان ليس بالإيمان النافع لصاحبه، فإنه إنما ينفع الإيمان الاختيارى لا الإيمان الاضطرارى سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ أى: التى مضت فى عباده، و المعنى: أن اللّه سبحانه سن هذه السنة فى الأمم كلها أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب و قد مضى بيان هذا فى سورة النساء، و سورة التوبة، و انتصاب سنة على أنها مصدر مؤكد لفعل محذوف بمنزلة وعد اللّه و ما أشبهه من المصادر المؤكدة. و قيل: هو منصوب على التحذير، أى:

احذروا يا أهل مكة سنة اللّه فى الأمم الماضية، و الأوّل أولى وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ أى: وقت رؤيتهم بأس اللّه و معاينتهم لعذابه. قال الزجاج: الكافر خاسر فى كل وقت، و لكنه يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب.

و قد أخرج أحمد، و الترمذى و حسنه، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث و النشور عن عبد اللّه بن عمرو قال: «تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ إلى قوله: يُسْجَرُونَ فقال: لو أن رصاصة مثل هذه- و أشار إلى جمجمة- أرسلت من السماء إلى الأرض، و هى مسيرة خمسمائة

فتح القدير، ج‏4، ص: 577

سنة لبلغت الأرض قبل الليل، و لو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفا الليل و النهار قبل أن تبلغ أصلها، أو قال قعرها». و أخرج ابن أبى الدنيا فى صفة النار عن ابن عباس قال: يسحبون فى الحميم فينسلخ كل شىء عليهم من جلد، و لحم، و عرق حتى يصير فى عقبه حتى إن لحمه قدر طوله، و طوله ستون ذراعا، ثم يكسى جلدا آخر، ثم يسجر فى الحميم. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ قال: بعث اللّه عبدا حبشيا فهو ممن لم يقصص على محمد.

سورة فصّلت

اشارة

و تسمى سورة فصلت و هى أربع و خمسون آية، و قيل ثلاث و خمسون. قال القرطبى: و هى مكية فى قول الجميع. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس، و ابن الزبير أنها نزلت بمكة. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و أبو يعلى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و أبو نعيم و البيهقى كلاهما فى الدلائل، و ابن عساكر عن جابر بن عبد اللّه قال: «اجتمعت قريش يوما فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر و الكهانة و الشعر فليأت هذا الرجل الذى قد فرّق جماعتنا و شتت أمرنا و عاب ديننا، فليكلمه و لينظر ماذا يردّ عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه فقال: يا محمد أنت خير أم عبد اللّه، أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت، و إن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، أما و اللّه ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرّقت جماعتنا و شتت أمرنا و عبت ديننا و فضحتنا فى العرب، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرا و أن فى قريش كاهنا، و اللّه ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف، يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا، و إن كان إنما بك الباءة فاختر أىّ نساء قريش شئت فلنزوّجنك عشرا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: فرغت؟
قال نعم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: بسم اللّه الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته» حتى بلغ «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود» فقال عتبة: حسبك حسبك ما عندك غير هذا؟ قال لا، فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته، فقالوا: فهل أجابك قال: و الذى نصبها بنية ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود، قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية و ما تدرى ما قال؟ قال: لا و اللّه ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة». و أخرج أبو نعيم و البيهقى كلاهما فى الدلائل عن ابن عمر قال: «لما قرأ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم على عتبة بن ربيعة حم تنزيل من الرحمن الرحيم أتى أصحابه فقال: يا قوم أطيعونى فى هذا اليوم و اعصونى بعده، فو اللّه لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ما سمعت أذنى قط كلاما مثله، و ما دريت ما أرد عليه». و فى هذا الباب روايات تدلّ على اجتماع قريش و إرسالهم عتبة بن ربيعة و تلاوته صلّى اللّه عليه و سلم أوّل هذه السورة عليه.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة فصلت (۴۱): الآيات ۱ الى ۱۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
حم (۱) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۲) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۳) بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (۴)
وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (۵) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (۶) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۸) قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ

أَنْداداً ذلِکَ رَبُّ الْعالَمِينَ (٩)

وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَکَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (١١) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِکَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ (١٣) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (١۴)

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۷۹

قوله: حم قد تقدم الكلام على إعرابه و معناه فى السورة التى قبل هذه السورة فلا نعيده، و كذلك تقدّم الكلام على معنى تَنْزِيلٌ و إعرابه. قال الزجاج و الأخفش: تنزيل مرفوع بالابتداء، و خبره:

كِتابٌ فُصِّلَتْ و قال الفراء: يجوز أن يكون على إضمار هذا، و يجوز أن يقال كتاب بدل من قوله تنزيل، و مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ متعلق بتنزيل، و معنى فُصِّلَتْ آياتُهُ بينت أو جعلت أساليب مختلفة، قال قتادة: فصلت ببيان حلاله من حرامه و طاعته من معصيته. و قال الحسن: بالوعد و الوعيد. و قال سفيان:

بالثواب و العقاب و لا مانع من الحمل على الكل. و الجملة فى محلّ نصب صفة لكتاب. و قرئ «فصلت» بالتخفيف، أى: فرقت بين الحق و الباطل، و انتصاب قُرْآناً عَرَبِيًّا على الحال، أى: فصلت آياته حال كونه قرآنا عربيا. و قال الأخفش: نصب على المدح، و قيل: على المصدرية، أى: يقرؤه قرآنا، و قيل:

مفعول ثان لفصلت، و قيل: على إضمار فعل يدل عليه فصلت، أى: فصلناه قرآنا عربيا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أى يعلمون معانيه و يفهمونها: و هم أهل اللسان العربى. قال الضحاك: أى يعلمون أن القرآن منزل من عند اللّه. و قال مجاهد: أى يعلمون أنه إله واحد فى التوراة و الإنجيل، و اللام متعلقة بمحذوف صفة أخرى لقرآن، أى: كائنا لقوم أو متعلق بفصلت، و الأول أولى، و كذلك بَشِيراً وَ نَذِيراً: صفتان أخريان لقرآنا، أو حالان من كتاب، و المعنى: بشيرا لأولياء اللّه، و نذيرا لأعدائه. و قرئ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ بالرفع على أنهما صفة لكتاب، أو خبر مبتدأ محذوف فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ المراد بأكثر هنا: الكفار، أى: فأعرض الكفار عما اشتمل عليه من النذارة فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ سماعا ينتفعون به لإعراضهم عنه وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ أى: فى أغطية مثل الكنانة التى فيها السهام، فهى لا تفقه ما تقول، و لا يصل إليها قولك، و الأكنة:

جمع كنان، و هو الغطاء، قال مجاهد: الكنان للقلب: كالجنة للنبل، و قد تقدّم بيان هذا فى البقرة وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ أى: صمم، و أصل الوقر: الثقل. و قرأ طلحة بن مصرف «وقر» بكسر الواو. و قرئ بفتح الواو و القاف، و مِنْ فى وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِکَ حِجابٌ لابتداء الغاية، و المعنى: أن الحجاب ابتدأ منا، و ابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة بين جهتنا و جهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها، و هذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق، و مج أسماعهم له، و امتناع المواصلة بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فَاعْمَلْ إِنَّنا

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۰

عامِلُونَ أى: اعمل على دينك إننا عاملون على ديننا. و قال الكلبى: اعمل فى هلاكنا فإنا عاملون فى هلاكك. و قال مقاتل: اعمل لإلهك الذى أرسلك؛ فإنا نعمل لآلهتنا التى نعبدها، و قيل: اعمل لآخرتك فإنا عاملون لدنيانا. ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عن قولهم هذا فقال: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ أى: إنما أنا كواحد منكم لو لا الوحى، و لم أكن من جنس مغاير لكم حتى تكون قلوبكم فى أكنة مما أدعوكم إليه، و فى آذانكم وقر، و من بينى و بينكم حجاب، و لم

أدعكم إلى ما يخالف العقل، و إنما أدعوكم إلى التوحيد قرأ الجمهور يُوحى مبنيا للمفعول. و قرأ الأعمش و النخعى مبنيا للفاعل، أى: يوحى اللّه إلىّ. قيل و معنى الآية: إنى لا أقدر على أن أحملكم على الإيمان قسرا فإنى بشر مثلكم و لا امتياز لى عنكم إلا أنى أوحى إلىّ التوحيد و الأمر به، فعلىّ البلاغ وحده فإن قبلتم رشدتم، و إن أبيتم هلكتم.

و قيل المعنى: إنى لست بملك و إنما أنا بشر مثلكم، و قد أوحى إلىّ دونكم، فصرت بالوحى نبيا، و وجب عليكم اتباعى. و قال الحسن فى معنى الآية: إن اللّه سبحانه علم رسوله صلّى اللّه عليه و سلم كيف يتواضع فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ عدّاه بإلى لتضمنه معنى توجهوا، و المعنى: وجهوا استقامتكم و لا تميلوا عن سبيله وَ اسْتَغْفِرُوهُ لما فرط منكم من الذنوب. ثم هدّد المشركين و توعدهم فقال: وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ثم وصفهم بقوله:

الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ أى: يمنعونها و لا يخرجونها إلى الفقراء. و قال الحسن و قتادة: لا يقرّون بوجوبها. و قال الضحاك و مقاتل: لا يتصدقون و لا ينفقون فى الطاعة. و قيل معنى الآية، لا يشهدون أن لا إله إلا اللّه لأنها زكاة الأنفس و تطهيرها. و قال الفراء: كان المشركون ينفقون النفقات، و يسقون الحجيج و يطعمونهم فحرّموا ذلك على من آمن بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم فنزلت فيهم هذه الآية وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ معطوف على لا يؤتون داخل معه فى حيز الصلة، أى: منكرون للآخرة جاحدون لها، و المجىء بضمير الفصل لقصد الحصر إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أى: غير مقطوع عنهم، يقال مننت الحبل: إذا قطعته، و منه قول الأصبغ الأودى:

إنّى لعمرك ما بابى بذى غلقعلى الصّديق و لا خيرى بممنون

و قيل الممنون: المنقوص، قاله قطرب، و أنشد قول زهير:

فضل الجياد على الخيل البطاء فلايعطى بذلك ممنونا و لا نزقا

قال الجوهرى: المنّ: القطع، و يقال: النقص، و منه قوله تعالى: لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ و قال لبيد:

غبس كواسب لا يمنّ طعامها «١» و قال مجاهد غير ممنون: غير محسوب، و قيل معنى الآية: لا يمن عليهم به لأنه إنما يمنّ بالتفضل، فأما الأجر فحقّ أداؤه. و قال السدّى: نزلت فى المرضى، و الزمنى، و الهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم

---

(١). و صدر البيت، كما فى القرطبى و اللسان:

لمعفّر قهد تنازع شلوه

من الأجر كأصحّ ما كانوا يعملون فيه. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يوبخهم و يقرعهم فقال: قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ أى: لتكفرون بمن شأنه هذا الشأن العظيم، و قدرته هذه القدرة الباهرة. قيل: اليومان هما يوم الأحد، و يوم الإثنين، و قيل: المراد مقدار يومين؛ لأن اليوم الحقيقى إنما يتحقق بعد وجود الأرض و السماء. قرأ الجمهور أَ إِنَّكُمْ بهمزتين الثانية بين بين، و قرأ ابن كثير بهمزة و بعدها ياء خفيفة وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً أى: أضداد و شركاء، و الجملة معطوفة على تكفرون داخلة تحت الاستفهام، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الموصول المتصف بما ذكر و هو: مبتدأ، و خبره: رَبُّ الْعالَمِينَ و من جملة العالمين ما تجعلونها أندادا للّه فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له فى عبادته، و قوله:

وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ معطوف على خلق، أى: كيف تكفرون بالذى خلق الأرض، و جعل فيها رواسى، أى: جبالا ثوابت من فوقها، و قيل: جملة و جعل فيها رواسى مستأنفة غير معطوفة على خلق لوقوع الفصل بينهما بالأجنبى. و الأوّل أولى لأن الجملة الفاصلة هى مقررة لمضمون ما قبلها فكانت بمنزلة التأكيد، و معنى مِنْ فَوْقِها أنها مرتفعة عليها لأنها من أجزاء الأرض، و إنما خالفتها

باعتبار الارتفاع، فكانت من هذه الحيثية كالمغايرة لها وَ بارَكَ فِيها أي: جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من المنافع للعباد. قال السدى: أنبت فيها شجرها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها قال قتادة و مجاهد: خلق فيها أنهارها و أشجارها و دوابها، و قال الحسن و عكرمة و الضحاك: قدّر فيها أرزاق أهلها، و ما يصلح لمعايشهم من التجارات، و الأشجار، و المنافع، جعل فى كلّ بلد ما لم يجعله فى الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة، و الأسفار من بلد إلى بلد، و معنى: فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ أي: فى تتمة أربعة أيام باليومين المتقدّمين. قاله الزجاج و غيره. قال ابن الأنبارى: و مثاله قول القائل خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام، و إلى الكوفة فى خمسة عشر يوما، أي: فى تتمة خمسة عشر يوما، فيكون المعنى: أن حصول جميع ما تقدّم من خلق الأرض و ما بعدها فى أربعة أيام. و انتصاب سَواءً على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف هو صفة للأيام، أي: استوت سواء بمعنى استواء، و يجوز أن يكون منتصبا على الحال من الأرض، أو من الضمائر الراجعة إليها. قرأ الجمهور بنصب سَواءً و قرأ زيد بن على، و الحسن، و ابن أبى إسحاق، و عيسى، و يعقوب، و عمرو بن عبيد بخفضه على أنه صفة الأيام. و قرأ أبو جعفر برفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف. قال الحسن: المعنى فى أربعة أيام مستوية تامة، و قوله: لِلسَّائِلِينَ متعلق بسواء، أي: مستويات للسائلين، أو بمحذوف كأنه قيل: هذا الحصر للسائلين فى كم خلقت الأرض و ما فيها؟ أو متعلق بقدّر، أي: قدّر فيها أقواتها لأجل الطالبين المحتاجين إليها. قال الفراء: فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى: و قدّر فيها أقواتها سواء للمحتاجين فى أربعة أيام، و اختار هذا ابن جرير. ثم لما ذكر سبحانه خلق الأرض و ما فيها؛ ذكر كيفية خلقه للسموات فقال:

ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ أي: عمد و قصد نحوها قصدا سويا. قال الرازى: هو من قولهم: استوى إلى مكان كذا: إذا توجه إليه توجها لا يلتفت معه إلى عمل آخر، و هو من الاستواء الذى هو ضدّ الاعوجاج، و نظيره قولهم استقام إليه، و منه قوله تعالى: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ «١»، و المعنى: ثم دعاه داعى الحكمة إلى خلق

---

(١). فصلت: ۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۲

السموات بعد خلق الأرض و ما فيها. قال الحسن: معنى الآية صعد أمره إلى السماء وَ هِيَ دُخانٌ الدخان: ما ارتفع من لهب النار، و يستعار لما يرى من بخار الأرض. قال المفسرون: هذا الدخان هو بخار الماء، و خصّ سبحانه الاستواء إلى السماء مع كون الخطاب المترتب على ذلك متوجها إليها. و إلى الأرض كما يفيده قوله: فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً استغناء بما تقدّم من ذكر تقديرها، و تقدير ما فيها، و معنى ائتيا: افعلا ما آمركما به و جيئا به، كما يقال ائت ما هو الأحسن أي: افعله. قال الواحدى: قال المفسرون: إن اللّه سبحانه قال: أما أنت يا سماء فاطلعى شمسك، و قمرك، و نجومك، و أما أنت يا أرض فشقى أنهارك، و أخرجى ثمارك، و نباتك. قرأ الجمهور ائْتِيا أمرا من الإتيان. و قرأ ابن عباس، و ابن جبير، و مجاهد «آتيا» قالتا آتينا بالمدّ فيهما، و هو إما من المؤاتاة، و هى الموافقة، أي: لتوافق كلّ منكما الأخرى أو من الإيتاء و هو الإعطاء فوزنه على الأوّل فاعلا كقاتلا و على الثانى افعلا كأكرما طَوْعاً أَوْ كَرْهاً مصدران فى موضع الحال، أي: طائعتين أو مكرهتين، و قرأ الأعمش «كرها» بالضمّ. قال الزجاج: أطيعا طاعة أو تكرهان كرها. قيل و معنى هذا الأمر لهما التسخير: أى كونا فكانتا، كما قال تعالى: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «١» فالكلام من باب التمثيل لتأثير قدرته و استحالة امتناعها قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ أي: أتينا أمرك منقادين و معهما جمع من يعقل لخطابهما بما يخاطب به العقلاء. قال القرطبى: قال أكثر أهل العلم إن اللّه سبحانه خلق فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد سبحانه، و قيل: هو تمثيل لظهور الطاعة منهما، و تأثير القدرة الربانية فيهما فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ أي: خلقهنّ و أحكمهنّ و فرغ منهنّ. كما فى قول الشاعر:

و عليهما مسرودتان قضاهماداود أو صنع السّوابغ تبّع «٢»

و الضـمير فى قضاهنّ: إما راجع إلى السـماء على المعنى لأنها سبع سموات، أو مبهم مفسر بسبع سموات، و انتصاب سبع سموات على التفسير، أو على البدل من الضمير. و قيل: إن انتصابه على أنه المفعول الثانى لقضاهنّ لأنه مضمن معنى صيرهنّ، و قيل على الحال، أى: قضاهنّ حال كونهنّ معدودات بسبع، و يكون قضى بمعنى صنع، و قيل: على التمييز، و معنى: فِي يَوْمَيْنِ كما سبق فى قوله: خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ فالجملة ستة أيام، كما فى قوله سبحانه: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ* «٣» و قد تقدّم بيانه فى سورة الأعراف. قال مجاهد: و يوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدّون. قال عبد اللّه بن سلام: خلق الأرض فى يوم الأحد و يوم الإثنين، و قدّر فيها أقواتها يوم الثلاثاء و يوم الأربعاء، و خلق السموات فى يوم الخميس و يوم الجمعة، و قوله: وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها عطف على قضاهنّ. قال قتادة و السدّى، أى:

خلق فيها شمسها، و قمرها، و نجومها، و أفلاكها، و ما فيها من الملائكة، و البحار، و البرد، و الثلوج. و قيل

---

(١). النحل: ۴٠.

(٢). البيت لأبى ذؤيب الهذلى، و «الصّنع»: الحاذق.

(٣). الأعراف: ۵۴.

المعنى: أوحى فيها ما أراده و ما أمر به، و الإيحاء قد يكون بمعنى الأمر كما فى قوله: بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى «١» و قوله: وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ «٢» أى: أمرتهم.

و قد استشكل الجمع بين هذه الآية و بين قوله: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها «٣» فإن ما فى هذه الآية من قوله: ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ مشعر بأن خلقها متأخر عن خلق الأرض، و ظاهره يخالف قوله:

وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها فقيل إن ثُم فى ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ ليست للتراخى الزمانى؛ بل للتراخى الرتبى، فيندفع الإشكال من أصله، و على تقدير أنها للتراخى الزمانى فالجمع ممكن بأن الأرض خلقها متقدّم على خلق السماء، و دحوها بمعنى بسطها هو أمر زائد على مجرّد خلقها فهى متقدّمة خلقا متأخرة دحوا و هذا ظاهر، و لعله يأتى عند تفسيرنا لقوله: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها زيادة إيضاح للمقام إن شاء اللّه وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ أى: بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح، وَ انتصاب حِفْظاً على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف، أى: و حفظناها حفظا، أو على أنه مفعول لأجله على تقدير: و خلقنا المصابيح زينة و حفظا، و الأوّل أولى. قال أبو حيان: فى الوجه الثانى هو تكلف، و عدول عن السهل البين، و المراد بالحفظ: حفظها من الشياطين الذين يسترقون السمع، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ أى: البليغ القدرة الكثير العلم فَإِنْ أَعْرَضُوا عن التدبر و التفكر فى هذه المخلوقات فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ أى: فقل لهم يا محمد أنذرتكم خوّفتكم صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ أى: عذابا مثل عذابهم، و المراد بالصاعقة العذاب المهلك من كلّ شىء. قال المبرد: الصاعقة المرّة المهلكة لأىّ شىء كان. قرأ الجمهور صاعِقَةً فى الموضعين بالألف، و قرأ ابن الزبير، و النخعى، و السلمى، و ابن محيصن (صعقة) فى الموضعين، و قد تقدّم بيان معنى الصاعقة و الصعقة فى البقرة، و قوله:

إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ ظرف لأنذرتكم، أو لصاعقة، لأنها بمعنى العذاب، أى: أنذرتكم العذاب الواقع وقت مجىء الرسل، أو حال من صاعقة عاد. و هذا أولى من الوجهين الأولين، لأن الإنذار لم يقع وقت مجىء الرسل؛ فلا يصح أن يكون ظرفا له، و كذلك الصاعقة لا يصح أن يكون الوقت ظرفا لها، و قوله: مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ متعلق بجاءتهم، أى: جاءتهم من جميع جوانبهم،

و قيل: المعنى جاءتهم الرسل المتقدّمون، و المتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم منزلة مجيئهم أنفسهم، فكأن الرسل قد جاءوهم، و خاطبوهم بقولهم: أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ أى: بأن لا تعبدوا على أنها المصدرية، و يجوز أن تكون التفسيرية أو المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف. ثم ذكر سبحانه ما أجابوا به على الرسل فقال: قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً أى: لأرسلهم إلينا، و لم يرسل إلينا بشرا من جنسنا، ثم صرّحوا بالكفر و لم يتلعثموا، فقالوا: فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ أى: كافرون بما تزعمونه من أن اللّه أرسلكم إلينا، لأنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا، فكيف اختصكم برسالته دوننا، و قد تقدّم دفع هذه الشبهة الداحضة التى جاءوا بها فى غير موضع.

---

(۱). الزلزلة: ۵.

(۲). المائدة: ۱۱۱.

(۳). النازعات: ۳۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۴

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله:

وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ قال: لا يشهدون أن لا إله إلا اللّه، و فى قوله: لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ قال: غير منقوص. و أخرج ابن جرير، و النحاس فى ناسخه، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه «أن اليهود أتت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فسألته عن خلق السموات و الأرض، فقال: خلق اللّه الأرض فى يوم الأحد و الاثنين، و خلق الجبال و ما فيهنّ من منافع يوم الثلاثاء، و خلق يوم الأربعاء الشجر، و الحجر، و الماء و المدائن، و العمران و الخراب، فهذه أربعة أيام، فقال تعالى قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ و خلق يوم الخميس السماء، و خلق يوم الجمعة النجوم و الشمس، و القمر و الملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق من أوّل ساعة من هذه الثلاث الآجال حين يموت من مات، و فى الثانية: ألقى فيها من كلّ شىء مما ينتفع به، و فى الثالثة: خلق آدم و أسكنه الجنة، و أمر إبليس بالسجود له و أخرجه منها فى آخر ساعة، قالت اليهود:

ثم ماذا يا محمد؟ قال ثم استوى على العرش. قالوا: قد أصبت لو أتممت، قالوا ثم استراح، فغضب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم غضبا شديدا، فنزل وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ «۱». و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها قال:

شق الأنهار، و غرس الأشجار، و وضع الجبال، و أجرى البحار، و جعل فى هذه ما ليس فى هذه، و فى هذه ما ليس فى هذه. و أخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال: إن اللّه تعالى خلق يوما فسماه الأحد، ثم خلق ثانيا فسمّاه الإثنين، ثم خلق ثالثا فسماه الثلاثاء، ثم خلق رابعا فسماه الأربعاء، ثم خلق خامسا فسماه الخميس و ذكر نحو ما تقدّم. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عمر عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إن للّه فرغ من خلقه فى ستة أيام و ذكر نحو ما تقدّم». و أخرج ابن جرير عن أبى بكر نحو ما تقدّم عن ابن عباس. و أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله: فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قال قال للسماء: أخرجى شمسك، و قمرك، و نجومك، و للأرض شققى أنهارك، و أخرجى ثمارك قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ائْتِيا قال أعطيا و فى قوله:

قالَتا أَتَيْنا قال: أعطينا.

[سورة فصلت (۴۱): الآيات ۱۵ الی ۲۴]

فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوَّةً أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِی خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۱۵) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِی أَيّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْیِ فِی الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزی وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ (۱۶) وَ أَمّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمی عَلَی الْهُدی فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۷) وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۱۸) وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللّهِ إِلَی النّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۹)

حَتّی إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۰) وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللّهُ الَّذِی أَنْطَقَ كُلَّ شَیْ‌ءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۱) وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّا تَعْمَلُونَ (۲۲) وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِی ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (۲۳) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنّارُ مَثْویً لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (۲۴)

---

(۱). ق: ۳۸ و ۳۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۵

لما ذكر سبحانه عادا و ثمود إجمالا ذكر ما يختص بكل طائفة من الطائفتين تفصيلا، فقال: فَأَمّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ أی: تكبروا عن الإيمان باللّه، و تصديق رسله، و استعلوا على من فی الأرض بغير الحق، أی: بغير استحقاق ذلك الذی وقع منهم من التكبر و التجبر. ثم ذكر سبحانه بعض ما صدر عنهم من الأقوال الدالة على الاستكبار فقال: وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوَّةً و كانوا ذوی أجسام طوال و قوّة شديدة، فاغترّوا بأجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب، و مرادهم بهذا القول أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب، فردّ اللّه عليهم بقوله: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِی خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً و الاستفهام للاستنكار عليهم، و للتوبيخ لهم، أی: أو لم يعلموا بأن اللّه أشد منهم قدرة، فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء بقوله كن فيكون وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ أی: بمعجزات الرسل التی خصهم اللّه بها و جعلها دليلا على نبوّتهم، أو بآياتنا التی أنزلناها على رسلنا، أو بآياتنا التكوينية التی نصبناها لهم، و جعلناها حجة عليهم، أو بجميع ذلك. ثم ذكر سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه، فقال: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً الصرصر: الريح الشديدة الصوت من الصرّة، و هی الصيحة. قال أبو عبيدة: معنى صرصر: شديدة عاصفة. و قال الفراء: هی الباردة تحرق كما تحرق النار. و قال عكرمة، و سعيد بن جبير، و قتادة: هی الباردة، و أنشد قطرب قول الحطيئة:

المطعمون إذا هبّت بصرصرةو الحاملون إذا استودوا عن النّاس

أی: إذا سئلوا الدية. و قال مجاهد: هی الشديدة السموم، و الأولى تفسيرها بالبرد، لأن الصرّ فی كلام العرب: البرد، و منه قول الشاعر:

لها عذر كقرون النّساءركّبن فی يوم ريح و صرّ

قال ابن السكيت: صرصر يجوز أن يكون من الصرّ و هو البرد، و يجوز أن يكون من صرصر الباب، و من الصرة: و هی الصيحة، و منه فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِی صَرَّةٍ. ثم بين سبحانه وقت نزول ذلك العذاب عليهم فقال: فِی أَيّامٍ نَحِساتٍ أی: مشؤومات ذوات نحوس. قال مجاهد، و قتادة: كن آخر شوّال من يوم الأربعاء إلی يوم الأربعاء، و ذلك سبع ليال، و ثمانية أيام حسوما، و قيل: نحسات: باردات، و قيل:

متتابعات، و قيل: شداد، و قيل: ذوات غبار. قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو نَحِساتٍ بإسكان

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۶

الحاء على أنه جمع نحس، و قرأ الباقون بكسرها، و اختار أبو حاتم القراءة الأولى لقوله: فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ «۱» و اختار أبو عبيد القراءة الثانية لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أي: لكى نذيقهم، و الخزى: هو الذل، و الهوان بسبب ذلك الاستكبار وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى أى: أشدّ إهانة و ذلا، و وصف العذاب بذلك، و هو فى الحقيقة وصف للمعذبين، لأنهم الذين صاروا متصفين بالخزى وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ أى: لا يمنعون من العذاب النازل بهم، و لا يدفعه عنهم دافع. ثم ذكر حال الطائفة الأخرى فقال:

وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ أى: بينا لهم سبيل النجاة و دللناهم على طريق الحقّ بإرسال الرسل إليهم، و نصب الدلالات لهم من مخلوقات اللّه، فإنها توجب على كل عاقل أن يؤمن باللّه و يصدّق رسله. قال الفراء: معنى الآية: دللناهم على مذهب الخير بإرسال الرسل. قرأ الجمهور وَ أَمَّا ثَمُودُ بالرفع و منع الصرف. و قرأ الأعمش و ابن وثاب بالرفع و الصرف و قرأ ابن عباس و ابن أبى إسحاق و عاصم فى رواية بالنصب و الصرف و قرأ الحسن و ابن هرمز و عاصم فى رواية بالنصب و المنع، فأما الرفع فعلى الابتداء و الجملة بعد الخبر، و أما النصب فعلى الاشتغال و أما الصرف فعلى تفسير الاسم بالأب أو الحى، و أما المنع فعلى تأويله بالقبيلة فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى أى اختاروا الكفر على الإيمان و قال أبو العالية اختاروا العمى على البيان و قال السدّى:

اختاروا المعصية على الطاعة فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ قد تقدّم أن الصاعقة اسم للشىء المهلك لأىّ شىء كان، و الهون: الهوان و الإهانة، فكأنه قال أصابهم مهلك العذاب ذى الهوان أو الإهانة، و يقال عذاب هون: أى مهين كقوله: ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ «۲» و الباء فى بِما كانُوا يَكْسِبُونَ للسببية، أى: بسبب الذى كانوا يكسبونه، أو بسبب كسبهم وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ و هم صالح و من معه من المؤمنين فإن اللّه نجاهم من ذلك العذاب ثم لما ذكر سبحانه ما عاقبهم به فى الدنيا ذكر ما عاقبهم به فى الآخرة فقال: وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ و فى وصفهم بكونهم أعداء اللّه مبالغة فى ذمهم، و العامل فى الظرف محذوف دلّ عليه ما بعده تقديره: يساق الناس يوم يحشر، أو باذكر، أى: اذكر يوم يحشرهم. قرأ الجمهور يُحْشَرُ بتحتية مضمومة و رفع أَعْداءُ على النيابة، و قرأ نافع «نحشر» بالنون و نصب أعداء، و معنى حشرهم إلى النار سوقهم إليها أو إلى موقف الحساب، لأنه يتبين عنده فريق الجنة، و فريق النار فَهُمْ يُوزَعُونَ أى: يحبس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا، و يجتمعوا، كذا قال قتادة و السدّى و غيرهما، و قد سبق تحقيق معناه فى سورة النمل مستوفى حَتَّى إِذا ما جاؤُها أى: جاءوا النار التى حشروا إليها أو موقف الحساب و ما مزيدة للتوكيد شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ فى الدنيا من المعاصى. قال مقاتل: تنطق جوارحهم بما كتمت الألسن من عملهم بالشرك، و المراد بالجلود: هى جلودهم المعروفة فى فول أكثر المفسرين. و قال السدّى، و عبيد بن أبى جعفر، و الفراء: أراد بالجلود الفروج، و الأوّل أولى وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا وجه تخصيص الثلاثة بالشهادة دون غيرها ما ذكره الرازى أن الحواس الخمس: و هى السمع، و البصر، و الشم، و الذوق، و اللمس، و آلة المس:

(۱). القمر: ۱۹.

(۲). سبأ: ۱۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۷

هى الجلد، فاللّه سبحانه ذكر هنا ثلاثة أنواع من الحواس، و هى السمع و البصر و اللمس، و أهمل ذكر نوعين و هما الذوق و

الشم، فالـذوق داخل فى اللمس من بعض الوجوه، لأن إدراك الـذوق إنما يتأتى بأن تصير جلـدة اللسان مماسـة لجرم الطعام، و كـذلك الشم لا يتأتى حتى تصـير جلـدة الحنك مماسة لجرم المشـموم، فكانا داخلين فى جنس اللمس، و إذا عرفت من كلامه هـذا وجه تخصـيص الثلاثـة بالـذكر عرفت منه وجه تخصـيص الجلود بالسؤال؛ لأنها قـد اشـتملت على ثلاث حواس، فكان تأتى المعصـية من جهتها أكثر و أما على قول من فسـر الجلود بالفروج فوجه تخصيصـها بالسؤال ظاهر، لأن ما يشهد به الفرج من الزنا أعظم قبحا، و أجلب للخزى، و العقوبـة، و قـد قدّمنا وجه إفراد السـمع و جمع الأبصار قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىْ‌ءٍ أى: أنطق كـلّ شـىء ممـا ينطق من مخلوقاته فشـهدنا عليكم بما عملتم من القبائـح، و قيل المعنى: ما نطقنا باختيارنا، بل أنطقنا اللّه. و الأوّل أولى وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ قيل: هذا من تمام كلام الجلود، و قيل:

مسـتأنف مـن كلاـم اللّه، و المعنى: أن مـن قـدر على خلقكـم و إنشـائكم ابتـداء قـدر على إعـادتكم، و رجعكم إليه وَ مـا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْـهَدَ عَلَيْكُمْ سَـمْعُكُمْ وَ لاـ أَبْصارُكُمْ وَ لاـ جُلُودُكُمْ هـذا تقريع لهم، و توبيـخ من جهـة اللّه سبحانه، أو من كلام الجلود، أى: مـا كنتم تسـتخفون عنـد الأعمـال القبيحـة حـذرا من شـهادة الجوارح عليكم، و لمـا كـان الإنسـان لا يقـدر على أن يستخفى من جوارحه عند مباشـرة المعصـية كان معنى الاسـتخفاء هنا ترك المعصـية. و قيل معنى الاستتار: الاتقاء، أى: ما كنتم تتقون فى الـدنيا أن تشـهد عليكم جوارحكم فى الآـخرة، فتتركوا المعاصـى خوفا من هـذه الشـهادة و أَنْ فى قوله: أَنْ يَشْـهَدَ فى محل نصب على العلة، أى: لأجل أن تشـهد، أو: مخافة أن تشهد. و قيل: منصوبة بنزع الخافض، و هو الباء، أو عن، أو من. و قيل: إن الاسـتتار مضـمن معنى الظنّ، أى: و مـا كنتم تظنون أن تشـهد، و هو بعيـد وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاـ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ من المعاصى فاجترأتم على فعلها، قيل: كان الكفار يقولون: إن اللّه لا يعلم ما فى أنفسنا، و لكن يعلم ما نظهر دون ما نسرّ. قال قتادة: الظنّ هنا بمعنى العلم، و قيل: أريـد بالظنّ معنى مجازى يعم معناه الحقيقى، و ما هو فوقه من العلم، وَ الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى ما ذكر من ظنهم، و هـو: مبتـدأ، و خـبره: ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ و قـوله: أَرْداكُمْ خـبر آخر للمبتـدأ، و قيـل: إن أرداكم فى محل نصب على الحال المقدّرة. و قيل: إن ظنكم بدل من ذلك، و الذى ظننتم:

خبره، و أرداكم: خبر آخر، أو: حال، و قيل: إن ظنكم خبر أوّل، و الموصول و صلته: خبر ثان، و أرداكم:

خـبر ثـالث، و المعنى: أن ظنكم بـأن اللّه لاـ يعلم كـثيرا ممـا تعملون، أهلككم و طرحكم فى النـار فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ أى: الكـاملين فى الخسـران. ثم أخبر عن حالهم فقال: فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ أى: فإن يصبروا على النار فالنار مثواهم، أى: محل استقرارهم، و إقامتهم لا خروج لهم منها. و قيل المعنى:

فـإن يصبروا فى الـدنيا على أعمـال أهل النار، فالنار مثوى لهم وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ يقال أعتبنى فلان: أى أرضانى بعـد إسـخاطه إيـاى، و اسـتعتبته: طلبت منه أن يرضـى، و المعنى: أنهم إن يسـألوا أن يرجع بهم إلى مـا يحبون لم يرجع لأنهم لا يستحقون ذلك. قال الخليل: تقول استعتبته فأعتبنى: أى استرضيته

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۸

فأرضانى، و معنى الآيـة: إن يطلبوا الرّضا لم يقع الرّضا عنهم، بل لا بـدّ لهم من النار. قرأ الجمهور يَسْتَعْتِبُوا بفتـح التحتية و كسـر التاء الفوقية الثانية مبنيا للفاعل. و قرءوا مِنَ الْمُعْتَبِينَ بفتح الفوقية اسم مفعول، و قرأ الحسن، و عبيد بن عمير، و أبو العالية يَسْتَعْتِبُوا مبنيا للمفعول فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ اسم فاعل: أى إنهم إن أقالهم اللّه، و ردّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته كما فى قوله سبحانه: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «۱».

و قـد أخرج الطبرانى عن ابن عباس فى قوله: فَهُمْ يُوزَعُونَ قال: يحبس أوّلهم على آخرهم. و أخرج ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: يدفعون. و أخرج البخارى، و مسـلم، و غيرهما عن ابن مسـعود قال: كنت مستترا بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر:

قرشى و ثقفيان، أو ثقفىّ و قرشيان، كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أ ترون أن اللّه يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخران:

إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه و إنا إذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخران: إن سمع منه شيئا سمعه كله؛ قال:

فذكرت ذلك للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فأنزل اللّه وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ إلى قوله: مِنَ الْخاسِرِينَ و أخرج عبد الرزاق، و أحمد، و النسائى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى البعث عن معاوية بن حيدة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «تحشرون هاهنا، و أومأ بيده إلى الشام، مشاة و ركبانا، و على وجوهكم، و تعرضون على اللّه و على أفواهكم الفدام، و أوّل ما يعرب عن أحدكم فخذه و كتفه»، و تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ و أخرج أحمد، و أبو داود الطيالسى، و عبد بن حميد، و مسلم، و أبو داود، و ابن ماجة، و ابن حبان، و ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا يموتنّ أحدكم إلا و هو يحسن الظن باللّه تعالى، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم باللّه»، فقال اللّه: وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ

[سورة فصلت (41): الآيات 25 الى 36]

وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (٢٥) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)

وَ ما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)

---

(١). الأنعام: ٢٨.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٥٨٩

قوله: وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ أى: هيأنا قرناء من الشياطين. و قال الزجاج: سببنا لهم قرناء حتى أضلوهم، و قيل: سلطنا عليهم قرناء، و قيل: قدّرنا، و المعانى متقاربة، و أصل التقييض: التيسير و التهيئة، و القرناء: جمع قرين، و هم الشياطين، جعلهم بمنزلة الأخلاء لهم. و قيل: إن اللّه قيض لهم قرناء فى النار، و الأولى أن ذلك فى الدنيا لقوله: فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ فإن المعنى: زينوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا و شهواتها، و حملوهم على الوقوع فى معاصى اللّه بانهماكهم فيها، و زينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة فقالوا: لا بعث و لا حساب، و لا جنة و لا نار. و قال الزجاج: ما بين أيديهم ما عملوه، و ما خلفهم ما عزموا على أن يعملوه. و روى عن الزجاج أيضا أنه قال: ما بين أيديهم: من أمر الآخرة أنه لا بعث و لا جنة و لا نار، و ما خلفهم: من أمر

الدنيا وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ أى: وجب و ثبت عليهم العذاب، و هو قوله سبحانه: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ «۱» و فِي أُمَمٍ فى محل نصب على الحال من الضمير فى عليهم. و المعنى: كائنين فى جملة أمم، و قيل فى: بمعنى مع، أى: مع أمم من الأمم الكافرة التى قَدْ خَلَتْ و مضت مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ على الكفر، و جملة إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ تعليل لاستحقاقهم العذاب وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ أى: قال بعضهم لبعض لا تسمعوه و لا تنصتوا له، و قيل معنى لا تسمعوا: لا تطيعوا، يقال سمعت لك: أى أطعتك وَ الْغَوْا فِيهِ أى: عارضوه باللغو و الباطل، أو ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارئ له. و قال مجاهد:

الغوا فيه بالمكاء و التصدية و التصفيق و التخليط فى الكلام حتى يصير لغوا و قال الضحاك: أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول. و قال أبو العالية: قعوا فيه و عيبوه. قرأ الجمهور وَ الْغَوْا بفتح الغين، من لغا إذا تكلم باللغو، و هو ما لا فائدة فيه، أو من لغى بالفتح يلغى بالفتح أيضا كما حكاه الأخفش، و قرأ عيسى بن عمر الجحدرى، و ابن أبى إسحاق، و أبو حيوة، و بكر بن حبيب السهمى، و قتادة، و أبو السمّال، و الزعفرانى بضم الغين. و قد تقدّم الكلام فى اللغو فى سورة البقرة لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ أى: لكى تغلبوهم فيسكتوا.

ثم توعدهم سبحانه على ذلك فقال: فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً و هذا وعيد لجميع الكفار، و يدخل فيهم الذين السياق معهم دخولا أوليا وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ أى: و لنجزينهم فى الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا. قال مقاتل: و هو الشرك. و قيل المعنى: إنه يجازيهم بمساوى أعمالهم لا بمحاسنها كما يقع منهم من صلة الأرحام، و إكرام الضيف، لأن ذلك باطل لا أجر له مع كفرهم، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم، و هو: مبتدأ، و خبره جزاء أعداء اللّه، أو: خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر ذلك، و جملة جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ مبينة للجملة التى قبلها، و الأوّل أولى،

---

(۱). ص: ۸۵.

و تكون النار: عطف بيان للجزاء، أو: بدلا منه، أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: مبتدأ، و الخبر: لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ. و على الثلاثة الوجوه الأولى تكون جملة لهم فيها دار الخلد مستأنفة مقرّرة لما قبلها، و معنى دار الخلد: دار الإقامة المستمرة التى لا انقطاع لها جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ أى: يجزون جزاء بسبب جحدهم بآيات اللّه. قال مقاتل: يعنى القرآن يجحدون أنه من عند اللّه، و على هذا يكون التعبير عن اللغوب الجحود لكونه سببا له، إقامة للسبب مقام المسبب وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ قالوا هذا و هم فى النار، و ذكره بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه، و المراد أنهم طلبوا من اللّه سبحانه أن يريهم من أضلهم من فريق الجن و الإنس من الشياطين الذين كانوا يسوّلون لهم، و يحملونهم على المعاصى، و من الرؤساء الذين كانوا يزيّنون لهم الكفر. و قيل: المراد إبليس و قابيل لأنهما سنا المعصية لبنى آدم. قرأ الجمهور أَرِنَا بكسر الراء. و قرأ ابن محيصن، و السوسى عن أبى عمرو، و ابن عامر بسكون الراء، و بها قرأ أبو بكر و المفضل و هما لغتان بمعنى واحد. و قال الخليل: إذا قلت أرنى ثوبك بالكسر فمعناه بصرنيه و بالسكون أعطنيه نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا أى ندوسهما بأقدامنا لنشتفى منهم، و قيل: نجعلهم أسفل منا فى النار لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ فيها مكانا؛ أو: ليكونا من الأذلين المهانين، و قيل: ليكونوا أشد عذابا منا. ثم لما ذكر عقاب الكافرين و ما أعدّه لهم ذكر حال المؤمنين، و ما أنعم عليهم به فقال: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ أى: وحده لا شريك له ثُمَّ اسْتَقامُوا على التوحيد و لم يلتفتوا إلى إله غير اللّه.

قال جماعة من الصحابة و التابعين: معنى الاستقامة إخلاص العمل للّه. و قال قتادة و ابن زيد: ثم استقاموا على طاعة اللّه. و قال

الحسن: استقاموا على أمر اللّه، فعملوا بطاعته، و اجتنبوا معصيته. و قال مجاهد و عكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا اللّه حتى ماتوا. و قال الثورى: عملوا على وفاق ما قالوا. و قال الربيع: أعرضوا عما سوى اللّه. و قال الفضيل بن عياض: زهدوا فى الفانية، و رغبوا فى الباقية تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ من عند اللّه سبحانه بالبشرى التى يريدونها من جلب نفع، أو دفع ضرر، أو رفع حزن.

قال ابن زيد و مجاهد: تتنزل عليهم عند الموت. و قال مقاتل و قتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث. و قال وكيع:

البشرى فى ثلاثة مواطن: عند الموت، و فى القبر، و عند البعث أَلَّا أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا أن هى المخففة أو المفسرة أو الناصبة، و لا على الوجهين الأوّلين ناهية، و على الثالث نافية، و المعنى: لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة، و لا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل و ولد و مال. قال مجاهد: لا تخافوا الموت و لا تحزنوا على أولادكم، فإن اللّه خليفتكم عليهم. و قال عطاء: لا تخافوا ردّ ثوابكم فإنه مقبول، و لا تحزنوا على ذنوبكم فإنى أغفرها لكم. و الظاهر عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين، و عدم تقييد نفى الخوف و الحزن بحالة مخصوصة كما يشعر به حذف المتعلق فى الجميع وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ بها فى الدنيا فإنكم واصلون إليها مستقرّون بها خالدون فى نعيمها. ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من ذلك كله، فقال: نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ أى: نحن المتولون لحفظكم، و معونتكم فى أمور الدنيا و أمور الآخرة، و من كان اللّه وليه فاز بكلّ مطلب و نجا من كلّ مخافة.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۱

و قيل: إن هذا من قول الملائكة. قال مجاهد: يقولون لهم نحن قرناؤكم الذين كنا معكم فى الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قالوا: لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة. و قال السدّى: نحن الحفظة لأعمالكم فى الدنيا و أولياؤكم فى الآخرة. و قيل: إنهم يشفعون لهم فى الآخرة، و يتلقونهم بالكرامة وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ من صنوف اللذات و أنواع النعم وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ أى: ما تتمنون، افتعال من الدعاء بمعنى الطلب، و قد تقدّم بيان معنى هذا فى قوله: وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ مستوفى، و الفرق بين الجملتين أن الأولى باعتبار شهوات أنفسهم، و الثانية باعتبار ما يطلبونه أعم من أن يكون مما تشتهيه أنفسهم أولا. و قال الرازى: الأقرب عندى أن قوله: وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ إشارة إلى الجنة الروحانية المذكورة فى قوله: دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ الآية، و انتصاب نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ على الحال من الموصول، أو من عائده، أو من فاعل تدّعون، أو هو مصدر مؤكد لفعل محذوف، أى: أنزلناه نزلا، و النزل: ما يعدّلهم حال نزولهم من الرزق و الضيافة، و قد تقدم تحقيقه فى سورة آل عمران وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ أى:

إلى توحيد اللّه و طاعته. قال الحسن: هو المؤمن أجاب اللّه دعوته و دعا الناس إلى ما أجاب اللّه فيه من طاعته وَ عَمِلَ صالِحاً فى إجابته وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ لربى. و قال ابن سيرين، و السدّى، و ابن زيد: هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و روى هذا أيضا عن الحسن. و قال عكرمة، و قيس بن أبى حازم، و مجاهد:

نزلت فى المؤذنين. و يجاب عن هذا بأن الآية مكية، و الأذان إنما شرع بالمدينة. و الأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ و يدخل فيها من كان سببا لنزولها دخولا أوليا، فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه اللّه، و عمل عملا صالحا، و هو تأدية ما فرضه اللّه عليه مع اجتناب ما حرمه عليه، و كان من المسلمين دينا لا من غيرهم فلا شىء أحسن منه، و لا أوضح من طريقته، و لا أكثر ثوابا من عمله. ثم بين سبحانه الفرق بين محاسن الأعمال و مساويها فقال: وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ أى: لا تستوى الحسنة التى يرضى اللّه بها و يثيب عليها، و لا السيئة التى يكرهها اللّه و يعاقب عليها، و لا وجه لتخصيص الحسنة بنوع من أنواع الطاعات، و تخصيص السيئة بنوع من أنواع المعاصى، فإن اللفظ أوسع من ذلك. و قيل: الحسنة التوحيد، و السيئة

الشرک. و قيل: الحسنة المداراة، و السيئة الغلظة. و قيل: الحسنة العفو، و السيئة: الانتصار.

و قيل: الحسنة العلم، و السيئة: الفحش. قال الفراء لا فى قوله: وَ لَا السَّيِّئَةُ زائدة ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أى: ادفع السيئة إذا جاءتک من المسىء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، و منه مقابلة الإساءة بالإحسان، و الذنب بالعفو، و الغضب بالصبر، و الإغضاء عن الهفوات، و الاحتمال للمكروهات. و قال مجاهد و عطاء: بالتى هى أحسن: يعنى بالسلام إذا لقى من يعاديه، و قيل: بالمصافحة عند التلاقى فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ هذه هى الفائدة الحاصلة من الدفع بالتى هى أحسن، و المعنى:

أنک إذا فعلت ذلک الدفع صار العدوّ كالصديق، و البعيد عنک كالقريب منک. و قال مقاتل: نزلت فى أبى سفيان بن حرب كان معاديا للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فصار له وليا بالمصاهرة التى وقعت بينه و بينه، ثم أسلم فصار وليا فى الإسلام حميما بالصهارة، و قيل غير ذلک، و الأولى حمل الآية على العموم وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۲

قال الزجاج: ما يلقى هذه الفعلة و هذه الحالة، و هى دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على كظم الغيظ، و احتمال المكروه وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ فى الثواب و الخير. و قال قتادة: الحظ العظيم الجنة، أى:

ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة، و قيل: الضمير فى يلقاها عائد إلى الجنة، و قيل: راجع إلى كلمة التوحيد.

قرأ الجمهور يُلَقَّاها من التلقية، و قرأ طلحة بن مصرف و ابن كثير فى رواية عنه «يلاقاها» من الملاقاة.

ثم أمره سبحانه بالاستعاذة من الشيطان فقال: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ النزغ شبيه النخس، شبه به الوسوسة لأنها تبعث على الشرّ؛ و المعنى: و إن صرفک الشيطان عن شىء مما شرعه اللّه لک، أو عن الدفع بالتى هى أحسن فاستعذ باللّه من شرّه، و جعل النزغ نازغا على المجاز العقلى كقولهم: جدّ جدّه، و جملة إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ تعليل لما قبلها، أى: السميع لكلّ ما يسمع، و العليم بكلّ ما يعلم، و من كان كذلک فهو يعيذ من استعاذ به.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان المشركون يطردون الناس عنه و يقولون لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ و كان إذا أخفى قراءته لم يسمع من يحبّ أن يسمع القرآن، فأنزل اللّه وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها «۱» و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن علىّ بن أبى طالب أنه سئل عن قوله: رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ قال: هو ابن آدم الذى قتل أخاه و إبليس. و أخرج الترمذى، و النسائى، و البزار، و أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن عدى، و ابن مردويه عن أنس قال: «قرأ علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم هذه الآية إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا قال: قد قالها ناس من الناس ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حين يموت فهو ممن استقام عليها. و أخرج ابن المبارک، و عبد الرزاق، و الفريابى، و سعيد بن منصور، و مسدد، و ابن سعد، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طريق سعيد بن عمران عن أبى بكر الصديق فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا قال: الاستقامة أن لا يشركوا باللّه شيئا. و أخرج ابن راهويه و عبد بن حميد، و الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية من طريق الأسود بن هلال عن أبى بكر الصديق أنه قال: ما تقولون فى هاتين الآيتين إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا، و الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ قالوا: الذين قالوا ربنا اللّه ثم عملوا بها و استقاموا على أمره فلم يذنبوا، و لم يلبسوا إيمانهم بظلم: لم يذنبوا. قال: لقد حملتموهما على أمر شديد. الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ يقول بشرک، و الذين قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا فلم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. و أخرج ابن

مردويه عن بعض الصحابة: ثم استقاموا على فرائض اللّه. و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس ثُمَّ اسْتَقامُوا قال: على شهادة أن لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن المبارك، و سعيد بن منصور، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد، و الحكيم

(۱). الإسراء: ۱۱۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۳

الترمذى، و ابن المنذر عن عمر بن الخطاب إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا قال: استقاموا بطاعة اللّه و لم يروغوا روغان الثعلب. و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و الدارمى، و البخارى فى تاريخه، و مسلم، و الترمذى، و النسائى، و ابن ماجة، و ابن حبان عن سفيان الثقفى أن رجلا قال: يا رسول اللّه مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال: قل آمنت باللّه ثم استقم، قلت: فما أتقى؟ فأومأ إلى لسانه.

قال الترمذى: حسن صحيح. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن عائشة فى قوله:

وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ قالت: المؤذن وَ عَمِلَ صالِحاً قالت: ركعتان فيما بين الأذان و الإقامة. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن المنذر، و ابن مردويه من وجه آخر عنها قالت: ما أرى هذه الآية نزلت إلا فى المؤمنين. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قال: أمر المسلمين بالصبر عند الغضب، و الحلم عند الجهل، و العفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم اللّه من الشيطان و خضع لهم عدوّهم كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ و أخرج ابن المنذر عن أنس فى قوله: وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا قال: الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت صادقا فغفر اللّه لى، و إن كنت كاذبا فغفر اللّه لك. و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن سليمان بن صرد قال: استبّ رجلان عند النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فاشتدّ غضب أحدهما، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب: أعوذ باللّه من الشّيطان الرجيم، فقال:

الرجل: أ مجنون ترانى؟ فتلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ من الشّيطان الرجيم».

[سورة فصلت (۴۱): الآيات ۳۷ الى ۴۴]

وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۳۷) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ (۳۸) وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۳۹) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۴۰) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (۴۱)

لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (۴۲) ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (۴۳) وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (۴۴)

شرع سبحانه فى بيان بعض آياته البديعة الدالة على كمال قدرته، و قوّة تصرفه للاستدلال بها على توحيده فقال: وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ ثم لما بين أن ذلك من آياته نهاهم عن عبادة الشمس

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۴

و القمر، و أمرهم بأن يسجدوا للّه عزّ و جلّ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ لأنهما مخلوقان من مخلوقاته، فلا يصح أن يكونا شريكين له فى ربوبيته وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ أى: خلق هذه الأربعة المذكورة، لأن جمع ما لا يعقل حكمه حكم جمع الإناث، أو الآيات، أو الشمس و القمر، لأن الاثنين جمع عند جماعة من الأئمة إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ قيل: كان ناس يسجدون للشمس و القمر كالصابئين فى عبادتهم الكواكب، و يزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود للّه فنهوا عن ذلك، فهذا وجه تخصيص ذكر السجود بالنهى عنه. و قيل: وجه تخصيصه أنه أقصى مراتب العبادة، و هذه الآية من آيات السجود بلا خلاف، و إنما اختلفوا فى موضع السجدة، فقيل موضعه عند قوله: إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ لأنه متصل بالأمر، و قيل عند قوله: وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ لأنه تمام الكلام فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ أى: إن استكبر هؤلاء عن الامتثال فالملائكة يديمون التسبيح للّه سبحانه بالليل و النهار و هم لا يملون و لا يفترون وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً الخطاب هنا لكل من يصلح له أو لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و الخاشعة: اليابسة الجدبة. و قيل: الغبراء التى لا تنبت. قال الأزهرى: إذا يبست الأرض و لم تمطر قيل: قد خشعت فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ أى: ماء المطر، و معنى اهتزت:

تحركت بالنبات، يقال اهتزّ الإنسان: إذا تحرك، و منه قول الشاعر:

تراه كنصل السّيف يهتزّ للنّدىإذا لم تجد عند امرئ السّوء مطعما

و معنى ربت: انتفخت و علت قبل أن تنبت، قاله مجاهد و غيره، و على هذا ففى الكلام تقديم و تأخير، و تقديره: ربت و اهتزّت، و قيل: الاهتزاز و الربو قد يكونان قبل خروج النبات، و قد يكونان بعده، و معنى الربو لغة: الارتفاع، كما يقال للموضع المرتفع: ربوة و رابية، و قد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى فى سورة الحج، و قيل: اهتزت استبشرت بالمطر، و ربت: انتفخت بالنبات. و قرأ أبو جعفر و خالد «و ربأت» إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى بالبعث و النشور إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شىء كائنا ما كان إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا أى: يميلون عن الحق، و الإلحاد: الميل و العدول، و منه اللحد فى القبر: لأنه أميل إلى ناحية منه، يقال ألحد فى دين اللّه: أى مال و عدل عنه، و يقال لحد، و قد تقدّم تفسير الإلحاد. قال مجاهد: معنى الآية يميلون عن الإيمان بالقرآن. و قال مجاهد: يميلون عند تلاوة القرآن بالمكاء و التصدية، و اللغو و الغناء. و قال قتادة: يكذبون فى آياتنا. و قال السدّى: يعاندون و يشاقون. قال ابن زيد يشركون لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا بل نحن نعلمهم فنجازيهم بما يعملون. ثم بين كيفية الجزاء و التفاوت بين المؤمن و الكافر فقال أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ هذا الاستفهام للتقرير، و الغرض منه التنبيه على أن الملحدين فى الآيات يلقون فى النار، و أن المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة. و ظاهر الآية العموم اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و قيل: المراد بمن يلقى فى النار: أبو جهل، و من يأتى آمنا:

النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و قيل: حمزة، و قيل: عمر بن الخطاب، و قيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ هذا أمر تهديد، أى: اعملوا من أعمالكم التى تلقيكم فى النار ما شئتم إنه

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۵

بما تعملون بصير، فهو مجازيكم على كل ما تعملون. قال الزجاج لفظه لفظ الأمر، و معناه الوعيد إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها، و خبر إن محذوف، أى: إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم، أو هالكون، أو يعذّبون، و قيل: هو قوله: يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ و هذا بعيد و إن رجحه أبو عمرو بن العلاء. و قال الكسائى: إنه سدّ مسدّه الخبر السابق، و هو لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا و قيل: إن الجملة بدل من الجملة الأولى و هى: الذين يلحدون فى آياتنا، و خبر إن: هو الخبر السابق وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ أى: القرآن الذى كانوا يلحدون فيه، أى: عزيز عن أن يعارض أن يطعن فيه الطاعنون، منيع عن كل عيب. ثم وصفه بأنه حق لا سبيل للباطل إليه بوجه من الوجوه، فقال: لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ قال الزجاج:

معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه، و به قال قتادة و السدّى، و معنى الباطل على هذا: الزيادة و النقصان. و قال مقاتل: لا يأتيه التكذيب من الكتب التى قبله، و لا يجىء من بعده كتاب فيبطله، و به قال الكلبى و سعيد بن جبير. و قيل: الباطل هو الشيطان، أى: لا يستطيع أن يزيد فيه، و لا ينقص منه.
و قيل: لا يزاد فيه، و لا ينقص منه، لا من جبريل، و لا من محمد صلّى اللّه عليه و سلم تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ هو خبر مبتدأ محذوف، أو صفة أخرى لكتاب عند من يجوّز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح، و قيل:
إنه الصفة لكتاب، و جملة لا يأتيه معترضة بين الموصوف و الصفة، ثم سلى سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم عن ما كان يتأثر له من أذية الكفار فقال: ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ أى: ما يقال لك من هؤلاء الكفار من وصفك بالسحر و الكذب و الجنون إلا مثل ما قيل للرسل من قبلك، فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثل ما يقول لك هؤلاء، و قيل المعنى: ما يقال لك من التوحيد و إخلاص العبادة للّه إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك، و قيل: هو استفهام، أى: أىّ شىء يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لمن يستحق مغفرته من الموحدين الذين بايعوك، و بايعوا من قبلك من الأنبياء وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ للكفار المكذّبين المعادين لرسل اللّه، و قيل: لذو مغفرة للأنبياء، و ذو عقاب لأعدائهم وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا أى: لو جعلنا هذا القرآن الذى تقرؤه على الناس بغير لغة العرب لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ أى: بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم لغة العجم، و الاستفهام فى قوله:
ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ للإنكار، و هو من جملة قول المشركين، أى: لقالوا أ كلام أعجمىّ و رسول عربىّ.
و الأعجمى: الذى لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم. و الأعجم ضد الفصيح: و هو الذى لا يبين كلامه، و يقال للحيوان غير الناطق: أعجم. قرأ أبو بكر، و حمزة، و الكسائى «ء أعجمىّ» بهمزتين محققتين. و قرأ الحسن، و أبو العالية، و نصر بن عاصم، و هشام بهمزة واحدة على الخبر و قرأ الباقون: بتسهيل الثانية بين بين، و قيل المراد: هلا فصلت آياته؛ فجعل بعضها أعجميا لإفهام العجم، و بعضها عربيا لإفهام العرب. ثم أمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يجيبهم فقال: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ أى: يهتدون به إلى الحق، و يشتفون به من كل شك و شبهة، و من الأسقام و الآلام وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ
فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۶
أى: صمم عن سماعه و فهم معانيه، و لهذا تواصوا باللغو فيه وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى قال قتادة: عموا عن القرآن و صموا عنه. و قال السدّى: عميت قلوبهم عنه. و المعنى: و هو عليهم ذو عمى، أو وصف بالمصدر للمبالغة، و الموصول فى قوله: وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ مبتدأ، و خبره: فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ أو:
الموصول الثانى عطف على الموصول الأوّل، و وقر: عطف على هدى عند من جوّز العطف على عاملين مختلفين، و التقدير: هو للأوّلين هدى و شفاء، و للآخرين وقر فى آذانهم. قرأ الجمهور عَمًى بفتح الميم منوّنة على أنه مصدر، و قرأ ابن عباس، و عبد اللّه بن الزبير، و عمرو بن العاص، و ابن عمر: بكسر الميم منوّنة على أنه اسم منقوص على أنه وصف به مجازا. و قرأ عمرو بن دينار: بكسر الميم و فتح الياء على أنه فعل ماض، و اختار أبو عبيدة القراءة الأولى لقوله أولا هُدىً وَ شِفاءٌ و لم يقل: هاد و شاف، و قيل المعنى: و الوقر عليهم عمى، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الذين لا يؤمنون و ما فى حيزه، و خبره يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم للقرآن بحال من ينادى من مسافة بعيدة لا يسمع صوت من يناديه منها. قال الفراء: تقول للرجل الذى لا يفهم كلامك أنت تنادى من مكان بعيد. و قال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأقبح أسمائهم من مكان بعيد. و قال مجاهد من مكان بعيد من قلوبهم.

و قد أخرج ابن أبى شيبة، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى سننه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يسجد بآخر الآيتين من حم السجدة، و كان ابن مسعود يسجد بالأولى منهما. و أخرج ابن سعد، و ابن أبى شيبة من طريق نافع عن ابن عمر أنه كان يسجد بالأولى. و أخرج سعيد بن منصور عنه أنه كان يسجد فى الآية الأخيرة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا قال: هو أن يضع الكلام على غير موضعه. و أخرج ابن مردويه فى قوله: أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ قال:

أبو جهل بن هشام أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ قال: أبو بكر الصديق و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن عساكر عن بشير بن تميم قال: نزلت هذه الآية فى أبى جهل، و عمار بن ياسر و أخرج ابن عساكر عن عكرمة مثله. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ قال: هذا لأهل بدر خاصة. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا الآية يقول: لو جعلنا القرآن أعجميا و لسانك يا محمد عربىّ لقالوا أعجمىّ و عربىّ تأتينا به مختلفا أو مختلطا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ هلا بينت آياته فكان القرآن مثل اللسان. يقول: فلم نفعل لئلا يقولوا فكانت حجة عليهم.

[سورة فصلت (41): الآيات 45 الى 54]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَ ما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (46) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48) لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (49)

وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (50) وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (51) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)

فتح القدير، ج4، ص: 597

قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ هذا كلام مستأنف يتضمن تسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عما كان يحصل له من الاغتمام بكفر قومه، و طعنهم فى القرآن، فأخبره أن هذا عادة قديمة فى أمم الرسل، فإنهم يختلفون فى الكتب المنزلة إليهم، و المراد بالكتاب: التوراة، و الضمير من قوله: فِيهِ راجع إليه، و قيل: يرجع إلى موسى، و الأوّل أولى وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ فى تأخير العذاب عن المكذّبين من أمتك كما فى قوله: وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى* «1» لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بتعجيل العذاب لمن كذب منهم وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ أى: من كتابك المنزّل عليك و هو القرآن، و معنى الشك المريب:

الموقع فى الريبة، أو الشديد الريبة. و قيل: إن المراد اليهود، و أنهم فى شك من التوراة مريب، و الأوّل أولى مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ أى: من أطاع اللّه و آمن برسوله و لم يكذّبهم فثواب ذلك راجع إليه و نفعه خاصّ به وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها أى: عقاب إساءته عليه لا على غيره وَ ما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ فلا يعذّب أحدا إلا بذنبه، و لا يقع منه الظلم لأحد كما فى قوله سبحانه إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً «2» و قد تقدّم الكلام على معنى هذه الآية فى سورة آل عمران عند قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ* «3» و فى سورة الأنفال أيضا. ثم أخبر سبحانه أن علم القيامة، و وقت قيامها لا يعلمه غيره، فقال: إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ فإذا وقع السؤال

عنها وجب على المسؤول أن يردّ علمها إليه لا إلى غيره، و قد روى أن المشركين قالوا: يا محمد إن كنت نبيا فخبرنا متى تقوم الساعة؟ فنزلت، و ما فى قوله: وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها نافية، و من الأولى للاستغراق، و من الثانية لابتداء الغاية، و قيل: هى موصولة فى محلّ جرّ عطفا على الساعة، أى: علم الساعة و علم التى تخرج، و الأوّل أولى. و الأكمام جمع كمّ بكسر الكاف، و هو وعاء الثمرة، و يطلق على كل ظرف لمال أو غيره. قال أبو عبيدة: أكمامها أوعيتها، و هى ما كانت فيه الثمرة واحدها كمّ و كمة. قال الراغب: الكم ما يغطى اليد من القميص، و ما يغطى الثمرة، و جمعه أكمام، و هذا يدلّ على أن الكمّ بضمّ الكاف لأنه جعله مشتركا بين كمّ القميص، و كمّ الثمرة، و لا خلاف فى كمّ القميص أنه بالضمّ. و يمكن أن يقال: إن فى الكمّ الذى هو وعاء الثمر لغتين. قرأ الجمهور «من ثمرة» بالإفراد، و قرأ نافع و ابن عامر و حفص بالجمع وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ أى: ما تحمل أنثى حملا

---

(۱). النحل: ۶۱.

(۲). يونس: ۴۴.

(۳). آل عمران: ۱۸۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۸

فى بطنها و لا تضع ذلك الحمل إلا بعلم اللّه سبحانه، و الاستثناء مفرغ من أعمّ الأحوال، أى: ما يحدث شىء من خروج ثمرة، و لا حمل حامل، و لا وضع واضع فى حال من الأحوال إلا كائنا بعلم اللّه، فإليه يردّ علم الساعة كما إليه يرد علم هذه الأمور وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أى: ينادى اللّه سبحانه المشركين، و ذلك يوم القيامة فيقول لهم: أَيْنَ شُرَكائِي الذين كنتم تزعمون أنهم شركائى فى الدنيا من الأصنام و غيرها فادعوهم الآن فليشفعوا لكم، أو يدفعوا عنكم العذاب، و هذا على طريقة التهكم بهم. قرأ الجمهور شُرَكائِي بسكون الياء، و قرأ ابن كثير بفتحها، و العامل فى يوم محذوف، أى: اذكر. قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ يقال آذن يأذن: إذا أعلم، و منه قول الشاعر:

آذنتنا ببينها أسماءربّ ثاو يملّ منه الثّواء

و المعنى: أعلمناك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكا، و ذلك أنهم لما عاينوا القيامة تبرؤوا من الشركاء و تبرّأت منهم تلك الأصنام التى كانوا يعبدونها. و قيل: إن القائل بهذا هى المعبودات التى كانوا يعبدونها، أى: ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين، و الأوّل أولى وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ أى: زال و بطل فى الآخرة ما كانوا يعبدون فى الدنيا من الأصنام؛ و نحوها وَ ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ أى: أيقنوا و علموا أنه لا محيص لهم، يقال حاص يحيص حيصا: إذا هرب. و قيل: الظنّ على معناه الحقيقى لأنه لهم فى تلك الحال ظنّ و رجاء، و الأوّل أولى. ثم ذكر سبحانه بعض أحوال الإنسان فقال: لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ أى: لا يملّ من دعاء الخير لنفسه و جلبه إليه، و الخير هنا: المال و الصحة و السلطان و الرفعة. قال السدّى: و الإنسان هنا يراد به الكافر، و قيل الوليد بن المغيرة، و قيل عتبة و شيبة ابنا ربيعة و أمية ابن خلف. و الأولى حمل الآية على العموم باعتبار الغالب فلا ينافيه خروج خلص العباد. و قرأ عبد اللّه بن مسعود «لا يسأم الإنسان من دعاء المال» وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ أى: و إن مسه البلاء، و الشدّة، و الفقر، و المرض فيؤوس من روح اللّه؛ قنوط من رحمته. و قيل: يؤوس من إجابة دعائه؛ قنوط بسوء الظنّ بربه. و قيل: يؤوس من زوال ما به من المكروه، قنوط بما يحصل له من ظنّ دوامه، و هما صيغتا مبالغة يدلان على أنه شديد اليأس عظيم القنوط وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ أى: و لئن آتيناه خيرا و عافية و غنى، من بعد شدّة و مرض و فقر لَيَقُولَنَّ هذا لِي أى: هذا شىء أستحقه على اللّه لرضاه بعملى، فظنّ أن تلك النعمة التى صار فيها و صلت

إليه باستحقاقه لها، و لم يعلم أن اللّه يبتلى عباده بالخير و الشرّ؛ ليتبين له الشاكر من الجاحد، و الصابر من الجزع. قال مجاهد: معناه هذا بعملى، و أنا محقوق به وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً أى: ما أظنها تقوم كما يخبرنا به الأنبياء، أو لست على يقين من البعث، و هذا خاص بالكافرين و المنافقين، فيكون المراد بالإنسان المذكور فى صدر الآية الجنس باعتبار غالب أفراده، لأن اليأس من رحمة اللّه، و القنوط من خيره، و الشك فى البعث لا يكون إلا من الكافرين، أو المتزلزلين فى الدين المتظهرين بالإسلام المبطنين للكفر وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّى على تقدير صدق ما يخبرنا به الأنبياء من قيام الساعة و حصول البعث و النشور إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنى أى: للحالة الحسنى من الكرامة، فظنّ أنه استحق

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۹

خير الدنيا بما فيه من الخير، و استحقّ خير الآخرة بذلك الذى اعتقده فى نفسه و أثبته لها، و هو اعتقاد باطل، و ظنّ فاسد فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا أى: لنخبرنهم بها يوم القيامة وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ شديد بسبب ذنوبهم، و اللام هذه و التى قبلها هى الموطئة للقسم وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أى: على هذا الجنس باعتبار غالب أفراده أَعْرَضَ عن الشكر وَ نَأى بِجانِبِهِ أى ترفع عن الانقياد للحق، و تكبر و تجبر، و الجانب هنا مجاز عن النفس، و يقال نأيت و تناءيت: أى: بعدت و تباعدت، و المنتأى: الموضع البعيد. و منه قول النابغة:

فإنّك كاللّيل الذى هو مدركى و إن خلت أنّ المنتأى عنك واسع

و قرأ يزيد بن القعقاع «و ناء بجانبه» بالألف قبل الهمزة وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ أى: البلاء و الجهد، و الفقر، و المرض فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ أى: كثير، و العرب تستعمل الطول و العرض فى الكثرة مجازا، يقال: أطال فلان فى الكلام و أعرض فى الدعاء: إذا أكثر، و المعنى: أنه إذا مسه الشرّ تضرّع إلى اللّه، و استغاث به أن يكشف عنه ما نزل به، و استكثر من ذلك، فذكره فى الشدّة و نسيه فى الرخاء و استغاث به عند نزول النقمة، و تركه عند حصول النعمة، و هذا صنيع الكافرين و من كان غير ثابت القدم من المسلمين. ثم رجع سبحانه إلى مخاطبة الكفار، و محاجتهم فقال: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ أى: أخبرونى إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أى:

القرآن ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ أى: كذبتم به، و لم تقبلوه، و لا عملتم بما فيه مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ أى: لا أحد أضلّ منكم لفرط شقاوتكم، و شدّة عداوتكم، و الأصل: أىّ شىء أضلّ منكم، فوضع مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ موضع الضمير لبيان حالهم فى المشاقة، و أنها السبب الأعظم فى ضلالهم سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ أى: سنريهم دلالات صدق القرآن، و علامات كونه من عند اللّه فى الآفاق وَ فِي أَنْفُسِهِمْ الآفاق: جمع أفق: و هو الناحية. و الأفق بضم الهمزة و الفاء، كذا قال أهل اللغة. و نقل الراغب أنه يقال أفق بفتحهما، و المعنى: سنريهم آياتنا فى النواحى و فى أنفسهم. قال ابن زيد: فى الآفاق آيات السماء، و فى أنفسهم حوادث الأرض. و قال مجاهد: فى الآفاق فتح القرى التى يسر اللّه فتحها لرسوله و للخلفاء من بعده و نصّار دينه فى آفاق الدنيا شرقا و غربا، و من الظهور على الجبابرة و الأكاسرة، و فى أنفسهم: فتح مكة، و رجح هذا ابن جرير. و قال قتادة و الضحاك: فى الآفاق: وقائع اللّه فى الأمم، و فى أنفسهم فى يوم بدر.

و قال عطاء: فى الآفاق: يعنى أقطار السموات و الأرض، من الشمس و القمر، و النجوم و الليل، و النهار، و الرياح، و الأمطار، و الرعد، و البرق، و الصواعق، و النبات، و الأشجار، و الجبال، و البحار، و غير ذلك، و فى أنفسهم من لطيف الصنعة، و بديع الحكمة، كما فى قوله: وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ «۱». حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ الضمير راجع إلى القرآن، و قيل: إلى الإسلام الذى جاءهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و قيل: إلى ما يريهم اللّه، و يفعل من ذلك، و قيل: إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلم أنه الرسول الحق من عند اللّه، و الأوّل أولى أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ الجملة مسوقة لتوبيخهم و تقريعهم

---

(۱). الذاریات: ۲۱.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۶۰۰

فتح القدیر ج۴ ۶۴۹

و بِرَبِّکَ فی موضع رفع علی أنه الفاعل لکیف، و الباء زائدهٔ، و أَنَّهُ بدل من ربک و الهمزهٔ للإنکار. و المعنی: ألم یغنهم عن الآیات الموعودهٔ المبینهٔ لحقیهٔ القرآن أنه سبحانه شهید علی جمیع الأشیاء.

و قیل المعنی: أو لم یکف بربک یا محمد أنه شاهد علی أعمال الکفار. و قیل: أو لم یکف بربک شاهدا علی أن القرآن منزل من عنده، و الشهید: بمعنی العالم، أو هو بمعنی الشهادهٔ التی هی الحضور. قال الزجاج:

و معنی الکنایهٔ هاهنا أن اللّه عزّ و جلّ قد بین لهم ما فیه کفایهٔ فی الدلالهٔ، و المعنی: أو لم یکف ربک أنه علی کل شیء شهید شاهد للأشیاء لا یغیب عنه شیء أَلا إِنَّهُمْ فِی مِرْیَهٍٔ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أی: فی شک من البعث و الحساب، و الثواب و العقاب أَلا إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطٌ أحاط علمه بجمیع المعلومات، و أحاطت قدرته بجمیع المقدورات، یقال أحاط یحیط إحاطهٔ و حیطهٔ، و فی هذا وعید شدید لأن من أحاط بکل شیء بحیث لا یخفی علیه شیء جازی المحسن بإحسانه، و المسیء بإساءته.

و قد أخرج عبد بن حمید عن قتادهٔ قال: فی قوله: وَ لَوْ لا کَلِمَهٌٔ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ سبق لهم من اللّه حین و أجل هم بالغوه. و أخرج عبد بن حمید، و ابن المنذر عن مجاهد فی قوله: وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَکْمامِها قال: حین تطلع. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: آذَنَّاکَ قال: أعلمناک. و أخرج عبد بن حمید، و ابن المنذر عن عکرمهٔ فی قوله: لا یَسْأَمُ الْإِنْسانُ قال: لا یملّ. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر عن مجاهد فی قوله: سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ قال: محمدا صلّی اللّه علیه و سلم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر عنه فی الآیهٔ قال: ما یفتح اللّه من القری وَ فِی أَنْفُسِهِمْ قال:

فتح مکهٔ. و أخرج ابن المنذر عن ابن جریج فی الآیهٔ قال: أمسک المطر عن الأرض کلها وَ فِی أَنْفُسِهِمْ قال: البلایا التی تکون فی أجسامهم. و أخرج عبد بن حمید عن ابن عباس فی الآیهٔ قال: کانوا یسافرون فیرون آثار عاد و ثمود، فیقولون: و اللّه لقد صدق محمد. و ما أراهم فی أنفسهم: قال الأمراض.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۶۰۱

سورهٔ الشّوری

اشارهٔ

أخرج ابن مردویه عن ابن عباس قال: نزلت «حم عسق» بمکهٔ. و أخرج ابن مردویه عن ابن الزبیر مثله، و کذا قال الحسن، و عکرمهٔ، و عطاء، و جابر. و روی عن ابن عباس، و قتادهٔ أنها مکیهٔ إلا أربع آیات منها أنزلت بالمدینهٔ قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّهَٔ فِی الْقُرْبی إلی آخرها. و قد أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم، و نعیم بن حماد، و الخطیب عن أرطأهٔ بن المنذر قال: جاء رجل إلی ابن عباس و عنده حذیفهٔ ابن الیمان فقال: أخبرنی عن تفسیر حم عسق، فأعرض عنه، ثم کرّر مقالته فأعرض عنه و کرر مقالته، ثم کرّرها الثالثهٔ فلم یجبه، فقال له حذیفهٔ: أنا أنبئک بها لم کررتها؟ نزلت فی رجل من أهل بیته یقال له عبد إله أو عبد اللّه ینزل علی نهر من أنهار المشرق، یبنی علیه مدینتین، یشقّ النهر بینهما شقا، یجتمع فیهما کل جبار عنید، فإذا أذن اللّه فی زوال ملکهم و انقطاع دولتهم و مدتهم بعث اللّه علی إحداهما نارا لیلا فتصبح سوداء مظلمهٔ، قد احترقت کأنها لم تکن مکانها، و تصبح صاحبتها متعجبهٔ کیف أفلتت؟ فما هو إلا بیاض یومها ذلک حتی یجتمع فیها کل جبار عنید منهم، ثم یخسف اللّه بها و

بهم جميعا، فذلك قوله: حم عسق يعنى عزيمة من اللّه و فتنة و قضاء حم. عين، يعنى عدلا منه، سين: يعنى سيكون، ق: واقع لهاتين المدينتين.

أقول: هذا الحديث لا يصح و لا يثبت و ما أظنه إلا من الموضوعات المكذوبات، و الحامل لواضعه عليه ما يقع لكثير من الناس من عداوة الدول و الحط من شأنهم و الإزراء عليهم. و أخرج أبو يعلى و ابن عساكر قال السيوطى بسند ضعيف: قلت بل بسند موضوع و متن مكذوب عن أبى معاوية قال: صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال: أيها الناس هل سمع منكم أحد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يفسر حم عسق فوثب ابن عباس فقال: إن حم اسم من أسماء اللّه، قال: فعين قال: عاين المذكور عذاب يوم بدر، قال: فسين، قال: فسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون. قال: فقاف فسكت، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس و قال: قاف قارعة من السماء تصيب الناس. قال ابن كثير فى الحديث الأوّل: إنه غريب عجيب منكر، و فى الحديث الثانى: إنه أغرب من الحديث الأوّل. و عندى أنهما موضوعان مكذوبان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١ الى ١٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) عسق (٢) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤)

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩)

وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فاطِرُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۰۲

قوله: حم عسق قد تقدّم الكلام فى أمثال هذه الفواتح، و سئل الحسن بن الفضل لم قطع حم عسق و لم يقطع كهيعص فقال: لأنها سور أوّلها حم فجرت مجرى نظائرها، فكأن حم مبتدأ و عسق خبره، و لأنهما عدا آيتين، و أخواتهما مثل: كهيعص و المر و المص آية واحدة. و قيل لأن أهل التأويل لم يختلفوا فى كهيعص و أخواتها أنها حروف التهجى لا غير، و اختلفوا فى حم فقيل معناها حم: أى قضى كما تقدّم. و قيل: إن ح حلمه و م مجده، و ع علمه، و س سناه، و ق قدرته، أقسم اللّه بها. و قيل غير ذلك مما هو متكلف متعسف لم يدلّ عليه دليل و لا جاءت به حجة و لا شبهة حجة، و قد ذكرنا قبل هذا ما روى فى ذلك مما لا أصل له، و الحق ما قدّمناه لك فى فاتحة سورة البقرة. و قيل: هما اسمان للسورة، و قيل:

اسم واحد لها، فعلى الأوّل يكونان خبرين لمبتدأ محذوف، و على الثانى يكون خبرا لذلك المبتدأ المحذوف.

و قرأ ابن مسعود و ابن عباس حم عسق كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هذا كلام مستأنف غير

متعلق بما قبله، أى: مثل ذلک الإيحاء الذى أوحى إلى سائر الأنبياء من كتب اللّه المنزلة عليهم المشتملة على الدعوة إلى التوحيد و البعث يوحى إليک يا محمد فى هذه السورة. و قيل:

إن حم عسق أو حيت إلى من قبله من الأنبياء، فتكون الإشارة بقوله: كَذلِكَ إليها. قرأ الجمهور يُوحِي بكسر الحاء مبنيا للفاعل و هو اللّه. و قرأ مجاهد و ابن كثير و ابن محيصن بفتحها مبنيا للمفعول، و القائم مقام الفاعل ضمير مستتر يعود على كذلک، و التقدير: مثل ذلک الإيحاء هو إليک، أو القائم مقام الفاعل:

إليک، أو الجملة المذكورة، أى: يوحى إليک هذا اللفظ أو القرآن أو مصدر يوحى، و ارتفاع الاسم الشريف على أنه فاعل لفعل محذوف كأنه قيل من يوحى؟ فقيل: اللّه العزيز الحكيم. و أما قراءة الجمهور فهى واضحة اللفظة و المعنى، و قد تقدّم مثل هذا فى قوله: يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ رِجالٌ «۱» و قرأ أبو حيوة و الأعمش و أبان «نوحى» بالنون فيكون قوله: اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فى محلّ نصب، و المعنى: نوحى إليک هذا اللفظ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ذكر سبحانه لنفسه هذا الوصف و هو ملک جميع ما فى السموات و الأرض لدلالته على كمال قدرته و نفوذ تصرّفه فى جميع مخلوقاته تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَ قرأ الجمهور تَكادُ بالفوقية، و كذلک «تتفطّرن» قرءوه بالفوقية

---

(۱). النور: ۳۶ و ۳۷.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۰۳

مع تشديد الطاء. و قرأ نافع و الكسائى، و ابن وثاب: «يكاد» يَتَفَطَّرْنَ بالتحتية فيهما، و قرأ أبو عمرو، و المفضل، و أبو بكر، و أبو عبيد، «ينفطرن» بالتحتية و النون من الانفطار كقوله: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ «۱» و التفطر: التشقق. قال الضحاک و السدّى: يتفطرن يتشققن من عظمة اللّه و جلاله من فوقهنّ.

و قيل المعنى: تكاد كلّ واحدة منها تتفطر فوق التى تليها من قول المشركين: اتخذ اللّه ولدا، و قيل من فوقهنّ: من فوق الأرضين، و الأوّل أولى. و من فى «من فوقهنّ» لابتداء الغاية: أى: يبتدئ التفطر من جهة الفوق. و قال الأخفش الصغير: إن الضمير يعود إلى جماعات الكفار، أى: من فوق جماعات الكفار و هو بعيد جدا، و وجه تخصيص جهة الفوق أنها أقرب إلى الآيات العظيمة، و المصنوعات الباهرة، أو على طريق المبالغة كأن كلمة الكفار مع كونها جاءت من جهة التحت أثرت فى جهة الفوق، فتأثيرها فى جهة التحت بالأولى وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أى: ينزهونه عما لا يليق به و لا يجوز عليه متلبسين بحمده. و قيل: إن التسبيح موضوع موضع التعجب، أى: يتعجبون من جراءة المشركين على اللّه. و قيل معنى: بِحَمْدِ رَبِّهِمْ بأمر ربهم قاله السدّى وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ من عباد اللّه المؤمنين. كما فى قوله: وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا «۲» و قيل: الاستغفار منهم بمعنى السعى فيما يستدعى المغفرة لهم، و تأخير عقوبتهم طمعا فى إيمان الكافر، و توبة الفاسق فتكون الآية عامة كما هو ظاهر اللفظ غير خاصة بالمؤمنين، و إن كانوا داخلين فيها دخولا أوّليا أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أى: كثير المغفرة و الرحمة لأهل طاعته و أوليائه، أو لجميع عباده؛ فإن تأخير عقوبة الكفار و العصاة نوع من أنواع مغفرته و رحمته وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ أى:

أصناما يعبدونها اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ أى: يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ أى:

لم يوكلک بهم حتى تؤاخذ بذنوبهم، و لا و كل إليک هدايتهم، و إنما عليک البلاغ. قيل: و هذه الآية منسوخة بآية السيف وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا أى: مثل ذلک الإيحاء أو حينا إليک، و قرآنا مفعول أوحينا؛ و المعنى: أنزلنا عليک قرآنا عربيا بلسان قومک كما أرسلنا كلّ رسول بلسان قومه لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى و هى: مكة، و المراد: أهلها وَ مَنْ حَوْلَها من الناس و المفعول

الثانى محذوف، أى: لتنذرهم العذاب وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ أى: و لتنذر بيوم الجمع: و هو يوم القيامة لأنه مجمع الخلائق. و قيل: المراد جمع الأرواح بالأجساد، و قيل: جمع الظالم و المظلوم، و قيل: جمع العامل و العمل لا رَيْبَ فِيهِ أى: لا شك فيه، و الجملة معترضة مقررة لما قبلها، أو صفة ليوم الجمع، أو حال منه فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ قرأ الجمهور برفع فَرِيقٌ فى الموضعين، إما: على أنه مبتدأ، و خبره: الجار و المجرور، و شاع الابتداء بالنكرة لأن المقام مقام تفصيل، أو: على أن الخبر مقدّر قبله، أى: منهم فريق فى الجنة، و منهم فريق فى السعير، أو أنه خبر مبتدأ محذوف، و هو ضمير عائد إلى المجموعين المدلول عليهم بذكر الجمع، أى: هم فريق فى الجنة و فريق فى السعير. و قرأ زيد بن على «فريقا» بالنصب فى الموضعين على الحال من جملة محذوفة، أى: افترقوا حال كونهم كذلك، و أجاز الفراء و الكسائى النصب على تقدير لتنذر فريقا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً

---

(١). الانفطار: ١.

(٢). غافر: ٧.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۶۰۴

قال الضحاك: أهل دين واحد، إما على هدى و إما على ضلالة، و لكنهم افترقوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية، و هو معنى قوله: وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ فى الدين الحق: و هو الإسلام وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ أى: المشركون ما لهم من ولىّ يدفع عنهم العذاب، و لا نصير ينصرهم فى ذلك المقام، و مثل هذا قوله: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى «١» و قوله: وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها «٢» و هاهنا مخاصمات بين المتمذهبين المحامين على ما درج عليه أسلافهم فدبوا عليه من بعدهم و ليس بنا إلى ذكر شى‏ء من ذلك فائدة كما هو عادتنا فى تفسيرنا هذا فهو تفسير سلفى يمشى مع الحق و يدور مع مدلولات النظم الشريف، و إنما يعرف ذلك من رسخ قدمه، و تبرأ من التعصب قلبه و لحمه و دمه، و جملة: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من انتفاء كون للظالمين وليا و نصيرا، و أم: هذه هى المنقطعة المقدّرة ببل المفيدة للانتقال و بالهمزة المفيدة للإنكار، أى: بل أتخذ الكافرون من دون اللّه أولياء من الأصنام يعبدونها؟ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ أى: هو الحقيق بأن يتخذوه وليا، فإنه الخالق الرازق الضار النافع. و قيل الفاء جواب شرط محذوف، أى: إن أرادوا أن يتخذوا وليا فى الحقيقة فاللّه هو الولىّ وَ هُوَ أى: و من شأنه أنه يُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ أى: يقدر على كل مقدور، فهو الحقيق بتخصيصه بالألوهية و إفراده بالعبادة وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ هذا عام فى كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين، فإن حكمه و مرجعه إلى اللّه يحكم فيه يوم القيامة بحكمه و يفصل خصومة المختصمين فيه، و عند ذلك يظهر المحقّ من المبطل، و يتميز فريق الجنة و فريق النار. قال الكلبى.

و ما اختلفتم فيه من شى‏ء: أى من أمر الدين فحكمه إلى اللّه يقضى فيه. و قال مقاتل: إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن، و آمن به بعضهم فنزلت، و الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و يمكن أن يقال: معنى حكمه إلى اللّه: أنه مردود إلى كتابه، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه فتكون الآية عامة فى كل اختلاف يتعلق بأمر الدين أنه يردّ إلى كتاب اللّه، و مثله قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْ‏ءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ «٣» و قد حكم سبحانه بأن الدين هو الإسلام، و أن القرآن حق، و أن المؤمنين فى الجنة و الكافرين فى النار، و لكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقا إلا فى الدار الآخرة وعدهم اللّه بذلك يوم القيامة ذلِكُمُ الحاكم بهذا الحكم اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ اعتمدت عليه فى جميع أمورى، لا على غيره و فوّضته فى كلّ شؤونى وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ أى: أرجع فى كل شى‏ء يعرض لى لا إلى غيره فاطِرُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قرأ الجمهور بالرفع: على أنه خبر

آخر لذلكم، أو: خبر مبتدأ محذوف. أو: مبتدأ، و خبره ما بعده: أو:
نعت لربى لأن الإضافة محضة، و يكون عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ معترضا بين الصفة و الموصوف. و قرأ زيد بن علىّ فاطِرُ بالجرّ على أنه نعت للاسم الشريف فى قوله: إِلَى اللَّهِ و ما بينهما اعتراض، أو بدل من الهاء فى عليه، أو إليه، و أجاز الكسائى النصب على النداء، و أجازه غيره على المدح. و الفاطر:
الخالق المبدع، و قد تقدّم تحقيقه جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً أى: خلق لكم من جنسكم نساء،

---

(١). الأنعام: ٣٥.

(٢). السجدة: ١٣.

(٣). النساء: ٥٩.

أو المراد: حوّاء لكونها خلقت من ضلع آدم. و قال مجاهد: نسلا بعد نسل وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً أى:
و خلق للأنعام من جنسها إناثا، أو: و خلق لكم من الأنعام أصنافا من الذكور و الإناث، و هى الثمانية التى ذكرها فى الأنعام يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ أى: يبثكم، من الذرء: و هو البثّ، أو يخلقكم و ينشئكم، و الضمير فى يذرؤكم للمخاطبين، و الأنعام إلا أنه غلب فيه العقلاء، و ضمير فيه راجع إلى الجعل المدلول عليه بالفعل، و قيل: راجع إلى ما ذكر من التدبير. و قال الفراء و الزجاج و ابن كيسان: معنى يذرؤكم فيه يكثركم به: أى يكثركم بجعلكم أزواجا لأن ذلك سبب النسل. و قال ابن قتيبة: يذرؤكم فيه، أى: فى الزوج، و قيل: فى البطن، و قيل: فى الرحم لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ المراد بذكر المثل هنا: المبالغة فى النفى بطريق الكناية، فإنه إذا نفى عمن يماثله كان نفيه عنه أولى. كقولهم: مثلك لا يبخل، و غيرك لا يجود، و قيل: إن الكاف زائدة للتوكيد، أى: ليس مثله شى‏ء، و قيل: إن مثل زائدة، قاله ثعلب و غيره كما فى قوله: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ «١» أى: بما آمنتم به، و منه قول أوس بن حجر:
و قتلى كمثل جذوع النّخيل يغشاهم مطر منهمر
أى: كجذوع، و الأوّل أولى، فإن الكناية باب مسلوك للعرب، و مهيع مألوف لهم، و منه قول الشاعر:
ليس كمثل الفتى زهير خلق يوازيه فى الفضائل
و قال آخر:
على مثل ليلى يقتل المرء نفسه و إن بات من ليلى على اليأس طاويا
و قال آخر:
سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم فما كمثلهم فى النّاس من أحد
قال ابن قتيبة: العرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول: مثلى لا يقال له هذا، أى: أنا لا يقال لى. و قال أبو البقاء مرجحا لزيادة الكاف: إنها لو لم تكن زائدة لأفضى ذلك إلى المحال، إذ يكون المعنى: أن له مثلا و ليس لمثله مثل، و فى ذلك تناقض، لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل، و هو هو مع أن إثبات المثل للّه سبحانه محال، و هذا تقرير حسن، و لكنه يندفع ما أورده بما ذكرنا من كون الكلام خارجا مخرج الكناية، و من فهم هذه الآية الكريمة حقّ فهمها، و تدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين فى الصفات على طريقة بيضاء واضحة، و يزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفى للماثل قد اشتمل على برد اليقين، و شفاء الصدور، و انثلاج القلوب، فاقدر يا طالب الحقّ قدر هذه الحجة النيرة، و

البرهـان القوىّ، فإنک تحطم بها کثيرا من البـدع، و تهشم بها رؤوسا من الضـلالة، و ترغم بها آناف طوائف من المتکلفين، و لا سيما إذا ضممت إليه قول اللّه سبحانه: وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً «٢»

---

(١). البقرة: ١٣٧.

(٢). طه: ١١٠.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۶٠۶

فإنک حينئذ قد أخذت بطرفى حبل ما يسمّونه علم الکلام، و علم أصول الدين:

و دع عنک نهبا صيح فى حجراتهو لکن حديث ما حديث الرّواحل

لَهُ مَقالِيـدُ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضِ أى: خزائنهما أو مفاتيحهما، و قـد تقـدّم تحقيقه فى سورة الزمر، و هى جمع إقليـد، و هو المفتاح جمع على خلاف القياس. قال النحاس: و الذى يملک المفاتيح يملک الخزائن.

ثم لما ذکر سبحانه أن بيده مقاليد السموات و الأرض ذکر بعده البسط و القبض فقال: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ أى: يوسعه لمن يشـاء من خلقه، و يضـيقه على من يشـاء إِنَّهُ بِکُـلِّ شَيْ‌ءٍ من الأشـياء عَلِيمٌ فلا تخفى عليه خافيـة، و إحاطـة علمه بکل شـى‌ء يندرج تحتها علمه بطاعة المطيع و معصية العاصى، فهو يجازى کلا بما يستحقه من خير و شرّ.

و قـد أخرج أحمـد، و الترمذى و صـححه، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن مردويه عن عبد اللّه ابن عمرو. قال: خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و فى يده کتابان. فقال: أ تدرون ما هذان الکتابان؟

قلنا لا، إلا أن تخبرنا يا رسول اللّه، قال: للـذى فى يـده اليمنى: هـذا کتاب من ربّ العالمين بأسـماء أهل الجنة و أسـماء آبائهم و قبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم و لا ينقص منهم؛ ثم قال للذى فى شماله:

هـذا کتـاب من ربّ العـالمين بأسـماء أهل النار و أسـماء آبائهم و قبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم و لا ينقص منهم أبـدا، فقال أصـحابه: ففيم العمل يا رسول اللّه إن کان أمر قـد فرغ منه؟ فقال: سـدّدوا و قاربوا، فإن صاحب الجنـة يختم له بعمل أهل الجنة و إن عمل أىّ عمل، و إن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار و إن عمل أىّ عمل له. قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم بيـديه فنبـذهما، ثم قال: فرغ ربکم من العباد فريق فى الجنـة و فريق فى السـعير» قال الترمذى بعد إخراجه: حديث حسـن صحيـح غريب. و روى ابن جرير طرفـا منه عن ابن عمر موقوفـا عليه. قـال ابن جرير: و هـذا الموقـوف أشـبه بـالصواب. قلت: بل المرفوع أشبه بالصواب، فقد رفعه الثقة و رفعه زيادة ثابتة من وجه صحيح، و يقوّى الرّفع ما أخرجه ابن مردويه عن البراء.

قـال: «خرج علينـا رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم فى يـده کتاب ينظر فيه قالوا: انظروا إليه کيف و هو أمىّ لا يقرأ، قال: فعلمها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال: هذا کتاب من ربّ العالمين بأسـماء أهل الجنة و أسـماء قبائلهم لا يزاد منهم و لا ينقص منهم، و قال: فريق فى الجنة، و فريق فى السعير فرغ ربکم من أعمال العباد».

[سورة الشورى (۴٢): الآيات ١٣ الى ١٨]

شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الـدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْکَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسـى وَ عِيسـى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ کَبُرَ عَلَى الْمُشْـرِکِينَ مـا تَـدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْـدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَ ما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْـدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لا کَلِمَةٌ سَـبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْکِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَکٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١۴) فَلِـذلِکَ فَـادْعُ وَ اسْـتَقِمْ کَمـا أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ کِتابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْـدِلَ بَيْنَکُمُ اللَّهُ

رَبُّنا وَ رَبُّكَمْ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكَمْ أَعْمالُكَمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۱۵) وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (۱۶) اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (۱۷)

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلالٍ بَعِيدٍ (۱۸)

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۰۷

الخطاب فى قوله: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم، أى: بين و أوضح لكم من الدين ما وَصَّى بِهِ نُوحاً من التوحيد و دين الإسلام و أصول الشرائع التى لم يختلف فيها الرسل و توافقت عليها الكتب وَ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ من القرآن، و شرائع الإسلام، و البراءة من الشرك، و التعبير عنه بالموصول لتفخيم شأنه، و خص ما شرعه لنبينا صلّى اللّه عليه و سلم بالإيحاء مع كون ما بعده، و ما قبله مذكورا بالتوصية للتصريح برسالته وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى مما تطابقت عليه الشرائع.

ثم بين ما وصى به هؤلاء فقال:

أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ أى: توحيد اللّه، و الإيمان به، و طاعة رسله، و قبول شرائعه، و أن: هى المصدرية:

و هى و ما بعدها: فى محل رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، كأنه قيل: ما ذلك الذى شرعه اللّه؟ فقيل: هو إقامة الدين، أو: هى فى محل نصب بدلا من الموصول، أو: فى محل جرّ بدلا من الدين، أو: هى المفسرة، لأنه قد تقدمها ما فيه معنى القول. قال مقاتل: يعنى أنه شرع لكم، و لمن قبلكم من الأنبياء دينا واحدا.

قال مقاتل: يعنى التوحيد. قال مجاهد: لم يبعث اللّه نبيا قط إلا وصّاه بإقامة الصلاة، و إيتاء الزكاة، و الإقرار للّه بالطاعة، فذلك دينه الذى شرع لهم. و قال قتادة: يعنى تحليل الحلال، و تحريم الحرام، و خصّ إبراهيم، و موسى، و عيسى بالذكر مع نبينا صلّى اللّه عليه و سلم لأنهم أرباب الشرائع. ثم لما أمرهم سبحانه بإقامة الدين، نهاهم عن الاختلاف فيه فقال: وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ أى: لا تختلفوا فى التوحيد، و الإيمان باللّه، و طاعة رسله، و قبول شرائعه، فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع، و توافقت فيها الأديان، فلا ينبغى الخلاف فى مثلها، و ليس من هذا فروع المسائل التى تختلف فيها الأدلة، و تتعارض فيها الأمارات، و تتباين فيها الأفهام، فإنها من مطارح الاجتهاد، و مواطن الخلاف. ثم ذكر سبحانه أن ما شرعه من الدين شقّ على المشركين فقال:

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أى: عظم و شق عليهم ما تدعوهم إليه من التوحيد و رفض الأوثان.

قال قتادة: كبر على المشركين، و اشتدّ عليهم شهادة أن لا إله إلا اللّه وحده، و ضاق بها إبليس و جنوده، فأبى اللّه إلا أن ينصرها، و يعليها، و يظهرها، و يظفرها على من ناوأها. ثم خصّ أولياءه فقال: اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ أى: يختار، و الاجتباء: الاختيار، و المعنى: يختار لتوحيده و الدخول فى دينه من يشاء من عباده وَ يَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ أى: يوفق لدينه و يستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته، و يقبل إلى عبادته.

ثم لما ذكر سبحانه ما شرعه لهم من إقامة الدين، و عدم التفرق فيه ذكر ما وقع من التفرّق و الاختلاف فقال:

وَ ما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ أى: ما تفرّقوا إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة، ففعلوا ذلك التفرّق للبغى بينهم بطلب الرياسة و شدّة الحمية، قيل: المراد قريش هم الذين تفرّقوا بعد ما جاءهم العلم،

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۰۸

و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلم بَغْياً منهم عليه، و قد كانوا يقولون ما حكاه اللّه عنهم بقوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ «۱» الآية، و بقوله: فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ «۲» و قيل: المراد أمم الأنبياء المتقدمين، و أنهم فيما بَيْنَهُمْ اختلفوا

لما طال بهم المدى فآمن قوم، و كفر قوم، و قيل: اليهود و النصارى خاصة كما فى قوله: وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ «۳» وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ و هى تأخير العقوبة إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى و هو يوم القيامة كما فى قوله: بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ «۴» و قيل: إلى الأجل الذى قضاه اللّه لعذابهم فى الدنيا بالقتل و الأسر، و الذلّ و القهر لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أى: لوقع القضاء بينهم بإنزال العقوبة بهم معجلة، و قيل: لقضى بين من آمن منهم، و من كفر بنزول العذاب بالكافرين، و نجاة المؤمنين وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ من اليهود و النصارى مِنْ بَعْدِهِمْ من بعد من قبلهم من اليهود و النصارى لَفِي شَكٍّ مِنْهُ أى من القرآن، أو من محمد مُرِيبٍ موقع فى الريب و لذلك لم يؤمنوا. و قال مجاهد: معنى من بعدهم: من قبلهم: يعنى من قبل مشركى مكة، و هم اليهود و النصارى. و قيل المراد كفار المشركين من العرب الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم، وصفهم بأنهم فى شك من القرآن مريب. قرأ الجمهور أُورِثُوا و قرأ زيد بن علىّ «ورثوا» بالتشديد فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ أى: فلأجل ما ذكر من التفرّق و الشكّ، أو فلأجل أنه شرع من الدين ما شرع فادع و استقم؛ أى: فادع إلى اللّه و إلى توحيده و استقم على ما دعوت إليه. قال الفراء و الزجاج:

المعنى فإلى ذلك فادع كما تقول: دعوت إلى فلان و لفلان، و ذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد.

و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى: كبر على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع. قال قتادة: استقم على أمر اللّه. و قال سفيان: استقم على القرآن. و قال الضحاك: استقم على تبليغ الرسالة كَما أُمِرْتَ بذلك من جهة اللّه وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ الباطلة و تعصباتهم الزائغة، و لا تنظر إلى خلاف من خالفك فى ذكر اللّه وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ أى: بجميع الكتب التى أنزلها اللّه على رسله، لا كالذين آمنوا ببعض منها و كفروا ببعض وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ فى أحكام اللّه إذا ترافعتم إلىّ، و لا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه اللّه، أو بنقصان منه، و أبلغ إليكم ما أمرنى اللّه بتبليغه كما هو، و اللام لام كى، أى:

أمرت بذلك الذى أمرت به لكى أعدل بينكم، و قيل: هى زائدة، و المعنى: أمرت أن أعدل. و الأوّل أولى.

قال أبو العالية: أمرت لأسوّى بينكم فى الدين فأومن بكل كتاب و بكل رسول. و الظاهر أن الآية عامة فى كل شىء، و المعنى: أمرت لأعدل بينكم فى كل شىء اللَّهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ أى: إلهنا و إلهكم، و خالقنا و خالقكم لَنا أَعْمالُنا أى: ثوابها و عقابها خاصّ بنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ أى: ثوابها و عقابها خاصّ بكم لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ أى: لا خصومة بيننا و بينكم، لأن الحق قد ظهر و وضح اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا فى المحشر وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ أى: المرجع يوم القيامة فيجازى كلا بعمله: و هذا منسوخ بآية السيف. قيل:

الخطاب لليهود، و قيل: للكفار على العموم وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ أى:

---

(۱). فاطر: ۴۲.

(۲). البقرة: ۸۹.

(۳). التين: ۴.

(۴). القمر: ۴۶.

يخاصمون فى دين اللّه من بعد ما استجاب الناس له، و دخلوا فيه. قال مجاهد: من بعد ما أسلم الناس. قال:

و هؤلاء قوم توهموا أن الجاهلية تعود. و قال قتادة: هم اليهود و النصارى، و محاجتهم قولهم: نبينا قبل نبيكم، و كتابنا قبل كتابكم، و كانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب، و أنهم أولاد الأنبياء، و كان المشركون يقولون: أىّ الفريقين خير مقاما و أحسن نديا؟ فنزلت هذه الآية، و الموصول: مبتدأ، و خبره: الجملة بعده و هى حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ أى: لا ثبات لها

كالشيء الذى يزول عن موضعه، يقال: دحضت حجته دحوضا: بطلت، و الإدحاض: الإزلاق، و مكان دحض: أى زلق، و دحضت رجله: زلقت.

و قيل: الضمير فى له راجع إلى اللّه. و قيل: راجع إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و الأوّل أولى وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ أى:

غضب عظيم من اللّه لمجادلتهم بالباطل وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ فى الآخرة اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِ المراد بالكتاب: الجنس فيشمل جميع الكتب المنزّلة على الرسل. و قيل: المراد به القرآن خاصة، و بالحق متعلق بمحذوف، أى: ملتبسا بالحق، و هو الصدق وَ المراد ب الْمِيزانَ العدل، كذا قال أكثر المفسرين، قالوا و سمى العدل ميزانا لأن الميزان آلة الإنصاف و التسوية بين الخلق. و قيل: الميزان ما بين فى الكتب المنزّلة مما يجب على كل إنسان أن يعمل به. و قيل: هو الجزاء على الطاعة بالثواب، و على المعصية بالعقاب. و قيل: إنه الميزان نفسه أنزله اللّه من السماء، و علم العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم و تباخس كما فى قوله: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ «۱» و قيل:

هو محمد صلّى اللّه عليه و سلم وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ أى: أىّ شىء يجعلك داريا بها، عالما بوقتها لعلها شىء قريب، أو قريب مجيئها، أو ذات قرب. و قال قريب و لم يقل قريبة لأن تأنيثها غير حقيقى. قال الزجاج:

المعنى لعلّ البعث أو لعلّ مجىء الساعة قريب. و قال الكسائى: قريب نعت ينعت به المؤنث و المذكر كما فى قوله: إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ «۲» و منه قول الشاعر:

و كنّا قريبا و الدّيار بعيدةفلمّا وصلنا نصب أعينهم غبنا

قيل: إنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم ذكر الساعة و عنده قوم من المشركين، فقالوا متى تكون الساعة؟ تكذيبا لها فأنزل اللّه الآية، و يدلّ على هذا قوله: يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها استعجال استهزاء منهم بها، و تكذيبا بمجيئها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها أى: خائفون وجلون من مجيئها. قال مقاتل: لأنهم لا يدرون على ما يهجمون عليه. و قال الزجاج: لأنهم يعلمون أنهم محاسبون و مجزيون وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُ أى:

أنها آتية لا ريب فيها، و مثل هذا قوله: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ «۳».

ثم بين ضلال الممارين فيها فقال: أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ أى: يخاصمون فيها مخاصمة شك و ريبة، من المماراة و هى: المخاصمة و المجادلة، أو من المرية: و هى الشك و الريبة لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ عن الحق لأنهم لم يتفكروا فى الموجبات للإيمان بها من الدلائل التى هى مشاهدة لهم منصوبة لأعينهم مفهومة لعقولهم، و لو تفكروا لعلموا أن الذى خلقهم ابتداء قادر على الإعادة.

---

(۱). الحديد: ۲۵.

(۲). الأعراف: ۵۶.

(۳). المؤمنون: ۶۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۱۰

و قد أخرج ابن جرير عن السدّى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ قال: اعملوا به. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ قال: ألا تعلموا أن الفرقة هلكة، و أن الجماعة ثقة كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ قال: استكبر المشركون أن قيل لهم: لا إله إلا اللّه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ قال: يخلص لنفسه من يشاء. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي

اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ قال: هم أهل الكتاب كانوا يجادلون المسلمين، و يصدّونهم عن الهدى من بعد ما استجابوا للّه. و قال: هم قوم من أهل الضلالة و كانوا يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ الآية. قال: هم اليهود و النصارى. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن نحوه. و أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ «١» قال المشركون لمن بين أظهرهم من المؤمنين:
قد دخل الناس فى دين اللّه أفواجا؛ فاخرجوا من بين أظهرنا فنزلت وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ الآية.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١٩ الى ٢٨]

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَ لَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٢٥) وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨)
قوله: اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ أى: كثير اللطف بهم بالغ الرأفة لهم. قال مقاتل: لطيف بالبارّ و الفاجر حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم. قال عكرمة: بار بهم. و قال السدّى: رفيق بهم، و قيل: حفيّ بهم. و قال

---

(١). أى: سورة النصر.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۱۱

القرطبى: لطيف بهم فى العرض و المحاسبة، و قيل: غير ذلك. و المعنى: أنه يجرى لطفه على عباده فى كل أمورهم، و من جملة ذلك الرزق الذى يعيشون به فى الدنيا، و هو معنى قوله: يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ منهم كيف يشاء، فيوسع على هذا، و يضيق على هذا وَ هُوَ الْقَوِيُ العظيم القوّة الباهرة القادرة الْعَزِيزُ الذى يغلب كل شىء، و لا يغلبه شىء مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ الحرث فى اللغة:
الكسب، يقال هو يحرث لعياله و يحترث: أى يكتسب. و منه سمى الرجل حارثا، و أصل معنى الحرث:
إلقاء البذر فى الأرض، فأطلق على ثمرات أعمال و فوائدها بطريق الاستعارة: و المعنى: من كان يريد بأعماله و كسبه ثواب الآخرة يضاعف اللّه له ذلك الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف. و قيل: معناه يزيد فى توفيقه و إعانته و تسهيل سبل الخير له وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها أى: من كان يريد بأعماله و كسبه ثواب الدنيا و هو متاعها، و ما يرزق اللّه به عباده منها نعطه منها ما قضت به مشيئتنا و قسم له فى قضائنا.
قال قتادة: معنى نُؤْتِهِ مِنْها نقدّر له ما قسم له كما قال: عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ «١». و قال قتادة أيضا:
إن اللّه يعطى على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، و لا يعطى على نية الدنيا إلا الدنيا قال القشيرى: و الظاهر أن الآية فى الكافر،

و هو تخصيص بغير مخصص. ثم بين سبحانه أن هذا الذى يريد بعمله الدنيا لا نصيب له فى الآخرة فقال: وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ لأنه لم يعمل للآخرة فلا نصيب له فيها، و قد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة الإسراء أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ لما بين سبحانه القانون فى أمر الدنيا و الآخرة أردفه ببيان ما هو الذنب العظيم الموجب للنار، و الهمزة: لاستفهام التقرير و التقريع، و ضمير شرعوا عائد إلى الشركاء، و ضمير لهم إلى الكفار، و قيل العكس، و الأوّل أولى. و معنى ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ما لم يأذن به من الشرك و المعاصى وَ لَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ و هى تأخير عذابهم حيث قال: بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ «٢» لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فى الدنيا فعوجلوا بالعقوبة، و الضمير فى بينهم راجع إلى المؤمنين و المشركين، أو إلى المشركين و شركائهم وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: المشركين و المكذبين لهم عذاب أليم فى الدنيا و الآخرة. قرأ الجمهور وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بكسر الهمزة على الاستئناف.

و قرأ مسلم، و الأعرج، و ابن هرمز بفتحها عطفا على كلمة الفصل تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا أى خائفين وجلين مما كسبوا من السيئات، و ذلك الخوف و الوجل يوم القيامة وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ الضمير راجع إلى ما كسبوا بتقدير مضاف قاله الزجاج، أى: و جزاء ما كسبوا واقع منهم نازل عليهم لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا، و الجملة فى محل نصب على الحال. و لما ذكر حال الظالمين ذكر حال المؤمنين فقال: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ روضات جمع روضة. قال أبو حيان: اللغة الكثيرة تسكين الواو، و لغة هذيل فتحها، و الروضة: الموضع النزه الكثير الخضرة، و قد مضى بيان هذا فى سورة الروم، و روضة الجنة: أطيب مساكنها كما أنها فى الدنيا لأحسن أمكنتها لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ من صنوف النعم و أنواع المستلذّات، و العامل فى عند ربهم يشاءون، أو العامل فى روضات الجنات و هو الاستقرار،

---

(١). الإسراء: ١٨.

(٢). القمر: ۴۶.

و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر للمؤمنين قبله، و خبره الجملة المذكورة بعده و هى: هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ أى: الذى لا يوصف و لا تهتدى العقول إلى معرفة حقيقته، و الإشارة بقوله: ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ إلى الفضل الكبير، أى: يبشرهم به. ثم وصف العباد بقوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فهؤلاء الجامعون بين الإيمان و العمل بما أمر اللّه به و ترك ما نهى عنه هم المبشرون بتلك البشارة.

قرأ الجمهور يُبَشِّرُ مشدّدا من بشر. و قرأ مجاهد، و حميد بن قيس بضم التحتية و سكون الموحدة و كسر الشين من أبشر. و قرأ بفتح التحتية و ضم الشين بعض السبعة، و قد تقدّم بيان القراءات فى هذه اللفظة. ثم لما ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه صلّى اللّه عليه و سلم من هذه الأحكام الشريفة التى اشتمل عليها كتابه أمره بأنه يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثوابا منهم فقال: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً أى: قل يا محمد: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا و لا نفعا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى هذا الاستثناء يجوز أن يكون متصلا، أى: إلا أن تودّونى لقرابتى بينكم أو تودّوا أهل قرابتى، و يجوز أن يكون منقطعا. قال الزجاج: إلا المودّة استثناء ليس من الأوّل: أى: إلا أن تودّونى لقرابتى فتحفظونى، و الخطاب لقريش، و هذا قول عكرمة، و مجاهد، و أبى مالك، و الشعبى، فيكون المعنى على الانقطاع: لا أسألكم أجرا قط، و لكن أسألكم المودّة فى القربى التى بينى و بينكم، ارقبونى فيها و لا تعجلوا إلىّ و دعونى و الناس، و به قال قتادة، و مقاتل، و السدّى، و الضحاك، و ابن زيد و غيرهم، و هو الثابت عن ابن عباس كما سيأتى. و قال سعيد بن جبير و غيره: هم آل محمد، و سيأتى ما استدل به القائلون بهذا. و قال الحسن و غيره:

معنى الآية: إلا التودّد إلى اللّه عزّ و جلّ، و التقرّب بطاعته. و قال الحسن بن الفضل: و رواه ابن جرير عن الضحاك إن هذه الآية منسوخة، و إنما نزلت بمكة، و كان المشركون يؤذون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فأمرهم اللّه بمودّته، فلما هاجر أوته الأنصار و نصروه، فأنزل اللّه عليه وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ «۱» و أنزل عليه قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ «۲» و سيأتى فى آخر البحث ما يتضح به الثواب و يظهر به معنى الآية إن شاء اللّه وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً أصل القرف: الكسب، يقال فلان يقرف لعياله: أى يكتسب؛ و الاقتراف: الاكتساب، مأخوذ من قولهم رجل قرفة: إذا كان محتالا. و المعنى: من يكتسب حسنة نزد له هذه الحسنة حسنا بمضاعفة ثوابها. قال مقاتل: المعنى من يكتسب حسنة واحدة نزد له فيها حسنا نضاعفها بالواحدة عشرا فصاعدا. و قيل: المراد بهذه الحسنة هى المودّة فى القربى، و الحمل على العموم أولى، و يدخل تحته المودّة فى القربى دخولا أوّليا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ أى: كثير المغفرة للمذنبين كثير الشكر للمطيعين. قال قتادة: غفور للذنوب شكور للحسنات. و قال السدّى: غفور لذنوب آل محمد أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أم هى المنقطعة، أى: بل أ يقولون افترى محمد على اللّه كذبا بدعوى النبوة، و الإنكار للتوبيخ. و معنى افتراء الكذب: اختلاقه. ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال: فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ أى: لو افترى على اللّه الكذب لشاء عدم صدوره منه و ختم على قلبه بحيث لا يخطر

---

(۱). الشعراء: ۱۰۹.

(۲). سبأ: ۴۷.

بباله شيئا مما كذب فيه كما تزعمون. قال قتادة: يختم على قلبك فينسيك القرآن، فأخبرهم أنه لو افترى عليه لفعل به ما أخبرهم به فى هذه الآية. و قال مجاهد و مقاتل: إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم. و قيل الخطاب له، و المراد الكفار، أى: إن يشأ يختم على قلوب الكفار، و يعاجلهم بالعقوبة، ذكره القشيرى. و قيل المعنى: لو حدّثتك نفسك أن تفترى على اللّه كذبا لطبع على قلبك، فإنه لا يجترئ على الكذب إلا من كان مطبوعا على قلبه، و الأوّل أولى، و قوله: وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ استئناف مقرّر لما قبله من نفى الافتراء. قال ابن الأنبارى: يختم على قلبك تامّ، يعنى و ما بعده مستأنف. و قال الكسائى: فيه تقديم و تأخير، أى: و اللّه يمحو الباطل. و قال الزجاج: أم يقولون افترى على اللّه كذبا تامّ. و قوله: وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ احتجاج على من أنكر ما أتى به النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، أى: لو كان ما أتى به النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم باطلا لمحاه. كما جرت به عادته فى المفترين وَ يُحِقُّ الْحَقَ أى الإسلام فيبينه بِكَلِماتِهِ أى: بما أنزل من القرآن إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ عالم بما فى قلوب العباد، و قد سقطت الواو من و يمحو فى بعض المصاحف كما حكاه الكسائى وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ أى: يقبل من المذنبين من عباده توبتهم إليه مما عملوا من المعاصى و اقترفوا من السيئات، و التوبة الندم على المعصية و العزم على عدم المعاودة لها. و قيل: يقبل التوبة عن أوليائه و أهل طاعته. و الأوّل أولى، فإن التوبة مقبولة من جميع العباد مسلمهم و كافرهم؛ إذا كانت صحيحة صادرة عن خلوص نية، و عزيمة صحيحة وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ على العموم لمن تاب عن سيئته وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ من خير و شرّ فيجازى كلا بما يستحقه.

قرأ حمزة، و الكسائى، و حفص، و خلف تَفْعَلُونَ بالفوقية على الخطاب. و قرأ الباقون بالتحتية على الخبر، و اختار القراءة الثانية أبو عبيدة، و أبو حاتم لأن هذا الفعل وقع بين خبرين وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ الموصول فى موضع نصب، أى: يستجيب اللّه للذين آمنوا و يعطيهم ما طلبوه منه، يقال أجاب و استجاب بمعنى. و قيل: المعنى يقبل عبادة المخلصين، و قيل:

التقـدير و يسـتجيب لهم، فحـذف اللام كما حذف فى قوله: وَ إِذا كالُوهُمْ أى: كالوا لهم، و قيل: إن الموصول فى محل رفع: أى يجيبون ربهم إذا دعاهم كقوله: اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ «١» قال المبرد: معنى وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا و يستدعى الذين آمنوا الإجابـة، هكـذا حقيقة معنى اسـتفعل، فالذين فى موضع رفع، و الأوّل أولى وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ أى: يزيدهم على ما طلبوه منه، أو على ما يسـتحقونه من الثواب تفضـلا منه، و قيل: يشفعهم فى إخوانهم وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ هذا للكافرين مقابلا مـا ذكره للمؤمنين فيما قبله وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ أى: لو وسع اللّه لهم رزقهم لبغوا فى الأرض: لعصوا فيها، و بطروا النعمـة، و تكبروا، و طلبوا ما ليس لهم طلبه، و قيل المعنى: لو جعلهم سواء فى الرزق لما انقاد بعضـهم لبعض، و لتعطلت الصـنائع، و الأوّل أولى. و الظاهر عموم أنواع الرزق، و قيل: هو المطر خاصة وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ أى: ينزل من الرزق لعباده بتقدير على حسب مشيئته، و ما تقتضيه حكمته

---

(١). الأنفال ٢۴.

البالغـة إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بأحوالهم بَصِيرٌ بما يصـلحهم من توسـيع الرزق، و تضـييقه، فيقدر لكل أحد منهم ما يصـلحه، و يكفه عن الفساد بالبغى فى الأرض وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ أى: المطر الذى هو أنفع أنواع الرزق و أعمها فائدة و أكثرها مصلحة مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا أى: من بعـد ما أيسوا عن ذلك فيعرفون بهـذا الإنزال للمطر بعـد القنوط مقدار رحمته لهم، و يشـكرون له ما يجب الشـكر عليه وَ هُوَ الْوَلِيُ للصالحين من عباده بالإحسان إليهم و جلب المنافع لهم، و دفع الشـرور عنهم الْحَمِيدُ المستحق للحمد منهم على إنعامه خصوصا و عموما.

و قـد أخرج ابن المنـذر عن ابن عبـاس فى قوله: مَنْ كـانَ يُرِيـدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ قال: عيش الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها الآية. قال: من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل اللّه له نصـيبا فى الآخرة إلا النار، و لم يزدد بذلك من الدنيا شيئـا إلاـ رزقـا فرغ منه و قسم له، و أخرج أحمـد و الحاكم و صـححه و ابن مردويه و ابن حبان عن أبىّ بن كعب أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلم قال: «بشـر هذه الأمة بالسـناء و الرفعة، و النصـر و التمكين فى الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة من نصيب». و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة: قال تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ الآية، ثم قال: يقول اللّه: ابن آدم تفرّغ لعبادتى أملأ صدرك غنى و أسـدّ فقرك، و إن لاـ تفعـل ملأت صـدرك شـغلا و لم أسـدّ فقرك. و أخرج ابن أبى الـدنيا و ابن عساكر عن علىّ قال: الحرث حرثان، فحرث الدنيا المال و البنون، و حرث الآخرة الباقيات الصالحات.

و أخرج أحمـد، و عبد بن حميد، و البخارى، و مسـلم، و الترمذى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس أنه سـئل عن قوله: إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى قال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. قال ابن عباس: عجلت، إن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال:

إلا أن تصلوا ما بينى و بينكم من القرابة. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه من طريق سعيد ابن جبير عنه قال: قال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا أسألكم عليه أجرا إلّا أن تودّونى فى نفسى لقرابتى و تحفظوا القرابة التى بينى و بينكم».

و أخرج سـعيد بن منصور، و ابن سـعد، و عبـد بن حميد، و الحاكم و صـححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن الشعبى قال: أكثر الناس علينا فى هـذه الآية قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فقال: إن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم كـان واسط النسب فى قريش ليس بطن من بطونهم إلا و له فيه قرابـة، فقال اللّه: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ

عَلَيْهِ أَجْراً على ما أدعوكم إليه إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى أن تودونى لقرابتى منكم، و تحفظونى بها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية قال: كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قرابة من جميع قريش، فلما كذبوه و أبوا أن يبايعوه قال: «يا قوم إذا أبيتم أن تبايعونى فاحفظوا قرابتى فيكم، و لا يكون غيركم من العرب أولى بحفظى و نصرتى منكم». و أخرج عبد بن حميد، و ابن مردويه عنه نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عنه أيضا نحوه. و أخرج ابن مردويه

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۱۵

عنه أيضا نحوه. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا من طريق أخرى نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه من طريق مقسم عن ابن عباس قال: قالت الأنصار فعلنا و فعلنا و كأنهم فخروا، فقال العباس:

لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فأتاهم فى مجالسهم فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم اللّه؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه، قال: أفلا تجيبون؟ قالوا: ما نقول يا رسول اللّه؟ قال: ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك؟ ألم يكذّبوك فصدّقناك؟ ألم يخذلوك فنصرناك؟ فما زال يقول حتى جثوا على الركب و قالوا: أموالنا و ما فى أيدينا للّه و رسوله، فنزلت قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى و فى إسناده يزيد بن أبى زياد، و هو ضعيف، و الأولى أن الآية مكية لا مدنية، و قد أشرنا فى أوّل السورة إلى قول من قال إن هذه الآية و ما بعدها مدنية، و هذا متمسكهم. و أخرج أبو نعيم، و الديلمى من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى أى: تحفظونى فى أهل بيتى و تودونهم بى». و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه. قال السيوطى: بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى قالوا: يا رسول اللّه من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: علىّ و فاطمة و ولدهما» و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية بمكة، و كان المشركون يؤذون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فأنزل اللّه قل لهم يا محمد لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ يعنى: على ما أدعوكم إليه أَجْراً عرضا من الدنيا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى إلا الحفظ لى فى قرابتى فيكم، فلما هاجر إلى المدينة أحبّ أن يلحقه بإخوته من الأنبياء فقال: قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ «۱» يعنى ثوابه و كرامته فى الآخرة كما قال نوح وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ* و كما قال هود، و صالح، و شعيب لم يستثنوا أجرا كما استثنى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فردّه عليهم، و هى منسوخة. و أخرج أحمد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى و الحاكم و صححه، و ابن مردويه من طريق مجاهد عن ابن عباس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فى الآية: قل لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات و الهدى أجرا إلا أن تودوا اللّه و أن تتقرّبوا إليه بطاعته. هذا حاصل ما روى عن حبر الأمة ابن عباس رضى اللّه عنه فى تفسير هذه الآية. و المعنى الأوّل هو الذى صح عنه، و رواه عنه الجمع الجمّ من تلامذته فمن بعدهم، و لا ينافيه ما روى عنه من النسخ، فلا مانع من أن يكون قد نزل القرآن فى مكة بأن يودّه كفار قريش لما بينه و بينهم من القربى و يحفظوه بها، ثم ينسخ ذلك و يذهب هذا الاستثناء من أصله كما يدلّ عليه ما ذكرنا مما يدلّ على أنه لم يسأل على التبليغ أجرا على الإطلاق، و لا يقوى ما روى من حملها على آل محمد صلّى اللّه عليه و سلم على معارضة ما صح عن ابن عباس من تلك الطرق الكثيرة، و قد أغنى اللّه آل محمد عن هذا بما لهم من الفضائل الجليلة، و المزايا الجميلة، و قد بينا بعض ذلك عند تفسيرنا لقوله: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ «۲» و كما لا يقوى هذا على المعارضة، فكذلك لا يقوى ما روى عنه أن المراد بالمودّة فى القربى أن

(١). سبأ: ۴٧.

(٢). الأحزاب: ٣٣.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶١۶

يودوا اللّه و أن يتقرّبوا إليه بطاعته، و لكنه يشدّ من عضد هذا أنه تفسير مرفوع إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و إسناده عند أحمد فى المسند هكذا: حدّثنا حسن بن موسى حدّثنا قزعة بن سويد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم فذكره. و رواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن قزعة به. و أخرج ابن المبارك، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى الشعب. قال السيوطى بسند صحيح عن أبى هانئ الخولانى قال:

سمعت عمر بن حريث و غيره يقولون: إنما نزلت هذه الآية فى أصحاب الصفة وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ و ذلك أنهم قالوا لو أن لنا، فتمنوا الدنيا. و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب عن عليّ مثله.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢٩ الى ٤٣]

وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (٣١) وَ مِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣۴) وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣۵) فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣۶) وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَ الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨)

وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)

ذكر سبحانه بعض آياته على كمال قدرته الموجبة لتوحيده، و صدق ما وعد به من البعث، فقال: وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: خلقهما على هذه الكيفية العجيبة، و الصنعة الغريبة وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ يجوز عطفه على خلق، و يجوز عطفه على السموات، و الدابة: اسم لكل ما دبّ. قال الفراء:

أراد ما بث فى الأرض دون السماء كقوله: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ «١» و إنما يخرج من الملح دون العذب. و قال أبو عليّ الفارسى: تقديره و ما بثّ فى أحدهما، فحذف المضاف. قال مجاهد: يدخل فى هذا الملائكة و الناس، و قد قال تعالى: وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ «٢» وَ هُوَ عَلى جَمْعِهِمْ أى: حشرهم يوم القيامة إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ الظرف متعلق بجمعهم لا بقدير قال أبو البقاء؛ لأن ذلك يؤدى: و هو على جمعهم قدير إذا يشاء، فتتعلق القدرة بالمشيئة، و هو محال. قال شهاب الدين: و لا أدرى ما وجه كونه محالا على

---

(١). الرحمن: ٢٢.

(٢). النحل: ٨.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۱۷

مذهب أهل السنة، فإن كان يقول بقول المعتزلة و هو أن القدرة تتعلق بما لم يشأ اللّه مشى كلامه، و لكنه مذهب ردىء لا يجوز اعتقاده وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ أى: و ما أصابكم من المصائب كائنة ما كانت فبسبب ما كسبت أيديكم من المعاصى. قرأ نافع، و ابن عامر «بما كسبت» بغير فاء، و قرأ الباقون بالفاء، وَ ما فى أَصابَكُمْ هى الشرطية، و لهذا دخلت الفاء فى جوابها على قراءة الجمهور، و لا يجوز حذفها عند سيبويه و الجمهور، و جوّز الأخفش الحذف كما فى قوله: وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ «۱» و قول الشاعر:

من يفعل الحسنات اللّه يشكرهاو الشّرّ بالشّرّ عند اللّه مثلان

و قيل: هى الموصولة، فيكون الحذف و الإثبات جائزين، و الأوّل أولى. قال الزجاج: إثبات الفاء أجود لأن الفاء مجازاة جواب الشرط، و من حذف الفاء فعلى أن: ما، فى معنى: الذى، و المعنى: الذى أصابكم وقع بما كسبت أيديكم. قال الحسن: المصيبة هنا الحدود على المعاصى، و الأولى الحمل على العموم كما يفيده وقوع النكرة فى سياق النفى، و دخول من الاستغراقية عليها وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ من المعاصى التى يفعلها العباد؛ فلا يعاقب عليها، فمعنى الآية: أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب، و يعفو عن كثير من الذنوب.

و قد ثبتت الأدلة الصحيحة أن جميع ما يصاب به الإنسان فى الدنيا يؤجر عليه، أو يكفر عنه من ذنوبه. و قيل:

هذه الآية مختصة بالكافرين على معنى: أن ما يصابون به بسبب ذنوبهم من غير أن يكون ذلك مكفرا عنهم لذنب و لا محصلا لثواب، و يترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم فلا يعاجلهم فى الدنيا بل يمهلهم إلى الدار الآخرة. و الأولى حمل الآية على العموم، و العفو يصدق على تأخير العقوبة كما يصدق على محو الذنب و رفع الخطاب به. قال الواحدى: و هذه أرجى آية فى كتاب اللّه لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كفره عنهم بالمصائب، و صنف عفا عنه فى الدنيا، و هو كريم لا يرجع فى عفوه، فهذه سنة اللّه مع المؤمنين. و أما الكافر فإنه لا يعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أى: بفائتين عليه هربا فى الأرض و لا فى السماء لو كانوا فيها بل ما قضاه عليهم من المصائب واقع عليهم نازل بهم وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍ يواليكم فيمنع عنكم ما قضاه اللّه وَ لا نَصِيرٍ ينصركم من عذاب اللّه فى الدنيا و لا فى الآخرة. ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آياته العظيمة الدالة على توحيده و صدق ما وعد به فقال:

وَ مِنْ آياتِهِ الْجَوارِ قرأ نافع، و أبو عمرو «الجوارى» بإثبات الياء فى الوصل، و أما فى الوقف فإثباتها على الأصل و حذفها للتخفيف، و هى السفن واحدتها جارية، أى: سائرة فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ أى:

الجبال جمع علم و هو الجبل، و منه قول الخنساء:

و إنّ صخرا لتأتمّ الهداة بهكأنّه علم فى رأسه نار

قال الخليل: كلّ شىء مرتفع عند العرب فهو علم. و قال مجاهد: الأعلام القصور واحدها علم

(۱). الأنعام: ۱۲۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۱۸

إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ قرأ الجمهور بهمز يَشَأْ و قرأ ورش عن نافع بلا همز. و قرأ الجمهور الرِّيحَ بالإفراد، و قرأ نافع «الرياح» على الجمع: أى يسكن الريح التى تجرى بها السفن فَيَظْلَلْنَ أى: السفن رَواكِدَ أى: سواكن ثوابت عَلى ظَهْرِهِ البحر، يقال ركد الماء ركودا: سكن، و كذلك ركدت الريح و ركدت السفينة و كل ثابت فى مكان فهو راكد. قرأ الجمهور فَيَظْلَلْنَ بفتح اللام الأولى،

و قرأ قتادة بكسرها، و هى لغة قليلة إِنَّ فِي ذٰلِكَ الذى ذكر من أمر السفن لَآياتٍ دلالات عظيمة لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ أى: لكل من كان كثير الصبر على البلوى كثير الشكر على النعماء. قال قطرب:

الصبار الشكور الذى إذا أعطى شكر و إذا ابتلى صبر. قال عون بن عبد اللّه:

فكم من منعم عليه غير شاكرو كم من مبتلى غير صابر

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا معطوف على يسكن: أى يهلكهنّ بالغرق، و المراد أهلكهنّ بما كسبوا من الذنوب، و قيل: بما أشركوا. و الأوّل أولى، فإنه يهلك فى البحر المشرك و غير المشرك، يقال أوبقه: أى أهلكه وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ من أهلها بالتجاوز عن ذنوبهم فينجيهم من الغرق. قرأ الجمهور يَعْفُ بالجزم عطفا على جواب الشرط. قال القشيرى: و فى هذه القراءة إشكال لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد أو يهلكها بذنوب أهلها فلا يحسن عطف يَعْفُ على هذا، لأنه يصير المعنى:

إن يشأ يعف و ليس المعنى ذلك، بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة فهو إذن عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى، و قد قرأ قوم «و يعفوا» بالرفع و هى جيدة فى المعنى. قال أبو حيان:

و ما قاله ليس بجيد إذ لم يفهم مدلول التركيب، و المعنى: إلا أنه تعالى أهلك ناسا و أنجى ناسا على طريق العفو عنهم، و قرأ الأعمش «و يعفوا» بالرفع، و قرأ بعض أهل المدينة بالنصب بإضمار أن بعد الواو كما فى قول النابغة:

فإن يهلك أبو قابوس يهلكربيع النّاس و الشّهر الحرام

و نأخذ بعده بذناب عيشأجبّ الظّهر ليس له سنام

بنصب و نأخذ وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ قرأ الجمهور بنصب يَعْلَمَ قال الزجاج: على الصرف، قال: و معنى الصرف صرف العطف على اللفظ إلى العطف على المعنى، قال:

و ذلك أنه لما لم يحسن عطف، و يعلم، مجزوما على ما قبله إذ يكون المعنى: إن يشأ يعلم عدل إلى العطف على مصدر الفعل الذى قبله، و لا يتأتى ذلك إلا بإضمار أن لتكون مع الفعل فى تأويل اسم، و من هذا بيتا النابغة المذكوران قريبا، و كما قال الزجاج. قال المبرّد و أبو علىّ الفارسى: و اعترض على هذا الوجه بما لا طائل تحته. و قيل: النصب على العطف على تعليل محذوف، و التقدير: لينتقم منهم و يعلم. و اعترضه أبو حيان بأنه ترتب على الشرط إهلاك قوم و نجاة قوم فلا يحسن تقدير لينتقم منهم. و قرأ نافع، و ابن عامر برفع «يعلم» على الاستئناف و هى قراءة ظاهرة المعنى واضحة اللفظ. و قرئ بالجزم عطفا على المجزوم قبله على معنى: و إن

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۱۹

يشأ يجمع بين الإهلاك، و النجاة، و التحذير، و معنى ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ما لهم من فرار و لا مهرب، قاله قطرب. و قال السدى: ما لهم من ملجأ، و هو مأخوذ من قولهم حاص به البعير حيصة: إذا رمى به، و منه قولهم فلان يحيص عن الحق، أى: يميل عنه فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد ذكر التنفير عن الدنيا، أى: ما أعطيتهم من الغنى و السعة فى الرزق فإنما هو متاع قليل فى أيام قليلة ينقضى و يذهب. ثم رغبهم فى ثواب الآخرة و ما عند اللّه من النعيم المقيم فقال: وَ ما عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ أى: ما عند اللّه من ثواب الطاعات و الجزاء عليها بالجنات خير من متاع الدنيا و أبقى لأنه دائم لا ينقطع، و متاع الدنيا ينقطع بسرعة. ثم بين سبحانه لمن هذا فقال: لِلَّذِينَ آمَنُوا أى: صدقوا و عملوا على ما يوجبه الإيمان وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أى: يفوّضون إليه أمورهم، و يعتمدون عليه فى كل شؤونهم لا على غيره وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبٰائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوٰاحِشَ الموصول فى محل جرّ معطوف على الذين آمنوا، أو بدلا منه، أو فى محلّ نصب بإضمار: أعنى و الأوّل: أولى، و المعنى: أن ما

عنـد اللّه خير و أبقى للـذين آمنوا و للـذين يجتنبون. و المراد بكبـائر الإـثم: الكبـائر من الـذنوب، و قـد قـدّمنا تحقيقها فى سورة النسـاء. قرأ الجمهور كَبائِرَ بالجمع، و قرأ حمزة و الكسائى «كبير» بالإفراد و هو يفيـد مفاد الكبائر، لأن الإضافـة للجنس كاللام. و الفواحش هى من الكبـائر، و لكنهـا مع وصف كونهـا فاحشـة كأنهـا فوقهـا، و ذلـك كالقتل، و الزنا، و نحو ذلك. و قال مقاتل: الفواحش موجبـات الحـدود. و قـال السـدّى: هى الزنا وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ أى: يتجاوزون عن الـذنب الـذى أغضـبهم، و يكظمون الغيـظ، و يحملون على من ظلمهم، و خص الغضب بـالغفران لأـن استيلاـء على طبع الإنسان، و غلبته عليه شديـدة، فلا يغفر عنـد سـورة الغضب إلاـ من شـرح اللّه صـدره و خصه بمزيـة الحلم، و لهـذا أثنى اللّه سـبحانه عليهم بقوله: فى آل عمران وَ الْكـاظِمِينَ الْغَيْظَ «۱» قـال ابن زيـد: جعل اللّه المؤمنين صـنفين: صـنفا يعفون عن ظالمهم فبـدأ بـذكرهم، و صـنفا ينتصـرون من ظـالمهم و هم الـذين سيأتى ذكرهم وَ الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ أى: أجـابوه إلى مـا دعاهم إليه و أقاموا ما أوجبه عليهم من فريضة الصـلاة. قال ابن زيد: هم الأنصار بالمدينة اسـتجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثنى عشـر نقيبا منهم قبـل الهجرة، و أقـاموا الصـلاة لمواقيتهـا بشـروطها و هيئاتهـا وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ أى: يتشـاورون فيمـا بينهم، و لا يعجلون، و لا ينفردون بالرأى، و الشورى مصـدر شاورته مثل البشـرى و الـذكرى. قال الضـحاك: هو تشاورهم حين سـمعوا بظهور رسول اللّه صلّى اللّه عليـه و سلم، و ورود النقبـاء إليهـم حين اجتمـع رأيهم فى دار أبى أيـوب على الإيمـان به و النصـرة له. و قيـل: المراد تشاورهم فى كلّ أمر يعرض لهم؛ فلا يستأثر بعضهم على بعض برأى، و ما أحسن ما قاله بشار بن برد:

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى لبيب أو نصيحة حازم

و لا تجعل الشّورى عليك غضاضة فريش الخوافى قوّة للقوادم

و قد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يشاور أصحابه فى أموره، و أمره اللّه سبحانه بذلك فقال:

---

(۱). آل عمران: ۱۳۴.

وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ «۱» و قـد قـدّمنا فى آل عمران كلامـا فى الشـورى وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ أى: ينفقـونه فى سبيـل الخير و يتصـدّقون به على المحاويج. ثم ذكر سـبحانه الطائفة التى تنتصـر ممن ظلمها فقال: وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ أى: أصـابهم بغى مـن بغى عليهم بغير الحق، ذكر سـبحانه هؤلاـء المنتصـرين فى معرض المـدح كمـا ذكر المغفرة عنـد الغضب فى معرض المـدح لأـن التـذلل لمـن بغى ليس مـن صـفات مـن جعـل اللّه له العزة حيث قـال: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ «۲» فالانتصار عند البغى فضيلة، كما أن العفو عند الغضب فضيلة.

قال النخعى: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسـهم فيجترئ عليهم السفهاء، و لكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله اللّه له و عدم مجاوزته كما بينه سـبحانه عقب هذا بقوله: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فبيّن سـبحانه أن العدل فى الانتصار هو الاقتصار على المساواة، و ظاهر هذا العموم. و قال مقاتل و الشافعى و أبو حنيفة و سفيان: إن هذا خاص بالمجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره. و قال مجاهـد و السـدّى: هو جواب القبيـح إذا قال أخزاك اللّه يقول أخزاك اللّه من غير أن يعتدى، و تسـمية الجزاء سيئة إما لكونها تسوء من وقعت عليه أو على طريق المشاكلة لتشابههما فى الصورة. ثم لما بين سـبحانه أن جزاء السيئة بمثلها حق جـائز؛ بين فضـيلة العفو فقال: فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ أى: من عفا عمن ظلمه و أصـلح بالعفو بينه و بين ظالمه، أى: أن اللّه سبحانه يأجره على ذلك، و أبهم الأجر تعظيما لشأنه، و تنبيها على جلالته. قال مقاتل:

فكـان العفو من الأعمال الصالحـة، و قـد بينا هـذا فى سورة آل عمران. ثم ذكر سـبحانه خروج الظلمـة عن محبته التى هى سـبب

الفوز و النجاة فقال: إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ أی: المبتدئين بالظلم قال مقاتل: يعنى من يبدأ بالظلم، و به قال سعيد بن جبير. و قيل: لا يحبّ من يتعدّى فى الاقتصاص و يجاوز الحدّ فيه لأن المجاوزة ظلم وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ مصدر مضاف إلى المفعول، أی: بعد أن ظلمه الظالم له، و اللام هی لام الابتداء. و قال ابن عطية: هی لام القسم، و الأوّل أولى. و من: هی الشرطية، و جوابه: فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ بمؤاخذة و عقوبة، و يجوز أن تكون من: هی الموصولة، و دخلت الفاء فی جوابها تشبيها للموصولة بالشرطية، و الأوّل أولى. و لما نفى سبحانه السبيل على من انتصر بعد ظلمه بين من عليه السبيل فقال: إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ أی: يتعدّون عليهم ابتداء كذا قال الأكثر. و قال ابن جريج: أی يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم وَ يَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ أی: يعملون فی النفوس و الأموال بغير الحقّ كذا قال الأكثر. و قال مقاتل: بغيهم: عملهم بالمعاصی، و قيل: يتكبرون و يتجبرون.

و قال أبو مالك: هو ما يرجوه أهل مكة أن يكون بمكة غير الإسلام دينا، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الذين يظلمون الناس، و هو: مبتدأ، و خبره: لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أی: لهم بهذا السبب عذاب شديد الألم. ثم رغب سبحانه فی الصبر و العفو فقال: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ أی: صبر على الأذى و غفر لمن ظلمه و لم ينتصر، و الكلام فی هذه اللام و من كالكلام فی و لمن انتصر (إن ذلك) الصبر و المغفرة لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

---

(١). آل عمران: ١٥٩.

(٢). المنافقون: ٨.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۱

أی: أن ذلك منه فحذف لظهوره، كما فی قولهم:

السّمن منوان بدرهم قال مقاتل: من الأمور التی أمر اللّه بها. و قال الزجاج: الصابر يؤتى بصبره ثوابا، فالرغبة فی الثواب أتمّ عزما. قال ابن زيد: إن هذا كله منسوخ بالجهاد، و أنه خاصّ بالمشركين. و قال قتادة: إنه عام، و هو ظاهر النظم القرآنی وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ أی: فما له من أحد يلی هدايته و ينصره، و ظاهر الآية العموم، و قيل: هی خاصة بمن أعرض عن النبی صلّى اللّه عليه و سلم و لم يعمل بما دعاه من الإيمان باللّه و العمل بما شرعه، و الأوّل أولى.

و قد أخرج أحمد، و ابن راهويه، و ابن منيع، و عبد بن حميد، و الحكيم، و الترمذی، و أبو يعلى، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و ابن مردويه، و الحاكم عن علیّ بن أبی طالب: قال: ألا أخبركم بأفضل آية فی كتاب اللّه حدّثنا بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ و سأفسرها لك يا علیّ: ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فی الدنيا فبما كسبت أيديكم، و اللّه أكرم من أن يثنی عليكم العقوبة فی الآخرة، و ما عفا اللّه عنه فی الدنيا؛ فاللّه أكرم من أن يعود بعد عفوه. و أخرج عبد بن حميد، و الترمذی عن أبی موسى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، و ما يعفو اللّه عنه أكثر، و قرأ وَ ما أَصابَكُمْ الآية». و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبی الدنيا فی الكفارات و ابن أبی حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقی فی الشعب عن عمران بن حصين أنه دخل عليه بعض أصحابه، و كان قد ابتلی فی جسده، فقال: إنا لنبتئس لك لما نرى فيك، قال: فلا تبتئس لما ترى، فإن ما ترى بذنب، و ما يعفو اللّه عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ إلى آخرها.

و أخرج أحمد عن معاوية بن أبی سفيان سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «ما من شیء يصيب المؤمن فی جسده يؤذيه إلا كفّر اللّه عنه به من سيئاته». و أخرج ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما عثرة قدم و لا

اختلاج عرق و لا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم و ما يعفو اللّه أكثر». و أخرج ابن المنذر من طريق عطاء عن ابن عباس فى قوله: فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ قال: يتحرّكن و لا يجرين فى البحر.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: رواكد قال: وقوفا أَوْ يُوبِقْهُنَ قال:

يهلكهنّ. و أخرج النسائى، و ابن ماجة، و ابن مردويه عن عائشة. قالت: «دخلت علىّ زينب و عندى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فأقبلت علىّ فسبتنى، فردعها النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فلم تنته، فقال لى: سبيها، فسببتها حتى جفّ ريقها فى فمها، و وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يتهلل سرورا». و أخرج أحمد، و مسلم، و أبو داود، و الترمذى، و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «المستبان ما قالا من شىء فعلى البادئ حتى يعتدى المظلوم» ثم قرأ وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«إذا كان يوم القيامة أمر اللّه مناديا ينادى ألا ليقم من كان له على اللّه أجر، فلا يقوم إلا من عفا فى الدنيا» و ذلك قوله: فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ و أخرج البيهقى عن أنس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: «ينادى

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۲

مناد من كان له أجر على اللّه فليدخل الجنة مرتين، فيقوم من عفا عن أخيه، قال اللّه فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .

[سورة الشورى (۴۲): الآيات ۴۴ الى ۵۳]

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (۴۴) وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (۴۵) وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (۴۶) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (۴۷) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (۴۸) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (۴۹) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۵۰) وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (۵۱) وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۲) صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (۵۳)

قوله: وَ تَرَى الظَّالِمِينَ أى: المشركين المكذبين بالبعث لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ أى: حين نظروا النار، و قيل: نظروا ما أعده اللّه لهم عند الموت يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ أى: هل إلى الرجعة إلى الدنيا من طريق وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ أى: ساكنين متواضعين عند أن يعرضوا على النار لما لحقهم من الذلّ و الهوان، و الضمير فى عليها راجع إلى العذاب و أنثه لأن العذاب هو النار و قوله:

يُعْرَضُونَ فى محل نصب على الحال، لأن الرؤية بصرية، و كذلك خاشعين، و من الذلّ: يتعلق بخاشعين، أى: من أجله يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ من: هى التى لابتداء الغاية، أى: يبتدئ نظرهم إلى النار، و يجوز أن تكون تبعيضية، و الطرف الخفىّ: الذى يخفى نظره كالمصبور ينظر إلى السيف لما لحقهم من الذلّ، و الخوف، و الوجل. قال مجاهد مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ أى: ذليل، قال: و إنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يحشرون عميا، و عين القلب طرف خفىّ. و قال قتادة، و سعيد بن جبير، و السدّى، و القرظى:

يسارقون النظر من شدّة الخوف. و قال يونس: إن مِنَ فى مِنْ طَرْفٍ بمعنى الباء، أى: ينظرون بطرف ضعيف من الذلّ و الخوف و به قال الأخفش: وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: إنّ الكاملين فى الخسران: هم هؤلاء الذين جمعوا بين خسران الأنفس و الأهلين فى يوم القيامة. أما خسرانهم لأنفسهم فلكونهم صاروا فى النار معذّبين بها، و أما خسرانهم لأهليهم؛ فلأنهم إن كانوا معهم فى النار فلا ينتفعون بهم، و إن كانوا فى الجنة فقد حيل بينهم و بينهم، و قيل خسران الأهل: أنهم لو

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۳

آمنوا لكان لهم فى الجنة أهل من الحور العين أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ هذا يجوز أن يكون من تمام كلام المؤمنين، و يجوز أن يكون من كلام اللّه سبحانه، أى: هم فى عذاب دائم لا ينقطع وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: لم يكن لهم أعوان يدفعون عنهم العذاب، و أنصار ينصرونهم فى ذلك الموطن من دون اللّه، بل هو المتصرف سبحانه ما شاء كان، و ما لم يشأ لم يكن وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ أى: من طريق يسلكها إلى النجاة. ثم أمر سبحانه عباده بالاستجابة له و حذرهم فقال:

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ أى: استجيبوا دعوته لكم إلى الإيمان به، و بكتبه، و رسله من قبل أن يأتى يوم لا يقدر أحد على ردّه و دفعه، على معنى: من قبل أن يأتى من اللّه يوم لا يردّه أحد، أو لا يردّه اللّه بعد أن حكم به على عباده، و وعدهم به، و المراد به: يوم القيامة، أو: يوم الموت ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ تلجؤون إليه، وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ أى: إنكار، و المعنى: ما لكم من إنكار يومئذ، بل تعترفون بذنوبكم. و قال مجاهد: وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ أى: ناصر ينصركم، و قيل:

النكير بمعنى المنكر، كالأليم بمعنى المؤلم، أى: لا تجدون يومئذ منكرا لما ينزل بكم من العذاب قاله الكلبى و غيره، و الأوّل أولى. قال الزجاج: معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التى يوقفون عليها فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً أى: حافظا تحفظ أعمالهم حتى تحاسبهم عليها، و لا موكلا بهم رقيبا عليهم إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ أى: ما عليك إلا البلاغ لما أمرت بإبلاغه، و ليس عليك غير ذلك، و هذا منسوخ بآية السيف وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها أى: إذا أعطيناه رخاء و صحة و غنى فرح بها بطرا، و المراد بالإنسان الجنس، و لهذا قال: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ أى: بلاء و شدّة و مرض بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ من الذنوب فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ أى: كثير الكفر لما أنعم به عليه من نعمه، غير شكور له عليها، و هذا باعتبار غالب جنس الإنسان. ثم ذكر سبحانه سعة ملكه و نفاذ تصرفه فقال: لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: له التصرّف فيهما بما يريد، لا مانع لما أعطى، و لا معطى لما منع يَخْلُقُ ما يَشاءُ من الخلق يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ قال مجاهد، و الحسن، و الضحاك، و أبو مالك، و أبو عبيدة: يهب لمن يشاء إناثا لا ذكور معهنّ، و يهب لمن يشاء ذكورا لا إناث معهم. قيل:

و تعريف الذكور بالألف و اللام للدلالة على شرفهم على الإناث، و يمكن أن يقال إن التقديم للإناث قد عارض ذلك، فلا دلالة فى الآية على المفاضلة بل هى مسوقة لمعنى آخر. و قد دلّ على شرف الذكور قوله سبحانه:

الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ «۱» و غير ذلك من الأدلة الدّالة على شرف الذكور على الإناث، و قيل: تقديم الإناث لكثرتهنّ بالنسبة إلى الذكور، و قيل: لتطييب قلوب آبائهن، و قيل: لغير ذلك مما لا حاجة إلى التطويل بذكره أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً أى: يقرن بين الإناث و الذكور و يجعلهم أزواجا فيهبهما جميعا لبعض خلقه. قال مجاهد: هو أن تلد المرأة غلاما، ثم تلد جارية، ثم تلد غلاما، ثم تلد جارية.

و قال محمد بن الحنفية: هو أن تلد توأما غلاما و جارية. و قال القتبى: التزويج هنا: هو الجمع بين البنين

---

(۱). النساء: ۳۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۴

و البنات تقول العرب: زوجت إبلى: إذا جمعت بين الصغار و الكبار، و معنى الآية أوضح من أن يختلف فى مثله، فإنه سبحانه أخبر أنه يهب لبعض خلقه إناثا، و يهب لبعض ذكورا، و يجمع لبعض بين الذكور و الإناث وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً لا يولد له ذكر و لا أنثى، و العقيم الذى لا يولد له، يقال رجل عقيم و امرأة عقيم، و عقمت المرأة تعقم عقما، و أصله القطع، و يقال نساء عقم، و منه قول الشاعر:

عقم النّساء فما يلدن شبيههإنّ النّساء بمثله عقم

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ أى: بليغ العلم عظيم القدرة وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أى:

ما صح لفرد من أفراد البشر أن يكلمه اللّه بوجه من الوجوه إلّا بأن يوحى إليه فيلهمه و يقذف ذلك فى قلبه قال مجاهد: نفث ينفث فى قلبه، فيكون إلهاما منه؛ كما أوحى إلى أم موسى، و إلى إبراهيم فى ذبح ولده أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ كما كلم موسى، يريد أن كلامه يسمع من حيث لا يرى، و هو تمثيل بحال الملك المحتجب الذى يكلم خواصه من وراء حجاب أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ أى: يرسل ملكا، فيوحى ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر اللّه و تيسيره ما يشاء أن يوحى إليه. قال الزجاج: المعنى أن كلام اللّه للبشر: إما أن يكون بإلهام يلهمهم، أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى، أو برسالة ملك إليهم.

و تقدير الكلام: ما كان لبشر أن يكلمه اللّه إلا أن يوحى وحيا، أو يكلمه من وراء حجاب أو يرسل رسولا.

و من قرأ «يرسل» رفعا أراد و هو يرسل، فهو ابتداء و استئناف اه. قرأ الجمهور بنصب أَوْ يُرْسِلَ و بنصب فَيُوحِيَ على تقدير أن، و تكون أن و ما دخلت عليه معطوفين على وحيا، و وحيا فى محل الحال، و التقدير: أو موحيا أو مرسلا، و لا يصح عطف أو يرسل على أن يكلمه لأنه يصير التقدير: و ما كان لبشر أن يرسل اللّه رسولا، و هو فاسد لفظا و معنى. و قد قيل فى توجيه قراءة الجمهور غير هذا مما لا يخلو عن ضعف. و قرأ نافع «أو يرسل» بالرفع، و كذلك «فيوحى» بإسكان الياء على أنه خبر مبتدأ محذوف، و التقدير: أو هو يرسل، كما قال الزجاج و غيره، و جملة إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ تعليل لما قبلها، أى: متعال عن صفات النقص، حكيم فى كل أحكامه.

قال المفسرون: سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلم: ألا تكلم اللّه و تنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى، فنزلت وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا أى: و كالوحى الذى أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، المراد به: القرآن، و قيل: النبوّة. قال مقاتل: يعنى الوحى بأمرنا و معناه القرآن، لأنه يهتدى به، ففيه حياة من موت الكفر. ثم ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحى إليه فقال:

ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ أى: أىّ شىء هو، لأنه صلّى اللّه عليه و سلم كان أميا لا يقرأ، و لا يكتب و ذلك أدخل فى الإعجاز، و أدلّ على صحة نبوّته، و معنى وَ لَا الْإِيمانُ أنه كان صلّى اللّه عليه و سلم لا يعرف تفاصيل الشرائع و لا يهتدى إلى معالمها، و خص الإيمان لأنه رأسها و أساسها، و قيل: أراد بالإيمان هنا الصلاة. قال بهذا جماعة من أهل العلم: منهم إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة، و احتجّ بقوله تعالى:

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۵

وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ «۱» يعنى الصلاة، فسماها إيمانا. و ذهب جماعة إلى أن اللّه سبحانه لم يبعث نبيا إلا و قد كان مؤمنا به، و قالوا معنى الآية: ما كنت تدرى قبل الوحى كيف تقرأ القرآن، و لا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، و قيل: كان هذا قبل

البلوغ حين كـان طفلاـ و فى المهـد. و قـال الحسـين بن الفضـل: إنه على حـذف مضـاف، أى: و لاـ أهـل الإيمان، و قيل: المراد بالإيمان دين الإسـلام، و قيل: الإيمان هنا عبارة عن الإقرار بكل ما كلف اللّه به العباد وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ أى و لكن جعلنـا الروح الـذى أوحيناه إليك ضـياء و دليلا على التوحيـد و الإيمان نهـدى به من نشاء هـدايته مِنْ عِبادِنا و نرشـده إلى الدين الحقّ وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ قال قتادة، و السدّى، و مقاتل: و إنك لتدعو إلى الإسلام، فهو الصراط المستقيم. قرأ الجمهـور لَتَهْدِي على البنـاء للفاعـل. و قرأ ابن حوشب على البنـاء للمفعول. و قرأ ابن السـميقع بضمّ التـاء و كسـر الـدّال من أهـدى، و فى قراءة أبىّ «و إنّك لتدعو» ثم بيّن الصـراط المسـتقيم بقوله: صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ و فى هـذه الإضافـة للصـراط إلى الاـسم الشـريف من التعظيم له، و التفخيم لشـأنه ما لا يخفى، و معنى لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أنه المالك لذلك و المتصـرّف فيه أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ أى: تصير إليه يوم القيامة لا إلى غيره جميع أمور الخلائق، و فيه وعيد بالبعث المستلزم للمجازاة.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ قال: ذليل. و أخرج عبد ابن حميد، و ابن جرير عن مجاهد مثله. و أخرج سـعيد بن منصور، و عبـد بن حميـد، و ابن المنـذر عن محمد ابن كعب قال: يسارقون النظر إلى النار. و أخرج ابن مردويه، و ابن عساكر عن واثلـة بن الأسـقع عن النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلم قال: «من بركـة المرأة ابتكارها بالأنثى، لأن اللّه قال: يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً قال: الذى لا يولـد له. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً قال: إلا أن يبعث ملكا يوحى إليه من عنـده، أو يلهمه فيقـذف فى قلبه، أو يكلمه من وراء حجاب. و أخرج ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا قال: القرآن. و أخرج أبو نعيم فى الـدلائل، و ابن عساكر عن علىّ قال: قيل لمحمـد صـلّى اللّه عليه و سـلم هـل عبـدت وثنـا قـط؟ قال لا: قالوا: فهل شـربت خمرا قط؟ قال لا، و ما زلت أعرف أن الـذى هم عليه كفر، و ما كنت أدرى ما الكتاب و لا الإيمان، و بذلك نزل القرآن ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ

---

(١). البقرة: ١٤٣.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۶

سورة الزّخرف

اشارة

قال القرطبى: هى مكيـة بالإجماع. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة حم الزخرف بمكة، قال مقاتل: إلا قوله: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا يعنى فإنها نزلت بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١ الى ٢٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (۴)

أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (۵) وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (۶) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۷) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (۸) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (۹)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰) وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (۱۱) وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (۱۲) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (۱۳) وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (۱۴)

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (۱۵) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (۱۶) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۱۷) أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (۱۸) وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ (۱۹)

وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (۲۰)

قوله: حم وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ الكلام هاهنا فى الإعراب كالكلام الذى قدّمناه فى يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ فإن جعلت حم قسما كانت الواو عاطفة، و إن لم تجعل قسما فالواو للقسم، و جواب القسم إِنَّا جَعَلْناهُ و قال ابن الأنبارى: من جعل جواب و الكتاب حم كما تقول: نزل و اللّه، وجب و اللّه وقف على الكتاب المبين، و معنى جعلناه: أى سميناه و وصفناه، و لذلك تعدّى إلى مفعولين. و قال السدّى: المعنى أنزلناه قُرْآناً و قال مجاهد: قلناه. و قال سفيان الثورى: بيناه عَرَبِيًّا و كذا قال الزجاج، أى:

أنزل بلسان العرب، لأن كل نبىّ أنزل كتابه بلسان قومه. و قال مقاتل: لأن لسان أهل الجنة عربىّ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى: جعلنا ذلك الكتاب قرآنا عربيا لكى تفهموه و تتعقلوا معانيه و تحيطوا بما فيه. قال ابن زيد:

لعلكم تتفكرون وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ أى: و إن القرآن فى اللوح المحفوظ لَدَيْنا أى: عندنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۷

رفيع القدر محكم النظم لا يوجد فيه اختلاف، و لا تناقض، و الجملة عطف على الجملة المقسم بها داخلة تحت معنى القسم، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها. قال الزجاج: أمّ الكتاب أصل الكتاب، و أصل كلّ شىء: أمه، و القرآن مثبت عند اللّه فى اللوح المحفوظ كما قال: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ «۱» و قال ابن جريج: المراد بقوله: وَ إِنَّهُ أعمال الخلق من إيمان و كفر، و طاعة و معصية. قال قتادة: أخبر عن منزلته و شرفه و فضله، أى: إن كذبتم به يا أهل مكة فإنه عندنا شريف رفيع محكم من الباطل أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً يقال ضربت عنه و أضربت عنه: إذا تركته و أمسكت عنه، كذا قال الفراء و الزجاج و غيرهما، و انتصاب صفحا: على المصدرية، و قيل: على الحال؛ على معنى: أ فنضرب عنكم الذكر صافحين، و الصفح مصدر قولهم: صفحت عنه إذا أعرضت عنه، و ذلك أنك توليه صفحة وجهك و عنقك، و المراد بالذكر هنا القرآن، و الاستفهام للإنكار و التوبيخ. قال الكسائى: المعنى أ فنضرب عنكم الذكر طيا، فلا توعظون و لا تؤمرون. و قال مجاهد و أبو صالح و السدّى: أ فنضرب عنكم العذاب و لا نعاقبكم على إسرافكم و كفركم. و قال قتادة: المعنى أ فنهلككم و لا نأمركم و لا ننهاكم. و روى عنه أنه قال: المعنى أ فنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به. و قيل الذكر: التذكير، كأنه قال: أ نترك تذكيركم أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ قرأ نافع و حمزة و الكسائى إن كنتم بكسر إن على أنها الشرطية، و الجزاء محذوف لدلالة ما قبله عليه. و قرأ الباقون بفتحها على التعليل، أى: لأن كنتم قوما منهمكين فى الإسراف مصرّين عليه، و اختار أبو عبيد قراءة الفتح. ثم سلى سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم فقال: وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ كم هى الخبرية التى معناها التكثير، و المعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء فى الأمم السابقة وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ كاستهزاء قومك بك فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ

بَطْشاً أی: أهلکنا قوما أشدّ قوة من هؤلاء القوم، و انتصاب بطشا: علی التمییز، أو الحال، أی: باطشین وَ مَضی مَثَلُ الْأَوَّلِینَ أی: سلف فی القرآن ذکرهم غیر مرة. و قال قتادة: عقوبتهم، و قیل: صفتهم، و المثل الوصف و الخبر، و فی هذا تهدید شدید، لأنه یتضمن أن الأوّلین أهلکوا بتکذیب الرسل، و هؤلاء إن استمروا علی تکذیبک و الکفر بما جئت به هلکوا مثلهم وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِیزُ الْعَلِیمُ أی: لئن سألت هؤلاء الکفار من قومک من خلق هذه الأجرام العلویة و السفلیة؛ أقرّوا بأن اللّه خالقهنّ و لم ینکروا، و ذلک أسوأ لحالهم و أشدّ لعقوبتهم، لأنهم عبدوا بعض مخلوقات اللّه، و جعلوه شریکا له، بل عمدوا إلی ما لا یسمع و لا یبصر، و لا ینفع و لا یضرّ من المخلوقات و هی: الأصنام؛ فجعلوها شرکاء للّه. ثم وصف سبحانه نفسه بما یدلّ علی عظیم نعمته علی عباده، و کمال قدرته فی مخلوقاته فقال: الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ مَهْداً و هذا کلام مبتدأ غیر متصل بما قبله، و لو کان متصلا بما قبله من جملة مقول الکفار لقالوا الذی جعل لنا الأرض مهادا، و المهاد: الفراش و البساط، و قد تقدّم بیانه، قرأ الجمهور «مهادا» و قرأ الکوفیون مَهْداً وَ جَعَلَ لَکُمْ فِیها سُبُلًا أی: طرقا تسلکونها إلی حیث تریدون، و قیل: معایش تعیشون بها لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ

---

(۱). البروج: ۲۱- ۲۲.

بسلوکها إلی مقاصدکم و منافعکم وَ الَّذِی نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ أی: بقدر الحاجة و حسبما تقتضیه المصلحة و لم ینزل علیکم منه فوق حاجتکم حتی یهلک زرائعکم و یهدم منازلکم و یهلککم بالغرق، و لا دونها حتی تحتاجوا إلی الزیادة، و علی حسب ما تقتضیه مشیئته فی أرزاق عباده بالتوسیع تارة و التقتیر أخری فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَیْتاً أی: أحیینا بذلک الماء بلدة مقفرة من النبات. قرأ الجمهور مَیْتاً بالتخفیف.

و قرأ عیسی، و أبو جعفر بالتشدید کَذلِکَ تُخْرَجُونَ من قبورکم، أی: مثل ذلک الإحیاء للأرض بإخراج نباتها بعد أن کانت لا نبات بها تبعثون من قبورکم أحیاء، فإن من قدر علی هذا قدر علی ذلک، و قد مضی بیان هذا فی آل عمران، و الأعراف. قرأ الجمهور تُخْرَجُونَ مبنیا للمفعول و قرأ الأعمش، و یحیی ابن وثاب، و حمزة، و الکسائی، و ابن ذکوان عن ابن عامر مبنیا للفاعل وَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها المراد بالأزواج هنا: الأصناف، قال سعید بن جبیر: الأصناف کلها. و قال الحسن: الشتاء و الصیف، و اللیل و النهار، و السموات و الأرض، و الجنة و النار، و قیل: أزواج الحیوان من ذکر و أنثی، و قیل: أزواج النبات، کقوله: وَ أَنْبَتْنا فِیها مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ «۱» و مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ* «۲» و قیل: ما یتقلب فیه الإنسان من خیر و شرّ، و إیمان و کفر، و الأوّل أولی وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْفُلْکِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْکَبُونَ فی البحر و البرّ، أی: ما ترکبونه لِتَسْتَوُوا عَلی ظُهُورِهِ الضمیر راجع إلی ما قاله أبو عبید. و قال الفراء:

أضاف الظهور إلی واحد، لأن المراد به الجنس، فصار الواحد فی معنی الجمع بمنزلة الجنس فلذلک ذکر، و جمع الظهر لأن المراد: ظهور هذا الجنس، و الاستواء: الاستعلاء، أی: لتستعلوا علی ظهور ما ترکبون من الفلک و الأنعام ثُمَّ تَذْکُرُوا نِعْمَةَ رَبِّکُمْ إِذَا اسْتَوَیْتُمْ عَلَیْهِ أی: هذه النعمة التی أنعم بها علیکم من تسخیر ذلک المرکب فی البحر و البرّ. و قال مقاتل و الکلبی: هو أن یقول الحمد للّه الذی رزقنی هذا، و حملنی علیه وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنا هذا أی: ذلل هذا المرکب، و قرأ علیّ بن أبی طالب «سبحان من سخّر لنا هذا» قال قتادة: قد علمکم کیف تقولون إذا رکبتم، و معنی وَ ما کُنَّا لَهُ مُقْرِنِینَ ما کنا له مطیقین، یقال أقرن هذا البعیر: إذا أطاقه. و قال الأخفش و أبو عبیدة: مقرنین ضابطین، و قیل: مماثلین له فی القوّة، من قولهم: هو قرن فلان إذا کان مثله فی القوّة، و أنشد قطرب قول عمرو بن معدی کرب:

لقد علم القبائل ما عقيل لنا فى النّائبات بمقرنينا

و قال آخر:

ركبتم صعبتى أشرا و حيفاو لستم للصّعاب بمقرنينا

و المراد بالأنعام هنا: الإبل خاصة، و قيل: الإبل و البقر، و الأوّل أولى وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ أى: راجعون إليه، و هذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة. ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكفار الذين تقدّم ذكرهم، فقال: وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً قال قتادة: أى عدلا، يعنى ما عبد من دون اللّه. و قال

---

(۱). ق: ۷.

(۲). الشعراء: ۷.

الزجاج و المبرد: الجزء هنا البنات، و الجزء عند أهل العربية البنات، يقال قد أجزأت المرأة: إذا ولدت البنات، و منه قول الشاعر:

إن أجزأت حرّة يوما فلا عجبقد تجزئ المذكار أحيانا

و قد جعل صاحب الكشاف تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير، و صرح بأنه مكذوب على العرب.

و يجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج و المبرد، و هما إماما اللغة العربية و حافظاها و من إليهما المنتهى فى معرفتها، و يؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتى من قوله: أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ و قوله: وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ و قوله: وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً و قيل: المراد بالجزء هنا الملائكة؛ فإنهم جعلوهم أولادا للّه سبحانه قاله مجاهد و الحسن. قال الأزهرى: و معنى الآية أنهم جعلوا للّه من عباده نصيبا على معنى أنهم جعلوا نصيب اللّه من الولدان إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ أى: ظاهر الكفران مبالغ فيه، قيل: المراد بالإنسان هنا الكافر، فإنه الذى يجحد نعم اللّه عليه جحودا بينا. ثم أنكر عليهم هذا فقال: أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ و هذا استفهام تقريع و توبيخ. و أم هى المنقطعة، و المعنى: أتخذ ربكم لنفسه البنات وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ فجعل لنفسه المفضول من الصنفين و لكم الفاضل منهما، يقال: أصفيته بكذا، أى: آثرته به، و أصفيته الودّ: أخلصته له، و مثل هذه الآية قوله: أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى «۱» و قوله: أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ و جملة و أصفاكم: معطوفة على اتخذ داخلة معها تحت الإنكار. ثم زاد فى تقريعهم و توبيخهم فقال: وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا أى: بما جعله للرحمن سبحانه من كونه جعل لنفسه البنات، و المعنى: أنه إذا بشر أحدهم بأنها ولدت له بنت اغتمّ لذلك و ظهر عليه أثره، و هو معنى قوله: ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا أى: صار وجهه مسودّا بسبب حدوث الأنثى له حيث لم يكن الحادث له ذكرا مكانها وَ هُوَ كَظِيمٌ أى شديد الحزن كثير الكرب مملوء منه. قال قتادة:

حزين. و قال عكرمة: مكروب، و قيل: ساكت، و جملة وَ هُوَ كَظِيمٌ فى محل نصب على الحال. ثم زاد فى توبيخهم و تقريعهم فقال: أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ معنى ينشأ: يربى، و النشوء: التربية، و الحلية: الزينة، و من فى محل نصب بتقدير مقدّر معطوف على جعلوا؛ و المعنى: أو جعلوا له سبحانه من شأنه أن يربى فى الزينة و هو عاجز عن أن يقوم بأمور نفسه، و إذا خوصم لا يقدر على إقامة حجته، و دفع ما يجادله به خصمه لنقصان عقله و ضعف رأيه. قال المبرد: تقدير الآية: أو يجعلون له من ينشأ فى الحلية. أى ينبت فى الزينة. قرأ الجمهور يُنَشَّؤُا بفتح الياء و إسكان النون، و قرأ ابن عباس، و الضحاك، و ابن وثاب، و حفص، و حمزة، و الكسائى، و خلف بضم الياء، و فتح النون، و تشديد الشين.

و اختار القراءة الأولى: أبو حاتم، و اختار الثانية: أبو عبيد. قال الهروى: الفعل على القراءة الأولى لازم، و على الثانية متعدّ. و

المعنى: يربى و يكبر فى الحليـة. قال قتادة: قلما تتكلم امرأة بحجتها إلا تكلمت بالحجـة عليها. و قال ابن زيد و الضـحاك: الذى ينشأ فى الحلية أصنامهم التى صاغوها من ذهب و فضة

---

(١). النجم: ٢١ و ٢٢.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۳۰

وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً الجعل هنا لمعنى القول و الحكم على الشيء كما تقول: جعلت زيدا أفضل الناس، أى: قلت بذلك و حكمت له به. قرأ الكوفيون عِبادُ بالجمع، و بها قرأ ابن عباس.

و قرأ الباقون «عنـد الرحمن» بنون ساكنة، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد، لأن الإسـناد فيها أعلى، و لأن اللّه إنما كذبهم فى قوله: إنهم بنات اللّه فأخبرهم أنهم عباده، و يؤيد هذه القراءة قوله: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ «١» و اختار أبو حاتم القراءة الثانية، قال: و تصديق هـذه القراءة قـوله: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ «٢». ثم وبخهم و قرعهم فقـال: أَ شَـهِدُوا خَلْقَهُمْ أى: أحضـروا خلـق اللّه إيـاهم فهـو من الشـهادة التى هى الحضور، و فى هـذا تهكّم بهم و تجهيل لهم. و قرأ الجمهور أَ شَـهِدُوا على الاسـتفهام بدون واو. و قرأ نافع «أو شهدوا». و قرأ الجمهور سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ بضم التاء الفوقية و بناء الفعل للمفعول و رفع شهادتهم، و قرأ السلمى و ابن السميقع و هبيرة عن حفص بـالنون، و بنـاء الفعـل للفاعـل و نصب شـهادتهم، و قرأ أبو رجاء «شـهاداتهم» بالجمع، و المعنى: سـنكتب هـذه الشهادة التى شهدوا بها فى ديوان أعمالهم لنجازيهم على ذلك وَ يُسْئَلُونَ عنها يوم القيامة وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ هذا فن آخر من فنون كفرهم باللّه جاءوا به للاستهزاء و السـخرية، و معناه: لو شاء الرحمن فى زعمكم ما عبدنا هذه الملائكة، و هذا كلام حقّ يراد به باطل، و قد مضى بيانه فى الأنعام، فبين سبحانه جهلهم بقوله: ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ أى: ما لهم بما قالوه من أن اللّه لو شاء عـدم عبادتهم للملائكة ما عبدوهم من علم، بل تكلموا بذلك جهلا، و أرادوا بما صورته صورة الحقّ باطلا، و زعموا أنه إذا شاء فقد رضى. ثم بين انتفاء علمهم بقوله: إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أى: ما هم إلا يكذبون فيما قالوا، و يتمحلون تمحلا باطلا. و قيل: الإشارة بقوله:

بِذلِكَ إلى قوله: وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً. قاله قتادة، و مقاتل، و الكلبى، و قال مجاهد، و ابن جريج: أى ما لهم بعبادة الأوثان من علم.

و قـد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: إن أول ما خلق اللّه من شـيء القلم، و أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، و الكتاب عنده، ثم قرأ: وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ

و أخرج ابن مردويه نحوه عن أنس مرفوعا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً قال: أحسبتم أن يصـفح عنكم و لم تفعلوا مـا أمرتم به. و أخرج مسـلم، و أبو داود، و الترمـذى، و النسـائى، و الحـاكم، و ابن مردويه عن ابن عمر: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلم كان إذا سافر ركب راحلته ثم كبر ثلاثا ثم قال سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَ إِنَّا إِلى رَبِّنـا لَمُنْقَلِبُونَ و أخرج ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ قال: مطيقين. و أخرج عبد ابن حميد عنه أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ قال: هو النساء فرق بين زيّهن و زى الرجال و نقصـهنّ من الميراث و بالشـهادة و أمرهنّ بالقعـدة و سـماهنّ الخوالف. و أخرج سـعيد بن منصور، و عبـد بن حميـد، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عن سعيد بن جبير قال: كنت أقرأ هذا الحرف «الذين هم عند الرّحمن إناثا»

---

(١). الأنبياء: ٢۶.

(٢). الأعراف: ٢٠۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶٣١

فسألت ابن عباس فقال: عباد الرحمن؟ قلت: فإنها فى مصحفى «عند الرّحمن» قال: فامحها و اكتبها عِبادُ الرَّحْمنِ

[سورة الزخرف (۴٣): الآيات ٢١ الى ٣۵]

أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٢۴) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢۵)

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢۶) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ (٣٠)

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (٣٣) وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (٣۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣۵)

قوله: أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ أم: هى المنقطعة، أى: بل أ أعطيناهم كتابا من قبل القرآن بأن يعبدوا غير اللّه فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ يأخذون بما فيه، و يحتجون به و سيجعلونه لهم دليلا، و يحتمل أن تكون أم معادلة لقوله: أَ شَهِدُوا، فتكون متصلة، و المعنى أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتابا إلخ. و قيل:

إن الضمير فى مِنْ قَبْلِهِ يعود إلى ادّعائهم، أى: أم آتيناهم كتابا من قبل ادّعائهم ينطق بصحة ما يدّعونه، و الأوّل أولى. ثم بين سبحانه أنه لا حجة بأيديهم و لا شبهة؛ و لكنهم اتبعوا آباءهم فى الضلالة فقال: بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ فاعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم، و معنى على أمة: على طريقة و مذهب. قال أبو عبيد: هى الطريقة و الدين، و به قال قتادة و غيره. قال الجوهرى: و الأمة الطريقة و الدين، يقال فلان لا أمة له: أى لا دين له، و لا نحلة، و منه قول قيس بن الخطيم:

كنّا على أمّة آبائناو يقتدى الآخر بالأوّل

و قول الآخر:

و هل يستوى ذو أمّة و كفور و قال الفراء و قطرب: على قبلة. و قال الأخفش: على استقامة، و أنشد قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةو هل يأثمن ذو أمّة و هو طائع

فتح القدير، ج۴، ص: ۶٣٢

قرأ الجمهور أُمَّةٍ بضم الهمزة، و قرأ مجاهد، و قتادة، و عمر بن عبد العزيز بكسرها. قال الجوهرى: و الإمة بالكسر: النعمة، و الإمة: أيضا لغة فى الأمة، و منه قول عدىّ بن زيد:

ثمّ بعد الفلاح و الملك و الإمةوارتهم هناك قبور

ثم أخبر سبحانه أن غير هؤلاء من الكفار قد سبقهم إلى هذه المقالة و قال بها فقال: وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ

نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ مترفوها:
أغنياؤها و رؤساؤها، قال قتادة: مقتـدون متبعون، و معنى الاهتداء و الاقتداء متقارب، و خصـص المترفين تنبيها على أن التنعم هو سبب إهمال النظر. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يردّ عليهم، فقال: قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ أى: أ تتبعون آباءكم؛ و لو جئتكم بـدين أهـدى من دين آبائكم، قال الزجاج: المعنى قل لهم أ تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم و إن جئتكم بأهدى منه. قرأ الجمهور «قل أ و لو جئتكم» و قرأ ابن عامر و حفص قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ و هو حكايۀ لما جرى بين المنذرين و قومهم، أى: قال كلّ منذر من أولئك المنذرين لأمته، و قيل: إن كلا القراءتين حكايۀ لما جرى بين الأنبياء و قومهم، كأنه قال: لكل نبىّ قل، بـدليل قوله: قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ و هـذا من أعظم الأدلـۀ الدالۀ على بطلان التقليد و قبحه، فإن هؤلاء المقلدۀ فى الإسـلام إنما يعملون بقول أسلافهم، و يتبعون آثارهم، و يقتدون بهم، فإذا رام الداعى إلى الحق أن يخرجهم من ضـلالۀ أو يدفعهم عن بدعۀ قد تمسـكوا بها و ورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير و لا حجۀ واضحۀ، بل بمجرّد قال، و قيل: لشبهۀ داحضـۀ، و حجۀ زائفـۀ، و مقالـۀ باطلـۀ، قالوا بما قاله المترفون من هـذه الملل: إنا وجدنا آباءنا على أمۀ و إنا على آثارهم مقتـدون، أو بما يلاقى معناه معنى ذلک، فإن قال لهم الـداعى إلى الحقّ: قـد جمعتنا الملۀ الإسـلاميۀ و شـملنا هذا الدين المحمدى، و لم يتعبدنا اللّه و لا تعبدكم و لا تعبد آباءكم من قبلكم إلّا بكتابه الذى أنزله على رسوله و بما صحّ عن رسوله، فإنه المبين لكتـاب اللّه الموضـح لمعـانيه، الفـارق بين محكمه و متشـابهه، فتعـالوا نردّ ما تنازعنا فيه إلى كتاب اللّه و سـنۀ رسوله كما أمرنا اللّه بذلک فى كتابه بقوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ «۱» فإن الردّ إليهما أهدى لنا و لكم من الردّ إلى ما قاله أسـلافكم و درج عليه آباؤكم، نفروا نفور الوحوش، و رموا الـداعى لهم إلى ذلک بكل حجر و مـدر، كأنهم لم يسـمعوا قول اللّه سبحانه: إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا «۲» و لاـ قوله: فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً «۳» فإن قال لهم القائل: هـذا العالم الذى تقتدون به و تتبعون أقواله هو مثلكم فى كونه متعبدا بكتاب اللّه و سـنۀ رسوله، مطلوبا منه ما هو مطلوب منكم، و إذا عمل برأيه عنـد عـدم وجـدانه للدليل، فذلک رخصۀ له لا يحلّ أن يتبعه غيره عليها، و لا يجوز لهم العمل بها، و قد وجـدوا الـدليل الـذى لم يجده، و ها أنا أوجدكموه فى كتاب اللّه، أو فيما صحّ من سـنۀ رسوله، و ذلک أهدى لكم مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا: لا نعمل بهذا و لا سمع لک و لا طاعۀ، و وجدوا فى صدورهم أعظم

---

(۱). النساء: ۵۹.

(۲). النور: ۵۱.

(۳). النساء: ۶۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۳۳

الحرج من حكم الكتـاب و السـنۀ، و لم يسـلموا بـذلک و لاـ أذعنوا له، و قـد وهب لهم الشـيطان عصـا يتوكؤون عليهـا عنـد أن يسـمعوا من يـدعوهم إلى الكتاب و السـنۀ، و هى أنهم يقولون: إن إمامنا الـذى قلـدناه و اقتدينا به أعلم منک بكتاب اللّه و سـنۀ رسوله، و ذلـک لأـن أذهانهم قـد تصوّرت من يقتـدون به تصورا عظيما بسـبب تقـدّم العصـر و كثرۀ الأتباع، و ما علموا أن هـذا منقوض عليهم مـدفوع به فى وجوههم، فإنه لو قيل لهم إن فى التابعين من هو أعظم قدرا، و أقدم عصـرا من صاحبكم، فإن كان لتقدم العصـر و جلالۀ القدر مزيۀ حتى توجب الاقتداء، فتعالوا حتى أريكم من هو أقدم عصرا و أجلّ قدرا، فإن أبيتم ذلک، ففى الصـحابۀ رضـى اللّه عنهم من هو أعظم قدرا من صاحبكم علما و فضلا و جلالۀ قدر، فإن أبيتم ذلک، فها أنا أدلكم على من هو

أعظم قدرا و أجلّ خطرا و أكثر أتباعا و أقدم عصرا، و هو محمد بن عبد اللّه نبينا و نبيكم و رسول اللّه إلينا و إليكم فتعالوا فهذه سنته موجودة فى دفاتر الإسلام و دواوينه التى تلقتها جميع هذه الأمة قرنا بعد قرن و عصرا بعد عصر، و هذا كتاب ربنا خالق الكل و رازق الكل و موجد الكل بين أظهرنا موجود فى كل بيت، و بيد كل مسلم لم يلحقه تغيير و لا تبديل، و لا زيادة و لا نقص، و لا تحريف و لا تصحيف، و نحن و أنتم ممن يفهم ألفاظه و يتعقل معانيه، فتعالوا لنأخذ الحقّ من معدنه و نشرب صفو الماء من منبعه، فهو أهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا: لا سمع و لا طاعة، إما بلسان المقال أو بلسان الحال، فتدبر هذا و تأمله إن بقى فيك بقية من إنصاف و شعبة من خير و مزعة من حياء و حصة من دين و لا حول و لا قوّة إلا باللّه العلىّ العظيم. و قد أوضحت هذا غاية الإيضاح فى كتابى الذى سميته «أدب الطلب و منتهى الأرب» فارجع إليه إن رمت أن تجلى عنك ظلمات التعصب و تتقشع لك سحائب التقليد فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ و ذلك الانتقام: ما أوقعه اللّه بقوم نوح، و عاد، و ثمود فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ من تلك الأمم، فإن آثارهم موجودة وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ أى: و اذكر لهم وقت قوله لأبيه و قومه الذين قلدوا آباءهم و عبدوا الأصنام إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ البراء: مصدر نعت به للمبالغة، و هو يستعمل للواحد، و المثنى، و المجموع، و المذكر، و المؤنث. قال الجوهرى: و تبرأت من كذا و أنا منه براء و خلاء، لا يثنى و لا يجمع لأنه مصدر فى الأصل، ثم استثنى خالقه من البراءة فقال: إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي أى: خلقنى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ سيرشدنى لدينه و يثبتنى على الحق، و الاستثناء: إما منقطع، أى: لكن الذى فطرنى، أو: متصل من عموم ما، لأنهم كانوا يعبدون اللّه و الأصنام، و إخباره بأنه سيهديه جزما لثقته باللّه سبحانه، و قوّة يقينه وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ الضمير فى جعلها عائد إلى قوله: إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي و هى بمعنى التوحيد كأنه قال: و جعل كلمة التوحيد باقية فى عقب إبراهيم و هم ذرّيته، فلا يزال فيهم من يوحد اللّه سبحانه، و فاعل جعلها إبراهيم، و ذلك حيث وصاهم بالتوحيد و أمرهم بأن يدينوا به كما فى قوله: وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ «١» الآية، و قيل: الفاعل هو اللّه عزّ و جلّ، أى: و جعل اللّه عزّ و جلّ كلمة التوحيد باقية فى عقب إبراهيم، و العقب من بعد. قال مجاهد و قتادة: الكلمة لا إله إلا اللّه، لا يزال من عقبه من يعبد اللّه إلى يوم القيامة. و قال عكرمة:

---

(١). البقرة: ١٣٢.

هى الإسلام. قال ابن زيد: الكلمة هى قوله: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ «١» و جملة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ تعليل للجعل، أى: جعلها باقية رجاء أن يرجع إليها من يشرك منهم بدعاء من يوحد. و قيل: الضمير فى لعلهم راجع إلى أهل مكة، أى: لعلّ أهل مكة يرجعون إلى دينك الذى هو دين إبراهيم. و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: فإنه سيهدين لعلهم يرجعون و جعلها ... إلخ. قال السدّى: لعلهم يتوبون، فيرجعون عما هم عليه إلى عبادة اللّه، ثم ذكر سبحانه نعمته على قريش و من وافقهم من الكفار المعاصرين لهم فقال:

بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ أضرب عن الكلام الأوّل إلى ذكر ما متعهم به من الأنفس و الأهل و الأموال و أنواع النعم و ما متع به آباءهم و لم يعاجلهم بالعقوبة، فاغترّوا بالمهلة و أكبوا على الشهوات حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ يعنى القرآن وَ رَسُولٌ مُبِينٌ يعنى محمدا صلّى اللّه عليه و سلم، و معنى مبين ظاهر الرسالة واضحها، أو مبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين فلم يجيبوه و لم يعملوا بما أنزل عليه. ثم بين سبحانه ما صنعوه عند مجيء الحقّ فقال: وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ أى: جاحدون، فسموا القرآن سحرا و جحدوه. و استحقروا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ المراد بالقريتين: مكة، و الطائف، و بالرجلين: الوليد بن المغيرة من مكة، و عروة بن مسعود الثقفى من الطائف كذا قال

قتادة و غيره. و قال مجاهد و غيره: عتبة بن ربيعة من مكة، و عمير بن عبد ياليل الثقفى من الطائف، و قيل: غير ذلك. و ظاهر النظم أن المراد رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه واسع المال مسوّد فى قومه و المعنى: أنه لو كان قرآنا لنزل على رجل عظيم من عظماء القريتين، فأجاب اللّه سبحانه عنهم بقوله:

أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ يعنى: النبوّة أو ما هو أعمّ منها، و الاستفهام للإنكار. ثم بين أنه سبحانه هو الذى قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا فقال: نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا و لم نفوّض ذلك إليهم، و ليس لأحد من العباد أن يتحكم فى شىء بل الحكم للّه وحده، و إذا كان اللّه سبحانه هو الذى قسم بينهم أرزاقهم و رفع درجات بعضهم على بعض فكيف لا يقنعون بقسمته فى أمر النبوّة، و تفويضها إلى من يشاء من خلقه. قال مقاتل: يقول أ بأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا. قرأ الجمهور مَعِيشَتَهُمْ بالإفراد، و قرأ ابن عباس، و مجاهد، و ابن محيصن «معايشهم» بالجمع «و» معنى رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ أنه فاضل بينهم فجعل بعضهم أفضل من بعض فى الدنيا بالرزق، و الرياسة، و القوّة، و الحرية، و العقل، و العلم، ثم ذكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض، فقال:

لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا أى: ليستخدم بعضهم بعضا فيستخدم الغنىّ الفقير، و الرئيس المرؤوس، و القوىّ الضعيف، و الحرّ العبد، و العاقل من هو دونه فى العقل، و العالم الجاهل، و هذا فى غالب أحوال أهل الدنيا، و به تتمّ مصالحهم و ينتظم معاشهم و يصل كلّ واحد منهم إلى مطلوبه، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين، فجعل البعض محتاجا إلى البعض لتحصل المواساة بينهم فى متاع الدنيا، و يحتاج هذا إلى هذا، و يصنع هذا لهذا، و يعطى هذا هذا. قال السدّى و ابن زيد: سخريا: خولا و خداما، يسخر الأغنياء الفقراء

---

(١). البقرة: ١٣١.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٦٣٥

فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض. و قال قتادة و الضحاك: ليملك بعضهم بعضا، و قيل: هو من السخرية التى بمعنى الاستهزاء، و هذا و إن كان مطابقا للمعنى اللغوى، و لكنه بعيد من معنى القرآن، و مناف لما هو مقصود السياق وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ يعنى بالرحمة: ما أعدّه اللّه لعباده الصالحين فى الدار الآخرة، و قيل: هى النبوّة لأنها المراد بالرحمة المتقدّمة فى قوله: أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ و لا مانع من أن يراد كلّ ما يطلق عليه اسم الرحمة إما شمولا، أو بدلا، و معنى مِمَّا يَجْمَعُونَ ما يجمعونه من الأموال و سائر متاع الدنيا. ثم بين سبحانه حقارة الدنيا عنده فقال: وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً أى: لو لا أن يجتمعوا على الكفر ميلا إلى الدنيا و زخرفها لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ جمع الضمير فى بيوتهم و أفرده فى يكفر باعتبار معنى من و لفظها، و لبيوتهم بدل اشتمال من الموصول و السقف جمع سقف. قرأ الجمهور بضمّ السين و القاف كرهن و رهن. قال أبو عبيدة: و لا ثالث لهما. و قال الفراء: هو جمع سقيف نحو كثيب و كثب، و رغيف و رغف، و قيل: هو جمع سقوف، فيكون جمعا للجمع.

و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو بفتح السين و إسكان القاف على الإفراد و معناه الجمع لكونه للجنس. قال الحسن:

معنى الآية: لو لا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا و تركهم الآخرة لأعطيناهم فى الدنيا ما وصفناه لهوان الدنيا عند اللّه، و قال بهذا أكثر المفسرين. و قال ابن زيد: لو لا أن يكون الناس أمة واحدة فى طلب الدنيا و اختيارهم لها على الآخرة. و قال الكسائى: المعنى لو لا أن يكون فى الكفار غنىّ و فقير، و فى المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ المعارج: الدرج جمع معراج، و المعراج السلم. قال الأخفش: إن شئت جعلت الواحدة معرج و معرج، مثل:

مرقاة و مرقاة، و المعنى:

فجعلنا لهم معارج من فضة عليها يظهرون: أى: على المعارج يرتقون و يصعدون، يقال ظهرت على البيت:

أى علوت سطحه، و منه قول النابغة:

بلغنا السّماء مجدا و فخرا و سؤددا و إنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا

أى مصعدا وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً أى: و جعلنا لبيوتهم أبوابا من فضة و سررا من فضة عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ أى: على السرر و هو جمع سرير، و قيل: جمع أسرة فيكون جمعا للجمع، و الاتكاء و التوكؤ:

التحامل على الشيء، و منه أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها «۱» و اتكأ على الشيء فهو متكئ، و الموضع متكأ، و الزخرف:

الذهب. و قيل: الزينة أعمّ من أن تكون ذهبا أو غيره. قال ابن زيد: هو ما يتخذه الناس فى منازلهم من الأمتعة و الأثاث. و قال الحسن: النقوش و أصله الزينة، يقال: زخرفت الدار، أى: زينتها، وَ انتصاب زُخْرُفاً بفعل مقدّر، أى: و جعلنا لهم مع ذلك زخرفا، أو بنزع الخافض، أى: أبوابا و سررا من فضة و من ذهب، فلما حذف الخافض انتصب. ثم أخبر سبحانه أن جميع ذلك إنما يتمتع به فى الدنيا فقال:

وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا قرأ الجمهور لَمَّا بالتخفيف و قرأ عاصم و حمزة و هاشم عن ابن عامر بالتشديد. فعلى القراءة الأولى تكون إن هى المخففة من الثقيلة، و على القراءة الثانية هى النافية. و لما

---

(۱). طه: ۱۸.

بمعنى إلا، أى: ما كل ذلك إلا شيء يتمتع به فى الدنيا. و قرأ أبو رجاء بكسر اللام من «لما» على أن اللام للعلة و ما موصولة و العائدة محذوف، أى: للذى هو متاع وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ أى: لمن اتقى الشرك و المعاصى و آمن باللّه وحده و عمل بطاعته، فإنها الباقية التى لا تفنى، و نعيمها الدائم الذى لا يزول.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ قال: على دين. و أخرج عبد بن حميد عنه وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً قال: لا إله إلا اللّه فِي عَقِبِهِ قال: عقب إبراهيم ولده. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن مردويه عنه أيضا أنه سئل عن قول اللّه لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ما القريتان؟ قال: الطائف و مكة، قيل: فمن الرجلان؟ قال: عمير بن مسعود، و خيار قريش. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عنه أيضا قال: يعنى بالقريتين مكة و الطائف، و العظيم: الوليد بن المغيرة القرشى و حبيب بن عمير الثقفى. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال:

يعنون أشرف من محمد الوليد بن المغيرة من أهل مكة، و مسعود بن عمرو الثقفى من أهل الطائف. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً الآية يقول:

لو لا أن أجعل الناس كلهم كفارا لجعلت لبيوت الكفار سقفا من فضة و معارج من فضة، و هى درج عليها يصعدون إلى الغرف و سرر فضة، زخرفا: و هو الذهب. و أخرج الترمذى و صححه، و ابن ماجة عن سهل ابن سعد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لو كانت الدّنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء».

[سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۳۶ الى ۴۵]

وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (۳۶) وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۷)

حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ مَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٠)

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)

قوله: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ يقال عشوت إلى النار: قصدتها، و عشوت عنها: أعرضت عنها، كما تقول: عدلت إلى فلان، و عدلت عنه، و ملت إليه، و ملت عنه، كذا قال الفراء و الزجاج و أبو الهيثم و الأزهرى. فالمعنى: و من يعرض عن ذكر الرحمن. قال الزجاج: معنى الآية أن من أعرض عن القرآن و ما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلين يعاقبه اللّه بشيطان يقيضه له حتى يضله و يلازمه قرينا له، فلا يهتدى مجازاة له حين آثر الباطل على الحق البين. و قال الخليل: العشو النظر الضعيف، و منه:

لنعم الفتى يعشو إلى ضوء نارهإذا الرّيح هبّت و المكان جديب

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۳۷

و الظاهر أن معنى البيت القصد إلى النار لا النظر إليها ببصر ضعيف كما قال الخليل، فيكون دليلا على ما قدّمنا من أنه بمعنى القصد، و بمعنى الإعراض؛ و هكذا ما أنشده الخليل مستشهدا به على ما قاله من قول الحطيئة:

متى تأته تعشو إلى ضوء نارهتجد خير نار عندها خير موقد

فإن الظاهر أن معناه: تقصد إلى ضوء ناره، لا تنظر إليها ببصر ضعيف. و يمكن أن يقال: إن المعنى فى البيتين المبالغة فى ضوء النار و سطوعها، بحيث لا ينظرها الناظر إلا كما ينظر من هو معشى البصر لما يلحق بصره من الضعف عند ما يشاهده من عظم وقودها. و قال أبو عبيدة و الأخفش: إن معنى وَ مَنْ يَعْشُ و من تظلم عينه، و هو نحو قول الخليل، و هذا على قراءة الجمهور وَ مَنْ يَعْشُ بضم الشين من عشا يعشو.

و قرأ ابن عباس و عكرمة وَ مَنْ يَعْشُ بفتح الشين، يقال عشى الرجل يعشى عشيا إذا عمى، و منه قول الأعشى:

رأت رجلا غائب الوافدينمختلف الخلق أعشى ضريرا

و قال الجوهرى: و العشا مقصور مصدر الأعشى: و هو الذى لا يبصر بالليل و يبصر بالنهار، و المرأة عشواء. و قرئ «يعشو» بالواو على أن «من» موصولة غير متضمنة معنى الشرط. قرأ الجمهور نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً بالنون و قرأ السلمى، و ابن أبى إسحاق، و يعقوب، و عصمة عن عاصم و الأعمش بالتحتية مبنيا للفاعل، و قرأ ابن عباس بالتحتية مبنيا للمفعول و رفع شيطان على النيابة فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ أى:

ملازم له لا يفارقه، أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه، بل يتبعه فى جميع أموره و يطيعه فى كلّ ما يوسوس به إليه وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ أى: و إن الشياطين الذين يقيضهم اللّه لكلّ أحد ممن يعشو عن ذكر الرحمن كما هو معنىّ من لَيَصُدُّونَهُمْ أى يحولون بينهم و بين سبيل الحق و يمنعونهم منه، و يوسوسون لهم أنهم على الهدى حتى يظنون صدق ما يوسوسون به، و هو معنى قوله: وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ أى: يحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم، أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم فى أنفسهم مهتدون حَتَّى إِذا جاءَنا قرأ الجمهور بالتثنية، أى: الكافر، و الشيطان المقارن له، و قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الكسائى، و حفص بالإفراد، أى: الكافر أو جاء كلّ واحد منهم قالَ الكافر مخاطبا للشيطان يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ أى: بعد ما بين المشرق و المغرب، فغلب المشرق على المغرب.

قال مقاتل: يتمنى الكافر أن بينهما بعد مشرق أطول يوم فى السنة من مشرق أقصر يوم فى السنة، و الأوّل أولى، و به قال الفراء

فَبِئْسَ الْقَرِينُ المخصوص بالـذم محـذوف، أى: أنت أيها الشـيطان وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ هـذا حكايـة لما سـيقال لهم يوم القيامة إِذْ ظَلَمْتُمْ أى: لأجل ظلمكم أنفسـكم فى الـدنيا، و قيل إن: إِذْ بدل من اليوم لأنه تبين فى ذلك اليوم أنهم ظلموا أنفسـهم فى الدنيا. قرأ الجمهـور أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ بفتـح أن على أنهـا و مـا بعـدها فى محـلّ رفع على الفاعليـة، أى: لـن ينفعكم اليـوم اشتراككم فى العذاب. قال المفسرون: لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شىء من العذاب لأن لكلّ أحد من الكفار

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۳۸

و الشـياطين الحظ الأوفر منه. و قيل: إنها لنفى النفع، أى: لأن حقكم أن تشتركوا أنتم و قرناؤكم فى العـذاب كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا، و يقوّى هذا المعنى قراءة ابن عامر على اختلاف عليه فيها بكسر إن.

ثم ذكر سـبحانه أنهـا لاـ تنفع الـدعوة و الوعـظ من سـبقت له الشـقاوة فقـال: أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ الهمزة لإنكار التعجب، أى: ليس لك ذلك فلا يضـيق صدرك إن كفروا، و فيه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و إخبار له أنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه عزّ و جلّ، و قوله: وَ مَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ عطف على العمى، أى: إنك لا تهدى من كان كذلك، و معنى الآيـة: أن هؤلاـء الكفـار بمنزلـة الصمّ الـذين لاـ يعقلون ما جئت به، و بمنزلـة العمى الـذين لا يبصـرونه لإفراطهم فى الضـلالة و تمكنهم من الجهالـة فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ بـالموت قبـل أن ينزل العـذاب بهم فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ إما فى الـدنيا أو فى الآخرة، و قيل المعنى: نخرجنك من مكـة أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ من العـذاب قبل موتك فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ متى شـئنا عذبناهم. قال كثير من المفسرين: قد أراه اللّه ذلك يوم بدر. و قال الحسن و قتادة: هى فى أهل الإسلام يريد ما كان بعد النبى صلّى اللّه عليه و سلم من الفتن، و قد كان بعد النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلم فتنة شديدة، فأكرم اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم و ذهب به فلم يره فى أمته شيئا من ذلك، و الأوّل أولى فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ أى: من القرآن و إن كذّب به من كذّب إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أى: طريق واضح، و الجملة تعليل لقوله:

فَاسْتَمْسِكْ وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ أى: و إن القرآن لشـرف لك و لقومك من قريش إذ نزل عليك و أنت منهم بلغتك و لغتهم و مثله قوله: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ «۱» و قيل: بيان لك و لأمتك فيما لكم إليه حاجـة. و قيل: تذكرة تذكرون بها أمر الـدين و تعملون به وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ عما جعله اللّه لكم من الشـرف، كذا قال الزجاج و الكلبى و غيرهما. و قيل: يسـئلون عمـا يلزمهم من القيـام بمـا فيه و العمـل به وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنـا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ قال الزهرى، و سـعيد ابن جبير، و ابن زيـد: إن جبريـل قال ذلك للنبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلم لما أسرى به. فالمراد سؤال الأنبياء فى ذلك الوقت عنـد ملاقاته لهم، و به قال جماعة من السـلف. و قال المبرد، و الزجاج، و جماعة من العلماء: إن المعنى و اسأل أمم من قد أرسلنا. و به قال مجاهد، و السدّى، و الضحاك، و قتادة، و عطاء، و الحسن و معنى الآية على القولين:

سؤالهم هل أذن اللّه بعبادة الأوثان فى ملـة من الملل و هل سوّغ ذلك لأحـد منهم؟ و المقصود تقريع مشـركى قريش بأن ما هم عليه لم يأت فى شريعة من الشرائع.

و قـد أخرج ابن أبى حاتم عن محمـد بن عثمان المخزومى أن قريشا قالت: قيضوا لكل رجل من أصـحاب محمـد رجلا يأخـذه، فقيضوا لأبى بكر طلحة بن عبيد اللّه، فأتاه و هو فى القوم، فقال أبو بكر: إلام تدعونى؟

قال: أدعوك إلى عبادة اللات و العزّى. قال أبو بكر: و ما اللات؟ قال: أولاد اللّه. قال: و ما العزّى. قال:

بنات اللّه. قال أبو بكر: فمن أمهم؟ فسكت طلحة فلم يجبه، فقال لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت

---

(۱). الأنبياء: ۱۰.

القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه، فأنزل اللّه وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ الآية. و ثبت فى صحيح مسلم و غيره أن مع كل إنسان قرينا من الجنّ. و أخرج ابن مردويه عن علىّ فى قوله: فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ قال: ذهب نبيه صلّى اللّه عليه و سلم و بقيت نقمته فى عدوّه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ قال: يوم بدر. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب من طرق عنه فى قوله: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ قال: شرف لك و لقومك. و أخرج ابن عدىّ، و ابن مردويه عن علىّ، و ابن عباس قالا: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يعرض نفسه على القبائل بمكة و يعدهم الظهور، فإذا قالوا لمن الملك بعدك؟ أمسك فلم يجبهم بشىء لأنه لم يؤمر فى ذلك بشىء حتى نزلت وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ فكان إذا سئل قال لقريش فلا يجيبونه حتى قبلته الأنصار على ذلك. و أخرج عبد بن حميد من طريق الكلبى عن ابن عباس فى قوله: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا قال: اسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا.

[سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۴۶ الى ۵۶]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۶) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (۴۷) وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (۴۹) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (۵۰)

وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ (۵۲) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۵۴) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۵)

فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِينَ (۵۶)

لما أعلم اللّه سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عدوّه و ذكر اتفاق الأنبياء على التوحيد أتبعه بذكر قصة موسى، و فرعون و بيان ما نزل بفرعون و قومه من النقمة فقال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا و هى التسع التى تقدّم بيانها إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ الملأ: الأشراف فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ أرسلنى إليكم فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ استهزاء و سخرية، و جواب لما هو إذا الفجائية، لأن التقدر: فاجئوا وقت ضحكهم وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها أى: كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها، و أعظم قدرا مع كون التى قبلها عظيمة فى نفسها، و قيل المعنى: إن الأولى تقتضى علما، و الثانية تقتضى علما، فإذا ضمت الثانية إلى الأولى ازداد الوضوح، و معنى الأخوة بين الآيات: أنها متشاكلة متناسبة فى دلالتها على صحة نبوّة موسى كما يقال هذه صاحبة هذه، أى: هما قرينتان فى المعنى، و جملة إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها فى محل جرّ صفة لآية، و قيل المعنى: أن كل واحدة من الآيات إذا انفردت ظنّ الظانّ أنها أكبر من سائر الآيات، و مثل هذا قول القائل:

 من تلق منهم تقل لاقيت سيّدهم مثل النّجوم التى يسرى بها السّارى

وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بسبب تكذيبهم بتلك الآيات، و العذاب هو المذكور فى قوله:

وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ «۱» الآية، و بين سبحانه أن العلة فى أخذه لهم بالعذاب هو رجاء رجوعهم، و لما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات و الدلالات الواضحات ظنوا أن ذلك من قبيل السحر وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ و كانوا يسمون العلماء سحرة، و يوقرون السحرة و يعظمونهم، و لم يكن السحر صفة ذم عندهم. قال الزجاج: خاطبوه بما تقدّم له عندهم

من التسمیة بالساحر ادْعُ لَنا رَبَّکَ بِما عَهِدَ عِنْدَکَ أی: بما أخبرتنا من عهده إلیک إنا إذا آمنا کشف عنا العذاب، و قیل: المراد بالعهد النبوّة، و قیل: استجابة الدعوة علی العموم إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ أی إذا کشف عنا العذاب الذی نزل بنا فنحن مهتدون فیما یستقبل من الزمان، و مؤمنون بما جئت به فَلَمَّا کَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ یَنْکُثُونَ فی الکلام حذف، و التقدیر: فدعا موسی ربه فکشف عنهم العذاب فلما کشف عنهم العذاب فاجؤوا وقت نکثهم للعهد الذی جعلوه علی أنفسهم من الاهتداء، و النکث: النقض وَ نادی فِرْعَوْنُ فِی قَوْمِهِ قیل: لما رأی تلک الآیات خاف میل القوم إلی موسی، فجمعهم و نادی بصوته فیما بینهم أو أمر منادیا ینادی بقوله: یا قَوْمِ أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ لا ینازعنی فیه أحد و لا یخالفنی مخالف وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی أی:

من تحت قصری، و المراد أنهار النیل. و قال قتادة: المعنی تجری بین یدیّ. و قال الحسن: تجری بأمری:

أی تجری تحت أمری. و قال الضحاک: أراد بالأنهار: القوّاد و الرؤساء و الجبابرة و أنهم یسیرون تحت لوائه.

و قیل: أراد بالأنهار الأموال، و الأوّل أولی. و الواو فی وَ هذِهِ عاطفة علی ملک مصر، و تَجْرِی فی محلّ نصب علی الحال، أو هی واو الحال، و اسم الإشارة: مبتدأ، و الأنهار: صفة له، و تجری: خبره، و الجملة فی محل نصب أَ فَلا تُبْصِرُونَ ذلک و تستدلون به علی قوّة ملکی، و عظیم قدری، و ضعف موسی عن مقاومتی أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هذَا الَّذِی هُوَ مَهِینٌ أم هی المنقطعة المقدّرة ببل التی للإضراب دون الهمزة التی للإنکار، أی: بل أنا خیر، قال أبو عبیدة: أم بمعنی بل، و المعنی: قال فرعون لقومه: بل أنا خیر.

و قال الفراء: إن شئت جعلتها من الاستفهام الذی جعل بأم لاتصاله بکلام قبله، و قیل: هی زائدة، و حکی أبو زید عن العرب أنهم یجعلون أم زائدة، و المعنی: أنا خیر من هذا. و قال الأخفش: فی الکلام حذف، و المعنی: أفلا تبصرون أم تبصرون؟ ثم ابتدأ فقال: أَنَا خَیْرٌ و روی عن الخلیل و سیبویه نحو قول الأخفش، و یؤید هذا أن عیسی الثقفی و یعقوب الحضرمی وقفا علی أَمْ علی تقدیر أم تبصرون، فحذف لدلالة الأوّل علیه، و علی هذا فتکون أم متصلة لا منقطعة و الأوّل أولی. و مثله قول الشاعر الذی أنشده الفراء:

بدت مثل قرن الشمس فی رونق الضحیو صورتها أم أنت فی العین أملح

---

(۱). الأعراف: ۱۳۰.

فتح القدیر، ج‌۴، ص: ۶۴۱

أی: بل أنت. و حکی الفراء أن بعض القراء قرأ «أما أنا خیر» أی: أ لست خیرا من هذا الذی هو مهین: أی ضعیف حقیر ممتهن فی نفسه لا عزّ له وَ لا یَکادُ یُبِینُ الکلام لما فی لسانه من العقدة، و قد تقدم بیانه فی سورة طه فَلَوْ لا أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أی: فهلا حلی بأساورة الذهب إن کان عظیما، و کان الرجل فیهم إذا سوّدوه سوّروه بسوار من ذهب، و طوّقوه بطوق من ذهب.

قرأ الجمهور أَسْوِرَةٌ جمع أسورة جمع سوار. و قال أبو عمرو بن العلاء: واحد الأساورة و الأساور و الأساویر أسوار، و هی لغة فی سوار. و قرأ حفص أَسْوِرَةٌ جمع سوار، و قرأ أبیّ: أساور، و ابن مسعود أساویر. قال مجاهد:

کانوا إذا سوّدوا رجلا سوّروه بسوارین و طوّقوه بطوق ذهب علامة لسیادته أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِکَةُ مُقْتَرِنِینَ معطوف علی ألقی، و المعنی: هلا جاء معه الملائکة متتابعین متقارنین؛ إن کان صادقا یعینونه علی أمره و یشهدون له بالنبوّة، فأوهم اللعین قومه أن الرسل لا بدّ أن یکونوا علی هیئة الجبابرة، و محفوفین بالملائکة فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ أی: حملهم علی خفة الجهل و السفه بقوله، و کیده، و غروره.

فأطاعوه فیما أمرهم به، و قبلوا قوله و کذبوا موسی إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ أی: خارجین عن طاعة اللّه. قال ابن الأعرابی: المعنی

فاستجهل قومه فأطاعوه بخفة أحلامهم، و قلة عقولهم، يقال استخفه الفرح:

أى أزعجه، و استخفه: أى حمله، و منه وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ «١» و قيل استخفّ قومه: أى وجدهم خفاف العقول، و قد استخف بقومه و قهرهم حتى اتبعوه فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ قال المفسرون: أغضبونا، و الأسف: الغضب، و قيل: أشدّ الغضب، و قيل: السخط، و قيل المعنى: أغضبوا رسلنا. ثم بين العذاب الذى وقع به الانتقام فقال: فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ فى البحر فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً أى: قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار فى استحقاق العذاب. قرأ الجمهور: سلفا بفتح السين و اللام جمع سالف كخدم و خادم، و رصد و راصد، و حرس و حارس، يقال سلف يسلف: إذا تقدّم و مضى. قال الفراء و الزجاج: جعلناهم متقدّمين ليتعظ بهم الآخرون، و قرأ حمزة و الكسائى: سلفا بضم السين و اللام. قال الفراء: هو جمع سليف، نحو سرر و سرير. و قال أبو حاتم: هو جمع سلف نحو خشب و خشب. و قرأ على، و ابن مسعود، و علقمة، و أبو وائل، و النخعى، و حميد بن قيس بضم السين، و فتح اللام جمع سلفة، و هى:

الفرقة المتقدّمة نحو غرف و غرفة، كذا قال النضر بن شميل وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ أى: عبرة و موعظة لمن يأتى بعدهم، أو قصة عجيبة تجرى مجرى الأمثال.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يَكادُ يُبِينُ قال: كانت بموسى لثغة فى لسانه.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه فَلَمَّا آسَفُونا قال: أسخطونا. و أخرجا عنه أيضا آسفونا قال:

أغضبونا، و فى قوله: سَلَفاً قال: أهواء مختلفة. و أخرج أحمد، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب، و ابن أبى حاتم عن عقبة بن عامر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إذا رأيت اللّه يعطى العبد ما شاء و هو مقيم على معصية فإنما ذلك استدراج منه له، و قرأ فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ . و أخرج ابن المنذر،

---

(١). الروم: ٦٠.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٦٤٢

و ابن أبى حاتم عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد اللّه فذكر عنده موت الفجأة فقال: تخفيف على المؤمن و حسرة على الكافر، فلما آسفونا انتقمنا منهم.

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٥٧ الى ٧٣]

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٥٩) وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)

وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦)

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوابٍ وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (٧١)

وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (٧٣)

لما قال سبحانه وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ تعلق المشركون بأمر عيسى و قالوا: ما يريد محمد إلّا أن نتخذه إلها كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم، فأنزل اللّه وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا كذا قال قتادة و مجاهد. و قال الواحدى: أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت فى مجادلة ابن الزبعرى مع النبى صلّى اللّه عليه و سلم لما نزل قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ «١» فقال ابن الزبعرى: خصمتك و ربّ الكعبة، أ ليست النصارى يعبدون المسيح و اليهود عزيرا و بنو مليح الملائكة؟ ففرح بذلك من قوله، فأنزل اللّه إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ «٢» و نزلت هذه الآية المذكورة هنا، و قد مضى هذا فى سورة الأنبياء. و لا يخفاك أن ما قاله ابن الزبعرى مندفع من أصله و باطل برمته، فإن اللّه سبحانه قال: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ و لم يقل و من تعبدون حتى يدخل فى ذلك العقلاء كالمسيح، و عزير، و الملائكة إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ أى: إذا قومك يا محمد من ذلك المثل المضروب يصدّون، أى: يضجون و يصيحون فرحا بذلك المثل المضروب، و المراد بقوله هنا: كفار قريش. قرأ الجمهور «يصدّون» بكسر الصاد، و قرأ نافع، و ابن عامر، و الكسائى بضمها. قال الكسائى، و الفراء، و الزجاج، و الأخفش: هما لغتان و معناهما: يضجون قال الجوهرى: صدّ يصدّ صديدا: أى ضجّ.

و قيل: إنه بالضم الإعراض، و بالكسر من الضجيج، قاله قطرب. قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود

---

(١). الأنبياء: ٩٨.

(٢). الأنبياء: ١٠١.

عن الحق لقال: إذا قومك عنه يصدّون. قال الفراء: هما سواء منه و عنه. و قال أبو عبيدة: من ضم فمعناه يعدلون، و من كسر فمعناه يضجون وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ أى: أ آلهتنا خير أم المسيح؟ قال السدى و ابن زيد: خاصموه و قالوا: إن كان كل من عبد غير اللّه فى النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى و عزير و الملائكة. و قال قتادة: يعنون محمدا، أى: أ آلهتنا خير أم محمد؟ و يقوّى هذا قراءة ابن مسعود:

أ آلهتنا خير أم هذا. قرأ الجمهور بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، و قرأ الكوفيون و يعقوب بتحقيقها. ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا أى: ما ضربوا لك هذا المثل فى عيسى إلا ليجادلوك؛ على أن جدلا منتصب على العلة، أو مجادلين على أنه مصدر فى موضع الحال، و قرأ ابن مقسم «جدالا» بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ أى: شديد و الخصومة كثير و اللدد عظيمو الجدل. ثم بين سبحانه أن عيسى ليس بربّ، و إنما هو عبد من عباده اختصه بنبوّته فقال: إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ بما أكرمناه به وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ أى: آية و عبرة لهم يعرفون به قدرة اللّه سبحانه، فإنه كان من غير أب، و كان يحيى الموتى، و يبرئ الأكمه و الأبرص، و كل مريض وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ أى: لو نشاء أهلكناكم و جعلنا بدلا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون، أى: يخلفونكم فيها. قال الأزهرى: و من قد تكون للبدل كقوله: لَجَعَلْنا مِنْكُمْ يريد بدلا منكم. و قيل المعنى: لو نشاء لجعلنا من بنى آدم ملائكة. و الأوّل أولى. و مقصود الآية: أنا لو نشاء لأسكنا الملائكة الأرض و ليس فى إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا.

و قيل معنى «يخلفون» يخلف بعضهم بعضا وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ قال مجاهد و الضحاك و السدّى و قتادة:

إن المراد المسيح، و إن خروجه مما يعلم به قيام الساعة لكونه شرطا من أشراطها، لأن اللّه سبحانه ينزله من السماء قبيل قيام

الساعة، كما أن خروج الدّجال من أعلام الساعة. و قال الحسن و سعيد بن جبير: المراد القرآن، لأنه يدلّ على قرب مجيء الساعة، و به يعلم وقتها و أهوالها و أحوالها، و قيل المعنى: أن حدوث المسيح من غير أب، و إحياءه للموتى دليل على صحة البعث. و قيل: الضمير لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور «لعلم» بصيغة المصدر جعل المسيح علما مبالغة لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله، و قرأ ابن عباس، و أبو هريرة، و أبو مالك الغفاری، و قتادة، و مالك بن دينار، و الضحاك، و زيد بن على بفتح العين و اللام، أی: خروجه علم من أعلامها، و شرط من شروطها، و قرأ أبو نضرة و عكرمة: «و إنّه للعلم» بلامين مع فتح العين و اللام، أی: للعلامة التی يعرف بها قيام الساعة فَلا تَمْتَرُنَّ بِها أی: فلا تشكنّ فی وقوعها و لا تكذبنّ بها، فإنها كائنة لا محالة وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أی: اتبعونی فيما آمركم به من التوحيد و بطلان الشرک، و فرائض اللّه التی فرضها عليكم، هذا الذی آمركم به و أدعوكم إليه طريق قيم موصل إلى الحقّ.

قرأ الجمهور بحذف الياء من «اتبعون» وصلا و وقفا، و كذلك قرءوا بحذفها فی الحالين فی «أطيعون» و قرأ يعقوب بإثباتها وصلا و وقفا فيهما، و قرأ أبو عمرو و هی رواية عن نافع بحذفها فی الوصل دون الوقف وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ أی: لا تغتروا بوساوسه و شبهه التی يوقعها فی قلوبكم فيمنعكم ذلک من اتباعی، فإن الذی دعوتكم إليه هو دين اللّه الذی اتفق عليه رسله و كتبه. ثم علل نهيهم عن أن يصدّهم الشيطان ببيان عداوته

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۴۴

لهم فقال: إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ أی: مظهر لعداوته لكم غير متحاش عن ذلک و لا متكتم به كما يدلّ على ذلک ما وقع بينه و بين آدم و ما ألزم به نفسه من إغواء جميع بنی آدم إلا عباد اللّه المخلصين وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ أی: جاء إلى بنی إسرائيل بالمعجزات الواضحة و الشرائع. قال قتادة: البينات هنا: الإنجيل قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ أی: النبوّة، و قيل: الإنجيل، و قيل: ما يرغّب فی الجميل و يكفّ عن القبيح وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِی تَخْتَلِفُونَ فِيهِ من أحكام التوراة. و قال قتادة: يعنی اختلاف الفرق الذين تحزّبوا فی أمر عيسى. قال الزجاج: الذی جاء به عيسى فی الإنجيل إنما هو بعض الذی اختلفوا فيه، فبين لهم فی غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. و قيل: إن بنی إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى فی أشياء من أمر دينهم.

و قال أبو عبيدة: إن البعض هنا بمعنى الكلّ كما فی قوله: يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِی يَعِدُكُمْ و قال مقاتل:

هو كقوله: وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِی حُرِّمَ عَلَيْكُمْ يعنی ما أحلّ فی الإنجيل مما كان محرّما فی التوراة كلحم الإبل، و الشحم من كل حيوان، و صيد السمک يوم السبت، و اللام فی: وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ معطوفة على مقدّر كأنه قال: قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها و لأبين لكم. ثم أمرهم بالتقوى و الطاعة فقال:

فَاتَّقُوا اللَّهَ أی: اتقوا معاصيه وَ أَطِيعُونِ فيما آمركم به من التوحيد و الشرائع إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّی وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا بيان لما أمرهم بأن يطيعوه فيه هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أی عبادة اللّه وحده و العمل بشرائعه فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قال مجاهد و السدّی: الأحزاب هم أهل الكتاب من اليهود و النصارى. و قال الكلبی و مقاتل: هم فرق النصارى اختلفوا فی أمر عيسى. قال قتادة: و معنى «من بينهم»: أنهم اختلفوا فيما بينهم، و قيل: اختلفوا من بين من بعث إليهم من اليهود و النصارى، و الأحزاب هی الفرق المحزبة فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا من هؤلاء المختلفين، و هم الذين أشركوا باللّه، و لم يعملوا بشرائعه مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ أی: أليم عذابه و هو يوم القيامة هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أی: هل يرتقب هؤلاء الأحزاب و ينتظرون إلا الساعة أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً أی: فجأة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ أی: لا يفطنون بذلک، و قيل: المراد بالأحزاب: الذين تحزّبوا على النبیّ صلّى اللّه عليه و سلم و كذبوه، و هم المرادون بقوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ و الأوّل أولى الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ أی: الأخلاء فی الدنيا المتحابون فيها يوم تأتيهم الساعة بعضهم لبعض عدوّ، أی: يعادی بعضهم بعضا، لأنها قد انقطعت بينهم العلائق، و اشتغل كل واحد منهم بنفسه، و

وجدوا تلك الأمور التى كانوا فيها أخلاء أسبابا للعذاب فصاروا أعداء. ثم استثنى المتقين فقال: إِلَّا الْمُتَّقِينَ فإنهم أخلاء فى الدنيا و الآخرة، لأنهم وجدوا تلك الخلة التى كانت بينهم من أسباب الخير و الثواب، فبقيت خلتهم على حالها يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ أى: يقال لهؤلاء المتقين المتحابين فى اللّه بهذه المقالة فيذهب عند ذلك خوفهم، و يرتفع حزنهم الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ الموصول: يجوز أن يكون نعتا لعبادى، أو: بدلا منه، أو: عطف بيان له، أو:
مقطوعا عنه فى محل نصب على المدح، أو: فى محل رفع بالابتداء، و خبره: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ على تقدير:
يقال لهم ادخلوا الجنة. و الأوّل أولى، و به قال الزجاج. قال مقاتل: إذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد
فتح القدير، ج۴، ص: ۶۴۵
يا عبادى لا خوف عليكم، فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم، فيقال: الذين آمنوا بآياتنا و كانوا مسلمين فينكس أهل الأوثان رؤوسهم غير المسلمين. قرأ نافع، و ابن عامر، و أبو عمرو يا عبادى بإثبات الياء ساكنة وصلا و وقفا، و قرأ أبو بكر و زرّ بن حبيش بإثباتها و فتحها فى الحالين، و قرأ الباقون بحذفها فى الحالين ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ المراد بالأزواج نساؤهم المؤمنات، و قيل: قرناؤهم من المؤمنين، و قيل: زوجاتهم من الحور العين تُحْبَرُونَ تكرمون، و قيل: تنعمون، و قيل: تفرحون، و قيل: تسرون، و قيل:
تعجبون، و قيل: تلذذون بالسماع، و الأولى تفسير ذلك بالفرح و السرور الناشئين عن الكرامة و النعمة يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ الصحاف جمع صفحة: و هى القصعة الواسعة العريضة. قال الكسائى: أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة، و هى تشبع عشرة، ثم الصحفة، و هى تشبع خمسة، ثم المكيلة و هى تشبع الرجلين و الثلاثة، و المعنى: أن لهم فى الجنة أطعمة يطاف عليهم بها فى صحاف الذهب وَ لهم فيها أشربة يطاف عليهم بها فى ال أَكْوابٍ و هى جمع كوب. قال الجوهرى. الكوب كوز لا عروة له، و الجمع أكواب. قال الأعشى:
صريفيّة طيّب طعمهالها زبد بين كوب و دنّ
و قال آخر:
متّكئا تصفق أبوابهيسعى عليه العبد بالكوب
قال قتادة: الكوب المدوّر القصير العنق؛ القصير العروة، و الإبريق المستطيل العنق الطويل العروة. و قال الأخفش: الأكواب الأباريق التى لا خراطيم لها. و قال قطرب: هى الأباريق التى ليست لها عرا وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ قرأ الجمهور «تشتهى» و قرأ نافع و ابن عامر و حفص «تشتهيه» بإثبات الضمير العائد على الموصول، و المعنى: ما تشتهيه أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة و الأشربة و نحوهما مما تطلبه النفس و تهواه كائنا ما كان، و تلذ الأعين من كل المستلذات التى تستلذّ بها و تطلب مشاهدتها، تقول لذّ الشيء يلذ لذاذا و لذاذة: إذا وجده لذيذا و التذّ به، و فى مصحف عبد اللّه بن مسعود «تشتهيه الأنفس و تلذّه الأعين» وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ لا تموتون و لا تخرجون منها وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: يقال لهم يوم القيامة هذه المقالة: أى: صارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث بما كنتم تعملونه فى الدنيا من الأعمال الصالحة، و اسم الإشارة: مبتدأ، و الجنة: صفته، و التى أورثتموها: صفة للجنة، و الخبر: بما كنتم تعملون، و قيل الخبر: الموصول مع صلته، و الأوّل أولى لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ الفاكهة معروفة، و هى: الثمار كلها رطبها و يابسها، أى: لهم فى الجنة سوى الطعام و الشراب فاكهة كثيرة الأنواع و الأصناف مِنْها تَأْكُلُونَ من تبعيضية أو ابتدائية، و قدّم الجار لأجل الفاصلة.
و قد أخرج أحمد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال لقريش:
«إنه ليس أحد يعبد من دون اللّه فيه خير، قالوا: أ لست تزعم أن عيسى كان نبيا و عبدا من عباد اللّه

فتح القدير، ج ۴، ص: ۶۴۶

صالحا و قد عبدته النصارى؟ فإن كنت صادقا فإنه كآلهتهم، فأنزل اللّه وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ قلت: و ما يصدّون؟ قال: يضجون وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ قال: خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة». و أخرج سعيد بن منصور، و أحمد، و عبد بن حميد، و الترمذي و صححه، و ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبراني، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدال، ثم تلا هذه الآية ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا». و قد ورد في ذمّ الجدال بالباطل أحاديث كثيرة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس «أن المشركين أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقالوا: أ رأيت ما نعبد من دون اللّه أين هم؟

قال: في النار، قالوا: و الشمس و القمر؟ قال: و الشمس و القمر قالوا: فعيسى بن مريم قال: قال اللّه إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ. و أخرج الفريابي و سعيد بن منصور، و مسدّد، و عبد بن حميد، و ابن أبي حاتم، و الطبراني من طرق عنه في قوله: وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ قال:

خروج عيسى قبل يوم القيامة. و أخرجه الحاكم، و ابن مردويه عنه مرفوعا. و أخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة نحوه. و أخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام، و قلت الأنساب، و ذهبت الأخوة إلا الأخوة في اللّه، و ذلك قوله: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و حميد بن زنجويه في ترغيبه، و ابن جرير، و ابن أبي حاتم، و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب عن عليّ بن أبي طالب في قوله: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ قال: خليلان مؤمنان، و خليلان كافران توفي أحد المؤمنين فبشر بالجنة، فذكر خليله و قال: اللهم إن خليلي فلانا كان يأمرني بطاعتك و طاعة رسولك، و يأمرني بالخير، و ينهاني عن الشرّ، و ينبئني أني ملاقيك، اللهم لا تضله بعدي حتى تريه مثل ما أريتني، و ترضى عنه كما رضيت عني، فيقال له: اذهب؛ فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيرا، و لبكيت قليلا، ثم يموت الآخر فيجمع بين رواحهما فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، و نعم الصاحب، و نعم الخليل؛ و إذا مات أحد الكافرين بشر بالنار، فيذكر خليله، فيقول: اللهم إن خليلي فلانا كان يأمرني بمعصيتك و معصية رسولك، و يأمرني بالشرّ، و ينهاني عن الخير، و ينبئني أني غير ملاقيك، اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أريتني و تسخط عليه كما سخطت عليّ، فيموت الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليثن كلّ واحد منكما على صاحبه، فيقول كلّ منهما لصاحبه: بئس الأخ و بئس الصاحب و بئس الخليل، و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الأكواب الجرار من الفضة. و أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «ما من أحد إلا و له منزل في الجنة و منزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، و المؤمن يرث الكافر منزله في الجنة، و ذلك قوله: وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها.

فتح القدير، ج ۴، ص: ۶۴۷

[سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۷۴ الى ۸۹]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (۷۴) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۵) وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (۷۶) وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (۷۷) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (۷۸)

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (۷۹) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ بَلى وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (۸۰) قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (۸۱) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (۸۲) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا

يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (۸۳)
وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (۸۴) وَ تَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۵) وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۸۶) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (۸۷) وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (۸۸)
فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۸۹)

قوله: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ أى: أهل الإجرام الكفرية، كما يدل عليه إيرادهم فى مقابلة المؤمنين الذين لهم ما ذكره اللّه سبحانه قبل هذا فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ لا ينقطع عنهم العذاب أبدا لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ أى: لا يخفف عنهم ذلك العذاب، و الجملة فى محل نصب على الحال وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ أى: آيسون من النجاة، و قيل: ساكتون سكوت يأس، و قد مضى تحقيق معناه فى الأنعام وَ ما ظَلَمْناهُمْ أى: ما عذبناهم بغير ذنب، و لا بزيادة على ما يستحقونه وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ لأنفسهم بما فعلوا من الذنوب. قرأ الجمهور «الظّالمين» بالنصب على أنه خبر كان، و الضمير ضمير فصل. و قرأ أبو زيد النحوى «الظّالمون» بالرفع على أن الضمير: مبتدأ، و ما بعده: خبره، و الجملة خبر كان وَ نادَوْا يا مالِكُ أى: نادى المجرمون هذا النداء، و مالك هو خازن النار. قرأ الجمهور «يا مالك» بدون ترخيم. و قرأ علىّ، و ابن مسعود، و يحيى بن وثاب، و الأعمش «يا مال» بالترخيم لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ بالموت توسلوا بمالك إلى اللّه سبحانه ليسأله لهم أن يقضى عليهم بالموت ليستريحوا من العذاب قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ أى: مقيمون فى العذاب، قيل: سكت عن إجابتهم ثمانين سنة، ثم أجابهم بهذا الجواب، و قيل: سكت عنهم ألف عام، و قيل مائة سنة، و قيل أربعين سنة لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِ يحتمل أن يكون هذا من كلام اللّه سبحانه، و يحتمل أن يكون من كلام مالك، و الأوّل أظهر؛ و المعنى: إنا أرسلنا إليكم الرسل، و أنزلنا عليهم الكتب، فدعوكم فلم تقبلوا، و لم تصدّقوا، و هو معنى قوله: وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ لا يقبلونه، و المراد بالحق:
كل ما أمر اللّه به على ألسن رسله و أنزله فى كتبه. و قيل: هو خاص بالقرآن. و قيل و معنى أكثركم: كلكم.
و قيل: أراد الرؤساء و القادة، و من عداهم أتباع لهم أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ أم: هى المنقطعة التى بمعنى بل و الهمزة، أى: بل أ أبرموا أمرا. و فى ذلك انتقال من توجع أهل النار إلى حكاية ما يقع من هؤلاء، و إبرام: الإتقان و الإحكام، يقال أبرمت الشىء: أحكمته و أتقنته، و أبرم الحبل: إذا أحكم فتله، و المعنى:
بل أحكموا كيدا للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فإنا محكمون لهم كيدا قاله مجاهد، و قتادة، و ابن زيد، و مثل هذا قوله تعالى:
فتح القدير، ج۴، ص: ۶۴۸
أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ «۱» و قيل المعنى: أم قضوا أمرا فإنا قاضون عليهم أمرنا بالعذاب قاله الكلبى. أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ أى: بل أ يحسبون أنا لا نسمع ما يسرّون به فى أنفسهم، أو ما يتحدثون به سرّا فى مكان خال، و ما يتناجون به فيما بينهم بَلى نسمع ذلك و نعمل به وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ أى: الحفظة عندهم يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل، و الجملة فى محل نصب على الحال، أو معطوفة على الجملة التى تدلّ عليها بلى. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يقول للكفار قولا يلزمهم به الحجة و يقطع ما يوردونه من الشبهة فقال: قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ أى: إن كان له ولد فى قولكم و على زعمكم فأنا أوّل من عبد اللّه وحده، لأن من عبد اللّه وحده فقد دفع أن يكون له ولد، كذا قال ابن قتيبة. و قال الحسن و السدّى: إن المعنى ما كان للرحمن ولد، و يكون قوله: فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ ابتداء كلام، و قيل المعنى: قل يا محمد إن ثبت للّه ولد، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذى تزعمون ثبوته، و لكنه يستحيل أن يكون له ولد. و فيه نفى للولد على أبلغ وجه، و أتمّ عبارة، و أحسن أسلوب، و هذا هو الظاهر من النظم القرآنى، و من هذا القبيل قوله

تعالى: إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ «۲» و مثل هذا قول الرجل لمن يناظره: إن ثبت ما تقوله بالدليل فأنا أوّل من يعتقد و يقول به، فتكون «إن» فى «إن كان» شرطية، و رجح هذا ابن جرير و غيره. و قيل معنى العابدين: الآنفين من العبادة، و هو تكلف لا ملجئ إليه، و لكنه قرأ أبو عبد الرحمن اليمانى «العبدين» بغير ألف، يقال عبد يعبد عبدا بالتحريك: إذا أنف و غضب فهو عبد، و الاسم العبدة مثل الأنفة، و لعل الحامل لمن قرأ هذه القراءة الشاذة البعيدة هو استبعاد معنى فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ و ليس بمستبعد و لا مستنكر. و قد حكى الجوهرى عن أبى عمرو فى قوله: فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ أنه من الأنف و الغضب. و حكاه الماوردى عن الكسائى و القتبى، و به قال الفراء: و كذا قال ابن الأعرابى: إن معنى العابدين الغضاب الآنفين. و قال أبو عبيدة: معناه الجاحدين، و حكى عبدنى حقى: أى جحدنى، و قد أنشدوا على هذا المعنى الذى قالوه قول الفرزدق:

أولئك أحلاسى فجئنى بمثلهمو أعبد أن يهجى كليبا بدارم

و قوله أيضا:

أولئك ناس لو هجونى هجوتهمو أعبد أن يهجى كليب بدارم

و لا شك أن عبد و أعبد بمعنى أنف أو غضب ثابت فى لغة العرب و كفى بنقل هؤلاء الأئمة حجة، و لكن جعل ما فى القرآن من هذا من التكلف الذى لا ملجئ إليه و من التعسف الواضح. و قد ردّ ابن عرفة ما قالوه فقال: إنما يقال عبد يعبد فهو عبد، و قلّ ما يقال عابد و القرآن لا يأتى بالقليل من اللغة و لا الشاذ. قرأ الجمهور «ولد» بالإفراد، و قرأ أهل الكوفة إلا عاصما «ولد» بضم الواو و سكون اللام سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ أى: تنزيها له و تقديسا عما يقولون من الكذب بأن له ولدا و يفترون

---

(۱). الطور: ۴۲.

(۲). سبأ: ۲۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۴۹

عليه سبحانه ما لا يليق بجنابه، و هذا إن كان من كلام اللّه سبحانه فقد نزه عما قالوه، و إن كان من تمام كلام رسوله الذى أمره بأن يقوله فقد أمره بأن يضمّ إلى ما حكاه عنهم بزعمهم الباطل تنزيه ربه و تقديسه فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا أى: اترك الكفار حيث لم يهتدوا بما هديتهم به و لا أجابوك فيما دعوتهم إليه يخوضوا فى أباطيلهم، و يلهوا فى دنياهم حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ و هو يوم القيامة، و قيل: العذاب فى الدنيا، قيل: و هذا منسوخ بآية السيف، و قيل: هو غير منسوخ و إنما أخرج مخرج التهديد. قرأ الجمهور «يلاقوا» و قرأ مجاهد، و ابن محيصن، و ابن السميقع «حتّى يلقوا» بفتح الياء و إسكان اللام من غير ألف، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ الجار و المجرور فى الموضعين متعلق بإله لأنه بمعنى معبود أو مستحق للعبادة، و المعنى: و هو الذى معبود فى السماء و معبود فى الأرض، أو مستحق للعبادة فى السماء، و العبادة فى الأرض. قال أبو علىّ الفارسى: و إله فى الموضعين مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: و هو الذى فى السماء هو إله، و فى الأرض هو إله، و حسن حذفه لطول الكلام، قال: و المعنى على الإخبار بإلاهيته، لا على الكون فيهما. قال قتادة: يعبد فى السماء و الأرض، و قيل فى:

بمعنى على، أى: هو القادر على السماء و الأرض كما فى قوله: وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ «۱» و قرأ عمر ابن الخطاب، و علىّ بن أبى طالب، و ابن مسعود «و هو الذى فى السماء اللّه و فى الأرض اللّه» على تضمين العلم معنى المشتق فيتعلق به الجار و المجرور من هذه الحيثية وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ أى: البليغ الحكمة الكثير العلم وَ تَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما

بَيْنَهُما تبارك تفاعل من البركة و هى كثرة الخيرات، و المراد بما بينهما: الهواء و ما فيه من الحيوانات وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ أى: علم الوقت الذى يكون قيامها فيه وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فيجازى كلّ أحد بما يستحقه من خير و شرّ، و فيه وعيد شديد. قرأ الجمهور «ترجعون» بالفوقية، و قرأ ابن كثير، و حمزة، و الكسائى بالتحتية وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ أى: لا يملك من يدعونه من دون اللّه من الأصنام و نحوها الشفاعة عند اللّه كما يزعمون أنهم يشفعون لهم. قرأ الجمهور «يدعون» بالتحتية، و قرأ السلمى و ابن وثاب بالفوقية إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِ أى:

التوحيد وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أى: هم على علم و بصيرة بما شهدوا به، و الاستثناء يحتمل أن يكون متصلا، و المعنى: إلا من شهد بالحق، و هم المسيح و عزير و بصيرة بما شهدوا به، و الاستثناء يحتمل أن يكون متصلا، و المعنى: إلا من شهد بالحق، و هم المسيح و عزير و الملائكة، فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها. و قيل:

هو منقطع، و المعنى: لكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء. و يجوز أن يكون المستثنى منه محذوفا، أى:

لا يملكون الشفاعة فى أحد إلا فيمن شهد بالحق. قال سعيد بن جبير و غيره: معنى الآية: أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق، و آمن على علم و بصيرة. و قال قتادة: لا يشفعون لعابديها، بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية. و قيل: مدار الاتصال فى هذا الاستثناء على جعل الذين يدعون عاما لكل ما يعبد من دون اللّه، و مدار الانقطاع على جعله خاصا بالأصنام وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ اللام هى الموطئة للقسم، و المعنى: لئن سألت هؤلاء المشركين العابدين للأصنام من خلقهم أقرّوا و اعترفوا بأن خالقهم اللّه،

---

(١). طه: ٧١.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵۰

فتح القدير ج۴ ۶۶۷

و لا يقدرون على الإنكار، و لا يستطيعون الجحود لظهور الأمر و جلائه فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ أى: فكيف ينقلبون عن عبادة اللّه إلى عبادة غيره، و ينصرفون عنها مع هذا الاعتراف، فإن المعترف بأن اللّه خالقه إذا عمد إلى صنم، أو حيوان و عبده مع اللّه، أو عبده و حده فقد عبد بعض مخلوقات اللّه، و فى هذا من الجهل ما لا يقادر قدره. يقال أفكه يأفكه إفكا: إذا قلبه و صرفه عن الشىء. و قيل المعنى: و لئن سألت المسيح و عزيرا و الملائكة من خلقهم ليقولنّ اللّه، فأنى يؤفك هؤلاء الكفار فى اتخاذهم لها آلهة. و قيل المعنى: و لئن سألت العابدين و المعبودين جميعا. قرأ الجمهور وَ قِيلِهِ بالنصب عطفا على محلّ الساعة، كأنه قيل: إنه يعلم الساعة و يعلم قيله أو عطفا على سرّهم و نجواهم، أى: يعلم سرّهم و نجواهم و يعلم قيله، أو عطفا على مفعول يكتبون المحذوف، أى: يكتبون ذلك، و يكتبون قيله، أو عطفا على مفعول يعلمون المحذوف، أى:

يعلمون ذلك، و يعلمون قيله، أو هو مصدر، أى: قال قيله، أو منصوب بإضمار فعل، أى: اللّه يعلم قيل رسوله، أو هو معطوف على محل بالحقّ، أى: شهد بالحق و بقيله، أو منصوب على حذف حرف القسم.

و من المجوّزين للوجه الأوّل المبرد و ابن الأنبارى، و من المجوّزين للثانى الفراء و الأخفش، و من المجوّزين للنصب على المصدرية الفراء و الأخفش أيضا. و قرأ حمزة و عاصم «و قيله» بالجرّ عطفا على لفظ الساعة، أى: و عنده علم الساعة، و علم قيله، و القول و القال و القيل بمعنى واحد، أو: على أن الواو للقسم. و قرأ قتادة، و مجاهد، و الحسن، و أبو قلابة، و الأعرج، و ابن هرمز، و مسلم بن جندب «و قيله» بالرفع عطفا على علم الساعة، أى: و عنده علم الساعة، و عنده قيله، أو: على الابتداء، و خبره: الجملة المذكورة بعده، أو: خبره محذوف تقديره و قيله كيت و كيت، أو: و قيله مسموع. قال أبو عبيد: يقال قلت قولا و

قیلا و قالا، و الضمیر فی و قیله راجع إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلم. قال قتادة: هذا نبیکم یشکو قومه إلی ربه، و قیل: الضمیر عائد إلی المسیح، و علی الوجهین فالمعنی: أنه قال منادیا لربه یا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ الذین أرسلتنی إلیهم قَوْمٌ لا یُؤْمِنُونَ
ثم لما نادی ربه بهذا أجابه بقوله: فَاصْفَحْ عَنْهُمْ أی أعرض عن دعوتهم وَ قُلْ سَلامٌ أی: أمری تسلیم منکم، و متارکة لکم. قال عطاء: یرید مداراة حتی ینزل حکمی، و معناه: المتارکة. کقوله:
سَلامٌ عَلَیْکُمْ لا نَبْتَغِی الْجاهِلِینَ و قال قتادة: أمره بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم فصار الصفح منسوخا بالسیف، و قیل: هی محکمة لم تنسخ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ فیه تهدید شدید، و وعید عظیم من اللّه عزّ و جلّ.
قرأ الجمهور «یعلمون» بالتحتیة، و قرأ نافع و ابن عامر بالفوقیة. قال الفراء: إن سلام مرفوع بإضمار علیکم.
و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الحاکم و صححه، و البیهقی فی البعث و النشور عن ابن عباس فی قوله: وَ نادَوْا یا مالِکُ قال: یمکث عنهم ألف سنة ثم یجیبهم إِنَّکُمْ ماکِثُونَ و أخرج ابن جریر عن محمد بن کعب القرظی قال: بینا ثلاثة بین الکعبة و أستارها، قرشیان و ثقفی، أو ثقفیان و قرشی، فقال واحد منهم: ترون أن اللّه یسمع کلامنا؟ فقال واحد منهم: إذا جهرتم سمع، و إذا أسررتم لم یسمع، فنزلت أَمْ یَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ الآیة. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر و ابن أبی حاتم
فتح القدیر، ج۴، ص: ۶۵۱
عن ابن عباس فی قوله: إِنْ کانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ یقول: إن یکن للرحمن ولد فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِینَ قال: الشاهدین. و أخرج ابن جریر عن زید بن أسلم فی قوله: إِنْ کانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ قال: هذا معروف من کلام العرب إن کان هذا الأمر قط: أی ما کان. و أخرج ابن جریر عن قتادة نحوه.
فتح القدیر، ج۴، ص: ۶۵۲

سورة الدّخان

اشارة

هی تسع و خمسون، و قیل سبع و خمسون آیة، قال القرطبی هی مکیة باتفاق إلا قوله: إِنَّا کاشِفُوا الْعَذابِ و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس و عبد اللّه بن الزبیر أن سورة الدخان نزلت بمکة. و أخرج الترمذی، و البیهقی فی الشعب عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «من قرأ حم الدّخان فی لیلة أصبح یستغفر له سبعون ألف ملک». قال الترمذی بعد إخراجه: غریب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، و عمرو بن أبی خثعم ضعیف. قال البخاری: منکر الحدیث. و أخرج الترمذی، و محمد بن نصر، و ابن مردویه، و البیهقی عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «من قرأ حم الدّخان فی لیلة جمعة أصبح مغفورا له». قال الترمذی بعد إخراجه: غریب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، و هشام بن المقدام یضعّف، و الحسن لم یسمع من أبی هریرة، کذا قال أیوب، و یونس بن عبید، و علی بن زید، و یشهد له ما أخرجه ابن الضریس، و البیهقی عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فذکره، و ما أخرجه ابن الضریس عن الحسن مرفوعا بنحوه و هو مرسل، و ما أخرجه الدارمی، و محمد بن نصر عن أبی رافع قال: من قرأ الدّخان فی لیلة الجمعة أصبح مغفورا له و زوّج من الحور العین.
و أخرج ابن مردویه عن أبی أمامة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «من قرأ سورة حم الدّخان فی لیلة الجمعة أو یوم الجمعة بنی اللّه له بیتا فی الجنة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الدخان (۴۴): الآيات ۱ الى ۱۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (۳) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (۴)

أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۵) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۷) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۸) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (۹)

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (۱۰) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۱) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (۱۲) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (۱۳) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (۱۴)

إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (۱۵) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (۱۶)

قوله: حم وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ قد تقدّم في السورتين المتقدمتين قبل هذه السورة الكلام على هذا معنى و إعرابا، و قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ جواب القسم، و إن جعلت الجواب حم كانت هذه الجملة مستأنفة، و قد أنكر بعض النحويين أن تكون هذه الجملة جوابا للقسم لأنها صفة للمقسم به؛ و لا تكون صفة المقسم به جوابا للقسم، و قال الجواب إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ و اختاره ابن عطية، و قيل إن قوله:

إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ جواب ثان، أو: جملة مستأنفة مقرّرة للإنزال، و في حكم العلة له كأنه قال: إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار، و الضمير في أنزلناه راجع إلى الكتاب المبين و هو القرآن. و قيل: المراد بالكتاب سائر الكتب المنزّلة، و الضمير في أنزلناه راجع إلى القرآن على معنى أنه سبحانه أقسم بسائر الكتب المنزّلة أنه أنزل القرآن، و الأوّل أولى. و الليلة المباركة: ليلة القدر كما في قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ «۱» و لها أربعة أسماء: الليلة المباركة، و ليلة البراءة، و ليلة الصكّ، و ليلة القدر. قال عكرمة: الليلة المباركة هنا ليلة النصف من شعبان.

و قال قتادة: أنزل القرآن كله في ليلة القدر من أمّ الكتاب و هو اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة في سماء الدنيا، ثم أنزله اللّه سبحانه على نبيه صلّى اللّه عليه و سلم في الليالي و الأيام في ثلاث و عشرين سنة، و قد تقدّم تحقيق الكلام في هذا في البقرة عند قوله: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ «۲» و قال مقاتل: كان ينزل من اللوح كل ليلة قدر من الوحي على مقدار ما ينزل به جبريل في السنة إلى مثلها من العام، و وصف اللّه سبحانه هذه الليلة بأنها مباركة لنزول القرآن فيها، و هو مشتمل على مصالح الدين و الدنيا، و لكونها تتنزّل فيها الملائكة و الروح، كما سيأتي في سورة القدر، و من جملة بركتها ما ذكره اللّه سبحانه هاهنا بقوله: فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ و معنى يفرق: يفصل و يبين من قولهم: فرقت الشيء أفرقه فرقا، و الأمر الحكيم: المحكم، و ذلك أن اللّه سبحانه يكتب فيها ما يكون في السنة من حياة و موت و بسط و خير و شرّ و غير ذلك، كذا قال مجاهد و قتادة و الحسن و غيرهم: و هذه الجملة: إما صفة أخرى لليلة و ما بينهما اعتراض، أو: مستأنفة لتقرير ما قبلها. قرأ الجمهور «يفرق» بضمّ الياء و فتح الراء مخففا، و قرأ الحسن و الأعمش و الأعرج بفتح الياء و ضم الراء و نصب كل أمر و رفع حكيم على أنه الفاعل. و الحق ما ذهب إليه الجمهور من أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر لا ليلة النصف من شعبان، لأن اللّه سبحانه أجملها هنا و بينها في سورة البقرة شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ و بقوله في سورة القدر: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فلم يبق بعد هذا البيان الواضح ما يوجب الخلاف و لا ما يقتضي الاشتباه أَمْراً مِنْ عِنْدِنا قال الزجاج و الفراء: انتصاب أمرا بيفرق، أي: يفرق فرقا، لأن

أمرا بمعنى فرقا. و المعنى: إنا نأمر ببيان ذلك و نسخه من اللوح المحفوظ، فهو على هذا منتصب على المصدرية مثل قولك يضرب ضربا. قال المبرد: أمرا فى موضع المصدر، و التقدير أنزلناه إنزالا. و قال الأخفش: انتصابه على الحال، أى: آمرين. و قيل: هو منصوب على الاختصاص، أى: أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا، و فيه تفخيم لشأن القرآن، و تعظيم له. و قد ذكر بعض أهل العلم فى انتصاب أمرا اثنى عشر وجها أظهرها ما ذكرناه. و قرأ زيد بن على «أمر» بالرفع، أى: هو أمر إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ هذه الجملة: إما بدل من قوله: إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ أو: جواب ثالث للقسم، أو: مستأنفة، قال الرازى: المعنى إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل إنا كنا مرسلين للأنبياء رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ انتصاب رحمة على العلة، أى: أنزلناه للرحمة، قاله الزجاج. و قال المبرد: إنها منتصبة على أنها مفعول لمرسلين، أى: إنا كنا مرسلين رحمة. و قيل: هى مصدر فى موضع الحال، أى: راحمين، قاله الأخفش. و قرأ الحسن «رحمة» بالرفع على تقدير: هى رحمة

---

(۱). القدر: ۱.

(۲). البقرة: ۱۸۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵۴

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لمن دعاه الْعَلِيمُ بكل شىء. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدلّ على عظيم قدرته الباهرة فقال: رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما قرأ الجمهور «رب» بالرفع عطفا على السميع العليم، أو: على أنه مبتدأ، و خبره: لا إله إلا هو، أو: على أنه خبر، لمبتدأ محذوف، أى: هو ربّ، و قرأ الكوفيون رَبِ بالجرّ: على أنه بدل من ربك، أو: بيان له، أو نعت إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ بأنه ربّ السموات و الأرض و ما بينهما، و قد أقرّوا بذلك كما حكاه اللّه عنهم فى غير موضع، و جملة: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ مستأنفة مقرّرة لما قبلها، أو خبر ربّ السموات كما مرّ، و كذلك جملة: يُحْيِي وَ يُمِيتُ فإنها مستأنفة مقرّرة لما قبلها رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قرأ الجمهور بالرفع على الاستئناف بتقدير مبتدأ، أى: هو ربكم، أو: على أنه بدل من ربّ السموات، أو: بيان، أو نعت له، و قرأ الكسائى فى رواية الشيرازى عنه، و ابن محيصن، و ابن أبى إسحاق، و أبو حيوة، و الحسن بالجرّ، و وجه الجرّ ما ذكرناه فى قراءة من قرأ بالجرّ فى ربّ السموات بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ أضرب عن كونهم موقنين إلى كونهم فى شكّ من التوحيد و البعث، و فى إقرارهم بأن اللّه خلقهم، و خالق سائر المخلوقات، و أن ذلك منهم على طريقة اللعب و الهزو، و محلّ يلعبون: الرفع على أنه خبر ثان، أو: النصب على الحال فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لأن كونهم فى شك و لعب يقتضى ذلك؛ و المعنى: فانتظر لهم يا محمد يوم تأتى السماء بدخان مبين، و قيل المعنى: احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتى السماء بدخان مبين.

و قد اختلف فى هذا الدخان المذكور فى الآية متى يأتى؟ فقيل إنه من أشراط الساعة، و أنه يمكث فى الأرض أربعين يوما. و قد ثبت فى الصحيح أنه من جملة العشر الآيات التى تكون قبل قيام الساعة، و قيل: إنه أمر قد مضى، و هو ما أصاب قريشا بدعاء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم حتى كان الرجل يرى بين السماء و الأرض دخانا، و هذا ثابت فى الصحيحين و غيرهما: و ذلك حين دعا عليهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم قحط و جهد حتى أكلوا العظام، و كان الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه و بينها كهيئة الدخان من الجهد، و قيل: إنه يوم فتح مكة، و سيأتى فى آخر البحث بيان ما يدلّ على هذه الأقوال. و قوله: يَغْشَى النَّاسَ صفة ثانية لدخان، أى: يشملهم، و يحيط بهم هذا عَذابٌ أَلِيمٌ أى: يقولون هذا عذاب أليم، أو: قائلين ذلك، أو: يقول اللّه لهم ذلك رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ أى: يقولون ذلك، و قد روى أنهم أتوا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و قالوا: إن كشف اللّه عنا هذا العذاب أسلمنا، و المراد بالعذاب الجوع الذى كان بسببه ما يرونه من الدخان، أو

يقولونه إذا رأوا الـدخان الـذى هو من آيات الساعـۀ، أو إذا رأوه يوم فتـح مكـۀ على اختلاف الأقوال. و الراجح منها أنه الدخان الـذى كـانوا يتخيلونه مما نزل بهم من الجهـد، و شـدّۀ الجوع، و لا ينافى ترجيـح هـذا ما ورد أن الـدخان من آيات الساعـۀ، فإن ذلك دخان آخر و لا ينافيه أيضا ما قيل إنه الـذى كان يوم فتح مكۀ، فإنه دخان آخر على تقدير صـحۀ وقوعه أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى أى: كيف يتذكرون و يتعظون بما نزل بهم وَ الحال أن قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ يبين لهم كل شـىء يحتاجون إليه من أمر الدين و الدنيا

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵۵

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ أى: أعرضوا عن ذلك الرسول الذى جاءهم، و لم يكتفوا بمجرّد الإعراض عنه، بل جاوزوه وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ أى: قـالوا: إنمـا يعلمه القرآن بشـر و قـالوا إنه مجنون، فكيف يتـذكر هؤلاء و أنى لهم الـذكرى. ثم لمـا دعوا اللّه بـأن يكشف عنهم العذاب و أنه إذا كشـفه عنهم آمنوا أجاب سبحانه عليهم بقوله: إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا أى: إنا نكشفه عنهم كشفا قليلا، أو زمانا قليلا- ثم أخبر اللّه سبحانه عنهم أنهم لا- ينزجرون عمـا كـانوا عليه من الشـرك، و لا يفون بما وعـدوا به من الإيمان فقال: إِنَّكُمْ عائِدُونَ أى: إلى ما كنتم عليه من الشـرك، و قد كان الأمر هكذا، فإن اللّه سـبحانه لما كشف عنهم ذلك العذاب رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر و العناد، و قيل المعنى: إنكم عائـدون إلينا بالبعث و النشور، و الأوّل أولى يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى الظرف منصوب بإضمار اذكر، و قيل: هو بدل من يوم تأتى السماء، و قيل:

هو متعلق بمنتقمون، و قيل: بما دلّ عليه منتقمون و هو ننتقم. و البطشۀ الكبرى: هى يوم بدر، قاله الأكثر.

و المعنى: أنهم لما عادوا إلى التكـذيب و الكفر بعـد رفع العـذاب عنهم انتقم اللّه منهم بوقعۀ بدر. و قال الحسن و عكرمۀ: المراد بها عذاب النار، و اختار هذا الزجاج، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور نَبْطِشُ بفتح النون و كسر الطاء: أى: نبطش بهم، و قرأ الحسن و أبو جعفر بضم الطاء و هى لغۀ، و قرأ أبو رجاء و طلحۀ بضم النون و كسر الطاء.

و قـد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ قال: أنزل القرآن فى ليلۀ القدر و نزل به جبريل على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم نجوما لجواب الناس. و أخرج محمد بن نصـر، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ قـال: يكتب من أمّ الكتاب فى ليلـۀ القـدر ما يكون فى السـنۀ من رزق و موت، و حياۀ و مطر، حتى يكتب الحاج: يحـج فلان، و يحج فلان. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ قال: أمر السـنۀ إلى السـنۀ إلا الشـقاء و السعادۀ، فإنه فى كتـاب اللّه لا يبـدّل و لا يغير. و أخرج عبـد بن حميـد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صـححه، و البيهقى فى الشـعب [عن ابن عباس «۱» قال: إنك لترى الرجل يمشـى فى الأسواق و قـد وقع اسـمه فى الموتى ثم قرأ إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ الآيۀ، يعنى ليلـۀ القـدر، قـال: ففى تلك الليلـۀ يفرق أمر الـدنيا إلى مثلها من قابل من موت أو حياۀ أو رزق، كل أمر الـدنيا يفرق تلك الليلۀ إلى مثلها. و أخرج ابن زنجويه و الديلمى عن أبى هريرۀ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«تقطع الآجال من شـعبان إلى شـعبان، حتى إن الرجل لينكـح و يولد له و قد خرج اسـمه فى الموتى». و أخرجه ابن أبى الدنيا، و ابن جرير عن عثمـان بن محمـد بن المغيرۀ بن الأخنس، و هـذا مرسل و لا تقوم به حجـۀ و لا تعارض بمثله صـرائح القرآن. و ما روى فى هذا فهو إما مرسل أو غير صحيح. و قد أورد ذلك صاحب الدرّ المنثور.

و أورد ما ورد فى فضل ليلۀ النصف من شعبان، و ذلك لا يستلزم أنها المراد بقوله فى ليلۀ مباركۀ. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن ابن مسـعود أن قريشا لما اسـتعصت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أبطئوا عن الإسلام قال: اللهمّ أعنى عليهم بسـبع كسـبع يوسف، فأصابهم قحط و جهـد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السـماء فيرى ما بينه و بينها كهيئۀ الدخان من الجوع، فأنزل اللّه فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ

(۱). ما بين حاصرتين مستدرك من: الدر المنثور (۷/ ۴۰۰)

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵۶

مُبِينٌ الآيهٔ، فأتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فقيل: يا رسول اللّه استسق اللّه لمضر، فاستسقى لهم فسقوا، فأنزل اللّه إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ فلما أصابتهم الرفاهيهٔ عادوا إلى حالهم، فأنزل اللّه يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ فانتقم اللّه منهم يوم بدر، فقد مضى البطشهٔ و الدخان و اللزام. و قد روى عن ابن مسعود نحو هذا من غير وجه، و روى نحوه عن جماعهٔ من التابعين. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم عن ابن أبى مليكهٔ قال: دخلت على ابن عباس فقال: لم أنم هذه الليلهٔ، فقلت لم؟ قال: طلع الكوكب فخشيت أن يطرق الدخان. قال ابن كثير: و هذا إسناد صحيح، و كذا صححه السيوطى و لكن ليس فيه أنه سبب نزول الآيهٔ. و قد عرّفناک أنه لا منافاهٔ بين كون هذه الآيهٔ نازلهٔ فى الدخان الذى كان يتراءى لقريش من الجوع، و بين كون الدّخان من آيات الساعهٔ و علاماتها و أشراطها.

فقد وردت أحاديث صحاح و حسان و ضعاف بذلک، و ليس فيها أنه سبب نزول الآيهٔ، فلا حاجهٔ بنا إلى التطويل بذكرها، و الواجب التمسک بما ثبت فى الصحيحين و غيرهما أن دخان قريش عند الجهد و الجوع هو سبب النزول، و بهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجح أنه الدخان الذى هو من أشراط الساعهٔ كابن كثير فى تفسيره و غيره، و هكذا يندفع قول من قال إنه الدخان الكائن يوم فتح مكهٔ متمسكا بما أخرجه ابن سعد عن أبى هريرهٔ قال: كان يوم فتح مكهٔ دخان و هو قول اللّه فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ فإن هذا لا يعارض ما فى الصحيحين على تقدير صحهٔ إسناده مع احتمال أن يكون أبو هريرهٔ رضى اللّه عنه ظنّ من وقوع ذلک الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآيهٔ، و لهذا لم يصرّح بأنه سبب نزولها. و أخرج ابن جرير عن عكرمهٔ قال: قال ابن عباس قال ابن مسعود: البطشهٔ الكبرى يوم بدر و أنا أقول هى يوم القيامهٔ. قال ابن كثير: و هذا إسناد صحيح. و قال ابن كثير قبل هذا: فسر ذلک ابن مسعود بيوم بدر، و هذا قول جماعهٔ ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدّخان بما تقدّم، و روى أيضا عن ابن عباس من روايهٔ العوفى عنه و عن أبىّ ابن كعب و جماعهٔ و هو محتمل. و الظاهر أن ذلک يوم القيامهٔ و إن كان يوم بدر يوم بطشه كبرى أيضا انتهى.

قلت: بل الظاهر أنه يوم بدر، و إن كان يوم القيامهٔ يوم بطشه أكبر من كل بطشهٔ، فإن السياق مع قريش، فتفسيره بالبطشهٔ الخاصهٔ بهم أولى من تفسيره بالبطشهٔ التى تكون يوم القيامهٔ لكل عاص من الإنس و الجنّ.

[سورهٔ الدخان (۴۴): الآيات ۱۷ الى ۳۷]

وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (۱۷) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۸) وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۱۹) وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (۲۰) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (۲۱)

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (۲۲) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۲۳) وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (۲۴) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۲۵) وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (۲۶)

وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (۲۷) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (۲۸) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ (۲۹) وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (۳۰) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (۳۱)

وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (۳۲) وَ آتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (۳۳) إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (۳۴) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (۳۵) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۶)

أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (۳۷)

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵۷

قوله: وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أى: ابتليناهم، و معنى الفتنة هنا أن اللّه سبحانه أرسل إليهم رسله، و أمروهم بما شرعه لهم فكذبوهم، أو وسع عليهم الأرزاق فطغوا و بغوا. قال الزجاج: بلوناهم، و المعنى: عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسل إليهم، و قرئ فَتَّنَّا بالتشديد وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أى: كريم على اللّه كريم فى قومه. و قال مقاتل: حسن الخلق بالتجاوز و الصفح. و قال الفراء: كريم على ربه إذ اختصه بالنبوّة أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ أن هذه هى المفسرة لتقدّم ما هو بمعنى القول، و يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، و المعنى: أن الشأن و الحديث أدّوا إلىّ عباد اللّه، و يجوز أن تكون مصدرية، أى:

بأن أدّوا؛ و المعنى: أنه طلب منهم أن يسلموا إليه بنى إسرائيل. قال مجاهد: المعنى أرسلوا معى عباد اللّه و أطلقوهم من العذاب، فعباد اللّه على هذا مفعول به. و قيل: المعنى: أدّوا إلىّ عباد اللّه ما وجب عليكم من حقوق اللّه، فيكون منصوبا على أنه منادى مضاف. و قيل: أدّوا إلىّ سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربكم إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ هو تعليل لما تقدّم، أى: رسول من اللّه إليكم أمين على الرسالة غير متهم وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ أى: لا تتجبروا و تتكبروا عليه بترفعكم عن طاعته، و متابعة رسله، و قيل: لا تبغوا على اللّه، و قيل: لا تفتروا عليه، و الأوّل أولى، و به قال ابن جريج، و يحيى بن سلام، و جملة: إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ تعليل لما قبله من النهى، أى: بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها. و قال قتادة: بعذر بين.

و الأوّل أولى، و به قال يحيى بن سلام. قرأ الجمهور بكسر همزة إِنِّي و قرئ بالفتح بتقدير اللام وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ استعاذ باللّه سبحانه لما توعدوه بالقتل، و المعنى: من أن ترجمون. قال قتادة: ترجمونى بالحجارة، و قيل: تشتمون، و قيل: تقتلون وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ أى: إن لم تصدّقونى؛ و تقرّوا بنبوّتى؛ فاتركونى و لا تتعرّضوا لى بأذى. قال مقاتل: دعونى كفافا لا علىّ و لا لى، و قيل: كونوا بمعزل عنى، و أنا بمعزل منكم إلى أن يحكم اللّه بيننا، و قيل: فخلوا سبيلى، و المعنى متقارب.

ثم لما لم يصدّقوه و لم يجيبوا دعوته، رجع إلى ربه بالدعاء كما حكى اللّه عنه بقوله: فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على إضمار حرف الجرّ: أى: دعاه بأن هؤلاء، و قرأ الحسن، و ابن أبى إسحاق، و عيسى بن عمر بكسرها على إضمار القول، و فى الكلام حذف، أى: فكفروا فدعا ربه، و المجرمون: الكافرون، و سماه دعاء مع أنه لم يذكر إلا مجرّد كونهم مجرمين، لأنهم قد استحقوا بذلك الدعاء عليهم فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا أجاب اللّه سبحانه دعاءه، فأمره أن يسرى ببنى إسرائيل ليلا يقال سرى و أسرى لغتان، قرأ الجمهور فَأَسْرِ بالقطع، و قرأ أهل الحجاز بالوصل، و وافقهم ابن كثير، فالقراءة الأولى من أسرى، و الثانية من سرى، و الجملة بتقدير القول: أى فقال اللّه لموسى أسر بعبادى إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵۸

أى: يتبعكم فرعون و جنوده، و قد تقدّم فى غير موضع خروج فرعون بعدهم وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً أى: ساكنا، يقال رها يرهو رهوا: إذا سكن لا يتحرّك. قال الجوهرى: يقال افعل ذلك رهوا، أى: ساكنا على هيئتك، و عيش راه: أى ساكن، و رها البحر سكن، و كذا قال الهروى و غيره، و هو المعروف فى اللغة، و منه قول الشاعر:

و الخيل تمرح رهوا فى أعنّتهاكالطير تنجو من الشرنوب ذى الوبر

أى: و الخيل تمرح فى أعنتها ساكنة، و المعنى: اترك البحر ساكنا على صفته بعد أن ضربته بعصاك، و لا تأمره أن يرجع كما كان ليدخله آل فرعون بعدك و بعد بنى إسرائيل فينطبق عليهم فيغرقون. و قال أبو عبيدة:

رها بين رجليه يرهو رهوا: أى فتح .. قال، و منه قوله: وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً و المعنى: اتركه منفرجا كما كان بعد دخولكم فيه، و

كـذا قال أبو عبيـد: و به قال مجاهـد و غيره. قال ابن عرفـة: و هما يرجعان إلى معنى واحـد، و إن اختلف لفظاهما، لأن البحر إذا سكن جريه انفرج. قـال الهروى: و يجوز أن يكون رهوا نعتـا لموسـى، أى: سـر ساكنـا على هيئتك. و قال كعب و الحسن رهوا: طريقا. و قال الضحاك: و الربيع سهلا.
و قال عكرمة: يبسا كقوله: فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً و على كل تقدير، فالمعنى اتركه ذا رهو أو اتركه رهوا على المبالغة فى الوصف بالمصدر إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ أى: إن فرعون و قومه مغرقون.
أخبر سـبحانه موسـى بـذلك ليسـكن قلبه و يطمئن جأشه. قرأ الجمهور بكسـر إن على الاستئناف لقصـد الإخبار بـذلك، و قرئ بالفتح على تقدير لأنهم كَمْ هى الخبرية المفيدة للتكثير، و قد مضى الكلام فى معنى الآية فى سورة الشعراء. قرأ الجمهور وَ مَقامٍ بفتـح الميم على أنه اسم مكان للقيام، و قرأ ابن هرمز، و قتادة، و ابن السـميقع، و روى عن نافع بضـمها اسم مكان الإقامة وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ النعمة بالفتح التنعم: يقال نعمه اللّه و ناعمه فتنعم، و بالكسر المنة، و ما أنعم به عليك، و فلان واسع النعمة: أى واسع المـال ذكر معنى هـذا الجوهرى. قرأ الجمهور فـاكِهِينَ بالألـف. و قرأ أبو رجاء، و الحسن، و أبو الأشـهب، و الأعرج، و أبو جعفر، و شـيبة «فكهين» بغير ألف، و المعنى على القراءة الأولى: متنعمين طيبة أنفسـهم، و على القراءة الثانية: أشـرين بطرين. قال الجوهرى: فكه الرجل بالكسـر فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحا، و الفكه أيضا: الأشر البطر. قال: و فاكهين: أى ناعمين. و قال الثعلبى: هما لغتان كالحاذر و الحذر، و الفاره و الفره. و قيل إن الفاكه: هو المسـتمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ الكاف فى محل رفع على أنها خبر لمبتـدأ محـذوف. قال الزجاج: أى الأمر كذلك، و يجوز أن تكون فى محـل نصب، و الإشـارة إلى مصـدر فعـل يـدلّ عليه تركوا، أى: مثـل ذلـك السـلب سـلبناهم إياهـا، و قيل: مثل ذلك الإخراج أخرجنـاهم منهـا، و قيـل: مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم. فعلى الوجه الأوّل يكون قوله: وَ أَوْرَثْناها معطوفا على تَرَكُوا و على الوجوه الآخرة يكون معطوفا على الفعل المقـدّر. و المراد بالقوم الآخرين بنو إسـرائيل، فإن اللّه سـبحانه ملكهم أرض مصـر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين: أى أنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث، و مثل هذا قوله:
فتح القدير، ج‌۴، ص: ۶۵۹
وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا «۱» فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ هـذا بيان لعـدم الاكتراث بهلاكهم: قال المفسـرون: أى إنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملا صالحا تبكى عليهم به و لم يصـعد لهم إلى السماء عمل طيب تبكى عليهم به، و المعنى: أنه لم يصب بفقـدهم و هلاكهم أحـد من أهـل السـماء و لا من أهـل الأرض، و كانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء و الأرض، أى:
عمت مصيبته، و من ذلك قول جرير:
لمّا أتى خبر الزّبير تواضعتسور المدينة و الجبال الخشّع
و منه قول النابغة:
بكى حارث الجولان من فقد ربّهو حوران منه خاشع متضائل
و قال الحسن: فى الكلام مضاف محذوف: أى ما بكى عليهم أهل السماء و الأرض من الملائكة و الناس.
و قـال مجاهـد: إن السـماء و الأرض تبكيان على المؤمن أربعين صـباحا، و قيل إنه يبكى على المؤمن مواضع صـلاته و مصاعد عمله وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ أى: ممهلين إلى وقت آخر بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم و شدّة عنادهم وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ أى خلصـناهم بإهلاك عـدوّهم ممـا كانوا فيه من الاسـتبعاد، و قتل الأبناء و اسـتحياء النساء و تكليفهم للأعمال الشاقـة، و قوله: مِنْ فِرْعَوْنَ بدل من العذاب إما على حذف مضاف، أى: من عذاب فرعون، و إما على المبالغة كأنه نفس العذاب

فأبدل منه، أو على أنه حال من العذاب تقديره صادرا من فرعون، و قرأ ابن عباس: «من فرعون» بفتح الميم على الاستفهام التحقيرى كما يقال لمن افتخر بحسبه أو نسبه: من أنت؟ ثم بين سبحانه حاله فقال: إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ أى: عاليا فى التكبر و التجبر من المسرفين فى الكفر باللّه و ارتكاب معاصيه كما فى قوله:

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ «٢» و لما بين سبحانه كيفية دفعه للضر عن بنى إسرائيل بين ما أكرمهم به فقال:

وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ أى: اختارهم اللّه على عالمى زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك، و ليس المراد أنه اختارهم على جميع العالمين بدليل قوله فى هذه الأمة كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ «٣» و قيل: على كل العالمين لكثرة الأنبياء فيهم، و محل على علم: النصب على الحال من فاعل اخترناهم، أى:

حال كون اختيارنا لهم على علم منا، و على العالمين متعلق باخترناهم وَ آتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ أى: معجزات موسى ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ أى: اختبار ظاهر، و امتحان واضح لننظر كيف يعملون. و قال قتادة: الآيات إنجاؤهم من الغرق، و فلق البحر لهم، و تظليل الغمام عليهم، و إنزال المنّ و السلوى لهم. و قال ابن زيد: الآيات هى الشرّ الذى كفهم عنه، و الخير الذى أمرهم به. و قال الحسن و قتادة: البلاء المبين: النعمة الظاهرة كما فى قوله: وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً «٤» و منه قول زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

---

(١). الأعراف: ١٣٧.

(٢). القصص: ۴.

(٣). آل عمران: ١١٠.

(۴). الأنفال: ١٧.

و الإشارة بقوله: إِنَّ هؤُلاءِ إلى كفار قريش، لأن الكلام فيهم، و قصة فرعون مسوقة للدلالة على استوائهم فى الإصرار على الكفر لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى أى: ما هى إلا موتتنا الأولى التى نموتها فى الدنيا و لا حياة بعدها و لا بعث، و هو معنى قوله: وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ أى: بمبعوثين، و ليس فى الكلام قصد إلى إثبات موتة أخرى، بل المراد ما العاقبة و نهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية، قال الرازى: المعنى: أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموتة الأولى، ثم أوردوا على من وعدهم بالبعث ما ظنوه دليلا، و هو حجة داحضة، فقالوا فَأْتُوا بِآبائِنا أى: ارجعوهم بعد موتهم إلى الدنيا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فيما تقولونه و تخبرونا به من البعث. ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ أى: أهم خير فى القوّة و المنعة: أم قوم تبع الحميرى الذى دار فى الدنيا بجيوشه، و غلب أهلها و قهرهم، و فيه وعيد شديد. و قيل: المراد بقوم تبع جميع أتباعه لا واحد بعينه. و قال الفراء: الخطاب فى قوله: فَأْتُوا بِآبائِنا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وحده كقوله: رَبِّ ارْجِعُونِ «١» و الأولى أنه خطاب له و لأتباعه من المسلمين وَ المراد ب الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ عاد، و ثمود، و نحوهم، و قوله: أَهْلَكْناهُمْ جملة مستأنفة لبيان حالهم و عاقبة أمرهم، و جملة: إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ تعليل لإهلاكهم، و المعنى: أن اللّه سبحانه قد أهلك هؤلاء بسبب كونهم مجرمين، فإهلاكه لمن هو دونهم بسبب كونه مجرما مع ضعفه و قصور قدرته بالأولى.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لَقَدْ فَتَنَّا قال: ابتلينا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ قال: هو موسى أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ أرسلوا معى بنى إسرائيل وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ قال: لا تعثوا إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ قال: بعذر مبين وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ قال: بالحجارة وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ أى خلوا سبيلى. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم،

و ابن مردويه عنه فى قوله: أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ قال: يقول اتبعونى إلى ما أدعوكم إليه من الحق، و فى قوله: وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ قال: لا تفتروا و فى قوله: أَنْ تَرْجُمُونِ قال: تشتمون.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: رَهْواً قال: سمتا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا رَهْواً قال: كهيئته و امض. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه أيضا أنه سأل كعبا عن قوله: وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً قال: طريقا. و أخرج ابن جرير، عن ابن عباس أيضا قال: الرّهو أن يترک كما كان. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ مَقامٍ كَرِيمٍ قال: المنابر. و أخرج ابن مردويه عن جابر مثله. و أخرج الترمذى، و ابن أبى الدنيا، و أبو يعلى، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و الخطيب عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: ما من عبد إلا و له بابان: باب يصعد منه عمله، و باب ينزل منه رزقه، فإذا مات فقداه و بكيا عليه، و تلا هذه الآية: فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ و ذكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملا صالحا تبكى عليهم و لم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم، و لا من عملهم كلام صالح فتفقدهم فتبكى عليهم. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى

---

(۱). المؤمنون: ۹۹.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۶۶۱

فى الشعب نحوه من قول ابن عباس. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: يقال الأرض تبكى على المؤمن أربعين صباحا.

و أخرج ابن أبى الدنيا، و ابن جرير عن شريح بن عبيد الحضرمى مرسلا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إن الإسلام بدأ غريبا و سيعود غريبا كما بدأ، ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن فى غربة غابت عنه فيها بواكيه، إلا بكت عليه السماء و الأرض». ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ ثم قال:

إنهما لا يبكيان على كافر». و أخرج ابن المبارك، و عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا، و ابن المنذر من طريق المسيب بن رافع عن علىّ بن أبى طالب قال: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض، و مصعد عمله من السماء، ثم تلا الآية. و أخرج ابن المبارك، و عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: إن الأرض لتبكى على ابن آدم أربعين صباحا ثم قرأ الآية. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «لا تسبوا تبعا فإنه قد أسلم». و أخرجه أحمد و الطبرانى و ابن ماجة و ابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فذكر مثله، و روى نحو هذا عن غيرهما من الصحابة و التابعين.

[سورة الدخان (۴۴): الآيات ۳۸ الى ۵۹]

وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (۳۸) ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۳۹) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴۰) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۱) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۴۲)

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (۴۳) طَعامُ الْأَثِيمِ (۴۴) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (۴۵) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (۴۶) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (۴۷) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (۴۸) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (۴۹) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (۵۰) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (۵۱) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۲)

يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (۵۳) كَذلِكَ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (۵۴) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (۵۵) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولى وَ وَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (۵۶) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۵۷)

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۵۸) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (۵۹)

قوله: وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما أى: بين جنسى السماء و الأرض لاعِبِينَ أى: لغير غرض صحيح. قال مقاتل: لم نخلقهما عابثين لغير شىء. و قال الكلبى: لاهين، و قيل: غافلين.

قرأ الجمهور وَ ما بَيْنَهُما و قرأ عمرو بن عبيد «و ما بينهنّ» لأن السموات و الأرض جمع، و انتصاب لاعبين على الحال ما خَلَقْناهُما أى: و ما بينهما إِلَّا بِالْحَقِ أى: إلا بالأمر الحق، و الاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال. و قال الكلبى: إلا للحق، و كذا قال الحسن، و قيل: إلا لإقامة الحق و إظهاره وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن الأمر كذلك و هم المشركون إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ أى: إن يوم القيامة الذى يفصل فيه الحق عن الباطل ميقاتهم، أى: الوقت المجعول لتمييز المحسن من المسىء و المحق من المبطل، أجمعين لا يخرج عنهم أحد من ذلك. و قد اتفق القراء على رفع ميقاتهم على أنه خبر إن، و اسمها: يوم الفصل.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۶۲

و أجاز الكسائى و الفراء نصبه على أنه اسمها، و يوم الفصل: خبرها. ثم وصف سبحانه ذلك اليوم فقال:

يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً يوم بدل من يوم الفصل، أو منتصب بفعل مضمر يدل عليه الفصل، أى: يفصل بينهم يوم لا يغنى، و لا يجوز أن يكون معمولا للفصل لأنه قد وقع الفصل بينهما بأجنبى، و المعنى:

أنه لا ينفع فى ذلك اليوم قريب قريبا، و لا يدفع عنه شيئا، و يطلق المولى على الولى، و هو القريب و الناصر وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ الضمير راجع إلى المولى باعتبار المعنى. لأنه نكرة فى سياق النفى و هى من صيغ العموم، أى: و لا هم يمنعون من عذاب اللّه إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ قال الكسائى: الاستثناء منقطع، أى: لكن من رحم اللّه، و كذا قال الفراء. و قيل: هو متصل، و المعنى: لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنهم يؤذن لهم فى الشفاعة فيشفعون، و يجوز أن يكون مرفوعا على البدل من مولى الأوّل، أو من الضمير فى ينصرون إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى: الغالب الذى لا ينصر من أراد عذابه الرحيم لعباده المؤمنين. ثم لما وصف اليوم ذكر بعده وعيد الكفار، فقال: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ شجرة الزقوم هى الشجرة التى خلقها اللّه فى جهنم و سماها الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، و قد مضى الكلام على شجرة الزقوم فى سورة الصافات، و الأثيم: الكثير الإثم. قال فى الصحاح: أثم الرجل بالكسر إثما و مأثما:

إذا وقع فى الإثم فهو آثم و أثيم و أثوم، فمعنى طعام الأثيم: ذى الإثم كَالْمُهْلِ و هو درديّ الزيت و عكر القطران. و قيل: هو النحاس المذاب. و قيل: كلّ ما يذوب فى النار يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ قرأ الجمهور تغلى بالفوقية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الشجرة، و الجملة: خبر ثان، أو: حال، أو: خبر مبتدأ محذوف، أى: تغلى غليا مثل غلى الحميم، و هو الماء الشديد الحرارة. و قرأ ابن كثير، و حفص، و ابن محيصن، و ورش عن يعقوب يَغْلِي بالتحتية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الطعام، و هو فى معنى الشجرة، و لا يصح أن يكون الضمير عائدا إلى المهل لأنه مشبه به، و إنما يغلى ما يشبه بالمهل، و قوله: كَغَلْيِ الْحَمِيمِ صفة مصدر محذوف، أى: غليا كغلى الحميم خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ أى: يقال للملائكة الذين هم خزنة النار خذوه: أى الأثيم فاعتلوه، العتل: القود بالعنف، يقال عتله يعتله، إذا جرّه و ذهب به إلى مكروه، و قيل العتل: أن يأخذ بتلابيب الرجل و مجامعة فيجره، و منه قول الشاعر يصف فرسا:

نفرعه فرعا و لسنا نعتله و منه قول الفرزدق يهجو جريرا:

حتّى تردّ إلى عطيّة تعتل «۱» قرأ الجمهور فَاعْتِلُوهُ بكسر التاء. و قرأ نافع، و ابن كثير، و ابن عامر بضمها، و هما لغتان إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ أى: إلى وسطه، كقوله: فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ «۲» ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ

(۱). و صدر البیت کما فی الدیوان (۲/ ۱۶۰): لیس الکرام بناحلیک أباهم. و معنی «تعتل»: تقاد قسرا.
(۲). الصافات: ۵۵.

من هی التبعیضیة، أی: صبوا فوق رأسه بعض هذا النوع، و إضافة العذاب إلی الحمیم للبیان، أی: عذاب هو الحمیم، و هو الماء الشدید الحرارة کما تقدّم ذُقْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْکَرِیمُ أی: و قولوا له تهکما و تقریعا و توبیخا: ذق العذاب إنک أنت العزیز الکریم. و قیل إن أبا جهل کان یزعم أنه أعزّ أهل الوادی و أکرمهم، فیقولون له: ذق العذاب أیها المتعزّز المتکرم فی زعمک، و فیما کنت تقوله. قرأ الجمهور إِنَّکَ بکسر الهمزة، و قرأ الکسائی و روی ذلک عن علیّ بفتحها، أی: لأنک. قال الفراء: أی بهذا القول الذی قلته فی الدنیا، و الإشارة بقوله: إِنَّ هذا إلی العذاب ما کُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ أی:
تشکون فیه حین کنتم فی الدنیا، و الجمع باعتبار جنس الأثیم. ثم ذکر سبحانه مستقرّ المتقین فقال: إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی مَقامٍ أَمِینٍ أی: الذین اتقوا الکفر و المعاصی. قرأ الجمهور مَقامٍ بفتح المیم، و قرأ نافع و ابن عامر بضمها. فعلی القراءة الأولی هو موضع القیام، و علی القراءة الثانیة هو موضع الإقامة قاله الکسائی و غیره. و قال الجوهری: قد یکون کل واحد منهما بمعنی الإقامة؛ و قد یکون بمعنی موضع القیام. ثم وصف المقام بأنه أمین یأمن صاحبه من جمیع المخاوف فِی جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ بدل من مقام أمین، أو: بیان له، أو: خبر ثان یَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ خبر ثان، أو ثالث أو حال من الضمیر المستکنّ فی الجار و المجرور، و السندس ما رقّ من الدیباج، و الإستبرق ما غلظ منه، و قد تقدّم بیانه فی سورة الکهف، و انتصاب مُتَقابِلِینَ علی الحال من فاعل یلبسون، أی: متقابلین فی مجالسهم ینظر بعضهم إلی بعض، و الکاف فی قوله: کَذلِکَ إما نعت مصدر محذوف، أی: نفعل بالمتقین فعلا- کذلک. أو: مرفوع علی أنه خبر لمبتدأ محذوف، أی: الأمر کذلک وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِینٍ أی: أکرمناهم بأن زوّجناهم بحور عین، و الحور جمع حوراء: و هی البیضاء، و العین جمع عیناء: و هی الواسعة العینین. و قال مجاهد: إنما سمیت الحوراء حوراء، لأنه یحار الطرف فی حسنها، و قیل: هو من حور العین: و هو شدّة بیاض العین فی شدّة سوادها کذا قال أبو عبیدة. و قال الأصمعی: ما أدری ما الحور فی العین. قال أبو عمرو: الحور أن تسودّ العین کلها مثل أعین الظباء و البقر، قال: و لیس فی بنی آدم حور، و إنما قیل للنساء حور، لأنهنّ شبهن بالظباء و البقر.
و قیل: و المراد بقوله: زَوَّجْناهُمْ قرناهم و لیس من عقد التزویج، لأنه لا یقال زوّجته بامرأة. و قال أبو عبیدة: و جعلناهم أزواجا لهن کما یزوّج البعل بالبعل، أی: جعلناهم اثنین اثنین، و کذا قال الأخفش یَدْعُونَ فِیها بِکُلِّ فاکِهَةٍ آمِنِینَ أی یأمرون بإحضار ما یشتهون من الفواکه حال کونهم آمنین من التخم و الأسقام و الآلام. قال قتادة: آمنین من الموت و الوصب و الشیطان، و قیل: من انقطاع ما هم فیه من النعیم لا یَذُوقُونَ فِیهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولی أی: لا یموتون فیها أبدا إلا الموتة التی ذاقوها فی الدنیا، و الاستثناء منقطع: أی لکن الموتة التی قد ذاقوها فی الدنیا کذا قال الزّجاج و الفراء و غیرهما، و مثل هذه الآیة قوله: وَ لا تَنْکِحُوا ما نَکَحَ آباؤُکُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ «۱» و قیل: إن إلا بمعنی بعد، کقولک:
ما کلمت رجلا الیوم إلا رجلا عندک، أی: بعد رجل عندک، و قیل: هی بمعنی سوی، أی: سوی الموتة

---

(۱). النساء: ۲۲.

الأولی. و قال ابن قتیبة: إنما استثنی الموتة الأولی و هی فی الدنیا، لأن السعداء حین یموتون یصیرون بلطف اللّه و قدرته إلی أسباب من الجنة یلقون الروح و الریحان، و یرون منازلهم من الجنة، و تفتح لهم أبوابها، فإذا ماتوا فی الدنیا فکأنهم ماتوا فی

الجنة لاتصالهم بأسبابها و مشاهدتهم إياها، فيكون الاستثناء على هذا متصلا.

و اختار ابن جرير أن إلا بمعنى بعد، و اختار كونها بمعنى سوى ابن عطية وَ وَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ

قرأ الجمهور وَقاهُمْ بالتخفيف، و قرأ أبو حيوة بالتشديد على المبالغة فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ أى لأجل الفضل منه، أو أعطاهم ذلك عطاء فضلا منه ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى: ذلك الذى تقدّم ذكره هو الفوز الذى لا فوز بعده المتناهى فى العظم. ثم لما بين سبحانه الدلائل و ذكر الوعد و الوعيد، قال: فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أى: إنما أنزلنا القرآن بلغتك كى يفهمه قومك، فيتذكروا و يعتبروا و يعملوا بما فيه، أو سهلناه بلغتك عليك و على من يقرؤه لعلهم يتذكرون فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ أى: فانتظر ما وعدناك من النصر عليهم و إهلاكهم على يدك فإنهم منتظرون ما ينزل بك من موت أو غيره، و قيل: انتظر أن يحكم اللّه بينك و بينهم، فإنهم منتظرون بك نوائب الدهر، و المعنى متقارب.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ يقول: لست بعزيز و لا كريم. و أخرج الأموى فى مغازيه عن عكرمة قال: «لقى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أبا جهل، فقال: إن اللّه أمرنى أن أقول لك أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى «١» قال: فنزع يده من يده و قال: ما تستطيع لى أنت و لا صاحبك من شيء، لقد علمت أنى أمنع أهل بطحاء، و أنا العزيز الكريم، فقتله اللّه يوم بدر و أذله و عيره بكلمته و أنزل: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ قال: المهل. و أخرج عنه أيضا ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ قال: هو أبو جهل بن هشام.

---

(١). القيامة: ٣٤ و ٣۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۶۵

فهرس الموضوعات

اشارة

الآيات الصفحة الآيات الصفحة

سورة النور

سورة الفرقان (٢۵)

سورة الشعراء (٢٦)

سورة النمل (٢٧)

سورة القصص (٢٨)

سورة العنكبوت (٢٩)

سورة الروم (٣٠)

سورة لقمان (٣١)

سورة السجدة (٣٢)

سورة الأحزاب (٣٣)

سورة سبأ (۳۴)

سورة فاطر (۳۵)

سورة یس (۳۶)

سورة الصافات (۳۷)

سورة ص (۳۸)

سورة الزمر (۳۹)

سورة غافر (۴۰)

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).
قالَ الإمامُ علیّ بنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخيص بحـار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).
مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثَّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابِذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ عليهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بِساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسة و طريقة لم ينطفِئ مِصباحُها، بل تتَبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.
مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ مِن خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...
الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی

المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدة؛ علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربِّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد"/ ما بینَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائی"/بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنَّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا

البيتِ (المُســمَّى بالقائميّـهٔ) و مع ذلک، يرجو مِن جانب ســماحهٔ بقيّـهٔ الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التمكن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.